

سيد المرسلين

_ صلى الله عليه وآله وسلم _

تأليف

الاستاذ المحقق الشيخ جعفر السبحاني الجزء الثاني

نشر

مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة _ ايران _

(2)

(3)

بسم الله الرحمن الرحيم

مُميّزات النهضة الالهية وخصائصها

خصيصة «الخلود» والعمق في شخصية رسول الاسلام

المصادر الاولى والأصيلة للكتابة عن سيرة النبي:

تشبّه نهضة «الأنبياء» الالهية التي قام بها رسلُ الله وسفراؤه لتخليص البشرية من براثن الأوهام، والخرافات، ولا نقاها من جور المستكبرين وظلم الظالمين أكثر شيء بأمواج البحر التي تبدأ بدوائر صغيرة محدودة، ولكنها كلما ابتعدت عن مركز الدائرة ازدادت اتساعاً واتساعاً، واشتدت قوتها أكثر فأكثر.

إن الانقلاب المعنوي العريض والتحوّل الروحي العظيم الذي وُضعت أسسه في أرض مكة على يدي رسول الإسلام العظيم أضاء بشعاعه ونوره الباهر في اليوم الأول غار حراء ثم منزل خديجة وبعض البيوت المتواضعة في مكة فقط، ولكنه اتسع نطاقه بمرور الزمان، حتّى عمّ في مدة ليست بالطويلة شرق الارض وغربها، ودوّى نداء التوحيد في منطقة واسعة جداً من العالم (ابتداء من

فرنسة وانتهاءً بجدار الصين وما وراءه).⁽¹⁾

إن مُوسسي هذا النوع من النهضات الدينية (2) يتمتعون - من حيث الاخلاق

والفضائل الإنسانية - بخصيصة الخلود واللانهاية فان الزمن يكشف باستمرار عن أبعاد أوسع و آفاق جديدة من شخصياتهم فهي تتسع كلما تقادم بها العهد تماماً كأموج البحر، وكأن الانبياء نسخة ثانية من الطبيعة، فكما أننا كلما أمعنا أكثر في الطبيعة ظهرت لنا منها حقائق اكثر، وانكشفت لنا رموز وأسرار جديدة لم نعهدها من قبل فهكذا شخصيات الانبياء والمرسلين، وسفراء الله إلى البشرية.

وتتجلى هذه الحقيقة أكثر - فأكثر كلما تعاطمت شخصية من تلك الشخصيات -.

وخلاصة القول أننا كلما أزددنا تعمقاً وامعناً فيهم. اكتشفنا أسراراً كثيرة، وحقائق جديدة عن حياتهم.

- [لقد كتبت هذه المقدمة وما بعده خلال تواجدي في الصين عام ١٤٠٨ وقد جننت اليها في مهمة استطلاعية وتبليغية إسلامية، وقد زرت في نفس الفترة التي كنت فيها مشتغلاً بكتابة هذه المقدمة المسجد الجامع في - بكين - العاصمة، والتقيت بامام ذلك المسجد الذي رُحِبَ بي وبمن كان معي أشد ترحيب، واتحفني بنسخة من ترجمة القرآن الكريم باللغة الصينية، وزرت خلال وجودي في ذلك المسجد قبر رجلين مسلمين من ايران أحدهما تاجر، والآخر عالم جاء إلى الصين في القرن السادس الهجري، ونشرا الإسلام في بكين وما حولها، وقد نصبت عند قبرهما لوحتان من المرمر نقش عليهما اسمهما، وخصوصياتهما بالاحرف العربية. وهناك تذكرت حديث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «اطلبوا العلم ولو بالصين.»

قلت في نفسي: لعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يقصد فيما يقصد في هذا الحديث دفع المسلمين إلى نشر مبادئ الإسلام في تلك البلاد العريضة التي تضم خمس سكان العالم.

وقد قام المسلمون الغبارى على دينهم، الحريصون على نشره وبثه بهذه المهمة فيما سبق وأدوا ما كان عليهم. فماذا فعلنا نحن؟ وهل ترى يجوز أن يجهل خمس سكان العالم دين الله، ولا ينعموا بخيراته؟! أم هل ترى يجوز في شريعة الانصاف أن يعاني ذلك الشعب الكبير من الاباطرة الطغاة في الماضي، ومن الانظمة والايدولوجيات الجائرة الملحدة في الحاضر، هذا والنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يحرص على هداية فرد واحد، والقرآن يقول: «من احياها فكأنما احيا الناس جميعاً»؟؟

هل خصصت نهضة الأنبياء الالهية برقعة صغيرة من الارض هي الجزيرة العربية، وما حولها؟ أم أنها رحمة للعالمين جميعاً؟ سؤال نظرته على ابناء الإسلام دعاة ورعايا، حكومات و شعوباً لعلهم يتفكرون؟ (جعفر الهادي).

-2- المقصود من الدين هو المنهاج الواسع الشامل الذي يتكفل سعادة البشرية في الحياتين الدنيا والأخرى وليس مجرد سلسلة من الطقوس الفارغة الخاوية كما هو الحال في المسيحية الحاضرة.

(4)

ويدل على كلامنا هذا تلك المؤلفات الكثيرة الوافرة التي كتبها علماء التاريخ وأصحاب السير، قديماً وحديثاً، حول رسول الإسلام العظيم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولكن مع ذلك كله كلما تقادم العهد به، وكلما اتسعت النظرات وازدادت عمقاً

(5)

اكتشف المحققون مزيداً من الآفاق، وجديداً من الابعاد في هذه الشخصية الإلهية.

ولقد كان تعاطي السيرة النبوية والحديث حولها في البداية منحصراً (أو بالاحرى مقتصرأ) على مشاهدات أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - و مسموعاتهم.

ومع ظهور جيل جديد يدعى بالتابعين بعد وفاة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - اتخذت الاحاديث والسنن الاسلاميّة، وتفاصيل الحياة النبويّة، وقصص غزواته وحروبه رونقاً جديداً، وأحسنّ الجيل الجديد برغبة شديدة في أخذ الاحاديث الإسلاميّة، والتعرف على الحوادث التي وقعت في عصر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وأيام حياته من مولده إلى وفاته.

وكلما ازدادت حالات الوفاة، في أوساط الصحابة والتابعين الذين كانوا يشكّلون المنبع الأوّل والمصدر الأصلي لهذا النوع من العلوم الإسلاميّة، اتسع الاهتمام بالسيرة وما شابهها وتعاضمت الرغبة فيها وتزايد عطش المسلمين إلى اخذ ومعرفة الأحاديث التي تتضمن بيان خصوصيات حياة رسول الاسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وجزئيات سيرته الطاهرة. هذا من جانب.

ومن جانب آخر كان تشدّد الخليفة الثاني⁽¹⁾، ومنعه عن كتابة أحاديث النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد أوجب أن يندثر كثير من الأحاديث الإسلاميّة، التي سمعها بعض أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتدفن تحت التراب بموتهم.

ولقد استمر منع الخليفة عن كتابة الحديث النبوي وبقي ساري المفعول لمدة طويلة بعد وفاته⁽²⁾، حتّى أتى إلى الحكم خليفة معتدل السيرة من الأمويين هو: «عمر بن عبدالعزيز» فأمر - في رسالة وجّهها إلى أبي بكر بن حزم حاكم المدينة

- [تقييد العلم: ص ٤٨ - ٥٣ .
2- لم يترك نهى الخليفة أي أثر على علماء الشيعة الذين كانوا يتبعون علياً - عليه السلام - ، فقد عمدوا في فترة محدودة إلى تدوين وضبط الأحاديث، وحفظوا كنوزاً عظيمة من علوم اهل البيت النبوي، للتوسع في هذا المجال راجع كتاب «تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام.»

(6)

وقاضيتها - بكتابة أحاديث النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خوفاً من اندراس العلم وزواله.⁽¹⁾

أنمة السيرة:

ومن حسن الحظ أن الخليفة الثاني لم يمنع إلا من تدوين وكتابة الأحاديث النبويّة، فلم يشمل هذا المنع كتابة الحوادث والوقائع التي وقعت في عصر الرسالة.

ولهذا أُلّفت في تلك الفترة كتبٌ كثيرة عن حياة رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وأوّل من كتب حول وقائع عصر الرسالة، وأرخ حوادث الصدر الأوّل من الإسلام هو: «عروة بن الزبير بن العوّام» الصحابي المعروف الذي توفي عام ٩٢ أو

ثم عمد بعده جماعة في المدينة وآخرون في البصرة إلى جمع وتدوين تفاصيل السيرة، وحروب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وغزواته، وبيان هذا الأمر على نحو التفصيل خارج عن نطاق هذه الدراسة.

ولقد كانت هذه الكتب والمؤلفات هي المنبع والاساس للكتب التي دَوّنت فيما بعد في صورة كتب السيرة النبوية، أو تاريخ الإسلام

وقد بدأ تدوين سيرة النبي الأكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بشكل جميل وبصورة بديعة منذ أوائل المنتصف الثاني من القرن الثاني الإسلامي، وكان من بين من قام بجهد مشرف ومشكور في هذا المجال العالمُ الشيعيُّ الكبير محمد بن اسحاق المتوفى عام ١٥١ هـ فهو أول من استخراج تفاصيل الوقائع الإسلامية من كتب الماضين، ومن

1- ارشاد الساري في شرح صحيح البخاري: ١ / ١٩٥ و ١٩٦.
2- تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص ٢٣٣.
اختلقت الأقوال في من هو أول من صنف في علم المغازي والسير في الإسلام.
فقال السيوطي في كتاب الأوليات بأنه عروة بن الزبير.
وقال الأفندي في كشف الظنون أنه محمد بن اسحاق.
والحق انه لا الأول ولا الثاني بل عبيد الله بن أبي رافع فانه تقدمهما في التصنيف في السير والمغازي.

(7)

ثنائيا رواياتهم ومنقولاتهم وألفها واخرج شيئاً جامعاً حول السيرة النبوية إلى عالم الكتب والمؤلفات.
كما أن أول من ضبط ودَوّن غزوات رسول الإسلام بشكل مفصل هو الواقدي صاحب «المغازي» و «فتوح الشام» المتوفى عام ٢٠٧ هـ.^(١)

وقد لُحِصت سيرة ابن اسحاق على يد ابن هشام أبي محمد عبد الملك المتوفى عام ٢١٨ هـ وعرفت فيما بعد بسيرة ابن هشام (أو السيرة الهشامية) وهو الآن معدود من مصادر التاريخ الإسلامي و سيرة النبي الأكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الموثقة.
ولو أننا تجاوزنا هذه الشخصيات لكان لشخصيتين أخريين سهمٌ كبيرٌ في تدوين وتسجيل تاريخ حياة رسول الإسلام وهما:

1- محمد بن سعد الكاتب الواقدي المتوفى عام ٢٣٠ هـ مؤلف «الطبقات الكبرى» الذي أورد فيه سيرة النبي الأكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه على نحو التفصيل.

وقد طبع هذا الكتاب في لندن مؤخراً، كما أعيد طبعه في لبنان في ٩ مجلدات.

2- محمد بن جرير الطبري المتوفى عام ٣١٠ هـ مؤلف كتاب «تاريخ الامم والملوك.»

على أن تثمين جهود هذه الثلة من الكتاب والمؤلفين لا يعني بالضرورة أن كل ما أدرجه في مؤلفاتهم هو الثابت الصحيح، بل تحتاج مؤلفاتهم - كغيرها من المؤلفات، والكتب - إلى التحقيق الواسع والتمحيص الدقيق.

ثم ان حركة التأليف حول شخصية رسول الاسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

[1- عدّه الشيخ الطوسي في رجاله ابن اسحاق من تلامذة الامام جعفر الصادق - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وتوجد نسخة خطية من سيرته في مكتبة مدرسة الشهيد المطهري بطهران حسب ما كتب صاحب الذريعة في ج ١٢ ، ص ٢٨١ فيها.

(8)

وسيرته استمرت بعد ذلك طيلة القرون الإسلامية اللاحقة. ونحن اليوم أمام مكتبة زاخرة من الكتب، والدراسات، المختلفة في أحجامها ومستوياتها، والمتنوعة في طرائقها وأساليبها، التي ألقت حول رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهذا إنما يدل على خصيصة العمق واللانهاية التي اتسمت بها شخصية النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الخالدة العظيمة.

وقد أراد صاحب هذه الدراسة أن يقدم للجيل الحاضر شرحاً ناطقاً عن حياة رسول الإسلام العظيم، في حدود ما تسمح به إمكانياته المحدودة، ولم يأل جهداً - لتحقيق هذا الهدف على وجه أفضل - في مراجعة كتب الفريقين المعتمدة، وان اكتفى بذكر عدد قليل من المصادر عند التأليف، وقد بيّنا عذرنا من هذا في الجزء الأول من هذه الدراسة.

ولقد تناول الجزء الأول من هذا الكتاب حوادث مكة من بدء نشأتها إلى نهاية السنوات الثلاث عشرة الأولى من عصر الرسالة أي ما قبل الهجرة، وها هو الجزء الثاني وهو يتناول حوادث العشر سنوات للهجرة الشريفة، ومن الله التوفيق.

جعفر السبحاني

قم المقدّسة - الحوزة العلمية

21 شعبان ١٣٩٢ هـ

(9)

حوادث السنة الأولى من الهجرة⁽¹⁾

٢٦

أول عمل ايجابي للنبي في المدينة

عقد ميثاق تعايش بين المسلمين وغيرهم:

حملت وجوه فتية الانصار المستبشرة، المبتهجة، بمقدم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والاستقبال العظيم الذي قام به أغلبية الأوسيين والخزرجيين له حملته - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، على أن يعمد قبل أي شيء إلى تأسيس مركز عام لتجمع المسلمين فيه في الأوقات المختلفة، وللقيام بالاعمال التربوية والتنقيفية، والسياسية والعسكرية في رحابه.

كما أن عبادة الله الواحد تقع في طبيعة البرامج التي جاء بها رسول الإسلام ولذا رأى من اللازم أن يعمد قبل أي عمل آخر إلى بناء مسجد للمسلمين حتى يتسنى لهم أن يعبدوا الله ويذكروه فيه في أوقات الصلوات.

أجل كانت الحاجة إلى مثل هذا المركز شديدة فلا بد من مكان ليجتمع اعضاء حزب الإسلام (حزب الله) كل أسبوع في يوم معين فيه، ويتشاوروا في

- [لا بد أنك أيها القارئ الكريم تتذكر جيداً أننا قصدنا من السنة الأولى للهجرة الأشهر العشرة المتبقية التي قضى رسول الله شهرين منها في مكة وحط في الباقي من شهرها الثالث (أي ربيع الأول) على أرض يثرب، بناء على هذا تكون السنة الأولى من الهجرة تسعة أشهر فقط، وتبدأ السنة الهجرية الثانية من شهر محرم الحرام (وليس من الثاني عشر من ربيع الأول).

(10)

شؤون الإسلام والمسلمين ومصالحهم، وليجتمع فيه عامة المسلمين مضافاً إلى هذا اللقاء الأسبوعي مرتين كل عام لأداء صلاة العيد، فكان المسجد الذي بناه كأول عمل قام به بعد قدومه المدينة.

فلم يكن المسجد على عهد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - للعبادة فقط بل كانت تلقى فيه كل أنواع العلوم والمعارف الإسلامية الشاملة للأمور التربوية وغيرها.

لقد كان يعلم فيه كل التعاليم والمواد الدينية والعلمية، حتى الأمور المرتبطة بالقراءة والكتابة.

وقد بقيت أغلب المساجد على هذا المنوال حتى مطلع القرن الرابع الهجري الإسلامي، فقد كانت في غير أوقات الصلاة تتحول إلى مراكز لتدريس العلوم المتنوعة.⁽¹⁾

وربما اتخذ مسجد المدينة صورة المركز الأدبي، عندما كان يلقي فيه كبار فضحاء العرب وبلغاؤهم قصائدهم المنسجمة مع التعاليم الاخلاقية والمعايير الإسلامية بين يدي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كما فعل «كعب بن زهير» إذ ألقى قصيدته المعروفة بـ «البردة» عند النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المسجد، وأعطاه النبي الكريم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - صلاة جيدة، وخلع عليه بخلعة عظيمة.⁽²⁾

أو كما كان يفعل «حسان بن ثابت» الذي كان يدافع بشيعة عن حوزة الإسلام والمسلمين إذ كان يلقي بعض قصائده في المسجد عند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

[1]راجع صحيح البخاري: ج ١ كتاب العلم، بل حتى عند فصل المراكز العلمية عن المساجد في ما بعد، بقيت المدارس تبنى وتشيّد إلى جانب المساجد فكان هذا العمل يجسد الصلة الوثيقة بين العلم بالدين.
2-السيرة النبوية: ٢ / ٥٠٣ قال أنشد كعب بن زهير رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المسجد: بانت سعاد.

(11)

ولقد كانت مجالس الدرس والتعليم في مسجد المدينة على عهد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تتسم بروعة كبيرة بحيث عندما شاهد وفد ثقيف مشهداً من مشاهدها انبهروا به، وعجبوا بشدة لاهتمام المسلمين بتعلم الاحكام واكتساب المعارف والعلوم. (1)

كما انه كانت تمارس الامور القضائية والفصل بين الخصومات، واصدار الحكم على المجرمين في المسجد، فكان المسجد يومذاك بمنزلة محكمة (بكل معنى الكلمة) أي أنها تقوم بكل ما تقوم به المحاكم اليوم.

هذا مضافاً إلى أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يلقي خطبه الحماسية والجهادية لتعبئة المسلمين من أجل مجاهدة الكفار والمشركين في المسجد.

ولعل من حكمة الاجتماع في المسجد لاجل تحصيل المعارف وتعلم العلوم هو أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أراد بذلك أن يثبت عملياً أن العلم والدين توأمان لا ينفكان فكلما كان هناك مركز للايمان وجب ان يكون محلاً للعلم أيضاً.

وأما ممارسة القضاء والقيام بالخدمات الاجتماعية، واتخاذ القرارات العسكرية في المسجد فقد كان لأجل أن يعلن للجميع بأن دينه ليس مجرد أمر معنوي لا يتصل بالأمور الدنيوية ولا تهتم قضايا الحياة وشؤون المعيشة المادية، بل هو دين شامل كامل لا يحض الناس على التقوى، ولا يدعوهم إلى الايمان إلا ويهتم أيضاً بشؤونهم المعيشية وإصلاح أوضاعهم الاجتماعية. فليس هو بالتالي يهتم بجانب ويُغفل جانباً، بل هو دين شامل جامع يتكفل بالأمور المادية والمعنوية معاً.

ولقد كان هذا التلاقي والانسجام (بين العلم والإيمان) محط إهتمام المسلمين ونصب أعينهم دائماً حتى بعدما اتخذت المراكز التعليمية والمؤسسات العلمية البحتة شكلاً مستقلاً وصار لها محل خاص تدرس فيه، فانهم ظلوا يبنون

[1]تاريخ الخميس: ٢ / ١٣٦.

(12)

الجامعات إلى جانب الجوامع ويشيّدون المعاهد إلى جانب المساجد ليثبتوا للعالم أن هذين الأمرين اللذين يكفلان إسعاد الحياة والإنسان لا يمكن أن ينفصلا، ويتعد بعضها عن بعض.

مع عمار بن ياسر في بناء المسجد النبوي:

لقد ابتاع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الأرض التي بركت فيها ناقته يوم قدمه المدينة، من أصحابها بعشرة دنانير لإقامة مسجد فيها. واشترك كافة المسلمين في تهيئة موادّه الانشائية وبناءه، وعمل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نفسه في تشييده أيضاً. فكان - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ينقل معهم اللبن، والحجارة، وبينما هو - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ذات مرة ينقل حجراً على بطنه استقبله «أسيّد بن حضير» فقال: يا رسول الله إعطني أحمله عنك.

قال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : لا، إذهب فأحمل غيره⁽¹⁾.

وبهذا الأسلوب العملي كشف رسول الإسلام العظيم عن جانب من برنامج الرفيع، إذ بيّن بعمله أنه رجل عمل وليس رجل قول، رجل فعل وليس رجل كلام، وكان لهذا أثره الفعّال في نفوس أتباعه.

فقد أنشد أحد المسلمين بهذه المناسبة بقول:

لَئِن قَدَدْنَا وَالنَّبِيَّ يَعْمَلُ * فَذَاكَ مِنَّا الْعَمَلُ الْمُضْتَلُّ⁽²⁾

وكان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يردّد وهو يبني ويعمل: لا عيش إلاّ عيش الآخرة، اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة.

وقد كان «عثمان بن عفان» ممن يهتمّ بنظافة ثيابه، ويحرص على أن يمنع عنها الغبار والتراب، فلم يعمل في بناء المسجد لهذا السبب، فاخذ عمار ينشد أبياتاً تعلّمها من أمير المؤمنين عليّ - عليه السّلام - ، وفيها تعريض بمن لا يعمل ويحرص على ثيابه أن لا تتسخ بالغبار:

1- بحار الأنوار: ١٩ / ١١٢ .

2- السيرة النبوية: ١ / ٤٩٦ .

وقد أغضب مفادُ هذه الابيات عثمان بن عفان، فقال لعمار مهتداً: قد سمعتُ ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية، واللَّه إني لأراني سأعرض هذه العصا لأنفك، أي أضربك بها، وفي يده عصا!!

فلما عرف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بكلام عثمان غضب وقال:

«ما لَهُمْ وَ لِعَمَارٍ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ، وَيَدْعُوهُ إِلَى النَّارِ.

إنَّ عماراً جلدُهُ ما بين عَيْنَيْ وَأَنْفِي.»⁽²⁾...

وكان «عمار» فتى الإسلام القوي، يحمل قدراً كبيراً من اللين والاحجار في بناء المسجد ولا يكتفي بحمل شيء قليل منها.

فكان البعض يستغل طيب قلبه واخلاصه فيثقله باللين والاحجار.

ويروى أن اصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جعل يحمل كل واحد لبنة لبنة وعمار يحمل لبنتين لبنتين لبنة عنه ولبنة عن

النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - محبة منه لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .⁽³⁾

وذات مرة رآه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقد حملوه ثلاث لبنات أو احجار ثقيلة فشكا إليه عملهم وقال: يا رسول الله

قتلوني يحملون علي ما لا يحملون فرفض رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وفرته⁽⁴⁾ وكان رجلاً جعداً وهو يقول قولته

التاريخية:

«ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك، انما تقتلك الفئة الباغية.»⁽⁵⁾

1-السيرة النبوية: ١ / ٤٩٦، وتاريخ الخميس: ١ / ٣٤٥ والسيرة الحلبية: ٢ / ٧٦ ومع ان ابن اسحاق صرح باسم عثمان بن عفان ولكن ابن هشام الذي لخص سيرة ابن اسحاق امتنع عن تسمية عثمان. وقال صاحب المواهب اللدنية: المراد في هذه الابيات عثمان بن مظعون، راجع هامش سيرة ابن هشام أيضاً.

2-تاريخ الخميس: ١ / ٣٤٥.

3-السيرة الحلبية: ٢ / ٧١، البداية والنهاية: ٢ / ٢١٧.

4-اي شعر راسه.

5-المصدران السابقان.

وقد كان هذا الخبرُ الغيبي من الدلائل القوية على نبوة الرسول الكريم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وصدق دعواه، وصحة إخباراته،

فقد وقع ما أخبره كما أخبر، فقد قتل «عمار» وهو في التسعين من عمره في معركة صفين عندما كان يقاتل جيش الشام بين يدي

علي - عليه السلام - ، فقتله حزب معاوية، وقد أحدث هذا الخبر الغيبي أثراً عجبياً في حياة المسلمين فقد جعله المسلمون معياراً

لمعرفة الحق، أي كانوا يعرفون حقانية أي جهة من الجهات وأي طرف من الأطراف في الصراعات والنزاعات بانضمام عمار

إليه.

وعند ما قُتِلَ عَمَّارٌ فِي سَاحَةِ الْقِتَالِ بِصَفِينٍ، دَبَّ فِي أَهْلِ الشَّامِ اضْطِرَابٌ عَجِيبٌ.

فَالَّذِينَ كَانُوا فِي شَكٍّ فِي حَقَانِيَةِ «عَلِيٍّ» - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَمَوْقِفِهِ فِي هَذِهِ الْحَرْبِ بِفَعْلِ الدَّعَايَةِ الْمَضَادَّةِ الَّتِي كَانَ يَفْعَلُ بِهَا مَعَاوِيَةَ وَمُسَاعَدَةِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ ضِدَّ الْإِمَامِ قَدْ انْتَبَهُوا إِلَى خَطَائِهِمْ وَعَرَفُوا بِمَقْتَلِ «عَمَّارٍ» عَلَى أَيْدِي أَنْصَارِ مَعَاوِيَةَ بِأَنَّ عَلِيًّا عَلَى حَقٍّ وَأَنَّ مَعَاوِيَةَ وَجَمَاعَتَهُ هِيَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ الَّتِي أَخْبَرَ عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - .

وَمِنْ هَؤُلَاءِ «خَزِيمَةُ بْنُ ثَابِتٍ» الْأَنْصَارِيُّ الَّذِي خَرَجَ مَعَ الْإِمَامِ عَلِيٍّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِقِتَالِ مَعَاوِيَةَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مَتَرَدِّدًا فِي مَقَاتِلَتِهِ، بَيِّنٌ أَنَّهُ جَرَدَ سَيْفَهُ بَعْدَ مَقْتَلِ «عَمَّارٍ» عَلَى أَيْدِي أَهْلِ الشَّامِ، وَحَمَلَ عَلَيْهِمْ. (1)

وَمِنْهُمْ «ذُو الْكَلَّاحِ» الْحَمِيرِيُّ الَّذِي خَرَجَ عَلَى رَأْسِ عَشْرِينَ أَلْفٍ مَقَاتِلًا وَهُمْ تَمَامُ رِجَالِ قَبِيلَتِهِ، مَعَ مَعَاوِيَةَ لِمَحَارِبَةِ الْإِمَامِ عَلِيٍّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَكَانَ مَعَاوِيَةَ يَعْتمِدُ عَلَى نَصْرَتِهِ إِعْتِمَادًا كَبِيرًا، حَتَّى أَنَّهُ لَمْ يَقْدَمْ عَلَى اتِّخَاذِ قَرَارِ الْحَرْبِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَطْمَأَنَّ إِلَى تَأْيِيدِهِ لَهُ، وَمَشَارَكَتِهِ فِي قِتَالِ عَلِيٍّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

فَقَدْ صُوِّمَ الْقَائِدُ الْمَخْدُوعُ بِشِدَّةٍ عِنْدَمَا سَمِعَ بِوُجُودِ «عَمَّارٍ» فِي مَعْسَكَرِ الْإِمَامِ «عَلِيٍّ». »

[1-المستدرك على الصحيحين: ٣ / ٣٨٥ ووقعة صفين لابن مزاحم.

(15)

فَأَرَادَ رِجَالُ مَعَاوِيَةَ أَنْ يَمْوَهُوا الْأَمْرَ، وَيَشْوِشُوهُ عَلَيْهِ فَقَالُوا: مَا لِعَمَّارٍ وَلصَفِينِ؟ فَذَلِكَ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَمَا يَبَالِغُونَ مِنَ الْكُذْبِ. وَلَكِنْ ذَا الْكَلَّاحِ لَمْ يَقْتَنِعْ بِهَذَا فَقَالَ لِعَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - «: إِنْ عَمَّارًا تَقْتُلَهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ»؟

فَقَالَ عَمْرٍو: أَجَلٌ، وَلَكِنْ لَيْسَ عَمَّارٌ فِي رِجَالِ عَلِيٍّ.

فَقَالَ ذُو الْكَلَّاحِ: فَلَا يَدَّ أُذُنٌ أَنْ أَعْرِفَ ذَلِكَ بِنَفْسِي.

ثُمَّ أَمَرَ رِجَالًا بِأَنْ يَتَحَقَّقُوا مِنَ الْأَمْرِ. وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ الْحَسَّاسَةِ ادْرَكَ مَعَاوِيَةَ وَعَمْرٍو خَطُورَةَ الْمَوْقِفِ إِذْ لَوْ تَحَقَّقَ ذُو الْكَلَّاحِ مِنْ وُجُودِ عَمَّارٍ فِي مَعْسَكَرِ «عَلِيٍّ» أَوْ عَرَفَ بِمَقْتَلِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِذْنًا لِأَحْدِثَ ذَلِكَ شَرْخًا كَبِيرًا وَتَمَزَقًا فُضِيْعًا فِي جَيْشِ الشَّامِ، مِنْ هُنَا تَمَّتْ تَصْفِيَةُ ذُو الْكَلَّاحِ فَوْرًا إِذْ قُتِلَ بِصُورَةٍ غَامِضَةٍ. (1)

إِنْ اشتهار هذا الحديث لدى محدثي السنة والشيعة ليغنيانا عن استعراض مصادره، واسناده.

فقد روى الامام احمد بن حنبل أنه لما قُتِلَ عمار بن ياسر دخل عمرو بن حزم على عمرو بن العاص فقال قتل عمار وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : تقتله الفئة الباغية؟ فقام عمرو بن العاص فرجعاً يرجع (أي يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون) حتى دخل على معاوية، فقال معاوية: ما شأنك؟ قال: قُتِلَ عمار فقال معاوية: قد قُتِلَ عمار فماذا؟ قال عمرو: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: تقتله الفئة الباغية، فقال له معاوية: أو نحن قتلناه انما قتله على وأصحابه جاؤوا به حتى القوه بين رماحنا (وسيوفا). (2)

ولكن لا يخفى أن هذا التأويل الباطل الذي لجأ إليه ابن أبي سفيان لتهدئة جنود الشام، ليس مقبولاً عند الله تعالى قط، كما لا يقبل به أيُّ عاقل لبيب.

فإنَّ هذا هو الاجتهاد في مقابلة النص، وهو مما لا قيمة له أبداً، فان هذا

-1- وقعة صفين: ٣٧٧ و ٣٨٧.
-2- مسند الامام احمد بن حنبل: ٤ / ١٩٨.

(16)

النوع من الاجتهاد في مقابل الآيات والروايات الصريحة هو الذي سبب في أن يعتمد فريق من المجرمين والجناة إلى تبرير جرائمهم وفضائعهم بحجة «الاجتهاد»، وتحت غطاءه.

واليك نموذجاً من هذا الأمر:

ضُرُّ أَرَأَفٍ مِنَ الْوَالِدَةِ!!

لا يجد المرءُ عبارةً أفضلَ من هذه تعرّف حقيقةً مؤرخ القرن الثامن الهجري (ابن كثير الشامي مؤلف البداية والنهاية). فقد انبرى هذا الرجل إلى الدفاع عن معاوية في كتابه إذ قال: لا يلزم من تسمية أصحاب معاوية بغاة تكفيرهم، لأنهم وان كانوا بغاةً في نفس الأمر فانهم كانوا مجتهدين فيما تعاطوه من القتال وليس كل مجتهد مصيباً، بل المصيب له أجران، والمخطيء له أجر واحد (ثم يقول) وأما قوله: يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار فان عماراً وأصحابه يدعون أهل الشام إلى الالفة واجتماع الكلمة، وأهل الشام يريدون ان يستأثروا بالأمر دون من هو أحق به، وان يكون الناس أوزاعاً على كل قطر اماماً برأسه، وهذا يؤدي إلى افتراق الكلمة واختلاف الأمة فهو لازم مذهبهم وناشئ عن مسلكتهم وان كانوا لا يقصدونه. (1)!!

ونحن لم نجد اسماً يناسب هذا العمل إلا التحريف للحقائق.

فان مؤيدي الفئة الباغية مع كل ما أوتوا من قدرة على إخفاء الحقائق وطمسها لم يستطيعوا إنكار هذه الحقيقة، ولكن مؤرخاً مثل ابن كثير عمد - رغم ورود هذا الحكم الغيبي في شأن تلك الفئة - إلى تحريف بارد قد غفلت تلك الفئة هي ذاتها عنه!!

يقول أحمد بن حنبل: دخل رجلان على معاوية يختصمان في رأس عمّار يقول

- [البداية والنهاية: ٢ / ٢١٨ .

(17)

كل واحد منهما أنا قتلته، فقال عبدالله بن عمرو: ليطيب به أحدكما نفساً لصاحبه فاني سمعت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يقول: تقتله الفئة الباغية، قال معاوية: فما بالك معنا؟ قال: ان أبي شكاني إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقال: اطع أباك مادام حياً، ولا تعصه، فأنا معكم ولست أقاتل. (1)

إن اعتذار «عبدالله بن عمرو بن العاص» يشبه تأويل ابن كثير الشامي الذي يقول: إن معاوية قاتل «علياً» في صفتين إجتهداً وإيماناً، وإن أخطأ في اجتهداه، وذلك لأن إطاعة الوالد واجبة مالم تجر إلى مخالفة الشرع، فهذا هو القرآن الكريم يقول:

(وَ إِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا⁽²⁾)

كما ان الاجتهاد إنما يصح إذا لم يكن في المقام نصٌّ صريح، ورد عن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ولهذا كان اجتهاد معاوية وعمرو بن العاص وامثالهما باطلا مرفوضاً، لكونه في مقابل النصّ النبوي.

ولو أننا فتحنا باب الاجتهاد هكذا بدون أية ضوابط لكان جميع المشركين والمنافقين معذورين في معارضتهم، ومحاربتهم لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، كما لا بدّ - حينئذ - أن نقول: إن يزيد والحجاج وأشباههما كانوا معذورين في سفكهم لدماء الأئمة المعصومين، والصالحين من المسلمين، بل ومأجورين في عملهم هذا.

انتهى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمون من بناء المسجد، وظل يوسّع فيه كل عام شيئاً فشيئاً.

وقد بُني إلى جانب المسجد صفة ليسكن فيها الفقراء والمهاجرون المحرومون. وكأف «عبادة بن الصامت» بأن يعلمهم الكتابة، وقراءة القرآن.

التآخي؛ أو أعظم معطيات الايمان:

لقد فتح تمركز المسلمين في المدينة فصلا جديداً في حياة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فقد كان - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قبل دخوله المدينة لا يهمنه إلا جذب القلوب والدعوة إلى دينه، ولكنه اليوم عليه أن يعمل - كصاحب دولة محنك - على حفظ كيانه وكيان جماعته، ولا يسمح للأعداء الداخليين والخارجيين بالتسلل والنفوذ في صفوفهم، ولكنه كان يواجه في هذا السبيل ثلاث مشاكل كبرى:

1- خطر قريش وعامة الوثنيين في شبه الجزيرة العربية.

2- خطر يهود يثرب الذين كانوا يقطنون داخل أو خارج المدينة ويمتلكون ثروة كبيرة.

3-الاختلاف الذي كان بين أتباعه من المهاجرين وبين الأوس والخزرج.

وحيث إن المهاجرين والانصار قد نشأوا في بيئتين مختلفتين، لهذا كان من الطبيعي أن يختلفوا في طريقة المعاشرة، وآداب السلوك، واسلوب التفكير اختلافاً كبيراً.

هذا مضافاً إلى أن الأوس والخزرج الذين كانوا يشكّلون جماعة الأنصار كانوا هم يعانون من رواسب عداة قديم وبقايا ضغائن نشأت خلال حروب دموية طويلة استغرقت مائة وعشرين سنة بلا انقطاع.

ومع وجود مثل هذه التناقضات والأخطار المحتملة لم تكن مواصلة الحياة الدينية، والسياسية المستقرة أمراً ممكناً قط.

ولكن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تغلب على كل هذه المشكلات بطريقة حكيمة، غاية في الحنكة والابداع.

فبالنسبة إلى المشكلتين الأوليين فقد عالجهما بالقيام بأعمال سيأتي ذكرها في المستقبل.

وأما بالنسبة إلى مشكلة التناقضات بين فئات وأصناف جماعته فقد عالج

فقد أمر من جانب الله تعالى بأن يواخي بين المهاجرين والأنصار.

فجمعهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ذات يوم وقال لهم:

«تآخوا في الله أخوين أخوين.»

وقد ذكرت المصادر التاريخية الإسلامية، مثل «السيرة النبوية» لابن هشام⁽¹⁾ أسماء كلِّ متأخين من المهاجرين والأنصار.

وبهذا الأسلوب كرّس رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الوحدة السياسية والمعنوية بين المسلمين وقوى أسسها ودعائمها.

وقد سببت هذه الوحدة، وهذا التأخي الواسع في أن يقرّر حلاً للمشكلتين الأوليين بسرعة وسهولة.

منقبتان عظيمتان:

ولقد ذكر أكثر مؤرخي السنة والشيعية ومحدثيهم في هذا الموضوع منقبتين عظيمتين، نذكرهما نحن هنا أيضاً: لقد آخى رسول الله -

صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بين ثلاثمائة من أصحابه من المهاجرين والأنصار وهو يقول: يا فلان أنت أخ لفلان.

ولما فرغ من المواخاة، قال له علي - عليه السّلام - ، وهو يبكي:

«يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تواخ بيني وبين أحد؟»

فقال له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقد أخذ بيده:

«أنت أخي في الدنيا والآخرة.»⁽²⁾

وقد ذكر القندوزي الحنفي هذه القضية بنحو أكثر تفصيلاً إذ قال:

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لعلي:

«والذي بعثني بالحق نبياً ما أخرجك إلا لنفسي، فأنت مني بمنزلة هارون من

-[1] السيرة النبوية: ١ / ٥٠٤ - ٥٠٧.
-[2] المستدرک علی الصحیحین: ١٣ / ١٤.

غير ان ابن كثير شكك في صحة هذا الرواية⁽²⁾، وحيث ان هذا التشكيك نابع من نفسيته الخاصة، ولا يقلّ تفاهةً وبطلاناً من إعتذاره ودفاعه عن معاوية وزمرته الباغية عن قتل الصحابي العظيم عمار بن ياسر لهذا نرجح أن نصرف النظر عن النقاش فيه، ونترك القضاء والحكم عليه للقارىء المنصف، والمنتبع العدل.

منقبةٌ أخرى لعلّى - عليه السّلام - :

فرغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من بناء المسجد، وقد بُيِّت منازلُه ومنازل أصحابه حول المسجد، وكلّ شرع منه باباً إلى المسجد، وخطّ لحمزة خطأً فبنى منزله فيه، وشرع بابُه إلى المسجد وخطّ لعلّى بن أبي طالب مثل ما خط لهم فبنى منزله فيه وشرع بابُه إلى المسجد، فكانوا يخرجون من منازلهم فيدخلون المسجد من تلك الابواب.

وفجأة نزل جبرئيل على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال:

«يا محمّد إنّ الله يأمرُك أن تأمرَ كُلَّ من كان له بابٌ إلى المسجد أن يَسُدَّهُ ولا يكونَ لِأحدٍ بابٌ إلى المسجد إلاّ لك ولعلّى - عليه السّلام - .»

يقول ابن الجوزي: فأوجدَ هذا الامرُ ضجةً عند البعض، وظنُّوا أنّ هذا الاستثناء قدنشأ عن سبب عاطفي، فخطب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الناس وقال فيما قال:

«والله ما أنا أمرتُ بذلك، ولكنّ الله أمرَ بسدِّ أبوابكم وتترك بابَ عليّ.»⁽³⁾

وخلاصة القول أنّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قضى عن طريق المؤاخاة

1- ينابيع المودة: ٥٦، ونظيره في السيرة النبوية.

2- البداية والنهاية: ٢ / ٢٢٦.

3- تنذرة الخواص: ٤٦، بتصرف بسيط.

الاسلامية بين أصحابه من الأنصار والمهاجرين على الاختلافات القديمة التي كانت رواسبها باقية بين المسلمين إلى ذلك اليوم، وبذلك حل مشكلة من المشاكل الثلاث التي مرّ ذكرها.

معاهدة الدفاع المشترك بين المسلمين ويهود يثرب:

كانت المشكلة الثانية التي يواجهها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المدينة هي مشكلة يهود يثرب الذين كانوا يقطنون المدينة وخارجها وكانوا يمسون بأزمة التجارة والاقتصاد في تلك المنطقة.

لقد كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يدرك جيداً أنه مالم تصلح الأوضاع الداخلية في المدينة ومالم يضم إلى صفوفه يهود يثرب، وبالتالي مالم يقدّم وحدةً سياسيةً عريضةً في مركز حكومته، لم تنتهياً لشجرة الإسلام أن تنمو، ولن ينتهياً له - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يفكر في أمر الوثنيين والوثنية في شبه الجزيرة العربية ولا يستطيع معالجة المشكلة الثالثة أعني قريش خاصة .

والمشكلة واحدة مالم يستتبّ الأمن والاستقرار في مقر القيادة لن يمكن الدفاع ضدّ العدو الخارجي.

ولقد قام بين يهود المدينة والمسلمين في بداية هجرتهم إليها نوعٌ من التفاهم لأسباب خاصة، لأنّ كلا الجانبين كانا موحدّين يعبدان الله، ويرفضان الأوثان، وكان اليهود يتصوّرون أنهم يستطيعون - إذا اشتد ساعد المسلمين، وقويت شوكتهم - أن يأمنوا حملات المسيحيين الروم، هذا من جانب، ومن جانب كان بينهم وبين الأوس والخزرج علاقات عريقة وموثيق قديمة. من هنا حاول النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يكرّس هذا التفاهم، ويبلوره بعقد معاهدة تعايش، ودفاع مشترك بين الأنصار والمهاجرين وقّع عليها يهود المدينة أيضاً.⁽¹⁾

- [المقصود منهم يهود الأوس والخزرج، وأما يهود بني النضير، وبني قينقاع، وبني قريظة فقد عقد النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - معهم معاهدةً مستقلةً سنذكرها.]

(22)

وقد احترّم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في تلك المعاهدة دين اليهود وثروتهم في إطار شرائط معيّنة.

وقد أدرج كُتّاب السيرة والمؤرّخون النصّ الكامل لهذه المعاهدة في كتبهم.⁽¹⁾

ونظراً لأهميتها الخاصة، ولأنها تُعتبر مستنداً تاريخياً حياً، قوئ الدلالة، ولكونها تكشف عن مدى التزام رسول الإسلام العظيم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمبادئ الحرية والنظم والعدالة، ومبلغ مراعاته واحترامه لها في الحياة، ولأنها تكشف لنا كيف أنها أوجدت جبهةً متحدةً قويةً في وجه الحملات الخارجية نذكر هنا نقاطها الحساسة ونسجلها كواحد من أكبر الانتصارات السياسية التي أحرزتها الحكومة الإسلامية الناشئة في العالم ذلك اليوم.

أعظم معاهدة تاريخية:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتابٌ من محمد النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم.

«البند الأول»

1- إنهم أمةٌ واحدةٌ من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم (أي على الحال التي جاء الإسلام وهم عليها) يتعاطلون بينهم (أي يدفعون دية الدم) وهم يقدون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

2- وبنو عوف على ربعتهم يتعاطلون معاقلهم الأولى، كلُّ طائفةٍ تقدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وهكذا بنو ساعدة وبنو الحارث، وبنو جشم، وبنو النجار، وبنو عمرو بن عوف وبنو النبيت، وبنو الأوس كلُّ على ربعتهم

1- مثل السيرة النبوية: ١ / ٥٠١.

(23)

(والحال التي جاء الإسلام وهم عليها من حيث التعاون على الديات إلى أولياء المقتول، ودفع الفدية معاً لفك الأسير.)

3- وإنَّ المؤمنين لا يتركون مفرحاً (أي مثقلاً بالدين وكثير العيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل (أي دفع دية أو فداء أسير).

4- وإنَّ المؤمنين المتقين (يُدُّ واحدة) على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة (عظيمة) ظلم أو إثم أو عُنوان أو فساد بين المؤمنين، وأنَّ أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولدٌ احدهم.

5- وأن لا يحالف مؤمناً مولى (أي عبد) مؤمن دونه (أي دون إذنه).

6- وأن لا يقتل مؤمناً مؤمناً في كافر (أي قصاصاً لمقتل كافر على يدي ذلك المؤمن) ولا ينصر كافراً على مؤمن.

7- وإنَّ ذمة الله واحدة (تشمل جميع المسلمين بلا استثناء) يجيزُ عليهم أذناهم (فاذا أجاز عبداً مسلماً كافراً قُبِلت إجارته واحترمه أمانه).

8- وإنَّ المؤمنين بعضُهُم موالى بعضِ دون الناس.

9- وإنَّه من تبعنا من يهود فإنَّ له النصر والاسوة غيرَ مظلومين، ولا متناصرين عليهم.

10- وإنَّ سلم المؤمنين واحدةٌ لا يُسالَمُ مؤمنٌ دون مؤمنٍ في قتالٍ في سبيل الله إلا على سواءٍ وعدلٍ بينهم (فلا يجوز لأحد أن ينفرد بعقد معاهدة صلح مع أحد من غير المسلمين إلا بموافقة المسلمين).

11- وإنَّ كلَّ غزاية غزت معنا يعقَّب بعضها بعضاً (أي يتناوب المسلمون في المشاركة في الجهاد)، وإنَّ المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله (أي يراقق منهم الدم على السواء لا أن يتعرض للقتل بعض دون بعض).

12- وإنَّ المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

13- وأن لا يجيز مشرك (من مشركي المدينة) مالا لقريش، ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن (أي لا يمنعه من مؤمن).

(24)

14- وإنَّه من اعتبط مؤمناً (أي قتل من المؤمنين مؤمناً بلا جناية منه توجب قتله) قتلاً عن بيئته فإنه قودُّ به (أي يُقتل بقتله قصاصاً) إلا أن يرضى وليُّ المقتول.

وإنَّ المؤمنين عليه كافة، ولا يحلُّ لهم إلا قيامٌ عليه.

15- وإنه لا يحلُّ لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وأمن بالله واليوم الآخر، أن ينصرَ مُحدثاً (صاحب بدعة) ولا يؤويه وأنه من نصره، وأواه فعليهِ لعنةُ الله و غضبه يوم القيامة، ولا يُؤخذُ منه صرفٌ ولا عدلٌ.

16- وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردةً إلى الله عزَّوجلَّ و إلى محمَّد - صلَّى الله عليه وآله وسلم - .

«البند الثاني»

17- وإنَّ اليهودَ ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين (ودفاعاً عن المدينة).

18- وإنَّ يهود بني عوف أمةٌ من المؤمنين (وبنو عوف قبيلة من قبائل الأنصار) لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليتهم وأنفسهم، إلا من ظلم واثم، فإنه لا يوتغ (لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيته (والسبب في هذا هو أن أهل بيت الرجل يتبعونه ويؤيدونه في فعله غالباً وعادةً).

والمراد من هذا الاستثناء هو أن العلاقات والاتحاد يبقى قائماً بين تلك الطائفة من اليهود وبين المسلمين مادام لم يكن ثمة ظالمٍ ومعتد.

19- وإنَّ لليهود بني النجار، وبني الحارث وبني ساعدة، وبني جشم، وبني الأوس وبني ثعلبة، وبني الشطيبة مثل ما لليهود بني عوف، من الحقوق والامتيازات.

وإن جفنة بطن من ثعلبة (أي تلك القبيلة فرعٌ من هذه)، وإن لبني الشطيبة مثل ما لليهود بني عوف.

20- وإنَّ البرَّ دونَ الإثمِ (أي أن يغلب حسناتهم على سيئاتهم).

21- وإنَّ موالِيَ ثعلبة (أي المتحالفين معهم) كأنفسهم.

(25)

22- وإنَّ بطانةَ يهود (أي خاصتهم) كأنفسهم.

23- وأنه لا يخرج منهم أحدٌ (من هذه المعاهدة) إلا باذن محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - .

24- وإنَّه لا ينحجر على ثأر جرح (أي لا يضيع دمَّ حتَّى الجرح)، وان من فتك (بأحد) فينفسه فتك، وأهل بيته إلا من ظلم (أي إلا إذا كان المفتوك به ظالماً).

25- وإنَّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنَّ بينهم النصرَ على من حارب أهلَ هذه الصحيفة (أي أن على كل جماعة من المسلمين واليهود أن يقوم بنصيبه من نفقات الحرب).

26- وإنَّ بينهم النصحَ والنصيحة (أي أن تكون العلاقات على هذا الاساس) والبر دون الاثم.

27- وإنَّه لم يأتهم امرؤٌ بحليفه (أي لا يحقُّ لأحد أن يظلم حليفه) وأن النصرَ للمظلوم (لو فعل أحد ذلك).

28- وإنَّ يثرب حرامٌ جوفُها لأهل هذه الصحيفة (أي أن داخل المدينة حرمٌ ومأمَنٌ لجميع من وقَّع على هذه الصحيفة).

29- وإنَّ الجار (وهو من يدخل في أمان أحد) كالنفس غير مضارٍ ولا آثم، (فلا يجوز إلحاق ضرر به).

30- وإنَّه لا تجار حرمة إلا باذن أهلها.

31- وإنَّه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدثٍ أو اشتجار يُخافُ فسادهُ فإن مردَّةً إلى الله عزَّوجلَّ وإلى محمد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، وإنَّ الله على اتقى ما في هذه الصحيفة وأبره (أي أنه تعالى ناصر وولي لمن التزم بهذه المعاهدة).

32- وإنَّه لا تجارُ قريشٍ ولا من نصرها.

«البند الثالث»

33- وإنَّ بينهم (أي بين اليهود والمسلمين) النصر على من دهم يثرب

(فعلهم معاً أن يدافعوا عن المدينة ضد المعتدين.)

34- وإذا دُعوا (أي دعا المسلمون اليهود) إلى صلح بصالحوه، ويلبسونه، فانهم بصالحوه ويلبسونه.

وإنهم إذا دُعوا (أي إذا دعا اليهود المسلمين) إلى مثل ذلك (الصلح) فانه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.

فعلى اليهود أن يوافقوا على كل صلح يعقده المسلمون مع الأعداء وهكذا على المسلمين أن يقبلوا بكل صلح يعقده اليهود مع الأعداء إلا إذا كان ذلك العدو ممن يخالف الإسلام ويعاديه ويتأمر عليه.

35- وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة.

«البند الرابع»

36- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وأثم. (فلا يمكن لأحد أن يتسير وراءه ليتخلص من العقاب إذا ارتكب خطيئةً وجنايةً).

37- وإنه من خرج (من المدينة) آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم.

ثم حُيِّمت هذه المعاهدة بالعبارة التالية:

«وإن الله جار لمن بَرَّ واتقى، ومحمد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .⁽¹⁾»

إن هذه المعاهدة السياسية التاريخية التي أدرجنا هنا أهم مقاطعها تعدُّ نموذجاً كاملاً لرعاية الإسلام وحرصه على مبدأ حرية الفكر والاعتقاد، ومبدأ الرفاه الاجتماعي العام، وضرورة التعاون في الأمور العامة، بل وتوضِّح هذه المعاهدة - فوق كل ذلك - حدودَ صلاحيات واختيارات القائد، ومسؤولية كلِّ الموقعين عليها، وعلى أمثالها.

على أنه وإن لم يشترك يهودُ «بني قريظة» و «بني النضير» و «بني قينقاع»

[1- السيرة النبوية: ١ / ٥٠٣ و ٥٠٤، الاموال: ١٢٥ - ٢٠٢.

في إبرام هذه المعاهدة والتوقيع عليها، بل شارك فيها يهودُ الأوس والخزرج فقط، إلا أن تلك الطوائف اليهودية (الثلاث) قد وقعت فيما بعد مع قائد المسلمين وزعيمهم على معاهدات مماثلة أهم بنودها هي:

أن لا يُعينوا على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولا على أحد من أصحابه بلسان ولايد ولا بسلاح ولا بكراع (أي الخيل وغيرها من المراكب) في السر والعلانية لا بليل ولا بنهار، الله بذلك عليهم شهيد، فإن فعلوا فرسول الله في حلٍّ من سفك دماهم، وسي ذراريهم، ونسائهم، وأخذ أموالهم.

وقد كتب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لكلِّ قبيلة منهم كتاباً على حدة على هذا الغرار، ثم وقع عليها «حيي بن أخطب» عن قبيلة بني النضير، و «كعب بن أسد» عن بني قريظة، و «المخبريق» عن قبيلة بني قينقاع. (1)

وبهذا ساد الأمن يثرب وضواحيها بعد أن اعتبرت المنطقة حرماً آمناً.

والآن جاء دور أن يعالج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المشكلة الأولى، يعني قريش لأنه مادام هذا العدو يعرقل حركة الدعوة، ويقف سداً أمام تبليغ الإسلام فلن يُوفَّق لنشر هذا الدين وتطبيق أحكامه، وتعاليمه المباركة.

ممارسات اليهود الإجهاضية:

لقد تسببت تعاليم الإسلام الرفيعة وأخلاق الرسول العظيم في أن يتزايد عدد المنتمنين إلى الإسلام يوماً بعد يوم، وتزداد بذلك قوة الإسلام العسكرية والاقتصادية والسياسية.

وقد أحدث هذا التقدم المتزايد الباهر قلقاً وضجةً عجيبةً في الأوساط اليهودية الدينية، لأنهم كانوا يتصوّرون أنهم يستطيعون بدعمهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتقويته وتأييده جرّه إلى صفوفهم، ولم يكونوا يتصوّرون قط أن

- [بحار الأنوار: ١٩ / ١١٠ و ١١١. احتفظ في ذاكرتك أيها القاريء الكريم هذا القسم من المعاهدة الثانية لأن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عاقب اليهود بسبب نقضهم لهذه المعاهدة.

(28)

النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سيحصل بذاته على قوة تفوق قوة اليهود والنصارى، من هنا بدأوا بممارسة الأعمال الإجهاضية مثل طرح الاسئلة الدينية العويصة على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بغية زعزعة إيمان المسلمين بنبيهم، ولكن جميع هذه المخططات باءت بالفشل ولم تترك أي أثر في صفوف المسلمين المتراسة وإيمانهم العميق برسول الإسلام.

وقد جاءت بعض هذه المناظرات والمجادلات في سورة البقرة وسورة النساء.

ويستطيع القاريء العزيز - من خلال قراءة - آيات هاتين السورتين والتمعن فيهما أن يقف على مدى العناد واللجاج الذي كان يُبديه اليهود.

فمع أنهم كانوا يتلقون من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أجوبة واضحة لكل واحد من أسئلتهم كانوا يتهربون من الانضواء تحت راية الإسلام ويحجمون عن الاعتراف به، وكانوا يقولون في مقام الردّ على دعوة النبي إياهم إلى اعتناق الإسلام:

(قلوبنا غلف.)

أي لانفهم ما تقول. (1)!!!

اسلام عبدالله بن سلام:

هذه المناظرات والمجادلات وان كانت لا تزيد غالبية اليهود إلا تعنتاً و عناداً، ولكنها كانت تسبّب أحياناً يقظة البعض وإقبالهم على الإسلام مثل «عبدالله بن سلام.»

فقد أسلم ابن سلام الذي كان من علماء اليهود وأحبارهم، برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد سلسلة من المناظرات والمجادلات المطولة. (2)

ولم يمض وقتٌ كبيرٌ على اسلام ابن سلام إلا والتحق به عالمٌ آخر من علماء

1. للوقوف على نص هذه المناظرات راجع السيرة النبوية: 1/ 530 - 572، بحار الأنوار: 9 / 303 فما بعد.
2. للوقوف على نص هذه المناظرات راجع السيرة النبوية: 1/ 530 - 572، بحار الأنوار: 9 / 303 فما بعد.

اليهود هو «المخيري.»

وكان عبدالله بن سلام يعلم بأنه سيذمه قومه من اليهود إذا عرفوا باسلامه وترك دينهم، من هنا طلب من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يكتف عن الناس إسلامه، ريثما يحصل أولاً على اعتراف من قومه بعلمه وتقواه، وبمعرفة صلاحه قائلاً: «يا رسول الله إن يهود قومٌ بُهت، وأنا أحبُّ أن تُدخلني في بعض بيوتك، وتغيّبني عنهم ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني.»

فأدخله رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في بعض بيوته وأخفاه عن الانظار ثم قال لليهود الداخلين عليه:

«أرى رجل الحصين بن سلام فيكم؟»

قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا، فخرج عليهم «عبدُ الله بنُ سلام» من مخبأه وقال لهم: يا معشر يهود اتقوا الله واقتلوا ما جاءكم به، فالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فاني أشهد أنه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وأؤمن به وأصدقّه وأعرفه.

فغضب اليهود من مقالته، وقالوا له: كذبت ووقعوا فيه، وعبوه، وبهتوه. (1)

خطة أخرى للقضاء على الحكومة الإسلامية:

لم تضعف مجادلات اليهود واستلثهم العويصة عقيدة المسلمين وإيمانهم برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فحسب، بل تسببت في أن تتضح مكانته العلمية، وقيمة معارفه الغيبية للجميع أكثر من ذي قبل.

ففي ظل هذه المجادلات والمحاورات رغب جماعات كبيرة من الوثنيين واليهود في الإسلام فأمنوا برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وصدقوه.

من هنا دبّر اليهود مؤامرة أخرى وهي التذرع بأسلوب «فرق تسد»، لالقاء

- [السيرة النبوية: ١ / ٥١٦].

(30)

الفرقة في صفوف المسلمين.

فقد رأى دهاة اليهود وساستهم أن يستغلوا رواسب الاختلافات، ويؤججوا نيران العداوة القديم بين الأوس والخزرج الذي زال بفضل الإسلام وبفضل ما راساه من قواعد الأخوة والمساواة والمواصلة والمحبة، بعد أن كانت مشتتة طوال مائة وعشرين عاماً متواليه، ليستطيعوا بهذه الطريقة تمزيق صفوف المسلمين بإثارة الحروب الداخلية بينهم، والتي من شأنها ابتلاع الأخضر واليابس والقضاء على الجميع دونما استثناء.

ففيما كان نفرٌ من أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه إذ مرّ عليهم «شاس بن قيس» وهو يهودي شديد العداوة للإسلام، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، فعاظه ما رأى من ألفة الأوس والخزرج، واجتماعهم وتواددهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة الطويلة في الجاهلية، فأمر فتى من يهود كان معهم فقال له: إعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعث (1) وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا وتبادلوا فيه من الأشعار!! إيقاعاً بين هاتين الطائفتين من الأنصار، وإثارة لنيران الاحقاد الدفينة، والعداوات الغابرة.

ففعل ذلك الغلام اليهودي ما أمره به «شاس» فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعا، وتفاخروا، وتواثبَ رجلان من القبيلتين على الركب وأخذ كل منهما يهدد الآخر، وتفاقم النزاع، وغضب الفريقان وتصايحا، وقاما إلى السلاح وكادا أن يقع قتالٌ ودمٌ بعد أن ارتفعت النداءات القبلية بالاستغاثة والاستنجاد على عادة الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وعرف بمكيدة اليهود، ومؤامرتهم الخبيثة هذه، فخرج إلى تلك الجماعة المتصايحة من الأوس والخزرج في جمع من أصحابه المهاجرين فقال:

- [قد مرّ ذكر هذه الواقعة وقلنا: هو يوم اقتتل في الأوس والخزرج وكان الظفر يومئذ للأوس على الخزرج.

(31)

«يا معشر المسلمين، الله الله أيدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هدأكم للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنفذكم به من الكفر، وألف بين قلوبكم؟». »

فعرف القوم أنها مؤامرة مبيتة من اليهود اعداء الإسلام والمسلمين، وكيدٌ خبيثٌ منهم، فندموا على ما حدث، وبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سامعين مطيعين، وأطفأ الله عنهم كيد أعدائهم. (1)

إلا أن مؤامرات اليهود لم تتوقف عند هذا الحد، ولم تنته بهذا، فقد اتسعت دائرة خيانتهم وجنابيتهم، ونقضهم للعهد وأقاموا علاقات سرية وخاصة مع مشركي الأوس والخزرج، ومع المنافقين والمتريدين في اسلامهم واعتقادهم، واشتركوا بصورة صريحة في اعتداءات قريش على المسلمين، وفي الحروب التي وقعت بين الطرفين، وكانوا يُقدّمون كل ما أمكنهم من الدعم والمساعدة للوثنيين، ويعملون لصالحهم!!

وقد جرّت هذه النشاطات السرية والعلنية المضادة للمعاهدة للإسلام والمسلمين، وهذا التعاون المشؤوم مع مشركي قريش، جرّت إلى وقوع مصادمات وحروب دامية بين المسلمين والطوائف اليهودية أدت في المال إلى القضاء على الوجود اليهودي في المدينة

وسياتي ذكر هذه الحوادث في وقائع السنة الثالثة والرابعة من الهجرة، وسيُتضح هناك كيف أن الجماعة اليهودية ردت على الجميل الذي تعكسه كلتا المعاهدتين من أولهما إلى آخرهما، بنقض العهد، ومعاداة الإسلام والمسلمين، والتآمر ضد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خاصة، وبنصرة أعدائه، ودعم خصومه، الأمر الذي أجبر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على تجاهل تلك المعاهدات الودية والإنسانية ومن ثم محاربتهم، وإخراجهم من المدينة وما حولها والقضاء على

(32)

ما تبقى من كياناتهم الشريرة.

لقد أقام رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المدينة من ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة إلى شهر صفر من السنة الثانية حتى بنى المسجد والبيوت والمنازل المحيطة بها، وقد أسلم في هذه الفترة كل من تبقى من الأوس والخزرج، ولم تبقى داراً من دور الانصار إلا أسلم أهلها، ما عدا بعض العوائل والفروع ممن بقوا على شركهم، ولكنهم أسلموا بعد معركة بدر. (1)

(33)

حوادث السنة الثانية من الهجرة

٢٧

مناورات عسكرية واستعراضات حربية

الهدف من هذا الفصل هو شرح وبيان الأسرار الكامنة وراء سلسلة الاستعراضات الحربية، والمناورات العسكرية، التي قام وأمر بها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فقد بدأت هذه المناورات منذ الشهر الثامن من الهجرة واستمرت حتى شهر رمضان من السنة الثانية، وتعد في الحقيقة أول مناورات عسكرية، وعروض حربية قام بها المسلمون.

إن التفسير الصحيح لهذه الوقائع، وبيان رموزها وأسرارها إنما يتيسر إذا طالعنا نص ما كُتِبَ حول هذه الوقائع في المصادر التاريخية من دون زيادة أو نقصان ثم نعرض على القارئ الكريم رأي المحققين من المؤرخين فيها.

واليك فيما يأتي خلاصة هذه الحوادث:

[لم يكن يمضي على إقامة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المدينة أكثر من ثمانية أشهر عندما عقد النبي أول لواء لقائد عسكري شجاع هو «حمزة بن عبدالمطلب» وقد أمره على ثلاثين رجلاً من المهاجرين بعثهم إلى سواحل البحر الأحمر حيث

الطرق التجارية التي تمر فيها قافلة قريش التجارية، فالتقوا قافلة قريش في «العيص» فيها أبو جهل في ثلاثمائة رجل من أهل مكة، فاصطَفُوا

(34)

لِقَتَالِ، ولكنهما تفرقا ولم يقع قتال لوساطة قام بها «مجدى بن عمرو» الذي كان حليفاً للفريقين، فانصرف حمزة راجعاً إلى المدينة، وتوجّه أبو جهل في عبره وأصحابه إلى مكة.⁽¹⁾

تهديد خطوط قريش التجارية

غزوة بدر:

إنقضت السنة الأولى من الهجرة بكل حوادثها الحلوة والمرّة، والمسرة والمحزنة، ودخل النبي وأصحابه العام الثاني من الهجرة. والسنة الثانية من الهجرة تتضمن حوادث عظيمة وباهرة، ومن أبرزها حادثتان تحظيان بمزيد من الأهمية احدهما: تغيير القبلة والأخرى وقعة بدر الكبرى.

ولكي تتضح أسباب وعلل معركة بدر نذكر سلسلة من الوقائع التي وقعت قبلها، إذ بتحليلها ودراستها تتضح أسباب معركة بدر. لقد كان من بين الحوادث التي وقعت في أواخر السنة الأولى وبدايات السنة الثانية من الهجرة: بعث «الدوريات العسكرية» إلى خطوط قريش التجارية⁽²⁾ والآن يجب أن نرى ما هو هدف الحكومة الإسلامية من هذه البعث

[1] السيرة النبوية: ٢ / ٢٢٢ فما بعد، بحار الأنوار: ١٩ / ١٨٦ - ١٩٠، امتاع الاسماع: ص ٥١، الكامل في التاريخ: ٢ / ٧٧ و ٧٨ والمغازي للواقدي: ١ / ٩ - ١٩.
[2] لقد بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - دوريات عسكرية عديدة إلى ضواحي المدينة وأطرافها لتهديد قوافل قريش التجارية.
وقد كان ينبغي - طبقاً للترتيب الموضوعي والتسلسل التاريخي - أن نذكر بعض السرايا مثل سرية حمزة وسرية عبيدة بن الحارث في فصل وقائع السنة الأولى للهجرة، بيد أنه لوجود مناسبة بينها وبين حوادث السنة الثانية ذكرناها في أحداث السنة الثانية. هذا مضافاً إلى أن ابن هشام - تبعاً لابن أسحاق - يرى وقوع هذه الحوادث في السنة الثانية من الهجرة وإن كان الواقدي يعتبر بعضها من حوادث السنة الأولى.

(35)

العسكرية.

هناك مصطلحان رائجان في كتابات المؤرخين وكتّاب السيرة أكثر من أي مصطلح آخر وهما لفظة: «الغزوة» و «السرية»⁽¹⁾.

والمقصود من «الغزوة» تلك العمليات العسكرية التي كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يشارك فيها بنفسه، ويتولى قيادتها بشخصه.

على حين يكون المقصود من «السريّة» إرسال مجموعات عسكرية وفرق وكتائب نظاميّة لا يشترك فيها رسول الله بنفسه بل يؤمّر عليها أحد قادته العسكريين ويوجّهها إلى الوجهة التي يريدّها.

وقد أحصيت غزوات النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فكانت (٢٧) أو (٢٦) غزوة.

ويعود الاختلاف في العدد إلى أن بعض المؤرخين يعتبر غزوة «خيبر» و غزوة «وادي القرى» اللتين حدثتا تباعاً ومن دون فاصلة غزوتين والبعض الآخر عدّهما غزوةً واحدةً. (2)

وقد وقع نظير هذا الخلاف في تعداد سرايا النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أيضاً فأحصى المؤرخون (٣٥)، (٣٦)، (٤٨)، وحتّى (٦٦) سريّة.

ويعود هذا الاختلاف إلى أن بعض السرايا لم يُحسب لها حساب لقلة أفرادها، ولهذا حدث هذا الاختلاف في العدد.

من هنا كلّما ذكرنا لفظ السريّة قصدنا منه ما لم يشارك فيه النبي، وكلما ذكرنا لفظ الغزوة قصدنا منه ما شارك فيه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بنفسه.

وقد أحجمنا عن ذكر السرايا إلا سرايا السنوات الأولى من الهجرة لأن في بيان هذه الطائفة من السرايا أثراً مهماً في تفسير بعض الغزوات مثل غزوة «بدر». »

واليك بيان هذه السرايا والغزوات وشرح تفاصيلها.

1-راجع المحبّر: ١١٠ - ١١٦.
2-مروج الذهب: ٢ / ٢٨٧ و ٢٨٨.

2-في نفس الوقت الذي بعث فيه رسول الله سريّة حمزة، عقد لواءً آخر لعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب، وبعثه في ستين ركباً من المهاجرين بهدف التعرض لقافلة قريش التجارية، فسار حتّى بلغ ماءً بالحجاز بأسفل «ثنية المُرّة» (1)»
فلقي بها جمعاً عظيماً من قريش يبلغ مائتين بقيادة أبي سفيان، ولكن لم يكن بينهم قتال إلا أن «سعد بن أبي وقاص» رُمي يومئذ بسهم، كما أنه التحق رجلان مسلمان كانا في صفوف أبي سفيان بالمسلمين وقد خرجا مع الكفار وجعل ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين والالتحاق بهم. (2)

3- بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في شهر ذي القعدة في السنة الأولى من الهجرة سرية أخرى بقيادة «سعد بن أبي وقاص» على رأس ثمانية أشخاص آخرين من المهاجرين للتحقيق في تنقلات قريش ورصد تحركاتها خارج المدينة، فخرجوا حتى بلغوا منطقة «الخرار» ولكنهم لم يجدوا أحداً فعادوا إلى المدينة. (3)

النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يلاحق قريشاً بنفسه:

4- في شهر صفر من السنة الثانية للهجرة استعمل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على المدينة «سعد بن عباد» وأناط إليه إدارة أمورها الدينية وخرج بنفسه مع جماعة من المهاجرين والأنصار، لملاحقة ركب قريش التجاري واعتراضه، وعقد معاهدة مودة مع «بني ضمرة» حتى بلغ الإبواء، ولكنه لم يلق أحداً من قريش، فرجع - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هو ومن معه إلى المدينة. (4)

5- وفي شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة استعمل - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مرة أخرى على المدينة: «السائب بن عثمان» أو «سعد بن معاذ» وخرج هو على رأس مائتين من الرجال يريد قريشاً حتى بلغ بواط (وهو جبل من جبال

-
- 1-المحبر: ١١٦.
 - 2-السيرة النبوية: ١ / ٥٩١.
 - 3-المحبر: ١١٦.
 - 4-تاريخ الخميس: ١ / ٣٦٣ نقلا عن ابن اسحاق.

(37)

بقرب ينبع على بُعد ٩٠ كيلومتراً من المدينة تقريباً) ولكنه لم يظفر بقافلة قريش التي كان يقودها «أمية بن خلف» وعلى رأس مائة رجل من قريش، فرجع إلى المدينة.

6- وفي منتصف شهر جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة جاء الخبر أن قافلة قريش التجارية تخرج من مكة بقيادة أبي سفيان تريد الشام للتجارة، وقد جمعت قريش كل أموالها في تلك القافلة، فخرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في جمع من أصحابه لاعتراضها حتى بلغ «ذات العشيرة» وقد استعمل على المدينة هذه المرة «أبا سلمة بن عبد الأسد»، وبقي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في ذات العشيرة إلى أوائل شهر جمادى الآخرة ينتظر قافلة قريش، ولكنه لم يظفر بها، ثم وادع فيها بني مدلج وعقد معاهدة عدم اعتداء ذكرتها المصادر التاريخية بالنص. (1)

وقال ابن الأثير: في هذه الغزوة (والمكان) نزل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وجماعته في بواط عند عين فنم علي وعمار فوجدهما رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نائمين في رعاء من التراب فابقظهما، وحرك علياً فقال: قم يا أبا تراب ألا اخبرك باشقى الناس: أحيمر ثمود عاقر الناقة، والذي يضربك على هذه [يعني قرنه] فيخضب هذه منها [يعني لحيته]. (2)

7- بعد أن رجع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى المدينة بعد اليأس من قافلة قريش لم يبق بالمدينة إلا ليالي قلائل لا تبلغ العشر حتى هاجم «كرز بن جابر الفهري» على اهل المدينة ومواشيهم التي كانت قد سرحت للرعي بالغداه.

فخرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في طلبه وقد استعمل على المدينة زيد بن حارثة حتى بلغ واديا من ناحية بدر وفاته كرز بن جابر فلم يدركه ثم رجع - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومن معه إلى المدينة فأقام بها بقية جمادى الآخرة ورجباً

1- السيرة النبوية: ١ / ٥٩٨، تاريخ الخميس: ١ / ٣٦٣.
2- الكامل: ٢ / ١١٢ والمستدرک علی الصحیحین: ٣ / ١٤٠ و ١٤١.

(38)

وشعبان. (1)

8- وفي شهر رجب من السنة الثانية للهجرة بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «عبدالله بن جحش» على رأس ثمانية رجال من المهاجرين لملاحقة قافلة قريش التجارية، وقد كتب له كتاباً بالمهمة التي يجب ان ينفذها، وأمره أن لا ينظر فيه قائلاً له:

«قد استعملتُك على هؤلاء النَّفَرِ فامض حتى إذا سرتَ ليلتين فانشر (أي افتح) كتابي ثم امض (أي نفذ) لما فيه. »

ثم عين له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الوجهة التي يجب أن يتوجّه إليها.

فانطلق عبدالله ورفقاؤه وساروا يومين كاملين كما أمرهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثم فتح عبدالله كتاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقرأ ما فيه، فاذا فيه:

«إذا نظرتَ في كتابي هذا فامض حتى تنزلَ نَخْلَةٌ بينَ مَكَّةَ والطائفِ على اسمِ الله وبركته فترصدَ بها قريشاً، وتعلم (أي حصل) لنا من أخبارهم ولأتكرهنَّ أحداً من أصحابك⁽²⁾ وامض لأمري فيمن تبعك. »

فلما قرأ الكتاب قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن امضي إلى نخلة أُرصد بها قافلة قريش حتى أتية منهم بخبر، وقد نهاني أن استكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فليطلق، ومن كره ذلك فليرجع فأما أنا فماض لأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ومن أراد الرجعة فمن الآن.

1- السيرة النبوية: ١ / ٦٠١، الطبقات الكبرى: ٢ / ٩، وقد عدّ بعض المؤرخين هذه الحادثة ضمن الغزوة التي عُرفت في التاريخ باسم غزوة صفوان أو غزوة بدر الأولى.
2- يقال إنه كان الجنود - إلى حين الحرب العالمية الثانية - إذ انتهوا من خدمتهم العسكرية تُسَلَّم اليهم مع وثيقة الانتهاء من الخدمة

العسكرية رسالة مغلقة مختومة يؤمر الجندي فيها بالمحافظة عليها كأمانة عسكرية لا يجوز له فتحها إلا عند حالات النفير العام، والعمل بمضمونها وقد سبق النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى هذا التكتيك العسكري في أعماله النظامية.

(39)

فقال أصحابه اجمعون: نحن سامعون مطيعون لله ولرسوله ولك فسير على بركة الله حيث شئت، فسار هو ومن معه لم يتخلف منهم أحد حتى جاء نخلة فوجد قافلة لقريش يرأسها «عمرو بن الحضرمي» وهي عائدة من الطائف إلى مكة، فنزل المسلمون بالقرب منهم، ولكي لا يكتشفهم العدو، ولا يعرف بأمرهم ومهمتهم حلقوا رؤوسهم ليتصوّر العدو أنهم عمّار يعترمون الذهاب إلى مكة للعمرة فلما رآهم رجال قريش على هذه الحال اطمأنوا وأمنوا جانبهم وقالوا: عمّا لا بأس عليكم منهم.

ثم تشاور المسلمون فيما بينهم في جلسة عسكرية للنظر فيما يجب عمله فتبين لهم: أنهم إذا تركوا القوم (أي قريشاً) في تلك الليلة (وكانت آخر ليلة من شهر رجب) لدخلوا الحرم، ولم يمكن قتالهم فيه، وان خرج الشهر الحرام.

فأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم، من هنا باغتوا تلك القافلة، ورمى «واقد بن عبدالله» قائدها «عمرو بن الحضرمي» بسهم فقتله، وفرّ رجاله إلا نفرين هما: «عثمان بن عبدالله» و «الحكم بن كيسان» حيث أسرهما المسلمون، وعاد عبدالله بن جحش وأصحابه بالقافلة مع ما فيها من أموال قريش والاسيرين إلى المدينة.

ولما قدموا على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المدينة وأخبروه بأنهم قاتلوا القوم في الشهر الحرام (رجب) انزعج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من تصرف قائد المجموعة وعدم استفساره لما يجب أن يفعله بشدة وقال:

«ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام.»

وقد استخدمت قريش هذه القضية كسلاح دعائى ضد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واشاعت بأن «محمداً» وأصحابه قد استحلوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا الاموال كما أنه تشاءم اليهود بهذه القضية وأرادوا أن يثيروا فتنة، وعاب المسلمون على «عبدالله بن جحش وأصحابه» فعلتهم هذه من جانب ومن جانب آخر وقف النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الاموال والأسيرين

(40)

وابى أن يأخذ من كل ذلك شيئاً وبقي ينتظر الوحي:

وفجأة نزل جبرئيل بهذه الآية:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدَّقَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفِّرَ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ إِخْرَاجُ أَهْلِهِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ⁽¹⁾).

أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام، فقد صدّوكم عن سبيل الله مع الكفر به وصدّكم عن المسجد الحرام، واخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتل منهم «وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ» أي ما كانوا يرتكبونه من فتنة المسلم في دينه حتى يردّونه إلى الكفر بعد إيمانه أكبر عند الله من القتل.

ولما نزل القرآن بهذا الأمر، وفرّج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف والحيرة قبض رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - الأموال، والأسيرين وقسمها بين المسلمين، وكانت أول غنيمة غنمها المسلمون.

وبعثت قريش إلى النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - في فداء أصحابهم فقال النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - :

«لن نفيهما حتى يقدم صاحبانا.»

يعني رجلين من المسلمين كانا قد أسرا من قبيل قريش، قد اشتركا في هذه العملية ولكنهما اضلا طريقهما في الصحراء فأسرتهما رجال من قريش.

وهكذا أبى رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - أن يطلق سراح أسيرَي قريش لقاء فدية إلا إذا أطلق المشركون أسيرَي المسلمين. قاتلا لموفدي قريش:

«إني أخاف على صاحبَيَّ فإن قتلتُ صاحبَيَّ قتلتُ صاحبِيكُم.»

فاضطرت قريش إلى الافراج عن المسلمين الأسيرين، ومع وصولهما إلى المدينة أفرج رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - عن أسيرَي قريش.

ومن حُسن الحظ أن إحدى ذينك الأسيرين أسلم ورجع الآخر إلى مكة.⁽²⁾

1-البقرة: ٢١٧.

2-المغازي: ١ / ١٣ - ١٨، السيرة النبوية: ١ / ٦٠٣ - ٦٠٥.

لقد كان الهدفُ الاساسي من بعث وتوجيه السرايا، وعقد الاتفاقيات والمعاهدات العسكرية مع القبائل القاطنة على خطوط التجارة المكية هو ايقاف قريش على قوة المسلمين العسكرية، واشتداد ساعدِهم، وخاصة عندما كان النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يشترك بنفسه في العمليات، ويترصد مع مجموعات كبيرة من أنصاره تحركات قريش الاقتصادية، ويعترض قوافلها التجارية.

لقد كان رسول الإسلام - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يريد بذلك إفهام حكومة مكة الوثنية بأن جميع طرق التجارة المكية هي في متناول يده، وانه يستطيع - متى شاء - أن يُشلَّ اقتصاد المكيين بتعريض خطوطهم وطرقهم التجارية، للتهديد الجدي.

ولقد كانت التجارة أمراً حَيَوِيّاً وحساساً جداً بالنسبة إلى أهل مكة، وكانت البضائع التي تنقل منها إلى الطائف والشام تشكل اساسَ الاقتصاد المكي، فاذا كانت هذه الخطوط تتعرض للتهديد من قِبَل العدوِّ وحلفائه مثل «بني ضمرة» و «بني مدلج» فان ذلك كان يعني انهدام وانهييار حياتهم.

لقد كان الهدف من بعث تلك الدوريات العسكرية هو: أن تعرف قريش بأن طريق تجارتها الرئيسية هي الآن تحت رحمة المسلمين، فاذا استمرُّوا في معاداتهم للإسلام وللمسلمين وحالوا دون انتشار الإسلام والدعوة إليه واستمروا في ايداء من تبقى من المسلمين المستضعفين والعجزة في مكة واضطهادهم، قطع المسلمون شريان اقتصادهم.

والخلاصة: أن الهدف كان هو أن تعيد قريشُ النظر في مواقفها في ضوء الحالة الجديدة، والتهديد العسكري الاسلامي الجدي، وتترك للمسلمين الحرية في الدعوة إلى عقيدتهم، وتفتح الطريقَ لزيارة بيت الله الحرام، ونشر التوحيد ليستطيع الإسلام بمنطقه القوي، والمحكم أن ينفذ في القلوب، ويتجلى نورُ الإسلام ويشعُّ على جميع نقاط شبه الجزيرة العربية، وربوعها، وبخاصة منطقة

(42)

الحجاز مركز الجزيرة، وقلبها النابض.

فان المتكلم مهما كان قوي المنطق، سديد البرهان وأن المرابي والمرشد مهما كان مخلصاً مجداً فإنه لا يستطيع أن يحرز اي نجاح في تنوير العقول، وتهذيب النفوس وبث الفكر الصحيح إذا لم تتوفر له حرية العمل، ولم تنهيا له البيئة المطمئنة وأجواء الحرية والديمقراطية.

ولقد كان الاضطهادُ والكبتُ وسلْبُ الحريات التي كانت تمارسها قريش هي الموانع الكبرى أمام تقدُّم الإسلام وسرعة انتشار نفوذه، وكان الطريق إلى كسر هذا السدِّ، وإزالة هذا المانع ينحصر في تهديد إقتصادها وتعريض خطوطها التجارية، للخطر، وكانت هذه الخطة تتحقق فقط عن طريق القيام بتلك المناورات العسكرية والاستعراضات الحربية، والعمليات الاعتراضية.

نظرية المستشرقين:

ولقد وقع المستشرقون عند تحليلهم لهذه العمليّات في خطأ كبير، وتفوّها نتيجة ذلك بكلام يخالف القرّائن والشواهد الموجودة في التاريخ.

فهم يقولون: لقد كان هدف النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - من مصادرة أموال قريش، والسيطرة عليها هو تقوية نفسه.

في حين أنّ هذا الرأي لا يلائم نفسيّة أهل يثرب لأنّ الغارة، وقطع الطريق، واستلاب الأموال، من شيم الاعراب أهل البوادي، البعيدين عن روح الحضارة، وقيم المدنية وأخلاقها، بينما كان مسلمو يثرب عامة، أهل زرع، وفلاحة، ولم يُعهد منهم أن قطعوا الطرق على القوافل، أو سلبوا أموال القبائل التي كانت تعيش خارج حدودها.

وأما حروب الأوس والخزرج فقد كان لها أسبابٌ وعللٌ محلّيّة، وقد كان اليهودُ هم الذين يؤججون نيرانها، بغية إضعاف القوى والصفوف العربية وتقوية نفسها وموقعها.

ومن جانب آخر لم يكن المسلمون المهاجرون الذين كانوا حول الرسول

(43)

- صلّى الله عليه وآله وسلم - بنوون ملافاة ما خسروه، رغم أنّ ثرواتهم وممتلكاتهم كانت قد صودرت من قبيل المكيين، وبديل على ذلك أنهم لم يتعرضوا بعد معركة «بدر» لأيّة قافلة تجارية لقريش.

كيف لا وقد كان الهدف وراء أكثر هذه البعوث والارساليات العسكرية هو تحصيل وجمع المعلومات، عن العدوّ وتحركاته وخطّته، والمجموعات التي لم يكن يتجاوز عدد أفرادها غالباً الثمانية أو الستين أو الثمانين رجلاً لا يمكنها قطع الطريق، واستلاب الاموال، ومصادرة القوافل التجارية الكبرى التي كان يقوم بحراستها رجال أكثر عدداً وأقوى عُدة من تلك السرايا، بأضعاف المرّات غالباً

فاذا كان الهدف هو الحصول على المال والثروة من هذا الطريق فلماذا حُصّنت قريش بذلك، ولم يعترض المسلمون تجارة غيرهم من القبائل المشركة؟

ولماذا لم يمس المسلمون شيئاً من أموال غير قريش.

وإذا كان الهدف هو الغارة، وقطع الطريق واستلاب الأموال، فلماذا كان النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - يبعث المهاجرين فقط، ولا يستعين بأحد من الأنصار في هذا المجال غالباً؟

وربما قال هؤلاء المستشرقون: ان المقصود من هذه العمليات الاعترافية كان هو الانتقام من قريش، لأنّ النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه تعرّضوا على أيدي المكيين لألوان التعذيب والاضطهاد والأذى، فدفعتهم غريزة الانتقام والثأر - بعد أن حصلوا على القوة - إلى تجريد سيوفهم، للانتقام من الذين طالما اضطهدوهم، وليسفكوا منهم دمماً!!

ولكن هذا الرأي لا يقل في الضعف والوهن والسخافة عن سابقه، لأنّ الشواهد والقرائن التاريخية الحيّة العديدة، تكذّبه وتفنّده، وتوضّح - بجلاء - أن الهدف من بعث تلك السرايا والدوريات العسكرية لم يكن أبداً القتال والحرب، والانتقام وسفك الدماء.

واليك مايدلُّ على بطلان هذه النظرية:

(44)

أولاً:

إذا كان هدف النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - من بعث تلك المجموعات العسكرية هو القتال واستلاب الاموال واخذ المغنم، وجب أن يزيد في عدد أفراد تلك المجموعات، ويبعث كتائب عسكرية مسلّحة، ومجهزة تجهيزاً قوياً، إلى سيف البحر، وشواطئه على حين نجد أنه - صلّى الله عليه وآله وسلم - بعث مع «حمزة بن أبي طالب» ثلاثين شخصاً، ومع «عبيدة بن الحارث» ستين شخصاً، ومع «سعد بن أبي وقاص» أفراداً معدودين لا يتجاوزون العشرة، بينما كانت قريش قد أناطت حراسة قوافلها إلى أعداد كبيرة جداً من الفرسان، تفوق عدد أفراد المجموعات العسكرية الإسلامية.

فقد واجه «حمزة» ثلاثمائة، وعبيدة مائتين رجلاً من قريش، وقد ضاعفت قريش من عدد المحافظين والحرس على قوافلها خاصة بعد أن عرفت بالمعاهدات والتحالفات التي عقدها رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - مع القبائل القاطنة على الشريط التجاري؟! هذا مضافاً إلى أنّه لو كان قادة هذه البعوث والدوريات مكلفين بمقاتلة العدو فلماذا لم يسفك من أحد قطرة دم في أكثر تلك البعوث والعمليات ولماذا انصرف بعضهم لوساطة قام بها «مجدي بن عمرو» بين الطرفين؟!

ثانياً:

ان كتاب رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - الذي كتبه لعبدالله بن جحش شاهداً حيّاً على أن الهدف لم يكن هو القتال، والحرب

فقد جاء في ذلك الكتاب: «إنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم (اي حصل) لنا من أخبارهم. »

إن هذه الرسالة توضّح بجلاء أنّ مهمة عبدالله وجماعته لم تكن القتال قط، بل كانت جمع المعلومات حول العدو وتنقلاته وتحركاته، أي مهمة استطلاعية حسب.

واما سبب الصدام في «نخلة» ومصرع عمرو الحضرمي فقد كان القرار الذي أخذته الشورى العسكرية التي عقدتها نفس المجموعة، وليس بقرار وأمر من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

(45)

ومن هنا انزعج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمجرد سماعه نبأ هذا الصدام الدموي ولامهم على فعلتهم وقال:

«ما أمرتكم بقتال.»

ويؤيد هذا ما ورد في مغازي الواقدي عن سليمان بن سحيم أنه قال: ما أمرهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالقتال في الشهر الحرام، ولا غير الشهر الحرام إنما أمرهم أن يتحسسوا أخبار قريش. (1)

والعلة في أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يختار لهذه الدوريات والبعوث رجالا من المهاجرين دون الأنصار هي أن الأنصار قد بايعوا في العقبة على الدفاع، أي أن معاهدتهم مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كانت معاهدة دفاعية تعهدوا بموجبها بأن يمنعوهم من أعدائهم ويدافعوا عنه إذا قصده عدو.

من هنا ما كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يريد أن يفرض عليهم مثل هذه المهمات، ويبقى هو في المدينة، ولكنه عند ما خرج - فيما بعد - بنفسه أخذ معه جماعة من رجال الأنصار تقوية لروابط الاخوة والوحدة بين المهاجرين والأنصار، ولهذا كان رجاله في غزوة «بواط» أو «ذات العشيرة» يتكونون من الأنصار والمهاجرين.

وعلى هذا الاساس يتضح بطلان نظرية المستشرقين حول الهدف من بعث الدوريات العسكرية.

كما أن بالتأمل والامعان في ما قلناه يتضح أيضاً بطلان ما قالوه في هذا المجال في تلك العمليات التي شارك فيها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إذ أن الذين خرجوا معه ما كانوا ينحصرون في المهاجرين خاصة بل كانوا خليطاً من المهاجرين والأنصار، والحال أن الأنصار لم يبايعوا النبي على القيام بأية عملية هجومية ابتدائية، بل كل ما بايعوا عليه النبي كما قلنا هو: العمل الدفاعي،

[1]المغازي: ١ / ١٦.

(46)

فكيف يصح أن يدعوهم النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى عمليات قتالية ابتدائية هجومية.

وتشهد بما نقول حادثة وقعة بدر التي سنشرحها في ما بعد، فما لم يعلن الأنصار عن موافقتهم على قتال قريش لم يقرر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الحرب، في تلك الواقعة.

هذا والسبب في تسمية أصحاب السير والتواريخ هذا النوع من العمليات التي خرج فيها النبي بنفسه (غزوة) وان لم يقع فيها قتالٌ وغزوة، هو أنهم أرادوا أن يجمعوا كل الحوادث تحت عنوان واحد، وإلا فلم يكن الهدف الأساسي من هذه العمليات هو الحرب والقتال، أو السيطرة على الأموال وسلبها.

(47)

٢٨

تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة

لم يكن قد مضى على هجرة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى المدينة عدة أشهر إلا وبدأت نغمة معارضة اليهود للنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تظهر شيئاً فشيئاً!!

وفي الشهر السابع عشر من الهجرة بالضبط⁽¹⁾ أمر الله تعالى نبيه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالأمر المؤكد القاطع بأن يتحول إلى الكعبة ويتخذها من الآن فصاعداً قبلةً له وللمسلمين كافة، فيتوجهون إلى المسجد الحرام في أوقات الصلوات.

هذا هو مجمل القصة، واليك بيانها على وجه التفصيل.

صلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثلاثاً عشر عاماً كاملة في مكة نحو بيت المقدس.

وبعد الهجرة إلى المدينة كان الأمر الإلهي له هو أن يبقى على الحالة من حيث القبلة، أي أن يصلي إلى بيت المقدس، كما كان يفعل في مكة.

وقد كان هذا الاجراء نوعاً من المحاولة لاقامة التعاون والتقارب بين الدينين

[1] الطبقات الكبرى: ١ / ٢٤١ و ٢٤٢، إعلام الوری بإعلام الهدی: ٧١ و ٧٢. ويقول ابن هشام في السيرة النبوية: ان القبلة صُرِفَتْ عن الشام إلى الكعبة في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المدينة (السيرة النبوية: ١ / ٦٠٦) ويرى ابن الاثير أن ذلك حدث في منتصف شهر شعبان (الكامل: ج ٢ ص ٨٠).

(48)

القديم والجديد، ولكن تنامي قوة المسلمين واشتداد ساعدتهم أحدث رعباً كبيراً، وأوجد قلقاً واسعاً في أوساط اليهود القاطنين في المدينة لأن تقدّم الإسلام والمسلمين المطرّد كان يدلّ على أن الدين الاسلامي سيعمّ في أقرب وقت كل أنحاء شبه الجزيرة العربية، وستنقلص (بل تزول) في المقابل قوة اليهود وسلطانهم، ومكانتهم، من هنا نصب أحبار اليهود العداوة لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وعمدوا إلى ممارسة سلسلة من الأعمال الإجهاضية والإيدائية.

لقد أخذوا يؤذون رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمين بمختلف أنحاء الطرق وبشتى الوسائل والسبل، والمعاذير والحجج ومن جعلتها التذرع بقضية صلاة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمين إلى بيت المقدس.

فكانوا يقولون معيّرين إياه: أنتّ تابع لنا تصلي إلى قبلتنا!!

أو كانوا يقولون: تخالفنا يا محمّد في ديننا وتتبع قبلتنا. (1)

فشقّ هذا الكلام على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واغتم لذلك غمّاً شديداً فكان يخرج من بيته في منتصف الليل ويتطلع في أفاق السماء ينتظر من الله أمراً ووحياً في هذا المجال كما تفيد الآية الآتية:

«قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا» (2)

ويُستفاد من الآيات القرآنية في هذا المجال أنه كان لتغيير القبلة مضافاً إلى الردّ على دعوى اليهود سبباً آخر أيضاً.

وهو أن هذه المسألة كانت من المسائل الاختبارية التي اراد الله تعالى بها ان يمتحن المسلمين، ويميّز المؤمن الواقعي الحقيقي عن ادعياء الايمان، المنتحلين له كذباً ونفاقاً، وأن يعرف النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - به من حوله معرفةً جيدةً لأن اتباع النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الأمر الثاني الذي نزل على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في أثناء الصلاة (وهو التوجه إلى المسجد الحرام) كان علامة قوية

1- مجمع البيان: ١ / ٢٥٥ أو: مادري محمّد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم.
2- البقرة: ١٤٤.

من علامات الايمان والتسليم، والاخلاص والوفاء للدين الجديد.

بينما كانت مخالفته علامةً قويةً من علامات النفاق والتردد كما يصرّح القرآن الكريم بنفسه بذلك إذ يقول:

(وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ. (1))

ومن المسلم أنه يمكن الوقوف على حكم أخرى لهذا الأمر (أي صرف القبلة من الشام إلى الكعبة) إذا تتبعنا تاريخ الإسلام بشكل أوسع، وطالعتنا أوضاع شبه الجزيرة العربية.

ويمكن الإشارة إلى بعض هذه الحكم مضافاً إلى ما ذكرناه:

أولاً:

أن الكعبة التي رفعت قواعدها على يدي بطل التوحيد وناشر لوائه النبي العظيم «إبراهيم الخليل» - عليه السلام - كانت موضع احترام وتقديس من المجتمع العربي، فقد كان العرب يحبون الكعبة ويعظمونها غاية التعظيم على ما هم عليه من الشرك والفساد، فكان اتخاذها قبلة من شأنه كسب رضا العرب، واستمالة قلوبهم، وترغيبهم في الإسلام تمهيداً لاعتناق دين التوحيد ونبذ الاوثان والاصنام.

وأى هدف، وأية غاية ترى أسمى وأجل من أن يؤمن المشركون المعاندون المتخلفون عن ركب الحضارة والمدنية، وينتشر الإسلام بسببهم في كل أنحاء العالم .

ثانياً:

أن الابتعاد عن اليهود الذين لم يكن يؤمل في إذعانهم للإسلام، وإيمانهم برسالة (محمد) ذلك اليوم كان يبدو أمراً ضرورياً، لأنهم كانوا يقومون بأعمال ايدائية ضد الإسلام والمسلمين ويطلعون على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

[البقرة: ١٤٣]. ويمكن بيان هذه العلة بصورة أخرى وهي إنما أمر بالصلاة إلى بيت المقدس لأن مكة وبيت الله الحرام كانت العرب ألفه بحجها فأراد الله أن يمتحن بغير ما ألفوه ليظهر من يتبع الرسول ممن لا يتبعه. (راجع مجمع البيان: ١ / ٢٢٢ و ٢٢٣).

بين الفينة والأخرى بأسئلة عويصة يشغلونه بها، يظهرون بها - حسب تصورهم - أنهم يعرفون أموراً كثيرة وأنهم علماء، وبذلك يضيعون على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الوقت، ويشغلونه عن مهامه الكبرى.

فكان تغيير القبلة واحداً من مظاهر الابتعاد عن اليهود واجتنابهم، تماماً مثل نسخ صوم يوم عاشوراء الذي تم لنفس هذا الغرض. فقد كانت اليهود تصوم يوم عاشوراء قبل الإسلام فأمر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - المسلمين بأن يصوموا هذا اليوم أيضاً، ثم نسخ الأمر بصوم عاشوراء وفرض مكانه صوم شهر رمضان. (1)

وعلى كل حال فإن الإسلام الذي يتفوق على جميع الأديان، يجب أن تتجلى فيه هذه الحقيقة بحيث يغدو أمر تكامله وتفوقه بادياً للعيان، واضحاً للجميع.

وفي هذه الحالة تصوّر بعض المسلمين أن ما أتوا به من صلاة وعبادة وهم متجهين إلى بيت المقدس كان باطلا إذ قالوا: كيف بأعمالنا التي كنا نعمل في قبلتنا الأولى، أو حال من مضى من أمواتنا وهم كانوا يصلون إلى بيت المقدس؟!

فنزل الوحي الإلهي يقول:

«وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ»⁽²⁾.

ومع ملاحظة هذه الاعتبارات وبينما كان النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قد انتهى من الركعة الثانية من صلاة الظهر، نزل عليه جبرئيل، وأمره بأن يتوجه بالمصلين معه صوب المسجد الحرام.

وجاء في بعض الاخبار أنّ جبرئيل أخذ بيد النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وأداره نحو المسجد الحرام، فتبعه الرجال والنساء الذين كانوا يأتون به في

1- مجمع البيان: ١ / ٢٧٣.
2- البقرة: ١٤٣. والمراد من الايمان هنا هو العمل وهو من الموارد التي استعمل فيها لفظ الايمان وأريد به العمل.

المسجد. (1)

فتحوّل الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فكان أول صلاته إلى بيت المقدس، وأخرها إلى الكعبة. ومنذ ذلك الحين جعلت الكعبة المعظمة - زاد الله من شرفها - قبلة مستقلة للمسلمين يتوجهون إليها في كثير من واجباتهم وشعائرهم الدينية. (2)

هذا والغريب أن اليهود الذين كانوا قبل نزول الأمر بالتحول من بيت المقدس إلى الكعبة المعظمة يفتخرون على المسلمين بأنهم يصلون على قبلة اليهود، لما حوّل المسلمون إلى الكعبة المعظمة، وأمروا بالصلاة إليها دون بيت المقدس أخذوا يعيبون على المسلمين التوجه إلى نقطة ما في الأرض فردّ الله عليهم بقوله:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. (3)

أي ان الله فوق الزمان والمكان، والتوجه إلى نقطة خاصة في حالة العبادة انما هو لمصالح اجتماعية خاصة فالصلاة إلى الكعبة توجه إلى الله كالصلاة إلى بيت المقدس بسواء.

كرامة علمية لرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - :

وما ينبغي الإشارة إليه هنا هو: أن العرض الجغرافي للمدينة - طبقاً لمحاسبات علماء الفلك القدامى - هو ٢٥ درجة، وطولها ٧٥ درجة و ٢٠ دقيقة، ولهذا كانت قبلة المدينة لا توافق محراب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الباقي على حالته السابقة إلى الآن في مسجده الشريف، وقد سبب هذا الاختلاف حيرةً لدى بعض المتخصصين في هذا العلم، وربما دفعهم إلى ارتكاب توجيهات وتبريرات لرفع هذا الاختلاف.

-
- 1- بحار الأنوار: ١٩ / ٢٠١ عن من لا يحضره الفقيه.
 - 2- كالصلاة والذبح ودفن الموتى، والدعاء وغير ذلك.
 - 3- البقرة: ١٤٢.

(52)

ولكن القائد المعروف بسردار الكابلي أثبت في الأونة الأخيرة - طبقاً للمقاييس المعروفة اليوم - أن خط المدينة الجغرافي على عرض ٢٤ درجة و ٥٧ دقيقة وطول ٣٩ درجة و ٥٩ دقيقة. (1)

وتكون نتيجة هذه المحاسبة هي أن قبلة المدينة تكون في نقطة الجنوب تماماً وتتحرف عن نقطة الجنوب بـ ٤٥ دقيقة فقط. وهذا الاستخراج الفلكي للقبلة ينطبق على محراب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أفضل تطبيق، ويُعدُّ هذا من كرامات النبي الأكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حيث توجه في حالة الصلاة (2) من بيت المقدس إلى الكعبة بصورة دقيقة ومن دون أي انحراف ولا جزئي مغتفر وذلك من دون أية محاسبة فلكية، وعلمية. وقد أخذ جبرئيل بيده وحول وجهه نحو الكعبة المعظمة كما أسلفنا. (3)

-
- 1- تحفة الأجلة في معرفة القبلة: ٧١، طبعة ١٣٥٩.
 - 2- من لا يحضره الفقيه للصدوق: ١ / ١٧٨.
 - 3- وقد نقل الحرّ العاملي في وسائل الشيعة: في أبواب القبلة: ٣ / ٢١٥ و ٢١٦ حادثة تحوّل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الصلاة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام فراجع.

(53)

٢٩ معركة بدر

معركة «بدر» من معارك الإسلام الكبرى ومن حروبة البارزة، وقد اكتسب الذين شاركوا في هذه المعركة منزلة خاصة بين المسلمين فيما بعد.

فالواقعة التي كان يشارك فيها فرداً أو عدة أفراد من المجاهدين في «بدر» أو اذاكانوا يشهدون على أمر قال المسلمون: ووافقنا عليه البديون.

أجل إن الذين شاركوا في معركة بدر من أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يدعون بالبديين، ولم يكن هذا إلا لأهمية تلك الواقعة التاريخية.

وتتضح علة هذه الأهمية إذا نحن استعرضنا تفاصيل هذه الواقعة.

لقد قلنا في ما سبق أنه بلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في منتصف جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة، أن قافلة قريش التجارية خرجت من مكة إلى الشام بقيادة «أبي سفيان بن حرب.»

فخرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لملاحقتها إلى «ذات العشيرة» وتوقف هناك إلى مطلع الشهر التالي، ولم يعثر على تلك القافلة، وقد كان وقت عودة القافلة معلوماً تقريباً، فقد كانت قافلة قريش تعود من الشام إلى مكة في أوائل الخريف.

ومن المعلوم أن أول خطوة على طريق الانتصار في مثل هذه المحالات هو

(54)

تحصيل اكبر قدر من المعلومات حول العدو لأن قائد الجيش مالم يعرف شيئاً عن استعدادات العدو، ونقطة تمركزه وتواجده، ومعنويات أفراد، فإنه ربما يهزم وينكسر في أول مواجهة.

ولقد كان من أساليب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الرائعة في جميع الحروب والمعارك التي ستقرأ تفاصيلها هو جمع المعلومات حول مدى استعداد العدو، ومبلغ تهيؤه ومكان تواجده، وتمركزه، وهذه مسألة تحظى وإلى اليوم بأهمية خاصة في الحروب العالمية والمحلية، بل وترصد لها ميزانيات كبرى، وتستخدم أجهزة عريضة في عالمنا الحاضر، كما هو معلوم للجميع، وكما أشرنا إلى ذلك فيما سبق.

وقد بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - غيناً له على قافلة قريش اسمه «عدي» - حسب رواية المجلسي⁽¹⁾ - أو «طلحة بن عبيدالله» و «سعيد بن زيد» حسب ما قال صاحب «حياة محمد» نقلاً عن المصادر التاريخية⁽²⁾، لإخباره عن مسير تلك القافلة، وعدد حراسها ورجالها ونوعية البضائع المحملة.

فلما عاد العين أخبر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

1- بأن قافلة قريش قافلة كبرى شارك فيها كلُّ أهل مكة، حتّى أنه ما من قرشيٍّ أو قرشية بمكة له مثقال فصاعداً إلا بعث به في تلك القافلة.

2- إنَّ البضائع يحملها ألفٌ بعير وأنَّ قيمتها تبلغ خمسين ألف دينار.

3- وأنه بقودها «أبوسفیان بن حرب» في أربعين رجلاً.

وحيث إن أموال المسلمين المهاجرين إلى المدينة كانت قد صُودرت في مكة على أيدي قريش من هنا كان الوقت مناسباً جداً لأن يأخذ المسلمون أموال قريش في تلك القافلة، ويحتفظوا بها ريثما تفرج قريش عن أموال المسلمين المهاجرين المصادرة بمكة، فاذا لجّوا وأصرّوا في مصادرة أموال المسلمين فسّم

1- بحار الأنوار: ١٨ / ٢١٧.
2- المغازي: ١ / ١٩.

(55)

المسلمون في المقابل أموال قريش المأخوذة فيما بينهم وتصرفوا فيها كغنائم حرب من هنا قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لهم:

« هذا عيرُ قريش (أي قافلتهم) فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعلَّ الله ينفلِكُمُها. (1) »

من هنا استخلفت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المدينة «عبدالله بن أم مكتوم» للصلاة بالناس، والقيام بالشؤون الدينية، و «أبا لبابة» للقيام بالشؤون السياسية.

ثم خرج من المدينة في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً لمصادرة أموال قريش أو بالاحرى توقيفها وحبسها.

النبي يتوجه إلى منطقة دُفران (2)

لقد ترك رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المدينة بعد أن أتاه خبر عن تحرك قافلة قريش، قاصداً وادي دفران حيث طريق القافلة في يوم الاثنين، الثامن من شهر رمضان، وقد عقد رابتين سلّم إحداهما إلى مصعب بن عمير، والأخرى (وتسمى العقاب) إلى علي بن أبي طالب - عليه السلام - .

ولقد كانت المجموعة التي خرج بها النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تتألف من إثنين وثمانين من المهاجرين، ومائة وسبعين من الخزرج، وواحد وستين من الأوس، وكان عندهم ثلاثة أفراس فقط.

1-المغازي: ٢٠ / ١ .
2-وادي ذفران الذي كان يمرّ به قافلة قريش التجارية يقع على مرحلتين من بدر .
وقد ذكر ابن هشام في سيرته جميع المراحل التي طواها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من المدينة إلى ذفران ومنه إلى بدر الذي ارتحل إليه رسول الله بعد أن بلغه نبأ تحرك قافلة قريش .
وبدر كان موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام يتبايعون فيه ويتفاخرون على غرار سوق عكاظ، وكان يقع على طريق مكة والمدينة والشام. (راجع السيرة النبوية: ١ / ٦١٣ - ٦١٨).

(56)

ولقد بلغ حبُّ الشهادة عند الأشخاص في المجتمع الاسلامي يومئذٍ مبلغاً عجبياً حتى أنّ قتياناً دون الحلم اشتركوا في هذه المعركة، وردّ النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعضهم إلى المدينة لما استصغرهم. (1)

إن كلام رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يفيد بانه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد وعدهم بالرخاء والانفراج في المعيشة وذلك عن طريق السيطرة على أموال قريش، وأخذ بضائعها، وكان المسوخ لهذا العمل هو ما سبق أن ذكرناه، وهو أن قريشاً كانت قد صادرت كل أموال المهاجرين المسلمين في مكة، منقولها وغير منقولها، ومنعت من دخولهم مكة، وخرجهم منها.

ومن الواضح أن يسمح العاقل لنفسه - أيّاً كان - بأن يعامل عدوه بمثل هذه المعاملة التي عامله بها العدو.

وأساساً يجب أن نعلم أنّ سبب هجوم المسلمين على قافلة قريش هو أنهم قد ظلموا وقهروا، الأمر الذي يذكره القرآن الكريم أيضاً، ولذلك يسمح للمسلمين بأن يقاتلوا عدوّهم ويعترضوا تجارتهم إذ يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ يُفَاتِلُونَ بِنَاهُمْ ظَلَمُوا وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ.) (2)

ولقد كان أبو سفيان قد عرف - عند توجهه بالقافلة إلى الشام - أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يترصد القافلة، ولهذا اتخذ كافة الاحتياطات عند فقوله ورجوعه من الشام، فكان يسأل القوافل عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وكان إذا رأى أحداً منهم سأله: هل أحسست أحداً؟!

1-المغازي: ٢١ / ١ .
وروي أنه كان الرجل يساهم أباه في الخروج مع النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رغبة في الجهاد في سبيل الله والشهادة فكان ممن ساهم «سعد بن خيثمة» وأبوه في الخروج إلى بدر، فقال سعد لأبيه: انه لو كان غير الجنة أترتك به، إني لأرجو الشهادة في وجهي هذا .
فقال خيثمة: أترني، وقز مع نسائك! فابى سعد .
فقال خيثمة: إنه لا بدّ لأحدنا من أن يقيم، فاستئهما (أي اقتراعا) فخرج سهم سعد فقتل ببدر (المصدر).
2-الحج: ٣٩ .

(57)

وكان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد خرج مع أصحابه من المدينة، يلاحق قافلة قريش، وقد نزل في وادي ذفران.

ولما أحسَّ أبو سفيان بذلك أحجم عن الاقتراب إلى منطقة بدر ولم ير بُدأً من أن يخبر قريشاً بالخطر الذي يحديق بتجارتهم، وأموالهم، ويطلب مساعدتهم، فاستأجر رجلاً يدعى «ضمضم بن عمرو الغفاري» وأمره بأن يجده بعيره (يقطع أنفه) ويحوّل رَحْله، ويشقِّ قميصه من قُبْله و دُبْره ويصيح الغوث! الغوث، ويخبر قريشاً أنّ محمّداً تعرّض لتجارتهم!!

فخرج ضمضم سريعاً إلى مكّة، ولما قدّمها وقف ببطن الوادي يصيح بأعلى الصّوت: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة⁽¹⁾، أموالكم مع أبي سفيان قد تعرّض لها محمّد في أصحابه، لا أرى ان تدركوها، الغوث الغوث.⁽²⁾

فأثار هذا المنظرُ المثيرُ، واستغاثات ضمضم المتابعة أهل مكة، فتجهزوا سراعاً، وتهيّأوا للخروج، وأعدّ كلُّ صناديد قريش ورجالها المقاتلون أنفسهم للتحرك نحو المدينة إلا أبو لهب الذي لم يشترك في هذا الخروج، وارسل مكانه «العاصي بن هشام» لقاء أجر قدره أربعة آلاف درهم.

وأراد «أميّة بن خلف» هو الآخر أن يتخلف لأسباب خاصّة، فقد قيل له: أن محمّداً يقول: لأقتلنّ أميّة بن خلف.⁽³⁾

فرأى أشراف قريش وسادات مكة أن تخلف رجل مثله يضرب بقريش ويوهن من عزيمة الجيش، فقرروا إثارتة وتحريكه فاتاه عقبه بن أبي معيط وأبو جهل وهو جالس في المسجد بين ظهرائي قومه، بمجرة يحملانه فيها ناراً وعوداً يتبخّر به حتّى وضعها بين يديه ثم قالوا له:

«يا أميّة استجمر فإنما أنت من النساء!»

-1 اللطيمة: الإبل التي تحمل الأقمشة والعطور، والنداء يعني: ادركوا اللطيمة ادركوها.
-2 الكامل في التاريخ: ٢ / ٨١، المغازي: ١ / ٣١، بحار الأنوار: ١٩ / ٢١٦.
-3 المغازي: ١ / ٣٥.

فغضب أميّة، وهاجت به الحمية، فتجهز من فوره، وخرج مع الناس.⁽¹⁾

وخلاصة القول أنه أرعبت قريش لما سمعت بتعرض قافلته وأموالها للخطر من قبل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه، فكانوا بين رجلين إما خارج أو باعث مكانه رجلاً، وما بقي أحدٌ من عظماء قريش إلا أخرج مالا لتجهيز الجيش، وأخرجوا معهم المغنيات يضربن بالدفوف ويهيجن الرجال للقتال.

المشكلة التي كانت تواجهها قريش:

ولما أعلن عن موعد الرحيل تذكرت قريش بأن بينهم وبين قبيلة «بني بكر» عداءً قديماً، فخافوا أن يوجهوا اليهم ضربةً من الخلف، أو يحملوا على نساءهم وذرايعهم في مكة في غياب منهم فكان ذلك يثنيهم عن الخروج.

وقد كان العداء بين قريش وبني بكر يعود إلى دم سُفك بينهم في قصة ذكرها ابن هشام وغيره من كتّاب السيرة. (2)

ولكن سراقه بن جعشم المدلجلي - وكان من أشرف بني كنانة وهم من بني بكر - طمأنهم - ووعدهم بأن لا تاتيهم بنو بكر من خلفهم بشيء يكرهونه، ولما اطمأنوا خرجوا صوب المدينة سراعاً.

وكان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه قد خرجوا من المدينة لاعتراض قافلة قريش التجارية، وهبطوا في وادي ذفران، ويقوا هناك ينتظرون مرورها، ولكنه فجأةً بلغه خبرٌ جديدٌ غير أفكار قادة الجيش الإسلامي، وفتح - في الحقيقة - فصلاً جديداً في حياتهم.

فقد أتاه الخبر عن مسير قريش باتجاه المدينة لحماية قافلتها التجارية، وأن جيشها قد وَصَلَ إلى مشارف المنطقة التي تواجد فيها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه، وأن طوائف متعددة قدسها همت وشاركت في تكوين هذا الجيش.

1- تاريخ الطبري: ٢ / ١٣٨، الكامل في التاريخ: ٢ / ٨٢، المغازي: ١ / ٣٥ و ٣٦.
2- السيرة النبوية: ١ / ٦١٠ و ٦١١، المغازي: ١ / ٣٨ و ٣٩.

فوجد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والقائد الأعلى للمسلمين نفسه أمام خيارين:

إما أن يقاتل، ولكنه لم يخرج هو أو أصحابه الذين مرّ ذكرهم إلا لمصادرة أموال قريش، فلم يكونوا متهيئين لمقاتلة الجيش المكي الكبير، لامن حيث العدد، ولا من حيث العُدّة.

وإما أن يرجع إلى المدينة من حيث أتى، وهذا يعني أن ينهار كلُّ ما كسبوه من الهيبة والمهابة، بفضل المناورات العسكرية، والعروض النظامية السابقة.

وبخاصة إذا تقدم العدو نحو المدينة في ظل هذا الانسحاب واجتاح مركز الإسلام «المدينة المنورة».

فرأى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن لا ينسحب، بل يقاتل العدو بما عنده من العدة القليلة والعدد القليل ويقاوم حتّى اللحظة الأخيرة والنفس الأخير.

والجدير بالذكر أنّ أكثر الذين كانوا مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كانوا من شَبان الأنصار وكان عدد المهاجرين لا يتجاوز ٨٢ شخصاً.

وكانت بيعة العقبة التي بايع فيها الأنصار رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بيعةً على الدفاع عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وحمائمه لا القتال والحرب.

أي انهم بايعوه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على أن يمنعونه في المدينة فلا يصل إليه أحد من أعدائه وهو بينهم.

أمّا أن يخرجوا معه إلى خارج المدينة لقتال العدو فلم يبايعوا النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على مثل ذلك فماذا يفعل القائد الأعلى للمسلمين.

إنه لم يرَ مناصباً من استشارة الناس الذين معه، ومعرفة رأيهم في ما يجب اتخاذه من طريقة حل لهذه المشكلة.

النبي يعقد شوري عسكرية:

وهنا وقف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في تلك الجماعة وقال: أشيروا

(60)

على أيها الناس.

فقام أبو بكر وقال: يا رسول الله إنها قريش، وخيلاؤها ما أمنت منذ كَفَرَت، ولا دَلَّتْ منذ عَزَّتْ ولم نخرج على أهبة الحرب!!

وهذا يعني أنه رأى من الصالح ان ينسحبوا إلى المدينة، ولا يواجهوا قريشاً.

فقال له رسول الله: اجلس.

ثم قام عمر بن الخطاب، وكرّر نفس مقالة أبي بكر، فأمره النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالجلوس أيضاً.

ثم قام «المقداد بن عمرو» وقال: يا رسول الله إمض إما أراك الله فنحنُ معك، والله لا نقولُ لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى:

إذهب أنت وربك فقاتل إنا هاهنا قاعدون.

ولكن إذهب انت وربك فقاتل، وإنا معكم مقاتلون.

فَوَ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرْتُ إِلَى بَرَكِ الْغَمَادِ (وهو موضع بناحية اليمن) لجألدنا معك من دونه، حَتَّى تَبْلَغَهُ، ولو أمرتنا أن نخوضَ جَمْرَ الْغُضَا (أي النار المتقدة) وشوك الهراس (وهو شجرٌ كبير الشوك) لخصناه معك.

فقال له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خيراً ودعا له به.

إخفاء الحقائق وكتمانها:

إذا كان إخفاء الحقائق، والتعتيم عليها وسترها، والتعصب الباطل أمراً مشيناً من كلِّ من أَلَفَ وَكَتَبَ، فَإِنَّهُ وَلَا شَكَّ أَقْبَحُ مِنَ الْمُؤرِّخِ، الْمُؤْتَمِّنِ عَلَى التَّارِيخِ وَحَقَائِقِهِ.

فان على المؤرخ أن يكون مرآة صادقة للأجيال القادمة لا يكدرها غبار التعصب، وغشاوة التحريف والتبديل والكتمان للحقائق.

ولقد ذكر ابن هشام⁽¹⁾ والمقرئزي⁽²⁾ والطبري⁽³⁾ ما وقع في الشورى

1- السيرة النبوية: ١ / ٦١٥.

2- إمتاع الأسماع: ٧٤.

3- تاريخ الطبري: ٢ / ١٤٠.

العسكرية التي عقدها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأدرج فيها ما قاله المقداد، وقاله سعد بن معاذ في كتبهم على وجه التفصيل، ولكنهم أحجموا عن إدراج ما قاله أبو بكر وعمر وإنما قالوا: وقال فلانٌ وأحسنَ، وقال فلانٌ واحسن!!

وهنا نسأل ذينك المؤرخين إذا كان ما قاله فلان وفلان حسناً أَرْضَى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فلماذا تركوا ذكره على نحو التفصيل كما فعلوا بالنسبة إلى كلام مقداد وسعد.

بلى؛ إنهما لم يقولوا إلا ما ذكرناه قبل قليل، ليس غير. وإذا كان أولئك المؤلفون يكتمون الحقائق، فقد أظهرها الآخرون وسجلوا نص ما قاله الرجلان⁽¹⁾، ولم يكن قولاً حسناً ولا كلاماً طيباً، بل كان كلامهما مثبطاً، ينم عن خوف، ووحشة، فهما صورا قريشاً قوة لا تُقهر، وجيشاً لا يُدحر، غير أبهين بما تترك كلماتهم من الأثر السيء في نفوس المسلمين في ذلك الظرف الدقيق، واللحظة الخطيرة!!

وإنك أيها القارئ لتستطيع أن تعرف مدى إنزعاج النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من مقالتهما، مما ذكره الطبري نفسه في الصفحة ذاتها، فان الشيخين كما تلاحظ، كانا أول من نطقا في تلك الشورى، ثم تكلم بعدهما المقداد، وسعد بن معاذ.

فان الطبري يروي عن ابن مسعود أنه قال: لقد شهدت من المقداد مشهداً لئن أكون أنا صاحبه أحبُّ إليَّ مما في الارض من شيء

كان رجلاً فارساً وكان

(62)

رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إذا غضب احمرّت وجنتاه، فاتاه المقداد على تلك الحال⁽¹⁾ فقال: أبشر يا رسول الله فوالله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى: «إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن إذهب انت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.»⁽²⁾

ولقد كان ذلك المجلس مجلس استشارة وتبادل للرأي وكان لكل أحد الحق في أن يُدلي برأيه، ويطرح نظره على القائد الأعلى، ولكن مجريات الاحداث أثبتت أن مقداد كان أقرب إلى الصواب، وأكثر توفيقاً في إصابة الحق من ذينك الرجلين.

وقد أشار القرآن الكريم إلى تخوف بعض المسلمين من مواجهة العدو في هذه الموقعة إذ قال سبحانه:

(كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ.)⁽³⁾

وقال تعالى:

(يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ.)⁽⁴⁾

قرار الشورى الحاسم أو رأي زعيم الأنصار:

كانت الآراء التي طُرحت آراء شخصية وفردية على العموم، والحال أن الهدف الاساسى من عقد تلك الشورى كان هو الحصول على رأي الأنصار، فلما لم يدل الأنصار برأيهم لم يمكن لتلك الشورى أن تتخذ رأياً حاسماً، وتبّت في أمر.

من هنا أعاد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قوله: «أشيروا على أيها

1- أي وهو غاضب من مقاله وتنبيط من تقدماه.

2- تاريخ الطبري: ٢ / ١٤٠.

3- الانفال: ٥.

4- الانفال: ٦.

(63)

الناس» وهو يريد الأنصار.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري وقال: والله لكأنك يا رسول الله تريدنا؟

فقال النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : أجل.

فقال سعد: بأبي أنت وأمي يا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إنا قد آمنا بك، وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به حقٌّ من عند الله، وأعطيناك موافقتنا وعهودنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحنُ معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر (1) فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجلٌ واحدٌ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً.

إنا لصبرٌ في الحرب، صدقٌ في اللقاء لعلَّ الله يريك منا ما تقرَّ به عينك فيسر بنا على بركة الله، وصل من شئت، واقطع من شئت وخذ من أموالنا ما شئت، و ما أخذت من أموالنا أحبُّ إلينا مما تركت.

فسرَّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بقول سعد ونشطه ذلك، وأزال سحابة اليأس من النفوس، وأشعل ضياء الأمل في القلوب.

ولهذا لم يفرغ ذلك الأنصاري البطل والقائد المؤمن الشجاع من مشورته الشجاعة إلا وأصدر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمره بالرحيل قائلاً: «سيروا على بركة الله وابشروا فإنَّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين ولن يخلف الله وعده.

والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم. »

وتحرك الجيش الإسلامي بقيادة النبي الأكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ونزل عند أبار «بدر» (2)»

تحصيل المعلومات حول العدو:

مع أنَّ المبادئ العسكرية والتكتيكات الحربية في الوقت الحاضر تختلف

-1 يقصد البحر الأحمر.

-2 المغازي للواقدي: ١ / ٤٨، السيرة النبوية: ١ / ٦١٥.

عما كان عليه في العصور الغابرة اختلافاً كبيراً إلا أنَّ مسألة تحصيل المعلومات حول العدو ومعرفة أسرارهِ العسكرية، ومدى استعداداته ومبلغ قواه التي يستخدمها، ودرجة معنويات أفرادهِ لا تزال على أهميتها وقيمتها، لم تتغير من هذه، بل ازدادت أهمية في العصر الحاضر - كما أسلفنا -.

فهي تشكل الآن أيضاً مفتاحاً في الحروب، ومنطلقاً للانتصارات العسكرية.

على أن هذه المسألة قد اتخذت اليوم صبغة التعليم والتمرين، فقد أصبح لها اليوم كتبٌ ومعاهدٌ تتولى تعليم طرائق التجسس العسكري واساليبه، كما ويعزي قادة المعسكر الغربي والشرقي الكثير من نجاحاتهم إلى توسعة دوائر التجسس ومنظماته التي تستطيع إطلاع أصحابها على معلومات دقيقة ومفصلة عن خطط العدو وقواه، واماكن تمرّكزه وتواجده، وخطوط إمداده، وتموينه تمهيداً لإفشال تحركاته أو إجهاضها فوراً.

من هنا استقر الجيش الإسلامي في منطقة تلانم مباديء التستر بشكل كامل، ومنع عن أي عمل من شأنه انكشاف أسرارهِ، كما أن فرقاً مختلفةً و متعددة كُلفت بتحصيل وجمع المعلومات عن قريش وقافلته وجيشها.

فكانت المعلومات التي توفرت لدى القيادة الإسلامية هي كالتالي:

الف / أنّ النبي نفسه ركب هو ورجل من قادة جيشه حتّى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمّد وأصحابه وما بلغه عنهم فأخبرهم بأن محمّد وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، وأنه إن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي كان به رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - وإن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، وأنه إن كان الذي أخبره صدقه فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي فيه قريش.

وهكذا عرف رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - نقطة تواجد قريش، واستقرار قواتهم.

باء / بعث رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - جماعة «الزبير بين العوام» و «سعد

(65)

بن أبي وقاص» بقيادة علي - عليه السّلام - إلى ماء بدر يلتمسون له الخبر، فأصابوا إبلا يستقي عليها الماء لقريش فيها غلامان أحدهما لبني الحجاج والآخر لبني العاص فأتوا بهما إلى رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - فسألتهما النبي عن قريش فقالا: هم والله وراء هذا الكئيب الذي ترى بالعدوة القصوى.

فقال لهما رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - :كم القوم وما عدتّهم فقالا: لا ندري، كثير. فقال رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - :كم ينحرون (من الابل) كل يوم؟ قالوا: يومئذياً ويوماً عشرين.

فقال رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - :القوم فيما بين التسعمائة والألف.

ثم سألهما: فمن فيهم من أشرف قريش؟

قالا: عتبة بن ربيعة، وأبو البخترى بن هشام، وحكيم بن حزام وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمّية بن خلف و... و...

فأقبل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على أصحابه وقال:

« هذه مَكَّة قد أَلَقْت إليكم أفلاذ كبدها. (1) »

جيم / كُفِّف شخصان بالدخول إلى قرية بدر وتفصّي الحقائق حول قافلة قريش فيها فمضيا حتّى نزلا بدرأ فأناخا ابلهما إلى تلّ قريب من الماء، ثم تظاهرا بأنهما يريدان أن يستسقيا، وكان على الماء جاريتين تستسقيان وتقول إحداهما للأخرى: إنما تأتي القافلة غداً أو بعد غد فأعملُ لهم ثم أفضيك الذي لك

فقال لها «مجدي بن عمرو الجهني»، وكان على مقربة منهما: صدقت ثم خلص بينهما.

فسرّ صاحبها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لما سمعا فعادا في سرّية كاملة إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخبراه بما سمعا. (2)

والآن وبعد أن أصبح رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عارفاً بوقت ورود القافلة، ومكان تواجد قريش، معرفةً دقيقةً عمد إلى ترتيب المقدمات اللازمة.

1- السيرة النبوية: ١ / ٦١٧ .

2- السيرة النبوية: ١ / ٦١٧ .

كيف هرب أبوسفيان؟

لقد تعرّض أبوسفيان قائد قافلة قريش لدى توجّهه بها إلى الشام للملاحقة من قبل مجموعة من المسلمين، ولهذا فانه كان يعلم جيداً بأنهم سوف يتعرضون له عند قفوله من الشام أيضاً.

ولهذا عندما وصل بقافلة قريش إلى المنطقة الخاضعة للمراقبة الإسلامية أراحها في منطقة بعيدة عن متناول أيدي المسلمين ودخل هو قرية «بدر» يتجسس، ويسأل عن أخبار رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فالتقى «مجدي بن عمرو» على ماء بدر فسأله: هل أحسست أحداً؟ (ويقصد هل رأيت أحداً من عيون محمّد ورجاله؟).

فأجابه مجدي قائلاً: ما رأيت أحداً أنكره، إلاّ أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التلّ ثم استقيا في شئ لهم، ثم انطلقا.

فأتى أبو سفيان مُناخهما، فأخذ من أبعار بعيريهما، ففتّته، فاذا فيه النوى فقال: هذه - واللّه - علائف يثرب . هذه عيون محمّد وأصحابه، ما أرى القوم إلّا قريباً.

فرجع إلى أصحابه سريعاً وحرك القافلة من فوره، وابتعد عن بدر وأخذ بها جهة ساحل البحر الأحمر كما أنه كلف أهدأ بإخبار قريش فوراً، بأنّ قافلتهم أفلتت من يد محمّد وأصحابه، وأن أموالهم نجت فليرجعوا وليتركوا محمّداً تكفيه العرب.

(67)

(68)

علم المسلمين بإفلات قافلة قريش:

عرف المسلمون بإفلات قافلة قريش، وانتشر هذا النبا بينهم بسرعة، فاعتم من خرج مع المسلمين يريد الحصول على شيء من تلك الأموال، فقال الله تعالى تثبيناً لهم وتسكيناً لقلوبهم:

(وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ. لِيَحِقَّ الْحَقَّ وَيُبِطَلَ الْبَاطِلَ وَتُؤَكَّرَ الْمُجْرِمُونَ. (1))

إختلاف قريش في القتال:

عندما وافى رسول أبي سفيان قريشاً وهم بالجحفة، وابلغهم رسالة أبي سفيان وطلب منهم الرجوع إلى مكة حدث بين رجال قريش اختلاف عجيب.

وقال بنو زهرة والأخنس بن شريق وكانوا حلفاء على الرجوع قائلين: قد خلصت أموال سيد بني زهرة «محزمة بن نوفل» وانما نفرنا لنمنعه وماله، فلا حاجة بأن نخرج في غير منفعة.

ورجع طالب (ابن أبي طالب) إلى مكة وكان قد استكّره على الخروج من مكة، وذلك بعد مشاجرة بينه وبين رجل من قريش قال له:

«والله لقد عرفنا يا بني هاشم، وإن خرجتم معنا أن هواكم لمع محمّد. (2)»

وأما أبو جهل فقد اصرّ على مواصلة التقدّم نحو المدينة، وعدم الرجوع إلى مكة خلافاً لطلب أبي سفيان، قائلاً:

والله لا نرجع حتّى نرد بدراناً ففقيمّ عليه ثلاثاً فننحر الجزر (الأباعر) ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان والمغنيات،

وتسمع بنا العرب وبمسيرنا، وجمعنا فلايزالون يهابوننا أبداً بعدها، فامضوا!!

(69)

فحملت كلمات أبي جهل المغزبية قريشاً على مواصلة التقدم نحو المدينة، ونزلت في مكان مرتفع (1) خلف كتيب.
وأمرت السماء مطراً غزيراً فأصاب قريشاً منه ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه، ومنعهم من مزيد التقدم.
بينما لم يحدث المطر أي مشكلة في العدو الدنيا للمسلمين ولم يمنع من تحركهم بل كان بحيث لبد الأرض حتى ثبتت أقدامهم. (2)
و «بدر» منطقة واسعة يتكون جنوبها من مكان مرتفع (العدوة القصوى) وشمالها من مكان منخفض منحدر (العدوة الدنيا) وكانت في هذا الوادي الواسع بضع آبار وعيون ماء، فكان منزلاً للقوافل ينزلون فيه ويستقون، ويستريحون ردهاً من الزمن.
وهنا تقدم «الحباب بن مندر» وكان فارساً مجرباً وعسكرياً محنكاً باقتراح إلى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إذ قال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل منزلاً أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

فقال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - «: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. »

فقال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى أدنى ماء من القوم، فنزله فغور (أي ندفن العين) ما وراء القلب، ثم بنى عليه حوضاً فمملوه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.
فقال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لقد أشرت بالرأي.

فنهض رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ومن معه فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب (الآبار) فغورت، وبنى حوضاً على القلب الذي نزل عليه فملى ماءً ثم قذفوا فيه الأنية.

إن هذه الحادثة تكشف جيداً على إهتمام رسول الإسلام بالمشاورة،

1- وهو ما يسمى بالعدوة القصوى.
2- ويقال كان المطر ينزل على قريش كأفواه القرب وعلى أصحاب رسول الله رذاذاً بقدر ما لبد الأرض.

(70)

واحترامه لأراء الآخرين واتساع صدره لاقتراحاتهم، والأخذ بما يفيد منها دون تكبر أو انزعاج. (1)

«العريش» أو غرفة القيادة:

وقيل إن سعد بن معاذ تقدم هو الآخر بمقترح عسكري رائع وهو بناء واقامة برج لرسول الله يقود منه العمليات ويشرف على سيرها ويكون مأمناً له من كيد الاعداء فقال: يا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا فان أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وان كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصرونك ويجاهدون معك.

فأتى عليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ودعا له بخير، ثم بني له - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عريش فوق مكان مرتفع مشرف على ساحة القتال والحرب، وكان سعد و جماعة من فتيان الأنصار يحرسونه في بعض حالات القتال. (2)!!

نظرة إلى مسألة «العريش»: »

ان مسألة بناء العريش لرسول الله، وحراسة سعد بن معاذ وجماعة من فتيان الأنصار له هومما ذكره ورواه الطبري في تاريخه نقلا عن ابن اسحاق وتبعه الأخمرون في ذلك، ولكن هذه القصة لا يمكن القبول بها لاسباب هي:

أولاً:

أن هذا العمل يفت في عَضُد الجنود، ويضعف من معنوياتهم القتالية لأن معناه أن القائد يفكر في وسيلة لنجاة نفسه دون أن يفكر في نجاة جنوده، ومثل هذه القيادة لا يمكنها أن تستحوذ على قلوب جنودها، وتجعلها مطيعة لأوامرها.

1- السيرة النبوية: ١ / ٦٢٠، تاريخ الطبري: ٢ / ١٤٤ .
2- تاريخ الطبري: ٢ / ١٤٥، السيرة النبوية: ١ / ٦٢٠ .

ثانياً:

أن هذه القصة تتنافى مع الاخبار القطعية التي بشر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بها المسلمين في ضوء ما نزل عليه من آيات.

فهو - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قبل أن يواجه المسلمون قريشاً قال لأصحابه الذين خرجوا معه من المدينة وعدهم إحدى الطائفتين، أي إما الظفر بقافلة قريش التجارية قطعاً، أو الانتصار على الجيش المكي حتماً ويقيناً إذ قال الله تعالى:

(وَ إِذْ يَدْعُوكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ يَقَطَعَ دَابِرَ

وإنما أقدم على بناء العريش لرسول الله - بناءً على رواية الطبري - في الوقت الذي كانت قافلة قريش قد أفلتت وهربت من أيدي المسلمين، ولم يبق إلا الجماعة المسلحة التي خرجت لحماية القافلة، وكان المسلمون يعلمون - طبقاً لذلك الوعد الإلهي - القاطع - أنهم سينتصرون على تلك الجماعة الكافرة: **ويقطع دابر الكافرين** (فلم يكن المجال مجال تردد وشك).

وبهذا يكون حديث هزيمة المسلمين في هذه المواجهة ولزوم بناء عريش لحماية النبي واعداد ابل سريعة السير عند العريش لينجو - صلى الله عليه وآله وسلم - عليها بنفسه حديثاً باطلاً لا مبرر له، ولا مسوغ.

يقول ابن سعد نقلاً عن عمر بن الخطاب قال: لما نزلت **(سِيَهْرَمَ الْجَمْعِ وَيُولُونَ الدُّبُرَ)** قلت: وأي جمع يُهْرَم ومن يُغَلَب؟ فلما كان يوم بدر نظرت إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يثب في الدرع وثباً وهو يقول: «سِيَهْرَمَ الْجَمْعِ وَيُولُونَ الدُّبُرَ» فعلمتُ ان الله تبارك وتعالى سيَهْرَمهم. (2)

ومع هذا هل يحتمل أن يدور في خلد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه شيء حول الهزيمة أو يحدثوا أنفسهم بالفرار؟
ثالثاً:

ان النبي الذي يصف الامام علي - عليه السلام - موقفه وحالته عند اشتداد ضراوة القتال لا تنسجم أبداً ولا تلائم هذا التكتيك الذي لا يتسم

1- الأنفال: ٧.
2- الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٥.

(72)

بالشجاعة والثبات.

يقول علي - عليه السلام - :

«كُنَّا إِذَا احْمَرَ الْبَاسُ اتَّقِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِّنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ» (1)

فهو يفكر مثل هذه الشخصية التي يصفها أول تلامذة مدرسته، وأقرب صحابته إليه بمثل هذا الوصف، في الفرار، أو اتخاذ الاحتياطات اللازمة لذلك.

نحن نعتقد أن بناء العريش لم يكن إلا من باب إعداد غرفة للعمليات ولمراقبة سير القتال من مكان مشرف على ساحة القتال، لأن القيادة ما لم تكن مشرفة على ساحة القتال لا يمكنها أن تتصرف بواقعية واتقان، ولا يمكنها أن تقود الجنود والحشود من منطلق الواقع القتالي والعسكري.

من هنا لم يكن الهدف من العريش إن صحَّ أصل القصة هو الإعداد والتحسب للفرار وما شاكل ذلك.

تحرك قريش باتجاه بدر:

في صبيحة السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، ارتحلت قريش من وراء الكتيب وانحدرت إلى وادي بدر، فلما رآها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال:

«اللهم هذه قريشٌ قد أقبلت بُخَيْلاًئِها، وفخرها تحادُّك وَ تَكذَّبُ رسُولُك.

اللهم فَنَصْرُكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي بِهِ، اللهم أجنهم (2) الغداة. »

قريش تتشاور في القتال:

استقرت قوى قريش في منطقة من أرض بدر استعداداً للمواجهة، وحيث

- [نهج البلاغة لعبده: الكلمات القصار الكلمة ٢١٤، ويقول السيد الرضي (رضي الله عنه) عنه: معنى ذلك أنه إذا عظم الخوف من العدو، واشتد عضاض الحرب فزع المسلمون إلى قتال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بنفسه فينزل الله عليهم النصر به ويؤمنون مما كانوا يخافونه بمكانه.
-2 أي اهلكهم.

(73)

أنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن عدد أفراد المسلمين ومبلغ إستعداداتهم، لذلك كلفوا «عمير بن وهب الجمحي» وكان فارساً ماهراً في الاحصاء والتخمين - بأن يحرز (ويقدر بالحدس) عدد أصحاب محمّد.

فاستجال بفرسه حول عسكر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثم رجع إلى قريش وقال: ثلاثمائة رجل يزيدون أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتّى انظر ألقوم كمين، أو مدد.

فضرب في الوادي حتّى أبعد ولكنه لم ير شيئاً.

فرجع إلى قريش ثانيةً وهو يحمل لهم خبراً مرعباً إذ قال: ما وجدت شيئاً (أي كميناً أو مدداً وراء المسلمين) ولكني قد رأيتُ يا معشر قريش البلايا (1) تحمل المنايا، نواضح (2) يثرب تحمل الموت الناقع (3)، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم.

والله ما أرى أن يُقتلَ رجلٌ منهم حتّى يقتلَ رجلاً منكم، فإذا اصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فَرّوا رأيكم!!!

وروى الواقدي عبارات عمير بنحو آخر إذ قال: قال عمير: والله ما رأيتُ جلدأ ولا عدداً ولا حلقة ولا كراعاً، ولكني رأيتُ قوماً لا يريدون أن يؤبوا إلى أهلهم، قوماً مستميتين ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، زرق العيون كأنهم الحصى تحت الحجّات. (5) (4)

وروى المجلسي ما قاله عمير بنحو ثالث إذ قال: قال عمير: ما لهم كميئاً ولا مددً، ولكن نواضح يثرب قد حملت الموت النافع أما ترونهم خُرساً لا يتكلمون يتلمظون تلمظ الافاعي ما لهم ملجأ إلا سيوفهم ما أراهم يولون حتى يقتلوا، ولا يقتلون حتى يقتلوا بعددهم فارتأوا رأيكم. (6)

- 1- وهي جمع بلية وهي الناقة أو الدابة.
- 2- الأبل يستقى عليها الماء.
- 3- الموت الثابت البالغ في الأفناء.
- 4- الحجف جمع الحجفة وهي الثرس.
- 5- المغازي: ١ / ٦٢.
- 6- بحار الأنوار: ١٩ / ٢٢٤.

(74)

اختلاف قادة قريش في امر القتال:

أوجدت كلمات عمير الفارس الشجاع ضجة كبرى بين رجال قريش وسادتها وزعمائها، وانتاب الجميع خوفٌ بالغ ورعبٌ شديدٌ من المسلمين.

فمشى حكيم بن حزام إلى عتبة بن ربيعة ليقتعه بالعدول عن مقاتلة المسلمين، فقال له: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزل تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر، ترجع بالناس وتحمل أمرَ (دم) حليف عمرو بن الحضرمي، وما أصاب محمد من ماله ببطن نخلة (1) إنكم لا تطلبون من محمد شيئاً غير هذا الدم والمال؟!

فاقتنع عتبة برأي حكيم، فجلس من فوره على جملة، ووقف يخطب في المشركين من قريش بنطق جميل وبلغ يقول: يا قوم أطبعوني ولا تقاتلوا هذا الرجل واصحابه (يعني رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -)، يا معشر قريش أطبعوني اليوم واعصوني الدهر، إن محمداً له آل (أي قرابة) وذمة وهو ابن عمكم فخلوه والعرب، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه أو خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم وإن كان غير ذلك الفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون. (2)

وانطلق حكيم بن حزام إلى أبي جهل وأخبره برأي عتبة ومقاتلته، هذا وأبو جهل يهيبه درعه، فانزعج أبو جهل من مقالة عتبة وموقفه إنزعاجاً شديداً وثار تائرتة حسداً على عتبة، وتعتنا عن الحق (3)، وبعث من فوره رجلاً إلى عامر بن الحضرمي أخي عمرو الذي قُتل في غزوة عبدالله بن جحش بنخلة

1- إشارة إلى ما جرى في سرية عبدالله بن جحش.
2- المغازي: ١ / ٦٣، السيرة النبوية: ١ / ٦٢٣، بحار الأنوار: ١٩ / ٢٢٤.

3-قال صاحب المغازي: فحسده أبو جهل حين سمع خطبته وقال: ان يرجع الناس من خطبة عتبة يكن سيد الجماعة، وعتبة انطق الناس!!!

(75)

وقال له: هذا حليفك (عتبة) يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثارك بعينك، فقم وانشد خفرتك⁽¹⁾ ومقتل (أو دم) أخيك.

فقام عامر وكشف عن رأسه، وأخذ يحثو التراب على رأسه، وصاح مستغيثاً وأعمراه وأعمراه، تحريكاً للناس وإثارةً لمشاعرهم.

فهاج الناس لمنظر عامر وثارت مشاعرهم لندبته، وأجمعوا على الحرب، وتناسوا اقتراح عتبة، ونصيحته البليغة الحكيمة لهم. ولكن عتبة هذا الذي كان يميل إلى اعتزال الجيش وترك الحرب، هاجت مشاعره هو الآخر فقام من فورهِ وليس لامة حربه واستعد لقتال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه. (2)

وهكذا نجد كيف يتضاءل نور العقل عند هبوب رياح العاطفة الملتهبة، والمشاعر الثائرة الباطلة وتنطفئ شعلة الفكر، ولا يعود يضيء لصاحبه درب المستقبل حتى أن الرجل الذي كان قبل قليل داعية السلام، والتعايش الاخوي يتحول تحت تأثير ذلك الهياج العاطفي، العابر، الاحمق إلى أول مبادر إلى القتال وسفك الدماء وازهاق الارواح!!!

ما الذي حتم القتال؟

لما أبصر الاسود بن عبدالأسد المخزومي وكان رجلاً شرساً سيء الخلق الحوض الذي بناه المسلمون عند البئر لشربهم قال: اعاهد الله لاشربن من حوضهم أو لاهدمنه أو لأموئنّ دونه!!

ثم خرج من بين صفوف المشركين وشد حتى دنا من الحوض فاستقبله حمزة، ولما التقيا ضربه بسيفه حمزة فاطار قدمه، وهو دون الحوض فوقع على الأرض تشخب رجله دماً ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد ان يشرب منه أو ان

(76)

يبير يمينه، فاتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض.

فتسببت هذه الحادثة في أن يصبح القتال امراً مسلماً وحتماً، لانه ليس ثمة شيء يقدر على تحريك المشاعر، وإثارة العواطف ودفع الناس للقتال كسفك الدم.

فالذين كان الغيظ والحنق على المسلمين يكاد يقتلهم، وكانوا يبحثون عن ذريعة يشعلون بها نيران الحرب ويفجّرون فتيلها قد حصلوا

الآن على ما يريدون. (1)

المبارزات الفردية أولاً:

كان التقليد المتبع عند العرب في الحروب أن يبدأ القتال بالمبارزات الفردية ثم تقع بعدها الحملات الجماعية.

فلما قُتل الاسودُ المخزومي خرج ثلاثة فرسان من صناديد قريش المعروفين من صفوف الجيش المكي ودعوا إلى المبارزة.

وهؤلاء الصناديد الثلاثة هم:

1- عتبة. (2)

2- شيبه.

وهما ابنا ربيعة بن عبد شمس.

3- الوليد بن عتبة بن ربيعة.

فأخذوا يجولون في ميدان القتال ويدعون إلى المبارزة، فخرج اليهم من المسلمين فتية من الأنصار ثلاثة وهم «عوف» و «معوذ»

ابنا الحارث و «عبدالله بن رواحة.»

1- تاريخ الطبري: ٢ / ١٤٧ و ١٧٨.
2- وعتبة هذا هو الذي اقترح الانسحاب وعدم القتال كما عرفت. ويروى انه لما خرج قال له حكيم بن حزام: أبا الوليد مهلا، مهلا تنهى عن شيء وتكون أوله!! (المغازي: ١ / ٦٧).

ولما عرف عتبة أنهم من رجال المدينة قال: مالنا بكم من حاجة.

ثم نادى مناديهم: يا محمّد، أخرج لنا أكفأنا من قومنا.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«قم يا عبيدة بن الحارث وقم يا حمزة، وقم يا علي.»

فقاموا، وخرجوا للمبارزة، ولما دنوا منهم، سألهم عتبة عن أسمائهم فعرف أبطال الإسلام أنفسهم وذكروا أسماءهم.

فقال رجال المشركين الثلاثة: نعم أكفأ كرام.

ويرى البعض أنه بارز كلُّ من هؤلاء الثلاثة من كان على سنَّه من الكفار فبارز عليُّ - عليه السَّلام - الوليدَ (خال معاوية بن أبي سفيان) و بارز حمزة (وهو أوسطهم) عتبة (جدَّ معاوية لأمه) وبارز عبيدة (وهو أسنَّ الثلاثة) شبيبة وهو أسنَّ الكفار الثلاثة. غير أن ابن هشام يقول: بارز «حمزة» شبيبة، وبارز «عبيدة» عتبة، وبارز «عليُّ» الوليد بن عتبة. (1)

وهذا يعني أن حمزة (الايوسط في السن) قاتل الاسنَّ من الكفار.

فأَيُّ القولين هو الأصحَّ

إن ملاحظة أمرين توضح الحقيقة في هذا المجال:

الأول: إن المؤرخين كتبوا: أن علياً وحمزة قتلا خصميهما في الحال، ثمَّ ساعدا عبيدة على قتل خصمه. (2)

الثاني: إن الامام أمير المؤمنين - عليه السَّلام - كتب في كتاب له إلى معاوية:

«وَعِنْدِي السِّيفُ الَّذِي أَعْصَصْتُهُ بِجِدِّكَ وَ خَالِكَ وَ أُخْبِكَ فِي مَقَامِ

1-راجع لمعرفة كلا الرأيين سنن البيهقي: ٣ / ٢٧٦.
2-تاريخ الطبري: ٢ / ١٤٨، السيرة النبوية: ١ / ٦٢٥ قال: وكَرَّ حمزة وعلِيٌّ بأسياهما على عتبة.

واجد. (1)»

فمن هذا الكتاب يتضح بجلاء أن الامام - عليه السَّلام - شارك في قتل جدَّ معاوية (أي عتبة) هذا من جانب.

كما أننا نعلم من جانب آخر أن كلا من حمزة وعلياً قد قتل خصمه في اللحظة الأولى من المباراة. فإذا كان خصم حمزة هو عتبة

(جدَّ معاوية) لم يكن - حينئذ - أي معنى لقول الامام - عليه السَّلام - «أنا قتلت جدك.»

فلا مناص من أن نقول: إن الذي بارز حمزة هو شبيبة، وأن الذي بارز عبيدة هو عتبة ليصح حينئذ أن يقال أن علياً وحمزة، ذهبا -

بعد الفراغ من قتل خصميهما - إلى عتبة وكزا بأسياهما عليه وقتلاه، ثم احتملا صاحبهما «عبيدة» وأتيا به إلى رسول الله - صلَّى

الله عليه وآله وسلم - . (2)

وبهذا تترجح النظرية الثانية، والقاضية بعدم التكافؤ بين أسنان كلِّ من المتبارزين.

الهجومُ العامُّ:

إثر مقتل صناديد قريش الثلاثة في المباراة الفردية بدأ الهجومُ العامُ.

فتزاحفت الناسُ ودنا بعضهم من بعض، وقد أمرَ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أصحابه أن لا يحملوا حتَّى يأمرَهم، وأن يكتفوا برمي القوم بالنبال إذا اقتربوا منهم ليمنعوا من تقدّم العدو.

ثم نزل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من برج القيادة (العريش) وعدل صفوف أصحابه وفي يده سهمٌ يعدّل القوم. فمر بسواد بن غزية، وهو متقدم من الصف، فطعن في بطنه بالسهم الذي معه وقال له: استو يا سواد.

- [نهج البلاغة قسم الكتب الرقم ٦٤ واعضضته به جعلته يعضه.
- ثم إن المقصود من أخ معاوية الذي أشار الامام علي في كلمته إلى قتله هو حنظلة بن أبي سفيان بن حرب راجع السيرة النبوية: ١ / ٧٠٨ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٨ / ١٩.

(79)

فقال: يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقذني (أي اقتصن) لي من نفسك. فكشف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن بطنه وقال: استقد (أي أنت اقتصن) فاعتقه سواد وقبّل بطنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما حملك على هذا؟

قال: يا رسول الله حضر ماترى (من القتال) فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك.

فدعا له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بخير. (1)

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد أن عدل الصفوف رجع إلى غرفة العمليّات (العريش) فدخله وتوجه إلى ربه بقلب مفعم بالإيمان يناشده ما وعده من النصر وقال في مناجاته لربه في تلك اللحظات:

«اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ فَلَنْ تَعْبُدَ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا. (2)»

«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يُقَاتِلُهُمُ الْيَوْمَ رَجُلٌ فَيَقْتُلُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبَلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ.»

ولقد كانت كلمات القائد الاعلى هذه تفعل فعلتها في النفوس، فتثير الهمم، وتوجد شوقا عجيباً إلى الشهادة في المقاتلين المسلمين، حتّى أن أحدهم ويدعى «عُمير بن الحمام» أخو بني سلمة قال للنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وفي يده تَمَرَات ياكلُهُنَّ يا رسول الله: بخ بخ، أما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء.

- 1- السيرة النبوية: ٦٢٦ / ١ .
2- السيرة النبوية: ٢٦٧ / ١ ، تاريخ الطبري: ١٤٩ / ٢ .

(80)

ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قُتِل. (1)

ثم إن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أَخَذَ حَفَنَةً مِنَ الْحَصْبَاءِ فَاسْتَقْبَلَ بِهَا قَرِيشًا ثُمَّ قَالَ:

«شَاهَتِ الْوُجُوهَ.»

ثم نَفَحَهُمْ بِهَا، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ: شُدُّوا. (2)

ولم يمض وقتٌ طويل حتى ظهرت بوادر انتصار المسلمين على أعدائهم المشركين فقد انتاب المشركين خوفٌ ورعبٌ شديدان، وأخذوا ينهزمون أمام زحف المسلمين.

فقد كان المسلمون يقاتلون عن إيمان، وإخلاص ويعلمون بأنهم ينالون السعادة قتلوا أو قُتِلُوا، فلم يرهَبُوا شيئاً، وما كان يمنعهم شيء عن التقدم والإقبال.

رعاية الحقوق:

لقد كان لابد من رعاية الحقوق بالنسبة إلى طائفتين في معسكر المشركين:

الأولى: أولئك الذين أحسنوا إلى المسلمين في مكة، ودافعوا عنهم كأبي البخري الذي كان ممن قام في نقض الصحيفة الظالمة التي سبق الحديث عنها.

الثانية: أولئك الذين أكرهوا على الخروج من المشركين إلى بدر، وكانوا يرغبون في قرارة أنفسهم في الإسلام مثل معظم رجال بني هاشم كالعباس بن عبدالمطلب عم النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - .

مصرع أمية بن خلف:

ولقد أسير «أمية بن خلف» وابنه على يد عبدالرحمان بن عوف وإذ كان بينه

- 1- السيرة النبوية: ٦٢٧ / ١ .
2- المصدر السابق: ٦٢٨ . البداية والنهاية: ٢٨٤ / ٢ .

(81)

وبين أمية صداقة بمكة طلب أمية من عبدالرحمان أن يخرجها من أرض المعركة لكي لا يُقتل هو وولده، أو يُبعدا من الأسرى.

فرضى عبدالرحمان بذلك، وبينما هو يقودهما إذ أبصر بلال بهم وكان أمية هو الذي يعذب بلالا بمكة على ترك الإسلام فيخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت فيضجعه على ظهره ثم يأمر بالصرخة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول: لا تزال هكذا حتى تفارق دين محمد فيقول بلال: أحد، أحد.

فلما رآه بلال في الأسر وقد أقدم عبدالرحمان على حمايته والذب عنه وهو يريد نجاته وولده، صاح مستصرخاً المسلمين: يا أنصار الله رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا.

فأحاط المسلمون بأمية وولده من كل جانب وقطعوهما بسيوفهم حتى فرغوا منهما⁽¹⁾.

وقد نهى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن قتل أبي البخترى الذي كان له دورٌ مشرفٌ في نقض الحصار الاقتصادي الذي ضربته قريش على المسلمين في مكة، وكان لا يؤذي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فلقبه رجلٌ من المسلمين يُدعى «المجدر» فأراد أسره واستبقاه ريثما يأخذه إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ليرى فيه رأيه، ولكنه نازل المجدر، وأبي إلا القتال، فاقتتلا فقتله المجدر.

ثم ان المجدر أتى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال: والذي بعثك بالحق لقد جهدتُ عليه أن يُستأسرَ فاتيك به فأبى إلا أن يقاتلني فقاتلته فقتلته⁽²⁾.

خسائر بدر في الأرواح والاموال:

لقد قُتل في معركة «بدر» من المسلمين أربعة عشر رجلاً، وقُتل من المشركين سبعون وأسير سبعون من أبرزهم: النضر بن الحارث، وعقبة ابن أبي معيط، وأبو

[1] السيرة النبوية: ١ / ٦٣٢.
[2] السيرة النبوية: ١ / ٦٢٩ و ٦٣٠ وراجع الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٣.

غرة، وسهيل بن عمرو والعباس، وأبو العاص بن الربيع (صهر النبي).⁽¹⁾

ثم دُفِنَ شهداء بدر في جانب من أرض المعركة، وقيورهم باقية إلى الآن.

ثم أمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بأن يُلقى بقتلى المشركين في البئر.

وبينما كان يسحب عتبة بن ربيعة إلى البئر نظر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في وجه «أبي حذيفة» ابن عتبة فاذا هو كئيب، قد تغير لونه فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟!

فقال: لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكنني كنتُ أعرف من أبي رأياً وعلماً وفضلاً فكنْتُ أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام فلما رايتُ ما أصابه وذكرتُ ماماتٍ عليه من الكفر بعدَ الذي كُنْتُ أرجو له، أجزني ذلك!!
فدعا له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بخير. (2)

إن هذه القصة لتكشف عن مدى حبّ المسلمين لدينهم، ورغبتهم الصادقة في أن يهتدي إليه الناس كما تكشف أيضاً عن أنهم كانوا يقدّمون المعيار الديني على المعيار العائلي إذا تعارضاً.

ما أنتم باسمع منهم:

لقد انتهت معركة بدر بانتصار عظيم في جانب المسلمين وهزيمة نكراء في جانب المشركين.

فقد غادر المشركون ساحة القتال هاربين صوب مكة مخلفين وراءهم سبعين قتيلاً من صناديدهم وساداتهم وقتيانهم الشجعان وسبعين أسيراً.

ولما أمر النبيّ بالبقاء قتلى المشركين في القليب (3) وقف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عند القليب وأخذ يخاطب القتلى واحداً واحداً ويقول:

-1 السيرة النبوية: 1 / 706 و 708. المغازي: 1 / 138 - 173.
-2 السيرة النبوية: 1 / 640 و 641.
-3 القليب: البئر.

«يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبَةَ بن ربيعة، يا أمية بن خلف، يا أبا جهل (وهكذا عدد من كان منهم في القليب) هلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدْتُكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا، فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ ما وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا.»

فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله أنتادي قوماً موتى؟

فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني.»

وكتب ابن هشام يقول: إنَّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال يوم هذه المقالة:

«يا أَهْلَ القَلِيبِ بِنَسِّ عَشِيرَةِ النَّبِيِّ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ كَذِبْتُمُونِي وَوَصَدَّقْتَنِي النَّاسُ، وَأَخْرَجْتُمُونِي وَأَوَانِي النَّاسُ، وَقَاتَلْتُمُونِي وَنَصَرْتَنِي

النَّاسُ، (ثم قال:) هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبِّي حَقًّا؟⁽¹⁾»

الشعر يخلد هذه القصة:

يُعتبر هذا الموضوع من القضايا الثابتة والمسلّمة في التاريخ الاسلامي، فقد ذكره جميع المحدثين والمؤرخين من الشيعة والسنة، وقد ذكرنا طائفة من مصادره في الهامش.

وقد كان من دأب حسان بن ثابت شاعر عصر الرسالة ان ينشد أبياتاً في كل واقعة من وقائع الإسلام البارزة وبذلك يقوي من عزيمته المسلمين ويشد من أزرهم لأن الشعر يجلي البطولات ويكرم المواقع ويخلد الامجاد ويحافظ على المفاخر ويكسبها طابعاً أبدياً ولهذا يعد وسيلة جيدة لتقوية المعنويات، وإبطال مفعول الحرب الباردة والنفسية التي يقوم بها العدو.

وقد طبع ديوان «حسان» لحسن الحظ، ويمكن لنا أن نقف على الكثير من ايام الإسلام وامجاده من خلال قصائده، وابيائه المدرجة فيه.

[1- السيرة النبوية: ١ / ٦٣٩، السيرة الحلبية: ٢ / ١٧٩ و ١٨٠ وغيرهما.]

وقد أنشد حسان قصيدة بائية رائعة حول وقعة بدر الكبرى يشير في بعض ابياتها إلى هذه الحقيقة اعني قصة القلب إذ يقول:

يُنَادِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ لَمَّا * قَدَفْنَا هُمْ كِبَاكِبَ فِي الْقَلِيبِ

أَلَمْ تَجِدُوا كَلَامِي كَانَ حَقًّا * وَأَمْرَ اللَّهِ يَأْخُذُ بِالْقُلُوبِ؟

فَمَا نَطَفُوا وَلَوْ نَطَفُوا لَقَالُوا * صَدَقْتَ وَكُنْتَ ذَارَ أَيِّ مَصِيبِ!

على أنه لا توجد عبارة اشد صراحة من ما قاله رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المقام حيث قال: «ما أنتم بأسمع منهم»

وليس ثمة بيان أكثر إيضاحاً وأشدّ تقريراً لهذه الحقيقة من مخاطبة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لواحد واحد من أهل القلب، ومناداتهم بأسمانهم وتكليمهم كما لو كانوا على قيد الحياة.

فلا يحقّ لأىّ مسلم مؤمن بالرسالة والرسول أن يسارع إلى إنكار هذه القضية التاريخية الإسلامية المسلّمة، ويبادر قبل التحقيق ويقول: إن هذه القضية غير صحيحة لأنها لا تنطبق على موازين عقلي المادي المحدود.

وقد نقلنا هنا نص هذا الحوار، لكي يرى المسلمون الناطقون باللغة العربية كيف أنّ حديث النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يصرح بهذه الحقيقة بحيث لا توجد فوهة عبارة في الصراحة، والدلالة على هذه الحقيقة.

ومن أراد الوقوف على مصادر هذه القصة فعليه أن يراجع ما ذكرناه في الهامش ادناه. (1)

[1] إن تكلم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مع رؤوس الشرك الموتى الذين القيت اجسادهم في البئر من مسلمات التاريخ والحديث، وقد اشار إلى هذا من بين المحدثين والمؤرخين:
صحيح البخاري: ج ٥، في معركة بدر، ص ٧٦ و ٧٧ - ٨٦ و ٨٧، صحيح مسلم: ج ٨، كتاب الجنة: باب مقعد الميت ص ١٣٦، سنن النسائي: ج ٤ باب أرواح المؤمنين: ص ٨٩ و ٩٠، مسند الامام أحمد: ٢ / ١٣١، السيرة النبوية: ١ / ٦٣٩، المغازي: ج ١ غزوة بدر: ص ١١٢، بحار الأنوار: ١٩ / ٣٤٦.

(85)

بعد معركة بدر:

يعتقد كثير من المؤرخين المسلمين أن المبارزات الفردية ومن بعدها القتال الجمعي في غزوة بدر استمر حتى زالت الشمس وانتهت المعركة بفرار المشركين وأسر جماعة منهم. ثم بعد أن فرغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه من دفن شهداء المسلمين صلى بالناس العصر في بدر ثم غادر أرض بدر قبل غروب الشمس من ذلك اليوم، هذا وقد كلف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - اشخاصاً بجمع الغنائم من أيدي الناس.

وهنا واجه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - اول اختلاف بين أصحابه في كيفية تقسيم الغنائم، فقد كان كل فريق يرى نفسه أولى من غيره بها، نظراً لدوره في تلك المعركة.

فالذين كانوا يحرسون عريش رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مخافة أن يكرّ عليه العدو كانوا يرون أن عملهم لا يدانيه في الاهمية أي عمل آخر، لأنهم كانوا يحرسون القائد، ويحافظون على مقر القيادة.

وبينما كان الذين جمعوا الغنائم يرون أنهم الأحق لأنهم جمعوها، فيما كان الذين قد قاتلوا العدو ولاحقوه وطاردوه يقولون: والله لولا نحن ما أصبتموه، إنا لنحن الذين شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم. (1)

ولا ريب أن أسوأ ما يصيب أي جيش هو أن يدبّ الخلاف بين قطعاته وأفراده، فينفرط عقده وتتلاشى وحدته.

من هنا بادر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - للقضاء على هذه الآمال والمطامع المادية وبغية اسكات كل تلك الاصوات إلى إكمال جمع الغنائم وحملها، والمحافظة عليها إلى «عبدالله بن كعب المازني» وأمر جماعة من أصحابه أن يعينوه ريثما يفكر في طريقة تقسيمها. لقد كان قانون العدل والإنصاف يقضي بأن

-[المغازي: ١ / ٩٨ و ٩٩.

(86)

يشارك جميع أفراد ذلك الجيش في تلك الغنائم، لأنهم ساهموا بأجمعهم في تلك المعركة، وكان لكل منهم دورٌ ومسؤولية فيها، فما كان لفريق أن يحرز نجاحاً من دون أن يقوم الآخرون بأدوارهم.

من هنا قسم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الغنائم بينهم - في أثناء الطريق - على قدم المساواة، وفرز لذوي الشهداء أسهماً منها.

ولقد أثارت طريقة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في تقسيم الغنائم (وذلك بقسمتها على جميع المشاركين معه في معركة بدر بالتساوي) سخط «سعد بن أبي وقاص» فقال: يا رسول الله أيعطى فارسُ القوم الذي يحميهم مثل ما يعطى الضعيف؟ فقال النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: تكلتك أمك، وهل تُنصرون إلا بضعفانكم.»⁽¹⁾

وهو - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يقصد أن هذه الحرب لم تكن إلا لأجل الدفاع عن الضعفاء، ورفع الحيف عنهم، وانه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يُبعث إلا لإزالة هذه الفوارق والامتيازات الظالمة، وإلا لاجل اقرار المساواة في الحقوق بين الناس.

هذا ورغم أن خمس الغنيمة هي بنص آية الخمس⁽²⁾ لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى وابن السبيل من أهل بيته - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلا أنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يخمس غنائم «بدر» بل ورّع الخمس على المشاركين في بدر أيضاً.

على أنه يمكن أن تكون آية الخمس لم تنزل آنذاك بعد، أو أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يتمتع باختيارات خاصة، فصرف النظر عن أخذ الخمس لنفسه وقرباه، تكثيراً لأسهم المجاهدين، وذلك ولا ريب خطوة حكيمة جداً وخاصة في أول مواجهة عسكرية مع العدو.⁽³⁾

-[المغازي: ١ / ٩٩.

12-الأنفال: ١.

3-وجاء في بعض المصادر التاريخية ان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ضرب من الغنائم أسهما لأشخاص لم يحضروا بدر ولم يشتركوا في القتال مع رغبتهم في ذلك وذلك إما لامور أصابتهم عند الخروج إلى بدر أو لقيامهم بمهمات، تتعلق بأمر مراقبة العدو في الطرق أو للقيام بمهمات إدارية داخل المدينة.

قتل أسيرين في اثناء الطريق:

ولما كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في «الصفراء»⁽¹⁾ وهي أحد المنازل على طريق بدر - المدينة عرض عليه الاسرى فأمر بقتل النضر بن الحارث وكان من أعداء المسلمين الالداء.

وأمر بأن يضرب عنق عقبة بن أبي معيط إذ كان بعرق الظبية.

وهنا ينطرح سؤال وهو: إن حكم الإسلام في أسرى الحرب هو أنهم عبيدٌ للمسلمين والمجاهدين، يُباعون ويشترون باثمان مناسبة فلماذا حكم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في شأن هذين الأسيرين بحكم آخر؟.

ثم إنَّ النبيَّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الذي خاطب المسلمين في «بدر» في الأسرى الذين بايديهم وأوصاهم بهم خيراً قائلاً:

«إِسْتَوْصُوا بِالْأَسَارَى خَيْرًا.»

كيف اتخذ مثل هذا القرار في حق بعضهم؟

يقول أبو عزيز، وكان صاحب لواء في جيش قريش: كنت أسيراً في أيدي رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قتموا غداءهم وعشاءهم خصّوني بالخبز، وأكلوا التمر والخبز عندهم قليل والتمر زادهم، وذلك لوصية رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلاّ نفحني بها فأستحي فاردّها على أحدهم فيردّها عليّ، وكانوا يحملوننا ويمشون!!⁽²⁾

مع ملاحظة هذه الأمور لا بدّ من الاذعان بأن قتل هذين الأسيرين كان مما تقتضيه المصالح الإسلامية العامة، لا أنه كان بدافع الانتقام، فقد كان ذلك الأسيران من رؤوس الكفر، ومن مخططي الخطط الجهنّمية ضد الاسلام

-1[المغازي: ١ / ٦.

-2السيرة النبوية: ١ / ٦٤٥، المغازي: ١ / ١١٩.

والمسلمين، وضدّ الرسالة والرسول، وكانا ممن يؤلبون القبائل ضدّ رسول الإسلام فلعله لو كان النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يفرج عنهم ويطلق سراحهم عادوا إلى تدبير المؤمرات ضدّ الإسلام، والمسلمين، وعملا على تخطيط الخطط، وتأييب القبائل، فلم يكن بدّ من تصفيتهم والقضاء عليهم.

بشائر النبي إلى المدينة:

كأف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «عبدالله بن رواحة»، و «زيد بن حارثة» بأن يسبقاه إلى المدينة، ليبتثرا المسلمين بما حققه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه في بدر من الانتصار الكاسح والفتح المبين، ويخيرا أهلها بمصرع رؤوس الكفر والشرك كعتبة وشيبة وأبي جهل وأبي البختري وأمّية، ونبيه ومنبه و... و...

فما قدم المبعوثان إلى المدينة الا والمسلمون عائدون من دفن ابنة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - زوجة عثمان بن عفان فامتزجت الافراح بالاحزان، واختلط السرور بانتصار النبي وأصحابه بالحنن على موت ابنة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

وقد أربع المشركون واليهودُ والمنافقون بخبر انتصار المسلمين الساحق على قريش، وراحوا يحاولون تكذيبه، وتفنيده حتى إذا دخل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المدينة ودخل بعده أسرى قريش أصبح الخبر قطعياً مسلماً، فباعت محاولات المنافقين بالفشل.

المكيون يعرفون بمقتل أسيادهم:

كان «الحيسمان الخزاعي» أول من قدم مكة واخبر الناس باحداث «بدر» الدامية وبمصرع طائفة كبيرة من سادة قريش على أيدي المسلمين.

يقول أبو رافع الذي كان غلاماً للعباس بن عبدالمطلب أنذاك ثم أصبح من أصحاب النبي وعلي فيما بعد: كنت غلاماً للعباس، وكان الإسلام قد دخلنا

(89)

أهل البيت، فأسلم العباس وأسلمت أمُّ الفضل و أسلمت، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتنم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر، فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كبته الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزة.

وقد كنت رجلاً ضعيفاً وكنتُ أصنع السهام والنبال أنحتها في حجرة زمزم فوالله بينما أنا جالسٌ فيها أنحت سهامي وعندي أم الفضل جالسة وقد سرّنا ما جاءنا من الخبر عن هزيمة قريش، إذ أقبل أبو لهب يجزّ رجله بشراً حتى جلس عند طنّب⁽¹⁾ الحجرة فكان ظهره إلى ظهري، فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان فقال أبو لهب: هلمّ إليّ فعندك لعمرى الخبر.

فجلس إليه والناس قيامٌ عليه فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمرُ الناس؟

قال أبو سفيان: واللّٰه ما هو إلّا أن لقينا القوم فمحنناهم أكتافنا يقوئنا كيف شاؤوا، ويأسرونا كيف شاؤوا، وأيم اللّٰه مع ذلك ما لمئث الناس، لقينا رجالا بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض، واللّٰه ما تبقي شيئاً ولا يقوم لها شيء.

يقول أبو رافع: فرفعت طنّب الحجره، ثم قلت: تلك واللّٰه الملائكة.

فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهي ضربةً شديدة. (2)

اشترك العباس عمّ النبيّ في بدر:

يبقى أن نعرف أن مسألة اشترك العباس عمّ النبيّ في غزوة بدر من مشكلات التاريخ وغوامضه، فهو من الذين أسرهم المسلمون في بدر فهو من جانب يشارك في الحرب، ومن جانب آخر يحضر في بيعة العقبة، ويدعو أهل المدينة إلى حماية النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - ونصرته.

1-الطنّب: الطرف.
2-السيرة النبوية: ١ / ٦٤٦ و ٦٤٧.

(90)

فكيف يكون هذا؟

إن الحل يكمن في ما قاله أبو رافع غلام العباس نفسه: كان العباس قد أسلم ولكنه كان يهاب قومه ويكره خلافهم ويكنم اسلامه، مثل أخيه أبي طالب لاقتضاء المصالح الإسلامية ذلك، ومن هذا الطريق كان يساعد النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - ويخبره بمخططات العدو ونواياه وتحركاته واستعداداته كما فعل ذلك في معركة «أحد» أيضاً. (1) فقد كان أول من أخبر رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - بتحريك قريش وخطتهم واستعداداتهم.

المنع من النوح والبكاء في مكة:

وقد أفعج مقتل سبعين رجلاً من رجال مكة وقتيّن قريش أكثر البيوت والعوائل في مكة، وسلبهم البهجة والفرح، والنشاط والحركة، وتحولت مكة برمتها إلى ماتم كبير، وناحت قريش على قتلاها. (2)

غير أنّ أبا سفيان عمد - لابقاء أهل مكة على حالة الحنق والغضب - إلى منع النوح والبكاء على القتلى وحث الناس باستمرار على الاستعداد للثأر والانتقام من محمّد وأصحابه فقال: يامعشر قريش لا تبكوا على قتلكم، ولا تتح عليهم نائحة ولا يبكمهم شاعر، واطهروا الجلد والعزاء فانكم إذا نحتم عليهم وبكيتموهم بالشعر أذهب ذلك غيظكم، فأكلكم ذلك عن عداوة محمّد وأصحابه. ولعلكم تدركون ثأركم.

ولكي يلهب أبوسفیان مشاعر الناس أكثر فأكثر أو يبقي على سخونتها على الأقل، قال: والدهن والنساء على حرام حتى أغزو محمداً.

وكان «الأسود بن المطلب» أصيب له ثلاثة من ولده: زمعة وعقيل والحارث بن زمعة، فكان يحب أن يبكي على قتلاه، ولكنه ما كان ليستطيع

1- السيرة الحلبية: ٢ / ٢١٧.
2- المغازي: ١ / ١٢٢. قال: لم تبق دار بمكة إلا فيها نوح.

(91)

ذلك لمنع أبي سفيان من النواح والبكاء على القتلى.

فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل فقال لغلامه - وقد ذهب بصره وعمي: هل بكت قريش على قتلاها لعلّي أبكي على زمعة، فإن جوفي قد احترق.

فذهب الغلام ورجع إليه فقال: إنما هي امرأة تبكي على بعيرها قد أضلته، فأنشد الأسود بن المطلب حينها يقول:

أتبكي أن يضلّ لها بعيرٌ * ويمنعها من النوم السهود

فلا تبكي على بكر (1) ولكن * على بدر تقاصرت الجدود

على بدر سراة بني هصيص * ومخزوم ورهط أبي الوليد

ويكي ان بكيت على عقيل * وبكى حارثا اسد الاسود (2)

القرار الأخير حول مصير الاسارى:

في هذه المعركة بالذات أعلن رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - عن قرار تاريخي عظيم ورائع هو: أن من علم من الاسرى

عشرة من الغلمان والصبيان من أولاد الأنصار الكتابة والقراءة كان ذلك فداؤه وخلي عن سبيله من غير أن يؤخذ منه مال. (3)

وان من دفع فدية قدرها أربعة آلاف درهم إلى ألف درهم خلي سبيله وان من كان فقيراً لآمال له أفرج عنه دون فداء.

فأحدث هذا النبأ في مكة لدى عوائل الاسرى حركة عجيبة ودفعمهم إلى التفكير في تقديم الفداء إلى المسلمين، واطلاق اسراهم.

فهياً كل واحد منهم ما استطاع وقدم المدينة يفدي اسيره.

وعندما أفرج عن سهيل بن عمرو لقاء فدية قال عمر بن الخطاب لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :يا رسول الله دعني أنزع ثنايتي سهيل بن عمرو (أي أسنانه

-
- 1- البكر: الفتى من الابل.
 - 2- السيرة النبوية: ١ / ٦٤٨.
 - 3- السيرة الحلبية: ٢ / ١٩٣.

(92)

الامامية) ويدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا في موطن أبداً.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - « : لا أمثلُ به فيمثلُ الله بي وان كنتُ نبياً. ⁽¹⁾ »

وتلك لفتة انسانية أخرى من لفتات النبي العظيم الكثيرة في المعارك.

وقد كان في الاسارى أبو العاص بن الربيع زوج ابنة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : زينب.

وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالا وأمانة وتجارة، وقد تزوج زينب ابنة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الجاهلية.

ولما جاء الإسلام آمنت خديجة برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وآمنت بناته، (ومنهن زينب) كذلك وشهدن أن ما جاء به الحق، ودينَ بدينه، وثبت أبو العاص على شركه، وكان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لا يقدر على أن يفرق بينهما.

وقد اشترك أبو العاص هذا في معركة بدر مع قريش، وأسر بأيدي المسلمين.

فلما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في فداء أبي العاص بن الربيع بمال وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة قد أهدتها اليها ليلة دخول أبي العاص بها (ليلة زفافها).

فلما رأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تلك القلادة تذكر زوجته الوفية خديجة) عليها السلام (وما اسنته إلى الإسلام من خدمات وقدمته من تضحيات، وبكى بكاء شديداً.

فالتفت إلى المسلمين وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها

[1] السيرة النبوية: ٦٤٩ / ١، والمغازي: ١٠٧ / ١ يقول صاحب المغازي في صفحة ١٠٥ من نفس الجزء: كان عمر (رض) يحض على قتل الاسرى لا يرى أحداً في يديه أسير إلا امر بقتله!!

(93)

مالها فافعلوا.

فقالوا: نعم يا رسول الله، نفديك بأنفسنا وأموالنا.

فأطلقوه، وردوا عليها الذي لها وبذلك احترم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حقوق المسلمين وما يرجع إليهم من أموال بل أنها والله أعظم مظهر من مظاهر الديمقراطية، (ان صحَّ التعبير) فالنبى مع أن له ماله من الولاية على المسلمين يقترح عليهم الافراج عن زوج زينب ويترك الامر لاختيارهم.

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أخذ على أبي العاص الميثاق بأن يخلي سبيل زينب، ويبيعها إلى المدينة.

ف فعل أبو العاص ما تعهد به، وبعث زينب إلى المدينة.

ثم إن أبا العاص نفسه أسلم أيضاً وقدم المدينة، وردَّ عليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - زينب بالنكاح الاول أو بنكاح

جديد. (1)

رسول الإسلام ومكافحة الأمية:

كما أنه يتبين من قصة الاسرى الذين اطلق سراحهم لقاء تعليم أولاد المسلمين الكتابة والقراءة مدى اهتمام الإسلام بالثقافة والتثقيف، والوعي والتوعية، فان معرفة القراءة والكتابة بداية التثقيف والتوعية.

ولابد أن نقول هنا أيضاً إن اطلاق الاسارى العارفين بالقراءة والكتابة لقاء تعليم صبيان المسلمين تعد أول عملية لمكافحة الامية التي اهتم بها العالم الحاضر.

ففي الوقت الذي كانت الكثير من الدول في عصر الإسلام الاول تمنع من تثقيف أبنائها ورعاياها - كما مرَّ عليك في دراسة أوضاع الامبراطوريتين الفارسية والرومية - أعلن رسول الإسلام ان من لم يكن معه فداء وهو يحسن الكتابة دفع إليه عشرة من غلمان المدينة (أي صبيانها) يعلمهم الكتابة فاذا تعلموا كان ذلك فداءه... وما أعظمها من خطوة ثقافية وحضارية.

[1] السيرة النبوية: ٦٥١ - ٦٥٩، بحار الأنوار: ١٩ / ٣٤٨ و ٣٤٩.

(94)

كلام لابن أبي الحديد في المقام:

يقول العلامة ابن أبي الحديد: قرأت على (استاذي) النقيب أبي جعفر البصري العلوي هذا الخبر، فصدّقه وقال: أتري أبا بكر وعمر لم يشهدا هذا المشهد؟ أما كان يقتضي التكريم والاحسان أن يُطَيَّبَا قلبَ فاطمة عليها السلام، ويستوهب لها من المسلمين (أي يستوهب فدكاً من المسلمين ويردّه عليها)؟

أنقصُ منزلتها عند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من منزلة زينب أختها وهي سيدة نساء العالمين؟!!

هذا إذا لم يثبت لها حقٌّ بالنحلة ولا بالارث؟

فقلت له: فدك بموجب الخبر الذي رواه أبو بكر قد صار حقاً من حقوق المسلمين، فلم يجز له أن يأخذه منهم.

فقال: وفداء أبي العاص قد صار حقاً من حقوق المسلمين، وقد أخذه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - منهم.

فقلت: رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - صاحب الشريعة، والحكم حكمه، وليس أبو بكر كذلك.

فقال: ما قلتُ هلاً أخذه أبو بكر من المسلمين قهراً فدفعه إلى فاطمة عليها السلام (وإنما قلت: هلاً استنزل المسلمين عنه، واستوهبه منهم لها، كما استوهب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فداءً أبي العاص؟ أتراه لو قال: هذه بنت نبيكم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد حضرت لطلب هذه النخلات افتطيون عنها نفساً؟ كانوا منعوها ذلك؟!!

فقلت له: قد قال قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد نحو ذلك.

قال: إنهما لم يأتيا بحسن في شرع التكريم، وإن كان ما أتياه حسناً في الدين!!

أي إن ما فعلاه وإن كان يوافق موازين الدين - حسب تصور القاضي - ولكنه لا يناسب شأن فاطمة وتكريمها لمقامها ولمكانتها من أبيها رسول الله

هذا وقد أمر الله نبيّه الكريم بأن يعلن للاسرى بأن الباب مفتوح أمامهم لينضموا إلى صفوف المسلمين، فينعموا بالاسلام فيعيد الله عليهم أفضل مما أخذ منهم ويغفر لهم ذنوبهم، إذ يقول تعالى:

(يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم. (2))

وبذلك فتح الإسلام باب الأمل أمام الاسارى، وكشف عن نزعة الإنسانية وأيضاً عن رغبته الصادقة في هداية البشرية، ونجاتها. كما ضرب بذلك مثلاً في الحكمة وحسن السياسة لم يسبق له مثيل.

على انه هدّد الاسرى من ناحية أخرى إذا أساؤا، وعادوا بعد الخلاص من الاسر إلى التآمر ضد الإسلام.

إذ قال:

(وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. (3))

وبذلك جمع بين الحزم والحكمة، واللين الحكيم والشدة المعقولة.

القرآن يتحدث عن بدر:

ولقد ذكّر القرآن الكريم المسلمين، ولا يزال يذكرهم بالانتصار الكبير الذي تحقق للمؤمنين في بدر بفضل ثبات المقاتلين ونصر الله وتأبيده الغيبي إذ قال:

(إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيْعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ)

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 3 / 334 - 352 ولابن أبي الحديد كلام آخر يشبه هذا في اهدار من أسقط جنين زينب فراجع.
2الانفال: 70 و 71.
3-الانفال: 70 و 71.

(96)

هَلَكَ عَنْ بَيْتَةٍ وَيَحْيَى مِنْ حَى عَنْ بَيْتَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ* إِذْ يَرِيهِمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَ لَوْ أَرَاكُمْ كَثِيرًا لَفَاشَلْتُمْ وَتَنَزَّاعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ* وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقَلِّكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيُقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ. (4))

وقال تعالى:

«قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَّائِمَاتِ فَمِنَهُ تَغَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ.»⁽²⁾

وقال تعالى أيضاً:

«إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبِّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ إِنَّي مُدْعِمٌ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ.»⁽³⁾

وقوله تعالى:

(إِذْ يُغَشِّبِكُمُ النَّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجَزَ الشَّيْطَانِ وَليُزِيلَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُغْبِ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ.)⁽⁴⁾

وقال سبحانه أيضاً:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَى أَنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ)

1- الانفال: ٤٢ و ٤٤.

2- آل عمران: ١٣.

3- الانفال: ٩.

4- الانفال: ١١ - ١٢.

كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبُهُمْ فَيَقْلِبُوا خَانِبِينَ.»⁽¹⁾

وفي هذه الآيات تصريحات واضحة بما كان عليه المسلمون في معركة بدر من حيث قلة العدة والعدد، وبأبرز الامدادات الغيبية الإلهية التي ساعدت المسلمين على الانتصار على أعدائهم المشركين، الذين كانوا يفوقونهم في العدة والعدد والسلاح والرجال مع التأكيد على أن ذلك الانتصار العظيم جاء نتيجة ثبات المسلمين واستقامتهم، وصبرهم وإخلاصهم.

وأبرز تلك الامدادات الغيبية هي:

1- مع أن الاعداء كانوا متمركزين في العدو العليا وهي أعلى الوادي والمسلمين في أسفل الوادي، وكان ذلك من شأنه أن يعزز موقع الكفار لإمكان مراقبة المسلمين من مكان مرتفع كما كان من شأنه أن يجعل هجوم المسلمين على الكفار أمراً صعباً، ولكن كفة الحرب رجحت مع ذلك لصالح المسلمين.

2- إنهم لو كانوا على ميعاد مع العدو، ومع العلم التفصيلي بحجم امكانيته البشرية والقتالية لامتنع عامة المسلمين عن مقابلة المشركين، ولكن شاء الله أن لا يعرف المسلمون شيئاً مفصلاً عن المشركين، مسبقاً، بل يواجه المسلمون الأمر الواقع، فيتحقق ما أراد الله من الانتصار على قريش. وإلى هذا اشار سبحانه بقوله:

(وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِ الْمِيعَادِ)

3- تقليل عدد المسلمين في أعين المشركين وتقليل عدد المشركين في أعين المسلمين في أول القتال لكي يستغل الاعداء قوة المسلمين، ولكي لا يهاب المسلمون الاعداء ويستعظمو عددهم، وإليه يشير تعالى بقوله:

(إِذْ يَرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَاقُتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ)

4- تكبير عدد المسلمين في أعين الكفار في أثناء القتال وإليه يشير تعالى بقوله:

1- آل عمران: ١٢٣ - ١٢٧.

(98)

(يرونها مثلهم رأي العين)

5- الإمداد بالملائكة المردفين المسومين.

6- النعاس الذي ألقاه الله على المسلمين فجدد نشاطهم، وضاعف من قوتهم.

7- نزول المطر عليهم والذي طهرهم من الاقذار ومكنهم من الاغتسال عما أصاب بعضهم من حدث، وثبتت الأرض الرملية تحت أقدامهم، وقد أشار سبحانه إلى كل ذلك في الآية ١١ من سورة الانفال.

8- تثبيت قلوب المؤمنين بواسطة الملائكة.

9- لقاء الرعب في قلوب الكفار وإلى هذين النوعين من الإمداد الغيبي أشار بقوله: **فَنبِئُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ.**)

كما ويشير القرآن الكريم في هذا السياق إلى دور الشيطان في هزيمة الكفار فهو الذي يغري وهو الذي يخذل عند اللقاء يقول سبحانه:

(وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَءِثَ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بريءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ.)⁽¹⁾

كما أن القرآن يتحدث أيضاً عن حالة المشركين عندما أتوا إلى بدر لمواجهة المسلمين وما كانت تنطوي عليه نفوسهم فيقول:

(وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَ رِئَاءَ النَّاسِ وَ يُصْذُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ.)⁽²⁾

كما ويعزي هزيمتهم إلى سبب رئيسي وحقيقي وهو مشاققة الله ورسوله إذ يقول:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقَقُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.)⁽³⁾

1- الانفال: ٤٨ .

2- الانفال: ٤٧ .

3- الانفال: ١٣ .

(99)

وينبغي الإشارة في ختام هذا العرض التفصيلي - نوعاً ما - لوقعة بدر إلى تكتيكات النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - الحربية، وإلى أساليبه الحكيمة في تقوية معنويات المسلمين وإلى جانب تنظيم صفوفهم، مما لا يسع المجال لذكره على وجه التفصيل الكامل.

(100)

٣٠

زواج سيدة النساء فاطمة بنت رسول الله ﷺ

إن الرغبة الجنسية حالة تظهر عند البلوغ لدى كل إنسان، وربما تنحرف بالشباب وتهوي به في أحضان الفساد والسقوط الاخلاقي إذا لم تتوفر له أجواء التربية الصحيحة ولم تتح له الفرصة المناسبة، والمسير الصحيح لتنفيذ تلك الرغبة، والاستجابة لها بصورة صحيحة.

وان خير وسيلة للحفاظ على العفة الفردية والحياء العام، وتجنب الفرد والمجتمع مفاصد وأخطار الإنحراف الجنسي هو الزواج. فان الإسلام يحتم على الرجل والمرأة - تأكيداً لحكم الفطرة وتمثيلاً مع ناموس الطبيعة البشرية - أن يتزوجا طبقاً لضوابط خاصة تضمن سلامة الزيجة ودوامها.

وقد جاء هذا التأكيد، والحديث في الكتاب العزيز، والسنة الشريفة بمختلف الصور، وتحت مختلف العناوين:

فقد جاء في الكتاب العزيز:

«وَأَنْكَحُوا الْأَيَامَىٰ مِنَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ أَنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.»⁽²⁾

-1 كان زواج فاطمة بعد وقعة بدر، راجع بحار الأنوار: ٤٣ / ٧٩ و ١١١ .
-2النور: ٣٢.

(101)

وقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في هذا الصدد:

«تَزَوَّجُوا فَنِّي مَكَائِرُ بِكُمْ الْأُمَّمُ غَدًا فِي الْقِيَامَةِ.»⁽¹⁾

وقال أيضاً:

«من أحب أن يلقي الله طاهراً مطهراً فليلقه بزوجة.»⁽²⁾

مشاكل الزواج في العصر الحاضر:

على أن مشاكل الزواج في عصرنا الحاضر لا تنحصر - وللأسف - في مشكلة واحدة أو مشكلتين.

فالرجال والنساء اليوم يقدمون على الزواج - غالباً - في ظروف صعبة، وأوضاع رديئة، وتنتهي أكثر الزيجات بسبب تلك الظروف والأوضاع وبسبب، ما يلابسها من مستلزمات قاسية وثقيلة بالطلاق والافتراق بعد سلسلة من الخلافات والمنازعات.

فتلك هي صحف البلاد تحمل في أبوابها الاجتماعية كلَّ يوم عشرات الأنباء والأخبار عن الجرائم الزوجية وتعالج عشرات المشاكل في مجال العائلة.

ولكن أكثر هذه المشاكل والمصائب تدور حول قضية واحدة، وهي أن الفتیان والفتيات في مجتمعاتنا الحاضرة ليسوا بصدد تشكيل عائلة تضمن سعادتهم الواقعية.

فالبعض يهّمه من الزواج أن يصل عن طريقه إلى المناصب الراقية الحساسة.

والبعض الآخر يهّمه من الزواج الحصول على الثروة والمال.

وقلّما يفكر المقدمون على الزواج، وتأسيس العائلة في أمور هامة وجوهرية كالعفة والطهر، وإذا لوحظ هذا الجانب فإنما يلاحظ بصورة هامشية، لا أساسية.

ويدل على ذلك أن الشباب يتنافس غالباً على التزوج بفتيات من العوائل المعروفة ذات المكانة والشهرة الاجتماعية والمالية، والحال أنه يمكن أن تكون

1- وسائل الشيعة: ١٤ / ٣ و ٦.

2- وسائل الشيعة: ١٤ / ٣ و ٦.

(102)

تلك الفتيات غير متصفات بالاخلاق النبيلة، ولا يكتن من حيث الجانب المعنوي بالنوع الجيد، الجدير بالاهتمام، الصالح للاقتران به.

فما أكثر الفتيات الفاضلات، الطيبات هنا وهناك في زوايا المجتمع اللائي لايهتم بهن الشباب، لفقرهن، وقلة ذات ايديهن. أو لعدم شهرة عوائلهن.

على أن الأسو من ذلك كلّه ما اصبح يكلفه الزواج في عصرنا الحاضر من نفقات باهضة نتيجة تزايد التقاليد المبتدعة في مجال إقامة الاعراس وحفلات القران والزواج، الأمر الذي أصبح يرهق كاهل الزوجين، ويتعب عائلتيهما، مثل مشكلة المهور الباهضة، وما شابه ذلك مما هو في تصاعد مستمر في بلادنا، الأمر الذي دفع بالبعض إلى ترك الزواج، واشباع غرائزهم الجنسيّة بالوسائل غير المشروعة، ومن ثم شيوع اللابالية، والاباحية في المجتمعات.

رسول الإسلام يكافح هذه المشاكل عملياً:

تلك طائفة من المشاكل الاجتماعية التي كانت ولا تزال موجودة في كل مجتمع بنسب خاصة.

ولم تكن الفترة التي عاصرها رسول الإسلام بمستثناة من هذا الأمر فقد كانت هناك في المجتمع في عصر النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - مشاكل مماثلة في الزواج.

فقد كان أشرف العرب لا يزوجون بناتهم إلا لمن كان من قبيلة ذات مال وشوكة، ومكانة وقوة، ويردون كل خاطب لبناتهم يكون على غير هذه الصفة.

وقد كان الأشراف، بصرون - تبعاً لتلك العادة - على أن يتزوجوا بابنة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - السيدة فاطمة لانهم كانوا يتصورون أن النبي لن يتشدد في هذا الأمر، بل يكفيه أنهم ذو ثروة ومكانة اجتماعية مرموقة.

وكانوا يتصورون أنهم يمتلكون كل ما يهيم الفتاة وأباها من الامكانيات المادية، كيف لا والنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يتشدد في زواج ابنتيه الاوليين:

(103)

زينب ورقية.

ولكنهم غفلوا عن أن هذه الفتاة (أي فاطمة الزهراء) عليها السلام ((تختلف عن أختيها السابقتين.

إنها - كما تدل عليه آية المباهلة⁽¹⁾ - ذات مقام رفيع، وشأن كبير.

لقد أخطأ خُطاب فاطمة) عليها السلام (في هذا التصور، وما كانوا يعلمون أن زوج فاطمة وقرينها لا يمكن أن يكون إلا كفؤها في التقوى والفضل، والايمان والاخلاص، فاذا كانت فاطمة - بحكم آية التطهير - معصومة من الذنب وَجَبَ أن يكون زوجها هو الآخر معصوماً والا لم يكن كفؤها المناسب.

وليس المال وليست الثروة ملاك هذا التكافؤ.

لقد قال الإسلام: «إذا خطب إليكم كفو فزوجوه.»

ويفسر هذا التكافؤ بالمماثلة والتكافؤ في الايمان والتقوى، والطهارة والعفاف، لا في المال والثروة.⁽²⁾

ولقد كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مأموراً من جانب الله تعالى أن يقول لكل من خطب إليه «فاطمة» من اولئك الرجال: «أمرها بيد الله» وهو بهذه الاجابة يكشف القناع عن الحقيقة إلى درجة ما.

ولقد أدرك أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن زواج «فاطمة» ليس أمراً سهلاً وبسيطاً، وأنه ليس لمن كان من

الرجال وان بلغ من الثراء، والمكانة الاجتماعية أن يحظى بالزواج منها، فان زواج «فاطمة» ليس إلا من يشابهها من حيث الأخلاق

والفضائل، والصدق والايمان، والطهر، والاخلاص، بل ويلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في السجايا الكريمة والصفات

الرفيعة،

1- آل عمران: ٦١.
في قضية المباهلة اصطحب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - علياً والحسن والحسين وفاطمة دون غيرها من النساء وسيأتي مفصل هذه القصة.
2- راجع الوسائل: ١٤ / ٥٠ - ٥٢.

(104)

والخلق العظيم.

ولا تجتمع هذه الصفات والمواصفات إلا في «علي» - عليه السَّلام - لا سواه.

وللتأكد من هذه الحقيقة اقترح بعض الصحابة علي (عليه) - عليه السَّلام - أن يخاطب إلى النبي فاطمة صلوات الله عليهما. (1)

وكان علي - عليه السَّلام - يريد ذلك في نفسه، ويرغب إليه من كل قلبه إلا أنه كان ينتظر الفرصة المناسبة ليقيم على هذا الأمر.

فاتى علي - عليه السَّلام - بنفسه إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولما رآه رسول الله قال: ما جاء بك يا أبا الحسن، حاجتك.

فمنع الخجل علياً من البوح بمطلبه وسكت، وأطرق براسه إلى الارض، حياء من النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فقال له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : لعلك جئت تخاطب فاطمة؟ فأجاب علي - عليه السَّلام - بكلمات ضمنها رغبته في الزواج من فاطمة بنت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ولقد كان هذا النمط من الخطبة علامة واضحة لما كان بين رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبين علي - عليه السَّلام - ، من الاخوة والصفاء، ولما تحلّى به الجانبان من اخلاص وودّ. وما أروعها من ظاهرة. حقاً أنّ المبادئ والانظمة التربوية لم تستطع أن تعلم الشباب الذين يقدمون على الخطبة إلى أحد مثل هذه الحرية، المقرونة بالتقوى، والايمان والاخلاص.

لقد وافق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على طلب علي - عليه السَّلام - وقال:

«يا عليّ أنه لقد ذكرها قبلك رجال فنكرت ذلك لها فرأيت الكراهة في وجهها، ولكن علي رسلك حتى أخرج اليك.»

ثم دخل - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على فاطمة، فذكر لها الأمر، وأن علياً - عليه السَّلام - خطبها إليه قائلاً:

1- [بحار الأنوار: ٤٣ / ٩٣].

«إن علي بن أبي طالب من قد عرفت قرابته، وفضله واسلامه، واني قد سألت ربي أن يزوجه خير خلقه، وأحبهم إليه وقد ذكر من أمرك شيئاً فماترين؟»

فسكتت فاطمة سلام الله عليها، ولم ير رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في وجهها كراهة فقام وهو يقول:
«اللَّهُ أكبر، سكوئها إقرارها. (1)»

ولكن علياً - عليه السلام - لم يكن يملك آنذاك إلا سيفاً، ودرعاً فقط.

فأمره رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بأن يبيع درعه، ويهيء بثمنه عدة الزواج وجهاز العروس، فباع علي - عليه السلام - درعه، وأتى بثمنه إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وسكب المال بين يديه. (2)

فقبض - صلى الله عليه وآله وسلم - قبضة الدراهم، ودعا بلالا فأعطاه فقال:

«ابتع لفاطمة طيباً.»

ثم أعطى - صلى الله عليه وآله وسلم - بقية تلك الدراهم إلى ابي بكر وعمر بن ياسر وأمرهما أن يبتاعا لفاطمة ما يصلحها من ثياب وأثاث البيت، وما شاكل ذلك من احتياجات العروسين.

ففعلاً ذلك واشترى ما أمرهما به رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فكان جهاز فاطمة كالتالي:

جهاز فاطمة:

1- قميص بسبعة دراهم.

2- خمرة (3) بأربعة دراهم.

1- نفس المصدر السابق.

2- وفي رواية عن علي - عليه السلام - : فسكبت الدراهم في حجره فلم يسألني كم هي ولا أنا أخبرته.

3- الخمر: مقنعة.

3- قطيفة سوداء لاتكفي لتغطية كل البدن.

4- سرير مزمل بشريط (أي مصنوع من جريد النخل واليافه).

5- فراشان من خيش⁽¹⁾ مصر، حشو أحدهما ليف، وحشو الآخر من صوف الغنم.

6- اربع مرافق⁽²⁾ اثنان من الصوف واثنان من الليف.

7- ستر.

8- حصير هجري.

9- رحى لليد.

10- مخضب⁽³⁾ من نحاس.

11- سقاء من ادم.

12- قعب للبن.

13- شن⁽⁴⁾ للماء.

14- مطهرة مزقته⁽⁵⁾.

15- جرّة خضراء.

16- كيزان خزف.

فلما عرض المتاع على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جعل يقلبه بيده ويقول: «اللهم بارك لقوم جُلُّ أنبيئهم الخزف.»⁽⁶⁾

إن في مهر فاطمة اموراً تدعو إلى التأمل حقاً، أبرزها مقدار ذلك المهر.

فمهرها هو مهر السنّة وهو خمسمائة درهم.⁽⁷⁾

إن هذه الزيجة - في الحقيقة - خير درس للآخرين، للفتيان والفتيات الذين يئنون من ثقل المهر وبهاضته وربما يئنون من قيود

الزواج وشروطه.

1- الخيش: نسيج خشن من الكتان.

2- المرفقة: الوسادة.

3- المخضب: اناء للمسك والطيب.

4- الشنّ: القرية.

5- مطلبة بالزفت.

6- بحار الأنوار: ٤٣ / ٩٤، كشف الغمة: ١ / ٣٥٩.

7- وسائل الشيعة: ٥ / ١٨.

ان البيئة الزوجية يجب أن تكون - أساساً - بيئة دفاء وحنان، بيئة اخلاص ومودة. بيئة سلام ووفاق فهذا هو ما يسعد الحياة الزوجية ويوفر للزوجين عيشاً هانئاً محبباً.

أما المهور الثقيلة، والنفقات الباهضة والجهاز المكلف فلا تؤدي إلا إلى تعكير صفو الحياة الزوجية، والتقليل من بريق الرابطة العائلية، وبالتالي لا تضمن مستقبل الزواج ودوامه، والمحافظة عليه من الهزات.

إن أولياء الفتيات - في عصرنا الحاضر - يعمدون بغية دعم مكانة فتياتهم وتقوية مركزهن وضمان مستقبلهن إلى فرض سلسلة طويلة وثقيلة من الشروط والقيود ومنها المهر الباهض على العريس حتى لا يستطيع أن يقوم بطلاق زوجته تحت دوافع الهوى والشهوة، أو كلما سولت له نفسه ذلك، على حين أن هذا الاجراء لا يضمن بقاء الرابطة الزوجية، ودوامها بل العلاج الحقيقي والناجح هو اصلاح الوضع الاخلاقي للشباب، ورفع مستواهم المعنوي.

يجب أن تكون بيئتنا الثقافية والاجتماعية من الطهر والنقاوة بحيث لا يوجد في رحابها امثال هذه النوازع الشريرة عند شبابنا، والا بلغ الأمر إلى نقطة تستعد فيه الفتاة إلى بذل مهرها للنجاة بنفسها من البيت الزوجي.

مراسم الزواج تقام ببساطة:

ثم بعد أن عقد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لعلي - عليه السلام - على فاطمة (عليها السلام) (في رحاب مسجده على مرأى ومسمع من المسلمين وفي جو يسوده الفرح والابتهاج والسرور قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لعلي - عليه السلام - هبئي منزلاً حتى تحوّل فاطمة إليه فأخذوا منزل أحد الصحابة بصورة مؤقتة، وحوّلت فاطمة إلى علي - عليه السلام - في منزل ذلك الصحابي الجليل، في زفاف جميل مبارك وقد صنع على طعاماً من لحم وتمر وسمن واطعم المسلمين جميعاً تقريباً، وساد الناس فرح عظيم لم يشهد له نظير.

عن ابن بابويه: أمر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بنات عبدالمطلب ونساء

المهاجرين والأنصار أن يمضين في صحبة فاطمة (عليها السلام) (وان يفرحن، ويرجزن ويكبرن ويحمدن ولا يقولن ما لا يرضى الله.

قال جابر: فأركبها على ناقته - وفي رواية على بغلته الشهباء - وأخذ سلمان زمامها والنبىّ وحمزة وعقيل وجعفر وأهل البيت يمشون خلفها مشهرين سيوفهم ونساء النبىّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قدامها يرجزن، فانشأت أم سلمة تقول:

سرن بعون الله جاراتي * واشكرنه في كل حالات

واذكرن ما أنعم رب العلى * من كشف مكروه وأفات

فقد هदानا بعد كفر وقد * انعشنا رب السماوات

وسرن مع خير نساء الورى * تقدى بعمات وخالات

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لما دخلوا الدار أنفد إلى علي - عليه السلام - ثم دعا فاطمة عليها السلام (فأخذ يدها وقد علاها الاستحياء وتصيب منها العرق خجلا، بل وقد تعثرت من شدة خجلها فقال لها رسول الله: «اقالك الله العثرة»⁽¹⁾)

ووضعها في يده وقال:

«بارك الله في ابنة رسول الله، يا علي نعم الزوجة فاطمة، ويا فاطمة نعم الزوج علي.»

ثم أخذ بيده اناء فيه ماء وصب منه على رأس فاطمة وبدنها ودعا لهما قائلاً:

«اللهم اجمع شملهما، وألف بين قلوبهما، واجعلهما وذريتهما من ورثة جنة النعيم وارزقهما ذرية طاهرة طيبة مباركة، واجعل في ذريتهما البركة، واجعلهم أئمة يهدون بأمرك إلى طاعتك، ويأمرون بما يرضيك.

اللهم انهما أحب خلقك إليّ، فاحبهما واجعل عليهما منك حافظاً، وأني أعيدُهُما بك وذريتهما من الشيطان الرجيم.»⁽²⁾

1-بحار الأنوار: ٤٣ / ٩٦ .
2-بحار الأنوار: ٤٣ / ١١٤ - ١١٨ .

وبذلك أبدى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من نفسه في تلك الليلة صفاء و إخلاصاً لم يعرف له نظير حتى في مجتمعاتنا الحاضرة رغم ما حققته من تكامل ورشد.

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عدد لفاطمة فضائل علي كما ذكر لعلي فضائل فاطمة وانها «لولم يخلق علي لما كان لها كفؤ»⁽¹⁾ ثم ذكر لهما وظائفهما وواجباتهما العائلية فأوكل إلى فاطمة ما هو في داخل البيت من شؤون وأوكل إلى علي ما هو من شؤون الخارج.

ولا بد أن نذكر هنا قصة هامة أداء لحق فاطمة، وبياناً لمقامها.

يقول أنس بن مالك: إن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يمر ببيت فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى الفجر فيقول:

«الصلاة يا أهل البيت، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً»⁽²⁾

هذا وقد كانت هذه الزيجة أفضل زيجة في الإسلام وأكثرها بركة وخيراً، فقد عاش هذان القرينان الطاهران جنباً إلى جنب في وثام ووداد، في حياة زوجية طاهرة يسودها الاحترام المتقابل، والاخلاص الكامل من بدايتها إلى نهايتها.

وقد أنجبا أفضل الاولاد والبنات أبرزهم: الامام الحسن والامام الحسين عليهما السلام (سبطا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الاثنيان لديه، والمقربان إليه وزينب بنت علي التي رافقت أخاها في وقعة كربلاء الدامية وكان لها مواقف عظيمة ومشرفة في الرعاية للحق والعدل، ونصرة الإسلام، وغيرهم من الاولاد ذكوراً واناثاً).

وقد بقي كلا الزوجين (علي وفاطمة) حتى آخر اللحظات عارفين بمكانة

-1 مسند احمد بن حنبل: ٢ / ٢٥٩ .

-2 الدر المنثور: ٥ / ١٩٩ .

الأخر، فكلاهما من أهل البيت الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وكلاهما من القربى الذين أمر بمودتهم ولهذا لم يتزوج علي - عليه السلام - على الزهراء امرأة أخرى الا بعد وفاتها، كما فعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالنسبة إلى خديجة، وفاء لحقها، واحتراماً لمقامها.

لكن بعض الايادي دسّت - مع الأسف - في التاريخ أباطيلاً للتقليل من شأن هذين الزوجين الطاهرين، والحط من مكانتهما، فنسبت إليهما التنازع، والتشاجر، أو نسبت إلى فاطمة شكاية علي - عليه السلام - إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأوردت في هذا المجال روايات مختلفة، لا أساس لها من الصحة، تفندھا أخلاق علي وفاطمة وتقواهما وزهدهما، وتكذبها ما جاء في شأنهما وجماله قدرهما من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية.

وقد استند أعداء الإسلام التقليديون إلى امثال هذه الروايات لمسوخ صورة الإسلام الحنيف وتشويه سمعة رجاله العظماء ونسائه الخالدات الطيبات.

فهذا هو المستشرق النصراني الحاقد الاستاذ اميل درمنغم في كتابه المليء بالباطيل: «حياة محمد» ترجمة الاستاذ محمد عادل زعير بعد ان يلصق برسول السلام تهماً عجيبة ويصفه بالبديوى الحمس، يقع في علي وفاطمة عليها السلام!!)

فتارة يقول: ان فاطمة كانت عابسة دون رقية جمالا، ودون زينب ذكاء، وانها لم تكن ترغب في علي لانها كانت تعد علياً دميماً محدوداً مع عظيم شجاعته!! وان علياً كان غير بهي الوجه.. و... و.. مع انه كان تقياً شجاعاً صادقاً وفيماً مخلصاً صالحاً مع توان وتردد!!

وكان اذا عاد إلى منزله من العمل بشيء من القوت قال لزوجته فاطمة عابساً: كلي اطعمي الاولاد!! وأن علياً كان يجرّد بعد كل منافرة ويذهب لينام في المسجد وكان حموه يربته على كتفه ويعظه ويوقق بينه وبين فاطمة إلى حين، ومما حدث أن رأى النبي ابنته في بيته ذات مرة وهي تكي من لكم علي لها!!

(111)

ثم يقول: إن محمداً - مع امتداحه قدم علي في الإسلام ارضاء لابنته - كان قليل الالتفات إليه وكان صهراً للنبي الامويان: عثمان الكريم وأبو العاص أكثر مداراة للنبي من علي، وكان علي يألّم من عدم عمل النبي على سعادة ابنته ومن عدّ النبي له غير قوام بجليل الأعمال فالنبي وان كان يفوض إليه ضرب الرقاب كان يتجنب تسليم قيادة إليه⁽¹⁾!!

إلى غير ذلك من الترهات والسخافات التي الصقها تارة برسول الله الاكرم محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وأخرى بحبيبه وابن عمه ووصيه الامام علي بن أبي طالب - عليه السلام - .

إن أفضل اجابة عن هذه الافتعالات هو ما كتبه العلامة الاميني حيث يقول:

كل ما في الكتاب من تلكم الاقوال المختلفة، والنسب المفتعلة إن هي إلا كلم الطائش، تخالف التاريخ الصحيح، وتضاد ما أصفقت عليه الأمة الإسلامية، وما أخبر به نبيها الأقدس.

هل تناسب تقولاته في فاطمة مع قول أبيها - صلى الله عليه وآله وسلم - :فاطمة حوراء إنسيّة كلما اشتقت إلى الجنة فبئتها؟⁽²⁾

أو قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «:ابنتي فاطمة حوراء آدمية؟»⁽³⁾

أو قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «:فاطمة هي الزهرة؟»⁽⁴⁾

أو قول أم أنس بن مالك: كانت فاطمة كالقمر ليلة البدر أو الشمس كفر غماماً، إذ خرج من السحاب بيضاء مشربة حمرة، لها شعر أسود، من أشد الناس برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - شبيهاً، والله كما قال الشاعر:

بيضاء تسحب من قيام شعرها * وتغيب فيه وهو جئلاً أسحماً⁽⁵⁾

(112)

فكأنها فيه نهارٌ مشرقٌ * وكأنه ليلٌ عليها مظلم⁽¹⁾

ولقبا الزهراء المتسالم عليه يكشف عن جليلة الحال.

وهل يساعد تلك التحكمات في ذكاء فاطمة وخلقها قول أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها: كانت فاطمة تحب في بطن أمها، ولما ولدت فوقعت حين وقعت على الأرض ساجدة رافعة أصبعها؟⁽²⁾

أو يلائمها قول عائشة: ما رأيت أحداً أشبه سمتاً ودلاً وهدياً وحديثاً برسول الله في قيامه وعوده من فاطمة، وكانت إذا دخلت على رسول الله قام إليها فقبلها ورحب بها، وأخذ بيدها وأجلسها في مجلسه؟⁽³⁾

وفي لفظ البيهقي في السنن ج ٧، ص ١٠١: ما رأيت أحداً أشبه كلاماً وحديثاً من فاطمة برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الحديث.

وهل توافق مخاريفه في الامام علي صلوات الله عليه، وعدم بهاء وجهه، وعد فاطمة له دميماً وكونه عابساً مع ماجاء في جماله البهي: أنه كان حسن الوجه كأنه قمر ليلة البدر، وكأن عنقه إبريق فضة⁽⁴⁾ ضحوك السن⁽⁵⁾ فإن تيسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم؟⁽⁶⁾

وأين هي من قول أبي الأسود الدولي من أبيات له؟!

إذا استقبلت وجه أبي تراب * رأيت البدر حار الناظرينا⁽⁷⁾

1- مستدرک الحاكم: ٣ / ١٦١ .

2- سيرة الملاء، ذخائر العقبى: ص ٤٥، نزهة المجالس: ٢ / ٢٢٧ .

3- أخرجه الحافظ ابن حبان كما في ذخائر العقبى ٤٠ م، والحافظ الترمذي وحسنه، والحافظ العراقي في التقریب كما في شرحه له ولابنه: ١ / ١٥٠، وابن عبد ربه في العقد الفريد: ٢ / ٣، وابن طلحة في مطالب السؤل: ص ٧، اسعاف الراغبين: ص ١٧١ . ٤ - كتاب صفین: ص ٢٦٢، الاستيعاب: ٢ / ٤٦٩، الرياض النضرة: ٢ / ١٥٥، نزهة المجالس: ٢ / ٢٠٤ .

5- تهذيب الاسماء واللغات للامام النووي.

نعم:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا فضله * فالناس أعداء له وخصوم

كضرائر الحسناء قلن لوجهها * حسداً وبغضاً: إنّه لدميم

أو يخبرك ضميرك الحرّ في علي ما سلقه الرجل به من (التواني والتردد)؟!

وعلى ذلك المتقحم في الأحوال، والضارب في الأوساط والأعراض في المغازي والحروب؛ وهو الذي كشف الكرب عن وجه رسول الله في كلّ نازلة وكارثة منذ صدع بالدين الحنيف، إلى أن بات على فراشه وفداه بنفسه، إلى أن سكن مقرّه الأخير. أليس عليّ هو ذلك المجاهد الوحيد الذي نزل فيه قوله تعالى: **أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله**. (وقوله تعالى): **ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله**(1).

فمتى خلى عليّ عن مقارعة الرجال والذنب عن قدس صاحب الرسالة حتّى يصحّ أن يُعزى إليه توان أو تردّد في أمر من الامور؟! غير ان القول الباطل لا حدّ له ولا أمد.

وهل يتصوّر في أمير المؤمنين تلك العشرة السيئة مع حليته الطاهرة؟! والندى يقول له: أشبهت خلقي وخلقي وأنت من شجرتي التي أنا منها. (2)

وكيف يراه النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - أفضل أمته أعظمهم حليماً، وأحسنهم خلقاً، ويقول: عليّ خير أمّتي أعلمهم علماً وأفضلهم حليماً؟. (3)

ويقول لفاطمة: إنّي زوّجتك أقدم أمّتي سلماً، وأكثرهم علماً، وأعظمهم حليماً؟. (4)

1-راجع الجزء الثالث من «الغدیر»: ص ٤٧، ٥٣ ط ثاني.
2-تاريخ البغداد للخطيب: ١١ / ١٧١.
3-الطبري، الخطيب، الدولابي. كما في كنز العمال: ٦ / ١٥٣ و ٣٩٢ و ٣٩٨.
4-مسند أحمد: ٥ / ٢٦، الرياض النضرة: ٢ / ١٩٤، ذخائر العقبى: ص ٧٨، مجمع الزوائد: ٩ / ١٠١، ١١٤، وصححه ووثق رجاله.

ويقول لها: زوجتك أقدمهم سلماً، وأحسنهم خلقاً؟⁽¹⁾!

يقول هذه كلها وعشرته تلك كانت بمرأى منه ومسمع، أفك الدجالون، كان عليّ - عليه السّلام - كما أخبر به النبيّ الصادق الأمين.

وهل يقبل شعورك ما قذف به الرجل (فضّ الله فاه) عليّاً بلکم فاطمة بضعة المصطفى؟! وعليّ هو ذاك المقتص أثر الرسول وملاً

مسامعه قوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - لفاطمة: إنّ الله يغضب لغضبك، ويرضى لرضائك. (2)

وقوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - وهو أخذ بيدها: من عرف هذه فقد عرفها، ومن لم يعرفها فهي بضعة منّي، هي قلبي وروحي

التي بين جنبيّ، فمن آذاها فقد آذاني. (3)

وقوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - فاطمة بضعة منّي، يربيني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها. (4)

وقوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها فقد أغضبني. (5)

وقوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - فاطمة بضعة منّي، يقبضني ما يقبضها، ويبسطني ما يبسطها. (6)

[1] أخرجه أبو الخير الحاکمي كما في الرياض النضرة: ٢ / ١٨٢.
2- مستدرک الحاکم: ٣ / ١٥٤ و صحیحه، ذخائر العقبی: ٣٩، تذکرة السیط: ١٧٥، مقتل الخوارزمی: ١ / ٥٢، کفاية الطالب: ٢١٩، شرح المواهب للزرقانی: ٣ / ٢٠٢، كنوز الدقائق للمناوي: ٣٠، أخبار الدول للقرماني هامش الكامل: ١ / ١٨٥، كنز العمال: ٧ / ١١١ عن الحاکم وابن النجار، تهذيب التهذيب: ١٢ / ٤٤٣، الإصابة: ٤ / ٣٧٨، الصواعق: ١٠٥، الاسعاف: ١٧١ عن الطبراني، ينابيع المودة: ١٧٣.
3- الفصول المهمة: ١٥٠، نزهة المجالس: ٢ / ٢٢٨، نور الابصار: ٤٥.
4- صحاح البخاري ومسلم الترمذي، مسند أحمد: ٤ / ٣٢٨، الخصائص للنسائي: ٣٥، الإصابة: ٤ / ٣٧٨.
5- صحيح البخاري: خصائص النسائي: ٣٥.
6- مسند أحمد: ٤ / ٣٢٣ و ٣٣٢، الصواعق: ١١٢.

وهل يقصر امتداح النبيّ عليّاً بقدم إسلامه؟! حتّى يتفلسف في سرّه ويكون ذلك إرضاءً لإبنته، على أنّ امتداحه بذلك لو كان لتلك

المزعمة لكان يقتصر - صلّى الله عليه وآله وسلم - على قوله لفاطمة في ذلك وكان يتأتى الغرض به، فلماذا كان يأخذ - صلّى الله

عليه وآله وسلم - بيد عليّ في الملأ الصحابي تارةً ويقول: إنّ هذا أوّل من آمن بي، وهذا أوّل من يصافحني يوم القيامة؟ ولماذا كان

يخاطب أصحابه أخرى بقوله: أولكم وارداً عليّ الحوض أولكم إسلاماً عليّ بن أبي طالب؟!!

وكيف خفي هذا السرّ المختلق على الصحابة الحضور والتابعين لهم باحسان فطفقوا يمدحونه - عليه السّلام - بهذه الاثارة كما يروى

عن: سلمان الفارسي، أنس بن مالك، زيد بن ارقم، عبدالله بن عباس، عبدالله بن حجل، هاشم بن عتبة، مالك الاشتهر، عبدالله بن

هاشم، محمد بن أبي بكر، عمرو بن الحمق، أبو عمرة عدّي بن حاتم، أبي رافع، بريدة، جندب بن زهير، أمّ الخير بنت الحريش.

وهل القول بقلّة إلتفات النبيّ إلى عليّ يساعده القرآن الناطق بأنّه نفس النبيّ الطاهر؟! أو جعل مودّته أجر رسالته؟!!

أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في حديث الطير المشويّ الصحيح المرويّ في الصحاح والمسانيد: اللَّهُمَّ أَنْتَنِي بِأَحَبِّ خَلْقِكَ إِلَيْكَ لِيَأْكُلَ مَعِيَ؟!!

أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لعائشة: «إِنَّ عَلِيًّا أَحَبُّ الرِّجَالِ إِلَيَّ، وَأَكْرَمُهُمْ عَلَيَّ، فَاعْرِفِي لَهُ حَقَّهُ وَارْمِي مَثْوَاهُ؟»⁽¹⁾!

أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ مِنَ الرِّجَالِ عَلِيٌّ؟»⁽²⁾!

أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: عَلِيٌّ خَيْرٌ مِنْ أَتْرَكَهُ بَعْدِي؟»⁽³⁾!

أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: خَيْرٌ رِجَالِكُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَخَيْرٌ

1- أخرجه الحافظ الخجندي كما في الرياض: ٢ / ١٦١، وذخائر العقبى: ٦٢.

2- وفي لفظ: أحب أهلي، من حديث أسامة.

3- مواقف الايجي: ٣ / ٢٧٦، مجمع الزوائد: ٩ / ١١٣.

(116)

نسانكم فاطمة بنت محمد؟⁽¹⁾!

أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: عَلِيٌّ خَيْرُ الْبَشَرِ فَمَنْ أَبِي فَقَدْ كَفَرَ.»⁽²⁾

أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: مَنْ لَمْ يَقُلْ عَلِيٌّ خَيْرُ النَّاسِ فَقَدْ كَفَرَ؟»⁽³⁾!

أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :في حديث الراية المتفق عليه: لأعطين الراية غداً رجلاً يحبّه الله ورسوله ويحبّ الله ورسوله ؟

أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: عَلِيٌّ مَنِّي بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ (رَأْسِي) مِنْ بَدَنِي أَوْ جَسَدِي؟»⁽⁴⁾

أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: عَلِيٌّ مَنِّي بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَبِّي؟»⁽⁵⁾

أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: عَلِيٌّ أَحَبَّهُمْ إِلَيَّ وَأَحَبَّهُمْ إِلَى اللَّهِ.»⁽⁶⁾

أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لعلّي: «أنا منك وأنت مني. أو: أنت منّي وأنا منك؟»⁽⁷⁾

أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: عَلِيٌّ مَنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَهُوَ وَلِيُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ بَعْدِي؟»⁽⁸⁾

أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في حديث البعث بسورة البراءة المجمع على

1- تاريخ بغداد للخطيب: ٤ / ٣٩٢.

2- تاريخ الخطيب عن جابر، كنوز الحقائق هامش الجامع الصغير: ٢ / ١٦. كنز العمال: ٦ / ١٥٩.

3- تاريخ الخطيب البغدادي: ٣ / ١٩٢، عن ابن مسعود. كنز العمال: ٦ / ١٥٩.

- 4-تاريخ الخطيب: ١٢ / ٧، الرياض النضرة: ١٦٢ / ٢، الصواعق: ص ٧٥ م - الجامع الصغير للسيوطي، شرح العريزي: ٢ / ٤١٧، فيض القدير: ٣٥٧ / ٤، نورالأبصار: ص ٨٠، مصباح الظلام: ٥٦ / ٢.
- 5-الرياض النضرة: ١٦٣ / ٢، السيرة الحلبية: ٣٩١ / ٣.
- 6-تاريخ الخطيب: ١٦٠ / ١.
- 7-مسند أحمد: ٢٠٤ / ٥، خصائص النسائي: ص ٣٦ و ٥١.
- 8-مسند أحمد: ٣٥٦ / ٥ وأخرجه جمع من الحفاظ بإسناد صحيح.

(117)

- صحته: لا يذهب بها إلا رجلٌ مني وأنا منه. (1)
- أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : لحمك لحمي ودمك دمي والحقُّ معك؟. (2)
- أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : ما من نبيٍّ إلا وله نظير في أمته وعليُّ نظيري؟. (3)
- أو ما صحَّحه الحاكم وأخرجه الطبراني عن أم سلمة قالت: كان رسول الله إذا أغضب لم يجترىء أحدٌ أن يكلمه غير عليٍّ؟. (4)
- أو قول عائشة: والله ما رأيت أحداً أحبَّ إلى رسول الله من عليٍّ ولا في الأرض امرأة كانت أحبُّ إليه من امرأته؟. (5)
- أو قول بريدة وأبي: أحبُّ الناس إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من النساء فاطمة ومن الرجال عليٌّ؟. (6)
- أو حديث جُميع بن عمير قال: دخلت مع عمّتي على عائشة فسألت أئى الناس أحبَّ إلى رسول الله؟! قالت: فاطمة. فقيل: من الرجال؟ قالت: زوجها، إن كان ما علمت صَوَماً قَوَماً. (7)
- وكيف كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يُقَدِّم الغير على عليٍّ في الإلتفات إليه؟! وهو أوَّل رجلٍ إختاره الله بعده من أهل الأرض لما أطلع

- 1-خصائص النسائي: ص ٨.
- 2-المحاسن والمساوى: ٣١ / ١، كفاية الطالب: ص ١٣٥، مناقب الخوارزمي: ص ٧٦ و ٨٣ و ٨٧، فراند السمطين: في الباب ٢ و ٢٧.
- 3-الرياض النضرة: ١٦٤ / ٢.
- 4-مستدرك الحاكم: ١٣٠ / ٣، الصواعق: ٧٣، تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١١٦.
- 5-مستدرك الحاكم: ١٥٤ / ٣، صححه، العقد الفريد: ٢ / ٢٧٥، خصائص النسائي: ٢٩، الرياض النضرة: ١٦١ / ٢.
- 6-خصائص النسائي: ص ٢٩، مستدرك الحاكم: ٣ / ١٥٥، صححه هو والذهبي، جامع الترمذي: ٢ / ٢٢٧.
- 7-جامع الترمذي: ٢ / ٢٢٧، ط الهند، مستدرك الحاكم: ٣ / ١٥٧، وجمع آخر.

(118)

- عليهم كما أخبر به - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فاطمة بقوله: إنَّ الله أطلع على أهل الأرض فاختار منه أباك فبعثه نبياً، ثمَّ أطلع الثانية فاختار بعلك فأوحى إليَّ فأنكحته واتَّخذته وصياً. (1)
- ويقوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : إنَّ الله اختار من أهل الأرض رجلين أحدهما أبوك والآخر زوجك. (2)

وإني لا يسعني المجال لتحليل كلمة الرجل: وكان صهرا النبي الأمويان... إلخ: وحسبك في مداراة عثمان الكريم حديث أنس عن رسول الله لما شهد دفن رقية بنته العزيزة وقعد على قبرها ودمعت عيناه فقال: أيكم لما يُقارَف الليلة أهله؟! فقال أبو طلحة: أنا فأمره أن ينزل في قبرها.

قال ابن بطال: أراد النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أن يحرم عثمان النزول في قبرها وقد كان أَحَقَّ النَّاسِ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ بَعْلَهَا وَقَدْ مَنَّا عِلْقًا لَا عَوْضَ مِنْهُ لِأَنَّهُ حِينَ قَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَيُّكُمْ لَم يُقَارَفِ اللَّيْلَةَ أَهْلَهُ؟! سَكَتَ عُمَانُ وَلَمْ يَقُلْ: أَنَا. لِأَنَّهُ قَدْ قَارَفَ لَيْلَةَ مَاتَتْ بَعْضُ نِسَائِهِ، وَلَمْ يَشْغَلْهُ الْهَمُّ بِالصَّبِيَّةِ وَانْقِطَاعِ صَهْرِهِ مِنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عَنِ الْمَقَارِفَةِ فَحَرَّمَ بِذَلِكَ مَا كَانَ حَقًّا لَهُ وَكَانَ أَوْلَى بِهِ مِنْ أَبِي طَلْحَةَ وَغَيْرِهِ. وَهَذَا بَيِّنٌ فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ وَلَعَلَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كَانَ عِلْمَ ذَلِكَ بِالْوَحْيِ فَلَمْ يَقُلْ لَهُ شَيْئًا لِأَنَّهُ فَعَلَ حَلَالًا غَيْرَ أَنَّ الْمَصِيبَةَ لَمْ تَبْلُغْ مِنْهُ مَبْلَغًا يَشْغَلُهُ حَتَّى حَرَّمَ مَا حَرَّمَ مِنْ ذَلِكَ بِتَعْرِيزِ غَيْرِ صَرِيحٍ. (3)

وما عساني أن أقول في أبي العاص الذي كان على شركه إلى عام الحديبية، وأسر مع المشركين مرتين، وفرق الإسلام بينه وبين زوجته زينب بنت النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ست سنين، وهاجرت مسلمة وتركته لشركه، ولم ترد

1- أخرجه الطبراني عن أبي أيوب الأنصاري كما في إكمال كنز العمال: ٦ / ١٥٣، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد: ٩ / ١٦٥ عن علي الهاللي.
2- المواقيف: للإيجي: ص ٨.
3- الروض الانف: ٢ / ١٠٧.

قطب بعد إسلامه كلمة تُعرب عن صلته مع النبي ومداراته له فضلا عن مقايسته بعلي أبي ذرّيته وسيّد عترته.

وقد اتهم الرجل نبي الإسلام بعد العمل على سعادة بنته الطاهرة المطهرة بنص الكتاب العزيز، ويقذف عليًا بالتألم من ذلك، وكان - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إِذَا أَصْبَحَ أَتَى بَابَ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَهُوَ يَقُولُ: بِرَحْمَتِ اللَّهِ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا. وَكَانَ لَمْ يَزَلْ يَقُولُ: فَاطِمَةُ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ.

ويقول: أحب الناس إلي من النساء فاطمة.

ويقول: أحب أهلي إلي فاطمة.

وكان عمر يقول لفاطمة: واللّه ما رأيت أحدا أحب إلي رسول الله منك. (1)

وما أقيح الرجل في تقوله على النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعدّه لعليّ غير قوام بجليل الأعمال. وقد ازره وناصره وعاضده بتمام معنى الكلمة بكلّ حول وطول من بدء دعوته إلى آخر نفس لفظه، فصار بذلك له نفساً وأخاً ووزيراً ووصياً وخليفةً ووارثاً ووليّاً بعده، وكان قائده الوحيد في حروبه ومغازيه، وهو ذلك الملقّب بقائد العزّ المحجّلين وحيّاً من الله العزيز في ليلة أسرى بنيّه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. (2)

ومما يعجّب بل ويوسف أن نجد العقاد كاتب النيل الكبير يذهب هذا المذهب، وينحو هذا المنحى ذاته من سيدة نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأمّ الامامين الهمامين الحسن والحسين) عليهما السلام)، فيسطر في كتابه «فاطمة الزهراء والفاطميون» (3) «شيناً من هذه العبارات والمقالات التافهة التي لا يليق بكاتب مثله عرف بالتحقيق والفهم، ان يدرجها في مؤلفه.

1- مستدرک الحاكم: ٣ / ١٥٠ وصححه.
2- مستدرک الحاكم: ٣ / ١٣٨ وصححه، الرياض النضرة: ٢ / ١٧٧، شمس الاخبار: ٣٩، أسد الغابة: ١ / ٦٩، مجمع الزوائد: ٩ / ١٢١.
3- راجع ص ٣٢ و ٣٣.

(120)

ولا يجاب على ما كتبه العقاد ومن حذا حذوه إلا بما مرّ في كلام العلامة والمحقق الخبير الاميني) رحمه الله. (ففيه كفاية لمن تحرّى الحقيقة عن أهل البيت) عليهم السلام.)

هذا وينبغي ان نذكر القارئ الكريم بنفس ما كتبه العقاد في كتابه ومما يعتبر شهادة دامغة تفند ما بدر منه من قول غير لائق في شأن علي والزهراء، فهو يقول: في كل دين صورة للانوثة الكاملة المقدسة يتخشع بتقديسها المؤمنون كأنما هي آية الله فيما خلق من ذكر وانثى.

فاذا تقدست في المسيحية مريم العذراء ففي الإسلام لاجرم تتقدس صورة فاطمة البتول.

ثم يقول: من الواضح البين ان الزهراء اخذت مكانها الرفيع بين اعلام النساء في التاريخ لانها بنت نبي وزوجة امام وأم شهداء. (1)

فاذا كانت هذه هي صورة الزهراء البتول، فكيف يصدّق العقل ما حاكته أيدي الدسّ في تاريخ هاتين القمتين الطاهرتين من قمم الإسلام الشامخة؟!

1- راجع: ص ٥١ و ٥٢.

جرائم «بني قينقاع»

كانت معركة «بدر» بمثابة طوفان شديد ضد الوثنية في قلب شبه الجزيرة العربية.

طوفان اقتلع بعض جذور الوثنية العريقة، فقد قُتِلَ طائفة من صناديد قريش، وأسرت أخرى وهرب الباقون بمنتهى الذل والصغار، وانتشر خبر هزيمة جيش قريش المتعطرس في جميع أنحاء وربوع الجزيرة العربية.

ولكن ساد بعد هذا الطوفان المرعب، شيء من الهدوء والمقرون بالاضطراب والقلق. هدوء كان منشأوه التفكير في مستقبل شبه الجزيرة العام وما تحبته الايام القادمة لسكانها على أثر التحول الجديد.

وكانت مخاوف القبائل الوثنية، ويهود يثرب الاثرياء ويهود خيبر ووادي القرى تزداد يوماً بعد يوم من تقدم الإسلام المطرد، وتعاضم شوكتها، واشتداد أمر حكومته القبية، وكان جميع هؤلاء يجدون مستقبلهم مهدداً بخطر جدوى، بعد أن كانوا لا يتصورون أن يكسب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - المهاجر من مكة كل هذه النجاحات الباهرة، وأن يبلغ من القوة ذلك المبلغ، بحيث يقهر بقواه المحدودة قوة قريش الكبرى ويكسر شوكتها العريقة!!

وكان يهود بني قينقاع الذين يقطنون داخل المدينة، ويمسكون بخيوط اقتصادها، أشدَّ خوفاً من غيرهم، وأكثر قلقاً على مستقبل أمرهم، لأنهم كانوا يخالطون المسلمين مخالطة كاملة وكان وضعهم يختلف عن وضع يهود خيبر ووادي القرى الذين كانوا يعيشون خارج المدينة بعيداً عن مركز قوة المسلمين ومنطقة حاكميتهم!!

من هنا بدأ يهود بني قينقاع قبل غيرهم من طوائف اليهود العائشة في تلك الديار بتدبير المؤامرات، وممارسة الأعمال الإيذاضية ضد المسلمين والقيام بالحرب الباردة (الإعلامية) ضدّهم، وذلك بنشر الأكاذيب وبتّ المعلومات الكاذبة، وإطلاق الشعارات القبيحة، وإنشاد القصائد التي من شأنها الاساءة إلى المسلمين وتحقيرهم، وتخريب معنوياتهم.

وبهذا يكون اليهود قد بدأوا عملياً بنقض معاهدة التعايش السلمي التي ذكرناها سلفاً، والتي عقدها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - معهم في أبان قدومه المدينة.

ولم تكن هذه الحرب الباردة الشريرة لتبرر تصدي القوى الإسلامية لها بالحرب الساخنة، واستعمال السلاح، لأن ما يمكن حله بسلاح المنطق لا يجذب أن يعالج بمنطق السلاح، وخاصة أن الرد الساخن والمسلح يؤدي إلى زعزعة الأمن والاستقرار في المدينة، والحال أن المحافظة على الوحدة السياسية، واستتباب الأمن والاستقرار في المدينة كان مما بهم النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جداً وهو يواجه أعداءً أشداءً من الخارج.

فلم يكن من مصلحة الإسلام والمسلمين تفجير الموقف في عاصمة الإسلام يومئذ.

ولهذا - وبغية اتمام الحجة على يهود بني قينقاع - وقف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ذات يوم في سوقهم بعد أن جمعهم فيه ثم قال لهم:

«يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة، وأسلموا، فانكم قد عرفتم أني رسول الله (أو أني نبي مرسل) تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله اليكم. »

وهنا نزل قول الله تعالى:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتُونَ وَتَحْشُرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ بِنَسِ الْمِهَادِ* قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فَنَّتَيْنِ الَّتِي قَاتَلْتُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهَا مِثْلَ رَأْيِ الْعَيْنِ وَاللَّهُ)

(123)

يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِن فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ. (1)

ولكن اليهود المغرورين المتكبرين لم يشكروا نصيحة النبي هذه أو يسكتوا حسب، بل ردوا عليه بعناد ولجاج وصلافة قائلين: يا محمد انك ترى انا قومك لا يغررك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فاصبت منهم فرصة، إنا والله ولئن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس (أو أنا والله أصحاب الحرب، ولئن قاتلنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا. (2)!!)

فلم تترك كلمات يهود «بني قينقاع» الجوفاء، وتشدهم الفارغ بقوتهم وقدرتهم على القتال والمواجهه أدنى اثر في نفوس المسلمين

ولكن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد أتم عليهم الحجة، فلم يعودوا معذورين حسب السياسة الإسلامية وقد أصبح ساعتئذ من اللازم الاحتكام إلى منطق السلاح بعد أن لم ينجح سلاح المنطق، ولم يقنع اليهود بضرورة تغيير مواقفهم، والتخلي عن مؤامراتهم وخططهم الايدائية ضد النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمين.

أجل لا بد من استخدام القوة مع هؤلاء اليهود الصلفين المتعنتين والأزادوا صلافة، وكثرت اعتداءاتهم.

ولهذا أخذ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ينتظر الفرصة المناسبة لتأديب تلك الجماعة المتعنتة الوقحة.

لهيب الحرب يبدأ من شرارة:

قد تجر بعض الحوادث الصغيرة إلى سلسلة من التحولات والاحداث في الاجتماعات الكبرى. يعني أن تتسبب حادثة جزئية في انفجار الحوادث الكبرى، فيصفي كل من طرفي النزاع حسابه مع الطرف الأخر، انطلاقاً من علل واسباب أخرى، وليست من تلك الحادثة الجزئية؟

1- آل عمران: ١٢ و ١٣.
2- المغازي: ١ / ١٧٥ و ١٧٦.

(124)

فلمثال نشأت الحرب العالمية الأولى وهي إحدى أكبر الحوادث التاريخية في حياة البشر من حادثة صغيرة تذرعت بها الدول الكبرى، وتلك الحادثة الصغيرة التي اشعلت فتيل الحرب العالمية الأولى هي اغتيال «الارشيدوق فرانسيز فريديناند» ولي عهد النمسا في سراييفو.

وقعت هذه الحادثة في ٢٨ من شهر يونيو عام ١٩١٤ وبعد شهر وعدة أيام بدأت الحرب العالمية الأولى بهجوم الالمان على بلجيكا، وافرزت هذه الحرب المدمرة الشاملة عن مقتل عشرة ملايين وجرح عشرين مليوناً من البشر. (1)

ولقد انزع المسلمون من صلافة يهود بني قينقاع، وردهم الوقح على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو يخاطبهم بأدب ينصحهم، وكانوا يتوقعون أن يقوم اليهود بعمل عدائي ليثوروا ضدهم، ويؤذيوهم.

وبيناهم على هذه الحال إذ تعرضت امرأة من العرب لاعتداء من اليهود فاشعل هذا الحادث الموقف.

واليك مفصل تلك الحادثة:

جاءت امرأة من العرب إلى سوق بني قينقاع فجلست عند صائغ تباع حلياً لها أو تشتري، وكانت تبالغ في ستر وجهها عن اليهود، فجعلوا يريدها على كشف وجهها، فأبت فعمد رجل من يهود بني قينقاع إليها وجلس من ورائها، وهي لا تتشعر فعمد أسفل ثوبها إلى ظهرها، فلما قامت المرأة بدت عورتها، فضحكوا منها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين إلى ذلك الرجل اليهودي فقتله،

فاجتمعت بنو قينقاع، وشدوا على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم القتل المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون غضباً شديداً

ولقد كان من الطبيعي أن يثب الرجل المسلم على ذلك اليهودي الوقح الشرير الذي فعل بالمرأة العربية ذلك الصنع، فان قضية «الأعراض» قضية حياتية وحساسة في اي مجتمع، فهي قضية شرف، وقد كان هذا الأمر يحظى في المجتمع

- [الموسوعة العربية الميسرة: ص ٧٠٠.

(125)

العربيّ خاصة بأهمية كبرى، وخاصة عند البدو الرحل منهم، فكم من دماء جرت لعدوان على عرض ديس أو تعرض للتحرش. من هنا أزعج وضع تلك المرأة الغريبة وحالها المؤلم واضطرابها الرجل المسلم، وأشعل غيرته فوثب على اليهودي المعتدي وقتله. وكان من الطبيعي أيضاً أن لا يمز هذا العمل دون رد من اليهود فيثب اليهود بأجمعهم على ذلك المسلم الغيور ويقتلوه، ويريقوا دمه بأجمعهم.

نحن هنا لا يهمننا أن نعرف أن قتل ذلك الرجل اليهودي لا زدرائه بامرأة كان أمراً صحيحاً منطقياً يتفق مع الموازين أم لا ينطبق

ولكنه ما من شك في ان وثوب مئات من الرجال واجتماعهم على قتل رجل مسلم واحد، وإراقة دمه، عملٌ بالغ الشناعة والقيح.

من هنا تسبب انتشار هذا الخبر (اي مقتل رجل مسلم واحد على أيدي مجموعة كبيرة من الرجال بصورة مفاجئة) في إثارة المسلمين ونفاد صبرهم، ودفعهم إلى العزم على حسم الموقف حسماً كاملاً وبالتالي هدم قلعة الفساد على رؤوس أصحابها القتلة.

فاحس «بنو قينقاع» بخطر الموقف، وأدركوا انه لم يعد من الصالح أن يبقوا في أسواقهم، ويواصلوا البيع والشراء، وقد تلبد الجوّ بالغيوم الداكنة على أثر العمل الفضيع والجناية الكبرى التي ارتكبوها.

من هنا تركوا أسواقهم بسرعة، وعادوا إلى قلاعهم المحصنة، وتحصنوا فيها، وكان ذلك منهم انسحاباً خانعاً بعد ذلك التشدق الصلّف!!

ولقد أخطأوا هذه المرة أيضاً إذ ظنوا انهم مانعتهم حصونهم، من انتقام الله.

ولو أنهم اعتذروا لخطئهم، وأظهروا الندامة لكانوا يجلبون رضا المسلمين، ويحصلون على عفو النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وهم يعرفون خلقه العظيم؛ وصفحه الكريم.

إلا أن تحصنّهم كان آية عنادهم، واعلانهم الحرب، ونصيبهم العداة الصريح للإسلام والنبيّ والمسلمين.

(126)

فأمر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بمحاصرتهم، ومنع من دخول أيّ امداد إليهم، كما منع من اتصالهم بأيّ أحد خارج حصونهم.

فحصروهم في حصونهم خمس عشرة ليلة أشدّ الحصار، حتّى قذف الله في قلوبهم الرعب، وفقدوا القدرة على المقاومة، ورضوا بأن ينزلوا عند حكم النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فيهم!!

وأراد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أن يؤدب تلك الجماعة التي كانت أول من نقض العهد ونبذ الميثاق تأديباً قاسياً، يكون عقاباً لهم وعبرة لغيرهم.

ولكن «عبدالله بن أبي بن سلول» الذي كان من مناقي المدينة ويتظاهر بالاسلام، أصرّ على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بأن يحسن معاملتهم، ولا يأخذهم بما فعلوا لحلف ومودة كانت بينه وبين يهود من السابق، فانصرف النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عن ما كان يريد من تأديبهم الشديد، وعقوبتهم على كره منه⁽¹⁾ ولكن أمر بأن يُجلوا من المدينة، ولا يبقوا فيها شريطة أن يتركوا أسلحتهم، وأموالهم، ودروعهم.

فنزلوا على حكم رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وكلف رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أحد المسلمين بقبض أموالهم وأسلحتهم، وكلف «عبادة بن الصامت» باجلانهم من حصونهم فعجل عبادة في ترحيلهم واجلانهم.

فخرجوا من المدينة ولحقوا بمنطقة تدعى «أذرعاء» وهي بلد في اطراف الشام.

[1] هذا مع العلم ان القرآن الكريم ندد بمثل هذه الوساطة التي قام بها ذلك الرجل المنافق رغم تخفيف النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - معاقبة اليهود ورسم للمسلمين منهجاً في التعامل مع اليهود والنصارى إذ قال:
(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولّهم منكم فانه منهم انّ الله لا يهدي القوم الظالمين) * فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده، فيصلحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين* ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهنم أنهم لمعكم حبطت أعمالهم فاصبحوا خاسرين) (المائدة: ٥١ - ٥٣).

(127)

وباجلاء «بني قينقاج» عادت الوحدة السياسية إلى المجتمع في المدينة.

وكانت الوحدة السياسية هذه المرة مقرونة بالوحدة الدينية إذ كان المسلمون يشكلون الاغلبية الساحقة في المدينة فلم يكن لغيرهم فيها شأن يذكر. (1)

تقارير جديدة تصل إلى المدينة:

من المعلوم أن الاخبار تنتشر بين الناس بسرعة في المناطق الصغيرة، على العادة.

من هنا فان انباء أكثر المؤامرات والتحركات المعادية للإسلام التي كانت تقع في المناطق المختلفة من شبه الجزيرة كانت تصل بسرعة - وعبر المسافرين المحايدون أو الاصدقاء المترصدين - إلى مركز القيادة الإسلامية في المدينة.

هذا مضافاً إلى أن هذا النوع من المعلومات كان يحظى لدى رسول الإسلام بأهمية كبرى، فيرصد لها من يأتي بها أولاً بأول، ولهذا كانت اكثر التحركات والمؤامرات يقضى عليها في مهدها بفضل الردّ السريع والمناسب الذي كانت القيادة الإسلامية تقوم به في ضوء المعلومات الواردة اليها، أو التي حصلت عليها.

فبمجرد أن تتضمن هذه المعلومات، إلى النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خبراً مفاده أن إحدى القبائل تعد قوة، وتستعدّ للهجوم على المدينة كان - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يبادر إلى بعث سرية أو يقود هو بنفسه مجموعة مناسبة لمحاصرة تلك القبيلة، وافشال مؤامرتها، وابطال تدبيرها قبل أن تستطيع فعل شيء، وكان هذا هو اسلوب المباغثة الذي استطاع به رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يقضي على كثير من التحركات المعادية في مهدها.

واليك مختصراً عن بعض تلك الغزوات التي وقعت في السنة الثانية من الهجرة:

[1-المغازي: ١ / ١٧٧، الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٨ و ٢٩.

1- غزوة قرقرة الكُدر: (1)

كانت المنطقة التي تتمركز فيها قبيلة «بني سلم» تدعى «الكُدر» .

وقد بلغ النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن القبيلة المذكورة تهيء، وتعدّ العدة للهجوم على مركز الإسلام وعاصمته (المدينة). فخرج رسول الله بنفسه من المدينة بعد أن استخلف عليها أحد أصحابه وأوكل إليه إدارة المدينة في غيابه، وكان الذي استخلفه هذه

المرة «ابن أم مكتوم»، وخرج على رأس قوة عسكرية إلى مركز تلك القبيلة فلما سمعوا بمسير القوى الإسلامية إليهم تفرقوا، وعاد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى المدينة من غير قتال.

ثم بعث سرية بقيادة فارس من فرسانه يدعى «غالب بن عبد الله» إلى نفس تلك المنطقة، فوقع بينه وبينهم قتال محدود وعاد «غالب» إلى المدينة ظافراً بعد أن استشهد ثلاثة من رجاله.

-2 غزوة السويق:

كان عرب الجاهلية إذا نذروا يندرون نذوراً غريبة.

فقد نذر أبو سفيان بعد معركة بدر أن لا يقارب زوجته ما لم يثار⁽²⁾ من المسلمين لقتلى بدر فكان عليه أن يقوم بهجوم على المدينة، ويقاتل النبي وأصحابه ليفي بنذره!!

فخرج من مكة في مائتي راكب فجاء بني النضير ليلاً، يطلب مشورة من أحبار اليهود.

فلما كان في وقت السحر خرج فمر بالعريض فوجد رجلاً من الانصار مع أجير له فقتل الأنصاري، وقتل أجيره، وحرق بيتاً وحرثاً لهم بارشاد من كبير اليهود «سلام بن مشكم» ورأى أن يمينه قد حلت، ثم ذهب هارباً، وخاف

-1 قرقرة الكدر: ناحية بين المعدن وبين المدينة، (الطبقات).
-2 المغازي: 1 / 182، الطبقات: 2 / 30.

ملاحقة المسلمين له.

فعرف به النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فندب أصحابه فخرجوا في اثره، وجعل أبو سفيان وأصحابه يتخفون فيلقون أكياس السويق (وهو القمح المقلّى المطحون الملتوت بالسمن أو العسل)، وهي عامة زادهم، فجعل المسلمون يمرّون بها فيأخذونها.

فسميت تلك الغزوة بغزوة السويق لهذا الشأن.

-3 غزوة ذي أمر:

بلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن قبيلة غطفان تجمع أفرادها، وتتأهب للعدوان على المدينة المنورة، فخرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على رأس أربعمئة وخمسين رجلاً.

فلما سمع العدو بمسير رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خافوا خوفاً شديداً فهربوا إلى رؤوس الجبال، فراراً من النبيّ والمسلمين.

فخرج النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - اليهم يبحث عنهم فلم يلاق أحداً منهم، وقد غيَّبوا سرحهم وذرائعهم في ذرى الجبال خوفاً وفرقاً.

فنزل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وآله «ذا أمر»⁽¹⁾ «و عسكر معسكره هناك، فاصابهم مطرٌ كثير، فذهب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ناحية ليقضي حاجة، فاصابه ذلك المطر فيلّ ثوبه، وقد جعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وادي «ذي أمر» بينه وبين أصحابه، ثم نزع ثيابه فنشرها لتجف، وألقاها على شجرة، ثم اضطجع تحتها، والأعراب ينظرون إلى كلّ ما يفعل.

فقاتل الأعراب لدعثور وكان سيدها وأشجعها: قد أمكنك محمد، وقد انفرد من أصحابه، حيث إن عوّث بأصحابه لم يُعَثّ حتّى تقتله. فاختر سيفاً من سيوفهم صارماً ثم أقبل مشتملاً على السيف حتّى قام على

-1 واد بطريق فيد إلى المدينة. فاء الوفاء: ٢ / ٢٤٩.

(130)

رأس النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالسيف مشهوراً، ورسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مستلق على قفاه.

فقال بنبرة خشنّة مهددة: ما يمنعك مني اليوم؟ قال النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : الله.

فكان لهذه الكلمة أثر عجيب في نفس دعثور بحيث اربع، ووقع السيف من يده، فأخذه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقام به على رأسه، فقال: ومن يمنعك مني اليوم.

فقال: لا أحد.

ثم قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، والله لا أكثر عليك جمعاً أبداً.

فأعطاه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سيفه ثم أدبر، ثم أقبل بوجهه على النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال: أما والله لانت خيرٌ مني.

قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :أنا أحق بذلك منك.

فأتى قومه، وقصَّ عليهم ما جرى له مع النبي، وأنه أسلم، ودعا قومه إلى الإسلام.

أجل يكتب المؤرخون في هذا المقام أن الرجل أسلم من فوره، ويجب أن نعلم أنه لم يسلم خوفاً ورفقاً وتحت بارقة السيف لأنه بقي ثابتاً ومستمراً في إسلامه بعد ذلك وأخذ يدعو قومه كما أسلفنا وهذا يدل على أنه أسلم عن طوعية ورغبة، وان إسلامه كان لتنبه فطرته، ويقظة وجدانه، فإن فشله غير المتوقع، ونجاة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - التي تمت بطريقة خارقة للعادة جعلته ينتبه إلى عالم آخر، وعرف بأن لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ارتباطاً بعالم آخر، وأنه مؤيد بالتالي بقوة عليا، وراء هذا العالم المادي.

ولهذا السبب - وليس لسواه - أسلم، وقبل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إسلامه، وبعد أن مشى خطوات ردّ إلى النبي سيفه الذي أعاده إليه النبي قبل ذلك واعتذر إليه.

(131)

وقال: أنت أولى بهذا السيف لأنك قائد هذه السرية المصلحة. (1)

قريش تغير مسير تجارتها:

تعرضت سواحل البحر الأحمر للخطر من قبل عناصر الجيش الاسلامي وحلفائهم، ولم يعد من الممكن مواصلة التجارة وارسال القوافل التجارية عبرها.

من هنا تشاورت قريش فيما بينها، ودرست أوضاعها في ظل هذه المستجدات، واتفقت على أنه لو تركت التجارة لهلكت رؤوس أموالها وفنيت، وكان عليها أن تسلم للمسلمين.

وان واصلت التجارة لم تحرز في هذا المجال نجاحاً مادامت الطريق غير آمنة، ومادام يمكن أن تتعرض أموالها للمصادرة على أيدي المسلمين كلما عثروا عليها.

فاقترح أحدهم التجارة إلى الشام عن طريق العراق فاستحسنوا رأيه جميعاً، وتهيأت القافلة للحركة في الخط الجديد وتولى أبو سفيان وصفوان بنفسيهما مهمة الاشراف على تلك القافلة وادارتها، واستخدما رجلا من بني بكر يدعى «فراة بن حيان» ليدلّهما على الطريق.

قال المقرئ في امتاع الاسماع: سمع رجل من المدينة (وهو سليط بن النعمان) بخبر خروج صفوان بن أمية في عيره وما معهم من الاموال فخرج من ساعته وأخبر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأرسل زيد بن حارثة في مائة راكب فاصابوا العير، وافلت أعيان القوم، فقدموا بالعير فخمسها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فبلغ الخمس عشرين ألف درهم، وقسم ما بقي على أهل السرية، وكان فيمن أسير فرات بن حيان فأسلم. (2)

1- المناقب: 1 / 164، المغازي: 1 / 194 - 196.
2- امتاع الاسماع: 1 / 112.

(132)

حوادث السنة الثالثة من الهجرة

٣٢

الدفاع عن الحرية

غزوة أحد أو الدفاع عن الحرية عند جبل أحد:

لم تكن السنة الهجرية الثالثة بأقل من السنة الثانية من حيث وقوع الحوادث والوقائع الملفتة للنظر فيها.

فاذا وقعت في السنة الثانية من الهجرة غزوة «بدر» فقد وقعت في السنة الثالثة منها غزوة «أحد» وهما من أعظم معارك الإسلام وغزواته.

على أن غزوة «أحد» لم تكن الغزوة الوحيدة التي وقعت في السنة الثالثة، بل وقعت أيضاً غزوات أخرى (1) إلى جنب طائفة من السرايا، التي اخترنا منها سرية واحدة وغزوتين فقط.

- [سرية محمد بن مسلمة:

لقد وصل نبي انتصار المسلمين في معركة «بدر» عن طريق رجلين من المسلمين.

ولم يكن الجيش الاسلامي الظافر قد وصل إلى المدينة بعد، عندما انزعج «كعب بن الاشرف» الذي كانت أمه من يهود «بني النضير» وكان شاعراً قوياً، وخطيباً بارعاً - من الفتح الذي أصابه النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمون في «بدر» - فقال: والله لئن كان محمدٌ أصاب أشرف العرب وملوك الناس (وبعني سادة قريش وصناديدهم الذين قتلوا في بدر على أيدي المسلمين لبطن

- [مثل غزوة بحران وغزوة حمراء الأسد.

الأرض خيراً من ظهرها!! وبدأ يبث الأكاذيب والشائعات في المدينة ومضى يشكك في انتصارات المسلمين في بدر.

وقد كان يسيء إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في قصائده حتى قبل معركة «بدر» ويحرض الناس على المسلمين. ثم إنه لما تيقن الخبر خرج حتى قدم مكة وجعل يحرض قريشا على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وقد أنشد في هذا

المجال أشعاراً يبكي فيها أصحاب القليب من قريش وقد ذكرتها المصادر التاريخية. (1)

ثم رجع كعب هذا إلى المدينة فشبّب (2) بنساء المسلمين حتى أذاهم!!

ولا شك أنه بهذه المواقف المعادية كان من أظهر مصاديق المفسد في الارض، الأمر الذي آل إلى أن يقرّر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - التخلص منه، وكفاية المسلمين شره، وقد أوكل هذه المهمة الصعبة إلى «محمد بن مسلمة». »

وقد خطّط «ابن مسلمة» للتخلص من «كعب» خطة رائعة، وألف لتنفيذها فريقاً كان من بينهم «أبو نائلة» الأخ الرضاعي لكعب بن الأشرف، ليتمكن من هذا الطريق التموية على كعب وتنفيذ الخطة المذكورة.

فخرج أبو نائلة إلى كعب وجلسا يتحادثان، ويتبادلان الشعر.

ثم إن أبا نائلة قال لكعب - بعد ان طلب منه أن يخرج كل من كان هناك من ذويه وأهله - : إني قد جئتكم في حاجة إليكم أريد ذكرها لك فאתكم عني، وإني كرهت ان يسمع القوم كلامنا، فيظنون! لقد كان قدوم هذا الرجل (يعني رسول الله) علينا من البلاء، وحرابتنا العرب، ورمثنا عن قوس واحدة، وقطعت السبل عنا حتى جهدت الانفس، وضاع العيال، أخذنا بالصدقة ولا نجد ما نأكل.

فقال كعب: قد والله كنتُ أحدثك بهذا يا ابن سلامة إن الامر سيصير إلى ما أقول.

1-المغازي: ٢ / ١٢١ - ١٢٢ .
2-راجع السيرة النبوية: ٢ / ٥٢ .

فقال أبو نائلة: إنّ معي رجالاً من أصحابي على مثل رأيي، وقد أردت أن أتيتك بهم فنبتاع منك طعاماً، أو تمرأ وتحسن في ذلك إلينا، ونرهنك ما يكون لك فيه ثقة.

فقال كعب: وماذا ترهنونني يا أبا نائلة، أبناءكم ونساءكم؟؟!

فقال أبو نائلة: لقد أردت أن تفضحنا وتظهر أمرنا، ولكننا نرهنك من الحلقة (أي السلاح) ما ترضى به.

فرضي كعب بن الأشرف بذلك.

وإنما قال أبو نائلة هذا القول لابن الأشرف حتى لا يستغرب إذا رأى السلاح بيد الرجال الذين سيأتون معه.

ثم خرج أبو نائلة من عند ابن الأشرف على ميعاده، فأتى أصحابه، فأخبرهم بما دار بينه وبين كعب، فأجمعوا أمرهم على أن يأتوه إذا أمسى لميعاده، ثم أتوا إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عشاءً وأخبروه، فمشى معهم حتى أتى البقيع، ثم وجههم، ثم قال:

«امضوا على بركة الله وعونه اللهم أعينهم.»

فمضوا حتى أتوا ابن الأشرف، فلما انتهوا إلى حصنه هتف به أبو نائلة، وكان ابن الأشرف حديث عهد بعرس، فوثب من فراشه، فأخذت امرأته بناحية ملحفته وقالت: أين تذهب، إنك رجلٌ محارب، ولا ينزل مثلك في هذه الساعة؟؟

فقال ابن الأشرف: ميعادٌ، إنما هو أخي أبو نائلة.

ثم نزل إليهم فحيّاهم، ثم جلسوا فتحدثوا ساعة حتى اطمأن إليهم.

ثم قالوا له: يا ابن الأشرف: هل لك أن تنمشى إلى شعب العجوز (وهو موضع قرب المدينة) فتحدث فيه بقية ليلتنا.

فخرجوا يتمشون حتى أبتعدوا عن حصنه، وبينما هم كذلك إذ أدخل أبو نائلة يده في رأس كعب ثم شم يده فقال: ويحك ما أطيب عطرِكَ هذا يا ابن الأشرف، ثم مشى ساعة، ثم كرّر هذا العمل ثانية حتى اطمأن ثم مشى ساعة

(135)

ثم عاد لمثلها فأخذ بفود رأسه وقال: إضربوا عدو الله، فضربوه بسيوفهم، وطعنه أبو نائلة بخنجر في بطنه، وصاح صيحة ثم وقع على الأرض ولم تنفعه استغاثاته.

ثم عاد هذا الفريق الفدائي إلى المدينة من فورهم ولما بلغوا «بقيع الغرقد» كبروا، وقد قام رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تلك الليلة يصلي، فلما سمع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تكبيرهم بالبقيع كبر، وعرف أنهم قد قتلوه.

وبهذا أعلنوا عن نجاح عملياتهم الفدائية الجريئة التي أراحت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه من شر ذلك المفسد الخطير الذي لم يفتأ عن إيذاء النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتناول أعراض المسلمين في أشعاره. (1) ..

إغتيال مفسد آخر:

وكان أبو رافع سلام بن ابي الحقيق اليهودي يظاهر كعب بن الاشرف على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويقوم بنفس الدور الخبيث الذي كان يقوم به ابن الاشرف من الايذاء والازعاج للنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمين. فقام فريق فدائي آخر من المسلمين باغتياله على غرار اغتيال صاحبه في عملية فدائية جسورة على نحو ما رواه ابن الاثير في كتابه: الكامل في التاريخ بصورة مفصلة. (2)

وقد كانت هاتان العمليتان وأمور أخرى من أسباب اندلاع معركة «أحد.»

وقد حان الأوان الآن أن نستعرض تفاصيل هذه الواقعة الكبرى!

قريش تتكفل نفقات الحرب:

كانت بذور الرغبة في الانتقام والثأر من المسلمين قد بُذرت في مكة من زمان وقد ساعدت خطة المنع من البكاء والنياحة على القتلى على اذكاء روح الانتقام هذه لدى قريش.

1- السيرة النبوية: ٢ / ٥١ - ٥٦، المغازي: ١ / ١٨٤ - ١٩٠.
2- الكامل في التاريخ: ٢ / ١٠١.

كما أن تعدد مرور قافلتها التجارية عبر طريق مكة - المدينة - الشام، واضطرابها إلى سلوك طريق العراق للسفر إلى الشام زاد هو الآخر من سخطها وانزعاجها.

ولقد أوجع مقتل «كعب بن الاشرف» من أوار هذا الحقد، وأوقد لهيبه في النفوس.

من هنا اقترح «صفوان بن أمية» و «عكرمة بن أبي جهل» على أبي سفيان ومن كانت له في قافلة قريش التجارية مشاركة، أن يدفع كل واحد منهم مبلغاً من المال لتسديد نفقات الحرب قائلين: يا معشر قريش إن محمداً قد وترككم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا.

ولقد لقي هذا الاقتراح قبولا من أبي سفيان وتقرر الإعداد للحرب فاجتمعت قريش لحرب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حتى فعل أبوسفيان ذلك.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الموضوع كما ذكر كيف أن قريشاً لم تحصد من هذا الإنفاق الا الخيبة والخسران إذ قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ.)⁽¹⁾

وحيث أن زعماء قريش كانوا يعرفون بقوة المسلمين وقد رأوا من كثب استقامتهم وثباتهم في معركة «بدر» لهذا قرروا أن يتألف جيشهم هذه المرة من صناديد أكثر القبائل العربية وشجعانها البارزين وأبطالها المعروفين.

فكأف «عمرو بن العاص» وعدة أشخاص آخرين بأن يؤلبوا العرب على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويجمعوا أبطالها وصناديدها، للمشاركة في الجيش الكثيف والمنظم الذي اعتزمت قريش على تسييره لقتال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمين، وغزوهم وبأن يخبروهم بأن قريشاً قد تكفّلت نفقات هذه المعركة.

وقد أثمرت نشاطات «عمرو» ورفاقه في هذا السبيل.

- [الأنفال: ٣٦، وراجع السيرة النبوية: ٦٠ / ٢، مجمع البيان: ٥٤١ / ٢، السيرة الحلبية: ٢ / ٢١٧].

(137)

فقد استطاعوا بعد محاولات واسعة أن يضموا إلى جيش قريش أبطالاً وصناديد من بني كنانة وتهامة، فخرجت قريش وهم أربعة آلاف بمن انضم إلى صفوفهم من تلك القبائل. (1)

وقد كان هذا هو عدد الرجال الذين شاركوا في هذه المعركة، ولو أضفنا إليهم عدد النساء اللواتي شاركن فيها لتجاوز العدد ما ذكرناه.

على أنه لم يكن من عادة العرب أن يشركوا نساءهم في الغزو ويخرجوهن معهم إلى القتال، ولكن نساء مكة الوثنيات شاركن مع رجالهن في هذه المعركة على خلاف عادة العرب، وكان الهدف من أخذهن هو أن يحرضن الرجال على القتال والصمود، ويمنعن المقاتلين من الفرار، ويذكرن بقتلى بدر، ويشعلن الحماس في النفوس بدق الدفوف، وإنشاد الأشعار المثيرة للهمم والداعية إلى الثأر ولأن فرار الرجال كان يعني أن تقع النسوة في الأسر، وهو ما كان ياباه العربي آنذاك. فتكون الغيرة والحمية على العرض سبباً للمقاومة والصمود.

كما أنه اشترك في هذه المعركة طائفة من العبيد والرقيق طمعاً في العتق الذي وعدوا به إن نصرُوا أسيادهم وقاتلوا بين أيديهم، وذلك مثل «وحشي» وكان غلاماً حبشياً لمطعم بن جبير يقذف بحربة له قذف الحبشة فلما يخطئ بها فقال له سيده: أخرج مع الناس

فإن نلت محمداً أو علياً أو حمزة فأنت عتيق. (2)

وعلى أية حال استطاعت قريش أن تجهز بعد جهد كبير جيشاً كبيراً قوياً يتألف من سبعمائة دارع، وثلاثة آلاف فارس، ومشاة كثيرين، وقد خرجوا بعدة وسلاح كثير.

الاستخبارات ترفع تقريراً إلى النبي:

فلما اجمعت قريش على المسير كتب العباس بن عبدالمطلب⁽³⁾ كتاباً يضم

1- اختلف علماء التفسير والتاريخ كعلي بن ابراهيم والشيخ الطبرسي في إعلام الوري، وابن هشام والواقدي في عدد المشركين والكفار في هذه المعركة، وما ذكرناه هو الاقرب إلى الحقيقة.
2-بحار الأنوار: ٩٦ / ٢٠.
3- وكان العباس كما أسلفنا ممن أسلم وآمن برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في مكة ولكنه ظل يكتم إيمانه ليتمكن من البقاء بين قريش ورصد تحركاتهم واخبار النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بنواياهم. راجع السيرة الحلبية: ١٠ / ١٩٨.

(138)

تقريراً مفصلاً عن نوايا واستعدادات قريش، وختمه واستأجر رجلاً من بني غفار واشترط عليه أن يقطع الطريق إلى المدينة في ثلاثة أيام ويوصل تلك الرسالة إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فقدم الغفاري المدينة فلم يجد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وانما وجده في بستان خارجها فدفع إليه كتاب العباس المختوم، فقرأه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واطلع على ما فيه، ولكنه كتم محتواها عن أصحابه. (1)

روى العلامة المجلسي عن الامام ابي عبدالله الصادق - عليه السلام - أنه قال: كان مما منّ الله عزّوجلّ على رسوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أنه كان لا يقرأ ولا يكتب، فلما توجه أبو سفيان إلى «أحد» كتب العباس إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فجاءه الكتاب وهو في بعض حيطان المدينة فقرأه ولم يخبر أصحابه، وأمرهم أن يدخلوا المدينة فلما دخلوا المدينة أخبرهم. (2)

جيش قريش يتحرك باتجاه المدينة:

تحرك جيش قريش باتجاه المدينة، وبعد قطع مسافة معينة وصلت طلائعه إلى الابواء، وهي المنطقة التي دفنت فيها والد النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - السيدة «أمنة بنت وهب» فقال فتية من قريش: تعالوا ننبش قبر أم محمد، فإن النساء عورة، فإن يصب من نساكنم أحد قلتهم هذه رمة أمك، فإن كان بزاً بأمة كما يزعم فلعمري ليفادينكم برمة أمة، وإن لم يظفر بأحد من نساكنم فلعمري ليفدين رمة أمة بمال كثير إن كان بها بزاً.

1- المغازي: ١ / ٢٠٣، ويرى بعض المؤرخين أن مبعوث العباس قدم بالرسالة المدينة وكان النبي ساعته في المسجد فاعطى النبي الرسالة إلى أبي بن كعب فقرأها عليه، وقد روى الواقدي هذا الوجه أيضاً (ج ١ ص ٢٠٤) ومع أن النبي لم يعهد منه أن يقرأ رسالة فيكون الوجه الأول أقرب إلى الحقيقة.
2-بحار الأنوار: ١١١ / ٢٠.

واستشار أوسفيان أهل الرأي من قريش في ذلك فاستقبحوه وشجيوه بشدة وقالوا:

لو فعلنا ذلك نبشت بنوبكر وخزاعة (وهم أعداء قريش) موتانا. (1)

وبعث النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليلة الخميس الخامس من شهر شوال، السنة الثالثة من الهجرة، «أنساً» و «مونساً» ابني «فضالة» للتعسس على قريش خارج المدينة، واخباره - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بتحركاتهم، فأخبروا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - باقتراب جيش المشركين إلى المدينة، وانهم قد سرحوا إبلهم وخيولهم ترعى في مراعي المدينة.

كما أخبر «الحباب بن المنذر» هو الآخر باقتراب جيش المشركين إلى المدينة، وان طلائع ذلك الجيش قد استقر على مقربة من جبل أحد، وكان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد بعث الحباب سراً وقال له: لا تخبرني بين أحد من المسلمين إلا أن ترى قلة.

وبخبر الحباب تأكّد ما أخبر به ابنا فضالة.

وحيث إن المسلمين كانوا يخافون على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من العدو، أن يهاجموه ليلاً، لذلك باتت وجوه الأوس والخزرج (الانصار) ليلة الجمعة وعليهم السلاح في المسجد بباب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يحرسونه، وحرس المدينة تلك الليلة حتى أصبحوا.

منطقة «أحد»

كان الوادي الطويل الكبير الذي يصل طريق الشام التجارية باليمن يسمى آنذاك بـ «وادي القرى»، وكانت القبائل العربية من اليهود وغير اليهود تقطن في كل منطقة تتوفر فيها ظروف المعيشة ومستلزمات الحياة، ولهذا نشأت على طول هذا الخط «قرى» بسبب وجود مناطق خصبة فيه وقد سُورَت بأسوار من الحجارة،

[1]المغازي: ١ / ٢٠٦.

وكانت يثرب مركز هذه القرى وأمها وهي التي سميت في ما بعد بمدينة الرسول، ومن ثم «المدينة» تخفيفاً واختصاراً.

وكان على كل قادم من مكة إلى المدينة، أن يدخل من جنوب يثرب وحيث إن أرض هذه المنطقة ذات طبيعة صخرية لذلك يكون عبور الجيش من خلالها أمراً عسيراً وفي غاية الصعوبة.

من هنا عمدت قريش - عندما وصل جيشها إلى مشارف المدينة - تحاشت هذه المنطقة، ودخلت من شمال المدينة، واستقرت في وادي العقيق في سفوح جبل «أحد»، وقد كانت هذه المنطقة لدم وجود نخيل فيها، ولسهولة أرضها، أفضل مكان للعمليات العسكرية، وخير ميدان للقتال والحرب.

وقد كانت المدينة عرضة للخطر من هذه الناحية لأنه قلما كان المرء يرى فيها موانع طبيعية.

نزلت قوى المشركين عصر يوم الخميس في الخامس من شوال من السنة الثالثة من الهجرة عند جبل «أحد». «
وبقي النبي ذلك اليوم وليلته في المدينة، وفي يوم الجمعة أقدم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على عقد شورى عسكرية، واستشار قادة جيشه وأهل الخبرة والرأي من أصحابه في كيفية مواجهة العدو، والتكتيك الذي يجب أن يتبعه المسلمون.⁽¹⁾

المشاوره في كيفية الدفاع:

كان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد أمرَ من جانب الله تعالى أن يشاور أصحابه في الأمور العسكرية وما يشابهها ويشركهم في قراراته وخطته التي يتخذها في المجالات المذكورة، ليعطي بذلك درساً كبيراً للمسلمين، ويوجد بين أصحابه وأتباعه روح الديمقراطية (الصحيحة) وتحري الحق، والموضوعية.

-[لم تكن هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي شاور النبي فيها أصحابه وقد ذكرنا عدة موارد من هذا النوع من التشاور والهدف منه في كتابنا: معالم الحكومة الإسلامية.]

(141)

ولكن هل كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نفسه يستفيد من هذه المشاوره؟

وينتفع بأرائهم ونظرياتهم، ومقترحاتهم، أم لا؟.

لقد أجاب علماء العقيدة ورواد علم الكلام الاسلامي من مختلف الطوائف على هذا السؤال في مؤلفاتهم ودراساتهم، وللقارئ الكريم إذا أراد الوقوف على الجواب ان يراجع تلك المصنفات.

لكن الذي لا يمكن انكاره في المقام هو: أن هذه المشاورات سيرة حية تركها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من بعده، ولقد كانت هذه السيرة مؤثرة جداً بحيث استخدم الخلفاء والأمراء من بعده أسلوب التشاور والشورى، وكانوا يستفيدون على هذا الاساس من آراء الامام علي - عليه السلام - ونظرياته السامية في الأمور العسكرية، والمشكلات الاجتماعية التي كانت تطرأ على حياة المسلمين⁽¹⁾.

المشاورات العسكرية:

لما سمع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - باقتراب قريش إلى المدينة وقف في تلك الشورى التي كانت جمعاً كبيراً من صناديد أصحابه، وقادة جيشه وجنوده وقال بصوت عال: «أشيروا عليّ.»

وهو يطلب بذلك من أولئك الجنود والقادة أن يدلوا بأرائهم في كيفية مواجهة العدو، وطريقة الدفاع عن حوزة الإسلام وصرح التوحيد المهددة من قبل قريش والمتحالفين معهم من أحزاب الشرك، وأتباع الوثنية.

فقام «عبدالله بن أبي سلول» وكان من منافقي المدينة، وطرح فكرة التحصن في داخل المدينة، والقتال فيها على غرار حرب الشوارع. وذلك بأن لا يخرج المسلمون من المدينة بل يبقوا داخلها، ويستخدموا أبراجها وسطوحها لمقاتلة العدو ودفعه فترمي النساء العدو بالأحجار من السطوح، ويقاتل الرجال أفرادهم في الشوارع والأزقة قاتلاً: يا رسول الله كنا نقاتل في الجاهلية فيها، ونجعل النساء

-[راجع الخطبة ١٣٤ من نهج البلاغة.]

(142)

والذراري في هذه الصياصي ونجعل معهم الحجارة، ونشيك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية وترمي المرأة والصبي من فوق الصياصي والأطام، ونقاتل بأسيافنا في السكك (أي الطرقات).

يا رسول الله إن مدينتنا عذراء ما فُضت علينا قط، وما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا. فانهم إن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن رجعوا رجعوا خائبين مغلوبين.

وكان هذا رأي الأكابر من أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من المهاجرين والأنصار، إلا أن الفتيان من المسلمين وبخاصة من لم يشهد منهم بديراً وكانوا يشكلون الاغلبية شجبوا هذا الرأي بشدة، ورفضوه بقوة وطلبوا من رسول الله الخروج إلى العدو، ورجعوا في الشهادة، وأحبوا لقاء العدو.

وقالوا: إننا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أننا كرهنا الخروج اليهم جنباً عن لقائهم فيكون هذا جرأة منهم علينا، وقد كنت يوم بدر في ثلاثمائة رجل فظفرك الله عليهم، ونحن اليوم بشرٌ كثيرٌ، قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا

وقال «حمزة» بطل الإسلام العظيم: لا أطمع اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارجاً من المدينة. (1)

الافتراع من أجل الشهادة:!!

وقام خيثة أبو سعد بن خيثة - وهو شيخ يقظ البصيرة - وقال: إن قريشاً مكثت حولاً تجمع الجموع، وتستجلب العرب في بواديها، ومن تبعها من أحابيشها، ثم جاؤونا قد قادوا الخيل وامتطوا الابل، حتى نزلوا بساحتنا فيحصرونا في بيوتنا، وصياصينا، ثم يرجعون وافرين لم يكلموا، فيجزئهم ذلك علينا حتى يشنوا الغارات علينا، ويصيبوا أطرافنا، ويضعوا العيون والارصاد علينا، مع ما قد صنعوا بحروثنا،

-[المغازي: ١ / ٢١١ و بحار الأنوار: ج ١٢٥ من المعلوم أن نظرية عبدالله بن أبي لم تخلو من الخطر، إذ لم يكن من البعيد ان يستفيد العدو بعد دخوله في المدينة من بيوت المنافقين. وأن يتعاون معهم يهود المدينة أيضاً فتكون حينئذ الضربة القاضية للاسلام والمسلمين.

(143)

ويجتري علينا العرب حولنا، حتى يطمعوا فينا إذا رأونا لم نخرج اليهم، فنذبهم عن جوارنا، وعسى الله أن يظفرنا بهم، فتلك عادة الله عندنا، أو تكون الاخرى:

الشهادة.

لقد أخطأتني وقعة بدر، وقد كنتُ عليها حريصاً، لقد بلغ من حرصي أن ساهمت⁽¹⁾ ابني على الخروج فخرج سهمه فرزق الشهادة، وقد كنتُ حريصاً على الشهادة وقد رأيت ابني البارحة في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها، وهو يقول: الحق بنا ترافقتنا في الجنة، فقد وجدتُ ما وعدني ربي حقاً.

وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة، وقد كبرت سني ورق عظمي، وأحببتُ لقاء ربي فادعُ الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد في الجنة. (2)!!!

إن هذا الذي ذكرناه ليس سوى نموذج واحد من مواقف كثيرة تجدها أيها القارئ الكريم في صفحات التاريخ الاسلامي المشرقة فهناك الكثير من هؤلاء الفدائيين المخلصين الذين ألوا على أنفسهم أن يدافعوا عن حياض العقيدة وشرف الدين، ورزقوا الشهادة في نهاية المطاف.

إن الايديولوجية التي لا تعتمد على أسس الايمان بالله واليوم الآخر قلما تنتج جندياً فدائياً مخلصاً مثل خيثة، ومن شاكله.

إن روح الفداء والتفاني والايثار بالنفس والتضحية بالغالي والرخيص، التي تدفع بالجندي إلى أن يطلب الشهادة في سبيل إعلاء كلمة الحق، وإعزاز التوحيد باصرار وشوق لا توجد إلا في مدرسة الأنبياء والمرسلين، ولاتحصل إلا في ضوء تربيتهم.

واما في المجتمعات المادية كالمجتمعات الحاضرة التي تهتم أكبر اهتمام بتحسين أحوال العسكريين حيث إن الهدف من الحروب والمعارك لم يكن قط إلا الحصول على وضع معيشي أفضل، فأنه لا يهتم الجنود فيها إلا الحفاظ على أرواحهم وحياتهم

فذلك هو أكبر هدف لديهم، ومن هنا تندر عندهم روح التفاني والتضحية.

وأما في مدرسة الأنبياء فان المعارك والحروب لا يهدف منها إلا ابتغاء رضا الله سبحانه، فلو انحصر ذلك في الشهادة أقدم عليها الجندي المسلم من دون خوف أو وجل، وعرض نفسه لجميع الاخطار من دون تلكؤ أو ابطاء.

حصيلة الشورى:

لقد أخذ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - برأي الاكثرية التي كانت ترجح الخروج من المدينة لمقاتلة العدو، ورجح هو - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - البقاء في المدينة وقتال العدو داخلها، إذ لم يكن من الصالح - بعد ما اقترحه قادة جيشه البارزين مثل حمزة وسعد بن عباد ونظرانهم، وأصروا عليه - أن يأخذ برأي عبدالله بن أبي بن سلول المنافق.

هذا مضافاً إلى أن حرب الشوارع والمدن غير المنظم في داخل سكك المدينة وأزقتها الضيقة، وإشتراك النسوة في الأمور الدفاعية، والجلوس في البيت، والسماح للعدو بأن يفعل ما يريد أية العجز، والوهن، وهو أمر لا يليق بالمسلمين، ولا يتلاءم مع الانتصار العظيم الذي كسبه في معركة «بدر»، وهزموا به عدوهم الغاشم القوي.

إن محاصرة المدينة وسيطرة العدو على مداخلها وطرقاتها، وسكوت جنود الإسلام على ذلك من شأنه أن يقتل الروح القتالية، والفروسية في أبناء الإسلام المجاهدين.

ويمكن أن يكون «عبدالله بن أبي بن سلول» قد أضمر في نفسه نية سيئة ضد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأنه بهذا الاقتراح (أي البقاء في المدينة وعدم الخروج لمجابهة العدو، ومواجهته بشجاعة) كان يريد - في الحقيقة - أن يوجه ضربة إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - !!

النبي يلبس لامة الحرب:

بعد أن تعينت كيفية مواجهة العدو والدفاع، دخل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

بيته ولبس لامته، وقد لبس الدرع فأظهرها وحزم وسطه بمنطقة من حمائل سيف من أدم واعتم وتقلد السيف، وخرج من بيته.

فأثار هذا المشهّد المسلمين وهزهم بشدة وتصور بعضهم بأن إصرارهم على النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - بالخروج من المدينة لم يكن فيه للنبيّ رضا، وخشوا أنهم قد استكروه على هذا الأمر، فندموا على ذلك، وقالوا معتذرين: يا رسول الله ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك (أو: ما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله ثم اليك).

فقال رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - :

«ما يتَّبِعني لِنبيّ إذا لَيْسَ لِمَتِّه أن يَضَعها حَتَّى يُفَاتِلَ. (1)»

النبيّ يخرج من المدينة:

ثم إن رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - صلى بالناس الجمعة وخرج على رأس ما يزيد على ألف مقاتل قاصداً أُحد، وذلك بعد أن قال لهم:

«أُنظَرُوا إلى ما أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَاتَّبِعُوهُ إِمضُوا على بركة الله فلَكُمْ النصرُ ما صَبَرْتُمْ. (2)»

وقد أجاز رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - يومئذ لمن لم يبلغوا الحلم بأن يخرجوا معه كسمرة ورافع وكان رامياً جيداً، ورد أسامة بن زيد وعبدالله بن عمر بن الخطاب. (3)

ثم إن جماعة من اليهود كانوا متحالفين مع عبدالله بن ابي بن سلول قرروا أن يشتركوا في هذه المعركة ويخرجوا مع المسلمين، ولكن النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - لم يسمح بذلك لأسباب خاصة.

-1 السيرة النبوية: ٢ / ٢٣، المغازي: ١ / ٢١٤، الطبقات الكبرى: ٢ / ٣٨.
-2 المغازي: ١ / ٢١٤.
-3 السيرة النبوية: ٢ / ٦٦.

وسار النبيّ وأصحابه حتّى إذا كانوا بمنطقة بين المدينة وأُحد تسمى «الشوط» انعزل عنه «عبدالله بن أبي بن سلول» وعاد بثلاث الناس كلهم من الأوس المتحالفين معه إلى المدينة بحجة أنّ رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - أخذ برأي الفتية والشباب، ورفض اقتراحه وهو البقاء في المدينة.

ومن هنا لم يشترك في هذا المعركة لا اليهود ولا حزب النفاق.

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه كانوا يرغبون في أن يسلكوا أقرب الطرق إلى معسكرهم من هنا اضطروا إلى أن يَمروا عبر بستان لمنافق من منافقي المدينة يدعى «مربع بن قبيط» وكان ضريباً، فامتنع من ذلك، وساء بالقول إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فابتدره أصحاب النبي ليقتلوه فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «

لا تَقْتُلُوهُ، فَهَذَا الْأَعْمَى أَعْمَى الْقَلْبِ، أَعْمَى الْبَصَرِ. (1)»

جنديان فدائيان:

استعرض رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جيشه في منطقة تدعى بالشيخين (2)، وكانت الوجوه المشتاقة إلى الجهاد تلمع كما تلمع أشعة السيوف، وتعكس إصراراً كبيراً على قتال الكفار ومجاهدة المشركين.

ولقد كان جيش رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الذي خرج بهم لمجابهة قريش عند جبل أحد يتألف من مقاتلين يتفاوتون في الأعمار تفاوتاً كبيراً.

ففيهم الشيخ الكبير الطاعن في السن وفيهم الشاب الفدائي الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة.

ولقد كان الدافع الذي يحرك الجميع إلى ذلك هو تعشق الكمال الذي

1- السيرة النبوية: ٢ / ٦٥، المغازي: ٢ / ٢١٨.
2- ولقد كان من عادة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واسلوبه في جميع المعارك استعراض جيشه على الدوام، وعدّهم، وتسريح بعض العناصر الضعيفة أحياناً.

ما كان ليتوفر إلا في ظلّ الدفاع عن صرح التوحيد المقدس، ليس إلا.

ولإثبات هذه الحقيقة نشير هنا إلى قصة شيخ كبير السن، وشاب لم يمض من عرسه إلا ليلة واحدة!!

1- كان «عمرو بن الجموح» رجلاً شيخاً أعرج شديد العرج وقد أصيب في رجله في حادثة. وكان له بنونٌ أربعةٌ مثل الأسود، يشهدون مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المشاهد، فلما كان يوم «أخذ» أراد ان يخرج مع النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقد أبت نفسه أن تفوته الشهادة، وأن يجلس في بيته ولا يشترك مع رسول الله في تلك المعركة، وإن اشترك بنوه الأربعة فيها.

فأراد أهله وبنوه حبسه وقالوا له: إنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ عَدَّنَاكَ، ولم يقتنع بمقاتلتهم، وأتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال:

إنَّ بَنِيَّ يَرِيدُونَ أَنْ يَحْبِسُونِي عَنْ هَذَا الْوَجْهِ وَالْخُرُوجِ مَعَكَ فِيهِ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَطَأَ بَعْرَجَتِي هَذِهِ فِي الْجَنَّةِ.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«أما أنتَ فَقَدْ عَدَرَكَ اللهُ ولا جِهَادَ عَلَيْكَ» (1)

ثم قال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لابنيه وقومه:

«لا عَلَيْكُمْ أن لا تَمْنَعُوهُ، لعلَّ اللهُ يَرْزُقَهُ الشهادة» .

فحلوا عنه، وخرج وهو يقول: اللهم ارزقني الشهادة ولا تردني إلى أهلي.

وقد كان موقف هذا المجاهد الأعرج من مشاهد معركة «أحد» العظيمة، ومن قصصها الرائعة، فقد كان يحمل - وهو على ما هو

عليه من العرج - على الاعداء ويقول: «أنا والله مشتاق إلى الجنة» وابنه يعدو في أثره حتى قُتِلَا جميعاً. (2)

[1- لقول الله تعالى: **بُئْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَ لا عَلَى الْمُرِيضِ حَرْجٌ** (الفتح: ١٧) .
2- السيرة النبوية: ٩٠ / ٢ و ٩١، المغازي: ١ / ٢٦٥.

« 2-حنظلة» وهو شاب لم يكن قد جاوز الرابعة والعشرين من عمره آنذاك. وهو ابن «أبي عامر» عدو رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

عليه وآله وسلم - والذي كان مصداقاً لقول الله تعالى **(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ)** .

فقد اشترك والده أبو عامر الفاسق في معركة «أحد» إلى جانب قريش ضد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وكان ممن يكيدون للإسلام وممن حرّض قريشاً ضدّ النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واستمرّ في معاداة الإسلام حتى النفس الأخير، ولم يألُ جهداً في هذا السبيل.

وقد كان أبو عامر هذا هو السبب الرئيسي وراء حادثة مسجد «ضرار» التي سيأتي تفصيلها في حوادث السنة التاسعة من الهجرة

غير أن علاقة الأبوة والبنوة وما يتبعها من احساس لم تصرف حنظلة عن الاشتراك في حرب ضد أبيه، مادام أبوه على باطل وهو (أي حنظلة) على الحق فيوم خرج النبي مع أصحابه إلى «أحد» لمواجهة قريش كان حنظلة يريد البناء بزوجه ليلته، فقد تزوج بابنة «عبدالله بن أبي بن سلول» وكان عليه أن يقيم مراسم الزفاف والعرس في الليلة التي خرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى «أحد» في صبيحتها المنصرمة.

ولكنه عندما سمع مؤذن الجهاد، ودوى نداؤه في أذنه تحير في ما يجب أن يفعله، فلم يجد مناصاً من أن يستأذن من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بان يتوقف في المدينة ليلة واحدة لاجراء مراسيم العرس ويقيم عند عروسته ثم يلتحق بالمعسكر الاسلامي صبيحة الغد من تلك الليلة.

وقد نزل في هذا الشأن - على رواية العلامة المجلسي - قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذِنُوكَ لِيُبْعَثَ شَأْنَهُمْ فَأَذْنُ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ. (1))

[النور: ٦٢.]

(149)

فأذن له رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - . (1)

فبات حنظلة عند عروسته تلك الليلة ودخل بها، ولما اصبح خرج من فورهِ وتوجه إلى «أحد» وهو جنب.

ولكنه حينما اراد أن يخرج من منزله بعثت امرأته إلى أربعة نفر من الأنصار، واشهدت عليه أنه قد واقعها.

فقيل لها: لم فعلت ذلك ؟

قالت: رايت هذه الليلة في نومي كأن السماء قد انفرجت فوقع فيها حنظلة، ثم انضمت فعلمت أنها الشهادة، فكرهت أن لا أشهدَ عليه.

ولما حضر حنظلة القتال نظر إلى أبي سفيان على فرس يجول بين العسكر، فحمل عليه، فضرب عرقوب فرسه، فاكتسعت الفرس

وسقط أبوسفيان إلى الأرض، وصاح: يا معشر قريش أنا أبوسفيان، وهذا حنظلة يريد قتلي، وعدا أبو سفيان، وجرى حنظلة في

طلبه، فعرض له رجلٌ من المشركين قطعنه، فمشى إلى ذلك المشرك قطعنه فضربه وقتله، وسقط حنظلة إلى الأرض بين حمزة

وعمر بن الجموح وعبدالله بن حزام وجماعة من الأنصار، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

«رَأَيْتُ الْمَلَائِكَةَ تَغْسِلُ حَنْظَلَةَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِمَاءِ الْمَزْنِ فِي صَحَائِفَ مِنْ ذَهَبٍ. (2)»

فكان يسمى غسل الملائكة أو حنظلة الغسيل.

وكانت الأوس تعدّ حنظلة من مفاخرها فكانت تقول: «ومنا حنظلة غسيل الملائكة.»

وكان أبوسفيان يقول: حنظلة بحنظلة ويقصد بالأول حنظلة غسيل الملائكة وبالتالي ابنه حنظلة الذي قتل يوم بدر. (3)

- 1- بحار الأنوار: ٥٧ / ٢٠.
2- أسد الغابة: ٥٩ / ٢ و ٦٠ ، بحار الأنوار: ٥٧ / ٢٠ و غيرهما.
3- أسد الغابة: ٥٩ / ٢ و ٦٠ ، بحار الأنوار: ٥٧ / ٢٠ و غيرهما.

انه حقاً عجيب أمر هذين العروسين (الزوجين) فبينما كانا هما في أعلى درجات التفاني في سبيل الحق كان والداهما، من اعداء رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وخصومه الالقاء.

فعبدالله بن أبي بن سلول (والد العروس) كان رأس المنافقين في المدينة، وكان أبو عامر الفاسق والد العريس الذي كان يسمى في الجاهلية بالراهب معادياً أشد العداة لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقد التحق بالمشركين في مكة، كما حرّض «هرقل» لضرب الحكومة الإسلامية الفتية في المدينة، ثم اشترك في معركة أحد ضد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقاتل المسلمين قتالاً شديداً. (1)

العسكران يصطفان:

في صبيحة اليوم السابع من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة اصطفّت قوى الإسلام أمام قوى الشرك المعتدية، وكان جيش التوحيد قد جعل ظهره إلى أحد كمانع طبيعيّ يحفظ الجيش من الخلف. وقد كان في جبل أحد ثغرة كان من الممكن أن يتسلل منها العدوّ ويباغت المسلمين من الخلف، ويوجه إليهم ضربة قاضية.

ولهذا عمل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى وضع جماعة من الرماة عند تلك الثغرة، وأمر عليهم «عبدالله بن جبير» وقال:

«إنصَح الخَيْلَ عَنَّا بالنبل، واحموا لنا ظُهُورَنَا، لا يأتونا من خلفنا، وألزموا مكانكم لا تبرحوا منه، إن كانت لنا أو علينا، فلا تفارقوا مكانكم.»

ولقد أثبتت حوادث «أحد» التي وقعت في ما بعد أهمية هذه الثغرة عسكرياً، فقد كانت هزيمة المسلمين بعد انتصارهم في بداية المعركة نتيجة تجاهل الرماة لأمر النبيّ واخلاء ذلك الموقع الاستراتيجي، الأمر الذي سمح للعدوّ بأن يباغت المسلمين في حركة التفافية سريعة، ويحمل عليهم، ويوجه إليهم ضربة قوية!!

1- أسد الغابة: ٥٩ / ٢ و ٦٠ ، بحار الأنوار: ٥٧ / ٢٠ و غيرهما.

إنَّ أمر النبيِّ المؤكّد والمشدّد للرماة بأن لا يخلوا أماكنهم في الجبل حيث الثغرة المذكورة يكشف عن معرفته الكاملة بقواعد القتال وقوانين الحرب، وبما يصطلح عليه اليوم بالتكتيك العسكري.

بيد أن نبوغ القائد العسكري لا يكفي وحده لإحراز الانتصار إذا كان الجنود يعانون من عدم الانضباطية، وعدم التقيد بأوامر القائد

ولقد أشار القرآن الكريم إلى الترتيبات الميدانية، التي قام بها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عند استقرار جنود الإسلام في أرض المعركة بأحد، وتعيينه لمكان كل قطعة من قطعات الجيش الإسلامي إذ قال:

«و إذ عَدَوْتُ من أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»⁽¹⁾

رفع معنويات الجنود وتقوية عزائمهم:

لم يكن النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليغفل في المعارك والحروب عن تقوية العنصر الروحي لدى الجنود، وما يصطلح عليه الآن بالروح المعنوية، أو المعنويات العسكرية.

ففي هذه المرة أيضاً لما اصطف سبعمائة مقاتل مسلم أمام ثلاثة آلاف من المقاتلين المشركين المدججين بالسلاح، خطب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المسلمين خطبة رفع بها من معنويات المسلمين، وذلك بعد ان نظم صفوفهم وسواها.

فلقد كتب «الواقدي» المؤرخ الاسلامي الكبير في هذا الصدد ما يلي:

جعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الرماة خمسين رجلاً على «عينين» عليهم «عبدالله بن جبير»، وجعل «أخداً» خلف ظهره، واستقبل المدينة، ثم جعل - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يمشي على رجليه يسوي تلك الصفوف، ويبوي أصحابه مقاعد

[1- مجمع البيان: ٤ / ٤٩٥ . الكشاف: ١ / ٣٤٦ - ٣٤٧ .

للقتال يقول تقدّم يا فلان، وتأخر يا فلان، حتّى أنه ليرى منكب الرجل خارجاً فيؤخره، فهو يقومهم كأنما يقوم بهم القداح.

ثم قام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فخطب الناس فقال:

«يا أيها الناس، أوصيكم بما أوصاني الله في كتابه من العمل بطاعته، والتناهي عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر ودُخْر. لمن ذكر الذي عليه، ثم وطن نفسه له على الصبر واليقين والجدّ والنشاط فإنّ جهادَ العدوّ شديدٌ، شديدٌ كريهٌ، قليلٌ من يصبر عليه، إلّا

من عَزَمَ اللهُ رَشْدَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ مَنْ أَطَاعَهُ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ مَنْ عَصَاهُ، فَافْتَحُوا أَعْمَالَكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى الْجِهَادِ، وَاتَّمَسُّوا بِذَلِكَ مَا وَعَدَكُمْ اللَّهُ، وَعَلَيْكُمْ بِالذِّي أَمْرَكُمْ بِهِ، فَإِنِّي خَرِيصٌ عَلَى رَشْدِكُمْ فَإِنَّ الْاِخْتِلَافَ وَالتَّنَازُعَ وَالتَّشْبِيحَ مِنْ أَمْرِ الْعَجْزِ وَالضَّعْفِ مِمَّا لَا يُحِبُّ اللَّهُ، وَلَا يُعْطَى عَلَيْهِ النَّصْرَ وَلَا الظَّفَرَ.

وَأِنَّهُ قَدْ نَفَثَ فِي رُوعِي الرُّوحَ الْأَمِينُ إِنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ أَقْصَى رِزْقِهَا، وَلَا يَنْقُصَ مِنْهُ شَيْءٌ وَ أَنْ اِبْطَأَ عَنْهَا... الْمُؤْمِنُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى تَدَاعَى عَلَيْهِ سَائِرُ الْجَسَدِ وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ. (1)»

العدو ينظم صفوفه:

نظم أبو سفيان قائد المشركين صفوف جنوده وقسمهم إلى ثلاثة أقسام: الرماة، وجعلهم في الوسط، واليمينه واستعمل عليهم خالد بن الوليد، والميسرة، واستعمل عليهم عكرمة بن أبي جهل. وقدم جماعة فيهم حملة الألوية والرايات.

ثم قال لأصحاب الرايات وكانوا جميعاً من بني عبدالدار: إنا إنما أتينا يوم بدر من اللواء، وإنما يؤتى القوم من قبيل لوائهم، فالزموا لوائكم وحافظوا عليه، أو خلوا بيننا وبينه فإنا قوم مستميتون موتورون، نطلب ثاراً حديث العهد.

[المغازي: ١ / ٢٢١ - ٢٢٣].

(153)

فشقَّ هذا الكلام على «طلحة بن أبي طلحة» وكان شجاعاً، وهو أولُّ من حمل راية لقريش، فاندفع من فوره إلى ساحة القتال، وطلب المبارزة، متحدياً بذلك أبا سفيان.

الإثارة النفسية وإلهاب الحماس:

قبل أن يبدأ القتال أخذ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - سيفاً بيده وقال: - وهو يثير بذلك همم جنوده -

«من يأخذ هذا السيف بحقه؟» فقام إليه رجال، فأمسكه عنهم حتى قام إليه أبو دجانة الأنصاري، فقال: وما حقه يا رسول الله؟

قال: «أن تشرب به العدو حتى ينحني.»

قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه.

فأعطاه إياه، وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً، يختال عند الحرب إذا كانت، وكان إذا أعلم، أعلم بعصاة له حمراء فاعتصب بها غلم أنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من يد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر

بين الصقيين. فقال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - «: إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن. (1)»

حقاً إن مثل هذه الاثارة النفسية، وهذا التحريك القويّ للهمم أمرٌ ضروريّ لجيش يقاتل دفاعاً عن الحق والقيم، ولا يدفعه إلى ذلك سوى العقيدة، وحب الكمال.

إنّ النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - لم يهدف بعمله إثارة أبي دجانة وحده، بل كان - صلّى الله عليه وآله وسلم - يهدف بذلك إثارة الآخرين، وإفهامهم بأن يبلغوا في الشجاعة والبطولة، والجرأة والإقدام هذا المبلغ.

يقول «الزبير بن العوّام» وهو كذلك رجلٌ شجاع: وَجَدت في نفسي حين

-[السيرة النبوية: ٢ / ٦٦ و ٦٧.

(154)

سألت رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - السيف فمنعني، وأعطاه أبا دجانة وقلت: أنا ابن صفيّة عمته، ومن قريش وقد قمت إليه فسألته إياه، فأعطاه إياه وتركني!

والله لا نظرنّ ما يصنع. فأتبعته فأخرج عصابة له حمراء، فعصّب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، وهكذا كانت تقول له إذا تعصّب بها.

فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهدتني خليلي * ونحن بالسفح لدى النخيل

ألاً أقوم الدهر في الكيول * (1) أضرب بسيف الله والرّسول

فجعل لا يلقي أحداً إلا قتله، وكان من المشركين رجلٌ لا يدع لنا جريحاً إلا ذقّف عليه، فجعل كلُّ واحد منهما يدنوا من صاحبه، فدعوتُ الله أن يجمع بينهما، فالتقيا، فاختلفا ضربتيني، فضرب الشمرك أبا دجانة، فاتقاه بدرقته، فعضت بسيفه، وضربه أبو دجانة، فقتله، ثم رايته قد حمل السيف على مفرق «هند بنت عتبه» ثم عدل السيف عنها، فقلت: الله ورسوله أعلم.

ثم إن أبا دجانة أوضح عمله هذا فقال: رأيت انساناً يخدم الناس خمشاً شديداً فصمدت له، فلما حملت عليه السيف ولول فاذا امرأة،

فأكرمت سيف رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - أن أضرب به امرأة. (2)

القتال يبدأ:

بدأ القتال بما فعله أبو عامر الفاسق الذي كان قد هرب من المدينة مباحداً لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كما أسلفنا، وكان من الأوس، وقد فرّ معه خمسة عشر رجلاً من الأوس بسبب معارضته للإسلام.

وقد تصوّر أبو عامر هذا أن الأوس إذا رأوا يوم أُخْد تركوا نصرته رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فلما التقى العسكران يومئذ نادى أبو عامر: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر.

-1 الكيول: آخر الصفوف في الحرب.

-2 السيرة النبوية: ٢ / ٦٨ و ٦٩.

(155)

قالوا: فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق. فلما سمع ردّ الأوس تركهم، واعتزل الحرب بعد قليل. (1)

ثم إن هناك مواقف وتضحيات عظيمة قام بها رجال معدودون في معركة أُخْد معروفة بين المؤرخين، أبرزها، وأجدرها بالاجلال تضحيات علي - عليه السّلام - ومواقفه الكبرى في ذلك اليوم.

فهو صاحب اللواء والراية في هذه الموقعة الكبرى.

قال الشيخ المفيد في الارشاد: تلت بدرًا غزاةً أُخْد وكانت راية رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بيد أمير المؤمنين - عليه السّلام - فيها ومما يدل على ذلك ما رواه يحيى بن عمارة قال: حدثني الحسن بن موسى بن رباح مولى الانصار قال حدثني أبو البخترى القرشي، قال: كانت راية قريش ولواؤها جميعاً بيد قصي ثم لم تزل الراية في يد ولد عبدالمطلب يحملها منهم من حضر الحرب حتّى بعث الله رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فصارت راية قريش وغيرها إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فافقروا في بني هاشم فأعطاه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى علي بن أبي طالب - عليه السّلام - في غزاة ودان وهي أول غزاة حمل فيها راية في الإسلام مع النبي ثم لم تزل معه في المشاهد ببدر وهي البطشة الكبرى في يوم أُخْد وكان اللواء يومئذ في بني عبدالدار فأعطاه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مصعب بن عمير فاستشهد ووقع اللواء من يده فتشوفته القبائل فأخذه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فدفعه إلى علي بن أبي طالب - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فجمع له يومئذ الراية واللواء. (2)

وقد ورد عن ابن عباس ما يؤيد ذلك فقد روى أنه قال: لعلي أربع خصال ليس لأحد من العرب غيره (هو) أول عربي وعجمي صَلَّى مع النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو الذي كان لواؤه معه في كل زحف. (3) ...

- 1- السيرة النبوية: ٦٧ / ٢ .
2- الارشاد: ٤٣، بحار الأنوار: ٨٠ / ٢٠ .
3- ترجمة الامام علي بن أبي طالب من تاريخ مدينة دمشق المعروف بتاريخ ابن عساکر: ١ / ١٤٢ .

(156)

كما عن قتادة: ان علي بن ابي طالب كان صاحب لواء رسول الله يوم بدر وفي كل مشهد. (1)

ثم إنه كانت راية قريش مع طلحة بن أبي طلحة العبدري (وكان يدعى كيش الكتيبة) فيروز ونادى: يا محمد تزعمون أنكم تجهزونا بأسيافكم إلى النار، ونجهزكم بأسيافنا إلى الجنة، فمن شاء أن يلحق بجنته فليبرز إلى فبرز إليه علي - عليه السلام - وهو يقول:

يا طلح إن كنتم كما تقول * لكم خيول ولنا نصول

فأثبت لننظر أينما المقتول * وأبنا أولى بما تقول

فقد أتاك الأسد المسؤول

بصارم ليس به الفلول * ينصره القاهر والرسول

ثم تصاولا بعض الوقت قُتل بعده طلحة بضربة علي - عليه السلام - القاضية.

فأخذ الراية اخوان آخران لطلحة فخرجا لقتال علي - عليه السلام - على التناوب فقتلا جميعا على يديه - عليه السلام - .

هذا ويستفاد من كلام لعلي - عليه السلام - قاله في ايام الشورى التي انعقدت بعد موت الخليفة الثاني.

فقد قال الامام - عليه السلام - في مجلس ضم كبار الصحابة في تلك المناسبة:

«نشدتم بالله هل فيكم أحد قتل من بني عبد الدار تسعة مبارزة كلهم يأخذ اللواء، ثم جاء صواب الحبشي مولا هم وهو يقول لا أقتل بسادتي إلا محمداً، قد ازبد شذواه، واحمرت عيناه، فأثقتموه، وحُدمت عنه، وخرجت إليه، فلما أقبل كأنه قبة مبنية فاختلفت أنا وهو ضربتين، فقطعته بنصفين وبقيت عجزه وفخذه قائمة على الأرض ينظر إليه المسلمون ويضحكون منه.»

قالوا: اللهم لا. (2)

-
- 1- ترجمة الامام علي بن أبي طالب من تاريخ مدينة دمشق المعروف بتاريخ ابن عساکر: ٩ / ١٤٢ .
2- الخصال: ص ٥٦٠ .

(157)

أجل ان قريشاً كانت قد ادخرت لحمل الراية تسعة رجال من شجعان بني عبدالدار وقد قتلوا جميعاً على يد الامام علي - عليه السّلام - على التوالي فبرز غلامهم وقتل هو أيضاً. (1)

المقاتلون بدافع الشهوة!!

من الأبيات التي كانت تتغنى بها «هند بنت عتبة» زوجة أبي سفيان ومن كان معها من النساء في تحريض رجال قريش وحثهم على القتال واراقة الدماء والمقاومة، ويضربن معها الدفوف والطبول يتبين ان تلك الفئة لم تكن تقاتل من أجل القيم الرفيعة كالطهر والحرية، والخلق الانساني بل كانت تقاتل بدافع الشهوة الجنسية ومن أجل الوصول إلى المآرب الرخيصة.

فقد كانت الأغاني والأبيات التي تردها تلك النساء اللاتي كنّ يضربن بالدفوف خلف الرجال على نحو خاص هي:

نحن بناتُ طارقَ * نمشي على النمارق

إن تقبلوا نُعائِقُ * أو تدبروا نفارِقُ

ولا شك أن الفئة التي تقاتل من أجل الشهوات، ويكون دافعها إلى الحرب والقتال هو الجنس واللذة، وبالتالي لا تهدف سوى الوصول إلى المآرب الرخيصة فان حالها تختلف إختلافاً بيناً وكبيراً عن حال الفئة التي تقاتل من أجل هدف مقدس كإقرار الحرية، ورفع مستوى الفكر، وتحرير البشرية من براثن الجهل وأسر الخضوع للاوثان.

ولا شك أن لكل واحدة من تلك الدوافع أثارها المناسبة في روح المقاتل وسلوكه.

ولهذا لم يمض زمان طويل إلا ووضعت قريش أسلحتها على الارض وولت هاربة من أرض المعركة بعد أن اصيبت باصابات قوية بفضل صمود وتضحيات رجال مؤمنين شجعان كعلی وحزمة وأبي دجانة والزبير و... مخلفة وراءها غنائم

1-وقد ذكر المجلسي قصة مصرع هؤلاء في البحار: ٢٠ / ٨١ - ٨٢.

وأموالا كثيرة، وأحرز المسلمون بذلك انتصاراً عظيماً على عدوهم القوي في تجهيزاته، الكثير في افراده. (1)

الهزيمة بعد الانتصار:

قد يتساءل سائل: لماذا انتصر المسلمون أولاً ؟

لقد انتصروا لأنهم كانوا يقاتلون، ولا يحدوهم في ذلك شيء حتى لحظة الانتصار إلا الرغبة في مرضات الله، ونشر عقيدة التوحيد، وإزالة الموانع عن طريقها، فلم يكن لهم أي دافع ماديّ يشدّهم إلى نفسه.

وقد يتساءل سائل: لماذا انهزموا أخيراً؟

لقد انهزموا لأن أهداف أكثر المسلمين ونواياهم قد تغيّرت بعد تحقيق الانتصار، فقد توجهت أنظارهم إلى الغنائم التي تركتها قريش في أرض المعركة، وفروا منهزمين. لقد خولط اخلاص عدد كبير من المسلمين، ونسوا على أثره أوامر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وتعاليمه، فغفلوا عن ظروف الحرب.

واليك فيما يأتي تفصيل الحادث:

لقد ذكرنا عند بيان الأوضاع الجغرافية لمنطقة أحد أنه كان في «جبل أحد» شعب «ثغرة» وقد كآف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خمسين رجلاً من الرماة بمراقبة ذلك الشعب، وحماية ظهر الجيش الاسلامي، وأمر عليهم «عبدالله بن جبير»، وكان قد أمر قائدهم بأن ينضحوا الخيل ويدفعوها عن المسلمين بالنبل ويمنعوا عناصر العدو من التسلّل من خلالها ولا يغادروا ذلك المكان انتصر المسلمون أو انهزموا، غلبوا أو غلبوا.

وفعل الرماة ذلك فقد كانوا في أثناء المعركة يحمون ظهور المسلمين، ويرشقون خيل المشركين بالنبل فتولّي هاربة، حتى إذا ظفر النبي وأصحابه، وانكشف المشركون منهزمين، لا يلوون على شيء وقد تركوا على أرض المعركة

[I- السيرة النبوية: ٢ / ٦٨، تاريخ الطبري: ٢ / ١٩٤.

(159)

غنائم وأموالاً كثيرة، وقد تبعهم بعض رجال المسلمين ممن بايع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على بذل النفس في سبيل الله ومضوا يضعون السلاح فيهم حتى أجهضوهم عن العسكر أما أكثر المسلمين فقد وقعوا ينتهبون العسكر ويجمعون الغنائم تاركين ملاحقة العدو وقد اغمدوا السيوف، ونزلوا عن الخيول ظناً بأن الأمر قد انتهى.

فلما رأى الرماة المسؤولون عن مراقبة الشعب ذلك قالوا لأنفسهم: وَ لِمَ نَقِيمُ هُنَا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ وَقَدْ هَرَمَ اللَّهُ الْعَدُوَّ فَلْنَذْهَبْ وَنَغْنَمْ مَعَ إِخْوَانِنَا.

فقال لهم أميرهم (عبدالله بن جبير): ألم تعلموا أنّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال لكم: إحموا ظهورنا فلا تبرحوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تتصرونا، وإن رأيتمونا غنمنا فلا تشركونا إحموا ظهورنا؟

ولكن أكثر الرماة خالفوا أمر قائدهم هذا وقالوا: لم يرد رسول الله هذا، وقد أدلّ الله المشركين وهزمهم.

ولهذا نزل أربعون رجلاً من الرماة من الجبل ودخلوا في عسكر المشركين ينتهبون مع غيرهم من المسلمين الاموال وقد تركوا موضعهم الاستراتيجي في الجبل، ولم يبق مع عبدالله بن جبير إلا عشرة رجال!!

وهنا استغل «خالد بن الوليد» الذي كان مقاتلاً شجاعاً، قلّة الرماة في ثغرة الجبل، وكان قد حاول مراراً أن يتسلل منها ولكنه كان يقابل في كل مرة نبال الرماة، فحمل بمن معه من الرجال على الرماة في حملة التفافية وبعد أن قاتل من بقي عند الثغرة وقتلهم بأجمعهم انحدر من الجبل وهاجم المسلمين الذين كانوا منشغلين بجمع الغنائم، وغافلين عما جرى فوق الجبل، ووقعوا في المسلمين ضرباً بالسيوف وطعنات بالرمح، ورمياً بالنبال، ورضخاً بالحجار، وهم يصيحون تقويةً لجنود المشركين.

فتفرقت جموع المسلمين، وعادت فلول قريش تساعد خالداً وجماعته، وأحاطوا جميعاً بالمسلمين من الأمام والخلف، وجعل المسلمون يقاتلون حتّى قُتل منهم سبعون رجلاً.

إن هذه النكسة تعود إلى مخالفة الرماة لأوامر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تحت تأثير المطامع المادية وتركهم ذلك المكان الاستراتيجي عسكرياً والذي اهتم به القائد الاعلى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وأكد بشدة على المحافظة عليه، ودفع أئ

(160)

هجوم من قبيل العدوّ عليه. وبذلك فتحوا الطريق - من حيث لا يشعرون - للعدوّ بحيث هاجمتهم الخيل بقيادة خالد بن الوليد، فدخل إلى أرض المعركة من ظهر الجيش الاسلامي، ووجه إلى المسلمين تلك الضربة النكراء!!

ولقد ساعد خالداً في هذا «عكرمة بن ابي جهل» الذي حمل هو الآخر بمن كان معه من الرجال على المسلمين، وساد على صفوف المسلمين في هذا الحال الهرج والمرج، وعمت فوضى لا نظير لها ساحة المعركة، ولم ير المسلمون مناصاً من أن يدافعوا عن أنفسهم متفرقين ولكن عقد القيادة لما قد انفرط بسبب هذه المباغته العسكرية لم يستطع المسلمون إحراز أي نجاح في الدفاع، بل تحمّلوا - كما أسلفنا - خسائر كبرى في الأرواح، وقُتل عدد من المسلمين على أيدي اخوانهم من المسلمين خطأ ومن دون قصد.

ولقد صعدت حملات خالد وعكرمة من معنويات المشركين، ونفخت فيهم روحاً جديدة فعادت قواتهم الهاربة المنهزمة قبل قليل، ودخلت ساحة المعركة ثانية، وساعدت جماعة منهم خالداً وعكرمة وحاصروا المسلمين من كل ناحية وقُتِلَ جمع كبير من المسلمين بسبب ذلك!!

شائعة مقتل النبيّ:

وفي هذا الأثناء حمل «الليثي»⁽¹⁾ وكان من صناديد قريش وأبطالها على مصعب بن عمير حامل لواء الإسلام في تلك المعركة وهو يظن أنه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتبودلت بينهما طعنات وضربات حتى قتل «مصعب» بضربة قاضية من الليثي، وكان المسلمون يومئذ ملتئمون، ثم صاح: قتلت محمّداً، أو قال ألا قد قُتِلَ محمد، ألا قد قُتِلَ محمد.

فانتشر هذا الخبر في جموع المسلمين كالنار في الهشيم وعلمت قريش بذلك فسروا بذلك سروراً عظيماً، وارتفعت الاصوات في ساحة القتال تنادي: ألا قد

1- هو عبدالله بن قمنه الليثي.

قُتِلَ محمّد، ألا قد قُتِلَ محمّد.

ولقد زاد هذا الخبر الكاذب من جراءة العدو فتحرّكت جحافلهم وافراده نحو المسلمين يسعى كل واحد منهم أن يقتطع من جسم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عضواً، وبذلك ينال فخراً في أوساط المشركين!!

ويقدر ما ترك هذا الخبر الكاذب من أثر إيجابي في نفوس المشركين، ترك أثراً سيئاً جداً في نفوس المسلمين، وأضعف معنوياتهم بشدة بحيث تخلّى عدد كبير من المسلمين عن القتال، ولجأوا إلى الجبل فراراً بأنفسهم، ولم يثبت إلا عدد قليل لا يتجاوز أصابع اليد من الرجال.

هل يمكن أن ينكر أحدٌ فرار البعض؟

لا يمكن أبداً أن ينكر أحدٌ فرار أصحاب النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلا من يعدّون بالأصابع في تلك المعركة، ولا يمنع كونهم صحابة، أو كونهم أصبحوا في ما بعد ذوي مكانة أو مناصب في المجتمع الإسلامي في ما بعد، من القبول بهذه الحقيقة التاريخية المرّة.

فهذا هو ابن هشام المؤرخ الاسلامي الكبير يكتب في هذا الصدد قائلاً: إنتهى أنس بن النضر عمُّ أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيدالله في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم⁽¹⁾ فقال: ما يجلسكم؟ (اي ما يقعدكم عن القتال والمقاومة)

قالوا: قُتِلَ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ فموتوا على مامات عليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ثم عاد إلى المشركين فقاتلهم حتى قُتِلَ.

أو قال: حسب رواية كثير من المؤرخين: - ان كان محمد قد قُتِلَ فإن ربَّ مُحَمَّدٍ لم يُقْتَل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقاتلوا على

-1- اي استسلموا.

(162)

ما قاتل عليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وموتوا على مامات عليه ثم قال: اللهم إني اعتذر اليك مما يقوله هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ثم شد بسيفه على الكفار فقاتل حتى قُتِلَ.

ويروي ابن هشام عن أنس بن مالك (ابن أخ انس بن النضر) لقد وجدنا بأنس بن النضر يومئذ سبعين جراحة فما عرفه إلا أخُّه عرفته ببنانه. (1)

وكتب الواقدي في مغازيه يقول:

حدثني ابن ابي سبرة عن أبي بكر بن عبدالله بن أبي جهم واسم أبي جهم عبيد قال: كان خالد بن الوليد يحدث وهو بالشام يقول: الحمد لله الذي هداني للإسلام، لقد رأيتني ورأيت عمر بن الخطاب حين جالوا وانهزموا يوم أحد وما معه أحد وأنِّي لفي كتيبة خشناء فما عرفه منهم أحد غيري فنكبتُ عنه وخشيت إن أغريت به من معي أن يصمدوا له فنظرتُ إليه موجَّهاً إلى الشعب. (2)

وقد بلغ الانهزام والضعف النفسي ببعض الصحابة في هذه المعركة بحيث أخذ يفكر في التبري من الإسلام لينجو بنفسه فقال: ليت

لنا رسولا إلى عبدالله بن أبي فيأخذ لنا أمانا من أبي سفيان. (3)!!

القرآن يكشف عن بعض الحقائق:

إن الآيات القرآنية تمزق كل حجب الجهل والتعصب التي أسدلت على هذه المسألة، وتفيد بوضوح أن طائفة من أصحاب النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - اعتقدوا بأن ما أخبر به رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من الظفر، والنصر لا أساس له من الصحة، فإن الله تعالى يقول في هذا الصدد:

(وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ. (4))

وفي إمكانك ايها القارئ الكريم أن تحصل على الحقائق المكتومة في هذا

-
- 1- السيرة النبوية: ٢ / ٨٣ راجع تفسير المنار: ٤ / ١٠٢ .
 - 2- المغازي: ١ / ٢٣٧ .
 - 3- بحار الأنوار: ٢٠ / ٢٧ .
 - 4- آل عمران: ١٥٤ .

(163)

المجال بالتمعن في آيات من سورة آل عمران. (1)

فهذه الآيات تكشف بصورة كاملة عن عقيدة الشيعة حول أصحاب رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - .

فإن الشيعة تعتقد بأنه لم يكن جميع صحابة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أوفياء، لعقيدة التوحيد، متفانين في سبيله، بل كان منهم الضعيف في إيمانهم والمنافق، والمتردد، ومع ذلك لم يكن المؤمنون الأتقياء والصالحون الأبرار قلة أيضاً.

ومن العجيب والمؤسف أن يسعى بعض الكتاب من أهل السنة اليوم إلى التغطية على كثير من المواقف والاعمال المشينة التي بدرت من بعض الصحابة كالذي مرّ عليك في معركة أحد، ويحاول تجاوزها بنوع من التبرير البعيد عن روح الحقيقة كمحاولة للمحافظة على شأن جميع الصحابة، ومكانتهم على حين أن هذه التبريرات الفجة، وهذا التعصب اللامنطقي لا يمكنها أن تمنع من رؤية الحقيقة كما هي.

فإي كاتب يستطيع إنكار مفاد هذه الآية التي تصرح قائلة:

«إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ.» (2)

إن هذه الآية تقصد أولئك الذين رأهم أنس بن النضر، ومن شابههم من الذين تركوا ساحة المعركة، ولجأوا إلى الجبل، وجلسوا يفكرون في نجاتهم!!

والأوضح من الآية السابقة قول الله تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ النُّقْيِ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ» (3)»

إن الله تعالى يعاتب ويوبح الذين نذروا - لفرارهم من المعركة - بنبا مقتل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على يد العدو،

وراحوا يفكرون في الحصول على أمان من أبي سفيان بواسطة عبدالله بن أبي إذ يقول:

«وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَأَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَ

سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» (4)»

-1- الآيات: ١٢١ - ١٨٠.

-2- آل عمران: ١٥٣.

-3- آل عمران: ١٥٥ و ١٤٤.

-4- آل عمران: ١٥٥ و ١٤٤.

(164)

التجارب المرة:

إن في أحداث معركة «أحد» وقائعها تجارب مرة وأخرى حلوة فهذه الحوادث والوقائع تثبت بجلاء صمود واستقامة جماعة، وضعف وهزيمة آخرين.

كما أنه يستفاد من ملاحظة الحوادث التاريخية أنه لا يمكن اعتبار جميع المسلمين الذين عاصروا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أتقياء عدولا بحجة أنهم صحبوا النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، لأن الذين أخذوا مراكزهم على الجبل، يوم أحد وعصوا أمر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في تلك اللحظات الخطيرة، وجزؤوا بفعالهم على المسلمين تلك المحنة الكبرى، كانوا أيضاً ممن صحبوا النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .

يقول المؤرخ الاسلامي الكبير الواقدي في هذا الصدد: «بإيع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يوم أحد ثمانية على الموت:

ثلاثة من المهاجرين علي وطلحة والزبير، وخمسة من الأنصار» فثبتوا وهرب الآخرون. (1)

وكتب العلامة ابن أبي الحديد المعتزلي أيضاً: حضرت عند محمد بن معد العلوي الموسوي الفقيه على رأي الشيعة الإمامية رحمه الله في داره بدمشق الدواب ببغداد في سنة ٦٠٨ هجرية، وقارئ يقرأ عنده مغازي الواقدي، فقرأ: حدثنا الواقدي عن ابن أبي سيرة عن خالد بن رباح عن أبي سفيان مولى بن أبي أحمد عن محمد بن مسلمة قال: سمعت أذناي، وأبصرت عيناي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول يوم أحد، وقد انكشف الناس إلى الجبل وهو يدعوهم وهم لا يلبون عليه، سمعته يقول:

«إِلَى يَا فُلَان، إِلَى يَا فُلَان أَنَا رَسُولُ اللَّهِ.»

فما عرّج عليه واحد منهما، ومضيا!! فأشار ابن معد إلى أي إسمع.

فقلت: وما في هذا؟ قال: هذه كناية عنهما. (أي اللذين تسماً مسند الخلافة

- [المغازي: ٢ / ٢٤٠].

(165)

بعد النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .)

فقلت: ويجوز أن لا يكون عنهما لعله عن غيرهما.

قال: ليس في الصحابة من يُحتشم من ذكره بالفرار، وما شابهه من العيب، فيضطرّ الفائّل إلى الكناية إلاّ هما.

قلت له: هذا ممنوع.

فقال: دعنا من جدّك ومنعك، ثم حلفت أنه ما عنى الواقدي غيرهما، وأنه لو كان غيرهما لذكرهما صريحاً. (1)

كما أنّ العلامة ابن أبي الحديد ذكر في شرحه لنهج البلاغة أيضاً اتفاق الرواة كافة على أن عثمان لم يثبت في تلك اللحظات الحساسة يوم أُخذ. (2)

وستقرأ في الصفحات القادمة ما قاله رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن امرأة مجاهدة متفانية في سبيل الرسالة الإسلامية تدعى «نسبية المازنية» دافعت عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يوم أُخذ.

فقد لمّح رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في كلامه عنها وعن موقفها العظيم يومذاك، إلى ما يقُلّ من شأن الذين فرّوا من المعركة.

نحن لا نريد هنا الاساءة إلى أيّ واحد من صحابة النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، بل غاية ما نتوخّاه هو الكشف عن الحقيقة، وإمطة اللثام عن الواقع، فيقدر ما نستنكر، ونقيح فرار من فرّ، نكبر صمود من صمد وثبات من ثبت ممن سنأتي على ذكرهم في الصفحات القادمة، وهذا هو ما تمليه علينا روح التحليل الصادق أو تقتضية أمانة النقل، وما يسمى بالامانة التاريخية على الأقل.

خمسة يتحالفون على قتل النبيّ:

في تلك اللحظات التي تشتت فيها جيش المسلمين، وانفرط عقده، وفي الوقت الذي تركت فيه حملات المشركين من كل ناحية على

رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

تعاهد خمسة أنفار من صناديد قريش المعروفين أن يضعوا نهايةً لحياة النبي الأكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويقضوا عليها مهما كلفهم من الثمن. (1)

وهؤلاء هم:

1- عبدالله بن شهاب الذي جرح جبهة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

2- عتبة بن أبي وقاص الذي رمى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأربعة أحجار فكسر رُباعيته - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وجرح باطنها، من الجهة اليمنى.

3- ابن قمينة الليثي الذي رمى وجنتي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وجرحهما بحيث غاب حلق المغفر في وجنته - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأخرجها أبو عبيدة الجراح بأسنانه فكسرت ثناياه العليا والسفلى.

4- عبدالله بن حميد الذي قُتل على يد بطل الإسلام أبي دجانة وهو يحمل على النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

5- أبي بن خلف وكان من الذين قُتلوا بيد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نفسه.

فهو واجه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عندما وصل - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى الشعب، وقد عرفه بعض أصحابه وأحاطوا به، فجعل يصيح بأعلى صوته: يا محمد لا نجوتُ ان نجوت، وحمل على النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولما تناول رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الحربة من «الحارث بن الصمة»، ثم انتفض انتفاضةً شديدةً وطعن «أبياً» بالحربة في عنقه، وهو على فرسه، فجعل أبي يخور كما يخور الثور!

ومع أن ما أصاب أبياً من جراحة كان يبدو بسيطاً، إلا أنه تملكه رعبٌ وخوفٌ شديدان إذ لم ينفعه معهما تطمينات رفاقه، ولم يذهب عنه الروع بكلامهم، وكان يقول: واللات والعزى لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز (2) لماتوا أجمعون.

1- المغازي: ١ / ٢٤٣.

2- كان ذوالمجاز سوقاً من أسواق العرب وهو عن يمين الموقف بعرفة قريباً من كعب (معجم ما استعجم على ما في حواشي المغازي: ٥٠٨).

ليس قال: (أي النبي يوم كان بمكة) أنا أقتلك إن شاء الله، قتلني والله محمداً!!

وقد فعلت الطعنة، وكذا خوفه فعلتهما فمات في منطقة تدعى سرف (وهو موضع على ستة أميال من مكة) فيما كانت قريش قافلةً من أحد إلى مكة. (1)

حقاً إن هذا ينم عن منتهى الدناءة والخسة في خُلق قريش وموقفها، فمع أنها كانت تعرف صدق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتعترف به، وتتكبر أن يكون قد صدَرَ منه كذبٌ في قول، أو خُلف في وعد، كانت تعاديه أشدَّ العدا، وتمدَّ نحوه يدَّ العدوان، وتبغى مصرعه، وتسعى إلى اراقه دمه!!

كما أنه من جهة أخرى يدل على شجاعة رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبطولته ومقدرته الروحية الكبرى، من ناحية أخرى، وثباته في عمله من ناحية ثالثة.

أجل لقد كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يدافع عن رسالته السماوية، وعن حياض عقيدته التوحيدية العظمى، وبصمد لإعدائه صمودَ الجبال الرواسخ مع أنه ربما دنا من الموت وكان منه قاب قوسين أو أدنى.

ومع أنه كان - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يرى أن كل همّ المشركين وكل حملاتهم موجهة نحوه بشخصه، إلا أنه لم يشهد أحد منه أي قول أو فعل يشعر بتوجسه واضطرابه، ولقد صرح المؤرخون بهذا الأمر فقد كتب المقرئ: ونادى المشركون بشعارهم [يا للعزى، يالهُيَلْ] فاوقعوا في المسلمين قتلاً ذريعاً، ونالوا من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما نالوا. ولم يزل - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - شبراً واحداً بل وقف في وجه العدو، وأصحابه تنوب إليه مرة طائفة وتتفرق عنه مرة، وهو يرمي عن قوسه أو بحجر حتى تحاجزوا. (2)

نعم غاية ما سمع منه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هو ما قاله عندما كان يمسح الدم

-[السيرة النبوية: ٢ / ٨٤، المغازي: ١ / ٢٥١].
-2[متاع الاسماع: ١ / ١٣١، المغازي: ٢ / ٢٤٠].

عن وجهه المبارك إذ قال:

«كيف يفلح قومٌ خَصَبُوا وَجَهَ نَبِيِّهِم بِالْدَمِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ؟!» (1)

إن هذه العبارة الخالدة تكشف عن عمق رحمة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وعاطفته حتى بالنسبة إلى أعدائه الألداء.

بينما تكشف كلمة قالها علي - عليه السلام - عن شجاعته - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الفاتحة إذ قال:

«كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فَمَنْ يَكُنْ أَحَدًا أَقْرَبَ مِنَّا إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ. (2)»

من هنا فإن سلامة النبي الأكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الحروب تعود في أكثر أسبابها إلى حسن دفاعه عن دينه، وعن نفسه، وإلى شجاعته في المعارك.

ولقد كانت ثمة علل وأسباب صانته هي الأخرى حياة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من أن يلحقها خطر أو ضرر، إلا وهو تضحية وتفاني تلك القلة القليلة من أصحابه الأوفياء الذين بذلوا غاية جهدهم للحفاظ على حياة رسول الإسلام العظيم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبذلك أبقوا على هذا المشعل الوقّاد، وهذا السراج المنير.

لقد قاتل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يوم أُحُدٍ قتالاً شديداً، فرمى بالنبل حتى فني نبهه وانكسرت سبة قوسه، وانقطع وتره. (3)

على أن الذين دافعوا عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد⁽⁴⁾، وحتى هذه القلة القليلة المدافعة ثباتهم معه جميعاً غير مقطوع به من منظار علم التاريخ، ومن زاوية التحقيق التاريخي.

نعم ما هو متفق عليه بين المؤرخين، وأرباب السير هو ثبات أفراد قلائل نعمد هنا إلى ذكر أسمائهم ومواقفهم بشيء من التفصيل

1-بحار الأنوار: ٢٠ / ١٠٢ .

2-نهج البلاغة: فصل في غريب كلامه رقم ٩ .

3-الكامل في التاريخ: ٢ / ١٠٧ .

4-شرح نهج البلاغة: ١٥ / ٢٠ و ٢١ .

الدفاع الموفق أو النصر المجدد:

لو أننا أسمينا هذه المرحلة من تاريخ الإسلام بمرحلة النصر المجدد لما قلنا جزافاً، فإن المقصود من هذا الانتصار هو أن المسلمين استطاعوا - وخلافاً لتوقعات العدو الحاقق - أن يصونوا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من خطر الموت الذي كاد أن يكون محققاً، وهذا هو انتصار مجدّد أصابه جند الإسلام.

أما إذا عزونا هذا الانتصار إلى جيش الإسلام برمته فان ذلك انما هو لأجل تعظيم مقام المجاهدين المسلمين، وإلا فان ثقل هذا الانتصار العظيم وقع على عاتق عدد محدود جداً من رجال الإسلام الذين صانوا حياة الرسول الاكرم عن طريق المخاطرة بحياتهم، وتعرضها للخطر الجدي.

وفي الحقيقة فإن بقاء الدولة الإسلامية وبقاء جذوة هذا الدين المبارك مشتعلَةٌ إنما هو نتيجة تضحيات تلكم القلة القليلة المتفانية في سبيل الله ورسوله.

واليك فيمايلي استعراضاً إجمالياً لتضحيات اولئك الرجال المتفانين في سبيل العقيدة والدين:

1- إن أول وأبرز الرجال الصامدين الثابتين على طريق الجهاد والتضحية في هذه الواقعة هو شاب بطل لم يتجاوز ربيعته السادس والعشرين من عمره...، هو الذي رافق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من سني صغره وبدايات حياته وحتى لحظة وفاة الرسول الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

إن بطل الإسلام الاكبر وان ذلك الفدائي الواقعي هو الامام «عليّ بن أبي طالب» - عليه السّلام - الذي تحفظ ذاكرة التاريخ الاسلامي عنه الكثير الكثير من مواقف التضحية والفداء في سبيل نشر الإسلام والدفاع عن حوزة التوحيد، وارساء دعائمه.

وفي الاساس ان هذا الانتصار المجدّد - على غرار الانتصار الأول - إنما جاء نتيجةً لبسالة وبطولة هذا المجاهد المتفاني في سبيل الإسلام ذلك لأن السبب الجوهرى في هزيمة قريش وفرارها في بداية المعركة كان هو سقوط لوائها بعد

(170)

مقتل كل حَمَلَة اللّواء على يد الامام علي - عليه السّلام - ، وبالتالي نتيجة للربح الذي أُلقي في قلوبهم لما رأوا من تساقط صناديدهم الواحد تلو الآخر، الأمر الذي سلبهم القدرة على المقاومة.

إن الكُتّاب المصريين المعاصرين الذين تناولوا حوادث التاريخ الاسلامي بالتحليل والدراسة، لم يعطوا علياً - عليه السّلام - وللأسف - حقه في هذه الموقعة، أو على الأقل لم يذكروا ما اتفق عليه المؤرخون، وتطابقت في اثباته التواريخ، بل جعلوا تضحيات الامام عليّ - عليه السّلام - ومواقفه الشجاعة والعملاقة في عداد مواقف الآخرين، وفي مستواها.

من هنا ينبغي أن نسلط بعض الضوء على تضحيات ذلك الفدائي الواقعي، وذلك البطل الشجاع الذي شهدته له ساحات الوغى مواقف لا نظير لها في العظمة، والسمو.

1-يقول ابن الأثير في تاريخه: (1) كان الذي قتل أصحاب اللواء علياً - قاله ابو رافع - ، (قال) فلما قتلهم أبصر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جماعةً من المشركين فقال لعليّ: إحمل عليهم، فحمل عليهم ففرّقهم، وقتل منهم، ثم أبصر جماعةً أخرى فقال له: احمل عليهم، فحمل عليهم وفرّقهم وقتل منهم، فقال جبرئيل: يا رسول الله هذه المواساة، فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إنه مني وأنا منه، فقال جبرئيل: وأنا منكما قال: فسمعوا صوتاً:

«لا سيّفت إلا ذوالفقار ولا فتى إلا علي.» (2)

وقد شرح ابن أبي الحديد هذه القضية بتفصيل أكثر إذ كتب في شرحه لنهج البلاغة يقول: لما فرّ معظم أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يوم أُحد كثرت عليه كتائبُ المشركين وقصدته كتيبة من بني كنانة، ثم من بني عبد مناة بن

1-الكامل: ١٠٧ / ٢ .
2-ومثله في تاريخ الطبري: ١٩٧ / ٢ ، ميزان الاعتدال: ٣ / ٣٢٤ ، لسان الميزان: ٤ / ٤٠٦ .

(171)

كنانة فيها بنو سفيان بن عوف، وهم خالد بن ثعلب وأبو الشعثاء بن سفيان وأبو الحمراء بن سفيان وغراب بن سفيان، وانها لتقارب خمسين فارساً وهو (أي علي - عليه السّلام -) (راجلٌ)، فما زال يضربها بالسيف تتفرق عنه، ثم تجتمع عليه هكذا مراراً حتى قتل بني سفيان بن عوف الأربعة وتام العشرة منها ممن لا يعرف اسماءهم.

ثم نقل ما قاله جبرئيل، ثم كتب يقول: قلت وقد روى هذا الخبر جماعةً من المحدثين وهو من الاخبار المشهورة وقفت عليه في بعض نسخ مغازي محمد بن اسحاق ورايت بعضها خالياً عنها، وسألت شيخي عبدالوهاب بن سكينه عن هذا الخبر، فقال: خبرٌ صحيحٌ.

فقلت: له فما بال الصحاح (أي مثل صحيح البخاري ومسلم وما شاكلهما) لم تشتمل عليه؟

قال: أو كلُّ ما كان صحيحاً تشتمل عليه كتب الصحاح؟ كم قد أهمل جامعو الصحاح من الأخبار الصحيحة؟. (1)!

2-ولقد اشار الامام علي - عليه السّلام - نفسه في كلام مفصل له مع رأس اليهود إلى هذا الموقف إذ قال:

«ذَهَبَ النَّبِيُّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وعسكرَ بأصحابه في سد أحد واقبل المشركون الينا فحملوا علينا حملة رجل واحد واستشهد من المسلمين من استشهد، وكان ممّن بقي بعد الهزيمة، وبقيت مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومضى المهاجرون والانصار إلى منازلهم من المدينة كلُّ يقول قتل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقتل أصحابه، ثم ضرب الله عزّ وجلّ وجوه المشركين، وقد جرحت بين يدي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نيفاً وسبعين جراحة، منها هذه، وهذه.»

ثم انه - عليه السّلام - ألقى رداءه، وأمرّ يده على جراحاته، وقال:

«وكان مَنّي في ذلك ما على الله عزّ وجلّ ثوابه إن شاء الله.»⁽²⁾

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٤ / ٢٥٠ و ٢٥١ .
2- الخصال: ص ٣٦٨ .

(172)

وقد بلغ عليّ - عليه السّلام - - حسب رواية علل الشرائع - من كثرة ضربه لطوائف المشركين الذين كانوا يحملون على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يوم أحد، ان انكسر سيفه، فجاء إلى النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال: يا رسول الله إنّ الرجل يقاتل بسلاحه وقد انكسر سيفي، فأعطاه - عليه السّلام - سيفه ذا الفقار فما زال يدفع به عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فقال جبرئيل في حقه وفي سيفه ما مرّ.⁽¹⁾

وقد اشار ابن هشام في سيرته إلى العبارة التي نادى بها جبرئيل إذ قال: وحدثني بعض أهل العلم إن ابن أبي نجیح قال: نادى مناد يوم أحد: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا عليّ.⁽²⁾

كما عد ابن هشام في سيرته⁽³⁾ القتلى من المشركين في أحد (٢٢) رجلاً، وقد ذكر أسماءهم واحداً واحداً وذكر قبائلهم، وغير ذلك من خصوصياتهم، وقد قُتل منهم (١٢) رجلاً بيد علي - عليه السّلام - ، وقتل البقية بأيدي المسلمين، ونحن نعرض هنا عن ذكر اسماء أولئك المقتولين رعاية للاختصار.

هذا ونحن نعتزف بأننا لم نستطع بيان كل ما قام به علي - عليه السّلام - من خدمات كبرى في هذه الصفحات القلائل على نحو ما جاء في كتب الفريقين السنة والشيعة وبخاصة في موسوعة بحار الأنوار.

إن ما نستفيده من مطالعة الروايات والأخبار الثابتة والمتعددة في هذا المجال هو انه لم يثبت أحد في معركة «أحد» كما ثبت علي - عليه السّلام - .⁽⁴⁾

2- أبو دُجّانة، وهو البطلُ المسلم الثاني بعد الامام علي - عليه السّلام - في الصمود، والتضحية، والبسالة والفداء دفاعاً عن حياة النبيّ الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فقد بلغ من حرصه على حياة النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ودفاعه عنه أن

1- علل الشرائع: ٧، بحار الأنوار: ٢٠ / ٧١ .
2- السيرة النبوية: ٢ / ١٠٠ .

جعل من نفسه ترساً بقي النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من سيوف الكفار ورماحهم، وسهامهم وأحجارهم، وقد وقعت سهام كثيرة في ظهره ولكنه ظل مترساً بجسمه دون النبي، وبذلك حافظ على حياته الشريفة. (1)

وقد جاء أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال له يوم «أخذ» بعد أن فرّ وانهزم أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وحاصره الكفار من كل جانب يا ابادجانة أمتري قومك، قال: بلى، قال:

«إلحق بقومك وأنت في حل من بيعتي، أما عليٌّ فهو أنا وأنا هو.»

فبكى أبو دجانة بكاءً مرّاً وقال:

لا والله، لاجعلت نفسي في حل من بيعتي إني بايعتك، فالي من أنصرف يا رسول الله إلى زوجة تموت، أو ولد يموت، أو دار تخرب، أو مال يفنى، أو أجل قد اقترب؟

فترق له النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فلم يزل يقاتل حتى اتخنته الجراحة وهو في وجهه و «عليٌّ» في وجهه، فلما سقط احتمله عليٌّ - عليه السلام - فجاء به إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فوضعه عنده فقال: يا رسول الله أوفيت ببيعتي؟ قال: نعم. (2)

وقد ذكر في كتب التاريخ أشخاص آخرون كعاصم بن ثابت، وسهل بن حنيف، وطلحة بن عبيدالله، وغيرهم ممن يبلغ - حسب بعض الكتب - ٣٦ شخصاً ادّعي أنهم ثبتوا ولم يفروا، إلا أنّ ما هو مسلم به تاريخياً هو ثبات علي - عليه السلام - وأبي دجانة، وحمزة وامرأة تدعى أم عامر، وأما ثبات غير هؤلاء الأربعة فامرٌ مظنونٌ بل ومشكوكٌ في بعضهم.

3- حمزة بن عبدالمطلب، عم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وكان من شجعان العرب ومن المعروفين ببطولاته في الإسلام وهو الذي أصرّ على أن

ولقد دأب حمزة على حماية رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من أذى المشركين والوثنيين في اللحظات الخطيرة، والظروف القاسية من بدء الدعوة المحمدية بمكة.

وقد ردَّ على أبي جهل الذي كان قد آذى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بشدة، وضربه ضربة شج بها رأسه في جمع من قادة قريش ولم يجرأ احد على مقابلته.

لقد كان حمزة مسلماً مجاهداً وبطلاً فدائياً متفانياً في سبيل الإسلام فهو الذي قتل «شبيبة» وشبيبة من كبار صناديد قريش وابطالها، في بدر كما قتل آخرين، ولم يهدف إلا نصرة الحق، والفضيلة، وإقرار الحرية في حياة الشعوب والأمم.

ولقد كانت هندُ بنتُ عتبة زوجة أبي سفيان تحقد عليه أشدَّ الحقد، وقد عزمت على أن تنتقم من المسلمين لأبيها مهما كلف الثمن.

فأمرت «وحشياً» وهو غلامٌ حبشي لجبير بن مطعم الذي قتل هو الآخر عمَّه في بدر بأن يحقق غرضها، وأملها كيفما استطاع، وقالت له: لئن قتلت محمداً أو علياً أو حمزة لأعطينك رضاك.

فقال وحشي لها: أما محمد فلا أقدرُ عليه، وأما عليٌّ فوجدته رجلاً حذراً كثير الالتفات فلا أطمع فيه، وأما حمزة فاني أطمع فيه لأنه إذا غضب لم يبصر بين يديه.

يقول وحشي: ولما كان يوم أحد كمننت لحمزة في أصل شجرة ليدنوا مني، وكان حمزة يومئذ قد أعلم بريشة نعامة في صدره، فوالله إنني لأنظرُ إليه يهدّ الناس بسيفه هدأ ما يقوم له شيء، فهزرتُ حربي - وكان ماهراً في رمي الحراب - حتى إذا رضيتُ منها دفعتها عليه، فوقعْتُ في ثنته (وهي أسفل البطن) حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي، فغلب، وتركته وياها حتى مات، ثم أتيتُه فأخذت حربي ثم رجعتُ إلى العسكر ففعدتُ فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة، وإنما قتلتُه لأعتق.

(175)

فلما قدمتُ إلى مكة أعتقت ثم أقمتُ حتى إذا افتتح رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مكة هربت إلى الطائف فمكثتُ بها. فلما خرج وفدُ الطائف إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لِيُسَلِّمُوا تعيبتُ على المذاهب، فقلتُ: ألحق بالشام أو اليمن، أو ببعض البلاد، فوالله إنني لفي ذلك من همّي إذ قال لي رجلٌ: ويحك إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخَلَ في دينه، وتشهدَ شهادته.

فلما قال لي ذلك، خرجتُ حتى قدمتُ على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المدينة، فلم يرْغُه إلا بي قائماً على رأسه أتشهدُ بشهادة الحق، فلما رأني قال: أوحشي؟! قلت: نعم يا رسول الله.

قال: أقعد فحدثني كيف قتلت حمزة، فحدثته بما جرى لي معه، فلما فرغتُ من حديثي قال: ويحك! غيب عني وجهك فلا أرْيَنَكَ.

أجل هذه هي الروح النبوية الكبرى، وتلك هي سعة الصدر التي وهبها الله تعالى لنبيه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قائد الإسلام الأعلى، ومعلم البشرية الاكبر، تراه عفا عن قاتل عمه، مع أنه كان في مقدوره أن يعدمه بمائة حجة وحجة!!

يقول وحشي: فكنت أنتكّب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حيث كان لئلا يراني، حتى قبضه الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فلما خرج المسلمون إلى قتال مسيلمة الكذاب خرجت معهم، وأخذت حربتي التي قتلت بها حمزة، فلما التقى الناس رايت مسيلمة الكذاب قائماً في يده السيف، وما أعرّفه، فتهيأت له، وتهيأت له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى، كلانا يريدُه فهزرت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه، ف وقعت فيه، وشد عليه الأنصاري فضربه بالسيف.

هذا هو ما ادّعاه وحشي، بيد أن هشاماً قال في سيرته، بلغني أن وحشياً لم يزل يُحدّث في الخمر حتى خلع من الديوان فكان عمر بن الخطاب يقول: قد علمت أن الله تعالى لم يكن ليدع قاتل حمزة. (1)

-[السيرة النبوية: ٢ / ٧٢ و ٧٣.

(176)

- أمّ عمارة:

لا ريب أن الجهاد الابتدائي مرفوع عن المرأة ساقط عنها في نظر الإسلام ولهذا عندما أوفدت نساء المدينة امرأة إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لتتحدّث معه حول الجرمان من هذه العبادة الكبرى، فجاءت إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقالت: يا رسول الله نحن نقوم بكل ما يحتاج إليه الرجال في حياتهم، ليجاهدوا ببال فارغ، فلم حُرّمنا نحن من هذه الفضيلة؟!

فأجابها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قاتلاً: «إنّ حُسن التبعّل يعدل ذلك كله»، وهو - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يشير إلى أن لهذا المنع أسبابه الطبيعية والوظيفية في طبيعة المرأة وخلقتها، وليس هو بالتالي يعني حرمانها من شيء فان قيامها على الوجه الصحيح بخدمة زوجها وتربية أولادها تعدل الجهاد في سبيل الله. (1)

بيد أن بعض النسوة المجربات ربما كن يخرجن من المدينة لمساعدة جنود الإسلام كسقي العطاشى، وغسل ثياب المقاتلين، وتضميد الجرحى. وبذلك كنّ يقدّمن خدمة مؤثرة في نصره المسلمين ودعمهم.

تقول أمّ عمارة (نسيبة المازنية): خرجت أول النهار إلى «أحد» وأنا أنظرُ ما يصنع الناس، ومعى سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو في الصحابة، والدولة والريح للمسلمين.

فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فجعلت أباشر القتال وأذب عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالسيف، وأرمي بالقوس حتى خلصت إلى الجراح.

(تقول راوية هذا الكلام) فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور، فقلت: يا أم عمارة من أصابك بهذا؟.

قالت: أقبل ابن قميئة وقد ولى الناس عن رسول الله، بصيح: دلوني على

[1- اسد الغابة: ٥ / ٣٩٨.

(177)

محمد، لا نجوت إن نجا. فاعترض له مصعب بن عمير وناس معه، فكنت فيهم فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذاك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان. هذا والنبى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ينظر إلى، فنظر إلى جرح على عاتقي فصاح بأحد اولادي وقال: «أَمْكَ أَمْكَ إِعْصَبْ جُرْحَهَا». فعاونني عليه.

ثم إنها رأت أن ابنها جرح فاقبلت إليه ومعها عصائب في حقوبها قد أعدتها للجراح فربطت جرحه والنبى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ينظر، ثم قالت لولدها: إنهض يا بني فضارب القوم.

فأعجب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - باستقامتها وثباتها وإيمانها وقال:

«وَمَنْ يُطِيقُ مَا تُطِيقِينَ يَا أُمَّ عِمَارَةَ؟!»

وفي الأثناء اقبل الرجل الذي ضرب ولدها فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذا ضارب ابنك فاعترضت له، وحملت عليه كالأسد المغضب وضربت ساقه فبرك.

فازداد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إعجاباً بشجاعته وتبسم حتى بدت نواجذه وقال:

«استقدت يا أم عمارة الحمد لله الذي ظفرك وأقر عينك من عدوك.»

وعندما نادى منادي النبى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى حمراء الأسد، بعد معركة أُخِذ، وطلب من الجرحى أن يخرجوا لملاحقة جيش المشركين، شدت عليها ثيابها وقد كان بها جراح عديدة أعظمها الجرح الذي على عاتقها فما استطاعت بسبب نزف الدم،

فأرادت أن تخرج مع العسكر منعتها جراحها الباهضة من ذلك، فلما رجع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من غزوة حمراء الاسد ما وصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبدالله بن كعب المازني يسأل عنها فرجع إليه يخبره بسلامتها، فسُرَّ النبي بذلك. ولقد أثار موقف هذه المرأة البطلة الثابتة على درب الايمان سرور النبي واعجابه فقال في حقها مشيداً بموقفها البطولي ومعرضاً بفرار من فرّ وهروب من هرب في معركة أحد:

(178)

«لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان.»

وكانت نسيبة قد طلبت من النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يوم أُخد بعد أن أشاد النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بصلابتها وموقفها أن يدعو لها بمرافته في الجنة فقال النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - داعياً لها ولأهل بيتها:

«بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ رَحْمَتِ اللَّهِ. اللَّهُمَّ اجْعَلْهُمْ رَفِئِي فِي الْجَنَّةِ.»

وقال ابن أبي الحديد معلقاً على عبارة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: لمقام نسيبة اليوم خير من مقام فلان وفلان» قلت: لبت الراوي لم يُكرِّ هذا الكناية، وكان يذكر من هما بأسمائهما حتى لا يتراعى الظنون إلى أمور مشتبهة، ومن أمانة الحديث أن يذكر الحديث على وجهه ولا يكتم منه شيئاً فما باله كتم إسم هذين الرجلين.⁽¹⁾

ولكننا نعتقد أن الرجلين هما من الشخصيات التي تسنمت مراكز القيادة العليا بعد وفاة رسول الله - عليه السلام - وقد أحجم الراوي عن التصريح بأسمائهما إما احتراماً أو تقيّةً وخوفاً.

بقية واقعة «أحد»:»

لقد آلت توضيحات ثلة قليلة ومعدودة من رجال الإسلام المتفانين وبسالتهم إلى الإبقاء على حياة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وحفظها من الخطر القطعي الحتمي.

ومن حسن الحظ أن أكثر أفراد العدو قد تصوروا يومئذ أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد قُتل، ومضوا يفتشون عن جسده بين القتلى، ودفعت الحملات التي كان يقوم بها أقلية من المشركين على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد رُدَّت على

[1] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٤ / ٢٦٥ - ٢٦٧، المغازي: ١ / ٢٦٩ و ٢٧٠، بحار الأنوار: ٢٠ / ١٣٤.

(179)

اعقابها بفضل ثبات علي - عليه السّلام - وأبي دجانة وأنفار آخرين (احتمالاً) وقد رأى النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - أن من الصالح في تلك اللحظات أن لا ينتشر تكذيبُ شائعة مقتل النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - لكي لا يصرّ العدو على البقاء في أرض المعركة مع ما كان عليه المسلمون من التشتت والتفرق، والمحنة، ومن هنا صعد هو وبعض أصحابه إلى الشعب في جبل أُحد.

وفي خلال ذلك سقط رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - في حفيرة في الجبل حفرها أبو عمار الفاسق للمسلمين، فأخذ علي - عليه السّلام - بيد النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - وأخرجه منها، وكان أوّل من عرف رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - من المسلمين، «كعب بن مالك» وقد رأى عينيه - صلّى الله عليه وآله وسلم - تزهرا من تحت المغفر فنأدى بأعلى صوته، يا معشر المسلمين، أبشروا هذا رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - فأشار إليه رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - أن أنصت .

وذلك لأن انتشار خبر سلامة النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - كان من شأنه أن يدفع المشركين - كما قلنا - إلى مواصلة حملاتهم على المسلمين، بهدف استئصال شأقتهم ولهذا أمر النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - كعباً بالسكوت، فسكت كعب. (1)

وأخيراً وصل رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - إلى قم الشعب، ولما عرف المسلمون بحياته - صلّى الله عليه وآله وسلم - سرّوا بذلك وأخذوا يتجمعون عنده، وهم يُظهرون الندامة من تركه بين الأعداء والفرار بأنفسهم إلى الجبل، وأخرج أبو عبيدة الجراح حلقتي المغفر من وجه رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - وجاء علي - عليه السّلام - بماء في درقته فغسل رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - به الدم عن وجهه وصب منه على رأسه وقال:

«اشتدّ غضبُ الله على من دَمَى وجه نبيّه.» (2)

العدوُّ يحاول استغلال الفرصة:

في الوقت الذي واجه المسلمون فيه هزيمة كبرى انهارت بها الكثير من

1- السيرة النبوية: ٢ / ٨٣.

2- السيرة النبوية: ٢ / ٨٣.

المعنويات اغتتم العدو الفرصة للترويج عن معتقداته، فأطلق شعارات متعددة ضد عقيدة التوحيد، كان من شأنها أن تغري البسطاء، والضعفاء في الايمان وتؤثر فيهم، وتزلزل إيمانهم. فليست هناك حالة لبث العقائد وتسريبها إلى النفوس أفضل من حالة الانهزام والنكسة، والبلاء والمصيبة، ففي حالة كهذه يبلغ الضعف النفسي لدى المصاب والمنكوب حدّاً يفقد معه العقل سيطرته على الإنسان

بحيث يفقد على أثر ذلك قدرة التمييز بين الحق والباطل وفي هذه الصورة تصبح مسألة بثّ الدعايات السيئة وزرعها في النفوس واستثمارها مسألة بسيطة، إذ يكون الإنسان في هذه الحالة أكثر تقبلاً وأيسر قبولاً.

من هنا عمد أبو سفيان وعكرمة فرغوا أصناماً كبيرة على الأيدي بعد الحاق الهزيمة بالمسلمين، وأظهروا الفرح والسرور وأخذوا ينادون بأعلى أصواتهم - مستغلين هذه الفرصة - : «أعلُّ هُبُل، أعلُّ هُبُل!!»

ويعنون بذلك الشعار أن الانتصار الذي أحرزه المشركون إنما هو بفضل الصنم: هبل، وبالتالي بفضل الوثنية التي تدين بها أهل مكة. ولو كان ثمة إله سواه، وكانت عقيدة التوحيد على حق لانتصر المسلمون، ولما خلع إليهم من المحنة ما خلع فادرك رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عمق الخطر الذي يكمن في الأسلوب الذي أخذ العدو يمارسه في مثل هذه اللحظة الحساسة، وما سيتركه ذلك من أثر سيء في النفوس، وبخاصة الضعيفة منها، ولهذا تناسى كل أوجاعه ومصاعبه وأمر علياً والمسلمين فوراً بأن يجيبوا منادي الشرك بشعار مضاد قوي، فقال: قولوا:

«اللَّهُ أَغْلَى وَ أَجَلُّ، اللَّهُ أَغْلَى وَ أَجَلُّ.»

أي إنّ هذه الهزيمة ليست نابعة من عقيدة التوحيد، بل هي ناشئة من إنحراف بعض الجنود عن أوامر القائد وتعليماته العسكرية الحكيمة.

بيد أن أبا سفيان لم يكف عن اطلاق شعاراته، والمضى في الدعاية لمعتقده الباطل فقال: نحن لنا العزى ولا عزى لكم!!

(181)

فأمر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن ينادي المسلمون بشعار مضاد لشعار أبي سفيان، مشابه له في الوزن والسجع فقال: قولوا:

«اللَّهُ مولانا ولا مولى لكم.»

أي إذا كنتم تعتمدون على صنم مصنوع من الحجر والخشب، فاننا نعتد على الله الخالق، القادر والعلّي الاعلى.

فنادى منادي الشرك ثالثاً: يومٌ بيوم بدر. فأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن يجيبه المسلمون.

«لا سواء قتلتنا في الجنة، وقتلكم في النار.»

فكان لشعارات المسلمين القوية الرادعة التي كان يرددتها المئات، أثرها العجيب في نفس رأس الشرك أبي سفيان الذي بدأ هذه الحملة النفسية والحرب الباردة بغية تحطيم ايمان المسلمين، ورأى كيف ارتد كيده إلى نحره ولهذا انزعج بشدة وقال: ألا إن موعدكم بدر للعام القابل.

ثم انصرف إلى أصحابه، وغادروا جميعاً أرض المعركة راجعين إلى مكة. (1)

وكان على المسلمين الآن - وفيهم مئات الجرحى والمصابين وسبعون قتيلًا - أن يُصَلُّوا الظهرَ والعصرَ فصلى بهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جلوساً، وصلُّوا معه جلوساً، لما أصابهم من الضعف، ثم أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بدفن الشهداء، ومواراتهم الثرى عند جبل أحد.

نهاية المعركة:

وَضَعَت الحرب أوزارها، وتباعد الجانبان، وقد تحمّل المسلمون من الخسائر في الأرواح ثلاثة أضعاف ماتحمّله المشركون. وكان عليهم أن يبادروا إلى دفن الشهداء على النحو الذي أمرهم به الدين.

ولكنهم فوجئوا بأمر فضيع، فقد اغتنمت نسوة من قريش وفي طلبعتن هند

[1- السيرة النبوية: ٢ / ٩٤ .

(182)

زوجة ابي سفيان فرصة انشغال المقاتلين المسلمين وارتكين بحق الشهداء الابرار، جنابية فظيعة لم يعرف لها تاريخ البشرية مثيلاً، فهن لم يكتفين بالانتصار الظاهري بل عمدن إلى التمثيل بشهداء المسلمين، تمثيلاً مروعاً فخمشن وجوههم، وقطعن الأنوف، وجدعن الأذان، وسملن العيون، وقطعن أصابع الأيدي والأرجل، والمذاكير، وصنعن منها القلائد والاساور، نكايَةً بالمسلمين، وإطفاءً للحقد الدفين، وبذلك الحقن بهنّ وبأولياتهنّ عاراً لا ينسى.

فان جميع الأمم والشعوب - متففة على أن الميت الذي لا يستطيع دفاعاً عن نفسه، ولا يتوقع منه ضررٌ يجب احترامه، ويحرم اهانتة وان كان عدواً. ولكن هنداً زوجة أبي سفيان ومن كان يرفقتها من نساء المشركين مثلن بأجساد القتلى شر تمثيل، وصنعن مما قطعن منها الاساور والقلائد، وبقرت «هند» بالذات صدر حمزة بطل الإسلام الفدائي، وأخرجت كبده، ولاكته بين أسنانها ولكنها لفظته ولم تستطع أكله.

وقد بلغ هذا العمل من القبح، والسوء أن تبرأ منه أبو سفيان وقال: «في قتلاكم مثلة لم أمر بها. (1)»

وقد عرفت هنّد بسبب فعلتها الشنيعة هذه بأكلة الاكباد، ودعي أبنائها في ما بعد بيني أكلة الاكباد.

ولما أبصر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حمزة بن عبدالمطلب، ببطن الوادي وقد بقر بطنه عن كبده، ومثل به فجدع أنفه وأذناه، حزن حزنا شديداً وغازه تمثيلهم به فقال:

«ما وَقَفْتُ مَوْقِفاً قَطُّ أَغِيظُ إِلَيَّ مِنْ هَذَا.»!

ثم إنَّ المؤرّخين يتفقون على أنَّ المسلمين تعاهدوا في ذلك الموقف (وربما نَسِبَ هذا إلى النبيّ نفسه) لئِنْ أَظْفَرَهُمُ اللهُ بِالْمُشْرِكِينَ يوماً أَنْ يَمْتَلُوا بِهِمْ مُثْلَةً لَمْ يَمْتَلِهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ أَوْ يَمْتَلُوا بِدَلِّ الْوَاحِدِ ثَلَاثِينَ.

- [السيرة الحلبية: ٢ / ٢٤٤.]

(183)

ولم يمض زمان حتّى نزل جبرئيل بقوله تعالى:

(وَ إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَإِنَّ صَبْرَتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ.)⁽¹⁾

ولقد كشف الإسلام مرة أخرى ومن خلال هذه الآية - التي تتضمن أصلاً اسلامياً في مجال القضاء مسلماً به - عن وجهه الانسانيّ العاطفيّ، وأظهر للجميع بأن الدين الاسلامي ليس شريعة انتقام، وثأر، فهو يعلم أتباعه بأن لا يغفلوا في أشدّ اللحظات والحالات النفسية هياجاً وغضباً عن قانون العدالة، والحق، وبهذا يكون الإسلام قد راعى مبادئ العدالة والانصاف على الدوام، وصانها من الانهيار، والسقوط.

ولقد أصرت صفيّة أخت حمزة أنّ ترى جثمان أخيها، إلا أن النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمر ابنها الزبير أن يحبسها ويصرفها عن ذلك لكي لا ترى ما بأخيها فلا تحتمل الصدمة.

فقالت صفيّة: قد بلغني أن قد مثل بأخي وذلك في الله، فما أَرْضانا بما كان من ذلك! لاحتسبني ولأصبرنّ إن شاء الله.

فأخبر الزبير رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمقالتها فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : حنّ سبيها، فأتته، فنظرت إليه فصلّت عليه، واسترجعت، واستغفرت له، ثم أمر به رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فدفن. ⁽²⁾

حقاً أن قوّة الإيمان أعظم القوى، فهي تحبس الانسان وتحفظه في أصعب الحالات، وتفيض على صاحبه حالة من السكينة والوقار

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - صل على شهداء أحد الأبرار، وأمر بدفنهم واحداً واحداً أو اثنين اثنين، وأمر بأن يدفن «عمرو بن الجموح» و «عبدالله بن عمرو» في قبر واحد.

1- النحل: ١٢٦ .
2- السيرة النبوية: ٩٧ / ٢ .

(184)

قائلاً:

«إدْفِنُوا هَذِينَ الْمُتَحَاتِبِينَ فِي قَبْرِ وَاحِدٍ. (1)»

آخر ما نطق به سعد بن الربيع:

كان سعد بن الربيع من صحابة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الأوفياء، وكان رجلاً مؤمناً مخلصاً، عظيم الوفاء والحب لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقد أصيب في «أخذ» اثنتا عشرة إصابة قاضية فسقط على الأرض. فمرّ عليه رجل يدعى مالك بن الدخشم فقال له: أما علمت أن محمداً قد قُتِل؟ فقال سعد: اشهد أن محمداً قد بلغ رسالة ربه، فقاتل أنت عن دينك فان الله حي لا يموت. (2)

ثم أنه قد مرّ عليه رجل من الانصار وهو في هذه الحال وبعد أن وضعت الحرب أوزارها فقال لسعد: إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ فقال سعد: أنا في الأموات فابلق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك جزاك الله عنا خيراً ما جرى نبياً عن أمته، وبلغ قومك عني السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله، إن خلص إلى نبيكم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومنكم عين تطرف.

ثم لم يبرح ذلك الانصاري حتى قضى سعد بن الربيع نحبته، فجاء الأنصاري إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخبره بما قال. فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«رَجِمَ اللَّهُ سَعْدًا تَصَرَّنَا حَيًّا وَأَوْصَى بِنَا مَيِّتًا (3)» .

إن حب الإنسان لنفسه، أو ما يصطلح عليه العلماء بحب الذات من الغرائز

1- السيرة النبوية: ٩٨ / ٢، بحار الأنوار: ١٣١ / ٢٠ .
2- السيرة النبوية: ٩٥ / ٢، بحار الأنوار: ١٣٦ / ٢٠ .
3- السيرة النبوية: ٩٥ / ٢، بحار الأنوار: ١٣٦ / ٢٠ .

القوية المتأصلة في كيان الإنسان بحيث لا يمكن لأي أحد أن يغفل عنها مهما كانت الظروف وهي بالتالي من القوة والهيمنة على وجود الإنسان بحيث يضحّي في سبيلها بكل شيء.

ولكن قوة الايمان وحبّ الإنسان للعقيدة، وتعشقه للمعنويات أقوى وأشدّ تأثيراً من ذلك، فهذا الجنديّ الشجاع لم يكن بينه - حسب ما تفيده النصوص التاريخية - وبين الموت في ذلك الوقت سوى لحظات، ومع ذلك نجده ينسى نفسه، ويفكر في حياة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الذي كان يعتبره أقوى سبب لبقاء الدين، ودوام الشريعة، وهذا هو الهدف المقدّس الذي قاتل من أجله سعد البطل، ولهذا لا يحمل ذلك الرجل الأنصاري سوى رسالة واحدة إلى أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يحثهم فيها على السهر على حياة النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والعمل معه على تحقيق أهدافه، في ارساء دعائم التوحيد.

النبيّ يعود إلى المدينة:

كانت الشمس تميل نحو المغرب وكانت تستعد للملحة أشعتها الذهبية من صفحة الكون، وكان السكون والصمت يخيم على كل مكان من الأرض.

في مثل هذه اللحظات كان على المسلمين المقاتلين أن يعودوا بجرحاهم إلى منازلهم في المدينة ليستعيدوا قواهم، ويجدّدوا نشاطهم، ويضمدوا جرحاهم.

ولهذا صدرت أوامر من جانب النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالتوجه نحو المدينة.

فلما كانوا بأصل الحرة قال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : اصطفوا فنثني على الله، فاصطف الرجال صفيين خلفهم النساء ثم دعا فقال:

اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا هادي لمن اضللت ولا مضل لمن هديت، ولا مقرب لما باعدت ولا مباعداً لما قربت.

اللهم اني أسألك من بركتك، ورحمتك وفضلك وعافيتك.

اللهم اني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول.

اللَّهُمَّ آتِي أَسْأَلُكَ الْآمَنَ يَوْمَ الْخَوْفِ وَالْغَنَى يَوْمَ الْفَاقَةِ عَائِذًا بِكَ.

اللَّهُمَّ مِنْ شَرِّ مَا أَنْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ مِنَّا.

اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ.

اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ، وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكِرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ.

اللَّهُمَّ عَذِّبْ كَفْرَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ رَسُولَكَ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ.

اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْهِمْ رَجْسًا وَعَذَابَكَ إِلَهَ الْحَقِّ. آمِينَ. (1)

وقد كان هذا العمل خطوة مهمة جداً من الناحية النفسية فقد أمدّ هذا الدعاء نفوس المسلمين المصابين بطاقة روحية ضخمة مما كان من شأنه تخفيف وطأة الهزيمة وتقوية عزائم المسلمين، كما علمهم أن يلجأوا إلى الله تعالى في كلِّ حال.

فدخل رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ومعه أصحابه من الانصار والمهاجرين الذين شاركوا في تلك المعركة المدينة.

وكانت أكثر بيوت المدينة قد تحوّلت إلى مناحات ومآتم، يرتفع منها أصوات بكاء الأمهات والازواج والبنات اللاتي أصبن في رجالهن وأولياتهن، وأبائهن.

ولما مرّ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - على منازل بني عبدالمطلب وسمع ندبة النساء، وبكاءهنّ حزن وانحدرت دموعه على خديه وقال:

«لَكِنَّ حَمْزَةَ لَأَبْوَكَى لَهٗ.» (2)

فلما عرف سعد بن معاذ وأسيد بن حضير بذلك أمرا جماعة من نسائهم بأن يذهبن فيبيكين على عمّ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - .

فلما سمع رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بكاءهنّ على حمزة خرج عليهنّ وهنّ على باب مسجده يبكين عليه فقال:

1- امتاع الاسماع: ١ / ١٦٢ و ١٦٣ و ١٧٥.

2- السيرة النبوية: ٢ / ٩٩.

«ارجعن يرحمكّن الله فقد آسيتنّ بأنفسكنّ.»

وقيل لما سمع - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بكاءهنّ قال:

«رَحِمَ اللهُ الأنصارَ، فإنّ المواساةَ منهم ما علمتَ لقديمةٍ.. مُروهُنّ فليَنصِرْفنّ.»⁽¹⁾

ذكريات مثيرة عن امرأة مؤمنة:

إن للنسوة المؤمنات صفحات مشرقة، وعجيبة في تاريخ الإسلام، لأننا قلما نجد لها نظيراً في عالم المرأة اليوم.

ومن تلك النسوة المؤمنات ذوات المواقف الرائعة والعجيبة في صدر الإسلام المرأة الدينارية، التي أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأحد.

فأتها لما نعو لها مصرع رجالها قالت: فما فعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ؟

قالوا: خيراً يا أمّ فلان، هو بحمدالله كما تحبين.

قالت: أرونيهِ حتّى أنظر إليه؟

فاشير لها إليه حتّى إذا رأتها قالت: كل مصيبة بعدك جلل (اي صغيرة).⁽²⁾

ما أعظم تلك الاستقامة، وما أعظم ذلك الايمان الذي يجعل من الإنسان طوداً راسخاً ثابتاً في وجه العواصف والاعاصير.

نموذج آخر من السنوة المجاهدات:

لقد أشرنا في الصفحات الماضية بصورة إجمالية إلى قضية «عمرو بن الجموح» الذي آلى على نفسه أن يشارك في الجهاد مع ما كان به من العرج

1- السيرة النبوية: ٢ / ٩٩، امتاع الاسماع: ١ / ١٦٣ و ١٦٤.

2- السيرة النبوية: ٢ / ٩٩.

الموجب لسقوط الجهاد كما عرفت.

فقد شارك هذا المسلم الصادق والمؤمن المجاهد في معركة أحد، ومضى يقاتل في الصف الاول من المجاهدين، وشارك ابنه «خلاد

بن عمرو بن الجموح» و أخو زوجته «عبدالله بن عمرو»⁽¹⁾ في هذا الجهاد المقدس، واستشهدوا جميعاً في تلك المعركة أيضاً.

فخرجت «هند» زوجته وهي بنت عمرو بن حزام، عمّة جابر بن عبد الله الأنصاري إلى «أحد» وحملت أجسادهم على بعير وتوجهت بها نحو المدينة، بمنتهى الجلادة، ورباطة الجأش.

وعندما فشى في المدينة أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قُتل بأحد خرجت النسوة، يتأكدن من هذا النبأ، فالتقت هندُ ببعض نساء النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهي عائدة من أحد - فسألنها عن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقالت: خيراً، أما رسول الله فصالحٌ، وكلُّ مصيبة بعده جلال، واتخذ الله من المؤمنين شهداء، وقرأت قول الله تعالى:

(وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَأْلُوا خَيْرًا!!...)

فسألوا: من هؤلاء؟

قالت: أخي، وابني خلاد، وزوجي عمرو بن الجموح!!

فقلن لها: فأين تذهبين بهم؟

قالت: إلى المدينة أقبرهم بها... ثم زجرت بعيرها تحته على السير قائلة: حل.. حل في نبرة صامدة.

ومرة أخرى يظهر في هذه الصفحة الناصعة من تاريخ الإسلام نموذجٌ حيٌّ آخر من مشاهد الثبات والصمود، والاستقامة، وتجاوز المصائب، وتحمل الآلام والشدائد في سبيل الهدف المقدس، وكل ذلك من فعل الإيمان، ونتائجه.

إن المذاهب المادية لا ولن تستطيع تربية أمثال هذه النسوة والرجال المتفانين في سبيل العقيدة، يمثل هذا التفاني العظيم.

-1 وهو عبدالله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام الأنصاري.

(189)

على أن هؤلاء لم يقاتلوا من أجل المآرب المادية، وإنما قاتلوا من أجل الهدف، وهو إعلاء كلمة الدين وإقامة صرح التوحيد، ومحو الوثنية والشرك.

هذا وفي بقية هذه القصة ما هو أعجب من أولها، وهو أمر، لا يمكن إن يدرك بالمقاييس المادية، والأسس التي ينطلق منها أصحاب الاتجاه المادي في تحليل القضايا التاريخية، وإنما يهضمها - فقط - من يؤمن بعالم آخر وراء العالم المادي الصّرف، ويصدق بتأثيره

في هذا العالم، وبالتالي لا يقبل بها إلا من يصدّق بقضية الإعجاز والمعجزة، ويدّعي لها ويعترف بصحتها من غير تلكؤء وإبطاء

واليك هذه البقية:

لما زجرت هند بعيرها لتدخل به المدينة بَرَكَ البعير في مكانه.

فقالَت النسوة التي كنَّ هناك: لعَلَّه بَرَكَ لما عليه.

فقالَت هند: ما ذاك به، لربما حمل ما يحمل البعيران، ولكنّي أراه لغير ذلك.

فزجرتَه ثانية، فقام، فلما وَجَّهت به إلى المدينة بَرَكَ، فوجهته راجعة إلى أحد فاسرع.

فرجعت إلى النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأخبرته بذلك، فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : فإِنَّ الْجَمَلَ مأمور.

هل قال (يعني: عمرو بن الجموح) شيئاً ؟

قالَت: إِنَّ عمراً لما وَجَّه إلى أُخْد استقبل القبلة، وقال: اللَّهُم لا تردني إلى أهلي خزيماً، وارزُقني الشهادة!!

قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : « فلذلك الجمَل لا يمضي. إِنَّ منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره، منهم

عمرو بن الجموح، يا هند ما زالت الملائكة مظلةً على أخيك من لدن قُتِلَ إلى الساعة ينظرون أين يُدْفَن»، ثم مكث رسول الله -

صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حتّى قبرهم، ثم قال: يا هند قد ترافقوا في الجنة جميعاً، عمرو ابن الجموح، وابنُك خلاد وأخوك عبدالله»

قالَت هند: يا رسول الله فادع لي عسى أن يجعلني معهم. (1)

[1- امتاع الاسماع: ١ / ١٤٦ - ١٤٨.

(190)

ثم إِنَّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - دخل بيته فلما أبصرت به بنته العزيزة «فاطمة» ورأت ما أصابه من الجراح ذرفت

عينها بالدموع، فأعطى رسول الله سيفه لابنته (الزهراء) حتّى تغسله.

وقال الاربلي المؤرخ الشيعي المعروف الذي كان يعيش في القرن السابع الهجري: كان علي بجيء بالماء في ترسه، وفاطمة تغسل

الدم وأخذ حصيراً فأحرقه وحشى به جرحه. (1)

وفي الامتاع لما رأَت فاطمة الدمَ لا يرقاً - وهي تغسله وعلي يصب الماء عليها بالمجَنّ - أخذت قطعة حصير فأحرقته حتَّى صار
رماداً ثم الصقته بالجرح فاستمسك الدم ويقال: داوته بصوفة محترقة. (2)

لابد من ملاحقة العدو:

لقد كانت الليلة التي استقرَّ فيها المسلمون في منازلهم بالمدينة بعد يوم أحد ليلةً جدّاً خطيرةً وحساسةً.

فالمنافقون واليهودُ وأتباع عبدالله بن أبي قد سُزوا لما أصاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه سروراً كبيراً،
وأظهروا القول السيء وقالوا: ما أصيب نبيُّ هكذا قط.

وكان أنين الجرحى والمكلمين وبكاء الموتورين في رجالهم ونياحهم يُسمع من أكثر بيوت المدينة.

والأخطر من كلِّ هذا هو التخوف من أن يقوم المنافقون واليهود بعملية خيانية ضد الإسلام والمسلمين في تلك الظروف.

أو أن يعرّضوا وضع العاصمة الإسلامية الثابت، والوحدة السياسية القائمة في المدينة للخطر بايجاد الاختلاف والتشتت على الأقل.

إن ضرر الاختلافات الداخليّة أشدُّ بكثير من حملات العدو الخارجي، وإن

1- كشف الغمة: ١ / ١٨٩.
2- امتاع الاسماع: ١ / ١٣٧ و ١٣٨.

إنهيار الوحدة والانسجام في الجبهة الداخلية أخطر بكثير من تعرّض البلاد لهجوم من الخارج.

من هنا كان يتعيّن على النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يُرهب العدو الداخلي، ويفهمه بأنّ قوى التوحيد لم تفقد انسجامها
وتماسكها وإنّ أيّة خطوة أو نشاط مُعاد يهدّد أساس الإسلام للخطر سيُسحق بشدة في اللحظة الأولى.

ولهذا أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن يخرج في نفس الليلة لملاحقة العدو (أي مشركي مكة).

فكأف النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رجلاً بأن ينادي في كل مناطق المدينة:

«إلا عصابةٌ تشدّدُ لأمر الله تطلّبُ عدوّها، فاتّها أنكأ للعدوّ وأبعد للسمع. ألا لا يخرج من معنا إلا من حضر يومنا بالامس. »

أو قال: «يا معشر المهاجرين والأنصار من كانت به جراحة فليخرج، ومن لم يكن به جراحة فليقم.»
وانما خرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كما أسلفنا ليُرهب العدو وليلبغهم أنه خارج في طلبهم فيظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوّهم. (1)

على أن لهذا التقييد، ولهذا النهي عن خروج غير الجرحى، أو من لم يشترك في أحد، عللاً أو حكماً لا تخفى على العارفين بالسياسة، والرموز العسكرية.

ويمكن الإشارة إلى بعضها:

أولاً:

إنّ هذا التحديد، وبالتالي الاقتصار على من شارك في معركة أُخذ هو نوع من التعريض بمن امتنع من المشاركة في تلك المعركة، وفي الحقيقة هو نوع من تجريدهم من صلاحية المشاركة في الدفاع المقدّس.

ثانياً:

إنّ هذا التحديد هو نوع من عقاب المشاركين في معركة أُخذ، لأنهم بتجاهلهم لتعاليم القيادة، وانصرفهم بسرعة إلى المطامع المادية، والغفلة عن ملاحقة العدو في حينه تسببوا في توجيه تلكم الضربة النكراء إلى الإسلام،

- [مجمع البيان للطبرسي: ٢ / ٥٣٥ - ٥٤١.

(192)

ولذلك يجب عليهم انفسهم ملافاة تلك الخسارة، وترميم ذلك العطب، لكيلا يعودوا إلى مثل ذلك، ولا يتجاهلوا أوامر القيادة، ونحن نعلم أن الانضباطية والتقييد الكامل بالأوامر هو أهم عنصر في نجاح الامور العسكرية. (1)

بلغ نداء مؤذن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مسامع شاب من بني الاشهل كان قد شهد أُخذاً مع رسول الله، فخرج هو وأخوه وهما جريحان مع رسول الله لطلب العدو، وقد قال أحدهما للآخر: أتفوتنا غزوة مع رسول الله.

وقد خرجا دون أن تكون لهما دابةٌ يركبانها وكلاهما مصابان بجروح ثقيلة، فكان الأيسر منهما يحمل الآخر مسافة، فاذا تعب مشياً مسافةً، ثم عاد إلى حملة حتى انتهيا إلى ما انتهى إليه المسلمون. (2)

حمراء الأسد: (3)

خرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأصحابه إلى حمراء الاسد (وهي تبعد عن المدينة بثمانية أميال) وقد استخلف على المدينة «ابن أم مكتوم.»

وهناك مرّ به «معيد بن أبي معبد الخزاعي» رئيس بني خزاعة، وكانت خزاعة مسلمهم ومشرکهم يومذاك ذات علاقات طيبة جداً مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمين وكانوا لا يخفون عن النبيّ شيئاً.

فتقدم معبد رئيسهم وعزّى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بما أصابه، وهو يومئذ مشرك قاتلاً: يا محمّد أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك، ولوددنا أنّ الله عافاك فيهم.

ثم خرج معبد حتّى لقي أبا سفيان ومن معه بمنطقة تدعى بالروحاء وقد

1- كلا هذين الوجهين يستقيمان إذا قلنا بان النبيّ خرج بكل من شارك في أخذ لا أنه اقتصر على الجرحى، كما تصرّح به بعض النصوص التاريخية.
2- امتاع الاسماع: ١ / ١٦٨، السيرة النبوية: ٢ / ١٠١.
3- لقد عدّ البعض خروج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى حمراء الاسد لملاحقة العدو غزوة مستقلة، وذكرها البعض الآخر في ذيل معركة أحد.

(193)

عزموا على الرجوع إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه للكرة عليهم، واستئصالهم، والقضاء عليهم بالمرّة. فلما رأى أبو سفيان معيداً (وكان معبد قد استهدف من خروجه إلى أبي سفيان وجماعة المشركين القيام بخدمة لصالح النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه) قال: ما وراءك يا معبد، وماذا عندك من الاخبار؟ فقال معبد: - وهو يريد إرغاب قریش وصرّفهم عن الرجوع إلى المدينة - محمّدٌ قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرّقون عليكم تحرقاً قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق وشدة الغيظ عليكم شيء لم أر مثله قط!!

فقال أبو سفيان: - وقد أرب بشدة من هذا النبأ - ويحك ماذا تقول؟

قال معبد: والله ما أرى أن ترتحل حتّى أرى نواصي الخيل.

قال أبو سفيان: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيّتهم!

قال معبد: فاني أنهاك عن ذلك.

وقد تركت كلمات معبد، ووصفه لقوة المسلمين وعزمهم الشديد على توجيه ضربة إلى الكفار أثرها في نفس أبي سفيان الذي تملكه

خوفٌ شديدٌ، دعاه إلى الإنصراف عن الرجوع إلى المدينة ثانيةً، و العزم على القبول إلى مكة. (1)

ومضى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأصحابه حتى عسكروا ليلاً بحمراء الاسد، فامر بأن يوقد المسلمون النيران فأوقدوا خمسمائة نار حتى ترى من المكان البعيد، وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه، وتصور العدو أن النبي جاءهم في جيش عظيم، فتشاوروا حول الرجوع إلى المدينة فنهاهم صفوان عن ذلك، فانصرفوا.⁽²⁾

1- السيرة النبوية: ٢ / ١٠٢، امتاع الاسماع: ١ / ١٦٩ و ١٧٠ .
2- الطبقات الكبرى: ٢ / ٤٩ .

(194)

لا يُخَدَعُ مُؤْمِنٌ مَرَّتَيْنِ:

هذا هو معنى قول النبي الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«المؤمن لا يلدغ من جحر مَرَّتَيْنِ.»

ولقد قاله رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عند ما أسر المسلمون أبو عزة الجمحي في طريق عودتهم من حمراء الاسد على نحو الصدفة، وأراد النبي ضرب عنقه فاستقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وطلب منه العفو وكان قد أسر ببدر قبل ذلك، ثم منّ عليه النبي وأطلق سراحه مشترطاً عليه أن يكف عن المؤامرة ضد النبي والمشاركة في قتاله، ولكنه عاد إلى مكة، وشارك في قتال النبي مرة أخرى في أحد.

فقال له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، لما طلب العفو ثانيةً:

«والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خَدَعْتُ مُحَمَّدًا مرّتين، إنَّ المؤمن لا يُلدغ من جحر مَرَّتَيْنِ. »

ثم أمر بضرب عنقه، وضرب عنقه.⁽¹⁾

وأخيراً انتهت معركة أحد وقد قدم المسلمون فيها سبعين، أو اربعة وسبعين، أو واحداً وثمانين شهيداً على روايات مختلفة، بينما لم يتجاوز عدد قتلى قريش اثنين وعشرين.

وقد نشأت هذه النكسة المرّة بسبب تجاهل الرماة لتعليمات الرسول القائد على النحو الذي قرأت.

1- السيرة النبوية: ٢ / ١٠٤، نلفت نظر القارئ الكريم إلى أننا قد ذكرنا في الهوامش مصادر أهم الحوادث في معركة أحد وفي إمكان القارئ الكريم لو أراد التوسع ان يراجع المصادر التالية التي اعتمدها المؤلف: وهي: الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ٣٦ - ٤٩، المغازي: ١ / ١٩٩ - ٣٤٠، شرح نهج البلاغة، لابن ابي الحديد: ١٤ / ١٤ - ٢١٨ و ج ٥، ص ٦٠، وبحار الأنوار: ٢٠ / ١٤ - ١٤٦، وامتاع الاسماع: ١ / ١١٣ - ١٦٦، السيرة النبوية: ٢ / ٦٠ - ١٦٨.

وقد وقعت معركة أحد يوم السبت السابع من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة النبوية الشريفة، هذا مضافاً إلى غزوة حمراء الأسد التي استمرت إلى يوم الجمعة من ذلك الاسبوع نفسه، فتكون قضايا ووقائع هذه الغزوة في الرابع عشر من شهر شوال من نفس تلك السنة.

ميلاد الإمام الحسن السبط:

هذا وقد ولد في هذه السنة (أي السنة الثالثة من الهجرة) سبط رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الأكبر الإمام الحسن بن علي - عليه السلام - في منتصف شهر رمضان من تلك السنة، وأجرى له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مراسيم ولادة خاصة ذكرها أصحاب الحديث وتجد تفصيلها في سيرة الأئمة من أهل البيت النبوي الطاهرين.

حوادث السنة الرابعة من الهجرة

٣٣

فاجعة فريق المبلّغين^(١)

لقد ظهرت الآثار السياسية لنكسة المسلمين في معركة «أحد» بصورة واضحة بعد الحرب.

فمع أن المسلمين أظهروا مقاومة رائعة أمام العدو المنتصر ومنعوا من رجعه إلى المدينة وتحقيق أهدافه الخطيرة في استئصال المسلمين إلا أن التحريكات الداخلية والخارجية ضد الإسلام بهدف القضاء على هذا الدين، ورجاله قد تصاعد مدّها في أعقاب حادثة «أحد». »

وقد تجرأ منافقو المدينة، ويهودها والمشركون المتواجدون في شتى النقاط البعيدة خارج المدينة على اثر ذلك، وبدأوا يحيكون المؤامرات ضد الإسلام والمسلمين ويجمعون الاسلحة والرجال لشن الحروب والغارات على المدينة.

وقد استطاع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبمهارة كبيرة إطفاء كل تلك التحريكات، كما استطاع قمع تحركات القبائل الفاطنة خارج المدينة التي كانت تنوي الهجوم على المدينة وذلك بارسال السرايا والمجموعات القوية من المجاهدين.

وفي هذا الاثناء بلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نبأ مفاده أن قبيلة بني أسد تنوي الهجوم على المدينة وتسخيرها، وقتل المسلمين، ونهب أموالهم، فبعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من فوره جماعة من المقاتلين يبلغ عددهم (١٥٠)

(197)

رجلا بقيادة «أبي سلمة» إلى منطقة تجمع المتأمّرين.

ثم إنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أوصاهم بأن يخفوا مقصدهم الأصلي، ويسلكوا طريقاً آخر غير الطريق المتعارف، ويقبموا نهراً ويسيروا ليلاً، ليعمّوا على القوم.

وقد فعل «أبو سلمة» وجماعته ما أوصاهم به رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فكانوا يسرون الليل، ويكتمون النهار، حتّى وردوا المنطقة فاحاطوا ببني أسد في عمابة الصبح، وقضوا على المؤامرة في مهدها، وعادوا غانمين موفورين إلى المدينة، وقد وقعت هذه الحادثة في شهر المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة.⁽¹⁾

خطة ماكرة للفتك بالمبلّغين:

كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يقوم بارسال السرايا والمجموعات العسكرية لإفشال جميع مؤامرات المتأمّرين ضد الإسلام كما أنه كان يقوم إلى جانب ذلك ببعث المجموعات التبليغية إلى القبائل، والجماعات وبذلك يجلب قلوب المحايدين منهم نحو العقائد الإسلامية.

وكان المبلّغون والدعاة الذين كانوا من قراء القرآن الكريم، ومن الملمّين بالاحكام الإسلامية والتعاليم النبوية يبذلون استعداداً عجبياً للقيام بهذه المهمة الصعبة ولو كلفت حياتهم فكانوا ينقلون تعاليم الإسلام إلى الناس في المناطق النائية، والاماكن البعيدة بأوضح بيان وأوضح اسلوب.

ولقد كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ببعثه للمجموعات العسكرية من جانب، وارساله للفرق التبليغية من جانب آخر يقوم - في الحقيقة - بوظيفتين هامتين من وظائف المنصب النبوي.

[1] المغازي: 1 / 340، وامتاع الاسماع: 1 / 170، ولا بدّ أنك أيها القارئ الكريم تتذكر أن السنة الثالثة للهجرة تنتهي عند انتهاء الشهر الرابع والثلاثين، وتكون حوادث الشهر الخامس والثلاثين متعلقة بالسنة الرابعة من الهجرة.

(198)

فهو ببعثه للسرايا والمجموعات العسكرية كان يقصد في الحقيقة القضاء على محاولات التمرد، والتأمر التي كانت في مرحلة التحقق والتكوّن لكي يتسنى للمجموعات التبليغية في ظل الأمن والحرية الدعوة إلى الإسلام، والقيام بوظيفتها الاساسية ألا وهي ارساء دعائم الحكومة الإسلامية في القلوب، وتنوير الافكار، وإيقاظ العقول.

ولكن بعض القبائل المتوحشة، والمنحطة أخلاقياً وفكرياً كانت تتحارب على المجموعات التبليغية التي كانت تمثل القوى المعنوية للإسلام، والتي لم يكن لها هدف سوى نشر التوحيد، واقتلاع جذور الكفر والوثنية، وكانوا يقتلونهم بصورة فضيعة ومفجعة. وفيما يلي نلقت نظر القارئ الكريم إلى قصة مجموعة من الدعاة والمبشرين الذين لقوا هذا المصير وكان عددهم يبلغ ستة أشخاص حسب رواية ابن هشام⁽¹⁾، أو عشرة أشخاص حسب رواية ابن سعد.⁽²⁾

الغدر بالدعاة إلى الإسلام وقتلهم:

لقد مشت جماعة من قبيلتي «عضل» و «القارة» إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقالوا - وهم يضمرون المكر - يا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إن فينا إسلاماً فاشياً فابعث معنا نقرأ من أصحابنا يقرئونا القرآن، ويفقهوننا في الإسلام. فرأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن من واجبه الاستجابة لمطلب تلك الجماعة التي كانت تمثل قبائل كبرى، وكما رأى المسلمون أيضاً أن من واجبهم أن يستفيدوا من هذه الفرصة مهما كلف الثمن.

من هنا بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جماعة بقيادة «مرثد بن أبي مرثد

[1] السيرة النبوية: ٢ / ١٦٩، وقال في امتاع الاسماع: ١ / ١٧٤ انهم سبعة اشخاص.
[2] الطبقات الكبرى: ٢ / ٥٥.

الغنوي» مع تلك الجماعة إلى القبائل المذكورة.

فخرج هؤلاء المبلعون ووفد القبيلتين من المدينة متوجهين إلى حيث تتواجد «عضل» و «القارة»، ولما كانوا بماء يسمى الرجيع تقطن عنده قبيلة تدعى «هذيل» كشف مندوبو القبيلتين عن نواياهم الشريرة، واستصرخوا هذيلاً وكميناً من رجالهم، وكانوا مائة رام وبأيديهم السيوف فاحاطوا بالدعاة يريدون أسرهم ثم قتلهم وبادتتهم!!

فلم ير المبلعون بدأ - وهم محاطون بتلك الجماعات المسلحة - من اللجوء إلى سيوفهم والدفاع عن أنفسهم.

ولكن العدو قال: ما نريد قتالكم، وما نريد إلا ان نصيب منكم من أهل مكة ثمناً، ولكم عهد الله وميثاقه لانقتلكم!!

فنظر الدعاة بعضهم إلى بعض، وقرر أكثرهم المقاومة وعدم الرضوخ لهذا العرض الغادر، والخطة الماكرة، وقال أحدهم: إني نذرت أن لا أقبل جوازٍ مشترك⁽¹⁾ ثم جعلوا يقاتلون القوم قتال الأبطال، حتى قتلوا إلا ثلاث هم: «زيد بن دثنة»، و «خبيب بن عدى»، و «عبدالله بن طارق البلوي» فقد أغمد هؤلاء سيوفهم وسلّموا، فأخذوا ووثقوا بأوتار قسيهم، ولكن «عبدالله» ندم على

فعله، فزرع يده من رباطه ثم أخذ سيفه، وراح يقاتلهم حتى قتلوه رمياً بالحجارة، وقد انحازوا عنه وهو يشدّ فيهم وينفرون عنه، ودفن في مر الظهران.

ثم أخذوا الأسيرين الآخرين «خبيب» و «زيد» وقدموا بهما مكة فباعوهما لأهل مكة!!

فأمّا زيد بن الدثنة فقد اشتراه «صفوان بن أمية» وقتله ثاراً لابيه، وقتله قصة عجيبة سطرَ فيها أروع آيات المقاومة والوفاء والاخلاص.

فقد اشتراه «صفوان بن أمية» كما أسلفنا ليقتله بأبيه، وقد حبسه صفوان في الحديد، وكان يتهدّج بالليل ويصوم بالنهار، ولا يأكل شيئاً مما أتى به من

- [أو قالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً (السيرة النبوية: ٢ / ١٧٠)].

(200)

الذبائح، وهو في الأسر والحبس.

ثم إنه أخرج إلى «التنعيم»⁽¹⁾ ليُصلب على مرأى حشد كبير من الناس.

فرفعوا له جذعاً، فقال: دعوني أصلي ركعتين، فصلّى ركعتين، ثم حملوه على الخشبة ثم جعلوا يقولون له: يا زيد إرجع عن دينك المحدث، واتبع ديننا، ونرسلك فيقول: والله لا أفارق ديني أبداً.

فقال له أبو سفيان فرعون مكة وأشدّ المتأمرين على الإسلام ومدبر أغلب الحروب ضد رسول الله، والمسلمين: أنشدك بالله يا زيد أيسرك أن محمداً في أيدينا مكانك وانت في بيتك؟ فقال زيد بشجاعة ووفاء عظيمين: ما يسرنى أنّ محمداً أشيك بشوكة واني في بيتي، وجالس في أهلي!!!

وقد كان لهذه الكلمة أثر الصاعقة في نفس طاغية مكة أبي سفيان فقال: ما رأينا أصحاب رجل قطّ أشدّ حباً من أصحاب محمّد بمحمّد!!

ولم تمض لحظات إلّا وصار «زيد» على خشبة الاعدام وررفت روحه إلى خالقها، ومضى ذلك المسلم الوفيّ، والمؤمن الشجاع شهيداً الثبات في طريق العقيدة، والدفاع عن حياض الدين. (2)

واما «خُبَيْب» فقد حبس مدةً من الزمان حتّى قرّر رجال ندوة مكة قتله، فخرجوا به إلى التنعيم ليصلبوه وخرج معه النساء والصبيان والعبيد وجماعة من أهل مكة، فقال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتّى أركع ركعتين فافعلوا، فقالوا دونك فاركع.

فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم وقال: أما والله لولا أن تظنوا أنّي إنما طوّلتُ جَزَعاً من القتل لاستكثرْتُ من الصلاة!!

ثم رفعوه على خشبة ثم وجّهوه إلى المدينة، وأوثقوه رباطاً، ثم قالوا له: إرجع عن الإسلام نخلّ سبيلك.

-1التنعيم ابتداء الحرم ومنها يحرم المعتمرون للعمرة المفردة.
-2السيرة النبوية: ٢ / ١٧٢، المغازي: ٢ / ٣٦٢، امتاع الاسماع: ١ / ١٧٤ و ١٧٥.

(201)

قال: لا والله ما أحبُّ أنّي رجعتُ عن الإسلام وأنّ لي ما في الأرض جميعاً.

فقالوا: أما واللات والعزى لئن لم تفعل لنقتلنك!

فقال: إن قتلي في الله لقليل، فلما أبى عليهم وقد جعلوا وجهه من حيث جاء (أي نحو المدينة)، قال: أما صرفكم وجهي عن القبلة، فإن الله يقول: «فَأَيُّمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ» ثم قال: اللهم إني لا أرى إلا وجه عدوّ، اللهم أنه ليس هاهنا أحدٌ يبلغُ رسوأك السلام عني فبلغه أنت عني السلام.

ثم دعا على القوم وقال: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً.

ثم دعوا أبناء من أبناء قَيْلٍ ببدر فوجدوهم أربعين غلاماً، فأعطوا كل غلام رمحاً، ثم قالوا هذا الذي قتل آباءكم، فطعنوه برماحهم طعناً خفيفاً فاضطرب على الخشبة فانقلب، فصار وجهه إلى الكعبة، فقال: الحمد لله الذي جعل وجهي نحو قبلته التي رضي لنفسه ولنبيه وللمؤمنين!!

فأثارت روحانيته الكبرى، وطمانينته العظيمة غيظ أحد المشركين الحاضرين، وهو «عقبة بن الحارث» وتملكه غضب شديد من إخلاصه للإسلام فأخذ حربته وطعن بها خبيباً طعنة قاضية، قتلته، وهو يوحد الله ويشهد أن محمداً رسول الله.

ويروي ابن هشام أن خبيباً أنشد قبل مقتله أبياتاً عظيمة نذكر هنا بعضها:

إلى الله أشكو غُرْبتي ثم كُرْبتي * وما أرى صدّ الأحزاب لي عند مصرعي

فذا العرش صيرني على ما يُرادُبي * فقد بضَعوا لحمي وقد ياسَ مَطْمَعِي

وذلك في ذات الاله وأن يشأ * يبارك على أوصالي شلو مُمَزَّع

وقد خيروني الكفر والموتِ دونَه * وقد هَمَلْتُ عيناي من غير مجزع

وما بي جذارُ الموت أني لميت * ولكن جذاري جحم نار ملقَع

فوالله ما أرجو إذا متّ مسلماً * على أي جنب كان في الله مَصْرَعِي

فلستُ بمُبد للعدو تخشعاً * ولا جزعاً أني إلى الله مرجعي

(202)

وقد أحرزنت هذه الحادثة الاليمة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وكذا جميع المسلمين. وأنشد فيهم «حسانُ بن ثابت» أبياتاً ذكرها ابن هشام في سيرته، كما أنه هجا هذيلًا في أبيات أخرى لارتكابهم هذه الجريمة النكراء. (1)

ولقد خشي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن تتكرر مثل هذه الجريمة النكراء، وبذلك يواجه رجال التبليغ والدعوة الذين كان يعدمهم بصعوبة بالغة مصاعب في سبيلهم، ويتعرضوا لخسائر لا تجبر، وعمليات غدر واغتيال أخرى. وقد بقي جثمان هذا المسلم المجاهد على الخشبة مدة من الزمن، يحرسه جماعة من المشركين حتى قام رجلان قويان شجاعان من المسلمين بانزاله من فوق الصليب ليلا، ومن ثم دفنه بأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - . (2)

جريمة بنر معونة:

وفي شهر صفر من السنة الرابعة وقبل أن يصل نبا مصرع الدعاة المذكورين واستشهادهم على ايدي المشركين في منطقة الرجيع إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، قدم أبو براء العامري المدينة فدعاه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى الإسلام فلم يسلم ولكنه قال للنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يا محمد اني ارى أمرك حسنا، فلو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل «نجد» فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك فان هم اتبعوك فما أعز أمرك.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :إني اخشى عليهم أهل نجد.

قال أبو براء: لا تخف، أنا لهم جاز، فابغثهم فليدعو الناس إلى أمرك.

فَبَعَثَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أَرْبَعِينَ رَجُلًا مِنْ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ مِمَّنْ حَفِظُوا الْقُرْآنَ وَعَرَفُوا أَحْكَامَ
الإسلام وأمر عليهم «المنذر بن

[1-المغازي: ١ / ٣٥٤ - ٣٦٢، السيرة النبوية: ٢ / ١٦٩ .
2-سفينة البحار: ١ / ٣٧٢ .

(203)

عمرو»، فساروا حتّى نزلوا ببئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم وهم يحملون من رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كتاباً إلى عامر بن الطفيل أحد زعماء «نجد»، وكلف أحد المسلمين بإيصال ذلك الكتاب إلى عامر، فلما أتاه الكتاب لم ينظر فيه حتّى عدا على الرجل (حامل الكتاب) فقتله، ثم استصرخ بني عامر على المبلّغين، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: لن ننقض عهد أبي براء، وقد عقد لهم عقداً وجوراً.

فاستصرخ عليهم قبائل بني سليم فأجابوه إلى ذلك فخرجوا حتّى نزلوا حيث نزل جماعة الدعاة، فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم، ثم قاتلوهم حتّى قتلوا عن آخرهم بعد أن أبدوا مقاومة كبرى، وبسالة عظيمة، ولم يكن يتوقع منهم غير ذلك.

فإنّ مبعوثي النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لم يكونوا مجرد رجال فكر وعلم فقط، بل كانوا رجال حروب، وابطال معارك ولذا رفضوا الاستسلام للمعتدين، واعتبروا ذلك عاراً لا يليق بالمسلم الحرّ الأبيّ، فقاتلوهم حتّى استشهدوا جميعاً، إلاّ كعب بن زيد، فانه جرح فعاد بجراحه إلى المدينة، وأخبر رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بما جرى لأصحابه على أيدي قبائل بني سليم المشركة الغدرة.

فحزن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - والمسلمون جميعاً لهاتين الحادثتين، المفجعتين اشدّ الحزن بل ولم يجد على قتلى مثل ما وجد عليهم، وبقي رسول الله يذكر شهداء بئر معونة رداً من الزمان. (1)

هذا ولقد كانت هاتان الحادثتان المؤسفتان المؤلمتان جميعاً من نتائج النكسة التي أصابت المسلمين في «أحد» والتي جرّأت القبائل خارج المدينة على قتل رجال المسلمين ودعاتهم غدرًا ومكرًا.

كيدُ المستشرقين وجفاؤهم:

إن المستشرقين الذين دأبوا على نقد أبسط سوء يتعرض له مشرك على أيدي

[1-السيرة النبوية: ٢ / ١٨٣ - ١٨٧، امتاع الاسماع: ١ / ١٧٠ - ١٧٣ .

المسلمين فينالون من الإسلام والمسلمين أشدّ نيل، ويصرون على أن يؤكدوا على أن الإسلام لم ينتشر إلا بالسيف والقهر، التزموا صمتاً عجباً تجاه هاتين الحادثتين المؤلمتين المفجعتين، ولم ينبسوا في هذا المقام ببنت شفة أبداً، وكان شيئاً من هذا لم يقع، وكان ما وقع لا يستحق إهتماماً وحديثاً.

ترى أيّ نظام من أنظمة العالم القديم والجديد يجيز أن يُقتل الدعاة والمبشرون ورجال العلم والفكر، والتعليم والتنقيف.

إذا كان الإسلام قد تقدّم بالسيف - كما يدّعي رجال الاستشراق - فلماذا تخاطر جماعات التبليغ والدعوة هذه بأنفسها وتزهق أرواحها في سبيل نشر الإسلام والدعوة السلمية الفكرية إليه.

إنّ هاتين الحادثتين تنطويان على نقاط حيوية، وعبر مفيدة جداً، فان قوة الايمان لدى تلك الجماعات، وعمق تفانيها، وتضحيتها، وبسالتها تستحق إعجاب المسلمين، واكبارهم. كما وتعتبر من أفضل الدروس وابلغها لهم.

المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين:

لقد أثارت حادثتا «الرجيع» و «بئر معونة» المفجعتان اللتان جرتا إلى مصرع مجموعة كبيرة من خيرة الدعاة والمبليغين موجة من الحزن والأسى في المسلمين وتركت أثراً مؤلماً في أوساطهم.

وهنا يتساءل القارئ: لماذا أقدم النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على إرسال المجموعة الثانية من المبليغين إلى «نجد» مع أنه حصل على تجربة مرة؟! ألم يقل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين.»

إن الإجابة على هذا السؤال تتضح من خلال مراجعة النصوص التاريخية لأن المجموعة الثانية قد بُعثت في جوار من أبي براء (عامر بن مالك بن جعفر) والذي كان رئيساً لقبيلة بني عامر، ولم تفعل قبيلته بني عامر، ولم تفعل قبيلته ما خالف جوار رئيسهم ولم يشتركوا في تلك الجريمة وقد بقي أبو براء نفسه في المدينة تأكيداً لجواره، ريثما

لقد كانت خطة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خطة مدروسة وصحيحة لأن جماعة المبلّغين الثانية لم تقتل على يد قبيلة أبي براء، ومع أن ابن أخيه عامر بن الطفيل قد استصرخ قبيلة أبي براء التي كانت قبيلته أيضاً، ضدّ جماعة المبلّغين إلا أن قبيلة أبي براء أبت أن تنفر معه، ولم يستجب لندائه أحدٌ منهم بل قالوا: لن يُخَفَّرَ جوار أبي براء. ولما أيس منهم استصرخ قبيلةً أخرى لا تمتُّ إلى قبيلة أبي براء بصلّة، فاقدمت تلك القبائل على محاصرة الدعاة الأربعة ومقاتلتهم.

ثم إن جماعة المبلّغين المذكورة كانت قد بعثت عند مغادرتها المدينة وتوجهها إلى منطقة أبي براء رجلين من رجالها هما: عمرو بن أمية و «حارث بن الصمة»⁽¹⁾ ليرعا إبل الجماعة ويحافظا عليها، وبينما كان الرجلان يقومان بواجبهما إذ أغار عليهما «عامر بن الطفيل». فقتل حارث بن الصمة، واطلق سراح عمرو بن أمية.

فعاد عمرو إلى المدينة، في اثناء الطريق التقى رجلين من العامريين فراقبهما وأمهلها حتى إذا ناما وثب عليهما فقتلتهما، وهو يرى بأنه انتقم لزملائه من المسلمين من بني عامر، وقد أخطأ في تصوره هذا لأن بني عامر لم تخفر جوار سيدها أبي براء ولم تنتفض أمانه كما أسلفنا، ولم يشترك في جريمة قتل الدعاة الأربعة.

فلما قدم على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخبره الخبر، حزن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لذلك وقال لعمرو:

«بئس ما صنعت، قتلت رجلين كان لهما مني أمان وجوار، لا دفعت ديتهما.»

ولكن الاجابة الاكثر وضوحاً على هذا الاعتراض (أو السؤال) هو ما يذكره ابن سعد صاحب الطبقات إذ يقول: وجاء رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خير أهل بئر معونة، وجاءه تلك الليلة أيضاً مصاب خبيب بن عدى ومرثد بن أبي مرثد.⁽²⁾

[1] السيرة النبوية: ٢ / ١٨٦ و صاحب السيرة يرى انه المنذر بن محمد.
[2] الطبقات الكبرى: ٢ / ٥٢ و ٥٣.

غزوة «بني النضير»

لقد فرح منافقوا المدينة ويهودها بانتكاسة المسلمين في معركة «أحد» كما فرحوا أيضاً بمصرع رجال التبليغ والدعوة، فرحاً بالغاً وياتوا يتحيتون الفرصة لإثارة القلاقل والفتن في المدينة لإفهام القبائل خارجها بأنه لا توجد أية وحدة سياسية وانسجام اجتماعي في

مركز الإسلام وعاصمة الحكومة الإسلامية وأن في مقدور الأعداء الخارجيين أن يُجهزوا على حكومة الإسلام الفتية، ويقضوا عليها بسهولة!!

ولكي يقف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على نوايا ودخائل يهود بني النضير مشى في جماعة من أصحابه إلى حصنهم

على أن الهدف الظاهري المعلن عنه كان هو الاستعانة بهم في دية العامريين اللذين قتلوا خطأ على يد «عمر بن أمية» كما أسلفنا، وذلك بموجب الاتفاقية المعقودة بين رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبين اليهود وكذا بني عامر وغيرهم والقاضية بالتعاون معاً في تسديد الدية في مثل هذه الموارد.

فلما وصل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى حيث يسكن بنو النضير، وكلمهم في أن يعينوه في تلك الدية، رحبوا به ظاهراً، ووعدوا بأن يلتوا مطلبه، ثم إنهم خاطبوه قائلين: يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت. ثم دعوه إلى أن يدخل في بيوتهم، ويقضي يومه فيها، قائلين: قد أن لك أن تزورنا، وأن تأتينا، إجلس حتى نطعمك، فلم يقبل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بتلبية مطلبهم، بل

(207)

جلس مستنداً إلى جدار بيت من بيوتهم واخذ يكلمهم. (1)

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - احسنَ بشري من ذلك الترحيب الحار الذي قابلته به رجال بني النضير، والذي رافق حركات مشبوهة منهم!!

هذا مضافاً إلى أنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - شاهدهم وقد خلا بعضهم إلى بعض يتناجون ويتهامسون الأمر الذي يدعو إلى الشك، ويورث سوء الظن!!

وقد كان سوء الظن هذا في محله، فقد قرر سادة يهود - لما أتاهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في رهط قليل من أصحابه - أن يتخلصوا منه باغتياله والغدر به على حين غفلة منه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فانتدبوا أحدهم وهو «عمر بن جحاش» لتنفيذ هذه الجريمة، وذلك بأن يعلو على البيت الذي استند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى جداره فيلقى عليه صخرة تقتله.

إلا أنّ هذه المؤامرة انكشفت - ولحسن الحظ - قبل تنفيذها، إما من خلال حركات أولئك اليهود الخبيثاء، المشبوهة، أو بخبر أتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من السماء، كما يروي ابن هشام والواقدي في مؤلفيهما.

فنهض رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سريعاً، كأنه يريد حاجة، وتوجه من توه إلى المدينة دون أن يخبر أصحابه الذين أتوا معه، بقصده.

وبقي أصحابه هناك ينتظرون عودته من حاجته دون جدوى.

وهدمت يهود على ما صنعت، واضطربت لذلك اضطراباً شديداً، واصابتها حيرة شديدة فيما يجب أن تقوم به.

فمن جهة خشيت أن يكون رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد علّم بمؤامرتهم وتواطئهم، فيقدم على تأديبهم لنقضهم ميثاق التعايش السلميّ، ولتواطئهم القبيح، ومكرهم السيء.

ومن ناحية أخرى أخذت تفكر في أن تنتقم من أصحابه الموجودين هنا إن هو فاتهم، ولكنها خشيت أن يؤدي ذلك إلى مزيد من تأزم الموقف، وإن ينتقم

[1]يقول صاحب المغازي: ١ / ٣٦٤ إن النبيّ جاء بني النضير في ناديبهم.

(208)

رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حينئذ منهم قطعاً و يقيناً.

وفيما هم في هذه الحالة من الاضطراب والتحيّر قرر أصحاب النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - العودة إلى المدينة بعد أن يسوا من رجعتهم إليهم من حاجته، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقال: رأيتُه داخل المدينة، فاقبلوا حتّى انتهوا إليه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وعرفوا بمؤامرة اليهود إذ قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لهم لما قالوا: يا رسول الله قمت ولم نشعر:

«هَمَّت اليهودُ بالغدر بي، فأخبرني اللهُ بذلك فقامتُ.»⁽¹⁾

بماذا يجب أن تقابل هذه الجريمة؟

والآن ماذا يجب أن يقوم به رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تجاه هذه الزمرة الخائنة المتآمرة؟ تلك الزمرة التي تتعم بما وفرتها لهم الحكومة الإسلامية من أمن وحرية، ويحافظ جنود الإسلام على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، كما يفعلون الفعل ذاته بالنسبة إلى أنفسهم وأموالهم وأعراضهم على حد سواء.

تلك الزمرة التي كانت ترى كل آثار النبوة ودلائلها في حياة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأعماله، وأقواله تماماً على نحو ما قرأت عنه في كتبها وأسفارها، ولكنها بدل أن تردّ الجميل بالجميل وتقابل الاحسان بالاحسان، وبدل أن تحسن ضيافته وقد نزل عليهم ضيفاً تتآمر لقتله غيلة وغدراً دونما خجل ولا حياء!!

ما هو ثرى ما تقتضيه العدالة في هذا الصعيد وفي هذه الحال؟

وماذا يجب أن يفعل المرء حتى يمنع من تكرار مثل هذه الحوادث، ويستأصل جذور مثل هذه الجرائم؟

إن الطريق المنطقي هو ما اختاره رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وفعله.

فقد أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المسلمين بالتهيؤ لحربهم، والسير اليهم،

-[الطبقات الكبرى: ٢ / ٥٧. امتاع الاسماع: ١ / ١٧٨.]

(209)

ثم دعا محمد بن مسلمة وأمره بأن يذهب إلى بني النضير، ويبلغ سادتهم، من قبله رسالة.

فخرج محمد بن مسلمة الأنصاري الأوسي^(١) إلى بني النضير وقال لسادتهم: إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أرسلني اليكم يقول:

«قد نَقَضْتُمُ الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتُ لَكُمْ بِمَا هَمَمْتُمْ بِهِ مِنَ الْغَدْرِ بِي.

أَخْرَجُوا مِن بِلَادِي فَقَدْ أَجَلْتُكُمْ عَشْرًا فَمَنْ رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ ضَرِبْتُ عُنُقَهُ.»

فأحدثت هذه الرسالة الشديدة اللهجة والساخنة المضمون انكساراً عجيماً في يهود بني النضير، وأخذوا يتلاومون، وأخذ يحمل كل واحد منهم الآخر مسؤولية هذه القضية.

فاقتراح عليهم أحد سادتهم أن يعتنقوا الإسلام ويؤمنوا برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولكن عنادهم منعهم من القبول بهذا الاقتراح. وعمتهم حالة يرثى لها من الحيرة، والانقطاع، فقالوا لمبعوث النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :يا محمد ما كنا نرى أن يأتي بهذا رجلاً من الأوس.

ويقصدون أنه كان بيننا وبين الأوس حلفٌ فما بالك تريد حربنا الآن.

فقال محمد بن مسلمة: تغيرت القلوب.

وقد كان هذا الاجراء متطابقاً مع ما جاء في ميثاق التعايش الذي عقده رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مع يهود يثرب ابان دخوله المدينة، وقد وقّع عليه عن يهود بني النضير حيي بن أخطب، وقد نقلنا في ما سبق النصّ الكامل لهذا الميثاق وها نحن ندرج هنا قسماً منه ليتضح ما ذكرناه.

جاء في أحد بنود الميثاق (العهد):

«ألا يعينوا (أي بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع) على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولا على أحد من أصحابه بلسان ولا يد ولا بسلاح ولا بكراع في السرّ والعلانية لا بليل ولا بنهار والله بذلك عليهم شهيدٌ، فان فعلوا فرسول الله في حل

-[المغازي: ١ / ٣٦٦.

(210)

من سفك دماثهم، وسبي ذراريتهم، ونسائهم، وأخذ أموالهم. (1)»

المستشرقون و دموع التماسيح:

لقد أبدى المستشرقون حزنهم وأسفهم لما جرى في هذه القضية، وذرّفوا دموع التماسيح، وأبدوا رقةً وشفقةً أكثر مما تبديه والدة تجاه وليدها، على اليهود الخونة الناقضين العهد، الناكثين للإيمان، واعتبروا الإجراء الذي اتخذه النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بحقهم بعيداً عن روح الانصاف وسنن العدل!!

والحق أن هذه الاعتراضات والانتقادات لا تتبع من منطق السعي لمعرفة الحقيقة، لأننا عند مراجعتنا لنص الميثاق الذي أدرجناه للقارىء الكريم نرى الحقيقة على غير ما يتصورون ويصورون فاننا نعرف أن الجزاء الذي جازى به رسول الله يهود بني النضير هو في الحقيقة أقلّ من الجزاء المنصوص عليه في ذلك الميثاق بدرجات.

إن هناك اليوم مئات الجرائم والمظالم التي يرتكها أسياد هؤلاء المستشرقين في الشرق والغرب دون أن يعترض عليها أي واحد من هؤلاء المستشرقين الرحماء، أدعياء الدفاع عن حقوق الإنسان!!!

أما عندما يقوم رسول الإسلام بتنفيذ عقوبة - هي في الحقيقة - أقل بكثير من ما هو منصوص عليه في الميثاق بحق زمرة خائنة متآمرة ناقضة للعهد تتعالى أصوات حفنة من الكتاب المدفوعين بأغراض معينة ودوافع خاصة بالاعتراض، والانتقاد.

دور حزب النفاق أيضاً:

كان خطر المنافقين - وكما أسلفنا - أكبر من خطر اليهود لأن المنافق يطعن من الخلف وتحت غطاء من الصداقة، ويتستر وراء قناع الصحبة والزمالة.

- [بحار الأنوار: ١٩ / ١١١].

(211)

وقد كان رأس هذا الحزب هو «عبدالله بن أبي» و «مالك بن أبي» و.. و..

ولما سمع هؤلاء المنافقون بما يلقاه بنو النضير من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أرسلوا اليهم من يقول لهم: لا تخرجوا من دياركم وأموالكم، وأقيموا في حصونكم، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب، يدخلون معكم حصنكم فيموتون من آخرهم قبل أن يوصل إليكم وتمدكم قريظة فانه لن يخذلونكم، ويمدكم حلفاؤكم من غطفان!؟

ولقد جرأت هذه الوعود بني النضير، فانصرفوا عن فكرة الرضوخ لمطلب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأغلقوا أبواب حصونهم، وأعدوا عدة الحرب، وعزموا على أن يقاوموا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مهما كلف الثمن، ولا يسمحوا للمسلمين بأن يسيطروا على بساطينهم وممتلكاتهم دون عوض.

فَنَصَحَهُمْ أحدُ كبرائهم وهو «سلام بن مشكم» وشكك في وعود عبدالله بن أبي، واعتبرها وعوداً جوفاء، وقال: ليس رأي ابن أبي بشيء، فهو والله جلاؤنا من أرضنا، وذهب أموالنا، أو سبأ ذرارينا مع قتل مقاتلينا.

إلا أن «حبي بن أخطب» أبى إلا محاربة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وحث الناس على المقاومة والصمود، وأرسل إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : إنا لا نبرح من دارنا وأموالنا فاصنع ما أنت صانع!!

فعرّف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - برسالة «عبدالله بن أبي» إلى بني النضير، ووعده لهم، فاستخلف ابن أم مكتوم على المدينة، وسار - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في أصحابه مكثراً لمحاصرة بني النضير فصلى صلاة العصر بفضائهم واستقر

في الطريق بين «بني النضير» وبين «بني قريظة» ليقطع بذلك سبيل الاتصال بين هذين الفريقين، وحاصر بني النضير ست ليال - حسب رواية ابن هشام - (1) أو خمسة عشر يوماً حسب روايات آخرين، ولكن اليهود تحصنوا منه في الحصون، وأظهروا المقاومة، والإصرار على الامتناع، فأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

-[السيرة النبوية: ٢ / ١٩١، وهذا من التكتيكات العسكرية التي كان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يستعملها ليقطع خطوط الارتباط بين الجماعات المتعاونة.

(212)

بقطع النخيل المحيطة بتلك الحصون، وإلقاء النار ليبأس اليهود من البقاء في تلك المنطقة مادامت بساتينهم أعدمت، وأقنيت.

فتعالت نداءات اليهود تقول: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيبه على من صنعته، فما بال قطع النخل وتحريقها؟!

فردَّ الله تعالى عليهم بقوله:

«مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْتَةٍ أَوْ تَرَكْتُمْهَا قَانِمَةً عَلَىٰ أَسْوَأِهَا فَيَادِبِ اللَّهُ وَ لِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ. (1)»

هذا من جهة ومن جهة أخرى خذلهم عبدالله بن أبي، فلم يأتوهم، كما اعتزلتهم قريظة فلم تعنهم بسلاح ولا رجال.

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الخذلان إذ قال تعالى:

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ شَهِيدٌ لِّإِنْتِهَاءِ أَكْثَارِهِمْ لَكَاذِبُونَ* لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتِنَنَّ الْأَنْبَارَ ثُمَّ لَا يَصْرُونَ* لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ* لَا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرىٍ محصنة أو من وراء جُدُرٍ بأسنُهُم بينهم شديدٌ تحسبُهُم جميعاً وقلوبُهُم شتى ذلك بأنهم قومٌ لا يعقلون. (2)»

وقد كشفت الآيات الحاضرة - إلى جانب ما ذكر - عن نفسية اليهود الجبانة، والتي انهارت أيضاً بسبب معنويات المسلمين القوية حتى أنهم رغم اجتماعهم وعددهم الكبير يخافون من مواجهة المسلمين فلا يقاتلونهم إلا من وراء أسوار الحصون، وجران القلاع القوية خانقين مذعورين، ومرعوبين، وهم إلى جانب كل ذلك يعانون من اضطراب وقلق وتفرق كلمة في الواقع.

وأخيراً رضخ اليهود لمطلب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وسألوه أن يجلبهم، ويكفَّ عن دمانهم على أن يكون لهم ما

حملت الابل من أموالهم إلا السلاح

والدروع، فرضي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بذلك.

فاحتلموا من أموالهم أكبر قدر ممكن، حتى أن الرجل منهم يقلع باب بيته فيضعه على ظهر بعيره، ثم يخرب بيته بيديه!!

فخرج جماعة منهم إلى خيبر، وسارت جماعة أخرى منهم إلى الشام.

وقد خرجت تلك الزمرة الذليلة المسكينة وهم يضربون بالدخوف، ويزمرون بالمزامير، وقد البسوا نساءهم الثياب الراقية، وحلّى

الذهب، مظهرين بذلك تجلداً ليغطوا على هزيمتهم، ويروا المسلمين أنهم غير منزعجين من مغادرتهم تلك الديار!!

مزارع بني النضير تقسم بين المهاجرين فقط:

إن ما يغنمه جنود الإسلام دون قتال وهو ما يسمى بالفداء يعود أمره إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خاصة يضعه

حيث يشاء ويصرفه فيما يرى من مصالح الإسلام لقوله تعالى:

(ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.)⁽¹⁾

وقد رأى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن من الصالح أن يقسم المزارع والممتلكات التي غنمها من بني النضير على المهاجرين

دون الأنصار، لحرمانهم من ممتلكاتهم وثروتهم في مكة بسبب الهجرة منها إلى المدينة، وكانوا في الحقيقة ضيوفاً على الأنصار

طوال هذه المدة، وقد أيد «سعد بن معاذ» و «سعد بن عباد» هذا الرأي، ومن هنا قسم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم

- جميع تلك المزارع والممتلكات على المهاجرين خاصة، ولم يحصل أحد من الأنصار منها على شيء إلا رجلين كانا محتاجين

هما: «سهل بن حنيف»، و «أبو دجاجة»، الانصاريان وحصل بذلك انفراج في أحوال المسلمين عامة، وأعطى «سعد بن معاذ»

سيف

رجل من زعماء بني النضير وكان سيفاً معروفاً.

يقول المقرئ:

فلما غنم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من بني النضير بعث ثابت بن قيس بن شماس فدعا الانصار كلاًها - الاوس والخزرج - فحمد الله وأثنى عليه، وذكر الانصار وما صنعوا بالمهاجرين وانزالهم اياهم في منازلهم، واثرتهم على أنفسهم ثم قال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«ان أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله على من بني النضير وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم، وان أحببتكم أعطيتهم وخرجوا من دوركم»؟

فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: رضينا وسلّمنا يا رسول الله.

فقسّم رسول الله ما أفاء الله عليه، على المهاجرين دون الانصار إلا رجلين كانا محتاجين.. الخ. (1)»

وقد وقعت هذه الحادثة في شهر ربيع الأول في السنة الرابعة من الهجرة ونزلت سورة الحشر في هذا الشأن، والتي جاء في مطلعها قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرِّعْبَ يُخْرِبُونَ بِيُوتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ. (2))

هذا ويعتقد أكثر المؤرخين المسلمين أنه لم يُسْفَك في هذه الحادثة، أي دم، ولكن المرحوم الشيخ المفيد يكتب في ارشاده: انه وقع ليلة فتح حصون بني النضير قتالاً محدوداً قتل فيه عشرة من اليهود وكان ذلك هو السبب في فتح تلك الحصون. (3)

1- امتاع الاسماع: ١ / ١٨٢ و ١٨٣.

2- الحشر: ٢.

3- الارشاد: ص ٤٧ و ٤٨.

(215)

وقال المقريري: وَقَفَّ عَلَى رَضِي اللَّهِ عَنْهُ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : إِنَّهُ فِي بَعْضِ شَأْنِكُمْ، فَعِن قَلِيلٍ جَاءَ بِرَأْسِ «عَزُوكَ» وَقَدْ كَمِنَ لَهُ حَتَّى خَرَجَ فِي نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ يَطْلُبُ غَرَّةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ شَجَاعاً رَامِياً فَشَدَّ عَلَيْهِ عَلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَتَلَهُ وَفَرَّ الْيَهُودُ. (1)

1- امتاع الاسماع: ١ / ١٨٠.

(216)

تحريم الخمر ذات الرقاع، بدر الصغرى

1-تحريم الخمر:

كانت الخمر، وعلى العموم جميع المسكرات ولا تزال من أشد الأوبئة الاجتماعية التي تهدد أمن وسلامة المجتمعات البشرية وتجربها أكبر الأخطار ويكفي في خطورة هذا السم القاتل أنه يعادي أكبر ما يميّز البشر عن ما سواه من الأحياء، ذلكم هو العقل، فإن الخمرة هي العدوّ الأول لهذه الموهبة الالهية التي في سلامتها ضمان لسعادة الإنسان.

إن الفارق بين الإنسان وبين سائر الأحياء هو القوة العاقلة التي يمتلكها الإنسان دون غيره، وتكون المسكرات من أعدى أعداء هذه القوة، من هنا كان المنع من تعاطي الخمر والمسكرات من أبرز البرامج التي جاء بها الأنبياء، وكانت الخمر محرمة في جميع الشرائع السماوية. (1)

1- عام ١٣٣٩ هجري زار الدكتور أرشه تونك رئيس منظمة مكافحة الخمر إيران، وقد سرّ لما سمع أن الإسلام يحرم تعاطي المسكرات.

وقد كان يحبّ أن يلتقي بزعيم المذهب الشيعي يومئذ: (آية الله السيد البروجردي) ليتعرف على رأي الإسلام في الخمر والمسكرات، فأصطحبه أحد الدكاترة المعروفين في طهران إلى منزل السيد البروجردي في مدينة «قم»، وبعد الاستئذان تشرف بقاء السيد، وقد حضر العلامة الطباطبائي في ذلك المجلس وكنت أنا والذي حاضرين هناك كذلك.

فكان أول سؤال طرحه الدكتور هو: لماذا حرم الإسلام المسكرات؟

فقال الامام البروجردي: يكفي أن أشير لك من بين العلل الكثيرة إلى علة واحدة وهي أن الخمرة تحطم العقل الذي به يمتاز الإنسان عن سائر الأحياء، ويتميز عليهم. كما أوضحناه اعلاه.

(217)

ولقد كانت معاقرة الخمر من الآفات التي كانت متفشية ومتجذرة في المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية بحيث كانت معالجتها تحتاج إلى وقت طويل، واسلوب مدروس، ولم تكن الظروف والاحوال في ذلك العهد لتسمح بأن يعلن رسول الإسلام عن تحريم الخمر دفعةً واحدةً ومن دون اية مقدمات، وممهّدات لذلك، بل كان يتحتم عليه أن يعالج هذا الوباء الاجتماعي من خلال إعداد الناس لمرحلة التحريم النهائي والقطعي تماماً كما يفعل الطبيب بالنسبة إلى المرضى الذين طال بهم المرض، وتجذر.

من هنا حرّمت الخمر في أربع مراحل تدريجية ضمن آيات أربع أظهرت الاستياء من الخمر لكن لا على نمط واحد، بل بدأت من مرحلة مخففة حتّى انتهت إلى مرحلة الاعلان عن التحريم القطعي.

إنّ التمعن في هذه الآيات يكشف لنا عن كيفية الأسلوب النبويّ في التبليغ والإرشاد، والدعوة والهداية، وينبغي للخطباء، والكتاب أن يتبعوا هذا الأسلوب المؤثر والمفيد في معالجة الأدواء الاجتماعية المزمنة، ويكافحوا بهذا الشكل حتّى يحصلوا على أفضل النتائج.

إن الشرط الاساسي لمكافحة ناجحة لأيّ خلق وسلوك فاسد هو إيقاظ المجتمع وإيقافه أولاً على أضرار ذلك السلوك، ومفاسده، وتذكيره بآثاره السيئة ليحصل لدى المجتمع - بذلك - الاستعداد الروحي بل والدافع الباطني إلى خوض معركة أساسية وجذرية ضدّ ذلك السلوك الفاسد، والخلق الذميم، ويكون الناس هم الضمانة لانجاح هذه المهمة. وذلك لأن ردّ المعتاد عن عادته كالمعجز كما في الحديث الشريف. (1)

كيف والعرب كانوا يعيشون الخمر حتّى أن الرجل منهم ربما كان يوصي بأن يدفن إلى جنب كرمة لتسقى عظامه بالخمر.
يقول أحدهم:

- [مفاتيح الغيب: ٢ / ٢٦٣.

(218)

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة ترّوي عظامي بعد موتي عروفتها(1)

من هنا اعتبر القرآن الكريم اتخاذ الخمر من التمور والاعناب - في مجتمع كان تعاطي الخمر جزءاً أساسياً من حياته - مخالفاً للرزق الحسن، وبذلك ايقظ العقول الغافية، إذ قال:

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَباً. (2)

إنّ القرآن أعلن - في المرحلة الأولى من مراحل النهي عن تعاطي الخمر - أن اتخاذ المسكر من التمر والعنب لا يعد من الارتزاق الحسن بل الارتزاق الحسن هو تناول التمر والعنب على حالتها الطبيعية.

إن هذه الآية: أعطت هزة ذكبيّة للعقول وهيأت الطبائع المنحرفة لمرحلة أقوى في مسيرة تحريم الخمر حتّى يتسنى لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يشدد من نبرته، ويعلن عن طريق آية أخرى أنّ النفع المادي القليل، الذي تعود به الخمر ويأتي به القمار، ليس بشيء بالقياس إلى اضرارهما الكبرى وأخطارهما العظيمة، وقد تمّ الكشف عن هذه الحقيقة في قوله تعالى:

(يسألونك عن الخمر والميسر قلّ فيهما اثمّ كبيرٌ ومنافع للنّاس وإنّهما أكبرُ من نفعهما. (3)

ولا ريب أن مجرد المقارنة بين النفع والضرر، وكذا الوقوف على زيادة الضرر على النفع كاف لا يجاد النفور والاشمئزاز لدى العقلاء، والواعين، من الخمر وما شاكلها، وشابها.

إلا أن جماهير الناس وعامتهم لن يقلعوا عن هذه العادة الشريرة المتجذرة ما لم يسمعوا نهياً صريحاً وقاطعاً عنها.

فها هو عبدالرحمان بن عوف رغم نزول هذه الآية قد استضاف جماعة من الصحابة وأحضر على المائدة خمرأ، فأكلوا، وشربوا الخمر، ثم قاموا إلى الصلاة، فأخطأ أحدهم في القراءة وهو سكران خطأ غير من مراد الله تعالى في ما قرأ من

1- أي ما يسكر.

2- النحل: ٦٧.

3- البقرة: ٢١٩.

(219)

الآية، فقد تلا سورة «الكافرون»، وبدل أن يقول: «لا أعبدُ ما تعبدون» قرأ: «أعبدُ ما تعبدون». فاضطربت تلك الجماعة لهذا الأمر، وخشيت أن تكون ارتكبت بذلك أمراً عظيماً!!

وقد هتأ هذا الحادث الناس ليحرم تعاطي الخمر في ظروف وحالات خاصة على الأقل.

من هنا جاء الاعلان عن حرمة تعاطي الخمر قبل الصلاة، وأعلن القرآن الكريم بصراحة أنه لا يجوز لمسلم أن يصلي في حالة السكر، وقد أعلن عن هذا التشريع الإلهي في قول الله تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة و أنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون. (1))

ولقد بلغ من تأثير هذه الآية، وفعاليتها أن هجر جماعة من المسلمين تعاطي الخمر بالمرّة بحجة أن ما يضرّ بالصلاة يجب ان يُطرَد من حياة المسلم نهائياً.

ولكن البعض بقي يتعاطاها حتى أن رجلا من الأنصار دعا جماعة إلى مائدة أحضر فيها الخمر - رغم نزول الآية الحاضرة - فلما شربوا وأسكروا حمل بعضهم على بعض، وجرح بعضهم بعضاً فشكوا أمرهم إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وكان الخليفة الثاني لم يزل يشرب الخمر إلى ذلك معتقداً عدم كفاية الآية الحاضرة في التحريم القطعي لها ولهذا رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم بيّن لنا بيانياً شافياً في الخمر.

ولا يخفى أن هذه الحوادث والوقائع المؤسفة قد هيأت الارضية بشكل رائع لتقبّل مسألة تحريم الخمر تحريماً كاملاً وقاطعاً، من هنا نزل قوله تعالى يعلن عن هذه الحرمة القطعية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).⁽²⁾

1- النساء: ٤٣.

2- المائدة: ٩٠.

(220)

وقد دفع هذا البيان البالغ القاطع أن يقلع عن الخمر نهائياً من كان يشربها حتّى تلك الساعة بحجة عدم وجود نهي صريح وقاطع عنها.

وقد جاء في كتب السنة والشيعة أن الخليفة الثاني قال بعد سماع هذه الآية: **إِنْتَهَيْنَا يَا رَبَّ!!**⁽¹⁾

وقفة عند «البيان الشافي»: »

قلنا إن الخليفة الثاني لم يقتنع بعد سماع الآيات الثلاث بحرمة الخمر، بل بقي ينتظر بياناً شافياً يكشف عن التحريم القطعي، حتّى اقتنعه الآية الرابعة بحرمة الخمر والمسكرات، وقد كان حكم الله تعالى في هذه الآية هو: **أَنَّ الْخَمْرَ «رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»** ولكن المتغربين، وهواة المادية الغربية في عصرنا لم تقنعهم كل هذه الآيات بحرمة الخمر، حتّى الآية الرابعة الصريحة في هذا الأمر، فيقولون لا بدّ أن يُعلن عن هذا التحريم بلفظة:

حرام أو حرّمت، والآن لم يمكن القطع بحرمة الخمر!!

إن هذه الزمرة التابعة لأهوائها، الأسيرة لشهواتها الحرام، لا تريد في الحقيقة إلاّ أن تظل عاكفة على الخمر أبداً، ومن هنا تطرح مثل هذه المعاذير وتتوسل بمثل هذه التحجج الجوفاء.

على أن القرآن الكريم قد استعمل لفظ الحرام بشكل ما في شأن الخمر إذ قال:

(وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا).⁽²⁾

وقد حرّم تعالى جميع أنواع الإثم في آية أخرى إذ قال:

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ وَإِثْمًا).⁽³⁾

وبعبارة أخرى: لقد بين الله تعالى في آية أخرى الموضوع، وهو أن الخمر (التي تسمى إثماً أيضاً) قد حرّمت.

1- مستدرك الوسائل: ٤ / ١٤٣، روح المعاني: ١٥ / ٧.

2- البقرة: ٢١٩.

3- الاعراف: ٣٣.

(221)

فهل ينتظر هوة الغرب بعد هذا البيان الواضح والتحريم الصريح بياناً كافياً شافياً؟!!

وفي الحقيقة نحن لا نحتاج إلى مثل هذا الاستدلال أبداً فالآيات الأربع المتقدمة أتت وصفت الخمر بأنها «رجس» وأنها نظير «الميسر»، وأنها «عمل شيطاني»، مناقض للفلاح، وسبب «للعداوة» و «البغضاء»، قد أعلنت عن حرمتها بصورة واضحة لا إبهام فيها، ولا غموض، وهي بالتالي أقوى بيان لمن تدبر وأنصف، وتجرد عن الأهواء والأغراض المريضة.

وهنا لا بد أن نذكر بنقطة هامة وهي أن النبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - استطاع أن يطهر في هدى هذه الآيات الأربع، بينته ومجتمعاً من أدران هذه العادة الشريرة، ويقوم المؤمنون أنفسهم بتنفيذ هذا الحكم من دون قهر أو إجماع، بينما لم يستطع العالم الغربي رغم كل ما يملك من الإمكانيات المادية العريضة، وأجهزة الدعاية الواسعة أن يخطو خطوة ناجحة في هذا الطريق، فقد اخفقت كل خطته، أمم هذا السم القاتل، والفشل الذي أصاب الولايات المتحدة في مكافحة المشروبات الروحية في أعوام ١٩٣٣ -

١٩٣٥ أمر معروف للجميع، وله قصة عجيبة يمكن أن يقف عليها القارئ الكريم في مصادرها. (1)

رواية مختلقة:

ومن عجيب الأمر أن يروي بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى: «ولا تقربوا الصلوة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون» رواية جاء فيها أن امام المتقين علي بن أبي طالب - عليه السلام - كان ضمن جماعة شربوا الخمر ثم قاموا إلى الصلاة فقرأ إمامهم غلطاً: «اعبد ما تعبدون» فانزل الله تعالى هذه الآية: «لا تقربوا الصلوة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون.»

تقول إن من العجيب أن تنسب إلى الامام علي - عليه السلام - مثل هذه

1- [راجع ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ص ٨٠ وغيره.

(222)

النسبة وهو الطاهر المطهر بحكم آية التطهر (1) وهو الذي نشأ وترعرع في احضان سيد المرسلين - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - الذي كان يتجنب الخمر، حتى قبل نزول النهي الصريح عنها، هذا وعلي - عليه السلام - المعروف بحكمته وفهمه وعلمه عارف بما للمسكر من تبعات خطيرة.

نعم من العجيب أن نصدق بأن علياً - عليه السّلام - شرب الخمر، وهناك في الجاهلية (وقبل الإسلام) من حرّم الخمر على نفسه لكونها تذهب بالعقل، وتؤول بالمرء إلى ما لا يُحمد.

ففي السيرة الحلبية كان عبدالله بن جدعان من جملة من حرّم الخمر على نفسه في الجاهلية أي بعد ما كان مغرماً بها وسبب ذلك أنه سكر ليلة فصار يمدّ يده على ضوء القمر ليمسكه فضحك منه جساؤه ثم أخبروه بذلك حين صحا فحلف أن لا يشربها أبداً. وكان عثمان بن مظعون ممّن حرّم الخمر على نفسه في الجاهلية أيضاً وقال: لا أشرب شيئاً يذهب عقلي، ويضحك بي من هو أدنى مني، ويحملني على أن أنكح كريمتي من لا أريد. (2)

وورد عن الامام محمد الباقر - عليه السّلام - قال: أوحى الله تعالى إلى رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - اني أشكر لجعفر بن أبي طالب - عليه السّلام - أربع خصال.

فدعاه النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - فأخبره فقال: لولا أن الله تبارك وتعالى أخبرك ما أخبرتك:

ما شربت خمرأ قط لاني لو شربتها زال عقلي.

وما كذبت قط لان الكذب ينقص المروة.

وما زنيت قط لأنني خفت إذا عملت عملي بي.

-1| الاحزاب: ٣٣، راجع تفاسير الفريقين ومجاميعهم الحديثية.
-2| السيرة الحلبية: ١ / ١٣٠.

وما عبت صنماً قط لأنني علمت أنه لا يضر ولا ينفع.

فضرب النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - على عاتقه وقال: «حق لله تعالى أن يجعل لك جناحين تطير بهما مع الملائكة في الجنة» (1).

نعم هذا هو موقف من هو أقل مرتبة ومنزلة من الإمام علي - عليه السّلام - من الخمر، ولو في العهد الجاهلي، وقبل تحريمها في الإسلام.

لكن يد الوضع والدس أبت إلا أن تخلق رواية في المقام، فقد جاءت في جامع البيان للطبري روايتان نذكرهما سنداً وامتناً ليقف القارئ على ما تعانين من مأخذ:

1- حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا عبدالرحمان قال حدثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبي عبدالرحمان عن علي أنه كان هو وعبدالرحمان ورجل آخر شربوا الخمر فصلى بهم عبدالرحمان فقرأ: يا أيها الكافرون فخلط فيها فنزلت: لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى.

2- حدثني المثنى قال حدثنا الحجاج بن المنهال قال حدثنا حماد عن عطاء بن السائب عن عبدالله بن حبيب أن عبدالرحمان بن عوف صنع طعاماً وشراباً فدعا نقرأ من أصحاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فأكلوا وشربوا حتى ثملوا فقدموا علياً يصلي بهم المغرب فقرأ: قل يا أيها الكفارون اعبدوا ما تعبدون وأنتم عابدون ما أعبد وأنا عابد ما عبدتم. لكم دينكم ولي دين. فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية: «لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون» (2)»

والروايتان - مضافاً إلى ما يرد عليهما من الأشكال - تعانين من مواضع متعددة أبرزها الأشكال في سندهما، فكلتا الروايتين تنتهي إلى عطاء بن السائب، وهو مطعون في وثاقته وديانته، وفي حفظه وحديثه، واليك ما قال عنه أئمة علم الرجال:

-1- الدرجات الرفيعة: ص ٧٠، نقلاً عن الامالي لابن بابويه.
-2- جامع البيان في تفسير القرآن للطبري: ٦١ / ٥.

قال عنه الذهبي: عطاء بن السائب أحد علماء التابعين، تغير باخره وساء حفظه.

قال عنه أحمد: من سمع منه قديماً فهو صحيح، ومن سمع منه حديثاً لم يكن بشيء.

وقال عنه يحيى بن معين: لا يحتج به.

وقال أحمد بن خيثمة عن يحيى: حديثه ضعيف.

وقال عنه أبو حاتم: محله الصدق قبل أن يخاط.

وقال النسائي: ثقة في حديثه القديم لكنه تغير.

وقال ابن عليّة: قدم علينا عطاء بن السائب البصرة، فكنا نسأله، فكان يتوهم، فنقول له: من؟ فيقول: اشياخنا ميسرة، وزاذان، وفلان

وقال الحميدي، حدثنا سفيان، قال: كنتُ سمعتُ من عطاء بن السائب قديماً، ثم قدم علينا قديماً فسمعتُه يحدثُ ببعض ما كنتُ سمعتُ، فخلطُ فيه، فاتقته واعتزلته.

واضاف الذهبي: «ومن منا كبير عطاء. (1)»...

أجل هذا هو عطاء في منظار علماء الرجال، انه سيء الحفظ، ضعيف مخلط له مناكير، يتوهم، تغيّر باخره، وقد ظهرت آثار الهم وسوء الحفظ والتخليط هذا في روايته هاتين. فهو تارة يقول أن علياً - عليه السّلام - كان مأموماً في هذه القصة (كما في الرواية الأولى) وتارة يقول كان - عليه السّلام - إماماً للجماعة.

وهذه الرواية من مناكيره، وأوهامه بلا ريب، إذ كيف يصحّ أن يُنسب إلى رجل لازم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الطيّب الطاهر منذ نعومة أظفاره، شرب الخمر، والانتماء برجل دونه في الفضل، أو إمامته للجماعة وتخليطه في قراءة سورة عظيمة من سور القرآن الكريم؟!

ولنستمع معاً إلى ما يقوله إمام المتقين علي بن أبي طالب - عليه السّلام - عن

- [ميزان الاعتدال: ٣ / ٧٠ - ٧٣.

(225)

فترة صباه في كنف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فانه أفضل ردّ على هذه الرواية ونظائرها: قال - عليه السّلام - :
«قد علمتُ موضعي من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، ووضعتني في حجره وأنا ولدٌ يضمنني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويؤمّني جسده ويؤمّني عرقه، وكان يمضغ الشيء فيلقمني به وما وجد لي كذباً في قول، ولا خطله في فعل، ولقد قرن الله به - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من لدن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليّله ونهاره، ولقد كنتُ اتبعه إتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً. ويأمرني بالاعتداء به. (1)»

هذا وأغلب الظن ان الذين اختلفوا هذه الرواية لما وجدوا أمثال هذه القبائح في حياة بعض الصحابة أرادوا ان يساوا بين الامام علي - عليه السّلام - وغيره، فاختلفوا هذه الفرية الوقحة.

ومما يثير الاستغراب أن يقع بعض الكتّاب والمفكرين المعاصرين في نفس ما وقع القدامى من الخطأ في هذا المجال، ويذكر هاتين الروايتين في تفسيره للقرآن الكريم، مع كل هذه المؤاخذات عليهما حتى في صورة النقل، كما فعل سيد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن»⁽²⁾، إذ ليس كل ما هو مذكور في كتب الاقدمين يصح نقله، ويجوز تكراره. وبخاصة من دون تعليق وتكذيب.

غزوة ذات الرقاع:

قيل إنما سُميت هذه الغزوة، وهذا الجهاد المقدس بالرقاع، لأنَّ المسلمين مَرّوا بأرض بقع سود، وبقع بيض كأنها مرقعة برقاع مختلفة.

وربما قيل لأن الحجارة أو هنت أقدام المجاهدين فكانوا يلقون على أرجلهم

- [نهج البلاغة: الخطبة رقم ١٩٢ .
-2 عند تفسير قوله تعالى: «ولاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى.»

الخرق، والرقاع فسُميت هذه الغزوة بذات الرقاع.⁽¹⁾

وعلى كل حال فإن هذه الغزوة لم تكن ابتدائية تماماً مثل بقية الغزوات، بل كانت لإطفاء شرارة كانت على شرف الإشتعال، والانفجار، وبالضبط جاءت لتقضي على تحركات واستعدادات عدائية كان يقوم بها بنو محارب وبنو ثعلبة وكلاهما من قبائل غطفان.

وقد كان من دأب النبي وسياسته أن يُبَيِّتُ أشخاصاً أذكياً إلى المناطق المختلفة ليأتوا له بالأخبار عن كل ما يستجد على ساحة الجزيرة العربية، وفي أوساط القبائل.

فأتاه الخبر ذات مرة أن القبيلتين المذكورتين تنويان جمع الاسلحة والرجال لاجتياح المدينة وغزوها، فسار اليهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على رأس مجموعة من رجاله وأصحابه حتى نزل نخلا بنجد قريبة من مكان العدو.⁽²⁾

فدفعت سوابق المسلمين الجهادية، وما سطره في المعارك والمواقف من قصص المقاومة والصمود واليسالة والاستقامة، وما حققه من انتصارات ساحقة حيرت سگان الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها.

لقد دفع كل هذا العدو إلى الانسحاب، واللجوء إلى رؤوس الجبال، وقد خافوا لإيبرح رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حتى يستأصلهم.

وقد صلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالمسلمين في هذه الغزوة صلاة الخوف، التي بين الله تعالى كيفيتها في سورة النساء الآية ١٠٢ .

وأغلب الظن أن العدو كان في هذه الغزوة قوياً في تجهيزاته وقواه، وإن الاوضاع العسكرية قد وصلت إلى مرحلة خطيرة مما سبب الخوف، ولكن الانتصار كان في المآل من نصيب المسلمين.

1- السيرة النبوية، الهوامش: ٢ / ٢٠٤ .
2- امتاع الاسماع: ١ / ١٨٨ .

(227)

مواقف خالدة في هذه الغزوة:

يروى المؤرخون والمفسرون المسلمون كابن هشام⁽¹⁾ وأمين الإسلام الطبرسي⁽²⁾ قصصاً عجيبة، وحوادث مثيرة للاعجاب وقعت في هذه الغزوة تكشف عن عمق مروءة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مع أعدائه، وقد نقلنا نظير هذا في غزوة ذي أمر، من هنا نحجم عن ذكر ذلك في هذه الدراسة رعاية للاختصار، ولكن نلفت نظر القارئ الكريم إلى القصة التالية التي تكشف عن صمود المسلمين وإخلاصهم لدينهم.

الحُرَّاس الصامدون:

مع أن جيش الإسلام قد عاد إلى المدينة من هذه الغزوة من دون قتال ولكنه أصاب مع ذلك بعض الغنائم، واستراح في شعب في أثناء الطريق، وبات ليلته هناك ثم كلف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رجلين بحراسة الجيش ليلاً يدعيان: «عباد» و«عمار»، فقسم الرجلان الليل بينهما، فنام أحدهما وسهر الآخر يحرس الجيش، وكان الذي سهر أول الليل هو «عباد» .

ثم إن رجلاً من العدو خرج في أثر المسلمين، وكان يقصد أن يريق دماً أو يصيب شيئاً ويعود إلى محله.

وقام «عباد» يصلّي، وأقبل ذلك الرجل يطلب غزّة فلما رأى «عباد» سواده من قريب قال ذلك الرجل في نفسه: يعلم الله أن هذا لطبيعة القوم، وحرسهم ففوق له سهماً ورماه به فأصاب عبداً ولكن عبداً نزع السهم ووضع، وثبت قائماً يصلّي فرماه العدو بسهم آخر، فإصابه فانتزع السهم وثبت قائماً فرماه بثالث فنزعه، فلما غلب عليه الدم ركع وسجد، ثم قال لصاحبه: اجلس فقد أصيبتُ، فجلس عمار، فلما رأى الاعرابي أن عماراً قد قام علم أنهما قد علما

1- السيرة النبوية: ٢ / ٢٠٥ - ٢٠٩ .
2- مجمع البيان: ٣ / ١٠٣ .

به، فقال عمار: أي أخي ما منعك أن توقظني به في أول سهم رمى به؟!⁽¹⁾

قال: كنتُ في سورة أقرأها وهي سورة الكهف، فكرهتُ أن أقطعها حتى أفرغ منها، ولولا أنني خشيتُ أن اضيغُ ثغراً أمرني به رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما انصرفت ولو أتى على نفسي. (1)

وهكذا صمد هذا المسلم واستمر في صلاته غير مبال بما أصابته من السهام.

بدرٌ الثانية:

لما أراد أبو سفيان أن ينصرف يوم «أخذ» نادى: موعدنا وموعدكم بدرُ الصفراء العام القابل نلتقي فيه فنفتل.

ولهذا أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المسلمين بأن يتهيأوا للدفاع عن أنفسهم وقد مر على وقعة «أحد» عامٌ واحدٌ.

وكان أبو سفيان الذي كان برأس قريش آنذاك يواجه في ذلك الوقت مشاكل داخلية مختلفة فكره الخروج إلى رسول الله في الموعد الذي ضربه لمقاتلة المسلمين، واتفق أن قدم مكة في تلك الأيام «نعيم بن مسعود» الذي كانت بينه وبين أبي سفيان علاقات صداقة خاصة، ف جاء أبو سفيان وقال له: إني وعدتُ محمداً وأصحابه يوم «أخذ» أن نلتقي نحن وهو ببدر الصفراء على رأس الخول، وقد جاء ذلك، ولا يصلح أن نخرج إليه العام.

فقال نعيم: ما أقدمني إلا ما رأيتُ محمداً وأصحابه يصنعون من إعداد السلاح والكراع، وقد تجلبب إليه حلفاء الأوس، فتركنا المدينة أمس وهي كالرمانة.

ف زاد ذلك من مخاوف أبي سفيان، وضاعف من كراهته للخروج إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - . وتقرر بالتالي أن يعود نعيم إلى المدينة ويحذر المسلمين من الخروج للموعد، ويخذلهم.

وعاد «نعيم» إلى المدينة، وراح يرعب أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

[1] السيرة النبوية: ٢ / ٢٠٨، المغازي: ١ / ٣٩٧.

ويخوفهم من الخروج إلى أبي سفيان إلا أن كلامه لم يترك أي أثر في نفس رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فخرج - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في ألف وخمسمائة مقاتل من أصحابه، وقد خرجوا ببضائع لهم، وتجارا حتى انتهوا إلى «بدر» وقام السوق

السني هناك فباعوا واشتروا في موسم بدر وربحوا كثيرا ثم تفرّق الناس، ولكن النبي وأصحابه بقوا هناك ثمانية أيام ينتظرون أبا سفيان وجيشه.

وقد كان هذا الاجراء اجراء عسكريا حكيماً ورائعاً إذ أظهر قوة النبي وعزيمته وقوة أصحابه وعزيمتهم، ولهذا كان له أثرٌ قوي في نفوس الاعداء.

فلما بلغت أنباء خروج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه إلى بدر، لم ير حكام مكة المشركون بدأ من الخروج إلى بدر حفاظاً على ماء الوجه، فخرج أبو سفيان والمشركون بتجهيزات كافية إلى مرّ الظهران، ولكنهم عادوا من منتصف الطريق إلى مكة بحجة الغلاء والقحط، فاعترض صفوان بن أمية على أبي سفيان وقال: قد والله نهيتك يومئذ أن تعد القوم، وقد اجترأوا علينا، ورأوا انا قد أخلفناهم، وانما خلفنا الضعف عنهم. (1)

ولادة السبب الأصغر لرسول الله:

وفي الثالث من شهر شعبان من هذه السنة (الرابعة من الهجرة) وُلِدَ السبب الثاني لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الامام الحسين بن علي (2)، كما توفيت «فاطمة بن أسد» والدة الإمام علي - عليه السلام - . (3)

وفي هذا العام بالذات أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - زيد بن حارثة أن يتعلم السريانية من اليهود. (4)

- [المغازي: ١ / ٣٨٤ - ٣٩٠، وقد وقعت هذه الحادثة في الشهر الخامس والاربعين بعد الهجرة. وتسمى هذه الغزوة «بدر الموعد. »
2- تاريخ الخميس: ١ / ٤٦٧ .
3- تاريخ الخميس: ١ / ٤٦٧ .
4- إمتاع الاسماع: ١ / ١٨٧، تاريخ الخميس: ١ / ٤٦٤ .

(230)

حوادث السنة الخامسة من الهجرة (1)

٣٦

من أجل تحطيم التقاليد الخاطئة

تعتبر معركة «الاحزاب»، وقصة بني قريظة، وزواج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بزَيْنَب بنت جحش من أروع الحوادث التاريخية التي وقعت في السنة الخامسة من الهجرة.

وأول هذه الحوادث - كما عليه المؤرخون المسلمون - هو زواج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالمرأة المذكورة.

وقد ذكر القرآن الكريم تفاصيل هذه القضية ضمن الآيات (٤، ٦، ٣٦ إلى ٤٠) من سورة «الاحزاب»، ولا يبقى - حينئذ - مجال لأكاذيب المستشرقين ودسائسهم ومختلفاتهم الواهية.

ونحن هنا ندرُسُ هذه القضية على ضوء أصح المصادر والينابيع التاريخية الإسلامية التي لم تطلها أيدي العبث والتحريف، والمسح، والتشويه، ألا وهو القرآن الكريم، ثم بعد ذلك نتحدث حول ما قاله المستشرقون ومن لف لفهم ،

- [يرى مؤلف كتاب تاريخ الخميس أن هذه الحادثة وقعت في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة ولكن هذا الرأي يبدو غير صحيح من وجهة نظر المحاسبة الاجتماعية، لأن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، كان منشغلاً بغزوة «الاحزاب»، و «بني قريظة» من ٢٤ شهر شوال من السنة الخامسة إلى ١٩ من شهر ذي الحجة من نفس السنة فيكون تحقق مثل هذا الزواج في مثل هذه الظروف أمراً مستبعداً جداً، وإذا كان الزواج من زينب يُعدّ من حوادث السنة الخامسة لزم ان يكون قد تحقق قبل الحادثتين المذكورتين، ولهذا عمدنا إلى ذكر هذه الحادثة قبل تينيك الواقعتين.

(231)

ونحا منحاهم في التعامل مع تاريخ السيرة النبوية.

من هو زيد بن حارثة؟

كان زيد شاباً سرقه فُطّاع الطرق من الأعراب وهو صغير من قافلة، وباعوه عبداً في سوق عكاظ، وقد اشتراه حكيم بن حزام لعَمته خديجة بنت خويلد، وقد أهدته خديجة لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد زواجها منه.

ولقد دفعت سيرة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الحسنة، وأخلاقه الفاضلة وسجاياه النبيلة زيدا هذا في أن يحب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حياً شديداً، حتّى أنه عندما جاء أبوه إلى مكة يبحث عنه، وعلم بوجوده عند النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مشى إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وطالب منه أن يعنقه، ويعيده إليه ليعيده بدوره إلى أمه ويلحقه بأقربائه، فابى زيد إلا البقاء عند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وفضل ذلك على المضي مع أبيه، والعودة إلى وطنه، وعشيرته، وقد خيره رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المكث عنده أو الرحيل مع أبيه إلى وطنه.

على أن ذلك الانجذاب والحب كان متبادلاً بين زيد ورسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فكما أن زيدا كان يحب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويحب أخلاقه وخصاله، كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يحب زيدا كذلك لنباهته وأدبه حتّى أنه أعتقه وتبناه، فكان الناس يدعونه زيد بن محمد بدل زيد بن حارثة، ولكي يتأكد ذلك وقف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ذات يوم وقال لقريش: «يا من حَضَرَ إَشْهَدُوا أن زيدا هذا ابني.»⁽¹⁾

وقد بقي هذا الحب المتبادل بين زيد، وبين رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى أن استشهد هذا المسلم الصادق والمؤمن المجاهد في معركة مؤتة، فحزن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لمصرعه كما حزن لولد من أولاده.

[1] اسد الغابة: ٢ / ٢٣٥ وكذا الاستيعاب والإصابة مادة: زيد.

زيد يتزوج بابنة عمه النبي:

لقد كان من أهداف رسول الإسلام العظيم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - هو أن يخفف من الفواصل بين طبقات المجتمع وفئاته، ويقارب بينها قدر الامكان، ليعيش البشر جميعاً تحت لواء الإنسانية والتقوى إخوةً متحابين لا يتبعد بعضهم عن بعض مقاييس الثروة والنسب، بل يكون الملاك في التفاضل هو الأخلاق الفاضلة والسجايا الإنسانية.

من هنا كان يجب التعجيل في ازالة التقاليد العربية البالية التي كانت تقضي بأن لا يتزوج بنات السادة والاشراف بابناء الطبقات الضعيفة والفقيرة.

وأي وسيلة لضرب هذا التقليد القبيح الظالم وتحقيق المساواة الكاملة أفضل من أن يبدأ النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في تحطيم هذا التقليد باقربائه وذويه ليقدم بذلك درساً عملياً للأمة في هذا المجال، فقام بتزويج عتيقه «زيد بن حارثة» من شريفة من بني هاشم وهي ابنة عمته زينب بنت جحش حفيدة عبدالمطلب ليعلم الناس أنه يجب عليهم الاقلاع عن تلك التقاليد الجاهلية الظالمة بسرعة، ويعرفوا أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - هو أول من نفذ في حق ذويه ما كان يردده من قوله: «لافضل لأحد عليأحد إلا بالتقوى» و «إن المؤمن كفؤ المؤمن». »

ولأجل تحطيم ذلك التقليد الجاهلي الخاطي ذهب رسول الله بنفسه إلى منزل زينب، وخطبها لزيد، فلم تبد زينب وأخوها رغبة في هذا الأمر في الوهلة الأولى لأن الأفكار الجاهلية كانت لا تزال مترسبة في قلوبهم، ومن ناحية أخرى كان الرد على النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أمراً صعباً ولهذا تدرعا بعبودية «زيد» السابقة وحاولا بذلك التخلص من مطلب النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - .

فلم يلبثا أن نزل قوله تعالى يشجب رد زينب وأخيها لطلب النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)

مِنْ أَمْرِهِمْ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا. (١)

فتلاها رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عليهم فوراً فدفعا إيمان زينب وأخيها الصادق برسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وأهدافه المقدسة إلى أن تبادر زينب إلى الاعلان عن رضاها ورضا أخيها بهذا الزواج، فتزوجت ابنة شريف قوم «زينب»

بعتيق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - زيد وبذلك طَبَّق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واحداً من أعظم مناهج الإسلام الحية، وأدابه الإنسانية الرفيعة، وحطّم عملياً واحدة من أقيح السنن الجاهلية، وأكثرها تخلفاً واجحافاً.

زيد يطلق زوجته:

إلا أن هذا الزواج لم يدم طويلاً، فقد آل إلى الطلاق، والافتراق ويعزي البعض ذلك إلى نفسية «زينب» وسلوكها الحاد حيث كانت ربما تذكر لزيد دنو حسبه، وعلو حسبها، وبذلك كانت تمرّ في ذائقته طعم الحياة وتسبب انزعاجه.

ولكن يحتمل أن السبب وراء هذا الطلاق كان هو زيد نفسه، فإن تاريخ حياته يشهد بأنه كان يعاني من روح العزلة، وعدم الالفة، فقد اتخذ أزواجاً متعددة وطلقهنّ (إلا الأخيرة منهن حيث استشهد عنها وهي في حباته) فتكون هذه الطلاقات المتعددة دليلاً على عدم القدرة على الانسجام مع زوجاته، لحالة نفسية كان يعاني منها.

ويشهد بذلك أيضاً خطاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الحاد، فإن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لمّا عرف بأن زيدا يبغى طلاق زوجته زينب غضب وقال:

(**امسك عليك زوجك واتق الله**).⁽²⁾

ولو كان الذنب كلّ ذنب زوجته زينب لما كان يُعدُّ تطليقها عملاً مخالفاً للتقوى.

1- الاحزاب: ٣٦.

2- الاحزاب: ٣٧.

ومهما يكن فقد طلق زيد زينباً وافترقا، ثم تزوج بها النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد ذلك.

زواج النبي بمطلقة متبناه لابطال سنة جاهلية أخرى:

ولكن قبل أن ندرس العلة الأساسية لهذا الزواج لابد أن نلقي نظرة فاحصة إلى مسألة النسب الذي يعدّ مقوماً مهماً من مقومات المجتمع الصحيح.

وبعبارة أخرى وأكثر تحديداً لابد أن ندرس الفرق الجوهرية بين الوالد الحقيقي، وبين المتبنى.

وتوضيحاً لهذا الأمر نقول:

كان يوجد في المجتمع العربي الجاهلي أبناء لا يعرف لهم آباء أولهم آباء معروفون، وكان الرجل يعجبه أحد هؤلاء فيتبناه ويدعوه ابنه، ويلحقه بنسبه وتصير له حقوق البنوة وملحقاتها.

ولما كان هذا شذوذاً عن الأساس الطبيعي للأسرة أبطله الإسلام وذلك لأن الولد الحقيقي ينتمي إلى أبيه بجذور تكوينية، فالوالد هو - في الحقيقة - المنشأ المادي لوجود ابنه، ويرث الولد من والده والدته الكثير من صفاتهما الجسمية والروحية، وبذلك يكون امتداداً طبيعياً لوالديه.

وعلى أساس هذه الوحدة الطبيعية، ووحدة الدم يتوارث الآباء والأبناء، وتترتب أحكام خاصة في مجال الزواج والطلاق، والتحليل والتحرير.

وبناءً على هذا فإن مثل هذا الموضوع الذي ينشأ من جذور تكوينية واقعية، لا يوجد أبداً باللفظ واللسان.

ولهذا قال الله سبحانه في الكتاب العزيز في معرض الرد على من يتصور المتبنى ولداً حقيقياً لمجرد ادعاء البنوة:

(وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ

(235)

مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً. (1)

فلا يكون الابن المتبنى والولد الحقيقي على صعيد الموضوع سيان أبداً، فكيف على صعيد الأحكام كالتوارث، والزواج والطلاق وما شابه ذلك؟

فاذا ورث الولد الحقيقي من أبيه أو بالعكس أو حرمت زوجة الولد الحقيقي على أبيه بعد طلاقها من زوجها لا يمكن أن نقول أن الابن المتبنى يشبهه ويشترك معه في هذه الأحكام أبداً.

ومن المسلم به أن مثل هذا التشريك في الحقوق والشؤون مضافاً إلى كونه لا يستند إلى أساس معقول وصحيح هو نوع من العبث بعامل النسب، وهو العنصر المهم في المجتمع السليم الصحيح.

وعلى هذا الأساس إذا كان التبنّي بدافع العاطفة أمراً مستحسنًا ومقبولاً، إلا أنه إذا كان بهدف إشراكه في سلسلة من الأحكام الاجتماعية التي هي من شؤون الولد الحقيقي وحقوقه يعد أمراً بعيداً وغريباً جداً عن المحاسبات العلمية، والأسس الموضوعية.

ولقد كان المجتمع العربي - كما اسلفنا - يعدّ الابن بالتبني كالولد الحقيقي دون فرق، وقد كُفّر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من جانب الله تعالى بأن يقضي على هذا التقليد الجاهلي والسنة الخاطئة باجراء عملي صارخ وذلك بالتزوج بزینب مطلقة متبناه «زيد»، ويمحي من حياة المجتمع العربي هذا التقليد القبيح بالعمل الذي يفوق القول، ووضع القانون، في التأثير، والفاعلية. ولم يكن لهذه الزيجة غير هذا السبب.

لقد كان هذا التقليد أمراً مقدساً في المجتمع العربي بشكل كبير جداً بحيث لم يكن أحدٌ ليجرأ على نقضه ومخالفته والتزوج بمطلقة دعيّه⁽²⁾ لقبه في نظر العرب لذلك دعا الله سبحانه نبيّه إلى القيام بهذا العمل الخطير، إذ قال:

1- الأحزاب: ٤ و ٥، راجع تفسير الميزان: ١٦ / ٢٩٠ و ٢٩١.
2- الدعوى هو الابن المتبنى وجمعه أدياء.

(236)

(وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كُهَا لَكِي لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا)⁽¹⁾

إن هذا الزواج مضافاً إلى كونه استهدف منه تحطيم سنة جاهلية مقبته (سنة عدم الزواج بمطلقة المتبنى) وإعادة العلاقات العائلية إلى وضعها الصحيح يعتبر من أقوى مظاهر المساواة في الإسلام، لأن النبي الأكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تزوّج بمطلقة عتيقه وقد كان مثل هذا العمل مخالفاً لشؤون المجتمع يومذاك.

ولقد أثار هذا الاقدام الشجاع موجةً من الاعتراض والنقد من جانب المنافيين، وأصحاب العقول الضيقة، فقد طرحت هذه المسألة في الاوساط والنوادي وأخذوا يشنعون بها على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويقولون: لقد تزوّج محمّد بمطلقة دعيّه.

فأنزل الله تعالى في الرد على تلك الافكار والاقوال الباطلة قوله:

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)⁽²⁾

على أن القرآن لم يكتف بهذا البيان بل امتدح نبيّه الذي نقد حكم الله بشجاعة كاملة بقوله:

(مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا* الَّذِينَ يُبْغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)⁽³⁾

وخلص المفاد لهاتين الآيتين هي أنّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كغيره من الأنبياء يُبَلِّغُ رسالات الله ولا يخالف لوم اللائمين، وكيد المنافقين، وإرجاف المرجفين.

- 1- الأحزاب: ٣٧.
- 2- الأحزاب: ٤٠.
- 3- الأحزاب: ٣٨ و ٣٩.

(237)

هذه هي فلسفة تزوج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بزینب بنت جحش مطلقاً دعيه ومتبناه وعتيقه زيد بن حارثة في ضوء القرآن الكريم.

المستشرقون وقضية تزوج النبي بزینب:

إن زواج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بزینب مطلقاً زيد بن حارثة - كما لاحظت - قضية بسيطة خالية عن أي إبهام أو غموض.

ولكن جماعة من المستشرقين تذرّعوا بها لإغراء البسطاء ومن شاكلهم غير الملمين بالتاريخ الاسلامي وأرادوا بذلك إضعاف إيمان الذين لا يعرفون السيرة النبوية حق المعرفة، فأننا يجب أن ندرس ما قالوه في هذا المجال، ونكشف للقارئ الكريم عن مواطن الدس والتحريف فيه.

ولا يخفى أن الاستعمار البغيض لم يكتف للسيطرة على بلادنا باستخدام القوة العسكرية، والسلاح الاقتصادي بل ربما دخلها متسترأ بقناع العلم والتحقيق، فقد سعى - ولم يزل - لفرض أسوأ هيمنة فكرية شاملة وتبعية ثقافية مقبته على شعوبنا وفق تخطيط دقيق ومدروس وهذا هو ما يسمّى بالاستعمار الفكري، والثقافي.

وفي الحقيقة فإن المستشرق هو طليعة ذلك الاستعمار، بل و جيشه المتقنع بقناع العلم والمعرفة الذي ينفذ إلى أعماق المجتمع، ويتسلل إلى أوساط المفكرين والمتقنين وينفث سموه القاتلة، ويحذر العقول، ويمهد النفوس للاستعمار السافر، والمكشوف.

ويمكن أن لا يرتضي كثير من الكتاب وعشاق القلم والثقافة في الغرب منطقنا هذا فيعمدوا إلى رمينا بالتحجر، والعصبية والتخلف ويتصوروا باننا نقول مانقوله بدافع العصبية القومية أو الدينية، ولكن كتابات المستشرقين وإخفاءهم المتعمد والكثير للحقائق، وتحريفهم ودسهم المكشوف في تاريخ الإسلام حيناً والخفى حيناً آخر يشهد بوضوح أنّ دافعهم في كثير ممّا كتبوا ليس حب العلم وتحري المعرفة، فإن أكثر ما كتبوه ممزوج بطائفة من أفكارهم المعادية للإسلام، ولرسول

الله والمسلمين⁽¹⁾.

ويشهد على هذه النزعة - بجلاء ووضوح - موقفهم من زواج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بزَيْنَب بنت جحش وما نسجوه من قضايا خيالية حول هذه القضية، التي وقعت بهدف إبطال سنة باطلة، فأعطوها صبغة قصص الحب وأساطير الغرام على طريقة القصاصين والروائيين وديبنهم، وعمدوا إلى حكاية تاريخية مختلقة وضخموها ونفخوا فيها ونسبوها إلى أظهر إنسان عرفه العالم البشري.

وعلى كل حال فإن أساس هذه الأسطورة عباراتٌ نَقَلَهَا ابن الأثير⁽²⁾ ومن قبله الطبري⁽³⁾ وبعضُ المفسرين، وهي أنه: خرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يريد زيدا وعلى الباب سترٌ من شعر فرعته الريح فرآها وهي حاسرة فأعجبته!!!

ولكن المستشرقين بدل أن يتحققوا من سند هذه الأقوال، لم يكتفوا بنص ما ذكره أولئك المؤرخون والمفسرون، بل الصقوا به الكثير الكثير حتى تحوّلت تلك الجُمْل العابرة إلى قصة تشبّه أقاصيص ألف ليلة وليلة.

إن من المؤكّد أنّ الذين يعرفون سيرة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الطاهرة يدركون أنّ هذا التاريخ إنّما هو في أصله وفرعه من نسج الخيال، وصنع الأوهام، وانها تخالف ما في صفحات التاريخ النبويّ الوضاعة النقيّة مخالفةً كاملةً، إلى درجة أن علماء معروفين كالفخر الرازي والألوسي كذبوا هذه القصة بشكلها الذي ذكرها ابن الأثير والطبري بصراحة كاملة وقالوا: إن هذه الرواية رواية باطلة زوّرها واختلقها أعداء الإسلام وراجت في كتب المؤلفين المسلمين.⁽⁴⁾

فكيف يمكن القول بأنّ هذه القصة وبهذه الكيفية كانت مما يعتد بصحته

[1] للتأكد الأكثر من هذا الأمر (راجع كتاب المستشرقون).
2- الكامل في التاريخ: ٢ / ١٢١، جامع البيان في تفسير القرآن: ٢٢ / ١٠.
3- الكامل في التاريخ: ٢ / ١٢١، جامع البيان في تفسير القرآن: ٢٢ / ١٠.
4- مفاتيح الغيب: ٢٥ / ٢١٢، روح المعاني: ٢٢ / ٢٣ و ٢٤.

ابن الأثير، والطبري في حين أن هناك العشرات ممن نقلوا خلفها وبرّأوا ساحة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من هذه المساوئ

وعلى أية حال فإننا نشير في الصفحات التالية إلى دلائل اختلاق هذا القسم من التاريخ، ونعتقد أن القضية في واقعها وحقيقتها واضحة جداً، واغنى من ان ندافع عنها.

واليك أدلتنا:

أولاً - ان التاريخ المذكور يخالف المصدر الاسلامي الاصيل وهو (القرآن الكريم) لأنّ القرآن بشهادة الآية (٣٧) من سورة الأحزاب تصرّح بأنّ زواج رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - من زينب كان لأجل إبطال سنة جاهلية باطلة وهي السنّة القاضية بأنه لا يحق لأحد أن يتزوج مطلقة دعيّه، خاصة وأنّ رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - فعل ذلك بأمر الله سبحانه وليس بدافع من الرغبة الشخصية، والحب الشخصي، ولم يكذب ذلك أحد في صدر الإسلام.

فاذا كان ما قاله القرآن الكريم مخالفاً للحقيقة لسارع اليهود والنصارى والمنافقون إلى نقده وتفنيده، ولأحدثوا ضجة بسبب ذلك، في حين أنّ مثل هذا لم يُؤثّر من أعداء الإسلام الذين كانوا يتحينون الفرص للإيقاع برسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - ، وتلوّث سمعته.

ثانياً - أن «زينب بنت جحش» هي تلك المرأة التي اقترحت على رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - الزواج بها قبل أن يتزوج بها «زيد» ولكن رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - أصرّ على ان تتزوج غلامه المعتق زيدا رغم رغبتها في الزواج من رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - .

فلو كان رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - يحبّ الزواج بها - وهو يعرفها طبعاً - لما وجد مانعاً من ذلك عندما طلبت منه الزواج بها، فلماذا لم يتزوج بها؟ ولما رفض طلبها؟.

أجل، انه لم يتزوج بها ولم يجب مطلبها بل الخ عليها أن تتزوج بشخص آخر رغم أنه أحسن برغبة شديدة لدى زينب في الزواج منه لا من غيره.

وبعد تكذيب هذا القسم المحرّف من التاريخ الاسلامي لا يبقى مجالاً لتعليقات وأوهام جنود الاستعمار وطلانعه المغرضين.

إننا نبرئ ساحة رسول الإسلام العظيم - صلّى الله عليه وآله وسلم - من أمثال هذه الترهات والنسب الرخيصة ونرى أن ساحتة المقدسة أجلّ من أن ننقل كلمات هذا الفريق من الكتاب المغرضين الحاقدين في حقّ نبيّ بقي مكتفياً بزوجة تكبره بثمانية عشر عاماً، إلى أن بلغ سن الخمسين.

من هنا نعرض عن ذكر أقوالهم.

ولا بأس بأن نذكر هنا ما كتبه جماعة من المحققين المصريين الذين أشرفوا على طباعة «التاريخ الكامل» لابن الأثير تعليقاً على ما أدرجه في هذا المجال:

هذه رواية باطله زوّرها الملاحدة، واختلقها أذهان أعداء الدين الإسلامي ليطعنوا في نبي الإسلام عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وهل يُعقل: انه لا يعرف ابنة عمته التي كان ولي زوجها إلى مولاه زيد؟ وانما دسائس الزنادقة، ومبشّري المسيحية قد تغلّغت في نفوس العلماء من حيث لا يعلمون، فافتكروا في رواية الخبر، فاتخذوه أساساً، وأعرضوا عن كتاب الله وعن قول الله تعالى من أن الله أعلمه بأنها صارت زوجه قبل أن استشاره زيد في طلاقها.

والعجيب أن ابن الأثير مع جلالة قدره ينقل هذه الرواية المزيفة التي هي طعن صريح في رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وقد قلد في روايته هذه ابن جرير قبله، وكلاهما وقع في هوة الضلالة من حيث لا يشعر، ولو عُرضت كل رواية على كتاب الله تعالى لما أقدم أحدٌ على مثل هذا الافك العظيم!!

إن زينب هي وهبت نفسها لرسول الله فزوجها من مولاه، ثم تزوجها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «كي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً»، فاذن كان الزواج لأجل التشريع، وكان عملياً، لشدة نفرة أهل الجاهلية من هذا الزواج من النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، لانهم يعدّون المتبني ولدأ صريحاً أو في مرتبته.

(241)

قال الفخر الرازي: وفيه إشارة إلى أن التزويج من النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يكن لقضاء شهوة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بل لبيان الشريعة بفعله، انتهى.

ونحن نعيب عليه أيضاً إذ جعله إشارة ولم يجعله صريحاً وبما أن روح التقليد الأعمى قد اشتدّ بين المسلمين منذ زمن بعيد فالحكاية التي أوردها المؤلف نقلها كثير من المفسرين غير مفكرين بما فيها من طعن في الدين لإفادتها أن الشريعة الإسلامية عبارة عن إتباع أهواء أو تنفيذ شهوات تنزهت عن ذلك كله، ويرحم الله السيّد الألويسي حيث قال في تفسيره: وحاصل العتاب: لم قلت «أمسك عليك زوجك»، وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك وهو مطابق للتلاوة، لأن الله أعلم أنه مبدئ ما أخفاه عليه الصلاة والسلام ولم يظهر غير تزويجها منه فقال: «زوّجناكها» فلو كان الضمير محبتها واردة طلاقها، ونحو ذلك لأظهره جلّ وعلا، وللفصّاص في هذه القصّة كلام لا ينبغي أن يُجعل في حيز القبول، انتهى.

ثم أورد الروايات المزيفة التي تشبه ما أورده المؤلف (أي ابن الأثير) محذراً الناس منها ومن أمثالها التي لا تروج إلا على الحمقى والمغفلين انتهى. راجع هامش الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٢١. طبعة القاهرة ادارة الطباعة المنيرية عام ١٣٤٩ هـ.

توضيح عبارتين:

هذا واستكمالا للبحث، واتماماً للفائدة ندرج نص الآية التي نزلت في هذا المجال، والتي تسببت جملتان منها في إثارة الشكوك لدى بعض الجاهلين بحقائق السيرة النبوية الزكية، ونعطي بعض التوضيحات اللازمة حولهما: واليك نص الآية أولاً:

(وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ).

(242)

وفيما يلي الجملتان اللتان تحتاجان إلى التوضيح:

(وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ.)

فماذا كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يُخْفِي في نفسه وقد أظهره الله وأبداه بعد كل تلك النصيحة التي نصح بها - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - زيدا؟

ربما يتصور أحد أن الأمر الذي كان يخفيه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هو رغبة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في تطليق زيد زوجته زينب أي أنه وان كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ينهى زيدا في الظاهر عن تطليق زينب، إلا أنه كان في سره يرضى بذلك بل يرغب فيه ليتسنى له بعد ذلك أن يتزوجها هو.

ولا شك أن هذا الاحتمال غير صحيح مطلقاً لأن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إذا كان يبطن مثل هذا الأمر، فلماذا لم يبد الله سبحانه نية هذه بآيات أخرى، في حين أنه سبحانه وعد في هذه الجملة بأن يظهر ما كان يخفيه رسول الله في نفسه إذ قال تعالى: (وَاللَّهُ مُبْدِيهِ)!

ولهذا قال المفسرون: إن المقصود مما كان يخفيه هو الوحي الإلهي الذي أنزله الله عليه، وتوضيح ذلك هو: أن الله تعالى أوحى إليه بأن زيدا سيطلق زوجته رغم نصيحة النبي، وأنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سيتزوج بها من بعده لإبطال سنة جاهلية مقبنة (وهي حرمة الزواج بمطلة الدعوى).

ومن هنا كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حين نصيحته لزيد ونهيه عن تطليق زينب زوجته مُلتفتاً ومنتبهاً إلى هذا الوحي الإلهي أيضاً، ولكنه أخفى هذا الوحي عن زيد وغيره، ولكن الله تعالى أخبر النبي في نفس تلك الجملة بأنه تعالى سيبيد للناس ما يخفيه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في قلبه، وأن الأمر لن يبقى خافياً على أحد بإخفائه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - له.

ويشهد بهذا المعنى أنّ القرآن الكريم اظهر الامر في ذيل نفس هذه الآية إذ قال:

(فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوّجنا كها لِكى لا يكون على المؤمنين حرجٌ)

(243)

في أزواج أَدعيانهم إذا قَضوا منهنّ وطراً وكان امر الله مفعولاً. (1)

فمن هذا التعقيب يستفاد أن ما كان يخفيه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هو الوحي الالهي، بأنه عليه أن يتزوج بزوجة دعيه بعد طلاقها لإبطال سنة جاهلية خاطئة.

واما الجملة الثانية التي هي بحاجة إلى التوضيح فهي قوله تعالى: «وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ». غير أن هذا القسم من الآية هي الجملة الثانية الأقل إيهاماً وغموضاً من الجملة السابقه بدرجات، لأن تجاهل سنة عريقة متجذرة في بيئة منحرفة (وهي الزواج بمطّقة الدعوى) يقترن - بطبيعة الحال وحتماً - بحرج نفسي يزول ويرتفع لدى الأنبياء بتوجههم إلى الأمر الالهي...

وإذا كان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يعاني من حرج نفسي شديد من هذه القضية فانما هو لأجل أنّه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يتصوّر أن جماعة العرب الذين لم يكن عهدهم بالإسلام طويلاً، لم يمر على انقطاعهم عن عاداتهم وتقاليدهم الجاهلية سوى زمن قصير سيقولون: إن النبي ارتكب عملاً سيئاً، والحال أن الامر ليس كما يعتقدون.

قال العلامة الطباطبائي في هذا الصدد: قوله: «لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أَدعيانهم لما قَضوا منهنّ وطراً» تعليل للتزويج وبيان مصلحة للحكم. وقوله: «وكان أمر الله مفعولاً» مشيرٌ إلى تحقق الوقوع وتأكيد للحكم.

ومن ذلك يظهر أن الذي كان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يخفيه في نفسه هو ما فرض الله له أن يتزوجها لا هواها، وحيه الشديد لها وهي بعد مزوجة كما ذكره جمع من المفسرين، واعتدروا بأنها حالة جبلية لا يكاد يسلم منها البشر فإن فيه أولاً: منع أن يكون بحيث يقوى عليه التربية الإلهية. وثانياً: أنه لا معنى حينئذٍ للعتاب على كتمانته وإخفائه في نفسه فلا مجوز في الإسلام لذكر حلائل الناس

-[الاحزاب: ٣٧].

(244)

والتشبّب بهن. (1)

ولما كانت المسألة مسألة وضع قانون جديد لهذا مضى القرآن الكريم يؤكدها ويزيل عنصر الغرابة عنها فقال تعالى:

(مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مُقَدَّرًا * الَّذِينَ يُبَيِّنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا * مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا * وَيَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا * وَلَا تَطْعَمُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعَا أَهْلَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا.)⁽²⁾

ففي هذه الآيات إشارة إلى:

1- أن ما قام به النبي من التزوج بزَيْنَب كان بأمر الله، وكان على سبيل سنّ قانون وتشريع سنة ولكن بصورة عملية، وإن ذلك القانون علم الله ضرورته وقدره وزمانه ومكانه.

2- أن زيدا ليس ابن محمد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إنما هو متبناه ودعيه بل هو ابن والده حارثة واقعاً وحقيقة وليس ذلك إلا تقريراً وتأكيداً للحقيقة التي سبقت الإشارة إليها في قوله تعالى: «وما جعل أديعكم أبناءكم.»

3- أن ما قام به رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من التزوج بمطرفة متبناه هو جزء من تشريعه الذي يشرّعه بأمر الله وإذنه تعالى لتفسير عليه البشرية، وفق آخر رسالة السماء إلى الأرض، لا أنه أمر واقع بدافع شخصي.

1- تفسير الميزان: ١٦ / ٣٤٣.

2- الاحزاب: ٣٨ - ٤٨.

4- إن الله هو الذي يعلم ما يصلح لهذه البشرية وما يصلحها وهو الذي فرض على النبي ما فرض ليحلّ للناس ازواج أديعائهم إذا ما قضوا منهن وطراً وانتهت حاجتهم منهن واطلقوا سراهن. قضى الله هذا وفق علمه بكل شيء، ومعرفته بالاصلاح والافق من النظم والشرائع.

5- إن ما سنّه الله للمسلمين وما اختاره تعالى للامة الإسلامية في مجال العلاقات العائلية يريد بها الخير والخروج من الظلمات إلى النور، فعليهم ان يذكروه ويشكروه أبداً ودائماً، فانه سيكون لهم لو أطاعوه وسبّحوه وذكره شأن في المأل الأعلى فهو يصلي عليهم وملائكته، ويذكرهم هناك، بالخير، وانما يفعل كل هذا من منطلق الرحمة والعناية بهم.

6- أن وظيفة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في المسلمين هي (الشهادة) عليهم، فليحسنوا العمل، وهي (التبشير) لهم بما ينتظر العاملين من رحمة وغفران، و (الإنذار) للغافلين المسيئين بما ينتظرهم من عذاب ونكال، و (الدعوة إلى الله) لا إلى دنيا أو مجد أو عزة قومية أو عصبية جاهلية، وذلك باذن الله فما هو بمتدع، ولا بقائل من عنده شيئاً.

7- ان على النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أن يبشّر المؤمنين المطيعين لاوامر الله بأن لهم فضلاً كبيراً، ولا يطيع الكافرين، والمنافقين، وألاً يحفل بأذاهم له وللمؤمنين، وان يتوكل على الله وحده وهو بنصره كفيلاً، وهو يوحي بأن المنافقين أرجفوا بالنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في هذه القضية، ارجافاً عظيماً.

وكل هذه الامور توحى بأن تغيير تلك السنة الجاهلية (عدم الزواج بمطلقة المتبى) كانت عملية صعبة فاحتاجت إلى كل هذا التعقيب، وبالتالي تثبيت الله للنفوس فيه، كي تتلقى ذلك الأمر بالرضى والقبول والتسليم، وهذا هو الحال عند سنّ القوانين المهمة والخطيرة

(246)

٣٧

غزوة الاحزاب (١)

لقد قاد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في السنة الخامسة مجموعة من الغزوات، كما وبعث سلسلة من السرايا لاقبال المؤامرات التي كانت في طور الانعقاد أو التكوين أو التي كانت محتملة من جانب العدو.

واليك فيما يأتي بعض غزوات السنة الخامسة:

1- غزوة دومة الجندل (2)

بلغ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أن بدومة الجندل جمعاً كثيراً وأنهم يظلمون من مربيهم من المسافرين والتجار، وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة، فخرج رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في ألف من المسلمين، فكان يسير الليل ويكمن النهار أخذاً بعنصر الاستتار والسرية على عادته.

ولما دنا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من دومة الجندل وعرفت به تلك الجماعة تفرقوا من فورهم فلم يجد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بها أحداً، فأقام بها أياماً وبتت السرايا والدوريات وفرّقها حتى غابوا عنه يوماً ثم رجعوا إليه ولم يصادفوا من

- [ذكر ابن هشام في سيرته أن هذه الغزوة وقعت في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة، وحيث أن غزوة الأحزاب انتهت في الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة، وطالت محاصرة المدينة شهراً واحداً لذلك يجب أن نقول إن هذه المعركة بدأت منذ الرابع

والعشرين من شهر شوال تقريباً.
2-المغازي: ١ / ٤٠٢، السيرة النبوية: ٣ / ٢١٣ ودومة الجندل منطقة بين دمشق والمدينة (الطبقات الكبرى: ٢ / ٤٤).

(247)

تلك الجماعة أهدأ.

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عاد إلى المدينة في العشرين من شهر ربيع الثاني، من دون ان يقاتل. (1)

* * *

-2- غزوة الخندق (الأحزاب):

أجلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يهود بني النضير في السنة الرابعة من الهجرة كما قلنا بسبب نقضهم للميثاق، وسيطر على قسم من أموالهم وممتلكاتهم، واضطرت بنو النضير إلى أن تذهب إلى «خيبر» وتسكن هناك، أو تسير إلى الشام.

وقد كان إجراء النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذا متطابقاً مع ما جاء في الميثاق المعقود بينه وبين يهود يثرب.

وقد دفع هذا الإجراء بسادة بني النضير وزعمائهم إلى التآمر ضدّ الإسلام، فقدموا مكة، وحرّضوا قريشاً على حرب رسول الله -

صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واليك مفصل هذه الغزوة:

عباً المشركون العرب، واليهود قواهم في هذه المعركة ضدّ الإسلام.

فقد شكّلوا اتحاداً نظامياً قوياً وحاصروا المدينة مدة شهر واحد، وبما أن أحزاباً مختلفة اشتركت في هذه المعركة سميت هذه المعركة بمعركة الأحزاب، وربما سميت بمعركة «الخندق» لأن المسلمين احتفروا حول المدينة خندقاً عظيماً، دفاعاً عنها، ومنعاً للكفار عن اجتياحها.

ولقد كان زعماء بني النضير وبني وائل - كما أسلفنا - هم المحرّكون الأصليون لهذه الحرب، والمشعلون الرئيسيون لفتيلها.

[1-امتناع الاسماع: ١ / ١٩٣ و ١٩٤.

(248)

فإنّ الضربة القوية التي تلقاها يهود بني النضير من المسلمين، والتي اضطروا على أثرها إلى مغادرة المدينة، فسكن بعضهم خبير، دفعهم إلى ان يخططوا بصورة جهنمية ودقيقة لاستئصال شأفة الإسلام والقضاء عليه. وانها لخطّة عجيبة حقاً، فقد جعلوا المسلمين يواجهون طوائف متعددة وأحزاب مختلفة لم يعرف لها تاريخ العرب مثيلاً!!

كما أن في هذه الخطة كان اليهود هم أنفسهم الممولون الاساسيون لطوائف العرب العديدة، فقد أمّوهم بأموال كبيرة، وهبوا كل ما يحتاجون إليه من حاجات ومعدات!!

وكانت الخطة كالتالي: قدم جماعة من سادة بني النضير مثل «سلام بن أبي الحقيق» و «حبي بن أخطب» في نفر من بني النضير على قريش مكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فلقد جننا لخالفكم على عداوة محمّد وقاتله.

وقال حبي بن أخطب: إن محمّداً قد وترككم وترنا وأجلانا من المدينة من ديارنا وأموالنا، وأجلى بني عمنا بني قينقاع فسيروا في الأرض، واجمعوا حلفاءكم وغيرهم حتى نسير اليهم، فقد بقي من قومي بيثرب سبعمائة مقاتل وهم بنو قريظة، وبينهم وبين محمّد عهد وميثاق وأنا أحملهم على نقض العهد بينهم وبين محمّد ويكونون معنا عليهم، فتأتونه انتم من فوق وهم من أسفل.

فأثرت كلمات اليهود ومقاله «حبي بن أخطب» في نفوس المشركين الحانقين على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، واصحابه، واستحسنوا خطتهم، وابدوا استعدادهم للخروج إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقاتله. ولكنهم قبل أن يوافقوا اليهود على ذلك الرأي سألوهم قائلين: يا معشر اليهود انكم أهل الكتاب الأوّل، والعلم، أخبرونا عما اصبحنا نحن فيه ومحمّد، افديننا خبير ام دين محمّد؟

ويجب أن نرى الآن بما أجابت هذه الطائفة (التي كانت ولا تزال تعد نفسها حامل لواء التوحيد، الوحيد في العالم) أولئك المشركين الجهلة الذين

(249)

وصفوا اليهود بالعلم والمعرفة، وطلبوا منهم حل مشكلتهم؟! «أجل لقد قال اليهود بوقاحة كبيرة: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق، إنكم لتعظّمون هذا البيت، وتقومون على السقاية، وتتحرون البُدن، وتعبدون ما كان عليه آبؤكم، فانتم أولى بالحق منه. (1)!!!»

ولقد أضافت اليهود بهذه الاجابة الوقحة وصمة عار أخرى إلى سجلهم الاسود، وزادوا تاريخهم المشؤوم سواداً، وسوءاً.

ولقد كانت هذه الغلطة فضيحة، وقبيحة إلى درجة أنّ الكتاب اليهود تأسفوا لوقوعها، في ما بعد.

فهذا هو الدكتور اسرائيل يكتب في كتابه: (تاريخ اليهود في بلاد العرب) حول هذا الموقف المشين جداً قائلاً: «كان من واجب هؤلاء ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، والايصرّحو امام زعماء قريش بأن عبادة الاصنام أفضل من التوحيد الاسلامي ولو أدى بهم الأمر إلى عدم اجابة مطالبهم كان من واجبهم أن يضّحو بحياتهم وكل عزيز لديهم في سبيل ان يخلدوا المشركين، هذا فضلاً عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الاصنام انما كانوا يحاربون أنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة.»⁽²⁾

وفي الحقيقة أن هذا المنطق هو الذي يتوسّل به الساسة الماديون اليوم لإنجاح مقاصدهم، وتحقيق مآربهم. فهم يعتقدون - بكل جدّ - أن عليهم - لتحقيق أهدافهم - التوسل بكل وسيلة ممكنة مشروعة كانت أو غير مشروعة، وهذا هو مقولة «الغاية تبرر الوسيلة» التي طرحها ميكافيلي، وبالتالي فان «الاخلاق» في منظور هذه الجماعة هو ما يخدم مصالحهم ويحقق أغراضهم ليس إلا.

إن القرآن الكريم يتحدث عن هذه الواقعة المرة فيقول:

(ألم تر إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجِبْتِ والطَّاغُوتِ وَ)

1-بحار الأنوار: ٢٠ / ٢١٧.
2-حياة محمّد: ص ٣٢٩.

(250)

يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَوْلَاءٌ هُدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَ مَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا. ⁽¹⁾

ولقد ترك كلام أدعاء العلم والدين هؤلاء، أثراً عجبياً في نفوس المشركين وعبدة الاوثان، فأظهروا موافقتهم على خطة اليهود الجهنمية وهو تأليف جيش من قبائل متعددة لمقاتلة المسلمين وحدّدوا معهم موعداً للتوجه إلى المدينة، لتحقيق ذلك الغرض المشؤوم

فخرج مثيرو الفتنة ومشعلو الحرب (اليهود) من مكة بقلوب مملوءة سروراً، وغبطة، وساروا إلى نجد، ليتصلوا بقبيلة غطفان - وكانت من اعدى اعداء الإسلام - فاستجلبوا موافقة قبائل غطفان: بني فزار، وبني مرّة، وبني اشجع، شريطة أن يعطونهم تمر خبير، لمدة سنة، بعد الانتصار على المسلمين، ولكن تحركات قريش في مجال ضمّ القبائل إلى ذلك الجيش لم تنته إلى هذا الحد فقد راسلت قريش خلفاءها من بني سليم وراسلت غطفان حلفاءها من بني اسد، ودعوهم إلى المشاركة في هذه الحرب، فاستجابت لهم تلك القبائل، وتحركت جميع هذه الفئات والاحزاب في جيش كبير هائل قدمت عناصره من مختلف نقاط الجزيرة، نحو المدينة في

يوم معين وهي تبغي اجتياح مركز الإسلام واستئصال شأفته. ⁽²⁾!!

استخبارات المسلمين ترفع تقريراً للقيادة:

منذ أن سكن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المدينة كان يبعث بجواسيسه وعيونه النشطين الاذكياء إلى مختلف مناطق الجزيرة، لتقصّي الأخبار ومراقبة الأوضاع، وإخبار النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بكلّ ما يحصلون عليه في هذا المجال أولاً بأول.

فقدّم أحدهم على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخبره بخروج تلك القوة

1- النساء: ٥١ و ٥٢.
2-المغازي: ٢ / ٤٤٣.

(251)

الكبيرة ومسيرها إلى المدينة، وبهدفها، وتاريخ خروجها، ووصولها إلى مشارف يثرب.

فدعا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أصحابه فوراً وأخبرهم خبر عدوّهم، وشاورهم في الأمر، ليستفيدوا من تجارب «أُحد»، فاقترح جماعة منهم أسلوب التحصن، والقيام بالدفاع من داخل القلاع والحصون، ولكن هذا العمل لم يكن كافياً لأن جيش العدوّ كان كثيفاً وكبيراً جداً وكان من المحتمل بقوّة أن تقوم عناصره الكثيرة، الكبيرة في عددها بهدم الحصون والقلاع، والقضاء على المسلمين، فلا بد إذن من اتخاذ وسيلة تمنع العدوّ من الاقتراب إلى المدينة أصلاً.

فقال سلمان الفارسي الذي كان عارفاً بفنون القتال عند الفرس معرفة كاملة: يا رسول الله إنّنا إذا كُنّا بأرض فارس، وتخوّفنا الخيل، خَنَدُقُنَا حولنا، فهل لك يا رسول الله أنّ تخندق؟⁽¹⁾

وفي رواية أخرى أنه قال: يا رسول الله نحفر خندقاً يكون بيننا وبينهم حجاباً، فلا يمكنهم أن يأتونا من كل وجه، فانا كُنّا معاشر العجم في بلاد فارس إذا دهمنا دهم من عدونا نحفر الخنادق فيكون الحرب من مواضع معروفة⁽²⁾، (أي محدودة.)

فأعجب رأي سلمان المسلمين جميعاً، وكان لهذا التكتيك أثرٌ جوهري وبارز جداً في حفظ الإسلام وصيانة المسلمين.

ومن الجدير بالذكر أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خرج بنفسه يدرس المنطقة ميدانياً ولكي يحدّد المنطقة التي يمكن ان ينفذ من خلالها العدو فقرر ان يحفروا الخندق من ناحية «أحد» إلى «راتج» وكان سائر المدينة مشبك بالبنيان والنخيل لا يتمكّن العدو منها، وعلم الموضع الذي يجب ان يحفر بخط خطّه على

1-المغازي: ٢ / ٤٤٥، تاريخ الطبري: ٢ / ٢٣٤.
2-بحار الأنوار: ٢٠ / ٢١٨.

الأرض.

ولكي يتم هذا الامر بنظام وسرعة جعل على كلّ عشرين خطوة، وثلاثين خطوة جماعة من المهاجرين والانصار يحفرونه، فحملت المساحي والمعاول، وبدأ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخذ معولا فحفر في موضع المهاجرين بنفسه، وعلي - عليه السّلام - ينقل التراب من الحفرة حتّى عرق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وعيي (1) وهو يقول:

«لا عيشن إلاّ عيش الآخرة، اللهم اغفر للأنصار والمهاجرة.»

وقد كشف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعمله هذا عن جانب من نهج الإسلام واسلوبه، وفي ذلك تنشيط الامّة وتقوية لعزائمهم في مجال القيادة واخلاق القائد، وأفهم المجتمع الاسلامي أنّ على القائد الاسلامي، وعلى إمام الأمة أن يشارك الناس في الامهم كما يشاركونهم في آمالهم ويسعى أبدأ إلى التخفيف عن كاهلهم بمشاركته العملية في الأعمال، ولهذا لما نظر الناس إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يحفر نشطوا واجتهدوا في الحفر، ونقلوا التراب، ولما كان اليوم الثاني بكرّوا في العمل، وكان ذلك النشاط العظيم عاملا في أن يندفع يهود بني قريظة أيضاً إلى مساعدتهم فأعاروهم المساحي والفؤوس والأوعية الكبيرة لنقل التراب. (2)

وكان المسلمون يومئذ يعانون من نقص وضيق شديدين في المواد الغذائية، ومع ذلك كان أصحاب المكنة والثراء من المسلمين يمدّونهم بالطعام وغيره. (3)

وربما عرضت للمسلمين وهم يحفرون في الخندق صخرة عظيمة عجزوا عن كسرها وإزالتها، فأخبروا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بذلك فأخذ معولا فكسرها وأزالها.

1- وجاء في تاريخ الخميس: ١ / ٤٨٩ انه (ص) كان ينقل التراب حتّى اغبرّ بطنه.
2- السيرة الحلبية: ١ / ٣١١.
3- السيرة الحلبية: ١ / ٣١٢.

أما طول الخندق فكان بالنظر إلى عدد العاملين في حفرها - وقد كان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف حسب المشهور، وكان كل عشرة يحفرون (٤٠) ذراعاً - هو (١٢٠٠٠) ذراعاً أي ما يقارب خمس كيلومترات ونصف الكيلومتر، وأما العرض فكان بحيث لا يقدر الفرسان الماهرون من عبوره بالقفز بأفراسهم، فيكون عرضه بطبيعة الحال ما يقارب خمسة أمتار وعمقه خمسة أمتار أيضاً.

القولبة النبوية الخالدة في شأن سلمان:

عندما قسّم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المهاجرين والانصار جماعات جماعات، وأوكل إلى كل جماعة حفر موضع من الخندق، تنافس الناس يومئذ في سلمان الفارسي وأراد كلُّ أن يضمّه إلى صفّه، فقال المهاجرون: سلمان منا وقالت الأنصار: سلمان منا ونحن أحقّ به!!

فبلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قولهم فقال قولته الخالدة في شأن سلمان يومذاك:
«سلمانُ منّا أهل البيت. (1)»

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بقى إلى جانب الخندق ستة ليالٍ بأيامها حتّى فرغ المسلمون من عمل الخندق غير أن المنافقين تخاذلوا في هذه القضية وكانوا يتذرعون بأعدار مختلفة ليتملصوا من العمل في الخندق، وربما كانوا يذهبون إلى منازلهم من دون أن يستأذنوا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

أما المؤمنون الصادقون فكانوا يعملون باستمرار، وإذا ما احتاجوا إلى الذهاب إلى منازلهم أحياناً، أو جدّ لهم عذرٌ استأذنوا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأذن لهم ثم عادوا إلى الخندق فور أن يرتفع عذرهم، وقد ذكر القرآن الكريم هذه القضية في سورة النور في الآيات ٦٢ و ٦٣ إذ يقول تعالى:

- [المغازي: ٢ / ٤٤٦، الكامل في التاريخ: ٢ / ١٢٢].

(254)

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذْنُ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لَوْ أَدَّاءً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.)

مقاتلوا العرب واليهود يحاصرون المدينة:

وتتابعت أرتال الجيش العربيّ على منطقة «أحد» وعلى مقربة من الخندق الذي كان قد تمّ انجازه قبل ستة أيام وقد كان الكفار ومن لف لفهم يتوقعون أن يلتقوا جنود الإسلام عند جبل «أحد»، ولكنهم لم يلقوا أحداً منهم هناك فتقدموا نحو المدينة حتّى وصلوا إلى الخندق، فلما نظروا إلى الخندق الذي كان أشبه بحصن منيع يحفظ المدينة من الخطر، فوجئوا به وقالوا: هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها قبل ذلك ان هذا من تدبير الفارسي الذي معه.

العدد الدقيق لقوات الطرفين:

كان جيش العرب لا يتجاوز في عدده عشرة آلاف، وقد استقروا خلف الخندق وسيوفهم تلمع وهي تخطف بلمعانها الابصار!

وكان عدد المشاركين في هذا الجيش من قريش وحدها - على رواية المقرئ في الامتاع - (٤ آلاف) مقاتل، معهم (٣٠٠) فرس و (١٥٠٠) بعير.

وقد التحق بهم بنوسليم - وهم من حلفاء قريش - في (٧٠٠) رجل في مر الظهران وكان من قبيلة بني فزارة (١٠٠٠) مقاتل ومن قبائل أخرى. مثل اشجع وبني مرة كل واحد منهما (٤٠٠) مقاتل، والباقي وهم ما يقارب (٣٥٠٠) مقاتل من بقية القبائل، وعلى هذا الاساس لم يكن المجموع ليتجاوز عشرة

(255)

الآف، وقد استقروا جميعاً في مكان آخر.

وأما عدد المسلمين فكان لا يتجاوز ثلاثة آلاف، وقد نزلوا في سفح جبل سلع وهو موضع مرتفع، مشرف على الخندق وخارجه، إشرافاً كاملاً بحيث يمكن معه مراقبة جميع تحركات العدو ونشاطاته منه.

وقد وكل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جماعة من أصحابه بحفظ الممرات ونقاط العبور على الخندق ومراقبة تحركات العدو، ورصد عناصره. وبذلك كان المسلمون يملكون متراساً قوياً طبيعياً، وغير طبيعي، إذ أن سائر المدينة كان مشبكا بالبنيان، والنخيل كما أسلفنا.

لقد حاصر الكفار «المدينة» ما يقرب من شهر واحد، ومكثوا خلف الخندق متحيرين، ولم يستطع أن يعبر منهم الخندق إلا أفراد معدودون، فمن كان يفكر في العبور رماه المسلمون بالحجارة، فولى هارباً!!

وللمسلمين في هذه الفترة قصص جميلة ومواقف رائعة مع عناصر الجيش العربي المعتدي ذكرتها صحائف التاريخ الاسلامي في مواضعها. (1)

خطر البرد، وتناقص الغذاء والعلف:

صادفت غزوة الخندق فصل الشتاء وكانت المدينة قد أصيبت في تلك السنة بقلّة الغيث، ولذلك كانت تعاني من نقص في الطعام.

كما أن طعام المشركين لم يكن هو الآخر يكفي لمدة طويلة، ولم يكن أحد منهم يتصور أن عليه أن يمكث خلف الخندق مدة شهر واحد، بل كان المشركون - جميعاً - يرون - بادئ الأمر - أنهم سيقضون بهجوم واحد واسع، على جنود الإسلام ويجتاحون المدينة، ويستأصلون المسلمين!!

ولقد أدرك مثيرو هذه الحرب العدوانية (اليهود) هذه المشكلة بعد أيام،

[السيرة النبوية: ٢ / ٢٢٥ - ٢٢٨ .

(256)

فقد عرفوا بأن مضيّ الزمان سيقلّل من مقدرة سادة الجيش العربي وقادته على مقاومة القر، وقلة العلف وتناقص الطعام، ومن هنا فكروا في الاستعانة بيهود بني قريظة داخل المدينة، ليشعروا فتيلاً الحرب من داخل المدينة، وبذلك يمهدوا السبيل لجيش العرب لغزو المدينة، واجتياحها من الخارج!!

حيي بن أخطب يدخل حصن بني قريظة:

كان بنو قريظة الطائفة اليهودية الوحيدة التي بقيت في المدينة تعايش المسلمين في سلام وأمن، وكانوا يحترمون الميثاق الذي عقده مع النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، احتراماً كاملاً.

فرأى «حيي بن أخطب» أن طريق الانتصار يتوقف على الاستعانة بمن في داخل المدينة لصالح المعتدين العرب وذلك بأن يدعو يهود بني قريظة إلى نقض العهد الذي عاهدوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - به. ليشعل بذلك حرباً بين المسلمين ويهود بني قريظة ويشغل المسلمين بفتنة داخلية، وبذلك يمهد لانتصار المشركين الذين يحاصرون المسلمين خلف الخندق.

وانطلاقاً من هذه الفكرة أتى «حيي» إلى حصن بني قريظة ودق عليهم الباب وعزّف نفسه، فأمر رئيس بني قريظة «كعب بن الاسد» بأن لا يفتحوا له الباب ولكنه أصر، وقال: ما يمنعك من فتح الباب إلا جشيتك (أي خبزك) الذي في التنور تخاف أن أشاركك فيها فافتح فأنتك آمنٌ من ذلك. فأثارت تلك الكلمات الجارحة حمية كعب فأمر بأن يفتحوا له باب الحصن، ففتحوا له، فدخل مشير الحرب المشؤوم «حيي» وقال لكعب: يا كعب لقد جنتك بعزّ الدهر، هذه قريش في قادتها وسادتها مع حلفائهم من كنانة، وهذه فزارة مع قادتها وسادتها، وهذه سليم وغيرهم، ولا يفلت محمّد وأصحابه من هذا الجمع أبداً وقد تعاهدوا وتعاهدوا الآ يرجعوا حتّى يستأصلوا محمّداً ومن معه، فانقض العهد بينك وبين محمّد، ولا تردّ رأيي.

(257)

فأجابه كعب قائلاً: لقد جنتني - والله - بذلّ الدهر، وبسحاب يبرق ويرعد وليس فيه شيء، وأنا في بحر لحي لا أقدر على أن أرىم داري ومالي معي، والصبيان والنساء، اني لم أزم محمّداً إلا صدقاً ووفاء فارجع عني، فانه لا حاجة لي فيما جنتني به.

ولكن حيي بن أخطب لم يزل يراوض كعباً ويخاتله ويلح عليه كما يفعل صاحب الجمل الجامح الذي يستصعب عليه، حتى اقتعه بنقض عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهياته لذلك، فقال: أنا أخشى أن لا يقتل محمّد وتتصرف قريش إلى بلادها، فماذا فعل حينذاك؟ فوعده حيي أن يدخل معه حصنه ليصيبه ما أصابه ان لم يُقتل محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - .

فقال كعب: دعني أشاور رؤساء اليهود فدعا رؤساء اليهود وشيوخهم، وخبرهم الخبر، وحيي حاضر، وقال لهم كعب: ما ترون؟ فقالوا: أنت سيدنا، والمطاع فينا، وصاحب عهدنا وعقدنا فان نقضت نقضنا معك وإن أقمنا أقمنا معك، وإن خرجت خرجنا معك.

فقال «الزبير بن باطا» وكان شيخاً كبيراً مجرباً قد ذهب بصره: قد قرأت في التوراة التي أنزلها الله في سفرنا يبعث نبياً في آخر الزمان، يكون مخرجه بمكة، ومهاجره في هذه البحيرة... يبلغ سلطانه منقطع الخف والحافر فان كان هذا (أي محمّد) هو فلا يهولته هؤلاء ولا جمعهم، ولوناوى على هذه الجبال الرواسي لغلبيها.

فقال أخطب من فوره: ليس هذا ذاك، ذلك النبي من بني إسرائيل، وهذا من العرب من ولد اسماعيل، ولا يكونوا بنو اسرائيل أتباعاً لولد اسماعيل أبداً، لأن الله فضّلهم على الناس جميعاً وجعل فيهم النبوة والملك، وليس مع محمّد آية، وإنما جمعهم جمعاً وسحراً!! ولم يزل يتّبع بهم، ويقبّلهم عن رأيهم، ويلحّ عليهم حتى أجابوه، ورضوا بأن ينقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

فقال: أخرجوا الكتاب الذي بينكم وبين محمّد، فأخرجوه، فأخذه و مزقه،

(258)

وقال: قد وقع الأمر، فتجهّزوا وتهيّأوا للقتال، وبذلك جعلهم أمام الامر الواقع الذي ظنوا أنه لا مفرّ منه!!⁽¹⁾

النبي يعرف بنقض بني قريظة للعهد:

بلغ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن طريق جواسيسه الانكباء نقض بني قريظة للعهد، في مثل ذلك الطرف الحساس، فغمه غماً شديداً. فأمر من فوره «سعد بن معاذ» و «سعد بن عباد» - وكانا من خيرة رجاله الشجعان ومن قادة جيشه الممتازين، كما أنهما كانا رئيسي الأوس والخزرج - بأن يحصلوا له على معلومات دقيقة عن هذا الحادث، وأسبابه وملابساته، وأنه إذا كان هناك خيانة ونقض للعهد فعلا أن يخبراه وحده فقط ولا يخبرا أحداً به ويقولوا: عضل والقارة لكيلا لا يفتن ذلك أعضاد المسلمين ولا يضعف من معنوياتهم، وأما إذا لم تكن هناك خيانة، فيكذب الأمر بصراحة.

فذهب الرجلان، واقتربا إلى حصن بني قريظة، فأشرف عليهما كعبٌ من داخل الحصن، فشتم سعداً وشم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وبذلك أظهر نقضه للعهد والميثاق فأجابه سعد - بالهام غيبي -: إنا أنت ثعلب في جحر، لتولَّين قريشاً، وليحاصرَنَّك رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولئبئز لنك على الصغار والذلل وليضربنَّ عنقك.

ثم رجعا إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقالا له: عضل والقارة. فكبر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قائلاً برفيع صوته: «الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين بالفتح.»⁽²⁾

وهذه العبارات تكشف عن مبلغ شجاعة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

1-المغازي: ٢ / ٤٥٦، بحار الأنوار: ٢٠ / ٢٢٢ و ٢٢٣.
2-المغازي: ٢ / ٤٥٩.

(259)

وعمق سياسته، فقد قالها لكي لا تضعف معنوية المسلمين، ولا يملكهم الخوف إذا سمعوا بنقض بني قريظة للعهد، وهم في تلك الظروف الحرجة الشديدة أحوج ما يكونون إلى المعنويات العالية، والاحساس بروح النصر.

تجاوزات بني قريظة الاولية:

كانت الخطة المبدئية لبني قريظة تقضي بأن يبدأوا عملهم الخياني بالاغارة على المدينة، وإرعاب النساء و الاطفال الموجودين في البيوت و المنازل، وقد نفذت مراحل من هذه الخطة تدريجاً!!

فقد أخذ بعض صناديد بني قريظة يحومون حول بيوت المسلمين التي فيها اطفالهم ونساؤهم بصورة مشبوهة!!

تقول «صفية بنت عبدالمطلب» عمه النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :كنت في فارح، حصن حسان بن ثابت وكان حسان بن ثابت معنا فيه، مع النساء والصبيان، فمر بنا رجل من يهود. فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة، وقطعت ما بينها وبين رسول - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وليس بيننا وبينهم أحدٌ يدفع عنا، ورسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمون في نحور عدوهم، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا أت، فقلت لحسان: إن هذا اليهودي كمتري يطيف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدل علينا من وراءه من يهود، وقد شغل عنا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وأصحابه، فانزل إليه فاقته، قال: يغفر الله لك يا أئمة عبدالمطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، فلما قال لي ذلك احتجرت⁽¹⁾ (أي شددت وسطي) ثم أخذت عموداً، ثم نزلت من الحصن إليه فضربتة بالعمود حتى قتلتها، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت: يا حسان انزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه، إلا أنه رجلٌ فقال حسان: مالي بسلبه

حاجة يا ابنة عبدالمطلب. (1)!!

ولما بلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن طريق عيونهم على اليهود أنهم نقضوا ما بينه وبينهم من العهد وانهم طلبوا من قريش ألف رجل ومن غطفان ألف رجل ليغيروا على المدينة عبر حصن اليهود، وكان ذلك في ما كان المسلمون منشغلين بحراسة الخندق، فعظم بهذا الخبر البلاء وصار الخوف على الذراري أشد من الخوف على أهل الخندق، بعث النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مسلمة بن أسلم وزيد بن حارثة في خمسمائة رجل يحرسون المدينة ويظهرون التكبير تحفظاً على الجواري من بني

قريظة. (2)

الإيمان في مواجهة الكفر:

لقد خاض المشركون حروباً عديدة ضد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قبل معركة الأحزاب، ولكن العدو في جميع تلك المعارك والحروب كان من طائفة أو قبيلة واحدة، ولم يكن من عموم الجزيرة العربية، ومن عموم القبائل، أي الإسلام لم يواجه في تلك الحروب والوقائع عدواناً شاملاً من سكان الجزيرة.

وحيث أن أعداء الإسلام رغم الجهود الكبيرة لم ينجحوا في القضاء على الحكومة الإسلامية الفتية، قرروا هذه المرة أن يستأصلوا الإسلام عن طريق إتحاد عسكري عريض، يضم كل قبائل الجزيرة العربية المشتركة، ويرموا المسلمين بأخر سهم في جعبتهم، من هنا عمدوا إلى تعبئة أكبر قدر من المقاتلين، واستصرخوا أكبر قدر من القبائل وتحركوا في جمع لم يعرف له تاريخ العرب والجزيرة من نظير نحو المدينة لتحقيق ذلك الهدف المشؤوم. ولولا تدبير المسلمين للدفاع عن المدينة لحقق العدو الحاقق أهدافه.

ولهذا جلب أعداء الإسلام معهم أكبر صناديد من صناديد العرب، وأشهر

1- السيرة النبوية: ٢ / ٢٢٨.

2- السيرة الحلبية: ١ / ٣١٥.

بطل من أبطالهم ورأسوه عليهم، وهو عمرو بن عبدود العامري ليشدوا به أزرهم، ويحققوا بسببه ما كانوا يأملونه من الظفر.

وعلى هذا الأساس كانت معركة الأحزاب مواجهة كاملة بين كل الكفر وكلّ الايمان، وخاصة عندما تبارز بطل الإسلام وبطل الكفر وتواجهها في ساحة القتال.

ولقد كان الخندق الذي احتفروه المسلمون سلفاً من عوامل إخفاق المشركين، وكان العدو يحاول أن يعبر هذا الخندق فتطيف فرسانهم به ليل نهار ولكن دون جدوى، لانهم كانوا يواجهون في كل مرة سهام الحرس الذي وكلهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بحراسة الخندق، ورصد محاولات العدو لاجتيازه وافشالها فوراً، وأيضاً بفضل تدابير النبي القائد نفسه.

كان الشتاء وبرده القارص في تلك السنة وتناقص الطعام، والعلف يهدد جيش المشركين، وأنعامهم، وخيولهم فاستقرض حبي بن أخطب من بني قريظة عشرين بعبيراً محملة شعيراً وتمراً وتبناً تقوية لقريش، ولكن دورية من المسلمين صادفتها في أثناء الطريق فصادرتها وأتوا بها إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فتوسع بها أهل الخندق. (1)

وذاث يوم من أيام الانتظار وراء الخندق كتب أبو سفيان إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كتاباً يقول فيه: إني احلف باللات والعزى لقد سرت اليك في جمعنا وإنا نريد ألا نعود إليك أبداً حتى نستأصلكم فرأيتك قد كرهت لقاءنا، وجعلت مضايق وخنادق، فليت شعري من علمك هذا؟ فان نرجع عنكم فلكم ممّا يومٌ كيوم أحد تُبْقَر فيه النساء. (2)

فكتب إليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: مَنْ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى أَبِي سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ... أَمَا بَعْدَ فَقْدِيماً غَرَكَ بِاللَّهِ الْغُرُورُ، أَمَا مَا ذَكَرْتَ أَنْكَ سَرْتِ

1- السيرة الحلبية: ٢ / ٣٢٣.
2- المغازي: ٢ / ٤٩٢.

إلينا في جمعكم، وانك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا فذلك أمرُ الله يحولُ بينك وبينه، ويجعل لنا العاقبة وليأتين عليك يومٌ نُدافعني بالراح، وليأتين عليك يومٌ أُكسرُ فيه اللات والعزى واساف، ونائلة، وهبل حتى أذكرك ذلك. (1)»

ولقد وقعت إجابة الرسول الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - التي كانت تنبئ عن قوة إرادته وشدة عزمته، وتصميمه القاطع موقع السهم في قلب زعيم المشركين، وحيث أن قريش كانت تعقد بصدق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأنها أصيبت بهذا الرد الحاسم في عزمته ونفسيتها، ولكنها مع ذلك لم تكف عن مواصلة عدوانها.

وذاذ ليلة عزم «خالد بن الوليد» على أن يعبر بجماعته الخندق ولكنه اضطرَّ إلى التراجع عندما واجه مقاومة شجاعة من مائتين من المسلمين بامرة «اسيد بن حضير» وقد كلّفهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالقيام على شفير الخندق، ودفع المشركين ومنعهم من العبور!!

ثم ان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يكن ليغفل عن تقوية عزائم المقاتلين المسلمين ورفع معنوياتهم، ولهذا كان يهَيئهم بخطبه الحماسية، وكلماته المشجعة، الحاتة على الجهاد والاستقامة والدفاع عن حياض العقيدة والايمان، والذود عن صرح الحرية، والعدل.

فقد وقف ذات يوم خطيباً في اجتماع كبير من المسلمين وقال - بعد أن حَمِدَ الله وأثنى عليه -.

«أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا لَقَيْتُمُ الْعَدُوَّ فَأَصْبِرُوا وَأَعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ.»⁽²⁾

أبطالٌ من العرب يعبرون الخندق:

لبس خمسةً من شجعان المشركين هم: «عمرو بن عبدود العامري»، «عكرمة

[1] امتاع الاسماع: ٢٣٩ / ١ و ٢٤٠.
[2] السيرة الحلبية: ٣٢٣ / ٢.

(263)

ابن أبي جهل»، «هبيرة بن وهب»، «نوفل بن عبدالله»، و «ضرار بن الخطاب» لامة الحرب، ووقفوا أمام بني كنانة في غرور عجيب، وقالوا: تهَيَّأُوا يا بني كنانة للحرب، فستعلمون من الفرسان اليوم؟

ثم ضربوا خيولهم فعبرت بهم الخندق من مكان ضيق قد أغفله المسلمون، ولكنهم بادروا إلى محاصرة تلك الثغرة ومنع غيرهم من العبور.

وكان الموضع الذي وقف فيه أولئك الشجعان الخمسة الذي عبروا الخندق للمبارزة يقع بين الخندق وجبل سلع حيث تمرکز جنود الاسلام.⁽¹⁾

ثم أخذوا يدعون المسلمين إلى البراز، في كبرياء وغرور كبيرين، وهم يقطعون ذلك الموضع جيئةً وذهاباً بخيولهم!!

بيد أن أشجع أولئك الخمسة وأجرأهم وأعرفهم بفنون القتال هو: «عمرو بن عبدود العامري» تقدم، وأخذ يرتجز داعياً المسلمين إلى النزال والبراز قائلاً:

وَلَقَدْ بُجِحْتُ مِنَ النَّدَاءِ * بِجَمْعِكُمْ هَلْ مِنْ مُبَارَزُ

وَوَقَفْتُ إِذْ جَبِنَ الْمُشَجَّعُ * مَوْقِفَ الْبَطْلِ الْمُنَاجِزُ

إِنِّي كَذَلِكَ لَمْ أَزَلْ * مَتَسَرِّعاً نَحْوَ الْهَزَاهِرِ

إِن السَّامِحَةَ وَالشَّجَا * عَةَ فِي الْفَتَى خَيْرُ الْغَرَائِزِ

فأحدثت نداءات عمرو الرهيبية حالة من الرعب، والوجل الشديدين في معسكر المسلمين، وسكت الجميع، ولم ينبسوا ببنت شفة رهبة وخوفاً منه.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«أَيْكُمْ يَبْرُزُ إِلَى عَمْرٍو أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ؟»

وقد قالها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثلاث مرات، وفي كلِّ مرة يقوم عليّ - عليه السَّلام - ويقول: انا له يا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، والقوم ناكسوا رؤوسهم (2) أو كأنَّ المسلمين يومئذ على رؤوسهم الطير لمكان عمرو و شجاعته، كما يقول الواقدي. (3)

1- تاريخ الطبري: ٢ / ٢٣٩، الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٨.

2- تاريخ الخميس: ١ / ٤٨٦.

3- المغازي: ٢ / ٤٧٠.

ولابدَّ أن تحلَّ هذه المشكلة بيد علي - عليه السَّلام - فارس ميادين الحرب المقدام، وكان كذلك، فلما أبدى عليّ - عليه السَّلام - استعدادة الكامل لمقاتلة عمرو أعطاه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سيفه وعممه بيده، ووجَّهه صوب عمرو وقد دعا له قائلاً: اللَّهُمَّ أَعِنِّهِ عَلَيْهِ. وقال أيضاً:

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَخَذْتَ مِنِّي عُيْبَةَ بَنِّ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَ حَمَزَةَ بَنِّ عَبْدِ الْمَطْلَبِ يَوْمَ أُحُدٍ، وَهَذَا أَخِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَبِّ لَا تَدْرِنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ. (1)»

فبرز عليّ - عليه السَّلام - إلى عمرو يهروا في مشيته، مبادراً إليه دون ابطاء وهنا قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كلمته الخالدة في تلك المواجهة:

«بَرَزَ الْإِيمَانَ كُلَّهُ إِلَى الشَّرِكِ كَيْهَ (2)» وارتجز - عليه السَّلَام - قائلاً:

لا تُعْجَلَنَّ فَقْدَ أَتَاكَ * مَجِيبُ صَوْتِكَ غَيْرَ عَاجِزُ

دُونِيَّةٍ وَبَصِيرَةٍ * وَالصَّدْقُ مُنْجِي كُلِّ فَائِزِ

إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ أُقِيمَ * عَلَيْكَ نَائِحَةَ الْجَنَائِزِ

مَنْ ضَرْبَةَ نَجْلَاءِ يَبْقَى * ذَكَرُهَا عِنْدَ الْهَزَاهِرِ

وقد كان عليٌّ - عليه السَّلَام - مسربلاً بالحديد لا يرى منه إلا عيناه من تحت المغفر، فأراد عمرو أن يعرف من برز إليه فقال: من

انت؟

قال: أنا عليٌّ بن أبي طالب.

فقال عمرو: إني أكره أن أريق دمك، واللّه إن أباك كان لي صديقاً ونديماً، ما أمن ابن عمك حين بعثك إليّ أن اختطفك برمحي هذا فأتراك شاملاً بين السماء والأرض لحيّ ولا ميت.

فقال عليٌّ - عليه السَّلَام - : لكنني ما أكره واللّه أن أهريق دمك، وقد علم ابنُ

- [كنز الفوائد: ص ١٣٧.
- 2 تاريخ الخميس: ١ / ٤٨٦ و ٤٧٨، بحار الأنوار: ٢٠ / ٢١٥.

عمي أنك إن قتلنتي دخلت الجنة، وأنت في النار، وإن قتلتك فانت في النار وأنا في الجنة.

فضحك عمرو وقال مستهزئاً: كلتاها لك يا عليّ، تلك إذا قسمة ضبزي. (أي ناقصة جائزة).

يقول ابن أبي الحديد: كان شيخنا أبو الخير يقول إذا مررنا في القراءة عليه بهذا الموضع: واللّه ما أمر عمرو بن عبدودَ علياً) -

عليه السَّلَام - (بالرجوع إبقاءً عليه، بل خوفاً منه، فقد عرف قتلاه ببدر وأُخذ، وعلم أنه إن ناهضة قتله، فاستحيا أن يُظهر الفشل

فأظهر الإبقاء، وإنه لكاذب فيه. (1)

ثم إن علياً - عليه السَّلَام - ذكّر عمرًا بعهد قطعه على نفسه فقال له:

يا عمرو إنك كنت تقول في الجاهلية: لا يدعوني أحدٌ إلى واحدة من ثلاث خصال إلا أجبته إلى واحدة منها وأنا أعرض عليك ثلاث خصال فأجبنى إلى واحدة.

قال عمرو: أجل، فهاتها يا عليّ.

قال: تشهد أن لا اله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، وتسلم لرب العالمين.

فقال عمرو: نخّ عني هذا.

قال عليّ - عليه السّلام - :فالثانية أن ترجع إلى بلادك، فإن يك محمداً صادقاً فأنتم أعلى به عيناً وإن يك غير ذلك كفتكم ذوبان العرب أمره.

فقال عمرو في غرور عجيب: اذاً تتحدّث نساء قريش بذلك، وينشد الشعراء فيّ أشعارها اني جينت، ورجعت على عقبي في الحرب، وخذلتُ قوماً رأسوني عليهم.

فقال له عليّ - عليه السّلام - :فالثالثة أن تنزل الی فانك راكبٌ وأنا راجلٌ، حتّى أنابذك.

-[شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٠ / ١٩.

(266)

فقال عمرو: هذه خصلة ما ظننت أن أحداً من العرب يسومني عليها، ثم وثب عن فرسه، ولكي يربع علياً - عليه السّلام - عرقب قوائم فرسه على عادة العرب في الجاهلية. (1)

تساؤل البطلين:

وهنا بدأ تصاولٌ شديدٌ بين البطلين، وارتفعت بينهما عجاجة حجبت الرؤية، وانما كان الناس يسمعون فقط صوت إصطكاك السيوف والدرع الحديدية وغيرها، وبعد فترة من التصاول بين ذينك البطلين العملاقين ضرب «عمرو» «أمير المؤمنين علياً» - عليه السّلام - بالسيف على رأسه، فاتقاه عليّ - عليه السّلام - بالدرقة فقطعها، وشجّت الضربة رأسه ففاجأه عليّ - عليه السّلام - بضربة قوية على ساقيه فقطعهما، جميعاً، ثم انكشفت العجاجة فنظر المسلمون فإذا عليّ - عليه السّلام - على صدر عدوّ الله يريد أن يذبحه. وارتفع صوت عليّ بالتكبير من بين العجاجة يعلن عن انتصاره، ومقتل عمرو.

فألقي هلاك فارس العرب الاكبر «عمرو بن عبدود» رعباً عجيباً في نفوس بقية الابطال والشجعان الذين عبروا معه الخندق، فهربوا راجعين إلى معسكرهم، إلا «نوفل» الذي سقط فرسه في الخندق، وهوى هو إلى الارض بشدة، فرماه حرس الخندق بالحجارة فقال: قتلته أجمل من هذا، ينزل الی بعضكم فأقاتله، فنزل إليه عليٌّ - عليه السّلام - فضربه حتّى قتله في الخندق.(2)

فهيمن الخوف والرعب على كل أرجاء المعسكر العربي المشرك، وبهت أبوسفيان أكثر من غيره.

ثم إنه كان يتصور أن المسلمين سيمثلون بجسد «نوفل» انتقاماً لحمزة الذي

-1[المغازي: ٢ / ٤٧٠ و ٤٧١.
-2بحار الأنوار: ٢٠ / ٢٥٦، تاريخ الطبري: ٢ / ٢٤٠.

(267)

مُثل به في أحد، فبعث إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من يشتري جثته بعشرة آلاف فقال النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«هو لكم، لا ناكلُ ثمن الموتى.»(1)

قيمة هذه الضربة:

لقد قتل عليٌّ - عليه السّلام - - حسب الظاهر - رجلاً شجاعاً لا أكثر، بيد أنه بضربته لعمرو وبقنله آياه أحيا - في الحقيقة - كل من أربته نداءات عمرو المهتدة، من المسلمين، والقي رعباً كبيراً في نفوس جيش قوامه (١٠/٠٠٠) رجل تعاهدوا وتعاهدوا على محو الإسلام واستنصال الحكومة الإسلامية الفتية. ولو أن الانتصار كان يحالف عمراً لعرفنا حينئذ قيمة هذه التضحية الكبرى التي قام بها عليٌّ - عليه السّلام - .

وعندما عاد عليٌّ - عليه السّلام - ظافراً منتصراً قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين.»

وقيل أنه قال:

«لو وُزِنَ اليومَ عملك بعمل جميع أمة محمد لرجح عملك على عملهم وذلك أنه لم يبق بيت من المشركين إلا وقد دخله ذلٌ بقتل عمرو، ولم يبق بيتٌ من المسلمين إلا وقد دخله عزٌ بقتل عمرو.»(2)

وبذلك كشف عن أهمية الضربة التي أوقعها علي - عليه السّلام - بعمرو في تلك الواقعة.

لماذا التنكر لهذا الموقف؟

ويحق لنا هنا أن نستغرب تنكر بعض المؤرخين أو تجاهلهم لهذا الموقف

- 1- بحار الأنوار: ٢٠ / ٢٠٥ .
2- بحار الأنوار: ٢٠ / ٢١٦، مستدرک الحاكم: ٣ / ٣٢ .

(268)

العظيم الذي أدى إلى هزيمة المشركين، والاحزاب في معركة الخندق هزيمة نكراء، كل واحد بشكل من الاشكال وصورة من الصور:

فهذا ابن هشام رغم اسبابه في بعض الامور التاريخية مما لا قيمة له بعد أن يذكر مقتل «عمرو» على يد بطل الإسلام الخالد عليّ - عليه السّلام - من دون أن يذكر ما قاله النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عند مطالبة عمرو بالمنازل والمبارز، ذكر أبياتاً قالها عليّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عليه في المقام ثم يشكك في نسبتها إليه - عليه السّلام - . (1)

وهكذا ابن الاثير رغم اهتمامه بالدقائق التاريخية ووصفه لكتابه بالكامل نجده يحاول التقليل من أهمية هذا الموقف بصورة أخرى وهو أن عليّاً خرج ضمن مجموعة لمقاتلة عمرو وليس وحده.

ولكن المعقّبين على الطبعة المنيرية للكامل والتي أشرف عليها فضيلة الاستاذ عبدالوهاب النجار لم يرق لهم هذا الصنيع، وأبت عليهم ضمائرهم الحرّة أن يتركوا الرواية على حالها فقالوا في الهامش: وروى السهيلي عن ابن اسحاق أن عمراً دعا المسلمين للمبارزة وعرض رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الأمر ثلاث مرات ولا يقوم إلاّ عليّ كرم الله وجهه، وفي الثالثة قال له: انه عمرو قال: وان كان عمراً، فنزل إليه وقتله وكبّر فكبّر المسلمون فرحاً بقتله. (2)

وهذا ابن تيمية يحاول التتقيص من هذه الفضيلة ولكن بالضرب على وتر آخر حيث قال ان قول النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في شأن عليّ - عليه السّلام - لما قتل عمراً: «قتل علي لعمر بن عبد ود أفضل من عبادة الثقلين» من الاحاديث الموضوعية التي لم ترد في شيء من الكتب التي يعتمد عليها بسند ضعيف، وكيف يكون قتل كافر أفضل من عبادة الثقلين... ثم قال: بل ان عمرو بن عبد ود لم يعرف له ذكرٌ إلاّ في هذه الغزوة.

فهو يحاول التقليل من شأن عمرو، والايحاء بأنه لم يكن شيئاً، فلا يكون

- 1- السيرة النبوية: ٢ / ٢٢٥ .
2- الكامل في التاريخ: ٢ / ١٢٤ .

لقتله أهمية.

ولكن صاحب السيرة الحلبية الذي ينقل كل هذه العبارات عن ابن تيمية يرد عليه قائلاً: ويرد قوله: «ان عمرو بن عبد ود هذا لم يعرف له ذكرٌ إلا في هذه الغزوة» قول الأصل: وكان عمرو بن عبيدود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أُحد فلما كان يوم الخندق خرج مُعلماً (أي جعل له علامة) ليعرف مكانه ويُرى.

ويرده أيضاً ما تقدم من أنه نذر أن لا يُمسَّ رأسه دهنًا حتى يقتل محمداً - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

واستدلّاه: وكيف يكون إلى آخره، فيه نظر لان قتل هذا كان فيه نصرة للدين وخذلان للكافرين. (1)

وما قاله صاحب السيرة الحلبية عن مشاركة عمرو في معركة بدر يوافق ما جاء في الكامل لابن الاثير الجزء ٢ الصفحة ١٢٤ ويوافق أيضاً ما جاء في السيرة النبوية الجزء ٢ الصفحة ٢٢٥.

مروءة عليّ - عليه السّلام - وشهامته:

ولقد أحجم عليّ - عليه السّلام - عن سلب «عمرو بن عبيدود» درعه، وكان درعاً غالية الثمن ليس للعرب، درعٌ خيرٌ منها، وقد فعل ذلك مروءة، وترفعاً، فاعترض عليه بعضٌ، حتى أن عمر بن الخطاب قال له: هلا استلبته درعه فانه ليس في العرب درع مثلها؟ (2) ولما عرفت أخذ عمرو بمقتله سألت عمن قتله، فاخبروها بأن علياً - عليه السّلام - هو الذي قتله فقالت لم يَعدُ موته إلا علي يد كفؤ كريم، لارقات دمعتي إن هرقتها عليه، قتلَ الابطال، وبارز الاقران، وكانت منيئة علي يد كفؤ

1- السيرة الحلبية: ٢ / ٣٢٠.

2- السيرة الحلبية: ٢ / ٣٢٠.

كريم من قومه ما سمعت بأفخر من هذا يا بني عامر.

ثم انشأت تقول:

لو كان قاتلُ عمرو غير قاتلِهِ * لكننتُ أبكي عليه آخرَ الأبدِ

لكنَّ قاتلَ عمرو لا يُعابُ به * من كان يُدعى قديماً بيضة البلاد (1)

وقد ذكر علي - عليه السّلام - صنيعه هذا في أبيات أنشأها يوم الخندق إذ قال:

أعلىّ تقتحمّ الفوارسُ هكذا؟ * عنيّ و عنها خبروا أصحابي

أرديتُ عمراً إذ طغى بمهتد * صافي الحديد مجرب قصاب

فصدتُ حين تركته متجدلاً * كالجدع بين دكادك وروابي

وعفتُ عن أثوابه و لوائني * كنتُ المقطر بزني أثوابي⁽²⁾

والآن حان أن نرى إلى أيّ مصير آل أمر معسكر المشركين بعد مقتل فارس العرب وشجاعها البارز.

جيش العرب يتفرق في موقفه:

لم يكن دافع جيش العرب ومن عاونهم ومالاهم من اليهود إلى محاربة الإسلام واحداً، فاليهود كانوا يخشون من اتساع رقعة الحكومة الإسلامية الفتية، المتزايد، واما دافع قريش فكان هو العداة القديم للإسلام والمسلمين. وأما قبائل «غطفان» و «فزارة» وغيرها من القبائل فلم يحرّكها إلا الطمع في محاصيل «خبيبر» التي وعدهم بها اليهود.

فعلى هذا الاساس لم يكن محرّك «الأحزاب» المشاركة في جيش الشرك أمراً واحداً، فقد كان محرّك الطوائف الأخيرة أمراً مادياً، ولو أنّ هذا الهدف تحقّق عن طريق المسلمين لعادت هذه القبائل إلى أوطانها مسرورة راضية، وخاصة أن البرد، وقلة الطعام، والعلف، طوال مدة المحاصرة قد أوجدت في

1- مستدرک الحاكم: ۳ / ۳۳.

2- المستدرک علی الصحیحین: ۳ / ۳۲.

نفوسهم كلالاً ومللاً، من جهة، وعرضت أنعامهم لخطر الهلاك والفناء من ناحية أخرى.

من هنا كلّف رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - جماعة بأن يتصلوا بهذه القبائل (الأخيرة) ويذكروا لهم بأن المسلمين مستعدون لإعطائهم ثلث تمر المدينة إن هم تركوا قريشاً وعادوا إلى ديارهم، فأعدوا عهداً وجاؤوا به إلى رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - ليمنضيه، ولكنه شاور فيه سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة قبل أن يمنضيه، فقالا: يا رسول الله إن كان أمراً من السماء فامض له، وإن كان أمراً لم تؤمر فيه فإن الرأي عندنا هو السيف، فإنهم ما طمعوا بهذا منّا قطّ في الجاهلية أن يأخذوا تمرة، إلا بشرى أو قرى، فحين أتانا الله تعالى بك، وأكرمنا بك، وهدانا بك نعطي الدنيا؟ لا نعطيهم أبداً إلا السيف؟

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مبيّناً علة إقدامه على مثل هذا الصلح: «اني رأيت العربَ رمتكم عن قوس واحدة، فقلت أَرْضِيهِمْ وَلَا أَقَاتِلْهُمْ، الآنَ قد عرفت ما عندكم فكونوا على ما أنتم عليه، فان الله تعالى لن يخذل نبيّه، ولن يسلمه حتّى ينجز له ما وعده»⁽¹⁾»

فمضى سعد بن معاذ ما في الصحيفة باذن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال: ليجهدوا علينا. ⁽²⁾

وبهذا كشف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن صفحة أخرى من سياسته الحكيمة، فقد كان إقدامه على ثني القبائل المتحالفة مع قريش في جيش الاحزاب باعطاء بعض التنازلات المادية (لا المعنوية) وتحبيدها خطوة سياسية وعسكرية صحيحة، ورائعة، وكانت مشورته مع أصحابه من الانصار (خاصة) عملاً حكيماً أيضاً لأنه استنار بذلك همهم، وشدّ على عزائمهم، فوعدوا

1- السيرة النبوية: ٢ / ٢٢٣، بحار الأنوار: ٢٠ / ٢٥٢.
2- متاع الاسماع: ١ / ٢٣٦ وجاء فيه انه (ص) استشار سعد بن معاذ و سعد بن عبادة خفية.

(272)

بالصمود والمقاومة في ذلك الظرف العصيب وعدم تقديم اية تنازلات ولهذا انصرف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن ما اراد أولاً، فكان مجموع هذه الخطوات عملاً حكيماً جداً، يكشف عن حنكة سياسية عظيمة، ودراية عسكرية عميقة.

العوامل التي فرقت كلمة «الاحزاب»:»

هناك عوامل عديدة تسببت في تفرق الجيش العربي الذي زحف إلى المدينة لاجتياحها، وانقسام الاحزاب على أنفسهم، واليك أبرزها:

1- إن أول عامل من تلك العوامل هو تكلم مبعوثي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مع سادة غطفان وفزارة، لأن هذه المعاهدة وإن لم توقع إلا أنها لم تُنقض، فتسبب ذلك في أن يختلفوا مع قريش في الرأي، أي اجتياح المدينة وبشكل من الاشكال وان لا يقدموا على أي إجراء عسكري مع غيرهم إنتظاراً للتوقيع على تلك المعاهدة، ولهذا كلما طلبت القيادة القرشية منهم الهجوم الشامل اعتذروا ببعض الاعذار تملصاً من ذلك الطلب.

2- مصرع «عمرو بن عبدود» فارس العرب الأكبر الذي كان الأغلبية في ذلك الجيش يعلقون عليه آمالهم في الانتصار على المسلمين. فلما قتل تملك الجميع رعبٌ غريبٌ وانهارت آمالهم، وبخاصة عندما هرب زملاؤه الشجعان من وجه على - عليه السلام - خوفاً، ورهبة.

3- مالعبه «نُعيم بن مسعود» الذي أسلم حديثاً، من دور في إلقاء روح الشك والفرقة بين يهود بين قريظة وجيش «الاحزاب»، فقد قام بهذا الدور بشكل رائع، تماماً كما يفعله الجواسيس المنظمون في عصرنا الحاضر، بل كان ما فعله أفضل وأكبر تأثيراً وعطاءً

فقد أتى «نُعيم» هذا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال يا رسول الله؛ قد أسلمتُ، وإن قومي لم يعلموا باسلامي، فمرني بما شئت.

(273)

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ، فخذل عَنَّا ما استطعت (أي أدخل بني القوم حتَّى يدخل بعضهم بعضاً). فان الحرب خدعة.»

فخرج نعيم حتَّى أتى بني قريظة، وكان لهم نديماً في الجاهليَّة، فقال: يا بني قريظة قد عرفتم وُدِّي، وخاصَّة ما بيني وبينكم.

قالوا: صدقتَ، لست عندنا بمثَّهم.

فقال: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البَلْدُ بلدُكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمَّد واصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدُهم وأموالهم ونساؤهم وبغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نُهْرَةَ أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلُّوا بينكم وبين محمَّد، ولا طاقة لكم به، إن خلابكم فلا تقاتلوا مع القوم حتَّى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم، على أن تقاتلوا معهم محمَّداً حتَّى تتاجزوه.

فقالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم خرج حتَّى أتى قريشاً، فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم وُدِّي لكم، وفراقي لمحمَّد، وانه قد بلغني أمرٌ قد رأيت على حقاً أن أبلغكموه، نصحاً لكم فاكنتموا عني. فقالوا: نفع.

قال: إعلموا أنَّ معشر اليهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمَّد، وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ من القبيلتين، من قريش وغطفان رجلاً من أشرافهم فنعطيك فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من يبقى منهم حتَّى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم، فإن بعثت إليكم يهودٌ يلتمسون منكم رهناً من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

ثم خرج حتَّى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان، إنكم أصلي وعشيرتي، وأحبُّ الناس إليّ، ولا أراكم تتهموني، قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم، قال

فاكتموا عني، قالوا: نفعل فما أمرك، ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحدثهم ما حدثهم.

وهكذا أدى «نعيم» وظيفته بأحسن صورة ثم دخل سراً في جيش المسلمين، واشاع بين المسلمين أن بني قريظة تنوي أخذ رجال من المشركين لتسليمهم إلى النبي والمسلمين.

وقد كان يقصد من اشاعة هذا النبأ أن يبلغ مسامح رؤساء العرب وقادتهم.

مبعوثو قريش يمشون إلى بني قريظة:

ولما كانت ليلة السبت قرّر أبو سفيان أن يحسم الموقف بشكل من الأشكال فأرسل إلى بني قريظة جماعة من سادة قريش وغطفان فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر، فاعدوا للقتال حتى نناجز محمداً، ونفرغ مما بيننا وبينه.

فأرسل بنو قريظة إليهم: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابه ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذي نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهنأ من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فاننا نخشى إن ضرستكم الحرب، واشتد عليكم القتال أن تسرعوا إلى بلادكم وتتركونا، والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه.

فلما رجعت الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق.

فارسلوا إلى بني قريظة من يقول لهم: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً، فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا.

فقالت بنو قريظة - حين انتهت الرسل إليهم بهذا - : إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فان رأوا فرصة انتهزوها، وان كان

غير ذلك أسرعوا إلى بلادهم وخلوا بيننا وبين محمداً. في بلدنا. (1)

وهكذا انسحبت بنو قريظة من الأحزاب وأوقع الله التخاضل بينهم وتفرقوا، وتمزق شملهم، وكان ذلك من عوامل فشل الأحزاب، وتقهقرهم ورجوعهم خائبين.

آخر العوامل لهزيمة الكفار:

لقد انضمت العوامل المذكورة إلى عامل آخر يمكن تسميته - في الحقيقة - بالامداد الغيبيّ ففرقت جماعة الاحزاب، وشنت جماعتهم وذلك العامل هو أن الله بعث عليهم فجأة الريح والعاصفة، واشتد البرد، وكان اشتداد الريح كبيراً بحيث أكفأ قدورهم، واقتلع خيامهم ومضاربهم، وأطفأ أضواءهم، وأوجد حريقاً في الصحراء.

وهنا أمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حذيفة أن يعبر الخندق، ويأتيه بخبر عن أحوال المشركين ومن مآلهم من الاحزاب.

يقول حذيفة: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل ما تفعل بهم لا تقر لهم قدراً، ولا ناراً ولا بناءً، فسمعت أبا سفيان يقول: وقد قام في جماعة من قريش: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبَحتم بدار مقام، لقد هلك الكُراع والخف، وأخلفتنا بنوقريظة ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تظمنن لنا قدر، ولا تقوم لنا ناز، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا إني مرتحل.

ثم قام إلى جملة - وهو معقول - فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فوالله ما أطلق مقاله إلا وهو قائم من شدة الدهش والخوف!!

ولم يسفر الصبح إلا وأسرت قريش وغطفان عاندين إلى بلادهم يجرون أنيال الخبية، ولم يبق منهم أحد هناك.

-[السيرة النبوية: ٢ / ٣٢٩ - ٢٣١، تاريخ الطبري: ٢ / ٢٤٢ و ٢٤٣.

(276)

وهكذا انتهت معركة الاحزاب في الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة. (1)

القرآن الكريم ومعركة الاحزاب

ولقد أشار القرآن الكريم إلى أبرز النقاط في معركة الاحزاب (الخندق) ضمن سبع عشرة آية وها نحن ندرجها برمتها ونشير باختصار إلى ما تضمنته من حقائق:

(يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً و جنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً * إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصر وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً * وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً * * وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستندون فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً * ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً * * ولقد كانوا عهدوا الله من قبل لا يؤلّون

الأدبِرَ وَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا * قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَنْ الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقَانِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَ لَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوا * بِالسِّنَةِ جِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَحْسِبُونَ)

-[تاريخ الطبري: ٢ / ٢٤٤. امتاع الاسماع: ١ / ٢٣٩.

(277)

الْأَحْزَابِ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَأْذِنُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا * وَ لَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ مَزَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَ تَسْلِيمًا * مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ مَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَ كَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا(١).

ويمكن تقسيم هذه الآيات إلى ثلاثة أقسام:

القسم الاول وهي الآيات التي ترسم الوضع العام للمسلمين عندما أنتهم عساكر الاحزاب.

القسم الثاني وهي الآيات التي تتعرض لذكر موقف المنافقين وضعاف الايمان.

القسم الثالث وهي الآيات التي تتعرض لذكر موقف المؤمنين الصادقين.

واليك بياناً لمفاد هذه الآيات على وجه الاختصار.

-[تبدأ هذه المجموعة من الآيات بتذكير المؤمنين - في الآية الاولى - بنعمة الله عليهم أن ردّ عنهم الجيش الذي قصد استئصالهم لولا عناية الله ومدده العظيم، وفي هذا إشعار قوي بأن الله هو الذي يحمي القائمين على دعوته ومنهجه من عدوان الكافرين والمتأمرين.

2- ثم تشرح الآية الثانية الحالة العسكرية الخطيرة التي كان يواجهها المسلمون، فهم محاصرون من قبل الاعداء والمتواطئين معهم من كل جهة محاصرة

1- الأحزاب: ٩ - ٢٥.

(278)

ألقت الرعب في قلوب الكثيرين من أهل المدينة فزاعت الابصار هولاً، وبلغ القلوب الحناجر خوفاً، وظنَّ البعض أن ما أعطاهم الله ورسوله من الوعد بالتأييد والنصرة لم يكن صحيحاً.

3- ثم تحدثت الآية الثالثة عن الابتلاء والاختبار الذي أفرزه هذا الوضع الخطير، فقد ابتلي المسلمون في هذه الواقعة، وتملكهم خوفٌ شديدٌ.

4- ولكن المنافقين، والذين في قلوبهم مرض كانوا أشد هولاً وخوفاً حتى أن ذلك الكرب والهول أخرج خبيئة نفوسهم، فشككوا في وعود الله الصادقة، وقالوا: ما وعدنا الله إلا غروراً، فهو خدعنا إذ وعدنا بالغبلة على أعدائنا.

5- ولم يكتف المنافقون بإشاعة هذه التشكيكات بين المسلمين بل دعوا أهل المدينة إلى الانسحاب من الميدان إلى داخل المدينة، وبالتالي حرّضوهم على ترك الصفوف. واحتجوا لذلك بالخوف على النساء والصبيان من كيد الاعداء قائلين: «بيوتنا عورة»، وهم لا يريدون إلا الفرار جبناً وخوفاً.

6- ثم تكشف الآية السادسة والسابعة عن حقيقة ما في نفوس أولئك المنافقين، فهم لا يريدون الانسحاب إلى داخل المدينة للمحافظة على الذراري والصبيان، انما هو نقض العهد، وخلف الوعد وفقدان الايمان القلبي فهم إذا دخل عليهم العدو المدينة وطلبوا منهم الرجوع عن الإسلام لرجعوا إلى الكفر دون تأخير. ولكن الله سيسألهم عن العهد الذي أعطوه من قبل بأن يثبتوا امام العدو، «كان عهد الله مسؤولاً. »

7- ثم إن الله تعالى يوبخهم - في الآيات اللاحقة - على موقفهم المتخاذل هذا، ويقول لهم: بأن الفرار والانسحاب لن ينجيهم من الموت ان كان مقدراً عليهم، وحتى لو عاشوا أياماً فلن يعيشوها في خير وأمان.

كما ويقول لهم: بأن الله لا يخفى عليه ما يقومون به من تخذيل وعرقلة لمسيرة الإسلام الصاعدة، ولا تخفى عليه سبحانه مواقفهم في أوقات المحنة، من كف الايدي عن مساعدة المؤمنين، أو سلقهم بالسنتهم وتحميلهم عوامل المحنة والشدة.

حتّى بعد الانتصار.

وهنا يبدو و يبرز دور المنافقين، وتظهر حالاتهم العجيبة في الحرب والسلام.

فهم يخافون خوفاً شديداً، وهم يظنون بالله ظنّ السوء وهم يشيعون الخوف وروح الهزيمة في الناس وهم ينسحبون ويدعون إلى الانسحاب من الصفوف وهم مستعدون في كل وقت للارتداد والرجوع عن الإسلام إلى الكفر، وهم بالتالي اشحة بخلاء، في نفوسهم كزازة على المسلمين كزازة بالجهد وكزازة بالمال وكزازة بالعواطف والمشاعر على السواء.

8-إنهم لكونهم لم تخالط قلوبهم بشاشة الايمان ولم يهتدوا بنوره يفقدون الشجاعة والقوة حتّى بعد ذهاب عوامل الخوف والهول.

فهم ما يزالون يرتعشون، ويتخاذلون، ويأبون أن يصدقوا أن الاحزاب قد ذهبت وولّت مهزومة. ويودون لو أن الاحزاب دخلت المدينة أن لا يكونوا فيها مبالغة في النجاة من الأهوال!!

9-ولكن في مقابلة هذا الفريق المتخاذل الجبان يرسم القرآن الكريم في الآيات ٢١ إلى ٢٥ صورة المؤمنين الصادقين وفي مقدمتهم رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - القدوة الحسنة لجميع المسلمين في جميع الحالات والظروف.

فان هذه الجماعة المؤمنة الصادقة لما رأّت الاحزاب قالت: هذا ما وعدنا الله ورسوله، هذا الهول لا بد أن يجيء فيه النصر فهو وعد الله الصادق المحقق.

فصمدوا وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فجزاهم الله بصدقهم إذ ردّ الذين كفروا بغيظهم، لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً خلاقاً لماظنه المنافقون، وتوهموه.

وقد كانت هذه الواقعة في منظور القرآن الكريم امتحاناً عظيماً، واختباراً دقيقاً للنفوس والقلوب وهو امتحان لا بد منه حتّى يتميز الصادق عن المنافق، والموفون بعهدهم والناقضون له.

كما أن هذه الواقعة و ما جاء حولها من الآيات كشفت عن أن وعود الله

صادقة ومحققة إذا توفرت شرائطها، ومقدماتها، ومنها استخدام الوسائل الطبيعية المناسبة، والاتكال على الله واستمداد العون منه

وفي هذه الآيات إشارة إلى دور ما يسمى الآن بالطيور الخامس وإلى خطورة الشائعات السيئة في المجتمع، وبخاصة في ظروف الحرب.

كما أن فيها إشارة إلى كيفية مواجهة هذه الشائعات والتعامل مع فعاليات هذا الفريق الخطر.

ولقد لاحظنا خلال ما مضى من السيرة كيف أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يبطل بتكتيكاته العسكرية مفعول تلك النشاطات التخريبية والمضرة.

فقد كان يعتمد أسلوب الدعاء، والذكر، والتشجيع، والتكبير، وإرسال الدوريات العسكرية والعمل المباشر والمشاركة الفعلية في عمليات الدفاع والحراسة وما شاكل ذلك مما ذكرناه ومما لم تسع هذه الدراسة لذكره.

(281)

حوادث السنة الخامسة من الهجرة

٣٨

سقوط آخر أوكار الفساد والمؤامرة

أقدم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في السنة الأولى من هجرته إلى المدينة، على تنظيم وعقد ميثاق تعايش بين سكان المدينة وما حولها، بغية إنهاء جميع أشكال الإختلاف، والتنازع، والصراع الداخلى.

وقد تعهد الأوسيون والخزرجيون، عامة واليهود من تينك القبيلتين أن يدافعوا عن المدينة وما حولها، وقد مرّ النص الكامل لهذا الميثاق على القارئ الكريم فيما سبق. (1)

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى عقد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بينه وبين يهود المدينة ميثاقاً آخر ينص على أنّ مختلف الطوائف اليهودية تتعهد بأن لا تلحق أئّ ضرر وأذى برسول الله واصحابه، ولا تمدّ أعداءهم بالخيل والسلاح، وأنها لو فعلت شيئاً من ذلك يكون لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الحق في أن يقتلهم، ويسبي نساءهم وأبناءهم.

إلا أنّ جميع الطوائف اليهودية الثلاث نقضت الميثاق المذكور بشتى العناوين والصور، وتجاهلت بنوده، ومواده!

فقد قتل «بنو قينقاع» مُسلماً، وخطّطت «بنو النضير» لاغتيال رسول الله

- صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وأجبرهم على الجلاء من المدينة وأخرجهم من البيئة الإسلامية.

وتعاونت «بنو قريظة» مع جيش المشركين لضرب المسلمين، وطعنهم من الخلف، والأُن يجب أن نرى كيف يويخ رسولُ الله بنى قريظة على نقضهم للميثاق.

قوات الإسلام تحاصر بني قريظة:

لم يكن الصباح قد أسفر بعد عندما غادرت آخر مجموعة من جنود «الأحزاب» أرض المدينة قافلة إلى بلادها مرعوبة فرعة للغاية

كما أن آثار التعب والارهاق لم تكن قد فارقت بعد ملامح المسلمين، ومع ذلك فقد أمر الله نبيه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن يعالج قضية «بنى قريظة» بصورة نهائية، فأذن مؤذن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وصلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالمسلمين صلاة الظهر، ثم نادى منادي النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الناس:

من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة!

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قدم «على بن أبي طالب» برايته⁽¹⁾، وخرج معه جنود الإسلام الشجعان، فحاصروا حصون «بنى قريظة»، فأخبرهم ديرانهم بنشاط المسلمين، فبادروا إلى اغلاق أبواب الحصون، والتحصن في داخلها، ونشبت الحرب بين بني قريظة والمسلمين من اللحظات الأولى فقد أخذ اليهود يشتمون رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقالوا فيه مقالة قبيحة فرجع علي - عليه السلام - بالمسلمين فالتقى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الطريق وقد كره أن يسمع النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أذاهم وشمهم وحاول أن يثني رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من الاقتراب إلى حصن بني قريظة قائلاً: لا عليك أن تدنو

فلما عرف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سبب ذلك قال: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً فلما دنا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من حصونهم قال لهم:

«هل أخزاكم الله وأنزل عليكم نقمته؟»

وقد كانت ردة فعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الشديدة غير متوقعة لليهود، ومن هنا قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً... وهم يريدون بذلك إطفاء مشاعرة الملتهبة ضدّهم. (1)

فأثارت كلمتهم هذه عاطفة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بحيث رجع من غير اختيار، وسقط رداؤه من كتفه.

اليهود يتشاورون حول الموقف:

تشاور يهود بنو قريظة وهم معتمسون بحصونهم في الموقف، وقد شارك فيه «حُبي بن أخطب» مثير معركة الأحزاب، فانه لم يذهب إلى خيبر بعد أن وضعت الحرب - في معركة الأحزاب - أوزارها وولى العرب المشركون بل دخل في حصون بني قريظة

هذا وقد طرح زعيم بني قريظة ثلاثة اقتراحات وطلب من الجميع أن يتفقوا على واحدة منها لمعالجة الموقف:

1- أن يؤمنوا برسول الله، ويصدقونه لأنه قد تبين لهم أنه نبي مرسل، وأنه الذي يجدونه في كتابهم، وبذلك يأمنون على دمائهم وأموالهم ونسائهم وأبنائهم.

2- أن يقتلوا أبناءهم ونساءهم ثم يخرجوا إلى محمّد وأصحابه يقاتلونهم، فإذا هلكوا، هلكوا ولم يتركوا وراءهم نسلاً يُخشى عليه، وإن انتصروا تزوجوا

1- السيرة النبوية: ٢ / ٢٣٤، تاريخ الطبري: ٢ / ٢٤٥ و ٢٤٦.

من جديد، ووجدوا أبناء.

3- أن الليلة هي ليلة السبت، وانه عسى أن يكون محمّد وأصحابه قد منوهم فيها، لعلمهم بأن اليهود لا يقاتلون في السبت، فليزولوا من الحصون لعلمهم بصيبيون من محمّد وأصحابه على حين غفلة.

ولكن المشاورين رفضوا جميع هذه الطروحات وقالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره، وقالوا: ان نقتل أبناءنا ونساءنا فما خير العيش بعدهم، وقالوا: لا نقاتل ليلة السبت، محمّداً وأصحابه نفسد سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يُحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ.⁽¹⁾

إن هذا الحوار يساعدنا على فهم نفسية تلك الجماعة (نعني اليهود)، وخصالهم وأخلاقهم الفاسدة.

فإن رفض الاقتراح يكشف عن أنهم كانوا جماعة معاندة، لجوجة، لأنهم إذا كانوا حقاً يعرفون صدق نبوة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كما قال زعيمهم - لم يكن لوقوفهم سبب الا العناد والعتوّ، واللجاج.

وأما الاقتراح الثاني وما دار حوله من كلام فيشهد - بجلاء - على أن تلك الطائفة كانت جماعة قاسية، لا تعرف للرحمة والحنان معنى، لأن قتل الاطفال والنساء الابرياء لا يمكن من دون قسوة شديدة.

هذا مضافاً إلى أن المشاورين آنذاك رفضوا هذا المقترح لا بدافع الرحمة والشفقة على الاطفال والنساء، بل لأن الحياة لا تعود لذينة بعد فقدهم هذا هو ما قالوه. ولم يقل أى واحد منهم: وماذا جنى الاطفال والنساء حتّى نقتلهم ونذبحهم، ولو أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تمكن منهم - لم يقتلهم، فكيف نعد نحن (الأبء الرحماء) إلى ارتكاب مثل هذه الجريمة بحقهم. فنسفك دماءهم

-[السيرة النبوية: ٢ / ٢٣٦].

(285)

من غير جرم ولا جنابة؟

وأما الاقتراح الثالث فيكشف عن أنهم لم يكونوا يعرفون جيداً مدى علم رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بفنون القتال، والدفاع وكانوا يتصورون أن القائد الأعلى للإسلام لا يراعي قواعد الحذر والاحتياط ليلة السبت ويومه، وخاصة في مواجهة أعداء خونة، أخوان غدر و مكر، أمثال اليهود الناقضين للعهد، الناكثين للمواثيق.

إن دراسة وتقييم معركة «الاحزاب» تثبت ندرة وجود الانكباء والفظنين بين هذه الجماعة، والآ لكانوا يتمكنون من حفظ كياناتهم حتّى من الناحية السياسية في تلك الظروف من دون أن ينحازوا إلى أى واحد من طرفي الصراع (الإسلام والشرك).

أي أنه كان من الممكن أن يتخذوا جانب الحياد الكامل، ويبقوا متفرجين لما يدور بين محمّد، وجيش المشركين، وبهذا يبقوا محافظين على كياناتهم ووجودهم، انتصر من انتصر وغلب من غلب.

ولكنهم خُدعوا بتسويات «حبي بن أخطب» ووسوساته وانحازوا إلى جيش العرب المشركين فتورطوا في مثل تلك الورطة، وهي أن يتخلوا - في النهاية - عن مساعدة قريش بعد شهر كامل من التعاون معهم، والرضوخ لخطة «نعيم بن مسعود»، وإخبار قريش بأنهم لن يتعاونوا معهم ضدّ رسول الإسلام ما تسلم قريش بعض شخصياتها إليهم، لغرض الاحتفاظ بهم في حصونهم كوثيقة!! لقد غاب عن تلك الزمرة المعاندة اللجوجة أنهم قد تعاونوا ضدّ رسول الإسلام في بداية الأمر، فاذا قطعوا علاقاتهم مع قريش، وترك جيش المشركين ساحة المعركة إذا أحس بالعجز عن تحقيق أي انتصار، وعاد إلى بلاده، فان بني قريظة بأجمعهم سيكونون حينئذ في قبضة المسلمين.

فلو كانوا يملكون شيئاً من الرؤية السياسية الصحيحة لكان عليهم أن يعلنوا لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فور قطع العلاقات مع قريش - عن ندامتهم على

(286)

نقض الميثاق الذي عقده من قبل مع النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويعتذروا إليه ممّا بدر منهم لينجوا من الخطر - في صورة انتصار المسلمين على الكفار - ولكن الشقاء أصابهم عندما قطعوا العلاقات مع جيش قريش، ولم يلتحقوا بالمسلمين، ولم يعتذروا إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

على أنه لم يكن في مقدور النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يترك بني قريظة - بعد هزيمة جيش العرب - على حالهم، ويغض النظر عن موقفهم إذ لم يكن من المستبعد، أن يفكر العرب في مناسبة أخرى في تسيير جيش ضخم ومنظم آخر لاجتياح المدينة، ويتمكنوا مع مساعدة بني قريظة من استئصال الإسلام.

فكان يهود بني قريظة يعتبرون - في الحقيقة - العدو الداخلي الذي يهدّد كيان الإسلام من الداخل، وعلى هذا كان من الواجب معالجة الامر مع بني قريظة، وحلّ هذه المسألة الخطيرة بالنسبة إلى المسلمين من الاساس.

خيانة أبي لبابة:

لقد طلب يهود بني قريظة بعد محاصرة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يبعث إليهم «أبالبابة» الأوسي ليتشاوروا معه في الموقف، وقد كان أبلبابة حليفاً لليهود قبل دخول الإسلام إلى المدينة، فأرسله رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه وقالوا: يا ابا لبابة أترى أن نزل على حكم محمّد؟

قال: نعم - وأشار بيده إلى حلقه - يريد أنهم سوف يقتلهم ولم يحقن دماءهم، لو سلّموا.

لقد كان أبو لبابة يعلم أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لن يوافق على بقاء هذه الزمرة الشريرة الخائنة الخطرة على دين التوحيد، إلا أن أبا لبابة قد خان بفعله هذا المسلمين، ومصالح الإسلام العليا، وأفشى سراً كان عليه أن يكتمه قبل وقوعه، ولهذا ندم على فعله ندماً شديداً، فخرج من حصن بني قريظة وهو

(287)

يرتجف ويقول: إني خنت الله ورسوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وانطلق على وجهه، ولم يأت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمين وهم ينتظرون رجوعه إليهم - وربط نفسه في المسجد بعمود من أعمدته، وقال لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله علي ما صنعت!!

ويقول المفسرون: فنزل في خيانة أبي لبابة قول الله تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون.)⁽¹⁾

فلما بلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خبر أبي لبابة، وكان قد استبطأه قال: أما أنه لوجاءني لاستغفرت له، فأما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

وبقي أبو لبابة مرتبطاً بالأسطوانة، وكانت ابنته أو زوجته تأتيه في مواعيد الصلاة، وتحل رباطه، فيصلي ثم تعيد الرباط.

فلما كان السحر من اليوم السابع نزلت توبة أبي لبابة بواسطة ملك الوحي على رسول الله وهو في بيت أم سلمة، والآية التي نزلت في توبته هي قوله تعالى:

(وَآخَرُونَ اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم.)⁽²⁾

فلما نظرت أم سلمة إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو مستبشرٌ يضحك قال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لها:

«لقد تيب على أبي لبابة إن شئت فبشريه.»

فقامت إليه وهو مرتبط بالجذع في المسجد وقالت له: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك.

فلما عرف الناس بذلك أرادوا أن يطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله

1- الأنفال: ٢٧.

2- التوبة: ١٠٢.

- صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هو الذي يطلقني.

فلما مر عليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه. (1)

ولا شك إن زلة أبي لبابة كانت بسبب عواطفه تجاه يهود بني قريظة، فقد سلبه بكاء رجالهم ونسائهم، وصديانهم واستغاثتهم العاطفية القدرة على ضبط النفس، فكشف سرّاً من أسرار المسلمين كان عليه أن يكتمه، ولكن قوة الايمان بالله والخشية من عذابه أكبر وأعلى من كل شيء إلى درجة أنها دفعت بابي لبابة إلى أن يندم على فعله ذلك الندم العجيب، ويعمد - لجبران تلك الخيانة - إلى ما فعل من الانابة، والاستغفار، الأمر الذي تكون نتيجته أن لا تراود مثل هذه الفكرة نفسه مرة أخرى قط.

إلى أي مدى ذهب الطابور الخامس في مشاغبته؟

خرج «شأس بن قيس» اليهودي من الحصن ليتحدث مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نيابة عن بني قريظة، فطلب من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ان يسمح لليهود بني قريظة بأن يحملوا معهم أموالهم ويخرجوا من المدينة كما فعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مع بني النضير، فأبى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال: «لا، إلا أن تنزلوا على حكي». »

فقال شأس: لك الاموال والسلاح وتحقن دماءنا، فابى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ورفض هذا الاقتراح أيضاً.

وهنا يطرح السؤال التالي نفسه وهو: لماذا رفض رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مقترحات مندوب بني قريظة؟!

إن السبب واضح، فانه لم يكن من المستبعد أن تقدم هذه الزمرة - بعد

[1- السيرة النبوية: ٢ / ٢٣٧ و ٢٣٨.

خروجها من قبضة المسلمين - على تحريك العرب المشركين الوثنيين ضد الإسلام والمسلمين على نحو ما فعلت بنو النضير، وتعرض المجتمع الاسلامي والدولة الإسلامية الفتية لأخطار كبرى جداً، وتسبب في سفك دماء كثيرة.

ولهذا لم يوافق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على اقتراحات مندوب بني قريظة، وعاد شأس إلى الحصن، واخبر قومه بمقالة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ورفضه لمقترحاته.

فقرر بنو قريظة التسليم للمسلمين من دون أي قيد أو شرط.

أو الرضا بما يحكم به سعد بن معاذ الأوسي - وكان حليفاً لهم - في حقهم.

ولهذا عمدوا إلى فتح باب الحصن، ودخل علي - عليه السّلام - على رأس كتيبة خاصة من المسلمين الحصن وجردوا بني قريظة من السلاح، وحبسوهم في منازل «بني النجار» ليتقرر مصيرهم فيما بعد.

وحيث أن يهود بني قينقاع قد أسروا على أيدي جنود الإسلام ثم عفي عنهم بوساطة من الخزرج وبخاصة «عبدالله بن أبي»، وانصرف النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن إهراق دمهم فيما مضى، لذا ضغط الاوسيون المتحالفون مع بني قريظة على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصرّوا عليه اصراراً شديداً بأن يعفو عن بني قريظة الذين كانوا متحالفين مع الأوس من قبل أن يقدم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المدينة، وذلك منافسة للخزرج، ولكن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قاوم هذا الطلب، وقال لهم:

«ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجلٌ منكم؟»

قالوا: بلى.

قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : فذاك إلى «سعد بن معاذ» فهو يحكم فيهم.

والطريف أن اليهود قد قبلوا هم أيضاً بما يحكم به سعد بن معاذ فقد بعث بنو قريظة إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

كما يروي ابن هشام⁽¹⁾ والشيخ

[السيرة النبوية: ٢ / ٢٤٠ .

(290)

المفيد⁽¹⁾ : يا محمّد نزل على حكم سعد بن معاذ.

وكان سعدٌ آنذاك يتداوى في خيمة لامرأة تدعى «رفيدة» من سهم أصابه في معركة الخندق، وكانت رفيدة تداوي الجرحى في سبيل الله، وكان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يعود سعداً بين الحين والآخر، فلما حكّمه في بني قريظة أتاه فتيان الأوس، وحملوه على حمار وقد وطنوا له بوسادة من ادم وكان رجلاً جسيماً جميلاً، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فلما طلع سعد على رسول الله والناس حوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جلوس، قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«قوموا إلى سيّدكم.»

فقام الناس على أرجلهم صفيين احتراماً لسعد، وحيّاه كل واحد منهم، حتّى انتهى إلى رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - ، وقد طلب منه رجالٌ قومه مراراً أن يحسن الحكم في حُفائهم: يهود بني قريظة، ويخأصهم من خطر الموت والقتل قائلين: يا سعد أجمل إلى مواليك فأحسن فيهم فان رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - قد حكّمك فيهم لتحسن فيهم. ولكن سعداً حكم في ذلك المجلس - رغم كل ذلك الالاحاح، والضغط - بأن يُقتل رجال اليهود، وتقسّم أموالهم، وتسبى ذراريهم ونساؤهم. (2)

تقييم ما استند إليه سعد في حكمه:

ليس من شك في أنه إذا غلبت عواطف القاضي وأحاسيسه على عقله، تعرض جهاز القضاء للفوضى والاختلال، وانتهى إلى تمزق المجتمع وسقوطه،

1-الارشاد: ص ٥٠ وأيضاً راجع زاد المعاد: ٧٣ / ٢ ، امتاع الاسماع: ٢٤٦ / ١ .
2-السيرة النبوية: ٢ / ٢٤٠ ، المغازي: ٥١٠ / ٢ ، زاد المعاد: ٧٣ / ٢ و ٧٤ .

(291)

وانهيار كل شيء، لارتباط كل شيء بالعدالة وارتباط العدالة بالقضاء والمؤسسة القضائية.

إن العواطف تشبه إلى حد بعيد الشهية الكاذبة التي تزيّن في نظر صاحبها كل مضر مهلك في حين إذا غلبت هذه العواطف والمشاعر العقل سحقت مصالح الفرد والمجتمع، أو أضرت به أشدّ وأبلغ إضرار.

إنّ عواطف سعد وأحاسيسه ومشاعره، ومنظر صبيان ونساء بني قريظة المحزن، وأوضاع رجالهم التي كانت تثير الاشفاق وهم في الحبس، وملاحظة الرأي العام في قبيلة الأوسيين الذين كانوا يلحّون على سعد أن يُحسن الحكم والرأي في بني قريظة، كل هذه الاعتبارات كان من شأنها أن تجعل القاضي فريسة العاطفة، فيصدر حكمه على أساس من تقديم مصالح أقلية خاننة مشاغبة على مصالح الاكثرية (أي عامة المسلمين) ويبرئ بني قريظة الجناة الخونة، أو يخفف عن عقوبتهم أكبر قدر ممكن، على الأقلّ أو يسلم لإحدى المقترحات السابقة.

إلا أن منطق العقل، وحرية القاضي واستقلاله في الحكم والقضاء ومراعاة المصالح العامة كل ذلك قاد سعداً إلى ناحية أخرى، فحكم بأن يقتل رجال تلك الزمرة المتأمرة الخائنة، وتصادر أموالهم، وتسبى نساؤهم وأطفالهم.

وقد استند هذا الحاكم في حكمه هذا إلى الامور التالية:

1- أن يهود بني قريظة قد تعهدوا للنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قبل مدة بأنهم لو تأمروا ضدّ الإسلام والمسلمين وناصروا أعداء التوحيد، واثاروا الفتن والقلاقل، وألبوا على المسلمين كان للمسلمين الحق في قتلهم ومصادرة أموالهم وسبي نساءهم. (1)

وقد رأى بأنه لو حكم بمعاقبة اليهود حسب هذا الميثاق لم يصدر حكماً مخالفاً

1- ولقد مرّ عليك نص هذا الميثاق الذي وقع عليه كعب بن الاسد رئيس بني قريظة.

(292)

للعادلة، ولم يرتكب ظلماً.

2- إن هذه الزمرة الناقضة للميثاق أخلت بأمن المدينة في ظل حرب القوى المشتركة، فترة من الزمن، وهاجمت منازل المسلمين، ولولا مراقبة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - للاوضاع وحراسة من عيّنهم من جنود الإسلام للحفاظ على أمن المدينة، لعلت تلك الزمرة الأفاعيل ولارتكبت أسوأ الفضائع والفجائع، ولو اتيح لهم أن يسيطروا على المدينة لقتلوا رجال المسلمين وصادروا أموالهم، وسبوا نساءهم وأطفالهم.

ومن هنا رأى سعد بن معاذ في نفسه بأنه لو قضى فيهم بمثل هذا القضاء لما خالف الحق.

3- من المحتمل جداً أن سعد بن معاذ رئيس الأوس الحلفاء لليهود بني قريظة، والذين كانت بينهم علاقات ودّ ومحبة كان مطلعاً على قوانين اليهود، الجزائية في هذا المجال، فإن التوراة تنصّ بما يلي: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن اجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكلّ الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويستعبد لك. وان لم تُسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها. وإذا دفعها الربُّ إلُك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السيف، واما النساء والأطفال واليهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك.» (1)

ولعلّ سعداً فكر في نفسه بأن القاضي المرضي والمقبول لدى الجانبين لو عاقب المعتدين حسب شريعتهم ما فعل إلا ما يقتضيه العدل والإنصاف.

4- والذي نتصوره هو أن أكبر أسباب هذا الحكم هو أن «سعد بن معاذ» رأى بأن عينيه أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عفا عن بني قينقاع المعتدين بناء على طلب من الخزر جييين، واكتفى - من عقابهم - باخراجهم من المدينة، واجلائهم

(293)

عنها ولكن تلك الزمرة التي شملها عفو النبي لم تكن تغادر أراضي الإسلام حتى بدأت بالمشاغبة والمؤامرة الدنيئة ضد الإسلام فذهب كعب بن الأشرف إلى مكة، وأخذ يتباكى - دجلا وخداعاً - على قتلى بدر، ويذرف عليهم دموع التماسيح، ولم يفتأ عن تأليب قريش ضد رسول الإسلام وأصحابه حتى عازمت قريش على تسيير جيشها نحو المدينة، وكانت واقعة، «أخذ» التي استشهد فيها اثنان وسبعون من خيرة أبناء الإسلام، ورجاله.

وهكذا فعلت بنو النضير المتآمرون الخونة، الذين عفا عنهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - واكتفى من عقابهم بمجرد اجلائهم عن المدينة، ولكنهم قابلوا هذا الموقف الانساني، بتأليب القبائل العربية المشركة ضد الإسلام والمسلمين، وكوّنوا اتحاداً نظامياً بينها، وألفوا منها جيشاً قوياً ساروا به إلى عاصمة الإسلام (المدينة)، فكانت وقعة (الاحزاب) التي لولا حنكة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وخطه حفر الخندق لقضي على الإسلام بسببها منذ الايام الأولى، ولما بقي من ذلك الدين خير ولا أثر ولقتل آلاف الناس.

لقد لاحظ سعد بن معاذ كل هذه الاعتبارات، فلم تسمح له التجارب الماضية بأن يستسلم لعواطفه، ويضحي بمصالح الآلاف في سبيل الحفاظ على مصالح اقلية لأنه كان من المسلم به أن هذا الفريق سيقوم في المستقبل بايجاد تحالف عسكري أوسع، وسيثير ويؤلب قوى العرب ضد الإسلام ويعرض مركز الإسلام، ومحوره الاساسي للخطر من خلال تدبير مؤامرات أخرى.

وعلى هذه الأساس رأى بأن وجود هذه الزمرة يضر المجتمع الاسلامي مائة بالمائة وأيقين بأن هذه الزمرة لو اتيح لها أن تخرج من قبضة المسلمين لما فتأت لحظة عن المؤامرة ولواجه المسلمون بسببها أخطاراً كبرى.

ومن المحقق أنه إذا لم تكن في المقام هذه الجهات والاعتبارات لكان إرضاء الرغبة العامة في الابقاء على بني قريظة أو التخفيف في عقابهم أمراً في غاية الأهمية بالنسبة إلى سعد بن معاذ، فان رئيس أي قوم، أو جماعة أوج ما يكون

(294)

إلى تأييد قومه وجماعته وكسب رضاهم ودعمهم، ولا ريب أن عدم الاستجابة لمطلبهم، وتجاهل توصياتهم بوجه أكبر ضربة لسيد القوم ورئيسهم، ولكن سعداً (رئيس الأوس) أدرك أن جميع هذه التوصيات والوساطات تخالف مصالح الآلاف من المسلمين، من هنا أثر عدم الحياد عن حكم العقل، والمنطق، على رضا قومه عنه.

هذا وإن الذي يشهد بدقة نظر سعد، وصواب رأيه، وصحة تشخيصه وتقديره للأمر أنه عندما أتى بحبي بن أخطب ليضرب عنقه فوقع عينه على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يُخذل. أي لولا خذلان الله لليهود لا ستمروا في معاداة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتدبير المؤامرات ضده.

ثم أقبل على الناس فقال: يا أيها الناس لا بأس بأمر الله، ملحمة كتبها الله على بني إسرائيل.

ثم إنه قُتل في هذه الواقعة من النساء امرأة واحدة لأنها ألقت برحى من فوق الحصن فقتلت به أحد المسلمين، فقتلت قصاصاً.

وكان بين المحكوم عليهم بالقتل رجلٌ اسمه «الزبير بن باطا» شفع له رجل من المسلمين يدعى ثابت بن قيس، فلم يُقتل، وأُخلى سبيل زوجته وأولاده، وأعيدت إليه أمواله، وأسلم أربعة من بني قريظة، وقسمت غنائم العدو بين المسلمين بعد إخراج الخمس منها، وإخراج ما يرتبط بالأمور الإدارية الإسلامية العامة.

وقد أعطي للفارس سهمان، وللراجل سهمٌ واحدٌ، وسلم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أموال «الخمس» إلى زيد بن حارثة ليذهب بها إلى نجد ويشترى بها العتاد، والسلاح، والخيول، وغيرها من أدوات الحرب. (1)

-[تاريخ الطبري: ٢ / ٢٥٠، السيرة النبوية: ٢ / ٢٤١، زاد المعاد: ٢ / ٧٤].

(295)

وهكذا انتهت مشكلة بني قريظة في التاسع عشر من شهر ذي الحجة من السنة الخامسة للهجرة، وقد نزلت في شأن هذه الواقعة الآيات ٢٦ - ٢٧ من سورة الاحزاب إذ يقول سبحانه:

(وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَهَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَافِيهِمْ وَفَنَّفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ فِرِيقًا يَسْتَأْذِنُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا.)

وقد استشهد «سعد بن معاذ» الذي سبق أن جرح في معركة الخندق بعد حادثه بني قريظة هذه. (1)

-[السيرة النبوية: ٢ / ٢٥٠ - ٢٥٤].

(296)

حوادث السنة السادسة من الهجرة

أعداء الإسلام تحت المراقبة المشددة (١)

لم تنقُض السنة الهجرية الخامسة إلا وقد انتهت فتنة «الاحزاب» و «بني قريظة»، وقضي عليهما بالكامل، وأصبحت المدينة وضواحيها برمتها في قبضة المسلمين وتحت سيطرتهم، وازدادت قواعد الحكومة الإسلامية الفتنية رسوخاً وثباتاً، وساد هدوء نسبي في المنطقة التي تخضع للحكومة الإسلامية، غير أن هذا الهدوء كان هدوءاً مؤقتاً، وكان على قائد المسلمين الأعلى أن يراقب أحوال العدو وأوضاعه، وتحركاته ليقتضي في المهد على كل مؤامرة ضدّ الإسلام بما أوتي من قوى وامكانيات.

ولقد سمح الهدوء الذي ساد المنطقة للنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن يقيم بعض مشعلي فتنة «الاحزاب» الذين هربوا من قبضة المسلمين بعد رحيل «الاحزاب». »

فلقد قُتل «حبي بن أخطب» الذي كان من مشعلي معركة الأحزاب، في غزوة بني قريظة، ولكن رفيقه «سلام بن أبي الحقيق» كان لا يزال يعيش في خيبر، ولا شك في أن هذا العنصر الخطر لم يكن ليفتأ لحظة واحدة عن إثارة وتأليب «الأحزاب» مرّة أخرى ضدّ الإسلام، وخاصة أن العرب الوثنيين كانوا

1- [يستفاد من السيرة النبوية: ٣ / ٢٩١ ط ١٣٥٥ أن خطة اغتيال «سلام» كانت قبل نهاية السنة الهجرية الخامسة، ولكن بالنظر إلى أن قضية بني قريظة حدثت في التاسع عشر من شهر ذي الحجة يستبعد هذا الرأي.

(297)

مستعدين لشن حرب على الإسلام وكان من المحتمل إذا توفرت هناك جهة تتكفل بنفقات الحرب، أن تتكرر قضية الاحزاب مرة أخرى.

على أساس هذه المحاسبات كلّف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - (١) مجموعة من شجعان الخزرج وفوارسهم بأن يصفّوا هذا العنصر الخطر، الجريء والحاقد، بشرط أن لا يتعرّضوا لأحد من أبنائه وزوجاته.

فخرجوا حتّى قدموا خيبر، فدخلوا خيبر ليلاً ولم يدعوا باباً في الدار الا أغلقوه على أهله حتّى لا يحس بهم أحد إذا صاح واستغاث بأحد، ثم تسللوا إلى غرفته وكانت في الطابق الاعلى، فطرقوا باب حجرته، فخرجت إليهم امرأته وقالت: من أنتم؟ قالوا: ناس من العرب نلتمس الميرة، ففتحت الباب وسمحت لهم بالدخول عليه من دون التحقق من أمرهم، فدخلوا في غرفته وابتدروه وهو على فراشه باسيفهم بعد أن أغلقوا باب الغرفة على أنفسهم، وقضوا على ذلك المفسد الشرير الذي طالما أزعج المسلمين بفتنه ومؤامراته، ثم خرجوا، وانحدروا من الدرج واختبأوا في ممر مائي من خارج الحصن إلى داخله، فصاحت زوجته، واستغاثت بالجيران، فأوقد

اليهود النيران، واشتدوا في طلب تلك الجماعة الفدائية المسلمة، ولكن من دون جدوى، وعندما يسوا من القبض عليهم رجعوا إلى صاحبهم المقتول، وقد بلغ من جرأة المسلمين أن بعثوا أحدهم ليدخل بين اليهود في خبير ويأتي لهم بخبر ابن أبي الحقيق، لأنهم كانوا يظنون بأنه لا يزال على قيد الحياة.

فدخل ذلك الرجل بين اليهود فوجدهم وامرأته حول ابن أبي الحقيق، وفي يدها المصباح تنظر في وجهه، وتحديثهم، وتقص عليهم ما جرى، ثم أقبلت عليه

- إن السبب أو الحكمة في تكليف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الخزرج بهذه المهمة هو أن الاوس قاموا بعملية مشابهة في حق «كعب بن الأشرف» اليهودي الخطر فأراد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إقامة توازن في كسب المفخر بين تينك القبيلتين ولذلك أوكل مهمة تصفية هذا اليهودي المفسد إلى رجال الخزرج.

(298)

تنظر في وجهه ثم قالت: فاظ (أي مات) واله يهود.

فعاد إلى رفاقة وأخبرهم بنجاح عمليتهم وهلاك عدو الله: «سلام بن أبي الحقيق» على أيديهم، فخرجوا في تلك الليلة من مخبأهم وعادوا إلى المدينة وأخبروا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بما جرى. (1).

أهل الرأي من قريش يهاجرون إلى الحبشة:

توجه جماعة من أهل الرأي في قريش الذين أخافهم تقدم الإسلام وانتشاره المطرد بشدة، إلى البلاط الحبشي ليقطنوا ويقيموا في الحبشة فقد قالوا: الرأي أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر «محمد» على قومنا كنا عند النجاشي، فإننا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد وإن ظهر قومنا فنحن من عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير.

وخرجت هذه الجماعة وفيهم «عمرو بن العاص» بهدايا كثيرة من الحجاز قاصدة أرض الحبشة، وبلاط النجاشي بالذات.

وصادف دخولهم على «النجاشي» ورود «عمرو بن أمية الضمري» مبعوث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وحامل كتابه إلى النجاشي يوصيه فيه بجعفر بن أبي طالب، والمهاجرين الآخرين من رفاقه.

فقال «عمرو بن العاص»: لو دخلت على «النجاشي» بالهدايا وسألته عمرو بن أمية فاعطانيه، فضربت عنقه.

فدخل «عمرو بن العاص» على «النجاشي»، وسجد له - على النحو الذي كان متبعاً - فسأله النجاشي عن حاله، ثم قال: هل أهديت إلى من بلادك شيئاً؟

قال ابن العاص: نعم أيها الملك، قد أهديت إليك أدماً كثيراً، ثم قال: أيها

[1] السيرة النبوية: ٢ / ٢٧٤ و ٢٧٥.

(299)

الملك اني قد رأيت رجلاً خرج من عندك (ويقصد مبعوث رسول الله) وهو رسولٌ عدوٌ لنا، فاعطنيهِ لاقْتلته، فإنه قد أصاب من أشرفنا وخيارنا.

فغضب النجاشي لمقالة ابن العاص غضباً شديداً فصفعه صفعة كادت أن تكسر أنفه، ثم قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله. ويحك يا عمرو أتعني واتبعه فإنه والله لعلى الحق، وليظهرنَّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، ثم قال: أفتبايعني له على الإسلام؟

يقول عمرو بن العاص: فقلتُ نعم، فبسط يده فبايعته على الإسلام ثم خرجتُ إلى أصحابي، وقد حال رأيي عما كان عليه، وكنمت

أصحابي إسلامي. (1)

الوقاية من تكرار التجارب المرة:

تركتُ حادثة «الرجيع» المرّة التي قتل فيها جماعة من قبائل «عضل» و «القارة» من بني لحيان ثلثة من دعاة الإسلام غدرًا ومن دون رحمة، بل وسلمت رجلين منهم بقوا على قيد الحياة إلى قريش فصلبتهما قريشٌ صبراً إنتقاماً من رسول الله والمسلمين.

لقد تركت هذه الفاجعة المأساوية المؤلمة ألماً شديداً في نفوس المسلمين، وأحدثت جرحاً عميقاً في ضمائرهم وأدت إلى توقف حركة الارشاد والتبليغ والدعوة.

ولكن في الظروف المستجدة التي استطاع الإسلام أن يزيل - بعد الأحزاب وبني قريظة - كل العراقيل والعقبات عن سبيل المسلمين رأى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من الضروري تأديب بني لحيان لتعتبر بقية القبائل، فلا يؤذوا بعد ذلك فرق الدعوة وبعثات التبليغ الإسلامي.

[1] السيرة النبوية: ٢ / ٢٧٦ و ٢٧٧.

(300)

فاستخلف مكانه لإدارة شؤون المدينة «ابن أم مكتوم» في الشهر الخامس من السنة الهجرية السادسة ولم يُظهر لأحد ما يقصده، بل خرج يظهر أنه يريد الشام ليصيب «بني لحيان» على غفلة منهم، فلما وصل إلى طريق مكة عرّج حتى نزل بمنطقة تدعى غراب وهي منازل بني لحيان، وقد كان بنو لحيان قد عرفوا بمسير النبي إليهم فحذروه، وتمنعوا في رؤوس الجبال.

وكان غزو المسلمين هذا، وجبن العدو قد تركا أثراً نفسياً قوياً، فأحدث رعباً في قلوب أعداء الإسلام.

واستكمالاً لهذا الهدف العسكري الهام عمّد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى القيام بسلسلة من المناورات العسكرية، واستعراض القوة القتالية في جنوده ليرهب أعداء الله القريب منهم والبعيد ولتسمع بهم قريش خاصة فيذعرهم، فنزل في مائتي راكب من أصحابه حتى نزل عسفان على مقربة من مكة وقد قال من قبل:

«لو هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أننا قد جننا مكة.»

ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع الغميم (وهو موضعٌ بناحية الحجاز بين مكة والمدينة وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال). ثم عاد مع أصحابه إلى المدينة. (1)

هذا وكان جابر بن عبد الله الأنصاري يقول: سمعت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يقول حين رجوعه من هذه الغزوة:

«...أعوذ بالله من وُعاء السفر وكأبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال.» (2)

غزوة ذي قرد:

لم يقم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المدينة بعد عودته من الغزوة

- [السيرة النبوية: ٢ / ٢٧٩ و ٢٨٠.
- 2-تاريخ الطبري: ٢ / ٢٥٤، المغازي: ٢ / ٥٣٥، إمتاع الاسماع: ١ / ٢٥٩ و ٢٦٠.

السابقة إلا ليالي قلائل حتى أغار «عبيدة بن حصن الفزاري» بمساعدة بني غطفان، على إبل لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كانت ترعى في منطقة تدعى الغابة (وهي موضعٌ قرب المدينة من ناحية الشام) كانت مرعى أهل المدينة، وكان فيها آنذاك رجلٌ من بني غفار، وامرأة مسلمة له، فقتلوا الرجل، وأخذوا معهم المرأة والإبل.

وكان أول من أخبر الناس بذلك رجلٌ يدعى سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي وكان قد غدا يريد الغابة متوشحاً سيفه وقوسه ونبله، يريد الصيد، حتى إذا علا «ثنية الوداع» نظر إلى بعض خيول المغيرين، فصعد على تلة سلع وصرخ مستغيثاً ومستنجداً: واصباحاه، ثم خرج يشند في آثار القوم (المغيرين) فجعل يردّهم بالنبل، ولكن المعتدين لا ذوا بالفرار.

وكان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أول من سمع صراخ ابن الأكوع واستغاثته، فصرخ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هو مستغيثاً: الفرع، الفرع. فأسرع جماعة من الفرسان برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -، فلما اجتمعوا عنده أمر عليهم «سعد بن زيد الأشهلي» وقال له:

«أخرج في طلب القوم، حتى الحقك في الناس.»

فخرج الفرسان المسلمون في طلب القوم، وخرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من ورائهم، حتى أدركوا القوم في ذي قرد، فوقع بين المسلمين، وبين المغيرين قتال قليل قتل فيه من المسلمين رجالان، ومن المعتدين ثلاثة، واستنقذت المرأة، وبعض الأبل المسروقة، ولكن العدو لجأ إلى غطفان، فأقام رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في تلك المنطقة يوماً وليلة، تخويفاً للعدو، ولم يَز من الصالح ملاحقة العدو رغم إصرار بعض المسلمين على ملاحقتهم، واستنقاذ بقية السرح (الأبل).

(302)

ثم رجع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قافلاً حتى قدم المدينة⁽¹⁾ وكانت هذه الغزوة في الثالث من ربيع الأول من السنة السادسة من الهجرة.⁽²⁾

النذر غير المشروع:

واقبلت المرأة الغفارية المسلمة التي استنقذت من أيدي المغيرين على ناقة من إبل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حتى قدمت على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخبرته بما جرى ثم قالت: يا رسول الله إني قد نذرتُ إن نجاني الله على هذه الناقة، أن أنحرها فأكلُ كبدها وسنامها.

فتبسم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال:

«بئس ما جزيتيها أن حملك الله عليها ونجاك ثم تتحرينها، انه لا نذر في معصية، ولا فيما لا تملكين إنما هي ناقة من إبلي فارجعي إلى أهلك على بركة الله.»⁽³⁾

وبذلك بيّن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حكماً في مجال النذر، وهو أن النذر لا يصح في مال اللغير، فلا نذر إلا في ملك.

والقصة إلى جانب ذلك تكشف عن الخلق العظيم الذي كان يتحلى به قائد الإسلام الأعلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ولطفه بأصحابه واتباعه، حيث جابه المرأة المذكورة برفق ولطف، وبصبرها بما لها وما عليها في منتهى التواضع والشفقة.

-
- 1- تاريخ الطبري: ٢ / ٢٥٥، المغازي: ٢ / ٥٣٧ و ٥٤٩ .
2- امتناع الاسماع: ١ / ٢٦٠ و ٢٦١ .
3- السيرة النبوية: ٢ / ٢٨١ - ٢٨٩، الطبقات الكبرى: ٢ / ١٣٣، امتناع الاسماع: ١ / ٢٦٣ قال صاحب الامتاع: و كانت الناقة هي القصواء، والقصواء اسم ناقة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

(303)

حوادث السنة السادسة من الهجرة

٤٠

تمرد بني المصطلق

لقد بلغت قوة المسلمين العسكرية في السنة الهجرية السادسة حداً ملفتاً للنظر، بحيث تمكن جماعة خاصة منهم أن يترددوا على المناطق القريبة من مكة بمنتهى الحرية، ومن دون خوف، بيد أن هذه القوة العسكرية لم تكن كافية للسيطرة على المناطق التي كان يتواجد فيها القبائل المشركة، ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم.

وإذا كان المشركون لا ينتزعون المسلمين حريتهم، وكانوا يسمحون لأن تجري النشاطات التبليغية من دون منع أو معارضة لما كان رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يقدم على شراء الاسلحة، وبعث سرايا، والمجموعات العسكرية، ولكن حيث ان نشاطات المسلمين التبليغية، ومجموعات الارشاد والدعوة كانت تتعرض باستمرار للمضايقة، والاذى، بل والاعتقال من قِبَل العدو، لذلك كان رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مضطراً بحكم العقل والفطرة أن يقوي من قدرات الإسلام الدفاعية.

لقد كانت العلة والأسباب الواقعية لأكثر الحروب التي وقعت إلى السنة الهجرية السادسة بل حتى آخر لحظة من حياة رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تتلخص في إحدى الأمور التالية:

1- الرد على اعتداءات المشركين الغادرة، مثل معركة «بدر» و «أحد» و

(304)

«الخنق.»

2- تأديب وعقاب الظالمين الذين قتلوا رجالاً أبرياء من المسلمين، أو قتلوا جماعات الدعوة والتبليغ في البراري والقفار النائية، أو عرّضوا كيان الإسلام للخطر بنقضهم عهودهم، وتتمثل هذه الحروب في الغزوات الثلاثة ضد الطوائف اليهودية الثلاث (بني قينقاع، بني النضير، بني قريظة) وبني لحيان.

3- افشال واحباط المؤامرات، أو محاولات التمرد التي كانت على شرف الانعقاد في القبائل التي كانت تنوي بجميع الرجال والاسلحة غزو المدينة، واكتساح عاصمة الإسلام واستنصال المسلمين، وكانت أكثر الحروب الصغيرة والمناوشات العابرة ناشئة من هذا العامل الأخير.

غزوة بني المصطلق:

كان بنو المصطلق من قبائل «خزاعة» المتحالفة مع قريش.

وقد بلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن الحارث بن أبي ضرار زعيمها يعدّ العدة، ويجمع الرجال المقاتلين لمحاصرة المدينة وغزوها، فقرر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن يقضي على هذه المؤامرة في مهدها كما كان يفعل دائماً.

ولهذا أرسل أحد أصحابه وهو: «بريدة» إلى أرض بني المصطلق ليأتي بأخبارهم، فذهب بريدة، ودخل فيهم وتحادث - في هيئة متكررة - مع رئيسهم وعرف بنيته، ثم عاد إلى المدينة واخبر رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بما رآه وسمعه، وأن بني المصطلق عازمون على المسير إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لمحاصرة المدينة.

فخرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في جمع من أصحابه حتى لقيهم عند ماء يدعى «المريسيع»، ونشبت الحرب بينهم وبين المسلمين، ولكن صمود المسلمين وبسالتهم التي كانت قد أرعبت قلوب قبائل العرب تسبب في أن

(305)

لا يطول القتال بين المسلمين وبين «بني المصطلق» فتفرق جيش العدو بأن قتل منهم عشرة رجال، كما وقتل رجل مسلم خطأ، فأصاب المسلمون غنائم كثيرة وسبوا جماعة كبيرة من نساء بني المصطلق. (1)

هذا وان النقاط والدروس المفيدة في هذه الواقعة تتمثل في السياسة الحكيمة التي مارسها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في حوادث هذه الغزوة، مما سنذكر بعضها عما قريب.

وقد شبَّ في هذه المنطقة ولأول مرّة خلفت بين المهاجرين والأنصار، كاد أن يأتي بنتائج مروّعة أبسطها أن توجّه ضربة قوية إلى الإتحاد الحاصل بين المسلمين نتيجة هوى البعض وهوسهم لولا تدبير النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - . وحكمته، الرشيدة التي أنهت كل شيء، وابتقت على روح التآخي بين المسلمين.

وتعودُ جذور هذه الحادثة إلى تزاحم رجلين من المسلمين على البئر بعد ان وضعت الحرب أوزارها.

فقد ازدحم «جهجاه بن مسعود» وهو من المهاجرين و «سنان بن وبر الجهني» وهو من الأنصار على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهني - مستغيثاً بقبيلته على عادة الجاهليين - : يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، وكاد أن يتقاتل المسلمون من الفريقين فيما بينهم في هذه الحادثة، وفي هذا المكان البعيد عن عاصمة الإسلام ومركزه، ويتعرض بذلك كيانهم للسقوط والانهيار، لأنهم تواعدوا على القتال كل فريق انتصاراً لصريخه.

فلما عرف رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - بذلك قال:

«دَعَوْهَا فَإِنهَا مَنْتَنَةٌ»⁽²⁾

أي أن هذا النوع من الاستغاثة ولمثل هذا الدافع ما هو إلا من دعوى

-1 تاريخ الطبري: ٢ / ٢٦٠، امتاع الاسماع: ١ / ١٩٥ و ١٩٦ .
-2 السيرة النبوية: ١ / ٢٩٠ (الهامش).

الجاهلية، وقد جعل الله المؤمنين إخوة وحبزاً واحداً، فانما ينبغي أن تكون الدعوة للمسلمين، وإلا كانت جاهلية، لاقيمة لها في الإسلام.⁽¹⁾

وبذلك قضى النبي الحكيم على الفتنة في مهدها، وجنّب المسلمين أخطارها.

مناقق حاول إشعال الموقف:

أجل لقد استطاع رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - بهذا الاستنكار الشديد أن يطفئ نار الاختلاف والتنازع فيكف الفريقان (القبيلتان) عن استئناف التنازع والتقاتل.

إلا أن «عبد الله بن أبي» رئيس حزب المنافقين بالمدينة، والذي كان يكنُّ حقداً كبيراً على الإسلام وقد شارك في تلك الغزوة طمعاً في الغنيمة، أظهر - في هذه الحادثة - حقه، وضعيفته على الإسلام، وقال لرهط من أهل المدينة كانوا عنده آنذاك: هداما فعلمتم

بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم، لقد نافرونا (أي المهاجرين) وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لن رجعا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل (ويقصد بالأذل المهاجرين)!!!

فتركت كلمات «ابن أبي» أمام تلك الجماعة التي كانت لا تزال تعاني من بقايا عصبية جاهلية، أثرها في نفوسهم، وكادت توجه ضربة قاضية إلى صرح الوحدة الإسلامية، والاخوة الإيمانية التي كانت تشدُّ المسلمين - أنصاراً ومهاجرين - بعضهم ببعض كالبنيان المرصوص.

ومن حسن الحظ أن فتى غيوراً من فتيان المسلمين هوزيد بن الارقم

[1-راجع هوامش السيرة النبوية: ٢ / ٢٩٠.]

(307)

لما سمع بهذه الكلمات المثيرة للشغب والفتنة رد على «ابن أبي» بكلمات قوية شجاعة إذ قال: أنت والله الذليل القليل المبعض في قومك، ومحمد في عز من الرحمان، ومودة من المسلمين، والله لا أحبك بعد هذا أبداً.

ثم نهض ومشى إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأخبره الخبر، فرده رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثلاث مرات حفظاً للظاهر، قائلاً: لعلك وهمت يا غلام، لعلك غضبت عليه، لعله سقه عليك.

ولكن زيدا كان يؤكد على صحة ما أخبر به رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من مقالة المنافق الخبيث «عبدالله بن أبي»، وتحريكه للناس ضد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وهنا طلب عمر بن الخطاب من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يقتل «ابن أبي» قائلاً: مر به عباد بن بشر فليقتله. (1)

ولكن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أجاب عمر بقوله:

«فكيف يا عمر إذا تحدثت الناس أن محمداً يقتل أصحابه، لا. (2)»

ولقد مشى «عبدالله بن أبي» إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حين بلغه أن «زيد بن الارقم» قد بلغ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ما سمع منه، فحلف

- [تثبت دراسة حياة الخليفة الثاني أنه لم يبد في اية معركة من معارك الإسلام قوة وبسالة، بل كان في صف المتقاعدين دائماً. ولكن كلما أسر المسلمون أحداً كان هو أول من يقترح على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بقتله ونذكر للمثال ما يلي:
أ - هذا المورد الذي طلب فيه من رسول الله أن يُقتل ابن أبي.
ب - طلبه من النبي بأن يُقتل حاطب بن أبي بلتعة الذي تجسس لصالح المشركين من أهل مكة في فتح مكة.
ج - طلبه من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بقتل أبي سفيان الذي جاء به العباس عم النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى خيمة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قبيل فتح مكة، وغير ذلك من الموارد التي سبقت أو التي تأتي.
-2 امتاع الاسماع: ١ / ٢٠٧؛ السيرة النبوية: ٢ / ٢٩١.

(308)

بالله: ما قُلتُ ما قال، وقال بعض من حضر من أهل الرأي من أصحابه دفاعاً عن ابن أبي: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل.

ولكن الامر لم ينته إلى هذا، فقد كان هذا نوعاً من الهدوء المؤقت تماماً كالهدوء الذي يسبق العاصفة، الذي لا يمكن الاطمئنان إليه

فقد كان يتوجب على قائد المسلمين الأعلى أن يقوم فوراً بما يؤدي إلى أن ينسى الطرفان هذه القصة نهائياً، ولهذا أمر بالرحيل في ساعة من النهار لم يكن - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يرتحل فيها عادة.

فجاءه «أسيد بن حضير»، وقال: يا رسول الله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها؟

فقال له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الاعزُّ منها الاذل»؟

فقال أسيد: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل، وأنت العزيز، إرفق به يا رسول الله، فوالله لقد جاء الله بك وان قومه لينظّمون له الخرز ليتوجه، وأنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً.

ثم أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالرحيل فارتحل الناس، وسار بهم النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يومهم ذاك حتى أمسى، وليتهم تلك حتى أصبح، من دون أن يسمح لهم بالنزول والإستراحة، إلا للصلاة، وسار بهم في اليوم هكذا حتى أتتهم الشمس وسلبوا القدرة على مواصلة السير فأذن لهم بالاستراحة، فنزل الناس، ولم يلبثوا أن وجدوا مسن الأرض فوقعوا نياماً من شدة التعب، وقد نسوا كل شيء من تلك الذكريات المرة، وكان هذا هو ما يريده النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقد سار بهم ليل نهار من دون توقف ليشغلهم عن الحديث الذي كان من

(309)

«عبدالله بن أبي» المنافق المفتن.⁽¹⁾

صراع بين الايمان والعاطفة:

كان عبدالله ابن «عبدالله بن أبي» من فتيان الإسلام الشجعان، ومن فرسانه اليواصل، وكان - كما تقتضيه تعاليم الإسلام - يبر بأبيه المنافق أكثر من غيره، ولكنه عندما عرف بما تفوه به أبوه في شأن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وظن أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سيقتل أباه جاء إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال: يا رسول الله انه قد بلغني أنك تريد قتل «عبدالله بن أبي»، فيما بلغك عنه فإن كنت لابد فاعلا فمرني به فانا أحمل اليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تامر به غيري، فيقتله فلا تدعني نفسي انظر إلى قاتل عبدالله بن أبي يمشي في الناس فاقتله، فأقتل (رجلا) مؤمناً بكافر فأدخل النار!!

إن حديث هذا الفتى يعكس - في الحقيقة - أعظم تجليات الإيمان وآثاره في النفس، والروح الإنسانية.

لماذا لم يطلب من النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يعفو عن أبيه؟! لأنه كان يعلم أن ما يفعله رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إنما هو بأمر الله تعالى، ولكن ابن عبدالله كان يرى نفسه في صراع روحي حاد.

فمن جانب كانت تدعوه عواطف البنوة والأبوة والأخلاق العربية أن ينتقم ممن يقتل أباه، ويسفك بالتالي دم مسلم.

ومن جانب آخر توجب عوامل أخرى مثل ضرورة استتباب الأمن والطمأنينة في البيئة الإسلامية أن يقتل رأس المنافقين «ابن أبي»، انه صورة من صورة الصراع بين مقتضى الايمان، ومقتضى العاطفة.

-[تاريخ الطبري: ٢ / ٢٦١ و ٢٦٢، مجمع البيان: ١٠ / ٢٩٢ - ٢٩٥.

ولقد اختار عبدالله بن عبدالله بن أبي طريقاً ثالثاً في هذا الصراع، يضمن مصالح الإسلام من جهة، ويحافظ على مشاعره من أن تجرح على أيدي الآخرين من جهة أخرى، وذلك بأن يكون هو الذي ينفذ حكم الاعدام في أبيه المنافق المشاغب.

وهذا العمل وان كان شاقاً مؤلماً إلا أن قوة الايمان بالله والتسليم لأمره سبحانه كانت تفيض عليه قدراً كبيراً من الطمأنينة والسكون

ولكن النبي الرحيم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ردأ على سؤال واقتراح عبدالله بن عبدالله بن أبي:

«بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا!!!»

وهذا الكلام الذي يكشف عن سمو أخلاق النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومبلغ رحمته، أدهش المسلمين جميعاً فتوجهوا باللوم والعتاب الحاد إلى المنافق «عبدالله بن أبي»، ولحقه بسبب ذلك ذلٌ شديدٌ بين الناس ما وراءه ذلٌ، وهوانٌ ما وراءه هوانٌ، واحتقره الناس حتى انه لم يعد أحدٌ يعابيه، ويقيم له وزناً.

لقد علم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المسلمين في هذه الحوادث ذُروساً مفيدة جداً، وأظهر جانباً من سياسة الإسلام الحكيمة، والرشيده.

فقد تحطم «عبدالله بن أبي» رئيس المنافقين بعد هذه الحادثة، ولم يعد له أي دور، بل عاش بقية حياته مهاناً محترقاً بين الناس بعد أن رأى الناس إيذاه المستمر لرسول الله، وعفو النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عنه، واطمأنوا عن مساوئيه.

وقد قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لعمر بن الخطاب ذات يوم حين بلغه إحتقار الناس لابن أبي ذلك الإحتقار، وسقوط محله في القلوب:

«كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لي: أقتله، لأرعدت له أنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. »

فقال عمر: قد والله علمتُ لأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أعظم بركة

(311)

من أمري. (1)

الزواج المبارك:

كانت «جويرية» بنت الحارث بن أبي ضرار رئيس بني المصطلق من جملة السبايا التي وقعت في أيدي المسلمين في غزوة بني المصطلق، فأقبل أبوها الحارث بفداء ابنته إلى المدينة فلما كان في وادي العقيق نظر إلى الإبل التي جاء بها لفداء ابنته فرغب في بيعها منها فغيبها في شعب من شعاب العقيق، ثم أتى إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال: يا محمد أصبتم إبنتي وهذا فداؤها، فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

«فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق في شعب كذا وكذا؟!»

فلما سمع الحارث بهذا الخبر الغيبي على لسان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - آمن هو وولداه به، وأسلم أناس آخرون من قومه كانوا معه، وأرسل إلى البعيرين فجاء بهما، فدفع الإبل إلى رسول الله ودفعته إليه ابنته «جويرية» فأسلمت هي أيضاً.

ثم خطبها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى أبيها، فزوجه إياها، وأصدقها أربعمئة درهم.

فلما بلغ الناس أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تزوج جويرية بنت الحارث وكان بأيديهم بعض الاسرى من بني المصطلق قالوا: أصهار رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأطلقوا ما كان بأيديهم من اولئك الاسرى وكانوا مائة عائلة، فما علم امرأة اعظم بركة على قومها منها، فقد اعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني

-[السيرة النبوية: ٢ / ٢٩٢ و ٢٩٣، وفي السيرة الحلبية: ٢ / ٢٩١: لأرعدت له أنوف، وتعني هذه القولة النبوية الشريفة: ان النبي لو كان يأخذ باقتراح عمر بقتل عبدالله بن أبي لدافع عنه أناس حمية وعصبية، ولكنه اليوم وبعد أن خذله الناس أنفسهم لو أمر النبي أولئك المدافعين بقتله. لقتلوه دون إبطاء.]

(312)

المصطلق.

وهكذا أطلق جميع أسرى بني المصطلق الذين كانوا بأيدي المسلمين رجالا ونساء بفضل ذلك الزواج المبارك، أو قل بفضل هذه السياسة الاجتماعية الحكيمة، وعادوا إلى قبيلتهم. (1)

الفاسق يفتضح:

كان إسلام بني المصطلق اسلاماً نابعاً من قناعة ورغبة لأنهم لم يجدوا من المسلمين خلال مدة الأسر إلا حسن المعاملة والإحسان والعفو حتى أنه تم اطلاق جميع الأسرى ببعض الذرائع وعادوا إلى قبيلتهم وأهليهم.

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أرسل إليهم «وليد بن عقبة بن أبي معيط» لجباية زكاتهم، فلما سمعوا بقدمه خرجوا إليه راكبين ليكرموه وليؤدوا إليه ما عليهم من الزكاة، فلما سمع بهم هابهم، فرجع إلى رسول الله مسرعاً فأخبره بأن القوم هموا بقتله، وأنهم منعه ما قبلهم من صدقتهم، فطلب المسلمون غزوه، وفي الاثناء قدم وفد من بني المصطلق على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقالوا: يا رسول الله سمعنا برسولك حين بعثته إلينا فخرجنا إليه لنكرمه، ونؤدي إليه ما قبلنا من الصدقة فأسرع راجعاً فبلغنا أنه زعم لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أننا خرجنا إليه لنقتله ووالله ماجئنا لذلك. فنزلت في هذا الشأن الآية السادسة من سورة الحجرات تؤيد مقالة بني المصطلق وتصف الوليد بالفسق، إذ يقول تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تُصيبوا قوماً بجاهلة فتنصّبوا على ما فعلتم نادمين.) (2)

-[السيرة النبوية: ٢ / ٢٩٥، امتاع الاسماع: ١ / ١٩٨ و ١٩٩.
-[السيرة النبوية: ٢ / ٢٩٦ و ٢٩٧.]

٤١ قصة الإفك

بقي رئيس حزب النفاق عبدالله بن أبي يواصل تجارته بالجوراري، والإمام يضعهن تحت تصرف الرجال للزنا بهن، ليجني من هذا الطريق أرباحاً طائلة.

حتى بعد دخول الاسلام في المدينة.

فعندما نزلت آيات تحريم الزنا كان ذلك الفاسق يمارس حرقته القذرة، حتى أن إمامه ضقن بهذا العمل الفاجر ذرعاً، فشكيت إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقالت إحداهن: إن سيدي يكرهني على البغاء.

فنزل قوله تعالى في شجب هذا العمل الدنيء:

(وَلَا تُكْرَهُوا فَتْيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتَلُوهُنَّ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. (1)(2))

ولقد اراد رجل يعيث بعفاف النساء كهذا، أن يسيء إلى امرأة ذات مكانة وشخصية في المجتمع الاسلامي⁽³⁾، ويتهمها بالزنا نكابة بالمؤمنين، والمؤمنات، وبغياً وحسداً.

-1 النور: ٣٣.
-2 مجمع البيان: ٤ / ١٤١، الدر المنثور: ٥ / ٤٦.
-3 اخترنا هذا التعبير لورود نوعين من شأن النزول في المقام بحيث لم يتأكد للمؤلف من هي المقصودة هنا، وستقرأ في الصفحات القادمة أدلة عدم ثبوت من عينه البعض.
إن ما يستفاد من الآيات والروايات المرتبطة بهذه القصة تفيد إجمالاً أن امرأة ذات مكانة في المجتمع الاسلامي آنذاك تعرضت لاتهام المنافقين لها، وأما من هي تلك المرأة على وجه التعيين فذلك ما لا يمكن البت فيه، على وجه القطع واليقين.

حقاً إن معاداة النفاق للايمان من أشد أنواع المعاداة، فإن العدو المشرك والكافر يعمد دائماً إلى إشفاء غيظه واطفاء غضبه وحنقه باستخدام عدائه في جميع الموارد والاقوات.

ولكن المنافق الذي يتظاهر بالايمان، ويتستر بالإسلام حيث انه لا يمكنه التظاهر بعدائه، فان عداءه الباطني يتراكم ويتصاعد حتى يصل أحياناً إلى حد الانفجار، لهذا ينطلق المنافق في كيل التهم من دون حساب أو ميزان تماماً كما يفعل المجانين.

ونرى مثل هذه الحالة في عبدالله بن أبي.

ولقد ظهرت ذلّة «عبدالله بن أبي» رئيس حزب النفاق في واقعة بني المصطلق، وقد منعه ابنه من دخول المدينة، ولم يسمح له بدخولها إلا بوساطة من النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وهكذا آل مصير رجل كان يحلم بالملوكية والسلطان إلى أن يمنعه أخصّ أقربائه عن الدخول إلى مسقط رأسه، فيما كان يطلب هو من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يكف عنه ولده.

إن من الطبيعي أن يعتمد رجلٌ مثل هذا إلى فعل كل ما يشفي غليله ويذهب غيظه، ومن ذلك ترويح الشائعات الكاذبة انتقاماً من المجتمع الإسلامي.

فعندما يعجز العدو عن المواجهة المباشرة يعتمد إلى حيك الشائعات، وترويجها واشاعتها ليستطيع من خلال ذلك، توجيه ضربة نفسية إلى المجتمع، وكذا بلبله الرأي العام، وإشغاله بالتوافه وصرفه عن القضايا المهمة والمصيرية.

إن سلاح الشائعات من الأسلحة المدمرة التي يمكن أن تستخدم في تشويه سمعة الأفراد الصالحين، وابعاد الناس عنهم.

المنافقون يتهمون شخصاً نقى الجيب:

يستفاد من الآيات النازلة في قضية «الإفك» أن المنافقين اتهموا شخصاً

(315)

بريئاً كان يتمتع في المجتمع الإسلامي آنذاك بتهمة الزنا، تحقيقاً لمآربهم الدينية، واضراراً بالمجتمع الإسلامي، وقد ردّهم القرآن وشجب عملهم بشدة قل نظيرها، وأبطل خطتهم.

فمن هو - ترى - ذلك البريء؟ ان في ذلك خلافاً بين المفسرين، فالأكثر على أنها «عائشة» زوجة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ويرى الآخرون أنها «مارية» القبطية أم إبراهيم وزوجة رسول الله أيضاً لقد ذكروا أسباباً مختلفة لنزول هذه الآيات لا تخلو عن إشكال. وها نحن ندرس القول الذي يذهب إلى أن المراد في هذه الآيات هو: «عائشة» وتوضيح ما يصح وما لا يصح في هذا المجال:

دراسة القول الأول:

يرى المحدثون والمفسرون من أهل السنة أن نزول آيات «الإفك» يرتبط بعائشة، ويذكرون في هذا المجال رواية مفصلة لا يتلاءم بعضها مع عصمة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومن هنا لا يمكن القبول بهذا القول على إطلاقه.

وها نحن نذكر ما يتلاءم من هذه القصة مع عصمة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثم نستعرض آيات الإفك، ثم نشير إلى القسم الذي يخالف عصمته - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في هذا القول.

إن اسناد هذه الرواية تنتهي برمتها إلى «عائشة (1)» نفسها، فهي تقول: كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إذا أراد سفراً أفرع بين نسائه، فأيهن خرج سهمها خرج بها معه، فلما كانت غزوة بني المصطلق أفرع بين نسائه كما كان يصنع عادة فخرج سهمي عليهن معه فخرج بي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فلما فرغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من سفره ذلك وجه قافلاً حتّى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً، فبات به بعض الليل، ثم أذن في الناس بالرحيل، فارتحل

1-راجع الدر المنثور: ٥ / ٢٤ - ٣٤.

(316)

الناس وخرجت لبعض حاجتي، وفي عنقي عقد لي، فيه جزع ظفار، (أي خرز يميني) فلما فرغت انسلت من عنقي ولا أدري فلما رجعت إلى الرّحل ذهب التمسّه في عنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الذي ذهب إليّ، فالتمسّه حتّى وجدته، وجاء القوم خلافي الذين كانوا يرحلون لي البعير، وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا اليهودج، وهم يظنون أني فيه كما كنت أصنع، فاحتملوه، فشدّوه على البعير ولم يشكّوا أني فيه، ثم أخذوا رأس البعير، فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب، قد انطلق الناس.

فتلقت بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إليّ. فوالله إني لمضطجعة إذ مرّ بي صفوان السلمي (وهو من فرسان الإسلام) وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته، فلم يبيت مع الناس، فرأى سوادي، فاقبل حتّى وقف وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلما رأني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون طعينة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وأنا متلففة في ثيابي. قال: ما خلفك يرحمك الله. فما كتمته، ثم قرّب البعير فقال: إركبي، واستأخر عني فركبت، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعاً يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس، وما افتقدت حتّى أصبحت، ونزل الناس فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا؛ وارتجع العسكر (أي شكوا في) ووالله ما اعلم بشيء من ذلك. حتّى نزلت آيات «الافك» تبرئني مما اتهمني به المنافقون.

هذا القسم من شأن النزول الذي لخصناه لك من قصة مفصلة يمكن تطبيقها مع آيات «الافك»، وليس فيه ما ينافي عصمة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

واليك الآيات التي نزلت في هذا المجال:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ)

(317)

عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ قَالُوا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمْ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَوْهُ بِالْأَسْنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ⁽¹⁾)

أبرز النقاط في آيات «الإفك»:

يستفاد من القرائن أن هذه التهمة كانت نابعة أساساً من المنافقين أي أنه من كيدهم، واليك هذه القرائن:

1- يقال: أن المراد من قوله سبحانه: «وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ» هو «عبدالله بن أبي» رئيس المنافقين، وكبيرهم.

2- لقد عبر تعالى في الآية الحادية عشرة عن الذين اتهموا المرأة بلفظ: «عصبة» وهذه العبارة تستعمل في الجماعة المنظمة، التي يربطها هدفٌ واحدٌ وتحدها غايةٌ واحدةٌ وتفيد أنهم كانوا متعاونين ومتعاضدين في المؤامرة ولم يكن مثل هذه الجماعة بين المسلمين إلا المنافقون.

3- «عبدالله بن أبي» بسبب منعه من الدخول إلى المدينة، بقي عند مدخل المدينة، فلما شاهد عائشة وهي راكبة بعير صفوان استغل الفرصة للايقاع برسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - اشفاءً لغيبه، فبادر إلى استعمال سلاح التهمة والبهتان، وقال إن زوجة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - باتت مع اجنبي في تلك الليلة والله ما نجا منهما من الإثم أحدٌ.

1-النور: ١١ - ١٦.

(318)

4- إنه تعالى يقول في نفس الآية (أي الحادية عشرة): «وَلَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ.»

والآن يجب أن نرى كيف لا يكون إتهام مؤمن طاهر الجيب شراً للمؤمنين بل يكون خيراً لهم؟

إن سبب ذلك هو أنّ هذه القصة كشفت القناع عن نوايا المنافقين ومقاصدهم الشريرة واقتضوا برمتهم، هذا مضافاً إلى أنّ المسلمين أخذوا من هذه القضية دُرُوساً مفيدة، مذكورة في محلها.

الزوائد في هذه القصة:

هذا القدر من القصة يمكن تطبيقه مع القرآن الكريم، ولا يتنافى مع عصمة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولكن البخاري روى بين ثنايا هذه القصة أموراً - نقلها عن الآخرين في الاغلب - تعاني من إشكاليين أساسيين هما:

-1- منافاتها لمقام النبوة والعصمة - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

فقد روى البخاري عن عائشة نفسها قولها:

لما قديمنا المدينة لم أثبت أن أشتكيك شكوى شديدة (أي مرضت) ولا يبلغني من ذلك شيء وقد انتهى الحديث إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وإلى أبوي لا يذكران لي منه قليلاً ولا كثيراً إلا أنني قد أنكرت من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعض لطفه بي، وكنت إذا اشتكيك رحمني ولطف بي، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك، فأنكرت ذلك منه، كان إذا دخل عليّ وعندي أمي تمرضني قال: كيف تيكم، لا يزيد على ذلك. حتى إذا نعت من وجعي بلغني ما قاله المناقون فيّ، فمرضت مرة أخرى فقلت يا رسول الله لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فمرضتني، فقال: لا عليك، فانتقلت إلى أمي، فقلت لأمي: يغفر الله لك تحدثت الناس بما تحدثوا به، ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً، فقالت: أي بُنية هوني

(319)

عليك الشأن فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل لها ضرائر إلا كثرن، وكثر الناس عليها⁽¹⁾.

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - شاور «أسامة بن زيد» في الامر، فأنتى عليّ خيراً وقاله، ثم قال: يا رسول الله أهلك ولا نعلم منهم إلا خيراً، وهذا الكذب والباطل!!

وشاور عليّاً فقال: يا رسول الله إن النساء لكثير، وأتاك لقادرٌ على أن تستخلف، وسل الجارية، فأتها سئدقك (أي جارية عائشة) فدعا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بريرة ليسألها، فقالت: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً.

إن هذا القسم من الرواية يتنافى بقوة مع عصمة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لانه يكشف عن أن النبي وقع فريسة بأيدي الشائعات الكاذبة إلى درجة أنه غير سلوكه مع عائشة، وشاور أصحابه فيها!!

إن مثل هذا الموقف مع شخص بريء لا يوجد على تهمته أي دليل ليس فقط يتنافى مع مقام العصمة النبوية، بل يتنافى حتى مع مقام مؤمن عادي لأنه من المؤمنين ليس من الجائز أبداً أن تتغير الشائعات سلوك مسلم عادي تجاه شخص منهم، وحتى لو تركت تلك الشائعات تأثيراً في نفس المسلم، فليس من الجائز أن تحدث مثل ذلك التغيير والانقلاب في نظرتة وسلوكه.

إن القرآن الكريم يوثق في الآية ١٢ و ١٤ من سورة النور اولئك الذين وقعوا فريسة الشائعات وظنوا الظن السوء إذ يقول تعالى:

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ؟)

1-صحيح البخاري: ج ٦، تفسير سورة النور ص ١٠٢ و ١٠٣ وكذا الجزء ٥ ص ١١٨، السيرة النبوية: ٢ / ٢٩٩.

(320)

(وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ؟) (1)!

فاذا صحَّ هذا القسم من الرواية المذكورة في شأن النزول لزم أن نقول: ان هذا العتاب الشديد وهذا التوبيخ الصارخ كان يعمُّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أيضاً، والحال أن مقام النبوة الذي يلزم العصمة لا يسمح لنا بأن نقول بأن هذا الخطاب والتوبيخ موجَّهين إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

من هنا لا مناص من رفض كل هذه الرواية المذكورة في شأن النزول الذي يتنافى مع عصمة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أو القبول بالقسم الذي لا يتنافى منها مع عصمة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ورفض ما يتنافى معها.

2-سعد بن معاذ توفي قبل حادثة «الإفك»:

ويروي البخاري في صحيحه في ذيل شأن النزول عن عائشة نفسها: بعد أن سأل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بريرة عن أمري، فقالت في خيراً وصعد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: «من يعذرني ممن يؤذيني في أهلي (أي من يؤذيه) ويقولون ذلك لرجل، والله ما علمت على ذلك الرجل إلا خيراً، وما كان يدخل بيتاً من بيوتى إلا معي ويقولون عليه غير الحق. »

فقام «سعد بن معاذ» وقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله إن يك من الأوس آتاك برأسه، وإن يك من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك نمضي لك.

فتقل هذا الكلام على «سعد بن معاذ» وغضب منه، فقام وقال: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله. (2)

[1] أي لماذا - عندما سمعتم بهذا الافتراء - لم تظنوا بأنفسكم خيراً وقلتم: هذا إفك، ولماذا - عندما سمعتم بهذا الكلام - لم تقولوا هذا بهتان لا يجوز ان نتكلم به.
2- كان «سعد بن معاذ» رئيس الأوس و «سعد بن عباد» رئيس الخزرج، وكانت بين هاتين القبيلتين منافسة قديمة، وكان «عبدالله بن أبي» خزرجياً، فاعتبر «سعد بن عباد» كلام «سعد بن معاذ» تعريضاً بالخزرج وخطأ من شأنهم.

(321)

فقام اسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - وقال: كذبت والله لنقتلنه وأنفك راغم. فانك منافقٌ تجادلُ عن المنافقين، والله لو نعلم ما يهوى رسولُ الله من ذلك في رهطي الأدنين ما رام رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مكانه حتى أتيتك برأسه، ولكني لا أدري ما يهوى رسولُ الله.

ثم تغالطوا، وقام الخزرج من جانب، والأوس من جانب آخر، وكادوا أن يشتبكوا ورسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على المنبر، فأشار رسول الله إلى الحيين جمعياً أن اسكتوا، ونزل عن المنبر فهذأهم وخفضهم حتى انصرفوا...

هذا القسم من القصة المذكورة في رواية البخاري غير صحيح، ولا يتلاءم مع التاريخ الثابت الصحيح لأن «سعد بن معاذ» كان قد مات بعد إصدار حكمه في بني قريظة متأثراً بجرح أصابه في معركة «الاحزاب»، وقد وقعت حادثة «الإفك» بعد واقعة بني قريظة، وقد صرح البخاري نفسه بهذا في صحيحه (ج ٥ ص ١١٣) في باب «معركة الاحزاب وبني قريظة»، فكيف يمكن والحال هذه أن يحضر مجلس رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويجادل سعد بن عباد في قصة الإفك التي وقعت بعد واقعة بني قريظة بعده شهور؟⁽¹⁾!

لقد ذهب المؤرخون إلى أن معركة الخندق ثم واقعة بني قريظة وقعتا في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة، فتكون النتيجة ان قضية بني قريظة انتهت في التاسع عشر من شهر ذي الحجة، وقد توفي سعد بن معاذ في أعقاب هذه الحادثة مباشرة لما انفجر به جرحه⁽²⁾ في حين وقعت غزوة بني المصطلق في شهر شوال

[1- نفس المصدر السابق، والجدير بالذكر أن ابن هشام لم يذكر في سيرته «سعد بن معاذ»، ولكنه روى جدال أسيد مع سعد بن عباد راجع السيرة النبوية: ٢ / ٣٠٠، وهكذا فعل ابن الاثير في الكامل في التاريخ: ٢ / ١٣٤، ولكن المغازي ذكر القصة كاملة، واتى باسم سعد بن معاذ راجع: ٢ / ٤٣١.
2- السيرة النبوية: ٢ / ٢٥٠.

(322)

من السنة السادسة.⁽¹⁾

أجل إن ما هو مهم في المقام هو أن نعرف أن حزب النفاق حاول أن يزلزل النفوس، ويبلبلها ببهت امرأة سالحة ذات مكانة في المجتمع الاسلامي يومذاك.

وقد فُسر قوله: **الَّذِي تولى كِبْرَهُ** (أي الَّذِي تحمل القسط الأكبر من هذه العملية الخبيثة بعدالله بن أبي، فهو الَّذِي قاد هذه العملية الرخيصة والخطرة كما صرحت بذلك عائشة نفسها أيضاً).

الرواية الاخرى في سبب النزول:

وتقول هذه الرواية أن الآيات الحاضرة نزلت في «مارية القبطية» زوجة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ووالدة إبراهيم

فان هذه الرواية تقول: لما مات إبراهيم بن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حزن عليه حزناً شديداً، فقالت عائشة: ما الَّذِي يُحزنك عليه؟ ما هو إلا ابن جريح، فبعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - علياً صلوات الله عليه وأمره بقتله، فذهب علي صلوات الله عليه ومعه السيف، وكان جريح القبطي في حائط (أي بستان)، فضرب «علي» باب البستان، فأقبل جريح له ليفتح الباب، فلما رأى علياً صلوات الله عليه، عرف في وجهه الغضب، فأدبر راجعاً ولم يفتح باب البستان، فوثب علي - عليه السلام - على الحائط ونزل إلى البستان، وأتبعه، وولى جريح مدبراً، فلما خشى أن يرهقه (أي يدركه) صعد في نخلة وصعد «علي» في أثره، فلما دنى منه رمى بنفسه من فوق النخلة، فبذت عورته، فاذا ليس له ما للرجال ولا له ما للنساء، فانصرف علي - عليه السلام - إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

-[السيرة النبوية: ٢ / ٢٩٧. ولعله فطن ابن هشام لهذه الناحية فترك ذكر سعد بن معاذ، بينما غفل عنها البخاري في صحيحه، راجع شروح البخاري منها: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر: ٨ / ٤٧١ و ٤٧٢ للوقوف على اضطراب الشرح في معالجة هذا التناقض.

(323)

فقال له: يا رسول الله إذا بعثتني في الأمر أكون كالمسمار المحمى في الوبر أم أتثبت؟

قال: لا بل تثبت.

قال: والَّذي بعثك بالحق ماله ما للرجال وما له ما للنساء.

فقال: الحمد لله الَّذي صرف عنا سوء أهل البيت.

وهذه الرواية التي نقلها «المحدث البحراني» في «تفسير البرهان» ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ و «الحويزي» في تفسير «نور الثقلين»

ج ٣ ص ٥٨١ - ٥٨٢ ضعيفة وغير مستقيمة من حيث المفاد، وهو ضعف ظاهر لا يحتاج إلى البيان.

ومن هنا لا يمكن القبول بها في شأن نزول هذه الآيات.

فالمهم هو وقوع أصل هذه الحادثة، كان من كان المتهّم في هذه الحادثة.

(324)

٤٢ رحلة سياسية دينية

كانت السنة الهجرية السادسة بكل حوادثها المرة والحلوة تقترب من نهايتها عندما رأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المنام أنه دخل البيت (الكعبة) وحلق رأسه، وأخذ مفتاح البيت، وعرف مع المعرفين، فقص - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذه الرؤيا على أصحابه وتفاءل بها خيراً.⁽¹⁾

ولم يلبث أن أمر أصحابه بالتهيؤ للعمرة، ودعا القبائل المجاورة التي كانت لا تزال على شركها وكفرها إلى مرافقة المسلمين في هذه السفارة، ولهذا شاع في جميع أنحاء الجزيرة العربية أن المسلمين سيتجهون في شهر ذي القعدة صوب مكة يريدون العمرة.

ولقد كانت هذه السفارة الروحانية تنطوي - مضافاً إلى العطاء الروحاني والمعنوي - على مصالح إجتماعية وأهداف سياسية، فقد عززت مكانة المسلمين في شبه الجزيرة العربية، وتسببت في انتشار دين التوحيد في أوساط المجتمع العربي آنذاك، وذلك:

أولاً:

لأن القبائل العربية المشركة كانت تتصور أن النبي الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يخالف كل عقائد العرب، وتقاليدهم الشعبية، والدينية حتى فريضة الحج، والعمرة التي كانت تعد من ذكريات الاسلاف ومواريتهم.

[مجمع البيان: ٩ / ١٢٦].

(325)

من هنا كانوا يخافون رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويتوجسون خيفة من دينه، وعقيدته، ولكن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - استطاع في هذه المناسبة باشتراك أصحابه في مراسيم العمرة أن يخفف هذا الخوف لدى القبائل المشركة إلى حد كبير، وأن يوضح بعملة أن رسول الإسلام لا يعارض زيارة بيت الله الحرام، والفريضة المذكورة التي تعد من طقوسهم الدينية، وتقاليدهم المذهبية، بل يعتبرها فريضة مقدسة، فهو مثل والد العرب الاكبر «اسماعيل بن ابراهيم الخليل» عليهما السلام (يعمل على المحافظة على هذه التقاليد الدينية، وبهذا استطاع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يستقطب قلوب

من كان يتوهم أن رسالة «محمّد» ودعوته، ودينه يعارض جميع شؤونهم وتقاليدهم وأعرافهم الدينية، والشعبية، ويخالفها مخالفة مطلقة، ويقال من خوفهم، واستيحاقتهم.

ثانياً:

إذا استطاع المسلمون أن يحرزوا في هذا السبيل نجاحاً، ويؤدوا مناسك العمرة في المسجد الحرام بحرية، أمام أعين الآلاف من المشركين، فإن عملهم هذا بنفسه سيكون تبليغاً ناجحاً للإسلام، لأن أخبار المسلمين ستنتشر بواسطة المشركين الذين قدموا مكة من جميع المناطق لاداء مناسك العمرة، فس يحملون أنباء ما رأوه وشاهدوه من أفعال المسلمين الرشيدة، وأخلاقهم الفاضلة، إلى أوطانهم لدى عودتهم من مكة إلى بلادهم، وبهذا ينتشر نداء الإسلام في تلك المناطق التي لم يستطع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يبعث إليها الدعوة والمبلغين حتى ذلك الحين، ويترك هذا الأمر أثره المطلوب.

ثالثاً:

إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ذكر الناس في المدينة بحرمة الأشهر الحرم ثم أمر المسلمين بأن لا يحملوا معهم من الاسلحة شيئاً إلا السيف الذي يحمله كل مسافر معه.

ولقد جلب هذا الامر عواطف كثير من الغرباء عن الإسلام نحو هذا الدين، وغيّر من نظرتهم السلبية تجاه دعوة الإسلام، لأنهم شاهدوا بأعينهم أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يحرم القتال في هذه الأشهر، ويدافع بنفسه عن

(326)

هذه السنة الدينية القديمة ويدعو إلى رعايتها خلافاً لكل الدعايات التي كانت تبثها قريش عن أن الإسلام لا يحترم هذه الأشهر، ويجيز الاقتتال وسفك الدماء فيها.

لقد فكر القائد الاسلامي مع نفسه بانه لو أصاب المسلمون في هذا السبيل أى نجاح، فانهم يكونون قد حققوا أملاً قديماً من آمالهم التي طالما تشوقوا إلى تحقيقها.

كما انه سوف يستطيع المهاجرون الذي طال بعدهم عن وطنهم، وأهلبيهم، أن يزوروا ذويهم واقرباءهم. هذا إذا سمحت قريش لهم بدخول مكة.

وأما إذامنعتهم قريش عن الدخول في الحرم فان مكانة قريش ستعرض - حينئذ - لخطر السقوط في العالم العربي، وسيلومهم العرب على ذلك، لأن جميع ممثلي القبائل العربية المحايدة ستري كيف عاملت قريش جماعة مسالمة أرادت دخول مكة لأداء مراسيم

العمرة، وزيارة الكعبة المعظمة، ولا تحمل معها أئ سلاح إلا ما يحمله المسافر في سفره عادة، في حين يرتبط المسجد الحرام بالعرب كافة، وإنما تقوم قريش بمجرّد سدائته، وإدارة شؤونه.

وهنا تتجلى حقانية المسلمين بشكل واضح، ويتضح عدوان قريش ويكشف للجميع بطلان مواقفها، فلا تستطيع قريش بعد ذلك أن تواصل تأليبها للقبائل العربية ضدّ الإسلام، وعقد تحالفات عسكرية واتحاد نظامي مع قواها لمحاربة المسلمين لأنها قد منعت الزوار المسلمين أمام أعين الألاف من الحجيج والزائرين من حقهم المشروع.

لقد لاحظ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كلّ هذه الجوانب وغيرها فامر المسلمين بالتوجّه نحو مكة، وأحرم الف واربعمائة⁽¹⁾ أو الف وستمائة⁽²⁾ أو الف وثمانمائة⁽³⁾ في «ذي الحليفة» و قلد سبعين بدنة (بغيراً) وبهذا أعلن عن هدفه من تلك الرحلة.

1- السيرة النبوية: ٢ / ٣٠٩.

2- مجمع البيان: ٢ / ٢٨٨.

3- روضة الكافي: ٣٢٢.

ولقد أرسل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عيناً له ليخبره عن قريش إذا وجدهم في أثناء الطريق.

ولما كان رسول الله بعسفان (وهي منطقة بين الجحفة ومكة) أتاه رجلٌ خزاعيٌّ كان يتقصى الأخبار لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فعاهدوا الله أن لا تدخلها أبداً وهذا «خالد بن الوليد» في خيلهم (وكانوا مائتين) قد قدّموا إلى كراع الغميم. (وهي موضع بين مكة والمدينة أمام عُسفان بثمانية أميال).

فلما سمع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعزم قريش على منعه ومنع أصحابه من العمرة قال:

«يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحربُ ماذا عليهم لوخلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرّين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظنُّ قريش، فوالله لا أزال اجاهد على الذي بعثني الله به حتّى يظهره الله، أو تنفردُ هذه السالفة»⁽¹⁾ أي أُقتل أو أموت.

ثم طلب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من يذّله على طريق آخر غير الطريق الذي هم بها لكي يتجنب مواجهة طليعة قريش بقيادة «خالد بن الوليد». »

فتعهد رجل من بني أسلم بذلك فسلك برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه طريقاً وعرأ كثيرة الحجارة بين شعاب حتى انتهوا إلى منطقة سهلة تدعى بالحديبية، فبركت هناك ناقرة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - « ما هذا لها عادة، ولكن حبسها حابسُ الفيل بمكة.(2)»

ثم أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الناس أن ينزلوا في ذلك المكان فنزلوا.

[السالفة: صفحة العنق، وكفى بهذه الجملة عن الموت لأنها لا تتفرد عما يليها إلا بالموت.
2-بحار الانوار: ٢٠ / ٣٢٩ وغيره. وقد أشار بهذا الكلام إلى واقعة الفيل.

(328)

ولما علمت طليعة قريش بمسير رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، لحقت به، حتى اقتربت منه وحاصرت موكبه ورجاله فكان على النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إذا أراد أن يواصل سيره باتجاه مكة ان يخترق صفوف رجال قريش، فيسفك دماءهم ويعبر على أجسادهم، وحينئذ كان الجميع يرى أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لا يهدف العمرة والزياره بل يريد الحرب والقتال، فكان مثل هذا العمل يسيء إلى سمعة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويضر بهدفه السلمى.

ثم أن قتل هؤلاء النفر من طليعة قريش لا يزيل جميع الموانع من طريقه، لأن قريشاً كانت تبعث بإمدادات مستمرة، ولم يكن لينته إلى هذا الحد.

هذا مضافاً إلى أن المسلمين ما كانوا يحملون معهم - حينذاك - إلا ما يحمله المسافر العادى من السلاح، ومع هذه الحال لم يكن القتال أمراً صحيحاً، وحكيماً بل كان يجب ان تحل المشكلة عن طريق التفاوض.

ولهذا عندما نزل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في تلك المنطقة قال:

« لا تدعوني قريش اليوم إلى خُطة يسألونني فيها صلوة الرحم إلا أعطيتهم إياها.(1)»

ولقد بلغ كلام رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذا مسامع الناس، وكان من الطبيعي أن يسمع به العدو أيضاً، ولهذا بعثوا برجال من شخصياتهم إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليتعرفوا على هدفه الاصيلي من هذا السفر.

مندوبو قريش عند النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

بعثت قريش بعدة مندوبين إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليتعرفوا على مقصده وهدفه في هذا السفر.

وكان أول أولئك المبعوثون هو: «بديل بن ورقاء الخزاعي» الذي أتى

رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في رجال من خزاعة فكلموه نيابة عن قريش وسألوه: ما الذي جاء به؟ فقال لهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«إننا لم نجيء لقتال أحد، ولكننا جئنا معتمرين.»

فرجعوا إلى قريش وأخبروهم بأن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يات لقتال وإنما جاء معتمراً زائراً لبيت الله، ولكن قريشاً لم يصدقوهم وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا تحدث بذلك عنا العرب.

ثم بعثوا «مكرز بن حفص» فسمع من النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما سمعه سابقه، فعاد وصدق ما أخبر قريشاً به، ولكن قريشاً لم تصدق مكرزاً أيضاً كما لم تصدق سابقه.

فبعثت في المرة الثالثة الحليس بن علقمة⁽¹⁾ وكبير رماة العرب، لحسم الموقف، فلما رآه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مقبلاً قال:

«إن هذا من قوم يتألهون (أي يعظمون أمر الله) فابعثوا الهدى فيوجهه حتى يراه.»

فلما رأى الحليس، الهدى يسيل عليه من غرض الوادي في قلائده، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إغظماً لما رأى، فقال لهم: يا معشر قريش والله ما على هذا حالناكم، ولا على هذا الذي عاقدناكم، أبصد عن بيت الله من جاء معظماً له وقد ساق الهدى معكوفاً إلى محله؟!، والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وما جاء له، أو لأنقرن بالأحابيش نفرة رجل واحد، وهكذا امتنع الحليس من مواجهة رسول الله بالقوة واستخدام العنف معه لصدده، وقد لاحظ بأعينه ان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمين لا يريدون إلا العمرة والزيارة لا القتال

والحرب، بل عاد يهدد قريشاً إذا هي أرادت صدّه عن ذلك.

فشق هذا الكلام وهذا التهديد على قريش وخافوا من مخالفته، فقالوا: مه، كفّ عنا يا خُلَيْسِ حَتَّى نَأْخُذَ لَأَنْفُسِنَا مَا نَرْضَى بِهِ.

ثم بعثوا أخيراً «عروة بن مسعود الثقفي» وكان رجلاً لبيباً تطمئن قريش إلى درايته وحكمته وخبره وكان لا يحب أن يمثل قريشاً في هذه المفاوضات لما رآه من معاملتهم مع الممثلين السابقين، ولكن قريشاً تعهدت له بان تقبل بما يقول، وأعلنت له عن ثقها الكاملة به، وبما سيخبر به، وبأنه غير متهم عندهم.

فخرج من عندهم حتى أتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فجلس بين يديه ثم قال: يا محمد جمعت أوشاب الناس (أي أخلاطهم) ثم جئت بهم إلى أهلك وقبيلتك، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمر، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً، (أو قال: أن يقرؤا عنك ويدعوك).

وعندما بلغ ابن مسعود في كلامه إلى هذا قال له أبو بكر وكان جالساً خلف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : أنحنُ ننكشفُ عنه، وندعه؟

لقد كان «عروة» كأى دبلوماسي ماكر، يحاول إضعاف معنويات أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بكلامه، وروغانه.

وأخيراً انتهت المباحثات دون جدوى. وهنا جعل «عروة» يتناول لحية رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ازدراء به - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، والمغيرة بن شعبة - وكان واقفاً على رأس رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - - يقرغ يده إذا تناول لحية النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويقول اكف يدك عن وجه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قبل أن لا تصل إليك.

فسأل عروة: يا محمد من هذا؟ فقال النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة (ويبدو أن جميع من كان حول النبي آنذاك أو بعضهم كانوا مقتنعين رعية للظروف الأمنية).

(331)

فغضب عروة وقال: «أي عُذْر، وهل غَسَلْتُ سَوْءَتِكَ إِلَّا بِالْأَمْسِ» وكان المغيرة قد قتل قبل إسلامه ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف فودى عروة المقتولين وأصلح الأمر.

فقطع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الكلام على عروة وقال له مثل ما قال لبديل ورفيقه، وأنه لم يأت يريد حرباً، بل جاء يريد العمرة، ولاجل أن يرى عروة مكانته بين أصحابه وأتباعه، قام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتوضأ أمامه، فرأى عروة بأمر عينيه كيف أنه لا يتوضأ إلا وتسابق أصحابه على النقاط القطرات المتناثرة من وضوئه، فرجع إلى قريش وقال لهم: يا معشر

قريش إتي قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإتي والله ما رأيت مَلِكاً في قوم قطّ مثَل محمّد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يُسلّمونهُ لشيء قطّ فَرُوا رأيكم. (1)

رسول الله يبعث مندوباً إلى قريش:

لم تثمر الاتصالات التي جرت بين مبعوثي قريش، وبين رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فكان من الطبيعي أن يتصور رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أنّ مبعوثي قريش لم يستطيعوا نقل هدفه إلى قريش، وإسماعهم الحقيقة، وأنّ اتهامهم لهم بالجن والكذب منعهم من قبول ما قد أخبروا به، ولهذا قرّر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يبعث هو مندوباً عنه إلى رؤوس الشرك ليوضح لهم هدف رسول الإسلام من هذا السفر، وأنه ليس لإزيارة بيت الله وأداء مناسك العمرة لا غير.

فاختار رجلاً لبيباً حازماً من بني خزاعة يدعى «خراش بن أمية» فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على بعير يقال له «الثعلب». ليلبغ أشرافهم عنه ما جاء له من

[المغازي: ٢ / ٥٩٨، امتاع الاسماع: ١ / ٢٨٧].

(332)

الزيارة والعمرة، فدخل مكة، وبلغ سادة قريش رسالة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولكن قريشاً - خلافاً لكل الأعراف الدولية والاجتماعية قديماً وحديثاً. والقاضية بحصانة السفراء وضرورة احترام كل مما يمت إليهم بصلة من ممتلكاتهم عمدت إلى جعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الذي امتطاه سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى مكة فعقروه عدواناً، وكادوا أن يقتلوا سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نفسه، ولكن وساطة جماعة من قادة العرب ادت إلى أن تخلى قريش سبيله حتى أتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

إن هذا العمل الدنيء أثبت - بوضوح - أن قريشاً لم تكن تريد السلام بل كانت دائماً في صدد اشعال فتيل الحرب.

ولم تلبث قريش أن كلّفت خمسين رجلاً من فتيانها بالطواف بعسكر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بغية أخذ شيء من أمواله، أو أسر بعض أصحابه لو اتيح لهم ذلك، ارباباً للمسلمين وتخويفاً لهم. ولكن هذه الخطة فشلت فشلاً ذريعاً، فان هؤلاء لم يصيبوا شيئاً بل أسرهم المسلمون جميعاً وأتى بهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فعفا عنهم، وخلى سبيلهم مع أنهم كانوا قد رموا عسكر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالحجارة والنبل.

وبهذا ثبت رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مرة أخرى أنه يحب السلام ويسعى إليه وانه جاء معتمراً لا معتدياً ولا

محارباً. (1)

النبي يبعث سفيراً آخر إلى قريش:

رغم كل هذه الأمور ورغم كل التصلب والتعصب الذي أبدته القيادة القرشية المشركة ضد الإسلام والمسلمين و ضد محاولات رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - السلمية لم ييأس رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من تحقيق السلام

[1-تاريخ الطبري: ٢ / ٢٧٨.

(333)

فقد كان يريد - واقعاً - أن يعالج المشكلة من طريق المفاوضات، ومن طريق تغيير التصورات التي كان يحملها اشراف قريش و سادتها المتعنتون المتصلبون عن رسول الله و دعوته.

ومن هنا كان يجب هذه المرة أن يختار - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رجلاً لم تخض يده في دماء قريش، ولهذا لم يصلح «علي بن أبي طالب» ولا «الزبير» ولا غيرهم من فرسان الإسلام وشجعانه الذين جالدوا صناديد قريش في ميادين القتال وأردوا فريقاً منهم صرعى، لمثل هذه السفارة، وهذه المهمة.

ولهذا تقرر - بعد التأمل - انتداب «عمر بن الخطاب» لهذه المهمة، أي الذهاب إلى مكة، والتحدث إلى سادة قريش، ورؤسائها، لأنه لم يكن قد أراق من المشركين حتى ذلك اليوم ولا قطرة دم، ولكن «عمر» اعتذر عن تحمل هذه المسؤولية، والقيام بهذه المهمة المحفوفة بالمخاطر قائلاً: يا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ؛إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدى (وهم عشيرته) من يمنعي، ولكني ادلك على رجل أعزبها مني، «عثمان بن عفان». (لكونه أموياً بينه وبين أبي سفيان زعيم قريش قرابة).⁽¹⁾

فدعا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «عثمان بن عفان» فبعثه إلى «أبي سفيان» وأشراف قريش، ليخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه انما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمة.

فخرج عثمان إلى مكة، فلقه «أبان بن سعيد بن العاص» حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فانطلق «عثمان» حتى أتى أبا سفيان وأشراف قريش فبلغهم عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطُف،

(334)

فامتنع عثمان عن الطواف إحتراماً لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ثم إن قريشاً احتبست عثمان عندها، ولعلهم فعلوا ذلك ريثما يتوصلوا إلى حلٍّ ثم يطلقوه ليبلغ إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رأيهم.

بيعة الرضوان:

إلا أن إبطاء مبعوث النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن العودة من مكة أوجد قلقاً شديداً في نفوس المسلمين، خاصة وأنه شاع أن عثمان قد قتل، فثارت ثورة المسلمين، واستعدوا للانتقام من قريش وعمد النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أيضاً إلى مخاطبتهم قاتلاً:

«لا تبرح حتى نناجز القوم.»

وذلك تقوية لارادة المسلمين، وتحريكاً لمشاعرهم الطاهرة.

وفي هذه اللحظات الخطيرة، وفي ما كان الخطر على الابواب، وبينما لم يكن المسلمون متهيئين للقتال قرر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يجند بيعته مع المسلمين.

فجلس رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تحت شجرة، وأخذ أصحابه يبايعونه على الاستقامة والثبات والوفاء واحداً واحداً، ويحلفون له أن لا يتخلوا عنه أبداً، وأن يدافعوا عن حياض الإسلام حتى النفس الأخير، وقد سميت هذه البيعة ببيعة «الرضوان» التي جاء ذكرها في قوله تعالى:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا.)⁽¹⁾

فأتضح موقف المسلمين بعد هذه البيعة، فإما أن تسمح لهم قريش بدخول مكة لزيارة بيت الله المعظم، وإما أن تتصلب في موقفها الرافض فيكون بينهم

(335)

وبينما كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في هذه الحال إذ طلع عليهم «عثمان بن عفان»، وكان ذلك بنفسه طليعة سلام كان يريده رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فأخير عثمان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن الذي يمنع قريشاً من السماح لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بدخول مكة هو اليمين التي الزموا بها انفسهم أن لا يدعوه يدخل مكة هذا العام وانهم سيبعثون إليه من يتفاوض معه بهذا الشأن.

سهيل بن عمرو يفاوض رسول الله:

بعثت قريش - في المرة الخامسة - «سهيل بن عمرو» إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقد كلفته بانهاء المشكلة ضمن شروط خاصة سنقروها في ما يأتي.

فأقبل «سهيل بن عمرو» على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولما رآه النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: قد أراد القومُ الصلح حين بعثوا هذا الرجل.

فلما انتهى «سهيل» إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تكلم في المسألة كما يتكلم أي دبلوماسي بارع، فقال وهو يحاول إثارة عواطف النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأحاسيسه:

يا أبا القاسم إن مكة حرمتنا وعزنا، وقد تسامعت العربُ بك إنك قد غزوتنا ومتى ما تدخل علينا مكة عنوة تطمعُ فينا فنتخطف، وإنا لنذكرك الحرم، فإن مكة بيضتك التي تفأقت عن رأسك.

فقال له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: فما تريد»؟

1- ولقد كان لهذه البيعة في نفسها أثرٌ سياسي مهم في نفس العدو، يقول الواقدي: فلما رأت عيون قريش سرعة الناس إلى البيعة وتشميرهم إلى الحرب اشتدَّ رعبهم وخوفهم وأسرعوا إلى القضية (ج ٢ ص ٦٠٤). وراجع امتاع الاسماع: ١ / ٢٩١ أيضاً.

قال: أريد أن أكتب بيني وبينك هُدنة على أن أخليها لك في قابل⁽¹⁾ فتدخلها، ولا تدخلها بخوف ولا فزع، ولا سلاح إلا سلاح الراكب، السيف في القراب.

فقبل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعقد مثل هذا الصلح.

وهكذا أدت مفاوضات «سهيل» مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى عقد صلح شامل وواسع بين قريش وبين المسلمين

ولقد تشدد «سهيل» في شروط هذا الصلح كثيراً، حتّى كاد أن ينتهي هذا التشدد إلى قطع المفاوضات أحياناً، ولكن حيث أن الطرفين كانا يرغبان في الصلح والموادة، لهذا كانا يستأنفان التفاوض والتفاوض مرة أخرى، بعد كل أزمة تطرأ على المباحثات.

وأخيراً انتهت مفاوضات الجانبين - رغم كل ما أبداه مندوب قريش من التصلب - إلى عقد وثيقة موادة وهذنة نُظمت في نسختين ووقع عليها الجانبان.

ويروي كافة المؤرخين وارباب السير أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - استدعى علياً - عليه السلام - (، وامره أن يكتب تلك الوثيقة قائلًا له: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» فكتب «علي» ذلك فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم!!

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :اكتب: باسمك اللهم وامح ما كتبت. ففعل «علي» ذلك.

ثم قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :اكتب «هذا ما صلح عليه رسول الله سهيل بن عمرو.»

فقال سهيل، لو أحببتك في الكتاب إلى هذا لأقررت لك بالنبوة فامح هذا الاسم واكتب: محمد بن عبد الله (أو قال: لو شهدت أنك رسول الله لم اقاتلك ،

- [أي افرغ لك مكة في العام القادم لتدخلها.

(337)

ولكن اكتب اسمك واسم ابيك.)

ولم يرض بعض من حضر من المسلمين في هذه النقطة بأن يرضخ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لمطالب «سهيل» إلى هذه الدرجة، ولكن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الذي كان يلاحظ مصالح عليا غفل عنها ذلك البعض كما سنذكرها فيما بعد رضي بمطلب «سهيل»، وقال لعلي - عليه السلام - : (أمحها يا علي).

فقال علي - عليه السلام - (بأدب بالغ: يا رسول الله إن يدئ لا تنطق لمحو اسمك من النبوة.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :فضع يدي عليها، فمحي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بيده كلمة: رسول

الله نزولا عند رغبة «سهيل» مفاوض قريش. (1)

ان التسامح الذي أبداه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في تنظيم وثيقة الصلح هذه لا يعرف له نظير في تاريخ العالم كله، لأنه اظهر بجلاء أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يقع فريسة بيد الالهواء والاعراض الشخصية والعواطف والاحاسيس العابرة، وكان يعلم أن الحقائق لا تتبدل ولا تتغير بالكتابة والمحو، من هنا تسامح مع مفاوض قريش «سهيل» الذي تصلّب في مطالبه غير المشروعة كثيراً، حفاظاً على أصل الصلح. وحرصاً على السلام.

التاريخ يعيد نفسه:

ولقد ابتلى عليّ (- عليه السّلام -) تلميذ النبي الأول بمثل هذه التجربة المرّة بعد

-[الارشاد: ص ٦٠، اعلام الوري: ١٠٦، بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٦٨ وقد اخطأ الطبري في هذا المقام إذ قال: في احدى رواياته لهذه الحادثة: قال لعلي - عليه السّلام - : أمخ «رسول الله»، قال: لا والله لا أمحك أبداً فأخذه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وليس يحسن يكتب فكتب مكان «رسول الله»: محمّد. وهكذا نسب الكتابة إلى شخص رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ونحن نعلم انه أمي . لا يحسن الكتابة، وقد حققنا هذه المسألة في المجلد الثالث من موسوعة مفاهيم القرآن ٣١٩ - ٣٧٤.

(338)

رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فيوم امتنع عليّ - عليه السّلام - عن محو كلمة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن اسم النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال له النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«يا عليّ إنّك أبيت أن تمحو اسمي من النبوّة فوّ الذي بعثني بالحق نبياً لتجيبنّ أبناءهم إلى مثلها وأنت مضيض مضطهد»⁽¹⁾»

ولقد بقيت هذه القضية في ذاكرة عليّ - عليه السّلام - ، حتّى إذا كان يوم «صفين» وخذع أصحاب الامام عليّ - عليه السّلام - بالأسلوب الماكر الذي اتبعه جيش الشام الذي قاتل علياً - عليه السّلام - بقيادة معاوية بن أبي سفيان ومساعدة عمرو بن العاص، وأجبروا الامام - عليه السّلام - على عقد الصلح مع معاوية فشكّل الجانبان لجنة لتنظيم وثيقة ذلك الصلح، كُلف «عبيدالله بن رافع» كاتب الامام من جانب الامام عليّ - عليه السّلام - بأن يكتب وثيقة الصلح، فكتب:

«هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين عليّ» قال عمرو بن العاص ممثل معاوية في تلك المفاوضات: لو علمنا أنك أمير المؤمنين لم

ننازك!!

وهكذا طالب عمرو بن العاص بحذف عبارة أمير المؤمنين.

وطال الكلام والتشاجر في هذا الموضوع، ولم يكن الامام عليّ يريد ان يعطي حجة للبطاء من أصحابه، ولهذا لم يرضخ لهذا
المطلب، ولكنه بعد إلحاح من أحد قادة جيشه سمح بأن يمحي لقب «أمير المؤمنين» من اسمه ثم قال: «اللّٰه اكبر سنّةً بسنة. »
وهو بذلك يشير إلى حديث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - له يوم الحديبية. (2)

1-الكامل في التاريخ: ٢ / ١٣٨، بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٥٣.
2-الكامل في التاريخ: ٣ / ١٦٢، راجع المصدر لتقف على القصة بكاملها ولتقف على مدار بين الامام وابن العاص.

(339)

نص صلح الحديبية:

وأخيراً عُقدت إتفاقية صلح وهدنة بين رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقريش تضمنت المواد والشروط التالية:

- 1-تعهد المسلمون، وقريش بترك الحرب عشر سنين يأمنُ فيهن الناسُ، ويكف بعضهم عن بعض.
- 2- من أتى محمّداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمّد لم يردّه عليه.
- 3- من أحبّ أن يدخل في عقد محمّد وعهده (أي يتحالف معه) دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.
- 4- إنّ محمّداً يرجع بأصحابه إلى المدينة عامه هذا ولا يدخل مكة، وانما يدخل مكة في العام القابل في أصحابه فيقيم فيها ثلاثة أيام، لا يدخل فيها بسلاح إلا سلاح المسافر، السيوف في القرب. (1)
- 5-ان لا يستكره أحدٌ على ترك دينه ويعبد المسلمون الله بمكة علانية وبحرية، وان يكون الإسلام ظاهراً بمكة وان لا يؤذى أحد ولا يعير. (2)
- 6- لا إسلا (سرقة) ولا إغلال (خيانة) بل يحترم الطرفان أموال الطرف الآخر، فلا يخونه ولا يسرق منه. (3)
- 7-ان لا تعين قريش على محمّد وأصحابه أحداً بنفس ولا سلاح. (4)

هذا هو نص وثيقة «صلح الحديبية»، وقد جمعنا بنوده من المصادر المتنوعة

1-السيرة الحلبية: ٣ / ٢١.
2-بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٥٢.
3-مجمع البيان: ٩ / ١١٧ أو: «من قدم مكة من أصحاب محمّد حاجاً أو معتمراً أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر أو الشام فهو آمن على دمه وماله.»
4-بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٥٢.

التي أشرنا إلى بعضها في الهامش، وقد كتبت هذه الوثيقة في نسختين، ثم وقع عليها جماعة من شخصيات قريش، والمسلمين وشهدوا عليها وأعطيت نسخة إلى «سهيل بن عمرو» ممثل قريش، وُثِّرت نسخة عند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

نشيد الحرية:

لقد كان كل عاقل لبيب يحسن تقدير الامور يسمع نشيد الحرية من ثنايا هذا الصلح التاريخي، ومع أن كل بنود هذه المعاهدة جديرة بالاهتمام والاكبار، إلا أن النقطة التي تستحق الاهتمام والتقدير أكثر من سواها هي المادة الثانية في هذا الصلح، وهي المادة التي أزعجت بعض الصحابة يوم انعقاد تلك المعاهدة.

فقد انزعج صحابة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من هذا التمييز الصارخ، وقالوا حول قرار القيادة الحكيمة المتمثلة في قائد محتك كرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما كان ينبغي أن لا يقولوه، في حين تعتبر هذه المادة من أعظم بنود الوثيقة إذ تعكس نظرة رسول الإسلام وتفكيره حول كيفية تبليغ الإسلام وإشاعته ونشره، فانه يظهر منها - وبجلاء - مدى إحترام رسول الإسلام لمبدأ الحرية.

ولقد قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في معرض الاجابة على من اعترض من صحابته على البند القاضي بتسليم كل مسلم فرّ من قريش إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمين إلى قريش، دون العكس قائلاً:

«مَنْ جَاءَهُمْ مِنَّا فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ رَدَدْنَاهُ إِلَيْهِمْ فَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ مِنْ قَلْبِهِ جَعَلَ لَهُ مَخْرَجاً.»

وأراد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن الذي يهرب من جماعة المسلمين ويلجأ إلى المشركين فلا قيمة لإيمانه وإسلامه، إذ أن ذلك يدل على أنه لم يؤمن بهذا الدين حق الإيمان فلا داعي لأن يعاد إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إذ

لا اكراه في الدين وأما من هرب من المشركين إلى المسلمين فلو علم الله منه الصدق لنجاه حتماً.

ولقد كانت نظرية النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ورأيه متطابقاً كل التطابق مع موازين العقل والمنطق السليم، وقد تجلت صوابيته وحقانيته مع مضي الزمن في ما بعد، لانه لم يمض زمن طويل إلا وقريش - وبعد سلسلة من الحوادث المؤسفة - طلبت بنفسها إلغاء هذه المادة كما سيأتي بيانه في ما بعد.

إن هذه المادة تعد رداً فاطماً على تقولات وتخرّصات المستشرقين المغرضين الذين يصرون على القول بأن الإسلام انتشر بالسيف

انهم حيث لا يتحملون رؤية هذا الامتياز العظيم الذي كسبه الإسلام الحنيف، حيث انتشر في مدة قصيرة جداً في شتى نقاط العالم ويقاعه، حتى كاد أن يعمّ المعمورة كلها، ولهذا اضطروا إلى إغراء انتشار الإسلام إلى عامل استخدام القوة، وقالوا: إن الإسلام انتشر بالقوة، ليشوهوا بذلك ملامح الإسلام ويخفوا الحقيقة خلف غطاء من الراجيف، في حين أن هذا الميثاق الذي عقد في الجزيرة العربية أمام عين المئات من المسلمين وغير المسلمين ويعكس بجلاء روح الإسلام وحقيقة تعاليمه السامية، ومع هذا يكون من مجانية الواقع القول بأن الإسلام انتشر بقوة السيف. لا بالدعوة الحرة، والتبليغ والإرشاد.

هذا ولقد تحالفت قبيلة خزاعة - مع المسلمين في ضوء المادة الثالثة من الميثاق، بينما تحالفت قبيلة بني كنانة - وكانوا أعداء تقليديين لخزاعة مع قريش.

آخر الجهود للحفاظ على عملية الصلح:

كانت مقدمات الميثاق المذكور، وبنوده توحى بصورة جليّة وكاملة بأن أكثرها قد فرضت فرضاً على المسلمين، فلو أن رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قبل بامحاء كلمة «رسول الله» من اسمه، وبدأ الميثاق بعبارة «باسمك اللهم» على عادة الجاهلين بدل البسملة الكاملة فان غايته من ذلك كانت هي الحفاظ على

(342)

الصلح، وقرار الأمن في الجزيرة العربية.

ولو ان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رضي بأن يسلم المسلمين الهاربين من قبضة المشركين إلى جماعة المسلمين، ويعيدهم إلى القيادة الوثنية في مكة فان بعض ذلك كان بسبب تصلّب سهيل ممثل قريش وتعنّته، ولو أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ماكان يرضخ لهذا الشرط (استجابة لرغبة الرأي العام الاسلامي الذي كان مخالفاً لمتل هذا الشرط ومعارضاً لا عادة المسلمين الهاربين من مكة إلى قريش، وحفاظاً على حقوق أولئك الأشخاص الهاربين) لتعطلت عملية السلام، ولما تحقق الصلح، ولفاتت المسلمين هذه النعمة الكبرى التي انطوت على آثار عظيمة في المستقبل كما أثبتت الوقائع في ما بعد.

من هنا قاوم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كل الضغوط من جهة، وتحمل عملية فرض هذا الشرط من جهة أخرى، ليصل إلى المقصد الأعلى والهدف الأكبر الذي تتضاءل تجاهه هذه المتاعب.

ولو كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يراعي الرأي العام ويلاحظ حقوق هذه الجماعة، لكان «سهيل» يتسبب - بسبب تصلبه الارعن - في اشتعال نائرة الحرب.

والقصة التالية تشهد بما تقول:

حينما انتهت مفاوضات السلام، وبينما كان الامام علي (- عليه السلام -) يكتب وثيقة المودعة والصلح دخل أبو جندل بن سهيل في مجلس النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو يرسف في الحديد.

فتعجب الجميع من حضوره هناك، إذ كان محبوساً في سجن أبيه سهيل (المفاوض) مدة طويلة.

ولم يكن لابي جندل من ذنب إلا أنه اختار التوحيد عقيدة، والإسلام ديناً، ورفض الوثنية والشرك وكان يحب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حباً شديداً فحبسه أبوه.

(343)

وكان أبو جندل قد بلغه أمر المفاوضات هذه، فهرب من محبسه وانفلت إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سالماً إليه طرقاتاً وعرة في الشعاب، والوديان.

فلما رأى «سهيل» ابنه أبا جندل وقد هرب من سجنه، ولجأ إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قام إليه فضرب وجهه، واخذ بتلابيبه ثم قال: يا محمد لقد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيتك هذا، وهذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تردّه.

ولا شك أن كلام «سهيل» كان باطلاً، ولا مبرر لطلبه، لأن الميثاق لم تتم كتابته على الورق، ولم يوقع عليه الطرفان، ولم ينته - بالتالي - من مرحله النهائية والأخيرة بعد، فكيف يمكن الاستناد إليه، ولهذا أجابه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قائلاً:

«إنا لم نرضَ (نقض) بالكتاب بعد. (1)»

فقال سهيل: إذا والله لا أصلحك على شيء أبداً، حتى تردّه الّ، ولم يزل يصرّ على كلامه ورفضه هذا حتى أنزع اثنتان ممن رافقه من شخصيات قريش هما مكرز وحويطب من تصلب سهيل وتشدده.

ثم قاما وأخذا أبا جندل من أبيه وأدخلاه خيمة وقالوا: نحن نجبره.

ولقد فعلا ذلك حتى يُنهي ذلك التنازع، والجدال، ولكن إصرار سهيل على موقفه، أبطل تدبيرهما إذ قال: يا محمد لقد لجت القضية

بينني وبينك قبل أن يأتيتك هذا. (2)

فاضطُرَّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى أن يقوم بأخر سعي في طريق الحفاظ على الهدنة والصلح الذي كان له أثر عظيم في انتشار الإسلام ولهذا رضى بردّ أبي جندل إلى والده، لإعادته إلى مكة، ثم قال لذلك المسلم الاسير تطبيقاً لخاطره:

1-بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٣٤.
2-السيرة الحلبية: ٣ / ٢١ لَجَّت: وجبت وتمت.

(344)

«يا أبا جندل، إصبر واحتسب، فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهدَ الله، وإنا لا نغدرُ بهم. »

وانتهت جلسة المفاوضات، وتمّ التوقيع على نسختي الميثاق، وعاد سهيلٌ ورفاقه إلى مكة، ومعهم «أبو جندل» ابن سهيل في جوار مكرز وحويطب، ونحر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما كان معه من الهدى⁽¹⁾ في نفس ذلك المكان وحلق فنحر جماعة من المسلمين وحلقوا.⁽²⁾

تقييم عاجل لصلح الحديبية:

بعد أن فرغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من عقد صلح الحديبية بينه وبين رؤوس الشرك، وبعد أن توقف في أرض الحديبية مدة ١٩ يوماً عاد هو وأصحابه إلى المدينة، وعاد المشركون إلى مكة.

هذا وقد نشبت مشاجرات ومشادات كلامية حين تنظيم ذلك الميثاق وكتابته، بين أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فمنهم من كان يعتبر ذلك الصلح في صالح الإسلام وقليل منهم كان يعدّه مضرراً بمصلحة الإسلام والمسلمين.

ولقد انقضى الآن أكثر من أربعة عشر قرناً على عقد ذلك الصلح التاريخي العظيم فلندرس معاً تلك المعاهدة بموضوعية وتجرد، ونستعرض طرفاً من تلك الاعتراضات والمجادلات لتقف على معطيات تلك العملية، ونتائجها.

ان الذي نراه هو: ان هذا الصلح كان في صالح الإسلام مائة بالمائة، وانه هو الذي جعل أمر انتصار الإسلام قطعياً،

1- أي الابل التي ساقها معه.
2-تاريخ الطبري: ٢ / ٢٨١، بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٥٣، السيرة النبوية: ٢ / ٣١٨، امتاع الاسماع: ١ / ٣٩٤ و ٣٩٥.

(345)

لا شك فيه، واليك أدلة هذا الرأي:

1- إن حملات قريش المتتابة على المسلمين، والتحريكات الداخلية والخارجية التي أشرنا إليها في حوادث «أحد» و «الاحزاب» على نحو الاختصار، لم تترك للنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فرصة لنشر الإسلام بين القبائل، وفي المناطق المختلفة خارج شبه الجزيرة العربية.

من هنا كان - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يصرف أكثر أوقاته الثمينة في الدفاع والعمل على إفشال المؤامرات الخطرة التي كان العدو الداخلي والخارجي يحيكها باستمرار.

ولكن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فرغ باله بعد عقد صلح الحديبية مع قريش من ناحية الجنوب، فتهيأت الأرضية لانتشار الإسلام في المناطق الأخرى.

وقد ظهر أثر هذا الهدوء والاستقرار بعد سنتين من عقد تلك المعاهدة، فقد كان مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الحديبية ألف و أربعمئة ولكنه عند ما توجه إلى مكة لفتحها بعد عامين خرج معه عشرة آلاف، وكان هذا التفاوت من نتائج صلح الحديبية مباشرة، لأن بعض الناس كانوا يخشون قريشاً فلا يلتحقون بالمسلمين لذلك السبب، ولكن بعد أن اعترفت قريش بالكيان الإسلامى بصورة رسمية، وأعطيت للقبائل الحرية الكاملة للانضمام إلى المسلمين زال الخوف المذكور عن كثير من القبائل، فاستطاع المسلمون أن يستغلوا تلك الفرصة ويقوموا بنشاط تبليغي ودعوة واسعة إلى الإسلام.

2- إن النتيجة الثانية التي حصل عليها المسلمون من هذه المعاهدة هي زوال الستار الحديبي الذي كان قد ضربه المشركون بين الناس وبين الإسلام، فقد سمح ذلك الصلح بالسفر إلى المدينة فكان الناس في سفرهم إلى المدينة يحتكون بالمسلمين ويلتقون بهم، فيتعرفون على تعاليم الإسلام السامية.

ولقد اثار نظم المسلمين، و إخلاصهم، وطاعة المؤمنين الكاملة لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إعجاب المشركين كما أثار نفاة المسلمين، في أوقات الصلاة خاصة، وصفوفهم المتلاحمة أثناء هذه العبادة المباركة، وخطب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

الرائعة، واللذبة، وآيات القرآن الكريم البليغة، والسهلة في نفس الوقت رغبة قوية في نفوس الكفار إلى الإسلام. هذا مضافاً إلى أن المسلمين استطاعوا بعد عقد ذلك الميثاق السفر إلى مكة وشتى نقاط الجزيرة بحجج مختلفة، والإتصال بذويهم واقاربهم، والتحدث معهم في أمر الإسلام وتعاليمه المقدسة المحببة، وقوانينه وآدابه الرائعة، وما جاء به من حلال و حرام.

وقد تسيّبت كل هذه الامور في أن يلتحق كثير من رؤوس الشرك والكفر كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص بالمسلمين، ويعتقوا ذلك الدين قبل فتح مكة، وأن تساعد هذه المعرفة بحقائق الإسلام والاطلاع على مزاياه وفضائله على تسهيل عملية فتح مكة، وانهيار صرح الوثنية فيها من دون أية مقاومة من أهل مكة، بحيث سيطر المسلمون عليها بسهولة وأقبلت أفواج الناس تدخل في دين الله راغبة كما ستعرف تفاصيل ذلك في حوادث السنة الثامنة.

إن هذا الانتصار العظيم كان نتيجة الاتصالات التي اجراها المسلمون مع ذويهم وأصدقائهم في مكة خلال ترددهم المتكرر بعد زوال الخوف والحصول على الحرية في الدعوة بفضل صلح الحديبية.

3- إن الاتصال برؤوس الشرك أثناء عقد اتفاقية السلام مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الحديبية، ساعد على ازالة كثير من العقد النفسية التي كانوا يعانون منها تجاه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، لأن أخلاق النبي الرفيعة، وحلمه وصبره أمام تعنت قادة المشركين وتصلبهم وعتوهم، وسعيه الحثيث وحرصه الصادق على تحقيق السلام، أثبت لهم بأن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - معدنٌ عظيمٌ من معادن الخلق الانساني الكريم.

فبالرغم من أنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد أصيب على أيدي قريش بخسائر فادحة، وناله منهم أذى كثير، إلا أن فؤاده كان طافحاً بمشاعر اللطف، والحب والحنان على الناس.

(347)

لقد رأت قريش بام عينها كيف أنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خالف في عقد ميثاق الصلح آراء جماعة من أصحابه، المعارضة لبعض بنود الاتفاقية رغبة منه في تحقيق السلام، وكيف أثر الحفاظ على حرمة المسجد الحرام على هواه، ورغبته الشخصية.

إن هذا النوع من السلوك أبطل مفعول جميع الدعايات السيئة التي كانت تُروّج ضد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومواقفه وخلقته، وأفكاره واثبتت للجميع أنه حقاً رجلُ سلام، وداعية خير للبشرية، وأنه حتى لو سيطر على مقاليد الجزيرة العربية، لما عامل أعداءه إلا بالحسنى واللطف، لأنه لم يكن مشكوكاً فيه بأنه لو كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يخوض حرباً ضد قريش في ذلك اليوم لغلغلبها وهزمها شر هزيمة كما يصرح بذلك القرآن الكريم أيضاً إذ يقول:

(وَلَوْ قَاتَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَّالِيًّا وَ لَا نَصِيرًا.)⁽⁴⁾

ومع ذلك أبدى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تسامحاً كبيراً، وأعلن عن عطفه، وحنانه للمجتمع العربي، وبذلك أبطل كل الدعايات التي كانت تُروّج ضده، وضدّ دعوته العظيمة المباركة.

من هنا نهتدي إلى مغزى ما قاله الامام الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) (عن أهمية هذا الصلح حيث قال:

«وما كان قضية أعظم بركة منها.»

إن الحوادث اللاحقة اثبتت أن اعتراض عدد ضئيل من صحابة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب على هذا الصلح كان باطلاً ولا مبرر له.

وقد أدرج أرباب السير والتاريخ جميع هذه الاعتراضات، كما تنقل ردّ النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عليها، ويمكن للوقوف عليها مراجعة السيرة النبوية

- [الفتح: ٢٢.

(348)

لابن هشام، وامتاع الاسماع وغيرهما ان قيمة هذه المعاهدة تتجلى من ان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يصل إلى المدينة حتى نزلت سورة الفتح التي وعدت المسلمين وبشترتهم بالانتصار ويمكن اعتبار هذا العمل مقدمة لفتح مكة كما يقول تعالى: **إنا**

فتحننا لك فتحاً ميبناً. (١)

قريش تصرُّ على إلغاء أحد بنود المعاهدة:

لم يمض زمان طويل حتى أجبرت الحوادثُ المُرّة قريشاً على أن تبعث إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من يطلب منه إلغاء المادة الثانية من معاهدة صلح الحديبية، وهي المادة التي أغضبت بعض صحابة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأثارت سخطهم، وقبل بها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تحت إصرار من «سهيل» ممثل قريش في مفاوضات الحديبية.

تلك المادة التي تقول: على الحكومة الإسلامية أن تعيد كل مسلم هارب من مكة إلى حكومة مكة، ولكن لا يجب على قريش أن تعيد كل هارب من المسلمين إلى مكة، إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

وقد أثارت هذه المادة - المجحفة في الظاهر - سخط البعض وإعتراضهم، ولكن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال لابي جندل في وقته:

«إنَّ اللهَ جاعِلٌ لك وِ لِمَن معك مِنَ المستضعفينَ فَرَجاً و مَخْرَجاً.»

ثم إن مسلماً آخر يدعى «أبوصير» كان قد حبسه المشركون ردحاً طويلاً من الزمن استطاع أن يفرّ من محبسه ويصل إلى المدينة، وقد وصلها سعيّاً على قدميه، فكتب شخصيتان من شخصيات قريش هما: «أزهر» و «الأخنس» كتاباً إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يطلبان منه إعادة أبي بصير إلى قريش

-[بحار الأنوار: ٢٠ / ٢٦٣ نقلاً عن اعلام الورى، وزاد المعاد في هدى خير العباد: ٢ / ١٢٦ .

(349)

ويذكرانه بالمعاهدة وأرسله مع رجل من بني عامر يرافقه غلامه، فدفع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «أبا بصير» إلى الرجلين عملاً بالمعاهدة قائلاً:
«يَا أَبابصير إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا قَدْ عَلِمْتَ (أَي مِّنَ الْعَهْدِ) وَلَا تَصْلِحْ لَنَا فِي دِينِنَا الْغَدْرُ وَإِنِ اللَّهُ جَاعِلٌ لِّكَ وَ لِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَرَجاً وَ مَخْرَجاً.»⁽¹⁾

فقال أبوصير: يا رسول الله تردني إلى المشركين؟!

فقال له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثانية:

«إِنْ طَلِقَ يَا أَبَا بَصِيرَ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ لَكَ مَخْرَجاً.»

ثم دفعه إلى العامري وصاحبه فخرج معهما باتجاه مكة.

فلما كانوا بذي الحليفة (وهي قرية تبعد عن المدينة بستة أميال يحج منها بعض أهل المدينة) صلى أبوصير ركعتين صلاة المسافرين ثم مال إلى أصل جدار فأتكأ عليه، ووضع زاده الذي كان يحمله وجعل يتغدى وقال لصاحبيه في لهجة الصديق: أدنوا فكلوا؟ فأكلوا معه ثم أنسهم ثم قال للعامري: ناولني سيفك انظر إليه إن شئت أصارم هو أم لا؟ فناوله العامري سيفه وكان أقرب إلى السيف من أبي بصير، فجرّد أبوصير السيف وقتل به العامري في اللحظة، فهرب الغلام يعدو نحو المدينة خوفاً، وسبق أبابصير إلى المدينة، وأخبر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بما جرى لسيدته العامري، فبينما رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جالس في أصحابه والغلام عنده يقصّ عليه ما جرى إذ طلع أبوصير، فدخل على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المسجد وقال: وَفَتَ ذِمَّتُكَ، وَأَدَّى اللَّهُ عَنكَ، وَقَدْ أَسْلَمْتَنِي بِيَدِ الْعَدُوِّ، وَقَدْ امْتَنَعْتُ بِدِينِي مِنْ أَنْ أُفْتَنَ.

ثم إن أبابصير بعد أن قال هذا الكلام خرج من عند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وغادر المدينة، ونزل ناحية على ساحل البحر، على طريق قافلة قريش

إلى الشام، تسمى «العيص». »

وعرف المسلمون الذين حُبسوا بمكة بهذا التطور، ففرّ منهم سبعون رجلاً، وانضمّوا إلى أبي بصير وكانوا ممن نالهم على يد قريش أشدُّ العذاب والعنت، فلا حياة ولا حرية لهم.

من هنا قرّروا أن يتعرضوا لاقافلة قريش التجارية ويغيروا عليها، أو يقتلوا كلَّ من وقعت يدهم عليه من قريش.

وقد لعبت هذه الجماعة دورها بصورة رائعة جداً بحيث أفلقت بال قريش، وسلبت منها الرقاد إلى درجة أنهم كتبوا إلى رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - يطلبون منه إلغاء هذه المادة (أي المادة الثانية). بموافقة الطرفين وقد أعلنوا موافقتهم على إلغائها، وإعادة أبي بصير وجماعته إلى المدينة والكف عن التعرض لتجارة قريش.

فوافق رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - على إلغاء تلك المادة، وطلب من المسلمين في منطقة «العيص» القدوم إلى المدينة .

وبهذا توفّرت فرصةً طيبةً لجميع المسلمين، كما عرفت قريش أنها لا تستطيع سجن المؤمن، وحبسه في القيد، وان تقييده وحبسه أخطر بكثير من إطلاق سراحه، لأنه سيفرّ ذات يوم وهو يحمل روح الانتقام على سجّانه.

النساء المسلمات لا يُسلّمن إلى قريش:

بعد أن تم الاتفاق والتوقيع على معاهدة صلح الحديبية هاجرت «أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط» في تلك المدة، فخرج أخوها «عمارة» و «الوليد» ابنا عقبة حتّى قدما على رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - يسألانه أن يرّد اختهما عليهما بالعهد الذي بينه وبين قريش في الحديبية، فلم يفعل ذلك رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - وقال لهما:

«إن الله تَقَضَّ العَهْدَ في النساء.»⁽¹⁾

وقد نزل قوله تعالى يوضح حكم هذا الامر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمَ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا.)^(١)

كانت هذه قصة «الحديبية»، وقد أستطاع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في ظلّ الهدوء والأمن اللذين تحققا بسبب معاهدة الحديبية أن يرسل قادة العالم وزعماءه، وأن يبلغ نباً دعوته إلى مسامح شعوبهم، وستقف على مفصل هذا القسم من تاريخ الإسلام المشرق في الفصل القادم.

-[الممتحنة: ١٠.]

(352)

حوادث السنة السابعة من الهجرة

٤٣

النبى يعلن عن رسالته العالمية

لقد أراحت معاهدة الحديبية بال رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من ناحية الجنوب (أي مكة)، وقد آمن برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولبى دعوته في ظل الهدوء والأمن والاستقرار الحاصل بسبب هذا الصلح جماعة من زعماء العرب ورجالها البارزين.

واغتنم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذه الفرصة ففتح على ملوك العالم وزعماء القبائل، ورجال الدين المسيحي يومذاك باب المراسلة، فكتبهم ووجه اليهم رسائل كثيرة عبر رسله وسفرائه، وقد عرض فيها عليهم رسالته ودعوته التي كانت يومذاك لا تخرج عن صورة العقيدة البسيطة وكان في مقدورها أن تضم تحت لواء التوحيد، وفي اطار التعاليم الاخلاقية والانسانية كل البشرية.

وقد كانت هذه هي الخطوة الأولى التي خطاها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد ١٩ عاماً من الصراع مع قريش العاتية

ولو أن الاعداء الداخليين لم يشغلوه بالصراعات والحروب لاستطاع رسول الإسلام ان يقوم بتوجيه دعوته إلى شعوب العالم آنذاك قبل هذا الوقت، ولكن الحملات الظالمة والمضايقات الشديدة التي قام بها العرب الوثنيون الجهلة طوال ما يقرب من عقدين من عمر

الرسالة أجبرت رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على أن يصرف قسماً عظيماً من أوقاته الغالية في ترتيب شؤون الدفاع عن حياض الإسلام وكيان المسلمين.

(353)

إن الرسائل التي وجهها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى الامراء والسلاطين، وإلى رؤساء القبائل، والشخصيات الدينية والسياسية البارزة داخل الجزيرة العربية وخارجها لدعوتهم إلى الإسلام تكشف عن طريقته في الدعوة والتبليغ، والارشاد والهداية

وبين أيدينا الآن نصوص ١٨٥⁽¹⁾ رسالة وكتاب من مكاتيب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ورسائله التي دعا فيها من أرسلها إليهم، إلى الإسلام، أو كتبه التي تشكل معاهداته ومواثيقه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - التي أعطاها أو عقدها مع الاطراف المختلفة وقد جمعها، وضبطها أرباب السير وكتّاب التاريخ وهي تكشف برمتها عن أسلوب الإسلام في الدعوة والتبليغ يعتمد على المنطق والبرهان، لا على السيف والقهر وعلى الاقناع لا الاكراه.

فيوم اطمأن بال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأمن جانب قريش وحلفائها، وجّه ندائه الالهي إلى مسامح البشرية في العالم وذلك عن طريق ارسال الرسائل، أو بعث المبلغين والدعاة إلى شتى أنحاء العالم.

إن نصوص هذه الرسائل، والاشارات الموجودة في خلالها، ونصائحه التي كان يوجهها - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى الناس، والتسامح الذي كان يبديه من نفسه خلال عقد الاتفاقيات وإبرام المعاهدات مع الاجانب، تشكل برمتها شواهد قاطعة، ودامغة ضدّ نظرية المستشرقين الذين أرادوا مسح وجه الإسلام

- [لقد اجتهد علماء الإسلام في جمع واحصاء رسائل النبي الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وكتبه قدر المستطاع، وإن أكمل المصادر الحاضرة من حيث الاستقصاء وسعة التتبع كتابان يتسمان بأهمية كبرى في هذا المجال وهما:
أ- الوثائق السياسية تأليف البرفيسور محمد حميد الله حيدرآبادي، الاستاذ بجامعة باريس.
ب- مكاتيب الرسول تأليف العلامة المحقق المحترم الشيخ علي الاحمدي.
والكتاب الأخير يمتاز بتحقيقات وتحليلات أدبية، وتاريخية وسياسية إسلامية في غاية الأهمية.

(354)

المشرق، بكيل الاتهامات الباطلة له، والزعم بأن تقدم الإسلام وانتشاره كان بفعل القهر، وبقوة السيف، وتحت عامل الفرض والاجبار واننا لنأمل أن نوفق ذات يوم لدراسة وتقييم تلك الرسائل والكتب واستجلاء هذه النقاط المذكورة واستخراج خطوط السياسة

النبوية ومعالم الدعوة المحمدية، من ثانياً تلكم الرسائل والكتب التاريخية الخالدة لنستطيع من خلال هذا العمل بيان أسلوب الإسلام في نشر دينه في شتى نقاط العالم.

الرسالة المحمدية كانت عالمية:

ينظر بعض الجهلة إلى مسألة عالمية الرسالة المحمدية بنظر الشك والترديد، وهم يتبعون في مثل هذه النظرة الجاهلة ما يروجه بعض الكتاب العملاء، وفي مقدمة هؤلاء المغرضين مستشرق معاد للإسلام هو «السير ويليم موير» الذي يقول: إن موضوع عالمية الرسالة المحمدية قد ظهر وتبلور في ما بعد، وأن محمداً إقتصر في دعوته من بدء رسالته إلى لحظة وفاته على العرب، ولم يكن «محمداً» يعرف أي مكان غير الجزيرة العربية.

ولقد اتبّع هذا المستشرق نهج أسلافه الإنجليز، وحاول التعظيم على الحقيقة في مقابلة الآيات الكثيرة التي تشهد - بجلاء - بأن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يدعو البشر عامة إلى التوحيد والاعتقاد برسالته وقال: إن محمداً كان يقتصر في دعوته على العرب خاصة⁽¹⁾.

ونحن هنا ندرج بعض الآيات التي تشهد بأن رسالة الإسلام وأن الدعوة المحمدية كانت منذ بداية ظهورها دعوة عالمية، ويمكن مراجعة كتب التفسير والعقائد للوقوف على المزيد من التوضيح في هذا المجال.

- [ها هنا مسألتان يجب التمييز بينهما:

أ- عالميّة الرسالة المحمّدية.

ب - خاتمية الرسالة المحمّدية.

وفي الأولى تعالج مسألة عالميّة رسالة النبيّ محمّد وعدم عالميتها وانه - صلى الله عليه وآله وسلم - هل كان مبعوثاً لخصوص سكان الجزيرة العربية أم لعموم البشر، وللناس كافة، في حين أن المحور في المسألة الثانية هو أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - هل هو آخر نبي أو لا على أنه يمكن ان يقول البعض ان دينه كان عالمياً إلا أن نبوته لم تكن خاتمة النبوات بل سيأتي بعده نبي آخر وشريعة أخرى. من هنا لابد من البحث - في النبوة الخاصة - حول كلا - المسألتين بصورة مستقلة، وقد بحثنا المسألتين في الجزء الثالث من مفاهيم القرآن بصورة موسعة.

(355)

آيات تدل على عالمية الرسالة المحمدية:

1- وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً و نذيراً.⁽¹⁾

2- وما هو إلا ذكرٌ للعالمين.⁽²⁾

3- لينذرن من كان حياً.⁽³⁾

4- هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله و لو كره المشركون.⁽⁴⁾

والآن نسأل هذا الكاتب الإنجليزي: كيف تقول - مع هذه الدعوة العالمية - أن موضوع عالمية الرسالة الإسلامية قد ظهر وتبلور في ما بعد.

فهل مع وجود هذه الآيات ونظائرها ومع وجود سفراء رسول الله ومبعوثيه إلى المناطق النائية، والبلاد البعيدة، وإلى نصوص الرسائل التي بقيت مسجلة في صفحات التاريخ عن رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وخاصة ما بقي منها محفوظاً بعينه إلى الآن في المتاحف العالمية الكبرى يبقى مجال لأن يشك أحدٌ في عالمية رسالته.

والعجيب أن الكاتب المذكور يكتب بكل وقاحة قائلاً: ان محمداً لم يكن

- 1-سياً: ٢٨.
- 2-القلم: ٥٢.
- 3-بيس: ٧٠.
- 4-التوبة: ٣٣.

(356)

يعرف غير الحجاز، في حين أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سافر يوم كان في ربيعته السادس عشر مع عمه أبي طالب إلى الشام كما سافر إلى الشام في تجارة خديجة في سنّ الخامسة والعشرين، مع قافلة قريش التجارية.

حقاً ان من العجيب العجائب أننا كلما قرأنا في التاريخ أن شاباً يونانياً (هو الاسكندر المقدوني) كان يريد أن يسيطر على العالم، أو نسمع أن نابليون بونابرت كان يفكر في أن يكون امبراطور العالم الوحيد لم يبعثنا كل ذلك على الاستغراب والدهشة ولكن كلما يسمع فريق من المستشرقين بأن قائد المسلمين الأعلى وجّه دعوة الإسلام - وبأمر الله - إلى زعماء عصره العالميين الذين كان بينهم وبين قومه علاقات تجارية عريقة انكروا ذلك وبوقاحة، واعتبروه أمراً محالاً.

رُسُلُ الإسلام إلى المناطق النائية:

طرح رسول الإسلام قضية دعوة الملوك والامراء إلى الإسلام على شورى كبيرة من أصحابه كغيرها من المسائل المهمة فقال:

«أيها الناس ان الله قد بعثني رحمة وكافة فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم. »

فقال أصحابه: وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟ قال:

«دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلم واما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتناقل. »

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - اختار ستة أشخاص من خيرة أصحابه وكتب معهم كتاباً إلى الملوك تضمنت دعوته العالمية، وبعثهم إلى مختلف نقاط الأرض.

وهكذا توجه سفراء الهداية ورسول الدعوة المحمدية في يوم واحد إلى إيران، والروم، والحبشة، ومصر، واليمنية، والبحرين، والحيرة، و (الأردن) وسوف نقرأ معاً

(357)

مفصل ما احتوته رسائله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - . (1)

وعندما فرغ من كتابة الرسائل المذكورة قال بعض ذوي الاطلاع والعلم بأحوال بلاطات الملوك آنذاك لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يا رسول الله: إن الملوك لا يقرأون كتاباً إلا مختوماً، فاتخذ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يوماً خاتماً من فضة، فصّه منه، نقشه ثلاثة أسطر: محمّد رسول الله، في الاعلى لفظة الجلالة وتليه كلمة رسول الله ثم يليه اسمه الشريف، وختم به الكتب.

ولم يكتف بهذا بل ختم تلك الرسائل بالشمع أو الطين إمعاناً في السرية، والحفاظ عليها من التزوير. (2)

أوضاع العالم أيام إبلاغ الرسالة العالمية:

كانت الامبراطوريتان (الرومية والفارسية) تقتسمان آنذاك قيادة العالم، وكانت الحروب قائمة بين دينك المعسكرين على قدم وساق، ومنذ زمن بعيد.

فلقد بدأ الصراع على النفوذ بين إيران والروم منذ عهد الهخامنشيين، واستمرّ حتى عصر الساسانيين ملوك إيران.

فكان الشرق تحت النفوذ الايراني، كما كانت العراق واليمن وشيء من آسيا الصغرى تعدّ من توابع الامبراطورية الايرانية ومستعمراتها.

وأما الامبراطورية الرومية فقد كانت منقسمة يومذاك إلى معسكرين شرقي وغربي لأن «تتودوز الكبير» امبراطور الروم قسم بلاده في سنة (٣٩٥) ميلادية بين ولديه، ومن هنا ظهرت الروم الشرقية والروم الغربية.

وقد انقضت الروم الغربية على أيدي متوحشي وبرابرة شمال أوربا، ولكن

1-السيرة النبوية: ٢ / ٦٠٦، الطبقات الكبرى: ١ / ٢٦٤، السيرة الحلبية: ٣ / ٢٤١ - ٢٤٢، بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٨٢.

2-السيرة الحلبية: ٣ / ٢٤٠ و ٢٤١.

الروم الشرقية التي كان مركزها يومذاك «القسطنطينية» وكانت تسيطر على الشام ومصر، فكانت تسيطر أبان ظهور الإسلام على قدر كبير من مقاليد السياسة العالمية إلى أن فتحت القسطنطينية عام (١٤٥٣) على يد السلطان محمد الثاني «محمد الفاتح»، وبذلك غربت شمس دولة الروم الشرقية، واضمحت نهائياً.

وقد كانت أرض الحجاز محاصرة بين هذين القطبين ومحاطة بهاتين القوتين العظيمنتين، ولكن حيث أن أراضي الحجاز لم تكن أراض خصبة، وكان أهلها في الأغلب من الرحل المتفرقين في البراري والقفار، لذلك لم تُبد كلتا الامبراطوريتين رغبتهما في الاستيلاء على تلك الأراضي، فقد كان الفساد والظلم، والحروب التي اتسمت بها طبيعة وحياة تينك الدولتين تمنعهما من الاطلاع على أي تغيير اجتماعي أو تحول سياسي يقع في هذه المنطقة من العالم.

فهم لم يكونوا يتصورون قط أن يتمكن شعبٌ - كان بعيداً عن روح الحضارة والمدنية - من وضع نهاية لإمبراطوريتهم، بفضل ما أتوا من إيمان، وانارة النقاط - التي كانت ترزح في ظلام جور السلطات الرومية وظلمها - بنور الإسلام المشرق، ولو كانوا يعرفون شيئاً عن هذه النهضة المشرقة وهذا الانفجار المعنوي العظيم في بدء حدوثه لقضوا عليه في أول الأمر، ولم يتركوه يمتد إلى ملكهم، ويقلب كل شيء رأساً على عقب.

رسول النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في أرض الروم:

كان قيصر الروم قد عاهدَ الله إذا غلب الفرس أن يسير إلى بيت المقدس من عاصمته: «القسطنطينية» مشياً على قدميه للزيارة، شكرًا لله وقد وفى بنذره هذا بعد انتصاره على إيران.

فكَلَفَ «دحية الكلبي» بإيصال كتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى قيصر، وكان دحية قد سافر مراراً إلى الشام، وكان عارفاً بمناطقها وعاداتها معرفة كاملة، وكان إلى ذلك جميل الصورة حسن السيرة، ولهذا كان جديراً بتحمل هذه

المسؤولية الخطيرة لانقائها.

وقد توجه إلى «القسطنطينية» رأساً بعد أن كلفه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بإيصال كتابه إلى قيصر، ولكنه ما أن وصل إلى بصرى (من مدن الشام) إلا وبلغه أن قيصرًا قد فارقه قاصداً بيت المقدس ولهذا بادر إلى الاتصال بحاكم بصرى: (1) «الحارث بن أبي شمر» واخبره بالمهمة الخطيرة التي جاء من أجلها.

يقول مؤلف الطبقات الكبرى: بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر يدعو إلى الإسلام وكتب معه كتاباً، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر، (ولعل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يعرف بمغادرة قيصر لعاصمة ملكه أو لعل ذلك الأمر كان مراعاة لامكانيات دحية المحدودة، وكون السفر إلى القسطنطينية كان يتطلب جهداً كبيراً أو لا يخلو من محاذير).

فدفعه عظيم بصرى إليه وهو يومئذ بحمص، وذلك بان استدعى عدي بن حاتم ووجهه مع سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليوصل كتابه إلى قيصر، فذهب به إليه ولما أراد الدخول على قيصر قال قومه لدحية: إذا رأيت الملك فاسجد له، ثم لا ترفع رأسك حتى يأذن لك.

فقال دحية: لا افعل هذا أبداً، ولا أسجد لغير الله! (أي انني قد جئت لتحطيم هذه السنن الجاهلية المقيتة فكيف أخضع لها، انما جئتكم من قبل نبي لا يبلغ ملككم بأن عهد عبادة البشر قد انقضى وانتهى وأنه لا يحق السجود إلا لله وحده، فكيف يمكنني ذلك وأنا أحمل هذه الرسالة التوحيدية اليكم؟!)(2)

ولقد أعجب قوم قيصر بمنطق دحية القوي، وموقفه الصلب، فقال له رجل منهم: أنا أدلك على أمر يؤخذ فيه كتابك، ولا تسجد له، ضع صحيفتك تجاه

- [كانت بصرى مركز محافظة حوران التي كانت تعد من مستعمرات قيصر. وكان الحارث بن أبي شمر - وبصورة عامة - جميع ملوك بني غسان، من ولاية قيصر على تلك المناطق.
-2 الطبقات الكبرى: 1 / 209.

المنبر فان أحداً لا يحركها حتى يأخذها هو، ثم يدعو صاحبها فشكر دحية الرجل، وأخذ بنصيحته، وفعل ما اشار به.

فلما أخذ قيصر الكتاب وجد عليه عنوان كتاب العرب فدعا المترجم الذي يقرأ بالعربية فاذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام اسلم تسلم يوتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين⁽⁴⁾ ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا

بأننا مسلمون. محمد رسول الله.»

قيصر يحقق حول النبي:

احتمل حاكم الروم اللبيب أن يكون كاتب هذه الرسالة هو: «احمد الموعود» الذي بشرت به الانجيل والتوراة، ولهذا قرّر أن يحقق حول شخصيته، ويتعرف على خصوصيات حياته، الدقيقة.

فبعث أحداً إلى الشام فوراً ليأتني له بقريب لمحمّد، أو من يعرف شيئاً عنه. حتّى يسأله عن شخصية رسول الإسلام - صلّى الله عليه وآله وسلم - فاتفق أن كان أبو سفيان بن حرب يومذاك بالشام للتجارة في ركب من قريش، فأخذهم

- [بين العلماء في تفسير هذه اللفظة خلاف، فيقول ابن الأثير: قيل هم الخدم والخول وقال بعض: هم الاكارون (أي الفلاحون) لأن أكثر الناس يومذاك كانوا من الفلاحين، وهم اطوع الناس للحاكم. ويؤيد هذا الرأي الأخير أنه جاء في بعض النسخ (الكامل: ٢ / ١٤٥) كلمة الاكارين بدل الاريسيين والاكار هو المزارع، واحتمل البعض أن يكون الاريسيون طائفة كانت تعيش في الروم.

(361)

صاحب شرطة «قيصر» إلى بيت المقدس، فدخلهم على «قيصر» في مجلسه وحوله عظماء الروم.

فقال قيصر: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟.

فقال أبو سفيان: أنا أقربهم نسباً.

فقال قيصر: أدنوه منّي، وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائلٌ هذا عن هذا الرجل، فإن كذّبني فكذّبوه.

ثم طرح قيصر على أبي سفيان الاسئلة التالية:

1- كيف نسبُ محمّد فيكم؟

هو فينا ذو نسب.

2- فهل قال هذا القول منكم أحد قبلة؟

لا.

3- فهل كان في أبائه من ملك؟

لا.

4- فأشرف الناس أتبعوه أم ضعفواهم؟

بل ضعفواهم.

5- أيزيدون أم ينقصون؟

بل يزيديون.

6- فهل يرتدّ منهم أحد سُخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟

لا.

7- فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

لا.

8- فهل يغدر؟

لا.

9- فهل قاتلتموه؟

(362)

نعم.

10- فكيف كان قتالكم إيّاه؟

الحربُ بيننا وبينه سجال، ينالُ منا وننالُ منه.

11- فماذا يأمركم؟

أعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول أبائكم، ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والصلة، ويأمرنا بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة.

فقال قيصر للترجمان قل لأبي سفيان ومن معه: إن كان ما تقول حقاً فسيملكُ موضعَ قدمي هاتين فهذه صفة نبيّ، وقد كنت اعلم أنه خارج لم اكن أظنه منكم، فلو أنّي أعلمُ أنّي أخلصُ إليه لتجشمتُ لقاؤه، ولو كنتُ عنده لغسلتُ قدميه!!

فاعترض ابن أخي قيصر على كتاب رسول الله وقال لعمه: قد ابتداءً بنفسه وسماك صاحب الروم.

فقال قيصر: والله انك لضعيف الرأي. أتري أرمي بكتاب رجل يأتيه الناموس الاكبر، وهو أحقُّ أن يبدأ بنفسه، ولقد صدق أنا صاحب الروم، والله مالكي، مالكة.

قال أبوسفيان: فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الاصواتُ عنده، وكثر اللغظه، فأمر بنا فأخرجنا قال: قلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أمرَ أمرُ ابن أبي كيشة، أنه ليخافه ملك بني الأصفر.

وروي أيضاً أن أباسفيان قال: لما سألني قيصر عن رسول الله جعلتُ ازهدُ له شأنه، وأصغرُ له أمره واقول له: أيها الملك، ما يهملك من أمره، إن شأنه دون ما يبلغك، وجعل قيصر لا يلتفت إلى ذلك، ثم قال: أنبئني عما أسألك من شأنه.⁽¹⁾

[بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٨٤ - ٣٨٦، تاريخ الطبري: ٢ / ٢٩٠ و ٢٩١.

(363)

أثر رسالة النبي إلى قيصر:

لم يكتف قيصر بالمعلومات التي حصلها من أبي سفيان حول رسول الإسلام - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بل كتب إلى أحد علماء الروم وأسأفتهم يسألهم عن هذا الأمر.

فأجابه ذلك الاسقف: هذا النبي الذي كنا ننتظره، بشرنا به عيسى بن مريم.

فعمد قيصر إلى خطة ليجسّ بها نبض قومه، ويختبرهم ويعرف ما إذا كانوا يرضون بإسلامه أولاً، فجمع عظماءهم في صومعة له بحمص فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد، وان يثبت لكم ملككم وتتبعون ما قال عيسى بن مريم.

فقال الروم: وما ذاك أيها الملك؟

قال: تتبعون هذا النبي العربي.

فتاروا في وجهه، ورفعوا الصليب، فلما رأى منهم ذلك يؤس من اسلامهم وخافهم على نفسه وملكه، فسكنهم ثم قال: إنما قلت لكم ما قلتُ اختبركم لأنظر كيف صلابتكم في دينكم، فقد رأيتُ منكم الذي أحبّ. فسكنوا ورضوا عنه. ثم أمر باكرام دحية، وكتب جواباً على رسالة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأرسله مع دحية وارسل بهدية إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .⁽¹⁾

سَفِيرِ النَّبِيِّ فِي الْبِلَاطِ الْإِيرَانِي:

يوم توجه سفير رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بكتابه إلى البلاط الإيراني

-[الطبقات الكبرى: ١ / ٢٥٩ - ٢٦٠، السيرة الحلبية: ٣ / ٢٤٥ - ٢٤٦، الكامل في التاريخ: ٢ / ١٤٤، بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٧٩.

(364)

كان الملك الذي يحكم هذه الأرض الواسعة هو «خسرو پرويز» ثاني ملك بعد انوشيروان، الذي جلس على العرش الملكي الإيراني مدة ٣٢ عاماً قبل الهجرة النبوية المباركة.

وقد واجهت حكومة هذا الملك خلال مدة سلطانه أنواعاً عديدة من الحوادث المرة والحلوة، وكانت مكانة ايران في عهده تعاني من الاضطراب، وعدم الاستقرار بشكل ملحوظ.

وقد امتدّ النفوذ الإيراني ذات يوم حتى شمل آسيا الصغرى، وامتدّ إلى مشارف القسطنطينية، وأتى بصليب عيسى الذي كان أقدس شيء عند النصارى إلى طيسفون (المدانن)، فطلب سلطان الروم الصلح وبعث سفيراً من قبله إلى البلاط الإيراني لعقد معاهدة الصلح.

بيد أنّ سوء تدبير الملوك في تلك الدولة العظمى، وانغماسهم في اللذة والمجون أكثر من المتعارف تسبب في أن تصبح ايران على حافة السقوط والانهيار في أواخر العهد الساساني، فقد خرجت المستعمرات من تحت النفوذ الإيراني الواحدة تلو الأخرى، واجتاح العدو الرومي الأراضي الإيرانية إلى الاعماق، ووصل الأمر بخسرو پرويز امبراطور ايران إلى أن يهرب من وجه الروم الغزاة، وقد أثار هذا الهروب الخانع وهذه الهزيمة المنكرة سخط الشعب يومذاك، فقتل بيد ابنه «شبرويه» .»

ويُعزي محلّو التاريخ القديم تخلف إيران وضياع قوتها إلى غرور قادتها وحكامها وميلهم إلى البذخ والترف، وهناء العيش ورغد الحياة، والزينة واللذة. ولو كان ذلك الملك يتلقى رسالة السلام التي عرضها الإسلام بالصورة اللائقة لبقيت عظمة إيران على حالها في ظل هذا السلام دون أن يصيبها ما أصابها.

ولو أن رسالة رسول الإسلام لم تترك أثراً حسناً في نفس «خسرو پرويز» يومذاك فإن ذلك لم يكن لتقصير أو عيب في تلك الرسالة أو في سلوك حاملها

(365)

إلى البلاط الإيراني، بل كان لنفسية ذلك الحاكم المغرور، المنحرفة، وأنانيته الطاغية، التي لم تسمح له بالتفكير بعض اللحظات في كتاب رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كما فعل «قيصر»، أو غيره. بل لم يمهل المترجم حتى ينتهي من قراءة كتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، إنما صاح به في تلك الاثناء، وأخذ منه رسالة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومزّقها بوقاحة بالغة، واسلوب بالغ في الجفاف، وسوء الادب.

واليك تفصيل الحادث:

في مطلع السنة الهجرية السابعة بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - احد فرسانه الشجعان وهو «عبدالله بن حذافة السهمي»، إلى ايران وكتب معه كتاباً إلى «خسرو پرويز» ملك ايران يومذاك يدعو فيه إلى الإسلام وامره أن يدفع الكتاب إلى كسرى نفسه واليك نص هذه الرسالة:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمّد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، واشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله. أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله كافة لا نذر من كان حياً، ويحقّ القول على الكافرين أسلم تسلم، فان ابیتّ فعليك اثم المجوس. »

فلما دخل سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على «خسرو پرويز» أمر بأن يؤخذ منه كتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولكن عبدالله بن حذافة قال: لا حتى أدفعه اليك كما امرني رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ثم دنا وسلم الكتاب فدعا كسرى بمت ترجمه ليقرا الكتاب، فلما قرأه، فاذا فيه، من محمّد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس أغضبه حين بدأ رسول الله بنفسه، وصاح، وأخذ الكتاب، فمزّقه قبل أن يعلم ما فيه وقال: يكتب إليّ بهذا.

ثم أمر باخراج حامل الكتاب من قصره، فأخرج عبدالله بن حذافة السهمي، ولما رأى ذلك قعد على راحلته وسار حتى وصل إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

(366)

فاخبره الخبر، فغضب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من موقف كسرى فدعا عليه قائلاً: اللهم مزّق ملكه. (1)

نظرية اليعقوبي:

ويختلف ابن واضح الاخباري المعروف باليعقوبي في تاريخه - مع عامة المؤرخين - : قرأ كتاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثم كتب كتاباً إليه جعله بين سرقتي حرير وجعل فيهما مسكاً، فلما دفعه الرسول إلى النبي فتحه فاخذ قبضة من المسك فشمه، وناوله أصحابه، وقال: لا حاجة لنا في هذا الحرير، ليس من لباسنا، وقال: لتدخلن في أمري أو لاتيئك بنفسي ومن معي، وأمر الله اسرع من ذلك⁽²⁾.

ولكن هذا رأي ينفرد به اليعقوبي ولا يوافقه عليه أحد من أرباب السير إلا احمد بن حنبل الذي يقول: أهدى كسرى لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقيل منه⁽³⁾.

أوامر «خسرو» إلى واليه على اليمن:

تقع أرض اليمن الخصبة في جنوب مكة، وكان ملوكها وحكامها ولاية منصوبين من قبل البلاط الايراني بأجمعهم، وكان الذي يحكم اليمن يوم مرسله النبي لقادة العالم وملوكه رجلٌ يدعى «بازان» فكتب طاغية ايران المغرور «خسرو» بعد أن مرّق رسالة النبي إلى عامله باليمن (بازان):

بلغني أن في أرضك رجلاً يتنّباً فاستنّبته، فان تاب والآ فابعث به إلى.

فبعث «بازان» رجلين من فرسانه يدعى أحدهما: «فيروز» والآخر «خرخسره» وكتب معهما كتاباً إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يأمره فيه أن

1- الطبقات الكبرى: ١ / ٢٦٠.
2- تاريخ اليعقوبي: ١ / ٦٦.
3- مسند احمد بن حنبل: ١ / ٩٦.

ينصرف معهما إلى كسرى أو أن يجبراه على الرجوع إلى دين آبائه وان أبي قتلوه وأرسلوا برأسه إلى الملك حسب رواية ابن حجر في الاصابة.

إن رسالة كسرى إلى «بازان» تكشف عن جهل هذا الحاكم، وعدم معرفته بما كان يجري في بلاده ومستعمراته، فقد بلغ من جهله أنه لم يكن يعلم أن هذا الرجل الذي يدعي النبوة⁽¹⁾ قد مضى على ادعائه النبوة أكثر من ١٩ عاماً.

ثم إن الذي ادعى النبوة في منطقة نائية، وانتشر دينه، وأصبح من القوة والشوكة بحيث يجرأ على مراسلة الامبراطور، ودعوته إلى دينه لا يمكن أخذه واحضاره إلى اليمن بواسطة رجلين. وأن الأمر -بالتالي- لن يتم بمثل هذه السهولة، والبساطة، التي تصورها

وعلى كل حال لما قدم مبعوثا «بازان» المدينة ودخلا على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قدما رسالة «بازان» إليه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقالوا: لقد بعثنا «بازان» إليك لتنتقل معنا، فان فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك بكتاب ينفكك، ويكف عنك به، وإن أبيت فهو من قد علمت، فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك.

وكانا قد دخلا على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقد حلقا لحاهما وأطلقا شواربيهما، فاستمع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى كلامهما، وقبل أن يجيب على مطلبهما دعاهما إلى الإسلام وقد كره النظر إليهما لما كانا عليه من الهيئة فقال لهما: من أمركما بهذا؟! قالوا: أمرنا بهذا ربنا (يعنيان كسرى) فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «لكن ربي أمرني بإعفاء لحييتي وقص شاربي.»⁽²⁾

فأرعبتهما، هيبه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وجلال محضره، بحيث أخذنا

-1 حسب تعبير كسرى.
-2 الكامل في التاريخ: ٢ / ١٤٦.

يرتجفان عندما عرض رسول الله الإسلام عليهما.

ثم قال لهما رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «

«إرجعا حتى تأتياني غداً.»

وفي هذه الاثناء أتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الخبر من السماء أن الله عز وجل قد سلط على كسرى ابنه شيرويه، فقتله في شهر كذا وكذا وكذا لكذا، وكذا من الليل.

فلما حضر الرجلان (مبعوثان بازان) عند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من غد قال لهما رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «

«إن ربي قد قتل ربكما ليلة كذا وكذا من شهر كذا وكذا. بعد ما مضى من الليل كذا وكذا سلط عليه شيرويه فقتله.»⁽¹⁾

وكانت الليلة التي ذكرها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هي ليلة الثلاثاء العاشر من شهر جمادى الأولى سنة سبع من الهجرة.

فاستغرب الرجلان لخبر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقالوا: هل تدري ما تقول؟ إنا قد نقمنا منك ما هو أيسر من هذا. فنكتب بها عنك ونخبر الملك (أي باذان).

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«نعم أخبراه ذلك عني وقولا له: إن ديني وسُلطاني سيبليغ ما بلغ ملك كسرى، وينتهي إلى منتهى الخُف والحافر، وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملكتك على قومك.»

ثم أعطى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لخرخسة منطقة (أي حزاماً) فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان باليمن وأخبراه الخبر.

- [الطبقات الكبرى: ١ / ٢٦٠، بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٨٢.

(369)

فقال باذان: والله ما هذا بكلام ملك وإنما لأرى الرجل نبياً كما يقول، ولننظر ما قد قال، فلنن كان ما قد قال حقاً فإنه لا ريب نبى مرسل، وإن لم يكن فسندى فيه رأينا.

فلم يلبث أن قدم عليه كتاب شيرويه: أما بعد فاني قد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضباً لفارس، لما كان استحل من قتل أشرافهم، فاذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب اليك فيه فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه.

وقد تسبب كتاب «شيرويه» هذا في أن يعتق «بادان» الإسلام هو وجميع رجال دولته وكانوا من الفرس، وكتب إلى رسول الإسلام -

صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يخبره بإسلامه واسلام أعضاء حكومته. (1)

سفيرُ النبي في أرض مصر:

تُعتبر «مصر» مهد الحضارات والمدن العريقة، ومركز سلطان الفراعنة، وموضع سيادة الإقباط.

ويوم أشرق شمس الإسلام على أرض الحجاز كانت «مصر» قد فقدت استقلالها، وقوتها، وكان المقوقس قد فوض إليه حكم

«مصر» من قِبَل قيصر الروم لقاء ١٩ مليون دينار يدفعها إلى قيصر.

وكان «حاطب بن أبي بلتعة» - وكان فارساً بارعاً وله قصة في تاريخ الإسلام سيأتي ذكرها في حوادث السنة الثامنة - أحد الستة الذين كلفوا ببلاغ كتب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى الملوك والرؤساء يومذاك وقد أمره رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بإيصال كتابه إلى المقوقس حاكم «مصر».

واليك نصّ كتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى المقوقس:

[بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٩١].

(370)

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط» (ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون.⁽¹⁾)

فخرج «حاطب» بكتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حتى قدم «مصر»، وأراد الدخول على حاكمها، «المقوقس» علم بأنه يسكن في أحد قصوره الشامخة على ضفاف النهر، في الأسكندرية، فركب زورقاً، نقله إلى قصر «المقوقس». « فلما وصل «حاطب» إلى قصر «المقوقس» أكرمه وأخذ كتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقرأه، وفكر في مضمونه بعض الوقت، ثم قال لسفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه (أي من قومه) وأخرجوه من بلده إلى غيرها أن يسأط عليهم.

فقال حاطب وكان حكيماً فهيماً: ألسنت تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله؟

فماله حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه أن لا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالى حتى رفعه الله إليه ؟

فأعجب المقوقس - الذي لم يكن يتوقع أن يجابه بهذا المنطق القوي المفحم - برد حاطب وقال له: أحسنت، انت حكيم جاء من عند حكيم⁽²⁾.

فتجرأ حاطب لما رأى هذا الموقف الخاضع من ملك مصر وقال: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى (يعني فرعون) فأخذه الله نكال الآخرة

(371)

والاولى، فانتقم به، ثم انتقم منه فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرك بك، ان هذا النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، واقربهم منه النصارى ولعمري ما بشاره موسى بعبسى عليهما الصلاة والسلام إلا كيشارة عيسى بمحمد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وما دعاونا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الانجيل، وكل نبي أدرك قوماً فهم أمثؤه، فالحق عليهم أن يطيعوه، فانت ممن أدرك هذا النبي، ولسنا ننهك عن دين المسيح - عليه السلام - ولكننا نأمرك به.

وهو يقصد بكلامه الأخير أن الإسلام هو الصورة الاكمل لدين المسيح.

انتهى الحوار بين حاطب سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمقوقس حاكم مصر إلا أن المقوقس لم يعطه جواباً قاطعاً في ذلك المجلس، فكان على حاطب أن يلبث في مصر مدة حتى يتلقى جواب كتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - . (1)

ثم طلب المقوقس حاطباً ذات يوم وانفرد به في قصره، وسأله عن ما جاء به رسول الله وإلى م يدعو؟ فقال له حاطب: إلى أن نعبد الله وحده، ويأمر بالصلاة، خمس صلوات في اليوم والليلة ويأمر بصيام رمضان، وحج البيت، والوفاء بالعهد، وينهى عن أكل الميتة والدم...و..

فقال له المقوقس: صفه لي.

قال حاطب: فوصفت فأوجزت.

فقال المقوقس: مصديقاً ما ذكره حاطب من أوصاف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذه صفته، وكنث أعلم أن نبياً قد بقي، وكنث أظن أن مخرجة بالشام وهناك كانت تخرج الانبياء من قبله، فأراه قد خرج في أرض العرب، في أرض جهد ويوس، والقبط لا تطاوعني في أتباعه، وسيظهر على البلاد، وينزل أصحابه من بعد بساحتنا هذه، حتى يظهروا على ماها هنا.

(372)

ثم طلب المقوقس من حاطب أن يكتفم أمر هذا الحوار الذي دار بينه وبين حاطب عن قومه قاتلا: وأنا لا أذكر للقبط من هذا حرفاً واحداً، ولا أحب أن يعلم بمحادثتي (أو بمحاورتي) إياك. (1)

ثم إنه اكرم حاطباً مدة اقامته بمصر إكراماً بالغا، وأحسن قرأه، وضيافته.(2)

المقوقس يكتب كتاباً إلى النبي:

ثم إنَّ حاكم «مصر» المقوقس دعا كاتبه العربي، وأمره أن يكتب كتاباً إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذا نصه:
بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد بن عبدالله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد فقد قرأتُ كتابك، وفهمتُ ما ذكرتُ فيه،
وما تدعو إليه، وقد علمتُ أن نبياً قد بقي، وقد كنتُ أظنُّ أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك، وبعثتُ اليك بجاريتين لهما مكانٌ في
القبط عظيمٌ، وبثياب، وأهديتُ إليك بغلة لتركبها والسلام عليك.(3)

إن الاحترام الذي أبداه «المقوقس» في رسالته المذكورة، وتقدير اسم النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على اسمه وكذا هداياه التي
بعثها إلى رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - و تكريم سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كلها تحكي عن أنَّ المقوقس
قبل دعوة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في سرّه ولكن حبّه في البقاء في السلطة منعه من التظاهر بإيمانه وإسلامه، ومن
الإنقياد العمليّ والعنني للاسلام.

خرج «حاطب» بصحبة جماعة من الحرس المحافظين وهو يحمل الهدايا التي بعثها المقوقس من عند المقوقس ولما وصل إلى
الشام أذن للمحافظين بالانصراف ثم واصل هو سفره ضمن قافلة إلى المدينة، ولما قدم المدينة على رسول الله - صَلَّى الله عليه
وآله وسلم -

-
- 1-سيرة زيني دحلان: ٣ / ٧١ .
 - 2-الطبقات الكبرى: ١ / ٢٦٠ .
 - 3-الطبقات الكبرى: ١ / ٢٦٠ .

(373)

سَلَّمَ إليه كتاب المقوقس وهداياه قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

«صَنَّ بملكه، ولا بقاء لملكه.(1)»

المغيرة بن شعبة في البلاط المصري:

توجه المغيرة بن شعبة الذي كان معروفاً بحكمه وعقله ودهائه، والذي اصبح في ما بعد من رجال السياسة العرب ودهاتها
المعروفين.

توجّه في جمع من قبيلة ثقيف إلى البلاط المصري، فسألهم كبير المصريين (المقوقس):

كيف خلصتم إليّ، وبينني وبينكم محمّد وأصحابه.

فقال: لصقنا بالبحر.

قال: فكيف صنعتم فيما دعاكم إليه

قالوا: ما تبعه متّاً رجلٌ واحد.

قال: فكيف صنع قومُه؟

قالوا: تبعه أحداثُهم، وقد لا قاه من خالفه في مواطن كثيرة.

قال: فالى ماذا يدعو؟

قالوا: إلى أن نعبُد الله وحده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا، ويدعو إلى الصلاة، والزكاة، ويأمر بصلة الرحم، ووفاء العهد، وتحريم الزنا، والربا، والخمر.

فقاطعهم المقوقس قائلاً: هذا نبي مرسلٌ إلى الناس كافة، ولو اصاب القبط، والروم لا تبعوه، وقد أمرهم بذلك عيسى، وهذا الذي تصفون منه نعت الانبياء من قبله، وستكون له العاقبة حتّى لا ينازعه أحد، ويظهر دينه إلى منتهى الخفت والحافر.

-[الطبقات الكبرى: ١ / ٢٦٠ وغيره.

(374)

فاستاء رجال ثقيف من هذا الكلام وقالوا بكل صلافة ووقاحة: لو دخل الناس كلهم معه ما دخلنا معه. فهزّ المقوقس رأسه ساخراً بهم وقال: أنتم في اللعب (1) بيد ان هذه الرواية لا توافق بقية المصادر التاريخية لان النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - كاتب ملوك العالم وقادته في السنة السابعة من الهجرة، على حين كان المغيرة في معركة الخندق قد آمن، وكان في الحديدية في صفوف المسلمين، حتّى أنه كان بينه وبين مندوب قريش المفاوض عروة بن مسعود الثقفي مشاجرة مرذكرة عند استعراض قصة الصلح.

وعلى فرض صحة هذه الرواية لا بد من القول بأن المغيرة لم يكن في وفد ثقيف.

وفي الختام ينبغي أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى أن الواقدي نقل نص رسالة النبي إلى عظيم القبط بصورة أخرى.

ولكن أسلوب الرسالة وعباراتها تدل على أن هذه الصورة لا أساس لها من الصحة، لأنها تتضمن تهديداً من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لعظيم القبط بالحرب والغزو انجاء فيها: «وأمرني (أي الله) بالإعذار والانداز، ومقاتلة الكفار حتى يدينوا بديني. (2)»

ومما لا شك فيه أن هذا غير صحيح لأن امكانيات المسلمين في ذلك اليوم لم تكن لتسمح لهم بمقاتلة المكيين فكيف يغزو «مصر» وهي منطقة نائية جداً.

هذا مضافاً إلى أن صدور مثل هذا الكلام عن النبي في أول دعوة له إلى الإسلام لا يتلاءم ونفسية وخلق ذلك الرجل العظيم الذي كان يقدر الظروف آنذاك أفضل من غيره.

* * *

1- السيرة الدحلانية: ٣ / ٧٠ .
2- فتوح الشام: ٢ / ٢٣ .

(375)

سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في أرض الذكريات «الحبشة»:»

تقع «الحبشة» في آخر أفريقيا الشرقية وتبلغ مساحتها ١٨٠٠ كيلومتراً مربعاً، وعاصمتها اليوم: أديس أبابا.

ولقد تعرّف الشرقيون على هذه الأرض قبل ظهور الإسلام بقرن، وذلك على اثر هجوم الجيش الايراني الذي تمّ في عهد حكومة الملك الفارسي «انوشيروان»، وبلغ هذا التعرف والتردد ذروته في هجرة المسلمين من مكة إلى الحبشة (الهجرة الأولى والهجرة الثانية).

ويوم قرر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يبعث ستة من خيرة رجاله الشجعان إلى نقاط مختلفة، ونائية من العالم لإبلاغ نداء رسالته العالميّة كلف: «عمرو بن أمية الضمري» بأن يأخذ كتابه إلى الحبشة، ويسلمه إلى النجاشي ملكها العادل الطيب. على أن الكتاب الذي ستقرأ نصّه قريباً ليس هو الكتاب الوحيد الذي بعثه رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى النجاشي، بل سبق أن كتب - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إليه قبل هذا يوصيه بالمهاجرين المسلمين، ويطلب منه فيه أن يلطف بهم، ويرعاهم، ولا يزال نصّ هذين الكتابين موجوداً في المصادر التاريخية الإسلامية. (1)

وربما حصل اشتباه بين هذين الكتابين (الرسالة التي بعثها النبي لابلاغ دعوته العالمية، والرسالة التي أوصى فيها النجاشي بالمهاجرين) فخلط بعض المؤرخين بين عبارتيهما.

ويوم قدم سفيرُ النبي بكتاب الدعوة إلى الإسلام ، الحبشة على النجاشي كان بعض المهاجرين المسلمين لا يزالون في أرض الحبشة، يعيشون في كنف

-[تاريخ الطبري: ٢ / ٢٩٤.

(376)

النجاشي وحمایته، بينما عاد بعضهم من قبل إلى المدينة، وهم يحملون أجمل الذكريات والخواطر عن عدل حاكمها الطيب «النجاشي»، ولطفه، وحسن وفادته.

من هنا كانت أرض الحبشة في نظر المسلمين تُعتبر أرض الذكريات الجميلة والخواطر الحلوة، وكانوا يمدحون حاكمها ويصفونه بالعدل والاستقامة. ولو اننا لاحظنا في كتاب النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إليه نوعاً من اللطف، واللين في القول فان ذلك مرده إلى معرفة رسول الله بنفسية النجاشي وخلقه وحسن موقفه.

فانك لا تجد لتهديدات رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في كتبه ورسائله الاخرى إلى الملوك والزعماء بالعقاب الالهي إن رفضوا القبول بدعوته، وحملهم مسؤولية شعوبهم في عبارات صريحة وقاطعة، أي اثر في هذا الكتاب.

فقد كتب رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إلى النجاشي مايلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى النجاشي مَلِكِ الحَبَشَةِ.

سلامٌ عليك، أحمد الله الذي لا اله إلا هو الملك القُدوس السلامُ المؤمنُ المهيمنُ، وأشهدُ أن عيسى بن مريم روحُ الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحسنة فحملت بعيسى، حملته من رُوحه، ونفخه، كما خَلَقَ آدمَ بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاتة على طاعته، وأن تتبني وتوقن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك وقد بلغتُ ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى. (1)»

لقد بدأ رسولُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كتابه بالتسليم على حاكم الحبشة وأرسل إليه بتحياته الشخصية، ولكنه لم يفعل هذا في كتاب غيره، فلم يرسل بتحياته الشخصية إلى «كسرى» و «قيصر» و «المقوقس» حكّام إيران والروم

(377)

ومصر، بل بدأ كتبه إليهم بالسلام العام حيث قال: «السلام على من اتبع الهدى. »

ولكنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سلم في كتابه هذا، على النجاشي نفسه، وقال: «السلام عليك»، وبهذا خصّه دون غيره من الزعماء والملوك باحترام وتكريم خاصين.

وقد أشار - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في هذا الكتاب إلى جملة من صفات الله البارزة التي تدلّ جميعها على تنزهه سبحانه، وعظمته وجلاله.

ثم أشار إلى مسألة ألوهية المسيح (التي هي من ولاند التفكير الكنسي المنحط) وردّ على ذلك باستدلال قويّ خاصّ مستلهم من القرآن الكريم، حيث قايس ولادة المسيح - عليه السّلام - بخلق آدم، وأثبت ان ولادة شخص من دون أب لو كان دليلاً على ألوهيته، أو كونه ابناً لله، لصحّ ذلك في حق آدم، الذي خلق من غير أب ولا أم، ولكن لا يرى أحدٌ فيه مثل هذا الرأي.

ثم ختم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كتابه هذا باخراج دعوته في لباس النصح والموعظة، تجنباً من إظهار نفسه بمظهر الأمر.

محاورة سفير النبيّ وحاكم الحبشة:

لما مثل سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمام النجاشي قال للنجاشي:

يا أصحابنا إنّ عليّ القول، وعليك الاستماع، إنّك كأنك في الرقة علينا منا، وكأننا في الثقة بك منك لأننا لم نظن بك خيراً قط إلاّ لنا، ولم نحفظك على شرّ قط إلاّ أمناه، وقد أخذنا الحجة عليك من قبل آدم، والانجيل بيننا وبينك شاهد لا يُردّ، وقاض لا يجور، وفي ذلك موقع الخير، واصابة الفضل، وإلاّ فأنت في هذا النبيّ الأمي كاليهود في عيسى بن مريم، وقد فرّق رُسُلُه إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له، وأمنك على ما خافهم عليه لخبر سالف، وأجر ينتظر.

فقال النجاشي: أشهد بالله أنه للنبيّ الذي ينتظره أهل الكتاب، وإنّ

(378)

بشارة موسى براكب الحمار، كيشارة عيسى براكب الجمل، وانه ليس الخير كالعيان، ولكن أعواني من الحبشة قليل، فانظرنني حتّى

أكثر الأعوان، واليّن القلوب ولو استطيع أن آتية لأتيتّه. (1)

رسالة النجاشي إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

ثم كتب كتاباً إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم؛ إلى محمّد رسول الله منّ النجاشي، سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته، أذني لا اله إلا هو، أذني هدايني إلى الإسلام.

أما بعد، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فوربّ السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثروفاً⁽²⁾ إنه كما قلت وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابك، وأشهد أنك رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقد بايعتُك وبايعتُ ابن عمك وأسلمتُ على يدَيْه لله ربّ العالمين، وقد بعثتُ إليك يا نبيّ الله فان شئت أن آتيتك لفعلتُ يا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأني أشهدُ أنّ ما تقولُ حقٌّ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.⁽³⁾»

ثم إنّ النجاشي بعث بهدايا خاصّة إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وكتب إليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد ذلك كتابين آخرين أيضاً، وكان في كلّ مرة يحترم كتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويقبله ويضعه على عينيه.

تقييم سريع لمراسلة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قادة العالم:

ربما تصوّر بعض العارفين بأحوال الساسة في ذلك اليوم أن دعوة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لحكّام وشعوب العالم يومذاك كان أمراً خارج المألوف وعملاً

1- السيرة الحلبية: ٣ / ٢٤٨، الطبقات الكبرى: ١ / ٢٥٩.
2- الثفروق: الاقماغ التي تلتق باليسر.
3- تاريخ الطبري: ٢ / ٢٩٤، بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٩٢.

غير متعارف، ولكنّ مضى الزمان أثبت أنّ ذلك العمل كان من وظائف النبي ومهامه الأساسية.

أولاً:

ان إرسال سنة سفراء في يوم واحد إلى أنحاء العالم، محمّلين برسائل قوية مبرهنة أغلق كل باب للشكّ في وجه المخالفين في المستقبل، فلا مجال لأن يشك أحدُ هذا اليوم وهو يرى هذا العمل العظيم في عالميّة الرساله المحمّدية، فمضافاً إلى الآيات الواردة في هذا الصعيد يعدّ إرسال السفراء بنفسه دليلاً قاطعاً وكبيراً على عالمية الرسالة الإسلامية.

ثانياً:

لقد تأثر جميع الزعماء والملوك والقادة الذين راسلهم النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما عدا «خسرو پرويز» ملك ايران الذي كان طاغية مستبدّاً متكبّراً - برسائل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ودعوته، وأكرموا سفراءه.

كما أن قضية ظهور النبي العربي قد أصبح حديث الاوساط والمحافل الدينية بسبب هذا العمل.

لقد أيقظت هذه الرسائل والكتب بمحتوياتها ومضامينها القوية المبرهنة العقول الغافية، وهزت الغافلين بشدة، وأثارت مشاعر الشعوب العالمية المتحضرة، ودفعتهم إلى البحث والتحقيق حول من بشر به التوراة والانجيل، كما تسبب في أن يجري العلماء والاساقفة والقساوسة غير المغرضين باتصالات بمن ينتسب إلى هذا الدين، ويقيموا ارتباطاً مع هذه العقيدة بشكل وآخر.

ومن هنا ولأجل هذا تسابقت أفواج وفرق كبيرة من رجال الدين من الشرائع الدينية المختلفة التي كانت سائدة آنذاك في الايام الاخيرة لحياة رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبعدها إلى القوم على المدينة لدراسة أوضاع الدين الجديد، والتعرف على ماهيته ومنطقه.

ولقد شرحنا في الفصول الماضية وبشكل مفصل نوع ومدى التأثير الذي تركته رسائل النبي وسفراؤه في نفوس حكام الروم ومصر والحبشة، وما نحن نواصل بيان بقية التأثيرات التي تركتها مراسلة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لحاكم

(380)

الحبشة العادل، وملكها البار: اصحمة النجاشي.

فقد عمد النجاشي بعد تقديم الهدايا إلى سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، إلى ارسال ثلاثين رجلاً من القساوسة والاساقفة الاحباش إلى أرض المدينة للتحقيق في أمر الإسلام، ونبوة محمد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وليروا عن كتب حياته الزاهدة البسيطة، ولا يتصوروا أنه يعيش كما كان يعيش الملوك والجبابة في ذلك العصر.

ولما قدم مبعوثو النجاشي المدينة على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سألوه عن نظريته حول السيد المسيح - عليه السلام - فبين رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عقيدته حول ذلك النبي العظيم بقراءة الآية التالية:

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِءُ الْأَكْمَامَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِنتَهُم بِالبَيْتَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ⁽¹⁾)

وقد كان لهذه الآيات أثرٌ عجيبٌ في نفوس أولئك القساوسة والاساقفة حتى أنهم بكوا عند سماعها من دون اختيار.

وبعد التحقيق الدقيق في دعوة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عاد هذا الفريق من علماء الدين المسيحي إلى الحبشة،

وأخبروا النجاشي بما سمعوه وشاهدوه، فبكى هو أيضاً لما سمع من أولئك الرجال⁽²⁾.

وقد نقل ابن الاثير في «الكامل» و «أسد الغاية» قصة هذا الوفد بصورة أخرى إذ كتب بعد ذكر ما مرّ من رسالة النجاشي بإضافة قوله: «وبعثت

1-المائدة: ١١٠.
2-اعلام الوری: ص ٤٦.

(381)

إليك بابني أرمي بن الاصحم» فخرج ابن النجاشي في ستين نفساً من الحبشة (قاصدين المدينة) في سفينة في البحر، فلما توسطوا البحر غرقوا كلهم.

ولكن وصول الرسالة التي اشار اليها ابن الاثير إلى الرسول الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - شاهد على أنه لم تحدث مثل هذه الحادثة لمبعوثي النجاشي.⁽¹⁾

كتاب رسول الله إلى أمير الغساسنة (بالشام):

الغساسنة فرع من قبيلة «الازد» القحطانيين الذين سكنوا «اليمن» مدة طويلة، وكانت أراضيهم تسمى من سدّ مأرب، فلما انهزم ذلك السدّ اضطروا إلى الرحيل عن «اليمن» ونزلوا بالشام. فسيطروا على جزء من أراضيها وحكموا فيها، وانتهى بهم الامر إلى تشكيل دولة الغساسنة. التي كانت تحكم تلك الديار تحت نفوذ قياصرة الروم وسيادتهم، فلما جاء الإسلام أزال نظامهم، وانتهت حكومتهم، بعد أن حكم منهم، اثنان وثلاثون ملكاً في مناطق «الجولان»، و «اليرموك»، و «دمشق».⁽²⁾

وقد بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «شجاع بن وهب» وهو أحد السفراء الستة الذين بعثهم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لا بلاغ الرسالة الإسلامية إلى العالم - إلى أرض الغساسنة، وقد حملته كتاباً إلى ملكها يومذاك «الحارث بن أبي شمر الغساني»، فخرج شجاع بكتاب النبي إلى الشام لتسليمه إلى ملك الغساسنة فأنتهى إليه وهو بغوطة دمشق وهو مشغول باعداد المقدمات لاستقبال «قبصر» الذي كان في طريقه إلى زيارة بيت المقدس وفاء للنذر الذي نذره للانتصار على ايران كما مر.

ولهذا لم يستطع «شجاع» من الوصول إلى الأمير الغساني إلا بعد انتظار دام

1-اسد الغاية: ١ / ٦٢، الكامل في التاريخ: ٢ / ١٤٥.
2-راجع معجم البلدان، ومروج الذهب وغيرهما.

(382)

ثلاثة أيام، فاستغلَّ «شجاع» هذه الفرصة وصادق فيها حاجب الأمير الغساني فكان يحدثه عن صفة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخلاقه وما يدعو إليه من العقيدة الطاهرة، فأثرت كلمات «شجاع» تأثيراً عجبياً في نفس ذلك الحاجب الذي كان رومياً حتى أنه رقى وغلبه البكاء وقال: إني قرأت الإنجيل وأجد صفة هذا النبي بعينه، وأنا أؤمن به وأصدقّه، وأخاف من «الحارث» أن يقتلني إذا عرف باسلامي وكان يكرم سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويحسن ضيافته طوال تلك المدة، ويقول إن الحارث يخاف قيصر أيضاً.

ثم لما خرج «الحارث» ذات يوم وجلس على عرشه أذن لسفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالدخول عليه، فلما مثل بين يديه دفع إليه كتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقرأه وكان نصّه كالتالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمّد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلامٌ على من اتبع الهدى، وآمن به وصدق، وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى ملكك.»

فانزعج الحارث ممّا قرأ في آخر الكتاب ورمى به جانباً، وقال: من ينتزع مني ملكي؟ أنا سائر إليه، ولو كان باليمن جنته، عليّ بالناس.

وبهذا أمر بإعداد العسكر حالاً ليستعرض قوته العسكرية أمام سفير النبي إرهاباً وتخويفاً له. ولجل أن يظهر نفسه بمظهر المدافع عن ملك قيصر بادر إلى كتابة رسالة إلى «قيصر» يخبره فيها بما عزم عليه من غزو رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - !! واتفق أن وصلت رسالة الامير الغساني إلى «قيصر» في الوقت الذي كان فيه «دحية الكلبي» سفير النبي إلى الروم في مجلس قيصر، وكان «قيصر» يحاوره، ويسأله عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وعن صفته ودينه، فانزعج «قيصر» من مبادرة الحاكم الغساني العجولة وكتب إليه يمنع عن السير إلى رسول الإسلام طالباً منه أن يلتقي به في مدينة «ابيليا.»

(383)

فغيّر موقف «قيصر» الإيجابي هذا موقف عميله: الحاكم الغساني السلبي تبعاً للمثل القائل «الناس على دين ملوكهم» فبادر من فوره إلى إكرام سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومنحه هدايا ثمينة، ووجّهه نحو المدينة معززاً مكرماً وقال له: «اقرأ على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مني السلام.»

ولكن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يرض بهذا الموقف الدبلوماسي الذي لم يكن ينمُّ عن واقع صادق فقال: باد ملكة. أي

سيزول ملكه عما قريب. فمات «الحارث» في السنة الهجرية الثامنة أي بعد عام واحد من هذه القضية. (1)

سادس السفراء في أرض اليمن:

سادس سفراء النبي هو المبعوث إلى أرض اليمامة (وهي من نجد)، وهو سليط بن عمرو.

فقد خرج سليط هذا بكتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى «هودة بن علي» الحنفي ملك اليمامة يدعو به إلى الإسلام ولما قدم عليه سلم الكتاب إليه وفيه.

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هودة بن علي. سلام على من أتبع الهدى و أعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر (أي يعم الشرق والغرب) فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يدك.»

وحيث أن ملك اليمامة (هودة) كان نصرانياً لذلك بعث إليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سليطاً وكان ممن عاش مدة من الزمن في أرض الحبشة عندما هاجر إليها فريقاً من المسلمين فراراً من اضطهاد وفتنة قريش لهم، وعرف بتقاليد النصراني ومنطقهم، وكانت تعاليم الإسلام وكذا اختلاطه بمختلف الفئات في رحلاته وأسفاره قد صنعت منه رجلاً شجاعاً قوياً وذكياً وقد استطاع بما أوتي

-[السيرة الحلبية: ٣ / ٢٥٥ و ٢٥٦، الطبقات الكبرى: ١ / ٢٦١.]

(384)

من قوة المنطق، والشجاعة أن يقنع بكلامه وحديثه ملك اليمامة عندما قال له: يا هودة أنه سؤدتك (١) أعظم حائلة (أي بالية) وأرواح في النار، وإنما السيد من متع بالإيمان ثم زود بالتقوى. ان قوماً سعد برأيك فلا يشقون به، وإنني أمرت بخير مأمور به، وأنهك عن شيء منهي عنه. أمرت بعبادة الله، وأنهك عن عبادة الشيطان، فان في عبادة الله الجنة، وفي عبادة الشيطان النار، فان قبلت نلت ما جوت وأمنت ما خفت، وان ابيت فبيننا وبينك كشف الغطاء وهول المطلع.

كانت ملامح ملك اليمامة المتغيرة المتأثرة توحى بحسن تأثير كلمات سليط سفير النبي في نفس ذلك الملك، ولهذا طلب من سليط أن يمهل مدة حتى يفكر في أمر النبي ودعوته، وكان من الملوك العقلاء.

وصادف أن قدم اليمامة عليه في ذلك اليوم اسقف كبير من كبار أساقفة الروم، فتحدث معه «هودة» في قضية النبي، ودعوته، واليك ما دار بينهما من الحوار.

قال هودة للاسقف: جاءني كتاب من النبي يدعوني إلى الإسلام فلم أجبه.

فقال الاسقف: لم لا تجيبه.

قال هودة: ضننتُ بديني وأنا أمليكَ قومي، ولنن اتبعته لا أمليكَ.

قال: بلى والله لنن اتبعته لئملكناك، وان الخير لك في اتباعه، وأنه للنبي العربي الذي بشر به عيسى بن مريم - عليه السلام - . وانه لمكتوب عندنا في الانجيل: محمّد رسول الله.

فتركت نصيحة الاسقف وكلماته أثراً عميقاً وقويماً في نفس ملك اليمامة «هودة» فاستدعى سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وكتب إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

- [يقصد أنه سوده كسرى وهو في النار.

(385)

كتاباً هذا نصه: «ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني فاجعل إليّ بعض الأمر اتبعك (أي أنه كان يطلب أن يجعله النبي خليفة له من بعده).

ولم يكتف «هودة» بهذا بل بعث وفداً إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بزعامة «مجاة بن مرارة» ليبلغ إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رسالته ويقول له - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : ان جعل الأمر له من بعده أسلمّ وسار إليه ونصره، وإلّا قصّد حربته.

فلما قدم الرسول على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخبره بما جرى وقرأ الكتاب على النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: «لا ولا كرامة، لو سألتني سيابة من الارض ما فعلت اللهم اكفنيه.⁽¹⁾»

رسائل أخرى لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

هذا وان الرسائل والكتب التي بعثها رسول الله لغير من ذكرناه من القادة والزعماء والشخصيات الدينية والسياسية اكثر من ما أدرجناه هنا، وقد استطاع العلماء المحققون أن يجمعوا ويثبتوا في كتب خاصة صورة ٢٩ رسالة من رسائل الدعوة إلى الإسلام التي بعثها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تركنا إدراجها هنا رعاية للاختصار⁽²⁾.

- [السيرة الحلبية: ٣ / ٢٥٤، الكامل في التاريخ: ٢ / ١٤٦، الطبقات الكبرى: ١ / ٢٦٢ و سيابة من الارض أي قطعة من الأرض.
-2 راجع مكاتيب الرسول للعلامة الاحمدي، وغيره من المؤلفات في هذا المجال.

(386)

قلعة خيبر أو بؤرة الخطر

يوم طلع نجم الإسلام في أرض المدينة حقدت اليهود على رسول الله، والمسلمين أكثر من قريش، وعملت بمختلف الطرق والحيل من أجل القضاء على الإسلام والإيقاع برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه.

ولقد ابتلي يهود المدينة وما حولها بمصير سيء نتيجة أعمالهم وتصرفاتهم السيئة، فقتل فريق منهم، وأجلي آخرون مثل قبيلة بني قينقاع وبني النضير من أرض المدينة فسكنوا «خيبر» و «وادي القرى» أو نزلوا بأدراعات الشام.

وكانت خيبر منطقة واسعة وخصبة تقع على بُعد اثنين وثلاثين فرسخاً من المدينة وكان قد سكنها اليهود قبل بعثة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبنوا فيها سبع قلاع وحصون قوية لتحصنهم وتحفظهم.

وحيث أن التربة والمناخ في تلك المنطقة كانت قد جعلت من تلك المنطقة مكاناً جيداً وصالحاً للزراعة جداً، لذلك كان سكانها اليهود قد حصلوا على مهارة كبرى في أمور الزراعة وجمع الثروات، وتهيئة وسائل الدفاع والقتال، وإعداد السلاح والقوة.

وكان عدد نفوسها يقارب عشرين ألف نسمة بينهم عدد كبير من المقاتلين الشجعان. (1)

[1] السيرة الحلبية: ٣ / ٣٦، تاريخ الطبري: ٢ / ٤٦.

إن أكبر ذنب أترفه يهود «خيبر» هو أنهم شجّعوا جميع القبائل العربية على محاربة الحكومة الإسلامية والقضاء عليها، واستطاع جيش الأحزاب المشرك بمساعدة يهود «خيبر» أن يتحركوا في يوم واحد من مختلف مناطق الجزيرة العربية لاجتياح المدينة واستئصال المسلمين في أكبر تحالف عسكري واتحاد نظامي من نوعه في ذلك العصر كما سبق وأن عرفت في قصة «معركة الأحزاب» ولكن هذا الجيش المعتدي الظالم تفرق بفعل تدابير رسول الإسلام الحكيم وأصحابه بعد شهر من الانتظار خلف الخندق، وتقهر وعادت أحزابه ومن جملتهم يهود خيبر متشتتة متفرقة إلى أوطانها تجرّ أذيال الخيبة والخسران، واستعادت عاصمة الإسلام استقرارها وأمنها.

إن خيانة، وخبائثة ولؤم يهود خيبر حملت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على أن يقضي على بؤرة المؤامرة ومركز الفساد والخطر هذا، وأن يجرد سكانها جميعاً من السلاح، لأنه كان يخشى أن يعود هذا الشعب المعاند الخبيث - ببذل الأموال الطائلة - إلى

تأليب العرب الوثنيين مرة أخرى ضد المسلمين ويعيدوا قصة الأحزاب مرة أخرى. وخاصة أن تعصّب اليهود لدينهم ومعتقدهم كان أشدّ من تعصّب قريش للوثنية، ولهذا التعصّب كان يسلم ألف مشرك وتنيّ ولا يدع يهوديٍّ واحدٍ دينه، ومعتقده!!

ثم إنّ عاملاً آخر حمل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على تحطيم قدرة الخبيريين وشوكتهم، وانتزاع السلاح منهم ورصد تحركاتهم بواسطة فرسانه ورجاله، أنه راسل الملوك والسلاطين، ودعاهم جميعاً وبشكل قوي إلى الإسلام، فلم يكن من المستبعد أن يستغل «كسرى» و «قيصر» يهود خيبر فيتعاونوا جميعاً للقضاء على الإسلام والنهضة الإسلامية في مهدها، أو تحرك اليهود ذينك الملكين ضدّ الإسلام كما حرّكت من قبل المشركين ضدّ هذا الدين، وتسبّبت في وقوع مشاكل.

خاصة أن الشعب اليهودي كان ضليعاً في الحروب التي دارت بين الروم

(388)

والفرس في تلك العصور، وكان اليهود يتعاونون مع أحد الطرفين.

من هنا رأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ان من الحكمة بل ومن الضرورة بمكان أن يطفئ شرارة الخطر هذه إلى الأبد

وكانت هذه الفرصة أفضل الفرص لهذا العمل، لأنّ بال النبيّ كان قد فرغ من ناحية الجنوب (أي قريش) بعد صلح الحديبية، وكان يعلم أنه لو أقدم على عمل ضد اليهود لم تمتد يد من جانب قريش لمساعدتهم، ولكي يمنع من وصول أية مساعدات وامدادات لهم من ناحية قبائل الشمال مثل «غطفان» الذين كانوا أصدقاء لليهود خيبر والمتعاونين معهم في معركة «الأحزاب» نفذ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خطة سيايّي تفصيلها مستقبلاً.

لهذه الاسباب والعوامل والاعتبارات أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المسلمين بالتهبؤ لغزو خيبر آخر مركز من مراكز اليهود في الجزيرة العربية. وقال: «لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد أما الغنيمة فلا.»

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - استخلف على المدينة «نميلة بن عبد الله الليثي»، ودفع راية بيضاء إلى «علي بن أبي طالب» - عليه السّلام - وأمر بالتوجه إلى خيبر، ولكي تسرع الابل في سيرها اذن لعامر بن الاكوع أن يحدو بالابل لان الابل تُسْتَحْتُ بالحداء، فأخذ يرتجز قائلاً:

والله لولا الله ما اهتدينا * ولا تصدقنا ولا صلينا

إنّا إذا قومٌ بَعُو علينا * وإن أرادوا فتنة أبينا

فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا * وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَأَقْبِنَا

وقد عكست هذه الأبيات الجميلة جانباً من هدف هذه الغزوة، فهي تفيد أن اليهود ظلمونا، وأشعلوا نيران الفتنة وقد خرجنا لاطفانها، وتحملنا في سبيل ذلك عناء هذا السفر.

ولقد سُرَّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمضامين هذه الابيات فدعا لابن الاكوع، وقال: «يرحمك الله» وقد استشهد ابن الاكوع هذا في هذه الغزوة.

(389)

هذا وقد كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يراعي مبدأ الاستتار في جميع تحركاته العسكرية، فقد كان يحب أن لا يعرف العدو بمسيره ومقصده حتى يفاجئ العدو وبياعته، ويحاصره قبل أن يستطيع فعل شيء، هذا مُضافاً إلى ناحية أخرى وهي أن يظن حلفاء العدو الذي يقصده بأنه يقصدهم ويسير اليهم، فيغلقوا على أنفسهم أبواب منازلهم ولا ينضم بعضهم إلى بعض.

وربما تصوّر البعض في هذه الغزوة أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يقصد منطقة الشمال (شمال المدينة) لتأديب قبائل غطفان وفزارة الذين تعاونوا مع اليهود في معركة الاحزاب، لما وجدوه متوجهاً نحو الشمال.

ولكنه عندما وصل إلى منطقة «الرجيع» عرج بجيشه صوب «خيبر» وبهذا قطع الطريق على اية إمدادات عسكرية من ناحية الشمال إلى خيبر، بقطع خط الارتباط بين قبائل غطفان وفزارة ويهود خيبر، فمع ان حصار خيبر طال مدة شهر واحد تقريباً لم تستطع القبائل المذكورة ان تمدّ حلفاءها اليهود بأي شيء.⁽¹⁾

ولقد خرج مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى خيبر ما يقرب من ألف وستمانه مقاتل، بينهم مائتا فارس.⁽²⁾

وعندما أشرف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على خيبر قرأ الدعاء التالي الذي يكشف عن نيته الحسنة:

- [السيرة النبوية: ٢ / ٣٣٠.

-2الإمامي للطوسي: ١٦٤، يذهب ابن هشام في سيرته: ٢ / ٣٢٨ إلى ان خروج النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى خيبر كان في المحرم، وبينما ذهب ابن سعد في الطبقات الكبرى: ٢ / ٧٧ إلى انه كان في جمادى الثانية من السنة السابعة، وحيث ان ارسال الرسل إلى الملوك والامراء تم في شهر محرم من هذه السنة ذاتها لذلك يكون الرأي الثاني أقرب إلى الصحة، وخاصة أن مهاجري الحبشة التحقوا برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في خيبر بعد وصول رسالة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى النجاشي بواسطة «عمرو بن أمية» لان ذهاب رسول النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى الحبشة وعودته مع المهاجرين إلى المدينة ثم خيبر بحاجة إلى زمان، وحيث ان توجه الرسل والسفراء كان في شهر محرم لذلك يجب ان يكون قتال الخيبريين في الاشهر التالية.

(390)

اللهم ربّ السماوات وما الضلّلن

وربَّ الارضين وما اقلنَّ

وربَّ الشياطين وما اضللنَّ

وربَّ الرياح وما اذرينَّ

فإننا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وخير ما فيها ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها. »

إن هذا الدعاء وما رافقه من حالة التصرع، وذلك أمام أعين ألف وستمائة من الجنود الشجعان الذين كان كل واحد منهم شعلة متقدة من الشوق إلى القتال في سبيل الله يكشف عن أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يكن يهدف من مسيره إلى هذه الأرض الاستعمار أو الانتقام بل جاء من أجل ان يقضي على بؤرة الخطر التي كان من المحتمل أن تتحول في كل لحظة إلى قاعدة انطلاق للمشركين الوثنيين، حتى لا تهدد النهضة الإسلامية من هذه الناحية فيما بعد.

وسترى أنت أيها القارئ الكريم كيف أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد فتح القلاع والحصون اليهودية، وانتزاع السلاح من سكانها المتأمرين المشاغبيين فوض إليهم اراضيهم، واكتفى منهم بأخذ الجزية في مقابل المحافظة على أموالهم وأنفسهم، وبعد أن ربطهم بمعاهدة قوية ملزمة.

إحتلال النقاط والطرق الحساسة ليلاً:

كان لكل حصن من حصون خيبر السبعة اسم خاص يعرف به فهي عبارة عن: «ناعم» و «القموص» و «الكتيبة» و «النطاة»، و «شوق» و «سطح»، و «سلام»، وربما سمي بعض هذه الحصون باسم زعيم الحصن وسيده، مثل حصن مرحب.

كما أنه كانوا قد بنوا عند كل حصن من تلك الحصون برجاً للمراقبة، ولرصد كل التحركات خارج الحصن، ولأجل أن ينقل الحراس والمراقبون المستقرون في هذه الأبراج الأخبار إلى داخل الحصن.

(391)

وقد كانت تلك البروج والحصون قد شيدت بحيث يسيطرُ سكانها على خارج الحصن سيطرة كاملة وكانوا يستطيعون - عن طريق المجانيق⁽¹⁾ وغيرها من آلات الرمي - إبعاد أي عدو، وافشال أيّة محاولة للاقتراب إلى الحصن، وذلك برميهِ بالاحجار وما شابهها

وقد كان بين سكان هذه الحصون البالغ عددهم عشرين ألفاً، ألفان من الفرسان الشجعان والصناديد الابطال الذين توفرت لهم كل ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب، والذين أعدت لهم في المخازن كل ما يحتاجون إليه من الاسلحة والعتاد.

وكانت هذه الحصون من الإحكام والقوة بحيث كان من المستحيل إحداث أية ثغرة في حيطانها أيضاً، ومن أراد الاقتراب إليها رمي بالاحجار فجرح بها أو قتل، فكانت تعدُّ هذه الحصون - في الحقيقة - متاريس قوية لمقاتلي اليهود.

لقد واجه المسلمون في هذه الغزوة مثل هذا العدو المسلح، الممتنع بمثل هذه المتاريس القوية، فكان لا بدّ لفتح هذه القلاع من استخدام تكتيك عسكري دقيق.

ولهذا فإنّ أوّل عمل قام به رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه في هذا السبيل هو احتلال كل النقاط والطرق الحساسة ليلاً.

وقد تم هذا العمل بسرية وسرعة بالغة جداً بحيث لم يعرف به حتّى مراقبو الابراج اليقظون أيضاً.

ولما كان صبيحة تلك الليلة خرج عُمال خيبر غادين إلى مزارعهم وبساتينهم وهم يحملون مساحيهم ومكاتلهم وإذا بهم يفاجأون بجنود الإسلام الابطال وقد احتلوا بقوة الايمان جميع النقاط الحساسة وسدّوا جميع الطرق عليهم بحيث لو قدّموا شبراً لقبض عليهم، فأفزعهم ذلك وخافوا خوفاً شديداً، فأدبروا

1- وهي أجهزة حديدية بدائية تقذف الحجر أو الحديد.

(392)

هرباً وهم يقولون: محمّد والجيش معه. وباردوا فوراً إلى إغلاق أبواب الحصون وإحكامها، وعقدوا شورى عسكرية في داخل حصنهم المركزي.

وعندما رأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مساحي اليهود ومكاتلهم وغيرها من أدوات الهدم قال متفانلاً:

«الله أكبر خربت خيبرُ أنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المُنذرين.»

وكانت نتيجة الشورى العسكرية اليهودية في هذه الغزوة هي أن يجعلوا الأطفال والنساء في أحد الحصون، ويجعلوا الذخيرة من الطعام في حصن آخر، ويستقر المقاتلون الشجعان على الأبراج ويدافعوا عن كل قلعة وحصن بالأحجار، ويخرج الابطال الصناديد من كل حصن ويقاتلوا المسلمين خارجه.

كانت هذه هي خطة اليهود لمواجهة جنود الإسلام وقد أصروا على تنفيذها حتى آخر لحظة من القتال ولهذا استطاعوا أن يقاوموا في وجه الجيش الاسلامي مدة شهر واحد تقريباً بحيث كانت محاولة فتح كل حصن من تلك الحصون تستغرق عشرة أيام دون نتيجة.

متاريس اليهود تتهاوى:

كانت هناك نقطة لا تحظى بأهمية تُذكر من الناحية العسكرية وَاكان مقاتلو اليهود يسيطرون عليها سيطرة كاملة، ولم يكن فيها أي مانع من استهداف مخيم المسلمين ورميها من جانب العدو.

ولهذا جاء أحداً المقاتلين المسلمين إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو «محمَّد بن مسلمة» وقال له:

يا رسول الله صلى الله عليك إنك نزلت منزلك هذا فان كان عن أمر (الهي) أمرت به فلا نتكلم فيه، وان كان الرأي تكلمنا؟ يا رسول الله دنوت من الحصن، وان أهل النطاة مرتفعون علينا وهو أسرع لا نحطاط نبلهم فتحوّل يا رسول الله إلى موضع بريء من النخل والبناء حتى لا ينالنا نبلهم.

(393)

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو يراعي واحداً من مبادئ الإسلام العظيمة (الشورى) واحترام الآخرين: «بل هو الرأي، أنظر لنا منزلنا بعيداً من حصونهم، بريئاً من الوباء نأمن فيه بياتهم»، فطاف محمَّد حتى انتهى إلى الرجيع (وهو واد بقرب خيبر) ثم رجع إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليلاً فقال: وجدت لك منزلاً، فأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فحولت خيمة القيادة عند المساء إلى ذلك المكان الأكثر أماناً من بيات اليهود وغدرهم فكان النبي يغدو كل يوم فيقاتل أهل النطاة يومه إلى الليل ثم إذا أمسى رجع إلى الرجيع حيث غرفة القيادة، وكان يناوب بين أصحابه في حراسة الليل في مقامه بالرجيع سبعة أيام.⁽¹⁾

على أنه لا يمكن البتّ في تفاصيل واقعة خيبر ولكن المستفاد من المصادر التاريخية هو أن جنود الإسلام حاصروا القلاع والحصون حصناً تلو حصن، وحاولوا قطع ارتباط الحصن المحاصر ببقية الحصون ثم فتحه، ثم محاصرة حصن آخر.

ولقد تم فتح هذه الحصون ببطء لأنها كانت مرتبطة ببعضها بارتباط سرّي، أو كان المقاتلون يدافعون عنها دفاعاً مستميتاً، ولكن الحصون التي كان الرعب والخوف يسيطر على مقاتليها وحراسها، أو التي ينقطع ارتباطها بالخارج بصورة كاملة كان يتم السيطرة عليها بسهولة، وتسفك فيها دماء أقل، ويتقدم العمل فيها بسرعة أكبر.

وان أول حصن فُتح على أيدي المسلمين بعد شيء كبير من الجهد - كما يذهب إليه جمع من المؤرخين - هو حصن «ناعم». ولقد استشهد في فتح هذا الحصن أحد المقاتلين المسلمين البارزين، يدعى «محمد بن مسلمة» الانصاري، وجرح خمسون رجلاً من مقاتلي الإسلام، فقد استشهد الفارس المذكور بعد أن رماه اليهود بصخرة كبيرة من فوق الحصن فقتل من فورهِ، وقيل أنه توفي بعد ثلاثة أيام - حسب رواية ابن الاثير في أسد الغابة (2) - ونقل الجرحى الخمسون إلى

1- السيرة الحلبية: ٣ / ٣٩ .

2- اسد الغابة: ٤ / ٣٣٤ .

(394)

منطقة أخرى من المعسكر خصصت لغرض التضמיד، (1) كما انه سمح لبعض نساء بني غفار بأن يأتين إلى «خيبر» لمساعدة المسلمين وتضמיד الجرحى وتقديم غير ذلك من الخدمات التي يليق بهن في المعسكر، وقد أظهرت تلك النسوة من أنفسهن تفانياً، وتضحية عجيبة. (2)

ولقد رأت الشورى العسكرية الإسلامية أن يعمد المقاتلون المسلمون - بعد فتح حصن «ناعم» إلى فتح حصن «القموص» الذي كان يرأسه أبناء «أبي الحقيق»، ولقد فتح هذا الحصن بفضل تفاني جنود الإسلام وأسرت منه «صفية بنت حبي بن أخطب» التي صارت فيما بعد من زوجات رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ولقد قوى هذان الانتصاران العظيمان معنوية الجنود المسلمين وألقى رعباً شديداً في نفوس اليهود ولكن المسلمين وقعوا في مخمصة شديدة بسبب قلّة المواد الغذائية بحيث اضطروا إلى أن يأكلوا من بعض الانعام المكروهة اللحم، وقد كان هناك بين حصون اليهود حصن مملوء طعاماً إلا أن المسلمين لم يظفروا به حتّى ذلك الحين.

التقوى في ظروف المخمصة الشديدة:

في مثل هذه الحالة التي كان قد استولى فيها جوعٌ شديدٌ على المسلمين، اضطروا معه إلى تناول لحوم ما كره أكله من الأنعام أتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - راع أجيراً لليهود يرعى لهم غنمهم، ورسول الله محاصر لبعض حصون خيبر فقال: يا رسول الله اعرض على الإسلام فعرضه عليه، فأسلم، وكان رسول الله لا يحقر أحداً أن يدعوهُ إلى الإسلام ويعرضه عليه - فلما أسلم قال: يا رسول الله اني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم وهي أمانة عندي فكيف أصنع بها؟ فقال له رسول الله

1- السيرة الحلبية: ٣ / ٤٠ .

2- السيرة النبوية: ٣ / ٣٤٢ .

أمام عيون المئات من جنوده الجياع:

«أخرجها من العسكر ثم صبح بها وارمها بحصيات فإن الله عز وجل سيؤدّي عنك أمانتك.»

ف فعل الراعي ما أمره به رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وخرجت الغنم إلى صاحبها حتى دخلت الحصن كأن سائقاً يسوقها،

وقد قاتل ذلك الرجل إلى جانب المسلمين حتى استشهد.⁽¹⁾

أجل لم يكتسب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لقب «الأمين» من قومه في فترة شبابه فقط بل كان أميناً في جميع الحالات والظروف وهو القائل:

«ما من شيء كان في الجاهلية إلا هو تحت قدمي إلا الامانة فانها مؤداة إلى البر والفاجر⁽²⁾»، وقد بقي تردد القطعان حراً طوال مدة الحصار ولم يفكر ولا واحد من المسلمين بأخذ غنم منها لانهم تعلموا الأمانة والتقوى والصدق والورع من معلمهم الاكبر «محمّد» الصادق الأمين - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

نعم غلب الجوع الشديد على العسكر ذات يوم حتى كادوا أن يهلكوا فأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن تؤخذ شاتان من غنم اليهود اضطراراً، واطلق البقية لتدخل الحصن بامان⁽³⁾، ولولا ذلك الاضطرار الذي يباح معه المحذور بقدره لما سمح رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بذلك، ولما رأى جوع أصحابه وتضوّرهم من شدة السغب دعا قائلاً:

«اللهم إنك قد عرفت حالهم وان ليست بهم قوة، وان ليس بيدي شيء أعطيهم إياه فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء، وأكثرها طعاماً.⁽⁴⁾»

ولم يكن يأذن لاحد من المسلمين بأن يأخذ شيئاً من اموال الناس ابداً.

في ضوء كل هذا تتضح دسائس جماعة من المستشرقين في تاريخنا المعاصر فهم يصرون على القول بأن غزوات الإسلام ومعاركه كانت للإغارة وجمع الغنائم ومصادرة الأموال والسيطرة عليها وان جنوده لم يكونوا يتقيدون خلال تلك المعارك بمبادئ العدالة والامانة، وذلك كيد منهم للإسلام، ومحاولة بغیضة للحط من قيمة الاهداف الإسلامية العليا، وتشويهها.

ولكن النموذج المذكور هنا، وأمثاله ممّا بعدُ بالعشرات في صفحات التاريخ الإسلامي تشهد بكذبهم فإن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لم يأذن وهو في أشدّ الظروف وأصعبها وجنوده الأوفياء قد غلبهم الجوع ودنوا من الهلاك، بأن يخون راع في أغنام كان يرعاها لليهودي، بل أمره بردها إلى صاحبه وهو في قتال مع اليهود على حين كان يمكنه مصادرتها جملة واحدة.

فتح الحصون الواحد تلو الآخر:

بعد فتح القلاع المذكورة حمل جنود الإسلام على حصن الوطيح، وسلام، ولكنهم واجهوا مقاومة عنيفة من اليهود الذين كانوا يدافعون عنها خارجها، من هنا لم يستطع جنود الإسلام الأبطال رغم كل التضحيات التي ذكرها كاتب السيرة المعروف ابن هشام - في موضع خاص من سيرته - ان يحرزوا انتصاراً بل ظلوا يجالدون مقاتلي اليهود أكثر من عشرة أيام، ولكنهم كانوا يعودون في كل يوم إلى مقرهم من دون نتيجة.

وذاث يوم بعث رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أبابكر واعطاه رايته البيضاء على رأس جماعة من المقاتلين المسلمين لفتح بعض حصون خيبر، ولكنه رجع ولم يكن فتح وكل من الامير والجنود يلقي باللوم على الآخر، ويتهمه بالجبن والفرار.

فبعث رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في يوم آخر «عمر بن الخطاب» على

(397)

رأس جماعة أخرى فكان كرفيقه إذ رجع ولم يحقق فتحاً، بل عاد - حسب ما يروي الطبري - ⁽¹⁾فزعاً مرعوباً وهو يصف شجاعة مرحب وقوته البالغة، فأغضب هذا العمل رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وفرسان الإسلام الأبطال وقادة الجيش الإسلامي، فجمع رسول الله صناديد جيشه وقال:

«لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غداً رَجلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ يَفْتَحُ عَلَيَّ يَدَيْهِ لَيْسَ بِفَرَارٍ» أو: «كرار غير فرار» حسب نقل الطبري والحلي. ⁽²⁾

وقد أثارت هذه الجملة الخالدة الحاكية عن فضيلة وشجاعة وتفوق ذلك الفارس الذي قدر أن يكون الفتح على يديه وتمييزه المعنوي على غيره موجة من الفرح الممزوج بالاضطراب بين أفراد الجيش وقادته الشجعان.

فقد بات كل واحد منهم يتمنى أن يكون هو صاحب هذا النوط الخالد والعظيم، وان تصيب القرعة اسمه.

ولما بلغ علياً - عليه السلام - مقالة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - هذه وهو في خيمته قال: «اللهم لا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت. ⁽³⁾»

غطى ظلام الليل كل مكان، وذهب جنود الإسلام إلى أماكن نومهم، وبينما بقي الحراس يتحارسون طوال الليل، ويرصدون أوضاع

العدو الغادر

1- تاريخ الطبري: ٢ / ٣٠٠.
2- مجمع البيان: ٩ / ١٢٠، السيرة الحلبية: ٢ / ٣٧، السيرة النبوية: ٣ / ٣٣٤، أمتاع الاسماع: ١ / ٣١٤ ولقد انزعج المؤرخ الاسلامي المعروف ابن أبي الحديد من فرار هاتين الشخصيتين فقال في ضمن قصيدة له:

وما أنسَ لا أنسَ اللذين تقدما * وفرَّهما وفرُّ قَدِ علما حوبُ

وللراية العظمى وقد ذهبها * ملابس ذلَّ فوقها وجلابيب

يشلُّهما من آل موسى شمردلُ * طويل نجاد السيف أجيد يعبوبُ

(الغدير: ٧ / ٢٠١ اقتباساً من القصائد العلويات).
3- السيرة الحلبية: ٢ / ٣٥.

(398)

وتحركاته.

وعند الصباح ومع طلوع الشمس التي شقت بأشعتها رداء الظلام، وأضاءت السهل والجبل، تجمع قادة الجيش الاسلامي وصناديده وأبطاله وغيرهم من الرجال وفيهم الاميران المنهزمان بالأمس حول رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهم يريدون بشوق بالغ أن يعرفوا من سيعطيه الراية اليوم، وقد تناول لها أبو بكر وعمر. (1)

ولم يطل هذا الانتظار، فقد كسر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جدار الصمت هذا عندما قال: «ابن علي»!؟

فقيل يا رسول الله به رمد، وهو راقد بناحية.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«إبتوني بعلي». (2)»

إن هذه العبارة تكشف عن أن ما أصاب علياً - عليه السلام - من الرمد كان من الشدة بحيث سلبه القدرة على المشي، وعاقه عن

الحركة.

فأمَرَ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يده الشريفة على عيني علي - عليه السَّلام - ودعا له بخير، فعوفي من ساعته، واستعادت عيناه - عليه السَّلام - سلامتها افضل ممَّا كانت بحيث لم يرمد - عليه السَّلام - حتَّى آخر حياته بفضل تلك المسحة النبوية المباركة.

ثم دفع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - اللواء إلى عليّ - عليه السَّلام - ودعا له بالنصر كما أنه أمره بأن يبعث إلى اليهود قبل قتالهم من يدعو رؤساء الحصون إلى الإسلام فإن أبوا اعتناق الإسلام أخبرهم بوظائفهم في ظل الحكومة الإسلامية وأن عليهم أن يسلموا أسلحتهم إلى حكومة الإسلامية، ويعيشوا بحرية وأمان

1- هذه هي عبارة الطبري: ٢ / ٣٠٠، كنز العمال: ج ٦.
2- بحار الأنوار: ٢١ / ٢٨ و ٢٩، تاريخ الخميس: ٢ / ٤٩.

(399)

تحت ظل هذه الحكومة شريطة أن يدفعوا الجزية.⁽¹⁾

وإذا رفضوا ذلك وهذا قاتلهم، ثم قال لعلي الذي أوكل إليه قيادة تلك المجموعة:

«لئن يَهْدِي اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ.»⁽²⁾

أجل إن النبي الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يفكّر في هداية الناس حتّى في أشد لحظات الحرب، وهذا يفيد بأن جميع حروب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كانت لهداية الناس لا غير.

الانتصار الكبير في خيبر:

عندما كُفِّت عليّ - عليه السَّلام - من جانب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بفتح قلعتي سلالم والوطيح (وهما الحصنان اللذان عجز عن فتحهما الأميران السابقان ووجها بفرارهما ضربة لا تجبر إلى شرف الجيش الاسلامي)، ارتدى درعاً قوياً وحمل معه سيفه الخاص ذالفقار وراح يهرول بشجاعة منقطعة النظير نحو القلعتين المذكورتين، والجنّد خلفه، حتّى ركز الرابطة التي أعطاهها له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على الأرض تحت الحصن.

ولما رأى اليهود انه دنا من الحصن خرج إليه كبار صناديدهم.

وكان أول من خرج إليه أخو مرحب ويدعى «الحارث» فتقدم إلى عليّ وصوته يدوي في ساحة القتال بحيث تأخر من كان خلف

عليّ من شدة الفرع.⁽³⁾

ولكن لم يمض زمان حتى سقط الحارث على الارض جثة هامدة بضربة قاضية من علي - عليه السّلام - .

-
- 1- صحيح مسلم: ١٩٥ / ٥ ، صحيح البخاري: ١٨ / ٥ .
 - 2- السيرة الحلبية: ٣٧ / ٢ .
 - 3- امتاع الاسماع: ٣١٤ / ١ قال: فانكشف المسلمون وثبت على.

(400)

فغضب مرحب بطل خيبر المعروف لمقتل أخيه الحارث وخرج من الحصن وهو غارق في السلاح، فقد لبس درعا يمانياً، ووضع على رأسه خوذة منحوتة من حجارة خاصة، وتقدم إلى عليّ - عليه السّلام - كالفحل الصوّول يرتجز ويقول:

قَدْ عَلِمْتُ خَيْبِرُ أَنِي مَرْحَبُ * شَاكِي السِّلَاحِ بَطْلُ مَجْرَبُ
إِنْ غَلَبَ الدَّهْرُ فَاثِي أَعْلَبُ * وَالْقَرْنُ عِنْدِي بِالدِّمَاءِ مُخَضَّبُ⁽¹⁾

فأجابه عليّ - عليه السّلام - مرتجزاً وقد أظهر للعدو شخصيته العسكرية في رجزه:

أَنَا الَّذِي سَمَّيْتَنِي أُمِّي حَيْدَرَةٌ * ضَرَّغَامُ أَجَامٍ وَلَيْتُ قَسْوَرَةٌ
عَبَلُ الزَّرَاعِينِ غَلِيظُ الْقَيْصَرَةِ * كَلَيْثُ غَابَاثُ كَرِيهِ الْمَنْظَرَةِ

وبعد أن انتهى الطرفان من إنشاد رجزهما تبادلوا الضربات بالسيوف والرماح، فألقت قعقة السيوف وصوت الرماح رعباً عجبياً في قلوب المشاهدين، وفجأة هبط سيف بطل الإسلام القاطع على المفرق من رأس «مرحب» بطل اليهود قدّت خوذته نصفين ونزلت على رأسه وشقته نصفين إلى أسنانه!!

ولقد كانت هذه الضربة من القوة بحيث أفضت أكثر من خرج مع «مرحب» من أبطال اليهود وصناديدهم ففروا من فورهم، ولجأوا إلى الحصن، وبقي جماعة فقاتلوا عليّاً منازل فقاتلهم حتى قتلهم جميعاً، ثم لاحق الفارين منهم حتى باب الحصن، فضربه عند الحصن رجل من اليهود فطاح ترسُه من يده فتناول - عليه السّلام - باباً كان على الحصن وانتزعه من مكانه، فترس به عن نفسه فلم يزل ذلك الباب في يده وهو يقاتل حتى فتح الله على يديه ثم القاه من يده حين فرغ، وقد حاول ثمانية من أبطال الإسلام ومنهم أبو رافع مولى رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أن يقلبوا ذلك الباب أو يحركوه من مكانه فلم يقدرُوا على ذلك.⁽²⁾

1- يروي ابن هشام في سيرته أشعار مرحب بصورة أخرى: ٣٣٢ / ٢ .
2- تاريخ الطبري: ٩٤ / ٢ ، سيرة ابن هشام: ٣٤٩ / ٢ ، تاريخ الخميس: ٤٧ / ٢ - ٥٠ .

وهكذا فتحت القلعة التي عجز عن فتحها المسلمون عشرة أيام، في مدة قصيرة على يد بطل الإسلام الأول «علي بن أبي طالب» - عليه السّلام - .

ويقول اليعقوبي في تاريخه: ان الباب الذي قلعه علي - عليه السّلام - كان من الصخر وكان طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعين. (1) ويقول الشيخ المفيد في إرشاده بسند خاص عن امير المؤمنين قصة قلعه ذلك الباب:

«لما عالجُ باب خيبر جعلته مجنناً لي فقاتلُهم به، فلما أخزاهمُ اللهُ وضعتُ الباب على حصنهم طريقاً ثم رميتُ به في خندقهم، ولما قال له رجل: لقد حملت منه ثقلاً قال - عليه السّلام - :
«ما كان إلا مثل جُنَّتِي التي في يدي في غير ذلك المقام.» (2)

وقد نقل المؤرخون قضايا عجيبة حول قلع باب خيبر هذا وخصوصياته ومواصفاته، وعن بطولات علي - عليه السّلام - في فتح هذا الحصن، وجميعها لا تتماشى ولا تتساير مع القدرة البشرية المتعارفة، ولا يمكن أن تصدر منها.

ويقول علي - عليه السّلام - نفسه في هذا الصدد ما يرفع كل شك وإبهام قد يعترض المرء في هذا المجال:

«ما قلعتها بقوة بشرية ولكن قلعتها بقوة الهية ونفس بلقاء ربها مطمئنة رضية.» (3)

تحريف الحقائق:

لو أننا أردنا أن نلتزم بحدود الحق والانصاف لوجب أن نقول أنّ «ابن هشام» في سيرته و «الطبري» في تاريخه ذكرا قصة مبارزة علي - عليه السّلام - في يوم

1- تاريخ اليعقوبي: ٢ / ٤٦ .

2- الارشاد: ص ٦٢ - ٦٥ .

3- بحار الأنوار: ٢١ / ٤٠ .

خيبر بصورة مفصلة، نقلوا تفاصيلها بصورة دقيقة، ولكنهما ذكرا في نهاية بحثهما التاريخي قصة خيالية لا أساس لها وهي ان مرحباً قُتل على يدي «محمد بن مسلمة» وقالوا: ويرى البعض أن مرحباً اليهودي قتل محمد بن مسلمة انتقاماً لأخيه الذي قتل عند فتح حصن «ناعم» على أيدي اليهود، فقد كلفه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بقتال مرحب فيروز إليه فقتله.

إن هذا الاحتمال من الوهن والبطلان بحيث لا يقاوم التاريخ الإسلامي المسلم والمتواتر، هذا مضافاً إلى أن هذه الاسطورة التاريخية تعاني من اشكالات، ومواخذات نذكرها للقارئ الكريم:

1- إن محمد بن مسلمة لم يكن بذلك الرجل الشجاع، والبطل الصنديد الذي توهله شجاعته لأن يكن فاتح خيبر وقاتل بطلها الأكبر، فإن التاريخ لا يذكر عنه نموذجاً بارزاً من بطولته وشجاعته، إنما كلف في السنة الثالثة من جانب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقط بأن يغتال «كعب بن الأشرف» الذي حرّك المشركين والبهيم ضد الإسلام والمسلمين بعد معركة بدر الكبرى، وقد بقي ثلاثة أيام بلباليها لا يطعم شيئاً خوفاً، فأنكر عليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خوفه وسأله عن سبب ذلك فقال: يا رسول الله قلت لك قولاً لا أدري هل أفينّ به أم لا؟ فلما رأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - منه ذلك أرسل معه أربعة رجال آخرين ليعينوه في هذه المهمة، ويتخلصوا من «كعب» الذي كان يريد إعادة القتال بين المسلمين والمشركين.

فخرجوا إليه في منتصف الليل وقتلوا عدوّ الله كعباً وفق خطة خاصة ولكن «محمد بن مسلمة» جرّح أحد رفاقه من شدة الخوف والرعب التي أصابته، ولا شك أن صاحب مثل هذه النفسية لا يمكنه أن يبارز صناديد «خيبر» المعروفين وينازلهم.

2- إن فاتح «خيبر» لم يقاتل مرحباً ويقتله وحده، بل قاتل بعد مصرع مرحب من كانوا قد جاؤوا معه إلى ساحة القتال من شجعان اليهود فلاحق

(403)

الفازين، ونازل الذين بقوا ولم يفرّوا.

واليك أسماء من بقوا في ساحة القتال وقاتلوا علماً - عليه السلام - بعد قتله مرحباً:

1- داود بن قابوس.

2- ربيع ابن أبي الحقيق.

3- أبو البانت.

4- مرة بن مروان.

5- ياسر الخيبري.

6- ضحيج الخيبري.

وكل هؤلاء كانوا من صناديد اليهود وابطالهم، وكانوا يقاتلون خارج حصن خيبر ويمنعون من أية محاولة لفتح قلاع اليهود في هذه
الوقعة.

إن هؤلاء الستة قتلوا على يد علي بن أبي طالب - عليه السَّلام - وهم يرتجزون في ساحة القتال ويطلبون المبارز والمناجز. (1)

فمن يكون والحال هذه فاتح «خيبر» وقاتل مرحب؟

إذا كان «محمَّد بن مسلمة» فانه لا يمكن أن يعود بعد قتل مرحب إلى معسكر المسلمين ويتجاهل أولئك الأبطال خلف مرحب بل
لابد أن يقاتلهم، في حين اتَّفقت كل السير والتواريخ على أن هؤلاء قتلوا جميعاً على يد علي بن أبي طالب - عليه السَّلام - .

3- ان هذه الاسطورة التاريخية تتنافى مع الحديث المنقول عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فانه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال في حق علي - عليه السَّلام - « يفتح الله على يديه» مع العلم بأن المانع الاكبر من فتح خيبر كان هو مرحب الذي
اجبرت شجاعته الأميرين السابقين على الفرار، فاذا كان قاتل مرحب هو

[1- ناسخ التواريخ: ٢ / ٢٨٢ - ٢٨٦ .

(404)

«محمَّد بن مسلمة» لزم أن يقول رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جملة هذه في حق «محمَّد بن مسلمة» لا في حق «علي -
عليه السَّلام - الذي أعطاه الراية بعد أن قال تلك الجملة: «يفتح الله على يديه. »

يقول الحلبي كاتب السيرة المعروف: قيل: القاتل له (اي لمرحب) علي كرم الله وجهه وبه جزم مسلم رحمه الله في صحيحه. قال
بعضهم: والاحبار متواترة به وقال ابن الاثير: الصحيح الذي عليه أهل السير والحديث أن علياً قاتله كرم الله وجهه. (1)

ولقد وقع الطبري في تاريخه، وابن هشام في سيرته في شيء من الإضطراب والفوضى وكتبا قصة هزيمة ورجوع الرجلين اللذين
كلَّفَا قبل علي - عليه السَّلام - بفتح قلاع اليهود بصورة لا تتفق مع مفهوم الجملة التي قالها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -
- في حق علي - عليه السَّلام - .

فقد قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في حقه: «وليس فرّار» (2) «يعني أن الذي سوف يعطيه الراية لا يفر أبداً، ومفهوم
هذه الجملة هو أن علياً - عليه السَّلام - لا يفرّ و لا يجبن أمام العدو كما فر القائدان السابقان، وهذا يعني أن القائدين السابقين فرّا أمام
العدوّ، واخليا الساحة، في حين أن الكاتبين المذكورين لا يذكران مسألة فرار القائدين المذكورين، وإنما يكتبان رجوعهما كما لو

أنهما قد أدّيا وظيفتهما القتالية والعسكرية على الوجه الكامل، ولكنهما لم يوفقا للفتح. (3)

ثلاث نقاط مشرقة في حياة علي - عليه السَّلام - :

ونختم هذا البحث بذكر ثلاث فضائل لفتاح خبير ذكرها أحد خصومه لها ارتباط بموقفه - عليه السّلام - في خبير:

1- السيرة الحلبية: ٣ / ٣٨، وراجع زاد المعاد: ٢ / ١٣٤ و ١٣٥.

2- المغازي: ٢ / ٦٥٣.

3- السيرة النبوية: ٣ / ٣٤٩.

(405)

أمر معاوية سعد بن أبي وقاص يوماً فقال: ما منعك ان تسبّ أبا تراب؟

فقال: أما ما ذكرتُ ثلاثاً قالهنّ له رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فلن أسبّه لأن تكون لي واحدة منهنّ أحبُّ إليّ من حُمير النعم.

ثم أخذ سعد في عد تلك المناقب فقال:

1- سمعت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يقول له وقد خَلَفَه في بعض مغازيه (1) فقال له عليّ: يا رسول الله خَلَفْتَنِي مع النساء والصبيان؟

فقال له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبوة بعدي.»

2- وسمعتَه يقول يوم خبير:

لأعطين الراية رجلاً يحبُّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. قال فتناولنا لها فقال: أدعوا لي علياً. فاتي به أرمم فبصق في عينه، ودفع الراية إليه ففتح الله عليه. (2)

3- ولما نزلت هذه الآية «فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل...» دعا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال:

«اللهم هؤلاء أهل بيتي.» (3)(4)

عوامل الانتصار:

فتحت حصون «خبير»، واستسلم اليهودُ للمسلمين بشروط خاصة، ولكن يجب أن نرى ماهي العوامل التي ادت إلى هذا الانتصار،

فهذه هي في الحقيقة

-
- 1- وهي إشارة إلى واقعة تبوك.
 - 2- وهي إشارة إلى واقعة خيبر.
 - 3- وهي إشارة إلى قصة مباحلة النبي نصارى نجران.
 - 4- صحيح مسلم: ٧ / ١٢٠.

(406)

النقاط الهامة في هذا القسم.

إن انتصار المسلمين الساحق في هذه الغزوة يعودُ إلى عوامل يمكن الإشارة إليها على نحو الاجمال ثم شرحها بالتفصيل في ما بعد .

1- التخطيط العسكري والتكتيك الحربي الدقيق.

2- تحصيل المعلومات ومعرفة أسرار العدو الداخلية.

3- تفاني الامام علي بن أبي طالب، وبطولته النادرة. وهنا نحن ندرس هذه الأمور الثلاثة على وجه التفصيل:

1- التخطيط والتكتيك العسكري الدقيق:

لقد هبط الجيش الاسلامي في منطقة قطع بها المسلمون ارتباط اليهود باصدقائهم القدامى (قبائل غطفان).

وقد كان بين قبائل غطفان فرسان كثيرون، ولو استطاعوا أن يعينوا اليهود في هذه الموقعة لما أمكن فتح حصون خيبر.

فان «غطفان» لما سمعت بمسير رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى خيبر خرجوا ليظاهروا اليهود عليه، ولكنهم ما أن

سمعوا الشائعة التي مفادها أن أصحاب محمد قد قصدوهم من طريق آخر ظنوا انهم سيهاجمون أموالهم وأهليهم فرجعوا من منتصف

الطريق على أعقابهم، وأقاموا في أهليهم وأموالهم وخلّوا بين رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبين «خيبر». »

يقول المؤرخون: إن هذه الشائعة كانت نتيجة نداء غيبي سمعه رجالُ غطفان ظنوا أن المسلمين داهموا أهليهم⁽¹⁾ ولكنه ليس من

المستبعد أن تكون هذه الشائعة من فعل المسلمين المتسترين من قبائل غطفان، والذين أمروا بأن يتظاهروا بالكفر، ويبقوا في قبائلهم

حتّى يعينوا إخوانهم المسلمين في اللحظات

[1-المغازي: ٢ / ٦٥١ - ٦٥٣.

(407)

المناسبة.

فخططوا لهذه الموقعة بمهارة كبيرة وكانوا في ذلك ناجحين جداً إلى درجة أنه تسبب في أن تعدل إمدادات غطفان العسكرية لليهود من مواصلة مسيرها إلى «خيبر»، والعودة إلى أهلهم وترك اليهود وشأنهم.

وقد سبق لهذا نظير في معركة «الاحزاب» يوم امتنعت قبائل غطفان عن نصره اليهود بسبب شائعة بثها بينهم رجل من المسلمين من بني غطفان يدعى «نعيم بن مسعود»، وتفرق على أثره جماعة الاحزاب، وانفرط عقدهم.

2- تحصيل المعلومات حول العدو:

لقد كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كما أسلفنا مراراً يُولي تحصيل المعلومات ومعرفة أسرار العدو، أهمية كبيرة.

ولهذا بعث قبل محاصرة «خيبر» طليعة من المسلمين وأمر عليهم «عباد بن بشر» ووجههم إلى «خيبر»، فالتقوا بيهودي قرب حصون «خيبر»، و بعد التحقيق معه تبين أنه عين لليهود يتجسس لهم الاخبار فأخذه إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فسأله عن أوضاع اليهود في حصون «خيبر».

فقال: أفتؤمنني يا أبا القاسم على أن أصدقك؟ فأمنه عباد.

فقال اليهودي: القوم مرعوبون منكم خائفون وجلون لما قد صنعتم بمن كان بيثرب.

ثم قال: خرجت من حصن «النتاة» من عند قوم ليس لهم نظام تركتهم يتسللون من الحصن في هذه الليلة إلى «الشق» وقد رعبوا منك حتى أن أفندتهم لتحقق، فاذا دخلت الحصن غداً وأنت تدخله، قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : إن شاء الله، قال اليهودي إن شاء الله أوقفك على حصن اليهود الذي فيه منجنيق مفلكة ودبابتان وسلاح من دروع وبيض وسيوف، فانصب المنجنيق على حصن الشق وتدخل الرجال تحت الدبابتين فيحفرون الحصن فتفتحه من

إن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وإن لم يستخدم هذه الادوات التخريبية إلا أن المعلومات التي وقف عليها من ذلك اليهودي الأسير كانت مهمة لأنها أوضحت نقطة الحملة غداً، وعرف النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن التغلب على حصن «النتاة» لايحتاج إلى قوة كبيرة، وأنه لابد من رعاية المزيد من الحيلة والحذر عند فتح حصن «الشق». »

نموذج آخر: عند فتح إحدى القلاع أتى يهودئ إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد ثلاثة أيام مضت على محاصرتها وقال - ولعله لتخليص نفسه - إنك لو اقامت شهراً ما بالوا، لهم جدولٌ تحت الأرض يخرجون بالليل فيشربون بها ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمنعون منك، فان قطعت مشربهم عليهم ضجهم.

وفي رواية أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يوافق على قطع الماء عن العدو. (2)

وفي أخرى؛ قطع عليهم مشاربهم مؤقتاً فلم يطبقوا المقام على العطش. (3)

-3- تفاني امير المؤمنين:

ولقد ذكرنا تفاني علي بن أبي طالب، وبطولته في هذه الموقعة بصورة مجملة، وما نحن ننقل عبارة قالها هو - عليه السلام - عن هذه المسألة:

وَرَدْنَا مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خبير على رجال من اليهود وفرسانها من قریش وغيرها، فتلقونا بأمثال الجبال من الخيل والرجال والسلاح، وهم في أمنع دار وأكثر عدد، كلٌ ينادي ويدعو ويبادر إلى القتال، فلم يبرز اليهم من أصحابي أحدٌ إلا قتلوه حتى احمرت الحدق، ودعيت إلى النزال، وأهمت كل امرئ نفسه، والتفت بعض أصحابي إلى بعض وكلٌ يقول: يا أبا الحسن انهض.

-
- 1- السيرة الحلبية: ٣ / ٣٥.
2- ناسخ التواريخ: ٢ / ٢٩٩، المصدر السابق: ٤٠.
3- الخصال: ص ٣٦٩.

(409)

فأنهضني رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى دارهم فلم يبرز إلي أحدٌ منهم الاقتلته، ولا يثبت لي فارس إلا طحنته، ثم شددت عليهم شدة الليث على فريسته حتى أدخلتهم جوف مدينتهم مسدداً عليهم فاقتلعت باب حصنهم بيدي حتى دخلت عليهم مدينتهم وحدي أقتل من يظهر فيها من رجالها، وأسبي من أجد من نساها حتى افتتحتها وحدي ولم يكن لي فيها معاونٌ إلا الله وحده. (1)

الرحمة في ساحة القتال:

عندما افتتح حصن «القموص» سببت «صفية بنت حيي بن أخطب» وامرأة أخرى، فمر بهما «بلال» على القتلى فصاحت صفية صياحاً شديداً جزءة ممّا رأت، فكره رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما صنع بلال وقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«أذهبت منك الرحمة؟ تمر بجارية حديثة السن على القتلى؟»

فقال بلال: يا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما ظننت أنك تكره ذلك، وأحببت أن ترى مصارع أهلها. (2)

ولم يكتف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بهذا القدر من تطييب خاطر «صفية» بل احترمها، وعين لها مكاناً خاصاً للاستراحة في المعسكر، واختارها زوجة لنفسه، وبهذا الطريق أزال آثار ذلك الصنيع السيء الذي قام به بلال.

لقد تركت أخلاق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتعامله الإنساني الرفيع مع «صفية» أثراً حسناً في نفسها، فقد صارت في ما بعد من أزواج النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الوفيات المخلصات، وقد حزنّت عند وفاته، وبكت له أكثر من بقية ازواجه⁽³⁾.

-
- 1- [الخصال: ص ٣٦٩ باب السبعة].
2- [المغازي: ٢ / ٦٧٣، تاريخ الطبري: ٣ / ٣٠٢].
3- [المغازي: ٢ / ٦٧٣، تاريخ الطبري: ٣ / ٣٠٢].

(410)

مصرع كنانة بن الربيع:

منذ أن أجلي «بنو النضير» عن المدينة وسكنوا «خيبر» أحدثوا صندوقاً لجمع الأموال لإدارة شؤونهم العامة، ولسد نفقات الحروب، ولإعطاء دية كل من كان يُقتل من بني النضير.

فبلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن هذا الكنز وهذه الأموال قد أودعت عند «كنانة بن الربيع» زوج «صفية»، فلما افتتح - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خيبر طلب الربيع وسأله عن كنز اليهود، فأنكر ذلك فأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بحبسه، ثم عرف بعد التحقيق من اليهود، بمكان ذلك الكنز، وقد كان بخربة، إذ قال له يهودي إنني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة أيام الحرب فأمر رسول الله بالخربة فحفرت فأخرج منها بعض ذلك الكنز، فسأل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «كنانة» عما بقي فأبى أن يؤديه أو يخبر بموضعه، فدفعه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى محمّد بن مسلمة فضرب عنقه قصاصاً لأخيه الذي قتل في وقع خيبر «محمود بن مسلمة» والذي قتله اليهود بالقاء رحي من حجر من فوق حصونهم على رأسه، وإنما قتل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كنانة بضرب عنقه، لتواطؤه ضدّ الإسلام، وكتمانه مثل هذا الأمر، وتأديباً لغيره من اليهود حتّى يتورعوا عن حبك المؤامرات ضد رسول الإسلام وضدّ أصحابه، وضدّ الحكومة الإسلامية، وكان «كنانة» آخر من قتل من يهود خيبر.⁽¹⁾

تقسيم غنائم الحرب:

بعد افتتاح حصون «خيبر»، وتجريد العدو من كل أسلحته، وجمع الغنائم أمر

1- [السيرة النبوية: ٣ / ٣٣٧، بحار الأنوار: ٢١ / ٣٣].

رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن تجمع الغنائم كلها في مكان واحد، ثم أمر - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رجلاً بأن ينادي في الناس:

«أدوا الخيط والمخيطة، فإنَّ العُلُولَ عازٌّ وشنارٌ ونازٌ يوم القيامة». (1)

ولقد شدّد قادة الإسلام وائتمته الحقيقيون على أهميّة الامانة تشديداً بالغاً حتّى أنهم اعتبروا ردّ الامانة - مهما صغرت ودقت - من علائم الايمان، والخيانة وعدم ردّها من علائم النفاق.

من هنا عندما عثر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في رحل مُسلم من المقاتلين شيئاً من أموال الغنيمة لم يردّها إلى بيت المال لم يصلّ على جنازة ذلك الرجل عندما استشهد، واليك تفصيل هذه الحادثة.

لما انصرف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه من خيبر ومع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - غلام له، يقوم له بشؤونه، وفيما كان ذلك يضع رَحْلَ النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إذ أتاه سهمٌ لا يُعلمُ راميه فاصابه فقتله، فقال المسلمون: هنيئاً له الجنة.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ شِمْلَتَهُ (2) الْأَنْ لَتَحْتَرِقَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ، كَانَ قَدْ غَلَّهَا مِنْ فِيءِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ خَيْبَرَ!!»

فسمع رجل من أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذا الكلام فأتاه وقال: يا رسول الله، أصبت شراكين لنعلين لي فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «يُقَدُّ لَكَ مِثْلَهُمَا فِي النَّارِ». (3)

وهذه القصة تفضح أيضاً دسائس بعض المستشرقين، لأنهم كانوا يصفون حروب الإسلام ومعاركه العادلة بأنها كانت من أجل الاغارة على أموال الناس

1- وسائل الشيعة: ج... باب جهاد النفس الحديث ٤، المغازي: ٢ / ٦٨١.
2- الشملة كساء غليظ يُلْتَحَفُ بِهِ.
3- السيرة النبوية: ٢ / ٣٣٩، امتاع الاسماع: ١ / ٣٢٣ و ٣٢٤.

ومصادرتها كما يفعل قطاع الطرق، متجاهلين عمداً وكيداً الأهداف الإنسانية والالهية العليا لهذه المعارك والغزوات، والحال أن مثل هذه الانضباطية والنظم والورع ممّا لا يمكن تصوره في قوم همهم الاغارة والنهب والسلب.

إن قائد شعب أو قوم هذا هو همهم وهذه هي همتهم لا يمكن أبداً أن يعتبر ردّ الأمانة من واجبات الدين ومن علائم الايمان، كما لا يمكنه أن يربي أتباعه وأصحابه بمثل هذا التربية الرفيعة، بحيث يجعله يجتنب عن سرقة صغيرة جداً مثل غلّ سراكى نعلين لقيمة لهما تذكر.

قافلة من أرض الذكريات:

قبل أن يتوجّه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالمسلمين إلى «خيبر» بعث «عمرو بن أمية» إلى البلاط الحبشي لغرض إيصال رسالته إلى ملك الحبشة النجاشي، وليطلب منه أن يهيء المقدمات اللازمة لترحيل المسلمين المهاجرين من الحبشة إلى المدينة.

فهيئاً النجاشي سفينتين لأولئك المهاجرين بعد أن جهزهم بجهاز حسن وامر لهم بكسوة، فسارت بهم حتّى وصلت إلى السواحل القريبة من المدينة.

ولما علم المسلمون بمسير رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى «خيبر» توجّهوا من فورهم إلى «خيبر» فقدموا مع «جعفر بن أبي طالب» على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يوم «خيبر» بعد أن افتتحت جميع حصون اليهود وقلاعهم.

فلما رأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جعفرأ مشى في استقباله (١٢) خطوة ثم قبّل ما بين عينيه والتزمه وقال:

«ما أدري بأيّهما أنا أسرُّ بفتح خيبر أم بقدم جعفر؟».

وفي رواية أخرى قال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«لا أدري بأيّهما أنا أشدُّ فرحاً بقدمك يا جعفر أم بفتح الله على أخيك خيبر.»

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال لجعفر:

(413)

«يا جعفر ألاّ امنحك؟ ألاّ أعطيك ألاّ أحبوك؟».

فظن الناس أنه يعطيه ذهباً أو فضة، فتشوّف الناس لذلك. فقال له:

أني أعطيك شيئاً إن أنت صنعته في كل يوم كان خيراً لك من الدنيا وما فيها. »

ثم علمه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الصلاة المعروفة بصلاة جعفر الطيار. (1)

حجم الخسائر وعدد القتلى:

لم يتجاوز عدد قتلى المسلمين في هذه الغزوة ٢٠ شخصاً ولكن قتل من اليهود أكثر من هذا بكثير، وقد سجل التاريخ أسماء ٩٣ رجلاً منهم⁽²⁾.

العفو بعد الانتصار:

المؤمنون بالله واصحاب المروءات من البشر يعاملون العدو المنهزم المقهور عند الغلبة عليه والظفر به باللطف والحب، ويعفون عنه ويتناسون روح الانتقام، أجل إنهم يشملون العدو منذ استسلامه بعطفهم وحنانهم وتلك هي حقيقة اثبتتها وقائع التاريخ الحية.

وكذلك فعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عندما تغلب على يهود خيبر فقد عاملهم بعد الانتصار معاملة حسنة، وشملهم بعفوه، ولطفه رغم كل ما ارتكبه في حق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من ظلم وجناية وتأليب للعرب الوثنيين ضد الإسلام واشعال حروب كادت أن تودي بالحكومة الإسلامية وتستأصل المسلمين، وتقضي على جهود رسول الإسلام.

فقد قبل بطلب اليهود بأن يسكنهم في خيبر كما كانوا، وأن يترك أراضيهم

1-فروع الكافي: ١ / ١٢٩ و ١٣٠، الخصال: ٢ / ٨٢ و ٨٣، امتاع الاسماع: ١ / ٣٢٥.
2-بحار الأنوار: ٢١ / ٣٢.

(414)

وبساتينهم بأيديهم، على أن يكون له نصف محاصيلها سنوياً.

بل إن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - - كما يروي ابن هشام - هو الذي اقترح هذا الأمر على اليهود، وترك لهم حرية التصرف في مزارعهم وأراضيهم ليغرسوا أو يزرعوا ما يريدون من الشجر.⁽¹⁾

لقد كان في مقدور النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، كأي فاتح آخر، أن يريق دمهم جميعاً، أو أن يجلبهم برمتهم من أراضيهم، أو يجبرهم على اعتناق الإسلام ولكنه - خلافاً لتصور زمرة مغرضة من المستشرقين، وطلّاع الاستعمار الثقافي الذين يتصوّرون ويزعمون بأن الإسلام دين القهر والقوة، وان المسلمين أجبروا الأمم والاقوام المغلوبة على ترك عقائدها، واعتناق الإسلام - لم يفعل مثل هذا العمل قط، بل تركهم أحراراً في ممارسة شعائرهم، والبقاء على ما كانوا يعتقدونه من أصول دينهم وفروعه.

ولم يحارب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه يهود «خيبر» إلا لأن «خيبر» قد تحوّلت إلى بؤرة خطيرة للمؤامرة، والكيد بالاسلام والمسلمين، فقد كانوا يمدّون المشركين بكل ما يريدون للقضاء على الحكومة الإسلامية الحديثة التأسيس، ولهذا اضطر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى مقاتلتهم، وتجريدهم من أسلحتهم، حتّى يعيشوا تحت ظل الحكومة الإسلامية

بمنتهى الحرية، ويشغلوا بمشاغلهم في الزراعة، وقيموا شعائرهم الدينية من دون أن يجدوا فرصة للمشاغبة والتأمر ضد رسالة التوحيد الكبرى، إذ كانوا يسببون مشاكل كبيرة للمسلمين - في غير هذه الصورة - ويمنعون من تقدّم الإسلام وانتشاره. وأما الجزية (2) فقد كان لقاء دفاع الحكومة الإسلامية عنهم، وحمايتهم من الأعداء، وتوفير الأمن لهم، إذ كان حماية أموالهم وأنفسهم من وظائف المسلمين.

ثم إن المحاسبة الدقيقة تقودنا إلى أن ما كان يدفعه المسلمون إلى الحكومة

- [السيرة النبوية: ٢ / ٣٣٧].
-2الجزية ما يؤخذ من أهل الذمة.

(415)

الإسلامية من الضرائب الإسلامية كان أكثر بكثير ممّا كان يدفعه اليهود، والنصارى إلى الحكومة الإسلامية بعنوان الجزية. فقد كان يتوجب على كلّ مسلم أن يدفع إلى الحكومة الإسلامية الخمس والزكاة وربما توجب عليه ان يدفع شيئاً من أصل ماله لسدّ نفقات واحتياجات الحكومة الإسلامية بينما كان اليهود والنصارى الذين كانوا يعيشون في ظلّ الحكومة الإسلامية في أمن وأمان ويتمتعون بجميع الامتيازات والحقوق الاجتماعية الفردية يدفعون إلى الحكومة الإسلامية الجزية بدل ما كان يدفعه المسلمون، فالجزية شيء والأتاوة شيء آخر، على خلاف ما يروّجه بعض الكتاب المغرضين. ولقد كان عامل الجباية الذي كان يزور خيبر بأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لتقدير حجم المحاصيل فيها، ثم تنصيفها رجلا عادلا ورعاً إلى درجة أن اليهود أنفسهم أعجبوا بعده، واعترفوا بانصافه، هو «عبدالله بن رواحة» الذي استشهد فيما بعد، في موقعة «مؤتة».

فقد كان «ابن رواحة» يخبّن نصيب المسلمين من محاصيل خيبر، وربما تصوّر اليهود أنه أخطأ في التخمين والخرص، وخبّن أكثر ممّا هو الحق فقالوا له: تعديت علينا!

فكان عبدالله يقول: إن شئتم فلكم وإن شئتم فلنا.

فتقول اليهود - معجبة بهذا الانصاف العظيم والعدل الكبير الذي كان يتحلّى به مخزّص الحكومة الإسلامية - : بهذا قامت السموات والارض. (1)

ولقد حصل المسلمون أثناء جمع غنائم «خيبر» على قطعة من التوراة، فطلبت اليهود من النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يعيدها اليهم، فأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مسؤول بيت المال باعادتها اليهم. (2)

وهذا يكشف عن إحترام رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - للشرائع الأخرى.

سلوك اليهود المتعجرف:

في قبال كل هذه الألفاف لم تكف اليهود عن خيانتها وكبدها، بل ظلت تخطط - في الخفاء - للايقاع برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه، والحاق الأذى بهم.

ولنقف فيما يأتي على نموذجين من هذا الأمر:

1- لما اطمأن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قررت جماعة من اليهود في الخفاء أن تقضي على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بدس سم إليه. فأهدت له «زينب بنت الحارث» زوجة «سلام بن مشكم اليهودي» شاة مشوية وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقيل لها الذراع، فاكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، تناول الذراع، فلاك منها مضغة فلم يسغها، ومعه «بشر بن البراء بن معرور» قد اخذ منها كما أخذ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأما بشر فقد ابتلعها، وأما رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقد لفظها وعرف بأنها مسمومة، ومات بشر من أكلته التي أكل ثم دعا زينباً، وقال لها: سممت الذراع؟ فاعترفت. فقال لها: ما حملك على ذلك. قالت: قتلت أبي وعمي وزوجي، ونلت من قومي ما نلت فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيُخبر.

فعفا عنها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ولم يلاحق من تواطأوا معها.⁽¹⁾

1- السيرة النبوية: ٢ / ٣٣٧ و ٣٣٧ ، المغازي: ٢ / ٦٧٧ و ٦٧٨ ، وامتاع الاسماع: ١ / ٣٢٣ هذا والمعروف أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال في: مرضه الذي مات فيه: إن هذا الأوان وجدت فيه إنقطاع أبهري من الأكلة التي أكلت بخبير، فإن النبي، وإن كان لفظ المضغ إلا أن بقايا السم اختلط ببزاقه الشريف، وأثر في جسمه المبارك حتى أودي بحياته المقدسة بعد حين.

لاشك لو أن مثل هذه الحادثة حدثت لغير رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من القادة والزعماء لصبغوا الأرض بدماء من ظنوا أنه قصد قتلهم، أو ملأوا السجون بهم وحبسوهم، أو أعواماً مديدة أو اخضعوهم لأشد أنواع التعذيب الجسدي والنفسي كما يحدثنا بذلك التاريخ القديم والحديث.

إن هذه المؤامرة الدنيئة التي قامت بها امرأة من اليهود جعلت الكثير من أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يسيئون الظن بصفية اليهودية التي أصبحت في عداد أزواج النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فقد باتوا يتصوّرون أنها ربما أقدمت في ليلة من الليالي على اغتيال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ولهذا عندما أعرس رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بها بخيبر أو في أثناء الطريق بات «أبو أيوب الانصاري» يحرس قبة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - التي دخل بها بصفية ليلة عرسه بها، وبقي يطوف بالقبة حتى أصبح رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فلما رأى أبو أيوب قال: مالك يا أبا أيوب؟

قال: يا رسول الله خفتُ عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت أباهما وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتُها عليك. فشكره رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ودعا له بخير.⁽¹⁾

2- والنموذج الثاني من جفاء اليهود، وكيدهم حتى بعد عفوا النبي عنهم، ولطفه بهم أن «عبدالله بن سهيل» الذي كُلف من جانب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في إحدى السنين بخرص محاصيل خيبر وتقديرها وحمل نصيب المسلمين منها إلى المدينة قتلتها جماعة مجهولة من اليهود أثناء قيامه بواجبه في خيبر وقد كسروا

[السيرة النبوية: ٢ / ٣٣٩ و ٣٤٠، بحار الأنوار: ٢١ / ٣٣.]

عنفه وألقوه في بئر، فقدم جماعة من زعماء اليهود المدينة ودخلوا على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخبروه بهذه العملية الغادرة المجهول فاعلمها، وتقدم إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أيضاً «عبدالرحمان» أخو عبدالله بن سهل وإبنا عمه وكان عبدالرحمن من أحدثهم سناً وكان صاحب الدّم فلما تكلم قبل ابني عمه قال رسول الله: الكُبر الكُبر (أي قدموا الاكبر للكلام إرشاداً إلى الأدب في تقديم الأسنّ وهو خلق يدعو إليه الإسلام).

فذكروا لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قتل صاحبهم وطلبوا القصاص فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«أتسمون قاتلكم، ثم تحلفون عليه خمسين يميناً فنسلّمه إليكم.»

وحمل هذا التعليم النبوي أولياء الدم على أن يجعلوا التقوى والورع نصب أعينهم ولم يستسلموا لثورة العاطفة فقالوا: يا رسول الله ما كنا لنحلف على ما لا نعلم.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«أَفِيحْلَفُونَ (أي يحلف اليهود) بالله خمسين يمينا ما قتلوه، ولا يعلمون له قاتلا، ثم يبرأون من دمه؟»

قلوا يا رسول الله ما كنا لنقبل ايمان اليهود، ما فيهم من الكفر أعظم من أن يحلفوا على إثم.

فكتب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى يهود خيبر كتاباً فيه: انه قد وُجِدَ قَتِيلٌ بَيْنَ أَيْبَاتِكُمْ فَدُوهُ (أي أعطوا دينته).

فكتبوا إليه يحلفون بالله ما قتلوه، ولا يعلمون له قاتلا.

فلما رأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن المشكلة قد وصلت إلى طريق مسدودة وداه بنفسه من عنده مائة ناقية⁽¹⁾

[1] السيرة النبوية: ٢ / ٣٥٤ - ٣٥٦.

(419)

وهكذا اثبت النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لليهود مرة أخرى بأنه ليس داعية حرب ولا طالب قتال وسفك دماء، ولو كان كغيره

من الزعماء والسياسيين لاتخذ من قصة مقتل عبدالله ذريعة للقضاء على حياة تلك الزمرة المعتدية، المشاغبة المخلة بالأمن.⁽¹⁾

إن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كما يصرح بذلك القرآن الكريم ويصفه: نبي الرحمة، فهو لا يحتكم إلى السيف ما لم يبلغ

الامر مداه.

حيلة مُجازة:

كان في خيبر تاجر يدعى الحجاج بن علاط السلمي له تجارة مع أهل مكة، وكان ممن حضر يوم خيبر. وشاهد لطف النبي ورحمته

فأسلم طائعاً راعياً.

ولما فرغ المسلمون من أمر «خيبر» أتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال: يا رسول الله إن لي بمكة مالا متفرقاً في

تجار مكة فاذن لي يا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن احتال لأخذها، فأذن له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم

- بذلك ليستنقذ أمواله من المشركين وغيرهم في مكة.

فقدم مكة، فرآه رجالٌ قريش اجتمعوا حوله وأخذوا يسألونه عن أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولم يكونوا علموا بإسلامه فأجابهم قائلاً: لقد هُزم محمّد بخيبر هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وقُتِل أصحابه قتلاً لم تسمعوا بمثله قط، وأسر محمّد اسراً، وقالت اليهود: لا نقتله حتّى نبعث إلى أهل مكة فيقتلوه بين

- [لم تنحصر تعديت اليهود وتجاوزاتهم على ما ذكرناه فلطالما خطّطوا ودبّروا الحيل لا لحاق الأذى والضرر بالمسلمين، ومن جملة ذلك حادث عبدالله بن عمر الذي ذهب إلى خيبر في عهد الخليفة الثاني لعقد اتفاقية مع أهلها فاعتدوا عليه بالضرب فلما عرف بذلك عمر رأى أن يجلبهم من خيبر لقول رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان» فقال لصحابة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من كان له حق عند اليهود فليأخذه ثم أجلاه من خيبر جزاء كيدهم وتأميرهم المستمر. (المصدر).

(420)

أظهرهم إنتقاماً لمن أصاب رجالهم.

فرح سادة قريش لهذا الخبر الكاذب فرحاً شديداً، ثم قال الحجاج لهم:

أعينوني على جمع مالي بمكة وعلى غرمائي فإني أريد أن أقدم خيبر فأصيب من محمّد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى ما هنالك فجمعوا له ماله كاسرع ما يكون.

فلما سمع «العباس بن عبدالمطلب» هذا الخبر جاء إلى الحجاج وقال يا حجاج ما هذا الخبر الذي جنّت به، فأشار الحجاج إلى العباس بأنّه سيخبره بحقيقة الأمر، ثم التقى العباس خفية وأخبره بأنّه ماكر أهل مكة، وأنّ النبي ظفر بيهود خيبر، وطلب من العباس أن يكتّم ذلك حتّى يغادر مكة، وينجو بنفسه وماله.

فلما فرغ من جمع ماله كله غادر مكة بسرعة فائقة. فلما مضى على ذلك ثلاثة أيام واطمأنّ العباس من نجاة الحجاج لبس حلة جميلة، وتعطر وأخذ عصاه ثم خرج حتّى أتى الكعبة فتعجبت قريش لذلك، وظنت أنه فعل ذلك تجلّداً، فقالت للعباس: يا أبا الفضل هذا والله التجلّد لحرّ المصيبة، قال: كلا، والله الذي حلقتم به، لقد افتتح «محمّد» خيبر، وترك عروساً على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، وأصبحت له ولأصحابه.

فقالوا: من جاءك بالخبر.

فقال: الذي جاءكم بما جاءكم (ويعني الحجاج الذي احتال عليهم). ولقد دخل عليكم مسلماً، فأخذ ماله، وانطلق ليلحق بمحمّد وأصحابه، فيكون معه.

فغضبت قريش لهذه المكيدة وانزعجت إنزعاجاً شديداً، ولكن بعد فوات الأوان، ولم يلبثوا أن جاءهم خبر انتصارات المسلمين الساحقة على اعدائهم.(1)

-[بحار الأنوار: ٢١ / ٣٤، زاد المعاد: ٢ / ١٤٠، والسيرة النبوية: ٢ / ٣٤٥ و ٣٤٦.

(421)

٤٥

قِصَّة فَدَاك

كانت «فدَاك» منطقة خصبة، كثيرة الخير، قرب خيبر، وهي تبعد عن المدينة بما يقرب من (١٤٠) كيلومتراً، وكانت تعتبر بعد حصون خيبر النقطة الهامة التي يعتمد عليها يهود الحجاز. (1)

وقد ملأت القيادة الإسلامية - بعد أن هُزم اليهود في خيبر ووادي القرى وتيماء الفراغ الذي حصل في شمال المدينة - بالقوة العسكرية الإسلامية.

ولأجل أن تنتهي الوجود السياسي اليهودي في هذه المنطقة التي كانت بمثابة منبع خطر، وبؤرة شغب ضد الإسلام بعثت القيادة الإسلامية سفيراً إلى سادة فدك وزعمائها، لمعرفة موقفهم فأثر «يوشع بن نون» الذي كان يرأس سكان تلك المنطقة، الصلح والسلام على الحرب والقتال، وتعهّد بأن يسلم كل سنة نصف محاصيل فدك إلى رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - . (2)

وأن يعيش هو وقومه من الآن تحت راية الحكومة الإسلامية ولا يشاغب ولا يتأمر ضد المسلمين، على أن تتعهد الحكومة الإسلامية - في مقابل هذا المبلغ - بتوفير الأمن في المنطقة.

-[راجع كتاب «مراسد الاطلاع»: ٣ / ١٠٢٠ مادة فدك.
2-السيرة النبوية: ٢ / ٣٥٣، امتاع الاسماع: ١ / ٣٣١، فتوح البلدان: ٤٢.

(422)

حكم الاراضي المفتوحة بلا قتال:

ومن الجدير بالذكر هنا أن الأراضي التي يسيطر عليها المسلمون بالحرب والقتال تعود ملكيتها إلى عامة المسلمين ويكون إدارتها بيد القائد الأعلى للأمة.

أما الاراضي التي لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ولم يسيطر عليها المسلمون بالقتال فتكون لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والامام من بعده خالصة، فهو يتصرف فيها كما يشاء ويرى، فله أن يهبها، وله أن يؤجرها، ومن جملة ما له أن يفعل فيها هو أن يهبها لأقربائه فيسدوا بها حاجتهم، ويديروا بها معيشتهم.⁽¹⁾

وعلى هذا الاساس وهب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فدكاً لابنته الطاهرة فاطمة الزهراء، وقد أريد من إيهاب هذه الارض لها - كما تشهد بذلك القران - أمران:

-[1] قيادة الأمة كانت بعد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كما صرح النبي بذلك مراراً، لـ: «علي بن أبي طالب»، ومثل هذه المسؤولية الثقيلة تحتاج ولا شك إلى ميزانية كبيرة، فكان لعلّ - عليه السلام - أن يصرف من أموال فدك وعائداتها إذا صارت تحت تصرفه اكبر قدر ممكن ليحفظ به ذلك المنصب، ويستطيع القيام بمتطلباته.

وكانّ جهاز الخلافة - بعد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أدرك هذه الحقيقة، ولهذا عمد منذ الايام الأولى لوفاة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى انتزاع فدك من أهل بيت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

2- لقد كان من الواجب أن تعيش ذرية النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - التي كان يتمثل مصداقها الكامل في وحيدة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فاطمة الزهراء،

-[1] وقد طرحت هذه المسألة في الآية 6 و 7 من سورة الحشر وعولجت في الكتب الفقهية في باب الجهاد تحت عنوان «الفيء» و «الأنفال». »

وابنيها الحسن والحسين) عليهما السلام (بعد وفاة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بصورة تليق بمقام رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وشرفه، ومكانته السامية. ولهذا الهدف وهب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فدكاً لابنته فاطمة الزهراء) عليها السلام.)

يقول المفسرون والمحدثون الشيعة وبعض علماء السنة انه لما نزل قوله تعالى:

(وَآتَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ).⁽¹⁾

دعا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ابنته فاطمة وفوض إليها فدكاً⁽²⁾ وقد روى هذا الأمر ابو سعيد الخدري وهو من كبار صحابة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ويعترف جميع المفسرين، سنة وشيعة، بان هذه الآية نزلت في حق أقرباء رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وابنته الزهراء
أظهر أقوى مصاديق «ذي القربى»، حتى انه كان علي بن الحسين السجاد في الشام بعد واقعة كربلاء، وسأله بعض الشاميين عن
نسبه، فتلا - عليه السلام - الآية المذكورة للتعريف بنفسه، وحيث أن مفاد الآية والمراد بها كان معلوماً عند المسلمين كافة قال
الشامي متعجباً: وانكم للقرابة الذي أمر الله أن يؤتى حقه.(3)

وخلاصة القول ان ثمة اتفاقاً بين علماء السنة والشيعة في أن هذه الآية قد نزلت في شأن الزهراء وابنيها، نعم هناك خلاف في ان
رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهب ساعة نزول هذه الآية فدكاً لابنته فاطمة، ام لا، ولقد اتفق علماء الشيعة على الشق
الأول، وذهبوا إلى أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهب فدكاً عند نزول الآية لفاطمة ووافقهم على ذلك جمعٌ من علماء السنة.
وقد أراد المأمون العباسي (لسبب ما) اعادة فدك إلى بني الزهراء فكتب

1-الإسراء: ٢٦.
2-مجمع البيان: ٣ / ٤١١، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٦ / ٢٦٨، الدر المنثور: ٤ / ١٧٧.
3-الذّر المنثور: ٤ / ١٧٦.

(424)

إلى المحدث المعروف «عبدالله بن موسى» وطلب منه أن يرشده في هذا الامر، فكتب إليه عبدالله بن موسى الحديث المذكور الذي
يوضح شأن نزول هذه الآية، فاعاد المأمون فدكاً إلى أبناء الزهراء وذريتها⁽¹⁾ فكتب الخليفة العباسي إلى وإليه على المدينة يومذاك
بأن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهب فدكاً لابنته فاطمة الزهراء وهذا أمرٌ مسلم، ولا خلاف فيه حيث كانت قضية فدك
وخطبة الزهراء (عليها السلام) ممّا يتوارثه العلويون وأحفاد فاطمة (عليها السلام).

وقد جلس المأمون ذات يوم على كرسي خاص للاستماع إلى مظالم الناس وشكاياتهم، فكانت أول ما أعطي له، رسالة وصف
صاحبها نفسه فيها بأنه يدافع عن الزهراء، فقرأ المأمون الرسالة وبكى مدة، ثم قال: من هو المحامي عن الزهراء؟ فقام شيخٌ كبيرٌ،
وقال: أنا هو ذا، فانقلب مجلس المأمون من مجلس القضاء إلى مجلس حوار ومناظرة بين المأمون وبين ذلك الشيخ، وأخيراً وجد
المأمون نفسه مغلوباً محجوجاً فأمر رئيس ديوانه بان يكتب كتاب ردّ فدك إلى أبناء الزهراء، فكتب ذلك الكتاب، وشحه المأمون
بتوقيعه، وفي هذه المناسبة قام دعبل الذي حضر ذلك المجلس وانشأ شعراً هذا مطلعُه:

أصبح وجهُ الزمان قد ضحكا بردَ مأمون هاشم فدكاً⁽²⁾

وليس الشيعة بحاجة - في اثبات ان فدكاً كان ملكاً طلياً وخالصاً للزهراء فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى الدلائل المذكورة، لأن الصديق الأكبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عليه السلام - قد صرح بمالكه بفدك في إحدى رسائله إلى واليه على البصرة عثمان بن حنيف إذ قال:

«بلى كانت في أيدينا فدك من كل ما أطلت السماء فسخت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس قوم آخرين ونعم الحكم الله. (3)»

-
- 1- مجمع البيان: ٣ / ٤١١ عند تفسير قوله تعالى: «وأت ذا القربى حقه» الإسراء: ٢٧ فتوح البلدان، ص ٤٦.
2- شرح ابن أبي الحديد: ١٦ / ٢١٧.
3- نهج البلاغة: الكتاب ٤٥.

(425)

قصة فدك بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

لقد حُرمت ابنة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - العزيزة فاطمة من ملكها الخالص (فدك) بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لأغراض سياسية خاصة، وأخرجوا عمالها من تلك الأرض، فعمدت إلى إثبات حقها واسترداد ملكها من جهاز الخلافة عن طريق القانون.

ففي الدرجة الأولى كانت قرية فدك في يدها، واليد دليل الملك، ولكن جهاز الخلافة طلب منها مع ذلك دليلاً على كون فدك ملكها، خلافاً لكل الموازين القضائية الإسلامية.

إذ لا يُطلب من أي واحد له يد على شيء (أي يكون ذلك الشيء تحت تصرفه) أن يقيم دليلاً على ملكه لذلك الشيء، ولكن الخلافة لم تعر ليد الزهراء على «فدك» أهمية، بل طالبتها بان تأتي بشاهد على ملكه.

ولهذا اضطرت فاطمة الزهراء (عليها السلام) إلى ان تأتي للشهادة على ذلك بشخصية ذات مكانة هامة كعلي - عليه السلام - وامرأة تدعى أم أيمن التي شهد لها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بأنها من نساء الجنة. (1)

ويعتق رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - «رباح» حسب رواية البلاذري (2)، ولكن جهاز الخلافة لم يعر اهتماماً لشهادة هؤلاء الشهود، وحرمت ابنة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من ملكها الذي وهبها والدها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

ولقد كانت «الزهراء» و «علي» وابناهما الحسن والحسين (عليهم السلام) مطهرين من كل رجس كما صرح بذلك قوله تعالى:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً). (3)

- 1- الاصابة: ٤ / ٤٣٢ .
2- فتوح البلدان: ص ٤٤ .
3- الاحزاب: ٣٣، راجع كتاب: آية التطهير في احاديث الفريقين: ج ١ و ٢ .

(426)

ولو أن هذه الآية شملت نساء النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لكانت فاطمة الزهراء من أوضح مصاديقها قطعاً وقيناً، ولكن الخلافة تجاهلت - مع الأسف - حتى هذا الدليل، واعتبر الخليفة ادعاءها ادعاءً غير مشروع.

وفي المقابل يرى علماء الشيعة أن الخليفة الأول أذعن في نهاية الأمر لصحة رأي الزهراء وصحة إدعائها وشرعيته، وكتب كتاباً يصرح بأن ملك خالص للزهراء وأعطاه ذلك الكتاب، ولكن رفيق الخليفة وصاحبه لما صادف الزهراء في أثناء الطريق وعرف بأنها حصلت على اعتراف صريح من الخليفة بملكيتها لفدك أخذ منها ذلك الكتاب واتي به إلى الخليفة الأول وقال معترضاً على شهادة علي - عليه السلام - وام أيمن لها: ان علياً يجزئ إلى نفسه وأم أيمن امرأة.

ثم عمد إلى الكتاب فمحاه وخرقه. (1)

هذا ويروي الحلبي في سيرته هذه الحادثة بصورة أخرى إذ يكتب قائلاً: ان ابا بكر كتب لفاطمة بفدك ودخل عليه عمر فقال: ما هذا؟ فقال: كتاب كتبت لفاطمة بميراثها من أبيها، فقال: ماذا تنفق على المسلمين وقد حاربك العرب كمتاري، ثم أخذ عمر الكتاب فشقّه. (2)

ما قاله أحد متكلمي الشيعة، وهو ابن أبي الحديد يقول: قلت لمتكلم من متكلمي الامامية يُعرف بعلي بن تقي من بلدة النيل: وهل كانت فدك إلا نخلا يسيراً و عقاراً ليس بذلك الخطير! فقال لي: ليس الأمر كذلك، بل كانت جليلة جداً، وكان فيها من النخل نحو ما بالكوفة الآن من النخل، وما قصد ابوبكر وعمر بمنع فاطمة عنها إلا ألا يتقوى علي بحاصلها وغلتها على المنازعة في الخلافة، ولهذا اتبعا ذلك بمنع فاطمة وعلي وسائر بني هاشم وبني المطلب حقهم في الخمس، فإن الفقير الذي لا مال له تضعف همته ويتصاغر عند نفسه، ويكون مشغولاً بالاحتراف والاكتساب عن طلب الملك والرئاسة. (3)

- 1- شرح ابن أبي الحديد: ١٦ / ٣٧٤ .
2- السيرة الحلبيّة: ٣ / ٣٩١ .
3- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٦ / ٢٣٦ .

(427)

ويكتب هذا الكاتب في موضع آخر من كتابه أيضاً: سألت علي بن الفارقي مدرّس المدرسة الغربية ببغداد، فقلت له: أكانت فاطمة صادقة؟ قال: نعم، قلت: فلم لم يدفع إليها أبوبكر فدكاً وهي عنده صادقة؟ فتبسم، ثم قال كلاماً لطيفاً مستحسنًا مع ناموسه وحرمة وقلة دعابته، قال: لو أعطاه اليوم فدكاً بمجرد دعواها ل جاءت إليه غداً، وأدعت لزوجها الخلافة، وزحزحته عن مقامه، ولم يكن

يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء، لأنه يكون قد سجل على نفسه على أنها صادقة فيما تدعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى بيّنة ولا شهود. وهذا كلام صحيح، وان كان أخرجه مخرج الدُعاة والهزل.⁽¹⁾

لقد بدأ منع بني الزهراء من فدك في عهد الخليفة الأول، وبعد ان قضى علي - عليه السّلام - وتسلم معاوية زمام الامر، وزرع فدكاً بين ثلاثة هم: (مروان بن الحكم وعمرو بن عثمان، وابنه يزيد).

ولما ولي الأمر «مروان» سيطر على فدك بصورة كاملة، ووهبها لابنه عبدالعزيز، واعطاها عبدالعزيز لولده «عمر بن عبدالعزيز»⁽²⁾.

وحيث انه كان حاكماً معتدلاً السيرة بين خلفاء بني أمية لهذا فان أول بدعة أزاحها كان هو اعادة فدك إلى بني فاطمة، ثم انتزعها الخلفاء الذين توالوا بعده من ايدي بني هاشم، وكانت بأيديهم حتى يوم انقرضت فيه حكومة الامويين.

وقد اضطرب أمر فدك اضطراباً عجبياً أيام الخلافة العباسية، فلما ولي أبو العباس السفاح ردها على عبدالله بن الحسن بن الحسن، ثم قبضها ابو جعفر من بني حسن، ثم ردها محمد المهدي ابنه، على ولد فاطمة (عليها السلام)، ثم قبضها موسى الهادي بن المهدي وهارون أخوه، لاسباب سياسية خاصة، حتى وصل الدور إلى المأمون فردها على الفاطميين اصحابها الشرعيين ضمن تشريفات

1- شرح ابن أبي الحديد: ١٦ / ٢٨٤.
2- شرح ابن أبي الحديد: ١٦ / ٢٧٨.

خاصة وبصورة رسمية.

ثم اضطرب امر فدك من بعده أيضاً فربما سئلت من أصحابها وربما رُدَّت إليهم. وهكذا تراوحت بين السلب والرد.

ولقد استغلَّت فدك في عهد الامويين والعباسيين في أغراض سياسية بحثة قبل أن تستغلَّ في أغراض اقتصادية.

فلقد كان الخلفاء في صدر الإسلام يحتاجون إلى عائدات فدك المالية، مضافاً إلى انهم انتزعوها من يد على لغرض سياسي ولكن في العصور المتأخرة عن ذلك كثرت ثروة الخلفاء وزادت زيادة هائلة بحيث لم يكونوا بحاجة إلى عائدات فدك، ولهذا فان عمر بن عبدالعزيز لما أعاد فدكاً إلى بني فاطمة احتج عليه بنو أمية واعترضوا قائلين: هجنت فعل الشيخين، وإن أبيت إلا هذا فامسك

الأصل وأقسم الغلّة.⁽¹⁾

فدك في محكمة التاريخ:

إن دراسة وتقييم ملفّ «فدك» تثبت بوضوح أن منع ابنة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من حقها المشروع كان عملاً سياسياً بحتاً، أي إنه ما كان يستند إلى أي مبرر شرعي مطلقاً، وإن المسألة كانت أوضح من أن تخفى على خليفة العصر.

وقد أوضحت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام (هذه الحقيقة في خطابها الساخن البليغ إذ قالت: هذا كتابُ الله حكماً عدلاً وناطقاً فصلاً يقول: وَ يَرْتِي وَيَرْتِي مِنْ آلِ يَعْقُوبَ (2) وَ وَرَثَ سَلِيمَانَ دَاوُدَ (3) وَيَبِينُ عَزَّوَجَلَّ فِي مَاوَزَّعٍ مِنَ الْأَقْسَاطِ وَشَرَعَ مِنَ الْفَرَائِضِ وَالْمِيرَاثِ. (4)»

-
- 1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٦ / ٢٧٨.
 - 2- مريم: ٦.
 - 3- النمل: ١٦.
 - 4- الاحتجاج للطبرسي: ١ / ١٤٥.

(429)

إن البحث حول دلالة الأيتين على وراثة أبناء النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عنه، والحديث الذي رواه الخليفة وحده يوجب اطالة الكلام، وفي إمكان من يحبّ التوسع أن يراجع كتب التفسير المفصلة.

السيطرة على وادي القرى:

إن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يضع نهاية لنشاط القوى المضادة للإسلام في هذه المنطقة (خيبر) فقط بل رأى أن يتوجه إلى وادي القرى الذي كان يشكل مركزاً آخر من مراكز اليهود. فحاصر بنفسه حصونهم عدة أيام، حتّى فتحها، ثم عقد بعد الفتح معاهدة مع أهلها على غرار معاهدة «خيبر». »

وبهذا طهرت أرض الحجاز من فتنة اليهود الاوغاد، وقد جردوا من أسلحتهم ووضعوا تحت حماية المسلمين ومراقبتهم الدقيقة. (1)

1- الكامل في التاريخ: ٢ / ١٥٠.

(430)

٤٦

عمرة القضاء (١)

كان يحق للمسلمين بعد التوقيع على معاهدة صلح الحديبية أن يدخلوا بعد عام واحد من تاريخ يوم التوقيع مكة، ثم يغادروها بعد ثلاثة ايام يقيمون فيها شعائر العمرة وكان عليهم بموجب الاتفاق أن لا يحملوا معهم إلا سلاح الراكب: السيف في القرب، ليس غير

والآن مضى عام واحد على يوم التوقيع على المعاهدة المذكورة، وأن الاوان ليستفيد المسلمون من هذه المادة في تلك الاتفاقية، وان يتوجه المسلمون المهاجرون الذين مضى عليهم سبعة أعوام ابتعدوا فيها عن بيوتهم ووطنهم ومسقط رؤوسهم، ورجحوا الحياة في الغربية، وتحمل متاعها على العيش في الوطن للمحافظة على عقيدة التوحيد.

يتوجه مثل هؤلاء مرة أخرى إلى زيارة بيت الله الحرام ولقاء الاحباب والأقرباء وتفقد المنازل والبيوت التي ولدوا فيها وترعرعوا في رحابها.

- [العمرة أعمال خاصة ومناسك معينة يمكن للمرء الاتيان بها طوال اشهر السنة على العكس من أعمال الحج التي يجب أدائها فقط في شهر ذي الحجة وقد توجه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى مكة في يوم الإثنين السادس من شهر ذي القعدة من السنة الهجرية السابعة. وسميت هذه العمرة عمرة القضاء لأنها كانت بدلا عن العمرة التي منع النبي والمسلمون عنها في عام الحديبية.

(431)

ولهذا عندما أعلن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بان يستعد من حُرْم من العمرة في العام الماضي للعمرة، دب شوق عجيب في نفوس المسلمين، واغرورقت دموع الفرح في عيونهم، فخرج مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ألفا شخص بدل ألف وثلاثمائة وهم عدد الذين خرجوا معه في السنة الماضية.

وكان بين الخارجين مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جمع كبير من شخصيات المهاجرين والانصار البارزة الذين كانوا يلزمون رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - طول سيره ملازمة الظل لصاحب الظل.

وساق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في هذه العمرة ستين بدنة وقد قلدها⁽¹⁾، وأحرم من مسجد المدينة واتبعه الآخرون، وخرج ألفان وهم يلبون مرتدين أثواب الاحرام يقصدون مكة.

ولقد كان هذا الموكب العظيم من الجلال والمغزى المعنوي بحيث لفت نظر الكثير من المشركين إلى حقيقة الإسلام ومعنويته الرائعة.

ولو قلنا: ان هذا السفر كان - في حقيقته - سفيراً تبليغياً، وان المشتركين فيه كانوا - في حقيقة الامر - طلائع التبليغ والدعوة لما قلنا جزافاً، فان آثار هذا السفر المعنوي ظهرت للتو فقد انبهر بمنظر سلوكهم وعبادتهم ونظامهم الدُ أعداء الإسلام أمثال «خالد بن الوليد» بطل معركة أحد وعمرو بن العاص داهية العرب فرغبوا في الإسلام، وأسلموا بعد قليل.

وحيث ان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يكن آمناً من غدر قريش فقد كان يحتمل أن يباغته ويباغته أصحابه في أرض مكة، ويسفكوا دماء جماعة

- [البَدنة الناقاة تنحر بمكة والجمع بُدْن وتقليد البدنة أن يجعل في عنقها نعلا فيُعَلَّم أنها هدى.]

(432)

منهم وهم لا يحملون معهم إلا سلاح الراكب إذ لم يكن مسموحاً للمسلمين - حسب المعاهدة - أن يأخذوا معهم سلاحاً غير ذلك.

من هنا عمد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تحسباً لأي طارئ إلى تكليف مائتي رجل من المسلمين بالتسلح الكامل، وأمر عليهم «محمّد بن مسلمة» وحملهم على مائة فرس سريع، وأمرهم بالتوجه صوب مكة أمام القافلة الكبرى، والاستقرار في منطقة «مرّ الظهران» قرب الحرم، ينتظرون ورود رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومن معه.

فعرف عيون قريش الذين كانوا يراقبون تحركات رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بقضية الفرسان المسلّحين المائتين، واستقرارهم في وادي «مرّ الظهران»، وأخبروا سادة قريش بالأمر.

فبعثت قريش «مركز بن حفص» إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليكلموه في هذا الإجراء فأتى مركز إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وسلّمه اعتراض قريش وانه تعهّد - قبل ذلك - أن لا يدخل مكة إلاّ بسلاح المسافرين.

فأجابه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

«لا تُدْخِلْهَا إِلَّا كَذَلِكَ وَلَكِنْ يَكُونُ هُوَ لَأَقْرَبِيَيْنَ مِنَّا.»

وقد أفهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مركزاً بهذه العبارة بأن قريش لو استعّلت عدم حمل النبي واصحابه للسلاح الثقيل فباغتتهم أدركتهم هذه القوة الاحتياطية المسلحة القوية المستقرة على مقربة من الحرم، ومثّوهم بالسلاح والعتاد.

فعاد «مركز» واخبر قريشاً بما سمع من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فادركت قريش حنكة رسول الإسلام ويُعد نظره، وحسن تقديره للامور،

ففتحت أبواب مكة في وجه المسلمين، وخرج رؤوس المشركين وأهلهم ومن تبعهم إلى رؤوس الجبال، وخلّوا مكة، وقالوا: لا ننظر إلى محمّد ولا إلى اصحابه، ولكنهم كانوا يراقبون المشهد من بعيد. (1)!!

النبي يدخل مكة:

دخل رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - وهو على راحلته القصواء وأصحابه متوشحوا السيوف محدقون به يلبّون وهم ألفان، فدوّى صوتهم الموحّد بالتلبية في أرجاء مكة، وكانت نغمة هذه التلبية الكبرى من الجلال والجمال بحيث بهرت كل سكان مكة، وسحرت قلوبهم وعطفها نحو المسلمين، وفي نفس الوقت أربع اتحاد المسلمين، ونظامهم، والتفافهم حول النبي قلوب المشركين، ولم يقطع رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - تلييته حتّى استلم الركن.

فلما انتهى رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - إلى البيت وهو على راحلته وابن رواحة أخذ بزمامها وقد صف له المسلمون حين دنا من الركن حتّى انتهى إليه استلم الركن بمحجنه مضطبعاً بثوبه على راحلته انشد عبدالله بن رواحة يقول:

خَلُّوا بَنِي الْكَفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ * إِنِّي شَهِدْتُ أَنَّهُ رَسُولُهُ

حَقّاً وَكُلُّ الْخَيْرِ فِي سَبِيلِهِ * نَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ

كَمَا ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ * ضَرْباً يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ

ويذهلُ الخليلُ عن خليله(2)

وظاف رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - بالبيت المعظم على راحلته، وهنا أمر

1- امتاع الاسماع: ١ / ٣٣٧ و ٣٣٨.
2- زاد المعاد: ٢ / ١٥٢.

- صلّى الله عليه وآله وسلم - ابن رواحة ان يردّد هذا الدعاء بلحن ونغم خاص؛ وان يتبعه المسلمون:

«لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده واعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.»

كانت مكة بجميع مشاعرها في ذلك اليوم تحت تصرف المسلمين، المسجد، الكعبة، الصفا، المروة، وغيرها. وقد كانت هذه الشعارات التوحيدية الساخنة في مكان كان طوال سنين مديدة مركزاً للوثنية، والشرك توجه ضربات روحية قوية إلى نفسية سادة المشركين، وأتباعهم، مما كان يُوحى بغلبة «محمد» - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - على كل أرجاء الجزيرة العربية حتماً وبقيناً.

ولما قضى رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - نُسكه دخل البيت فلم يزل فيه حتى حان الظهر، فصعد بلال الذي طالما عذب في هذا البلد بسبب اسلامه فوق ظهر الكعبة بأمر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، واذن لصلاة الظهر.

ولقد كان لهذا المنظر مردود عجيب في نفوس المشركين فبالل واقف في نقطة طالما عُدت فيها الشهادة بالتوحيد وبرسالة محمد، ذنباً لا يُغتفر، وجريمة لا ينجو صاحبها من العذاب، يردد ويردد معه المسلمون ما يردد من فصول الأذان فصلاً فصلاً في خشوع وروحانية بالغة.

لقد أزعج أذان بلال المشركين واعداء التوحيد، حتى قال «صفوان بن أمية»: الحمد لله الذي أذهب أبي قبل أن يرى هذا، وقال خالد بن أسيد: الحمد لله الذي أمات أبي ولم يشهد هذا اليوم، ولم يسمع هذا العبد الحبشي يقول ما يقول.

واما «سهيل بن عمرو» فانه لما سمع تكبير بلال غطى وجهه بمنديل.

انهم لم ينزعوا من صوت «بلال» بل أخرجتهم مضامين فصول الأذان التي كانت ضد ما يحملونه من المعتقدات الباطلة الموروثة، وجعلتهم يعانون بسبب

(435)

ذلك من عذاب روعي شديد.

ثم ان رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - حين أراد السعي بين الصفا والمروة سمع بأن قريشاً تحدثت بينها أن محمداً وأصحابه في عسرة وجهد وشدة، وان الذين هاجروا معه إلى المدينة مرضى، وأنهم صقوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه، فهزول رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - هرولة في المكان المعلم الآن في المسعى، وتبعه المسلمين وقد قال لهم قبل ذلك.

«رحم الله امرء أراه اليوم من نفسه قوة»⁽¹⁾

وذلك ليبتل ما اشاعته قريش حول المسلمين المهاجرين من الضعف والهزال بسبب ظروف المهجر. وهذا إن دل على شيء فانما يدل على امرين:

أولاً: جواز القيام بالأعمال السياسية في موسم الحج.

ثانياً: ان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان حذراً جداً فكان يبطل كل خطط العدو أولاً بأول.

يقول صاحب زاد المعاد: أمر النبي بذلك ليرى المشركون جدهم وقوتهم، وكان يكايدهم (أي يبطل كيدهم) بكل ما استطاع.(2)

ثم ان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد أن فرغ من السعي نحر البدن، ثم قصر من شعره، ثم خرج من إحرامه، وتبعه المسلمون في كل ما فعل.

ثم أمر - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مائتين من أصحابه بعد أن طافوا بالبيت وانتهوا من مناسك العمرة ان يذهبوا إلى أصحابه بمر الظهران فيقيموا على السلاح فيأتي الآخرون فيقضوا مناسكهم، ففعلوا.

إنتهت أعمال العمرة ونسكها، وذهب المهاجرون إلى منازلهم التي هجروها قبل سبعة أعوام، ليجدوا اللقاء بذويهم وأقربائهم بعد طول فراق، واستضافوا

1-تاريخ الطبري: ٢ / ٣٠٩، وراجع نظيره في زاد المعاد: ٢ / ١٥٢.
2-زاد المعاد: ٢ / ١٥٢، ولنا مقال مفصل في هذا المجال تحت عنوان الحج عبادة وسياسة نشر في مجلة الشهيد فراجع.

(436)

جماعة من الأنصار في بيوتهم وفاء لجميلهم وتقديراً لخدماتهم حين قدموا عليهم المدينة بعد الهجرة، فأسكنوهم وكرمهم في منازلهم وخدموهم سنيماً عديدة.

النبي يغادر مكة:

تركت أحوال المسلمين وأوضاع الإسلام وجلال الموكب النبوي وعظمته أثراً بليغاً وعجيباً في نفوس سكان مكة المشركين، فقد تعرفوا على نفسية المسلمين النبيلة الطيبة في هذه الزيارة اكثر من أي وقت مضى وكاد ذلك أن «يفعل» فعلته، ويحدث إنقلاباً روحياً في تلك البيئة.

ولما رأى زعماء المشركين أن توقف النبي وأصحابه في مكة سيؤثر في عقائد أهل مكة ويضعف تمسكهم بوثنيتهم، ويوجد علاقات المحبة بينهم وبين المسلمين، لهذا بعثوا أحدهم وهو حويطب إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد انقضاء المدة المقررة للاقامة في مكة في المعاهدة - ليطلب منه مغادرة مكة قاتلاً: انه قد انقضى اجلك فاخرج عنا.

فانزعج بعض أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من مقالة مبعوث قريش هذا، ولكن النبي لم يكن بالذي يخالف ما تعهد به، ولهذا أمر بأن ينادى في المسلمين بالرحيل فترك هو والمسلمون مكة فوراً.

ولقد تأثرت «ميمونة» أختُ أم الفضل زوجة العباس، بما شهدت من مشاعر المسلمين وروحانيتهم فأرسلت إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن طريق عمه العباس أنها ترغب في الزواج برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فوافق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - (1) وتزوجها، وبهذا قوى علاقته مع قريش.

ان رغبة فتاة في الزواج بمن يكبرها بسنين عديدة لدليل واضح على مدى التأثير الروحي والمعنوي الذي تركه النبي والمسلمون في النفوس حتى أن النبي

- [حياة محمد: ص ٤٠١ .

(437)

- صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لما طلب من مبعوث قريش بأن يمهله بعض الوقت ليعرس بين أظهرهم، ويصنع لهم طعاماً يحضروه، أبوا امهاله خوفاً من تعاطم تأثيره في النفوس، وقالوا له: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا. (1)

فأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يخرج المسلمون من مكة في منتصف النهار ولم يبق بمكة إلى وقت الظهر، وخلف ابا رافع ليحمل إليه زوجته «ميمونة» حين يمسي، فأقام أبو رافع حتى أمسى، فخرج بميمونة ومن معها فلقوا عناء من سفهاء المشركين، ولاموا «ميمونة» على فعلها، ولكن كلامهم لم يؤثر قط في نفسها، فقد رغبت في الزواج برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بدافع الرغبة في خلقه وسمو أخلاقه.

وهكذا تحققت رؤيا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الصادقة التي رآها قبل سنة واحدة بأنه دخل البيت، وحلق راسه، ونزلت بعد هذه الوقائع الآية ٢٧ من سورة الفتح تتحدث عن تحقق هذا الوعد حيث أخبرت ضمناً عن فتح قريب، - هو فتح مكة - الذي تحقق في السنة الثامنة من الهجرة إذ يقول سبحانه:

(لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَهُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا.) (2)

- [السيرة النبوية: ٢ / ٣٧٢، تاريخ الخميس: ٢ / ٦٢ - ٦٥ .
2-الفتح: ٢٧ .

(438)

احداث السنة الثامنة من الهجرة

٤٧ معركة مؤتة

انقضت السنة الهجرية السابعة، واستطاع المسلمون بفضل معاهدة صلح الحديبية ان يزوروا معاً بيت الله المعظم ويعتصروا في أمان، ويردّوا في مركز حكومة الوثنيين شعارات قوية لصالح عقيدتهم التوحيدية إلى درجة انهم استطاعوا ان يستميلوا نحو الإسلام قلوب جماعة من سراة قريش وزعماء المشركين امثال «خالد بن الوليد»، «وعمر بن العاص»⁽¹⁾ و«عثمان بن طلحة»، فلم يلبثوا ان جاؤوا طائعين راغبين إلى المدينة، واعتنقوا الإسلام وقطعوا علاقاتهم بحكومة مكة الوثنية المشركة التي لم يبق منها إلا جسم من دون روح، وهيك من دون حياة.⁽²⁾

وذكر بعض المؤرخين اسلام خالد أو ابن العاص في السنة الخامسة من الهجرة.

ولكن هذا غير صحيح قطعاً لأن «خالداً» كان يقود في الحديبية مائتين من فرسان قريش، ونحن نعلم أن اسلام هذين الرجلين تم في وقت واحد.

كان ثمة أمنٌ نسبيٌ يسود أكثر مناطق الحجاز في أوائل السنة الثامنة، وكان نداء الإسلام قد وصل إلى أكثر النقاط ولم يبق من نفوذ اليهود شيء، ولم

1- لقد ذكر الواقدي في مغازيه: ٢ / ٧٤٣ و ٧٤٥ علة اسلام عمرو بصورة أخرى.
2- الطبقات الكبرى لابن سعد: ٤ / ٢٥٢ - ٢٦١.

(439)

تعد قريش تهديد المسلمين من ناحية الجنوب، ولهذا فكر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في أن يركز دعوته على سكان المناطق الحدودية للشام، ويستميل إلى الإسلام قلوب أولئك الاقوام التي كانت في تلك الايام تعاني من ظلم السلطات الرومية.

ولهذا الغرض وجّه «حارث بن عمير الازدي» مع كتاب إلى «الحارث بن أبي شمر الغساني» ملك «بصرى» الذي كان حاكم الشامات المطلق يومذاك، وكان يحكم من جانب قيصر.

فلما نزل مبعوث النبي مؤتة» عرف به شرحبيل وكان حاكم المناطق الحدودية، فقبض عليه، وحقق معه، فاعترف له بانه يحمل كتاباً من جانب رسول الإسلام إلى حاكم الشامات المطلق (الحارث الغساني)، فأمر بان يُوثق وقدمه وضرب عنقه صبراً مخالفاً بذلك كل الأعراف العالمية القاضية باحترام السفراء وحصانتهم.

فعرّف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بذلك وغضب لمقتل رسوله بشدة وندب الناس فأخبرهم بمقتل سفيره ومن قتله، ودعا المقاتلين المسلمين إلى الخروج للاقتصاص من قاتل «الحارث». »

حادثة أفجع من السابقة:

واتفق أن وقعت في نفس الأيام حادثة أخرى أفجع من الأولى، أكدت عزم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على تأديب سكان المناطق الحدودية الشامية الذين سلبوا دعاة الإسلام حرية العمل والدعوة، وقتلوا دون رحمة، وغدراً سفير النبي، وجماعة الدعوة والتبليغ واليك مفصل الحادثة الثانية:

بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في شهر ربيع الأول سنة ثمان من الهجرة على رأس خمسة عشر رجلاً إلى منطقة «ذات أطلاح» من أرض الشام، خلف وادي القرى لدعوة الناس إلى الإسلام، فخرجوا حتى انتهوا إلى تلك

(440)

المنطقة فدعوا أهلها إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم، ورشقوهم بالنبل فلما رأى أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ذلك قاتلوهم أشد القتال، حتى قتلوا مؤثرين عز الشهادة على ذل الأسر، وافلت منهم رجلٌ جريح من القتلى، فلما جنَّ الليل تحامل حتى أتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأخبره الخبر فشق ذلك على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فتسبب العدوان على دعاة الإسلام وقتلهم في ان يصدر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمراً بالخروج إلى الجهاد في شهر جمادى، ووجه جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل لتأديب المتمردين، و مزاحمي دعوة الإسلام.

فتجمع ثلاثة آلاف بعد الاذان بالجهاد في معسكر خارج المدينة يدعى «الجرف» فخرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بنفسه إلى ذلك المعسكر، وخطب في المقاتلين خطاباً، هذا نصه:

«أغزوا بسم الله أذعوهم إلى الإسلام فإن فعلوا فاقبل منهم واكف عنهم والآن فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين الناس، فلا تعرضوا لهم، وستجدون آخرين للشيطان في رؤوسهم مفاحص فاقلعوها بالسيف، ولا تقتلن امرأة ولا صغيراً مرضعاً ولا كبيراً فانياً، لا تغرقن نخلاً ولا تقطعن شجراً، ولا تهدموا بيتاً.»⁽¹⁾

ثم قال: جعفر بن أبي طالب أمير الناس، فان قُتِلَ فزيد بن حارثة، فان اصيب زيد فعبدة الله بن رواحة فان اصيب عبد الله بن رواحة فليرضي المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم.

ثم امر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المقاتلين بالتحرك نحو الهدف، وخرج فشيّعهم مع جماعة من اصحابه حتى «ثنية الوداع» وهناك ودّعهم وكان المسلمون المشيعون يقولون: دفع الله عنكم وردكم سالمين غانمين، صالحين.

ولكن ابن رواحة أجابهم قائلاً:

لكنني أسأل الرحمان مغفرة * وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا

أو طعنة بيدي حرّان مجهزة * بحربة تنفذ الاحشاء والكبدا

حتّى يقال إذا مرّوا على جدثي * يا أرشد الله من غاز وقد رشدا. (1)

وانت أيها القارىء الكريم يمكنك أن تعرف من خلال هذه الابيات عمق ايمان هذا الفارس القائد وحبه للشهادة في سبيل الله.

ثم ان الناس رأوا عبدالله بن رواحة لما ودع من ودع بكى، فقالوا ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا، ولا صباية بكم ولكني سمعت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يقرأ آية من كتاب الله عزوجل يذكر فيها النار:

(وَ إِنْ مِنْكُمْ إِيَّاهُ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا.) (2)

فلست أدري كيف لي بالصدور بعد الورود. (3)

خلاف حول من هو الامير الاول؟

لقد كتب بعض المؤرخين: أن الامير الاول كان هو زيد بن حارثة ابن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالتبني، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم عبدالله بن رواحة، ولكن محققي الشيعة يرون عكس هذا فهم يعتبرون جعفر بن أبي طالب قائد الجيش وزيداً وعبدالله معاونين أو خليفتين له على الترتيب فيجب ان نرى أي الرأي يوافق الحقيقة.

لتحصيل الحقيقة في هذا المجال هناك طريقتان:

1- ان زيد بن حارثة لم يكن يعادل من ناحية التقوى والعلم والمكانة

1-بحار الأنوار: ٢١ / ٦٠، الطبقات الكبرى: ٢ / ١٢٨.

2-مريم: ٧١.

3-السيرة النبوية: ٢ / ٣٧٤.

الاجتماعية جعفر بن أبي طالب (جعفر الطيار).

يقول ابن الاثير عنه: جعفر بن أبي طالب كان اشبه الناس برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خَلْقاً وَخُلُقاً، أسلم بعد إسلام أخيه عليّ بقليل. روي أن أبا طالب رأى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وعلياً رضي الله عنه يصليان وعليّ عن يمينه، فقال لجعفر: صَلِّ جناح ابن عمك وصلِّ عن يساره. (1)

وجعفر رأس المهاجرين إلى الحبشة الذين هاجروا اليها حفاظاً على دينهم وعقيدتهم من الفتنة وهو الذي استمال قلب النجاشي بما تكلم به عنده من الحجة وقرأ عليه آيات من القرآن عن المسيح - عليه السَّلام - وأمه مريم، واثبت كذب مبعوثي قريش لاستعادتهم إلى ارض الحجاز، و هو الَّذِي وَفَّقَ لأن يخطب ودَّ النجاشي ويكسب حمايته للمهاجرين الملاحقين إلى درجة أنه طرد مندوبي قريش. (2)

ان جعفرأ هو الشخصية البارزة التي لما راه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يوم خيبر وقد عاد من الحبشة مشى إليه (١٢) خطوة وعانقه وضمه وقبّل مابين عينيه وبكى من فرط الشوق إليه وقال في حقه:

«بأيهما اسرّ بقدم جعفر ام بفتح خيبر. »

إنه هو ذلك الرجل العظيم الَّذي كان يذكر عليّ - عليه السَّلام - ، بعد استشهاده شجاعته وبسالته، فعندما سمع عليّ - عليه السَّلام - بمبايعة عمرو بن العاص لمعاوية، وتقرّر أن يوكل معاوية حكومة مصر إلى عمرو إذا غلبا علياً، غضب علنً عليه السَّلام - من هذا الامر وتذكر شجاعة عمّه حمزة وأخيه جعفر وقال:

لو أنّ عندي يابن حرب جعفرا * أو حمزة القرم الهمام الازهرا

1- اسد الغابة: ١ / ٢٨٧.

2- اسد الغابة: ترجمة جعفر بن أبي طالب، وغيره من المصادر في هذا المجال.

رأت قريشٌ نجمَ ليلٍ ظُهِرا. (1)

فهل مع هذه المواصفات والجهات التي نقلنا قسماً منها هنا فقط يجيز العقل أن يفرض رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قيادة القوات إلى زيد ويجعل جعفر معاونه أو خليفته الاول.

2- ان الأشعار التي انشدها شعراء الإسلام الاذناد في رثاء هؤلاء القادة بعد استشهادهم حاكية عن ان القائد الاعلى في هذه المعركة الكبرى (موتة) كان «جعفر» وكان أمر المعونة والخلافة يرتبط بالرجلين الآخرين، فهذا «حسان» شاعر عصر الرسالة انشد شعراً بعد أن بلغه استشهاد أولئك القادة بصورته المفجعة قال فيه:

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا * بموتة منهم ذوالجناحين جعفر

وزيدٌ وعبدالله حين تتابعوا * جميعاً وأسباب المنية تخطر (2)

فكلمة تتابعوا تشهد بجلاء على أن مقتل هؤلاء القادة الذين ذكرهم تمّ على النحو الذي جاء ذكرهم، يعني أن جعفرأ كان اول الشهداء ثم تلاه في قيادة الجيش الاسلامي ثم الشهادة زيدٌ، ثم ابن رواحة.

وان اوضح الادلة على ذلك قصيدة «كعب بن مالك» في رثاء شهداء موتة، التي يصرح فيها بان جعفرأ كان هو القائد الأول، وقد كان صاحب هذه الأبيات ممن شاهد تفويض أمر القيادة العليا للجيش من جانب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى جعفر

يقول كعب في قصيدته:

إذ يهتدون بجعفر ولوائه * فُدام أولهم فنعم الأول (3)

إن هذه القصائد الرثائية التي أنشدت في أعقاب استشهاد أولئك القادة، وسلمت من يد التحريف اقوى شاهد على ان ما كتبه مؤرخو السنّة حول هذا

1- وقعة صفين: ص ٤٩ .

2- السيرة النبوية: ٢ / ٣٨٤ .

3- السيرة النبوية: ٢ / ٣٨٦ .

المطلب يخالف الحقيقة، وأن الرواة اختلفوا هذا الترتيب لدوافع وأغراض سياسية لا مجال لذكرها، وبيانها هنا، وقد تبعهم في ذلك كُتّاب السيرة وادرجوه في كتبهم من دون تمحيص وتحقيق.

والعجب أن ابن هشام الذي نقل كل هذه الابيات والقصائد قال: ان جعفرأ كان المعاون الأول لزيد بن حارثة، وليس القائد الأعلى

للجيش، وهو كما ترى تناقض مكشوف. (1)

جيشا الروم والإسلام يتواجهان:

كانت «الروم» قد أصيبت يومذاك - نتيجة الحروب العديدة والطويلة مع منافستها ايران - بالفوضى، والهرج والمرج الشديدين. فمع ان قادة الروم كانوا سكارى من نشوة الانتصار على ايران إلا أنهم قد بلغهم شيء كثير عن شجاعة المسلمين وبسالتهم النابعة من إيمانهم والتي كسبوا عن طريقها أمجاداً عظيمة، وكانوا يراقبون على الدوام تحرك جنود الإسلام ونشاطاتهم العسكرية. ولهذا لما بلغ هرقل قيصر الروم بموعد توجه جنود الإسلام إلى ناحية الشام لتأديب عميله شرحبيل الخساني، أرسل جيشاً عظيماً وقوياً لمواجهة جنود الإسلام البالغ عددهم ثلاثة آلاف. وقد أعدَّ «شرحبيل» حاكم ارض الشام وحده مائة ألف فارس من مختلف القبائل القاطنة في الاراضي الشامية ووجهه إلى حدود الشام لا يقاف تقدم الجيش الاسلامي، وقد أعدَّ قيصر قبل ذلك مائة ألف جندي رومي فنزل في منطقة تدعى «مأب» من مدن البلقاء، وأستقرّ هناك كقوة احتياطية تتدخل عند اللزوم.⁽²⁾

1- السيرة النبوية: ٢ / ٣٨٠.
2- المغازي: ٢ / ٧٦٠، السيرة النبوية: ٢ / ٣٧٥.

(445)

ولقد كان تجميع هذا القدر الهائل من الجنود والمقاتلين لمواجهة جيش يقلّ عدداً بكثير عن هذا القدر نابعاً من الانباء التي بلغت قادة الروم والشام عن فتوحات المسلمين وانتصاراتهم الساحقة وعن الوقوف على شجاعتهم وبسالتهم التي ذاع صيتها، وإلا فان عشر هذا العدد، (أي عشرون ألف) يكفي لمواجهة ثلاثة آلاف مقاتل مهما كانت شجاعة هؤلاء.

كما أنه لدى المقارنة بين العسكريين كان الجيش الاسلامي أضعف من جيش الروم بكثير، سواء من ناحية العتاد، أو من ناحية المعرفة بفنون القتال وتكتيكاته العسكرية، لان القادة العسكريين الروم كانوا قد كسبوا خبرة حربية واسعة نتيجة المشاركة في الحروب العديدة والطويلة التي دارت بين الروم وبين ايران، وعرفوا بالتالي مفاتيح الانتصار، بينما كانت معلومات الجيش الاسلامي الناشي معلومات بدائية وبسيطة في هذا المجال.

هذا مضافاً إلى عدم وجود التكافؤ بين الجيش الاسلامي والجيش الروماني في نوعية المعذات الحربية والاجهزة القتالية ووسائل النقل وماشابه ذلك.

وفوق هذا وذلك فان القوة الإسلامية كانت تحارب في أرض غريبة عليها، وتقوم بدور المهاجم، بينما كان الرومان يقاتلون في بلادهم دفاعاً وهم يتمتعون بجميع مستلزمات القتال ومتطلبات الحرب.

وفي مثل هذه الحالة يجب ان تكون القوة المهاجمة قوية جداً، بحيث يمكنها ملافاة سلبيات الظروف غير المساعدة.

ومع هذا فأنا سنرى عما قريب كيف أن قادة الجيش الاسلامي قاوموا وآثروا الصمود والقتال على الهروب والفرار مع انهم كانوا يرون الموت على بعد أقدام معدودة منهم، وبهذا أضافوا إلى أمجادهم أمجاداً أخرى، وسطروا اسطراً أخرى في سجل بطولاتهم. منذ أن ورد المسلمون المناطق الحدودية للشام عرفوا باستعدادات العدو العريضة، وحجم قدراته العسكرية الواسع فشكّلوا من فورهم شورى عسكرية

(446)

فقال البعض: نكتب إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فنخبره الخبر، فإما يردنا وإما يزيدنا رجالا. وكاد هذا الرأي ان يلقى قبولا من المشاورين الآخرين لولا أن «عبدالله بن رواحة» الذي طلب ساعة خروجه من المدينة من الله ان يرزقه الشهادة كما اسلفنا، شجعهم على الصمود وقال: «والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد، ولا بكثرة سلاح، ولا بكثرة خيول، إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، انطلقوا، والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد فرس واحد، وإنما هي إحدى الحسينين، إما ظهوراً عليهم، فذلك ما وعدنا الله ووعدنا نبينا، وليس لوعده خُلف، وإما الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان. »

فقوت هذه الخطبة الحماسية الصادقة معنويات المقاتلين المسلمين وبثت فيهم روح البسالة والمقاومة.

ثم تواجه الجيشان في منطقة تدعى «مشارف» ولكن جنود الإسلام تأخروا وانسحبوا قليلا لبعض العلى، ونزلوا في مؤتة. فقسم جعفر بن أبي طالب قائد الجيش، جنود الإسلام إلى اقسام: مختلفة، وأمر على كل قسم اميراً، ثم بدأت المبارزة الفردية عى نحو ما كان متعارفاً في حروب العرب، فكان على جعفر ان يأخذ اللواء بيده ويوجه صفوف المقاتلين المسلمين، ويقاثل في نفس الوقت.

ثم اننا نكتشف مدى الشجاعة الروحية وثبات الارادة لتحقيق الهدف من خلال الرجز الذي أنشده «جعفر» خلال القتال فقد أخذ يرتجز ويقول:

يا حَبْدَا الجنة واقترأبها * طيبة وبارداً شراؤها

والروم رومٌ دنا عذابها * كافرة بعيدة أنسابها

على إذ لا قيتُها ضرابها⁽¹⁾

ولقد قاتل قائد الجيش الاعلى (جعفر) قتالا عظيماً، فلما حاصره الأعداء في ساحة القتال وأيقن بالشهادة وثب إلى الارض ثم عقر فرسه في الحال لكي

(447)

لا ينتفع به العدوُ واخذ يقاتل، وهو آخذ باللواء بيمينه، فقطعت يمينه فاخذه بشماله فقطعت فاحتضنه بعضديه حتى لا يسقط لواء رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على الأرض حتى قتل وقد وُجِدَ به ثمانون جراحة أو تزيد. (1)!!

فلما قُتِلَ «جعفر» أخذ الراية «زيدُ بن حارثة» معاونه الاول فقاتل ببسالة عظيمة حتى قتل برماح القوم.

فاخذ الراية «عبدالله بن رواحة» معاونه الثاني، ثم تقدّم بها وهو على فرسه، فجعل يقاتل ويرتجز، فاحسّ بالجوع أثناء القتال، والحّ عليه، فاتاه رجل بعرق من لحم ليزيل به جوعه ويشدُّ به صلْبَه، فلم يأكل منه شيئاً حتى سمع صوت هجوم العدو، فلقى الطعام من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قُتِلَ.

حيرة المقاتلين المسلمين بعد مقتل القادة:

وهنا بدأت حيرة المقاتلين المسلمين، فقد قُتِلَ القائد الأعلى للجيش ومعاونه وعلى الترتيب الذي ذكر.

ولكن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان قد تحسّب لهذه الحالة، وترك أمر اختيار القائد في مثل هذا الوضع إلى الجنود انفسهم، فأخذ الراية «ثابت بن أقرم» وقال: يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم. فقالوا: انت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطَلَحَ على «خالد بن الوليد» الذي كان حديث عهد بالاسلام آنذاك.

ولقد كانت الساعة التي انيط فيها القيادة إلى خالد ساعة خطيرة وحساسة جداً، حيث قد تغلب الخوف والرعب على المسلمين كافة.

فعمد القائد الجديد إلى استخدام تكتيك عسكري لم يعرف له مثيل، فقد

1- المغازي: ٢ / ٧٦١، وقد اثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما في الجنة وسمى في ما بعد بجعفر الطيار، راجع السيرة النبوية: ٢ / ٣٧٨.

(448)

امر بالعسكر إذا جنّ الليل أن يحدث بعض التغييرات في صفوفه من دون ضجيج فتنقل الميسرة إلى اليمين، والميسرة إلى الميسرة، وتتأخر المقدمة إلى مكان القلب، ويتقدم القلب إلى موضع المقدمة. ففعل المسلمون ذلك، واستمرت هذه التغييرات حتى طلع الفجر

كما أنه أمر جماعة من المسلمين المقاتلين أن يخرجوا من الجيش ليلاً، ويذهبوا إلى مكان بعيد فإذا أسفر الصبح التحقوا بالمسلمين سريعاً وهم يكبرون حتى يظن العدو وصول امدادات عسكرية بشرية جديدة إلى المقاتلين المسلمين وقد تسبب هذا التكتيك بنفسه في أن يحجم الجيش الكافر عن مهاجمة المسلمين واستئصالهم، بعد أن قتل خيرة قادتهم.

فلما كان الصبح ورأى العدو وجوها جديدة، كما رأوا إمداد المسلمين بمجموعة عسكرية جديدة قالوا: قد جاءهم مدد. فرعبوا وانهزموا فقاتلهم المسلمون، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وقُتل في هذه الاثناء أحد الجنود المسلمين.

ثم ساد الموقف صمتٌ رهيبٌ، فاستفاد من هذا الصمت والأمن الذي كان يخيم على الجيش فرجعوا من حيث أتوا. إن اكبر انتصار للمسلمين هو ان قوة قليلة محدودة واجهت جيشاً عظيماً منظماً ثلاثة ايام، وبالتالي نجوا بأنفسهم، وكان تدبير الامر الجديد تدبيراً حكيماً خلّص المسلمين من موت محتم، فعادوا سالمين إلى المدينة، وكان هذا مما يشكرون عليه، ويستحقون والثناء.⁽¹⁾

الجنود يعودون إلى المدينة:

وقبل ان يقدم جنود الإسلام من «موتة» المدينة كانت قد وصلت إلى المسلمين أنباء انسحابهم وانباء سيئة عن وضع الجيش، من هنا ذهب المسلمون الى

[1- السيرة النبوية: ٢ / ٣٨١ و ٣٨٨ و ٣٨٩.

(449)

منطقة الجرف لاستقبالهم.

ومع ان عمل القائد الجديد كان تكتيكاً حكيماً إلا ان مثل هذا الصنيع حيث انه كان يتنافى مع ما حققه المسلمون من أمجاد مشرقة وتنافى مشاعرهم وبسالتهم الذاتية والاصيلة لذلك استقبلوهم بشعارات نابية وانتقادات جارحة والقوا بالتراب والحجارة في وجوه المقاتلين العائدين، وقالوا: يا فرار، أفررتم في سبيل الله؟

وقد كانت ردة فعل بعض المسلمين قوية جداً إلى درجة انه اضطر بعض الشخصيات التي شاركت في تلك المعركة إلى أن يقعد في بيته، ولا يظهر في الملأ، فكان الناس - إذا خرجوا - يشيرون اليهم بالاصابع ويقولون: ألا تقدمت مع أصحابك؟⁽¹⁾

ولقد كانت ردة فعل المسلمين تجاه عملية انسحاب جنود الإسلام الذكية، كاشفة عن روح الشهامة والجهاد التي أوجدها الايمان بالله والايمن بيوم القيامة في نفوسهم بحيث صاروا يعدّون القتل والشهادة في سبيل الله، أفضل من الانسحاب والتأخر.

أسطورة بدل التاريخ الصحيح:

حيث إن الامام علي بن أبي طالب - عليه السّلام - قد اشتهر بين المسلمين بأسد الله، لذلك أراد البعض أن يحنثوا تجاه هذا القائد قائداً آخر، ويمنحونه لقب سيف الله، ولم يكن ذلك إلاّ خالد بن الوليد من هنا قالوا ان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لقب خالد بن الوليد بعد رجوعه من معركة «مؤتة» بسيف الله (2) ولو أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - منح مثل هذا اللقب لخالد في مناسبة

1-المغازي: ٢ / ٧٦٥.
2-السيرة النبوية: ٢ / ٣٨٢، السيرة الحلبية: ٢ / ٧٩.

(450)

اخرى لما كان للبحث والنقاش مجال.

ولكن الاوضاع بعد معركة «مؤتة» ما كانت توجب بل ولا تسمح بأن يعطيه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مثل هذا اللقب، فهل من يرأس فريقاً يسميه المسلمون الفُرّار، ويحثون في وجوههم التراب يحسن أن يُعطي في مثل هذه المناسبة لقب سيف الله؟ أجل؛ لو أنّ خالداً كان مظهرًا لسيف الله في غزوات ومعارك أخرى امكن القبول بذلك، أما في هذه المعركة فلم يكن مظهرًا لسيف الله، ولم يصدر منه بعد تقليده إمارة الجيش إلاّ تكتيك عسكري حكيم، ولما وصف هو ومن معه بالفراريين، خاصة ان ابن سعد يكتب قائلاً: فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فأخذ اللواء، وانكشف الناس فكانت الهزيمة فتبعهم المشركون فقتل من قُتل من المسلمين. (1)

إن مختلقي هذه الاسطورة أضافوا لتأكيد مطلبهم هذه الجملة أيضاً: قال خالد: لقد اندق يومئذ (أي يوم مؤتة) في يدي سبعة أسياف فما ثبت بيدي إلا صفيحة يمانية. (2)

ان مختلق هذه الكذبة غفل تماماً عن أن خالداً وجنوده لو كانوا أبدووا في هذه المعركة مثل هذه البسالة ولو انجزوا في هذه الحرب مثل هذا العمل العظيم فلماذا سمّاهم أهل المدينة بالفرّار؟ ولماذا حثوا التراب في وجوههم؟ ولما وقع الناس في خالد بعينه (3)، إذ كان من اللازم في هذه الصورة أن يزرعوا طريقهم بالورود، ويقربوا بين أيديهم القرابين إبتهاجاً بعودتهم الظافرة واعجاباً بعملهم الجبار!!

النبي يبكي بشدة لمقتل جعفر:

لقد بكى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في مقتل ابن عمه «جعفر» بشدة

1- الطبقات: ٢ / ١٢٩، امتاع الاسماع: ١ / ٣٤٩.

2- اسد الغابة: ٢ / ٩٤.

3- السيرة الحلبية: ٣ / ٦٨ وغيره.

(451)

ولكي تعرف زوجته اسماء بنت عميس بمصرع زوجها دخل عليها، فقال لاسماء: ايتيني ببني جعفر.

فجاءت بهم إليه فضمهم وشمهم، ثم ذرفت عيناه ثم بكى، فعرفت أسماء بمصرع زوجها فصاحت وبكت ثم خرج رسول الله - صَلَّى

الله عليه وآله وسلم - إلى اهله وقال:

«لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم» وكان كلما تذكر جعفرأ وزيد بن حارثة بكى. (1)

1- بحار الأنوار: ٢١ / ٥٤، المغازي: ٢ / ٧٦٦، السيرة الحلبية: ٣ / ٦٨، امتاع الاسماع: ١ / ٣٥١.

(452)

٤٨

غزوة ذات السلاسل

منذ أن هاجر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى المدينة، وأصبحت «المدينة» مركز الإسلام وقاعدته، وموضع تمرکز المسلمين وعاصمتهم، ظل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يراقب أوضاع أعداء الإسلام، ويرصد تحركاتهم، ومؤامراتهم، وكان يولي مسألة تحصيل المعلومات المفصلة عن المتآمرين من المشركين وغيرهم إهتماماً كبيراً، ويعمد دائماً إلى إختيار أفضل العناصر لإرسالهم - بمختلف الحجج - إلى نواحي مكة، وبثهم في القبائل المشركة المختلفة لتجسس أخبارهم، والتعرف على نواياهم، وتدابيرهم.

ولقد استطاع النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بفضل الاطلاع المبكر والدقيق على المؤامرات التي كانت تحاك ضده أن يُفْتِئِل الكثير من خطتهم.

فقد كان - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يباغت العدو، ويحاصره قبل أن يتحرك من مكانه، عن طريق المجموعات العسكرية التي كان يقودها بنفسه، أو التي كان يؤمّر عليها أحد أركان جيشه ويوجهها صوب مكان تجمع العدو، فيفرقون جمعهم، ويشنتون شملهم، ويقضون على المؤامرة في مهدها، وبهذا كان الكيان الاسلامي في أمن من خطر الأعداء، وكان هذا العمل وهذا التدبير يجنب الطرفين المزيد من أراقة الدماء وإزهاق الأرواح.

إنَّ الإطّلاع المبكّر على أسرار العدو العسكرية، ومعرفة حجم طاقاته، ومبلغ إستعداداته، واكتشاف خطّته، وتكتيكاته يُعدّ من العوامل الجوهرية، والمؤثّرة في

(453)

الظفر والانتصار.

فِلْدُول الكبرى اليوم أجهزةً طويلةً وعريضةً، وتشكيلاتٌ واسعةٌ، ومعقّدةٌ لإعداد وتخريج الجواسيس البارعين، وإرسالهم إلى النقاط والمراكز المطلوب اكتشاف أسرارها، والتعرف على أوضاعها وخصائصها، وترصد هذه الدول ميزانيات ضخمة لهذا الغرض. (1)

وكان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أوّل من ابتكر في تاريخ الإسلام هذا العمل في صورته المنظّمة، وتبعه في ذلك الخلفاء الذين جاؤوا من بعده، وبخاصّة الامام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب الذي كان يستعين بجواسيس وعيون كثيرين في مجالات مختلفة، عسكرية، وإدارية.

فكان - عليه السّلام - إذا نصبَ والياً على بلد، جعل عليه عيناً يراقب أعماله وتصرفاته، ويخبر الإمام بها أوّلاً بأوّل، فكان الإمام يكتب إلى ذلك الوالي، ويوبّخه على تصرفاته وانحرافاتِهِ إن بلغَهُ شيءٌ من ذلك. (2)

ولقد كلّف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في السنة الثمانية ثمانية رجال من المهاجرين، بالتوجّه تحت إمرة «عبدالله بن جحش» إلى موضع معين، والنزول فيه، للتعرف على نشاطات قريش، ومؤامراتهم.

وقد كان عدم مفاجأة قريش للنبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في معركة «أُحُد» وخروجه المبكّر من المدينة بقواه، وجنوده، والنزول في منطقة مناسبة عسكرياً خارجها، وحفره المبكّر أيضاً للخندق المعروف في شمال المدينة، والذي منع العدو (جيش الاحزاب) من اقتحام المدينة المنوّرة، كل ذلك كان نابعاً من معرفة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المسبقة والدقيقة بأسرار العدو، ونواياه،

1-راجع: كتاب: المخابرات والعالم وغيره.
2-راجع: نهج البلاغه قسم الرسائل والكتب، رقم ٣٣ و ٤٥ وكتاب الغارات. هذا وقد بحثنا موضوع الاستخبارات والتجسس في النظام الاسلامي بصورة مسهية في كتابنا: معالم الحكومة الإسلامية، فراجع.

(454)

وحجم قواته، وبالأرض، وذلك عن طريق عيونه وجواسيسه الانكباء اللبيقين، اليقظين الذين كانوا يرصدون - بدقة وباستمرار - أوضاع العدو، وتحركاته، وينقلون معلوماتهم إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبذلك كانوا يقومون بواجبهم الديني في مجال الحفاظ على عقيدة التوحيد، وصيانتها من خطر السقوط.

إن هذا التدبير الذكي، والطريقة الحكيمة التي ابتكرها وأخذ بها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تُعتبر أكبر درس للمسلمين اليوم، ودائماً.

ولهذا يتوجب على قادة المسلمين المخلصين أن يعرفوا بكل ما يُحَاك - في بلاد الإسلام أو في غيرها من بلاد العالم - من مؤامرات ضد المسلمين، وما يدبر من حُطط لتقويض دعائم الإسلام ويبادروا إلى إطفاء شرارات الفتن في مهدها، وقيل اشتعالها، وأن يسلكوا نفس المسلك الذي سلكه رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليحصلوا على ذات النتيجة، ولا شك أن مثل هذا العمل لا يتيسر من دون أجهزة مناسبة، ومن دون تشكيلات خاصة.

ولقد استطاع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في غزوة: «ذات السلاسل» الذي هو موضوع بحثنا الآن، أن يطفئ نار الفتنة عن طريق استخدام المعلومات الدقيقة التي حصل عليها عن العدو.

ولو أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أغلق على نفسه هذا الباب لتحمل خسائر لا تُجبر، ولتعرضت الكثير من جهوده المباركة في سبيل نشر الدعوة الإسلامية لخطر الفشل والإخفاق.

تفاصيل هذه الغزوة:

لقد أبلغ العيون وعناصر المخابرات الإسلامية رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن آفاقاً من الناس قد تحالفوا وتعاهدوا في ما بينهم في منطقة تدعى ب: «وادي اليباس» على التوجه إلى المدينة المنورة للقضاء على الإسلام بكل ما لديهم من قوة، فإما أن يُقتلوا في هذا السبيل، أو يقتلوا «محمداً» أو فارسه البطل الفاتح

(455)

«علي بن أبي طالب!!»

ويقول علي بن إبراهيم في تفسيره: «نزل جبرئيل على محمد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخبره بقصتهم، وما تعاهدوا عليه وتوآثفوا⁽¹⁾»

غير أن شيخ الشيعة ومحققهم الكبير المرحوم «الشيخ المفيد» (المتوفى عام ٤١٣ هـ) يقول: بأن أعرابياً جاء إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وأخبره باجتماع قوم من العرب بوادي الرمل⁽²⁾ للتآمر عليه، وعلى الإسلام، (واضاف) بأنهم يعملون على أن يبيتوه بالمدينة. (3)

فرأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يُطلع المسلمين على هذا الأمر، فأمر مؤذنه بان ينادي: الصلاة جامعة وهي جملة كان يراد منها اجتماع الناس للصلاة واستماع أمر مهمّ وذو بال.

فعلا مؤذن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مكاناً مرتفعاً ونادى: الصلاة جامعة، فسارع المسلمون إلى الاجتماع في مسجد النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثم رقى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المنبر وقال في ما قال:

«أيها الناس، إنّ هذا عدوّ الله وعدوّكم قد عمل على أن يبيتكم فمنّ لهم؟»

فانتدب جماعة أنفسهم لهذا الأمر، وأمر عليهم النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أبابكر، فتوجه أبوبكر بتلك المجموعة إلى قبيلة «بني سليم»، ولما سار بهم مسافة واجه أرضاً خشنة وكانت قبيلة «بني سليم» تسكن في شعب واسع، فلما أراد المقاتلون المسلمون ان يندحروا إلى الشعب عارضهم بنو سليم وقاموهم، فلم ير قائد المجموعة بدأً من الانسحاب بمجموعته والرجوع بهم من حيث أتى!!

1- تفسير علي بن ابراهيم: ٢ / ٣٣٤ سورة العاديات.
2- يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ وادي الرمل هو وادي اليايس نفسه. وذلك للمناسبة بين الوصفين.
3- الارشاد: ص ٨٦.

يقول علي بن ابراهيم في تفسيره: قالوا (أي بني سليم لابي بكر): ما أقدمك علينا؟

قال: أمرني رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن أعرض عليكم الاسلام فان تدخلوا فيما دخل فيه المسلمون لكم مالهم، وعليكم ما عليهم، وإلا فالحربُ بيننا وبينكم.

فهذّه زعماء تلك القبيلة - وهم يباهون بكثرة رجالهم ومقاتليهم - بقتله وقتل من معه، فأرعب لتهديدهم وعاد بجماعته إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رغم أن أفرادهم كانوا يصرون على مقاتلة بني سليم تنفيذاً لأوامر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - !!

ولقد أزعجت عودة الجيش الإسلامي بهذه الصورة المهينة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فأمر عمر بن الخطاب أن يتولى قيادة تلك المجموعة ويتوجه بها إلى «وادي الياض»، ففعل عمر ذلك.

ولكن العدو كان قد ازداد - هذه المرة - يقظة وتحسباً فكمن عناصره عند فم الوادي، واختبأوا وراء الأحجار والأشجار بحيث يرون المسلمين، ولا يراهم من المسلمين أحد.

ولهذا خرجوا على المسلمين بغتةً عندما حلّ الجيش الإسلامي بذلك الوادي، وقابلوهم ببسالة وشجاعة، فأمر قائد المجموعة الإسلامية أفرادها بالانسحاب، وعاد بهم إلى المدينة مهزوماً مذعوراً كسابقه، فلقي من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما لقيه صاحبه من قبل من الاستياء، والكراهية.

وهنا قال عمرو بن العاص وكان من دهاة العرب وساسته الماكرين، وقد كان يومئذ قريب عهد بالاسلام: إبعثني يا رسول الله اليهم، فإن الحرب خدعة، فلعلّي أخدعهم!

فانفذه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مع جماعة ووصّاه فلما صار إلى الوادي خرج إليه بنو سليم فهزموه، وقتلوا من أصحابه جماعة!

(457)

الإمام عليّ ينتدب لقيادة العملية:

هذه الهزائم المتلاحقة أزعجت المسلمين وأحزنتهم بشدة فعمد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى تنظيم مجموعة جديدة واختار لقيادتها «عليّ بن أبي طالب»، وأعطاه راية.

وطلب عليّ - عليه السّلام - من زوجته «فاطمة» بنت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن تأتي له بالعصابة التي كان يشدها على جبينه في اللحظات الصعبة، فتعصّب بها، فحزنت «فاطمة» لمنظر زوجها وهو يتوجه بمثل هذه الصورة إلى «وادي الياض» للقيام بأمر خطير، وبكت إشفافاً عليه، فسأها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهذاها، ومسح الدموع عن عينيها.⁽¹⁾

ثم أتته - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - شيع عليّاً حتّى بلغ معه مسجد الأحزاب، وعليّ راكب على فرس أبلق، وقد لبس بردين يمانيين، وحمل رمحاً هندياً بيده.

ثم توجه علي - عليه السّلام - بإفراده نحو الهدف، إلا أنه سلك طريقاً غير الطريق المعروفة ليعمي على العدو، حتّى أن الذين خرجوا معه تصوّروا أنه يقصد العراق، وقد قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في علي - عليه السّلام - حينما وجهه لهذه المهمة:

«أرسلته كراراً غير فرار.»

إن تخصيص «عليّ» - عليه السّلام - بهذه الجملة يكشف عن أن القادة الذين سبقوه في هذه الحادثة لم ينسحبوا فقط، بل كان انسحابهم مقروناً بالهزيمة القبيحة.

* * *

عوامل انتصار الامام عليّ في هذه الموقعة:

هذا ويمكن أن نلخص عوامل انتصار الامام عليّ - عليه السّلام - في هذه الموقعة

[1-بحار الأنوار: ٢١ / ٨١ ، الارشاد: ٨٧.

(458)

في ثلاثة أمور اساسية هي:

1- أنه - عليه السّلام - أخفى مسيره ووجهته على العدو، فلم يشعر العدو بوجهته ومقصده، لأنه غير مسيره حتى لا يعرف العدو به بواسطة الأعراب من سكان البادية.

2- أنه - عليه السّلام - اتبع مبدءاً هاماً من مبادئ العمل العسكري، واستخدم تكتيكاً مهماً من التكتيكات الحربية وهو: مبدأ الكتمان والتستر، فقد كان - عليه السّلام - يسير بأفراده ليلاً، ويكمن نهاراً، يستريح خلاله.

وهكذا حتى دنا من ارض العدو، وقبل أن يصل فم الوادي أمر جنوده بالنزول والاستراحة لاستعادة نشاطهم من جهة، ولكي لا يحس العدو بمجيئهم من جهة أخرى.

ولهذا السبب الأخير نفسه أمر - عليه السّلام - جنوده بان يكفوا أفواه خيولهم حتى لا يشعر العدو بوجودهم بصهيلها.

وعند الفجر صلى «عليّ» - عليه السّلام - بجنوده صلاة الصبح، ثم صعد بهم الجبل حتى وصل إلى القمة، ثم انحدر بهم - بسرعة فائقة - إلى الوادي حيث يسكن «بنو سليم» فحاطوا بهم وهم نيام، فلم يستيقظوا إلا وقد حاصرهم المسلمون، فاستروا منهم فريقاً، وفرّ آخرون.

3- شجاعة «عليّ» - عليه السّلام - وبسالته النادرة فهو الذي قتل الشجعان الاربعة المعروفين في تلك الموقعة فأرعب العدو إرعباً

شديداً فقد معه القدرة على المقاومة في وجه عليّ - عليه السّلام - ففرّ تاركاً وراءه شيئاً كثيراً من الغنائم.⁽¹⁾

ولقد عاد بطلُ الإسلام الظافر إلى المدينة بفتح لا سابق له، فخرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في جماعة من أصحابه لاستقباله، واستقبال من معه من جنود الإسلام.

- [تفسير فرات الكوفي: ٢٢٢ - ٢٢٦، مجمع البيان: ١٠ / ٥٣٨.

(459)

وما أن وقعت عينا القائد الفاتح على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حتَّى ترَجَّل من فرسه فوراً، فقال له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو يربت على كتفه:

«إركبُ فإنَّ اللهَ ورسوله عنك راضيان.»

وفي هذه اللحظة بالذات اغرورقت عينا «عليّ» - عليه السَّلَام - بالدموع استبشاراً فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في شأن «عليّ» - عليه السَّلَام - قولته المعروفة:

«يا عليّ لولا أنّي أشفقُ أن تقولَ فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في المسيح لقلْتُ فيك اليوم مقالا لا تمرُّ بمأى من الناس إلّا اخذوا التراب من تحت قدميك.⁽¹⁾»

ولقد بلغت تضحية «عليّ» - عليه السَّلَام - وبسالته، وشجاعته في هذه الواقعة من الأهمية بحيث نزلت فيها سورة كاملة هي سورة العاديات التي يقول سبحانه فيها:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوسَطْنَ بِهِ جَمْعاً.)

إن القسم بخيول الغزاة المغيرين صباحاً، والمشعلين بحوافرها شرارات الفتح والانتصار.

إنَّ هذا القسم الحماسيَّ الجميل لهُو تكريمٌ رائعٌ لبطولات جنود الإسلام في هذه العملية الظافرة، واكبارٌ بروحهم القتالية العالية.

إعترض وجواب

هذا ولقد اعترض بعض الملحدين ذات مرّة على هذا النوع من الأيمان

- [الإرشاد: ص ٨٤ - ٨٦.

(460)

والأقسام في القرآن الكريم وقال ساخرأ: وماذا يعني القَسَم بالخيل الضابحة، العادية، والشرارات المنقحة من حوافرها؟!!

ولقد غاب عن هذا الملحد أن القَسَم بخيل الغزاة المجاهدين أو القسم بالشرارات المنقحة من حوافرها بسبب احتكاكها بالصخور في أرض المعركة إنما هو إشعارٌ بأهمية الجهاد ضد الظالمين أعداء البشرية.

إنّ مثل هؤلاء الجنود البواسل ليسوا وحدهم الذين يحظون - في نظر الإسلام - بمنزلة رفيعة ومكانة عالية، بل خيولهم التي تحملهم في هذا الجهاد المقدّس، وكذا الشرارات التي تنقح من حوافرها تحظى بالقداسة والأهمية أيضاً.

واية قيمة - ترى - أعلى من محاربة الظالمين الجائرين، وانقاذ البشرية من براثن ظلمهم وجورهم، ومن حيفهم وعسفهم؟!

إنّ مثل هؤلاء وما يمكنهم من أهدافهم من الأدوات، والوسائل مقدّسون جمعياً، لأنهم يحررون - بجهادهم - الانسان من قيود الطغاة، الظالمين، ويمهدون لحاكمية الله في الأرض، وأي هدف أعلى واعظم قدسية من هذا الهدف؟

ولقد دعا القرآن الكريم المؤمنين - من خلال تقديس خيول المجاهدين وضبحها وعدوها وشرارات حوافرها - إلى العناية بالجهاد دائماً، وإلى تجميع قواهم، والاستعداد لكسر القيود التي ترزح على ايدي البشرية وأرجلها وعقولها، وإلى تحطيم القلاع التي ضربها الطغاة على الشعوب المغلوب على امرها.

أجل؛ إن فرق التحرير والجهاد الإسلامية لا تستحق وحدها التقديس والاكبار بل تستحق خيولها ومراكبها، وشرارات حوافرها التقديس كذلك.

ولقد استبدلت تلك الخيول هذا اليوم بالدبابات والطائرات فهي مقدسة أيضاً، كما كانت خيول الغزاة والمجاهدين في عصر الرسالة، كما وأن أزيد محرقاتها، هو الآخر يحظى بالتقديس كما كانت أنفاس الخيول تحظى بالتقديس في عصر الرسالة لأنها تحقق ذات الهدف، ونفس الغاية المقدسة وهي: تحرير الإنسان من براثن الظلم والطغيان.

(461)

هذا هو ملخص غزوة «ذات السلاسل» التي سجّلها وضبطها مفسّرو الشيعة، ومؤرّخوهم، ورَوّوها بأسناد صحيحة.

غير أن مؤرّخي أهل السنة كالطبري⁽¹⁾ روى هذه الواقعة بنحو آخر يختلف عما ذكرناه هنا، اختلافاً شاسعاً.

ولا يبعد أن يكون «ذات السلاسل» إسمًا لغزوتين نقل كل واحد من الفريقين: «السنة والشيعة» واحدة منها، وأعرض عن ذكر الأخرى لأسباب خاصة.

(462)

٤٩ فَتْحُ مَكَّةَ

قصة «فتح مكة» من قضايا التاريخ الاسلامي الجديرة بالمطالعة والتأمل، لما تنطوي عليه هذه الحادثة من دروس وعبر، ولكونها تعكس - بصدق وجلاء - أهداف رسول الإسلام - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - المقدسة، كما تشكف عن أخلاقه العالية، وسيرته الحسنة، وأسلوبه الانساني مع الصديق، والعدو.

ففي هذا الفصل من التاريخ يتجلى ما كان يتحلى به خاتم الانبياء - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من صدق ووفاء، كما يتبين صدق أصحابه، ووفائهم، واحترامهم لكل ماتعهدوا، والتزموا به للخصم في معاهدة «صلح الحديبية»، بينما يتضح من جانب آخر نفاق المشركين من قريش، وخيانتهم في تنفيذ بنود اتفاقية الصلح، وبالتالي نقضهم للعهد وبالتالي عدم احترامهم لأى شيء من الالتزامات!!

إن دراسة هذا الفصل تثبت لناحنكة النبي، وحسن تدبيره، وسياسته الحكيمة في فتح أصعب وأخر قلعة من قلاع العدو الكافر، المتصلب في شركه، وكفره، والتمادي في عناده وتعسفه، وكان هذا الرجل الألهي قد أمضى شطراً من حياته في إحدى المعاهد العسكرية العليا، فهو يخطط افضل من أي قائد محنك قدير، للفتح، ويكون تخطيطه من الدقة والمتانة، والعمق والحكمة، بحيث يصيب المسلمون فتحاً عظيماً بأقل قدر من المتاعب والمشاكل.

وبالتالي يتجلى في هذا القسم من التاريخ الاسلامي الوجه الانساني الرحيم الذي كان يتسم به رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - الذي كان يحرص على دماء

(463)

أعداء الرسالة الالاء، وأموالهم، ويسعى إلى حفظها وصيانتها، كما لو كانوا أصدقاء لا أعداء.

فهو يعفو بمرودة كبيرة، ويعد مدى واسع، ورؤية مستقبلية عميقة عن قريش، ويغفر لهم جرائمهم وأذاهم ويصدر عفواً عاماً لم يعرف له تاريخ الفاتحين نظيراً في أسبابه، وعلله، وفي ظروفه وملابساته.

واليك تفاصيل هذه الحادثة الكبرى من بدايتها إلى نهايتها.

تفاصيل فتح مكة:

لقد قرأنا في ما مضى أنّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عقدَ في السنة السادسة معاهدة صلح مع قريش، نصّت المادةُ الثالثة منها على: أنّ لكل من قريش والمسلمين أن يتحالفوا مع من شأؤوا من القبائل، فتحالفت «خزاعة» مع المسلمين، وتعهّد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لخزاعة في هذا التحالف بان يدافع عن أرضهم وأموالهم وأنفسهم كلما تعرّضوا لخطر، وطلبوا ذلك.

وتحالفت قبيلة «بني كنانة» - وكانوا من أعداء خزاعة التقليديين - مع قريش.

ولقد تمّ كلّ هذا في ضوء عقد معاهدة صلح مدّتها عشرُ سنوات تعهّد فيها الطرفان بالحفاظ على الأمن الاجتماعي، والسلام الشامل في كافة أرجاء الجزيرة العربية.

ولقد تعهّد الطرفان - في هذه المعاهدة - بأن لا يقوم أيّ واحد منهما بعمليات عسكرية وتحركات عدائية، لاضدّ الآخر، ولا ضدّ حليف الطرف الآخر، كما لا يحرك حليفه ضد حليف الطرف الآخر.

ولقد انقضت سنتان من تاريخ التوقيع على هذه المعاهدة، وعاش الجانبان في هذه الفترة في سلام ورفاه، وأمن وإستقرار إلى درجة أنّ المسلمين، استطاعوا - بعد مضيّ سنة واحدة من التوقيع على تلك المعاهدة، أن يزوروا - بكامل

(464)

حريتهم - بيت الله الحرام، في مكة المكرمة، ويؤدوا مناسك العمرة أمام عُيون الألاف من أعدائهم الوثنيين وهي العمرة التي سميت بعدنّذ بعمره القضاء كما عرفت.

* * *

ولقد بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة كتيبة قوامها ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة ثلاثة فرسان من أركان جيشه، إلى تخوم الشام وحدودها، لمعاقبة وتأييب المتمردين والجنّة من ولاة الروم وعمّالهم فيها، وبالضبط أولئك الذين قتلوا دعاة الإسلام - الذين ابتعثهم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - للدعوة والتبليغ - من دون ذنب أو جرم.

والجيش الإسلامي وإن استطاع أن ينجو بنفسه من هذه المعركة، ويخرج منها بسلام، من دون أن تكلفه تلك المواجهة خسائر كبرى في الأرواح سوى ثلاثة هم قادة الجيش - على ما مر في قصة غزوة مؤتة - إلاّ أنه ما عاد بانتصار باهر كان يأمله جنود الإسلام المجاهدون، بل كانت العملية في هذا المعركة اشبه ما تكون بعملية الكرّ والفرّ.

وقد أوجب انتشار هذا النبأ جرأة سادة قريش وسراتها، فقد تصوروا أن المسلمين تضاءلت فيهم (أو انعدمت) روحُ الفروسية والاقدام، وروح الشجاعة والبسالة.

من هنا قرّرت قريش أن تخلّ بالأمن والهدوء اللذين استتبّا بعد إتفاقية الحديبية، فبادرت - أولاً - إلى توزيع الأسلحة على قبيلة «بني بكر» من كنانة، وإلى تحريضهم على أن يبيتوا «خزاعة» المتحالفين مع المسلمين، فيغيروا عليهم ليلاً، ويقتلوا فريقاً، ويأسروا آخرين!!

بل لم تكتف قريش بهذا، إنما اشترك جماعة من رجالها في هذا العمل الغادر بصورة مباشرة، وبذلك نقضوا عهدهم الذي أعطوه في الحديبية، وأحلّوا عملياً بالأمن والسلام، وأحلّوا الفوضى والقتال، مكان الاستقرار والهدوء اللذين سادا الجزيرة خلال عامين في أعقاب عقد معاهدة الحديبية!

(465)

أجل، لقد حملت «بنوبكر» ومن ساعدهم من رجال قريش بتحريك من زعامة مكة على «خزاعة» ليلاً، وكان بعضهم نياماً، والبعض الآخر يتهدد ويعبد الله ليلاً، فقتلوا من خزاعة جماعة، وأسروا آخرين، وغادر - منهم - فريقٌ منازلهم تحت جناح الظلام، ولجأوا إلى مكة التي كانت للعرب يومئذ منطقة أمن لا يجيزون الاعتداء فيها على لا جئ إليها، ودخل الذين لجأوا إلى الحرم دار «بُديل بن ورقاء»⁽¹⁾ «وشكوا إليه ما حلَّ بهم على أيدي رجال قريش، وحلفائهم من بني كنانة ليلاً، من قتل وأسر وتشريد!!

كما وعدَّ المظلومون من خزاعة إبلاغ مظلمتهم إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فارسلوا رئيسهم: «عمرو بن سالم» فقدم المدينة على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فوقف عليه وهو - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جالساً في المسجد بين ظهرايين الناس، وأخبره بما لحق بحلفائه من خزاعة على أيدي بني بكر من كنانة بتحريك وتحريض من قريش، وأنشد أبياتاً يستغيث فيها برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إذ قال:

يا ربّ إني ناشدُ محمّداً * جلف أبينا وأبيه الاتلدا

فأنصُرْ هَداك الله نصرأ أعتدا * وأدغ عباد الله يأتوا مددا

فيهم رسول الله قد تجردا * إن سيم خسفاً وجهه تربدا

في فيلق كالبحر يجري مزبدا * إن قريشاً اخلفوك الموعدا

ونَقَضُوا ميثاقك المؤكدا * وجعلوا لي في كداء رسدا

هم بيتونا بالوتير هُجدا * وقتلونا ركعاً وسُجداً

وقد كان «ابن سالم» يعيد البيت الأخير ويكرّره إثارة لمشاعر المسلمين، ويكرّر عبارة: فُئلنا وقد أسلمنا.

- [كان يُدِيل من شخصيات «خزاعة» من ذوي السن والشرف فيهم، وكان يعيش في مكة، وكان له من العمر آنذاك ٩٧ عاماً (أمالي الطوسي: ٢٣٩).

(466)

فانزعج رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من قريش لغيرها ونقضها للعهد، ووعد «خزاعة» بالنصرة، وقال:

«نُصِرْتُ يَا عَمْرُو بْنَ سَالِمٍ.»

وقد أفاض هذا الوعد القاطع والقوي حالة من الطمأنينة على قلب مبعوث خزاعة: «عمرو بن سالم» إذ قد تيقن أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - سينتقم لخزاعة ممن غدروها بها وبيتوها، وفتكوا بأبنائها، وبخاصة من قريش التي حرّضت بني بكر على خزاعة، واشعلت شرارة هذه الفتنة، وبالتالي كانت السبب الحقيقي وراء هذه الجريمة النكراء، ولكن ابن سالم ما كان يظن أن هذه المسألة ستنتهي بفتح مكة، وتقويض دعائم الحكومة الوثنية الجاهلية، والقضاء عليها إلى الأبد!!

ولم يلبث أن قدم المدينة على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - «بُدَيْل بن ورقاء» في جماعة من «خزاعة»، وأخبروه بما فعلته قريش وبنو بكر من قتل فتيان خزاعة، ثم عادوا قافلين إلى مكة.

قريشٌ تتوجس خيفة من ردّ النبي:

ندمت قريش بشدة على ما صنعت من تأليب بني بكر على خزاعة ومساعدتهم العملية في العدوان على الأخيرة، وأدركت للتوّ، بأنّ هذا الذي صنعتُهُ هو نقضٌ للمُدة والعهد الذي بينهم وبين رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، وأنّ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لن يدع هذه الجريمة النكراء تمرّ دون ردّ قاطع وحاسم، ولهذا بادرت إلى إيفاد زعيمها «أبي سفيان بن حرب بن أمية» إلى المدينة المنورة لتطبيب خاطر النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، وتسكين غضبه وتأكيد إحترام قريش لمعاهدة الصلح.

فتوجّه أبو سفيان إلى المدينة، والتقى في «عسفان» بدیل بن ورقاء الخزاعي وهو عائدٌ من المدينة، فسأله: هل كان في المدينة؟ وهل أخبر محمّداً بما أصاب

(467)

خزاعة؟

فقال بُدَيْل: لا، ولكني سرتُ في بلاد كعب وخزاعة في قتيل كان بينهم، فأصلحتُ بينهم.

قال هذا، وواصل سيره باتجاه مكة.

ولكن أبوسفیان عمد - لمعرفة ما إذا كان بُدَيْل عائداً من المدينة أولاً - إلى أبعاد لإبل «بُدَيْل» وجماعته، ففتَّها فوجد فيها نوى من تمر المدينة فايقن بأن القوم كانوا في المدينة وأنهم جاؤوا محمّداً، وأخبروه بما جرى.

قدم أبوسفیان المدينة فدخل على ابنته «أم حبيبة» زوجة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فلما أراد أن يجلس على فراش رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - طوته أم حبيبة عنه، فقال: يا بِنْتِ ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟! قالت: بل هو فراش رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأنت رجلٌ مشرّكٌ نجسٌ، ولم أحبُّ أن تجلس على فراش رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

وفي امتاع الاسماع أن ابا سفيان لما دخل على ابنته أم حبيبة ذهب ليجلس على فراش رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فطوته دونه وقالت: أنت امرؤٌ نجس مشرّك!

فقال: يا بنية! لقد أصابك بعدي شرٌّ.

قالت: هداني الله للاسلام، وأنت يا أبتي سيد قريش وكبيرها، كيف يسقطُ عنك دخولك في الإسلام وانت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر!!

قال: يا عجباه! وهذا منك أيضاً! أأترك ما كان يعبد آبائي، وأتبع دين محمّد؟!

أجل هذا هو منطق ابنة رجل حاك مؤامرات عديدة وقاد جيوشاً ضد الإسلام طيلة عشرين عاماً تقريباً، وكانت تربطه بأُم حبيبة رابطة الأبوة والبنوة الوثيقة، ولكن حيث أن تلك المرأة ترعرعت في مهد السلام، ونشأت في مدرسة

التوحيد حصل لها مشاعر دينية قوية جداً حتّى أنها رجحت المشاعر الدينية على المشاعر العاطفية الشخصية مقاومة في هذا السبيل رغباتها الذاتية، وميولها الشخصية.

لقد أنزعج أبو سفيان من سلوك ابنته التي كان يتصور أنها ملجأه وملاذئه الوحيد في المدينة، فخرج من منزلها فوراً، حتى أتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فكلمه حول تجديد العهد، واستمراره، فلم يرد عليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كناية عن عدم اعتناؤه به.

فذهب إلى بعض أصحابه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يطلب منهم ان يشفعوا له عند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأن يُقنعوه بتجديد ميثاق الصلح، ولكن دون جدوى.

وأخيراً دخل على «علي بن أبي طالب» وعنده فاطمة الزهراء عليها السلام (والحسن والحسين) وهما آنذاك غلامان يديان بين أيديهما فقال: يا علي، أنك أمس القوم فؤاً رَحماً، وإنني جنثٌ في حاجة فلا أرجعُ كما جنثٌ خائباً فاشفع لي إلى رسول الله.

فقال عليّ - عليه السلام - : ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على أمر ما نستطيع أن نكلّمه فيه.

فالتفت إلى فاطمة - وهو يحاول إثارتها عاطفياً - فقال: يا ابنة محمد هل لك أن تأمري بُنَيْكَ هذا فيجبر بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟

ولما كانت فاطمة عليها السلام (تعرف بنوايا أبي سفيان الشريرة لذلك قالت: ذلك إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - - إنهما صبيان وليس مثلهما يجبر.⁽¹⁾

فقال أبو سفيان: يا أبا الحسن إنني أرى الأمور قد اشتدت عليّ، فانصحنى.

فقال عليّ - عليه السلام - : ما أجد لك شيئاً أمثل من أن تقوم فتجبر بين

[1] امتاع الاسماع: ١ / ٣٥٩.

الناس (أي تعطي الأمان للمسلمين) ثم إلحق بأرضك.

فقال أبو سفيان: أوترى ذلك مُغنياً عني شيئاً؟ قال: لا والله، ما أظنّه، ولكني لا أجد لك غير هذا.

فقام أبو سفيان في المسجد، وكان يثق بصدق عليّ في نصيحته، فقال: أيها الناس؛ إنني قد أجزتُ بين الناس.

ثم ركب بغيره، وأطلق راجعاً إلى مكة، وأخبر سادة قريش بما صنع، وذكر نصيحة «عليّ» إياه، فقال: إنّ عليّاً نصحني أن أجبر الناس، فناديت بالجوار. فقالوا: فهل أجاز ذلك محمّد؟

قال: لا.

قالوا: ويلك والله ما زاد الرجلُ (ويقصدون عليّاً) على أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت، لأن النبي لم يجز أمانه، وما لا يجيزه الطرفان لا قيمة له في ميزان العهود.

ثم إنّ سادة قريش عقدوا مجلساً من فورهم للتشاور في ما يطفي غضب المسلمين، ويثني رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - عن عزمه (1).

جاسوسٌ يُكتشف!

إنّ تاريخ رسول الإسلام - صلّى الله عليه وآله وسلم - يكشف عن انه - صلّى الله عليه وآله وسلم - كان يسعى دائماً إلى أن يُقعّ العدو بالحق، ويجعله يستسلم لمنطق الدين، ولم يكن يهدف قط الانتقام من العدو وأبادته.

ففي الكثير من الغزوات والمعارك التي شارك فيها - صلّى الله عليه وآله وسلم - بنفسه أو سرايا التي بعثها كان الهدف الأساسي هو القضاء على مؤامرة العدو، وإفشالها، وتشتيت شمله، وتفريق اجتماعه قبل ان يقوم بعمل يضر بالإسلام

- [المغازي: ٢ / ٧٨٠ - ٧٩٤، السيرة النبوية: ٢ / ٣٨٩ - ٣٩٧، بحار الأنوار: ٢١ / ١٠٢].

(470)

والمسلمين، فقد كان النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - يعرف جيداً أنه لو أزيلت الموانع ورُفعت عن طريق الدعوة الإسلامية لترك منطق الدين الحنيف أثره في المجتمع الحرّ، وكان يعلم بأن الذين يعقدون الاجتماعات، ويقومون التحالفات العسكرية ليحولوا دون تقدم الإسلام وانتشاره، لو جُرّدوا من أسلحتهم، وأنهيت حالة الحرب بينهم وبين الإسلام وتركوا فكرة التغلب على الإسلام عن طريق القوة العسكرية، وسمعوا منطق الإسلام في جوّ بعيد عن صخب القتال، لا نجذبوا إلى عقيدة التوحيد بدافع الفطرة وهدايتها، ولاستجابوا لنداء الضمير، وصاروا من أنصار الإسلام ومؤيديه المخلصين الأوفياء.

ولهذا السبب كانت الجماعات والاقوام التي يتغلب عليهم جنود الإسلام ثم يتسنى لهم مناخ التفكير الحرّ في العقيدة والتعاليم الإسلامية السامية في جوّ بعيد عن الضوضاء والصخب، تنجذب إلى الإسلام وترغب فيه، وتعتنق بل تشمّر عن ساعد الجدّ لنشر العقيدة الإسلامية التوحيدية.

وقد تجلّت هذه الحقيقة في موضوعنا الراهن وهو فتح مكة بصورة أكمل وأقوى، فقد كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يدرك جيداً لو أنه فُتِحَت مكة، وجُزِد العدو من السلاح ووفرت أجواء حرة آمنة بعيدة عن الكبت والاضطهاد فإنه لم يلبث أن يصبح هذا الفريق المعادي والمناهض للإسلام بشدة، من أنصار هذا الدين، ومن المجاهدين الصادقين، الساعين في نشره.

ولهذا يجب التغلب على هذا العدو، وكسر شوكته، ولكن يجب عدم إفناؤه وإبادته، بل ينبغي تجنب إراقة الدماء، وازهاق الأرواح ما أمكن.

ولأجل الوصول إلى هذه الغاية المقدسة (الغلبة على العدو من دون إراقة الدماء) استخدم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أسلوب مباغطة العدو.

فقبل أن يفكر العدو في الدفاع عن نفسه، ويجمع قواه، ويستعد للمواجهة، كان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يحاصر العدو في أرضه، ويجزده من سلاحه، ويجهض محاولته، ومؤمرته.

(471)

على أن مبدأ «مباغطة العدو» إنما يمكن الاستفادة منه إذا بقيت جميع الأسرار العسكرية للجانب المباغت طي الكتمان، وتمت الترتيبات اللازمة في سرية كاملة، بحيث لم يعرف بها العدو، بل لا يعرف العدو أساساً هل ينوي النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الهجوم عليه، أو لا، وعلى فرض أنه ينوي ذلك لا يخبر أحداً شيئاً عن موعد تحرك الجيش الإسلامي، ووجهته، إذ في غير هذه الصورة لا يمكن الاستفادة من مبدأ «مباغطة العدو».

ولقد أعلن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن التعبئة العامة لفتح مكة، وتحطيم أقوى قلعة من قلاع الوثنية وازالة حكومة قريش الظالمة التي كانت تمثّل أقوى مانع في طريق تقدم الدعوة الإسلامية وانتشارها وتوسعها، وقد طلب من الله سبحانه في دعائه أن يعي على عيون قريش وجواسيسهم فلا يعرفوا بشيء عن حركة المسلمين ومقصدهم إذ قال: «اللهم خذ العيون والأخبار من قريش حتى نباغتها في بلادها»⁽¹⁾.

أو قال: «اللهم خذ على قريش أبصارهم، فلا يروني إلا بغتة، ولا يسمعون بي إلا فجأة»⁽²⁾.

فاجتمع في مطلع شهر رمضان ناسٌ كثيرون من مختلف المناطق خارج المدينة، وداخلها.

ويذكر المؤرخون جدولاً تفصيلياً بالطوائف والقبائل التي شاركت في هذا الفتح العظيم، واليك ما ذكره:

المهاجرون: سبعمائة مع ثلاثمائة من الخيل وثلاثة ألوية.

الأنصار: أربعة آلاف مع سبعمائة من الخيل، وألوية كثيرة.

قبيلة مزينة: ألف مع مائة فرس، ومائة درع، ولواءان.

1- السيرة النبوية: ٢ / ٣٩٧.

2- المغازي: ٢ / ٧٩٦.

(472)

قبيلة جهينة: ثمانمائة مع خمسين فرساً، وأربعة ألوية.

قبيلة بني كعب: خمسمائة مع ثلاثة ألوية.

وكان بقية الجيش من قبائل غفار، واشجع، وبني سليم.⁽¹⁾

ويقول ابن هشام: كان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف من بني سليم سبع مائة، ويقول بعضهم: ألف، ومن بني

غفار اربع مائة، ومن أسلم أربع مائة، ومن مزينة ألف وثلاثمائة شخص، وسائرهم من قريش، والأنصار وحلفائهم وطوائف العرب

من تميم، وقيس وأسد.⁽²⁾

ولتحقيق مبدأ المباغته والكتمان وضعت جميع الطرق المؤدية إلى مكة تحت المراقبة الشديدة من قبل عناصر الحكومة الإسلامية

كما روقب بشدة تردد المارة والمسافرين بواسطة الحرس.⁽³⁾

وبينما كان جيش الإسلام يتهيأ للتحرك باتجاه مكة، نزل جبرئيل على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وأخبره بأن أحد

البسطاء من المسلمين أقدم على إرسال كتاب إلى قريش، يخبرهم فيه بتوجه النبي وأصحابه إلى مكة، وأنه أعطى ذلك الكتاب إلى

أمرأة تدعى «سارة» - وكانت مغنية من مغنيات مكة - لتوصله إلى مكة لقاء مال تقبضه.

ولقد كانت «سارة» - كما أسلفنا - مغنية بمكة، تغني لأهل مكة، وربما شاركت في مجالس العزاء في قريش أيضاً، وقد تعطل عملها

بعد معركة «بدر»، ومقتل جماعة من رجال قريش، ودخول الحزن في كل بيوت مكة، فلم تعد تستطيع أن تغني وتطرب، من

ناحية، ومن ناحية أخرى كان أبوسفیان قد أمر الناس بأن لا يبكوا، ولا يقيموا المآتم والمناحات على قتلى بدر حتى لا يذهب

1- المغازي: ٢ / ٨٠٠، امتاع الاسماع: ١ / ٣٦٤.

2- السيرة النبوية: ٤ / ٦٣.

3- بحار الأنوار: ٢١ / ١٣٠، امتاع الاسماع: ١ / ٣٦١.

غِيضَهُمْ عَلَيَّ «مَحَمَّدٌ» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابَهُ الَّذِينَ قَتَلُوا رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ فِي بَدْرٍ .
 مِنْ هُنَا تَرَكْتُ «سَارَةَ» مَكَّةَ بَعْدَ عَامَيْنِ وَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ، وَعِنْدَمَا عَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بِمَجِيئِهَا إِلَى الْمَدِينَةِ
 سَأَلَهَا: هَلْ أَسْلَمْتَ؟ فَقَالَتْ: لَا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : وَلِمَا أَتَيْتِ إِلَى الْمَدِينَةِ؟ فَقَالَتْ: إِنِّي مَوْلَاتُكُمْ، وَقَدْ
 أَصَابَنِي جَهْدٌ، وَأَتَيْتُكُمْ أَنْتَعَرِضُ لِمَعْرُوفِكُمْ.⁽¹⁾

فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فَكُسِيَتْ وَحُمِلَتْ وَجُهِرَتْ .

وَمَعَ أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ قَدْ شَمَلَهَا الْإِسْلَامُ بِلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ وَلَكِنهَا خَانَتْ النَّبِيَّ وَالْمُسْلِمِينَ عِنْدَمَا تَطَوَّعَتْ لِلْقِيَامِ بِعَمَلِيَّةٍ جَاسُوسِيَّةٍ ضِدَّ
 الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ بِأَخْذِ كِتَابِ «حَاطِبِ بْنِ بَلْتَعَةَ» وَإِخْفَانِهِ فِي شَعْرِ رَأْسِهَا لِتُبَلِّغَهُ إِلَى قُرَيْشٍ لِقَاءِ عَشْرَةِ دَرَاهِمٍ، مَفْشِيَّةً بِذَلِكَ سِرًّا
 لِلْمُسْلِمِينَ، تَضِيْعٌ - عَلَى أَثَرِهِ - جُهُودِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَتَفْشَلِ خَطَّتِهِ!!

وَلَمَّا عَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بِهَذَا الْأَمْرِ إِثْرَ خَيْرٍ مِنَ السَّمَاءِ بَعَثَ ثَلَاثَ رِجَالٍ مِنْ فَرَسَانِهِ الْإِشَاوَسِ هُمَ عَلِيٌّ
 وَالْمِقْدَادُ وَالزُّبَيْرُ، لِيَدْرِكُوا الْمَرْأَةَ الْخَائِنَةَ، عَلَى طَرِيقِ مَكَّةَ وَيَأْخُذُوا مِنْهَا ذَلِكَ الْكِتَابَ الَّذِي يَحْدُرُ قُرَيْشًا مِمَّا أَجْمَعَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عَلَيْهِ .

فَخَرَجَ الرِّجَالُ الثَّلَاثَةُ فِي طَلْبِهَا مَجْدِينَ حَتَّى أَدْرِكُوهَا فِي مَنطِقَةٍ تَدْعَى «رُوضَةَ الْخَاخِ»⁽²⁾ «فَاسْتَنْزَلُوهَا، وَفَتَشَوْا عَنِ الْكِتَابِ فِي
 رِحْلِهَا فَلَمْ يَجِدُوا شَيْئًا، فَسَأَلُوهَا عَنْهُ فَانكَرَتْ فَقَالَ لَهَا عَلِيٌّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

«إِنِّي أَخْلِفُ بِاللَّهِ مَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَلَا كُذِّبْنَا، وَلَتُخْرِجَنَّ لَنَا هَذَا الْكِتَابَ أَوْ لَنَكْشِفَنَّكَ.»⁽³⁾

1- إبحار الأنوار: ٢١ / ١٣٦، امتاع الاسماع: ١ / ٣٦٢ و ٣٦٣ .

2- وقال ابن هشام: فادركوها بالخليقة (ج ٢ ص ٣٩٩).

3- السيرة النبوية: ٤ / ٤١، وذكر مؤلف الامتاع شخصين فقط هما الامام علي والزبير (ج ١ ص ٣٦٢).

وَلَمَّا رَأَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةَ هَذَا الْجِدِّ مِنْ عَلِيٍّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَكَانَتْ تَعْرِفُ أَنَّ عَلِيًّا لَا يَتْرُكُهَا حَتَّى يَنْقُذَ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قَالَتْ: إِعْرِضْ، فَأَعْرَضَ عَلِيٌّ، فَحَلَّتْ ضِفَائِرَ شَعْرِهَا فَاسْتَخْرَجَتْ الْكِتَابَ مِنْهَا، فَدَفَعَتْهُ إِلَيْهِ، فَآتَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - .

فَانزَعَجَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لِفِعْلِ «حَاطِبِ» وَكَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ السَّابِقِينَ، فَدَعَا مِنْ فُورِهِ وَقَالَ لَهُ عَاتِبًا
 وَمُسْتَفْهَمًا: يَا حَاطِبُ مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟

فحلف حاطب بالله ورسوله أنه لم يقصد شراً، وقال: يا رسول الله، أما والله إني لمؤمنٌ بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت، ولكي كنت امرأةً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولدٌ وأهلٌ فصانعتهم عليه!!

ويستفاد من اعتذار حاطب هذا أن أسياذ قريش كانوا يضغطون على من تخلف في مكة من أقارب المهاجرين وعوائلهم، ويؤذونهم، ولا يتركون أذاهم إلا إذا حصلوا منهم على أسرار المسلمين بالمدينة.

وهذا الاعتذار وإن كان غير وجيه، لأن ذلك لا يبرر إفشاء أسرار المسلمين لأعدائهم الحاقدين، غير أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - اصفح عنه، وخلي سبيله لمصالح معينة منها: سابقة «حاطب» في الإسلام.

إلا أن «عمر بن الخطاب» طلب من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يضرب عنقه، فقال له النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :
وما يُدريك يا غمرَ لعلَّ الله اطلعَ يومَ بدرٍ على أصحابِ بدرٍ فقال: أعملوا ما شئتمُ فقد غفرتُ لكم. (1)»

ولكي لا يتكرر مثل هذا العمل الخطر والاثم أنزل الله سبحانه قرآناً بهذا الشأن في عدة آيات إذ يقول:

[1- امتاع الاسماع: ١ / ٣٦٣ وغيره.

(475)

بسم الله الرحمن الرحيم

يا ايها الذين ءامنوا لا تتخذوا عدوي و عدوكم اولياء تلقون اليهم بالموءة و قد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول و
اياكم ان تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجنم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون اليهم بالموءة و انا اعلم بما اخفيتم و ما
اعلنتم و من يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل * ان يتفقوكم يكونوا لكم اعداء و يبسطوا اليكم ايديهم و انسنتهم بالسوء و ودوا
لو تكفروا * لن تنفعكم ارحامكم و لا اولادكم يوم القيمة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير * قد كانت لكم اسوة حسنة في
ابراهيم و الذين معه اذ قالوا لقومهم انا يراءوا منكم و مما تعبدون من دون الله كفرا بنا و بدا بيننا و بينكم العدة و البغضاء
ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده الا قول ابراهيم لآبيه لاسْتَغْفِرَنَّ لَكَ و ما املك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا و اليك انبنا و
اليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنَةً للذين كفروا و اغفر لنا ربنا انك انت العزيز الحكيم * لقد كان لكم فيهم اسوة حسنة لمن كان
يرجو الله و اليوم الآخر و من يقول فان الله هو الغني الحميد * عسى الله ان يجعل بينكم و بين الذين عاديتم منهم مودة و الله
قدير و الله غفور رحيم * لا ينهكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين و لم يخرجوكم من دياركم ان تبرؤهم و تقسطوا اليهم ان

اللَّهُ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلوَكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجوَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَ ظَهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ

مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. (1)

النبي يتحرك باتجاه مكة:

أخذاً بمبدأ «المباغثة» كتم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - موعد الحركة، ووجهتها، فلم يكن أحدٌ يعرف أين يريد رسول

الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على وجه التحديد. (2)

[1] الممتحنة: ١ - ٦، راجع السيرة النبوية: ٢ / ٣٩٩، مجمع البيان: ٩ / ٢٦٩ و ٢٧٠.
[2] المغازي: ٢ / ٨٠٢، الامتاع: ١ / ٣٦٢، قال: وأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الناس بالجهاز وطوى عنهم الوجه الذي يريد، فظانٌ يظنُّ أنه يريد الشام وظانٌ يظنُّ ثقيفاً وظانٌ يظنُّ هوازن.

(476)

وفي اليوم العاشر من شهر رمضان من السنة الثامنة أصدر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أوامره بالخروج، وكان قد أصدر أوامره للمسلمين كافة من قبل بالاستعداد والتهيؤ للخروج.

ثم أنه استخلف على المدينة رجلاً من بني غفار يدعى «أبارهم» ثم استعرض جيشه خارج المدينة على عادته.

ثم لما كان - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمكان يدعى «الكديد» طلب شيئاً من الماء امام المسلمين، وافطر به في تلك الساعة من النهار، وامر الجند بان يفطروا اقتداء به هم أيضاً.

فافطر اكثر المسلمين، وأمسك البعض ولم يفطر ظناً بأن الجهاد في حالة الصوم أفضل، واكبر أجراً، ولم يعرف هؤلاء السدج غير المفطرين، بان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الذي أمر بالافطار في شهر رمضان في تلك الحال، هونفسه الذي أمر بالصوم أيضاً.

فاذا كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قائد حق ودليل سعادة فانه - في كلتا الحالتين - يريد سعادة الناس، وينشد خيرهم، فلا معنى إذن لأن يطاع في أمره، ولا يطاع في نهيه.

ولهذا غضب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لامتناع ثلثة من المسلمين عن الإفطار كما أمر وقال عنهم: «أولئك العصاة». (1)!!

وأمرهم بأن يفطروا قاتلاً: «إنكم مُصْبِحُوا عَدُوِّكُمْ، وَالفَطْرُ أَقْوَى لَكُمْ.»

إنّ مثل هذا التقدم على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتجاهل أمره ما هو في الحقيقة إلا نوع من الانحراف عن الحق، وهو يكشف عن ضعف في ايمان الجماعة العاصية، المتمردة عن أمر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ولهذا نزل فيه قرآنٌ يلومهم، ويؤيخهم على عصيانهم إذ قال سبحانه:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (2)

1- وسائل الشيعة: ٧ / ١٢٤، السيرة الحلبية: ٣ / ٩٠، المغازي: ٢ / ٨٠٢.
2- الحجرات: ١.

(477)

هذا وقد كان «العباس بن عبدالمطلب» من المسلمين الذين بقوا، في مكة بأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليتجسس له الأخبار، ويطلعه على نوايا قريش، وخططهم أولاً بأول.

وقد تظاهر العباس - بعد فتح خيبر - بإسلامه - ولكنه بقي محافظاً على علاقاته بسادة قريش وزعمائها، فقرر أخيراً أن يكون آخر من يهاجر من بيوت المسلمين، فغادر مكة متوجهاً إلى المدينة، وصادف خروجه مسير رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى مكة، فالتقى ببعض الطريق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ولقد كان بقاء العباس بن عبدالمطلب في مكة بعد هجرة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مفيداً للجانبين: (قريش والمسلمين) فلو لم يكن العباس، ونشاطاته السياسية الذكيّة، لما تيسر فتح مكة من دون مقاومة قريش، ومن دون إراقة دماء وإزهاق نفوس.

من هنا لا يبعد أن يكون خروج العباس من مكة في تلك اللحظات والظروف الخطيرة قد كان هو الآخر بأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عليه وآله وسلم - لكي يستطيع القيام بدوره الإصلاحية، الذي سنأتي على ذكره قريباً.

العفو عند المقدرة:

لقد كانت سوابق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المشرفة، واخلاقه الحميدة، وصدقته وأمانته، طوال حياته من الأمور الواضحة المعلومة عند أقربائه، وأبناء عشيرته.

فقد كان الجميع يعلم بأن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يرتكب طيلة حياته الشريفة إثماً، ولم يفكر في ذنب، ولم ينو الاعتداء على أحد، ولم يُقلّ بلسانه سوءاً ولا قبيحاً، ولا خان في امانة، ولا افشى سراً ولا تخلف عن فضيلة.

ولهذا استجاب لدعوته - في الايام الاولى من دعوته العامة - الاكثرية الساحقة من قبيلته (بني هاشم)، والتفوا حوله، وتحملوا الدفاع عنه، ودعم

(478)

موافقه.

ولقد اشار أحد المستشرقين المنصفين إلى هذه الحقيقة، واعتبرها دليلاً على طهارة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وصدقته ونزاهته، فهو يقول: مهما كان المرء متكئاً متسترأ على اعماله وأفكاره فانه لا يستطيع بحال أن يخفي تفاصيل حياته عن ذويه واقربائه، ولو كان لمحمد حالات نفسية أو أفعال سيئة لما خفيت على أقربائه، ولما كانوا ينقادون إليه بمثل هذه السرعة. (1)

نعم يُستثنى من بني هاشم عدة أشخاص أحجموا عن الايمان برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والاستجابة لدعوته، ويمكن الإشارة - في هذا المجال - بعد أبي لهب المعروف بل والمصرح بعداوته في القرآن - إلى «أبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب» و «عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة» اللذين خاصما رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وعارضوا دعوته بشدة، ولم يكتفيا بعدم الايمان برسالته، بل منعا من انتشار الحق، وأذيا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - اشد الأذى وألبا عليه اكثر من أي شخص آخر.

ولقد كان أبوسفيان هذا ابن عم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - و أخاه من الرضاعة، وكان يآلف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قبل البعثة، ولكنه اختلف مع النبي بعد ابتعائه بالرسالة، وبنى على مخالفته ومعاداته. (2)

وأما عبدالله بن أبي أمية فهو أخو أم سلمة ابنة عاتكة عمه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وابنة عبدالمطلب.

ولقد حدى انتشار الإسلام في كل أنحاء الجزيرة العربية بهذين الرجلين إلى أن يخرجوا من مكة ويلتحقا بالمسلمين.

فقد خرجا قبيل الفتح من مكة، فلقيا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه في أثناء الطريق، وعلى وجه التحديد في نقطة تدعى بثنية العقاب،

1-الأبطال: لكارليل الانجليزي.
2-المغازي: ٢ / ٨٠٦ و ٨٠٧.

(479)

والنبي قاصد مكة، فاستأذنا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليدخلا عليه، وأصرّا على ذلك، فابى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يأذن لهما.

وقد وسطا أم سلمة، وطلبوا منها بلهجة عاطفية أن تشفع لهما عند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حتى يرضى عنهما، فكلّمته، فيهما، ولكن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أبى وقال:

«لا حاجة لي بهما، أما ابن عمّك عِرضي وأما ابن عمّتي وصهرتي فهو الذي قال بمكة ما قال. (1)»

ولما كان «عليّ» - عليه السّلام - أعرّف الناس بنفسيّة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخلاقه، وبطريقة استعطافه، فقد كلّمه أبوسفیان في الأمر، فعلمه علي بن أبي طالب - عليه السّلام - أن يأتي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من قبل وجهه فيقول:

(قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطين. (2))

فإن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سيجيبه بما قاله يوسف لاختوته إذ قال لهم:

(قال لا تتربّب عليكم اليوم يَغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. (3))

لأنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لا يرضى بأن يتفوق عليه أحدٌ في حسن القول.

ففعل أبوسفیان هذا ما أشار عليه الامام علي - عليه السّلام - ودخل من الطريق الذي بيّنه له، فعفا عنه رسول الله كما فعل يوسف باختوته، فانشد أبوسفیان قصيدة أراد بها أن يُكفّر عما سبق منه، قال فيها:

1- فهو ممن اقترح على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمكة أموراً غير معقولة، وقد جاء ذكر هذه المقترحات في الآيات: ٩٠ - ٩٣ من سورة الاسراء راجع مجمع البيان: ٦ / ٤٣٩ وأسد الغابة: ٥ / ٢١٣ و ٢١٤ .
2- يوسف: ٩١ .
3- يوسف: ٩٢ .

لعمرك إني يوم أحمل راية * لِتُعَلِّبَ خَيْلُ اللات خَيْلَ مُحَمَّد

فكالمُدْلِج الحيران أظلم ليّله * فهذا أواني حين أهدى فأهتدي (1)

ويكتب «ابن هشام» في سيرته قائلا: قال أبوسفیان ومعه ابنه، لما أعرض رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عنه وأبى أن

يأذن له: والله ليقبّلني، أو لأخذت بيد ابني هذا فلاذهيّن في الارض حتى أهلك عطشاً وجوعاً وأنت أحلم الناس مع رحمي بك. (2)

وقد سبق أن قالت أم سلمة لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقد كَلَّمته في أبي سفيان: بأبي أنت و أمي يا رسول الله ألم تقل:

أنَّ الإسلام يجبُ ما كان قبله؟ فرقَّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لهما، وأذن لهما، فدخلا، وقبل اسلامهما. (3)

تكتيك راع لجيش الإسلام:

تقع «مَرَّ الظهران» على بُعد عدة كيلومترات من مكة المكرمة، وقد قاد رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جيشه العظيم (وقوامه عشرة آلاف) حتَّى مشارف مكة بمهارة بالغة.

ومع أنَّ عيون قريش وجواسيسها كانت تتجسَّس الأخبار وكان هناك من يعمل لصالح قريش، ولكنَّهم مع ذلك لم يستطيعوا أن يعرفوا شيئاً عن نوايا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهدفه.

ولما وصل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى مشارف مكة عمد - لإرعاب أهل مكة حتَّى يتركوا مقاومة المسلمين عند دخول مكة وفتحها، ويتسنى لهم تحطيمُ صرح الوثنية من دون إراقة الدماء - إلى إصدار أمر لجنوده باشعال النيران

1- [الاصابة: ٤ / ٩٠، اسد الغابة: ٥ / ٢١٣ و ٢١٤.

2- السيرة النبوية: ٢ / ٤٠٢.

3- بحار الأنوار: ٢١ / ١١٤ و ١١٥.

فوق الجبال والتلال، وللمزيد من تخويف سكان مكة والإظهار بمظهر القوة أمرُ بأن يُشعلَ كلُّ واحد من الجنود النار وحده، في شريط طويل على الأرض.

كانت قريش وحلفاؤها يغطون في نوم عميق آنذاك من جهة، بينما كانت النيران من جهة أخرى قد غطت كلَّ المرتفعات المشرفة على مكة فلم تستيقظ إلا على منظر أروع قلوبهم، ولفت أنظارهم.

وفي هذه الاثناء كان بعض سادة قريش ك: «أبي سفيان بن حرب» و «حكيم بن حزام» وغيرهما قد خرجاً من مكة يتجسسون الأخبار.

ففكَّر «العباس بن عبدالمطلب» الذي لازم رسولَ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من منطقة الجحفة، فكر في نفسه بأنه إذا ما اتفق أن واجه جنودُ الإسلام مقاومة من قريش عند دخول مكة لادى ذلك إلى أن يُقتل جمعٌ كبيرٌ من قريش، ولهذا فان من الأفضل أن يقوم بدور عمليِّ لصالح الطرفين، ويقنع قريشاً بالتسليم، وعدم المقاومة.

فركب بغلة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - البيضاء وتوجه صوب مكة ليخبر قريشاً بمحاصرة مكة من قِبَل جنود الإسلام ويخبرهم بكثرة عددهم، وبمبلغ شجاعتهم وإصرارهم على تحقيق أهداف النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويقنعهم بأنه لا مناص من التسليم للأمر الواقع.

فبينما هو كذلك إذ سمع صوت أبي سفيان وبُديل بن ورقاء يتحدثان في جوف الليل فيقول أبو سفيان: ما رأيثُ كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً، فيقول بديل: هذه خزاعة حمشتها الحرب.

فيقول أبو سفيان: خزاعة أذلُّ وأقلُّ من ان تكون هذه نيرانها وعسكرها.

فصاح العباسُ بأبي سفيان وقال: يا أبا حنظلة.

فقال أبو سفيان: لبيك، أبو الفضل مالك؟

فقال العباس: هذا رسولُ الله في عشرة آلاف من المسلمين.

فارتعد أبوسفيان لما سمعه من العباس حول عظمة القوة الإسلامية، فقال وهو

(482)

يرتجف، وتصطكُ اسنانه من الفرع، فما الحيلة فداك أبي وأمي؟

فقال العباس: إركب في عَجْز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فاستأمنهُ لك.

فركب أبوسفيان خلف العباس، ورجع صاحباه (حكيم وبديل) إلى مكة.

ولقد كان مسعى العباس - كما ترى - في مصلحة الإسلام كله، فقد أربع شيطان قريش، وزعيمها وعقلها المدبّر أبا سفيان، وكان موثقاً في هذه الخطوة جداً بحيث لم يعد يفكر أبو سفيان إلا في التسليم، وإلقاء السلاح والكف عن المقاومة، بل ومَنَعَه العباسُ من العودة إلى مكة، في نفس الليلة (ليلة فتح مكة) وأخذه معه إلى معسكر المسلمين بُغية تقييده، ومنعه من العودة إلى مكة، إذ كان من المحتمل جداً أن يقع فريسة أفكار المتطرفين في الزعامة المكية فيدبّرون معاً خطة لمواجهة جيوش الإسلام فيقع - حينئذ - ما لا يُحمد عقباه، من سفك الدماء، وذهاب الأنفس والأرواح.

العباس يصطحب أبا سفيان إلى خيمة النبي:

دخل العباس - وهو على بغلة بيضاء وقد اردف خلفه أباسفيان - في معسكر المسلمين، وهو يقصد خيمة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من خلال نيران المسلمين التي أمر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بإشعالها، وكان كلما مرَّ بنار من نيرانهم قالوا: عمُّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فلا يمنعون من مروره، حتَّى إذا لقيا عمر بن الخطاب في الاثناء ورأى عمر أباسفيان خلف العباس على عجز البغلة همَّ بقتله في المكان، ولكن عمَّ النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أجاز أباسفيان في الحال، ومنع بذلك عمر من إلحاق الأذى به، وهو في جواره.

وأخيراً وصل العباسُ برفقة أبي سفيان إلى خيمة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فترجلاً، فاستأذن العباسُ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - للدخول مع أبي سفيان عليه فأذن لهما، فوعدت مشادةً كلاميةً شديدةً بين العباس وعمر بين

(483)

يدى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حول أبي سفيان وكان عمر يقول: أبوسفيان عدوُّ الله فلا بد أن يُقتل، ولكن العباس كان يقول: يا رسول الله إنِّي قد أجزته، فقطع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - دابر هذه المناقشة عند ما قال:

«إذهب يا عَبَّاس إلى رَحلك، فاذا أصبحتِ فَأْتيني به.»

فذهب العباسُ بأبي سفيان إلى رحله، فبات عنده ليلته كما أمر، فلما أصبح غدى به إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

أبوسفيان بين يدي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

لما مثل أبوسفيان عند الصباح بين يدي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في خيمته قال له النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : -

«ويحك يا أبا سفيان؛ ألم يأن لك أن تعلم أنه لا اله إلا الله؟»

فقال أبوسفيان: بأبي أنت وأمي ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك والله لقد ظننتُ أن لو كان مع الله آله غيره، لقد أغنى عني شيئاً بعد .

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلمَ أنّي رسول الله؟»

قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، أما والله فإنَّ في النفس منها حتَّى الآن شيئاً!!

فغضب العباس من شك أبي سفيان، ولجأته وعناده فقال له: ويحك، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله قَبِلَ أَنْ يُضْرَبَ عَنْقُكَ.

فشهد أبو سفيان شهادة الحق، فأسلم ودخل في عداد المسلمين.

أن إسلام أبي سفيان الذي حصل في جَوْ من الرعب والتهديد وإن لم يكن بالإسلام الذي كان يريده رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويطلبه دينه الحنيف، ولكنَّ مصالح معيَّنة كانت توجب أن يدخل أبو سفيان في عداد المسلمين كيفما كان ليرتفع بذلك أكبر سدِّ، وينزاح أكبر مانع من طريق الدعوة

(484)

الإسلامية، لأنَّ رجالاً مثل «أبي سفيان» و «أبي جهل» و «عكرمة» و «صفوان بن أمية» وغيرهم، كانوا قد أوجدوا جَوْاً من الرعب والخوف في مكة استمرَّ أعواماً عديدة، فلم يكن يجروُ أحدٌ من المكيين في مثل هذا الجَوْ المشحون بالخوف أن يفكر في الإسلام، أو يظهر رغبته في إعتناقه، والانضواء تحت لوائه.

فإذا لم يكن إسلام أبي سفيان الظاهري والسطحي مفيداً من حيث الواقع، ولكنه كان مفيداً جداً لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وللذين كانوا تحت سيطرة أبي سفيان ونفوذ زعامته من جماهير مكة، وبالتالي لمن كانت له علاقات قُربى معه.

ومع ذلك لم يسمح رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بإخلاء سبيل أبي سفيان لأنه لم يكن آمناً - وحتى مع إظهاره الإسلام - من جانبه قبل أن يتم فتح مكة، ولهذا أمر - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عمَّه العباس بأن يحبسه بمضيق الوادي عند ممر الجنود ليُبصر عظمة القوات الإسلامية وكثافتها قاتلاً:

«يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند حَظَم الجبل (أي انفه) حتَّى تمرَّ به جنودُ الله فيراها. »

ثم إن العباس. قال لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :يا رسول الله إنَّ أبا سفيان هذا رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً.

واستجاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لهذا الطلب، ومع أن أبا سفيان كان قد عادى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وآب ضده طيلة عشرين عاماً، وأثار في وجه دعوته الحروب والفتن الكثيرة، ووجَّه بذلك ضربات كثيرة إلى الإسلام والمسلمين، فمنحه - رغم ذلك ولمصالح خاصة - مقاماً، وقال كلمته التاريخية في حقه... تلك الكلمة التي تكشف عن عظمة أخلاق رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وسمو روحه، وعمق حكمته إذ قال:

«مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفِيَانَ فَهُوَ آمِنٌ.

وَمَنْ أَعْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ.

وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ.

وَمَنْ طَرَحَ السَّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ.⁽¹⁾»

* * *

مكة تستسلم من دون إراقة دماء:

تقدّم جيش التوحيد العظيم نحو مكة، حتّى أصبح على مقربة منها.

وقد كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عازماً على أن يفتح مكة من دون إراقة دماء، وإزهاق أرواح، وأن يسلم العدو من دون أية شروط.

وكان من العوامل التي ساعدت على تحقيق هذه الغاية - مضافاً إلى عامل التكتّم والتستّر ومبدأ المباغته - أن العباس عمّ النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - توجه إلى مكة كداعية صلح ووسيط سلام بن قريش والنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فكان أن أتى بأبي سفيان إلى معسكر الإسلام كما أسلفنا، وبذلك توصل إلى تحييد أبي سفيان، ولم يكن في مقدور سادة قريش أن يتخذوا قراراً حاسماً من دون أبي سفيان.

وعندما خضع أبو سفيان أمام عظمة رسول الإسلام الفريدة وأظهر الإسلام رأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يستفيد منه لإرهاب المشركين أكثر قدر ممكن، فأمر العباس بأن يحبسه عند مضيق الجبل ليرى بأمر عينيه حشود المجاهدين من المسلمين - كما أسلفنا - في وضوح النهار مع كامل عدّتهم واسلحتهم، ونظامهم وقوتهم، فيخبر قريشاً بذلك، فيزيدهم خوفاً ورهبة، فينصرفوا عن فكرة مقاومة الجيش الإسلامي عند دخوله إلى مكة.

وفعل العباس ما أمره الرسول الكريم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فحبس أبا سفيان

[1]- السيرة النبوية: ٢ / ٤٠٠ و ٤٠٤، مجمع البيان: ١٠ / ٥٥٤ - ٥٥٦، المغازي: ٢ / ٨١٦ - ٨١٨، شرح نهج البلاغة الحديدي: ١٧ / ٢٦٨.

حيث أمر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فمرّت القبائل مع راياتها أمام أبي سفيان، وكانت بعض قطعات الجيش الاسلامي على النحو التالي:

1- كتيبة قوامها ألف مقاتل من بني سليم بقيادة خالد بن الوليد، وفيها لواءان، أحدهما مع «عباس بن مرداس»، والآخر مع «المقداد»

2- فوجان قوامهما خمسمائة مقاتل بقيادة «الزبير بن العوام» الذي كان يحمل معه لواءاً أسود، وكان أكثر أفراد هذا الفوج من المهاجرين.

3- فوج قوامه ثلاثمائة مقاتل من بني غفار بقيادة «أبي ذر الغفاري» وكان لوائه معه.

4- فوج قوامه اربعمائة مقاتل من بني سليم بقيادة «يزيد بن الخصيب» ومعه لوائه.

5- فوجان قوامهما خمسمائة مقاتل من بني كعب بقيادة «بشر بن سفيان» ورأيته معه.

6- كتيبة قوامها ألف مقاتل من بني مزينة، فيها ثلاثة ألوية، لواء مع النعمان بن مقرن، ولواء مع بلال بن الحارث، ولواء مع عبدالله بن عمر.

7- كتيبة قوامها ثمانمائة مقاتل من جهينة، فيها أربعة ألوية، لواء مع «معبد بن خالد» و «سويد بن صخرة» و «رافع بن مكيث» و «عبدالله بن بدر.»

8- فوجان قوامهما مائتا مقاتل من بني كنانة، وبني ليث وضمرة، بقيادة «أبي واقد الليثي»، وكان لوائهما معه.

9- فوج قوامه ثلاثمائة مقاتل من بني أشجع، وفيها لواءان أحدهما بيد «معقل بن سنان» والآخر مع «نعيم بن مسعود»⁽¹⁾

[1] لقد سجّل المؤرخ الاسلامي الشهير «الواقدي» عدد أفراد هذه القطعات في تاريخه «المغازي»: ٣ / ٨٠٠ و ٨٠١ و ٨١٩ بشكل دقيق، وقد نقلها عنه ابن أبي الحديد في ج ١٧، ص ٢٧٠ و ٢٧١.

وعندما كانت هذه القبائل والقطعات تمرّ، سأل أبو سفيان العباس عن إسمها، وخصوبياتها، فكان العباس يوضح له كل ذلك.

والذي كان يزيد هذا الجيش المنظم جلالاً وعظمة أن قادة هذه الافواج والكتائب كانوا إذا مروا على العباس وأبي سفيان كبروا ثلاثاً بأعلى أصواتهم وبشكل منظم، وكبر من ورائهم جنودهم بصوت واحد ومنظم أيضاً كأكبر شعار اسلامي.

ولقد كان لهذه التكبيرات الهادرة التي كانت تدوي في وديان مكة، وترددها الجبال والوديان، أكبر الاثر في نفوس الاصدقاء والاعداء، فكانت تزيد بهيبتها وجلالها من محبة الاصدقاء للنظام الاسلامي العظيم، بينما ترهب أعداء الله، وتغرقهم في خوف ورعب شديدين.

هذا وكان أبو سفيان ينتظر بفارغ الصبر عبور الكتيبة التي فيها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولهذا كان يسأل العباس كلما مرت قطعة من قطعات الجيش الاسلامي: افيها محمّد؟ أو ما مضى بعد محمّد؟!!

فيقول العباس: لم يمض بعد، لو رأيت الكتيبة التي فيها محمّد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رأيت الحديد و الخيل والرجال وما ليس لأحد به طاقة.

وبينما هما كذلك إذ طلعت كتيبة عظيمة قوامها خمسة آلاف مقاتل، فيها ألفا دارع فقط، فيها الرايات والألوية الكثيرة، فيها المهاجرون والانصار، مع كل بطن وقبيلة من قبائل الأنصار راية ولواء، وكانت تسمى كتيبة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الخضراء لأن أفرادها كانوا في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق، وقد ركبوا الخيول العربية الاصيلة، والخمر من الإبل، ورسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في وسطها راكب على ناقته القصواء، وقد أحرق به كبار الشخصيات من

(488)

المهاجرين والانصار، والنبى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يحدثهم.

فارتعت عظمة هذه الكتيبة أبا سفيان، بشدة، حتى أنه قال للعباس من دون إختيار: ما لأحد بهؤلاء قبيل ولا طاقة يا أبا الفضل! والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً.

فقال له العباس - بنبرة مويحة - : ويحك يا أبا سفيان ليس بملك إنها النبوة. فليس هذه العظمة والجلال من أثر الملك المادي الدنيوي إنما هو فعل الرسالة الالهية، إنه جلال النبوة، وأنه بالتالي من فضل الله عزوجل الذي أدخل الاسلام في قلوب هذه الجماهير المؤمنة، وهذه الجموع المجاهدة في سبيل الله.

أبو سفيان يرجع إلى مكة:

إلى هنا قام العباس بدوره على أفضل صورة، فقد أربأ أبو سفيان من قوة الإسلام العسكرية الكبرى، ولهذا رأى النبي - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - أن يخلى سبيله ليذهب إلى مكة قبل دخول جنود الإسلام فيها، فيخبر أهلها بعظمة وقوة الجيش الإسلامي القادم اليهم، ويحذّرهم من مغبة المقاومة والمواجهة، ويدلهم على طريق الخلاص والنجاة، وهو التسليم للأمر الواقع، والقاء السلاح، والاستسلام من دون قتال ومقاومة، ومن دون قيد وشرط، لأن بمجرد تخويف أهل مكة من دون إرشادهم إلى طريق الخلاص ما كان ليحقق هدف النبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - ، وهو الفتح من دون دماء.

فدخل أبو سفيان مكة، وقد بات الناس ليلتهم في رعب شديد، وترقّب رهيب حتى أصبحوا، ولم يكن بإمكانهم أن يقرّروا شيئاً من دونه، فلما رأوه قادمًا أحاطوا به، فاخذ يشير إلى ناحية المدينة، وقد اصفرّ وجهه، وانهارت قواه وصرخ باعلى صوته، يا معشر قريش، هذا محمّد قد جاءكم فيما لا قبيل لكم به، أو قال: هذا محمّد في عشرة آلاف فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن.

(489)

على أنّ رسول الله - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - لم يكتف بهذا بل أضاف إلى الأماكن الثلاثة التي أعلنها للجوء للناس إليها حتى يأمّنوا من القتل، موضعاً آخر، حيث عقد لابي رويحة «عبدالله بن عبدالرحمان الخثعمي» لواء وأمره أن ينادي:
«من دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن.⁽¹⁾»

وقد تسبّب أبو سفيان ببدائه في إضعاف المعنويات عند أهل مكة بشدة حتى أنهم أنصرفوا عن فكرة المقاومة، لو كانت، وأثمرت جهود العباس ومساعيه في الليلة الفاتنة، وأصبح فتح مكة من دون مقاومة في نظر أهل الرأي وعند من ينظر إلى واقع الأمور، أمراً مسلماً وقطعياً.

ففرح الناس، وتفردوا، ولجأ بعضهم إلى دورهم، والبعض الآخر إلى المسجد، واسدى أعدى أعداء الرسالة ونعني أبا سفيان، ونتيجة لتدبير رسول الله الحكيم، أكبر خدمة لجنود الإسلام حيث مهّد لهم - بما أوجده في نفوس المكيين وقلوبهم من هزيمة نفسية - طريق الفتح العظيم بسلام، ومن دون مشاكل تُذكر، اللهم إلا «هند» زوجة أبي سفيان التي كانت تحرّض الناس على المقاومة، وراحت تشتم زوجها وتسبّه باقذع الشتائم والسباب، وتتهمه بالجبن والذل.

بيد أنّ الأمر كان قد قُدر، ولم تعد تنفع أية محاولة معاكسة، ولم تكن تلك الكلمات والأعمال المعارضة سوى هباء في شبك!

ونظير هذا الذي فعلته هند، ما فعله وقام به بعض الزعماء المتطرفين مثل «صفوان بن أمية» و «عكرمة بن أبي جهل» و «سهيل بن عمرو» ممثّل قريش في صلح الحديبية، الذين تحالفوا فيما بينهم على أن يعملوا على منع قوات الإسلام من دخول مكة، وانخدع

بهم فريق من البسطاء والمغفلين، فشهروا السلاح في وجه أول قطعة من قطعات الجيش الإسلامي، وسدوا بذلك الطريق عليها في محاولة يائسة لتحقيق مآربهم

[1] امتناع الاسماع: ١ / ٣٧٩.

(490)

القوات الإسلامية تدخل مكة:

وقبل ان تدخل قوات الإسلام مكة كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد دعا جميع قادة وأمرأه جيشه وقال لهم بانه يريد ان يفتح مكة من دون اإراقة أية دماء ولهذا امرهم ان لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، إلا أنه أمر بقتل عشرة وان وجدوا تحت أستار الكعبة وهم: «عكرمة بن أبي جهل» و «هبار بن الاسود» و «عبدالله بن أبي سرح» و «مقيس بن حبابة الكندي» و «الحويرث بن نقيذ» و «عبدالله بن خطل» و «صفوان بن أمية» و «وحشي بن حرب» قاتل حمزة. و «عبدالله بن الزبعرى» و «حارث بن طلالة» واربع نسوة وكان كل واحد من هؤلاء قد قتل أحداً أو ارتكب جنابة أو شارك في مؤامرة أو حرب ضد الإسلام والمسلمين⁽¹⁾.

وقد بلغ الأمر والقادة هذا الأمر إلى جنودهم كافة، ومع أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يعرف مسبقاً بمعنويات المكيبين المنهارة، وعدم قدرتهم على المقاومة، إلا أنه - مع ذلك - لم يترك جانب الاحتياط والحذر الذي يفرضه العمل العسكري، عند دخول مكة، حيث رسم لدخولها خطة دقيقة.

قد وصل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بجيشه كله إلى «ذي طوى» (وهو موضع مرتفع كانت تُرى منه بيوت مكة و منازلها) وهو في كتيبة قوامها خمسة آلاف، فلما رأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - منازل مكة اغرورقت عيناه بدموع الشوق والحنين، فانحنى تواضعاً لله تعالى وشكراً، حتى رأى ما رأى من فتح الله، وكثرة المسلمين حتى مسّت لحيته الشريفة واسطة الرحل أو يقرب منه.

[1] السيرة النبوية: ٢ / ٤١٠، تاريخ الخميس: ٢ / ٩٠ - ٩٤ وقد ذكر صاحب تاريخ الخميس تفاصيل ما ارتكبه هذه الجماعة المهدورة دماؤها وما آل إليه أمرهم بعد فتح مكة.

(491)

ومراعاة لجانب الحذر والاحتياط فرّق - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جنوده فأمر البعض بأن يدخلوا مكة من أسفلها، وأمر البعض بأن يدخلوها من أعلاها، ولم يكتف بهذا بل أمر وحدات من الجيش بان تدخل من جميع المداخل والطرق المؤدية إلى داخل مكة.

فدخلت جميع وحدات الجيش الاسلامي وقطعاته وكتائبه وفرقه مكة من دون قتال ومن دون ان تلقى من أهلها مقاومة، فقد كانت جميع الأبواب مفتحة في وجوههم إلا المدخل الذي دخل منه «خالد بن الوليد» بفرقته، فقد عمد جماعة من المكيين بتحريض من «عكرمة» و «صفوان» و «سهيل» على شهر أسلحتهم في وجوه المسلمين، ورموا بالنبل لمنعهم من دخول مكة، ووقع قتال بين الجانبين، ولكن محرّضي هذه الجماعة اختفوا بعد شيء من القتال والمقاومة، وفرّ الآخرون بعد أن قتل منهم المسلمون اثني عشر أو ثلاثة عشر شخصاً⁽¹⁾.

ومرة أخرى قام أبوسفیان و من حيث لا يشعر بعمل آخر لصالح الإسلام في هذه الحادثة، فإنه كان لا يزال مرعوباً ممّا رأى من كثرة الحشود العسكرية الإسلامية وقوتها وكان يعلم ان المقاومة لا تجدي نفعاً ولا تجرّ على أهل مكة إلا الضرر، ولهذا نادى بأعلى صوته - حقناً للدماء - : يا معشر قريش علام تقتلون أنفسكم؟ من دخل داره فهو آمن، ومن وضع السلاح فهو آمن... فلا يدفع محمّداً شيء، فضعوا اسلحتكم، وادخلوا في بيوتكم، واغلقوا عليكم أبوابكم أو ادخلوا المسجد، تسلموا.

فكان لنداء أبي سفیان هذا أثره في نفوس الناس فجعلوا يقتحمون الدور، ويغلقون عليهم، ويطرحون السلاح في الطرقات حتّى يأخذها المسلمون، بينما لجأ بعضهم إلى المسجد.

ولما ظهر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على «ثنية أذاخر» نظر إلى المعان

[1- السيرة النبوية: ١ / ٤٠٨، وحسب المغازي: ٢ / ٨٢٥ - ٨٢٦ قُتِل ثمان وعشرون رجلاً.

(492)

السيوف وهي تصعد وتهبط فقال: «ما هذه البارقة؟ ألم أنه عن القتال»؟

فقيل: يا رسول الله، خالد بن الوليد قوتل، ولو لم يقاتل ما قاتل. فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : « قضى الله خيراً »

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - دخل مكة من ناحية أذاخر، وهي أعلى نقطة في مكة في موكب عظيم جليل، فضرب له قبة من ادم بالحجون (عند قبر عمّه العظيم أبي طالب) ليستريح فيها، وقد أصروا عليه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن ينزل

في بعض بيوت مكة فأبى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .⁽¹⁾

كسرُ الاصنام وغسل الكعبة:

لقد استسلمت مكة التي كانت مركزاً رئيسياً للشرك والوثنية طوال أعوام عديدة ومديدة، أمام قوات التوحيد الظافرة، وسيطر جنود الإسلام على جميع نقاط تلك المدينة المقدسة.

ولقد استراح رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الخيمة التي ضربوها له في الحجون بعض الوقت.

ثم انه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد أن اطمأنَّ واغتسل ركب راحلته «القصواء» وتوجّه إلى المسجد الحرام لزيارة بيت الله المعظم والطواف به، بينما كان يحمل معه السلاح، والمغفر على رأسه، وتحيط به هالة من العظمة والجلال، ويحذق به المهاجرون والانصار، وقد صفّ له الناس من المسلمين والمشركين، بعضٌ يغمره الفرح والسرور، وآخرون يكادون ينفجرون من الغيظ.

ولما انتهى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى الكعبة فرأها ومعها المسلمون تقدّم على راحلته، ولم يترجّل منها لأسباب خاصة فاستلم الركن بمحجنه بدل استلامه بيده، وكَبَّر فكَبَّر المسلمون لتكبيره، ورَجَّعوا التكبير حتّى ارتجّت مكة لتكبيرهم

- [الامتاع: ١ / ٣٨٠].

(493)

ودوى صوتهم في الجبال والوهاد، وسمعهم المشركون الذين كانوا قد تفرّقوا فوق الجبال ينظرون إلى ذلك المشهد وقد بلغ من هياج المسلمين، وهم يطوفون بالبيت من شدة سرورهم جداً كاد أن يمنع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من الطواف بالبيت بفكر هادئ فإشار اليهم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن اسكتوا، فسكت الجميع بأمره، وساد الصمت كل أرجاء المسجد الحرام، فطاف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالبيت على راحلته، وقد أخذ بزمامها «محمّد بن مسلمة» وفيما احتبست الاصوات في الصدور، واتجهت الأبصار إليه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فوقع عيناه الشريفتان - في الشوط الأول من طوافه - على الاصنام الكبرى «هبل» و «اساف» و «نائلة» منصوبة فوق الكعبة، فجعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كلما مرّ بصنم منها يشير بقضيب في يده ويقول: «جاء الحقّ وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» فيقع الصنم لوجهه.

وأمر - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بهُبل أكبر أصنام المشركين فحطم وكسر في مرأى من المشركين، ولقد كان هذا الصنم الكبير يهيمن على عقول الجاهليين في الجزيرة العربية، وسيطر على أفكارهم أعواماً عديدة.

ولما كسر المسلمون ذلك الصنم قال الزبير لأبي سفيان وكان ينظر إلى ذلك المشهد: يا أبا سفيان لقد كُسر هُبل، أما إنك قد كنت منه يوم «أُخذ» في غرور، حين تزعم أنه قد أنعم.

فقال أبو سفيان: دغ هذا عنك يا ابن العوام فقد أرى لو كان مع إله محمّد غيره لكان غير ما كان.

ولما انتهى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من طوافه بالبيت انصرف فجلس ناحية من المسجد، والناس حوله، ثم أرسل بلالا إلى «عثمان بن طلحة» يأتيه بمفتاح الكعبة، وكان عثمان يومذاك سادن الكعبة، وقد كانت السدانة تُتوراث جيلا بعد جليل.

فجاء بلال إلى عثمان فقال: إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يأمرك أن

(494)

تأتي بمفتاح الكعبة، فاستجاب عثمان، إلا أن أمه منعتة عن ذلك، وكان المفتاح يومئذ عندها وقالت له: أعيذك بالله أن تكون الذي تذهب مأثرة قومه على يديه.

فقال لها عثمان: فوالله لتدفعنه إليّ، أو ليأتيك غيري فيأخذ منك، فسلمته إياه.

ففتح رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - به باب الكعبة ودخل البيت، ودخل من بعده - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أسامة بن زيد وبلال وعثمان وسادتها، ثم أمر النبي باغلاق باب الكعبة، ووقف خالد بن الوليد على الباب يذب الناس عن الباب.

وكانت جدران الكعبة من الداخل مغطاة بصور الانبياء والملائكة وغيرهم، فأمر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمحوها جميعاً، وغسلها بماء زمزم.

عليّ - عليه السّلام - على كتف النبي
- صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

يقول المحدثون والمؤرخون: لقد كسرت بعض الأصنام الموضوعة في الكعبة على يد «عليّ بن أبي طالب» وذلك عند ما قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لعليّ - عليه السّلام - :

«اجلس».

فجلس إلى جنب الكعبة ثم صعد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على منكبيه ثم قال: إنهض بي إلى الصنم... فحاول أن ينهض فلم يُطوَّق.

فلما رأى النبي ضعفه تحته، قال:

«اجلس».

فجلس عليّ - عليه السّلام - ثم نزل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عنه، ثم جلس - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثم قال:

فصعد عليّ - عليه السّلام - علي منكبه، ثم نهض به فالقى صنم قريش الاكبر، وكان من نحاس، ثم ألقى بقيّة الاصنام إلى الارض وحطّمها.

وقد أنشد شاعر الحلة الشهير بابن العرندس، وهو من شعراء القرن التاسع الهجريّ قصيدة ذكر فيها هذه الفضيلة بقوله:

و صُعودُ غارب أحمد فضلٌ له * دون القرابة والصحابة أفضلًا⁽¹⁾

ثم ان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمر بان يُفتح باب الكعبة فوقف علي الباب، وأخذ بعضادتي الباب فاشرف علي الناس بطلعته المنيرة ومحياه الجميل وقال:

«الحمد لله الذي صدق وعده و نصر عبده و هزم الأحزاب وحده.»

ولقد كان الله سبحانه قد وعد نبيه الكريم في آية من آيات الكتاب العزيز بأن يعيده إلى مسقط راسه إذ قال:

(إِن الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ.)⁽²⁾

وقد أخبر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بحمده هذا عن تحقّق وعدالله له، وبرهن مرة أخرى علي صدقه، وصحة دعواه.

وفي ما كان الصمتُ يخيم علي أرجاء المسجد الحرام، وفي ما كانت الانفاس محتبسة في الصدور، وتجول في رؤوس الحاضرين وانفسهم أفكارٌ مختلفة، وخواطرُ شتى، ويتذكر أهل مكة المشركون ما ألحقوه برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واتباعه من الأذى والعذاب الشديد، فتذهب بهم تصوراتهم مذاهب شتى!!

إن الذي سبق لهم أن اشعلوا حروباً كثيرة ضد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقتلوا خيرة شبابه وأصحابه، بل وتمادوا في غيهم وعدوانهم حتّى أنهم تأمروا

-1[مسند احمد بن حنبل: ١ / ٨٤ باسناد صحيح، السيرة الحلبية: ٣ / ٨٦ ، تاريخ الخميس: ٢ / ٨٦ و ٨٧ ، مستدرک الحاكم: ٢ / ٣٦٧ ،
وراجع بقيه المصادر في موسوعة الغدير: ٧ / ١٠ - ١٣ .
-2[الفصص: ٨٥ .

لاغتياله بالهجوم عليه في منزله ليلاً، وتقطيعه بالسيف إرباً، هاهم الآن يرون أنفسهم أسرى في قبضته، وهو - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قادر على أن ينتقم منهم كيفما شاء!!

إن من الطبيعي أن يتحدث أهل مكة في أنفسهم وهم يتذكرون معاداتهم الشديدة والطويلة لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وجرائمهم الكبرى بحقه، وبحق دعوته ويقول بعضهم: أنه سيقتلنا حتماً، أو يقتل فريقاً منا، ويحبس آخرين، ويسبي ذريتنا ونساءنا، جزاء ما فعلنا.

وبينما كانوا - في تلك اللحظات - فريسة هذه الافكار والتصورات الشيطانية، كسر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جدار الصمت الرهيب الذي يخيم على أرجاء المسجد الحرام وقال سائلاً:

«ماذا تقولون... وماذا تظنون؟!»

فقال أهل مكة: وقد تملكتم حيرةً شديدةً، وخوفٌ عظيمٌ وهم قد عَرَفُوا رحمة النبي ورأفته، ولطفه، وخُلِقَ العَظِيم: نقول خيراً، ونظن خيراً، أحمُّ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقد سمع هذه العبارات العاطفية:

«فاني أقول لكم كما قال أخي يوسف» قال لا تثريب عليكم اليوم يغفور الله لكم وَهُوَ أرحمُ الرَّاحِمِينَ.⁽¹⁾»

وكان أهل مكة قد أطمأؤوا إلى عفو النبي وصفحه قبل ذلك نوعاً ما عندما رأوا رد فعله الشديد على احد قادة جيشه عندما اخذ ينادي حين دخول مجموعته العسكرية مكة من احدى مداخلها:

اليومَ يومُ المَلحمة * اليومَ تُسبى الخُرمة

[1]المغازي: ٢ / ٨٣٥، بحار الأنوار: ٢١ / ١٠٧ و ١٣٢ والآية هي ٩٢ من سورة يوسف.

فغضب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لهذا الشعار وقال رداً عليه:

«اليوم يوم المرحمة⁽¹⁾»

كما أنه أمر - لغرض تأديب من أطلق هذا الشعار - بأخذ اللواء منه، وأعطاه إلى شخص آخر، وقيل أنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عزله عن قيادة المجموعة، وأمر ابنه مكانه، وكان هذا الأمير هو سعد بن عبادة رئيس الخزرج.

وقد دفع هذا النوع من اللطف والموقف الايجابي الذي لاحظته أهل مكة المشركون أن يأمل الناس المغلوبون في العفو العام إلى درجة كبيرة، خاصة أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد آمن من دخل المسجد الحرام أو بيت أبي سفيان، أو ألقى السلاح، أو أغلق على نفسه باب منزله.

كل هذه الأمور كانت قد فتحت على أهل مكة بصيصاً من الأمل في العفو الشامل.

النبي يعلن عن العفو العام:

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أعلن عن العفو العام عن جميع أهل مكة بقوله:

«ألا لبسَ جيرانُ النبيِ كنتُم، لقد كذبْتُم، وطردتُم، وأخرجتُم، وَ أنيبتُم، ثم ما رضيتُم حتَّى جئتموني في بلادِي تقاتلونني إذهبوا فانتمُ الطلقاء.»⁽²⁾

بلال يرفع الأذان على سطح الكعبة:

ثم حان وقتُ صلاة الظهر، فعلا مؤذن الإسلام «بلال» الحبشي سطح الكعبة المعظمة، ورفع في الحاضرين وبصوت عال نداء التوحيد والرسالة

1-المغازي: ٢ / ٨٢١ و ٨٢٢.
2-بحار الأنوار: ٢١ / ١٠٦ ، السيرة النبوية: ٢ / ٤١٢.

(الأذان)، فكان كل واحد من المشركين يقول كلاماً، غضباً وحنقاً على بلال. فمنهم من قال: الحمد لله الذي أكرم أبي فلم يسمع هذا اليوم!!

وقال أبو سفيان أما أنا فلا أقول شيئاً، لو قلتُ شيئاً لاخبرته هذه الحصباء.⁽¹⁾!!

إن هذا العجز الخرف المعاند الذي لم يشرق في قلبه نور الإسلام حتى آخر لحظة من حياته، خلط بين مسألة الإطلاع على الغيب، وتلقي الحقائق عن طريق الوحي، وبين مسألة التجسس الذي يعتمد جبايرة العالم وطغاته.

إن مسألة اطلاع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على قضايا الغيب أمر يحصل بطرق غير عادية ولا متعارفة، في حين تحصل معرفة جبايرة العالم بمجريات الأمور في بلادهم عن طريق استخدام عناصر بشرية، أو من يسمون برجال المخابرات والأمن.

وعلى كل حال فان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - صَلَّى بالمسلمين صلاة الظهر ثم دعا «عثمان بن طلحة» وردَّ إليه مفتاح الكعبة، وقال له:

«هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء.(2)»

وروي أنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال:

«خذوها يا بني أبي طلحة تالدة خالدة لا ينزعها منكم أحدٌ إلا ظالم.(3)»

ولم يكن غير هذا بمتوقع من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فان النبي الذي بعثه الله سبحانه إلى الناس ليدعوهم إلى أداء الامانة - فيما يدعوهم إليه - وليبليغهم قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدَّوْا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** (من المسلم أن يكون أول من يلتزم بهذا التعليم الإلهي، فيعيد مثل تلك الامانة الكبرى إلى صاحبها).

1- السيرة النبوية: ٢ / ٤١٣ .
2- السيرة النبوية: ٢ / ٤١٢ ، المغازي: ٢ / ٨٣٨ ، الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ١٣٧ .
3- السيرة النبوية: ٢ / ٤١٢ ، المغازي: ٢ / ٨٣٨ ، الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ١٣٧ .

(499)

إنه لم يكن بالذي يهضم حقوق الناس ويدوسها، في ظل ما أوتي من قوة، ويقول للناس بكل صراحة: «خذوها يا بني أبي طلحة، تالدة خالدة لا ينزعها منكم أحدٌ إلا ظالم.»

ثم ان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ألغى جميع مناصب الكعبة التي كانت في الجاهلية إلا ما كان نافعاً للناس كالسدانة والحجابه (وهي القيام بشؤون أستار الكعبة) وسقاية الحجيج.(1)

النبي يتحدث إلى اقاربه:

ولكي يعرف أقرباء النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن وشيجة القربى التي تربطهم برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لا ترفع عن كاهلهم أية مسؤولية من المسؤوليات، بل تزيد من مسؤوليتهم ألقى فيهم خطاباً خاصاً بين فيه أن رابطة القربى مع النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لا تبرر لأحد من أقربائه بأن يتجاهل قوانين الحكومة الإسلامية، ويتخذ من انتسابه إلى زعيم هذه الحكومة ذريعة وغطاء لارتكاب ما لا يحل للأخريين كما هو الحال في أنظمة الحكم البشرية.

ولقد شجب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في خطابه هذا الذي خطبه في اجتماع ضمّ رجال بني هاشم وبني عبدالمطلب، كل تمييز، وتفضيل غير صحيح، ودعا إلى لزوم العدل ومراعاة المساواة، بين جميع الطبقات إذ قال:

«يا بني هاشم، يا بني عبدالمطلب إني رسول الله اليكم، وإني شفيقٌ عليكم، ولا تقولوا: إنَّ محمداً منّا، فوالله ما أوليائي منكم ولا من غيركم إلا المتقون فلا أعرّفكم تأتوني يوم القيامة تحملون الدنيا على رقابكم ويأتي الناس يحملون الآخرة.

ألا وإني قد أعذرت فيما بيني وبينكم، وفيما بين الله عزّوجلّ وبينكم وإن

-[بحار الأنوار: ٢١ / ١٣٢].

(500)

لي عملي ولكم عملكم.⁽¹⁾»

خطابُ النبي التاريخي في المسجد الحرام:

كان الاجتماع الذي شهده المسجد الحرام يوم فتح مكة اجتماعاً عظيماً جداً.

المسلمون والمشركون، والصديق والعدو حضروا بأجمعهم في ذلك الاجتماع، وكانت تجلُّ هالةً من عظمة الإسلام وعظمة نبيه الكريم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رحاب ذلك المكان المبارك، وكان الصمت والهدوء، وحالة من الانتظار والترقب، تخيم على اجواء مكة.

لقد أن الأوان - الآن - لأن يكشف رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - للناس عن الملامح الحقيقية لدعوته المباركة ويوقف ذلك الحشد الهائل المتعطش على معالم رسالته العظمى، ومبادئ دينه الحنيف، وبالتالي أن يكمل حديثه الذي بدأه قبل عشرين عاماً ولكنّه لم يُوفق لإتمامه بسبب مضايقات المشركين، ومعارضتهم، وبسبب ما أوجده من عقبات وعراقيل في طريقه.

ولقد كان رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ابن تلك المنطقة، وتلك البيئة، ولهذا كان عارفاً - تمام المعرفة - بأمراض المجتمع العربي، وأدوائه، وعلاج تلك الأدواء ودوائها.

لقد كان يعرف - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - علل إنحطاط المجتمع المكيّ وأسباب تخلفه عن ركب الحضارة والمدنية، وعن اللحاق بقافلة التكامل البشري الصاعد. من هنا رأى أن يضع يده على مواضع الداء في ذلك المجتمع المريض، وأن يعالج امراض البيئة العربية بشكل كامل، وكأي طبيب حاذق، وحكيم ماهر.

ونحن هنا ندرج أبرز المقاطع في الخطاب التاريخي الذي ألقاه سيد المرسلين

- صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على الحشود الكبيرة المتجمعة في ذلك اليوم عند بيت الله المعظم.

تلك المقاطع التي يعالج كل واحد منها مرضاً اجتماعياً خاصاً من أمراض المجتمع في ذلك العصر وحتى في عصرنا الحاضر.

-1- التفاخر بالنسب:

كان التفاخر بالنسب والقبيلة والعشيرة من الامراض المستحكمة المتجذرة في البيئـة العربية الجاهلية، وكان من اكبر أمجاد المرء أن ينتسب إلى قبيلة معروفة، ويتفرع نسبه عن عشيرة بارزة كفريش مثلاً:

ولقد قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في خطابه المذكور لإبطال هذه السنـة الجاهلية المقيتة.

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَفَاخُرَهَا بِأَبَائِهَا.

أَلَا إِنَّكُمْ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ طِينٍ.

أَلَا إِنَّ خَيْرَ عِبَادِ اللَّهِ عَبْدٌ اتَّقَاهُ.»

لقد عمد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في خطابه - لإفهام العالم البشري بأن ملاك الشخصية والتفوق إنما هو (التقوى) والورع فقط - إلى تصنيف الناس إلى صنفين لا ثالث لهما، واعطى الفضيلة والمنزلة لأهل التقوى والورع خاصة.

وبهذا التصنيف الواقعي في ملاكاته أبطل جميع المعايير الخيالية والملاكات والمقاييس المصطنعة إذ قال:

«إنما الناس رجلان:

مؤمنٌ تقى كريمةً على الله.

وفاجرٌ شقى هينٌ على الله.»

-2- التفاضل بالقومية العربية:

لقد كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يعلم جيداً أن هذه الجماعة من

البشر تعتبر (العربية) والانتساب إلى العرق العربي من المفاخر الكبرى، وكانت النخوة العربية قد ترسخت في قلوب تلك الجماعة وعروقتها كداء دفين ومرض مزمن، فقال في خطابه لمعالجة هذا الداء الخبيث وتحطيم هذا الصرح الموهوم:

«إن العربية ليست بأب والد، ولكنه لسان ناطق، فمن قَصُر عمله لم يبلغ به حسبُه.»

وهل نجد كلاماً أعمق مغزى، وأوضح مراداً، وأقوى وقعاً في النفوس من هذا الكلام!؟

-3- لجميع أبناء البشر لا لبعض دون بعض:

لقد قال داعية الحرية الحقيقية، ورائد حقوق الإنسان الواقعي بهدف تقوية ودعم مبدأ المساواة بين الافراد والجماعات البشرية:

«إنَّ الناس من آدم إلى يومنا هذا مثلُّ اسنان المشط، لا فضل للعربي على العجمي، ولا للأحمر على الأسود إلاَّ بالتقوى.»

وقد ألغى رسولُ الإنسانية الاعظم بهذا البيان الصريح كل انواع التمييز الظالمة، وكل ألوان التشدد مع الآخرين، وفعل وبيّن في ذلك العصر ما لم يفعله ولم يبينه ميثاق حقوق الإنسان مع كل هذه الضجة الاعلامية التي نشهدها في عالمنا الحاضر.

-4- الحروب الطويلة والاحقاد القديمة:

لقد نشأت الاقوام العربية - نتيجة اشتغالها المستمر بالحروب الداخلية المتلاحقة والطويلة - على الحقد والضغينة.

فقد كانت نيرانُ الحروب مشتعلة في المجتمعات العربية على قدم وساق ومن دون انقطاع.

ولقد واجه رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد سيطرته الكاملة على الجزيرة

العربية هذه المشكلة.

فقد كان يتوجب عليه - بغية إقرار الأمن والهدوء والحفاظ عليهما في البيئة الإسلامية أن يبادر إلى وضع نهاية لهذه المعضلة، وأن يعالج هذا الداء المزمن فلم يجد دواء لهذا الداء إلا أن يطلب من الناس كافة أن يتنازلوا عما لهم من دماء في أعناق الآخرين سُفِكت في العهد الجاهلي، وأن تعتبر جميع ملفات العهد القديم باطلة، ومنتهية، ليتمكن عن هذا الطريق الحيلولة دون إراقة الدماء التي تعرض المجتمع الاسلامي الناشئ للخطر، وحتّى ينتزع من أذهانهم ونفوسهم فكرة الاغارة والقتل العشوائي الذي كان يتم بحجة القصاص في حين كان من الممكن ان يتم بشكل القصاص الحقيقي العادل، فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - للوصول إلى مثل هذه الغاية السامية.

«ألا إن كلَّ مالٍ ومأثرةٍ ودمٍ في الجاهلية تحت قدميَّ هاتين.»

-الأخوة الإسلامية:

ولقد ارتبط قسمٌ من خطاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في ذلك الحشد العظيم بمسألة اتحاد المسلمين ووحدة كلمتهم، وحق المسلم على أخيه المسلم.

وقد كان مقصوده - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من بيان هذه الحقوق المتبادلة بين المسلمين التي تعتبر من مميزات الدين الإسلامي الحنيف، هو أن يرغب غير المسلمين في الإسلام إذا هم سمعوا ورأوا مثل هذه الحقوق، ومثل هذه العلاقات المتينة بين المسلمين. فقد قال في هذا الصعيد:

«المُسلِمُ أخو المُسلِم، والمُسلِمون إخوةٌ وهم يدٌ واحدةٌ على من سواهم، تتكافؤ دماؤهم، ليسعى بذمتهم أدناهم.»⁽¹⁾

- [لقد نقلنا هذه المختارات من: روضة الكافي: ٢٤٦، السيرة النبوية: ٢ / ١٢٤، المغازي: ٢ / ٨٣٦، بحار الأنوار: ٢١ / ١٠٥، شرح ابن أبي الحديد: ١٧ / ٢٨١.]

(504)

معاقبة المجرمين:

ليس من شك في أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان مظهرًا كاملاً للإنسانية والرحمة ومثلاً أعلى في العفو والصفح، فهو رغم مشاعر بعض المتطرفين الملتهبة، أصدر عفوه العام عن أهل مكة كافة.

بيد أنه كان هناك بين المكيين عدة أشخاص تجاوزوا الحد في معاداتهم للنبي ومعارضتهم للرسول، وارتكبوا في هذا السبيل جرائم لا تغفر، فلم يكن من الصالح - مع كل ما تسببوه من فجاج وفضائح - أن يعيشوا بين المسلمين في أمان وراحة، إذ كان من الممكن أن يسببوا استخدام العفو النبوي فيعودوا إلى مشاغبتهم، وتأمروهم ضد الإسلام مرة أخرى ويتسببوا في ظهور مشاكل أمنية جديدة لا يُعرف مداها، وتبعاتها.

وقد قُتل بعض هؤلاء المجرمين على أيدي المسلمين في الطرقات، ولجأ اثنان منهم إلى بيت «أم هاني» بنت أبي طالب أخت الامام علي - عليه السلام - ، فلاحقهما «علي» وهو غارق في الحديد لا يُعرف، فدخل بيت أم هاني يطلبهما⁽¹⁾ فواجهت أم هاني فارساً لا يُعرف فقالت: أنا امرأة مسلمة وقد أجزت هذين، وجوار المسلمة محترم.

وفي أكثر المصادر أنها قالت: يا عبدالله أنا أم هاني ابنة عم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأختُ علي بن أبي طالب، انصرف عن داري.

وهنا عمد الإمام علي - عليه السّلام - إلى الكشف عن هويته لتعرفه، فنزع المغفر عن رأسه، وأسفر عن وجهه.

فما أن وقعت عينا أم هاني على أخيها «علي» بعد فراق طال سنيماً عديدة

-[يقول ابن هشام إن الرجلين هما: «الحارث بن هشام» و «زهير بن أبي أمية بن المغيرة» (السيرة النبوية: ٢ / ٤١١).

(505)

ومديدة إلا وانحدرت منهما دموع الشوق والفرحة، واعتنقت أحاها، ثم توجهتا معاً إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليعطي رأيها في أمانها، وجوارها فامضى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جوار تلك المرأة المسلمة، وأمانها قائلاً:
«قد أجزنا من أجرت وأمنا من أمّنت فلا يقتلها»⁽¹⁾»

وقد كان عبدالله بن سرح الذي أسلم ثم ارتدّ عن الإسلام احد العشرة الذين أمر النبي بقتلهم، ولكنه نجا من القتل بشفاعته عثمان له.

قصة عكرمة وصفوان:

ولقد فرّ «عكرمة بن أبي جهل» أحد كبار مثيري الحروب ومشعلي الفتن ضد الإسلام والمسلمين، إلى اليمن، إلا أنه نجا من القتل هو الآخر بشفاعته زوجته، في قصة مفصلة.

وأما «صفوان بن أمية» فانه مضافاً إلى جرائمه الفادحة، كان قد قتل مسلماً إنتقاماً لأبيه «أمية بن خلف» الذي قُتل على ايدي المسلمين في بدر، وذلك عندما صلبه أمام حشد كبير من أهل مكة في وضح النهار، ولهذا أهدر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - دمه، فعزم أن يخرج من الحجاز عن طريق البحر فراراً من القتل، وبخاصة عندما علم بأنه من جملة العشرة الذين أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بقتلهم وأهدر دمهم.

فطلب «عمير بن وهب» من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يعفو عنه، فقبل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - شفاعته، وأعطاه عمامة ليُدخل بها مكة كعلامة أمان من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ويصطحب معه إلى مكة «صفوان بن أمية»، فذهب عميرٌ إلى جدّة، وأخبر صفوان بذلك، وقدم به مكة

-[الإرشاد: ٧٢ إعلام الوري بأعلام الوري: ١١٠ ، السيرة النبوية: ٢ / ٤١١، الطبقات الكبرى: ٢ / ١٤٤ و ١٤٥.

(506)

على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فلما وقعت عينا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على كبير المجرمين بل
اكبرهم يومئذ قال له رداً عليه لما سأله قاتلاً: أن عمير يزعم أنك قد أمنتني؟

«صدقت، إنزل أبا وهب. »

ثم دعاه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى الإسلام فقال: اجعلني بالخيار شهرين، فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :
وسلم - :

«أنت بالخيار فيه أربعة أشهر⁽¹⁾»

وبهذا أمهله رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أربعة أشهر كفرصة يفكر فيها في الإسلام، ودعوة النبي.

ان دراسة اجمالية وسريعة لهذا الموقف تكشف القناع عن حقيقة مسلمة في الإسلام وفي تاريخه العظيم يحاول المستشرقون
المغرضون إنكارها وإخفاءها، وهو أن رؤوس الشرك كانوا أحراراً في اختيار العقيدة الإسلامية واعتناقها.

فهم اختاروها واعتنقوها بمحض إرادتهم من دون إكراه أو إجبار، ولا إرهاب أو تخويف، بل كانت القيادة الإسلامية تسعى دائماً
إلى أن يتم اعتناق عقيدة التوحيد عن طريق التدبر والتفكير الصحيح، لا عن طريق الارعاب والتخويف.

هذا هو أبرز حوادث فتح مكة وأكثرها عبرة، وبقي أن نتعرض لذكر حادثتين جديرتين بالاطلاع والتأمل استكمالاً لهذه الدراسة.

وتانك الحادثتان هما:

1- مبايعة النبي نساء مكة:

بعد بيعة «العقبة» كانت هذه هي المرة الأولى التي اخذ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

[1] السيرة النبوية: ٢ / ٤١٨، المغازي: ٢ / ٨٥٤.

البيعة من النساء بشكل ظاهري ورسومي، ولقد بايعته على الامور التالية:

[1] أن لا يُشركنَ بالله شيئاً.

[2] ولا يسرقن.

3-ولا يزنين.

4-ولا يقتلن أولادهن.

5-ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن.

6-ولا يعصين النبي في معروف.

ولقد تمت هذه البيعة بالكيفية التالية وهي: أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمر بقدح من ماء ثم ألقى في الماء شيئاً من الطيب واطعطر ثم ادخل يده فيه وتلا الآية (1) التي وردت فيها الامور المذكورة ثم نهض من مكانه وقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - للنساء:

«مَنْ أَرَادَتْ أَنْ تَبَاطِحَ فَلْتَدْخُلْ يَدَهَا فِي الْقَدْحِ فَانِي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ.» (2)

سيد المرسلين

صلى الله عليه وآله وسلم

تأليف

الاستاذ المحقق الشيخ جعفر السبحاني الجزء الثاني

الإسلامي

النشر

نشر

مؤسسة

التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة _ ايران _

(2)

(3)

بسم الله الرحمن الرحيم

مُمَيِّزَاتِ النِّهْضَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَخِصَائِصِهَا

خصيصة «الخلود» والعمق في شخصية رسول الإسلام

المصادر الاولى والأصيلة للكتابة عن سيرة النبي:

تشبّه نهضة «الأنبياء» الالهية التي قام بها رسلُ الله وسفراؤه لتخليص البشرية من براثن الأوهام، والخرافات، ولا نفاذها من جور المستكبرين وظلم الظالمين أكثر شيء بأمواج البحر التي تبدأ بدوائر صغيرة محدودة، ولكنها كلما ابتعدت عن مركز الدائرة ازدادت اتساعاً واتساعاً، واشتدت قوتها أكثر فأكثر.

إن الانقلاب المعنوي العريض والتحول الروحي العظيم الذي وُضعت أسننه في أرض مكة على يدي رسول الإسلام العظيم أضاء بشعاعه و نوره الباهر في اليوم الأول غار حراء ثم منزل خديجة وبعض البيوت المتواضعة في مكة فقط، ولكنه اتسع نطاقه بمرور الزمان، حتى عمّ في مدة ليست بالطويلة شرق الارض وغربها، ودوّى نداء التوحيد في منطقة واسعة جداً من العالم (ابتداء من فرنسا و انتهاءً بجدار الصين وما وراءه).⁽¹⁾

إن مؤسسي هذا النوع من النهضات الدينية⁽²⁾ يتمتعون - من حيث الاخلاق

والفضائل الإنسانية - بخصيصة الخلود واللانهاية فان الزمن يكشف باستمرار عن أبعاد أوسع و آفاق جديدة من شخصياتهم فهي تتسع كلما تقدم بها العهد تماماً كأمواج البحر، وكأن الانبياء نسخة ثانية من الطبيعة، فكما أننا كلما أمعنا أكثر في الطبيعة ظهرت لنا منها حقائق أكثر، وانكشفت لنا رموز وأسرار جديدة لم نعهدها من قبل فهكذا شخصيات الانبياء والمرسلين، وسفراء الله إلى البشرية.

وتتجلى هذه الحقيقة أكثر - فأكثر كلما تعاطمت شخصية من تلك الشخصيات -.

و خلاصة القول أننا كلما أزددنا تعمقاً وامعاناً فيهم. اكتشفنا أسراراً كثيرة، وحقائق جديدة عن حياتهم.

- [لقد كتبت هذه المقدمة وما بعده خلال تواجدي في الصين عام ١٤٠٨ وقد جنّت اليها في مهمة استطلاعية وتبليغية إسلامية، وقد زرت في نفس الفترة التي كنت فيها مشتغلاً بكتابة هذه المقدمة المسجد الجامع في - بكين - العاصمة، والتقيت بامام ذلك المسجد الذي رحب بي وبمن كان معي أشد ترحيباً، واتحفتني بنسخة من ترجمة القرآن الكريم باللغة الصينية، وزرت خلال وجودي في ذلك المسجد قبر رجلين مسلمين من ايران أحدهما تاجر، والآخر عالم جاء إلى الصين في القرن السادس الهجري، ونشرا الإسلام في بكين وما حولها، وقد نصبت عند قبرهما لوحتان من المرمر نقش عليهما اسمهما، وخصوصياتهما بالاحرف العربية. وهناك تذكرت حديث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «اطلبوا العلم ولو بالصين.» قلت في نفسي: لعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يقصد فيما يقصد في هذا الحديث دفع المسلمين إلى نشر مبادئ الإسلام في تلك البلاد العريضة التي تضم خمس سكان العالم. وقد قام المسلمون الغيارى على دينهم، الحريصون على نشره وبثه بهذه المهمة فيما سبق وأدوا ما كان عليهم. فماذا فعلنا نحن؟ وهل ترى يجوز أن يجهل خمس سكان العالم دين الله، ولا ينعموا بخيراته؟! أم هل ترى يجوز في شريعة الانصاف أن يعانى ذلك الشعب الكبير من الاباطرة الطغاة في الماضي، ومن الانظمة والا يديولوجيات الجائرة الملحدة في الحاضر، هذا والنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يحرص على هداية فرد واحد، والقرآن يقول: «من احياها فكأنما أحى الناس جميعاً»؟؟

هل خصصت نهضة الأنبياء الالهية برقعة صغيرة من الارض هي الجزيرة العربية، وما حولها؟ أم أنها رحمة للعالمين جميعاً؟ سؤال نظرحه على ابناء الإسلام دعاءً ورعايا، حكومات و شعوباً لعلهم يتفكرون؟ (جعفر الهادي).

-2- المقصود من الدين هو المنهاج الواسع الشامل الذي يتكفل بسعادة البشرية في الحياتين الدنيا والأخرى وليس مجرد سلسلة من الطقوس الفارغة الخاوية كما هو الحال في المسيحية الحاضرة.

ويدل على كلامنا هذا تلك المؤلفات الكثيرة الوافرة التي كتبها علماء التاريخ وأصحاب السير، قديماً وحديثاً، حول رسول الإسلام العظيم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولكن مع ذلك كله كلما تقادم العهد به، و كلما اتسعت النظرات وازدادت عمقاً

(5)

اكتشف المحققون مزيداً من الآفاق، وجديداً من الابعاد في هذه الشخصية الإلهية.

ولقد كان تعاطي السيرة النبوية والحديث حولها في البداية منحصراً (أو بالاحرى مقتصراً) على مشاهدات أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - و مسموعاتهم.

ومع ظهور جبل جديد يدعى بالتابعين بعد وفاة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - اتخذت الاحاديث والسنن الاسلامية، وتفاصيل الحياة النبوية، وقصص غزواته وحروبه رونقاً جديداً، وأحسن الجيل الجديد برغبة شديدة في أخذ الاحاديث الإسلامية، والتعرف على الحوادث التي وقعت في عصر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وأيام حياته من مولده إلى وفاته.

وكلما ازدادت حالات الوفاة، في أوساط الصحابة والتابعين الذين كانوا يشكّلون المنبع الأول والمصدر الأصيل لهذا النوع من العلوم الإسلامية، اتسع الاهتمام بالسيرة وما شابها وتعاضمت الرغبة فيها وتزايد عطش المسلمين إلى اخذ ومعرفة الأحاديث التي تتضمن بيان خصوصيات حياة رسول الاسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وجزئيات سيرته الطاهرة. هذا من جانب.

ومن جانب آخر كان تشدد الخليفة الثاني⁽¹⁾، ومنعه عن كتابة أحاديث النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد أوجب أن يندثر كثير من الأحاديث الإسلامية، التي سمعها بعض أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتدفن تحت التراب بموتهم.

ولقد استمر منع الخليفة عن كتابة الحديث النبوي وبقي ساري المفعول لمدة طويلة بعد وفاته⁽²⁾، حتى أتى إلى الحكم خليفة معتدل السيرة من الأمويين هو: «عمر بن عبدالعزيز» فأمر - في رسالة وجهها إلى أبي بكر بن حزم حاكم المدينة

- [تقييد العلم: ص ٤٨ - ٥٣ .
2- لم يترك نهى الخليفة أي أثر على علماء الشيعة الذين كانوا يتبعون علماً - عليه السلام - ، فقد عمدوا في فترة محدودة إلى تدوين وضبط الأحاديث، وحفظوا كنوزاً عظيمة من علوم اهل البيت النبوي، للتوسع في هذا المجال راجع كتاب «تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام.»

(6)

وقاضيتها - بكتابة أحاديث النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خوفاً من اندراس العلم وزواله.⁽¹⁾

أنمة السيرة:

ومن حسن الحظ أن الخليفة الثاني لم يمنع إلا من تدوين وكتابة الأحاديث النبوية، فلم يشمل هذا المنع كتابة الحوادث والوقائع التي وقعت في عصر الرسالة.

ولهذا ألفت في تلك الفترة كتب كثيرة عن حياة رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وأول من كتب حول وقائع عصر الرسالة، وأرخ حوادث الصدر الأول من الإسلام هو: «عروة بن الزبير بن العوام» الصحابي المعروف الذي توفي عام ٩٢ أو ٩٦ من الهجرة⁽²⁾.

ثم عمد بعده جماعة في المدينة وآخرون في البصرة إلى جمع وتدوين تفاصيل السيرة، وحروب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وغزواته، وبيان هذا الأمر على نحو التفصيل خارج عن نطاق هذه الدراسة.

ولقد كانت هذه الكتب والمؤلفات هي المنبع والاساس للكتب التي دوت فيما بعد في صورة كتب السيرة النبوية، أو تاريخ الإسلام

وقد بدأ تدوين سيرة النبي الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بشكل جميل وبصورة بدیعة منذ أوائل المنتصف الثاني من القرن الثاني الاسلامي، وكان من بين من قام بجهد مشرف ومشكور في هذا المجال العالم الشيعي الكبير محمد بن اسحاق المتوفى عام ١٥١ هـ فهو أول من استخراج تفاصيل الوقائع الإسلامية من كتب الماضين، ومن

[1] ارشاد الساري في شرح صحيح البخاري: ١ / ١٩٥ و ١٩٦ .
[2] تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص ٢٣٣ .
اختلفت الأقوال في من هو أول من صنف في علم المغازي والسير في الإسلام.
فقال السيوطي في كتاب الاوليات بأنه عروة بن الزبير.
وقال الافندي في كشف الظنون أنه محمد بن اسحاق.
والحق انه لا الاول ولا الثاني بل عبيد الله بن أبي رافع فانه تقدمهما في التصنيف في السير والمغازي.

(7)

ثنايا رواياتهم ومنقولاتهم وألفها واخرج شيئاً جامعاً حول السيرة النبوية إلى عالم الكتب والمؤلفات.

كما أن أول من ضبط ودون غزوات رسول الإسلام بشكل مفصل هو الواقدي صاحب «المغازي» و «فتوح الشام» المتوفى عام ٢٠٧ هـ.⁽¹⁾

وقد لخصت سيرة ابن اسحاق على يد ابن هشام أبي محمد عبدالملك المتوفى عام ٢١٨ هـ وعرفت فيما بعد بسيرة ابن هشام (أو السيرة الهشامية) وهو الآن معدود من مصادر التاريخ الاسلامي و سيرة النبي الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الموثقة.

ولو أننا تجاوزنا هذه الشخصيات لكان لشخصيتين أخريين سهم كبير في تدوين وتسجيل تاريخ حياة رسول الإسلام وهما:

1- محمد بن سعد الكاتب الواقدي المتوفى عام ٢٣٠ هـ مؤلف «الطبقات الكبرى» الذي أورد فيه سيرة النبي الأكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه على نحو التفصيل.

وقد طبع هذا الكتاب في لندن مؤخراً، كما أعيد طبعه في لبنان في ٩ مجلدات.

2- محمد بن جرير الطبري المتوفى عام ٣١٠ هـ مؤلف كتاب «تاريخ الامم والملوك». »

على أن تتمين جهود هذه الثلة من الكتاب والمؤلفين لا يعني بالضرورة أن كل ما أدرجه في مؤلفاتهم هو الثابت الصحيح، بل تحتاج مؤلفاتهم - كغيرها من المؤلفات، والكتب - إلى التحقيق الواسع والتمحيص الدقيق.

ثم ان حركة التأليف حول شخصية رسول الاسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

1- عدّه الشيخ الطوسي في رجاله ابن اسحاق من تلامذة الامام جعفر الصادق - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وتوجد نسخة خطية من سيرته في مكتبة مدرسة الشهيد المطهري بطهران حسب ما كتب صاحب الذريعة في ج ١٢، ص ٢٨١ فيها.

(8)

وسيرته استمرت بعد ذلك طيلة القرون الإسلامية اللاحقة. ونحن اليوم أمام مكتبة زاخرة من الكتب، والدراسات، المختلفة في أحجامها ومستوياتها، والمتنوعة في طرائقها وأساليبها، التي ألقت حول رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهذا إنما يدل على خصيصة العمق واللانهاية التي اتسمت بها شخصية النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الخالدة العظيمة.

وقد أراد صاحب هذه الدراسة أن يقدم للجيل الحاضر شرحاً ناطقاً عن حياة رسول الإسلام العظيم، في حدود ما تسمح به إمكانياته المحدودة، ولم يأل جهداً - لتحقيق هذا الهدف على وجه أفضل - في مراجعة كتب الفريقين المعتمدة، وان اكتفى بذكر عدد قليل من المصادر عند التأليف، وقد بينا عذرنا من هذا في الجزء الأول من هذه الدراسة.

ولقد تناول الجزء الأول من هذا الكتاب حوادث مكة من بدء نشأتها إلى نهاية السنوات الثلاث عشرة الأولى من عصر الرسالة أي ما قبل الهجرة، وها هو الجزء الثاني وهو يتناول حوادث العشر سنوات للهجرة الشريفة، ومن الله التوفيق.

جعفر السبحاني

قم المقدّسة - الحوزة العلمية

21 شعبان ١٣٩٢ هـ

أول عمل ايجابي للنبي في المدينة

عقد ميثاق تعايش بين المسلمين وغيرهم:

حملت وجوه فتيحة الانصار المستبشرة، المبتهجة، بمقدم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والاستقبال العظيم الذي قام به أغلبية الأوسيين والخزرجيين له حملته - صلى الله عليه وآله وسلم - ، على أن يعمد قبل أي شيء إلى تأسيس مركز عام لتجمع المسلمين فيه في الأوقات المختلفة، وللقيام بالاعمال التربوية والتثقيفية، والسياسية والعسكرية في رحابه.

كما أن عبادة الله الواحد تقع في طليعة البرامج التي جاء بها رسول الإسلام ولذا رأى من اللازم أن يعمد قبل أي عمل آخر إلى بناء مسجد للمسلمين حتى يتسنى لهم أن يعبدوا الله ويذكروه فيه في أوقات الصلوات.

أجل كانت الحاجة إلى مثل هذا المركز شديدة فلا بد من مكان ليجتمع اعضاء حزب الإسلام (حزب الله) كل أسبوع في يوم معين فيه، ويتشاوروا في

[لا بد أنك أيها القارئ الكريم تتذكر جيداً أننا قصدنا من السنة الأولى للهجرة الأشهر العشرة المتبقية التي قضى رسول الله شهرين منها في مكة وحط في الباقي من شهرها الثالث (أي ربيع الأول) على أرض يثرب، بناء على هذا تكون السنة الأولى من الهجرة تسعة أشهر فقط، وتبدأ السنة الهجرية الثانية من شهر محرم الحرام (وليس من الثاني عشر من ربيع الأول).

شؤون الإسلام والمسلمين ومصالحهم، وليجتمع فيه عامة المسلمين مضافاً إلى هذا اللقاء الأسبوعي مرتين كل عام لأداء صلاة العيد، فكان المسجد الذي بناه كأول عمل قام به بعد قدومه المدينة.

فلم يكن المسجد على عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - للعبادة فقط بل كانت تلقى فيه كل أنواع العلوم والمعارف الإسلامية الشاملة للأمور التربوية وغيرها.

لقد كان يعلم فيه كل التعاليم والمواد الدينية والعلمية، حتى الأمور المرتبطة بالقراءة والكتابة.

وقد بقيت أغلب المساجد على هذا المنوال حتى مطلع القرن الرابع الهجري الإسلامي، فقد كانت في غير أوقات الصلاة تتحول إلى

وربما اتخذ مسجد المدينة صورة المركز الأدبي، عندما كان يلقي فيه كبار فصحاء العرب وبلغاؤهم قصائدهم المنسجمة مع التعاليم الاخلاقية والمعايير الإسلامية بين يدي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كما فعل «كعب بن زهير» إذ ألقى قصيدته المعروفة بـ «البردة» عند النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المسجد، وأعطاه النبي الكريم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - صلة جيّدة، وخلع عليه بخلعة عظيمة. (2)

أو كما كان يفعل «حسان بن ثابت» الذي كان يدافع بشعره عن حوزة الإسلام والمسلمين إذ كان يلقي بعض قصائده في المسجد عند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

1- [راجع صحيح البخاري: ج 1 كتاب العلم، بل حتّى عند فصل المراكز العلمية عن المساجد في ما بعد، بقيت المدارس تبنى وتشيّد إلى جانب المساجد فكان هذا العمل يجسد الصلة الوثيقة بين العلم بالدين.

2- السيرة النبوية: 2 / 303 قال أنشد كعب بن زهير رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المسجد: بانت سعاد.

(11)

ولقد كانت مجالس الدرس والتعليم في مسجد المدينة على عهد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تتسم بروعة كبيرة بحيث عندما شاهد وفد تقيف مشهداً من مشاهدها انبهروا به، وعبجوا بشدة لاهتمام المسلمين بتعلم الاحكام واكتساب المعارف والعلوم. (1)

كما انه كانت تمارس الامور القضائية والفصل بين الخصومات، واصدار الحكم على المجرمين في المسجد، فكان المسجد يومذاك بمنزلة محكمة (بكل معنى الكلمة) أي أنها تقوم بكل ما تقوم به المحاكم اليوم.

هذا مضافاً إلى أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يلقي خطبه الحماسية والجهادية لتعبئة المسلمين من أجل مجاهدة الكفار والمشركين في المسجد.

ولعل من حكمة الاجتماع في المسجد لاجل تحصيل المعارف وتعلم العلوم هو أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أراد بذلك أن يثبت عملياً أن العلم والدين توأمان لا ينفكان فكلما كان هناك مركز للايمان وجب ان يكون محلاً للعلم أيضاً.

وأما ممارسة القضاء والقيام بالخدمات الاجتماعية، واتخاذ القرارات العسكرية في المسجد فقد كان لأجل أن يعلن للجميع بأن دينه ليس مجرد أمر معنوي لا يتصل بالأمور الدنيوية ولا تهتم قضايا الحياة وشؤون المعيشة المادية، بل هو دينٌ شاملٌ كاملٌ لا يحض الناس على التقوى، ولا يدعوهم إلى الايمان إلا ويهتم أيضاً بشؤونهم المعيشية وإصلاح أوضاعهم الاجتماعية. فليس هو بالتالي يهتم بجانب ويُعفل جانباً، بل هو دين شامل جامع يتكفل الأمور المادية والمعنوية معاً.

ولقد كان هذا التلاقي والانسجام (بين العلم والإيمان) محطاً لإهتمام المسلمين ونصب أعينهم دائماً حتى بعدما اتَّخَذَت المراكزُ التعليمية والمؤسساتُ العلمية البحتة شكلاً مستقلاً وصار لها محلٌّ خاص تدرس فيه، فانهم ظلوا يبنون

-[تاريخ الخميس: ٢ / ١٣٦].

(12)

الجامعات إلى جانب الجوامع ويشيّدون المعاهد إلى جانب المساجد ليثبتوا للعالم أن هذين الأمرين اللذين يكفلان إسعاد الحياة والإنسان لا يمكن أن ينفصلا، ويتعد بعضها عن بعض.

مع عمار بن ياسر في بناء المسجد النبوي:

لقد ابتاع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الأرضَ التي بركت فيها ناقته يوم قدمه المدينة، من أصحابها عشرة دنانير لإقامة مسجد فيها. واشترك كافة المسلمين في تهيئة موادّه الإنشائية وبناءه، وعمل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نفسه في تشييده أيضاً. فكان - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ينقل معهم اللبن، والحجارة، وبينما هو - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ذات مرة ينقل حجراً على بطنه استقبله «أسيدُ بن حضير» فقال: يا رسول الله إعطني أحمله عنك.

قال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : لا، إذهب فأحمل غيره⁽¹⁾.

وبهذا الأسلوب العملي كشف رسول الإسلام العظيم عن جانب من برنامجه الرفيع، إذ بيّن بعمله أنه رجل عمل وليس رجل قول، رجل فعل وليس رجل كلام، وكان لهذا أثره الفعّال في نفوس أتباعه.

فقد أنشد أحد المسلمين بهذه المناسبة يقول:

لئن فَعَدْنَا وَالنَّبِيَّ يَعْمَلُ * فذاك مِنَّا الْعَمَلُ الْمُضْتَلُّ⁽²⁾

وكان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يردّد وهو يبني ويعمل: لا عيش إلا عيش الآخرة، اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة.

وقد كان «عثمان بن عفان» ممن يهتمّ بنظافة ثيابه، ويحرص على أن يمنع عنها الغبار والتراب، فلم يعمل في بناء المسجد لهذا السبب، فاخذ عمار ينشد أبياتاً تعلمها من أمير المؤمنين عليّ - عليه السّلام - ، وفيها تعريض بمن لا يعمل ويحرص على ثيابه أن لا تتسخ بالغبار:

-[بحار الأنوار: ١٩ / ١١٢].

-[السيرة النبوية: ١ / ٤٩٦].

لا يستوي من يعمر المساجد * يدأب فيها قائماً وقاعداً

ومن يرى عن الغبار حائداً⁽¹⁾

وقد أغضب مفاداً هذه الابيات عثمان بن عفان، فقال لعمار مهدياً: قد سمعتُ ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية، والله إني لأراني

سأعرض هذه العصا لأنفك، أي أضربك بها، وفي يده عصا!!

فلما عرف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بكلام عثمان غضب وقال:

«ما لهم ولعمار، يدعوهم إلى الجنة، ويدعوته إلى النار.

إن عماراً جلدته ما بين عيني وأنفي.»⁽²⁾...

وكان «عمار» فتى الإسلام القوي، يحمل قدرًا كبيراً من اللبن والاحجار في بناء المسجد ولا يكتفي بحمل شيء قليل منها.

فكان البعض يستغل طيب قلبه واخلاصه فيثقله باللبن والاحجار.

ويروى أن اصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جعل يحمل كل واحد لبنة لبنة وعمار يحمل لبنتين لبنتين لبنة عنه ولبنة عن

النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - محبة منه لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .⁽³⁾

وذات مرة رآه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقد حملوه ثلاث لبنات أو احجار ثقيلة فشكا إليه عملهم وقال: يا رسول الله

قتلوني يحملون علي ما لا يحملون فنفض رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وفرته⁽⁴⁾ وكان رجلاً جعداً وهو يقول قولته

التاريخية:

«ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك، انما تقتلك الفئة الباغية.»⁽⁵⁾

1- السيرة النبوية: ٤٩٦ / ١، وتاريخ الخميس: ٣٤٥ / ١ والسيرة الحلبية: ٧٦ / ٢ ومع ان ابن اسحاق صرح باسم عثمان بن عفان ولكن ابن هشام الذي لخص سيرة ابن اسحاق امتنع عن تسمية عثمان. وقال صاحب المواهب اللدنية: المراد في هذه الابيات عثمان بن مظعون، راجع هامش سيرة ابن هشام أيضاً.

2- تاريخ الخميس: ٣٤٥ / ١.

3- السيرة الحلبية: ٧١ / ٢، البداية والنهاية: ٢١٧ / ٢.

4- اي شعر راسه.

5- المصدران السابقان.

وقد كان هذا الخبرُ الغيبي من الدلائل القوية على نبوة الرسول الكريم - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - وصدق دعواه، وصحة إخباراته، فقد وقع ما أخبره كما أخبر، فقد قتل «عمّار» وهو في التسعين من عمره في معركة صفين عندما كان يقاتل جيش الشام بين يدي علي - عليه السّلام - ، فقتله حزب معاوية، وقد أحدث هذا الخبر الغيبي أثراً عجبياً في حياة المسلمين فقد جعله المسلمون معياراً لمعرفة الحق، أي كانوا يعرفون حقانية أي جهة من الجهات وأي طرف من الأطراف في الصراعات والنزاعات بانضمام عمّار إليه.

وعند ما قُتِلَ عمّار في ساحة القتال بصفين، دبّ في أهل الشام اضطراب عجيب.

فالذين كانوا في شك في حقانية «عليّ» - عليه السّلام - وموقفه في هذه الحرب بفعل الدعاية المضادة التي كان يقوم بها معاوية ومساعدته عمرو بن العاص ضد الامام قد انتبهوا إلى خطائهم وعرفوا بمقتل «عمّار» على أيدي أنصار معاوية بأن علياً على حق وأن معاوية وجماعته هي الفئة الباغية التي أخبر عنها رسول الله - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - . ومن هؤلاء «خزيمة بن ثابت» الأنصاريّ الذي خرج مع الإمام عليّ - عليه السّلام - لقتال معاوية، ولكنه كان متردداً في مقاتلته، بيد أنه جرد سيفه بعد مقتل «عمّار» على أيدي أهل الشام، وحمل عليهم. (1)

ومنهم «ذوالكلاع» الحميري الذي خرج على رأس عشرين ألف مقاتل وهم تمام رجال قبيلته، مع معاوية لمحاربة الامام عليّ - عليه السّلام - وكان معاوية يعتمد على نصرته اعتماداً كبيراً، حتّى أنه لم يقدم على اتخاذ قرار الحرب إلا بعد أن اطمأن إلى تأييده له، ومشاركته في قتال علي - عليه السّلام - .

فقد صُدِمَ القائد المخدوع بشدة عندما سمع بوجود «عمّار» في معسكر الامام «علي». »

[1-المستدرک علی الصحیحین: ۳ / ۳۸۵ ووقعة صفین لابن مزاحم.

فأراد رجال معاوية أن يمؤهوا الأمر، ويشوشوه عليه فقالوا: ما لعمار ولصفين؟ فذلك ما يقوله أهل العراق وما يباليون من الكذب. ولكن ذا الكلاع لم يقتنع بهذا فقال لعمرو بن العاص: يا أبا عبدالله أما قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - : « إن عماراً تقتله الفئة الباغية؟ »

فقال عمرو: أجل، ولكن ليس عمار في رجال علي.

فقال ذوالكلاع: فلا بدّ إذن أن أعرف ذلك بنفسي.

ثم أمر رجالاته بأن يتحققوا من الأمر. وفي هذه اللحظة الحساسة أدرك معاوية وعمرو خطورة الموقف إذ لو تحقق ذوالكلاع من وجود عمّار في معسكر «علي» أو عرف بمقتله بين يديه - عليه السّلام - إذن لأحدث ذلك شخاً كبيراً وتمزقاً فضيماً في جيش الشام، من هنا تمت تصفية ذوالكلاع فوراً إذ قُتل بصورة غامضة. (1)

إن اشتهار هذا الحديث لدى محدثي السنة والشيعة ليغنيننا عن استعراض مصادره، واسناده.

فقد روى الإمام احمد بن حنبل أنه لما قُتل عمّار بن ياسر دخل عمرو بن حزم على عمرو بن العاص فقال قتل عمّار وقد قال رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - : تقتله الفئة الباغية؟ فقام عمرو بن العاص فرعاً يرجع (أي يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون) حتّى دخل على معاوية، فقال معاوية: ما شأنك؟ قال: قُتل عمّار فقال معاوية: قد قُتل عمّار فماذا؟ قال عمرو: سمعت رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - يقول: تقتله الفئة الباغية، فقال له معاوية: أو نحن قتلناه انما قتله عليٌّ وأصحابه جاؤوا به حتّى القوه بين رماحنا (وسيوفا). (2)

ولكن لا يخفى أن هذا التأويل الباطل الذي لجأ إليه ابن أبي سفيان لتهنئة جنود الشام، ليس مقبولاً عند الله تعالى قط، كما لا يقبل به أيُّ عاقل لبيب.

فإنّ هذا هو الاجتهاد في مقابلة النص، وهو مما لا قيمة له أبداً، فان هذا

1-وقعة صفين: ٣٧٧ و ٣٨٧.
2-مسند الإمام احمد بن حنبل: ٤ / ١٩٨.

النوع من الاجتهاد في مقابل الآيات والروايات الصريحة هو الذي سبّب في أن يعمد فريق من المجرمين والجنّة إلى تبرير جرائمهم وفضائعهم بحجة «الاجتهاد»، وتحت غطائه.

واليك نموذجاً من هذا الأمر:

ضنّ أراف من والدته!!

لا يجد المرء عبارة أفضل من هذه تعرّف حقيقة مؤرخ القرن الثامن الهجري (ابن كثير الشامي مؤلف البداية والنهاية). فقد انبرى هذا الرجل إلى الدفاع عن معاوية في كتابه إذ قال: لا يلزم من تسمية أصحاب معاوية بغاة تكفيرهم، لأنهم وان كانوا بغاة في نفس الأمر فانهم كانوا مجتهدين فيما تعاطوه من القتال وليس كل مجتهد مصيباً، بل المصيب له أجران، والمخطيء له أجر

واحد (ثم يقول) وأما قوله: يدعوهم إلى الجنة ويدعوهم إلى النار فان عمّاراً وأصحابه يدعون أهل الشام إلى الالفة واجتماع الكلمة، وأهل الشام يريدون ان يستأثروا بالأمر دون من هو أحق به، وان يكون الناس أوزاعاً على كل قطر اماماً برأسه، وهذا يؤدي إلى افتراق الكلمة واختلاف الأمة فهو لازم مذهبيهم وناشئ عن مسلكهم وان كانوا لا يقصدونه.⁽¹⁾!!

ونحن لم نجد اسماً يناسب هذا العمل إلا التحريف للحقائق.

فان مؤيدي الفئة الباغية مع كل ما أوتوا من قدرة على إخفاء الحقائق وطمسها لم يستطيعوا إنكار هذه الحقيقة، ولكن مؤرخاً مثل ابن كثير عمد - رغم ورود هذا الحكم الغيبي في شأن تلك الفئة - إلى تحريف بارد قد غفلت تلك الفئة هي ذاتها عنه!!

يقول أحمد بن حنبل: دخل رجلان على معاوية يختصمان في رأس عمّار يقول

I-البداية والنهاية: ٢ / ٢١٨.

(17)

كل واحد منهما أنا قتلته، فقال عبدالله بن عمرو: ليطيب به أحدكما نفساً لصاحبه فاني سمعت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يقول: تقتله الفئة الباغية، قال معاوية: فما بالك معنا؟ قال: ان أبي شكاني إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقال: اطع أباك مادام حياً، ولا تعصه، فأنا معكم ولست أقاتل.⁽¹⁾

إن اعتذار «عبدالله بن عمرو بن العاص» يشبه تأويل ابن كثير الشامي الذي يقول: إن معاوية قاتل «علياً» في صفين إجتهداً وإيماناً، وإن أخطأ في اجتهاده، وذلك لأن إطاعة الوالد واجبة مالم تجر إلى مخالفة الشرع، فهذا هو القرآن الكريم يقول:

(وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا نَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا⁽²⁾)

كما ان الاجتهاد إنما يصح إذا لم يكن في المقام نصٌّ صريح، ورد عن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ولهذا كان اجتهاد معاوية وعمرو بن العاص وامتالهما باطلا مرفوضاً، لكونه في مقابل النصّ النبوي.

ولو أننا فتحنا باب الاجتهاد هكذا بدون أية ضوابط لكان جميع المشركين والمنافقين معذورين في معارضتهم، ومحاربتهم لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، كما لا بدّ - حينئذ - أن نقول: إن يزيد والحجاج وأشباههما كانوا معذورين في سفكهم لدماء الأئمة المعصومين، والصالحين من المسلمين، بل ومأجورين في عملهم هذا.

انتهى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمون من بناء المسجد، وظل يوسع فيه كل عام شيئاً فشيئاً.

وقد بُني إلى جانب المسجد صفة ليسكن فيها الفقراء والمهاجرون المحرومون. وكلف «عبادة بن الصامت» بأن يعلمهم الكتابة، وقراءة القرآن.

1- مسند أحمد بن حنبل: ٢ / ١٦٤ و ١٦٥ .
2- العنكبوت: ٨.

(18)

التآخي؛ أو أعظم معطيات الايمان:

لقد فتح تمركز المسلمين في المدينة فصلاً جديداً في حياة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فقد كان - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قبل دخوله المدينة لا يهّمه إلا جذب القلوب والدعوة إلى دينه، ولكنه اليوم عليه أن يعمل - كصاحب دولة محنك - على حفظ كيانه وكيان جماعته، ولا يسمح للأعداء الداخليين والخارجيين بالتسلل والنفوذ في صفوفهم، ولكنه كان يواجه في هذا السبيل ثلاث مشاكل كبرى:

1- خطر قريش وعامة الوثنيين في شبه الجزيرة العربية.

2- خطر يهود يثرب الذين كانوا يقطنون داخل أو خارج المدينة ويمتلكون ثروة كبيرة.

3- الاختلاف الذي كان بين أتباعه من المهاجرين وبين الأوس والخزرج.

وحيث إن المهاجرين والانصار قد نشأوا في بيئتين مختلفتين، لهذا كان من الطبيعي أن يختلفوا في طريقة المعاشرة، وآداب السلوك، واسلوب التفكير اختلافاً كبيراً.

هذا مضافاً إلى أن الأوس والخزرج الذين كانوا يشكلون جماعة الأنصار كانوا هم يعانون من رواسب عداة قديم وبقايا ضعائن نشأت خلال حروب دموية طويلة استغرقت مائة وعشرين سنة بلا انقطاع.

ومع وجود مثل هذه التناقضات والأخطار المحتملة لم تكن مواصلة الحياة الدينية، والسياسية المستقرة أمراً ممكناً قط.

ولكن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تغلب على كل هذه المشكلات بطريقة حكيمة، غاية في الحنكة والابداع.

فبالنسبة إلى المشكلتين الأوليين فقد عالجهما بالقيام بأعمال سيأتي ذكرها في المستقبل.

وأما بالنسبة إلى مشكلة التناقضات بين فئات وأصناف جماعته فقد عالج

(19)

تلك المشكلة بحذق كبير، وتدبير رائع جداً.

فقد أمر من جانب الله تعالى بأن يؤاخي بين المهاجرين والأنصار.

فجمعهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ذات يوم وقال لهم:

«تأخوا في الله أخوينِ أخوينِ.»

وقد ذكرت المصادر التاريخية الإسلامية، مثل «السيرة النبوية» لابن هشام⁽¹⁾ أسماء كلِّ متأخيين من المهاجرين والأنصار.

وبهذا الأسلوب كرّس رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الوحدة السياسية والمعنوية بين المسلمين وقوى أسسها ودعائمها.

وقد سببت هذه الوحدة، وهذا التأخي الواسع في أن يقرّر حلاً للمشكلتين الأوليين بسرعة وسهولة.

منقبتان عظيمتان:

ولقد ذكر أكثر مؤرخي السنة والشيعه ومحدثيهم في هذا الموضوع منقبتين عظيمتين، نذكرهما نحن هنا أيضاً: لقد آخى رسول الله -

صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بين ثلاثمائة من أصحابه من المهاجرين والأنصار وهو يقول: يا فلان أنت أخ لفلان.

ولما فرغ من المواخاة، قال له علي - عليه السّلام - ، وهو يبكي:

«يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد؟»

فقال له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقد أخذ بيده:

«أنت أخي في الدنيا والآخرة.»⁽²⁾

وقد ذكر القندوزي الحنفي هذه القضية بنحو أكثر تفصيلاً إذ قال:

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لعلي:

«والذي بعثني بالحق نبياً ما أحرثك إلا لنفسي، فأنت مني بمنزلة هارون من

موسى إلا أنه لا نبىّ بعدي، وأنت أخي ووارثي. (1)»

غير ان ابن كثير شكك في صحة هذا الرواية(2)، وحيث إن هذا التشكيك نابع من نفسيته الخاصة، ولا يقلّ تفاهةً وبتلاً من إعتذاره ودفاعه عن معاوية وزمرته الباغية عن قتل الصحابي العظيم عمار بن ياسر لهذا نرجح أن نصرف النظر عن النقاش فيه، ونترك القضاء والحكم عليه للقارىء المنصف، والمنتبع العدل.

منقبةٌ أخرى لعلّى - عليه السّلام - :

فرغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من بناء المسجد، وقد بُنيت منازلُه ومنازل أصحابه حولَ المسجد، وكلّ شرع منه باباً إلى المسجد، وخطّ لحمزة خطأً فبنى منزله فيه، وشرع بابَه إلى المسجد وخط لعلّى بن أبي طالب مثل ما خط لهم فبنى منزله فيه وشرع بابَه إلى المسجد، فكانوا يخرجون من منازلهم فيدخلون المسجد من تلك الابواب.

وفجأة نزل جبرئيل على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال:

«يا محمد إنّ الله يأمرك أن تأمر كلّ من كان له بابٌ إلى المسجد أن يسدّه ولا يكون لإحد بابٌ إلى المسجد إلا لك ولعلّى - عليه السّلام - .»

يقول ابن الجوزي: فأوجدَ هذا الامرُ ضجةً عند البعض، وظنُّوا أنّ هذا الاستثناء قدنشأ عن سبب عاطفي، فخطب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الناس وقال فيما قال:

«والله ما أنا أمرتُ بذلك، ولكنّ الله أمر بسدّ أبوابكم وترك بابِ عليّ. (3)»

وخلاصة القول أنّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قضى عن طريق المؤاخاة

الإسلامية بين أصحابه من الأنصار والمهاجرين على الاختلافات القديمة التي كانت رواسبها باقية بين المسلمين إلى ذلك اليوم، وبذلك حل مشكلة من المشاكل الثلاث التي مرّ ذكرها.

معاهدة الدفاع المشترك بين المسلمين ويهود يثرب:

كانت المشكلة الثانية التي يواجهها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المدينة هي مشكلة يهود يثرب الذين كانوا يقطنون المدينة وخارجها وكانوا يمسون بأزمة التجارة والاقتصاد في تلك المنطقة.

لقد كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يدرك جيداً أنه مالم تصلح الأوضاع الداخلية في المدينة ومالم يضم إلى صفوفه يهود يثرب، وبالتالي مالم يحم وحدة سياسية عريضة في مركز حكومته، لم تنهياً لشجرة الإسلام أن تنمو، ولن يتهيا له - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يفكر في أمر الوثنيين والوثنية في شبه الجزيرة العربية ولا يستطيع معالجة المشكلة الثالثة أعني قريش خاصة

والمشكلة واحدة مالم يستتب الأمن والاستقرار في مقر القيادة لن يمكن الدفاع ضدّ العدو الخارجي.

ولقد قام بين يهود المدينة والمسلمين في بداية هجرتهم إليها نوع من التفاهم لأسباب خاصة، لأنّ كلا الجانبين كانا موحدّين يعبدان الله، ويرفضان الأوثان، وكان اليهود يتصوّرون أنهم يستطيعون - إذا اشتد ساعد المسلمين، وقويت شوكتهم - أن يأمنوا حملات المسيحيين الروم، هذا من جانب، ومن جانب كان بينهم وبين الأوس والخزرج علاقات عريقة وموثيق قديمة. من هنا حاول النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يكرّس هذا التفاهم، ويبلوره بعقد معاهدة تعايش، ودفاع مشترك بين الأنصار والمهاجرين وقّع عليها يهود المدينة أيضاً.⁽¹⁾

- [المقصود منهم يهود الأوس والخزرج، وأما يهود بني النضير، وبني قينقاع، وبني قريظة فقد عقد النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - معهم معاهدة مستقلة سنذكرها.

وقد احترّم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في تلك المعاهدة دين اليهود وثروتهم في اطار شرائط معينة.

وقد أدرج كُتّاب السيرة والمؤرخون النصّ الكامل لهذه المعاهدة في كتبهم.⁽¹⁾

ونظراً لأهميتها الخاصة، ولأنها تُعتبر مستنداً تاريخياً حياً، قوئ الدلالة، ولكونها تكشف عن مدى التزام رسول الإسلام العظيم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمبادئ الحرية والنظم والعدالة، ومبلغ مراعاته واحترامه لها في الحياة، ولأنها تكشف لنا كيف أنها

أوجدت جبهةً متحدةً قويةً في وجه الحملات الخارجية نذكر هنا نقاطها الحساسة ونسجلها كواحد من أكبر الانتصارات السياسية التي أحرزتها الحكومة الإسلامية الناشئة في العالم ذلك اليوم.

أعظم معاهدة تاريخية:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتابٌ من محمد النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم.

«البند الأول»

1- إثمهم أمةً واحدةً من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم (أي على الحال التي جاء الإسلام وهم عليها) يتعاقلون بينهم (أي يدفعون دية الدم) وهم يفتنون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

2- وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، كلُّ طائفةٍ تقدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وهكذا بنو ساعدة وبنو الحارث، وبنو جشم، وبنو النجار، وبنو عمرو بن عوف وبنو النبيت، وبنو الأوس كلُّ على ربعتهم

1- مثل السيرة النبوية: ١ / ٥٠١.

(23)

(والحال التي جاء الإسلام وهم عليها من حيث التعاون على الديات إلى أولياء المقتول، ودفع الفدية معاً لفك الأسير.)

3- وإنَّ المؤمنين لا يتركون مفرحاً (أي مثقلاً بالدين وكثير العيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل (أي دفع دية أو فداء أسير).

4- وإنَّ المؤمنين المتقين (يدُّ واحدة) على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة (عظيمة) ظلم أو إثم أو غُدوان أو فساد بين المؤمنين، وأنَّ أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولدٌ احدهم.

5- وأن لا يحالف مؤمنٌ مؤمناً في كافر (أي عبد) مؤمنٌ دونه (أي دون إذنه).

6- وأن لا يقتل مؤمنٌ مؤمناً في كافر (أي قصاصاً لمقتل كافر على يدَي ذلك المؤمن) ولا ينصر كافراً على مؤمن.

7- وإنَّ ذمَّةَ اللَّهِ واحدة (تشمل جميع المسلمين بلا استثناء) يجبرُ عليهم أذناهم (فاذا أجاز عبدٌ مسلماً كافراً قُبِلت إجارته واحترَمَ أمانه).

8- وإنَّ المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس.

9- وإنَّه من تبعنا من يهود فإنَّ له النصرَ والاسوةَ غيرَ مظلومين، ولا متناصرين عليهم.

10- وإنَّ سلمَ المؤمنين واحدةً لا يُسألُ مؤمنٌ دون مؤمنٍ في قتالٍ في سبيلِ اللَّهِ إلاَّ على سواءٍ وعدلٍ بينهم (فلا يجوز لأحد أن ينفرد بعقدِ معاهدةٍ صلح مع أحد من غير المسلمين إلاَّ بموافقة المسلمين).

11- وإنَّ كلَّ غازيةٍ غزت معنا يعقب بعضها بعضاً (أي يتناوب المسلمون في المشاركة في الجهاد)، وإنَّ المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نالَ دماءهم في سبيلِ اللَّهِ (أي يراقق منهم الدَّم على السواء لا أن يتعرض للقتل بعضٌ دون بعض).

12- وإنَّ المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

13- وأن لا يجبرَ مشركٌ (من مشركي المدينة) مالا لقريش، ولا نفساً، ولا يحولَ دونه على مؤمنٍ (أي لا يمنع من مؤمن).

(24)

14- وإنَّه من اعتبط مؤمناً (أي قتل من المؤمنين مؤمناً بلا جناية منه توجب قتله) قتلاً عن بيئته فإنه قودٌ به (أي يُقتل بقتله قصاصاً) إلاَّ أن يرضى وليُّ المقتول.

وإنَّ المؤمنين عليه كافة، ولا يحلُّ لهم إلاَّ قيامٌ عليه.

15- وإنه لا يحلُّ لمؤمنٍ أقر بما في هذه الصحيفة، وأمن بالله واليوم الآخر، أن يتصرَّ مُحديثاً (صاحب بدعة) ولا يؤويه وأنه من نصرته، وأواه فعليهِ لعنةُ اللَّهِ و غضبه يوم القيامة، ولا يُؤخذُ منه صرفٌ ولا عدلٌ.

16- وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردةً إلى اللَّهِ عزَّوجلَّ و إلى محمَّد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - .

«البند الثاني»

17- وإنَّ اليهودَ ينفقون مع المؤمنين ماداموا محارِبين (ودفاعاً عن المدينة).

18- وإنَّ يهود بني عوف أمةٌ من المؤمنين (وبنو عوف قبيلة من قبائل الأنصار) لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليتهم وأنفسهم، إلا من ظلم واثم، فإنه لا يوتغ (لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيته (والسبب في هذا هو أن أهل بيت الرجل يتبعونه ويؤيدونه في فعله غالباً وعادةً).

والمراد من هذا الاستثناء هو أن العلاقات والاتحاد يبقى قائماً بين تلك الطائفة من اليهود وبين المسلمين مادام لم يكن ثمة ظالمٍ ومعتد.

19- وإنَّ ليهود بني النجار، وبني الحارث وبني ساعدة، وبني جشم، وبني الأوس وبني ثعلبة، وبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، من الحقوق والامتيازات.

وإن جفنة بطن من ثعلبة (أي تلك القبيلة فرعٌ من هذه)، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف.

20- وإنَّ البرَّ دون الإثم (أي أن يغلب حسناتهم على سيئاتهم).

21- وإنَّ موالي ثعلبة (أي المتحالفين معهم) كأنفسهم.

(25)

22- وإنَّ بطانة يهود (أي خاصتهم) كأنفسهم.

23- وأنه لا يخرج منهم أحدٌ (من هذه المعاهدة) إلا باذن محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - .

24- وإنَّه لا ينحجر على ثأر جرح (أي لا يضيع دمٌ حتَّى الجرح)، وإن من فتك (بأحد) فينفسه فتك، وأهل بيته إلا من ظلم (أي إلا إذا كان المفتوك به ظالماً).

25- وإنَّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنَّ بينهم النصرَ على من حارب أهل هذه الصحيفة (أي أن على كل جماعة من المسلمين واليهود أن يقوم بنصيبه من نفقات الحرب).

26- وإنَّ بينهم النصحَ والنصيحةَ (أي أن تكون العلاقات على هذا الاساس) والبر دون الاثم.

27- وإنَّه لم يَأثم مروءٌ بحليفه (أي لا يحقُّ لأحد أن يظلم حليفه) وأن النصرَ للمظلوم (لو فعل أحد ذلك).

28- وإنَّ يثرب حرامٌ جوفُها لأهل هذه الصحيفة (أي أن داخل المدينة حرمٌ ومأمّنٌ لجميع من وقَّع على هذه الصحيفة).

29- وإنَّ الجار (وهو من يدخل في أمان أحد) كالنفس غير مضارٍّ ولا أثم، (فلا يجوز إلحاق ضرر به).

30- وإنَّه لا تجار حرمة إلا باذن أهلها.

31- وإنَّه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمّد رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - ، وإنَّ الله على اتقى ما في هذه الصحيفة وأبره (أي أنه تعالى ناصر وولي لمن التزم بهذه المعاهدة).

32- وإنَّه لا تجار قريش ولا من نصرها.

«البند الثالث»

33- وإنَّ بينهم (أي بين اليهود والمسلمين) النصر على من دهم يثرب

(26)

(فعلهم معاً أن يدافعوا عن المدينة ضدّ المعتدين.)

34- وإذا دُعوا (أي دعا المسلمون اليهود) إلى صلح يصلحونه، ويلبسونه، فاتهم يصلحونه ويلبسونه.

وإنَّهم إذا دُعوا (أي إذا دعا اليهود المسلمين) إلى مثل ذلك (الصلح) فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.

فعلّى اليهود أن يوافقوا على كل صلح يعقده المسلمون مع الأعداء وهكذا على المسلمين أن يقبلوا بكل صلح يعقده اليهود مع الأعداء إلا إذا كان ذلك العدو ممن يخالف الإسلام ويعاديه ويتأمر عليه.

35- وإنَّ يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة.

«البند الرابع»

36- وإنَّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وأثم. (فلا يمكن لأحد أن يتيسر وراءه ليتخلص من العقاب إذا ارتكب خطيئةً وجنايةً).

37- وإنَّه من خرج (من المدينة) آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم.

ثم خُيِّمت هذه المعاهدة بالعبارة التالية:

«وإنَّ الله جار لمن برّ واتقى، ومحمّد رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - .⁽¹⁾»

إنَّ هذه المعاهدة السياسية التاريخية التي أدرجنا هنا أهم مقاطعها تعدُّ نموذجاً كاملاً لرعاية الإسلام وحرصه على مبدأ حرّية الفكر والاعتقاد، ومبدأ الرفاه الاجتماعي العام، وضرورة التعاون في الأمور العامة، بل وتوضّح هذه المعاهدة - فوق كلّ ذلك - حدودَ صلاحيّات واختيارات القائد، ومسؤوليّة كلّ الموقعين عليها، وعلى أمثالها.

على أنه وإن لم يشترك يهودُ «بني قريظة» و «بني النضير» و «بني قينقاع»

- [السيرة النبوية: ١ / ٥٠٣ و ٥٠٤، الاموال: ١٢٥ - ٢٠٢.

(27)

في إبرام هذه المعاهدة والتوقيع عليها، بل شارك فيها يهودُ الأوس والخزرج فقط، إلا أنّ تلك الطوائف اليهودية (الثلاث) قد وقعت فيما بعد مع قائد المسلمين وزعيمهم على معاهدات مماثلة أهم بنودها هي:

أن لا يُعينوا على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولا على أحد من أصحابه بلسان ولا يد ولا بسلاح ولا بكراع (أي الخيل وغيرها من المراكب) في السر والعلانية لا بليل ولا بنهار، الله بذلك عليهم شهيد، فإن فعلوا فرسول الله في حلٍّ من سفك دمائهم، وسي ذراريهم، ونسائهم، وأخذ أموالهم.

وقد كتب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لكلّ قبيلة منهم كتاباً على حدة على هذا الغرار، ثم وقع عليها «حيي بن أخطب» عن قبيلة بني النضير، و «كعب بن أسد» عن بني قريظة، و «المخيري» عن قبيلة بني قينقاع. (1)

وبهذا ساد الأمن يثرب وضواحيها بعد أن اعتبرت المنطقة حرماً آمناً.

والآن جاء دور أن يعالج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المشكلة الأولى، يعني قريش لأنه مادام هذا العدو يعرقل حركة الدعوة، ويقف سداً أمام تبليغ الإسلام فلن يُوفَّق لنشر هذا الدين وتطبيق أحكامه، وتعاليمه المباركة.

ممارسات اليهود الإجهاضية:

لقد تسببت تعاليم الإسلام الرفيعة وأخلاق الرسول العظيم في أن يتزايد عدد المنتميين إلى الإسلام يوماً بعد يوم، وتزداد بذلك قوة الإسلام العسكرية والاقتصادية والسياسية.

وقد أحدث هذا التقدم المتزايد الباهر قلقاً وضجةً عجيبةً في الأوساط اليهودية الدينية، لأنهم كانوا يتصوّرون أنهم يستطيعون بدعمهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتقويته وتأييده جرّه إلى صفوفهم، ولم يكونوا يتصوّرون قط أنّ

-[بحار الأنوار: ١٩ / ١١٠ و ١١١. احتفظ في ذاكرتك أيها القاريء الكريم هذا القسم من المعاهدة الثانية لأن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عاقب اليهود بسبب نقضهم لهذه المعاهدة.

(28)

النبى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سيحصل بذاته على قوة تفوق قوة اليهود والنصارى، من هنا بدأوا بممارسة الأعمال الاجهاضية مثل طرح الاسئلة الدينية العويصة على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بغية زعزعة إيمان المسلمين بنبيهم، ولكن جميع هذه المخططات باءت بالفشل ولم تترك أي أثر في صفوف المسلمين المتراسة وإيمانهم العميق برسول الإسلام.

وقد جاءت بعض هذه المناظرات والمجادلات في سورة البقرة وسورة النساء.

ويستطيع القاريء العزيز - من خلال قراءة - آيات هاتين السورتين والتمعن فيهما أن يقف على مدى العناد واللجاج الذي كان يُدببه اليهود.

فمع أنهم كانوا يتلقون من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أجوبة واضحة لكل واحد من اسئلتهم كانوا يتهمون من الانضواء تحت راية الإسلام ويحجمون عن الاعتراف به، وكانوا يقولون في مقام الرد على دعوة النبى إياهم إلى اعتناق الإسلام:

(قلوبنا غلف.)

أي لانفهم ما تقول. (1)!!!

اسلام عبدالله بن سلام:

هذه المناظرات والمجادلات وان كانت لا تزيد غالبية اليهود إلا تعنتاً وعناداً، ولكنها كانت تسبب أحياناً يقظة البعض وإقبالهم على الإسلام مثل «عبدالله بن سلام.»

فقد أسلم ابن سلام الذي كان من علماء اليهود وأخبارهم، برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد سلسلة من المناظرات والمجادلات المطولة. (2)

ولم يمض وقتٌ كبيرٌ على اسلام ابن سلام إلا والتحق به عالم آخر من علماء

1. للوقوف على نص هذه المناظرات راجع السيرة النبوية: ١ / ٥٣٠ - ٥٧٢، بحار الأنوار: ٩ / ٣٠٣ فما بعد.
2- للوقوف على نص هذه المناظرات راجع السيرة النبوية: ١ / ٥٣٠ - ٥٧٢، بحار الأنوار: ٩ / ٣٠٣ فما بعد.

(29)

اليهود هو «المخيريقي».»

وكان عبدالله بن سلام يعلم بأنه سيدّمه قومه من اليهود إذا عرفوا باسلامه وترك دينهم، من هنا طلب من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يكتم عن الناس إسلامه، ريثما يحصل أولاً على اعتراف من قومه بعلمه وتقواه، وبمعرفة صلاحه قائلاً: «يا رسول الله إن يهود قومٌ بُهت، وأنا أحبُّ أن تُدخلني في بعض بيوتك، وتغيّبني عنهم ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني.»

فأدخله رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في بعض بيوته وأخفاه عن الانظار ثم قال لليهود الداخلين عليه:

«أى رجل الحصين بن سلام فيكم؟»

قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا، فخرَج عليهم «عبدُ الله بن سلام» من مخبأه وقال لهم: يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فاني أشهدُ أنه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وأؤمن به وأصدقّه وأعرفه.

فغضب اليهود من مقالته، وقالوا له: كذبت ووقعوا فيه، وعابوه، وبهتوه. (1)

خطة أخرى للقضاء على الحكومة الإسلامية:

لم تضعف مجادلات اليهود واستئلتهم العويصة عقيدة المسلمين وإيمانهم برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فحسب، بل تسببت في أن تتضح مكانته العلمية، وقيمة معارفه الغيبية للجميع أكثر من ذي قبل.

ففي ظلّ هذه المجادلات والمحاورات رغب جماعات كبيرة من الوثنيين واليهود في الإسلام فأمنوا برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وصدقوه.

من هنا دبّر اليهود مؤامرة أخرى وهي التذرّع بأسلوب «فرّق تسد»، لالقاء

[1] السيرة النبوية: ١ / ٥١٦.

فقد رأى دهاة اليهود وساستهم أن يستغلوا رواسب الاختلافات، ويؤججوا نيران العداة القديم بين الأوس والخزرج الذي زال بفضل الإسلام وبفضل ما رساه من قواعد الاخوة والمساواة والمواساة والمحبة، بعد أن كانت مشتعلةً طوال مائة وعشرين عاماً متواليه، ليستطيعوا بهذه الطريقة تمزيق صفوف المسلمين بإثارة الحروب الداخلية بينهم، والتي من شأنها ابتلاع الاخضر واليابس والقضاء على الجميع دونما استثناء.

ففيما كان نرفً من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه إذ مرّ عليهم «شاس بن قيس» وهو يهوديٌّ شديد العداة للإسلام، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، فغاضه ما رأى من ألفة الأوس والخزرج، واجتماعهم وتواددهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة الطويلة في الجاهلية، فأمر قتي من يهود كان معهم فقال له: إغمد إلبهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعثت (1) وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا وتبادلوا فيه من الأشعار!! ابقاعاً بين هاتين الطائفتين من الأنصار، وإثارة لنيران الاحقاد الدفينة، والعداوات الغابرة.

ففعل ذلك الغلام اليهودي ما أمره به «شاس» فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا، وتفاخروا، وتواتب رجالان من القبيلتين على الركب وأخذ كل منهما يهدد الآخر، وتفاقم النزاع، وغضب الفريقان وتصاحبا، وقاما إلى السلاح وكاد أن يقع قتالٌ ودمٌ بعد أن ارتفعت النداءات القبلية بالاستغاثة والاستنجد على عادة الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وعرف بمكيدة اليهود، ومؤامرتهم الخبيثة هذه، فخرج إلى تلك الجماعة المتصاحبة من الأوس والخزرج في جمع من أصحابه المهاجرين فقال:

- [قد مر ذكر هذه الواقعة وقلنا: هو يوم اقتتل في الأوس والخزرج وكان الظفر يومئذ للأوس على الخزرج.

(31)

«يا معشر المسلمين، الله الله أيدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف بين قلوبكم؟؟»

فعرف القوم أنها مؤامرة مبيتة من اليهود اعداء الإسلام والمسلمين، وكيدٌ خبيثٌ منهم، فندموا على ما حدث، وبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - سامعين مطيعين، وأطفأ الله عنهم كيدَ أعدائهم. (1)

إلا أن مؤامرات اليهود لم تتوقف عند هذا الحد، ولم تنته بهذا، فقد اتسعت دائرة خيانتهم وجنابيتهم، ونقضهم للعهد وأقاموا علاقات سرية وخاصة مع مشركي الأوس والخزرج، ومع المنافقين والمترددين في اسلامهم واعتقادهم، واشتركوا بصورة صريحة في

اعتداءات قريش على المسلمين، وفي الحروب التي وقعت بين الطرفين، وكانوا يُقدّمون كل ما أمكنهم من الدعم والمساعدة للوثنيين، ويعملون لصالحهم!!

وقد جرّت هذه النشاطات السرية والعلنية المضادّة للمعادية للإسلام والمسلمين، وهذا التعاون المشؤوم مع مشركي قريش، جرّت إلى وقوع مصادمات وحروب دامية بين المسلمين والطوائف اليهودية أدت في المآل إلى القضاء على الوجود اليهودي في المدينة .

وسبأتي ذكر هذه الحوادث في وقائع السنة الثالثة والرابعة من الهجرة، وسيُضح هناك كيف أن الجماعة اليهودية ردت على الجميل الذي تعكسه كلتا المعاهدتين من أولهما إلى آخرهما، بنقض العهد، ومعاداة الإسلام والمسلمين، والتآمر ضدّ رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - خاصّة، وبنصرة أعدائه، ودعم خصومه، الأمر الذي أجبر النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - على تجاهل تلك المعاهدات الودية والإنسانية ومن ثم محاربتهم، وإخراجهم من المدينة وما حولها والقضاء على

-[السيرة النبوية: ١ / ٥٥٥ - ٥٥٧.

(32)

ما تبقى من كياناتهم الشريرة.

لقد أقام رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - في المدينة من ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة إلى شهر صفر من السنة الثانية حتّى بنى المسجد والبيوت والمنازل المحيطة بها، وقد أسلم في هذه الفترة كلّ من تبقى من الأوس والخزرج، ولم تبق دارٌ من دور الانصار إلاّ أسلم أهلها، ما عدا بعض العوائل والفروع ممن بقوا على شركهم، ولكنهم أسلموا بعد معركة بدر. (1)

-[السيرة النبوية: ١ / ٥٠٠.

(33)

حوادث السنة الثانية من الهجرة

٢٧

**مناورات عسكرية
واستعراضات حربية**

الهدف من هذا الفصل هو شرح وبيان الأسرار الكامنة وراء سلسلة الاستعراضات الحربية، والمناورات العسكرية، التي قام وأمر بها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فقد بدأت هذه المناورات منذ الشهر الثامن من الهجرة واستمرت حتى شهر رمضان من السنة الثانية، وتعد في الحقيقة أول مناورات عسكرية، وعروض حربية قام بها المسلمون.

إن التفسير الصحيح لهذه الوقائع، وبيان رموزها وأسرارها إنما يتيسر إذا طالعنا نص ما كُتِبَ حول هذه الوقائع في المصادر التاريخية من دون زيادة أو نقصان ثم نعرض على القارئ الكريم رأي المحققين من المؤرخين فيها.

واليك فيما يأتي خلاصة هذه الحوادث:

- [لم يكن يمضي على إقامة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المدينة أكثر من ثمانية أشهر عندما عقد النبيّ أول لواء لقائد عسكريّ شجاع هو «حمزة بن عبدالمطلب» وقد أمره على ثلاثين رجلاً من المهاجرين بعثهم إلى سواحل البحر الأحمر حيث الطرق التجارية التي تمر فيها قافلة قريش التجارية، فالتقوا قافلة قريش في «العيص» فيها أبوجهل في ثلاثمائة رجل من أهل مكة، فاصطَفُوا

(34)

للقتال، ولكنهما تفرقا ولم يقع قتال لوساطة قام بها «مجدى بن عمرو» الذي كان حليفاً للفريقين، فانصرف حمزة راجعاً إلى المدينة، وتوجّه أبوجهل في عبره وأصحابه إلى مكة. (1)

تهديد خطوط قريش التجارية

غزوة بدر:

إنقضت السنة الأولى من الهجرة بكل حوادثها الحلوة والمرّة، والمسرة والمحنة، ودخل النبيّ وأصحابه العام الثاني من الهجرة.

والسنة الثانية من الهجرة تتضمن حوادث عظيمة وباهرة، ومن أبرزها حادثتان تحظيان بمزيد من الأهمية احدهما: تغيير القبلة والأخرى وقعة بدر الكبرى.

ولكي تتضح أسباب وعلل معركة بدر نذكر سلسلة من الوقائع التي وقعت قبلها، إذ بتحليلها ودراستها تتضح أسباب معركة بدر.

لقد كان من بين الحوادث التي وقعت في أواخر السنة الأولى وبدايات السنة الثانية من الهجرة: بعث «الدوريات العسكرية» إلى

خطوط قريش التجارية (2) والآن يجب أن نرى ما هو هدف الحكومة الإسلامية من هذه البعوث

I- السيرة النبوية: ٢ / ٢٢٢ فما بعد، بحار الأنوار: ١٩ / ١٨٦ - ١٩٠، امتاع الاسماع: ص ٥١، الكامل في التاريخ: ٢ / ٧٧ و ٧٨ والمغازي للواقدي: ١ / ٩ - ١٩.
2- لقد بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - دوريات عسكرية عديدة إلى ضواحي المدينة وأطرافها لتهديد قوافل قريش التجارية.
وقد كان ينبغي - طبقاً للترتيب الموضوعي والتسلسل التاريخي - أن نذكر بعض السرايا مثل سرية حمزة وسرية عبيدة بن الحارث في فصل وقائع السنة الأولى للهجرة، بيد أنه لوجود مناسبة بينها وبين حوادث السنة الثانية ذكرناها في أحداث السنة الثانية.
هذا مضافاً إلى أن ابن هشام - تبعاً لابن أسحاق - يرى وقوع هذه الحوادث في السنة الثانية من الهجرة وان كان الواقدي يعتبر بعضها من حوادث السنة الأولى.

(35)

العسكرية.

هناك مصطلحان رائجان في كتابات المؤرخين وكتاب السيرة أكثر من أي مصطلح آخر وهما لفظة: «الغزوة» و «السرية»⁽¹⁾.

والمقصود من «الغزوة» تلك العمليات العسكرية التي كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يشارك فيها بنفسه، ويتولى قيادتها بشخصه.

على حين يكون المقصود من «السرية» إرسال مجموعات عسكرية وفرق وكتائب نظامية لا يشترك فيها رسول الله بنفسه بل يؤمّر عليها أحد قادته العسكريين ويوجهها إلى الوجهة التي يريدونها.

وقد أحصيت غزوات النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فكانت (٢٧) أو (٢٦) غزوة.

ويعود الاختلاف في العدد إلى أن بعض المؤرخين يعتبر غزوة «خيبر» و غزوة «وادي القرى» اللتين حدثتا تباعاً ومن دون فاصلة غزوتين والبعض الآخر عدّهما غزوة واحدة.⁽²⁾

وقد وقع نظير هذا الخلاف في تعداد سرايا النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أيضاً فأحصى المؤرخون (٣٥)، (٣٦)، (٤٨)، و حتى (٦٦) سرية.

ويعود هذا الاختلاف إلى أن بعض السرايا لم يُحسب لها حساب لقلّة أفرادها، ولهذا حدث هذا الاختلاف في العدد.

من هنا كَلّمنا ذكرنا لفظ السرية قصدنا منه ما لم يشارك فيه النبي، وكلمنا ذكرنا لفظ الغزوة قصدنا منه ما شارك فيه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بنفسه.

وقد أحجمنا عن ذكر السرايا إلا سرايا السنوات الأولى من الهجرة لأن في بيان هذه الطائفة من السرايا أثراً مهماً في تفسير بعض الغزوات مثل غزوة «بدر».

وإليك بيان هذه السرايا والغزوات وشرح تفاصيلها.

2-في نفس الوقت الذي بعث فيه رسول الله سرية حمزة، عقد لواء آخر لعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب، وبعثه في ستين ركباً من المهاجرين بهدف التعرض لقافلة قريش التجارية، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل «ثنية المرة»⁽¹⁾ فلقى بها جمعاً عظيماً من قريش يبلغ مائتين بقيادة أبي سفيان، ولكن لم يكن بينهم قتال إلا أن «سعد بن أبي وقاص» رُمي يومئذ بسهم، كما أنه التحق رجلاً من المسلمين كانا في صفوف أبي سفيان بالمسلمين وقد خرجا مع الكفار وجعل ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين والالتحاق بهم.⁽²⁾

3-بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في شهر ذي القعدة في السنة الأولى من الهجرة سرية أخرى بقيادة «سعد بن أبي وقاص» على رأس ثمانية أشخاص آخرين من المهاجرين للتحقيق في تنقلات قريش ورصد تحركاتها خارج المدينة، فخرجوا حتى بلغوا منطقة «الخرار» ولكنهم لم يجدوا أحداً فعادوا إلى المدينة.⁽³⁾

النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يلاحق قريشاً بنفسه:

4-في شهر صفر من السنة الثانية للهجرة استعمل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على المدينة «سعد بن عباد» وأناط إليه ادارة أمورها الدينية وخرج بنفسه مع جماعة من المهاجرين والأنصار، لملاحقة ركب قريش التجاري واعتراضه، وعقد معاهدة موادة مع «بني ضمرة» حتى بلغ الابواء، ولكنه لم يلق أحداً من قريش، فرجع - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هو ومن معه إلى المدينة.⁽⁴⁾

5-وفي شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة استعمل - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مرة أخرى على المدينة: «السائب بن عثمان» أو «سعد بن معاذ» وخرج هو على رأس مائتين من الرجال يريد قريشاً حتى بلغ بواط (وهو جبل من جبال

بقرب ينبع على بُعد ٩٠ كيلومتراً من المدينة تقريباً) ولكنه لم يظفر بقافلة قريش التي كان يقودها «أمية بن خلف» وعلى رأس مائة رجل من قريش، فرجع إلى المدينة.

6- وفي منتصف شهر جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة جاء الخبر أن قافلة قريش التجارية تخرج من مكة بقيادة أبي سفيان تريد الشام للتجارة، وقد جمعت قريش كل أموالها في تلك القافلة، فخرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في جمع من أصحابه لاعتراضها حتى بلغ «ذات العشيرة» وقد استعمل على المدينة هذه المرة «أبا سلمة بن عبد الأسد»، وبقي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في ذات العشيرة إلى أوائل شهر جمادى الآخرة ينتظر قافلة قريش، ولكنه لم يظفر بها، ثم وادع فيها بني مدلج وعقد معاهدة عدم اعتداء ذكرتها المصادر التاريخية بالنص. (1)

وقال ابن الأثير: في هذه الغزوة (والمكان) نزل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وجماعته في بواط عند عين فنم علي وعمار فوجدهما رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نانمين في رعاء من التراب فايقظهما، وحرك علياً فقال: قم يا أبا تراب ألا اخبرك باشقى الناس: أحيمر ثمود عاقر الناقة، والذي يضربك على هذه [يعني قرنه] فيخضب هذه منها [يعني لحيته]. (2)

7- بعد أن رجع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى المدينة بعد اليأس من قافلة قريش لم يقم بالمدينة إلا ليالي قلائل لا تبلغ العشر حتى هاجم «كرز بن جابر الفهري» على ابل أهل المدينة ومواشيهم التي كانت قد سرحت للرعي بالغداة.

فخرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في طلبه وقد استعمل على المدينة زيد بن حارثة حتى بلغ واديا من ناحية بدر وفاته كرز بن جابر فلم يدركه ثم رجع - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومن معه إلى المدينة فأقام بها بقية جمادى الآخرة ورجباً

[1] السيرة النبوية: ١ / ٥٩٨، تاريخ الخميس: ١ / ٣٦٣.
[2] الكامل: ٢ / ١١٢ والمستدرک علی الصحیحین: ٣ / ١٤٠ و ١٤١.

8- وفي شهر رجب من السنة الثانية للهجرة بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «عبدالله بن جحش» على رأس ثمانية رجال من المهاجرين لملاحقة قافلة قريش التجارية، وقد كتب له كتاباً بالمهمة التي يجب ان ينفذها، وأمره أن لا ينظر فيه قائلاً له: «قد استعملتُك على هؤلاء النَّقَر فامض حتى إذا سرت ليلتين فانشر (أي افتح) كتابي ثم امض (أي نَقْد) لما فيه. »

ثم عيّن له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الوجهة التي يجب أن يتوجّه إليها.

فانطلق عبدالله ورفقاؤه وساروا يومين كاملين كما أمرهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثم فتح عبدالله كتاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقرأ ما فيه، فاذا فيه:

«إذا نُظِرَتْ في كتابي هذا فامض حتى تنزل نَحْلَةٌ بينَ مَكَّةَ والطائفِ على اسمِ الله وبركته فترصدَ بها قريشاً، وتعلّم (أي حصل) لنا من أخبارهم ولأتكرهنّ أحداً من أصحابك⁽²⁾ وامض لأمري فيمن تبعك. »

فلما قرأ الكتاب قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن امضي إلى نخلة أرصد بها قافلة قريش حتى أتية منهم بخبر، وقد نهاني أن استكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينبثق، ومن كره ذلك فليرجع فأما أنا فماض لأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ومن أراد الرجعة فمن الآن.

- [السيرة النبوية: ١ / ٦٠١، الطبقات الكبرى: ٢ / ٩، وقد عدّ بعض المؤرخين هذه الحادثة ضمن الغزوة التي عُرفت في التاريخ باسم غزوة صفوان أو غزوة بدر الأولى].
2- يقال إنه كان الجنود - إلى حين الحرب العالمية الثانية - إذ انتهوا من خدمتهم العسكرية تُسَلَّم اليهم مع وثيقة الانتهاء من الخدمة العسكرية رسالة مغلقة محتومة يؤمر الجندي فيها بالمحافظة عليها كأمانة عسكرية لا يجوز له فتحها إلا عند حالات النفير العام، والعمل بمضمونها وقد سبق النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى هذا التكتيك العسكري في أعماله النظامية.

(39)

فقال أصحابه اجمعون: نحن سامعون مطيعون لله ولرسوله ولك فسير على بركة الله حيث شئت، فسار هو ومن معه لم يتخلف منهم أحد حتى جاء نخلة فوجد قافلة لقريش يرأسها «عمرو بن الحضرمي» وهي عائدة من الطائف إلى مكة، فنزل المسلمون بالقرب منهم، ولكي لا يكتشفهم العدو، ولا يعرف بأمرهم ومهمتهم حلقوا رؤوسهم ليتصوّر العدو أنهم عمّار يعتزّمون الذهاب إلى مكة للعمرة فلما رآهم رجال قريش على هذه الحال اطمأنوا وأمنوا جانبهم وقالوا: عمّار لا بأس عليكم منهم.

ثم تشاور المسلمون فيما بينهم في جلسة عسكرية للنظر فيما يجب عمله فنتبين لهم: أنهم إذا تركوا القوم (أي قريشاً) في تلك الليلة (وكانت آخر ليلة من شهر رجب) لدخلوا الحَرَم، ولم يمكن قتالهم فيه، وان خرج الشهر الحرام.

فأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم، من هنا باغتوا تلك القافلة، ورمى «واقد بن عبد الله» قائدها «عمرو بن الحضرمي» بسهم فقتله، وفرّ رجاله إلا نفرين هما: «عثمان بن عبد الله» و «الحكم بن كيسان» حيث أسرهما المسلمون، وعاد عبد الله بن جحش وأصحابه بالقافلة مع ما فيها من أموال قريش والاسيرين إلى المدينة.

ولما قدموا على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المدينة وأخبروه بأنهم قاتلوا القوم في الشهر الحرام (رجب) انزعج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من تصرف قائد المجموعة وعدم استفساره لما يجب أن يفعله بشدّة وقال:

«ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام. »

وقد استخدمت قريش هذه القضية كسلاح دعائى ضدَّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واشاعت بأنَّ «محمَّدًا» وأصحابه قد استحلُّوا الشهرَ الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا الاموال كما أنه تشاءم اليهود بهذه القضية وأرادوا أن يثيروا فتنَةً، وعاب المسلمون على «عبدالله بن جحش وأصحابه» فعلتهم هذه من جانب ومن جانب آخر وقَّف النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الاموالَ والأسيرين

(40)

وإبى أن يأخذ من كل ذلك شيئاً وبقي ينتظر الوحي:

وفجأة نزل جبرئيل بهذه الآية:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ (1)).

أي إن كنتم قتلتهم في الشهر الحرام، فقد صدّوكم عن سبيل الله مع الكفر به وصدّكم عن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهلُه أكبرُ عندالله من قتل من قتل منهم «وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ» أي ما كانوا يرتكبونه من فتنه المسلم في دينه حتّى يردُّونه إلى الكفر بعد إيمانهم أكبر عندالله من القتل.

ولما نزل القرآن بهذا الأمر، وفرَّج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف والحيرة قبض رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الاموالَ، والأسيرين وقسمها بين المسلمين، وكانت أول غنيمة غنمها المسلمون.

وبعثت قريشاً إلى النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في فداء أصحابهم فقال النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«لن نفديهما حتّى يقدّم صاحبانا. »

يعني - رجلين من المسلمين كانا قد أسيرا من قبيل قريش، قد اشتركا في هذه العمليّة ولكنهما اضلا طريقهما في الصحراء فأسرتهما رجال من قريش.

وهكذا أبى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يطلق سراح أسيري قريش لقاء فدية إلا إذا أطلق المشركون أسيري المسلمين. قاتلا لموفدي قريش:

«إني أخاف على صاحبَيَّ فإن قتلتُ صاحبَيَّ قتلتُ صاحبَيْكُم.»

فاضطرت قريش إلى الإفراج عن المسلمين الأسيرين، ومع وصولهما إلى المدينة أفرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن أسيري قريش.

ومن حَسْنِ الحَظِّ أَنْ إِحْدَى ذَيْنِكَ الأَسِيرِينَ أَسْلَمَ وَرَجَعَ الأَخْرَ إِلَى مَكَّةَ. (2)

1-البقرة: ٢١٧.

2-المغازي: ١ / ١٣ - ١٨، السيرة النبوية: ١ / ٦٠٣ - ٦٠٥.

(41)

ماذا كان الهدف من المناورات العسكرية؟

لقد كان الهدف الأساسي من بعث وتوجيه السرايا، وعقد الاتفاقيات والمعاهدات العسكرية مع القبائل القاطنة على خطوط التجارة المكية هو إيقاف قريش على قوة المسلمين العسكرية، واشتداد ساعدتهم، وخاصة عندما كان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يشترك بنفسه في العمليات، ويترصد مع مجموعات كبيرة من أنصاره تحركات قريش الاقتصادية، ويعترض قوافلها التجارية.

لقد كان رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يريد بذلك إفهام حكومة مكة الوثنية بأن جميع طرق التجارة المكية هي في متناول يده، وأنه يستطيع - متى شاء - أن يُشَلِّقَ اقتصاد المكيين بتعريض خطوطهم وطرقهم التجارية، للتهديد الجدي.

ولقد كانت التجارة أمراً حيويًا وحساساً جداً بالنسبة إلى أهل مكة، وكانت البضائع التي تنقل منها إلى الطائف والشام تشكل أساس الاقتصاد المكي، فإذا كانت هذه الخطوط تتعرض للتهديد من قِبَلِ العدوِّ وحلفائه مثل «بني ضمرة» و «بني مدلج» فإن ذلك كان يعني انهدام وانهيار حياتهم.

لقد كان الهدف من بعث تلك الدوريات العسكرية هو: أن تعرف قريش بأن طريق تجارتها الرئيسية هي الآن تحت رحمة المسلمين، فإذا استمرُّوا في معاداتهم للإسلام وللمسلمين وحالوا دون انتشار الإسلام والدعوة إليه واستمروا في إيذاء من تبقَّى من المسلمين المستضعفين والعجزة في مكة واضطهادهم، قطع المسلمون شريان اقتصادهم.

والخلاصة: أنَّ الهدف كان هو أن تعيد قريش النظر في مواقفها في ضوء الحالة الجديدة، والتهديد العسكري الإسلامي الجدي، وتترك للمسلمين الحرية في الدعوة إلى عقيدتهم، وتفتح الطريقَ لزيارة بيت الله الحرام، ونشر التوحيد ليستطيع الإسلام بمنطقه القوي، والمحكم أن ينفذ في القلوب، ويتجلى نورُ الإسلام ويشعُّ على جميع نقاط شبه الجزيرة العربية، وربوعها، وبخاصة منطقة

(42)

الحجاز مركز الجزيرة، وقلبها النابض.

فان المتكلم مهما كان قوئ المنطق، سديد البرهان وأن المرَبّي والمرشد مهما كان مخلصاً مجداً فإنه لا يستطيع أن يحرز اي نجاح في تنوير العقول، وتهذيب النفوس وبث الفكر الصحيح إذا لم تتوفر له حرية العمل، ولم تنهيا له البيئة المطمئنة وأجواء الحرّية والديمقراطية.

ولقد كان الاضطهاد والكبت وسلب الحريات التي كانت تمارسها قريش هي الموانع الكبرى أمام تقدّم الإسلام وسرعة انتشار نفوذه، وكان الطريق إلى كسر هذا السدّ، وإزالة هذا المانع ينحصر في تهديد إقتصادها وتعريض خطوطها التجارية، للخطر، وكانت هذه الخطة تتحقق فقط عن طريق القيام بتلك المناورات العسكرية والاستعراضات الحربية، والعمليات الاعتراضية.

نظرية المستشرقين:

ولقد وقع المستشرقون عند تحليلهم لهذه العمليّات في خطأ كبير، وتفوّها نتيجة ذلك بكلام يخالف القرائن والشواهد الموجودة في التاريخ.

فهم يقولون: لقد كان هدف النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - من مصادرة أموال قريش، والسيطرة عليها هو تقوية نفسه.

في حين أنّ هذا الرأي لا يلائم نفسيّة أهل يثرب لأنّ الغارّة، وقطع الطريق، واستلاب الأموال، من شيم الاعراب أهل البوادي، البعيدين عن روح الحضارة، وقيم المدنية وأخلاقها، بينما كان مسلمو يثرب عامة، أهل زرع، وفلاحة، ولم يُعهد منهم أن قطعوا الطرق على القوافل، أو سلبوا أموال القبائل التي كانت تعيش خارج حدودها.

وأما حروب الأوس والخزرج فقد كان لها أسبابٌ وعللٌ محلّية، وقد كان اليهودُ هم الذين يؤججون نيرانها، بغية إضعاف القوى والصفوف العربية وتقوية نفسها وموقعها.

ومن جانب آخر لم يكن المسلمون المهاجرون الذين كانوا حول الرسول

(43)

- صلّى الله عليه وآله وسلم - بنوون ملافاة ما خسروه، رغم أنّ ثرواتهم وممتلكاتهم كانت قد صوّرت من قبيل المكيين، ويدل على ذلك أنهم لم يتعرضوا بعد معركة «بدر» لأية قافلة تجارية لقريش.

كيف لا وقد كان الهدف وراء أكثر هذه البعوث والارساليات العسكرية هو تحصيل وجمع المعلومات، عن العدو وتحركاته وخططه، والمجموعات التي لم يكن يتجاوز عدد أفرادها غالباً الثمانية أو الستين أو الثمانين رجلاً لا يمكنها قطع الطريق، واستلاب الاموال،

ومصادرة القوافل التجارية الكبرى التي كان يقوم بحراستها رجال أكثر عدداً وأقوى عُدة من تلك السرايا، بأضعاف المرات غالباً

فإذا كان الهدف هو الحصول على المال والثروة من هذا الطريق فلماذا خُصَّت قريش بذلك، ولم يعترض المسلمون تجارة غيرهم من القبائل المشتركة؟

ولماذا لم يمس المسلمون شيئاً من أموال غير قريش.

وإذا كان الهدف هو الغارة، وقطع الطريق واستلاب الأموال، فلماذا كان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يبعث المهاجرين فقط، ولا يستعين بأحد من الأنصار في هذا المجال غالباً؟

وربما قال هؤلاء المستشرقون: ان المقصود من هذه العمليات الاعتراضية كان هو الانتقام من قريش، لأنَّ النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه تعرَّضوا على أيدي المكيين لألوان التعذيب والاضطهاد والأذى، فدفعتهم غريزة الانتقام والثأر - بعد أن حصلوا على القوة - إلى تجريد سيوفهم، للانتقام من الذين طالما اضطهدوهم، وليسفكوا منهم دماً!!

ولكن هذا الرأي لا يقل في الضعف والوهن والسخافة عن سابقه، لأنَّ الشواهد والقرائن التاريخية الحيّة العديدة، تكذِّبه وتفنِّده، وتوضِّح - بجلاء - أن الهدف من بعث تلك السرايا والدوريات العسكرية لم يكن أبداً القتال والحرب، والانتقام وسفك الدماء.

واليك مايدلُّ على بطلان هذه النظرية:

(44)

أولاً:

إذا كان هدف النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من بعث تلك المجموعات العسكرية هو القتال واستلاب الاموال واخذ المغنم، وجب أن يزيد في عدد أفراد تلك المجموعات، ويبعث كتائب عسكرية مسلحة، ومجهزة تجهيزاً قوياً، إلى سيف البحر، وشواطئه على حين نجد أنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعث مع «حمزة بن أبي طالب» ثلاثين شخصاً، ومع «عبيدة بن الحارث» ستين شخصاً، ومع «سعد بن أبي وقاص» أفراداً معدودين لا يتجاوزون العشرة، بينما كانت قريش قد أناطت حراسة قوافلها إلى أعداد كبيرة جداً من الفرسان، تفوق عدد أفراد المجموعات العسكرية الإسلامية.

فقد واجه «حمزة» ثلاثمائة، وعبيدة مائتين رجلاً من قريش، وقد ضاعفت قريش من عدد المحافظين والحرس على قوافلها خاصة بعد أن عرفت بالمعاهدات والتحالفات التي عقدها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مع القبائل القاطنة على الشريط التجاري؟!

هذا مضافاً إلى أنه لو كان قادة هذه البعوث والدوريات مكافئين بمقاتلة العدو فلماذا لم يسفك من أحد قطرة دم في أكثر تلك البعوث والعمليات ولماذا انصرف بعضهم لوساطة قام بها «مجدى بن عمرو» بين الطرفين؟!

ثانياً:

ان كتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الذي كتبه لعبدالله بن جحش شاهدٌ حىٌ على أن الهدف لم يكن هو القتال، والحرب

فقد جاء في ذلك الكتاب: «انزل نخلتة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم (اي حصل) لنا من أخبارهم. »

إن هذه الرسالة توضح بجلاء أن مهمة عبدالله وجماعته لم تكن القتال قط، بل كانت جمع المعلومات حول العدو وتنقلاته وتحركاته، أي مهمة استطلاعية حسب.

واما سبب الصدام في «نخلتة» ومصرع عمرو الحضرمي فقد كان القرار الذي أخذته الشورى العسكرية التي عقدتها نفس المجموعة، وليس بقرار وأمر من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

(45)

ومن هنا انزعج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمجرد سماعه نبأ هذا الصدام الدموي ولا مهم على فعلتهم وقال:

«ما أمرتكم بقتال.»

ويؤيد هذا ما ورد في مغازي الواقدي عن سليمان بن سحيم أنه قال: ما أمرهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالقتال في الشهر الحرام، ولا غير الشهر الحرام إنما أمرهم أن يتحسبوا أخبار قريش. (1)

والعلة في أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يختار لهذه الدوريات والبعوث رجالاً من المهاجرين دون الأنصار هي أن الانصار قد بايعوا في العقبة على الدفاع، أي أن معاهدتهم مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كانت معاهدة دفاعية تعهدوا بموجبها بأن يمنعوهم من أعدائه ويدافعوا عنه إذا قصدت عدو.

من هنا ما كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يريد أن يفرض عليهم مثل هذه المهمات، ويبقى هو في المدينة، ولكنه عند ما خرج - فيما بعد - بنفسه أخذ معه جماعة من رجال الانصار تقوية لروابط الاخوة والوحدة بين المهاجرين والأنصار، ولهذا كان رجاله في غزوة «بواط» أو «ذات العشيرة» يتكونون من الأنصار والمهاجرين.

وعلى هذا الاساس يتضح بطلان نظرية المستشرقين حول الهدف من بعث الدوريات العسكرية.

كما أن بالتأمل والامعان في ما قلناه يتضح أيضاً بطلان ما قالوه في هذا المجال في تلك العمليات التي شارك فيها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بنفسه، إذ أن الذين خرجوا معه ما كانوا ينحسرون في المهاجرين خاصة بل كانوا خليطاً من المهاجرين والأنصار، والحال أن الأنصار لم يبايعوا النبي على القيام بأية عملية هجومية ابتدائية، بل كل ما بايعوا عليه النبي كما قلنا هو: العمل الدفاعي،

- [المغازي: ١ / ١٦].

(46)

فكيف يصح أن يدعوهم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى عمليات قتالية ابتدائية هجومية.

وتشهد بما نقول حادثة وقعة بدر التي سنشرحها في ما بعد، فما لم يعلن الأنصار عن موافقتهم على قتال قريش لم يقرر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الحرب، في تلك الواقعة.

هذا والسبب في تسمية أصحاب السير والتواريخ هذا النوع من العمليات التي خرج فيها النبي بنفسه (غزوة) وان لم يقع فيها قتالٌ وغزو، هو أنهم أرادوا أن يجمعوا كل الحوادث تحت عنوان واحد، وإلا فلم يكن الهدف الاساسي من هذه العمليات هو الحرب والقتال، أو السيطرة على الأموال وسلبها.

(47)

٢٨

تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة

لم يكن قد مضى على هجرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى المدينة عدة أشهر إلا وبدأت نغمة معارضة اليهود للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - تظهر شيئاً فشيئاً!!

وفي الشهر السابع عشر من الهجرة بالضبط⁽¹⁾ أمر الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - بالأمر المؤكد القاطع بأن يتحول إلى الكعبة ويتخذها من الآن فصاعداً قبلةً له وللمسلمين كافة، فيتوجهون إلى المسجد الحرام في أوقات الصلوات.

هذا هو مجمل القصة، واليك بيانها على وجه التفصيل.

صلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثلاثاً عشر عاماً كاملة في مكة نحو بيت المقدس.

وبعد الهجرة إلى المدينة كان الأمر الإلهي له هو أن يبقى على الحالة من حيث القبلة، أي أن يصلي إلى بيت المقدس، كما كان يفعل في مكة.

وقد كان هذا الاجراء نوعاً من المحاولة لاقامة التعاون والتقارب بين الدينين

[1- الطبقات الكبرى: ١ / ٢٤١ و ٢٤٢، إعلام الوري باعلام الهدى: ٧١ و ٧٢. ويقول ابن هشام في السيرة النبوية: ان القبلة صُرفت عن الشام إلى الكعبة في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المدينة (السيرة النبوية: ١ / ٦٠٦) ويرى ابن الاثير أن ذلك حدث في منتصف شهر شعبان (الكامل: ج ٢ ص ٨٠).

(48)

القديم والجديد، ولكن تنامي قوة المسلمين واشتداد ساعدتهم أحدث رعباً كبيراً، وأوجد قلقاً واسعاً في أوساط اليهود القاطنين في المدينة لأن تقدّم الإسلام والمسلمين المطرّد كان يدلّ على أن الدين الاسلامي سيعمّ في أقرب وقت كل أنحاء شبه الجزيرة العربية، وستنتقلص (بل تزول) في المقابل قوة اليهود وسلطانهم، ومكانتهم، من هنا نصب أحبار اليهود العداوة لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وعمدوا إلى ممارسة سلسلة من الأعمال الإجهاضية والإيدائية.

لقد أخذوا يؤذون رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمين بمختلف أنحاء الطرق وبشتى الوسائل والسبل، والمعاذير والحجج ومن جملتها التذرع بقضية صلاة النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمين إلى بيت المقدس.

فكانوا يقولون معيّرين إياه: أنتّ تابع لنا تصلي إلى قبلتنا!!

أو كانوا يقولون: تخالفنا يا محمّد في ديننا وتتبع قبلتنا. (1)

فشقّ هذا الكلام على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واغتم لذلك غمّاً شديداً فكان يخرج من بيته في منتصف الليل ويتطلع في آفاق السماء ينتظر من الله أمراً ووحياً في هذا المجال كما تفيد الآية الآتية:

«قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا(2)»

ويُستفاد من الآيات القرآنية في هذا المجال أنه كان لتغيير القبلة مضافاً إلى الردّ على دعوى اليهود سبباً آخر أيضاً.

وهو أن هذه المسألة كانت من المسائل الاختيارية التي اراد الله تعالى بها ان يمتحن المسلمين، ويميّز المؤمن الواقعي الحقيقي عن ادعياء الايمان، المنتحلين له كذباً ونفاقاً، وأن يعرف النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - به من حوله معرفةً جيدةً لأن إتباع النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الأمر الثاني الذي نزل على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في أثناء الصلاة (وهو التوجه

إلى المسجد الحرام) كان علامة قوية

1- مجمع البيان: ٢٥٥ / ١ أو: مادري محمّد وأصحابه أين قبلتهم حتّى هديناهم.
2- البقرة: ١٤٤.

(49)

من علامات الايمان والتسليم، والاخلاص والوفاء للدين الجديد.

بينما كانت مخالفته علامة قوية من علامات النفاق والتردد كما يصرّح القرآن الكريم بنفسه بذلك إذ يقول:

(وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ. (١))

ومن المسلم أنه يمكن الوقوف على حكم أخرى لهذا الأمر (أي صرف القبلة من الشام إلى الكعبة) إذا تتبعنا تاريخ الإسلام بشكل أوسع، وطالعنا أوضاع شبه الجزيرة العربية.

ويمكن الإشارة إلى بعض هذه الحكم مضافاً إلى ما ذكرناه:

أولاً:

أن الكعبة التي رفعت قواعدها على يدي بطل التوحيد وناشر لوائه النبي العظيم «إبراهيم الخليل» - عليه السلام - كانت موضع احترام وتقديس من المجتمع العربي، فقد كان العرب يحبون الكعبة ويعظمونها غاية التعظيم على ما هم عليه من الشرك والفساد، فكان اتخاذها قبلة من شأنه كسب رضا العرب، واستمالة قلوبهم، وترغيبهم في الإسلام تمهيداً لاعتناق دين التوحيد ونبذ الاوثان والاصنام.

وأى هدف، وأية غاية ترى أسمى وأجل من أن يؤمن المشركون المعاندون المتخلفون عن ركب الحضارة والمدنية، وينتشر الإسلام بسببهم في كل أنحاء العالم .

ثانياً:

أن الابتعاد عن اليهود الذين لم يكن يؤمل في إذعانهم للإسلام، وإيمانهم برسالة (محمّد) ذلك اليوم كان يبدو أمراً ضرورياً، لأنهم كانوا يقومون بأعمال ايدائية ضد الإسلام والمسلمين ويطلعون على رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم -

1- البقرة: ١٤٣. ويمكن بيان هذه العلة بصورة أخرى وهي إنما أمو بالصلاة إلى بيت المقدس لأن مكة وبيت الله الحرام كانت العرب ألفة بحجها فأراد الله أن يمتحن بغير ما ألفوه ليظهر من يتبع الرسول ممن لا يتبعه. (راجع مجمع البيان: ١ / ٢٢٢ و ٢٢٣).

(50)

بين الفينة والأخرى بأسئلة عريضة يشغلونه بها، يظهرون بها - حسب تصورهم - أنهم يعرفون أموراً كثيرة وأنهم علماء، وبذلك يضيِّعون على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الوقت، ويشغلونه عن مهامه الكبرى.

فكان تغيير القبلة واحداً من مظاهر الابتعاد عن اليهود واجتنباهم، تماماً مثل نسخ صوم يوم عاشوراء الذي تم لنفس هذا الغرض. فقد كانت اليهود تصوم يوم عاشوراء قبل الإسلام فأمر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المسلمين بأن يصوموا هذا اليوم أيضاً، ثم نسخ الأمر بصوم عاشوراء وفرض مكانه صوم شهر رمضان. (1)

وعلى كل حال فإن الإسلام الذي يتفوق على جميع الأديان، يجب أن تتجلى فيه هذه الحقيقة بحيث يغدو أمرُ تكامله وتفوقه بادياً للعيان، واضحاً للجميع.

وفي هذه الحالة تصوّر بعض المسلمين أن ما أتوا به من صلاة وعبادة وهم متجهين إلى بيت المقدس كان باطلاً إذ قالوا: كيف بأعمالنا التي كنا نعمل في قبلتنا الأولى، أو حال من مضى من أمواتنا وهم كانوا يصلون إلى بيت المقدس؟!

فنزل الوحي الإلهي يقول:

«وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ.» (2)

ومع ملاحظة هذه الاعتبارات وبينما كان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد انتهى من الركعة الثانية من صلاة الظهر، نزل عليه جبرئيل، وأمره بأن يتوجه بالمصلين معه صوب المسجد الحرام.

وجاء في بعض الاخبار أنّ جبرئيل أخذ بيد النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأداره نحو المسجد الحرام، فتبعه الرجال والنساء الذين كانوا يأتون به في

1- مجمع البيان: ١ / ٢٧٣.
2- البقرة: ١٤٣. والمراد من الايمان هنا هو العمل وهو من الموارد التي استعمل فيها لفظ الايمان وأريد به العمل.

فتحوّل الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فكان أول صلاته إلى بيت المقدس، وأخرها إلى الكعبة. ومنذ ذلك الحين جعلت الكعبة المعظمة - زاد الله من شرفها - قبلة مستقلة للمسلمين يتوجهون إليها في كثير من واجباتهم وشعائرهم

هذا والغريب أن اليهود الذين كانوا قبل نزول الأمر بالتحول من بيت المقدس إلى الكعبة المعظمة يفتخرون على المسلمين بأنهم يصلون على قبلة اليهود، لما حوّل المسلمون إلى الكعبة المعظمة، وأمروا بالصلاة إليها دون بيت المقدس أخذوا يعيرون على المسلمين التوجه إلى نقطة ما في الأرض فردّ الله عليهم بقوله:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. (3))

أي ان الله فوق الزمان والمكان، والتوجه إلى نقطة خاصة في حالة العبادة انما هو لمصالح اجتماعية خاصة فالصلاة إلى الكعبة توجه إلى الله كالصلاة إلى بيت المقدس بسواء.

كرامة علمية لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

وما ينبغي الاشارة إليه هنا هو: أن العرض الجغرافي للمدينة - طبقاً لمحاسبات علماء الفلك القدامى - هو ٢٥ درجة، وطولها ٧٥ درجة و ٢٠ دقيقة، ولهذا كانت قبلة المدينة لا توافق محراب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الباقي على حالته السابقة إلى الآن في مسجده الشريف، وقد سبّب هذا الاختلاف حيرة لدى بعض المتخصصين في هذا العلم، وربما دفعهم إلى ارتكاب توجيهاً وتبريرات لرفع هذا الاختلاف.

-[بحار الأنوار: ١٩ / ٢٠١ عن من لا يحضره الفقيه.
-2كالصلاة والذبح ودفن الموتى، والدعاء وغير ذلك.
-3البقرة: ١٤٢.

(52)

ولكن القائد المعروف بسردار الكابلي أثبت في الأونة الأخيرة - طبقاً للمقاييس المعروفة اليوم - أن خط المدينة الجغرافي على عرض ٢٤ درجة و ٥٧ دقيقة وطول ٣٩ درجة و ٥٩ دقيقة. (1)

وتكون نتيجة هذه المحاسبة هي أن قبلة المدينة تكون في نقطة الجنوب تماماً وتتحرف عن نقطة الجنوب بـ ٤٥ دقيقة فقط. وهذا الاستخراج الفلكي للقبلة ينطبق على محراب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أفضل تطبيق، ويُعدُّ هذا من كرامات النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - حيث توجه في حالة الصلاة (2) من بيت المقدس إلى الكعبة بصورة دقيقة ومن دون أي انحراف ولا جزئي مغتفر وذلك من دون أية محاسبة فلكية، وعلمية. وقد أخذ جبرئيل بيده وحول وجهه نحو الكعبة المعظمة كما أسلفنا. (3)

-[تحفة الأجلة في معرفة القبلة: ٧١، طبعة ١٣٥٩.
-2من لا يحضره الفقيه للصدوق: ١ / ١٧٨.

3-وقد نقل الحرّ العاملي في وسائل الشيعة: في أبواب القبلة: ٣ / ٢١٥ و ٢١٦ حادثة تحوّل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الصلاة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام فراجع.

(53)

٢٩

معركة بدر

معركة «بدر» من معارك الإسلام الكبرى ومن حروبة البارزة، وقد اكتسب الذين شاركوا في هذه المعركة منزلة خاصة بين المسلمين فيما بعد.

فالواقعة التي كان يشارك فيها فرداً أو عدة أفراد من المجاهدين في «بدر» أو اذا كانوا يشهدون على أمر قال المسلمون: ووافقنا عليه البديون.

أجل إن الذين شاركوا في معركة بدر من أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يدعون بالبديين، ولم يكن هذا إلا لأهمية تلك الواقعة التاريخية.

وتتضح علة هذه الأهمية إذا نحن استعرضنا تفاصيل هذه الواقعة.

لقد قلنا في ما سبق أنه بلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في منتصف جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة، أن قافلة قريش التجارية خرجت من مكة إلى الشام بقيادة «أبي سفيان بن حرب.»

فخرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لملاحقتها إلى «ذات العشيرة» وتوقف هناك إلى مطلع الشهر التالي، ولم يعثر على تلك القافلة، وقد كان وقت عودة القافلة معلوماً تقريباً، فقد كانت قافلة قريش تعود من الشام إلى مكة في أوائل الخريف.

ومن المعلوم أنّ أول خطوة على طريق الانتصار في مثل هذه المحالات هو

(54)

تحصيل اكبر قدر من المعلومات حول العدو لأنّ قائد الجيش مالم يعرف شيئاً عن استعدادات العدو، ونقطة تمركزه وتواجده، ومعنويات أفراد، فإنه ربما يهزم وينكسر في أول مواجهة.

ولقد كان من أساليب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الرائعة في جميع الحروب والمعارك التي ستقرأ تفاصيلها هو جمع المعلومات حول مدى استعداد العدو، ومبلغ تهيوه ومكان تواجده، وتمركزه، وهذه مسألة تحظى وإلى اليوم بأهمية خاصة في

الحروب العالمية والمحلية، بل وترصد لها ميزانيات كبرى، وتستخدم أجهزة عريضة في عالمنا الحاضر، كما هو معلوم للجميع، وكما أشرنا إلى ذلك فيما سبق.

وقد بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - غيناً له على قافلة قريش اسمه «عدي» - حسب رواية المجلسي (1) - أو «طلحة بن عبيدالله» و «سعيد بن زيد» حسب ما قال صاحب «حياة محمد» نقلاً عن المصادر التاريخية (2)، لإخباره عن مسير تلك القافلة، وعدد حراسها ورجالها ونوعية البضائع المحملة.

فلما عاد العين أخبر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

1- بأن قافلة قريش قافلة كبرى شارك فيها كل أهل مكة، حتى أنه ما من قرشي أو قرشية بمكة له متقال فصاعداً إلا بعث به في تلك القافلة.

2- إن البضائع يحملها ألف بعير وأن قيمتها تبلغ خمسين ألف دينار.

3- وأنه يقودها «أبوسفیان بن حرب» في أربعين رجلاً.

وحيث إن أموال المسلمين المهاجرين إلى المدينة كانت قد صودرت في مكة على أيدي قريش من هنا كان الوقت مناسباً جداً لأن يأخذ المسلمون أموال قريش في تلك القافلة، ويحتفظوا بها ريثما تفرج قريش عن أموال المسلمين المهاجرين المصادرة بمكة، فاذا لجؤا وأصرّوا في مصادرة أموال المسلمين قسّم

1- بحار الأنوار: ١٨ / ٢١٧.

2- المغازي: ١ / ١٩.

المسلمون في المقابل أموال قريش المأخوذة فيما بينهم وتصرفوا فيها كغنائم حرب من هنا قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لهم:

«هذا عيب قريش (أي قافلتهم) فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعلّ الله ينفلكُمها» (1)»

من هنا استخلفت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المدينة «عبدالله بن أم مكتوم» للصلاة بالناس، والقيام بالشؤون الدينية، و «أبا لبابة» للقيام بالشؤون السياسية.

ثم خرج من المدينة في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً لمصادرة أموال قريش أو بالاحرى توقيفها وحبسها.

النبي يتوجه إلى منطقة ذفران⁽²⁾

لقد ترك رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المدينة بعد أن أتاه خبر عن تحرك قافلة قريش، قاصداً وادي ذفران حيث طريق القافلة في يوم الاثنين، الثامن من شهر رمضان، وقد عقد رايتين سلم إحداهما إلى مصعب بن عمير، والأخرى (وتسمى العقاب) إلى علي بن أبي طالب - عليه السلام - .

ولقد كانت المجموعة التي خرج بها النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تتألف من إثنين وثمانين من المهاجرين، ومائة وسبعين من الخرج، وواحد وستين من الأوس، وكان عندهم ثلاثة أفراس فقط.

[1]المغازي: ١ / ٢٠ .
[2]وادي ذفران الذي كان يمر به قافلة قريش التجارية يقع على مرحلتين من بدر. وقد ذكر ابن هشام في سيرته جميع المراحل التي طواها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من المدينة إلى ذفران ومنه إلى بدر الذي ارتحل إليه رسول الله بعد أن بلغه نبأ تحرك قافلة قريش. وبدر كان موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام يتبايعون فيه ويتفاخرون على غرار سوق عكاظ، وكان يقع على طريق مكة والمدينة والشام. (راجع السيرة النبوية: ١ / ٦١٣ - ٦١٨).

(56)

ولقد بلغ حُبُّ الشهادة عند الأشخاص في المجتمع الإسلامي يومئذ مبلغاً عجباً حتى أن فتباناً دون الحلم اشتركوا في هذه المعركة، وردّ النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعضهم إلى المدينة لما استصغروهم. ⁽¹⁾

إن كلام رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يفيد بانه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد وعدهم بالرخاء والانفراج في المعيشة وذلك عن طريق السيطرة على أموال قريش، وأخذ بضائعها، وكان المسوخ لهذا العمل هو ما سبق أن ذكرناه، وهو أن قريشاً كانت قد صادرت كل أموال المهاجرين المسلمين في مكة، منقولها وغير منقولها، ومنعت من دخولهم مكة، وخرجهم منها.

ومن الواضح أن يسمح العاقل لنفسه - أيّاً كان - بأن يعامل عدوه بمثل هذه المعاملة التي عامله بها العدو.

وأساساً يجب أن نعلم أن سبب هجوم المسلمين على قافلة قريش هو أنهم قد ظلموا وفُهِروا، الأمر الذي يذكره القرآن الكريم أيضاً، ولذلك يسمح للمسلمين بأن يقاتلوا عدوّهم ويعترضوا تجارتهم إذ يقول:

(إِنَّ لِلَّذِينَ يُفَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ.)⁽²⁾

ولقد كان أبو سفيان قد عرف - عند توجهه بالقافلة إلى الشام - أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يترصد القافلة، ولهذا اتخذ كافة الاحتياطات عند فقوله ورجوعه من الشام، فكان يسأل القوافل عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وكان إذا رأى أحداً منهم سأله: هل أحسست أحداً؟!

1-المغازي: ٢١ / ١.

وروي أنه كان الرجل يساهم أباه في الخروج مع النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - رغبةً في الجهاد في سبيل الله والشهادة فكان ممن ساهم «سعد بن خيثمة» وأبوه في الخروج إلى بدر، فقال سعد لأبيه: انه لو كان غير الجنة آثرتك به، اني لأرجو الشهادة في وجهي هذا

فقال خيثمة: آثرني، وقرّمع نسائك! فابى سعد.

فقال خيثمة: إنه لأبد لأحدنا من أن يقيم، فاستئهما (أي اقتراعا) فخرج سهم سعد فقتل ببدر (المصدر).

2-الحج: ٣٩.

(57)

وكان رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قد خرج مع أصحابه من المدينة، يلاحق قافلة قريش، وقد نزل في وادي ذفران.

ولما أحسن أبو سفيان بذلك أحجم عن الاقتراب إلى منطقة بدر ولم ير بُدأً من أن يخبر قريشاً بالخطر الذي يحقد بتجارتهم، وأموالهم،

ويطلب مساعدتهم، فاستأجر رجلاً يدعى «ضمضم بن عمرو الغفاري» وأمره بأن يجدع بعيره (يقطع أنفه) ويحوّل رَحْله، ويشقّ

قميصه من قُبْله و دُبُرِه ويصيح الغوث! الغوث، ويخبر قريشاً أنّ محمداً تعرّض لتجارتهم!!

فخرج ضمضم سريعاً إلى مكة، ولما قدّمها وقف ببطن الوادي يصيح بأعلى الصوت: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة⁽¹⁾، أموالكم

مع أبي سفيان قد تعرّض لها محمّد في أصحابه، لا أرى ان تدركوها، الغوث الغوث.⁽²⁾

فأثار هذا المنظرُ المثيرُ، واستغاثات ضمضم المتابعة أهل مكة، فتجهزوا سراعاً، وتهيأوا للخروج، وأعدّ كلُّ صناديد قريش ورجالها

المقاتلون أنفسهم للتحرك نحو المدينة إلا أبو لهب الذي لم يشترك في هذا الخروج، وارسل مكانه «العاصي بن هشام» لقاء أجر

قدره أربعة آلاف درهم.

وأراد «أمية بن خلف» هو الآخر أن يتخلف لأسباب خاصة، فقد قيل له: أن محمداً يقول: لأقتلن أمية بن خلف.⁽³⁾

فرأى أشراف قريش وسادات مكة أن تخلف رجل مثله يضرب بقريش ويوهن من عزيمة الجيش، فقرروا إثارتته وتحريكه فاتاه عقبه

بن أبي معيط وأبو جهل وهو جالس في المسجد بين ظهرائي قومه، بمجمرة يحملانه فيها ناراً وعودٌ يتبخّر به حتّى وضعاها بين

يديه ثم قالوا له:

«يا أمية استجمر فأثما أنت من النساء!»

1- اللطيمة: الابل التي تحمل الاقمشة والعمطور، والنداء يعني: ادركوا اللطيمة ادركوها.

2-الكامل في التاريخ: ٢ / ٨١، المغازي: ١ / ٣١، بحار الأنوار: ١٩ / ٢١٦.

3-المغازي: ١ / ٣٥.

(58)

فغضب أمية، وهاجت به الحمية، فتجهز من فوره، وخرج مع الناس. (1)

وخلصه القول أنه أرعبت قريش لما سمعت بتعرض قافلتها وأموالها للخطر من قبل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه، فكانوا بين رجلين إما خارج أو باعث مكانه رجلا، وما بقي أحدٌ من عظماء قريش إلا أخرج مالا لتجهيز الجيش، وأخرجوا معهم المغنيات يضرين بالدخول ويهيجن الرجال للقتال.

المشكلة التي كانت تواجهها قريش:

ولما أعلن عن موعد الرحيل تذكرت قريش بأن بينهم وبين قبيلة «بني بكر» عداً قديماً، فخافوا أن يوجهوا اليهم ضربةً من الخلف، أو يحملوا على نساءهم وذرايعهم في مكة في غياب منهم فكاد ذلك يثنيهم عن الخروج.

وقد كان العدا بين قريش وبني بكر يعود إلى دم سُفِكَ بينهم في قصة ذكرها ابن هشام وغيره من كتّاب السيرة. (2)

ولكن سراقه بن جعشم المدلجلي - وكان من أشرف بني كنانة وهم من بني بكر - طمأنهم - ووعدهم بأن لا تاتيهم بنو بكر من خلفهم بشيء يكرهونه، ولما اطمأنوا خرجوا صوب المدينة سراعاً.

وكان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه قد خرجوا من المدينة لاعتراض قافلة قريش التجارية، وهبطوا في وادي ذفران، ويقوا هناك ينتظرون مرورها، ولكنه فجأة بلغه خبرٌ جديدٌ غير أفكار قادة الجيش الاسلامي، وفتح - في الحقيقة - فصلاً جديداً في حياتهم.

فقد أتاه الخبر عن مسير قريش باتجاه المدينة لحماية قافلتها التجارية، وأن جيشها قد وصل إلى مشارف المنطقة التي تواجد فيها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه، وأن طوائف متعددة قدسها همت وشاركت في تكوين هذا الجيش.

1- تاريخ الطبري: ٢ / ١٣٨، الكامل في التاريخ: ٢ / ٨٢، المغازي: ١ / ٣٥ و ٣٦.
2- السيرة النبوية: ١ / ٦١٠ و ٦١١، المغازي: ١ / ٣٨ و ٣٩.

فوجد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والقائد الاعلى للمسلمين نفسه أمام خيارين:

إما أن يقاتل، ولكنه لم يخرج هو أو أصحابه الذين مرّ ذكرهم إلا لمصادرة أموال قريش، فلم يكونوا متهيئين لمقاتلة الجيش المكي الكبير، لامن حيث العدد، ولا من حيث العدة.

وإما أن يرجع إلى المدينة من حيث أتى، وهذا يعني أن ينهار كل ما كسبوه من الهيبة والمهابة، بفضل المناورات العسكرية، والعروض النظامية السابقة.

وبخاصة إذا تقدم العدو نحو المدينة في ظل هذا الانسحاب واجتاح مركز الإسلام «المدينة المنورة». »

فرأى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن لا ينسحب، بل يقاتل العدو بما عنده من العدة القليلة والعدد القليل ويقاوم حتى اللحظة الأخيرة والنفس الأخير.

والجدير بالذكر أن أكثر الذين كانوا مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كانوا من شبان الأنصار وكان عدد المهاجرين لا يتجاوز ٨٢ شخصاً.

وكانت بيعة العقبة التي بايع فيها الأنصار رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بيعةً على الدفاع عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأهله وسلم - وحمائمه لا القتال والحرب.

أي انهم بايعوه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على أن يمنعونهم في المدينة فلا يصل إليه أحد من أعدائه وهو بينهم.

أما أن يخرجوا معه إلى خارج المدينة لقتال العدو فلم يبايعوا النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على مثل ذلك فمادام يفعل القائد الأعلى للمسلمين.

إنه لم يرَ مناصباً من استشارة الناس الذين معه، ومعرفة رأيهم في ما يجب اتخاذه من طريقة حل لهذه المشكلة.

النبي يعقد شوري عسكرية:

وهنا وقف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في تلك الجماعة وقال: أشيروا

(60)

على أيها الناس.

فقام أبو بكر وقال: يا رسول الله إنَّها قريش، وخیلائُها ما أمَّنت منذ كَفَرَت، ولا دَلَّتْ منذ عَزَّتْ ولم نخرج على أهبة الحرب!!

وهذا يعني أنه رأى من الصالح ان ينسحبوا إلى المدينة، ولا يواجهوا قريشاً.

فقال له رسول الله: اجلس.

ثم قام عمر بن الخطاب، وكرّر نفس مقالة أبي بكر، فأمره النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالجلوس أيضاً.

ثم قام «المقداد بن عمرو» وقال: يا رسول الله إمض لِمَا أراك الله فنحنُ معك، والله لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون.

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، وإنا معكم مقاتلون.

فَوَ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرْتَ إِلَى بَرَكِ الْغَمَادِ (وهو موضع بناحية اليمن) لَجَأَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ، حَتَّى تَبْلُغَهُ، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَخُوضَ جَمْرَ الْغُضَا (أي النار المتقدة) وَشَوْكَ الْهَرَّاسِ (وهو شجرٌ كبير الشوك) لَخَضْنَاهُ مَعَكَ.

فقال له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خيراً ودعا له به.

إخفاء الحقائق وكتمانها:

إذا كان إخفاء الحقائق، والتعتيم عليها وسترها، والتعصب الباطل أمراً مشيناً من كلِّ من أَلْفَ وَكَتَبَ، فَإِنَّهُ وَلَا شَكَّ أَقْبَحُ مِنَ الْمُوْرَخِ، الْمُؤْتَمِّنَ عَلَى التَّارِيخِ وَحَقَائِقِهِ.

فان على المؤرخ أن يكون مرآة صادقة للأجيال القادمة لا يكرها غبار التعصب، وغشاوة التحريف والتبديل والكتمان للحقائق.

ولقد ذكر ابن هشام⁽¹⁾ والمقرئزي⁽²⁾ والطبري⁽³⁾ ما وقع في الشورى

1- السيرة النبوية: ١ / ٦١٥.

2- إمتاع الأسماع: ٧٤.

3- تاريخ الطبري: ٢ / ١٤٠.

العسكرية التي عقدها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأدرج فيها ما قاله المقداد، وقاله سعد بن معاذ في كتبهم على وجه التفصيل، ولكنهم أحجموا عن إدراج ما قاله أبو بكر وعمر وإنما قالوا: وقال فلانٌ وأحسنَ، وقال فلانٌ وأحسنَ!!

وهنا نسأل ذينك المؤرخين إذا كان ما قاله فلان وفلان حسناً أرضى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فلماذا تركوا ذكره على نحو التفصيل كما فعلوا بالنسبة إلى كلام مقداد وسعد.

بلى؛ إنهما لم يقولوا إلا ما ذكرناه قبل قليل، ليس غير. وإذا كان أولئك المؤلفون يكتمون الحقائق، فقد أظهرها الآخرون وسجلوا نص ما قاله الرجلان⁽¹⁾، ولم يكن قولاً حسناً ولا كلاماً طيباً، بل كان كلامهما مثبطاً، ينم عن خوف، ووحشة، فهما صوراً قريشاً قوة لا تُقهر، وجيشاً لا يُدحر، غير أبيهين بما تترك كلماتهم من الأثر السيء في نفوس المسلمين في ذلك الظرف الدقيق، واللحظة الخطيرة!! وإنك أيها القارئ لتستطيع أن تعرف مدى إنزعاج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من مقالتهما، مما ذكره الطبري نفسه في الصفحة ذاتها، فإن الشيخين كما تلاحظ، كانا أول من نطقا في تلك الشورى، ثم تكلم بعدهما المقداد، وسعد بن معاذ.

فان الطبري يروي عن ابن مسعود أنه قال: لقد شهدت من المقداد مشهداً لئن أكون أنا صاحبه أحبب إلى مما في الارض من شيء كان رجلاً فارساً وكان

[المغازي: ١ / ٤٨، السيرة الحلبية: ٢ / ١٦٠، بحار الأنوار: ١٩ / ٢١٧.

(62)

رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا غضب احمرّت وجنتاه، فاتاه المقداد على تلك الحال⁽¹⁾ فقال: أبشر يا رسول الله فوالله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى: «إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن إذهب انت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.⁽²⁾»

ولقد كان ذلك المجلس مجلس استشارة وتبادل للرأي وكان لكل أحد الحق في أن يُدلي برأيه، وي طرح نظره على القائد الأعلى، ولكن مجريات الاحداث أثبتت أن مقداد كان أقرب إلى الصواب، وأكثر توفيقاً في إصابة الحق من ذينك الرجلين.

وقد أشار القرآن الكريم إلى تخوف بعض المسلمين من مواجهة العدو في هذه الموقعة إذ قال سبحانه:

(كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ أَنْ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ.)⁽³⁾

وقال تعالى:

(يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ.)⁽⁴⁾

قرار الشورى الحاسم أو رأي زعيم الأنصار:

كانت الآراء التي طرحت آراء شخصية وفردية على العموم، والحال أن الهدف الاساسي من عقد تلك الشورى كان هو الحصول على رأي الأنصار، فلما لم يدل الأنصار برأيهم لم يمكن لتلك الشورى أن تتخذ رأياً حاسماً، وتبنت في أمر.

من هنا أعاد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قوله: «أشيروا عليّ أيها

1- أي وهو غاضب من مقاله وتنبيط من تقدماه.

2- تاريخ الطبري: ٢ / ١٤٠.

3- الانفال: ٥.

4- الانفال: ٦.

(63)

الناس» وهو يريد الأنصار.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري وقال: والله لكانك يا رسول الله تريدنا؟

فقال النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : أجل.

فقال سعد: بأبي أنت وأمي يا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إنا قد آمنّا بك، وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به حقٌّ من

عند الله، وأعطيناك موثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحنُ معك، فوالذي بعثك بالحق، لو

استعرضت بنا هذا البحر ⁽¹⁾ فحضته لخضناه معك ما تخلف منا رجلٌ واحدٌ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا.

إنا لصبرٌ في الحرب، صدقٌ في اللقاء لعلَّ الله يريك منّا ما تقرّ به عينك فسير بنا على بركة الله، وصل من شئت، واقطع من شئت

وخذ من أموالنا ما شئت، و ما أخذت من أموالنا أحبُّ إلينا مما تركت.

فسر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بقول سعد ونشطه ذلك، وأزال سحابة اليأس من النفوس، وأشعل ضياء الأمل في

القلوب.

ولهذا لم يفرغ ذلك الأنصاري البطل والقائد المؤمن الشجاع من مشورته الشجاعة إلا وأصدر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

وأمره بالرحيل قائلا: «سيروا على بركة الله وابشروا فإنَّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين ولن يخلف الله وعده.

والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم. »

وتحرك الجيش الإسلامي بقيادة النبي الأكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ونزل عند أبار «بدر». ⁽²⁾»

تحصيل المعلومات حول العدو:

مع أنّ المبادئ العسكرية والتكتيكات الحربية في الوقت الحاضر تختلف

عما كان عليه في العصور الغابرة اختلافاً كبيراً إلا أنّ مسألة تحصيل المعلومات حول العدوّ ومعرفة أسرارهِ العسكرية، ومدى استعداداته ومبلغ قواه التي يستخدمها، ودرجة معنويات أفرادهِ لا تزال على أهميتها وقيمتها، لم تتغير من هذه، بل ازدادت أهمية في العصر الحاضر - كما أسلفنا -.

فهي تشكل الآن أيضاً مفتاحاً في الحروب، ومنطلقاً للانتصارات العسكرية.

على أن هذه المسألة قد اتخذت اليوم صبغة التعليم والتمرين، فقد أصبح لها اليوم كتبٌ ومعاهدٌ تتولى تعليم طرائق التجسس العسكري واساليبه، كما ويعزي قادة المعسكر الغربي والشرقي الكثير من نجاحاتهم إلى توسعة دوائر التجسس ومنظّماته التي تستطيع إطلاع أصحابها على معلومات دقيقة ومفصلة عن خطط العدو وقواه، واماكن تمرّكهِ وتواجده، وخطوط إمداده، وتموينه تمهيداً لإفشال تحركاتهِ أو إجهاضها فوراً.

من هنا استقر الجيش الإسلامي في منطقة ثلاث مبادئ التستر بشكل كامل، ومنع عن أي عمل من شأنه انكشاف أسرارهِ، كما أن فرقاً مختلفةً و متعدّدة كُفّفت بتحصيل وجمع المعلومات عن قريش وقافلته وجيشها.

فكانت المعلومات التي توفرت لدى القيادة الإسلامية هي كالتالي:

الف / أنّ النبيّ نفسه ركب هو ورجل من قادة جيشه حتّى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمّد وأصحابه وما بلغه عنهم فأخبرهم بأن محمّد وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، وأنه إن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي كان به رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - وإن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، وأنه إن كان الذي أخبره صدقه فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي فيه قريش.

وهكذا عرف رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - نقطة تواجد قريش، واستقرار قواتهم.

باء / بعث رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - جماعة «الزبير بين العوام» و «سعد

بن أبي وقاص» بقيادة علي - عليه السّلام - إلى ماء بدر يلتمسون له الخبر، فأصابوا إبلا يستقي عليها الماء لقريش فيها غلامان أحدهما لبني الحجاج والآخر لبني العاص فأثوا بهما إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فسألتهما النبي عن قريش فقالا: هم والله وراء هذا الكئيب الذي ترى بالعدوة القصوى.

فقال لهما رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :كم القوم وما عدّتهم فقالا: لا ندري، كثير. فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :كم ينحرون (من الابل) كل يوم؟ قالوا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :القوم فيما بين التسعمائة والألف.

ثم سألهما: فمن فيهم من أشرف قريش؟

قالا: عتبة بن ربيعة، وأبو البخترى بن هشام، وحكيم بن حزام وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمّية بن خلف و... و...

فأقبل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على أصحابه وقال:

«هذه مكّة قد ألقّت إليكم أفلاذ كبدها. (1)»

جيم / كُفّف شخصان بالدخول إلى قرية بدر وتقصّي الحقائق حول قافلة قريش فيها فمضيا حتّى نزلا بدرأ فأناخا ابليهما إلى نلّ قريب من الماء، ثم تظاهرا بأنهما يريدان أن يستسقيا، وكان على الماء جاريتين تستسقيان وتقول إحداهما للأخرى: إنما تأتي القافلة غداً أو بعد غد فأعمل لهم ثم أفضيك الذي لك

فقال لها «مجدي بن عمرو الجهني»، وكان على مقربة منهما: صدقت ثم خلص بينهما.

فسرّ صاحبها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لما سمعا فعادا في سرّية كاملة إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخبراه بما سمعا. (2)

والآن وبعد أن أصبح رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عارفاً بوقت ورود القافلة، ومكان تواجد قريش، معرفةً دقيقةً عمد إلى ترتيب المقدمات اللازمة.

1- السيرة النبوية: ١ / ٦١٧.

2- السيرة النبوية: ١ / ٦١٧.

لقد تعرّض أبوسفيان قائد قافلة قريش لدى توجّهه بها إلى الشام للملاحقة من قبل مجموعة من المسلمين، ولهذا فإنه كان يعلم جيداً بأنهم سوف يتعرضون له عند قفوله من الشام أيضاً.

ولهذا عندما وصل بقافلة قريش إلى المنطقة الخاضعة للمراقبة الإسلامية أراحها في منطقة بعيدة عن متناول أيدي المسلمين ودخل هو قرية «بدر» يتجسس، ويسأل عن أخبار رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فالتقى «مجدى بن عمرو» على ماء بدر فسأله: هل أحسست أحداً؟ (ويقصد هل رأيت أحداً من عيون محمّد ورجاله؟).

فأجابه مجدي قائلاً: ما رأيت أحداً أنكره، إلاّ أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا النلّ ثم استقيا في شئ لهم، ثم انطلقا.

فأتى أبو سفيان مُناخهما، فأخذ من أبعاد بعيريهما، ففتّهما، فاذا فيه النوى فقال: هذه - والله - علائف يثرب . هذه عيون محمّد وأصحابه، ما أرى القوم إلاّ قريباً.

فرجع إلى أصحابه سريعاً وحرك القافلة من فوره، وابتعد عن بدر وأخذ بها جهة ساحل البحر الأحمر كما أنه كلف أحداً بإخبار قريش فوراً، بأنّ قافلتهم أفلتت من يد محمّد وأصحابه، وأن أموالهم نجت فليرجعوا وليتركوا محمّداً تكفيه العرب.

(67)

(68)

علم المسلمين بإفلات قافلة قريش:

عرف المسلمون بإفلات قافلة قريش، وانتشر هذا النبأ بينهم بسرعة، فاعتمّ من خرج مع المسلمين يريد الحصول على شيء من تلك الأموال، فقال الله تعالى تنبيهاً لهم وتسكيناً لقلوبهم:

(وَ إِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ بِإِحْسَانٍ أَنَّهَا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ يَقَطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ. لِيَحِقَّ الْحَقَّ وَ يَبْطِلَ الْبَاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ. (1)

إختلاف قريش في القتال:

عندما وافى رسول أبي سفيان قريشاً وهم بالجحفة، وابلغهم رسالة أبي سفيان وطلب منهم الرجوع إلى مكة حدث بين رجال قريش اختلاف عجيب.

وقال بنو زهرة والأخنس بن شريق وكانوا حلفاء على الرجوع قائلين: قد خلصت أموال سيد بني زهرة «محزّمة بن نوفل» وانما نفرنا لنمنعه وماله، فلا حاجة بأن نخرج في غير منفعة.

ورجع طالب (ابن أبي طالب) إلى مكة وكان قد استكّره على الخروج من مكة، وذلك بعد مشاجرة بينه وبين رجل من قريش قال له:

«والله لقد عرفنا يا بني هاشم، وإن خرجت معنا أن هواكم لمع محمد. (2)»

وأما أبو جهل فقد اصرَّ على مواصلة التقدّم نحو المدينة، وعدم الرجوع إلى مكة خلافاً لطلب أبي سفيان، قائلاً:

والله لا نرجع حتى نرد بديراً فنفقّم عليه ثلاثاً فننحر الجزر (الأباعر) ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان والمغنيات، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا، وجمعنا فلايزالون يهابوننا أبداً بعدها، فامضوا!!

1-الأنفال: ٧ و ٨.
2-السيرة النبوية: ١ / ٦١٩.

(69)

فحملت كلمات أبي جهل المغرية قريشاً على مواصلة التقدم نحو المدينة، ونزلت في مكان مرتفع (1) خلف كئيب.

وأمرت السماء مطراً غزيراً فأصاب قريشاً منه ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه، ومنعهم من مزيد التقدم.

بينما لم يحدث المطر أي مشكلة في الدعوة للدنيا للمسلمين ولم يمنع من تحركهم بل كان بحيث لبد الأرض حتى ثبتت أقدامهم. (2)

و «بدر» منطقة واسعة يتكون جنوبها من مكان مرتفع (العودة القصوى) وشمالها من مكان منخفض منحدر (العودة الدنيا) وكانت في هذا الوادي الواسع بضع آبار وعيون ماء، فكان منزلاً للقوافل ينزلون فيه ويستقون، ويستريحون ردهاً من الزمن.

وهنا تقدم «الحباب بن منذر» وكان فارساً مجرباً وعسكرياً محنكاً باقتراح إلى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إذ قال: يا رسول

الله أريت هذا المنزل منزلاً أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

فقال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ.»

فقال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى أدنى ماء من القوم، فننزله فنغور (أي ندفن العين) ما وراء القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.

فقال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لقد أشرت بالرأي.

فنهض رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومن معه فصار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب (الآبار) فغورت، وبنى حوضاً على القلب الذي نزل عليه فملئ ماءً ثم قذفوا فيه الأنبياء.

إن هذه الحادثة تكشف جيداً على إهتمام رسول الإسلام بالمشاورة،

1- وهو ما يسمى بالعدوة القصوى.
2- ويقال كان المطر ينزل على قريش كأفواه القرب وعلى أصحاب رسول الله رذاذاً بقدر ما لبد الأرض.

(70)

واحترامه لأراء الآخرين واتساع صدره لاقتراحاتهم، والأخذ بما يفيد منها دون تكبر أو انزعاج. (1)

«العريش» أو غرفة القيادة:

وقيل إن سعد بن معاذ تقدم هو الآخر بمقترح عسكري رائع وهو بناء واقامة برج لرسول الله يقود منه العمليات ويشرف على سيرها ويكون مأمناً له من كيد الاعداء فقال: يا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا فان أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وان كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك.

فأثنى عليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ودعا له بخير، ثم بني له - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عريش فوق مكان مرتفع مشرف على ساحة القتال والحرب، وكان سعد وجماعة من فتيان الأنصار يحرسونه في بعض حالات القتال. (2)!!

نظرة إلى مسألة «العريش»:

إن مسألة بناء العريش لرسول الله، وحراسة سعد بن معاذ وجماعة من فتيان الأنصار له هومما ذكره ورواه الطبري في تاريخه نقلاً عن ابن اسحاق وتبعه الآخرون في ذلك، ولكن هذه القصة لا يمكن القبول بها لاسباب هي:

أولاً:

أن هذا العمل يفن في عضد الجنود، ويضعف من معنوياتهم القتالية لأن معناه أن القائد يفكر في وسيلة لنجاة نفسه دون أن يفكر في نجاة جنوده، ومثل هذه القيادة لا يمكنها أن تستحوذ على قلوب جنودها، وتجعلها مطيعة لأوامرها.

1- السيرة النبوية: 1 / 620، تاريخ الطبري: 2 / 144.
2- تاريخ الطبري: 2 / 145، السيرة النبوية: 1 / 620.

ثانياً:

أنّ هذه القصة تتنافى مع الاخبار القطعية التي بشر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بها المسلمين في ضوء ما نزل عليه من آيات.

فهو - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قبل أن يواجه المسلمون قريشاً قال لأصحابه الذين خرجوا معه من المدينة ودهم إحدى الطائفتين، أي إما الظفر بقافلة قريش التجارية قطعاً، أو الانتصار على الجيش المكي حتماً وبقيناً إذ قال الله تعالى:

(وَ إِذْ يَدْعُوكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ يَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ. (1))

وإنما أقدم على بناء العريش لرسول الله - بناءً على رواية الطبري - في الوقت الذي كانت قافلة قريش قد أفلتت وهربت من أيدي المسلمين، ولم يبق إلا الجماعة المسلحة التي خرجت لحماية القافلة، وكان المسلمون يعلمون - طبقاً لذلك الوعد الإلهي - القاطع - أنهم سينتصرون على تلك الجماعة الكافرة) **ويقطع دابر الكافرين** (فلم يكن المجال مجال تردد وشك.

وبهذا يكون حديث هزيمة المسلمين في هذه المواجهة ولزوم بناء عريش لحماية النبي واعداد ابل سريعة السير عند العريش لينجو - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عليها بنفسه حديثاً باطلاً لا مبرر له، ولا مسوغ.

يقول ابن سعد نقلاً عن عمر بن الخطاب قال: لما نزلت **(سِيَهْرَمُ الْجَمْعِ وَيُولُونَ الدُّبُرَ)** قلت: وأي جمع يهزم ومن يغلب؟ فلما كان يوم بدر نظرت إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يثب في الدرع وثباً وهو يقول: «سِيَهْرَمُ الْجَمْعِ وَيُولُونَ الدُّبُرَ» فعلمت أن الله تبارك وتعالى سيهزم مهم. (2)

ومع هذا هل يحتمل أن يدور في خلد النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - و أصحابه شيء حول الهزيمة أو يحدثوا أنفسهم بالفرار؟

ثالثاً:

ان النبي الذي يصف الامام علي - عليه السلام - موقفه وحالته عند اشتداد ضراوة القتال لا تنسجم أبداً ولا تلائم هذا التكتيك الذي لا يتسم

1- الأنفال: ٧.
2- الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٥.

بالشجاعة والثبات.

يقول عليّ - عليه السّلام - :

«كُنَّا إِذَا احْمَرَّ النَّاسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مَنَا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ»⁽¹⁾

فهو يفكر مثل هذه الشخصية التي يصفها أول تلامذة مدرسته، وأقرب صحابته إليه بمثل هذا الوصف، في الفرار، أو اتخاذ الاحتياطات اللازمة لذلك.

نحن نعتقد أن بناء العريش لم يكن إلا من باب إعداد غرفة للعمليات ولمراقبة سير القتال من مكان مشرف على ساحة القتال، لأن القيادة ما لم تكن مشرفة على ساحة القتال لا يمكنها أن تتصرف بواقعية واتقان، ولا يمكنها أن تقود الجنود والحشود من منطلق الواقع القتالي والعسكري.

من هنا لم يكن الهدف من العريش إن صح أصل القصة هو الإعداد والتحسب للفرار وما شاكل ذلك.

تحرك قريش باتجاه بدر:

في صبيحة السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، ارتحلت قريش من وراء الكئيّب وانحدرت إلى وادي بدر، فلما رآها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال:

«اللَّهُمَّ هَذِهِ قَرِيشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بُخَيْلِيَّهَا، وَفَخَرَهَا تَحَادُكُ وَتَكْدَبُ رُسُوكَ.

اللَّهُمَّ فَصْرُكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي بِهِ، اللَّهُمَّ أَجْنِمِ⁽²⁾ الْغَدَاةَ. »

قريش تتشاور في القتال:

استقرت قوى قريش في منطقة من أرض بدر استعداداً للمواجهة، وحيث

[1] نهج البلاغة لعبيده: الكلمات القصار الكلمة ٢١٤، ويقول السيد الرضي (رضي الله عنه) معنى ذلك أنه إذا عظم الخوف من العدو، واشتد عضاض الحرب فزع المسلمون إلى قتال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بنفسه فينزل الله عليهم النصر به ويؤمنون ممّا كانوا يخافونه بمكانه.
[2] أي اهلكهم.

أنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن عدد أفراد المسلمين ومبلغ إستعداداتهم، لذلك كلفوا «عمير بن وهب الجمحي» وكان فارساً ماهراً في الاحصاء والتخمين - بأن يحرز (ويقدر بالحدس) عدد أصحاب محمّد.

فاستجال بفرسه حول عسكر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثم رجع إلى قريش وقال: ثلاثمائة رجل يزيدون أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى انظر ألقوم كمين، أو مدد.

فضرب في الوادي حتى أبعد ولكنه لم ير شيئاً.

فرجع إلى قريش ثانية وهو يحمل لهم خيراً مرعباً إذ قال: ما وجدت شيئاً (أي كميناً أو مدداً وراء المسلمين) ولكني قد رأيتُ يا معشر قريش البلايا (1) تحمل المنايا، نواضح (2) يثرب تحمل الموت النافع (3)، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم.

والله ما أرى أن يُقتل رجلٌ منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا اصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فَرُوا رأيكم!!!
وروى الواقدي عبارات عمير بنحو آخر إذ قال: قال عمير: والله ما رأيتُ جلدأ ولا عدداً ولا حلقة ولا كراعاً، ولكني رأيتُ قوماً لا يريدون أن يوبوا إلى أهلهم، قوماً مستميتين ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، زرق العيون كأنهم الحصى تحت الحجف. (4)(5)
وروى المجلسي ما قاله عمير بنحو ثالث إذ قال: قال عمير: ما لهم كمين ولا مدد، ولكن نواضح يثرب قد حملت الموت النافع أما ترونهم خرساً لا يتكلمون يتلمظون تلمظ الافاعي ما لهم ملجأ إلا سيوفهم ما أراهم يولون حتى يقتلوا، ولا يُقتلون حتى يقتلوا بعددهم فارتأوا رأيكم. (6)

- 1- وهي جمع بلية وهي الناقة أو الدابة.
- 2- الأبل يستقى عليها الماء.
- 3- الموت الثابت البالغ في الأثناء.
- 4- الحجف جمع الحجفة وهي الثرس.
- 5- المغازي: ٦٢ / ١.
- 6- بحار الأنوار: ١٩ / ٢٢٤.

(74)

اختلاف قادة قريش في امر القتال:

أوجدت كلمات عمير الفارس الشجاع ضجة كبرى بين رجال قريش وسادتها وزعمائها، وانتاب الجميع خوفاً بالغ ورعباً شديداً من المسلمين.

فمشى حكيم بن حزام إلى عتبة بن ربيعة ليقنعه بالعدول عن مقاتلة المسلمين، فقال له: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزل تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر، ترجع بالناس وتحمل أمر (دم) حليف عمرو بن الحضرمي، وما أصاب محمد من ماله ببطن نخلة (1) إنكم لا تطلبون من محمد شيئاً غير هذا الدم والمال؟!

فاقتنع عتبة برأي حكيم، فجلس من فوره على جملة، ووقف يخطب في المشركين من قريش بنطق جميل وبلغ يقول: يا قوم أطيعوني ولا تقاتلوا هذا الرجل واصحابه (يعني رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -)، يا معشر قريش أطيعوني اليوم واعصوني الدهر،

إن محمداً له آل (أي قرابية) وذمة وهو ابن عمكم فخلوه والعرب، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه أو خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم وإن كان غير ذلك الفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون. (2)

وانطلق حكيم بن حزام إلى أبي جهل وأخبره برأي عتبة ومقاتته، هذا وأبو جهل يهيبه درعه، فانزعج أبو جهل من مقالة عتبة وموقفه إنزعاجاً شديداً وثار تائراً حسداً على عتبة، وتعتنا عن الحق (3)، وبعث من فوره رجلاً إلى عامر بن الحضرمي أخي عمرو الذي قُتل في غزوة عبدالله بن جحش بنخلة

- [إشارة إلى ما جرى في سرّة عبدالله بن جحش.
2-المغازي: ١ / ٦٣، السيرة النبوية: ١ / ٦٢٣، بحار الأنوار: ١٩ / ٢٢٤.
3-قال صاحب المغازي: فحسده أبو جهل حين سمع خطبته وقال: ان يرجع الناس من خطبة عتبة يكن سيد الجماعة، وعتبة انطق الناس!!!

(75)

وقال له: هذا حليفك (عتبة) يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثارك بعينك، فقم وانشد خفرتك (1) ومقتل (أو دم) أخيك.
فقام عامر وكشف عن رأسه، وأخذ يحثو التراب على رأسه، وصاح مستغيثاً وأعمراه واعمراه، تحريكاً للناس وإثارةً لمشاعرهم.
فهاج الناس لمنظر عامر وثار مشاعرهم لندبته، وأجمعوا على الحرب، وتناسوا اقتراح عتبة، ونصيحته البليغة الحكيمة لهم.
ولكن عتبة هذا الذي كان يميل إلى اعتزال الجيش وترك الحرب، هاجت مشاعره هو الآخر فقام من فوره وليس لامة حربه واستعد لقتال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه. (2)

وهكذا نجد كيف ينضاع نور العقل عند هبوب رياح العاطفة الملتهبة، والمشاعر الثائرة الباطلة وتنطفئ شعلة الفكر، ولا يعود يضيء لصاحبه درب المستقبل حتى أن الرجل الذي كان قبل قليل داعية السلام، والتعايش الاخوي يتحول تحت تأثير ذلك الهياج العاطفي، العابر، الاحمق إلى أول مبادر إلى القتال وسفك الدماء وازهاق الارواح!!!

ما الذي حتم القتال؟

لما أبصر الاسود بن عبدالأسد المخزومي وكان رجلاً شرساً سيء الخلق الحوض الذي بناه المسلمون عند البئر لشربهم قال: اعاهد الله لا شربن من حوضهم أو لاهدمته أو لأموتنّ دونه!!

ثم خرج من بين صفوف المشركين وشد حتى دنا من الحوض فاستقبله حمزة، ولما التقيا ضربه بسيفه حمزة فطار قدمه، وهو دون الحوض فوقع على الأرض تشخب رجله دماً ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد ان يشرب منه أو ان

1- أي اطلب من قريش الوفاء بخفرتهم وعهدهم لك لأنه كان حليفاً لهم.
2- السيرة النبوية: ١ / ٦٢٣. بحار الأنوار: ١٩ / ٢٢٤.

(76)

يبير يمينه، فاتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض.

فتسببت هذه الحادثة في أن يصبح القتال امراً مسلماً وحتماً، لأنه ليس ثمة شيء يقدر على تحريك المشاعر، وإثارة العواطف ودفع الناس للقتال كسفك الدم.

فالذين كان الغيظ والحنق على المسلمين يكاد يقتلهم، وكانوا يبحثون عن ذريعة يشعلون بها نيران الحرب ويفجرون فتيلها قد حصلوا الآن على ما يريدون. (1)

المبارزات الفردية أولاً:

كان التقليد المتبع عند العرب في الحروب أن يبدأ القتال بالمبارزات الفردية ثم تقع بعدها الحملات الجماعية.

فلما قُتل الاسودُ المخزومي خرج ثلاثة فرسان من صناديد قريش المعروفين من صفوف الجيش المكي ودعوا إلى المبارزة.

وهؤلاء الصناديد الثلاثة هم:

1- عتبة. (2)

2- شيبه.

وهما ابنا ربيعة بن عبد شمس.

3- الوليد بن عتبة بن ربيعة.

فأخذوا يجولون في ميدان القتال ويدعون إلى المبارزة، فخرج إليهم من المسلمين فتية من الأنصار ثلاثة وهم «عوف» و «معوذ»

ابنا الحارث و «عبدالله بن رواحة.»

1- تاريخ الطبري: ٢ / ١٤٧ و ١٧٨.
2- وعتبة هذا هو الذي اقترح الانسحاب وعدم القتال كما عرفت. ويروى انه لما خرج قال له حكيم بن حزام: أبا الوليد مهلاً، مهلاً تنهى عن شيء وتكون أوله!! (المغازي: ١ / ٦٧).

ولما عرف عتبة أنهم من رجال المدينة قال: مالنا بكم من حاجة.

ثم نادى مناديهم: يا محمّد، أخرج الينا أكفأنا من قومنا.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«قم يا عبدة بن الحارث وقم يا حمزة، وقم يا عليّ.»

فقاموا، وخرجوا للمبارزة، ولما دنوا منهم، سألهم عتبة عن أسمائهم فعرفت أبطال الإسلام أنفسهم وذكروا أسماءهم.

فقال رجال المشركين الثلاثة: نعم أكفأ كرام.

ويرى البعض أنه بارز كل من هؤلاء الثلاثة من كان على سنّه من الكفار فبارز عليّ - عليه السّلام - الوليد (خال معاوية بن أبي

سفيان) و بارز حمزة (وهو أوسطهم) عتبة (جدّ معاوية لأمه) وبارز عبدة (وهو أسنّ الثلاثة) شيبه وهو أسنّ الكفار الثلاثة.

غير أن ابن هشام يقول: بارز «حمزة» شيبه، وبارز «عبدة» عتبة، وبارز «عليّ» الوليد بن عتبة. (1)

وهذا يعني أن حمزة (الوسط في السن) قاتل الاسنّ من الكفار.

فأى القولين هو الأصحّ

إن ملاحظة أمرين توضح الحقيقة في هذا المجال:

الأول: إن المؤرخين كتبوا: أن علياً وحمزة قتلا خصميهما في الحال، ثمّ ساعدا عبدة على قتل خصمه. (2)

الثاني: إن الامام أمير المؤمنين - عليه السّلام - كتب في كتاب له إلى معاوية:

«و عندي السيف الذي أعضضته بجدك و خالك و أخيك في مقام

1-راجع لمعرفة كلا الرأيين سنن البيهقي: ٣ / ٢٧٦.
2-تاريخ الطبري: ٢ / ١٤٨، السيرة النبوية: ١ / ٦٢٥ قال: وكرّ حمزة وعليّ بأسياهما على عتبة.

فمن هذا الكتاب يتضح بجلاء أن الامام - عليه السّلام - شارك في قتل جدّ معاوية (أي عتبة) هذا من جانب.

كما أننا نعلم من جانب آخر أن كلا من حمزة وعلياً قد قتل خصمه في اللحظة الأولى من المبارزة. فإذا كان خصم حمزة هو عتبة

(جدّ معاوية) لم يكن - حينئذ - أي معنى لقول الامام - عليه السّلام - «أنا قتلت جدك». »

فلا مناص من أن نقول: إن الذي بارز حمزة هو شبيهة، وأن الذي بارز عبيدة هو عتبة ليصح حينئذ أن يقال أن علياً وحمزة، ذهبا -

بعد الفراغ من قتل خصميهما - إلى عتبة وكراً بأسياقيهما عليه وقتلاه، ثم احتملا صاحبهما «عبيدة» وأتيا به إلى رسول الله - صلى

الله عليه وآله وسلم - . (2)

وبهذا تترجح النظرية الثانية، والقاضية بعدم التكافؤ بين أسنان كلّ من المتبارزين.

الهجومُ العامُّ:

إثر مقتل صنديد قريش الثلاثة في المبارزة الفردية بدأ الهجومُ العامُّ.

فتزاحفت الناسُ ودنا بعضهم من بعض، وقد أمرَ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أصحابه أن لا يحملوا حتّى يأمرهم، وأن

يكتفوا برمي القوم بالنبال إذا اقتربوا منهم ليمنعوا من تقدّم العدو.

ثم نزل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من برج القيادة (العريش) وعدل صفوف أصحابه وفي يده سهمٌ يعدّل القوم. فمر

بسوّاد بن غزية، وهو متقدم من الصف، فطعن في بطنه بالسهم الذي معه وقال له: استو يا سّواد.

-1- نهج البلاغة قسم الكتب الرقم ٦٤ واعضضته به جعلته بعضه.
-2- ثم إن المقصود من أخ معاوية الذي أشار الامام علي في كلمته إلى قتله هو حنظلة بن أبي سفيان بن حرب راجع السيرة النبوية: ١ / ٧٠٨ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٨ / ١٩.

فقال: يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقديني (أي اقتصن) لي من نفسك. فكشف رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم

وعنه بطنه وقال: استقد (أي أنت اقتصن) فاعتنقه سّواد وقبّل بطنه - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال رسول الله - صلى الله

عليه وآله وسلم - : ما حملك على هذا؟

قال: يا رسول الله حضر ماترى (من القتال) فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك.

فدعا له رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بخير. (1)

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد أن عدل الصفوف رجع إلى غرفة العمليات (العريش) فدخله وتوجه إلى ربه بقلب مفعم بالإيمان يناشده ما وعده من النصر وقال في مناجاته لربه في تلك اللحظات:

«اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ فَلَنْ تَعْبُدَ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا» (2)»

«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يُقَاتِلُهُمُ الْيَوْمَ رَجُلٌ فَيُقْتَلُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ.»

ولقد كانت كلمات القائد الاعلى هذه تفعل فعلتها في النفوس، فنتير الهمم، وتوجد شوقا عجبيا إلى الشهادة في المقاتلين المسلمين، حتى أن أحدهم ويدعى «عُمير بن الحمام» أخو بني سلمة قال للنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وفي يده ثمرات ياكلهنَّ يا رسول الله: بخ بخ، أما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء.

1- السيرة النبوية: ١ / ٦٢٦ .
2- السيرة النبوية: ١ / ٢٦٧، تاريخ الطبري: ٢ / ١٤٩ .

(80)

ثم قذف الثمرات من يده وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قُتل. (1)

ثم إن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً ثم قال:

«شَاهَتِ الْوُجُوهُ.»

ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه، فقال: شدوا. (2)

ولم يمض وقتٌ طويل حتى ظهرت بوادر انتصار المسلمين على أعدائهم المشركين فقد انتاب المشركين خوفٌ ورعبٌ شديدان، وأخذوا ينهزمون أمام زحف المسلمين.

فقد كان المسلمون يقاتلون عن ايمان، واخلاص ويعلمون بأنهم ينالون السعادة قتلوا أو قُتلوا، فلم يرهبوا شيئاً، وما كان يمنعهم شيء عن التقدم والإقبال.

رعاية الحقوق:

لقد كان لابد من رعاية الحقوق بالنسبة إلى طائفتين في معسكر المشركين:

الأولى: اولئك الذين احسنوا إلى المسلمين في مكة، ودافعوا عنهم كأبي البختری الذي كان ممن قام في نقض الصحيفة الظالمة التي سبق الحديث عنها.

الثانية: أولئك الذين أكرهوا على الخروج من المشركين إلى بدر، وكانوا يرغبون في قرارة أنفسهم في الإسلام مثل معظم رجال بني هاشم كالعباس بن عبدالمطلب عم النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

مصرع أمية بن خلف:

ولقد أسير «أمية بن خلف» وابنه على يد عبدالرحمان بن عوف وإذ كان بينه

1- السيرة النبوية: ١ / ٦٢٧ .
2- المصدر السابق: ٦٢٨ . البداية والنهاية: ٢ / ٢٨٤ .

(81)

وبين أمية صداقة بمكة طلب أمية من عبدالرحمان أن يخرج من أرض المعركة لكي لا يُقتل هو وولده، أو ليعدًا من الأسرى. فرضى عبدالرحمان بذلك، وبينما هو يقودهما إذ أبصر بلال بهم وكان أمية هو الذي يعذب بلالا بمكة على ترك الإسلام فيخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت فيضجعه على ظهره ثم يأمر بالصرخة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول: لا تزال هكذا حتى تفارق دين محمد فيقول بلال: أحد، أحد.

فلما رآه بلال في الأسر وقد أقدم عبدالرحمان على حمايته والذب عنه وهو يريد نجاته وولده، صاح مستصرخاً المسلمين: يا أنصار الله رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا.

فأحاط المسلمون بأمية وولده من كل جانب وقطعوا بسيفهم حتى فرغوا منهما⁽¹⁾.

وقد نهى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن قتل أبي البخري الذي كان له دورٌ مشرفٌ في نقض الحصار الاقتصادي الذي ضربته قريش على المسلمين في مكة، وكان لا يؤدي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فلقبه رجلٌ من المسلمين يُدعى «المجدر» فأراد أسره واستيقاه ريثما يأخذه إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليرى فيه رأيه، ولكنه نازل المجدر، وأبي إلا القتال، فاقتتلا فقتله المجدر.

ثم ان المجدر أتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقال: والذي بعثك بالحق لقد جهدتُ عليه أن يُستأسرَ فأتيتُ به فأبى إلا أن يقاتلني فقاتلته فقتلته⁽²⁾.

خسائر بدر في الأرواح والاموال:

لقد قُتل في معركة «بدر» من المسلمين أربعة عشر رجلاً، وقُتل من المشركين سبعون وأسير سبعون من أبرزهم: النضر بن الحارث، وعقبة ابن أبي معيط، وأبو

1-السيرة النبوية: ١ / ٦٣٢.
2-السيرة النبوية: ١ / ٦٢٩ و ٦٣٠ وراجع الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٣.

(82)

غرة، وسهيل بن عمرو والعباس، وأبو العاص بن الربيع (صهر النبي).⁽¹⁾

ثم دُفِنَ شهداء بدر في جانب من أرض المعركة، وقبورهم باقية إلى الآن.

ثم أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن يُلقَى بقتلى المشركين في البئر.

وبينما كان يسحب عتبة بن ربيعة إلى البئر نظر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في وجه «أبي حذيفة» ابن عتبة فاذا هو

كئيب، قد تغيّر لونه فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟!

فقال: لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكنني كنتُ أعرف من أبي رأياً وعلماً وفضلاً فكنْتُ أرجو أن

يهديه ذلك إلى الإسلام فلما رايتُ ما أصابه وذكرتُ ماماتٍ عليه من الكفر بعدَ الذي كنتُ أرجو له، أجزني ذلك!!

فدعا له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بخير.⁽²⁾

إن هذه القصة لتكشف عن مدى حبّ المسلمين لدينهم، ورغبتهم الصادقة في أن يهتدي إليه الناس كما تكشف أيضاً عن أنهم كانوا

يقدمون المعيار الديني على المعيار العائلي إذا تعارضا.

ماأنتم باسمع منهم:

لقد انتهت معركة بدر بانتصار عظيم في جانب المسلمين وهزيمة نكراء في جانب المشركين.

فقد غادر المشركون ساحة القتال هاربين صوب مكة مخلفين وراءهم سبعين قتيلاً من صناديدهم وساداتهم وقتيانهم الشجعان وسبعين

أسيراً.

ولما أمر النبيّ بالقاء قتلى المشركين في القليب⁽³⁾ وقف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عند القليب وأخذ يخاطب القتلى

واحداً واحداً ويقول:

1-السيرة النبوية: ١ / ٧٠٦ و ٧٠٨. المغازي: ١ / ١٣٨ - ١٧٣.

2-السيرة النبوية: ١ / ٦٤٠ و ٦٤١.

3-القليب: البئر.

«يا أهل القليب، يا عُتْبَةَ بِنَ رَبِيعَةَ، ويا شَيْبَةَ بِنَ رَبِيعَةَ، ويا أُمِّيَةَ بِنَ خَلْفٍ، ويا أبا جهل (وهكذا عدّد من كان منهم في القليب) هَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا، فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ ما وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا.»

فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله أنتادي قوماً موتى؟

فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهمَ ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني.»

وكتب ابن هشام يقول: إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال يوم هذه المقالة:

«يا أَهْلَ القليبِ بئسَ عشيرةَ النبيِّ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ كَذِبْتُمُونِي ووَ صَدَقْتَنِي النَّاسُ، وَأَخْرَجْتُمُونِي وَأَوَانِي النَّاسُ، وَقَاتَلْتُمُونِي وَنَصَرْتَنِي النَّاسُ، (ثم قال:) هَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَكُمْ رَبِّي حَقًّا؟⁽¹⁾»

الشعر يخلد هذه القصة:

يُعتبر هذا الموضوع من القضايا الثابتة والمسلّمة في التاريخ الإسلامي، فقد ذكره جميع المحدثين والمؤرخين من الشيعة والسنة، وقد ذكرنا طائفة من مصادره في الهامش.

وقد كان من دأب حسان بن ثابت شاعر عصر الرسالة ان ينشد أبياتاً في كل واقعة من وقائع الإسلام البارزة وبذلك يقوي من عزيمته المسلمين ويشد من أزرهم لأن الشعر يجلي البطولات ويكرم المواقف ويخلد الامجاد ويحافظ على المفاخر ويكسبها طابعاً أبدياً ولهذا يعد وسيلة جيدة لتقوية المعنويات، وإبطال مفعول الحرب الباردة والنفسية التي يقوم بها العدو.

وقد طبع ديوان «حسان» لحسن الحظ، ويمكن لنا أن نقف على الكثير من ايام الإسلام وامجاده من خلال قصائده، وابياته المدرجة فيه.

[1- السيرة النبوية: ١ / ٦٣٩، السيرة الحلبية: ٢ / ١٧٩ و ١٨٠ وغيرهما.]

وقد أنشد حسان قصيدة بائية رائعة حول وقعة بدر الكبرى يشير في بعض ابياتها إلى هذه الحقيقة اعني قصة القليب إذ يقول:

يُنَادِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ لَمَّا * قَدَفْنَا هُمْ كِبَاكِبَ فِي الْقَلِيبِ

أَلَمْ تَجِدُوا كَلَامِي كَانَ حَقًّا * وَأَمْرَ اللَّهِ يَأْخُذُ بِالْقُلُوبِ؟

فَمَا نَطْفُؤُوا وَلَوْ نَطْفُؤُوا لَفَأَلُوا * صَدَقْتَ وَكُنْتَ ذَا رَأْيٍ مُصِيبٍ!

على أنه لا توجد عبارة اشد صراحة من ما قاله رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المقام حيث قال: «ما أنتم بأسمع منهم»

وليس ثمة بيان أكثر إيضاحاً وأشدّ تقريراً لهذه الحقيقة من مخاطبة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لواحد واحد من أهل القلب، ومناداتهم بأسمائهم وتكليمهم كما لو كانوا على قيد الحياة.

فلا يحقّ لأى مسلم مؤمن بالرسالة والرسول أن يسارع إلى إنكار هذه القضية التاريخية الإسلامية المسلّمة، ويبادر قبل التحقيق ويقول: إن هذه القضية غير صحيحة لأنها لا تنطبق على موازين عقلي المادي المحدود.

وقد نقلنا هنا نص هذا الحوار، لكي يرى المسلمون الناطقون باللغة العربية كيف أنّ حديث النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يصرح بهذه الحقيقة بحيث لا توجد فوقه عبارة في الصراحة، والدلالة على هذه الحقيقة.

ومن أراد الوقوف على مصادر هذه القصة فعليه أن يراجع ما ذكرناه في الهامش ادناه. (1)

[1] إن تكلم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مع رؤوس الشرك الموتى الذين القيت اجسادهم في البئر من مسلمات التاريخ والحديث، وقد أشار إلى هذا من بين المحدثين والمؤرخين: صحيح البخاري: ج ٥، في معركة بدر، ص ٧٦ و ٧٧ - ٨٦ و ٨٧، صحيح مسلم: ج ٨، كتاب الجنة: باب مقعد الميت ص ١٣٦، سنن النسائي: ج ٤ باب أرواح المؤمنين: ص ٨٩ و ٩٠، مسند الامام أحمد: ٢ / ١٣١، السيرة النبوية: ١ / ٦٣٩، المغازي: ج ١ غزوة بدر: ص ١١٢، بحار الأنوار: ١٩ / ٣٤٦.

بعد معركة بدر:

يعتقد كثير من المؤرخين المسلمين أن المبارزات الفردية ومن بعدها القتال الجمعي في غزوة بدر استمر حتى زالت الشمس وانتهت المعركة بفرار المشركين وأسر جماعة منهم. ثم بعد أن فرغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه من دفن شهداء المسلمين صلى بالناس العصر في بدر ثم غادر أرض بدر قبل غروب الشمس من ذلك اليوم، هذا وقد كلف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - اشخاصاً بجمع الغنائم من أيدي الناس.

وهنا واجه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - اول اختلاف بين أصحابه في كيفية تقسيم الغنائم، فقد كان كل فريق يرى نفسه أولى من غيره بها، نظراً لدوره في تلك المعركة.

فالذين كانوا يحرسون عريش رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مخافة أن يكرّ عليه العدو كانوا يرون أن عملهم لا يدانيه في الأهمية أي عمل آخر، لأنهم كانوا يحرسون القائد، ويحافظون على مقرّ القيادة.

وبينما كان الذين جمعوا الغنائم يرون أنهم الأحقّ لأنهم جمعوها، فيما كان الذين قد قاتلوا العدو ولاحقوه وطاردوه يقولون: والله لولا نحن ما أصبتموه، إنا لنحن الذين شغلنا عنكم القوم حتّى أصبتم ما أصبتم. (1)

ولا ريب أن أسوأ ما يصيب أي جيش هو أن يدبّ الخلاف بين قطعاته وأفراده، فينفرط عقده وتتلاشى وحدته.

من هنا بادر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - للقضاء على هذه الآمال والمطامع المادية وبغية اسكات كل تلك الاصوات إلى إيكال جمع الغنائم وحملها، والمحافظة عليها إلى «عبدالله بن كعب المازني» وأمر جماعة من أصحابه أن يعينوه ريثما يفكر في طريقة تقسيمها. لقد كان قانون العدل والإنصاف يقضي بأن

[المغازي: ١ / ٩٨ و ٩٩.

(86)

يشارك جميع أفراد ذلك الجيش في تلك الغنائم، لأنهم ساهموا بأجمعهم في تلك المعركة، وكان لكل منهم دورٌ ومسؤولية فيها، فما كان لفريق أن يحرز نجاحاً من دون أن يقوم الآخرون بأدوارهم.

من هنا قسم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الغنائم بينهم - في أثناء الطريق - على قدم المساواة، وفرز لذوي الشهداء أسهماً منها.

ولقد أثارَت طريقة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في تقسيم الغنائم (وذلك بقسمتها على جميع المشاركين معه في معركة بدر بالتساوي) سخط «سعد بن أبي وقاص» فقال: يا رسول الله أيعطى فارسُ القوم الذي يحميهم مثل ما يعطى الضعيف؟ فقال النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: تكلتلك أمك، وهل تُنصرون إلا بضعفاتكم. (1)»

وهو - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يقصد أن هذه الحرب لم تكن إلا لأجل الدفاع عن الضعفاء، ورفع الحيف عنهم، وانه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يُبعث إلا لإزالة هذه الفوارق والامتيازات الظالمة، وإلا لاجل اقرار المساواة في الحقوق بين الناس. هذا ورغم أن خمس الغنيمة هي بنص آية الخمس (2) لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى وابن السبيل من أهل بيته - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلا أنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يخمس غنائم «بدر» بل ورّع الخمس على المشاركين في بدر أيضاً.

على أنه يمكن أن تكون آية الخمس لم تنزل آنذاك بعد، أو أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يتمتع باختيارات خاصة، فصرف النظر عن أخذ الخمس لنفسه وقرباه، تكثيراً لأسمهم المجاهدين، وذلك ولا ريب خطوة حكيمة جداً وخاصة في أول مواجهة عسكرية مع العدو. (3)

1-المغازي: ١ / ٩٩ .

2-الأنفال: ١ .

3-وجاء في بعض المصادر التاريخية ان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ضرب من الغنائم أسهما لأشخاص لم يحضروا بدر ولم يشتركوا في القتال مع رغبتهم في ذلك وذلك إما لامور أصابتهم عند الخروج إلى بدر أولقيامهم بمهمات، تتعلق بأمر مراقبة العدو في الطرق أو للقيام بمهمات ادارية داخل المدينة.

(87)

قتل أسيرين في اثناء الطريق:

ولما كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في «الصفراء»⁽¹⁾ وهي أحد المنازل على طريق بدر - المدينة عرض عليه الاسرى فأمر بقتل النضر بن الحارث وكان من أعداء المسلمين الالداء.

وأمر بأن يضرب عنق عقبة بن أبي معيط إذ كان بعرق الطيبة.

وهنا ينطرح سؤال وهو: إن حكم الإسلام في أسرى الحرب هو أنهم عبيد للمسلمين والمجاهدين، يُباعون ويشترون باثمان مناسبة فلماذا حكم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في شأن هذين الأسيرين بحكم آخر؟.

ثم إنَّ النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الذي خاطب المسلمين في «بدر» في الأسرى الذين بايديهم وأوصاهم بهم خيراً قائلاً:

«إِسْتَوْصُوا بِالْأَسَارَى خَيْرًا.»

كيف اتخذ مثل هذا القرار في حق بعضهم؟

يقول أبو عزيز، وكان صاحب لواء في جيش قريش: كنت أسيراً في أيدي رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قتموا غداءهم وعشاءهم خصّوني بالخبز، وأكلوا التمر والخبز عندهم قليل والتمر زادهم، وذلك لوصية رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إياهم بناء، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلاّ نفحني بها فأستحي فاردّها على أحدهم فيردّها عليّ، وكانوا يحملوننا ويمشون!!⁽²⁾

مع ملاحظة هذه الأمور لا بدّ من الاذعان بأن قتل هذين الأسيرين كان مما تقتضيه المصالح الإسلامية العامة، لا أنه كان بدافع

الانتقام، فقد كان ذلك الأسيران من رؤوس الكفر، ومن مخططي الخطط الجهنمية ضد الاسلام

والمسلمين، وضد الرسالة والرسول، وكانا ممن يؤليون القبائل ضد رسول الإسلام فلعله لو كان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يفرج عنهم ويطلق سراحهم عادوا إلى تدبير المؤمرات ضد الإسلام ، والمسلمين، وعملا على تخطيط الخطط، وتأليب القبائل، فلم يكن بد من تصفيتهم والقضاء عليهم.

بشائر النبي إلى المدينة:

كأف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «عبدالله بن رواحة»، و «زيد بن حارثة» بأن يسبقاه إلى المدينة، ليبشرا المسلمين بما حققه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه في بدر من الانتصار الكاسح والفتح المبين، ويخيرا أهلها بمصرع رؤوس الكفر والشرك كعتبة وشيبة وأبي جهل وأبي البختري وأمّية، ونبيه ومنبه و... و...

فما قدم المبعوثان إلى المدينة الا والمسلمون عائدون من دفن ابنة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - زوجة عثمان بن عفان فامتزجت الافراح بالاحزان، واختلط السرور بانتصار النبي وأصحابه بالحنن على موت ابنة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

وقد أربع المشركون واليهود والمنافقون بخبر انتصار المسلمين الساحق على قريش، وراحوا يحاولون تكذيبه، وتفنيده حتى إذا دخل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المدينة ودخل بعده أسرى قريش أصبح الخبر قطعياً مسلماً، فباعت محاولات المنافقين بالفشل.

المكيون يعرفون بمقتل أسيادهم:

كان «الحيسمان الخزاعي» أول من قدم مكة واخبر الناس باحداث «بدر» الدامية وبمصرع طائفة كبيرة من سادة قريش على أيدي المسلمين.

يقول أبو رافع الذي كان غلاماً للعباس بن عبدالمطلب أنذاك ثم أصبح من أصحاب النبي وعلي فيما بعد: كنت غلاماً للعباس، وكان الإسلام قد دخلنا

أهل البيت، فأسلم العباس وأسلمت أمُّ الفضل و أسلمت، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتنم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر، فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كبتة الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوةً وعزةً.

وقد كنت رجلاً ضعيفاً وكنْتُ أصنعُ السهام والنبال أنحتها في حجرة زمزم فوالله بينما أنا جالسٌ فيها أنحت سهامي وعندي أم الفضل جالسة وقد سرَّنا ما جاءنا من الخبر عن هزيمة قريش، إذ أقبل أبو لهب يجزّ رجله بشراً حتّى جلس عند طناب⁽¹⁾ الحجرة فكان ظهره إلى ظهري، فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان فقال أبو لهب: هلمّ إليّ فعندك لعمرى الخير.

فجلس إليه والناس قيامٌ عليه فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمرُ الناس؟

قال أبو سفيان: والله ما هو إلا أن لقينا القومَ فمحنناهم أكتافنا يقوئنا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وأيمُّ الله مع ذلك ما لمتُ الناس، لقينا رجلاً بيضاً على خيل بُلق بين السماء والأرض، والله ما تُبقي شيئاً ولا يقومُ لها شيء.

يقول أبو رافع: فرفعت طناب الحجرة، ثم قلت: تلك والله الملائكة.

فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهي ضربةً شديدة. (2)

اشتراك العباس عمّ النبيّ في بدر:

يبقى أن نعرف أن مسألة اشتراك العباس عمّ النبيّ في غزوة بدر من مشكلات التاريخ وغوامضه، فهو من الذين أسرَهُ المسلمون في بدر فهو من جانب يشارك في الحرب، ومن جانب آخر يحضر في بيعة العقبة، ويدعو أهل المدينة إلى حماية النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ونصرته.

[1]الطناب: الطرف.

[2]السيرة النبوية: ١ / ٦٤٦ و ٦٤٧.

فكيف يكون هذا؟

إن الحل يكمن في ما قاله أبو رافع غلام العباس نفسه: كان العباس قد أسلم ولكنه كان يهاب قومه ويكره خلافهم ويكتنم إسلامه، مثل أخيه أبي طالب لاقتضاء المصالح الإسلامية ذلك، ومن هذا الطريق كان يساعد النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ويخبره بمخططات العدو ونواياه وتحركاته واستعداداته كما فعل ذلك في معركة «أحد» أيضاً. (1) فقد كان أول من أخبر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بتحريك قريش وخططهم واستعداداتهم.

المنع من النوح والبكاء في مكة:

وقد أفجع مقتل سبعين رجلاً من رجال مكة وفتيان قريش أكثر البيوت والعوائل في مكة، وسلبهم البهجة والفرح، والنشاط والحركة، وتحولت مكة برمتها إلى مأتم كبير، وناحت قريش على قتلاها. (2)

غير أن أبا سفيان عمد - لابقاء أهل مكة على حالة الحنق والغضب - إلى منع النوح والبكاء على القتلى وحث الناس باستمرار على الاستعداد للثأر والانتقام من محمّد وأصحابه فقال: يامعشر قريش لا تبكوا على قتلاكم، ولا تنح عليهم نائحة ولا يبكيهم شاعر، واطهروا الجلد والعزاء فانكم إذا نحتم عليهم وبكيتموهم بالشعر أذهب ذلك غيظكم، فأكلكم ذلك عن عداوة محمّد وأصحابه. ولعلكم تتركون ثأركم.

ولكي يلهب أبوسفيان مشاعر الناس أكثر فأكثر أو يبقي على سخونتها على الأقل، قال: والدهن والنساء على حرام حتى أغزو محمّداً.

وكان «الأسود بن المطلب» أصيب له ثلاثة من ولده: زمعة وعقيل والحارث بن زمعة، فكان يحب أن يبكي على قتلاه، ولكنه ما كان ليستطيع

1- السيرة الحلبية: ٢ / ٢١٧.
2- المغازي: ١ / ١٢٢. قال: لم تبق دار بمكة إلا فيها نوح.

ذلك لمنع أبي سفيان من النوح والبكاء على القتلى.

فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل فقال لغلامه - وقد ذهب بصره وعمي: هل بكت قريش على قتلاها لعلّي أبكي على زمعة، فإن جوفي قد احترق.

فذهب الغلام ورجع إليه فقال: إنما هي امرأة تبكي على بعيرها قد أضلته، فأنشد الأسود بن المطلب حينها يقول:

أتبكي أن يضلّ لها بعيرٌ * ويمنعها من النوم السهود

فلا تبكي على بكر (1) ولكن * على بدر تقاصرت الجدود

على بدر سراة بني هصيص * ومخزوم ورهط أبي الوليد

وبكى ان بكيت على عقيل * وبكى حارثا اسد الاسود (2)

القرار الأخير حول مصير الاسارى:

في هذه المعركة بالذات أعلن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن قرار تاريخي عظيم ورائع هو: أن من علم من الاسرى

عشرة من الغلمان والصبيان من اولاد الأنصار الكتابة والقراءة كان ذلك فداؤه وخلي عن سبيله من غير أن يؤخذ منه مال. (3)

وان من دفع فدية قدرها أربعة آلاف درهم إلى ألف درهم خلي سبيله وان من كان فقيرا لامل له أفرج عنه دون فداء.

فأحدث هذا النبأ في مكة لدى عوائل الاسرى حركة عجيبة ودفعهم إلى التفكير في تقديم الفداء إلى المسلمين، واطلاق اسراهم.

فهياً كل واحد منهم ما استطاع وقدم المدينة يفدي اسيره.

وعندما أفرج عن سهيل بن عمرو لقاء فدية قال عمر بن الخطاب لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : يا رسول الله دعني

أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو (أي أسنانه

- [البكر: الفتى من الابل.

- 2- السيرة النبوية: ١ / ٦٤٨.

- 3- السيرة الحلبية: ٢ / ١٩٣.

الامامية) ويدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا في موطن أبداً.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : « لا أمثل به فيمثل الله بي وان كنت نبيا. (1) »

وتلك لفتة انسانية أخرى من لفتات النبي العظيم الكثيرة في المعارك.

وقد كان في الاسارى أبو العاص بن الربيع زوج ابنة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : زينب.

وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالا وأمانة وتجارة، وقد تزوج زينب ابنة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في

الجاهلية.

ولما جاء الإسلام أمنت خديجة برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأمنت بناته، (ومنهن زينب) كذلك وشهدن أن ما جاء به

الحق، ودين دينه، وثبت أبو العاص على شركه، وكان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لا يقدر على أن يفرق بينهما.

وقد اشترك أبو العاص هذا في معركة بدر مع قريش، وأسر بأيدي المسلمين.

فلما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في فداء أبي العاص بن الربيع بمال وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة قد أهدتها إليها ليلة دخول أبي العاص بها (ليلة زفافها).

فلما رأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تلك القلادة تذكر زوجته الوفية خديجة (وما أسدته إلى الإسلام من خدمات وقدمته من تضحيات، وبكى بكاء شديداً).

فالتفت إلى المسلمين وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها

-[السيرة النبوية: ١ / ٦٤٩، والمغازي: ١ / ١٠٧] يقول صاحب المغازي في صفحة ١٠٥ من نفس الجزء: كان عمر (رض) يحض على قتل الاسرى لا يرى أحداً في يديه أسير إلا امر بقتله!!

(93)

مالها فافعلوا.

فقالوا: نعم يا رسول الله، نفديك بأنفسنا وأموالنا.

فأطلقوه، وردوا عليها الذي لها وبذلك احترم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حقوق المسلمين وما يرجع إليهم من أموال بل أنها والله أعظم مظهر من مظاهر الديمقراطية، (ان صح التعبير) فالنبي مع أن له ماله من الولاية على المسلمين يقترح عليهم الافراج عن زوج زينب ويترك الامر لاختيارهم.

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أخذ على أبي العاص الميثاق بأن يخلي سبيل زينب، ويبيعها إلى المدينة.

ففعل أبو العاص ما تعهد به، وبعث زينب إلى المدينة.

ثم إن أبا العاص نفسه أسلم أيضاً وقدم المدينة، ورد عليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - زينب بالانكاح الاول أو بنكاح

جديد. (1)

رسول الإسلام ومكافحة الأمية:

كما أنه يتبين من قصة الاسرى الذين اطلق سراحهم لقاء تعليم أولاد المسلمين الكتابة والقراءة مدى اهتمام الإسلام بالثقافة والتثقيف، والوعي والتوعية، فان معرفة القراءة والكتابة بداية التثقيف والتوعية.

ولابدّ أن نقول هنا أيضاً إن اطلاق الاسارى العارفين بالقراءة والكتابة لقاء تعليم صبيان المسلمين تعد أول عملية لمكافحة الامية التي اهتم بها العالم الحاضر.

ففي الوقت الذي كانت الكثير من الدول في عصر الإسلام الاول تمانع من تثقيف أبنائها ورعاياها - كما مرّ عليك في دراسة أوضاع الامبراطوريتين الفارسية والرومية - أعلن رسول الإسلام ان من لم يكن معه فداء وهو يحسن الكتابة دفع إليه عشرة من غلمان المدينة (أي صبيانها) يعلمهم الكتابة فاذا تعلموا كان ذلك فداءه... وما أعظمها من خطوة ثقافية وحضارية.

- [السيرة النبوية: ١ / ٦٥١ - ٦٥٩، بحار الأنوار: ١٩ / ٣٤٨ و ٣٤٩.

(94)

كلام لابن أبي الحديد في المقام:

يقول العلامة ابن أبي الحديد: قرأت على (استاذي) النقيب أبي جعفر البصري العلوي هذا الخبر، فصدّقه وقال: أتري أبابكر وعمر لم يشهدا هذا المشهد؟ أما كان يقتضي التكريم والاحسان أن يُطَيَّبَا قلبَ فاطمة) عليها السلام، ويستوهب لها من المسلمين (أي يستوهب فدكاً من المسلمين ويردّه عليها) ؟

أقتصُر منزلُتها عند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من منزلة زينب أختها وهي سيدهُ نساء العالمين؟!!

هذا إذا لم يثبت لها حقٌّ بالنحلة ولا بالارث؟

فقلت له: فدك بموجب الخبر الذي رواه أبو بكر قد صار حقاً من حقوق المسلمين، فلم يجز له أن يأخذه منهم.

فقال: وفداء أبي العاص قد صار حقاً من حقوق المسلمين، وقد أخذه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - منهم.

فقلت: رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - صاحب الشريعة، والحكمُ حكمُهُ، وليس أبو بكر كذلك.

فقال: ما قلتُ هلاً أخذه أبو بكر من المسلمين قهراً فدفعه إلى فاطمة) عليها السلام (وإنما قلت: هلاً استنزل المسلمين عنه، واستوهبه

منهم لها، كما استوهب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فداءً أبي العاص؟ أتراه لو قال: هذه بنت نبيكم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

فقد حضرت لطلب هذه النخلات افتطيبون عنها نفساً؟ كانوا منعوها ذلك؟!!

فقلت له: قد قال قاضي القضاة أبو الحسن عبدالجبار بن أحمد نحو ذلك.

قال: إنهما لم يأتيا بحسن في شرع التكريم، وان كان ما أتياه حسناً في الدين!!

أي ان ما فعلاه وان كان يوافق موازين الدين - حسب تصور القاضي - ولكنه لا يناسب شأن فاطمة وتكريمها لمقامها ولمكانتها من أبيها رسول الله

(95)

- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - . (1)

هذا وقد أمر الله نبيه الكريم بأن يعلن للاسرى بأن الباب مفتوح أمامهم لينضموا إلى صفوف المسلمين، فينعموا بالاسلام فيعيد الله عليهم أفضل مما أخذ منهم ويغفر لهم ذنوبهم، إذ يقول تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. (2))

وبذلك فتح الإسلام باب الأمل أمام الاسارى، وكشف عن نزعة الإنسانية وأيضاً عن رغبته الصادقة في هداية البشرية، ونجاتها.

كما ضرب بذلك مثلاً في الحكمة وحسن السياسة لم يسبق له مثيل.

على انه هدّد الاسرى من ناحية أخرى إذا أساؤا، وعادوا بعد الخلاص من الاسر إلى التآمر ضد الإسلام.

إذ قال:

(وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. (3))

وبذلك جمع بين الحزم والحكمة، واللين الحكيم والشدة المعقولة.

القرآن يتحدث عن بدر:

ولقد ذكّر القرآن الكريم المسلمين، ولا يزال يذكرهم بالانتصار الكبير الذي تحقق للمؤمنين في بدر بفضل ثبات المقاتلين ونصر الله وتأبيده الغيبي إذ قال:

(إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِئْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ)

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٣ / ٣٣٤ - ٣٥٢ ولابن أبي الحديد كلام آخر يشبه هذا في اهدار من أسقط جنين زينب فراجع.
2- الانفال: ٧٠ و ٧١.
3- الانفال: ٧٠ و ٧١.

(96)

هَلْكَ عَنْ بَيْتَةٍ وَ يَحْيِي مِنْ حَيٍّ عَنْ بَيْتَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ* إِذْ يَرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَ لَوْ أَرَاكُهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنَارَ عُنْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ* وَ إِذْ يُرِيكُمْوهُمْ إِذْ التَّقِيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يَقْلِلْكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ.⁽¹⁾

وقال تعالى:

«قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الثَّقَاتِ فَمَنْ تَقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ أُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ.»⁽²⁾

وقال تعالى أيضاً:

«إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ إِنَّي مُدْعِمٌ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ.»⁽³⁾

وقوله تعالى:

(إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرْكُمْ بِهِ وَ يذْهَبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَ يَثْبُتَ بِهِ الْأَقْدَامُ* إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتُنَبِّئُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَرُغِبُوا فَاصْطُرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ اصْطُرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ.)⁽⁴⁾

وقال سبحانه أيضاً:

(وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ* إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ* بَلَى أَنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتِيَكُمْ مِنْ قُدْرِهِمْ هَذَا يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ* وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ* لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ)

1- الانفال: ٤٢ و ٤٤.

2- آل عمران: ١٣.

3- الانفال: ٩.

4- الانفال: ١١ - ١٢.

(97)

كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبُهُمْ فَيَتَّقَلِيُوا خَائِبِينَ. (1)

وفي هذه الآيات تصريحات واضحة بما كان عليه المسلمون في معركة بدر من حيث قلة العدة والعدد، وبأبرز الامدادات الغيبية الإلهية التي ساعدت المسلمين على الانتصار على أعدائهم المشركين، الذين كانوا يفوقونهم في العدة والعدد والسلاح والرجال مع التأكيد على أن ذلك الانتصار العظيم جاء نتيجة ثبات المسلمين واستقامتهم، وصبرهم وإخلاصهم.

وأبرز تلك الامدادات الغيبية هي:

1- مع أن الاعداء كانوا متمركزين في العدو العليا وهي أعلى الوادي والمسلمين في أسفل الوادي، وكان ذلك من شأنه أن يعزز موقع الكفار لإمكان مراقبة المسلمين من مكان مرتفع كما كان من شأنه أن يجعل هجوم المسلمين على الكفار أمراً صعباً، ولكن كفة الحرب رجحت مع ذلك لصالح المسلمين.

2- إنهم لو كانوا على ميعاد مع العدو، ومع العلم التفصيلي بحجم امكانيته البشرية والقتالية لامتنع عامة المسلمين عن مقابلة المشركين، ولكن شاء الله أن لا يعرف المسلمون شيئاً مفصلاً عن المشركين، مسبقاً، بل يواجه المسلمون الأمر الواقع، فيتحقق ما أراد الله من الانتصار على قريش. وإلى هذا اشار سبحانه بقوله:

(وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِ الْمِيعَادِ.)

3- تقليل عدد المسلمين في أعين المشركين وتقليل عدد المشركين في أعين المسلمين في أول القتال لكي يستقل الاعداء قوة المسلمين، ولكي لا يهاب المسلمون الاعداء ويستعظموا عددهم، وإليه يشير تعالى بقوله:

(إِذْ يَرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَافُتِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ)

4- تكبير عدد المسلمين في أعين الكفار في أثناء القتال وإليه يشير تعالى بقوله:

1- آل عمران: ١٢٣ - ١٢٧.

(يروونهم مثلهم رأي العين.)

5- الإمداد بالملائكة المرذفين الموسمين.

6- النعاس الذي ألقاه الله على المسلمين فجدد نشاطهم، وضاعف من قوتهم.

7- نزول المطر عليهم والذي طهرهم من الاقذار ومكّنهم من الاعتسال عما أصاب بعضهم من حدث، وثبتت الأرض الرملية تحت أقدامهم، وقد أشار سبحانه إلى كل ذلك في الآية ١١ من سورة الانفال.

8- تثبيت قلوب المؤمنين بواسطة الملائكة.

9- لقاء الرعب في قلوب الكفار وإلى هذين النوعين من الإمداد الغيبي أشار بقوله: **فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ**

كَفَرُوا الرَّعْبِ .

كما ويشير القرآن الكريم في هذا السياق إلى دور الشيطان في هزيمة الكفار فهو الذي يغري وهو الذي يخذل عند اللقاء يقول سبحانه:

(وَ إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئْتَانُ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَ قَالَ إِنِّي بريءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أرى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ.)⁽¹⁾

كما أن القرآن يتحدث أيضاً عن حالة المشركين عندما أتوا إلى بدر لمواجهة المسلمين وما كانت تنطوي عليه نفوسهم فيقول:

(وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَ رِئَاءَ النَّاسِ وَ يُصْذُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ.)⁽²⁾

كما ويعزي هزيمتهم إلى سبب رئيسي وحقيقي وهو مشاققة الله ورسوله إذ يقول:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقَقُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.)⁽³⁾

1- الانفال: ٤٨ .

2- الانفال: ٤٧ .

3- الانفال: ١٣ .

(99)

وينبغي الإشارة في ختام هذا العرض التفصيلي - نوعاً ما - لوقعة بدر إلى تكتيكات النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الحربية، وإلى أساليبه الحكيمة في تقوية معنويات المسلمين وإلى جانب تنظيم صفوفهم، مما لا يسع المجال لذكره على وجه التفصيل الكامل.

(100)

زواج سيدة النساء فاطمة بنت رسول الله (ﷺ)

إن الرغبة الجنسية حالة تظهر عند البلوغ لدى كل انسان، وربما تنحرف بالشباب وتهوي به في أحضان الفساد والسقوط الاخلاقي إذا لم تتوفر له أجواء التربية الصحيحة ولم تتح له الفرصة المناسبة، والمسير الصحيح لتنفيذ تلك الرغبة، والاستجابة لها بصورة صحيحة.

وان خير وسيلة للحفاظ على العفة الفردية والحياء العام، وتجنب الفرد والمجتمع مفاصد وأخطار الإنحراف الجنسي هو الزواج. فان الإسلام يحتم على الرجل والمرأة - تأكيداً لحكم الفطرة وتمثيلاً مع ناموس الطبيعة البشرية - أن يتزوجا طبقاً لضوابط خاصة تضمن سلامة الزيجة ودوامها.

وقد جاء هذا التأكيد، والحديث في الكتاب العزيز، والسنة الشريفة بمختلف الصور، وتحت مختلف العناوين:

فقد جاء في الكتاب العزيز:

«وَأَنْكَحُوا الْأَيَّامِي مَنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَانِكُمْ أَنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.»⁽²⁾

1- كان زواج فاطمة بعد وقعة بدر، راجع بحار الأنوار: ٤٣ / ٧٩ و ١١١.
2- النور: ٣٢.

(101)

وقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في هذا الصدد:

«تَزَوَّجُوا فَإِنِّي مَكَاتِرٌ بِكُمْ الْأَمَمَ غَدًا فِي الْقِيَامَةِ.»⁽¹⁾

وقال أيضاً:

«من أحب أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليلقه بزوجة.»⁽²⁾

مشاكل الزواج في العصر الحاضر:

على أن مشاكل الزواج في عصرنا الحاضر لا تنحصر - وللأسف - في مشكلة واحدة أو مشكلتين.

فالرجال والنساء اليوم يقدمون على الزواج - غالباً - في ظروف صعبة، وأوضاع رديئة، وتنتهي أكثر الزيجات بسبب تلك الظروف والأوضاع وبسبب، ما يلابسها من مستلزمات قاسية وثقيلة بالطلاق والافتراق بعد سلسلة من الخلافات والمنازعات.

فتلك هي صحف البلاد تحمل في أبوابها الاجتماعية كلَّ يوم عشرات الانباء والأخبار عن الجرائم الزوجية وتعالج عشرات المشاكل في مجال العائلة.

ولكن أكثر هذه المشاكل والمصائب تدور حول قضية واحدة، وهي أن الفتيان والفتيات في مجتمعاتنا الحاضرة ليسوا بصدد تشكيل عائلة تضمن سعادتهم الواقعية.

فالبعض يهّمه من الزواج أن يصل عن طريقه إلى المناصب الراقية الحساسة.

والبعض الآخر يهّمه من الزواج الحصول على الثروة والمال.

وقلّمًا يفكر المقدمون على الزواج، وتأسيس العائلة في أمور هامة وجوهرية كالعفة والطهر، وإذا لوحظ هذا الجانب فإنما يلاحظ بصورة هامشية، لا أساسية.

ويدل على ذلك أن الشباب يتنافس غالباً على التزوج بفتيات من العوائل المعروفة ذات المكانة والشهرة الاجتماعية والمالية، والحال أنه يمكن أن تكون

1- وسائل الشريعة: ١٤ / ٣ و ٦.

2- وسائل الشريعة: ١٤ / ٣ و ٦.

(102)

تلك الفتيات غير متصفات بالاخلاق النبيلة، ولا يكنّ من حيث الجانب المعنوي بالنوع الجيد، الجدير بالاهتمام، الصالح للاقتران به.

فما أكثر الفتيات الفاضلات، الطيبات هنا وهناك في زوايا المجتمع اللائي لايهتم بهن الشباب، لفقرهنّ، وقلة ذات ايديهن. أو لعدم شهرة عوائلهن.

على أن الأسو من ذلك كلّه ما اصبح يكلفه الزواج في عصرنا الحاضر من نفقات باهضة نتيجة تزايد التقاليد المبتدعة في مجال إقامة الاعراس وحفلات القران والزواج، الأمر الذي أصبح يرهق كاهل الزوجين، ويتعب عائلتيهما، مثل مشكلة المهور الباهضة، وما شابه ذلك مما هو في تصاعد مستمر في بلادنا، الأمر الذي دفع بالبعض إلى ترك الزواج، واشباع غرائزهم الجنسيّة بالوسائل غير المشروعة، ومن ثم شيوع اللابالية، والاباحية في المجتمعات.

رسول الإسلام يكافح هذه المشاكل عملياً:

تلك طائفة من المشاكل الاجتماعية التي كانت ولا تزال موجودة في كل مجتمع بنسب خاصة.

ولم تكن الفترة التي عاصرها رسول الإسلام بمستثناة من هذا الأمر فقد كانت هناك في المجتمع في عصر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مشاكل مماثلة في الزواج.

فقد كان أشرف العرب لا يزوجون بناتهم إلا لمن كان من قبيلة ذات مال وشوكة، ومكانة وقوة، ويردون كل خاطب لبناتهم يكون على غير هذه الصفة.

وقد كان الأشراف، يصرون - تبعاً لتلك العادة - على أن يتزوجوا بابنة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - السيدة فاطمة لأنهم كانوا يتصورون أن النبي لن يتشدد في هذا الأمر، بل يكفيه أنهم ذو ثروة ومكانة اجتماعية مرموقة.

وكانوا يتصورون أنهم يمتلكون كل ما يهيم الفتاة وأباها من الامكانيات المادية، كيف لا والنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يتشدد في زواج ابنتيه الاوليين:

(103)

زينب ورقية.

ولكنهم غفلوا عن أن هذه الفتاة (أي فاطمة الزهراء) عليها السلام ((تختلف عن أختيها السابقتين.

إنها - كما تدل عليه آية المباهلة⁽¹⁾ - ذات مقام رفيع، وشأن كبير.

لقد أخطأ خُطَّاب فاطمة) عليها السلام (في هذا التصور، وما كانوا يعلمون أن زوج فاطمة وقرينها لا يمكن أن يكون إلا كفؤها في التقوى والفضل، والايمان والاخلاص، فاذا كانت فاطمة - بحكم آية التطهير - معصومة من الذنب وَجِبَ أن يكون زوجها هو الآخر معصوماً والام يكن كفؤها المناسب.

وليس المال وليست الثروة ملاك هذا التكافؤ.

لقد قال الإسلام: «إذا خطب إليكم كفو فزوجوه.»

ويفسر هذا التكافؤ بالمماثلة والتكافؤ في الايمان والتقوى، والطهارة والعفاف، لا في المال والثروة.⁽²⁾

ولقد كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مأموراً من جانب الله تعالى أن يقول لكل من خطب إليه «فاطمة» من اولئك الرجال: «أمرها بيد الله» وهو بهذه الاجابة يكشف القناع عن الحقيقة إلى درجة ما.

ولقد أدرك أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن زواج «فاطمة» ليس أمراً سهلاً وبسيطاً، وأنه ليس لمن كان من الرجال وان بلغ من الثراء، والمكانة الاجتماعية أن يحظى بالزواج منها، فان زوج «فاطمة» ليس إلا من يشابهها من حيث الأخلاق والفضائل، والصدق والايمان، والطهر، والاخلاص، بل ويلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في السجيا الكريمة والصفات الرفيعة،

1- آل عمران: ٦١.
في قضية المباحة اصطحب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - علياً والحسن والحسين وفاطمة دون غيرها من النساء وسيأتي مفصل هذه القصة.
2- راجع الوسائل: ١٤ / ٥٠ - ٥٢.

(104)

والخلق العظيم.

ولا تجتمع هذه الصفات والمواصفات إلا في «علي» - عليه السّلام - لا سواه.

وللتأكد من هذه الحقيقة اقترح بعض الصحابة على (علي) - عليه السّلام - أن يخاطب إلى النبيّ فاطمة صلوات الله عليهما. (1)

وكان علي - عليه السّلام - يريد ذلك في نفسه، ويرغب إليه من كل قلبه إلا أنه كان ينتظر الفرصة المناسبة ليقيم على هذا الأمر.

فاتى علي - عليه السّلام - بنفسه إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولما رآه رسول الله قال: ما جاء بك يا أبا الحسن، حاجتك.

فمنع الخجل علياً من البوح بمطلبه وسكت، وأطرق براسه إلى الارض، حياء من النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فقال له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : لعلك جئت تخاطب فاطمة؟ فأجاب عليّ - عليه السّلام - بكلمات ضمنها رغبتة في الزواج من فاطمة بنت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ولقد كان هذا النمط من الخطبة علامة واضحة لما كان بين رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبين علي - عليه السّلام - ، من الاخوة والصفاء، ولما تحلّى به الجانبان من اخلاص وودّ. وما أروعها من ظاهرة. حقاً أنّ المبادئ والانظمة التربوية لم تستطع أن تعلم الشباب الذين يقدمون على الخطبة إلى أحد مثل هذه الحرية، المقرونة بالتقوى، والايمان والاخلاص.

لقد وافق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على طلب علي - عليه السّلام - وقال:

«يا عليّ أنه لقد ذكرها قبلك رجال فذكرت ذلك لها فرأيت الكراهة في وجهها، ولكن عليّ رسلك حتّى أخرج اليك.»

ثم دخل - صلّى الله عليه وآله وسلم - عليّ فاطمة، فذكر لها الأمر، وأن علياً - عليه السّلام - خطبها إليه قائلاً:

- [بحار الأنوار: ٤٣ / ٩٣.

(105)

«إن علي بن أبي طالب من قد عرفت قرابته، وفضله واسلامه، واني قد سألت ربي أن يزوّجك خير خلقه، وأحبهم إليه وقد ذكر من أمرك شيئاً فماترين؟.»

فسكنت فاطمة سلام الله عليها، ولم ير رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - في وجهها كراهة فقام وهو يقول:

«اللّه أكبر، سكوئها إقرارها. (1)»

ولكن علياً - عليه السّلام - لم يكن يملك آنذاك إلا سيفاً، ودرعاً فقط.

فأمره رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - بأن يبيع درعه، ويهيء بئمه عدة الزواج وجهاز العروس، فباع علي - عليه السّلام - درعه، وأتى بئمه إلى النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - وسكب المال بين يديه. (2)

فقبض - صلّى الله عليه وآله وسلم - قبضة الدراهم، ودعا بلالا فأعطاه فقال:

«ابتع لفاطمة طيباً.»

ثم أعطى - صلّى الله عليه وآله وسلم - بقية تلك الدراهم إلى ابي بكر وعمر بن ياسر وأمرهما أن يبتاعا لفاطمة ما يصلحها من ثياب وأثاث البيت، وما شاكل ذلك من احتياجات العروسين.

ففعلاً ذلك واشترى ما أمرهما به رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - فكان جهاز فاطمة كالتالي:

جهاز فاطمة:

- [قميص بسبعة دراهم.

- [2 خمار (3) بأربعة دراهم.

- 1- نفس المصدر السابق.
2- وفي رواية عن عليّ - عليه السّلام - فسكبت الدراهم في حجره فلم يسألني كم هي ولا أنا أخبرته.
3- الخمار: مقنعة.

(106)

- 3- قطفية سوداء لا تكفي لتغطية كلّ البدن.
4- سرير مزمل بشريط (أي مصنوع من جريد النخل والبيافه).
5- فراشان من خيش (1) مصر، حشو أحدهما ليف، وحشو الآخر من صوف الغنم.
6- اربع مرافق (2) اثنان من الصوف واثنان من الليف.
7- ستر.
8- حصير هجري.
9- رحي لليد.
10- مخضب (3) من نحاس.
11- سقاء من دم.
12- قعب للبن.
13- شنّ (4) للماء.
14- مطهرة مزقته. (5)
15- جرّة خضراء.
16- كيزان خزف.
فلما عرض المتاع على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جعل يقأبه بيده ويقول: «اللهمّ بارك لقوم جُلُّ أنبيئهم الخزف. (6)»
إن في مهر فاطمة اموراً تدعو إلى التأمل حقاً، أبرزها مقدار ذلك المهر.
فمهرها هو مهر السنّة وهو خمسمائة درهم. (7)
إن هذه الزيجة - في الحقيقة - خير درس للأخريين، للفتيان والفتيات الذين يننون من ثقل المهر وبهاضته وربما يننون من قيود الزواج وشروطه.

- 1- الخيش: نسيج خشن من الكتان.
- 2- المرفقة: الوسادة.
- 3- المخضب: اناء للمسك والطيب.
- 4- الشن: القربة.
- 5- مطلية بالزفت.
- 6- بحار الأنوار: ٤٣ / ٩٤، كشف الغمة: ١ / ٣٥٩.
- 7- وسائل الشيعة: ١٨ / ٥.

ان البيئة الزوجية يجب أن تكون - أساساً - بيئة دفاء وحنان، بيئة اخلاص ومودة. بيئة سلام ووافق فهذا هو ما يسعد الحياة الزوجية ويوفر للزوجين عيشاً هانئاً محبباً.

أما المهور الثقيلة، والنفقات الباهضة والجهاز المكلف فلا تؤدي إلا إلى تعكير صفو الحياة الزوجية، والتقليل من بريق الرابطة العائلية، وبالتالي لا تضمن مستقبل الزواج ودوامه، والمحافظة عليه من الهزات.

إن أولياء الفتيات - في عصرنا الحاضر - يعمدون بغية دعم مكانة فتياتهم وتقوية مركزهن وضمان مستقبلهن إلى فرض سلسلة طويلة وثقيلة من الشروط والقيود ومنها المهر الباهض على العريس حتى لا يستطيع أن يقوم بطلاق زوجته تحت دوافع الهوى والشهوة، أو كلما سولت له نفسه ذلك، على حين أن هذا الاجراء لا يضمن بقاء الرابطة الزوجية، ودوامها بل العلاج الحقيقي والناجح هو اصلاح الوضع الاخلاقي للشباب، ورفع مستواهم المعنوي.

يجب أن تكون بيئتنا الثقافية والاجتماعية من الطهر والنقاوة بحيث لا يوجد في رحابها امثال هذه النوازع الشريرة عند شبابنا، والا لبلغ الأمر إلى نقطة تستعد فيه الفتاة إلى بذل مهرها للنجاة بنفسها من البيت الزوجي.

مراسم الزواج تقام ببساطة:

ثم بعد أن عقد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لعلي - عليه السلام - على فاطمة (عليها السلام) في رحاب مسجده على مرأى ومسمع من المسلمين وفي جو يسوده الفرح والابتهاج والسرور قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لعلي - عليه السلام - هنيئاً منزلاً حتى تحوّل فاطمة إليه فأخذوا منزل أحد الصحابة بصورة مؤقتة، وحوّلت فاطمة إلى علي - عليه السلام - في منزل ذلك الصحابي الجليل، في زفاف جميل مبارك وقد صنع على طعاماً من لحم وتمر وسمن واطعم المسلمين جميعاً تقريباً، وساد الناس فرح عظيم لم يشهد له نظير.

عن ابن بابويه: أمر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بنات عبدالمطلب ونساء

المهاجرين والأنصار أن يمضين في صحبة فاطمة) عليها السلام (وان يفرحن، ويرجزن ويكبرن ويحمدن ولا يقولن ما لا يرضى الله.

قال جابر: فأركبها على ناقته - وفي رواية على بغلته الشهباء - وأخذ سلمان زمامها والنبىّ وحمزة وعقيل وجعفر وأهل البيت يمشون خلفها مشهرين سيوفهم ونساء النبىّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قدامها يرجزن، فانشأت أم سلمة تقول:

سرن بعون الله جاراتي * واشكرنه في كل حالات

واذكرن ما أنعم رب العلى * من كشف مكروه وأفات

فقد هدانا بعد كفر وقد * انعشنا رب السماوات

وسرن مع خير نساء الورى * تفدى بعمات وخالات

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لما دخلوا الدار أنفد إلى علي - عليه السلام - ثم دعا فاطمة (عليها السلام) فأخذ يدها وقد علاها الاستحياء وتصيب منها العرق خجلا، بل وقد تعثرت من شدة خجلها فقال لها رسول الله: «أقالك الله العثرة. (1)» ووضعها في يده وقال:

«بارك الله في ابنة رسول الله، يا علي نعم الزوجة فاطمة، ويا فاطمة نعم الزوج علي.»

ثم أخذ بيده اناء فيه ماء وصب منه على رأس فاطمة وبدنها ودعا لهما قائلا:

«اللهم اجمع شملهما، وألف بين قلوبهما، واجعلهما وذريتهما من ورثة جنّة النعيم وارزقهما ذرية طاهرة طيبة مباركة، واجعل في ذريتهما البركة، واجعلهم أئمة يهدون بأمرك إلى طاعتك، ويأمرون بما يرضيك.

اللهم انهما أحب خلقك إليّ، فاحبهما واجعل عليهما منك حافظاً، وأني أعيدُهُما بك وذريتهما من الشيطان الرجيم. (2)»

1-بحار الأنوار: ٤٣ / ٩٦ .
2-بحار الأنوار: ٤٣ / ١١٤ - ١١٨ .

وبذلك أبدى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من نفسه في تلك الليلة صفاء و إخلاصاً لم يعرف له نظير حتى في مجتمعاتنا الحاضرة رغم ما حققته من تكامل ورشد.

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عدد لفاطمة فضائل علي كما ذكر لعلي فضائل فاطمة وانها «لولم يخلق علي لما كان لها كفؤ»⁽¹⁾ ثم ذكر لهما وظائفهما وواجباتهما العائلية فأوكل إلى فاطمة ما هو في داخل البيت من شؤون وأوكل إلى علي ما هو من شؤون الخارج.

ولابد أن نذكر هنا قصة هامة أداء لحق فاطمة، وبياناً لمقامها.

يقول أنس بن مالك: إن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يمر ببيت فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى الفجر فيقول:

«الصلاة يا أهل البيت، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً»⁽²⁾

هذا وقد كانت هذه الزيجة أفضل زيجة في الإسلام وأكثرها بركة وخيراً، فقد عاش هذان القرينان الطاهران جنباً إلى جنب في وئام ووداد، في حياة زوجية طاهرة يسودها الاحترام المتقابل، والاخلاص الكامل من بدايتها إلى نهايتها.

وقد أنجبا أفضل الاولاد والبنات أبرزهم: الامام الحسن والامام الحسين)عليهما السلام(سبطا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الاثنيان لديه، والمقربان إليه وزينب بنت علي التي رافقت أخاها في وقعة كربلاء الدامية وكان لها مواقف عظيمة ومشرفة في الرعاية للحق والعدل، ونصرة الإسلام، وغيرهم من الاولاد ذكوراً واناثاً.

وقد بقي كلا الزوجين (علي وفاطمة) حتى آخر اللحظات عارفين بمكانة

1-مسند احمد بن حنبل: ٢ / ٢٥٩.

2-الدر المنثور: ٥ / ١٩٩.

الأخر، فكلاهما من أهل البيت الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وكلاهما من القربى الذين أمر بمودتهم ولهذا لم يتزوج علي - عليه السلام - على الزهراء امرأة أخرى الا بعد وفاتها، كما فعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالنسبة إلى خديجة، وفاء لحقها، واحتراماً لمقامها.

لكن بعض الايادي دستت - مع الأسف - في التاريخ أباطيلاً للتقليل من شأن هذين الزوجين الطاهرين، والحط من مكانتهما، فنسبت إليهما التنازع، والتشاجر، أو نسبت إلى فاطمة شكاية علي - عليه السلام - إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأوردت في

هذا المجال روايات مختلفة، لا أساس لها من الصحة، تفنّدها أخلاق علي وفاطمة وتقواهما وزهدهما، وتكذّبها ما جاء في شأنهما وجملة قدرهما من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية.

وقد استند أعداء الإسلام التقليديون إلى أمثال هذه الروايات لمسح صورة الإسلام الحنيف وتشويه سمعة رجاله العظماء ونسائه الخالدات الطيبات.

فهذا هو المستشرق النصراني الحاقق الاستاذ اميل درمنغم في كتابه المليء بالباطيل: «حياة محمّد» ترجمة الاستاذ محمّد عادل زعتر بعد ان يلصق برسول السلام تهماً عجيبة ويصفه بالبدويّ الحمس، يقع في علي وفاطمة عليها السلام!!)

فتارة يقول: إن فاطمة كانت عابسة دون رقية جمالا، ودون زينب ذكاء، وإنها لم تكن ترغب في عليّ لأنها كانت تعدّ علياً دميماً محدوداً مع عظيم شجاعته!! وان علياً كان غير بهيّ الوجه.. و... و... مع أنه كان تقياً شجاعاً صادقاً وفيّاً مخلصاً صالحاً مع توان وتردد!!

وكان إذا عاد إلى منزله من العمل بشيء من القوت قال لزوجته فاطمة عابساً: كلي واطعمي الاولاد!! وأن علياً كان يجرّد بعد كل منافرة ويذهب لينام في المسجد وكان حموه يربّته على كتفه ويعظه ويوقّف بينه وبين فاطمة إلى حين، ومما حدث أن رأى النبيّ ابنته في بيته ذات مرة وهي تبكي من لكم عليّ لها!!

(111)

ثم يقول: إن محمّداً - مع امتداحه قدم علي في الإسلام ارضاءً لابنته - كان قليل الالتفات إليه وكان صهراً النبيّ الامويان: عثمان الكريم وأبو العاص أكثر مداراةً للنبيّ من عليّ، وكان عليّ يألم من عدم عمل النبيّ على سعادة ابنته ومن عدّ النبيّ له غير قوام بجليل الأعمال فالنبيّ وان كان يفوّض إليه ضرب الرقاب كان يتجنب تسليم قيادة إليه⁽¹⁾!!

إلى غير ذلك من الترهات والسخافات التي الصقها تارة برسول الله الاكرم محمّد - صلّى الله عليه وآله وسلم - ، وأخرى بحبيبه وابن عمه ووصيه الامام علي بن أبي طالب - عليه السّلام - .

إن أفضل اجابة عن هذه الافتعالات هو ما كتبه العلامة الاميني حيث يقول:

كلّ ما في الكتاب من تلكم الاقوال المختلفة، والنسب المفتعلة إن هي إلا كلم الطائش، تخالف التاريخ الصحيح، وتضادّ ما أصفقت عليه الأُمَّة الإسلاميّة، وما أخبر به نبيّها الأقدس.

هل تناسب تقولاته في فاطمة مع قول أبيها - صلّى الله عليه وآله وسلم - :فاطمة حوراء إنسيّة كلما اشتقت إلى الجنّة قبلتها؟⁽²⁾!

أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: ابنتي فاطمة حوراء آدمية؟»⁽³⁾!

أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: فاطمة هي الزهرة؟»⁽⁴⁾!

أو قول أم أنس بن مالك: كانت فاطمة كالقمر ليلة البدر أو الشمس كفر غماماً، إذ خرج من السحاب بيضاء مشربة حمرة، لها شعر أسود، من أشد الناس برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - شبيهاً، والله كما قال الشاعر:

بيضاء تسحب من قيام شعرها * وتغيب فيه وهو جتل أسحم⁽⁵⁾

-
- 1- هذه المقتطفات اخذت من كتاب حياة محمد: ص ١٩٧ - ١٩٩ .
 - 2- تاريخ الخطيب البغدادي: ٨٦ / ٥ .
 - 3- الصواعق: ص ٩٦ ، اسعاف الراغبين: ص ١٧٢ نقلا عن النسائي.
 - 4- نزاهة المجالس: ٢ / ٢٢٢ .
 - 5- جتل الشعر: كثر والتف واسود فهو جتل، سحم فهو اسحم: اسود.

(112)

فكأنها فيه نهارٌ مشرقٌ * وكأنه ليلٌ عليها مظلم⁽¹⁾

ولقبها الزهراء المتسالم عليه يكشف عن جليلة الحال.

وهل يساعد تلك التحكمات في ذكاء فاطمة وخلقها قول أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها: كانت فاطمة تحب في بطن أمها، ولما

ولدت فوقعت حين وقعت على الأرض ساجدة رافعة أصبعها؟⁽²⁾!

أو يلائمها قول عائشة: ما رأيت أحداً أشبه سمياً ودلاً وهدياً وحديثاً برسول الله في قيامه وعوده من فاطمة، وكانت إذا دخلت على

رسول الله قام إليها فقبلها ورحب بها، وأخذ بيدها وأجلسها في مجلسه؟⁽³⁾!

وفي لفظ البيهقي في السنن ج ٧، ص ١٠١: ما رأيت أحداً أشبه كلاماً وحديثاً من فاطمة برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم

- الحديث.

وهل توافق مخاريفه في الامام علي صلوات الله عليه، وعدم بهاء وجهه، وعد فاطمة له دميماً وكونه عابساً مع ماجاء في جماله

البهى: انه كان حسن الوجه كأنه قمر ليلة البدر، وكان عنقه إبريق فضة⁽⁴⁾ ضحوك السن⁽⁵⁾ فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم؟⁽⁶⁾!

وأين هي من قول أبي الأسود الدؤلي من أبيات له؟!

إذا استقبلت وجه أبي تراب * رأيت البدر حار الناظرينا⁽⁷⁾

- 1- مستدرك الحاكم: ١٦١ / ٣.
- 2- سيرة الملاء، ذخائر العقبي: ص ٤٥، نزهة المجالس: ٢ / ٢٢٧.
- 3- أخرجه الحافظ ابن حبان كما في ذخائر العقبي ٤٠ م، والحافظ الترمذي وحسنه، والحافظ العراقي في التقريب كما في شرحه له ولايته: ١ / ١٥٠، وابن عبد ربه في العقد الفريد: ٢ / ٣، وابن طلحة في مطالب السؤول: ص ٧، اسعاف الراغبين: ص ١٧١ . ٤-
- 4- كتاب صفين: ص ٢٦٢، الاستيعاب: ٢ / ٤٦٩، الرياض النضرة: ٢ / ١٥٥، نزهة المجالس: ٢ / ٢٠٤.
- 5- تهذيب الاسماء واللغات للامام النووي.
- 6- حلية الأولياء: ١ / ٨٤، تاريخ ابن عساكر: ٧ / ٣٥، المحاسن والمساوي: ١ / ٣٢.
- 7- تذكرة السبط: ص ١٠٤.

نعم:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا فضله * فالناس أعداء له وخصوم

كضرائر الحسناء قلن لوجهها * حسداً وبغضاً: إنّه لدميم

أو يخبرك ضميرك الحرّ في علي ما سلقه الرجل به من (التواني والتردّد)؟!

وعلى ذلك المتقحم في الأهوال، والضارب في الأوساط والأعراض في المغازي والحروب؛ وهو الذي كشف الكرب عن وجه رسول الله في كلّ نازلة وكرائه منذ صدع بالدين الحنيف، إلى أن بات على فراشه وفداه بنفسه، إلى أن سكن مقرّه الأخير. ليس عليّ هو ذلك المجاهد الوحيد الذي نزل فيه قوله تعالى: **أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله**. (وقوله تعالى): **ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله**(1).

فمتى خلى عليّ عن مقارعة الرجال والذّب عن قدس صاحب الرّسالة حتّى يصحّ أن يُعزى إليه توان أو تردّد في أمر من الامور؟! غير ان القول الباطل لا حدّ له ولا أمد.

وهل يتصوّر في أمير المؤمنين تلك العشرة السيئة مع حليته الطاهرة؟! والنبى يقول له: أشبهت خلقي وخلقي وأنت من شجرتي التي أنا منها. (2)

وكيف يراه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أفضل أمته أعظمهم حلماً، وأحسنهم خلقاً، ويقول: عليّ خير أمّتي أعلمهم علماً وأفضلهم حلماً؟. (3)

ويقول لفاطمة: إنّي زوّجتك أقدم أمّتي سلماً، وأكثرهم علماً، وأعظمهم حلماً؟. (4)

1- راجع الجزء الثالث من «الغدِير»: ص ٤٧، ٥٣ ط ثاني.
2- تاريخ البغداد للخطيب: ١١ / ١٧١.
3- الطبري، الخطيب، الدولابي. كما في كنز العمال: ٦ / ١٥٣ و ٣٩٢ و ٣٩٨.
4- مسند أحمد: ٥ / ٢٦، الرياض النضرة: ٢ / ١٩٤، ذخائر العقبي: ص ٧٨، مجمع الزوائد: ٩ / ١٠١، ١١٤، وصححه ووثق رجاله.

ويقول لها: زوّجتك أقدمهم سلماً، وأحسنهم خلقاً؟⁽¹⁾!

يقول هذه كلّها وعشرته تلك كانت بمرأى منه ومسمع، أفك الدجالون، كان عليّ - عليه السّلام - كما أخبر به النبيّ الصادق الأمين. وهل يقبل شعورك ما قذف به الرجل (فضنّ الله فاه) عليّاً بلکم فاطمة بضعة المصطفى؟! وعليّ هو ذاك المقتص أثر الرسول وملاً

مسامعه قوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - لفاطمة: إنّ الله يغضب لغضبك، ويرضى لرضائك. (2)

وقوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - وهو أخذ بيدها: من عرف هذه فقد عرفها، ومن لم يعرفها فهي بضعة منّي، هي قلبي وروحي التي بين جنبيّ، فمن آذاها فقد آذاني. (3)

وقوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - :فاطمة بضعة منّي، يربيني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها. (4)

وقوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - :فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها فقد أغضبني. (5)

وقوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - :فاطمة بضعة منّي، يقبضني ما يقبضها، ويبسطني ما يبسطها. (6)

[1] أخرج أبو الخير الحاكمي كما في الرياض النضرة: ٢ / ١٨٢.
 2- مستدرک الحاكم: ٣ / ١٥٤ و صحیحہ، ذخائر العقبی: ٣٩، تذکرة السیوط: ١٧٥، مقتل الخوارزمی: ١ / ٥٢، کفایة الطالب: ٢١٩، شرح المواهب للزرقانی: ٣ / ٢٠٢، کنوز الدقائق للمناوی: ٣٠، أخبار الدول للقرماني هامش الكامل: ١ / ١٨٥، كنز العمال: ٧ / ١١١ عن الحاكم وابن النجار، تهذيب التهذيب: ١٢ / ٤٤٣، الإصابة: ٤ / ٣٧٨، الصواعق: ١٠٥، الاسعاف: ١٧١ عن الطبراني، ينابيع المودة: ١٧٣.
 3- الفصول المهمة: ١٥٠، نزهة المجالس: ٢ / ٢٢٨، نور الابصار: ٤٥.
 4- صحاح البخاري ومسلم الترمذي، مسند أحمد: ٤ / ٣٢٨، الخصائص للنسائي: ٣٥، الإصابة: ٤ / ٣٧٨.
 5- صحيح البخاري: خصائص النسائي: ٣٥.
 6- مسند أحمد: ٤ / ٣٢٣ و ٣٣٢، الصواعق: ١١٢.

وهل يقصر امتداح النبيّ عليّاً بقدم إسلامه؟! حتّى يتفلسف في سرّه ويكون ذلك إرضاءً لابنته، على أنّ امتداحه بذلك لو كان لتلك المزعمة لكان يقتصر - صلّى الله عليه وآله وسلم - على قوله لفاطمة في ذلك وكان يتأتّى الغرض به، فلماذا كان يأخذ - صلّى الله عليه وآله وسلم - بيد عليّ في الملاء الصحابي تارةً ويقول: إنّ هذا أوّل من آمن بي، وهذا أوّل من يصافحني يوم القيامة؟! ولماذا كان يخاطب أصحابه أخرى بقوله: أوّلکم وارداً عليّ الحوض أوّلکم إسلاماً عليّ بن أبي طالب!؟

وكيف خفي هذا السرّ المختلق على الصحابة الحضور والتابعين لهم باحسان فطفقوا بمدحونه - عليه السّلام - بهذه الاثارة كما يروى عن: سلمان الفارسي، أنس بن مالك، زيد بن ارقم، عبدالله بن عباس، عبدالله بن حجل، هاشم بن عتبة، مالك الاشتهر، عبدالله بن هاشم، محمد بن أبي بكر، عمرو بن الحمق، أبو عمرة عدّي بن حاتم، أبي رافع، بريدة، جندب بن زهير، أمّ الخير بنت الحريش.

وهل القول بقلة إلتفات النبي إلى عليّ يساعده القرآن الناطق بأنّه نفس النبي الطاهر؟! أو جعل موثته أجر رسالته؟!

أو قوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - في حديث الطير المشويّ الصحيح المرويّ في الصحاح والمسانيد: اللهم أنتني با حبّ خلقك إليك لياكل معي؟!!

أو قوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - لعائشة: «إنّ عليّاً أحبّ الرجال إليّ، وأكرمهم عليّ، فاعرفي له حقّه واكرمي مثواه؟». (1)!

أو قوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - «: أحبّ الناس إليّ من الرجال عليّ؟». (2)!

أو قوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - «: عليّ خير من أتركه بعدي؟». (3)!

أو قوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - «: خير رجالكم عليّ بن أبي طالب، وخير

- [أخرجه الحافظ الخجندي كما في الرياض: ٢ / ١٦١، وذخائر العقبى: ٦٢.
2- وفي لفظ: أحب أهلي، من حديث اسامة.
3- مواقف الايجي: ٣ / ٢٧٦، مجمع الزوائد: ٩ / ١١٣.

(116)

نسانكم فاطمة بنت محمّد؟. (1)!

أو قوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - «: عليّ خير البشر فمن أبى فقد كفر». (2)!

أو قوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - «: من لم يقل عليّ خير الناس فقد كفر؟». (3)!

أو قوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - :في حديث الراية المتفق عليه: لأعطين الراية غداً رجلاً يحبّه الله ورسوله ويحبّ الله ورسوله ؟

أو قوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - «: عليّ مَنّي بمنزلة الرأس (رأسي) من بدني أو جسدي؟». (4)

أو قوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - «: عليّ مَنّي بمنزلة من ربّي؟». (5)!

أو قوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - «: عليّ أحبّهم إليّ وأحبّهم إلى الله». (6)!

أو قوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - لعليّ: «أنا منك وأنت مني. أو: أنت مَنّي وأنا منك؟». (7)

أو قوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - «: عليّ مَنّي وأنا منه، وهو وليّ كلّ مؤمن بعدي؟». (8)

أو قوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - في حديث البعث بسورة البراءة المجمع على

- 1- تاريخ بغداد للخطيب: ٤ / ٣٩٢.
- 2- تاريخ الخطيب عن جابر، كنوز الحقائق هامش الجامع الصغير: ٢ / ١٦. كنز العمال: ٦ / ١٥٩.
- 3- تاريخ الخطيب البغدادي: ٣ / ١٩٢، عن ابن مسعود. كنز العمال: ٦ / ١٥٩.
- 4- تاريخ الخطيب: ٧ / ١٢، الرياض النضرة: ٢ / ١٦٢، الصواعق: ص ٧٥ م - الجامع الصغير للسيوطي، شرح العريزي: ٢ / ٤١٧، فيض القدير: ٤ / ٣٥٧، نور الأبصار: ص ٨٠، مصباح الظلام: ٢ / ٥٦.
- 5- الرياض النضرة: ٢ / ١٦٣، السيرة الحلبية: ٣ / ٣٩١.
- 6- تاريخ الخطيب: ١ / ١٦٠.
- 7- مسند أحمد: ٥ / ٢٠٤، خصائص النسائي: ص ٣٦ و ٥١.
- 8- مسند أحمد: ٥ / ٣٥٦ وأخرجه جمع من الحفاظ بإسناد صحيح.

(117)

صحته: لا يذهب بها إلا رجلٌ مني وأنا منه. (1)

أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : لحمك لحمي ودمك دمي والحقُّ معك؟. (2)

أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : ما من نبيٍّ إلا وله نظير في أمته وعليُّ نظيري؟. (3)

أو ما صحَّه الحاكم وأخرجه الطبراني عن أم سلمة قالت: كان رسول الله إذا أغضب لم يجترئ أحدٌ أن يكلمه غير عليٍّ؟. (4)

أو قول عائشة: والله ما رأيت أحداً أحبَّ إلى رسول الله من عليٍّ ولا في الأرض امرأة كانت أحبُّ إليه من امرأته؟. (5)

أو قول بريدة وأبي: أحبُّ الناس إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من النساء فاطمة ومن الرجال عليٌّ؟. (6)

أو حديث جُميع بن عمير قال: دخلت مع عمّتي على عائشة فسألت أئى الناس أحبُّ إلى رسول الله؟! قالت: فاطمة. فقيل: من الرجال؟

قالت: زوجها، إن كان ما علمت صَوَّاماً قَوَّاماً. (7)

وكيف كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يُقدِّم الغير على عليٍّ في الإلتفات إليه؟! وهو أوَّل رجلٍ اختاره الله بعده من أهل

الأرض لما أطلع

- 1- خصائص النسائي: ص ٨.
- 2- المحاسن والمساوى: ١ / ٣١، كفاية الطالب: ص ١٣٥، مناقب الخوارزمي: ص ٧٦ و ٨٣ و ٨٧، فراند السمطين: في الباب ٢ و ٢٧.
- 3- الرياض النضرة: ٢ / ١٦٤.
- 4- مستدرک الحاكم: ٣ / ١٣٠، الصواعق: ٧٣، تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١١٦.
- 5- مستدرک الحاكم: ٣ / ١٥٤ وصححه، العقد الفريد: ٢ / ٢٧٥، خصائص النسائي: ٢٩، الرياض النضرة: ٢ / ١٦١.
- 6- خصائص النسائي: ص ٢٩، مستدرک الحاكم: ٣ / ١٥٥، صححه هو والذهبي، جامع الترمذي: ٢ / ٢٢٧.
- 7- جامع الترمذي: ٢ / ٢٢٧، ط الهند، مستدرک الحاكم: ٣ / ١٥٧، وجمع آخر.

(118)

عليهم كما أخبر به - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فاطمة بقوله: إنَّ الله أطلع على أهل الأرض فاختار منه أباك فبعثه نبياً، ثمَّ أطلع

الثانية فاختار بعلك فأوحى إليَّ فأنكحته واتَّخذته وصياً. (1)

ويقوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : إنَّ الله اختار من أهل الأرض رجلين أحدهما أبوك والآخر زوجك. (2)

وإني لا يسعني المجال لتحليل كلمة الرجل: وكان صهرا النبي الأمويان... إلخ: وحسبك في مداراة عثمان الكريم حديث أنس عن رسول الله لما شهد دفن رقية بنته العزيزة وقعد على قبرها ودمعت عيناه فقال: أيكم لما يُقارَف الليلة أهله؟! فقال أبو طلحة: أنا فأمره أن ينزل في قبرها.

قال ابن بطال: أراد النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أن يحرم عثمان النزول في قبرها وقد كان أَحَقَّ النَّاسِ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ بَعْلَهَا وَقَدَّ مِنْهَا عِلْقًا لَا عَوْضَ مِنْهُ لِأَنَّهُ حِينَ قَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَيُّكُمْ لَمَ يُقَارَفُ اللَّيْلَةَ أَهْلُهُ؟! سَكَتَ عَثْمَانُ وَلَمْ يَقُلْ: أَنَا. لِأَنَّهُ قَدَّ قَارَفَ لَيْلَةَ مَاتَتْ بَعْضَ نِسَائِهِ، وَلَمْ يَشْغَلْهُ بِالصَّبِيَّةِ وَانْقِطَاعِ صَهْرِهِ مِنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عَنِ الْمَقَارَفَةِ فَحَرَّمَ بِذَلِكَ مَا كَانَ حَقًّا لَهُ وَكَانَ أَوْلَى بِهِ مِنْ أَبِي طَلْحَةَ وَغَيْرِهِ. وَهَذَا بَيِّنٌ فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ وَلَعَلَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كَانَ عِلْمَ ذَلِكَ بِالْوَحْيِ فَلَمْ يَقُلْ لَهُ شَيْئًا لِأَنَّهُ فَعَلَ حَلَالًا غَيْرَ أَنَّ الْمَصِيبَةَ لَمْ تَبْلُغْ مِنْهُ مَبْلَغًا يَشْغَلُهُ حَتَّى حَرَّمَ مَا حَرَّمَ مِنْ ذَلِكَ بِتَعْرِيزٍ غَيْرِ صَرِيحٍ. (3)

وما عساني أن أقول في أبي العاصم الذي كان على شركه إلى عام الحديبية، وأسر مع المشركين مرتين، وفرق الإسلام بينه وبين زوجته زينب بنت النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ست سنين، وهاجرت مسلمة وتركته لشركه، ولم ترد

1- أخرجه الطبراني عن أبي أيوب الأنصاري كما في إكمال كنز العمال: ٦ / ١٥٣، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد: ٩ / ١٦٥ عن علي الهاللي.
2- المواقيف: للإيجي: ص ٨.
3- الروض الأنف: ٢ / ١٠٧.

قطب بعد إسلامه كلمة تُعرب عن صلته مع النبي ومداراته له فضلا عن مقايسته بعلي أبي ذرّيته وسيّد عترته.

وقد اتهم الرجل نبي الإسلام بعد العمل على سعادة بنته الطاهرة المطهرة بنص الكتاب العزيز، ويقذف عليًا بالتألم من ذلك، وكان - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إِذَا أَصْبَحَ أَتَى بَابَ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَهُوَ يَقُولُ: بِرَحْمَتِ اللَّهِ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا. وَكَانَ لَمْ يَزَلْ يَقُولُ: فَاطِمَةُ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ.

ويقول: أحب الناس إلي من النساء فاطمة.

ويقول: أحب أهلي إلي فاطمة.

وكان عمر يقول لفاطمة: واللّه ما رأيت أحدا أحب إلي رسول الله منك. (1)

وما أقيح الرجل في تقوله على النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بعدَه لعلِّي غير قوام بجليل الأعمال. وقد ازوره وناصره وعاضده بتمام معنى الكلمة بكلِّ حول وطول من بدء دعوته إلى آخر نفس لفظه، فصار بذلك له نفساً وأخاً ووزيراً ووصياً وخليفةً ووارثاً ووليّاً بعده، وكان قائده الوحيد في حروبه ومغازيه، وهو ذلك الملقَّب بقائد العُرِّ المحجّلين وحيّاً من الله العزيز في ليلة أسرى بنيّه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. (2)

ومما يعجّب بل ويوسف أن نجد العقاد كاتب النيل الكبير يذهب هذا المذهب، وينحو هذا المنحى ذاته من سيدة نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وأمّ الامامين الهمامين الحسن والحسين) عليهما السلام)، فيسطر في كتابه «فاطمة الزهراء والفاطميون» (3) «شيناً من هذه العبارات والمقالات التافهة التي لا يليق بكاتب مثله عرف بالتحقيق والفهم، ان يدرجها في مؤلفه.

1- مستدرک الحاكم: ٣ / ١٥٠ وصححه.
2- مستدرک الحاكم: ٣ / ١٣٨ وصححه، الرياض النضرة: ٢ / ١٧٧، شمس الاخبار: ٣٩، أسد الغابة: ١ / ٦٩، مجمع الزوائد: ٩ / ١٢١.
3- راجع ص ٣٢ و ٣٣.

(120)

ولا يجاب على ما كتبه العقاد ومن حذا حذوه إلا بما مرّ في كلام العلامة والمحقق الخبير الاميني) رحمه الله. (ففيه كفاية لمن تحرّى الحقيقة عن أهل البيت) عليهم السلام.)

هذا وينبغي ان نذكر القارئ الكريم بنفس ما كتبه العقاد في كتابه ومما يعتبر شهادة دامغة تفند ما بدر منه من قول غير لائق في شأن علي والزهراء، فهو يقول: في كل دين صورة للثلاثة الكاملة المقدسة يتخضع بتقديسها المؤمنون كأنما هي آية الله فيما خلق من ذكر وانثى.

فاذا تقدست في المسيحية مريم العذراء ففي الإسلام لاجرم تتقدس صورة فاطمة البتول.

ثم يقول: من الواضح البين ان الزهراء اخذت مكانها الرفيع بين اعلام النساء في التاريخ لانها بنت نبي وزوجة امام وأم شهداء. (1)

فاذا كانت هذه هي صورة الزهراء البتول، فكيف يصدّق العقل ما حاكته أيدي الدسّ في تاريخ هاتين القمتين الطاهرتين من قمم الإسلام الشامخة؟!

1- راجع: ص ٥١ و ٥٢.

جرائم «بني قينقاع»

كانت معركة «بدر» بمثابة طوفان شديد ضد الوثنية في قلب شبه الجزيرة العربية.

طوفان اقتلع بعض جذور الوثنية العريقة، فقد قُتل طائفة من صناديد قريش، وأسرت أخرى وهرب الباقون بمنتهى الذل والصغار، وانتشر خبر هزيمة جيش قريش المتعطرس في جميع أنحاء وربوع الجزيرة العربية.

ولكن ساد بعد هذا الطوفان المرعب، شيء من الهدوء والمقرون بالاضطراب والقلق. هدوء كان منشأوه التفكير في مستقبل شبه الجزيرة العام وما تحبته الايام القادمة لسكانها على أثر التحول الجديد.

وكانت مخاوف القبائل الوثنية، ويهود يثرب الاثرياء ويهود خيبر ووادي القرى تزداد يوماً بعد يوم من تقدم الإسلام المطرد، وتعاضم شوكتها، واشتداد أمر حكومته القبية، وكان جميع هؤلاء يجدون مستقبلهم مهدداً بخطر جدوى، بعد أن كانوا لا يتصورون أن يكسب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - المهاجر من مكة كل هذه النجاحات الباهرة، وأن يبلغ من القوة ذلك المبلغ، بحيث يقهر بقواه المحدودة قوة قريش الكبرى ويكسر شوكتها العريقة!!

وكان يهود بني قينقاع الذين يقطنون داخل المدينة، ويمسكون بخيوط اقتصادها، أشدَّ خوفاً من غيرهم، وأكثر قلقاً على مستقبل أمرهم، لأنهم كانوا يخالطون المسلمين مخالطة كاملة وكان وضعهم يختلف عن وضع يهود خيبر ووادي القرى الذين كانوا يعيشون خارج المدينة بعيداً عن مركز قوة المسلمين ومنطقة حاكميتهم!!

من هنا بدأ يهود بني قينقاع قبل غيرهم من طوائف اليهود العائشة في تلك الديار بتدبير المؤامرات، وممارسة الأعمال الإيذاضية ضد المسلمين والقيام بالحرب الباردة (الإعلامية) ضدّهم، وذلك بنشر الأكاذيب وبتّ المعلومات الكاذبة، وإطلاق الشعارات القبيحة، وإنشاد القصائد التي من شأنها الاساءة إلى المسلمين وتحقيرهم، وتخريب معنوياتهم.

وبهذا يكون اليهود قد بدأوا عملياً بنقض معاهدة التعايش السلمي التي ذكرناها سلفاً، والتي عقدها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - معهم في أبان قدومه المدينة.

ولم تكن هذه الحرب الباردة الشريرة لتبرر تصدي القوى الإسلامية لها بالحرب الساخنة، واستعمال السلاح، لأن ما يمكن حله بسلاح المنطق لا يجذب أن يعالج بمنطق السلاح، وخاصة أن الرد الساخن والمسلح يؤدي إلى زعزعة الأمن والاستقرار في المدينة، والحال أن المحافظة على الوحدة السياسية، واستتباب الأمن والاستقرار في المدينة كان مما بهم النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جداً وهو يواجه أعداءً أشداءً من الخارج.

فلم يكن من مصلحة الإسلام والمسلمين تفجير الموقف في عاصمة الإسلام يومئذ.

ولهذا - وبغية اتمام الحجة على يهود بني قينقاع - وقف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ذات يوم في سوقهم بعد أن جمعهم فيه ثم قال لهم:

«يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة، وأسلموا، فانكم قد عرفتم أني رسول الله (أو أني نبي مرسل) تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله اليكم. »

وهنا نزل قول الله تعالى:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُونَ وَهُمْ يُجْرُونَ وَإِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسُودُ فِيهَا أَعْيُنُهُمْ وَاللَّهُ أَعْيُنُهُمْ وَاللَّهُ أَعْيُنُهُمْ وَاللَّهُ أَعْيُنُهُمْ وَاللَّهُ أَعْيُنُهُمْ وَاللَّهُ أَعْيُنُهُمْ وَاللَّهُ أَعْيُنُهُمْ وَاللَّهُ أَعْيُنُهُمْ وَاللَّهُ أَعْيُنُهُمْ وَاللَّهُ أَعْيُنُهُمْ وَاللَّهُ أَعْيُنُهُمْ)

(123)

يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ. (1)

ولكن اليهود المغرورين المتكبرين لم يشكروا نصيحة النبي هذه أو يسكتوا حسب، بل ردوا عليه بعناد ولجاج وصلافة قائلين: يا محمد انك ترى انا قومك لا يغررك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فاصبت منهم فرصة، إنا والله ولئن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس (أو أنا والله أصحاب الحرب، ولئن قاتلنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا. (2)!!)

فلم تترك كلمات يهود «بني قينقاع» الجوفاء، وتشدهم الفارغ بقوتهم وقدرتهم على القتال والمواجهه أدنى اثر في نفوس المسلمين

ولكن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد أتم عليهم الحجة، فلم يعودوا معذورين حسب السياسة الإسلامية وقد أصبح ساعتئذ من اللازم الاحتكام إلى منطق السلاح بعد أن لم ينجح سلاح المنطق، ولم يقنع اليهود بضرورة تغيير مواقفهم، والتخلي عن مؤامراتهم وخططهم الايدائية ضد النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمين.

أجل لا بد من استخدام القوة مع هؤلاء اليهود الصلفين المتعنتين والأزادوا صلافة، وكثرت اعتداءاتهم.

ولهذا أخذ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ينتظر الفرصة المناسبة لتأديب تلك الجماعة المتعنتة الوقحة.

لهيب الحرب يبدأ من شرارة:

قد تجر بعض الحوادث الصغيرة إلى سلسلة من التحولات والاحداث في الاجتماعات الكبرى. يعني أن تتسبب حادثة جزئية في انفجار الحوادث الكبرى، فيصفي كلٌّ من طرفي النزاع حساباه مع الطرف الآخر، انطلاقاً من علل واسباب أخرى، وليست من تلك الحادثة الجزئية؟

1- آل عمران: ١٢ و ١٣.
2- المغازي: ١ / ١٧٥ و ١٧٦.

(124)

فلمثال نشأت الحرب العالمية الأولى وهي إحدى أكبر الحوادث التاريخية في حياة البشر من حادثة صغيرة تذرعت بها الدول الكبرى، وتلك الحادثة الصغيرة التي اشعلت فتيل الحرب العالمية الأولى هي اغتيال «الارشيدوق فرانسيز فرديناند» ولي عهد النمسا في سراييفو.

وقعت هذه الحادثة في ٢٨ من شهر يونيو عام ١٩١٤ وبعد شهر وعدة أيام بدأت الحرب العالمية الأولى بهجوم الالمان على بلجيكا، وافرزت هذه الحرب المدمرة الشاملة عن مقتل عشرة ملايين وجرح عشرين مليوناً من البشر. (1)

ولقد انزع المسلمون من صلافة يهود بني قينقاع، وردهم الوقح على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو يخاطبهم بأدب ينصحهم، وكانوا يتوقعون أن يقوم اليهود بعمل عدائي ليثوروا ضدهم، ويؤذيوهم.

وبيناهم على هذه الحال إذ تعرضت امرأة من العرب لاعتداء من اليهود فاشعل هذا الحادث الموقف.

واليك مفصل تلك الحادثة:

جاءت امرأة من العرب إلى سوق بني قينقاع فجلست عند صائغ تباع حلياً لها أو تشتري، وكانت تبالغ في ستر وجهها عن اليهود، فجعلوا يريدها على كشف وجهها، فأبت فعمد رجلٌ من يهود بني قينقاع إليها وجلس من ورائها، وهي لا تتشعر فعمد أسفل ثوبها إلى ظهرها، فلما قامت المرأة بدت عورتها، فضحكوا منها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين إلى ذلك الرجل اليهودي فقتله،

فاجتمعت بنو قينقاع، وشدوا على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم القتل المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون غضباً شديداً

ولقد كان من الطبيعي أن يثب الرجل المسلم على ذلك اليهودي الوقح الشرير الذي فعل بالمرأة العربية ذلك الصنع، فان قضية «الأعراض» قضية حياتية وحساسة في اي مجتمع، فهي قضية شرف، وقد كان هذا الأمر يحظى في المجتمع

- [الموسوعة العربية الميسرة: ص ٧٠٠.

(125)

العربيّ خاصة بأهمية كبرى، وخاصة عند البدو الرحل منهم، فكم من دماء جرت لعدوان على عرض ديس أو تعرض للتحرش. من هنا أزعج وضع تلك المرأة الغربية وحالها المؤلم واضطرابها الرجل المسلم، وأشعل غيرته فوثب على اليهودي المعتدي وقتله. وكان من الطبيعي أيضاً أن لا يمز هذا العمل دون رد من اليهود فيثب اليهود بأجمعهم على ذلك المسلم الغيور ويقتلوه، ويريقوا دمه بأجمعهم.

نحن هنا لا يهمننا أن نعرف أن قتل ذلك الرجل اليهودي لا زدرائه بامرأة كان أمراً صحيحاً منطقياً يتفق مع الموازين أم لا ينطبق

ولكنه ما من شك في ان وثوب مئات من الرجال واجتماعهم على قتل رجل مسلم واحد، وإراقة دمه، عملٌ بالغ الشناعة والقيح. من هنا تسبب انتشارُ هذا الخبر (اي مقتل رجل مسلم واحد على أيدي مجموعة كبيرة من الرجال بصورة مفاجئة) في إثارة المسلمين ونفاد صبرهم، ودفعهم إلى العزم على حسم الموقف حسماً كاملاً وبالتالي هدم قلعة الفساد على رؤوس أصحابها القتلة.

فاحس «بنو قينقاع» بخطر الموقف، وأدركوا انه لم يعد من الصالح أن يبقوا في أسواقهم، ويواصلوا البيع والشراء، وقد تلبد الجوّ بالغيوم الداكنة على أثر العمل الفضيع والجناية الكبرى التي ارتكبوها.

من هنا تركوا أسواقهم بسرعة، وعادوا إلى قلاعهم المحصنة، وتحصنوا فيها، وكان ذلك منهم انسحاباً خانعاً بعد ذلك التشدق الصلّف!!

ولقد أخطأوا هذه المرة أيضاً إذ ظنوا انهم مانعتهم حصونهم، من انتقام الله.

ولو أنهم اعتذروا لخطئهم، وأظهروا الندامة لكانوا يجلبون رضا المسلمين، ويحصلون على عفو النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وهم يعرفون خلقه العظيم؛ وصفحه الكريم.

إلا أن تحصنّهم كان آية عنادهم، واعلانهم الحرب، ونصيبهم العداة الصريح للإسلام والنبيّ والمسلمين.

(126)

فأمر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بمحاصرتهم، ومنع من دخول أيّ امداد إليهم، كما منع من اتصالهم بأيّ أحد خارج حصونهم.

فحصروهم في حصونهم خمس عشرة ليلة أشدّ الحصار، حتّى قذف الله في قلوبهم الرعب، وفقدوا القدرة على المقاومة، ورضوا بأن ينزلوا عند حكم النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فيهم!!

وأراد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أن يؤدب تلك الجماعة التي كانت أول من نقض العهد ونبذ الميثاق تأديباً قاسياً، يكون عقاباً لهم وعبرة لغيرهم.

ولكن «عبدالله بن أبي بن سلول» الذي كان من منافقي المدينة ويتظاهر بالإسلام، أصرّ على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بأن يحسن معاملتهم، ولا يأخذهم بما فعلوا لحلف ومودة كانت بينه وبين يهود من السابق، فانصرف النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عن ما كان يريد من تأديبهم الشديد، وعقوبتهم على كره منه⁽¹⁾ ولكن أمر بأن يُجلوا من المدينة، ولا يبقوا فيها شريطة أن يتركوا أسلحتهم، وأموالهم، ودروعهم.

فنزلوا على حكم رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وكلف رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أحد المسلمين بقبض أموالهم وأسلحتهم، وكلف «عبادة بن الصامت» باجلائهم من حصونهم فعجل عبادة في ترحيلهم وإجلائهم.

فخرجوا من المدينة ولحقوا بمنطقة تدعى «أذعات» وهي بلد في اطراف الشام.

[1] هذا مع العلم ان القرآن الكريم ندد بمثل هذه الوساطة التي قام بها ذلك الرجل المنافق رغم تخفيف النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - معاقبة اليهود ورسم للمسلمين منهجاً في التعامل مع اليهود والنصارى إذ قال:
(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولّهم منكم فإنه منهم إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين) * فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده، فيصلحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين* ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهنم أنهم لمعكم حبطت أعمالهم فاصبحوا خاسرين) (المائدة: ٥١ - ٥٣).

(127)

وباجلاء «بني قينقاج» عادت الوحدة السياسية إلى المجتمع في المدينة.

وكانت الوحدة السياسية هذه المرة مقرونة بالوحدة الدينية إذ كان المسلمون يشكلون الاغلبية الساحقة في المدينة فلم يكن لغيرهم فيها شأن يذكر. (1)

تقارير جديدة تصل إلى المدينة:

من المعلوم أن الاخبار تنتشر بين الناس بسرعة في المناطق الصغيرة، على العادة.

من هنا فان انباء أكثر المؤامرات والتحركات المعادية للإسلام التي كانت تقع في المناطق المختلفة من شبه الجزيرة كانت تصل بسرعة - وعبر المسافرين المحايدون أو الاصدقاء المترصدين - إلى مركز القيادة الإسلامية في المدينة.

هذا مضافاً إلى أن هذا النوع من المعلومات كان يحظى لدى رسول الإسلام بأهمية كبرى، فيرصد لها من يأتي بها أولاً بأول، ولهذا كانت اكثر التحركات والمؤامرات يقضى عليها في مهدها بفضل الردّ السريع والمناسب الذي كانت القيادة الإسلامية تقوم به في ضوء المعلومات الواردة اليها، أو التي حصلت عليها.

فبمجرد أن تتضمن هذه المعلومات، إلى النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خبراً مفاده أن إحدى القبائل تعد قوة، وتستعدّ للهجوم على المدينة كان - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يبادر إلى بعث سرية أو يقود هو بنفسه مجموعة مناسبة لمحاصرة تلك القبيلة، وافشال مؤامرتها، وابطال تدبيرها قبل أن تستطيع فعل شيء، وكان هذا هو اسلوب المباغثة الذي استطاع به رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يقضي على كثير من التحركات المعادية في مهدها.

واليك مختصراً عن بعض تلك الغزوات التي وقعت في السنة الثانية من الهجرة:

[1-المغازي: ١ / ١٧٧، الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٨ و ٢٩.

1- غزوة قرقرة الكُدر: (1)

كانت المنطقة التي تتمركز فيها قبيلة «بني سلم» تدعى «الكُدر». »

وقد بلغ النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن القبيلة المذكورة تهيء، وتعدّ العدة للهجوم على مركز الإسلام وعاصمته (المدينة). فخرج رسول الله بنفسه من المدينة بعد أن استخلف عليها أحد أصحابه وأوكل إليه إدارة المدينة في غيابه، وكان الذي استخلفه هذه

المرة «ابن أم مكتوم»، وخرج على رأس قوة عسكرية إلى مركز تلك القبيلة فلما سمعوا بمسير القوى الإسلامية إليهم تفرقوا، وعاد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى المدينة من غير قتال.

ثم بعث سرية بقيادة فارس من فرسانه يدعى «غالب بن عبد الله» إلى نفس تلك المنطقة، فوقع بينه وبينهم قتال محدود وعاد «غالب» إلى المدينة ظافراً بعد أن استشهد ثلاثة من رجاله.

-2 غزوة السويق:

كان عرب الجاهلية إذا نذروا يندرون نذوراً غريبة.

فقد نذر أبو سفيان بعد معركة بدر أن لا يقارب زوجته ما لم يثار⁽²⁾ من المسلمين لقتلى بدر فكان عليه أن يقوم بهجوم على المدينة، ويقاتل النبي وأصحابه ليفي بنذره!!

فخرج من مكة في مائتي راكب فجاء بني النضير ليلاً، يطلب مشورة من أحبار اليهود.

فلما كان في وقت السحر خرج فمر بالعريض فوجد رجلاً من الانصار مع أجير له فقتل الأنصاري، وقتل أجيره، وحرق بيتاً وحرثاً لهم بارشاد من كبير اليهود «سلام بن مشكم» ورأى أن يمينه قد حلت، ثم ذهب هارباً، وخاف

-1 قرقرة الكدر: ناحية بين المعدن وبين المدينة، (الطبقات).
-2 المغازي: 1 / 182، الطبقات: 2 / 30.

ملاحقة المسلمين له.

فعرف به النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فندب أصحابه فخرجوا في اثره، وجعل أبو سفيان وأصحابه يتخفون فيلقون أكياس السويق (وهو القمح المقلّى المطحون الملتوت بالسمن أو العسل)، وهي عامة زادهم، فجعل المسلمون يمرّون بها فيأخذونها.

فسميت تلك الغزوة بغزوة السويق لهذا الشأن.

-3 غزوة ذي أمر:

بلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن قبيلة غطفان تجمع أفرادها، وتتأهب للعدوان على المدينة المنورة، فخرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على رأس أربع مائة وخمسين رجلاً.

فلما سمع العدو بمسير رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خافوا خوفاً شديداً فهربوا إلى رؤوس الجبال، فراراً من النبيّ والمسلمين.

فخرج النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - اليهم يبحث عنهم فلم يلاق أحداً منهم، وقد غيَّبوا سرحهم وذرائعهم في ذرى الجبال خوفاً وفرقاً.

فنزل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وآله «ذا أمر»⁽¹⁾ «و عسكر معسكره هناك، فاصابهم مطرٌ كثير، فذهب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ناحية ليقضي حاجة، فاصابه ذلك المطر فيلّ ثوبه، وقد جعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وادي «ذي أمر» بينه وبين أصحابه، ثم نزع ثيابه فنشرها لتجف، وألقاها على شجرة، ثم اضطجع تحتها، والأعراب ينظرون إلى كلّ ما يفعل.

فقاتل الأعراب لدعثور وكان سيدها وأشجعها: قد أمكنك محمد، وقد انفرد من أصحابه، حيث إن عوّث بأصحابه لم يُعَثّ حتّى تقتله. فاختر سيفاً من سيوفهم صارماً ثم أقبل مشتملاً على السيف حتّى قام على

-1 واد بطريق فيد إلى المدينة. فاء الوفاء: ٢ / ٢٤٩.

(130)

رأس النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالسيف مشهوراً، ورسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مستلق على قفاه.

فقال بنبرة خشنّة مهددة: ما يمنعك مني اليوم؟ قال النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : الله.

فكان لهذه الكلمة أثر عجيب في نفس دعثور بحيث اربع، ووقع السيف من يده، فأخذه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقام به على رأسه، فقال: ومن يمنعك مني اليوم.

فقال: لا أحد.

ثم قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، والله لا أكثر عليك جمعاً أبداً.

فأعطاه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سيفه ثم أدبر، ثم أقبل بوجهه على النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال: أما والله لانت خيرٌ مني.

قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :أنا أحق بذلك منك.

فأتى قومه، وقصَّ عليهم ما جرى له مع النبي، وأنه أسلم، ودعا قومه إلى الإسلام.

أجل يكتب المؤرخون في هذا المقام أن الرجل أسلم من فوره، ويجب أن نعلم أنه لم يسلم خوفاً ورفقاً وتحت بارقة السيف لأنه بقي ثابتاً ومستمراً في إسلامه بعد ذلك وأخذ يدعو قومه كما أسلفنا وهذا يدل على أنه أسلم عن طوعية ورغبة، وان إسلامه كان لتنبه فطرته، ويقظة وجدانه، فإن فشله غير المتوقع، ونجاة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - التي تمت بطريقة خارقة للعادة جعلته ينتبه إلى عالم آخر، وعرف بأن لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ارتباطاً بعالم آخر، وأنه مؤيد بالتالي بقوة عليا، وراء هذا العالم المادي.

ولهذا السبب - وليس لسواه - أسلم، وقبل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إسلامه، وبعد أن مشى خطوات ردّ إلى النبي سيفه الذي أعاده إليه النبي قبل ذلك واعتذر إليه.

(131)

وقال: أنت أولى بهذا السيف لأنك قائد هذه السرية المصلحة. (1)

قريش تغير مسير تجارتها:

تعرضت سواحل البحر الأحمر للخطر من قبل عناصر الجيش الاسلامي وحلفائهم، ولم يعد من الممكن مواصلة التجارة وارسال القوافل التجارية عبرها.

من هنا تشاورت قريش فيما بينها، ودرست أوضاعها في ظل هذه المستجدات، واتفقت على أنه لو تركت التجارة لهلكت رؤوس أموالها وفنيت، وكان عليها أن تسلم للمسلمين.

وان واصلت التجارة لم تحرز في هذا المجال نجاحاً مادامت الطريق غير آمنة، ومادام يمكن أن تتعرض أموالها للمصادرة على أيدي المسلمين كلما عثروا عليها.

فاقتراح أحدهم التجارة إلى الشام عن طريق العراق فاستحسنوا رأيه جميعاً، وتهيأت القافلة للحركة في الخط الجديد وتولى أبو سفيان وصفوان بنفسيهما مهمة الاشراف على تلك القافلة وادارتها، واستخدما رجلا من بني بكر يدعى «فراة بن حيان» ليدلّهما على الطريق.

قال المقرئ في امتاع الاسماع: سمع رجل من المدينة (وهو سليط بن النعمان) بخبر خروج صفوان بن أمية في عيره وما معهم من الاموال فخرج من ساعته وأخبر النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فأرسل زيد بن حارثة في مائة راكب فاصابوا العير، وافلت أعيان القوم، فقدموا بالعير فخمسها رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فبلغ الخمس عشرين ألف درهم، وقسم ما بقي على أهل السرية، وكان فيمن أسير فرات بن حيان فأسلم. (2)

1- المناقب: 1 / 164، المغازي: 1 / 194 - 196.
2- امتاع الاسماع: 1 / 112.

(132)

حوادث السنة الثالثة من الهجرة

٣٢

الدفاع عن الحرية

غزوة أحد أو الدفاع عن الحرية عند جبل أحد:

لم تكن السنة الهجرية الثالثة بأقل من السنة الثانية من حيث وقوع الحوادث والوقائع الملفتة للنظر فيها.

فاذا وقعت في السنة الثانية من الهجرة غزوة «بدر» فقد وقعت في السنة الثالثة منها غزوة «أحد» وهما من أعظم معارك الإسلام وغزواته.

على أن غزوة «أحد» لم تكن الغزوة الوحيدة التي وقعت في السنة الثالثة، بل وقعت أيضاً غزوات أخرى (1) إلى جنب طائفة من السرايا، التي اخترنا منها سرية واحدة وغزوتين فقط.

- [سرية محمد بن مسلمة:

لقد وصل نبي انتصار المسلمين في معركة «بدر» عن طريق رجلين من المسلمين.

ولم يكن الجيش الاسلامي الظافر قد وصل إلى المدينة بعد، عندما انزعج «كعب بن الاشرف» الذي كانت أمه من يهود «بني النضير» وكان شاعراً قوياً، وخطيباً بارعاً - من الفتح الذي أصابه النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - والمسلمون في «بدر» - فقال: والله لئن كان محمدٌ أصاب أشراف العرب وملوك الناس (وبعني سادة قريش وصناديدهم الذين قتلوا في بدر على أيدي المسلمين لبطن

- [مثل غزوة بحران وغزوة حمراء الأسد.

الأرض خيراً من ظهرها!! وبدأ يبث الأكاذيب والشائعات في المدينة ومضى يشكك في انتصارات المسلمين في بدر.

وقد كان يسيء إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في قصائده حتى قبل معركة «بدر» ويحرض الناس على المسلمين.

ثم إنه لما تيقن الخبر خرج حتى قدم مكة وجعل يحرض قريشا على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وقد أنشد في هذا

المجال أشعاراً يبكي فيها أصحاب القليب من قريش وقد ذكرتها المصادر التاريخية. (1)

ثم رجع كعب هذا إلى المدينة فشبّب (2) بنساء المسلمين حتى أذاهم!!

ولا شك أنه بهذه المواقف المعادية كان من أظهر مصاديق المفسد في الارض، الأمر الذي آل إلى أن يقرّر رسول الله - صَلَّى الله

عليه وآله وسلم - التخلص منه، وكفاية المسلمين شره، وقد أوكل هذه المهمة الصعبة إلى «محمد بن مسلمة». »

وقد خطّط «ابن مسلمة» للتخلص من «كعب» خطة رائعة، وألف لتنفيذها فريقاً كان من بينهم «أبو نائلة» الأخ الرضاعي لكعب

بن الأشرف، ليتمكن من هذا الطريق التموية على كعب وتنفيذ الخطة المذكورة.

فخرج أبو نائلة إلى كعب وجلسا يتحدّثان، ويتبادلان الشعر.

ثم إن أبا نائلة قال لكعب - بعد ان طلب منه أن يخرج كل من كان هناك من ذويه وأهله - : إني قد جئتكم في حاجة إليكم أريد ذكرها

لك فאתم عني، وإني كرهت ان يسمع القوم كلامنا، فيظنون! لقد كان قدوم هذا الرجل (يعني رسول الله) علينا من البلاء، وحرابتنا

العرب، ورمثنا عن قوس واحدة، وقطعت السبل عنا حتى جهدت الانفس، وضاع العيال، أخذنا بالصدقة ولا نجد ما نأكل.

فقال كعب: قد والله كنتُ أحدثك بهذا يا ابن سلامة إن الامر سيصير إلى ما أقول.

1-المغازي: ٢ / ١٢١ - ١٢٢ .
2-راجع السيرة النبوية: ٢ / ٥٢ .

فقال أبو نائلة: إنّ معي رجالاً من أصحابي على مثل رأيي، وقد أردت أن أتيتك بهم فنبتاع منك طعاماً، أو تمرّاً وتحسن في ذلك

إلينا، ونرهنك ما يكون لك فيه ثقة.

فقال كعب: وماذا ترهنونني يا أبا نائلة، أبناءكم ونساءكم؟؟!

فقال أبو نائلة: لقد أردت أن تفضحنا وتظهر أمرنا، ولكننا نرهنك من الحلقة (أي السلاح) ما ترضى به.

فرضي كعب بن الأشرف بذلك.

وإنما قال أبو نائلة هذا القول لابن الأشرف حتى لا يستغرب إذا رأى السلاح بيد الرجال الذين سيأتون معه.

ثم خرج أبو نائلة من عند ابن الأشرف على ميعاده، فأتى أصحابه، فأخبرهم بما دار بينه وبين كعب، فأجمعوا أمرهم على أن يأتوه إذا أمسى لميعاده، ثم أتوا إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عشاءً وأخبروه، فمشى معهم حتى أتى البقيع، ثم وجههم، ثم قال:

«امضوا على بركة الله وعونه اللهم أعينهم.»

فمضوا حتى أتوا ابن الأشرف، فلما انتهوا إلى حصنه هتف به أبو نائلة، وكان ابن الأشرف حديث عهد بعرس، فوثب من فراشه، فأخذت امرأته بناحية ملحفته وقالت: أين تذهب، إنك رجلٌ محارب، ولا ينزل مثلك في هذه الساعة؟؟

فقال ابن الأشرف: ميعادٌ، إنما هو أخي أبو نائلة.

ثم نزل إليهم فحيّاهم، ثم جلسوا فتحدثوا ساعة حتى اطمأن إليهم.

ثم قالوا له: يا ابن الأشرف: هل لك أن تنمشى إلى شعب العجوز (وهو موضع قرب المدينة) فتحدث فيه بقية ليلتنا.

فخرجوا يتمشون حتى أبتعدوا عن حصنه، وبينما هم كذلك إذ أدخل أبو نائلة يده في رأس كعب ثم شم يده فقال: ويحك ما أطيب عطرِكَ هذا يا ابن الأشرف، ثم مشى ساعة، ثم كرّر هذا العمل ثانية حتى اطمأن ثم مشى ساعة

(135)

ثم عاد لمثلها فأخذ بفود رأسه وقال: إضربوا عدو الله، فضربوه بسيوفهم، وطعنه أبو نائلة بخنجر في بطنه، وصاح صيحة ثم وقع على الأرض ولم تنفعه استغاثاته.

ثم عاد هذا الفريق الفدائي إلى المدينة من فورهم ولما بلغوا «بقيع الغرقد» كبروا، وقد قام رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تلك الليلة يصلي، فلما سمع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تكبيرهم بالبقيع كبر، وعرف أنهم قد قتلوه.

وبهذا أعلنوا عن نجاح عملياتهم الفدائية الجريئة التي أراحت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه من شر ذلك المفسد الخطير الذي لم يفتأ عن إيذاء النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتناول أعراض المسلمين في أشعاره. (1) ..

إغتيال مفسد آخر:

وكان أبو رافع سلام بن ابي الحقيق اليهودي يظاهر كعب بن الاشرف على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويقوم بنفس الدور الخبيث الذي كان يقوم به ابن الاشرف من الايذاء والازعاج للنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمين. فقام فريق فدائي آخر من المسلمين باغتياله على غرار اغتيال صاحبه في عملية فدائية جسورة على نحو ما رواه ابن الاثير في كتابه: الكامل في التاريخ بصورة مفصلة. (2)

وقد كانت هاتان العمليتان وأمور أخرى من أسباب اندلاع معركة «أحد».

وقد حان الأوان الآن أن نستعرض تفاصيل هذه الواقعة الكبرى!

قريش تتكفل نفقات الحرب:

كانت بذور الرغبة في الانتقام والثأر من المسلمين قد بُذرت في مكة من زمان وقد ساعدت خطة المنع من البكاء والنياحة على القتلى على اذكاء روح الانتقام هذه لدى قريش.

1- السيرة النبوية: ٢ / ٥١ - ٥٦، المغازي: ١ / ١٨٤ - ١٩٠.
2- الكامل في التاريخ: ٢ / ١٠١.

كما أن تعدد مرور قافلتها التجارية عبر طريق مكة - المدينة - الشام، واضطرابها إلى سلوك طريق العراق للسفر إلى الشام زاد هو الآخر من سخطها وانزعاجها.

ولقد أوجع مقتل «كعب بن الاشرف» من أوار هذا الحقد، وأوقد لهيبه في النفوس.

من هنا اقترح «صفوان بن أمية» و «عكرمة بن أبي جهل» على أبي سفيان ومن كانت له في قافلة قريش التجارية مشاركة، أن يدفع كل واحد منهم مبلغاً من المال لتسديد نفقات الحرب قائلين: يا معشر قريش إن محمداً قد وترككم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا.

ولقد لقي هذا الاقتراح قبولا من أبي سفيان وتقرر الإعداد للحرب فاجتمعت قريش لحرب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حتى فعل أبو سفيان ذلك.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الموضوع كما ذكر كيف أن قريشاً لم تحصد من هذا الإنفاق الا الخيبة والخسران إذ قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ.)⁽¹⁾

وحيث أن زعماء قريش كانوا يعرفون بقوة المسلمين وقد رأوا من كثب استقامتهم وثباتهم في معركة «بدر» لهذا قرروا أن يتألف جيشهم هذه المرة من صناديد أكثر القبائل العربية وشجعانها البارزين وأبطالها المعروفين.

فكأف «عمرو بن العاص» وعدة أشخاص آخرين بأن يؤلبوا العرب على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويجمعوا أبطالها وصناديدها، للمشاركة في الجيش الكثيف والمنظم الذي اعتزمت قريش على تسييره لقتال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمين، وغزوهم وبأن يخيروهم بأن قريشاً قد تكفّلت نفقات هذه المعركة.

وقد أثمرت نشاطات «عمرو» ورفاقه في هذا السبيل.

-[الأنفال: ٣٦، وراجع السيرة النبوية: ٦٠ / ٢، مجمع البيان: ٥٤١ / ٢، السيرة الحلبية: ٢ / ٢١٧].

(137)

فقد استطاعوا بعد محاولات واسعة أن يضموا إلى جيش قريش أبطالاً وصناديد من بني كنانة وتهمامة، فخرجت قريش وهم أربعة آلاف بمن انضم إلى صفوفهم من تلك القبائل. (1)

وقد كان هذا هو عدد الرجال الذين شاركوا في هذه المعركة، ولو أضفنا إليهم عدد النساء اللواتي شاركن فيها لتجاوز العدد ما ذكرناه.

على أنه لم يكن من عادة العرب أن يشركوا نساءهم في الغزو ويخرجوهن معهم إلى القتال، ولكن نساء مكة الوثنيات شاركن مع رجالهن في هذه المعركة على خلاف عادة العرب، وكان الهدف من أخذهن هو أن يحرضن الرجال على القتال والصمود، ويمنعن المقاتلين من الفرار، ويذكرن بقتلى بدر، ويشعلن الحماس في النفوس بدق الدفوف، وإنشاد الأشعار المثيرة للهمم والداعية إلى الثأر ولأن فرار الرجال كان يعني أن تقع النسوة في الأسر، وهو ما كان ياباه العربي آنذاك. فتكون الغيرة والحمية على العرض سبباً للمقاومة والصمود.

كما أنه اشترك في هذه المعركة طائفة من العبيد والرقيق طمعاً في العتق الذي وعدوا به إن نصرُوا أسيادهم وقاتلوا بين أيديهم، وذلك مثل «وحشي» وكان غلاماً حبشياً لمطعم بن جبير يقذف بحربة له قذف الحبشة فلما يخطئ بها فقال له سيده: أخرج مع الناس

فإن نلت محمداً أو علياً أو حمزة فأنت عتيق. (2)

وعلى أية حال استطاعت قريش أن تجهز بعد جهد كبير جيشاً كبيراً قوياً يتألف من سبعمئة دارع، وثلاثة آلاف فارس، ومشاة كثيرين، وقد خرجوا بعدة سلاح كثير.

الاستخبارات ترفع تقريراً إلى النبي:

فلما اجمعت قريش على المسير كتب العباس بن عبدالمطلب⁽³⁾ كتاباً يضم

1- اختلف علماء التفسير والتاريخ كعلي بن ابراهيم والشيخ الطبرسي في إلام الوري، وابن هشام والواقدي في عدد المشركين والكفار في هذه المعركة، وما ذكرناه هو الاقرب إلى الحقيقة.
2-بحار الأنوار: ٩٦ / ٢٠.
3- وكان العباس كما أسلفنا ممن أسلم وآمن برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في مكة ولكنه ظل يكتم إيمانه ليتمكن من البقاء بين قريش ورصد تحركاتهم واخبار النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بنواياهم. راجع السيرة الحلبية: ١٠ / ١٩٨.

(138)

تقريراً مفصلاً عن نوايا واستعدادات قريش، وختمه واستأجر رجلاً من بني غفار واشترط عليه أن يقطع الطريق إلى المدينة في ثلاثة أيام ويوصل تلك الرسالة إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

فقدم الغفاري المدينة فلم يجد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وانما وجده في بستان خارجها فدفع إليه كتاب العباس المختوم، فقرأه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - واطلع على ما فيه، ولكنه كتم محتواها عن أصحابه. (1)

روى العلامة المجلسي عن الامام ابي عبدالله الصادق - عليه السلام - أنه قال: كان مما منّ الله عزّوجلّ على رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه كان لا يقرأ ولا يكتب، فلما توجه أبوسفیان إلى «أحد» كتب العباس إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فجاءه الكتاب وهو في بعض حيطان المدينة فقرأه ولم يخبر أصحابه، وأمرهم أن يدخلوا المدينة فلما دخلوا المدينة أخبرهم. (2)

جيش قريش يتحرك باتجاه المدينة:

تحرك جيش قريش باتجاه المدينة، وبعد قطع مسافة معينة وصلت طلائعه إلى الابواء، وهي المنطقة التي دفنت فيها والدة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - السيدة «أمنة بنت وهب» فقال فتية من قريش: تعالوا ننبش قبر أم محمد، فإن النساء عورة، فإن يصب من نساكنم أحد قلتهم هذه رمة أمك، فإن كان بزاً بأمه كما يزعم فلعمري ليفادينكم برمة أمّة، وان لم يظفر بأحد من نساكنم فلعلمي ليفدين رمة أمّه بمال كثير إن كان بها بزاً.

1-المغازي: ١ / ٢٠٣، ويرى بعض المؤرخين أن مبعوث العباس قدم بالرسالة المدينة وكان النبي ساعته في المسجد فاعطى النبي الرسالة إلى أبي بن كعب فقرأها عليه، وقد روى الواقدي هذا الوجه أيضاً (ج ١ ص ٢٠٤) ومع أن النبي لم يعهد منه أن قرأ رسالة فيكون الوجه الأول أقرب إلى الحقيقة.
2-بحار الأنوار: ١١١ / ٢٠.

واستشار أوسفيان أهل الرأي من قريش في ذلك فاستقبحوه وشجيوه بشدة وقالوا:

لو فعلنا ذلك نبشت بنوبكر وخزاعة (وهم أعداء قريش) موتانا. (1)

وبعث النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليلة الخميس الخامس من شهر شوال، السنة الثالثة من الهجرة، «أنساً» و «مونساً» ابني «فضالة» للتعسس على قريش خارج المدينة، واخباره - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بتحركاتهم، فأخبروا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - باقتراب جيش المشركين إلى المدينة، وانهم قد سرحوا إبلهم وخيولهم ترعى في مراعي المدينة.

كما أخبر «الحباب بن المنذر» هو الآخر باقتراب جيش المشركين إلى المدينة، وان طلائع ذلك الجيش قد استقر على مقربة من جبل أحد، وكان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد بعث الحباب سراً وقال له: لا تخبرني بين أحد من المسلمين إلا أن ترى قلة.

وبخبر الحباب تأكّد ما أخبر به ابنا فضالة.

وحيث إن المسلمين كانوا يخافون على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من العدو، أن يهاجموه ليلاً، لذلك باتت وجوه الأوس والخزرج (الانصار) ليلة الجمعة وعليهم السلاح في المسجد بباب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يحرسونه، وحرس المدينة تلك الليلة حتى أصبحوا.

منطقة «أحد»:»

كان الوادي الطويل الكبير الذي يصل طريق الشام التجارية باليمن يسمى آنذاك بـ «وادي القرى»، وكانت القبائل العربية من اليهود وغير اليهود تقطن في كل منطقة تتوفر فيها ظروف المعيشة ومستلزمات الحياة، ولهذا نشأت على طول هذا الخط «قرى» بسبب وجود مناطق خصبة فيه وقد سُورَت بأسوار من الحجارة،

[1]المغازي: ١ / ٢٠٦.

وكانت يثرب مركز هذه القرى وأمها وهي التي سميت في ما بعد بمدينة الرسول، ومن ثم «المدينة» تخفيفاً واختصاراً.

وكان على كل قادم من مكة إلى المدينة، أن يدخل من جنوب يثرب وحيث إن أرض هذه المنطقة ذات طبيعة صخرية لذلك يكون عبور الجيش من خلالها أمراً عسيراً وفي غاية الصعوبة.

من هنا عمدت قريش - عندما وصل جيشها إلى مشارف المدينة - تحاشت هذه المنطقة، ودخلت من شمال المدينة، واستقرت في وادي العقيق في سفوح جبل «أحد»، وقد كانت هذه المنطقة لعدم وجود نخيل فيها، ولسهولة أرضها، أفضل مكان للعمليات العسكرية، وخير ميدان للقتال والحرب.

وقد كانت المدينة عرضة للخطر من هذه الناحية لأنه قلما كان المرء يرى فيها موانع طبيعية.

نزلت قوى المشركين عصر يوم الخميس في الخامس من شوال من السنة الثالثة من الهجرة عند جبل «أحد». «
وبقي النبي ذلك اليوم وليلته في المدينة، وفي يوم الجمعة أقدم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على عقد شورى عسكرية، واستشار قادة جيشه وأهل الخبرة والرأي من أصحابه في كيفية مواجهة العدو، والتكتيك الذي يجب أن يتبعه المسلمون.⁽¹⁾

المشاوره في كيفية الدفاع:

كان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد أمرَ من جانب الله تعالى أن يشاور أصحابه في الأمور العسكرية وما يشابهها ويشركهم في قراراته وخطته التي يتخذها في المجالات المذكورة، ليعطي بذلك درساً كبيراً للمسلمين، ويوجد بين أصحابه وأتباعه روح الديمقراطية (الصحيحة) وتحري الحق، والموضوعية.

-[لم تكن هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي شاور النبي فيها أصحابه وقد ذكرنا عدة موارد من هذا النوع من التشاور والهدف منه في كتابنا: معالم الحكومة الإسلامية.]

(141)

ولكن هل كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نفسه يستفيد من هذه المشاوره؟

وينتفع بأرائهم ونظرياتهم، ومقترحاتهم، أم لا؟.

لقد أجاب علماء العقيدة ورواد علم الكلام الاسلامي من مختلف الطوائف على هذا السؤال في مؤلفاتهم ودراساتهم، وللقارئ الكريم إذا أراد الوقوف على الجواب ان يراجع تلك المصنفات.

لكن الذي لا يمكن انكاره في المقام هو: أن هذه المشاورات سيرة حية تركها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من بعده، ولقد كانت هذه السيرة مؤثرة جداً بحيث استخدم الخلفاء والأمراء من بعده أسلوب التشاور والشورى، وكانوا يستفيدون على هذا الاساس من آراء الامام علي - عليه السلام - ونظرياته السامية في الأمور العسكرية، والمشكلات الاجتماعية التي كانت تطرأ على حياة المسلمين⁽¹⁾.

المشاورات العسكرية:

لما سمع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - باقتراب قريش إلى المدينة وقف في تلك الشورى التي كانت جمعاً كبيراً من صناديد أصحابه، وقادة جيشه وجنوده وقال بصوت عال: «أشيروا عليّ.»

وهو يطلب بذلك من أولئك الجنود والقادة أن يدلوا بأرائهم في كيفية مواجهة العدو، وطريقة الدفاع عن حوزة الإسلام وصرح التوحيد المهددة من قبل قريش والمتحالفين معهم من أحزاب الشرك، وأتباع الوثنية.

فقام «عبدالله بن أبي سلول» وكان من منافقي المدينة، وطرح فكرة التحصن في داخل المدينة، والقتال فيها على غرار حرب الشوارع. وذلك بأن لا يخرج المسلمون من المدينة بل يبقوا داخلها، ويستخدموا أبراجها وسطوحها لمقاتلة العدو ودفعه فترمي النساء العدو بالأحجار من السطوح، ويقاتل الرجال أفرادهم في الشوارع والأزقة قاتلاً: يا رسول الله كنا نقاتل في الجاهلية فيها، ونجعل النساء

-[راجع الخطبة ١٣٤ من نهج البلاغة.]

(142)

والذراري في هذه الصياصي ونجعل معهم الحجارة، ونشيك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية وترمي المرأة والصبي من فوق الصياصي والأطام، ونقاتل بأسيفنا في السكك (أي الطرقات).

يا رسول الله إن مدينتنا عذراء ما فُضت علينا قط، وما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا. فانهم إن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن رجعوا رجعوا خائبين مغلوبين.

وكان هذا رأي الأكابر من أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من المهاجرين والأنصار، إلا أن الفتيان من المسلمين وبخاصة من لم يشهد منهم بديراً وكانوا يشكلون الاغلبية شجبوا هذا الرأي بشدة، ورفضوه بقوة وطلبوا من رسول الله الخروج إلى العدو، ورجعوا في الشهادة، وأحبوا لقاء العدو.

وقالوا: إننا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أننا كرهنا الخروج إليهم جنباً عن لقائهم فيكون هذا جرأة منهم علينا، وقد كنت يوم بدر في ثلاثمائة رجل فظفرك الله عليهم، ونحن اليوم بشر كثير، قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا

وقال «حمزة» بطل الإسلام العظيم: لا أطمع اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارجاً من المدينة. (1)

الافتراع من أجل الشهادة:!!

وقام خيثة أبو سعد بن خيثة - وهو شيخ يقظ البصيرة - وقال: إن قريشاً مكثت حولا تجمع الجموع، وتستجلب العرب في بواديها، ومن تبعها من أحابيشها، ثم جاؤونا قد قادوا الخيل وامتطوا الابل، حتى نزلوا بساحتنا فيحصرونا في بيوتنا، وصياصينا، ثم يرجعون وافرين لم يكلموا، فيجزئهم ذلك علينا حتى يشنوا الغارات علينا، ويصيبوا أطرافنا، ويضعوا العيون والارصاد علينا، مع ما قد صنعوا بحروثنا،

-[المغازي: ١ / ٢١١ و بحار الأنوار: ج ١٢٥ من المعلوم أن نظرية عبدالله بن أبي لم تخلو من الخطر، إذ لم يكن من البعيد ان يستفيد العدو بعد دخوله في المدينة من بيوت المنافقين. وأن يتعاون معهم يهود المدينة أيضاً فتكون حينئذ الضربة القاضية للإسلام والمسلمين.

(143)

ويجتري علينا العرب حولنا، حتى يطمعوا فينا إذا رأونا لم نخرج اليهم، فنذبهم عن جوارنا، وعسى الله أن يظفرنا بهم، فتلك عادة الله عندنا، أو تكون الأخرى:

الشهادة.

لقد أخطأتني وقعة بدر، وقد كنت عليها حريصاً، لقد بلغ من حرصي أن ساهمت⁽¹⁾ ابني على الخروج فخرج سهمه فرزق الشهادة، وقد كنت حريصاً على الشهادة وقد رأيت ابني البارحة في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها، وهو يقول: الحق بنا ترافقتنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً.

وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة، وقد كبرت سني ورق عظمي، وأحببت لقاء ربي فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد في الجنة. (2)!!!

إن هذا الذي ذكرناه ليس سوى نموذج واحد من مواقف كثيرة تجدها أيها القارئ الكريم في صفحات التاريخ الإسلامي المشرفة فهناك الكثير من هؤلاء الفدائيين المخلصين الذين ألوا على أنفسهم أن يدافعوا عن حياض العقيدة وشرف الدين، ورزقوا الشهادة في نهاية المطاف.

إن الايديولوجية التي لا تعتمد على أسس الايمان بالله واليوم الآخر قلما تنتج جندياً فدائياً مخلصاً مثل خيثة، ومن شاكله.

إن روح الفداء والتفاني والايثار بالنفس والتضحية بالغالي والرخيص، التي تدفع بالجندي إلى أن يطلب الشهادة في سبيل إعلاء كلمة الحق، وإعزاز التوحيد باصرار وشوق لا توجد إلا في مدرسة الأنبياء والمرسلين، ولاتحصل إلا في ضوء تربيتهم.

واما في المجتمعات المادية كالمجتمعات الحاضرة التي تهتم أكبر اهتمام بتحسين أحوال العسكريين حيث إن الهدف من الحروب والمعارك لم يكن قط إلا الحصول على وضع معيشي أفضل، فأنه لا يهتم الجنود فيها إلا الحفاظ على أرواحهم وحياتهم

فذلك هو أكبر هدف لديهم، ومن هنا تندر عندهم روح التفاني والتضحية.

وأما في مدرسة الأنبياء فان المعارك والحروب لا يهدف منها إلا ابتغاء رضا الله سبحانه، فلو انحصر ذلك في الشهادة أقدم عليها الجندي المسلم من دون خوف أو وجل، وعرض نفسه لجميع الاخطار من دون تلكؤ أو ابطاء.

حصيلة الشورى:

لقد أخذ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - برأي الاكثرية التي كانت ترجح الخروج من المدينة لمقاتلة العدو، ورجح هو - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - البقاء في المدينة وقتال العدو داخلها، إذ لم يكن من الصالح - بعد ما اقترحه قادة جيشه البارزين مثل حمزة وسعد بن عباد ونظرانهم، وأصروا عليه - أن يأخذ برأي عبدالله بن أبي بن سلول المنافق.

هذا مضافاً إلى أن حرب الشوارع والمدن غير المنظم في داخل سكك المدينة وأزقتها الضيقة، وإشتراك النسوة في الأمور الدفاعية، والجلوس في البيت، والسماح للعدو بأن يفعل ما يريد آية العجز، والوهن، وهو أمر لا يليق بالمسلمين، ولا يتلاءم مع الانتصار العظيم الذي كسبه في معركة «بدر»، وهزموا به عدوهم الغاشم القوي.

إن محاصرة المدينة وسيطرة العدو على مداخلها وطرقاتها، وسكوت جنود الإسلام على ذلك من شأنه أن يقتل الروح القتالية، والفروسية في أبناء الإسلام المجاهدين.

ويمكن أن يكون «عبدالله بن أبي بن سلول» قد أضمر في نفسه نية سيئة ضد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأنه بهذا الاقتراح (أي البقاء في المدينة وعدم الخروج لمجابهة العدو، ومواجهته بشجاعة) كان يريد - في الحقيقة - أن يوجه ضربة إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - !!

النبي يلبس لامة الحرب:

بعد أن تعينت كيفية مواجهة العدو والدفاع، دخل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

بيته ولبس لامته، وقد لبس الدرع فأظهرها وحزم وسطه بمنطقة من حمائل سيف من أدم واعتم وتقلد السيف، وخرج من بيته.

فأثار هذا المشهّد المسلمين وهزهم بشدة وتصور بعضهم بأن إصرارهم على النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - بالخروج من المدينة لم يكن فيه للنبيّ رضا، وخشوا أنهم قد استكروه على هذا الأمر، فندموا على ذلك، وقالوا معتذرين: يا رسول الله ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك (أو: ما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله ثم اليك).

فقال رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - :

«ما يتَّبِعني لِنبيّ إذا لَيْسَ لِمَتِّه أن يَضَعَهَا حَتَّى يُفَاتِلَ. (1)»

النبيّ يخرج من المدينة:

ثم إن رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - صلى بالناس الجمعة وخرج على رأس ما يزيد على ألف مقاتل قاصداً أُحد، وذلك بعد أن قال لهم:

«أُنظَرُوا إلى ما أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَاتَّبِعُوهُ إِمضُوا على بركة الله فلَكم النصر ما صَبَرْتُمْ. (2)»

وقد أجاز رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - يومئذ لمن لم يبلغوا الحلم بأن يخرجوا معه كسمرة ورافع وكان رامياً جيداً، ورد أسامة بن زيد وعبدالله بن عمر بن الخطاب. (3)

ثم إن جماعة من اليهود كانوا متحالفين مع عبدالله بن ابي بن سلول قرروا أن يشتركوا في هذه المعركة ويخرجوا مع المسلمين، ولكن النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - لم يسمح بذلك لأسباب خاصة.

-1 السيرة النبوية: ٢ / ٢٣، المغازي: ١ / ٢١٤، الطبقات الكبرى: ٢ / ٣٨.
-2 المغازي: ١ / ٢١٤.
-3 السيرة النبوية: ٢ / ٦٦.

وسار النبيّ وأصحابه حتّى إذا كانوا بمنطقة بين المدينة وأُحد تسمى «الشوط» انعزل عنه «عبدالله بن أبي بن سلول» وعاد بثلاث الناس كلهم من الأوس المتحالفين معه إلى المدينة بحجة أنّ رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - أخذ برأي الفتية والشباب، ورفض اقتراحه وهو البقاء في المدينة.

ومن هنا لم يشترك في هذا المعركة لا اليهود ولا حزب النفاق.

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه كانوا يرغبون في أن يسلكوا أقرب الطرق إلى معسكرهم من هنا اضطروا إلى أن يَمروا عبر بستان لمنافق من منافقي المدينة يدعى «مربع بن قبيط» وكان ضريباً، فامتنع من ذلك، وساء بالقول إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فابتدره أصحاب النبي ليقتلوه فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«لا تَقْتُلُوهُ، فَهَذَا الْأَعْمَى أَعْمَى الْقَلْبِ، أَعْمَى الْبَصَرِ. (1)»

جنديان فدائيان:

استعرض رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جيشه في منطقة تدعى بالشيخين (2)، وكانت الوجوه المشتاقة إلى الجهاد تلمع كما تلمع أشعة السيوف، وتعكس إصراراً كبيراً على قتال الكفار ومجاهدة المشركين.

ولقد كان جيش رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الذي خرج بهم لمجابهة قريش عند جبل أحد يتألف من مقاتلين يتفاوتون في الأعمار تفاوتاً كبيراً.

ففيهم الشيخ الكبير الطاعن في السن وفيهم الشاب الفدائي الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة.

ولقد كان الدافع الذي يحرك الجميع إلى ذلك هو تعشق الكمال الذي

1- السيرة النبوية: ٢ / ٦٥، المغازي: ٢ / ٢١٨.
2- ولقد كان من عادة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واسلوبه في جميع المعارك استعراض جيشه على الدوام، وعدّهم، وتسريح بعض العناصر الضعيفة أحياناً.

ما كان ليتوفر إلا في ظلّ الدفاع عن صرح التوحيد المقدس، ليس إلا.

ولإثبات هذه الحقيقة نشير هنا إلى قصة شيخ كبير السن، وشاب لم يمض من عرسه إلا ليلة واحدة!!

1- كان «عمرو بن الجموح» رجلاً شيخاً أعرج شديد العرج وقد أصيب في رجله في حادثة. وكان له بنونٌ أربعةٌ مثل الأسود، يشهدون مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المشاهد، فلما كان يوم «أخذ» أراد ان يخرج مع النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقد أبت نفسه أن تفوته الشهادة، وأن يجلس في بيته ولا يشترك مع رسول الله في تلك المعركة، وإن اشترك بنوه الأربعة فيها.

فأراد أهله وبنوه حبسه وقالوا له: إنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ قد عَدَّنَاكَ، ولم يقتنع بمقاتلتهم، وأتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال:

إنَّ بَنِيَّ يَرِيدُونَ أَنْ يَحْبِسُونِي عَنْ هَذَا الْوَجْهِ وَالْخُرُوجِ مَعَكَ فِيهِ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَطَأَ بَعْرَجَتِي هَذِهِ فِي الْجَنَّةِ.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«أما أنتَ فَقَدْ عَدَرَكَ اللهُ ولا جِهَادَ عَلَيْكَ» (1)

ثم قال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لابنيه وقومه:

«لا عَلَيْكُمْ أن لا تَمْنَعُوهُ، لعلَّ اللهُ يَرْزُقَهُ الشهادة» .

فحلوا عنه، وخرج وهو يقول: اللهم ارزقني الشهادة ولا تردني إلى أهلي.

وقد كان موقف هذا المجاهد الأعرج من مشاهد معركة «أحد» العظيمة، ومن قصصها الرائعة، فقد كان يحمل - وهو على ما هو

عليه من العرج - على الاعداء ويقول: «أنا والله مشتاق إلى الجنة» وابنه يعدو في أثره حتى قُتِلَا جميعاً. (2)

1- [قول الله تعالى]: **بَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ** (الفتح: ١٧) .
2- السيرة النبوية: ٩٠ / ٢ و ٩١، المغازي: ١ / ٢٦٥.

« 2-حنظلة» وهو شاب لم يكن قد جاوز الرابعة والعشرين من عمره آنذاك. وهو ابن «أبي عامر» عدو رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

عليه وآله وسلم - والذي كان مصداقاً لقول الله تعالى **(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ)** .

فقد اشترك والده أبو عامر الفاسق في معركة «أحد» إلى جانب قريش ضد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وكان ممن يكيدون للإسلام وممن حرّض قريشاً ضدّ النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واستمرّ في معاداة الإسلام حتى النفس الأخير، ولم يألُ جهداً في هذا السبيل.

وقد كان أبو عامر هذا هو السبب الرئيسي وراء حادثة مسجد «ضرار» التي سيأتي تفصيلها في حوادث السنة التاسعة من الهجرة

غير أن علاقة الأبوة والبنوة وما يتبعها من احساس لم تصرف حنظلة عن الاشتراك في حرب ضد أبيه، مادام أبوه على باطل وهو (أي حنظلة) على الحق فيوم خرج النبي مع أصحابه إلى «أحد» لمواجهة قريش كان حنظلة يريد البناء بزوجه ليلته، فقد تزوج بابنة «عبدالله بن أبي بن سلول» وكان عليه أن يقيم مراسم الزفاف والعرس في الليلة التي خرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى «أحد» في صبيحتها المنصرمة.

ولكنه عندما سمع مؤذن الجهاد، ودوى نداؤه في أذنه تحير في ما يجب أن يفعله، فلم يجد مناصاً من أن يستأذن من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بان يتوقف في المدينة ليلة واحدة لاجراء مراسم العرس ويقيم عند عروسته ثم يلتحق بالمعسكر الاسلامي صبيحة الغد من تلك الليلة.

وقد نزل في هذا الشأن - على رواية العلامة المجلسي - قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذْنُ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ. (1))

[النور: ٦٢.]

(149)

فأذن له رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - . (1)

فبات حنظلة عند عروسته تلك الليلة ودخل بها، ولما اصبح خرج من فورهِ وتوجه إلى «أحد» وهو جنب.

ولكنه حينما اراد أن يخرج من منزله بعثت امرأته إلى أربعة نفر من الأنصار، واشهدت عليه أنه قد واقعها.

فقيل لها: لم فعلت ذلك ؟

قالت: رايت هذه الليلة في نومي كأن السماء قد انفرجت فوقع فيها حنظلة، ثم انضمت فعلمت أنها الشهادة، فكرهت أن لا أشهدَ عليه.

ولما حضر حنظلة القتال نظر إلى أبي سفيان على فرس يجول بين العسكر، فحمل عليه، فضرب عرقوب فرسه، فاكتسعت الفرس

وسقط أبوسفيان إلى الأرض، وصاح: يا معشر قريش أنا أبوسفيان، وهذا حنظلة يريد قتلي، وعدا أبو سفيان، وجرى حنظلة في

طلبه، فعرض له رجلٌ من المشركين قطعنه، فمشى إلى ذلك المشرك قطعنه فضربه وقتله، وسقط حنظلة إلى الأرض بين حمزة

وعمر بن الجموح وعبدالله بن حزام وجماعة من الأنصار، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

«رَأَيْتُ الْمَلَائِكَةَ تَغْسِلُ حَنْظَلَةَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِمَاءِ الْمَزْنِ فِي صَحَائِفٍ مِنْ ذَهَبٍ. (2)»

فكان يسمى غسل الملائكة أو حنظلة الغسيل.

وكانت الأوس تعدّ حنظلة من مفاخرها فكانت تقول: «ومنا حنظلة غسيل الملائكة.»

وكان أبوسفيان يقول: حنظلة بحنظلة ويقصد بالأول حنظلة غسيل الملائكة وبالتالي ابنه حنظلة الذي قتل يوم بدر. (3)

- 1- بحار الأنوار: ٥٧ / ٢٠.
2- أسد الغابة: ٥٩ / ٢ و ٦٠ ، بحار الأنوار: ٥٧ / ٢٠ و غيرهما.
3- أسد الغابة: ٥٩ / ٢ و ٦٠ ، بحار الأنوار: ٥٧ / ٢٠ و غيرهما.

انه حقاً عجيب أمر هذين العروسين (الزوجين) فبينما كانا هما في أعلى درجات التفاني في سبيل الحق كان والداهما، من اعداء رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وخصومه الالداء.

فعبدالله بن أبي بن سلول (والد العروس) كان رأس المنافقين في المدينة، وكان أبو عامر الفاسق والد العريس الذي كان يسمى في الجاهلية بالراهب معادياً أشد العدا لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقد التحق بالمشركين في مكة، كما حرّض «هرقل» لضرب الحكومة الإسلامية الفتية في المدينة، ثم اشترك في معركة أحد ضد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقاتل المسلمين قتالاً شديداً. (1)

العسكران يصطفان:

في صبيحة اليوم السابع من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة اصطفّت قوى الإسلام أمام قوى الشرك المعتدية، وكان جيش التوحيد قد جعل ظهره إلى أحد كمانع طبيعيّ يحفظ الجيش من الخلف. وقد كان في جبل أحد ثغرة كان من الممكن أن يتسلل منها العدوّ ويباغت المسلمين من الخلف، ويوجه إليهم ضربة قاضية.

ولهذا عمل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى وضع جماعة من الرماة عند تلك الثغرة، وأمر عليهم «عبدالله بن جبير» وقال:

«إنصح الخيلَ عنّا بالنبل، واحموا لنا ظهورنا، لا يأتونا من خلفنا، وألزموا مكانكم لا تبرحوا منه، إن كانت لنا أو علينا، فلا تفارقوا مكانكم.»

ولقد أثبتت حوادث «أحد» التي وقعت في ما بعد أهمية هذه الثغرة عسكرياً، فقد كانت هزيمة المسلمين بعد انتصارهم في بداية المعركة نتيجة تجاهل الرماة لأمر النبيّ واخلاء ذلك الموقع الاستراتيجي، الأمر الذي سمح للعدوّ بأن يباغت المسلمين في حركة التفافية سريعة، ويحمل عليهم، ويوجه إليهم ضربة قوية!!

1- أسد الغابة: ٥٩ / ٢ و ٦٠ ، بحار الأنوار: ٥٧ / ٢٠ و غيرهما.

إنَّ أمر النبيِّ المؤكّد والمشدّد للرماة بأن لا يخلوا أماكنهم في الجبل حيث الثغرة المذكورة يكشف عن معرفته الكاملة بقواعد القتال وقوانين الحرب، وبما يصطلح عليه اليوم بالتكتيك العسكري.

بيد أن نبوغ القائد العسكري لا يكفي وحده لإحراز الانتصار إذا كان الجنود يعانون من عدم الانضباطية، وعدم التقيد بأوامر القائد

ولقد أشار القرآن الكريم إلى الترتيبات الميدانية، التي قام بها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عند استقرار جنود الإسلام في أرض المعركة بأحد، وتعيينه لمكان كل قطعة من قطعات الجيش الإسلامي إذ قال:

«و إذ عَدَوْتُ من أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»⁽¹⁾

رفع معنويات الجنود وتقوية عزائمهم:

لم يكن النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليغفل في المعارك والحروب عن تقوية العنصر الروحي لدى الجنود، وما يصطلح عليه الآن بالروح المعنوية، أو المعنويات العسكرية.

ففي هذه المرة أيضاً لما اصطفت سبعمائة مقاتل مسلم أمام ثلاثة آلاف من المقاتلين المشركين المدججين بالسلاح، خطب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المسلمين خطبة رفع بها من معنويات المسلمين، وذلك بعد ان نظم صفوفهم وسواها.

فلقد كتب «الواقدي» المؤرخ الإسلامي الكبير في هذا الصدد ما يلي:

جعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الرماة خمسين رجلاً على «عينين» عليهم «عبدالله بن جبير»، وجعل «أخداً» خلف ظهره، واستقبل المدينة، ثم جعل - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يمشي على رجليه يسوي تلك الصفوف، ويبوي أصحابه مقاعد

[1- مجمع البيان: ٤ / ٤٩٥ . الكشاف: ١ / ٣٤٦ - ٣٤٧ .

للقتال يقول تقدّم يا فلان، وتأخر يا فلان، حتّى أنه ليرى منكب الرجل خارجاً فيؤخره، فهو يقومهم كأنما يقوم بهم القداح.

ثم قام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فخطب الناس فقال:

«يا أيها الناس، أوصيكم بما أوصاني الله في كتابه من العمل بطاعته، والتناهي عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر ودُخْر. لمن ذكر الذي عليه، ثم وطن نفسه له على الصبر واليقين والجدّ والنشاط فإنّ جهادَ العدوّ شديداً، شديداً كريهاً، قليلٌ من يصبر عليه، إلاّ

من عَزَمَ اللهُ رَشْدَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ مَنْ أَطَاعَهُ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ مَنْ عَصَاهُ، فَافْتَحُوا أَعْمَالَكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى الْجِهَادِ، وَاتَّمَسُّوا بِذَلِكَ مَا وَعَدَكُمْ اللَّهُ، وَعَلَيْكُمْ بِالذِّي أَمْرَكُمْ بِهِ، فَإِنِّي خَرِيصٌ عَلَى رَشْدِكُمْ فَإِنَّ الْاِخْتِلَافَ وَالتَّنَازُعَ وَالتَّشْبِيحَ مِنْ أَمْرِ الْعَجْزِ وَالضَّعْفِ مِمَّا لَا يُحِبُّ اللَّهُ، وَلَا يُعْطَى عَلَيْهِ النَّصْرَ وَلَا الظَّفَرَ.

وإنَّه قد نَفَثَ فِي رُوعِي الرُّوحَ الْأَمِينُ إِنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ أَقْصَى رِزْقِهَا، وَلَا يَنْقُصَ مِنْهُ شَيْءٌ وَ أَنْ اِبْطَأَ عَنْهَا... الْمُؤْمِنُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى تَدَاعَى عَلَيْهِ سَائِرُ الْجَسَدِ وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ. (1)»

العدو ينظم صفوفه:

نظم أبو سفيان قائدُ المشركين صفوف جنوده وقسمهم إلى ثلاثة أقسام: الرماة، وجعلهم في الوسط، والميمنة واستعمل عليهم خالد بن الوليد، والميسرة، واستعمل عليهم عكرمة بن أبي جهل. وقدم جماعة فيهم حملة الألوية والرايات.

ثم قال لأصحاب الرايات وكانوا جميعاً من بني عبدالدار: إنا إنما أتينا يوم بدر من اللواء، وإنما يؤتى القوم من قبيل لوائهم، فالزموا لوائكم وحافظوا عليه، أو خلوا بيننا وبينه فإنا قوم مستميتون موتورون، نطلب ثاراً حديث العهد.

[المغازي: ١ / ٢٢١ - ٢٢٣].

(153)

فشقَّ هذا الكلام على «طلحة بن أبي طلحة» وكان شجاعاً، وهو أولُّ من حمل راية لقريش، فاندفع من فوره إلى ساحة القتال، وطلب المبارزة، متحدياً بذلك أبا سفيان.

الإثارة النفسية وإلهاب الحماس:

قبل أن يبدأ القتال أخذ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - سيفاً بيده وقال: - وهو يثير بذلك همم جنوده -

«من يأخذ هذا السيف بحقه؟» فقام إليه رجال، فأمسكه عنهم حتى قام إليه أبو دجانة الأنصاري، فقال: وما حقه يا رسول الله؟

قال: «أن تشرب به العدو حتى ينحني.»

قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه.

فأعطاه إياه، وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً، يخالع عند الحرب إذا كانت، وكان إذا أعلم، أعلم بعصاة له حمراء فاعتصب بها غلم أنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من يد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر

بين الصقيين. فقال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - «: إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن. (1)»

حقاً إن مثل هذه الاثارة النفسية، وهذا التحريك القويّ للهمم أمرٌ ضروريّ لجيش يقاتل دفاعاً عن الحق والقيم، ولا يدفعه إلى ذلك سوى العقيدة، وحب الكمال.

إنّ النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يهدف بعمله إثارة أبي دجانة وحده، بل كان - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يهدف بذلك إثارة الآخرين، وإفهامهم بأن يبلغوا في الشجاعة والبطولة، والجرأة والإقدام هذا المبلغ.

يقول «الزبير بن العوّام» وهو كذلك رجلٌ شجاع: وَجَدت في نفسي حين

-[السيرة النبوية: ٢ / ٦٦ و ٦٧.

(154)

سألت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - السيف فمنعني، وأعطاه أبا دجانة وقلت: أنا ابن صفيّة عمته، ومن قريش وقد قمت إليه فسألته إياه، فأعطاه إياه وتركني!

والله لا نظرنّ ما يصنع. فأتبعته فأخرج عصابة له حمراء، فعصّب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، وهكذا كانت تقول له إذا تعصّب بها.

فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهدتني خليلي * ونحن بالسفح لدى النخيل

ألاً أقوم الدهر في الكيول * (1) أضرب بسيف الله والرّسول

فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله، وكان من المشركين رجلٌ لا يدع لنا جريحاً إلا ذقّف عليه، فجعل كلُّ واحد منهما يدنوا من صاحبه، فدعوتُ الله أن يجمع بينهما، فالتقيا، فاختلفا ضربتيني، فضرب الشمرك أبا دجانة، فاتقاه بدرقته، فعضت بسيفه، وضربه أبو دجانة، فقتله، ثم رايته قد حمل السيف على مفرق «هند بنت عتبه» ثم عدل السيف عنها، فقلت: الله ورسوله أعلم.

ثم إن أبا دجانة أوضح عمله هذا فقال: رأيت انساناً يخمش الناس خمشاً شديداً فصمدت له، فلما حملت عليه السيف ولول فاذا امرأة،

فأكرمت سيف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن أضرب به امرأة. (2)

القتال يبدأ:

بدأ القتال بما فعله أبو عامر الفاسق الذي كان قد هرب من المدينة مباحداً لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كما أسلفنا، وكان من الأوس، وقد فرّ معه خمسة عشر رجلاً من الأوس بسبب معارضته للإسلام.

وقد تصوّر أبو عامر هذا أن الأوس إذا رأوا يوم أُخْد تركوا نصرته رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فلما التقى العسكران يومئذ نادى أبو عامر: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر.

-[الكَيْوَل: آخر الصفوف في الحرب.

-[السيرة النبوية: ٢ / ٦٨ و ٦٩.

(155)

قالوا: فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق. فلما سمع ردّ الأوس تركهم، واعتزل الحرب بعد قليل. (1)

ثم إن هناك مواقف وتضحيات عظيمة قام بها رجال معدودون في معركة أُخْد معروفة بين المؤرخين، أبرزها، وأجدرها بالاجلال تضحيات علي - عليه السّلام - ومواقفه الكبرى في ذلك اليوم.

فهو صاحب اللواء والراية في هذه الموقعة الكبرى.

قال الشيخ المفيد في الارشاد: تلت بدرأ غزاةً أُخْد وكانت راية رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بيد أمير المؤمنين - عليه السّلام - فيها ومما يدل على ذلك ما رواه يحيى بن عمارة قال: حدثني الحسن بن موسى بن رباح مولى الانصار قال حدثني أبو البختري القرشي، قال: كانت راية قريش ولواؤها جميعاً بيد قصي ثم لم تنزل الراية في يد ولد عبدالمطلب يحملها منهم من حضر الحرب حتّى بعث الله رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فصارت راية قريش وغيرها إلى النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فافقروا في بني هاشم فأعطاه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى علي بن أبي طالب - عليه السّلام - في غزاة ودان وهي أول غزاة حمل فيها راية في الإسلام مع النبيّ ثم لم تنزل معه في المشاهد ببدر وهي البطشة الكبرى في يوم أُخْد وكان اللواء يومئذ في بني عبدالدار فأعطاه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مصعب بن عمير فاستشهد ووقع اللواء من يده فتشوفته القبائل فأخذه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فدفعه إلى علي بن أبي طالب - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فجمع له يومئذ الراية واللواء. (2)

وقد ورد عن ابن عباس ما يؤيد ذلك فقد روى أنه قال: لعلي أربع خصال ليس لأحد من العرب غيره (هو) أول عربي وعجمي صَلَّى مع النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو الذي كان لواؤه معه في كل زحف. (3)...

- 1- السيرة النبوية: ٦٧ / ٢ .
2- الارشاد: ٤٣، بحار الأنوار: ٨٠ / ٢٠ .
3- ترجمة الامام علي بن أبي طالب من تاريخ مدينة دمشق المعروف بتاريخ ابن عساکر: ١ / ١٤٢ .

(156)

كما عن قتادة: ان علي بن ابي طالب كان صاحب لواء رسول الله يوم بدر وفي كل مشهد. (1)

ثم إنه كانت راية قريش مع طلحة بن أبي طلحة العبدري (وكان يدعى كبش الكتيبة) فيروز ونادى: يا محمد تزعمون أنكم تجهزونا بأسيا فكم إلى النار، ونجهزكم بأسيا فإنا إلى الجنة، فمن شاء أن يلحق بجنته فليبرز إلى فبرز إليه علي - عليه السلام - وهو يقول:

يا طلح إن كنتم كما تقول * لكم خيول ولنا نصول

فأثبت لننظر أينما المقتول * وأبنا أولى بما تقول

فقد أتاك الأسد المسؤول

بصارم ليس به الفلول * ينصره القاهر والرسول

ثم تصاولا بعض الوقت قُتل بعده طلحة بضربة علي - عليه السلام - القاضية.

فأخذ الراية اخوان آخران لطلحة فخرجا لقتال علي - عليه السلام - على التناوب فقتلا جميعا على يديه - عليه السلام - .

هذا ويستفاد من كلام لعلي - عليه السلام - قاله في أيام الشورى التي انعقدت بعد موت الخليفة الثاني.

فقد قال الامام - عليه السلام - في مجلس ضم كبار الصحابة في تلك المناسبة:

«نشدتم بالله هل فيكم أحد قتل من بني عبد الدار تسعة مبارزة كلهم يأخذ اللواء، ثم جاء صواب الحبشي مولا هم وهو يقول لا أقتل بسادتي إلا محمداً، قد ازبد شذاه، واحمرت عيناه، فأثقتيموه، وحُدمت عنه، وخرجت إليه، فلما أقبل كأنه قبة مبنية فاختلفت أنا وهو ضربتين، فقطعته بنصفين وبقيت عجزه وفخذه قائمة على الأرض ينظر إليه المسلمون ويضحكون منه.»

قالوا: اللهم لا. (2)

- 1- ترجمة الامام علي بن أبي طالب من تاريخ مدينة دمشق المعروف بتاريخ ابن عساکر: ٩ / ١٤٢ .
2- الخصال: ص ٥٦٠ .

(157)

أجل ان قريشاً كانت قد ادخرت لحمل الراية تسعة رجال من شجعان بني عبدالدار وقد قتلوا جميعاً على يد الامام علي - عليه السّلام - على التوالي فبرز غلامهم وقتل هو أيضاً. (1)

المقاتلون بدافع الشهوة!!

من الأبيات التي كانت تتغنى بها «هند بنت عتبة» زوجة أبي سفيان ومن كان معها من النساء في تحريض رجال قريش وحثهم على القتال واراقة الدماء والمقاومة، ويضربن معها الدفوف والطبول يتبين ان تلك الفئة لم تكن تقاتل من أجل القيم الرفيعة كالطهر والحرية، والخلق الانساني بل كانت تقاتل بدافع الشهوة الجنسية ومن أجل الوصول إلى المآرب الرخيصة.

فقد كانت الأغاني والأبيات التي تردها تلك النساء اللاتي كنّ يضربن بالدفوف خلف الرجال على نحو خاص هي:

نحن بناتُ طارقٍ * نمشي على النمارق

إن تقبلوا نُعانيقُ * أو تدبروا نفاقرقُ

ولا شك أن الفئة التي تقاتل من أجل الشهوات، ويكون دافعها إلى الحرب والقتال هو الجنس واللذة، وبالتالي لا تهدف سوى الوصول إلى المآرب الرخيصة فان حالها تختلف إختلافاً بيناً وكبيراً عن حال الفئة التي تقاتل من أجل هدف مقدس كإقرار الحرية، ورفع مستوى الفكر، وتحرير البشرية من براثن الجهل وأسر الخضوع للاوثان.

ولا شك أن لكل واحدة من تلك الدوافع أثارها المناسبة في روح المقاتل وسلوكه.

ولهذا لم يمض زمان طويل إلا ووضعت قريش أسلحتها على الارض وولت هاربة من أرض المعركة بعد أن اصيبت باصابات قوية بفضل صمود وتضحيات رجال مؤمنين شجعان كعليّ وحزمة وأبي دجانة والزبير و... مخلفة وراءها غنائم

1-وقد ذكر المجلسي قصة مصرع هؤلاء في البحار: ٢٠ / ٨١ - ٨٢.

وأموالا كثيرة، وأحرز المسلمون بذلك انتصاراً عظيماً على عدوهم القوي في تجهيزاته، الكثير في افراده. (1)

الهزيمة بعد الانتصار:

قد يتساءل سائل: لماذا انتصر المسلمون أولاً ؟

لقد انتصروا لأنهم كانوا يقاتلون، ولا يحدوهم في ذلك شيء حتى لحظة الانتصار إلا الرغبة في مرضات الله، ونشر عقيدة التوحيد، وإزالة الموانع عن طريقها، فلم يكن لهم أي دافع مادي يشدّهم إلى نفسه.

وقد يتساءل سائل: لماذا انهزموا أخيراً؟

لقد انهزموا لأن أهداف أكثر المسلمين ونواياهم قد تغيّرت بعد تحقيق الانتصار، فقد توجهت أنظارهم إلى الغنائم التي تركتها قريش في أرض المعركة، وفروا منهزمين. لقد خولط اخلاص عدد كبير من المسلمين، ونسوا على أثره أوامر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وتعاليمه، فغفلوا عن ظروف الحرب.

واليك فيما يأتي تفصيل الحادث:

لقد ذكرنا عند بيان الأوضاع الجغرافية لمنطقة أحد أنه كان في «جبل أحد» شعب «ثغرة» وقد كآف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خمسين رجلاً من الرماة بمراقبة ذلك الشعب، وحماية ظهر الجيش الاسلامي، وأمر عليهم «عبدالله بن جبير»، وكان قد أمر قائدهم بأن ينضحوا الخيل ويدفعوها عن المسلمين بالنبل ويمنعوا عناصر العدو من التسلّل من خلالها ولا يغادروا ذلك المكان انتصر المسلمون أو انهزموا، غلبوا أو غلبوا.

وفعل الرماة ذلك فقد كانوا في أثناء المعركة يحمون ظهور المسلمين، ويرشقون خيل المشركين بالنبل فتولّي هاربة، حتى إذا ظفر النبي وأصحابه، وانكشف المشركون منهزمين، لا يلوون على شيء وقد تركوا على أرض المعركة

[I- السيرة النبوية: ٢ / ٦٨، تاريخ الطبري: ٢ / ١٩٤.

(159)

غنائم وأموالاً كثيرة، وقد تبعهم بعض رجال المسلمين ممن بايع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على بذل النفس في سبيل الله ومضوا يضعون السلاح فيهم حتى أجهضوهم عن العسكر أما أكثر المسلمين فقد وقعوا ينتهبون العسكر ويجمعون الغنائم تاركين ملاحقة العدو وقد اغمدوا السيوف، ونزلوا عن الخيول ظناً بأن الأمر قد انتهى.

فلما رأى الرماة المسؤولون عن مراقبة الشعب ذلك قالوا لأنفسهم: وَ لِمَ نَقِيمُ هُنَا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ وَقَدْ هَرَمَ اللَّهُ الْعَدُوَّ فَلْنَذْهَبْ وَنَغْنَمْ مَعَ إِخْوَانِنَا.

فقال لهم أميرهم (عبدالله بن جبير): ألم تعلموا أنّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال لكم: إحموا ظهورنا فلا تبرحوا مكانكم، وإن رأيتونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتونا غنمنا فلا تشركونا إحموا ظهورنا؟

ولكن أكثر الرماة خالفوا أمر قائدهم هذا وقالوا: لم يرد رسول الله هذا، وقد أدلّ الله المشركين وهزمهم.

ولهذا نزل أربعون رجلاً من الرماة من الجبل ودخلوا في عسكر المشركين ينتهبون مع غيرهم من المسلمين الاموال وقد تركوا موضعهم الاستراتيجي في الجبل، ولم يبق مع عبدالله بن جبير إلا عشرة رجال!!

وهنا استغل «خالد بن الوليد» الذي كان مقاتلاً شجاعاً، قلّة الرماة في ثغرة الجبل، وكان قد حاول مراراً أن يتسلل منها ولكنه كان يقابل في كل مرة نبال الرماة، فحمل بمن معه من الرجال على الرماة في حملة التفافية وبعد أن قاتل من بقي عند الثغرة وقتلهم بأجمعهم انحدر من الجبل وهاجم المسلمين الذين كانوا منشغلين بجمع الغنائم، وغافلين عما جرى فوق الجبل، ووقعوا في المسلمين ضرباً بالسيوف وطعنات بالرمح، ورمياً بالنبال، ورضخاً بالحجار، وهم يصيحون تقويةً لجنود المشركين.

فتفرقت جموع المسلمين، وعادت فلول قريش تساعد خالداً وجماعته، وأحاطوا جميعاً بالمسلمين من الأمام والخلف، وجعل المسلمون يقاتلون حتّى قُتل منهم سبعون رجلاً.

إن هذه النكسة تعود إلى مخالفة الرماة لأوامر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تحت تأثير المطامع المادية وتركهم ذلك المكان الاستراتيجي عسكرياً والذي اهتم به القائد الاعلى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وأكد بشدة على المحافظة عليه، ودفع أئ

(160)

هجوم من قبيل العدو عليه. وبذلك فتحوا الطريق - من حيث لا يشعرون - للعدوّ بحيث هاجمتهم الخيل بقيادة خالد بن الوليد، فدخل إلى أرض المعركة من ظهر الجيش الاسلامي، ووجه إلى المسلمين تلك الضربة النكراء!!

ولقد ساعد خالداً في هذا «عكرمة بن ابي جهل» الذي حمل هو الآخر بمن كان معه من الرجال على المسلمين، وساد على صفوف المسلمين في هذا الحال الهرج والمرج، وعمت فوضى لا نظير لها ساحة المعركة، ولم ير المسلمون مناصاً من أن يدافعوا عن أنفسهم متفرقين ولكن عقد القيادة لما قد انفرط بسبب هذه المباغته العسكرية لم يستطع المسلمون إحراز أي نجاح في الدفاع، بل تحمّلوا - كما أسلفنا - خسائر كبرى في الأرواح، وقُتل عدد من المسلمين على أيدي اخوانهم من المسلمين خطأ ومن دون قصد.

ولقد صعدت حملات خالد وعكرمة من معنويات المشركين، ونفخت فيهم روحاً جديدة فعادت قواتهم الهاربة المنهزمة قبل قليل، ودخلت ساحة المعركة ثانية، وساعدت جماعة منهم خالداً وعكرمة وحاصروا المسلمين من كل ناحية وقُتِلَ جمع كبير من المسلمين بسبب ذلك!!

شائعة مقتل النبيّ:

وفي هذا الأثناء حمل «الليثي⁽¹⁾» وكان من صناديد قريش وأبطالها على مصعب بن عمير حامل لواء الإسلام في تلك المعركة وهو يظن أنه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتبودلت بينهما طعنات وضربات حتى قتل «مصعب» بضربة قاضية من الليثي، وكان المسلمون يومئذ ملتئمون، ثم صاح: قتلت محمّداً، أو قال ألا قد قُتِلَ محمد، ألا قد قُتِلَ محمد.

فانتشر هذا الخبر في جموع المسلمين كالنار في الهشيم وعلمت قريش بذلك فسروا بذلك سروراً عظيماً، وارتفعت الاصوات في ساحة القتال تنادي: ألا قد

1- هو عبدالله بن قمنة الليثي.

قُتِلَ محمّد، ألا قد قُتِلَ محمّد.

ولقد زاد هذا الخبر الكاذب من جراءة العدو فتحرّكت جحافلهم وافراده نحو المسلمين يسعى كل واحد منهم أن يقتطع من جسم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عضواً، وبذلك ينال فخراً في أوساط المشركين!!

ويقدر ما ترك هذا الخبر الكاذب من أثر إيجابي في نفوس المشركين، ترك أثراً سيئاً جداً في نفوس المسلمين، وأضعف معنوياتهم بشدة بحيث تخلّى عدد كبير من المسلمين عن القتال، ولجأوا إلى الجبل فراراً بأنفسهم، ولم يثبت إلا عدد قليل لا يتجاوز أصابع اليد من الرجال.

هل يمكن أن ينكر أحدٌ فرار البعض؟

لا يمكن أبداً أن ينكر أحدٌ فرار أصحاب النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلا من يعدّون بالأصابع في تلك المعركة، ولا يمنع كونهم صحابة، أو كونهم أصبحوا في ما بعد ذوي مكانة أو مناصب في المجتمع الإسلامي في ما بعد، من القبول بهذه الحقيقة التاريخية المرّة.

فهذا هو ابن هشام المؤرخ الاسلامي الكبير يكتب في هذا الصدد قائلاً: إنتهى أنس بن النضر عمُّ أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيدالله في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم⁽¹⁾ فقال: ما يجلسكم؟ (اي ما يقعدكم عن القتال والمقاومة)

قالوا: قُتِلَ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ فموتوا على مامات عليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ثم عاد إلى المشركين فقاتلهم حتى قُتِلَ.

أو قال: حسب رواية كثير من المؤرخين: - ان كان محمد قد قُتِلَ فان ربَّ مُحَمَّدٍ لم يُقَتَّل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقاتلوا على

-1- اي استسلموا.

(162)

ما قاتل عليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وموتوا على مامات عليه ثم قال: اللهم إني اعتذر اليك مما يقوله هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ثم شد بسيفه على الكفار فقاتل حتى قُتِلَ.

ويروي ابن هشام عن أنس بن مالك (ابن أخ انس بن النضر) لقد وجدنا بأنس بن النضر يومئذ سبعين جراحة فما عرفه إلا أخنؤه عرفته ببنانه. (1)

وكتب الواقدي في مغازيه يقول:

حدثني ابن ابي سبرة عن أبي بكر بن عبدالله بن أبي جهم واسم أبي جهم عبيد قال: كان خالد بن الوليد يحدث وهو بالشام يقول: الحمد لله الذي هداني للإسلام، لقد رأيتني ورأيت عمر بن الخطاب حين جالوا وانهزموا يوم أحد وما معه أحد وأنِّي لفي كتيبة خشناء فما عرفه منهم أحد غيري فنكبتُ عنه وخشيت إن أغريت به من معي أن يصمدوا له فنظرتُ إليه موجَّهاً إلى الشعب. (2)

وقد بلغ الانهزام والضعف النفسي ببعض الصحابة في هذه المعركة بحيث أخذ يفكر في التبري من الإسلام لينجو بنفسه فقال: ليت

لنا رسولا إلى عبدالله بن أبي فيأخذ لنا أمانا من أبي سفيان. (3)!!

القرآن يكشف عن بعض الحقائق:

إن الآيات القرآنية تمزق كل حجب الجهل والتعصب التي أسدلت على هذه المسألة، وتفيد بوضوح أن طائفة من أصحاب النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - اعتقدوا بأن ما أخبر به رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من الظفر، والنصر لا أساس له من الصحة، فإن الله تعالى يقول في هذا الصدد:

(وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ. (4))

وفي إمكانك ايها القارئ الكريم أن تحصل على الحقائق المكتومة في هذا

-
- 1- السيرة النبوية: ٢ / ٨٣ راجع تفسير المنار: ٤ / ١٠٢ .
 - 2- المغازي: ١ / ٢٣٧ .
 - 3- بحار الأنوار: ٢٠ / ٢٧ .
 - 4- آل عمران: ١٥٤ .

(163)

المجال بالتمعن في آيات من سورة آل عمران. (1)

فهذه الآيات تكشف بصورة كاملة عن عقيدة الشيعة حول أصحاب رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - .

فإن الشيعة تعتقد بأنه لم يكن جميع صحابة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أوفياء، لعقيدة التوحيد، متفانين في سبيله، بل كان منهم الضعيف في إيمانهم والمنافق، والمتردد، ومع ذلك لم يكن المؤمنون الأتقياء والصالحون الأبرار قلة أيضاً.

ومن العجيب والمؤسف أن يسعى بعض الكتاب من أهل السنة اليوم إلى التغطية على كثير من المواقف والاعمال المشينة التي بدرت من بعض الصحابة كالذي مرّ عليك في معركة أحد، ويحاول تجاوزها بنوع من التبرير البعيد عن روح الحقيقة كمحاولة للمحافظة على شأن جميع الصحابة، و مكانتهم على حين أن هذه التبريرات الفجة، وهذا التعصب اللامنطقي لا يمكنها أن تمنع من رؤية الحقيقة كما هي.

فإي كاتب يستطيع إنكار مفاد هذه الآية التي تصرح قائلة:

«إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ. (2)»

إن هذه الآية تقصد أولئك الذين رأهم أنس بن النضر، ومن شابههم من الذين تركوا ساحة المعركة، ولجأوا إلى الجبل، وجلسوا يفكرون في نجاة أنفسهم!!

والأوضح من الآية السابقة قول الله تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ النُّقْيِ الْجَمْعَانَ إِذْ مَا اسْتَنْزَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ»⁽³⁾»

إن الله تعالى يعاتب ويوبخ الذين نذروا - لفرارهم من المعركة - بنبأ مقتل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على يد العدو،

وراحوا يفكرون في الحصول على أمان من أبي سفيان بواسطة عبدالله بن أبي إذ يقول:

«وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَ

سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ»⁽⁴⁾»

1- الآيات: ١٢١ - ١٨٠.

2- آل عمران: ١٥٣.

3- آل عمران: ١٥٥ و ١٤٤.

4- آل عمران: ١٥٥ و ١٤٤.

(164)

التجارب المرة:

إن في أحداث معركة «أحد» وقائعها تجارب مرة وأخرى حلوة فهذه الحوادث والوقائع تثبت بجلاء صمود واستقامة جماعة، وضعف وهزيمة آخرين.

كما أنه يستفاد من ملاحظة الحوادث التاريخية أنه لا يمكن اعتبار جميع المسلمين الذين عاصروا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أتقياء عدولاً بحجة أنهم صحبوا النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، لأن الذين أخذوا مراكزهم على الجبل، يوم أحد وعصوا أمر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في تلك اللحظات الخطيرة، وجزؤوا بفعالهم على المسلمين تلك المحنة الكبرى، كانوا أيضاً ممن صحبوا النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

يقول المؤرخ الاسلامي الكبير الواقدي في هذا الصدد: «بإيعاز رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يوم أحد ثمانية على الموت:

ثلاثة من المهاجرين علي وطلحة والزبير، وخمسة من الأنصار» فثبتوا وهرب الآخرون. (1)

وكتب العلامة ابن أبي الحديد المعتزلي أيضاً: حضرت عند محمد بن معد العلوي الموسوي الفقيه على رأي الشيعة الإمامية رحمه الله في داره بدرب الدواب ببغداد في سنة ٦٠٨ هجرية، وقارئ يقرأ عنده مغازي الواقدي، فقرأ: حدثنا الواقدي عن ابن أبي سيرة عن خالد بن رباح عن أبي سفيان مولى بن أبي أحمد عن محمد بن مسلمة قال: سمعت أذناي، وأبصرت عيناي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يقول يوم أحد، وقد انكشف الناس إلى الجبل وهو يدعوهم وهم لا يلبون عليه، سمعته يقول:

«إِلَى يَا فُلَان، إِلَى يَا فُلَان أَنَا رَسُولُ اللَّهِ.»

فما عرّج عليه واحد منهما، ومضيا!! فأشار ابن معد إلى أي إسمع.

فقلت: وما في هذا؟ قال: هذه كناية عنهما. (أي اللذين تسّمنا مسند الخلافة

- [المغازي: ٢ / ٢٤٠].

(165)

بعد النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - .)

فقلت: ويجوز أن لا يكون عنهما لعله عن غيرهما.

قال: ليس في الصحابة من يُحتشم من ذكره بالفرار، وما شابهه من العيب، فيضطرّ الفائّل إلى الكناية إلاّ هما.

قلت له: هذا ممنوع.

فقال: دعنا من جدّك ومنعك، ثم حلفت أنه ما عنى الواقدي غيرهما، وأنه لو كان غيرهما لذكرهما صريحاً. (1)

كما أنّ العلامة ابن أبي الحديد ذكر في شرحه لنهج البلاغة أيضاً اتفاق الرواة كافة على أن عثمان لم يثبت في تلك اللحظات الحساسة يوم أُخذ. (2)

وستقرأ في الصفحات القادمة ما قاله رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عن امرأة مجاهدة متفانية في سبيل الرسالة الإسلامية تدعى «نسبية المازنية» دافعت عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يوم أُخذ.

فقد لمّح رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في كلامه عنها وعن موقفها العظيم يومذاك، إلى ما يقُلّ من شأن الذين فرّوا من المعركة.

نحن لا نريد هنا الاساءة إلى أيّ واحد من صحابة النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، بل غاية ما نتوخّاه هو الكشف عن الحقيقة، وإمطة اللثام عن الواقع، فيقدر ما نستنكر، ونقيح فرار من فرّ، نكبر صمود من صمد وثبات من ثبت ممن سنأتي على ذكرهم في الصفحات القادمة، وهذا هو ما تمليه علينا روح التحليل الصادق أو تقتضية أمانة النقل، وما يسمى بالامانة التاريخية على الأقل.

خمسة يتحالفون على قتل النبيّ:

في تلك اللحظات التي تشتت فيها جيش المسلمين، وانفرط عقده، وفي الوقت الذي تركت فيه حملات المشركين من كل ناحية على

رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -

تعاهد خمسة أنفار من صناديد قريش المعروفين أن يضعوا نهايةً لحياة النبي الأكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويقضوا عليها مهما كلفهم من الثمن. (1)

وهؤلاء هم:

1- عبدالله بن شهاب الذي جرح جبهة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

2- عتبة بن أبي وقاص الذي رمى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأربعة أحجار فكسر رُباعيته - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وجرح باطنها، من الجهة اليمنى.

3- ابن قمينة الليثي الذي رمى وجنتي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وجرحهما بحيث غاب حلق المغفر في وجنته - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأخرجها أبو عبيدة الجراح بأسنانه فكسرت ثناياه العليا والسفلى.

4- عبدالله بن حميد الذي قُتِلَ على يد بطل الإسلام أبي دجانة وهو يحمل على النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

5- أبي بن خلف وكان من الذين قُتِلوا بيد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نفسه.

فهو واجه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عندما وصل - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى الشعب، وقد عرفه بعض أصحابه وأحاطوا به، فجعل يصيح بأعلى صوته: يا محمد لا نجوتُ ان نجوت، وحمل على النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولما تناول رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الحربة من «الحارث بن الصمة»، ثم انتفض انتفاضةً شديدةً وطعن «أبياً» بالحربة في عنقه، وهو على فرسه، فجعل أبي يخور كما يخور الثور!

ومع أن ما أصاب أبياً من جراحة كان يبدو بسيطاً، إلا أنه تملكه رعبٌ وخوفٌ شديدان إذ لم ينفعه معهما تطمينات رفاقه، ولم يذهب عنه الروع بكلامهم، وكان يقول: واللات والعزى لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز (2) لمتوا أجمعون.

1- المغازي: ١ / ٢٤٣ .

2- كان ذوالمجاز سوقاً من أسواق العرب وهو عن يمين الموقف بعرفة قريباً من كعب (معجم ما استعجم على ما في حواشي المغازي: ٥٠٨).

ليس قال: (أي النبي يوم كان بمكة) أنا أقتلك إن شاء الله، قتلني والله محمداً!!

وقد فعلت الطعنة، وكذا خوفه فعلتهما فمات في منطقة تدعى سرف (وهو موضع على ستة أميال من مكة) فيما كانت قريش قافلةً من أحد إلى مكة. (1)

حقاً إن هذا ينم عن منتهى الدناءة والخسة في خُلق قريش وموقفها، فمع أنها كانت تعرف صدق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتعترف به، وتتكبر أن يكون قد صدَرَ منه كذبٌ في قول، أو خُلف في وعد، كانت تعاديه أشدَّ العدا، وتمدَّ نحوه يدَّ العدوان، وتبغى مصرعه، وتسعى إلى اراقه دمه!!

كما أنه من جهة أخرى يدل على شجاعة رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبطولته ومقدرته الروحية الكبرى، من ناحية أخرى، وثباته في عمله من ناحية ثالثة.

أجل لقد كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يدافع عن رسالته السماوية، وعن حياض عقيدته التوحيدية العظمى، وبصمد لإعدائه صمودَ الجبال الرواسخ مع أنه ربما دنا من الموت وكان منه قاب قوسين أو أدنى.

ومع أنه كان - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يرى أن كل همّ المشركين وكل حملاتهم موجهة نحوه بشخصه، إلا أنه لم يشهد أحد منه أي قول أو فعل يشعر بتوجسه واضطرابه، ولقد صرح المؤرخون بهذا الأمر فقد كتب المقرئ: ونادى المشركون بشعارهم [يا للعزى، يالهُيَلْ] فافزعوا في المسلمين قتلاً ذريعاً، ونالوا من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما نالوا. ولم يزل - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - شبراً واحداً بل وقف في وجه العدو، وأصحابه تنوب إليه مرة طائفة وتتفرق عنه مرة، وهو يرمي عن قوسه أو بحجر حتى تحاجزوا. (2)

نعم غاية ما سمع منه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هو ما قاله عندما كان يمسح الدم

-[السيرة النبوية: ٢ / ٨٤، المغازي: ١ / ٢٥١].
-2[متاع الاسماع: ١ / ١٣١، المغازي: ٢ / ٢٤٠].

عن وجهه المبارك إذ قال:

«كيف يفلح قومٌ خَصَبُوا وَجَهَ نَبِيِّهِم بِالْدَمِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ؟!» (1)

إن هذه العبارة الخالدة تكشف عن عمق رحمة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وعاطفته حتّى بالنسبة إلى أعدائه الألداء.

بينما تكشف كلمة قالها علي - عليه السّلام - عن شجاعته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - الفاتقة إذ قال:

«كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَقْرَبَ مِنَّا إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ. (2)»

من هنا فإن سلامة النبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في الحروب تعود في أكثر أسبابها إلى حسن دفاعه عن دينه، وعن نفسه، وإلى شجاعته في المعارك.

ولقد كانت ثمة علل وأسباب صانته هي الأخرى حياة رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من أن يلحقها خطر أو ضرر، إلا وهو تضحية وتفاني تلك القلة القليلة من أصحابه الأوفياء الذين بذلوا غاية جهدهم للحفاظ على حياة رسول الإسلام العظيم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وبذلك أبقوا على هذا المشعل الوقّاد، وهذا السراج المنير.

لقد قاتل رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يوم أُحُدِّ قتالاً شديداً، فرمى بالنبل حتّى فني نبله وانكسرت سبة قوسه، وانقطع وتره. (3)

على أن الذين دافعوا عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لم يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد⁽⁴⁾، وحتّى هذه القلة القليلة المدافعة ثباتهم معه جميعاً غير مقطوع به من منظار علم التاريخ، ومن زاوية التحقيق التاريخي.

نعم ما هو متفق عليه بين المؤرخين، وأرباب السير هو ثبات أفراد قلائل نعمد هنا إلى ذكر أسمائهم ومواقفهم بشيء من التفصيل

1-بحار الأنوار: ٢٠ / ١٠٢ .

2-نهج البلاغة: فصل في غريب كلامه رقم ٩ .

3-الكامل في التاريخ: ٢ / ١٠٧ .

4-شرح نهج البلاغة: ١٥ / ٢٠ و ٢١ .

الدفاع الموفق أو النصر المجدّد:

لو أننا أسمينا هذه المرحلة من تاريخ الإسلام بمرحلة النصر المجدّد لما قلنا جزافاً، فإن المقصود من هذا الانتصار هو أن المسلمين استطاعوا - وخلافاً لتوقعات العدو الحاقق - أن يصونوا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من خطر الموت الذي كاد أن يكون محققاً، وهذا هو انتصار مجدّد أصابه جند الإسلام.

أما إذا عزونا هذا الانتصار إلى جيش الإسلام برمته فان ذلك انما هو لأجل تعظيم مقام المجاهدين المسلمين، وإلا فان ثقل هذا الانتصار العظيم وقع على عاتق عدد محدود جداً من رجال الإسلام الذين صانوا حياة الرسول الاكرم عن طريق المخاطرة بحياتهم، وتعرضها للخطر الجدي.

وفي الحقيقة فإن بقاء الدولة الإسلامية وبقاء جذوة هذا الدين المبارك مشتعلَةٌ إنما هو نتيجة تضحيات تلكم القلة القليلة المتفانية في سبيل الله ورسوله.

واليك فيمايلي استعراضاً إجمالياً لتضحيات اولئك الرجال المتفانين في سبيل العقيدة والدين:

1- إن أول وأبرز الرجال الصامدين الثابتين على طريق الجهاد والتضحية في هذه الواقعة هو شاب بطل لم يتجاوز ربيعته السادس والعشرين من عمره...، هو الذي رافق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من سني صغره وبدايات حياته وحتى لحظة وفاة الرسول الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

إن بطل الإسلام الاكبر وان ذلك الفدائي الواقعي هو الامام «عليّ بن أبي طالب» - عليه السّلام - الذي تحفظ ذاكرة التاريخ الاسلامي عنه الكثير الكثير من مواقف التضحية والفداء في سبيل نشر الإسلام والدفاع عن حوزة التوحيد، وارساء دعائمه.

وفي الاساس ان هذا الانتصار المجدّد - على غرار الانتصار الأول - إنما جاء نتيجةً لبسالة وبطولة هذا المجاهد المتفاني في سبيل الإسلام ذلك لأن السبب الجوهرى في هزيمة قريش وفرارها في بداية المعركة كان هو سقوط لوائها بعد

(170)

مقتل كل حَمَلَة اللّواء على يد الامام علي - عليه السّلام - ، وبالتالي نتيجة للربح الذي ألقى في قلوبهم لما رأوا من تساقط صناديدهم الواحد تلو الآخر، الأمر الذي سلبهم القدرة على المقاومة.

إن الكُتّاب المصريين المعاصرين الذين تناولوا حوادث التاريخ الاسلامي بالتحليل والدراسة، لم يعطوا علياً - عليه السّلام - وللأسف - حقه في هذه الموقعة، أو على الأقل لم يذكروا ما اتفق عليه المؤرخون، وتطابقت في اثباته التواريخ، بل جعلوا تضحيات الامام عليّ - عليه السّلام - ومواقفه الشجاعة والعملاقة في عداد مواقف الآخرين، وفي مستواها.

من هنا ينبغي أن نسلط بعض الضوء على تضحيات ذلك الفدائي الواقعي، وذلك البطل الشجاع الذي شهدت له ساحات الوغى مواقف لا نظير لها في العظمة، والسمو.

1-يقول ابن الأثير في تاريخه: (1) كان الذي قتل أصحاب اللواء علياً - قاله ابو رافع - ، (قال) فلما قتلهم أبصر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جماعةً من المشركين فقال لعليّ: إحمل عليهم، فحمل عليهم ففرّقهم، وقتل منهم، ثم أبصر جماعةً أخرى فقال له: احمل عليهم، فحمل عليهم وفرّقهم وقتل منهم، فقال جبرئيل: يا رسول الله هذه المواساة، فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إنه مني وأنا منه، فقال جبرئيل: وأنا منكما قال: فسمعوا صوتاً:

«لا سيّفت إلا ذوالفقار ولا فتى إلا علي.» (2)

وقد شرح ابن أبي الحديد هذه القضية بتفصيل أكثر إذ كتب في شرحه لنهج البلاغة يقول: لما فرّ معظم أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يوم أُحد كثرت عليه كتائبُ المشركين وقصدته كتيبة من بني كنانة، ثم من بني عبد مناة بن

1-الكامل: ١٠٧ / ٢ .
2-ومثله في تاريخ الطبري: ١٩٧ / ٢ ، ميزان الاعتدال: ٣ / ٣٢٤ ، لسان الميزان: ٤ / ٤٠٦ .

(171)

كنانة فيها بنو سفيان بن عوف، وهم خالد بن ثعلب وأبو الشعثاء بن سفيان وأبو الحمراء بن سفيان و غراب بن سفيان، وانها لتقارب خمسين فارساً وهو (أي علي - عليه السّلام -) (راجلٌ)، فما زال يضربها بالسيف تتفرق عنه، ثم تجتمع عليه هكذا مراراً حتى قتل بني سفيان بن عوف الأربعة وتام العشرة منها ممن لا يعرف اسماءهم.

ثم نقل ما قاله جبرئيل، ثم كتب يقول: قلت وقد روى هذا الخبر جماعةً من المحدثين وهو من الاخبار المشهورة وقفت عليه في بعض نسخ مغازي محمد بن اسحاق ورايت بعضها خالياً عنها، وسألت شيخي عبدالوهاب بن سكينه عن هذا الخبر، فقال: خبرٌ صحيحٌ.

فقلت: له فما بال الصحاح (أي مثل صحيح البخاري ومسلم وما شاكلهما) لم تشتمل عليه؟

قال: أو كلُّ ما كان صحيحاً تشتمل عليه كتب الصحاح؟ كم قد أهمل جامعو الصحاح من الأخبار الصحيحة؟. (1)!

2-ولقد اشار الامام علي - عليه السّلام - نفسه في كلام مفصل له مع رأس اليهود إلى هذا الموقف إذ قال:

«ذَهَبَ النَّبِيُّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وعسكرَ بأصحابه في سد أحد واقبل المشركون الينا فحملوا علينا حملة رجل واحد واستشهد من المسلمين من استشهد، وكان ممّن بقي بعد الهزيمة، وبقيت مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومضى المهاجرون والانصار إلى منازلهم من المدينة كلُّ يقول قتل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقتل أصحابه، ثم ضرب الله عزّ وجلّ وجوه المشركين، وقد جرحت بين يدي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نيفاً وسبعين جراحة، منها هذه، وهذه.»

ثم انه - عليه السّلام - ألقى رداءه، وأمرّ يده على جراحاته، وقال:

«وكان منّي في ذلك ما على الله عزّ وجلّ ثوابه إن شاء الله.»⁽²⁾

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٤ / ٢٥٠ و ٢٥١ .
2- الخصال: ص ٣٦٨ .

(172)

وقد بلغ عليّ - عليه السّلام - - حسب رواية علل الشرائع - من كثرة ضربه لطوائف المشركين الذين كانوا يحملون على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يوم أحد، ان انكسر سيفه، فجاء إلى النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال: يا رسول الله إنّ الرجل يقاتل بسلاحه وقد انكسر سيفي، فأعطاه - عليه السّلام - سيفه ذا الفقار فما زال يدفع به عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فقال جبرئيل في حقه وفي سيفه ما مرّ.⁽¹⁾

وقد اشار ابن هشام في سيرته إلى العبارة التي نادى بها جبرئيل إذ قال: وحدثني بعض أهل العلم إن ابن أبي نجیح قال: نادى مناد يوم أحد: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا عليّ.⁽²⁾

كما عد ابن هشام في سيرته⁽³⁾ القتلى من المشركين في أحد (٢٢) رجلاً، وقد ذكر أسماءهم واحداً واحداً وذكر قبائلهم، وغير ذلك من خصوصياتهم، وقد قُتل منهم (١٢) رجلاً بيد علي - عليه السّلام - ، وقتل البقية بأيدي المسلمين، ونحن نعرض هنا عن ذكر اسماء أولئك المقتولين رعاية للاختصار.

هذا ونحن نعتزف بأننا لم نستطع بيان كل ما قام به علي - عليه السّلام - من خدمات كبرى في هذه الصفحات القلائل على نحو ما جاء في كتب الفريقين السنة والشيعة وبخاصة في موسوعة بحار الأنوار.

إن ما نستفيده من مطالعة الروايات والأخبار الثابتة والمتعددة في هذا المجال هو انه لم يثبت أحد في معركة «أحد» كما ثبت علي - عليه السّلام - .⁽⁴⁾

2- أبو دُجانة، وهو البطلُ المسلم الثاني بعد الامام علي - عليه السّلام - في الصمود، والتضحية، والبسالة والفداء دفاعاً عن حياة النبيّ الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فقد بلغ من حرصه على حياة النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ودفاعه عنه أن

1- علل الشرائع: ٧، بحار الأنوار: ٢٠ / ٧١ .
2- السيرة النبوية: ٢ / ١٠٠ .

جعل من نفسه ترساً بقي النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من سيوف الكفار ورماحهم، وسهامهم وأحجارهم، وقد وقعت سهام كثيرة في ظهره ولكنه ظل مترساً بجسمه دون النبيّ، وبذلك حافظ على حياته الشريفة. (1)

وقد جاء أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال له يوم «أخذ» بعد أن فرّ وانهزم أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وحاصره الكفار من كل جانب يا ابادجانة أمتري قومك، قال: بلى، قال:

«إلحق بقومك وأنت في حل من بيعتي، أما عليّ فهو أنا وأنا هو.»

فبكى أبو دجانة بكاءً مرّاً وقال:

لا والله، لاجعلت نفسي في حل من بيعتي إني بايعتك، فالي من أنصرف يا رسول الله إلى زوجة تموت، أو ولد يموت، أو دار تخرب، أو مال يفنى، أو أجل قد اقترب؟

فترق له النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فلم يزل يقاتل حتى اتخنته الجراحة وهو في وجهه و «عليّ» في وجهه، فلما سقط احتمله عليّ - عليه السلام - فجاء به إلى النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فوضعه عنده فقال: يا رسول الله أوفيت ببيعتي؟ قال: نعم. (2)

وقد ذكر في كتب التاريخ أشخاص آخرون كعاصم بن ثابت، وسهل بن حنيف، وطلحة بن عبيدالله، وغيرهم ممن يبلغ - حسب بعض الكتب - ٣٦ شخصاً ادّعي أنهم ثبتوا ولم يفروا، إلا أنّ ما هو مسلم به تاريخياً هو ثبات علي - عليه السلام - وأبي دجانة، وحمزة وامرأة تدعى أم عامر، وأما ثبات غير هؤلاء الأربعة فامرّ مظنون بل ومشكوك في بعضهم.

3- حمزة بن عبدالمطلب، عم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وكان من شجعان العرب ومن المعروفين ببطولاته في الإسلام وهو الذي أصرّ على أن

ولقد دأب حمزة على حماية رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من أذى المشركين والوثنيين في اللحظات الخطيرة، والظروف القاسية من بدء الدعوة المحمدية بمكة.

وقد ردَّ على أبي جهل الذي كان قد آذى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بشدة، وضربه ضربة شج بها رأسه في جمع من قادة قريش ولم يجرأ احد على مقابلته.

لقد كان حمزة مسلماً مجاهداً وبطلاً فدائياً متفانياً في سبيل الإسلام فهو الذي قتل «شبيبة» وشبيبة من كبار صناديد قريش وابطالها، في بدر كما قتل آخرين، ولم يهدف إلا نصرة الحق، والفضيلة، وإقرار الحرية في حياة الشعوب والأمم.

ولقد كانت هندُ بنتُ عتبة زوجة أبي سفيان تحقد عليه أشدَّ الحقد، وقد عزمت على أن تنتقم من المسلمين لأبيها مهما كلف الثمن.

فأمرت «وحشياً» وهو غلامٌ حبشي لجبير بن مطعم الذي قتل هو الآخر عمَّه في بدر بأن يحقق غرضها، وأملها كيفما استطاع، وقالت له: لئن قتلت محمداً أو علياً أو حمزة لأعطينك رضاك.

فقال وحشي لها: أما محمد فلا أقدرُ عليه، وأما عليٌّ فوجدته رجلاً حذراً كثير الالتفات فلا أطمع فيه، وأما حمزة فاني أطمع فيه لأنه إذا غضب لم يبصر بين يديه.

يقول وحشي: ولما كان يوم أحد كمننت لحمزة في أصل شجرة ليدنوا مني، وكان حمزة يومئذ قد أعلم بريشة نعامة في صدره، فوالله إنني لأنظرُ إليه يهدّ الناس بسيفه هدأ ما يقوم له شيء، فهزرتُ حربتي - وكان ماهراً في رمي الحراب - حتى إذا رضيتُ منها دفعتها عليه، فوقعْتُ في ثنته (وهي أسفل البطن) حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي، فغلب، وتركته وياها حتى مات، ثم أتيتُه فأخذت حربتي ثم رجعتُ إلى العسكر فقعدتُ فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة، وانما قتلتُه لأعتق.

(175)

فلما قدمتُ إلى مكة أعتقت ثم أقمتُ حتى إذا افتتح رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مكة هربت إلى الطائف فمكثتُ بها. فلما خرج وفدُ الطائف إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لِيُسَلِّمُوا تعيبتُ على المذاهب، فقلتُ: ألحق بالشام أو اليمن، أو ببعض البلاد، فوالله إنني لفي ذلك من همّي إذ قال لي رجلٌ: ويحك إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخَلَ في دينه، وتشهدَ شهادته.

فلما قال لي ذلك، خرجتُ حتى قدمتُ على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المدينة، فلم يرْعه إلا بي قائماً على رأسه أتشهدُ بشهادة الحق، فلما رأني قال: أوحشي؟! قلت: نعم يا رسول الله.

قال: أقعد فحدثني كيف قتلت حمزة، فحدثته بما جرى لي معه، فلما فرغتُ من حديثي قال: ويحك! غيَّب عني وجهك فلا أرَيْتَكَ.

أجل هذه هي الروح النبوية الكبرى، وتلك هي سعة الصدر التي وهبها الله تعالى لنبيه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قائد الإسلام الأعلى، ومعلم البشرية الاكبر، تراه عفا عن قاتل عمه، مع أنه كان في مقدوره أن يعدمه بمائة حجة وحجة!!

يقول وحشي: فكنث أنتكبت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حيث كان لئلا يراني، حتى قبضه الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فلما خرج المسلمون إلى قتال مسيلمة الكذاب خرجت معهم، وأخذت حربتي التي قتلت بها حمزة، فلما التقى الناس رايت مسيلمة الكذاب قائماً في يده السيف، وما أعرفه، فتهيأت له، وتهيأت له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى، كلانا يريد فهدرت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه، ف وقعت فيه، وشد عليه الأنصاري فضربه بالسيف.

هذا هو ما ادعاه وحشي، بيد أن هشاماً قال في سيرته، بلغني أن وحشياً لم يزل يُحدّ في الخمر حتى خلع من الديوان فكان عمر بن الخطاب يقول: قد علمت أن الله تعالى لم يكن ليدع قاتل حمزة. (1)

-[السيرة النبوية: ٢ / ٧٢ و ٧٣.

(176)

- أمُّ عمارة:

لا ريب أن الجهاد الابتدائي مرفوع عن المرأة ساقط عنها في نظر الإسلام ولهذا عندما أوفدت نساء المدينة امرأة إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لتتحدّث معه حول الجرمان من هذه العبادة الكبرى، فجاءت إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقالت: يا رسول الله نحن نقوم بكل ما يحتاج إليه الرجال في حياتهم، ليجاهدوا ببال فارغ، فلم حُرمننا نحن من هذه الفضيلة؟!

فأجابها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قاتلاً: «إنَّ حُسْنَ التَّبَعْلِ يَعدُلُ ذلك كله»، وهو - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يشير إلى أن لهذا المنع أسبابه الطبيعية والوظيفية في طبيعة المرأة وخلقتها، وليس هو بالتالي يعني حرمانها من شيء فان قيامها على الوجه الصحيح بخدمة زوجها وتربية أولادها تعدل الجهاد في سبيل الله. (1)

بيد أن بعض النسوة المجربات ربما كن يخرجن من المدينة لمساعدة جنود الإسلام كسقي العطاشى، وغسل ثياب المقاتلين، وتضميد الجرحى. وبذلك كنّ يقدّمن خدمة مؤثرة في نصره المسلمين ودعمهم.

تقول أم عمارة (نسيبة المازنية): خرجت أول النهار إلى «أحد» وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعى سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو في الصحابة، والدولة والريح للمسلمين.

فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فجعلت أباشرُ القتال وأذبَ عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالسيف، وأرمي بالقوس حتى خلصت إلى الجراح.

(تقول راوية هذا الكلام) فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور، فقلت: يا أم عمارة من أصابك بهذا؟.

قالت: أقبل ابن قميئة وقد ولى الناس عن رسول الله، بصيح: دلوني على

[1- اسد الغابة: ٥ / ٣٩٨.

(177)

محمد، لا نجوث إن نجا. فاعترض له مصعبُ بن عمير وناس معه، فكنت فيهم فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذاك ضربات، ولكنَّ عدوَّ الله كان عليه درعان. هذا والنبى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ينظر إلى جرح على عاتقي فصاح بأحد اولادي وقال: «أَمْكَ أَمْكَ إِعْصَبْ جُرْحَهَا». فعاونني عليه.

ثم إنها رأت أن ابنها جرح فاقبلت إليه ومعها عصائب في حقوبها قد أعدتها للجراح فربطت جرحه والنبى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ينظر، ثم قالت لولدها: إنهض يا بني فضارب القوم.

فأعجب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - باستقامتها وثباتها وإيمانها وقال:

«وَمَنْ يُطِيقُ مَا تُطِيقِينَ يَا أُمَّ عِمَارَةَ؟!»

وفي الأثناء أقبل الرجل الذي ضرب ولدها فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذا ضارب ابنك فاعترضت له، وحملت عليه كالأسد المغضب وضربت ساقه فبرك.

فازداد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إعجاباً بشجاعته وتبسم حتى بدت نواجذه وقال:

«استقدتِ يا أُمَّ عِمَارَةَ الحمد لله الَّذِي ظَفَرَكَ وَأَقَرَّ عَيْنَكَ مِنْ عَدُوِّكَ.»

وعندما نادى منادي النبى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى حمراء الأسد، بعد معركة أُخِذ، وطلب من الجرحى أن يخرجوا لملاحقة جيش المشركين، شدت عليها ثيابها وقد كان بها جراح عديدة أعظمها الجرح الذي على عاتقها فما استطاعت بسبب نزف الدم،

فأرادت أن تخرج مع العسكر منعتها جراحها الباهضة من ذلك، فلما رجع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من غزوة حمراء الاسد ما وصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبدالله بن كعب المازني يسأل عنها فرجع إليه يخبره بسلامتها، فسُرَّ النبي بذلك. ولقد أثار موقف هذه المرأة البطلة الثابتة على درب الايمان سرور النبي واعجابه فقال في حقها مشيداً بموقفها البطولي ومعرضاً بفرار من فرّ وهروب من هرب في معركة أحد:

(178)

«لمقامٍ نسيبته بنت كعب اليوم خيرٌ من مقام فلان وفلان.»

وكانت نسيبته قد طلبت من النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يوم أُخذ بعد أن أشاد النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بصلابتها وموافقها أن يدعو لها بمرافقة في الجنة فقال النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - داعياً لها ولأهل بيتها:

«بَارَكَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ رَحْمَتِ اللهِ. اللَّهُمَّ اجْعَلْهُمْ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ.»

وقال ابن أبي الحديد معلقاً على عبارة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: لمقام نسيبته اليوم خيرٌ من مقام فلان وفلان» قلت: لبت الراوي لم يُكرِّ هذا الكناية، وكان يذكر من هما بأسمائهما حتى لا يتراعى الظنون إلى أمورٍ مشتبهة، ومن أمانة الحديث أن يذكر الحديث على وجهه ولا يكتم منه شيئاً فما باله كتم إسمَ هذين الرجلين.⁽¹⁾

ولكننا نعتقد أن الرجلين هما من الشخصيات التي تسنمت مراكز القيادة العليا بعد وفاة رسول الله - عليه السلام - وقد أحجم الراوي عن التصريح بأسمائهما إما احتراماً أو تقيّةً وخوفاً.

بقية واقعة «أحد»:»

لقد آلت توضيحات ثلة قليلة ومعدودة من رجال الإسلام المتفانين وبسالتهم إلى الإبقاء على حياة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وحفظها من الخطر القطعي الحتمي.

ومن حسن الحظ أن أكثر أفراد العدو قد تصوروا يومئذ أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد قُتِل، ومضوا يفتشون عن جسده بين القتلى، ودفعت الحملات التي كان يقوم بها أقلية من المشركين على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد رُدَّت على

[1] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٤ / ٢٦٥ - ٢٦٧، المغازي: ١ / ٢٦٩ و ٢٧٠، بحار الأنوار: ٢٠ / ١٣٤.

(179)

اعقابها بفضل ثبات علي - عليه السّلام - وأبي دجانة وأنفار آخرين (احتمالاً) وقد رأى النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - أن من الصالح في تلك اللحظات أن لا ينتشر تكذيبُ شائعة مقتل النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - لكي لا يصرّ العدو على البقاء في أرض المعركة مع ما كان عليه المسلمون من التشتت والتفرق، والمحنة، ومن هنا صعد هو وبعض أصحابه إلى الشعب في جبل أُحد.

وفي خلال ذلك سقط رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - في حفيرة في الجبل حفرها أبو عمار الفاسق للمسلمين، فأخذ علي - عليه السّلام - بيد النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - وأخرجه منها، وكان أوّل من عرف رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - من المسلمين، «كعب بن مالك» وقد رأى عينيه - صلّى الله عليه وآله وسلم - تزهرا من تحت المغفر فنادى بأعلى صوته، يا معشر المسلمين، أبشروا هذا رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - فأشار إليه رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - أن أنصت .

وذلك لأن انتشار خبر سلامة النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - كان من شأنه أن يدفع المشركين - كما قلنا - إلى مواصلة حملاتهم على المسلمين، بهدف استئصال شأفتهم ولهذا أمر النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - كعباً بالسكوت، فسكت كعب. (1)

وأخيراً وصل رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - إلى قم الثعيب، ولما عرف المسلمون بحياته - صلّى الله عليه وآله وسلم - ساروا بذلك وأخذوا يتجمعون عنده، وهم يُظهرون الندامة من تركه بين الأعداء والفرار بأنفسهم إلى الجبل، وأخرج أبو عبيدة الجراح حلقتي المغفر من وجه رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - وجاء علي - عليه السّلام - بماء في درقته فغسل رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - به الدم عن وجهه وصب منه على رأسه وقال:

«اشتدّ غضبُ الله على من دَمَى وجهَ نبيّه.» (2)

العدوُّ يحاول استغلال الفرصة:

في الوقت الذي واجه المسلمون فيه هزيمة كبرى انهارت بها الكثير من

1- السيرة النبوية: ٢ / ٨٣.

2- السيرة النبوية: ٢ / ٨٣.

المعنويات اغتتم العدو الفرصة للترويج عن معتقداته، فأطلق شعارات متعددة ضد عقيدة التوحيد، كان من شأنها أن تغري البسطاء، والضعفاء في الايمان وتؤثر فيهم، وتزلزل إيمانهم. فليست هناك حالة لبثّ العقائد وتسريبها إلى النفوس أفضل من حالة الانهزام والنكسة، والبلاء والمصيبة، ففي حالة كهذه يبلغ الضعفُ النفسي لدى المصاب والمنكوب حدّاً يفقد معه العقلُ سيطرته على الإنسان

بحيث يفقد على أثر ذلك قدرة التمييز بين الحق والباطل وفي هذه الصورة تصبح مسألة بثّ الدعايات السيئة وزرعها في النفوس واستثمارها مسألة بسيطة، إذ يكون الإنسان في هذه الحالة أكثر تقبلاً وأيسر قبولاً.

من هنا عمد أبو سفيان وعكرمة فرغوا أصناماً كبيرة على الأيدي بعد الحاق الهزيمة بالمسلمين، وأظهروا الفرح والسرور وأخذوا ينادون بأعلى أصواتهم - مستغلين هذه الفرصة - : «أعلُّ هُبُل، أعلُّ هُبُل!!»

ويعنون بذلك الشعار أن الانتصار الذي أحرزه المشركون إنما هو بفضل الصنم: هبل، وبالتالي بفضل الوثنية التي تدين بها أهل مكة. ولو كان ثمة إله سواه، وكانت عقيدة التوحيد على حق لانتصر المسلمون، ولما خلس إليهم من المحنة ما خلس فادرك رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عمقَ الخطر الذي يكمن في الأسلوب الذي أخذ العدو يمارسه في مثل هذه اللحظة الحساسة، وما سيتركه ذلك من أثر سيء في النفوس، وبخاصة الضعيفة منها، ولهذا تناسى كل أوجاعه ومصاعبه وأمر علياً والمسلمين فوراً بأن يجيبوا منادي الشرك بشعار مضاد قوي، فقال: قولوا:

«اللَّهُ أَغْلَى وَ أَجَلُّ، اللَّهُ أَغْلَى وَ أَجَلُّ.»

أي إنّ هذه الهزيمة ليست نابعة من عقيدة التوحيد، بل هي ناشئة من إنحراف بعض الجنود عن أوامر القائد وتعليماته العسكرية الحكيمة.

بيد أن أبا سفيان لم يكف عن اطلاق شعاراته، والمضى في الدعاية لمعتقده الباطل فقال: نحن لنا العزى ولا عزى لكم!!

(181)

فأمر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن ينادي المسلمون بشعار مضاد لشعار أبي سفيان، مشابه له في الوزن والسجع فقال: قولوا:

«اللَّهُ مولانا ولا مولى لكم.»

أي إذا كنتم تعتمدون على صنم مصنوع من الحجر والخشب، فاننا نعتد على الله الخالق، القادر والعلّي الاعلى.

فنادى منادي الشرك ثالثاً: يومٌ بيوم بدر. فأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن يجيبه المسلمون.

«لا سواء قتلتنا في الجنة، وقتلكم في النار.»

فكان لشعارات المسلمين القوية الرادعة التي كان يرددتها المئات، أثرها العجيب في نفس رأس الشرك أبي سفيان الذي بدأ هذه الحملة النفسية والحرب الباردة بغية تحطيم ايمان المسلمين، ورأى كيف ارتد كيده إلى نحره ولهذا انزعج بشدة وقال: ألا إن موعدكم بدر للعام القابل.

ثم انصرف إلى أصحابه، وغادروا جميعاً أرض المعركة راجعين إلى مكة. (1)

وكان على المسلمين الآن - وفيهم مئات الجرحى والمصابين وسبعون قتيلًا - أن يُصَلُّوا الظهرَ والعصرَ فصلى بهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جلوساً، وصلُّوا معه جلوساً، لما أصابهم من الضعف، ثم أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بدفن الشهداء، ومواراتهم الثرى عند جبل أحد.

نهاية المعركة:

وضعت الحرب أوزارها، وتباعد الجانبان، وقد تحمّل المسلمون من الخسائر في الأرواح ثلاثة أضعاف ماتحمّله المشركون. وكان عليهم أن يبادروا إلى دفن الشهداء على النحو الذي أمرهم به الدين.

ولكنهم فوجئوا بأمر فضيع، فقد اغتنمت نسوة من قريش وفي طلبعتن هند

[1] السيرة النبوية: ٢ / ٩٤.

(182)

زوجة ابي سفيان فرصة انشغال المقاتلين المسلمين وارتكين بحق الشهداء الابرار، جنابية فظيعة لم يعرف لها تاريخ البشرية مثيلاً، فهن لم يكتفين بالانتصار الظاهري بل عمدن إلى التمثيل بشهداء المسلمين، تمثيلاً مروعاً فخمشن وجوههم، وقطعن الأنوف، وجدعن الأذان، وسملن العيون، وقطعن أصابع الأيدي والأرجل، والمذاكير، وصنعن منها القلائد والاساور، نكايَةً بالمسلمين، وإطفاءً للحقد الدفين، وبذلك الحقن بهنّ وبأولياتهنّ عاراً لا ينسى.

فان جميع الأمم والشعوب - متففة على أن الميت الذي لا يستطيع دفاعاً عن نفسه، ولا يتوقع منه ضررٌ يجب احترامه، ويحرم اهانتته وان كان عدواً. ولكن هنداً زوجة أبي سفيان ومن كان يرفقتها من نساء المشركين مثلن بأجساد القتلى شر تمثيل، وصنعن مما قطعن منها الاساور والقلائد، وبقرت «هند» بالذات صدر حمزة بطل الإسلام الفدائي، وأخرجت كبده، ولاكته بين أسنانها ولكنها لفظته ولم تستطع أكله.

وقد بلغ هذا العمل من القبح، والسوء أن تبرأ منه أبو سفيان وقال: «في قتلاكم مثلة لم أمر بها. (1)»

وقد عرفت هنّد بسبب فعلتها الشنيعة هذه بأكلة الاكباد، ودعي أبنائها في ما بعد بيني أكلة الاكباد.

ولما أبصر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حمزة بن عبدالمطلب، ببطن الوادي وقد بقر بطنه عن كبده، ومثل به فجدع أنفه وأذناه، حزن حزنا شديداً وغازه تمثيلهم به فقال:

«ما وَقَفْتُ مَوْقِفاً قَطُّ أَغِيظُ إِلَيَّ مِنْ هَذَا.»!

ثم إنَّ المؤرّخين يتفقون على أنَّ المسلمين تعاهدوا في ذلك الموقف (وربما نَسِبَ هذا إلى النبيّ نفسه) لئِن أظفرهم اللهُ بالمشركين يوماً أن يمثّلوا بهم مُثْلة لم يمثّلها أحدٌ من العرب أو يمثّلوا بدلَ الواحد ثلاثين.

- [السيرة الحلبية: ٢ / ٢٤٤.]

(183)

ولم يمض زمان حتّى نزل جبرئيل بقوله تعالى:

(وَ إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ.)⁽¹⁾

ولقد كشف الإسلام مرة أخرى ومن خلال هذه الآية - التي تتضمن أصلاً اسلامياً في مجال القضاء مسلماً به - عن وجهه الانسانيّ العاطفيّ، وأظهر للجميع بأن الدين الاسلامي ليس شريعة انتقام، وثأر، فهو يعلم أتباعه بأن لا يغفلوا في أشدّ اللحظات والحالات النفسية هياجاً وغضباً عن قانون العدالة، والحق، وبهذا يكون الإسلام قد راعى مبادئ العدالة والانصاف على الدوام، وصانها من الانهيار، والسقوط.

ولقد أصرت صفيّة أخت حمزة أنّ ترى جثمان أخيها، إلا أن النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمر ابنها الزبير أن يحبسها ويصرفها عن ذلك لكي لا ترى ما بأخيها فلا تحتمل الصدمة.

فقالت صفيّة: قد بلغني أن قد مثل بأخي وذلك في الله، فما أَرْضانا بما كان من ذلك! لاحتسبني ولأصبرنّ إن شاء الله.

فأخبر الزبير رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمقالتها فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : حنّ سبيها، فأتته، فنظرت إليه فصلّت عليه، واسترجعت، واستغفرت له، ثم أمر به رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فدفن. ⁽²⁾

حقاً أن قوّة الإيمان أعظم القوى، فهي تحبس الانسان وتحفظه في أصعب الحالات، وتفيض على صاحبه حالة من السكينة والوقار

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - صل على شهداء أحد الأبرار، وأمر بدفنهم واحداً واحداً أو اثنين اثنين، وأمر بأن يدفن «عمرو بن الجموح» و «عبدالله بن عمرو» في قبر واحد.

1- النحل: ١٢٦ .
2- السيرة النبوية: ٩٧ / ٢ .

(184)

قائلاً:

«إدْفِنُوا هَذِينَ الْمُتَحَاتِبِينَ فِي قَبْرِ وَاحِدٍ. (1)»

آخر ما نطق به سعد بن الربيع:

كان سعد بن الربيع من صحابة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الأوفياء، وكان رجلاً مؤمناً مخلصاً، عظيم الوفاء والحب لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقد أصيب في «أخذ» اثنتا عشرة إصابة قاضية فسقط على الأرض. فمرّ عليه رجل يدعى مالك بن الدخشم فقال له: أما علمت أن محمداً قد قُتِل؟ فقال سعد: اشهد أن محمداً قد بلغ رسالة ربه، فقاتل أنت عن دينك فان الله حي لا يموت. (2)

ثم أنه قد مرّ عليه رجل من الانصار وهو في هذه الحال وبعد أن وضعت الحرب أوزارها فقال لسعد: إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ فقال سعد: أنا في الأموات فابلق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك جزاك الله عنا خيراً ما جرى نبياً عن أمته، وابلغ قومك عني السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله، إن خلص إلى نبيكم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومنكم عين تطرف.

ثم لم يبرح ذلك الانصاري حتى قضى سعد بن الربيع نحبته، فجاء الأنصاري إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخبره بما قال. فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«رَجِمَ اللَّهُ سَعْدًا تَصَرْنَا حَيًّا وَأَوْصَى بِنَا مَيْتًا (3)» .

إن حب الإنسان لنفسه، أو ما يصطلح عليه العلماء بحب الذات من الغرائز

1- السيرة النبوية: ٩٨ / ٢ ، بحار الأنوار: ١٣١ / ٢٠ .
2- السيرة النبوية: ٩٥ / ٢ ، بحار الأنوار: ١٣٦ / ٢٠ .
3- السيرة النبوية: ٩٥ / ٢ ، بحار الأنوار: ١٣٦ / ٢٠ .

القوية المتأصلة في كيان الإنسان بحيث لا يمكن لأي أحد أن يغفل عنها مهما كانت الظروف وهي بالتالي من القوة والهيمنة على وجود الإنسان بحيث يضحّي في سبيلها بكل شيء.

ولكن قوة الايمان وحبّ الإنسان للعقيدة، وتعشقه للمعنويات أقوى وأشدّ تأثيراً من ذلك، فهذا الجنديّ الشجاع لم يكن بينه - حسب ما تفيده النصوص التاريخية - وبين الموت في ذلك الوقت سوى لحظات، ومع ذلك نجده ينسى نفسه، ويفكر في حياة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الذي كان يعتبره أقوى سبب لبقاء الدين، ودوام الشريعة، وهذا هو الهدف المقدّس الذي قاتل من أجله سعد البطل، ولهذا لا يحمل ذلك الرجل الأنصاري سوى رسالة واحدة إلى أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يحثهم فيها على السهر على حياة النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والعمل معه على تحقيق أهدافه، في ارساء دعائم التوحيد.

النبيّ يعود إلى المدينة:

كانت الشمس تميل نحو المغرب وكانت تستعد للملحة الذهبية من صفحة الكون، وكان السكون والصمت يخيم على كل مكان من الأرض.

في مثل هذه اللحظات كان على المسلمين المقاتلين أن يعودوا بجراحهم إلى منازلهم في المدينة ليستعيدوا قواهم، ويجدّدوا نشاطهم، ويضمدوا جراحهم.

ولهذا صدرت أوامر من جانب النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالتوجه نحو المدينة.

فلما كانوا بأصل الحرة قال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : اصطفوا فنثني على الله، فاصطف الرجال صفيين خلفهم النساء ثم دعا فقال:

اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا هادي لمن اضللت ولا مضل لمن هديت، ولا مقرب لما باعدت ولا مباعداً لما قربت.

اللهم اني أسألك من بركتك، ورحمتك وفضلك وعافيتك.

اللهم اني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول.

اللَّهُمَّ آتِي أَسْأَلُكَ الْآمَنَ يَوْمَ الْخَوْفِ وَالْغَنَى يَوْمَ الْفَاقَةِ عَائِذًا بِكَ.

اللَّهُمَّ مِنْ شَرِّ مَا أَنْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ مِنَّا.

اللَّهُمَّ تَوَقَّفْنَا مُسْلِمِينَ.

اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ، وَزَيِّتْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكِرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ.

اللَّهُمَّ عَذِّبْ كَفْرَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ رَسُولَكَ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ.

اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْهِمْ رَجْسَكَ وَعَذَابَكَ إِلَهَ الْحَقِّ. آمِينَ. (1)

وقد كان هذا العمل خطوة مهمة جداً من الناحية النفسية فقد أمدّ هذا الدعاء نفوس المسلمين المصابين بطاقة روحية ضخمة مما كان من شأنه تخفيف وطأة الهزيمة وتقوية عزائم المسلمين، كما علّمهم أن يلجأوا إلى الله تعالى في كلّ حال.

فدخل رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ومعه أصحابه من الانصار والمهاجرين الذين شاركوا في تلك المعركة المدينة.

وكانت أكثر بيوت المدينة قد تحوّلت إلى مناحات ومآتم، يرتفع منها أصوات بكاء الأمهات والازواج والبنات اللاتي أصبن في رجالهنّ وأولياتهنّ، وأبائهنّ.

ولما مرّ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - على منازل بني عبدالمطلب وسمع ندبة النساء، وبكاءهنّ حزن وانحدرت دموعه على خديه وقال:

«لَكِنَّ حَمْزَةَ لِأَبَوَاكِي لَهُ» (2)

فلما عرف سعد بن معاذ وأسيد بن حضير بذلك أمرا جماعة من نسائهم بأن يذهبن فيبيكين على عمّ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - .

فلما سمع رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بكاءهنّ على حمزة خرج عليهنّ وهنّ على باب مسجده يبكين عليه فقال:

1- امتاع الاسماع: ١ / ١٦٢ و ١٦٣ و ١٧٥.

2- السيرة النبوية: ٢ / ٩٩.

«ارجعن يرحمكّن الله فقد آسيتنّ بأنفسكنّ.»

وقيل لما سمع - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بكاءهنّ قال:

«رَحِمَ اللهُ الأنصارَ، فإنّ المواساةَ منهم ما علمتَ لقديمةٍ.. مُروهُنَّ فليَنصِرْفنَّ.»⁽¹⁾

ذكريات مثيرة عن امرأة مؤمنة:

إن للنسوة المؤمنات صفحات مشرقة، وعجيبة في تاريخ الإسلام، لأننا قلما نجد لها نظيراً في عالم المرأة اليوم.

ومن تلك النسوة المؤمنات ذوات المواقف الرائعة والعجيبة في صدر الإسلام المرأة الدينارية، التي أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأحد.

فأتها لما نعو لها مصرع رجالها قالت: فما فعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ؟

قالوا: خيراً يا أمّ فلان، هو بحمدالله كما تحبين.

قالت: أرونيه حتى أنظر إليه؟

فاشير لها إليه حتى إذا رأتها قالت: كل مصيبة بعدك جلل (اي صغيرة).⁽²⁾

ما أعظم تلك الاستقامة، وما أعظم ذلك الايمان الذي يجعل من الإنسان طوداً راسخاً ثابتاً في وجه العواصف والاعاصير.

نموذج آخر من السنوة المجاهدات:

لقد أشرنا في الصفحات الماضية بصورة إجمالية إلى قضية «عمرو بن الجموح» الذي آلى على نفسه أن يشارك في الجهاد مع ما كان به من العرج

1- السيرة النبوية: ٢ / ٩٩، امتاع الاسماع: ١ / ١٦٣ و ١٦٤.

2- السيرة النبوية: ٢ / ٩٩.

الموجب لسقوط الجهاد كما عرفت.

فقد شارك هذا المسلم الصادق والمؤمن المجاهد في معركة أحد، ومضى يقاتل في الصف الاول من المجاهدين، وشارك ابنه «خلاد

بن عمرو بن الجموح» و أخو زوجته «عبدالله بن عمرو»⁽¹⁾ في هذا الجهاد المقدس، واستشهدوا جميعاً في تلك المعركة أيضاً.

فخرجت «هند» زوجته وهي بنت عمرو بن حزام، عمّة جابر بن عبد الله الأنصاري إلى «أحد» وحملت أجسادهم على بعير وتوجهت بها نحو المدينة، بمنتهى الجلادة، ورباطة الجأش.

وعندما فشى في المدينة أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قُتل بأحد خرجت النسوة، يتأكدن من هذا النبأ، فالتقت هندُ ببعض نساء النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهي عائدة من أحد - فسألنها عن النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقالت: خيراً، أما رسول الله فصالحٌ، وكلُّ مصيبة بعده جلال، واتخذ الله من المؤمنين شهداء، وقرأت قول الله تعالى:

(وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَأْلُوا خَيْرًا!!...)

فسألوا: من هؤلاء؟

قالت: أخي، وابني خلاد، وزوجي عمرو بن الجموح!!

فقلن لها: فأين تذهبين بهم؟

قالت: إلى المدينة أقبرهم بها... ثم زجرت بعيرها تحته على السير قائلة: حل.. حل في نبرة صامدة.

ومرة أخرى يظهر في هذه الصفحة الناصعة من تاريخ الإسلام نموذجٌ حيٌّ آخر من مشاهد الثبات والصمود، والاستقامة، وتجاوز المصائب، وتحمل الآلام والشدائد في سبيل الهدف المقدس، وكل ذلك من فعل الإيمان، ونتائجه.

إن المذاهب المادية لا ولن تستطيع تربية أمثال هذه النسوة والرجال المتفانين في سبيل العقيدة، بمثل هذا التفاني العظيم.

-1 وهو عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام الأنصاري.

(189)

على أن هؤلاء لم يقاتلوا من أجل المآرب المادية، وإنما قاتلوا من أجل الهدف، وهو إعلاء كلمة الدين وإقامة صرح التوحيد، ومحو الوثنية والشرك.

هذا وفي بقية هذه القصة ما هو أعجب من أولها، وهو أمر، لا يمكن إن يدرك بالمقاييس المادية، والأسس التي ينطلق منها أصحاب الاتجاه المادي في تحليل القضايا التاريخية، وإنما يهضمها - فقط - من يؤمن بعالم آخر وراء العالم الماديّ الصّرف، ويصدق بتأثيره

في هذا العالم، وبالتالي لا يقبل بها إلا من يصدّق بقضية الإعجاز والمعجزة، ويدّعون لها ويعترف بصحتها من غير تلكؤء وابطاء

واليك هذه البقية:

لما زجرت هند بعيرها لتدخل به المدينة بَرَكَ البعير في مكانه.

فقالَت النسوة التي كنَّ هناك: لعَلَّه بَرَكَ لما عليه.

فقالَت هند: ما ذاك به، لربما حمل ما يحمل البعيران، ولكنّي أراه لغير ذلك.

فزجرتَه ثانية، فقام، فلما وَجَّهت به إلى المدينة بَرَكَ، فوجهته راجعة إلى أحد فاسرع.

فرجعت إلى النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأخبرته بذلك، فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : فإِنَّ الْجَمَلَ مَأْمُورٌ.

هل قال (يعني: عمرو بن الجموح) شيئاً ؟

قالَت: إِنَّ عَمراً لَمَّا وَجَّهَ إلى أُخْدِ اسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَرُدَّنِي إلى أَهْلِي خِزياً، وَارزُقْني الشَّهَادَةَ!!

قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «: فلذلك الجمَلُ لا يمضي. إِنَّ منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره، منهم

عمرو بن الجموح، يا هند ما زالت الملائكة مظلةً على أخيك من لدن قُتِلَ إلى الساعة ينظرون أين يُدْفَنُ»، ثم مكث رسول الله -

صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حتّى قبرهم، ثم قال: يا هند قد ترافقوا في الجنة جميعاً، عمرو ابن الجموح، وابنُك خلاد وأخوك عبدالله»

قالَت هند: يا رسول الله فادع لي عسى أن يجعلني معهم. (1)

[1- امتاع الاسماع: ١ / ١٤٦ - ١٤٨.

(190)

ثمَّ إِنَّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - دخل بيته فلما أبصرت به بنتُه العزیزة «فاطمة» ورأت ما أصابه من الجراح ذرفت

عينها بالدموع، فأعطى رسول الله سيفه لابنته (الزهراء) حتّى تغسله.

وقال الاربلي المؤرخ الشيعي المعروف الذي كان يعيش في القرن السابع الهجري: كان علي بجيء بالماء في ترسه، وفاطمة تغسل

الدم وأخذ حصيراً فأحرقه وحشى به جرحه. (1)

وفي الامتاع لما رأَت فاطمة الدمَ لا يرقاً - وهي تغسله وعلي يصب الماء عليها بالمجَنّ - أخذت قطعة حصير فأحرقته حتَّى صار
رماداً ثم الصقته بالجرح فاستمسك الدم ويقال: داوته بصوفة محترقة. (2)

لابد من ملاحقة العدو:

لقد كانت الليلة التي استقرَّ فيها المسلمون في منازلهم بالمدينة بعد يوم أحد ليلةً جدّاً خطيرةً وحساسةً.

فالمناقفون واليهودُ وأتباع عبدالله بن أبي قد سُزوا لما أصاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه سروراً كبيراً،
وأظهروا القول السيء وقالوا: ما أصيب نبيٌّ هكذا قط.

وكان أنين الجرحى والمكلمين وبكاء الموتورين في رجالهم ونياحهم يُسمع من أكثر بيوت المدينة.

والأخطر من كلِّ هذا هو التخوف من أن يقوم المنافقون واليهود بعملية خيانية ضد الإسلام والمسلمين في تلك الظروف.

أو أن يعرّضوا وضع العاصمة الإسلامية الثابت، والوحدة السياسية القائمة في المدينة للخطر بايجاد الاختلاف والتشتت على الأقل.

إن ضرر الاختلافات الداخليّة أشدُّ بكثير من حملات العدو الخارجي، وإن

1- كشف الغمة: ١ / ١٨٩.
2- امتاع الاسماع: ١ / ١٣٧ و ١٣٨.

إنهيار الوحدة والانسجام في الجبهة الداخلية أخطر بكثير من تعرّض البلاد لهجوم من الخارج.

من هنا كان يتعيّن على النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يرهب العدو الداخلي، ويفهمه بأن قوى التوحيد لم تفقد انسجامها
وتماسكها وإنّ آية خطوة أو نشاط مُعاد يهدّد أساس الإسلام للخطر سيُسحق بشدة في اللحظة الأولى.

ولهذا أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن يخرج في نفس الليلة لملاحقة العدو (أي مشركي مكة).

فكأف النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رجلاً بأن ينادي في كل مناطق المدينة:

«الا عصابةٌ تشدّدُ لأمر الله تطلّبُ عدوّها، فاتّها أنكأ للعدوّ وأبعد للسمع. ألا لا يخرج معنا إلا من حضر يومنا بالامس. »

أو قال: «يا معشر المهاجرين والأنصار من كانت به جراحة فليخرج، ومن لم يكن به جراحة فليقم.»
وانما خرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كما أسلفنا ليُهرب العدو وليلبغهم أنه خارج في طلبهم فيظنونوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوّهم. (1)

على أن لهذا التقييد، ولهذا النهي عن خروج غير الجرحى، أو من لم يشترك في أحد، عللاً أو حكماً لا تخفى على العارفين بالسياسة، والرموز العسكرية.

ويمكن الإشارة إلى بعضها:

أولاً:

إنّ هذا التحديد، وبالتالي الاقتصار على من شارك في معركة أُخذ هو نوع من التعريض بمن امتنع من المشاركة في تلك المعركة، وفي الحقيقة هو نوعٌ من تجريدهم من صلاحية المشاركة في الدفاع المقدّس.

ثانياً:

إنّ هذا التحديد هو نوع من عقاب المشاركين في معركة أُخذ، لأنهم بتجاهلهم لتعاليم القيادة، وانصرفهم بسرعة إلى المطامع المادية، والغفلة عن ملاحقة العدو في حينه تسببوا في توجيه تلكم الضربة النكراء إلى الإسلام،

- [مجمع البيان للطبرسي: ٢ / ٥٣٥ - ٥٤١.

(192)

ولذلك يجب عليهم انفسهم ملافاة تلك الخسارة، وترميم ذلك العطب، لكيلا يعودوا إلى مثل ذلك، ولا يتجاهلوا أوامر القيادة، ونحن نعلم أن الانضباطية والتقيّد الكامل بالأوامر هو أهم عنصر في نجاح الامور العسكرية. (1)

بلغ نداء مؤذن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مسامع شاب من بني الاشهل كان قد شهد أُخذاً مع رسول الله، فخرج هو وأخوه وهما جريحان مع رسول الله لطلب العدو، وقد قال أحدهما للآخر: أتفوتنا غزوة مع رسول الله.

وقد خرجا دون أن تكون لهما دابةٌ يركبانهما وكلاهما مصابان بجروح ثقيلة، فكان الأيسر منهما يحمل الآخر مسافة، فاذا تعب مشياً مسافةً، ثم عاد إلى حملة حتى انتهيا إلى ما انتهى إليه المسلمون. (2)

حمراء الأسد: (3)

خرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأصحابه إلى حمراء الاسد (وهي تبعد عن المدينة بثمانية أميال) وقد استخلف على المدينة «ابن أم مكتوم.»

وهناك مرّ به «معيد بن أبي معبد الخزاعي» رئيس بني خزاعة، وكانت خزاعة مسلمهم ومشرکهم يومذاك ذات علاقات طيبة جداً مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمين وكانوا لا يخفون عن النبيّ شيئاً.

فتقدم معبد رئيسهم وعزّى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بما أصابه، وهو يومئذ مشرك قائلاً: يا محمّد أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك، ولوددنا أنّ الله عافاك فيهم.

ثم خرج معبد حتّى لقي أبا سفيان ومن معه بمنطقة تدعى بالروحاء وقد

1- كلا هذين الوجهين يستقيمان إذا قلنا بان النبيّ خرج بكل من شارك في أخذ لا أنه اقتصر على الجرحى، كما تصرّح به بعض النصوص التاريخية.
2- امتاع الاسماع: ١ / ١٦٨، السيرة النبوية: ٢ / ١٠١.
3- لقد عدّ البعض خروج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى حمراء الاسد لملاحقة العدو غزوة مستقلة، وذكرها البعض الآخر في ذيل معركة أحد.

(193)

عزموا على الرجوع إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه للكرة عليهم، واستئصالهم، والقضاء عليهم بالمرّة. فلما رأى أبو سفيان معيداً (وكان معبد قد استهدف من خروجه إلى أبي سفيان وجماعة المشركين القيام بخدمة لصالح النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه) قال: ما وراءك يا معبد، وماذا عندك من الاخبار؟ فقال معبد: - وهو يريد إرهاب قریش وصرّفهم عن الرجوع إلى المدينة - محمّدٌ قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرّقون عليكم تحرقاً قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق وشدة الغيظ عليكم شيء لم أر مثله قط!!

فقال أبو سفيان: - وقد أربب بشدة من هذا النبأ - ويحك ماذا تقول؟

قال معبد: والله ما أرى ان ترتحل حتّى أرى نواصي الخيل.

قال أبو سفيان: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيّتهم!

قال معبد: فاني أنهاك عن ذلك.

وقد تركت كلمات معبد، ووصفه لقوة المسلمين وعزمهم الشديد على توجيه ضربة إلى الكفار أثرها في نفس أبي سفيان الذي تملكه

خوفٌ شديدٌ، دعاه إلى الإنصراف عن الرجوع إلى المدينة ثانيةً، و العزم على القبول إلى مكة. (1)

ومضى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأصحابه حتى عسكروا ليلاً بحمراء الاسد، فامر بأن يوقد المسلمون النيران فأوقدوا خمسمائة نار حتى ترى من المكان البعيد، وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه، وتصور العدو أن النبي جاءهم في جيش عظيم، فتشاوروا حول الرجوع إلى المدينة فنهاهم صفوان عن ذلك، فانصرفوا.⁽²⁾

1- السيرة النبوية: ٢ / ١٠٢، امتاع الاسماع: ١ / ١٦٩ و ١٧٠.
2- الطبقات الكبرى: ٢ / ٤٩.

(194)

لا يُخَدَعُ مُؤْمِنٌ مَرَّتَيْنِ:

هذا هو معنى قول النبي الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«المؤمن لا يلدغ من جحر مَرَّتَيْنِ.»

ولقد قاله رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عند ما أسر المسلمون أبو عزة الجمحي في طريق عودتهم من حمراء الاسد على نحو الصدفة، وأراد النبي ضرب عنقه فاستقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وطلب منه العفو وكان قد أسر ببدر قبل ذلك، ثم منَّ عليه النبي وأطلق سراحه مشترطاً عليه أن يكف عن المؤامرة ضد النبي والمشاركة في قتاله، ولكنه عاد إلى مكة، وشارك في قتال النبي مرة أخرى في أحد.

فقال له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، لما طلب العفو ثانيةً:

«والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خَدَعْتُ مُحَمَّدًا مَرَّتَيْنِ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُلْدَغُ مِنْ جَحْرٍ مَرَّتَيْنِ.»

ثم أمر بضرب عنقه، وضرب عنقه.⁽¹⁾

وأخيراً انتهت معركة أحد وقد قدم المسلمون فيها سبعين، أو اربعة وسبعين، أو واحداً وثمانين شهيداً على روايات مختلفة، بينما لم يتجاوز عدد قتلى قريش اثنين وعشرين.

وقد نشأت هذه النكسة المرة بسبب تجاهل الرماة لتعليمات الرسول القائد على النحو الذي قرأت.

1- السيرة النبوية: ٢ / ١٠٤، نلفت نظر القارئ الكريم إلى أننا قد ذكرنا في الهوامش مصادر أهم الحوادث في معركة أحد وفي إمكان القارئ الكريم لو أراد التوسع ان يراجع المصادر التالية التي اعتمدها المؤلف: وهي: الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ٣٦ - ٤٩، المغازي: ١ / ١٩٩ - ٣٤٠، شرح نهج البلاغة، لابن ابي الحديد: ١٤ / ١٤ - ٢١٨ و ج ٥، ص ٦٠، وبحار الأنوار: ٢٠ / ١٤ - ١٤٦، وامتاع الاسماع: ١ / ١١٣ - ١٦٦، السيرة النبوية: ٢ / ٦٠ - ١٦٨.

وقد وقعت معركة أحد يوم السبت السابع من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة النبوية الشريفة، هذا مضافاً إلى غزوة حمراء الأسد التي استمرت إلى يوم الجمعة من ذلك الأسبوع نفسه، فتكون قضايا ووقائع هذه الغزوة في الرابع عشر من شهر شوال من نفس تلك السنة.

ميلاد الإمام الحسن السبط:

هذا وقد ولد في هذه السنة (أي السنة الثالثة من الهجرة) سبط رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الأكبر الإمام الحسن بن علي - عليه السلام - في منتصف شهر رمضان من تلك السنة، وأجرى له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مراسيم ولادة خاصة ذكرها أصحاب الحديث وتجد تفصيلها في سيرة الأئمة من أهل البيت النبوي الطاهرين.

حوادث السنة الرابعة من الهجرة

٣٣

فاجعة فريق المبلّغين^(١)

لقد ظهرت الآثار السياسية لنكسة المسلمين في معركة «أخذ» بصورة واضحة بعد الحرب.

فمع أن المسلمين أظهروا مقاومة رائعة أمام العدو المنتصر ومنعوا من رجعتهم إلى المدينة وتحقيق أهدافه الخطيرة في استئصال المسلمين إلا أن التحريكات الداخلية والخارجية ضد الإسلام بهدف القضاء على هذا الدين، ورجاله قد تصاعد مدها في أعقاب حادثة «أخذ».

وقد تجرأ منافقو المدينة، ويهودها والمشركون المتواجدون في شتى النقاط البعيدة خارج المدينة على اثر ذلك، وبدأوا يحيكون المؤامرات ضد الإسلام والمسلمين ويجمعون الأسلحة والرجال لشن الحروب والغارات على المدينة.

وقد استطاع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبمهارة كبيرة إطفاء كل تلك التحريكات، كما استطاع قمع تحركات القبائل الفاطنة خارج المدينة التي كانت تنوي الهجوم على المدينة وذلك بارسال السرايا والمجموعات القوية من المجاهدين.

وفي هذا الاثناء بلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نبأ مفاده أن قبيلة بني أسد تنوي الهجوم على المدينة وتسخيرها، وقتل المسلمين، ونهب أموالهم، فبعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من فوره جماعة من المقاتلين يبلغ عددهم (١٥٠)

(197)

رجلا بقيادة «أبي سلمة» إلى منطقة تجمع المتأمّرين.

ثم إنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أوصاهم بأن يخفوا مقصدهم الأصلي، ويسلكوا طريقاً آخر غير الطريق المتعارف، ويقبموا نهراً ويسيروا ليلاً، ليعمّوا على القوم.

وقد فعل «أبو سلمة» وجماعته ما أوصاهم به رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فكانوا يسكرون الليل، ويكتمون النهار، حتّى وردوا المنطقة فاحاطوا ببني أسد في عمابة الصبح، وقضوا على المؤامرة في مهدها، وعادوا غانمين موفورين إلى المدينة، وقد وقعت هذه الحادثة في شهر المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة.⁽¹⁾

خطة ماكرة للفتك بالمبلّغين:

كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يقوم بارسال السرايا والمجموعات العسكرية لإفشال جميع مؤامرات المتأمّرين ضد الإسلام كما أنه كان يقوم إلى جانب ذلك ببعث المجموعات التبليغية إلى القبائل، والجماعات وبذلك يجلب قلوب المحايدين منهم نحو العقائد الإسلامية.

وكان المبلّغون والدعاة الذين كانوا من قراء القرآن الكريم، ومن الملمّين بالاحكام الإسلامية والتعاليم النبوية يبذلون استعداداً عجبياً للقيام بهذه المهمة الصعبة ولو كلفت حياتهم فكانوا ينقلون تعاليم الإسلام إلى الناس في المناطق النائية، والاماكن البعيدة بأوضح بيان وأوضح اسلوب.

ولقد كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ببعثه للمجموعات العسكرية من جانب، وارساله للفرق التبليغية من جانب آخر يقوم - في الحقيقة - بوظيفتين هامتين من وظائف المنصب النبوي.

[1- المغازي: 1 / 340، وامتاع الاسماع: 1 / 170، ولا بدّ أنك أيها القارئ الكريم تتذكر أن السنة الثالثة للهجرة تنتهي عند انتهاء الشهر الرابع والثلاثين، وتكون حوادث الشهر الخامس والثلاثين متعلقة بالسنة الرابعة من الهجرة.

(198)

فهو ببعثه للسرايا والمجموعات العسكرية كان يقصد في الحقيقة القضاء على محاولات التمرد، والتأمر التي كانت في مرحلة التحقق والتكوّن لكي يتسنى للمجموعات التبليغية في ظل الأمن والحرية الدعوة إلى الإسلام، والقيام بوظيفتها الاساسية ألا وهي ارساء دعائم الحكومة الإسلامية في القلوب، وتنوير الافكار، وإيقاظ العقول.

ولكن بعض القبائل المتوحشة، والمنحطة أخلاقياً وفكرياً كانت تتحارب على المجموعات التبليغية التي كانت تمثل القوى المعنوية للإسلام، والتي لم يكن لها هدف سوى نشر التوحيد، واقتلاع جذور الكفر والوثنية، وكانوا يقتلونهم بصورة فضيعة ومفجعة. وفيما يلي نلقت نظر القارئ الكريم إلى قصة مجموعة من الدعاة والمبشرين الذين لقوا هذا المصير وكان عددهم يبلغ ستة أشخاص حسب رواية ابن هشام⁽¹⁾، أو عشرة أشخاص حسب رواية ابن سعد.⁽²⁾

الغدر بالدعاة إلى الإسلام وقتلهم:

لقد مشت جماعة من قبيلتي «عضل» و «القارة» إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقالوا - وهم يضمرون المكر - يا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إن فينا إسلاماً فاشياً فابعث مَعْنَا نفرأ من أصحابنا يَقْرَئُونَا القرآن، ويفقهوننا في الإسلام. فرأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن من واجبه الاستجابة لمطلب تلك الجماعة التي كانت تمثل قبائل كبرى، وكما رأى المسلمون أيضاً أن من واجبهم أن يستفيدوا من هذه الفرصة مهما كلف الثمن.

من هنا بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جماعة بقيادة «مرثد بن أبي مرثد

- [السيرة النبوية: ٢ / ١٦٩، وقال في امتاع الاسماع: ١ / ١٧٤ انهم سبعة اشخاص.
2- الطبقات الكبرى: ٢ / ٥٥.

الغَنَوِيَّ» مع تلك الجماعة إلى القبائل المذكورة.

فخرج هؤلاء المبلعون ووفد القبيلتين من المدينة متوجهين إلى حيث تتواجد «عضل» و «القارة»، ولما كانوا بماء يسمى الرجيع تقطن عنده قبيلة تدعى «هذيل» كشف مندوبو القبيلتين عن نواياهم الشريرة، واستصرخوا هذيلاً وكميناً من رجالهم، وكانوا مائة رام وبأيديهم السيوف فاحاطوا بالدعاة يريدون أسرهم ثم قتلهم وبادتتهم!!

فلم ير المبلعون بدأ - وهم محاطون بتلك الجماعات المسلحة - من اللجوء إلى سيوفهم والدفاع عن أنفسهم.

ولكن العدو قال: ما نريد قتالكم، وما نريد إلا ان نصيب منكم من أهل مكة ثمناً، ولكم عهد الله وميثاقه لانقتلكم!!

فنظر الدعاة بعضهم إلى بعض، وقرر أكثرهم المقاومة وعدم الرضوخ لهذا العرض الغادر، والخطة الماكرة، وقال أحدهم: إني نذرت أن لا أقبل جوازَ مشرك⁽¹⁾ ثم جعلوا يقاتلون القوم قتال الأبطال، حتى قتلوا إلا ثلاث هم: «زيد بن دثنة»، و «خبيب بن عدى»، و «عبدالله بن طارق البلوي» فقد أغمد هؤلاء سيوفهم وسلّموا، فأخذوا وثّقوا بأوتار قسيّهم، ولكن «عبدالله» ندم على

فعله، فنزع يده من رباطه ثم أخذ سيفه، وراح يقاتلهم حتى قتلوه رمياً بالحجارة، وقد انحازوا عنه وهو يشدّ فيهم وينفرون عنه، ودفن في مر الظهران.

ثم أخذوا الأسيرين الآخرين «خبيب» و «زيد» وقدموا بهما مكة فباعوهما لأهل مكة!!

فأمّا زيد بن الدثنة فقد اشتراه «صفوان بن أمية» وقتله ثأراً لابيه، وقتله قصة عجيبة سطرَ فيها أروع آيات المقاومة والوفاء والاخلاص.

فقد اشتراه «صفوان بن أمية» كما أسلفنا ليقّته بأبيه، وقد حبسه صفوان في الحديد، وكان يتهدّج بالليل ويصوم بالنهار، ولا يأكل شيئاً مما أتى به من

- [أو قالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً (السيرة النبوية: ٢ / ١٧٠)].

(200)

الذبائح، وهو في الأسر والحبس.

ثم إنه أخرج إلى «التنعيم»⁽¹⁾ «لئصالب على مرأى حشد كبير من الناس.

فرفعوا له جذعاً، فقال: دعوني أصلي ركعتين، فصلّي ركعتين، ثم حملوه على الخشبة ثم جعلوا يقولون له: يا زيد إرجع عن دينك المحدث، واتبع ديننا، ونرسلك فيقول: والله لا أفارق ديني أبداً.

فقال له أبو سفيان فرعون مكة وأشدّ المتأمرين على الإسلام ومدبر أغلب الحروب ضد رسول الله، والمسلمين: أنشدك بالله يا زيد أيسرك أن محمداً في أيدينا مكانك وانت في بيتك؟ فقال زيد بشجاعة ووفاء عظيمين: ما يسرنى أنّ محمداً أشيك بشوكة واني في بيتي، وجالس في أهلي!!!

وقد كان لهذه الكلمة أثر الصاعقة في نفس طاغية مكة أبي سفيان فقال: ما رأينا أصحاب رجل قطّ أشدّ حباً من أصحاب محمّد بمحمّد!!

ولم تمض لحظات إلّا وصار «زيد» على خشبة الاعدام وررفت روحه إلى خالقها، ومضى ذلك المسلم الوفيّ، والمؤمن الشجاع شهيداً الثبات في طريق العقيدة، والدفاع عن حياض الدين.⁽²⁾

واما «خُبَيْب» فقد حبس مدةً من الزمان حتّى قرّر رجال ندوة مكة قتله، فخرجوا به إلى التنعيم ليصلبوه وخرج معه النساء والصبيان والعبيد وجماعة من أهل مكة، فقال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتّى أركع ركعتين فافعلوا، فقالوا دونك فاركع.

فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم وقال: أما والله لولا أن تظنّوا أنّي إنما طوّلتُ جَزَعاً من القتل لاستكثرتُ من الصلاة!!

ثم رفعوه على خشبة ثم وجّهوه إلى المدينة، وأوثقوه رباطاً، ثم قالوا له: إرجع عن الإسلام نخلّ سبيك.

-1-التنعيم ابتداء الحرم ومنها يحرم المعتمرون للعمرة المفردة.
-2-السيرة النبوية: ٢ / ١٧٢، المغازي: ٢ / ٣٦٢، امتاع الاسماع: ١ / ١٧٤ و ١٧٥.

(201)

قال: لا والله ما أحبُّ أنّي رجعتُ عن الإسلام وأنّ لي ما في الأرض جميعاً.

فقالوا: أما واللات والعزى لئن لم تفعل لنقتلنك!

فقال: إن قتلي في الله لقليل، فلما أبى عليهم وقد جعلوا وجهه من حيث جاء (أي نحو المدينة)، قال: أما صرفكم وجهي عن القبلة، فإن الله يقول: «فَأَيُّمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ» ثم قال: اللهم إني لا أرى إلا وجه عدوّ، اللهم أنه ليس هاهنا أحدٌ يبلغُ رسولك السلام عني فبلغه أنت عني السلام.

ثم دعا على القوم وقال: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً.

ثم دعوا أبناء من أبناء قَيْلٍ ببدر فوجدوهم أربعين غلاماً، فأعطوا كل غلام رمحاً، ثم قالوا هذا الذي قتل آباءكم، فطعنوه برماحهم طعناً خفيفاً فاضطرب على الخشبة فانقلب، فصار وجهه إلى الكعبة، فقال: الحمد لله الذي جعل وجهي نحو قبلته التي رضي لنفسه ولنبيه وللمؤمنين!!

فأثارت روحانيته الكبرى، وطمانينته العظيمة غيظ أحد المشركين الحاضرين، وهو «عقبة بن الحارث» وتملكه غضب شديد من إخلاصه للإسلام فأخذ حربته وطعن بها خبيباً طعنة قاضية، قتلته، وهو يوحد الله ويشهد أن محمداً رسول الله.

ويروي ابن هشام أن خبيباً أنشد قبل مقتله أبياتاً عظيمة نذكر هنا بعضها:

إلى الله أشكو غُرْبتي ثم كُرْبتي * وما أرى صدّ الأحزاب لي عند مصرعي

فذا العرش صيرني على ما يُرادُبي * فقد بضَعوا لحمي وقد ياسَ مَطْمَعِي

وذلك في ذات الاله وأن يشأ * يبارك على أوصالي شلو مُمَزَّع

وقد خيروني الكفر والموتِ دونَه * وقد هَمَلْتُ عيناي من غير مجزع

وما بي جذارُ الموتِ أني لميت * ولكن جذاري جحم نار ملقَع

فوالله ما أرجو إذا متَّ مسلماً * على أي جنب كان في الله مَصْرَعِي

فلستُ بمُبدٍ للعدوِّ تخشعاً * ولا جزعاً إنِّي إلى الله مرجعي

(202)

وقد أحرزنت هذه الحادثة الاليمة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وكذا جميع المسلمين. وأنشد فيهم «حسانُ بن ثابت» أبياتاً ذكرها ابن هشام في سيرته، كما أنه هجا هذيلاً في أبيات أخرى لارتكابهم هذه الجريمة النكراء. (1)

ولقد خشي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن تتكرر مثل هذه الجريمة النكراء، وبذلك يواجه رجال التبليغ والدعوة الذين كان يعدمهم بصعوبة بالغة مصاعب في سبيلهم، ويتعرضوا لخسائر لا تجبر، وعمليات غدر واغتيال أخرى. وقد بقي جثمان هذا المسلم المجاهد على الخشبة مدة من الزمن، يحرسه جماعة من المشركين حتى قام رجلان قويان شجاعان من المسلمين بانزاله من فوق الصليب ليلاً، ومن ثم دفنه بأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - . (2)

جريمة بنر معونة:

وفي شهر صفر من السنة الرابعة وقبل أن يصل نبأ مصرع الدعاة المذكورين واستشهادهم على ايدي المشركين في منطقة الرجيع إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، قدم أبو براء العامري المدينة فدعاه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى الإسلام فلم يسلم ولكنه قال للنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يا محمد اني ارى أمرك حسناً، فلو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل «نجد» فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك فان هم اتبعوك فما أعز أمرك.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :إنِّي اخشى عليهم أهل نجد.

قال أبو براء: لا تخف، أنا لهم جاز، فابغثهم فليدعو الناس إلى أمرك.

فَبَعَثَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أَرْبَعِينَ رَجُلًا مِنْ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ مِمَّنْ حَفِظُوا الْقُرْآنَ وَعَرَفُوا أَحْكَامَ
الإسلام وأمر عليهم «المنذر بن

[1-المغازي: ١ / ٣٥٤ - ٣٦٢، السيرة النبوية: ٢ / ١٦٩ .
2-سفينة البحار: ١ / ٣٧٢ .

(203)

عمرو»، فساروا حتّى نزلوا ببئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم وهم يحملون من رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كتاباً إلى عامر بن الطفيل أحد زعماء «نجد»، وكلف أحد المسلمين بإيصال ذلك الكتاب إلى عامر، فلما أتاه الكتاب لم ينظر فيه حتّى عدا على الرجل (حامل الكتاب) فقتله، ثم استصرخ بني عامر على المبلّغين، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: لن ننقض عهد أبي براء، وقد عقد لهم عقداً وجوراً.

فاستصرخ عليهم قبائل بني سليم فأجابوه إلى ذلك فخرجوا حتّى نزلوا حيث نزل جماعة الدعوة، فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم، ثم قاتلوهم حتّى قتلوا عن آخرهم بعد أن أبدوا مقاومة كبرى، وبسالة عظيمة، ولم يكن يتوقع منهم غير ذلك.

فإنّ مبعوثي النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لم يكونوا مجرد رجال فكر وعلم فقط، بل كانوا رجال حروب، وابطال معارك ولذا رفضوا الاستسلام للمعتدين، واعتبروا ذلك عاراً لا يليق بالمسلم الحرّ الأبيّ، فقاتلوهم حتّى استشهدوا جميعاً، إلاّ كعب بن زيد، فانه جرح فعاد بجراحه إلى المدينة، وأخبر رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بما جرى لأصحابه على أيدي قبائل بني سليم المشركة الغدرة.

فحزن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - والمسلمون جميعاً لهاتين الحادثتين، المفجعتين اشدّ الحزن بل ولم يجد على قتلى مثل ما وجد عليهم، وبقي رسول الله يذكر شهداء بئر معونة رداً من الزمان. (1)

هذا ولقد كانت هاتان الحادثتان المؤسفتان المؤلمتان جميعاً من نتائج النكسة التي أصابت المسلمين في «أحد» والتي جرّأت القبائل خارج المدينة على قتل رجال المسلمين ودعاتهم غدرًا ومكرًا.

كيدُ المستشرقين وجفاؤهم:

إن المستشرقين الذين دأبوا على نقد أبسط سوء يتعرض له مشرك على أيدي

[1-السيرة النبوية: ٢ / ١٨٣ - ١٨٧، امتاع الاسماع: ١ / ١٧٠ - ١٧٣ .

المسلمين فينالون من الإسلام والمسلمين أشدّ نيل، ويصرون على أن يؤكدوا على أن الإسلام لم ينتشر إلا بالسيف والقهر، التزموا صمتاً عجباً تجاه هاتين الحادثتين المؤلمتين المفجعتين، ولم ينبسوا في هذا المقام ببنت شفة أبداً، وكان شيئاً من هذا لم يقع، وكان ما وقع لا يستحق إهتماماً وحديثاً.

ترى أيّ نظام من أنظمة العالم القديم والجديد يجيز أن يُقتل الدعاة والمبشرون ورجال العلم والفكر، والتعليم والتنقيف.

إذا كان الإسلام قد تقدّم بالسيف - كما يدّعي رجال الاستشراق - فلماذا تخاطر جماعات التبليغ والدعوة هذه بأنفسها وتزهق أرواحها في سبيل نشر الإسلام والدعوة السلمية الفكرية إليه.

إنّ هاتين الحادثتين تنطويان على نقاط حيوية، وعبر مفيدة جداً، فان قوة الايمان لدى تلك الجماعات، وعمق تفانيها، وتضحيتها، وبسالتها تستحق إعجاب المسلمين، واكبارهم. كما وتعتبر من أفضل الدروس وابلغها لهم.

المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين:

لقد أثارت حادثتا «الرجيع» و «بئر معونة» المفجعتان اللتان جرتا إلى مصرع مجموعة كبيرة من خيرة الدعاة والمبليغين موجة من الحزن والأسى في المسلمين وتركت أثراً مؤلماً في أوساطهم.

وهنا يتسائل القارئ: لماذا أقدم النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على إرسال المجموعة الثانية من المبليغين إلى «نجد» مع أنه حصل على تجربة مرة؟! ألم يقل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين.»

إن الإجابة على هذا السؤال تتضح من خلال مراجعة النصوص التاريخية لأن المجموعة الثانية قد بُعثت في جوار من أبي براء (عامر بن مالك بن جعفر) والذي كان رئيساً لقبيلة بني عامر، ولم تفعل قبيلته بني عامر، ولم تفعل قبيلته ما خالف جوار رئيسهم ولم يشتركوا في تلك الجريمة وقد بقي أبو براء نفسه في المدينة تأكيداً لجواره، ريثما

لقد كانت خطة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خطة مدروسة وصحيحة لأن جماعة المبلّغين الثانية لم تقتل على يد قبيلة أبي براء، ومع أن ابن أخيه عامر بن الطفيل قد استصرخ قبيلة أبي براء التي كانت قبيلته أيضاً، ضد جماعة المبلّغين إلا أن قبيلة أبي براء أبت أن تنفر معه، ولم يستجب لندائه أحدٌ منهم بل قالوا: لن يُخَفَّرَ جوار أبي براء. ولما أيس منهم استصرخ قبيلةً أخرى لا تمتُّ إلى قبيلة أبي براء بصلّة، فاقدمت تلك القبائل على محاصرة الدعاة الأربعة ومقاتلتهم.

ثم إن جماعة المبلّغين المذكورة كانت قد بعثت عند مغادرتها المدينة وتوجهها إلى منطقة أبي براء رجلين من رجالها هما: عمرو بن أمية و «حارث بن الصمة»⁽¹⁾ ليرعيا إبل الجماعة ويحافظا عليها، وبينما كان الرجلان يقومان بواجبهما إذ أغار عليهما «عامر بن الطفيل». فقتل حارث بن الصمة، واطلق سراح عمرو بن أمية.

فعاد عمرو إلى المدينة، في أثناء الطريق التقى رجلين من العامريين فراقبهما وأمهلهما حتى إذا ناما وثب عليهما فقتلتهما، وهو يرى بأنه انتقم لزملائه من المسلمين من بني عامر، وقد أخطأ في تصوره هذا لأن بني عامر لم تخفر جوار سيدها أبي براء ولم تنتفض أمانه كما أسلفنا، ولم يشترك في جريمة قتل الدعاة الأربعة.

فلما قدم على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخبره الخبر، حزن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لذلك وقال لعمرو:

«بئس ما صنعت، قتلت رجلين كان لهما مني أمان وجوار، لا دفعت ديتهما.»

ولكن الاجابة الأكثر وضوحاً على هذا الاعتراض (أو السؤال) هو ما يذكره ابن سعد صاحب الطبقات إذ يقول: وجاء رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خير أهل بئر معونة، وجاءه تلك الليلة أيضاً مصاب خبيب بن عدى ومرثد بن أبي مرثد.⁽²⁾

[1] السيرة النبوية: ٢ / ١٨٦ و صاحب السيرة يرى انه المنذر بن محمد.
[2] الطبقات الكبرى: ٢ / ٥٢ و ٥٣.

غزوة «بني النضير»

لقد فرح منافقوا المدينة ويهودها بانتكاسة المسلمين في معركة «أحد» كما فرحوا أيضاً بمصرع رجال التبليغ والدعوة، فرحاً بالغاً وياتوا يتحيتون الفرصة لإثارة القلاقل والفتن في المدينة لإفهام القبائل خارجها بأنه لا توجد أية وحدة سياسية وانسجام اجتماعي في

مركز الإسلام وعاصمة الحكومة الإسلامية وأن في مقدور الأعداء الخارجيين أن يُجهزوا على حكومة الإسلام الفتية، ويقضوا عليها بسهولة!!

ولكي يقف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على نوايا ودخائل يهود بني النضير مشى في جماعة من أصحابه إلى حصنهم

على أن الهدف الظاهري المعلن عنه كان هو الاستعانة بهم في دية العامريين اللذين قتلوا خطأ على يد «عمر بن أمية» كما أسلفنا، وذلك بموجب الاتفاقية المعقودة بين رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبين اليهود وكذا بني عامر وغيرهم والقاضية بالتعاون معاً في تسديد الدية في مثل هذه الموارد.

فلما وصل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى حيث يسكن بنو النضير، وكلمهم في أن يعينوه في تلك الدية، رحبوا به ظاهراً، ووعدوا بأن يلتوا مطلبه، ثم إنهم خاطبوه قائلين: يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت. ثم دعوه إلى أن يدخل في بيوتهم، ويقضي يومه فيها، قائلين: قد أن لك أن تزورنا، وأن تأتينا، إجلس حتى نطعمك، فلم يقبل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بتلبية مطلبهم، بل

(207)

جلس مستنداً إلى جدار بيت من بيوتهم واخذ يكلمهم. (1)

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - احسن بشراً من ذلك الترحيب الحار الذي قابلته به رجال بني النضير، والذي رافق حركات مشبوهة منهم!!

هذا مضافاً إلى أنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - شاهدتهم وقد خلا بعضهم إلى بعض يتناجون ويتهامسون الأمر الذي يدعو إلى الشك، ويورث سوء الظن!!

وقد كان سوء الظن هذا في محله، فقد قرر سادة يهود - لما أتاهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في رهط قليل من أصحابه - أن يتخلصوا منه باغتياله والغدر به على حين غفلة منه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فانتدبوا أحدهم وهو «عمر بن جحاش» لتنفيذ هذه الجريمة، وذلك بأن يعلو على البيت الذي استند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى جداره فيلقى عليه صخرة تقتله.

إلا أنّ هذه المؤامرة انكشفت - ولحسن الحظ - قبل تنفيذها، إما من خلال حركات أولئك اليهود الخبيثاء، المشبوهة، أو بخبر أتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من السماء، كما يروي ابن هشام والواقدي في مؤلفيهما.

فنهض رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سريعاً، كأنه يريد حاجة، وتوجه من توه إلى المدينة دون أن يخبر أصحابه الذين أتوا معه، بقصده.

وبقي أصحابه هناك ينتظرون عودته من حاجته دون جدوى.

وهدمت يهود على ما صنعت، واضطربت لذلك اضطراباً شديداً، واصابتها حيرة شديدة فيما يجب أن تقوم به.

فمن جهة خشيت أن يكون رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد علّم بمؤامرتهم وتواطئهم، فيقدم على تأديبهم لنقضهم ميثاق التعايش السلميّ، ولتواطئهم القبيح، ومكرهم السيء.

ومن ناحية أخرى أخذت تفكر في أن تنتقم من أصحابه الموجودين هنا إن هو فاتهم، ولكنها خشيت أن يؤدي ذلك إلى مزيد من تأزم الموقف، وإن ينتقم

[1] يقول صاحب المغازي: ١ / ٣٦٤ إن النبيّ جاء بني النضير في ناديبهم.

(208)

رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حينئذ منهم قطعاً و يقيناً.

وفيما هم في هذه الحالة من الاضطراب والتحيّر قرر أصحاب النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - العودة إلى المدينة بعد أن يسوا من رجعتهم إليهم من حاجته، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسأله عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقال: رأيتُه داخل المدينة، فاقبلوا حتّى انتهوا إليه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وعرفوا بمؤامرة اليهود إذ قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لهم لما قالوا: يا رسول الله قمت ولم نشعر:

«هَمَّت اليهودُ بالغدر بي، فأخبرني اللهُ بذلك فقامتُ.»⁽¹⁾

بماذا يجب أن تقابل هذه الجريمة؟

والآن ماذا يجب أن يقوم به رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تجاه هذه الزمرة الخائنة المتآمرة؟ تلك الزمرة التي تتعم بما وفرتها لهم الحكومة الإسلامية من أمن وحرية، ويحافظ جنود الإسلام على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، كما يفعلون الفعل ذاته بالنسبة إلى أنفسهم وأموالهم وأعراضهم على حد سواء.

تلك الزمرة التي كانت ترى كل آثار النبوة ودلائلها في حياة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأعماله، وأقواله تماماً على نحو ما قرأت عنه في كتبها وأسفارها، ولكنها بدل أن تردّ الجميل بالجميل وتقابل الاحسان بالاحسان، وبدل أن تحسن ضيافته وقد نزل عليهم ضيفاً تتآمر لقتله غيلة وغدراً دونما خجل ولا حياء!!

ما هو ثرى ما تقتضيه العدالة في هذا الصعيد وفي هذه الحال؟

وماذا يجب أن يفعل المرء حتى يمنع من تكرار مثل هذه الحوادث، ويستأصل جذور مثل هذه الجرائم؟

إن الطريق المنطقي هو ما اختاره رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وفعله.

فقد أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المسلمين بالتهيؤ لحربهم، والسير اليهم،

-[الطبقات الكبرى: ٢ / ٥٧. امتاع الاسماع: ١ / ١٧٨.]

(209)

ثم دعا محمد بن مسلمة وأمره بأن يذهب إلى بني النضير، ويبلغ سادتهم، من قبله رسالة.

فخرج محمد بن مسلمة الأنصاري الأوسي^(١) إلى بني النضير وقال لسادتهم: إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أرسلني اليكم يقول:

«قد نقضتم العهد الذي جعلتكم بما هممتم به من الغدر بي.

أخرجوا من بلادي فقد أجتكم عشراً فمن رئي بعد ذلك ضربت عنقه.»

فأحدثت هذه الرسالة الشديدة اللهجة والساخنة المضمون انكساراً عجبياً في يهود بني النضير، وأخذوا يتلاومون، وأخذ يحمل كل واحد منهم الآخر مسؤولية هذه القضية.

فاقتراح عليهم أحد سادتهم أن يعتنقوا الإسلام ويؤمنوا برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولكن عنادهم منعهم من القبول بهذا الاقتراح. وعمتهم حالة يرثى لها من الحيرة، والانقطاع، فقالوا لمبعوث النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :يا محمد ما كنا نرى أن يأتي بهذا رجلاً من الأوس.

ويقصدون أنه كان بيننا وبين الأوس حلفٌ فما بالك تريد حربنا الآن.

فقال محمد بن مسلمة: تغيرت القلوب.

وقد كان هذا الاجراء متطابقاً مع ما جاء في ميثاق التعايش الذي عقده رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مع يهود يثرب ابان دخوله المدينة، وقد وقّع عليه عن يهود بني النضير حيي بن أخطب، وقد نقلنا في ما سبق النصّ الكامل لهذا الميثاق وها نحن ندرج هنا قسماً منه ليتضح ما ذكرناه.

جاء في أحد بنود الميثاق (العهد):

«ألا يعينوا (أي بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع) على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولا على أحد من أصحابه بلسان ولا يد ولا بسلاح ولا بكراع في السرّ والعلانية لا بليل ولا بنهار والله بذلك عليهم شهيدٌ، فان فعلوا فرسول الله في حل

-[المغازي: ١ / ٣٦٦.

(210)

من سفك دمانهم، وسبي ذرارهم، ونسائهم، وأخذ أموالهم.⁽¹⁾»

المستشرقون و دموع التماسيح:

لقد أبدى المستشرقون حزنهم وأسفهم لما جرى في هذه القضية، وذر فوا دموع التماسيح، وأبدوا رقةً وشفقةً أكثر مما تبديه والدة تجاه وليدها، على اليهود الخونة الناقضين العهد، الناكثين للإيمان، واعتبروا الإجراء الذي اتخذه النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بحقهم بعيداً عن روح الانصاف وسنن العدل!!

والحق أن هذه الاعتراضات والانتقادات لا تتبع من منطق السعي لمعرفة الحقيقة، لأننا عند مراجعتنا لنص الميثاق الذي أدرجناه للقارىء الكريم نرى الحقيقة على غير ما يتصورون ويصورون فاننا نعرف أن الجزاء الذي جازى به رسول الله يهود بني النضير هو في الحقيقة أقلّ من الجزاء المنصوص عليه في ذلك الميثاق بدرجات.

إن هناك اليوم مئات الجرائم والمظالم التي يرتكها أسياد هؤلاء المستشرقين في الشرق والغرب دون أن يعترض عليها أي واحد من هؤلاء المستشرقين الرحماء، أدعياء الدفاع عن حقوق الإنسان!!!

أما عندما يقوم رسول الإسلام بتنفيذ عقوبة - هي في الحقيقة - أقل بكثير من ما هو منصوص عليه في الميثاق بحق زمرة خائنة متآمرة ناقضة للعهد تتعالى أصوات حفنة من الكتاب المدفوعين بأغراض معينة ودوافع خاصة بالاعتراض، والانتقاد.

دور حزب النفاق أيضاً:

كان خطر المنافقين - وكما أسلفنا - أكبر من خطر اليهود لأن المنافق يطعن من الخلف وتحت غطاء من الصداقة، ويتستر وراء قناع الصحبة والزمالة.

- [بحار الأنوار: ١٩ / ١١١].

(211)

وقد كان رأس هذا الحزب هو «عبدالله بن أبي» و «مالك بن أبي» و.. و..

ولما سمع هؤلاء المنافقون بما يلقاه بنو النضير من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أرسلوا اليهم من يقول لهم: لا تخرجوا من دياركم وأمواكم، وأقيموا في حصونكم، فان معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب، يدخلون معكم حصنكم فيموتون من آخرهم قبل أن يوصل إليكم وتمدكم قريظة فانه لن يخذلونكم، ويمدكم حلفاؤكم من غطفان!؟

ولقد جرأت هذه الوعود بني النضير، فانصرفوا عن فكرة الرضوخ لمطلب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأغلقوا أبواب حصونهم، وأعدوا عدة الحرب، وعزموا على أن يقاوموا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مهما كلف الثمن، ولا يسمحوا للمسلمين بأن يسيطروا على بساطينهم وممتلكاتهم دون عوض.

فَنَصَحَهُمْ أَحَدُ كِبَرَانِهِمْ وَهُوَ «سَلَامُ بْنُ مَشْكَمٍ» وَشَكَّكَ فِي وَعْدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي، وَاعْتَبَرَهَا وَعُوداً جَوْفَاءً، وَقَالَ: لَيْسَ رَأْيُ ابْنِ أَبِي بِشَيْءٍ، فَهُوَ وَاللَّهِ جَلَاؤُنَا مِنْ أَرْضِنَا، وَذَهَابُ أَمْوَالِنَا، أَوْ سَبَاءُ ذُرَارِينَا مَعَ قَتْلِ مَقَاتِلِنَا.

إِلَّا أَنْ «حَبِيبُ بْنُ أَخْطَبٍ» أَبِي إِلَّا مُحَارِبَةَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وَحَثَّ النَّاسَ عَلَى الْمَقَاوِمَةِ وَالصُّمُودِ، وَأَرْسَلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : إِنَّا لَا نَبْرَحُ مِنْ دَارِنَا وَأَمْوَالِنَا فَاصْنَعْ مَا أَنْتَ صَانِعٌ!!

فَعَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بِرِسَالَةِ «عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي» إِلَى بَنِي النَّضِيرِ، وَوَعْدِهِ لَهُمْ، فَاسْتَخْلَفَ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ عَلَى الْمَدِينَةِ، وَسَارَ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فِي أَصْحَابِهِ مَكْتَبِرًا لِمُحَاصِرَةِ بَنِي النَّضِيرِ فَصَلَّى صَلَاةَ الْعَصْرِ بِفَضَائِهِمْ وَاسْتَقَرَّ

في الطريق بين «بني النضير» وبين «بني قريظة» ليقطع بذلك سبيل الاتصال بين هذين الفريقين، وحاصر بني النضير ست ليال - حسب رواية ابن هشام - (1) أو خمسة عشر يوماً حسب روايات آخرين، ولكن اليهود تحصنوا منه في الحصون، وأظهروا المقاومة، والإصرار على الامتناع، فأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

- [السيرة النبوية: ٢ / ١٩١، وهذا من التكتيكات العسكرية التي كان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يستعملها ليقطع خطوط الارتباط بين الجماعات المتعاونة.

(212)

بقطع النخيل المحيطة بتلك الحصون، وإلقاء النار ليبأس اليهود من البقاء في تلك المنطقة مادامت بساتينهم أعدمت، وأقنيت.

فتعالت نداءات اليهود تقول: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيبه على من صنعته، فما بال قطع النخل وتحريقها؟!

فردَّ الله تعالى عليهم بقوله:

«مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمْهَا قَانِمَةً عَلَىٰ أَسْوَأِهَا فَيَادِبِ اللَّهُ وَ لِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ. (1)»

هذا من جهة ومن جهة أخرى خذلهم عبدالله بن أبي، فلم يأتوهم، كما اعتزلتهم قريظة فلم تعنهم بسلاح ولا رجال.

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الخذلان إذ قال تعالى:

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ شَهِيدٌ لِّإِنْتِهَاءِ أَكْثَارِهِمْ لَكَاذِبُونَ* لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتِنَنَّ الْأَنْبَارَ ثُمَّ لَا يَصْرُونَ* لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ* لَا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرىٍ محصنة أو من وراء جُدُرٍ بأسنُهُم بينهم شديدٌ تحسبُهُم جميعاً وقلوبُهُم شتى ذلك بأنهم قومٌ لا يعقلون. (2)»

وقد كشفت الآيات الحاضرة - إلى جانب ما ذكر - عن نفسية اليهود الجبانة، والتي انهارت أيضاً بسبب معنويات المسلمين القوية حتى أنهم رغم اجتماعهم وعددهم الكبير يخافون من مواجهة المسلمين فلا يقاتلونهم إلا من وراء أسوار الحصون، وجران القلاع القوية خائفين مذعورين، ومرعوبين، وهم إلى جانب كل ذلك يعانون من اضطراب وقلق وتفرق كلمة في الواقع.

وأخيراً رضخ اليهود لمطلب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وسألوه أن يجلبهم، ويكفَّ عن دمائهم على أن يكون لهم ما

حملت الابل من أموالهم إلا السلاح

والدروع، فرضي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بذلك.

فاحتلموا من أموالهم أكبر قدر ممكن، حتى أن الرجل منهم يقلع باب بيته فيضعه على ظهر بعيره، ثم يخرب بيته بيديه!!

فخرج جماعة منهم إلى خيبر، وسارت جماعة أخرى منهم إلى الشام.

وقد خرجت تلك الزمرة الذليلة المسكينة وهم يضربون بالدخوف، ويزمرون بالمزامير، وقد البسوا نساءهم الثياب الراقية، وحلّى

الذهب، مظهرين بذلك تجلداً ليغطوا على هزيمتهم، ويروا المسلمين أنهم غير منزعجين من مغادرتهم تلك الديار!!

مزارع بني النضير تقسم بين المهاجرين فقط:

إن ما يغنمه جنود الإسلام دون قتال وهو ما يسمى بالفداء يعود أمره إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خاصة يضعه

حيث يشاء ويصرفه فيما يرى من مصالح الإسلام لقوله تعالى:

(ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.)⁽¹⁾

وقد رأى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن من الصالح أن يقسم المزارع والممتلكات التي غنمها من بني النضير على المهاجرين

دون الأنصار، لحرمانهم من ممتلكاتهم و ثروتهم في مكة بسبب الهجرة منها إلى المدينة، وكانوا في الحقيقة ضيوفاً على الأنصار

طوال هذه المدة، وقد أيد «سعد بن معاذ» و «سعد بن عباد» هذا الرأي، ومن هنا قسم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم

- جميع تلك المزارع والممتلكات على المهاجرين خاصة، ولم يحصل أحد من الأنصار منها على شيء إلا رجلين كانا محتاجين

هما: «سهل بن حنيف»، و «أبو دجاجة»، الانصاريان وحصل بذلك انفراج في أحوال المسلمين عامة، وأعطى «سعد بن معاذ»

سيف

رجل من زعماء بني النضير وكان سيفاً معروفاً.

يقول المقرئ:

فلما غنم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من بني النضير بعث ثابت بن قيس بن شماس فدعا الانصار كلها - الاوس والخزرج - فحمد الله وأثنى عليه، وذكر الانصار وما صنعوا بالمهاجرين وانزالهم اياهم في منازلهم، واثرتهم على انفسهم ثم قال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«ان أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما آفأ الله على من بني النضير وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم، وان أحببتكم أعطيتهم وخرجوا من دوركم»؟

فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: رضينا وسلّمنا يا رسول الله.

فقسّم رسول الله ما آفأ الله عليه، على المهاجرين دون الانصار إلا رجلين كانا محتاجين.. الخ. (1)»

وقد وقعت هذه الحادثة في شهر ربيع الأول في السنة الرابعة من الهجرة ونزلت سورة الحشر في هذا الشأن، والتي جاء في مطلعها قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرِّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ. (2)

هذا ويعتقد أكثر المؤرخين المسلمين أنه لم يُسْفَك في هذه الحادثة، أي دم، ولكن المرحوم الشيخ المفيد يكتب في ارشاده: انه وقع ليلة فتح حصون بني النضير قتالاً محدوداً قتل فيه عشرة من اليهود وكان ذلك هو السبب في فتح تلك الحصون. (3)

1- امتاع الاسماع: ١ / ١٨٢ و ١٨٣.

2- الحشر: ٢.

3- الارشاد: ص ٤٧ و ٤٨.

(215)

وقال المقريري: وَقَفَّ عَلَى رَضِي اللَّهِ عَنْهُ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : إِنَّهُ فِي بَعْضِ شَأْنِكُمْ، فَعِن قَلِيلٍ جَاءَ بِرَأْسِ «عَزُوكَ» وَقَدْ كَمِنَ لَهُ حَتَّى خَرَجَ فِي نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ يَطْلُبُ غَرَّةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ شَجَاعاً رَامِياً فَشَدَّ عَلَيْهِ عَلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَتَلَهُ وَفَرَّ الْيَهُودُ. (1)

1- امتاع الاسماع: ١ / ١٨٠.

(216)

تحريم الخمر ذات الرقاع، بدر الصغرى

1-تحريم الخمر:

كانت الخمر، وعلى العموم جميع المسكرات ولا تزال من أشد الأوبئة الاجتماعية التي تهدد أمن وسلامة المجتمعات البشرية وتجربها أكبر الأخطار ويكفي في خطورة هذا السم القاتل أنه يعادي أكبر ما يميّز البشر عن ما سواه من الأحياء، ذلكم هو العقل، فإن الخمرة هي العدوّ الأول لهذه الموهبة الالهية التي في سلامتها ضمان لسعادة الإنسان.

إن الفارق بين الإنسان وبين سائر الأحياء هو القوة العاقلة التي يمتلكها الإنسان دون غيره، وتكون المسكرات من أعدى أعداء هذه القوة، من هنا كان المنع من تعاطي الخمر والمسكرات من أبرز البرامج التي جاء بها الأنبياء، وكانت الخمر محرمة في جميع الشرائع السماوية. (1)

1- عام ١٣٣٩ هجري زار الدكتور أرشه تونك رئيس منظمة مكافحة الخمر إيران، وقد سرّ لما سمع أن الإسلام يحرم تعاطي المسكرات.

وقد كان يحبّ أن يلتقي بزعيم المذهب الشيعي يومئذ: (آية الله السيد البروجردي) ليتعرف على رأي الإسلام في الخمر والمسكرات، فأصطحبه أحد الدكاترة المعروفين في طهران إلى منزل السيد البروجردي في مدينة «قم»، وبعد الاستئذان تشرف بقاء السيد، وقد حضر العلامة الطباطبائي في ذلك المجلس وكنت أنا والذي حاضرين هناك كذلك.

فكان أول سؤال طرحه الدكتور هو: لماذا حرم الإسلام المسكرات؟

فقال الامام البروجردي: يكفي أن أشير لك من بين العلل الكثيرة إلى علة واحدة وهي أن الخمرة تحطّم العقل الذي به يمتاز الإنسان عن سائر الأحياء، ويتميز عليهم. كما أوضحناه اعلاه.

(217)

ولقد كانت معاقرة الخمر من الآفات التي كانت متفشية ومتجذرة في المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية بحيث كانت معالجتها تحتاج إلى وقت طويل، واسلوب مدروس، ولم تكن الظروف والاحوال في ذلك العهد لتسمح بأن يعلن رسول الإسلام عن تحريم الخمر دفعةً واحدةً ومن دون اية مقدمات، وممهّدات لذلك، بل كان يتحتم عليه أن يعالج هذا الوباء الاجتماعي من خلال إعداد الناس لمرحلة التحريم النهائي والقطعي تماماً كما يفعل الطبيب بالنسبة إلى المرضى الذين طال بهم المرض، وتجذر.

من هنا حرّمت الخمر في أربع مراحل تدريجية ضمن آيات أربع أظهرت الاستياء من الخمر لكن لا على نمط واحد، بل بدأت من مرحلة مخففة حتّى انتهت إلى مرحلة الاعلان عن التحريم القطعي.

إنّ التمعن في هذه الآيات يكشف لنا عن كيفية الأسلوب النبويّ في التبليغ والإرشاد، والدعوة والهداية، وينبغي للخطباء، والكتاب أن يتبنوا هذا الأسلوب المؤثر والمفيد في معالجة الأدواء الاجتماعية المزمنة، ويكافحوا بهذا الشكل حتّى يحصلوا على أفضل النتائج.

إن الشرط الاساسي لمكافحة ناجحة لأيّ خلق وسلوك فاسد هو إيقاظ المجتمع وإيقافه أولاً على أضرار ذلك السلوك، ومفاسده، وتذكيره بآثاره السيئة ليحصل لدى المجتمع - بذلك - الاستعداد الروحي بل والدافع الباطني إلى خوض معركة أساسية وجذرية ضدّ ذلك السلوك الفاسد، والخلق الذميم، ويكون الناس هم الضمانة لانجاح هذه المهمة. وذلك لأن ردّ المعتاد عن عادته كالمعجز كما في الحديث الشريف. (1)

كيف والعرب كانوا يعيشون الخمر حتّى أن الرجل منهم ربما كان يوصي بأن يدفن إلى جنب كرمة لتسقى عظامه بالخمر.
يقول أحدهم:

- [مفاتيح الغيب: ٢ / ٢٦٣.

(218)

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة ترّوي عظامي بعد موتي عروفتها(1)

من هنا اعتبر القرآن الكريم اتخاذ الخمر من التمور والاعناب - في مجتمع كان تعاطي الخمر جزءاً أساسياً من حياته - مخالفاً للرزق الحسن، وبذلك ايقظ العقول الغافية، إذ قال:

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَباً. (2)

إنّ القرآن أعلن - في المرحلة الأولى من مراحل النهي عن تعاطي الخمر - أن اتخاذ المسكر من التمر والعنب لا يعد من الارتزاق الحسن بل الارتزاق الحسن هو تناول التمر والعنب على حالتها الطبيعية.

إن هذه الآية: أعطت هزة ذكبيّة للعقول وهيأت الطبائع المنحرفة لمرحلة أقوى في مسيرة تحريم الخمر حتّى يتسنى لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يشدد من نبرته، ويعلن عن طريق آية أخرى أنّ النفع المادي القليل، الذي تعود به الخمر ويأتي به القمار، ليس بشيء بالقياس إلى اضرارها الكبرى وأخطارها العظيمة، وقد تمّ الكشف عن هذه الحقيقة في قوله تعالى:

(يسألونك عن الخمر والميسر قلّ فيهما اثمّ كبيرٌ ومنافع للنّاس وإنّهما أكبرُ من نفعهما. (3)

ولا ريب أن مجرد المقارنة بين النفع والضرر، وكذا الوقوف على زيادة الضرر على النفع كاف لا يجاد النفور والاشمئزاز لدى العقلاء، والواعين، من الخمر وما شاكلها، وشابها.

إلا أن جماهير الناس وعامتهم لن يقلعوا عن هذه العادة الشريرة المتجذرة ما لم يسمعوا نهياً صريحاً وقاطعاً عنها.

فها هو عبدالرحمان بن عوف رغم نزول هذه الآية قد استضاف جماعة من الصحابة وأحضر على المائدة خمرأ، فأكلوا، وشربوا الخمر، ثم قاموا إلى الصلاة، فأخطأ أحدهم في القراءة وهو سكران خطأ غير من مراد الله تعالى في ما قرأ من

1- أي ما يسكر.

2- النحل: ٦٧.

3- البقرة: ٢١٩.

(219)

الآية، فقد تلا سورة «الكافرون»، وبدل أن يقول: «لا أعبدُ ما تعبدون» قرأ: «أعبدُ ما تعبدون». فاضطربت تلك الجماعة لهذا الأمر، وخشيت أن تكون ارتكبت بذلك أمراً عظيماً!!

وقد هتأ هذا الحادث الناس ليحرم تعاطي الخمر في ظروف وحالات خاصة على الأقل.

من هنا جاء الاعلان عن حرمة تعاطي الخمر قبل الصلاة، وأعلن القرآن الكريم بصراحة أنه لا يجوز لمسلم أن يصلي في حالة السكر، وقد أعلن عن هذا التشريع الإلهي في قول الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ. (1))

ولقد بلغ من تأثير هذه الآية، وفعاليتها أن هجر جماعة من المسلمين تعاطي الخمر بالمرّة بحجة أن ما يضرّ بالصلاة يجب ان يُطرَد من حياة المسلم نهائياً.

ولكن البعض بقي يتعاطاها حتى أن رجلا من الأنصار دعا جماعة إلى مائدة أحضر فيها الخمر - رغم نزول الآية الحاضرة - فلما شربوا وأسكروا حمل بعضهم على بعض، وجرح بعضهم بعضاً فشكوا أمرهم إلى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، وكان الخليفة الثاني لم يزل يشرب الخمر إلى ذلك معتقداً عدم كفاية الآية الحاضرة في التحريم القطعي لها ولهذا رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم بيّن لنا بيانياً شافياً في الخمر.

ولا يخفى أن هذه الحوادث والوقائع المؤسفة قد هيأت الارضية بشكل رائع لتقبل مسألة تحريم الخمر تحريماً كاملاً وقاطعاً، من هنا نزل قوله تعالى يعلن عن هذه الحرمة القطعية:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).⁽²⁾

[النساء: ٤٣ .

2-المائدة: ٩٠ .

(220)

وقد دفع هذا البيان البالغ القاطع أن يقلع عن الخمر نهائياً من كان يشربها حتى تلك الساعة بحجة عدم وجود نهي صريح وقاطع عنها.

وقد جاء في كتب السنة والشيعة أن الخليفة الثاني قال بعد سماع هذه الآية: **إِنْتَهَيْنَا يَا رَبَّ!!**⁽¹⁾

وقفة عند «البيان الشافي»: »

قلنا إن الخليفة الثاني لم يقتنع بعد سماع الآيات الثلاث بحرمة الخمر، بل بقي ينتظر بياناً شافياً يكشف عن التحريم القطعي، حتى اقتنعه الآية الرابعة بحرمة الخمر والمسكرات، وقد كان حكم الله تعالى في هذه الآية هو: **أَنَّ الْخَمْرَ «رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»** ولكن المتعربين، وهواة المادية الغربية في عصرنا لم تقنعهم كل هذه الآيات بحرمة الخمر، حتى الآية الرابعة الصريحة في هذا الأمر، فيقولون لا بد أن يُعلن عن هذا التحريم بلفظة:

حرام أو حرمت، والآ لم يمكن القطع بحرمة الخمر!!

إن هذه الزمرة التابعة لأهوائها، الأسيرة لشهواتها الحرام، لا تريد في الحقيقة إلا أن تظل عاكفة على الخمر أبداً، ومن هنا تطرح مثل هذه المعاذير وتتوسل بمثل هذه التحجج الجوفاء.

على أن القرآن الكريم قد استعمل لفظ الحرام بشكل ما في شأن الخمر إذ قال:

(وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا).⁽²⁾

وقد حرّم تعالى جميع أنواع الإثم في آية أخرى إذ قال:

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ وَإِثْمًا).⁽³⁾

وبعبارة أخرى: لقد بين الله تعالى في آية أخرى الموضوع، وهو أن الخمر (التي تسمى إثماً أيضاً) قد حرمت.

1- مستدرك الوسائل: ٤ / ١٤٣، روح المعاني: ١٥ / ٧.

2- البقرة: ٢١٩.

3- الاعراف: ٣٣.

(221)

فهل ينتظر هوة الغرب بعد هذا البيان الواضح والتحريم الصريح بياناً كافياً شافياً؟!!

وفي الحقيقة نحن لا نحتاج إلى مثل هذا الاستدلال أبداً فالآيات الأربع المتقدمة التي وصفت الخمر بأنها «رجس» وأنها نظير «الميسر»، وأنها «عمل شيطاني»، مناقض للفلاح، وسبب «للعداوة» و «البغضاء»، قد أعلنت عن حرمتها بصورة واضحة لا إبهام فيها، ولا غموض، وهي بالتالي أقوى بيان لمن تدبر وأنصف، وتجرد عن الاهواء والأغراض المريضة.

وهنا لا بد أن نذكر بنقطة هامة وهي أن النبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - استطاع أن يطهر في هدى هذه الآيات الأربع، بينته ومجتمعاً من أدران هذه العادة الشريرة، ويقوم المؤمنون أنفسهم بتنفيذ هذا الحكم من دون قهر أو إجبار، بينما لم يستطع العالم الغربي رغم كل ما يملك من الإمكانيات المادية العريضة، وأجهزة الدعاية الواسعة أن يخطو خطوة ناجحة في هذا الطريق، فقد اخفقت كل خطته، أمم هذا السم القاتل، والفشل الذي أصاب الولايات المتحدة في مكافحة المشروبات الروحية في أعوام ١٩٣٣ -

١٩٣٥ أمر معروف للجميع، وله قصة عجيبة يمكن أن يقف عليها القارئ الكريم في مصادرها. (1)

رواية مختلقة:

ومن عجيب الأمر أن يروي بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى: «ولا تقربوا الصلوة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون» رواية جاء فيها أن امام المتقين علي بن أبي طالب - عليه السلام - كان ضمن جماعة شربوا الخمر ثم قاموا إلى الصلاة فقرأ إمامهم غلطاً: «اعبد ما تعبدون» فانزل الله تعالى هذه الآية: «لا تقربوا الصلوة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون.»

تقول إن من العجيب أن تنسب إلى الامام علي - عليه السلام - مثل هذه

1- [راجع ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ص ٨٠ وغيره.

(222)

النسبة وهو الطاهر المطهر بحكم آية التطهر (1) وهو الذي نشأ وترعرع في احضان سيد المرسلين - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - الذي كان يتجنب الخمر، حتى قبل نزول النهي الصريح عنها، هذا وعلي - عليه السلام - المعروف بحكمته وفهمه وعلمه عارف بما للمسكر من تبعات خطيرة.

نعم من العجيب أن نصدق بأن علياً - عليه السّلام - شرب الخمر، وهناك في الجاهلية (وقبل الإسلام) من حرّم الخمر على نفسه لكونها تذهب بالعقل، وتؤول بالمرء إلى ما لا يُحمد.

ففي السيرة الحلبية كان عبدالله بن جدعان من جملة من حرّم الخمر على نفسه في الجاهلية أي بعد ما كان مغرماً بها وسبب ذلك أنه سكر ليلة فصار يمدّ يده على ضوء القمر ليمسكه فضحك منه جلساؤه ثم أخبروه بذلك حين صحا فحلف أن لا يشربها أبداً. وكان عثمان بن مظعون ممّن حرّم الخمر على نفسه في الجاهلية أيضاً وقال: لا أشرب شيئاً يذهب عقلي، ويضحك بي من هو أدنى مني، ويحملني على أن أنكح كريمتي من لا أريد. (2)

وورد عن الامام محمد الباقر - عليه السّلام - قال: أوحى الله تعالى إلى رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - اني أشكر لجعفر بن أبي طالب - عليه السّلام - أربع خصال.

فدعاه النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - فأخبره فقال: لولا أن الله تبارك وتعالى أخبرك ما أخبرتك:

ما شربتُ خمرأ قط لاني لو شربتها زال عقلي.

وما كذبتُ قط لان الكذب ينقص المروة.

وما زنيت قط لأنني خفت إذا عملتُ عملي بي.

-1| الاحزاب: ٣٣، راجع تفاسير الفريقين ومجاميعهم الحديثية.
-2| السيرة الحلبية: ١ / ١٣٠.

وما عبتت صنماً قط لأنني علمت أنه لا يضر ولا ينفع.

فضرب النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - على عاتقه وقال: «حق لله تعالى أن يجعل لك جناحين تطير بهما مع الملائكة في الجنة» (1).

نعم هذا هو موقف من هو أقل مرتبة ومنزلة من الإمام علي - عليه السّلام - من الخمر، ولو في العهد الجاهلي، وقبل تحريمها في الإسلام.

لكن يد الوضع والدس أبت إلا أن تخلق رواية في المقام، فقد جاءت في جامع البيان للطبري روايتان نذكرهما سنداً وامتناً ليوقف القارئ على ما تعانين من مأخذ:

1- حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا عبدالرحمان قال حدثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبي عبدالرحمان عن علي أنه كان هو وعبدالرحمان ورجل آخر شربوا الخمر فصلى بهم عبدالرحمان فقرأ: يا أيها الكافرون فخلط فيها فنزلت: لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى.

2- حدثني المثنى قال حدثنا الحجاج بن المنهال قال حدثنا حماد عن عطاء بن السائب عن عبدالله بن حبيب أن عبدالرحمان بن عوف صنع طعاماً وشراباً فدعا نقرأ من أصحاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فأكلوا وشربوا حتى ثملوا فقدموا علياً يصلي بهم المغرب فقرأ: قل يا أيها الكفارون اعبدوا ما تعبدون وأنتم عابدون ما أعبد وأنا عابد ما عبدتم. لكم دينكم ولي دين. فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية: «لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون» (2)»

والروايتان - مضافاً إلى ما يرد عليهما من الأشكال - تعانين من مواضع متعددة أبرزها الأشكال في سندهما، فكلتا الروايتين تنتهي إلى عطاء بن السائب، وهو مطعون في وثاقته وديانته، وفي حفظه وحديثه، واليك ما قال عنه أئمة علم الرجال:

-1- الدرجات الرفيعة: ص ٧٠، نقلاً عن الامالي لابن بابويه.
-2- جامع البيان في تفسير القرآن للطبري: ٦١ / ٥.

قال عنه الذهبي: عطاء بن السائب أحد علماء التابعين، تغير باخره وساء حفظه.

قال عنه أحمد: من سمع منه قديماً فهو صحيح، ومن سمع منه حديثاً لم يكن بشيء.

وقال عنه يحيى بن معين: لا يحتج به.

وقال أحمد بن حنبل: عن يحيى: حديثه ضعيف.

وقال عنه أبو حاتم: محله الصدق قبل أن يخاطب.

وقال النسائي: ثقة في حديثه القديم لكنه تغير.

وقال ابن عليّة: قدم علينا عطاء بن السائب البصرة، فكنا نسأله، فكان يتوهم، فنقول له: من؟ فيقول: اشياخنا ميسرة، وزاذان، وفلان

وقال الحميدي، حدثنا سفيان، قال: كنتُ سمعتُ من عطاء بن السائب قديماً، ثم قدم علينا قديماً فسمعتُه يحدثُ ببعض ما كنتُ سمعتُ، فخلطُ فيه، فاتقته واعتزلته.

واضاف الذهبي: «ومن منا كبير عطاء. (1)»...

أجل هذا هو عطاء في منظار علماء الرجال، انه سيء الحفظ، ضعيف مخلط له مناكير، يتوهم، تغيّر باخره، وقد ظهرت آثار الوهم وسوء الحفظ والتخليط هذا في روايته هاتين. فهو تارة يقول أن علياً - عليه السّلام - كان مأموماً في هذه القصة (كما في الرواية الأولى) وتارة يقول كان - عليه السّلام - إماماً للجماعة.

وهذه الرواية من مناكيره، وأوهامه بلا ريب، إذ كيف يصحّ أن يُنسب إلى رجل لازم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الطيّب الطاهر منذ نعومة أظفاره، شرب الخمر، والانتماء برجل دونه في الفضل، أو إمامته للجماعة وتخليطه في قراءة سورة عظيمة من سور القرآن الكريم؟!

ولنستمع معاً إلى ما يقوله إمام المتقين علي بن أبي طالب - عليه السّلام - عن

- [ميزان الاعتدال: ٣ / ٧٠ - ٧٣.

(225)

فترة صباه في كنف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فانه أفضل ردّ على هذه الرواية ونظائرها: قال - عليه السّلام - :
«قد علمتُ موضعي من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، ووضعتني في حجره وأنا ولدٌ يضمنني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويؤمّني جسده ويؤمّني عرقه، وكان يمضغ الشيء فيلقمني به وما جدّ لي كذباً في قول، ولا خطله في فعل، ولقد قرن الله به - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من لدن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليّله ونهاره، ولقد كنتُ اتبعه إتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً. ويأمرني بالاعتداء به. (1)»

هذا وأغلب الظن ان الذين اختلفوا هذه الرواية لما وجدوا أمثال هذه القبائح في حياة بعض الصحابة أرادوا ان يساوا بين الامام علي - عليه السّلام - وغيره، فاختلفوا هذه الفرية الوقحة.

ومما يثير الاستغراب أن يقع بعض الكتّاب والمفكرين المعاصرين في نفس ما وقع القدامى من الخطأ في هذا المجال، ويذكر هاتين الروايتين في تفسيره للقرآن الكريم، مع كل هذه المؤاخذات عليهما حتى في صورة النقل، كما فعل سيد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن»⁽²⁾، إذ ليس كل ما هو مذكور في كتب الاقدمين يصح نقله، ويجوز تكراره. وبخاصة من دون تعليق وتكذيب.

غزوة ذات الرقاع:

قيل إنما سُميت هذه الغزوة، وهذا الجهاد المقدس بالرقاع، لأنَّ المسلمين مَرّوا بأرض بقع سود، وبقع بيض كأنها مرقعة برقاع مختلفة.

وربما قيل لأن الحجارة أو هنت أقدام المجاهدين فكانوا يلقون على أرجلهم

- [نهج البلاغة: الخطبة رقم ١٩٢ .
2- عند تفسير قوله تعالى: «ولاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى.»

الخرق، والرقاع فسُميت هذه الغزوة بذات الرقاع.⁽¹⁾

وعلى كل حال فإن هذه الغزوة لم تكن ابتدائية تماماً مثل بقية الغزوات، بل كانت لإطفاء شرارة كانت على شرف الإشتعال، والانفجار، وبالضبط جاءت لتقضي على تحركات واستعدادات عدائية كان يقوم بها بنو محارب وبنو ثعلبة وكلاهما من قبائل غطفان.

وقد كان من دأب النبي وسياسته أن يُبَيِّتَ أشخاصاً أذكياً إلى المناطق المختلفة ليأتوا له بالأخبار عن كل ما يستجد على ساحة الجزيرة العربية، وفي أوساط القبائل.

فأتاه الخبر ذات مرة أن القبيلتين المذكورتين تنويان جمع الاسلحة والرجال لاجتياح المدينة وغزوها، فسار اليهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على رأس مجموعة من رجاله وأصحابه حتى نزل نخلا بنجد قريبة من مكان العدو.⁽²⁾

فدفعت سوابق المسلمين الجهادية، وما سطره في المعارك والمواقف من قصص المقاومة والصمود واليسالة والاستقامة، وما حققه من انتصارات ساحقة حيرت سگان الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها.

لقد دفع كل هذا العدو إلى الانسحاب، واللجوء إلى رؤوس الجبال، وقد خافوا لإيبرح رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حتى يستأصلهم.

وقد صلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالمسلمين في هذه الغزوة صلاة الخوف، التي بيّن الله تعالى كيفيتها في سورة النساء الآية ١٠٢ .

وأغلب الظن أن العدو كان في هذه الغزوة قوياً في تجهيزاته وقواه، وإن الاوضاع العسكرية قد وصلت إلى مرحلة خطيرة مما سبّب الخوف، ولكن الانتصار كان في المآل من نصيب المسلمين.

1- السيرة النبوية، الهوامش: ٢ / ٢٠٤ .
2- امتاع الاسماع: ١ / ١٨٨ .

(227)

مواقف خالدة في هذه الغزوة:

يروى المؤرخون والمفسرون المسلمون كابن هشام⁽¹⁾ وأمين الإسلام الطبرسي⁽²⁾ قصصاً عجيبة، وحوادث مثيرة للاعجاب وقعت في هذه الغزوة تكشف عن عمق مروءة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مع أعدائه، وقد نقلنا نظير هذا في غزوة ذي أمر، من هنا نحجم عن ذكر ذلك في هذه الدراسة رعاية للاختصار، ولكن نلفت نظر القارئ الكريم إلى القصة التالية التي تكشف عن صمود المسلمين وإخلاصهم لدينهم.

الخُرَّاس الصامدون:

مع أن جيش الإسلام قد عاد إلى المدينة من هذه الغزوة من دون قتال ولكنه أصاب مع ذلك بعض الغنائم، واستراح في شعب في أثناء الطريق، وبات ليلته هناك ثم كلف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رجلين بحراسة الجيش ليلاً يدعيان: «عباد» و«عمار»، فقسم الرجلان الليل بينهما، فنام أحدهما وسهر الآخر يحرس الجيش، وكان الذي سهر أول الليل هو «عباد» .

ثم إن رجلاً من العدو خرج في أثر المسلمين، وكان يقصد أن يريق دماً أو يصيب شيئاً ويعود إلى محله.

وقام «عباد» يصلي، وأقبل ذلك الرجل يطلب غزّة فلما رأى «عباد» سواده من قريب قال ذلك الرجل في نفسه: يعلم الله أن هذا لطبيعة القوم، وحرسهم ففوق له سهماً ورماه به فأصاب عبداً ولكن عبداً نزع السهم ووضع، وثبت قائماً يصلي فرماه العدو بسهم آخر، فإصابه فانتزعه وثبت قائماً فرماه بثالث فنزعه، فلما غلب عليه الدم ركع وسجد، ثم قال لصاحبه: اجلس فقد أصيبتُ، فجلس عمار، فلما رأى الاعرابي أن عماراً قد قام علم أنهما قد علما

1- السيرة النبوية: ٢ / ٢٠٥ - ٢٠٩ .
2- مجمع البيان: ٣ / ١٠٣ .

به، فقال عمار: أي أخي ما منعك أن توقظني به في أول سهم رمى به؟!⁽¹⁾

قال: كنتُ في سورة أقرأها وهي سورة الكهف، فكرهتُ أن أقطعها حتى أفرغ منها، ولولا أنني خشيتُ أن اضيغُ ثغراً أمرني به رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما انصرفت ولو أتى على نفسي. (1)

وهكذا صمد هذا المسلم واستمر في صلاته غير مبال بما أصابته من السهام.

بدرٌ الثانية:

لما أراد أبو سفيان أن ينصرف يوم «أخذ» نادى: موعدنا وموعدكم بدرُ الصفراء العام القابل نلتقي فيه فنفتل.

ولهذا أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المسلمين بأن يتهيأوا للدفاع عن أنفسهم وقد مر على وقعة «أحد» عامٌ واحدٌ.

وكان أبو سفيان الذي كان برأس قريش آنذاك يواجه في ذلك الوقت مشاكل داخلية مختلفة فكره الخروج إلى رسول الله في الموعد الذي ضربه لمقاتلة المسلمين، واتفق أن قدم مكة في تلك الأيام «نعيم بن مسعود» الذي كانت بينه وبين أبي سفيان علاقات صداقة خاصة، فجاء أبو سفيان وقال له: إني وعدتُ محمداً وأصحابه يوم «أخذ» أن نلتقي نحن وهو ببدر الصفراء على رأس الحول، وقد جاء ذلك، ولا يصلح أن نخرج إليه العام.

فقال نعيم: ما أقدمني إلا ما رأيتُ محمداً وأصحابه يصنعون من إعداد السلاح والكراع، وقد تجلبب إليه حلفاء الأوس، فتركنتُ المدينة أمس وهي كالرمانة.

فزاد ذلك من مخاوف أبي سفيان، وضاعف من كراهته للخروج إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - . وتقرر بالتالي أن يعود نعيم إلى المدينة ويحذر المسلمين من الخروج للموعد، ويخذلهم.

وعاد «نعيم» إلى المدينة، وراح يرعب أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

[1] السيرة النبوية: ٢ / ٢٠٨، المغازي: ١ / ٣٩٧.

ويخوفهم من الخروج إلى أبي سفيان إلا أن كلامه لم يترك أي أثر في نفس رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فخرج - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في ألف وخمسمائة مقاتل من أصحابه، وقد خرجوا ببضائع لهم، وتجارا حتى انتهوا إلى «بدر» وقام السوق

السني هناك فباعوا واشتروا في موسم بدر وربحوا كثيرا ثم تفرّق الناس، ولكن النبي وأصحابه بقوا هناك ثمانية أيام ينتظرون أبا سفيان وجيشه.

وقد كان هذا الاجراء اجراء عسكريا حكيماً ورائعاً إذ أظهر قوة النبي وعزيمته وقوة أصحابه وعزيمتهم، ولهذا كان له أثرٌ قوي في نفوس الاعداء.

فلما بلغت أنباء خروج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه إلى بدر، لم ير حكام مكة المشركون بدأ من الخروج إلى بدر حفاظاً على ماء الوجه، فخرج أبو سفيان والمشركون بتجهيزات كافية إلى مرّ الظهران، ولكنهم عادوا من منتصف الطريق إلى مكة بحجة الغلاء والقحط، فاعترض صفوان بن أمية على أبي سفيان وقال: قد والله نهيئتك يومئذ أن تعد القوم، وقد اجترأوا علينا، ورأوا انا قد أخلفناهم، وانما خلفنا الضعف عنهم. (1)

ولادة السبب الأصغر لرسول الله:

وفي الثالث من شهر شعبان من هذه السنة (الرابعة من الهجرة) وُلِدَ السبب الثاني لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الامام الحسين بن علي (2)، كما توفيت «فاطمة بن أسد» والدة الإمام علي - عليه السلام - . (3)

وفي هذا العام بالذات أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - زيد بن حارثة أن يتعلم السريانية من اليهود. (4)

- [المغازي: ١ / ٣٨٤ - ٣٩٠، وقد وقعت هذه الحادثة في الشهر الخامس والاربعين بعد الهجرة. وتسمى هذه الغزوة «بدر الموعد. »
2- تاريخ الخميس: ١ / ٤٦٧ .
3- تاريخ الخميس: ١ / ٤٦٧ .
4- إمتاع الاسماع: ١ / ١٨٧، تاريخ الخميس: ١ / ٤٦٤ .

(230)

حوادث السنة الخامسة من الهجرة (1)

٣٦

من أجل تحطيم التقاليد الخاطئة

تعتبر معركة «الاحزاب»، وقصة بني قريظة، وزواج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بزَيْنَب بنت جحش من أروع الحوادث التاريخية التي وقعت في السنة الخامسة من الهجرة.

وأول هذه الحوادث - كما عليه المؤرخون المسلمون - هو زواج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالمرأة المذكورة.

وقد ذكر القرآن الكريم تفاصيل هذه القضية ضمن الآيات (٤، ٦، ٣٦ إلى ٤٠) من سورة «الاحزاب»، ولا يبقى - حينئذ - مجال لأكاذيب المستشرقين ودسائسهم ومختلفاتهم الواهية.

ونحن هنا ندرُسُ هذه القضية على ضوء أصح المصادر والينابيع التاريخية الإسلامية التي لم تطلها أيدي العبث والتحريف، والمسح، والتشويه، ألا وهو القرآن الكريم، ثم بعد ذلك نتحدث حول ما قاله المستشرقون ومن لف لفهم ،

[1] يرى مؤلف كتاب تاريخ الخميس أن هذه الحادثة وقعت في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة ولكن هذا الرأي يبدو غير صحيح من وجهة نظر المحاسبة الاجتماعية، لأن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، كان منشغلاً بغزوة «الاحزاب»، و «بني قريظة» من ٢٤ شهر شوال من السنة الخامسة إلى ١٩ من شهر ذي الحجة من نفس السنة فيكون تحقق مثل هذا الزواج في مثل هذه الظروف أمراً مستبعداً جداً، وإذا كان الزواج من زينب يُعدّ من حوادث السنة الخامسة لزم ان يكون قد تحقق قبل الحادثتين المذكورتين، ولهذا عمدنا إلى ذكر هذه الحادثة قبل تينيك الواقعتين.

(231)

ونحا منحاهم في التعامل مع تاريخ السيرة النبوية.

من هو زيد بن حارثة؟

كان زيد شاباً سرقه فُطّاع الطرق من الأعراب وهو صغير من قافلة، وباعوه عبداً في سوق عكاظ، وقد اشتراه حكيم بن حزام لعَمته خديجة بنت خويلد، وقد أهدته خديجة لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد زواجها منه.

ولقد دفعت سيرة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الحسنة، وأخلاقه الفاضلة وسجاياه النبيلة زيدا هذا في أن يحب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حياً شديداً، حتّى أنه عندما جاء أبوه إلى مكة يبحث عنه، وعلم بوجوده عند النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مشى إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وطالب منه أن يعنقه، ويعيده إليه ليعيده بدوره إلى أمه ويلحقه بأقربائه، فابى زيد إلا البقاء عند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وفضّل ذلك على المضي مع أبيه، والعودة إلى وطنه، وعشيرته، وقد خيّر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المكث عنده أو الرحيل مع أبيه إلى وطنه.

على أن ذلك الانجذاب والحب كان متبادلاً بين زيد ورسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فكما أن زيدا كان يحب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويحب أخلاقه وخصاله، كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يحب زيدا كذلك لنباهته وأدبه حتّى أنه أعتقه وتبناه، فكان الناس يدعونه زيد بن محمد بدل زيد بن حارثة، ولكي يتأكد ذلك وقف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ذات يوم وقال لقريش: «يا من حَضَرَ إَشْهَدُوا أن زيدا هذا ابني.»⁽¹⁾

وقد بقي هذا الحب المتبادل بين زيد، وبين رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى أن استشهد هذا المسلم الصادق والمؤمن المجاهد في معركة مؤتة، فحزن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لمصرعه كما حزن لولد من أولاده.

[1] اسد الغابة: ٢ / ٢٣٥ وكذا الاستيعاب والإصابة مادة: زيد.

زيد يتزوج بابنة عمه النبي:

لقد كان من أهداف رسول الإسلام العظيم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - هو أن يخفف من الفواصل بين طبقات المجتمع وفئاته، ويقارب بينها قدر الامكان، ليعيش البشر جميعاً تحت لواء الإنسانية والتقوى إخوةً متحابين لا يتبعد بعضهم عن بعض مقاييس الثروة والنسب، بل يكون الملاك في التفاضل هو الأخلاق الفاضلة والسجايا الإنسانية.

من هنا كان يجب التعجيل في ازالة التقاليد العربية البالية التي كانت تقضي بأن لا يتزوج بنات السادة والاشراف بابناء الطبقات الضعيفة والفقيرة.

وأي وسيلة لضرب هذا التقليد القبيح الظالم وتحقيق المساواة الكاملة أفضل من أن يبدأ النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في تحطيم هذا التقليد باقربائه وذويه ليقدم بذلك درساً عملياً للأمة في هذا المجال، فقام بتزويج عتيقه «زيد بن حارثة» من شريفة من بني هاشم وهي ابنة عمته زينب بنت جحش حفيدة عبدالمطلب ليعلم الناس أنه يجب عليهم الاقلاع عن تلك التقاليد الجاهلية الظالمة بسرعة، ويعرفوا أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - هو أول من نفذ في حق ذويه ما كان يردده من قوله: «لافضل لأحد عليأحد إلا بالتقوى» و «إن المؤمن كفؤ المؤمن». »

ولأجل تحطيم ذلك التقليد الجاهلي الخاطي ذهب رسول الله بنفسه إلى منزل زينب، وخطبها لزيد، فلم تبد زينب وأخوها رغبة في هذا الأمر في الوهلة الأولى لأن الأفكار الجاهلية كانت لا تزال مترسبة في قلوبهم، ومن ناحية أخرى كان الرد على النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أمراً صعباً ولهذا تدرعا بعبودية «زيد» السابقة وحاولا بذلك التخلص من مطلب النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - .

فلم يلبثا أن نزل قوله تعالى يشجب رد زينب وأخيها لطلب النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)

مِنْ أَمْرِهِمْ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا. (١)

فتلاها رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عليهم فوراً فدفعا إيمان زينب وأخيها الصادق برسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وأهدافه المقدسة إلى أن تبادر زينب إلى الاعلان عن رضاها ورضا أخيها بهذا الزواج، فتزوجت ابنة شريف قوم «زينب»

بعتيق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - زيد وبذلك طَبَّق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واحداً من أعظم مناهج الإسلام الحية، وأدابه الإنسانية الرفيعة، وحطّم عملياً واحدة من أقيح السنن الجاهلية، وأكثرها تخلفاً واجحافاً.

زيد يطلق زوجته:

إلا أن هذا الزواج لم يدم طويلاً، فقد آل إلى الطلاق، والافتراق ويعزي البعض ذلك إلى نفسية «زينب» وسلوكها الحاد حيث كانت ربما تذكر لزيد دنو حسبه، وعلو حسبها، وبذلك كانت تمرّ في ذائقته طعم الحياة وتسبب انزعاجه.

ولكن يحتمل أن السبب وراء هذا الطلاق كان هو زيد نفسه، فإن تاريخ حياته يشهد بأنه كان يعاني من روح العزلة، وعدم الالفة، فقد اتخذ أزواجاً متعددة وطلقهنّ (إلا الأخيرة منهن حيث استشهد عنها وهي في حباته) فتكون هذه الطلاقات المتعددة دليلاً على عدم القدرة على الانسجام مع زوجاته، لحالة نفسية كان يعاني منها.

ويشهد بذلك أيضاً خطاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الحاد، فإن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لمّا عرف بأن زيدا يبغى طلاق زوجته زينب غضب وقال:

(امسك عليك زوجك واتق الله).⁽²⁾

ولو كان الذنب كلّ ذنب زوجته زينب لما كان يُعدُّ تطليقها عملاً مخالفاً للتقوى.

1- الاحزاب: ٣٦.

2- الاحزاب: ٣٧.

ومهما يكن فقد طلق زيد زينباً وافترقا، ثم تزوج بها النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد ذلك.

زواج النبي بمطلقة متبناه لابطال سنة جاهلية أخرى:

ولكن قبل أن ندرس العلة الأساسية لهذا الزواج لابد أن نلقي نظرة فاحصة إلى مسألة النسب الذي يعدّ مقوماً مهماً من مقومات المجتمع الصحيح.

وبعبارة أخرى وأكثر تحديداً لابد أن ندرس الفرق الجوهرية بين الوالد الحقيقي، وبين المتبنى.

وتوضيحاً لهذا الأمر نقول:

كان يوجد في المجتمع العربي الجاهلي أبناء لا يعرف لهم آباء أولهم آباء معروفون، وكان الرجل يعجبه أحد هؤلاء فيتبناه ويدعوه ابنه، ويلحقه بنسبه وتصير له حقوق البنوة وملحقاتها.

ولما كان هذا شذوذاً عن الأساس الطبيعي للأسرة أبطله الإسلام وذلك لأن الولد الحقيقي ينتمي إلى أبيه بجذور تكوينية، فالوالد هو - في الحقيقة - المنشأ المادي لوجود ابنه، ويرث الولد من والده والدته الكثير من صفاتهما الجسمية والروحية، وبذلك يكون امتداداً طبيعياً لوالديه.

وعلى أساس هذه الوحدة الطبيعية، ووحدة الدم يتوارث الآباء والأبناء، وتترتب أحكام خاصة في مجال الزواج والطلاق، والتحليل والتحرير.

وبناءً على هذا فإن مثل هذا الموضوع الذي ينشأ من جذور تكوينية واقعية، لا يوجد أبداً باللفظ واللسان.

ولهذا قال الله سبحانه في الكتاب العزيز في معرض الرد على من يتصور المتبنى ولداً حقيقياً لمجرد ادعاء البنوة:

(وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ

(235)

مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً. (1)

فلا يكون الابن المتبنى والولد الحقيقي على صعيد الموضوع سيان أبداً، فكيف على صعيد الأحكام كالتوارث، والزواج والطلاق وما شابه ذلك؟

فاذا ورث الولد الحقيقي من أبيه أو بالعكس أو حرمت زوجة الولد الحقيقي على أبيه بعد طلاقها من زوجها لا يمكن أن نقول أن الابن المتبنى يشبهه ويشترك معه في هذه الأحكام أبداً.

ومن المسلم به أن مثل هذا التشريك في الحقوق والشؤون مضافاً إلى كونه لا يستند إلى أساس معقول وصحيح هو نوع من العبث بعامل النسب، وهو العنصر المهم في المجتمع السليم الصحيح.

وعلى هذا الأساس إذا كان التبنّي بدافع العاطفة أمراً مستحسنًا ومقبولاً، إلا أنه إذا كان بهدف إشراكه في سلسلة من الأحكام الاجتماعية التي هي من شؤون الولد الحقيقي وحقوقه يعد أمراً بعيداً وغريباً جداً عن المحاسبات العلمية، والأسس الموضوعية.

ولقد كان المجتمع العربي - كما اسلفنا - يعدّ الابن بالتبني كالولد الحقيقي دون فرق، وقد كُلف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من جانب الله تعالى بأن يقضي على هذا التقليد الجاهلي والسنة الخاطئة باجراء عملي صارخ وذلك بالتزوج بزینب مطلقاً متبناه «زيد»، ويمحي من حياة المجتمع العربي هذا التقليد القبيح بالعمل الذي يفوق القول، ووضع القانون، في التأثير، والفاعلية. ولم يكن لهذه الزيجة غير هذا السبب.

لقد كان هذا التقليد أمراً مقدساً في المجتمع العربي بشكل كبير جداً بحيث لم يكن أحدٌ ليجرأ على نقضه ومخالفته والتزوج بمطلقة دعيّه (2) لقبه في نظر العرب لذلك دعا الله سبحانه نبيّه إلى القيام بهذا العمل الخطير، إذ قال:

1- الأحزاب: ٤ و ٥، راجع تفسير الميزان: ١٦ / ٢٩٠ و ٢٩١.
2- الدعوى هو الابن المتبنى وجمعه أدياء.

(236)

(وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَمَا لَمْ يَكُنْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَانِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (1))

إن هذا الزواج مضافاً إلى كونه استهدف منه تحطيم سنة جاهلية مقبلة (سنة عدم الزواج بمطلقة المتبنى) وإعادة العلاقات العائلية إلى وضعها الصحيح يعتبر من أقوى مظاهر المساواة في الإسلام، لأن النبي الأكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تزوج بمطلقة عتيقه وقد كان مثل هذا العمل مخالفاً لشؤون المجتمع يومذاك.

ولقد أثار هذا الاقدام الشجاع موجةً من الاعتراض والنقد من جانب المنافيين، وأصحاب العقول الضيقة، فقد طرحت هذه المسألة في الاوساط والنوادي وأخذوا يشنعون بها على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويقولون: لقد تزوج محمّد بمطلقة دعيّه.

فأنزل الله تعالى في الرد على تلك الافكار والاقوال الباطلة قوله:

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (2))

على أن القرآن لم يكتف بهذا البيان بل امتدح نبيّه الذي نقد حكم الله بشجاعة كاملة بقوله:

(مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مُقَدَّرًا * الَّذِينَ يُبْغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (3))

وخلص المفاد لهاتين الآيتين هي أنّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كغيره من الأنبياء يُبَلِّغ رسالات الله ولا يخالف لوم اللائمين، وكيد المنافقين، وإرجاف المرجفين.

- 1- الأحزاب: ٣٧.
2- الأحزاب: ٤٠.
3- الأحزاب: ٣٨ و ٣٩.

(237)

هذه هي فلسفة تزوج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بزینب بنت جحش مطلقة دعيه ومتبناه وعتيقه زيد بن حارثة في ضوء القرآن الكريم.

المستشرقون وقضية تزوج النبي بزینب:

إن زواج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بزینب مطلقة زيد بن حارثة - كما لاحظت - قضية بسيطة خالية عن أي إبهام أو غموض.

ولكن جماعة من المستشرقين تذرّعوا بها لإغراء البسطاء ومن شاكلهم غير الملمين بالتاريخ الاسلامي وأرادوا بذلك إضعاف إيمان الذين لا يعرفون السيرة النبوية حق المعرفة، فأننا يجب أن ندرس ما قالوه في هذا المجال، ونكشف للقارئ الكريم عن مواطن الدس والتحريف فيه.

ولا يخفى أن الاستعمار البغيض لم يكتف للسيطرة على بلادنا باستخدام القوة العسكرية، والسلاح الاقتصادي بل ربما دخلها متستراً بقناع العلم والتحقيق، فقد سعى - ولم يزل - لفرض أسوأ هيمنة فكرية شاملة وتبعية ثقافية مقبته على شعوبنا وفق تخطيط دقيق ومدروس وهذا هو ما يسمّى بالاستعمار الفكري، والثقافي.

وفي الحقيقة فإن المستشرق هو طليعة ذلك الاستعمار، بل و جيشه المتقنع بقناع العلم والمعرفة الذي ينفذ إلى أعماق المجتمع، ويتسلل إلى أوساط المفكرين والمتقنين وينفث سموه القاتلة، ويحذر العقول، ويمهد النفوس للاستعمار السافر، والمكشوف.

ويمكن أن لا يرتضي كثير من الكتاب وعشاق القلم والثقافة في الغرب منطقنا هذا فيعمدوا إلى رمينا بالتحجر، والعصبية والتخلف ويتصوروا باننا نقول مانقوله بدافع العصبية القومية أو الدينية، ولكن كتابات المستشرقين وإخفاءهم المتعمد والكثير للحقائق، وتحريفهم ودسهم المكشوف في تاريخ الإسلام حيناً والخفى حيناً آخر يشهد بوضوح أنّ دافعهم في كثير ممّا كتبوا ليس حب العلم وتحري المعرفة، فإن أكثر ما كتبوه ممزوج بطائفة من أفكارهم المعادية للإسلام، ولرسول

اللَّهِ والمسلمين⁽¹⁾.

ويشهد على هذه النزعة - بجلاء ووضوح - موقفهم من زواج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بزَيْنَب بنت جحش وما نسجوه من قضايا خيالية حول هذه القضية، التي وقعت بهدف إبطال سنة باطلة، فأعطوها صبغة قصص الحب وأساطير الغرام على طريقة القصّاصين والروائيين وديبنهم، وعمدوا إلى حكاية تاريخية مختلقة وضخّموها ونفخوا فيها ونسبوها إلى أظهر إنسان عرفه العالم البشري.

وعلى كل حال فإن أساس هذه الأسطورة عباراتٌ نقلها ابن الأثير⁽²⁾ ومن قبله الطبري⁽³⁾ وبعضُ المفسرين، وهي أنه: خرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يريد زيدا وعلى الباب سترٌ من شعر فرعته الريح فرآها وهي حاسرة فأعجبته!!!

ولكن المستشرقين بدل أن يتحققوا من سند هذه الأقوال، لم يكتفوا بنص ما ذكره أولئك المؤرخون والمفسرون، بل الصقوا به الكثير الكثير حتى تحوّلت تلك الجُمْل العابرة إلى قصة تشبّه أقاصيص ألف ليلة وليلة.

إن من المؤكّد أنّ الذين يعرفون سيرة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الطاهرة يدركون أنّ هذا التاريخ إنّما هو في أصله وفرعه من نسج الخيال، وصنع الأوهام، وانها تخالف ما في صفحات التاريخ النبويّ الوضّاءة النقيّة مخالفةً كاملةً، إلى درجة أن علماء معروفين كالفخر الرازي والألوسي كذبوا هذه القصة بشكلها الذي ذكرها ابن الأثير والطبري بصراحة كاملة وقالوا: إن هذه الرواية رواية باطلة زوّرها واختلقها أعداء الإسلام وراجت في كتب المؤلفين المسلمين.⁽⁴⁾

فكيف يمكن القول بأنّ هذه القصة وبهذه الكيفية كانت مما يعتد بصحته

[1] للتأكد الأكثر من هذا الأمر (راجع كتاب المستشرقون).
2- الكامل في التاريخ: ٢ / ١٢١، جامع البيان في تفسير القرآن: ٢٢ / ١٠.
3- الكامل في التاريخ: ٢ / ١٢١، جامع البيان في تفسير القرآن: ٢٢ / ١٠.
4- مفاتيح الغيب: ٢٥ / ٢١٢، روح المعاني: ٢٢ / ٢٣ و ٢٤.

ابن الأثير، والطبري في حين أن هناك العشرات ممن نقلوا خلفها وبرّأوا ساحة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من هذه المساوئ

وعلى أية حال فإننا نشير في الصفحات التالية إلى دلائل اختلاق هذا القسم من التاريخ، ونعتقد أن القضية في واقعها وحقيقتها واضحة جداً، واغنى من ان ندافع عنها.

واليك أدلتنا:

أولاً - ان التاريخ المذكور يخالف المصدر الاسلامي الاصيل وهو (القرآن الكريم) لأنّ القرآن بشهادة الآية (٣٧) من سورة الأحزاب تصرّح بأنّ زواج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من زينب كان لأجل إبطال سنة جاهلية باطلة وهي السنّة القاضية بأنه لا يحق لأحد أن يتزوج مطلقة دعيّه، خاصة وأنّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فعل ذلك بأمر الله سبحانه وليس بدافع من الرغبة الشخصية، والحب الشخصي، ولم يكذب ذلك أحدٌ في صدر الإسلام.

فاذا كان ما قاله القرآن الكريم مخالفاً للحقيقة لسارع اليهود والنصارى والمنافقون إلى نقده وتفنيده، ولأحدثوا ضجة بسبب ذلك، في حين أنّ مثل هذا لم يُؤثّر من أعداء الإسلام الذين كانوا يتحينون الفرص للإيقاع برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وتلوّث سمعته.

ثانياً - أن «زينب بنت جحش» هي تلك المرأة التي اقترحت على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الزواج بها قبل أن يتزوج بها «زيد» ولكن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أصرّ على ان تتزوج غلامه المعتق زيدا رغم رغبتها في الزواج من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فلو كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يحبّ الزواج بها - وهو يعرفها طبعاً - لما وجد مانعاً من ذلك عندما طلبت منه الزواج بها، فلماذا لم يتزوج بها؟ ولما رفض طلبها؟.

أجل، انه لم يتزوج بها ولم يجب مطلبها بل الخ عليها أن تتزوج بشخص آخر رغم أنه أحسنّ برغبة شديدة لدى زينب في الزواج منه لا من غيره.

(240)

وبعد تكذيب هذا القسم المحرّف من التاريخ الاسلامي لا يبقى مجالاً لتعليقات وأوهام جنود الاستعمار وطلانعه المغرضين.

إننا نبرئ ساحة رسول الإسلام العظيم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من أمثال هذه الترهات والنسب الرخيصة ونرى أن ساحتها المقدسة أجلّ من أن ننقل كلمات هذا الفريق من الكتاب المغرضين الحاقدين في حقّ نبيّ بقي مكتفياً بزوجة تكبره بثمانية عشر عاماً، إلى أن بلغ سن الخمسين.

من هنا نعرض عن ذكر أقوالهم.

ولا بأس بأن نذكر هنا ما كتبه جماعة من المحققين المصريين الذين أشرفوا على طباعة «التاريخ الكامل» لابن الأثير تعليقاً على ما أدرجه في هذا المجال:

هذه رواية باطله زوّرها الملاحدة، واختلقها أذهان أعداء الدين الإسلامي ليطعنوا في نبي الإسلام عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وهل يُعقل: انه لا يعرف ابنة عمته التي كان ولي زوجها إلى مولاه زيد؟ وانما دسائس الزنادقة، ومبشّري المسيحية قد تغلّغت في نفوس العلماء من حيث لا يعلمون، فافتكروا في رواية الخبر، فاتخذوه أساساً، وأعرضوا عن كتاب الله وعن قول الله تعالى من أن الله أعلمه بأنها صارت زوجه قبل أن استشاره زيد في طلاقها.

والعجيب أن ابن الأثير مع جلالة قدره ينقل هذه الرواية المزيفة التي هي طعن صريح في رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وقد قلد في روايته هذه ابن جرير قبله، وكلاهما وقع في هوة الضلالة من حيث لا يشعر، ولو عُرضت كل رواية على كتاب الله تعالى لما أقدم أحدٌ على مثل هذا الافك العظيم!!

إن زينب هي وهبت نفسها لرسول الله فزوجها من مولاه، ثم تزوجها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «كي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً»، فاذن كان الزواج لأجل التشريع، وكان عملياً، لشدة نفرة أهل الجاهلية من هذا الزواج من النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، لانهم يعدّون المتبني ولدأ صريحاً أو في مرتبته.

(241)

قال الفخر الرازي: وفيه إشارة إلى أن التزويج من النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يكن لقضاء شهوة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بل لبيان الشريعة بفعله، انتهى.

ونحن نعيب عليه أيضاً إذ جعله إشارة ولم يجعله صريحاً وبما أن روح التقليد الأعمى قد اشتدّ بين المسلمين منذ زمن بعيد فالحكاية التي أوردها المؤلف نقلها كثير من المفسرين غير مفكرين بما فيها من طعن في الدين لإفادتها أن الشريعة الإسلامية عبارة عن إتباع أهواء أو تنفيذ شهوات تنزهت عن ذلك كله، ويرحم الله السيّد الألويسي حيث قال في تفسيره: وحاصل العتاب: لم قلت «أمسك عليك زوجك»، وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك وهو مطابق للتلاوة، لأن الله أعلم أنه مبدئ ما أخفاه عليه الصلاة والسلام ولم يظهر غير تزويجها منه فقال: «زوّجناكها» فلو كان الضمير محبتها واردة طلاقها، ونحو ذلك لأظهره جلّ وعلا، وللفصّاص في هذه القصّة كلام لا ينبغي أن يُجعل في حيز القبول، انتهى.

ثم أورد الروايات المزيفة التي تشبه ما أورده المؤلف (أي ابن الأثير) محذراً الناس منها ومن أمثالها التي لا تروج إلا على الحمقى والمغفلين انتهى. راجع هامش الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٢١. طبعة القاهرة ادارة الطباعة المنيرية عام ١٣٤٩ هـ.

توضيح عبارتين:

هذا واستكمالا للبحث، واتماماً للفائدة ندرج نص الآية التي نزلت في هذا المجال، والتي تسببت جملتان منها في إثارة الشكوك لدى بعض الجاهلين بحقائق السيرة النبوية الزكية، ونعطي بعض التوضيحات اللازمة حولهما: واليك نص الآية أولاً:

(وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ).

(242)

وفيما يلي الجملتان اللتان تحتاجان إلى التوضيح:

(وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ.)

فماذا كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يُخْفِي في نفسه وقد أظهره الله وأبداه بعد كل تلك النصيحة التي نصح بها - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - زيدا؟

ربما يتصور أحد أن الأمر الذي كان يخفيه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هو رغبة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في تطليق زيد زوجته زينب أي أنه وان كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ينهى زيدا في الظاهر عن تطليق زينب، إلا أنه كان في سره يرضى بذلك بل يرغب فيه ليتسنى له بعد ذلك أن يتزوجها هو.

ولا شك أن هذا الاحتمال غير صحيح مطلقاً لأن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إذا كان يبطن مثل هذا الأمر، فلماذا لم يبد الله سبحانه نية هذه بآيات أخرى، في حين أنه سبحانه وعد في هذه الجملة بأن يظهر ما كان يخفيه رسول الله في نفسه إذ قال تعالى: (وَاللَّهُ مُبْدِيهِ)؟!)

ولهذا قال المفسرون: إن المقصود مما كان يخفيه هو الوحي الإلهي الذي أنزله الله عليه، وتوضيح ذلك هو: أن الله تعالى أوحى إليه بأن زيدا سيطلق زوجته رغم نصيحة النبي، وأنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سيتزوج بها من بعده لإبطال سنة جاهلية مقبنة (وهي حرمة الزواج بمطلقة الدعوى).

ومن هنا كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حين نصيحته لزيد ونهيه عن تطليق زينب زوجته مُلتفتاً ومنتبهاً إلى هذا الوحي الإلهي أيضاً، ولكنه أخفى هذا الوحي عن زيد وغيره، ولكن الله تعالى أخبر النبي في نفس تلك الجملة بأنه تعالى سيبيد للناس ما يخفيه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في قلبه، وأن الأمر لن يبقى خافياً على أحد بإخفائه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - له.

ويشهد بهذا المعنى أنّ القرآن الكريم اظهر الامر في ذيل نفس هذه الآية إذ قال:

(فلما قضى زيدٌ منها وطراً رَوَّجْنَا كَهَا لِكِي لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ)

(243)

في أزواج أَدْعِيَانَهُمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا. (1)

فمن هذا التعقيب يستفاد أن ما كان يخفيه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هو الوحي الالهي، بأنه عليه أن يتزوج بزوجة دعيه بعد طلاقها لإبطال سنة جاهلية خاطئة.

واما الجملة الثانية التي هي بحاجة إلى التوضيح فهي قوله تعالى: «وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ». غير أن هذا القسم من الآية هي الجملة الثانية الأقل إيهاماً وغموضاً من الجملة السابقه بدرجات، لأن تجاهل سنة عريقة متجذرة في بيئة منحرفة (وهي الزواج بمطرفة الدعى) يقترن - بطبيعة الحال وحتماً - بحرج نفسي يزول ويرتفع لدى الأنبياء بتوجههم إلى الأمر الالهي...

وإذا كان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يعاني من حرج نفسي شديد من هذه القضية فانما هو لأجل أنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يتصور أن جماعة العرب الذين لم يكن عهدهم بالإسلام طويلاً، لم يمر على انقطاعهم عن عاداتهم وتقاليدهم الجاهلية سوى زمن قصير سيقولون: إن النبي ارتكب عملاً سيئاً، والحال أن الامر ليس كما يعتقدون.

قال العلامة الطباطبائي في هذا الصدد: قوله: «لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أَدْعِيَانَهُمْ لَمَّا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْرًا» تعليل للتزويج وبيان مصلحة للحكم. وقوله: «وكان أمر الله مفعولاً» مشيرٌ إلى تحقق الوقوع وتأكيد للحكم.

ومن ذلك يظهر أن الذي كان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يخفيه في نفسه هو ما فرض الله له أن يتزوجها لا هواها، وحيه الشديد لها وهي بعد مزوجة كما ذكره جمع من المفسرين، واعتدروا بأنها حالة جبلية لا يكاد يسلم منها البشر فإن فيه أولاً: منع أن يكون بحيث يقوى عليه التربية الإلهية. وثانياً: أنه لا معنى حينئذٍ للعتاب على كتمانته وإخفائه في نفسه فلا مجوز في الإسلام لذكر حلائل الناس

-[الاحزاب: ٣٧].

(244)

والتشبب بهن. (1)

ولما كانت المسألة مسألة وضع قانون جديد لهذا مضى القرآن الكريم يؤكدها ويزيل عنصر الغرابة عنها فقال تعالى:

(مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا * الَّذِينَ يُبَيِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا * مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا * وَيَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا * وَلَا تَطَّعَ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعَا أَنَّهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا.)⁽²⁾

ففي هذه الآيات إشارة إلى:

1- أن ما قام به النبي من التزوج بزَيْنَب كان بأمر الله، وكان على سبيل سنّ قانون وتشريع سنة ولكن بصورة عملية، وإن ذلك القانون علم الله ضرورته وقدره وزمانه ومكانه.

2- أن زيدا ليس ابن محمد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إنما هو متبناه ودعيه بل هو ابن والده حارثة واقعاً وحقيقة وليس ذلك إلا تقريراً وتأكيداً للحقيقة التي سبقت الإشارة إليها في قوله تعالى: «وما جعل أديعكم أبناءكم.»

3- أن ما قام به رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من التزوج بمطرفة متبناه هو جزء من تشريعه الذي بشره به بأمر الله وإذنه تعالى لتفسير عليه البشرية، وفق آخر رسالة السماء إلى الأرض، لا أنه أمر واقع بدافع شخصي.

1- تفسير الميزان: ١٦ / ٣٤٣.

2- الاحزاب: ٣٨ - ٤٨.

4- إن الله هو الذي يعلم ما يصلح لهذه البشرية وما يصلحها وهو الذي فرض على النبي ما فرض ليحلّ للناس ازواج أديعائهم إذا ما قضوا منهن وطراً وانتهت حاجتهم منهن واطلقوا سراهن. قضى الله هذا وفق علمه بكل شيء، ومعرفته بالاصلاح والافق من النظم والشرائع.

5- إن ما سنّه الله للمسلمين وما اختاره تعالى للامة الإسلامية في مجال العلاقات العائلية يريد بها الخير والخروج من الظلمات إلى النور، فعليهم ان يذكروه ويشكروه أبداً ودائماً، فانه سيكون لهم لو أطاعوه وسبّحوه وذكروه شأن في المأل الأعلى فهو يصلي عليهم وملائكته، ويذكرهم هناك، بالخير، وانما يفعل كل هذا من منطلق الرحمة والعناية بهم.

6- أن وظيفة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المسلمين هي (الشهادة) عليهم، فليحسنوا العمل، وهي (التبشير) لهم بما ينتظر العاملين من رحمة وغفران، و (الإنذار) للغافلين المسيئين بما ينتظرهم من عذاب ونكال، و (الدعوة إلى الله) لا إلى دنيا أو مجد أو عزة قومية أو عصبية جاهلية، وذلك باذن الله فما هو بمتدع، ولا بقائل من عنده شيئاً.

7- ان على النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يبشّر المؤمنين المطيعين لاوامر الله بأن لهم فضلاً كبيراً، ولا يطيع الكافرين، والمنافقين، وألاً يحفل بأذاهم له وللمؤمنين، وان يتوكل على الله وحده وهو بنصره كفيلاً، وهو يوحي بأن المنافقين أرجفوا بالنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في هذه القضية، ارجافاً عظيماً.

وكل هذه الامور توحى بأن تغيير تلك السنة الجاهلية (عدم الزواج بمطلقة المتبى) كانت عملية صعبة فاحتاجت إلى كل هذا التعقيب، وبالتالي تثبيت الله للنفوس فيه، كي تتلقى ذلك الأمر بالرضى والقبول والتسليم، وهذا هو الحال عند سنّ القوانين المهمة والخطيرة

(246)

٣٧

غزوة الاحزاب (١)

لقد قاد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في السنة الخامسة مجموعة من الغزوات، كما وبعث سلسلة من السرايا لاقبال المؤامرات التي كانت في طور الانعقاد أو التكوين أو التي كانت محتملة من جانب العدو.

واليك فيما يأتي بعض غزوات السنة الخامسة:

1- غزوة دومة الجندل (2)

بلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن بدومة الجندل جمعاً كثيراً وأنهم يظلمون من مربيهم من المسافرين والتجار، وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة، فخرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في ألف من المسلمين، فكان يسير الليل ويكمن النهار أخذاً بعنصر الاستتار والسرية على عادته.

ولما دنا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من دومة الجندل وعرفت به تلك الجماعة تفرقوا من فورهم فلم يجد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بها أحداً، فأقام بها أياماً وبتت السرايا والدوريات وفرّقها حتى غابوا عنه يوماً ثم رجعوا إليه ولم يصادفوا من

- [ذكر ابن هشام في سيرته أن هذه الغزوة وقعت في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة، وحيث أن غزوة الأحزاب انتهت في الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة، وطالت محاصرة المدينة شهراً واحداً لذلك يجب أن نقول إن هذه المعركة بدأت منذ الرابع

والعشرين من شهر شوال تقريباً.
2-المغازي: ١ / ٤٠٢، السيرة النبوية: ٣ / ٢١٣ ودومة الجندل منطقة بين دمشق والمدينة (الطبقات الكبرى: ٢ / ٤٤).

(247)

تلك الجماعة أهدأ.

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عاد إلى المدينة في العشرين من شهر ربيع الثاني، من دون ان يقاتل. (1)

* * *

-2- غزوة الخندق (الأحزاب):

أجلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يهود بني النضير في السنة الرابعة من الهجرة كما قلنا بسبب نقضهم للميثاق، وسيطر على قسم من أموالهم وممتلكاتهم، واضطرت بنو النضير إلى أن تذهب إلى «خيبر» وتسكن هناك، أو تسير إلى الشام.

وقد كان إجراء النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذا متطابقاً مع ما جاء في الميثاق المعقود بينه وبين يهود يثرب.

وقد دفع هذا الإجراء بسادة بني النضير وزعمائهم إلى التآمر ضدّ الإسلام، فقدموا مكة، وحرضوا قريشاً على حرب رسول الله -

صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واليك مفصل هذه الغزوة:

عباً المشركون العرب، واليهود قواهم في هذه المعركة ضدّ الإسلام.

فقد شكلوا اتحاداً نظامياً قوياً وحاصروا المدينة مدة شهر واحد، وبما أن أحزاباً مختلفة اشتركت في هذه المعركة سميت هذه المعركة بمعركة الأحزاب، وربما سميت بمعركة «الخندق» لأن المسلمين احتفروا حول المدينة خندقاً عظيماً، دفاعاً عنها، ومنعاً للكفار عن اجتياحها.

ولقد كان زعماء بني النضير وبني وائل - كما أسلفنا - هم المحركون الأصليون لهذه الحرب، والمشعلون الرئيسيون لفتيلها.

[1-امتناع الاسماع: ١ / ١٩٣ و ١٩٤.

(248)

فإنّ الضربة القوية التي تلقاها يهود بني النضير من المسلمين، والتي اضطروا على أثرها إلى مغادرة المدينة، فسكن بعضهم خبير، دفعهم إلى ان يخططوا بصورة جهنمية ودقيقة لاستئصال شأفة الإسلام والقضاء عليه. وانها لخطّة عجيبة حقاً، فقد جعلوا المسلمين يواجهون طوائف متعددة وأحزاب مختلفة لم يعرف لها تاريخ العرب مثيلاً!!

كما أن في هذه الخطة كان اليهود هم أنفسهم الممولون الاساسيون لطوائف العرب العديدة، فقد أمّوهم بأموال كبيرة، وهبوا كل ما يحتاجون إليه من حاجات ومعدات!!

وكانت الخطة كالتالي: قدم جماعة من سادة بني النضير مثل «سلام بن أبي الحقيق» و «حبي بن أخطب» في نفر من بني النضير على قريش مكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستاصله، فلقد جئنا لخالقكم على عداوة محمّد وقاتله.

وقال حبي بن أخطب: إن محمّداً قد وتركم وترنا وأجلنا من المدينة من ديارنا وأموالنا، وأجلى بني عمنا بني قينقاع فسيروا في الأرض، واجمعوا حلفاءكم وغيرهم حتى نسير اليهم، فقد بقي من قومي بيثرب سبعمائة مقاتل وهم بنو قريظة، وبينهم وبين محمّد عهد وميثاق وأنا أحملهم على نقض العهد بينهم وبين محمّد ويكونون معنا عليهم، فتأتونه انتم من فوق وهم من أسفل.

فأثرت كلمات اليهود ومقاله «حبي بن أخطب» في نفوس المشركين الحانقين على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، واصحابه، واستحسنوا خطتهم، وابدوا استعدادهم للخروج إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقاتله. ولكنهم قبل أن يوافقوا اليهود على ذلك الرأي سألوهم قائلين: يا معشر اليهود انكم أهل الكتاب الأوّل، والعلم، أخبرونا عما اصبحنا نحن فيه ومحمّد، افديننا خبير ام دين محمّد؟

ويجب أن نرى الآن بما أجابت هذه الطائفة (التي كانت ولا تزال تعد نفسها حامل لواء التوحيد، الوحيد في العالم) أولئك المشركين الجهلة الذين

(249)

وصفوا اليهود بالعلم والمعرفة، وطلبوا منهم حل مشكلتهم؟! «أجل لقد قال اليهود بوقاحة كبيرة: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق، إنكم لتعظّمون هذا البيت، وتقومون على السقاية، وتتحرون البُدن، وتعبدون ما كان عليه آبائكم، فانتم أولى بالحق منه. (1)!!!»

ولقد أضافت اليهود بهذه الاجابة الوقحة وصمة عار أخرى إلى سجلهم الاسود، وزادوا تاريخهم المشؤوم سواداً، وسوءاً.

ولقد كانت هذه الغلطة فضيحة، وقيحة إلى درجة أنّ الكتاب اليهود تأسفوا لوقوعها، في ما بعد.

فهذا هو الدكتور اسرائيل يكتب في كتابه: (تاريخ اليهود في بلاد العرب) حول هذا الموقف المشين جداً قائلاً: «كان من واجب هؤلاء ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، والايصرّحو امام زعماء قريش بأن عبادة الاصنام أفضل من التوحيد الاسلامي ولو أدى بهم الأمر إلى عدم اجابة مطالبهم كان من واجبههم أن يضّحو بحياتهم وكل عزيز لديهم في سبيل ان يخلدوا المشركين، هذا فضلاً عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الاصنام انما كانوا يحاربون أنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة.»⁽²⁾

وفي الحقيقة أن هذا المنطق هو الذي يتوسّل به الساسة الماديون اليوم لإنجاح مقاصدهم، وتحقيق مآربهم. فهم يعتقدون - بكل جدّ - أن عليهم - لتحقيق أهدافهم - التوسل بكل وسيلة ممكنة مشروعة كانت أو غير مشروعة، وهذا هو مقولة «الغاية تبرر الوسيلة» التي طرحها ميكافيلي، وبالتالي فان «الاخلاق» في منظور هذه الجماعة هو ما يخدم مصالحهم ويحقق أغراضهم ليس إلا.

إن القرآن الكريم يتحدث عن هذه الواقعة المرة فيقول:

(ألم تر إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجِبْتِ والطَّاغُوتِ وَ)

1-بحار الأنوار: ٢٠ / ٢١٧.
2-حياة محمّد: ص ٣٢٩.

(250)

يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَوْلَاءٌ هُدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَ مَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا. ⁽¹⁾

ولقد ترك كلام أدعاء العلم والدين هؤلاء، أثراً عجبياً في نفوس المشركين وعبدة الاوثان، فأظهروا موافقتهم على خطة اليهود الجهنمية وهو تأليف جيش من قبائل متعددة لمقاتلة المسلمين وحدّدوا معهم موعداً للتوجه إلى المدينة، لتحقيق ذلك الغرض المشؤوم

فخرج مثيرو الفتنة ومشعلو الحرب (اليهود) من مكة بقلوب مملوءة سروراً، وغبطة، وساروا إلى نجد، ليتصلوا بقبيلة غطفان - وكانت من اعدى اعداء الإسلام - فاستجلبوا موافقة قبائل غطفان: بني فزار، وبني مرّة، وبني اشجع، شريطة أن يعطونهم تمر خبير، لمدة سنة، بعد الانتصار على المسلمين، ولكن تحركات قريش في مجال ضمّ القبائل إلى ذلك الجيش لم تنته إلى هذا الحد فقد راسلت قريش خلفاءها من بني سليم وراسلت غطفان حلفاءها من بني اسد، ودعوهم إلى المشاركة في هذه الحرب، فاستجابت لهم تلك القبائل، وتحركت جميع هذه الفئات والاحزاب في جيش كبير هائل قدمت عناصره من مختلف نقاط الجزيرة، نحو المدينة في

يوم معين وهي تبغي اجتياح مركز الإسلام واستئصال شأفته. ⁽²⁾!!

استخبارات المسلمين ترفع تقريراً للقيادة:

منذ أن سكن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المدينة كان يبعث بجواسيسه وعيونه النشطين الاذكياء إلى مختلف مناطق الجزيرة، لتقصّي الأخبار ومراقبة الأوضاع، وإخبار النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بكلّ ما يحصلون عليه في هذا المجال أولاً بأول.

فقدّم أحدهم على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخبره بخروج تلك القوة

1- النساء: ٥١ و ٥٢.
2- المغازي: ٢ / ٤٤٣.

(251)

الكبيرة ومسيرها إلى المدينة، وبهدفها، وتاريخ خروجها، ووصولها إلى مشارف يثرب.

فدعا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أصحابه فوراً وأخبرهم خبر عدوّهم، وشاورهم في الأمر، ليستفيدوا من تجارب «أُحد»، فاقترح جماعة منهم أسلوب التحصن، والقيام بالدفاع من داخل القلاع والحصون، ولكن هذا العمل لم يكن كافياً لأن جيش العدوّ كان كثيفاً وكبيراً جداً وكان من المحتمل بقوّة أن تقوم عناصره الكثيرة، الكبيرة في عددها بهدم الحصون والقلاع، والقضاء على المسلمين، فلا بدّ إذن من اتخاذ وسيلة تمنع العدوّ من الاقتراب إلى المدينة أصلاً.

فقال سلمان الفارسي الذي كان عارفاً بفنون القتال عند الفرس معرفة كاملة: يا رسول الله إنّنا إذا كُنّا بأرض فارس، وتحوّفتنا الخيل، خَنَدُفُنَا حولنا، فهل لك يا رسول الله أنْ تخندق؟⁽¹⁾

وفي رواية أخرى أنه قال: يا رسول الله نحفر خندقاً يكون بيننا وبينهم حجاباً، فلا يمكنهم أن يأتونا من كل وجه، فانا كُنّا معاشر العجم في بلاد فارس إذا دهمنا دهم من عدونا نحفر الخنادق فيكون الحرب من مواضع معروفة⁽²⁾، (أي محدودة.)

فأعجب رأي سلمان المسلمين جميعاً، وكان لهذا التكتيك أثرٌ جوهري وبارز جداً في حفظ الإسلام وصيانة المسلمين.

ومن الجدير بالذكر أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خرج بنفسه يدرس المنطقة ميدانياً ولكي يحدّد المنطقة التي يمكن ان ينفذ من خلالها العدو فقرر ان يحفروا الخندق من ناحية «أحد» إلى «راتج» وكان سائر المدينة مشبك بالبنيان والنخيل لا يتمكّن العدو منها، وعلم الموضع الذي يجب ان يحفر بخط خطّه على

1- المغازي: ٢ / ٤٤٥، تاريخ الطبري: ٢ / ٢٣٤.
2- بحار الأنوار: ٢٠ / ٢١٨.

الأرض.

ولكي يتم هذا الامر بنظام وسرعة جعل على كلّ عشرين خطوة، وثلاثين خطوة جماعة من المهاجرين والانصار يحفرونه، فحملت المساحي والمعاول، وبدأ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخذ معولا فحفر في موضع المهاجرين بنفسه، وعلي - عليه السّلام - ينقل التراب من الحفرة حتّى عرق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وعيي (1) وهو يقول:

«لا عيشن إلاّ عيش الآخرة، اللهم اغفر للأنصار والمهاجرة.»

وقد كشف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعمله هذا عن جانب من نهج الإسلام واسلوبه، وفي ذلك تنشيط الأمة وتقوية لعزائمهم في مجال القيادة واخلاق القائد، وأفهم المجتمع الاسلامي أنّ على القائد الاسلامي، وعلى إمام الأمة أن يشارك الناس في أهمهم كما يشاركونهم في آمالهم ويسعى أبدأ إلى التخفيف عن كاهلهم بمشاركته العملية في الأعمال، ولهذا لما نظر الناس إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يحفر نشطوا واجتهدوا في الحفر، ونقلوا التراب، ولما كان اليوم الثاني بكرّوا في العمل، وكان ذلك النشاط العظيم عاملا في أن يندفع يهود بني قريظة أيضاً إلى مساعدتهم فأعاروهم المساحي والفؤوس والأوعية الكبيرة لنقل التراب. (2)

وكان المسلمون يومئذ يعانون من نقص وضيق شديدين في المواد الغذائية، ومع ذلك كان أصحاب المكنة والثراء من المسلمين يمدّونهم بالطعام وغيره. (3)

وربما عرضت للمسلمين وهم يحفرون في الخندق صخرة عظيمة عجزوا عن كسرها وإزالتها، فأخبروا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بذلك فأخذ معولا فكسرها وأزالها.

1- وجاء في تاريخ الخميس: ١ / ٤٨٩ انه (ص) كان ينقل التراب حتّى اغبرّ بطنه.
2- السيرة الحلبية: ١ / ٣١١.
3- السيرة الحلبية: ١ / ٣١٢.

أما طول الخندق فكان بالنظر إلى عدد العاملين في حفرها - وقد كان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف حسب المشهور، وكان كل عشرة يحفرون (٤٠) ذراعاً - هو (١٢٠٠٠) ذراعاً أي ما يقارب خمس كيلومترات ونصف الكيلومتر، وأما العرض فكان بحيث لا يقدر الفرسان الماهرون من عبوره بالقفز بأفراسهم، فيكون عرضه بطبيعة الحال ما يقارب خمسة أمتار وعمقه خمسة أمتار أيضاً.

القول النبوية الخالدة في شأن سلمان:

عندما قسّم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المهاجرين والانصار جماعات جماعات، وأوكل إلى كل جماعة حفر موضع من الخندق، تنافس الناس يومئذ في سلمان الفارسي وأراد كلُّ أن يضمّه إلى صفّه، فقال المهاجرون: سلمان منا وقالت الأنصار: سلمان منا ونحن أحقّ به!!

فبلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قولهم فقال قولته الخالدة في شأن سلمان يومذاك:
«سلمانُ منّا أهل البيت. (1)»

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بقى إلى جانب الخندق ستة ليالٍ بأيامها حتّى فرغ المسلمون من عمل الخندق غير أن المنافقين تخاذلوا في هذه القضية وكانوا يتذرعون بأعدار مختلفة ليتملصوا من العمل في الخندق، وربما كانوا يذهبون إلى منازلهم من دون أن يستأذنوا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

أما المؤمنون الصادقون فكانوا يعملون باستمرار، وإذا ما احتاجوا إلى الذهاب إلى منازلهم أحياناً، أو جدّ لهم عذرٌ استأذنوا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأذن لهم ثم عادوا إلى الخندق فور أن يرتفع عذرهم، وقد ذكر القرآن الكريم هذه القضية في سورة النور في الآيات ٦٢ و ٦٣ إذ يقول تعالى:

- [المغازي: ٢ / ٤٤٦، الكامل في التاريخ: ٢ / ١٢٢].

(254)

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذْنُ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُّونَ مِنْكُمْ لَوْ آدَاءً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.)

مقاتلوا العرب واليهود يحاصرون المدينة:

وتتابعت أرتال الجيش العربيّ على منطقة «أحد» وعلى مقربة من الخندق الذي كان قد تمّ انجازه قبل ستة أيام وقد كان الكفار ومن لف لفهم يتوقعون أن يلتقوا جنود الإسلام عند جبل «أحد»، ولكنهم لم يلقوا أحداً منهم هناك فتقدموا نحو المدينة حتّى وصلوا إلى الخندق، فلما نظروا إلى الخندق الذي كان أشبه بحصن منيع يحفظ المدينة من الخطر، فوجئوا به وقالوا: هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها قبل ذلك ان هذا من تدبير الفارسي الذي معه.

العدد الدقيق لقوات الطرفين:

كان جيش العرب لا يتجاوز في عدده عشرة آلاف، وقد استقروا خلف الخندق وسيوفهم تلمع وهي تخطف بلمعانها الابصار!

وكان عدد المشاركين في هذا الجيش من قريش وحدها - على رواية المقرئ في الامتاع - (٤ آلاف) مقاتل، معهم (٣٠٠) فرس و (١٥٠٠) بعير.

وقد التحق بهم بنوسليم - وهم من حلفاء قريش - في (٧٠٠) رجل في مر الظهران وكان من قبيلة بني فزارة (١٠٠٠) مقاتل ومن قبائل أخرى. مثل اشجع وبني مرة كل واحد منهما (٤٠٠) مقاتل، والباقي وهم ما يقارب (٣٥٠٠) مقاتل من بقية القبائل، وعلى هذا الاساس لم يكن المجموع ليتجاوز عشرة

(255)

الآف، وقد استقروا جميعاً في مكان آخر.

وأما عدد المسلمين فكان لا يتجاوز ثلاثة آلاف، وقد نزلوا في سفح جبل سلع وهو موضع مرتفع، مشرف على الخندق وخارجه، إشرافاً كاملاً بحيث يمكن معه مراقبة جميع تحركات العدو ونشاطاته منه.

وقد وكل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جماعة من أصحابه بحفظ الممرات ونقاط العبور على الخندق ومراقبة تحركات العدو، ورصد عناصره. وبذلك كان المسلمون يملكون متراساً قوياً طبيعياً، وغير طبيعي، إذ أن سائر المدينة كان مشبكا بالبنيان، والنخيل كما أسلفنا.

لقد حاصر الكفار «المدينة» ما يقرب من شهر واحد، ومكثوا خلف الخندق متحيرين، ولم يستطع أن يعبر منهم الخندق إلا أفراد معدودون، فمن كان يفكر في العبور رماه المسلمون بالحجارة، فولّى هارباً!!

وللمسلمين في هذه الفترة قصص جميلة ومواقف رائعة مع عناصر الجيش العربي المعتدي ذكرتها صحائف التاريخ الاسلامي في مواضعها. (1)

خطر البرد، وتناقص الغذاء والعلف:

صادفت غزوة الخندق فصل الشتاء وكانت المدينة قد أصيبت في تلك السنة بقلّة الغيث، ولذلك كانت تعاني من نقص في الطعام.

كما أن طعام المشركين لم يكن هو الآخر يكفي لمدة طويلة، ولم يكن أحد منهم يتصور أن عليه أن يمكث خلف الخندق مدة شهر واحد، بل كان المشركون - جميعاً - يرون - بادئ الأمر - أنهم سيقضون بهجوم واحد واسع، على جنود الإسلام ويجتاحون المدينة، ويستأصلون المسلمين!!

ولقد أدرك مثيرو هذه الحرب العدوانية (اليهود) هذه المشكلة بعد أيام،

[السيرة النبوية: ٢ / ٢٢٥ - ٢٢٨].

(256)

فقد عرفوا بأن مضيّ الزمان سيقلّل من مقدرة سادة الجيش العربي وقادته على مقاومة القر، وقلة العلف وتناقص الطعام، ومن هنا فكروا في الاستعانة بيهود بني قريظة داخل المدينة، ليشعروا قتل الحرب من داخل المدينة، وبذلك يمهدوا السبيل لجيش العرب لغزو المدينة، واجتياحها من الخارج!!

حيي بن أخطب يدخل حصن بني قريظة:

كان بنو قريظة الطائفة اليهودية الوحيدة التي بقيت في المدينة تعايش المسلمين في سلام وأمن، وكانوا يحترمون الميثاق الذي عقده مع النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، احتراماً كاملاً.

فرأى «حيي بن أخطب» أن طريق الانتصار يتوقف على الاستعانة بمن في داخل المدينة لصالح المعتدين العرب وذلك بأن يدعو يهود بني قريظة إلى نقض العهد الذي عاهدوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - به. ليشعل بذلك حرباً بين المسلمين ويهود بني قريظة ويشغل المسلمين بفتنة داخلية، وبذلك يمهد لانتصار المشركين الذين يحاصرون المسلمين خلف الخندق.

وانطلاقاً من هذه الفكرة أتى «حيي» إلى حصن بني قريظة ودق عليهم الباب وعزّف نفسه، فأمر رئيس بني قريظة «كعب بن الاسد» بأن لا يفتحوا له الباب ولكنه أصر، وقال: ما يمنعك من فتح الباب إلا جشيتك (أي خبزك) الذي في التنور تخاف أن أشاركك فيها فافتح فأنتك آمنٌ من ذلك. فأثارت تلك الكلمات الجارحة حمية كعب فأمر بأن يفتحوا له باب الحصن، ففتحوا له، فدخل مشير الحرب المشؤوم «حيي» وقال لكعب: يا كعب لقد جنتك بعزّ الدهر، هذه قريش في قادتها وسادتها مع حلفائهم من كنانة، وهذه فزارة مع قادتها وسادتها، وهذه سليم وغيرهم، ولا يفلت محمّد وأصحابه من هذا الجمع أبداً وقد تعاهدوا وتعاهدوا إلا يرجعوا حتّى يستأصلوا محمّداً ومن معه، فانقض العهد بينك وبين محمّد، ولا تردّ رأيي.

(257)

فأجابه كعب قائلاً: لقد جنتني - والله - بذلّ الدهر، وبسحاب يبرق ويرعد وليس فيه شيء، وأنا في بحر لحي لا أقدر على أن أريم داري ومالي معي، والصبيان والنساء، اني لم أزم محمّداً إلا صدقاً ووفاء فارجع عني، فانه لا حاجة لي فيما جنتني به.

ولكن حيي بن أخطب لم يزل يراوض كعباً ويخاتله ويلح عليه كما يفعل صاحب الجمل الجامح الذي يستصعب عليه، حتى اقتعه بنقض عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهياته لذلك، فقال: أنا أخشى أن لا يقتل محمّد وتتصرف قريش إلى بلادها، فماذا فعل حينذاك؟ فوعده حيي أن يدخل معه حصنه ليصيبه ما أصابه ان لم يُقتل محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - .

فقال كعب: دعني أشاور رؤساء اليهود فدعا رؤساء اليهود وشيوخهم، وخبرهم الخبر، وحيي حاضر، وقال لهم كعب: ما ترون؟ فقالوا: أنت سيدنا، والمطاع فينا، وصاحب عهدنا وعقدنا فان نقضت نقضنا معك وإن أقمنا أقمنا معك، وإن خرجت خرجنا معك.

فقال «الزبير بن باطا» وكان شيخاً كبيراً مجرباً قد ذهب بصره: قد قرأت في التوراة التي أنزلها الله في سفرنا يبعث نبياً في آخر الزمان، يكون مخرجه بمكة، ومهاجره في هذه البحيرة... يبلغ سلطانه منقطع الخف والحافر فان كان هذا (أي محمّد) هو فلا يهولته هؤلاء ولا جمعهم، ولوناوى على هذه الجبال الرواسي لغلبيها.

فقال أخطب من فوره: ليس هذا ذاك، ذلك النبي من بني إسرائيل، وهذا من العرب من ولد اسماعيل، ولا يكونوا بنو إسرائيل أتباعاً لولد اسماعيل أبداً، لأن الله فضّلهم على الناس جميعاً وجعل فيهم النبوة والملك، وليس مع محمّد آية، وإنما جمعهم جمعاً وسحراً!! ولم يزل يتّبع بهم، ويقبّلهم عن أبيهم، ويلحّ عليهم حتى أجابوه، ورضوا بأن ينقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

فقال: أخرجوا الكتاب الذي بينكم وبين محمّد، فأخرجوه، فأخذه و مزقه،

(258)

وقال: قد وقع الأمر، فتجهّزوا وتهيّأوا للقتال، وبذلك جعلهم أمام الامر الواقع الذي ظنوا أنه لا مفرّ منه!!⁽¹⁾

النبي يعرف بنقض بني قريظة للعهد:

بلغ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن طريق جواسيسه الانكباء نقض بني قريظة للعهد، في مثل ذلك الطرف الحساس، فغمه غماً شديداً. فأمر من فوره «سعد بن معاذ» و «سعد بن عباد» - وكانا من خيرة رجاله الشجعان ومن قادة جيشه الممتازين، كما أنهما كانا رئيسي الأوس والخزرج - بأن يحصلوا له على معلومات دقيقة عن هذا الحادث، وأسبابه وملابساته، وأنه إذا كان هناك خيانة ونقض للعهد فعلا أن يخبراه وحده فقط ولا يخبرا أحداً به ويقولوا: عضل والقارة لكيلا لا يفتن ذلك أعضاد المسلمين ولا يضعف من معنوياتهم، وأما إذا لم تكن هناك خيانة، فيكذب الأمر بصراحة.

فذهب الرجلان، واقتربا إلى حصن بني قريظة، فأشرف عليهما كعبٌ من داخل الحصن، فشمتم سعداً وشمتم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وبذلك أظهر نقضه للعهد والميثاق فأجابه سعد - بالهام غيبي -: إنا أنت ثعلب في جحر، لتولَّين قريشاً، وليحاصرَنَّك رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولئبئز لنك على الصغار والذلل وليضربنَّ عنقك.

ثم رجعا إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقالا له: عضل والقارة. فكبر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قائلاً برفيع صوته: «الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين بالفتح. (2)»

وهذه العبارات تكشف عن مبلغ شجاعة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

1-المغازي: ٢ / ٤٥٦، بحار الأنوار: ٢٠ / ٢٢٢ و ٢٢٣.
2-المغازي: ٢ / ٤٥٩.

(259)

وعمق سياسته، فقد قالها لكي لا تضعف معنوية المسلمين، ولا يملكهم الخوف إذا سمعوا بنقض بني قريظة للعهد، وهم في تلك الظروف الحرجة الشديدة أحوج ما يكونون إلى المعنويات العالية، والاحساس بروح النصر.

تجاوزات بني قريظة الاولية:

كانت الخطة المبدئية لبني قريظة تقضي بأن يبدأوا عملهم الخياني بالاغارة على المدينة، وإرعاب النساء و الاطفال الموجودين في البيوت و المنازل، وقد نفذت مراحل من هذه الخطة تدريجاً!!

فقد أخذ بعض صناديد بني قريظة يحومون حول بيوت المسلمين التي فيها اطفالهم ونساؤهم بصورة مشبوهة!!

تقول «صفية بنت عبدالمطلب» عمة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :كنت في فارح، حصن حسان بن ثابت وكان حسان بن ثابت معنا فيه، مع النساء والصبيان، فمرّ بنا رجل من يهود. فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة، وقطعت ما بينها وبين رسول - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وليس بيننا وبينهم أحدٌ يدفع عنا، ورسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمون في نحور عدوّهم، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا أت، فقلت لحسان: إن هذا اليهودي كمتري يطيف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدل علينا من وراءه من يهود، وقد شغل عنا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وأصحابه، فانزل إليه فاقته، قال: يغفر الله لك يا أئنة عبدالمطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، فلما قال لي ذلك احتجرت (4) (أي شددت وسطي) ثم أخذت عموداً، ثم نزلت من الحصن إليه فضربتة بالعمود حتى قتلتها، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت: يا حسان انزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه، إلا أنه رجلٌ فقال حسان: مالي بسلبه

حاجة يا ابنة عبدالمطلب. (1)!!

ولما بلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن طريق عيونهم على اليهود أنهم نقضوا ما بينه وبينهم من العهد وانهم طلبوا من قريش ألف رجل ومن غطفان ألف رجل ليغيروا على المدينة عبر حصن اليهود، وكان ذلك في ما كان المسلمون منشغلين بحراسة الخندق، فعظم بهذا الخبر البلاء وصار الخوف على الذراري أشد من الخوف على أهل الخندق، بعث النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مسلمة بن أسلم وزيد بن حارثة في خمسمائة رجل يحرسون المدينة ويظهرون التكبير تحفظاً على الجواري من بني

قريظة. (2)

الإيمان في مواجهة الكفر:

لقد خاض المشركون حروباً عديدة ضد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قبل معركة الأحزاب، ولكن العدو في جميع تلك المعارك والحروب كان من طائفة أو قبيلة واحدة، ولم يكن من عموم الجزيرة العربية، ومن عموم القبائل، أي الإسلام لم يواجه في تلك الحروب والوقائع عدواناً شاملاً من سكان الجزيرة.

وحيث أن أعداء الإسلام رغم الجهود الكبيرة لم ينجحوا في القضاء على الحكومة الإسلامية الفتية، قرروا هذه المرة أن يستأصلوا الإسلام عن طريق إتحاد عسكري عريض، يضم كل قبائل الجزيرة العربية المشتركة، ويرموا المسلمين بأخر سهم في جعبتهم، من هنا عمدوا إلى تعبئة أكبر قدر من المقاتلين، واستصرخوا أكبر قدر من القبائل وتحركوا في جمع لم يعرف له تاريخ العرب والجزيرة من نظير نحو المدينة لتحقيق ذلك الهدف المشؤوم. ولولا تدبير المسلمين للدفاع عن المدينة لحقق العدو الحاقده أهدافه.

ولهذا جلب أعداء الإسلام معهم أكبر صناديد من صناديد العرب، وأشهر

-1 السيرة النبوية: ٢ / ٢٢٨.

-2 السيرة الحلبية: ١ / ٣١٥.

بطل من أبطالهم ورأسوه عليهم، وهو عمرو بن عبدود العامري ليشدوا به أزرهم، ويحققوا بسببه ما كانوا يأملونه من الظفر.

وعلى هذا الأساس كانت معركة الأحزاب مواجهة كاملة بين كل الكفر وكلّ الايمان، وخاصة عندما تبارز بطل الإسلام وبطل الكفر وتواجهها في ساحة القتال.

ولقد كان الخندق الذي احتفروه المسلمون سلفاً من عوامل إخفاق المشركين، وكان العدو يحاول أن يعبر هذا الخندق فتطيف فرسانهم به ليل نهار ولكن دون جدوى، لانهم كانوا يواجهون في كل مرة سهام الحرس الذي وكلهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بحراسة الخندق، ورصد محاولات العدو لاجتيازه وافشالها فوراً، وأيضاً بفضل تدابير النبي القائد نفسه.

كان الشتاء وبرده القارص في تلك السنة وتناقص الطعام، والعلف يهدد جيش المشركين، وأنعامهم، وخيولهم فاستقرض حبي بن أخطب من بني قريظة عشرين بعبيراً محملة شعيراً وتمراً وتبناً تقوية لقريش، ولكن دورية من المسلمين صادفتها في أثناء الطريق فصادرتها وأتوا بها إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فتوسع بها أهل الخندق. (1)

وذاث يوم من أيام الانتظار وراء الخندق كتب أبو سفيان إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كتاباً يقول فيه: إني احلف باللات والعزى لقد سرت اليك في جمعنا وإنا نريد ألا نعود إليك أبداً حتى نستأصلكم فرأيتك قد كرهت لقاءنا، وجعلت مضايق وخنادق، فليت شعري من علمك هذا؟ فان نرجع عنكم فلكم ممّا يومٌ كيوم أحد تُبْقَر فيه النساء. (2)

فكتب إليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: مَنْ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى أَبِي سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ... أَمَا بَعْدَ فَقْدِيماً غَرَكَ بِاللَّهِ الْغُرُورُ، أَمَا مَا ذَكَرْتَ أَنَّكَ سَرْتَ

1- السيرة الحلبية: ٢ / ٣٢٣.
2- المغازي: ٢ / ٤٩٢.

إلينا في جمعكم، وانك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا فذلك أمرُ الله يحولُ بينك وبينه، ويجعل لنا العاقبة وليأتينَّ عليك يومٌ نَدَافَعِي بِالرَّاحِ، وليأتينَّ عليك يومٌ أُكْسِرُ فِيهِ اللَّاتَ وَالْعَزَى وَاسَافَ، وَنَائِلَةٌ، وَهَيْلٌ حَتَّى أذْكَرَكَ ذَلِكَ. (1)»

ولقد وقعت إجابة الرسول الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - التي كانت تنبئ عن قوة إرادته وشدة عزمته، وتصميمه القاطع موقع السهم في قلب زعيم المشركين، وحيث أن قريش كانت تعتقد بصدق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فإنها أصيبت بهذا الرد الحاسم في عزميتها ونفسيتها، ولكنها مع ذلك لم تكف عن مواصلة عدوانها.

وذات ليلة عزم «خالد بن الوليد» على أن يعبر بجماعته الخندق ولكنه اضطرَّ إلى التراجع عندما واجه مقاومة شجاعة من مائتين من المسلمين بامرة «اسيد بن حضير» وقد كلّفهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالقيام على شفير الخندق، ودفع المشركين ومنعهم من العبور!!

ثم ان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يكن ليغفل عن تقوية عزائم المقاتلين المسلمين ورفع معنوياتهم، ولهذا كان يهَيِّئهم بخطبه الحماسية، وكلماته المشجعة، الحاتة على الجهاد والاستقامة والدفاع عن حياض العقيدة والايمان، والذود عن صرح الحرية، والعدل.

فقد وقف ذات يوم خطيباً في اجتماع كبير من المسلمين وقال - بعد أن حَمِدَ الله وأثنى عليه -.

«أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا لَقَيْتُمُ الْعَدُوَّ فَأَصْبِرُوا وَأَعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ.»⁽²⁾

أبطالٌ من العرب يعبرون الخندق:

لبس خمسةً من شجعان المشركين هم: «عمرو بن عبدود العامري»، «عكرمة

[1] امتاع الاسماع: ١ / ٢٣٩ و ٢٤٠.
[2] السيرة الحلبية: ٢ / ٣٢٣.

(263)

ابن أبي جهل»، «هبيرة بن وهب»، «نوفل بن عبدالله»، و «ضرار بن الخطاب» لامة الحرب، ووقفوا أمام بني كنانة في غرور عجيب، وقالوا: تهَيَّأوا يا بني كنانة للحرب، فستعلمون من الفرسان اليوم؟

ثم ضربوا خيولهم فعبرت بهم الخندق من مكان ضيق قد أغفله المسلمون، ولكنهم بادروا إلى محاصرة تلك الثغرة ومنع غيرهم من العبور.

وكان الموضع الذي وقف فيه أولئك الشجعان الخمسة الذي عبروا الخندق للمبارزة يقع بين الخندق وجبل سلع حيث تمركز جنود الاسلام.⁽¹⁾

ثم أخذوا يدعون المسلمين إلى البراز، في كبرياء وغرور كبيرين، وهم يقطعون ذلك الموضع جيئةً وذهاباً بخيولهم!!

بيد أن أشجع أولئك الخمسة وأجرأهم وأعرفهم بفنون القتال وهو: «عمرو بن عبدود العامري» تقدم، وأخذ يرتجز داعياً المسلمين إلى النزال والبراز قائلاً:

وَلَقَدْ بُجِحْتُ مِنَ النَّدَاءِ * بِجَمْعِكُمْ هَلْ مِنْ مُبَارَزُ

وَوَقَفْتُ إِذْ جَبِنَ الْمُشَجَّعُ * مَوْقِفَ الْبَطْلِ الْمُنَاجِزُ

إِنِّي كَذَلِكَ لَمْ أَزَلْ * مَتَسَرِّعاً نَحْوَ الْهَزَاهِزِ

إِن السَّامِحَةَ وَالشَّجَا * عَةَ فِي الْفَتَى خَيْرُ الْغَرَائِزِ

فأحدثت نداءات عمرو الرهيبية حالة من الرعب، والوجل الشديدين في معسكر المسلمين، وسكت الجميع، ولم ينبسوا ببنت شفة رهبة وخوفاً منه.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«أَيْكُمْ يَبْرُزُ إِلَى عَمْرٍو أَمْضَمُّ لَه الْجَنَّةُ؟»

وقد قالها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثلاث مرات، وفي كلِّ مرة يقوم عليّ - عليه السَّلام - ويقول: انا له يا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، والقوم ناكسوا رؤوسهم (2) أو كأنَّ المسلمين يومئذ على رؤوسهم الطير لمكان عمرو و شجاعته، كما يقول الواقدي (3).

1- تاريخ الطبري: ٢ / ٢٣٩، الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٨ .

2- تاريخ الخميس: ١ / ٤٨٦ .

3- المغازي: ٢ / ٤٧٠ .

ولابدَّ أن تحلَّ هذه المشكلة بيد علي - عليه السَّلام - فارس ميادين الحرب المقدام، وكان كذلك، فلما أبدى عليّ - عليه السَّلام - استعدادة الكامل لمقاتلة عمرو أعطاه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سيفه وعممه بيده، ووجَّهه صوب عمرو وقد دعا له قائلاً: اللَّهُمَّ أَعِنِّهِ عَلَيْهِ. وقال أيضاً:

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَخَذْتَ مِنِّي عُيْبَةَ بَنِ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَ حَمَزَةَ بَنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ يَوْمَ أُحُدٍ، وَهَذَا أَخِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ.» (1)

فبرز عليّ - عليه السَّلام - إلى عمرو يهروا في مشيئته، مبادراً إليه دون ابطاء وهنا قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كلمته الخالدة في تلك المواجهة:

«بَرَزَ الْإِيمَانُ كُلَّهُ إِلَى الشَّرِكِ كَيْهَ (2)» وارتجز - عليه السَّلَام - قائلاً:

لا تُعْجَلَنَّ فَقَدْ أَتَاكَ * مَجِيبُ صَوْتِكَ غَيْرَ عَاجِزٍ

دُونِيَّةٍ وَبَصِيرَةٍ * وَالصَّدَقُ مُنْجِي كُلِّ فَائِزٍ

إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ أَقِيمَ * عَلَيْكَ نَائِحَةَ الْجَنَائِزِ

مَنْ ضَرْبَةَ نَجْلَاءٍ يَبْقَى * ذَكَرُهَا عِنْدَ الْهَزَاهِرِ

وقد كان عليٌّ - عليه السَّلَام - مسربلاً بالحديد لا يرى منه إلا عيناه من تحت المغفر، فأراد عمرو أن يعرف من برز إليه فقال: من

انت؟

قال: أنا عليٌّ بن أبي طالب.

فقال عمرو: إني أكره أن أريق دمك، واللّه إن أباك كان لي صديقاً ونديماً، ما أمن ابن عمك حين بعثك إليّ أن اختطفك برمحي هذا فأتراك شاملاً بين السماء والأرض لحيّ ولا ميت.

فقال عليٌّ - عليه السَّلَام - : لكنني ما أكره واللّه أن أهريق دمك، وقد علم ابنُ

- [كنز الفوائد: ص ١٣٧.
- 2 تاريخ الخميس: ١ / ٤٨٦ و ٤٧٨، بحار الأنوار: ٢٠ / ٢١٥.

عمي أنك إن قتلنتي دخلت الجنة، وأنت في النار، وإن قتلتك فانت في النار وأنا في الجنة.

فضحك عمرو وقال مستهزئاً: كلتاها لك يا عليّ، تلك إذا قسمة ضبزي. (أي ناقصة جائزة).

يقول ابن أبي الحديد: كان شيخنا أبو الخير يقول إذا مررنا في القراءة عليه بهذا الموضع: واللّه ما أمر عمرو بن عبدودَ علياً) -

عليه السَّلَام - (بالرجوع إبقاءً عليه، بل خوفاً منه، فقد عرف قتلاه ببدر وأُخذ، وعلم أنه إن ناهضة قتله، فاستحيا أن يُظهر الفشل

فأظهر الإبقاء، وإنه لكاذب فيه. (1)

ثم إن علياً - عليه السَّلَام - ذكّر عمراً بعهد قطعه على نفسه فقال له:

يا عمرو إنك كنت تقول في الجاهلية: لا يدعوني أحدٌ إلى واحدة من ثلاث خصال إلا أجبته إلى واحدة منها وأنا أعرض عليك ثلاث خصال فأجبنى إلى واحدة.

قال عمرو: أجل، فهاتها يا عليّ.

قال: تشهد أن لا اله إلا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، وتسلم لرب العالمين.

فقال عمرو: نخّ عني هذا.

قال عليّ - عليه السّلام - :فالثانية أن ترجع إلى بلادك، فإن يك محمّداً صادقاً فأنتم أعلى به عيناً وإن يك غير ذلك كفتكم ذوبان العرب أمره.

فقال عمرو في غرور عجيب: اذاً تتحدّث نساء قريش بذلك، وينشد الشعراء فيّ أشعارها اني جينت، ورجعت على عقبي في الحرب، وخذلتُ قوماً رأسوني عليهم.

فقال له عليّ - عليه السّلام - :فالثالثة أن تنزل الی فانك راكبٌ وأنا راجلٌ، حتّى أنابذك.

-[شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٠ / ١٩.

(266)

فقال عمرو: هذه خصلة ما ظننت أن أحداً من العرب يسومني عليها، ثم وثب عن فرسه، ولكي يربع عليّاً - عليه السّلام - عرقب قوائم فرسه على عادة العرب في الجاهلية. (1)

تساؤل البطلين:

وهنا بدأ تصاولٌ شديدٌ بين البطلين، وارتفعت بينهما عجاجة حجبت الرؤية، وانما كان الناس يسمعون فقط صوت إصطكاك السيوف والدرع الحديدية وغيرها، وبعد فترة من التصاول بين ذينك البطلين العملاقين ضرب «عمرو» «أمير المؤمنين عليّاً» - عليه السّلام - بالسيف على رأسه، فاتقاه عليّ - عليه السّلام - بالدرقة فقطعها، وشجّت الضربة رأسه ففاجأه عليّ - عليه السّلام - بضربة قوية على ساقيه فقطعهما، جميعاً، ثم انكشفت العجاجة فنظر المسلمون فإذا عليّ - عليه السّلام - على صدر عدوّ الله يريد أن يذبحه. وارتفع صوت عليّ بالتكبير من بين العجاجة يعلن عن انتصاره، ومقتل عمرو.

فألقي هلاك فارس العرب الاكبر «عمرو بن عبدود» رعباً عجيباً في نفوس بقية الابطال والشجعان الذين عبروا معه الخندق، فهربوا راجعين إلى معسكرهم، إلا «نوفل» الذي سقط فرسه في الخندق، وهوى هو إلى الارض بشدة، فرماه حرس الخندق بالحجارة فقال: قتلةً أجمل من هذا، ينزل اليّ بعضكم فأقاتله، فنزل إليه عليٌّ - عليه السّلام - فضربه حتّى قتله في الخندق.(2)

فهيمن الخوف والرعب على كل أرجاء المعسكر العربي المشرك، وبهت أبوسفيان أكثر من غيره.

ثم إنه كان يتصور أن المسلمين سيمثلون بجسد «نوفل» انتقاماً لحمزة الذي

-[المغازي: ٢ / ٤٧٠ و ٤٧١].
-2بحار الأنوار: ٢٠ / ٢٥٦، تاريخ الطبري: ٢ / ٢٤٠.

(267)

مُثل به في أحد، فبعث إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من يشتري جثته بعشرة آلاف فقال النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«هو لكم، لا ناكلُ ثمن الموتى.»(1)

قيمة هذه الضربة:

لقد قتل عليٌّ - عليه السّلام - - حسب الظاهر - رجلاً شجاعاً لا أكثر، بيد أنه بضربته لعمرو وبقته أياه أحيا - في الحقيقة - كل من أربته نداءات عمرو المهذّدة، من المسلمين، والقى رعباً كبيراً في نفوس جيش قوامه (١٠/٠٠٠) رجل تعاهدوا وتعاهدوا على محو الإسلام واستئصال الحكومة الإسلامية الفتية. ولو أن الانتصار كان يحالف عمراً لعرفنا حينئذ قيمة هذه التضحية الكبرى التي قام بها عليٌّ - عليه السّلام - .

وعندما عاد عليٌّ - عليه السّلام - ظافراً منتصراً قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«ضربةُ عليّ يومَ الخندق أفضلُ من عبادةِ الثقلين.»

وقيل أنه قال:

«لو وُزِنَ اليومَ عملُك بعملِ جميعِ أمةِ محمدٍ لرجحَ عملُك على عملهم وذلكَ أنه لم يبقَ بيتٌ من المشركين إلا وقد دخله ذلٌّ بقتلِ عمرو، ولم يبقَ بيتٌ من المسلمين إلا وقد دخله عزٌّ بقتلِ عمرو.»(2)

وبذلك كشف عن أهمية الضربة التي أوقعها علي - عليه السّلام - بعمرو في تلك الواقعة.

لماذا التنكر لهذا الموقف؟

ويحق لنا هنا أن نستغرب تنكر بعض المؤرخين أو تجاهلهم لهذا الموقف

1- بحار الأنوار: ٢٠ / ٢٠٥ .
2- بحار الأنوار: ٢٠ / ٢١٦، مستدرک الحاكم: ٣ / ٣٢ .

(268)

العظيم الذي أدى إلى هزيمة المشركين، والاحزاب في معركة الخندق هزيمة نكراء، كل واحد بشكل من الاشكال وصورة من الصور:

فهذا ابن هشام رغم اسبابه في بعض الامور التاريخية مما لا قيمة له بعد أن يذكر مقتل «عمرو» على يد بطل الإسلام الخالد عليّ - عليه السّلام - من دون أن يذكر ما قاله النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عند مطالبة عمرو بالمنازل والمبارز، ذكر أبياتاً قالها عليّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عليه في المقام ثم يشكك في نسبتها إليه - عليه السّلام - . (1)

وهكذا ابن الاثير رغم اهتمامه بالدقائق التاريخية ووصفه لكتابه بالكامل نجده يحاول التقليل من أهمية هذا الموقف بصورة أخرى وهو أن عليّاً خرج ضمن مجموعة لمقاتلة عمرو وليس وحده.

ولكن المعقّبين على الطبعة المنيرية للكامل والتي أشرف عليها فضيلة الاستاذ عبدالوهاب النجار لم يرق لهم هذا الصنيع، وأبت عليهم ضمائرهم الحرّة أن يتركوا الرواية على حالها فقالوا في الهامش: وروى السهيلي عن ابن اسحاق أن عمراً دعا المسلمين للمبارزة وعرض رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الأمر ثلاث مرات ولا يقوم إلاّ عليّ كرم الله وجهه، وفي الثالثة قال له: انه عمرو قال: وان كان عمراً، فنزل إليه وقتله وكبّر فكبّر المسلمون فرحاً بقتله. (2)

وهذا ابن تيمية يحاول التنقيص من هذه الفضيلة ولكن بالضرب على وتر آخر حيث قال ان قول النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في شأن عليّ - عليه السّلام - لما قتل عمراً: «قتل علي لعمر بن عبد ود أفضل من عبادة الثقلين» من الاحاديث الموضوعه التي لم ترد في شيء من الكتب التي يعتمد عليها بسند ضعيف، وكيف يكون قتل كافر أفضل من عبادة الثقلين... ثم قال: بل ان عمرو بن عبد ود لم يعرف له ذكرٌ إلاّ في هذه الغزوة.

فهو يحاول التقليل من شأن عمرو، والايحاء بأنه لم يكن شيئاً، فلا يكون

1- السيرة النبوية: ٢ / ٢٢٥ .
2- الكامل في التاريخ: ٢ / ١٢٤ .

لقتله أهمية.

ولكن صاحب السيرة الحلبية الذي ينقل كل هذه العبارات عن ابن تيمية يرد عليه قائلاً: ويرد قوله: «ان عمرو بن عبد ود هذا لم يعرف له ذكرٌ إلا في هذه الغزوة» قول الأصل: وكان عمرو بن عبيدود قد قاتل يوم بدر حتى اثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أُحد فلما كان يوم الخندق خرج مُعلماً (أي جعل له علامة) ليعرف مكانه ويُرى.

ويرده أيضاً ما تقدم من أنه نذر أن لا يُمسَّ رأسه دهنأ حتى يقتل محمداً - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

واستدلّاه: وكيف يكون إلى آخره، فيه نظر لان قتل هذا كان فيه نصرة للدين وخذلان للكافرين. (1)

وما قاله صاحب السيرة الحلبية عن مشاركة عمرو في معركة بدر يوافق ما جاء في الكامل لابن الاثير الجزء ٢ الصفحة ١٢٤ ويوافق أيضاً ما جاء في السيرة النبوية الجزء ٢ الصفحة ٢٢٥.

مروءة عليّ - عليه السّلام - وشهامته:

ولقد أحجم عليّ - عليه السّلام - عن سلب «عمرو بن عبيدود» درعه، وكان درعاً غالية الثمن ليس للعرب، درعٌ خيرٌ منها، وقد فعل ذلك مروءة، وترفعاً، فاعترض عليه بعضٌ، حتى أن عمر بن الخطاب قال له: هلا استلبته درعه فانه ليس في العرب درع مثلها؟ (2) ولما عرفت أخذ عمرو بمقتله سألت عمن قتله، فاخبروها بأن علياً - عليه السّلام - هو الذي قتله فقالت لم يَعدُ موته إلا على يد كفو كريم، لارقات دمعتي إن هرقتها عليه، قتلَ الابطال، وبارز الاقران، وكانت منيئة علي يد كفو

1- السيرة الحلبية: ٢ / ٣٢٠.

2- السيرة الحلبية: ٢ / ٣٢٠.

كريم من قومه ما سمعت بأفخر من هذا يا بني عامر.

ثم انشأت تقول:

لو كان قاتلُ عمرو غير قاتلِهِ * لكننُ أبكي عليه آخرَ الأبدِ

لكنَّ قاتلَ عمرو لا يُعابُ به * من كان يُدعى قديماً بيضة البلاد (1)

وقد ذكر علي - عليه السّلام - صنيعه هذا في أبيات أنشأها يوم الخندق إذ قال:

أَعْلَى تَقْتَحُمُ الْفَوَارِسُ هَكَذَا؟ * عَنِّي وَ عَنْهَا خَبَرُوا أَصْحَابِي

أُرْدِيْتُ عَمراً إذ طغى بمهتد * صافي الحديد مجرّب قضاب

فصدت حين تركته متجدلاً * كالجدع بين دكادك وروابي

وعفتت عن أثوابه و لوائني * كنت المقطر بزني أثوابي⁽²⁾

والآن حان أن نرى إلى أي مصير آل أمر معسكر المشركين بعد مقتل فارس العرب وشجاعها البارز.

جيش العرب يتفرق في موقفه:

لم يكن دافع جيش العرب ومن عاونهم ومالاهم من اليهود إلى محاربة الإسلام واحداً، فاليهود كانوا يخشون من اتساع رقعة الحكومة الإسلامية الفتية، المتزايد، واما دافع قريش فكان هو العداة القديم للإسلام والمسلمين. وأما قبائل «غطفان» و «فزارة» وغيرها من القبائل فلم يحرّكها إلا الطمع في محاصيل «خبيبر» التي وعدهم بها اليهود.

فعلى هذا الاساس لم يكن محرّك «الأحزاب» المشاركة في جيش الشرك أمراً واحداً، فقد كان محرّك الطوائف الأخيرة أمراً مادياً، ولو أنّ هذا الهدف تحقّق عن طريق المسلمين لعادت هذه القبائل إلى أوطانها مسرورة راضية، وخاصة أن البرد، وقلة الطعام، والعلف، طوال مدة المحاصرة قد أوجدت في

1- مستدرک الحاكم: ۳ / ۳۳.

2- المستدرک علی الصحیحین: ۳ / ۳۲.

نفوسهم كلالاً ومللاً، من جهة، وعرضت أنعامهم لخطر الهلاك والفناء من ناحية أخرى.

من هنا كلّف رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - جماعة بأن يتصلوا بهذه القبائل (الأخيرة) ويذكروا لهم بأن المسلمين مستعدون لإعطائهم ثلث تمر المدينة إن هم تركوا قريشاً وعادوا إلى ديارهم، فأعدوا عهداً وجاؤوا به إلى رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - ليمنضيه، ولكنه شاور فيه سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة قبل أن يمنضيه، فقالا: يا رسول الله إن كان أمراً من السماء فامض له، وإن كان أمراً لم تؤمر فيه فإن الرأي عندنا هو السيف، فإنهم ما طمعوا بهذا منّا قطّ في الجاهلية أن يأخذوا تمرة، إلا بشرى أو قرى، فحين أتانا الله تعالى بك، وأكرمنا بك، وهدانا بك نعطي الدنيا؟ لا نعطيهم أبداً إلا السيف؟

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مبيّناً علة إقدامه على مثل هذا الصلح: «اني رأيت العربَ رمتكم عن قوس واحدة، فقلت أَرْضِيهِمْ وَلَا أُفَاتِلِهِمْ، الآنَ قد عرفت ما عندكم فكونوا على ما أنتم عليه، فان الله تعالى لن يخذل نبيّه، ولن يسلمه حتّى ينجز له ما وعده»⁽¹⁾»

فمضى سعد بن معاذ ما في الصحيفة باذن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال: ليجهدوا علينا. ⁽²⁾

وبهذا كشف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن صفحة أخرى من سياسته الحكيمة، فقد كان إقدامه على ثني القبائل المتحالفة مع قريش في جيش الاحزاب باعطاء بعض التنازلات المادية (لا المعنوية) وتحبيدها خطوة سياسية وعسكرية صحيحة، ورائعة، وكانت مشورته مع أصحابه من الانصار (خاصة) عملاً حكيماً أيضاً لأنه استنار بذلك همهم، وشدّ على عزائمهم، فوعدوا

1- السيرة النبوية: ٢ / ٢٢٣، بحار الأنوار: ٢٠ / ٢٥٢.
2- متاع الاسماع: ١ / ٢٣٦ وجاء فيه انه (ص) استشار سعد بن معاذ و سعد بن عبادة خفية.

(272)

بالصمود والمقاومة في ذلك الظرف العصيب وعدم تقديم اية تنازلات ولهذا انصرف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن ما اراد أولاً، فكان مجموع هذه الخطوات عملاً حكيماً جداً، يكشف عن حنكة سياسية عظيمة، ودراية عسكرية عميقة.

العوامل التي فرقت كلمة «الاحزاب»:»

هناك عوامل عديدة تسببت في تفرق الجيش العربي الذي زحف إلى المدينة لاجتياحها، وانقسام الاحزاب على أنفسهم، واليك أبرزها:

1- إن أول عامل من تلك العوامل هو تكلم مبعوثي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مع سادة غطفان وفزارة، لأن هذه المعاهدة وإن لم توقع إلا أنها لم تُنقض، فتسبب ذلك في أن يختلفوا مع قريش في الرأي، أي اجتياح المدينة وبشكل من الاشكال وان لا يقدموا على أي إجراء عسكري مع غيرهم إنتظاراً للتوقيع على تلك المعاهدة، ولهذا كلما طلبت القيادة القرشية منهم الهجوم الشامل اعتذروا ببعض الاعذار تملصاً من ذلك الطلب.

2- مصرع «عمرو بن عبدود» فارس العرب الأكبر الذي كان الأغلبية في ذلك الجيش يعلقون عليه آمالهم في الانتصار على المسلمين. فلما قتل تملك الجميع رعبٌ غريبٌ وانهارت آمالهم، وبخاصة عندما هرب زملاؤه الشجعان من وجه على - عليه السلام - خوفاً، ورهبة.

3- مالعبه «نُعيم بن مسعود» الذي أسلم حديثاً، من دور في إلقاء روح الشك والفرقة بين يهود بين قريظة وجيش «الاحزاب»، فقد قام بهذا الدور بشكل رائع، تماماً كما يفعله الجواسيس المنظمون في عصرنا الحاضر، بل كان ما فعله أفضل وأكبر تأثيراً وعطاءً

فقد أتى «نُعيم» هذا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال يا رسول الله؛ قد أسلمتُ، وإن قومي لم يعلموا باسلامي، فمرني بما شئت.

(273)

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ، فخذل عَنَّا ما استطعت (أي أدخل بني القوم حتَّى يدخل بعضهم بعضاً). فان الحرب خدعة.»

فخرج نُعيم حتَّى أتى بني قريظة، وكان لهم نديماً في الجاهليَّة، فقال: يا بني قريظة قد عرفتم وُدِّي، وخاصَّة ما بيني وبينكم.

قالوا: صدقتَ، لست عندنا بمثَّهم.

فقال: إنَّ قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البَلْدُ بلدُكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وان قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمَّد واصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدُهم وأموالهم ونساؤهم وبغيره، فليسوا كأنتم، فان رأوا نُهزةً أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلُّوا بينكم وبين محمَّد، ولا طاقة لكم به، إن خلابكم فلا تقاتلوا مع القوم حتَّى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم، على أن تقاتلوا معهم محمَّداً حتَّى تتاجزوه.

فقالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم خرج حتَّى أتى قريشاً، فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم وُدِّي لكم، وفراقي لمحمَّد، وانه قد بلغني أمرٌ قد رأيت على حقاً أن أبلغكموه، نصحاً لكم فاكنتموا عني. فقالوا: نفعل.

قال: إعلموا أنَّ معشر اليهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمَّد، وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ من القبيلتين، من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيك فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من يبقى منهم حتَّى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم، فإن بعثت إليكم يهودٌ يلتمسون منكم رهناً من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً.

ثم خرج حتَّى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان، إنكم أصلي وعشيرتي، وأحبُّ الناس إليّ، ولا أراكم تتهموني، قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم، قال

فاكتموا عني، قالوا: نفعل فما أمرك، ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحدثهم ما حدثهم.

وهكذا أدى «نعيم» وظيفته بأحسن صورة ثم دخل سراً في جيش المسلمين، واشاع بين المسلمين أن بني قريظة تنوي أخذ رجال من المشركين لتسليمهم إلى النبي والمسلمين.

وقد كان يقصد من اشاعة هذا النبأ أن يبلغ مسامح رؤساء العرب وقادتهم.

مبعوثو قريش يمشون إلى بني قريظة:

ولما كانت ليلة السبت قرّر أبو سفيان أن يحسم الموقف بشكل من الأشكال فأرسل إلى بني قريظة جماعة من سادة قريش وغطفان فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر، فاعدوا للقتال حتى نناجز محمداً، ونفرغ مما بيننا وبينه.

فأرسل بنو قريظة إليهم: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابه ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذي نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهنأ من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فاننا نخشى إن ضرستكم الحرب، واشتد عليكم القتال أن تسرعوا إلى بلادكم وتتركونا، والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه.

فلما رجعت الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق.

فارسلوا إلى بني قريظة من يقول لهم: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً، فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا.

فقالت بنو قريظة - حين انتهت الرسل إليهم بهذا - : إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فان رأوا فرصة انتهزوها، وان كان

غير ذلك أسرعوا إلى بلادهم وخلوا بيننا وبين محمداً. في بلدنا. (1)

وهكذا انسحبت بنو قريظة من الأحزاب وأوقع الله التخاضل بينهم وتفرقوا، وتمزق شملهم، وكان ذلك من عوامل فشل الأحزاب، وتقهقرهم ورجوعهم خائبين.

آخر العوامل لهزيمة الكفار:

لقد انضمت العوامل المذكورة إلى عامل آخر يمكن تسميته - في الحقيقة - بالامداد الغيبيّ ففرقت جماعة الاحزاب، وشنت جماعتهم وذلك العامل هو أن الله بعث عليهم فجأة الريح والعاصفة، واشتد البرد، وكان اشتداد الريح كبيراً بحيث أكفأ قدورهم، واقتلع خيامهم ومضاربهم، وأطفأ أضواءهم، وأوجد حريقاً في الصحراء.

وهنا أمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حذيفة أن يعبر الخندق، ويأتيه بخبر عن أحوال المشركين ومن مآلهم من الاحزاب.

يقول حذيفة: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل ما تفعل بهم لا تقر لهم قدراً، ولا ناراً ولا بناءً، فسمعت أبا سفيان يقول: وقد قام في جماعة من قريش: يا معشر قريش إنكم والله ما أصيحتم بدار مقام، لقد هلك الكراغ والخف، وأخلفتنا بنوقريظة ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تظنون لنا قدر، ولا تقوم لنا ناز، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا إني مرتحل.

ثم قام إلى جملة - وهو معقول - فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فوالله ما أطلق مقاله إلا وهو قائم من شدة الدهش والخوف!!

ولم يسفر الصبح إلا وأسرت قريش وغطفان عاندين إلى بلادهم يجرون أنيال الخبية، ولم يبق منهم أحد هناك.

-[السيرة النبوية: ٢ / ٣٢٩ - ٢٣١، تاريخ الطبري: ٢ / ٢٤٢ و ٢٤٣.

(276)

وهكذا انتهت معركة الاحزاب في الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة. (1)

القرآن الكريم ومعركة الاحزاب

ولقد أشار القرآن الكريم إلى أبرز النقاط في معركة الاحزاب (الخندق) ضمن سبع عشرة آية وها نحن ندرجها برمتها ونشير باختصار إلى ما تضمنته من حقائق:

(يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً و جنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً * إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصر وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً * وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غوراً * * وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستندون فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً * ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً * * ولقد كانوا عهدوا الله من قبل لا يؤلّون

الأدبِرَ وَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا * قُلْ لَنْ يَتَفَعَّلَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَنْ الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقَانِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَ لَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوا * بِالسِّنَةِ جِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَحْسِبُونَ)

-[تاريخ الطبري: ٢ / ٢٤٤. امتاع الاسماع: ١ / ٢٣٩.

(277)

الْأَحْزَابِ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَأْذِنُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا * وَ لَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ مَزَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَ تَسْلِيمًا * مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ مَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْطِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَ كَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا(١).

ويمكن تقسيم هذه الآيات إلى ثلاثة أقسام:

القسم الاول وهي الآيات التي ترسم الوضع العام للمسلمين عندما أنتهم عساكر الاحزاب.

القسم الثاني وهي الآيات التي تتعرض لذكر موقف المنافقين وضعاف الايمان.

القسم الثالث وهي الآيات التي تتعرض لذكر موقف المؤمنين الصادقين.

واليك بياناً لمفاد هذه الآيات على وجه الاختصار.

-[تبدأ هذه المجموعة من الآيات بتذكير المؤمنين - في الآية الاولى - بنعمة الله عليهم أن ردّ عنهم الجيش الذي قصد استئصالهم لولا عناية الله ومدده العظيم، وفي هذا إشعار قوي بأن الله هو الذي يحمي القائمين على دعوته ومنهجه من عدوان الكافرين والمتأمرين.

2- ثم تشرح الآية الثانية الحالة العسكرية الخطيرة التي كان يواجهها المسلمون، فهم محاصرون من قبل الاعداء والمتواطئين معهم من كل جهة محاصرة

1- الأحزاب: ٩ - ٢٥.

(278)

ألقت الرعب في قلوب الكثيرين من أهل المدينة فزاعجت الابصار هولاً، وبلغ القلوب الحناجر خوفاً، وظنَّ البعض أن ما أعطاهم الله ورسوله من الوعد بالتأييد والنصرة لم يكن صحيحاً.

3- ثم تحدثت الآية الثالثة عن الابتلاء والاختبار الذي أفرزه هذا الوضع الخطير، فقد ابتلي المسلمون في هذه الواقعة، وتملكهم خوفٌ شديدٌ.

4- ولكن المنافقين، والذين في قلوبهم مرض كانوا أشد هولاً وخوفاً حتى أن ذلك الكرب والهول أخرج خبيئة نفوسهم، فشككوا في وعود الله الصادقة، وقالوا: ما وعدنا الله إلا غروراً، فهو خدعنا إذ وعدنا بالغبلة على أعدائنا.

5- ولم يكتف المنافقون بإشاعة هذه التشكيكات بين المسلمين بل دعوا أهل المدينة إلى الانسحاب من الميدان إلى داخل المدينة، وبالتالي حرّضوهم على ترك الصفوف. واحتجوا لذلك بالخوف على النساء والصبيان من كيد الاعداء قائلين: «بيوتنا عورة»، وهم لا يريدون إلا الفرار جبناً وخوفاً.

6- ثم تكشف الآية السادسة والسابعة عن حقيقة ما في نفوس أولئك المنافقين، فهم لا يريدون الانسحاب إلى داخل المدينة للمحافظة على الذراري والصبيان، انما هو نقض العهد، وخلف الوعد وفقدان الايمان القلبي فهم إذا دخل عليهم العدو المدينة وطلبوا منهم الرجوع عن الإسلام لرجعوا إلى الكفر دون تأخير. ولكن الله سيسألهم عن العهد الذي أعطوه من قبل بأن يثبتوا امام العدو، «كان عهد الله مسؤولاً. »

7- ثم إن الله تعالى يوبخهم - في الآيات اللاحقة - على موقفهم المتخاذل هذا، ويقول لهم: بأن الفرار والانسحاب لن ينجيهم من الموت ان كان مقدراً عليهم، وحتى لو عاشوا أياماً فلن يعيشوها في خير وأمان.

كما ويقول لهم: بأن الله لا يخفى عليه ما يقومون به من تخذيل وعرقلة لمسيرة الإسلام الصاعدة، ولا تخفى عليه سبحانه مواقفهم في أوقات المحنة، من كف الايدي عن مساعدة المؤمنين، أو سلقهم بالسنتهم وتحميلهم عوامل المحنة والشدة.

حتى بعد الانتصار.

وهنا يبدو و يبرز دور المنافقين، وتظهر حالاتهم العجيبة في الحرب والسلام.

فهم يخافون خوفاً شديداً، وهم يظنون بالله ظن السوء وهم يشيعون الخوف وروح الهزيمة في الناس وهم ينسحبون ويدعون إلى الانسحاب من الصفوف وهم مستعدون في كل وقت للارتداد والرجوع عن الإسلام إلى الكفر، وهم بالتالي اشحة بخلاء، في نفوسهم كزازة على المسلمين كزازة بالجهد وكزازة بالمال وكزازة بالعواطف والمشاعر على السواء.

8-إنهم لكونهم لم تخالط قلوبهم بشاشة الايمان ولم يهتدوا بنوره يفتقدون الشجاعة والقوة حتى بعد ذهاب عوامل الخوف والهول.

فهم ما يزالون يرتعشون، ويتخاذلون، ويأبون أن يصدقوا أن الاحزاب قد ذهبت وولت مهزومة. ويودون لو أن الاحزاب دخلت المدينة أن لا يكونوا فيها مبالغة في النجاة من الأهوال!!

9-ولكن في مقابلة هذا الفريق المتخاذل الجبان يرسم القرآن الكريم في الآيات ٢١ إلى ٢٥ صورة المؤمنين الصادقين وفي مقدمتهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - القدوة الحسنة لجميع المسلمين في جميع الحالات والظروف.

فان هذه الجماعة المؤمنة الصادقة لما رأت الاحزاب قالت: هذا ما وعدنا الله ورسوله، هذا الهول لا بد أن يجيء فيه النصر فهو وعد الله الصادق المحقق.

فصمدوا وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فجزاهم الله بصدقهم إذ ردّ الذين كفروا بغيظهم، لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً خلاقاً لماظنه المنافقون، وتوهموه.

وقد كانت هذه الواقعة في منظور القرآن الكريم امتحاناً عظيماً، واختباراً دقيقاً للنفوس والقلوب وهو امتحان لا بد منه حتى يتميز الصادق عن المنافق، والموفون بعهدهم والناقضون له.

كما أن هذه الواقعة و ما جاء حولها من الآيات كشفت عن أن وعود الله

صادقة ومحقة إذا توفرت شرائطها، ومقدماتها، ومنها استخدام الوسائل الطبيعية المناسبة، والاتكال على الله واستمداد العون منه

وفي هذه الآيات إشارة إلى دور ما يسمى الآن بالطاير الخامس وإلى خطورة الشائعات السيئة في المجتمع، وبخاصة في ظروف الحرب.

كما أن فيها إشارة إلى كيفية مواجهة هذه الشائعات والتعامل مع فعاليات هذا الفريق الخطر.

ولقد لاحظنا خلال ما مضى من السيرة كيف أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يبطل بتكتيكاته العسكرية مفعول تلك النشاطات التخريبية والمضرة.

فقد كان يعتمد أسلوب الدعاء، والذكر، والتشجيع، والتكبير، وارسال الدوريات العسكرية والعمل المباشر والمشاركة الفعلية في عمليات الدفاع والحراسة وما شاكل ذلك مما ذكرناه ومما لم تسع هذه الدراسة لذكره.

(281)

حوادث السنة الخامسة من الهجرة

٣٨

سقوط آخر أوكار الفساد والمؤامرة

أقدم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في السنة الأولى من هجرته إلى المدينة، على تنظيم وعقد ميثاق تعايش بين سكان المدينة وما حولها، بغية إنهاء جميع أشكال الإختلاف، والتنازع، والصراع الداخلى.

وقد تعهد الأوسيون والخزرجيون، عامة واليهود من تينك القبيلتين أن يدافعوا عن المدينة وما حولها، وقد مرّ النص الكامل لهذا الميثاق على القارئ الكريم فيما سبق. (1)

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى عقد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بينه وبين يهود المدينة ميثاقاً آخر ينص على أنّ مختلف الطوائف اليهودية تتعهد بأن لا تلحق أئّ ضرر وأذى برسول الله واصحابه، ولا تمدّ أعداءهم بالخيل والسلاح، وأنها لو فعلت شيئاً من ذلك يكون لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الحق في أن يقتلهم، ويسبي نساءهم وأبناءهم.

إلا أنّ جميع الطوائف اليهودية الثلاث نقضت الميثاق المذكور بشتى العناوين والصور، وتجاهلت بنوده، ومواده!

فقد قتل «بنو قينقاع» مُسلماً، وخطّطت «بنو النضير» لاغتيال رسول الله

- صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وأجبرهم على الجلاء من المدينة وأخرجهم من البيئة الإسلامية.

وتعاونت «بنو قريظة» مع جيش المشركين لضرب المسلمين، وطعنهم من الخلف، والأُن يجب أن نرى كيف يويخ رسولُ الله بنى قريظة على نقضهم للميثاق.

قوات الإسلام تحاصر بني قريظة:

لم يكن الصباح قد أسفر بعد عندما غادرت آخر مجموعة من جنود «الأحزاب» أرض المدينة قافلة إلى بلادها مرعوبة فرعة للغاية

كما أن آثار التعب والارهاق لم تكن قد فارقت بعد ملامح المسلمين، ومع ذلك فقد أمر الله نبيه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن يعالج قضية «بنى قريظة» بصورة نهائية، فأذن مؤذن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وصلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالمسلمين صلاة الظهر، ثم نادى منادي النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الناس:

من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة!

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قدم «على بن أبي طالب» برايته⁽¹⁾، وخرج معه جنود الإسلام الشجعان، فحاصروا حصون «بنى قريظة»، فأخبرهم ديرانهم بنشاط المسلمين، فبادروا إلى اغلاق أبواب الحصون، والتحصن في داخلها، ونشبت الحرب بين بنى قريظة والمسلمين من اللحظات الأولى فقد أخذ اليهود يشتمون رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقالوا فيه مقالة قبيحة فرجع علي - عليه السلام - بالمسلمين فالتقى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الطريق وقد كره أن يسمع النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أذاهم وشتهم وحاول أن يثني رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من الاقتراب إلى حصن بنى قريظة قائلاً: لا عليك أن تدنو

فلما عرف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سبب ذلك قال: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً فلما دنا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من حصونهم قال لهم:

«هل أخزاكم الله وأنزل عليكم نعمته»؟

وقد كانت ردة فعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الشديدة غير متوقعة لليهود، ومن هنا قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً... وهم يريدون بذلك إطفاء مشاعرة الملتهبة ضدّهم. (1)

فأثارت كلمتهم هذه عاطفة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بحيث رجع من غير اختيار، وسقط رداؤه من كتفه.

اليهود يتشاورون حول الموقف:

تشاور يهود بنو قريظة وهم معتمسون بحصونهم في الموقف، وقد شارك فيه «حُبي بن أخطب» مثير معركة الأحزاب، فانه لم يذهب إلى خيبر بعد أن وضعت الحرب - في معركة الأحزاب - أوزارها وولى العرب المشركون بل دخل في حصون بني قريظة

هذا وقد طرح زعيم بني قريظة ثلاثة اقتراحات وطلب من الجميع أن يتفقوا على واحدة منها لمعالجة الموقف:

1- أن يؤمنوا برسول الله، ويصدقونه لأنه قد تبين لهم أنه نبي مرسل، وأنه الذي يجدونه في كتابهم، وبذلك يأمنون على دمائهم وأموالهم ونسائهم وأبنائهم.

2- أن يقتلوا أبناءهم ونساءهم ثم يخرجوا إلى محمّد واصحابه يقاتلونهم، فإذا هلكوا، هلكوا ولم يتركوا وراءهم نسلاً يُخشى عليه، وإن انتصروا تزوجوا

1- السيرة النبوية: ٢ / ٢٣٤، تاريخ الطبري: ٢ / ٢٤٥ و ٢٤٦.

من جديد، ووجدوا أبناء.

3- أن الليلة هي ليلة السبت، وانه عسى أن يكون محمّد واصحابه قد منوهم فيها، لعلمهم بأن اليهود لا يقاتلون في السبت، فليزولوا من الحصون لعلمهم بصيبيون من محمّد واصحابه على حين غفلة.

ولكن المشاورين رفضوا جميع هذه الطروحات وقالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره، وقالوا: ان نقتل أبناءنا ونساءنا فما خير العيش بعدهم، وقالوا: لا نقاتل ليلة السبت، محمداً وأصحابه نفسد سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ.⁽¹⁾

إن هذا الحوار يساعدنا على فهم نفسية تلك الجماعة (نعني اليهود)، وخصالهم وأخلاقهم الفاسدة.

فإن رفض الاقتراح يكشف عن أنهم كانوا جماعة معاندة، لجوجة، لأنهم إذا كانوا حقاً يعرفون صدق نبوة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كما قال زعيمهم - لم يكن لوقوفهم سبب الا العناد والعتوّ، واللجاج.

وأما الاقتراح الثاني وما دار حوله من كلام فيشهد - بجلاء - على أن تلك الطائفة كانت جماعة قاسية، لا تعرف للرحمة والحنان معنى، لأن قتل الاطفال والنساء الابرياء لا يمكن من دون قسوة شديدة.

هذا مضافاً إلى أن المشاورين آنذاك رفضوا هذا المقترح لا بدافع الرحمة والشفقة على الاطفال والنساء، بل لأن الحياة لا تعود لذينة بعد فقدهم هذا هو ما قالوه. ولم يقل أى واحد منهم: وماذا جنى الاطفال والنساء حتى نقتلهم ونذبحهم، ولو أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تمكن منهم - لم يقتلهم، فكيف نعد نحن (الآباء الرحماء) إلى ارتكاب مثل هذه الجريمة بحقهم. فنسفك دماءهم

-[السيرة النبوية: ٢ / ٢٣٦].

(285)

من غير جرم ولا جنابة؟

وأما الاقتراح الثالث فيكشف عن أنهم لم يكونوا يعرفون جيداً مدى علم رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بفنون القتال، والدفاع وكانوا يتصورون أن القائد الأعلى للإسلام لا يراعي قواعد الحذر والاحتياط ليلة السبت ويومه، وخاصة في مواجهة أعداء خونة، أخوان غدر و مكر، أمثال اليهود الناقضين للعهد، الناكثين للمواثيق.

إن دراسة وتقييم معركة «الاحزاب» تثبت ندرة وجود الانكباء والفظنين بين هذه الجماعة، والآ لكانوا يتمكنون من حفظ كياناتهم حتى من الناحية السياسية في تلك الظروف من دون أن ينحازوا إلى أى واحد من طرفي الصراع (الإسلام والشرك).

أي أنه كان من الممكن أن يتخذوا جانب الحياد الكامل، ويبقوا متفرجين لما يدور بين محمداً، وجيش المشركين، وبهذا يبقوا محافظين على كياناتهم ووجودهم، انتصر من انتصر وغلب من غلب.

ولكنهم خُدعوا بتسويات «حبي بن أخطب» ووسوساته وانحازوا إلى جيش العرب المشركين فتورطوا في مثل تلك الورطة، وهي أن يتخلوا - في النهاية - عن مساعدة قريش بعد شهر كامل من التعاون معهم، والرضوخ لخطة «نعيم بن مسعود»، وإخبار قريش بأنهم لن يتعاونوا معهم ضدّ رسول الإسلام ما تسلم قريش بعض شخصياتها إليهم، لغرض الاحتفاظ بهم في حصونهم كوثيقة!! لقد غاب عن تلك الزمرة المعاندة اللجوجة أنهم قد تعاونوا ضدّ رسول الإسلام في بداية الأمر، فاذا قطعوا علاقاتهم مع قريش، وترك جيش المشركين ساحة المعركة إذا أحس بالعجز عن تحقيق أي انتصار، وعاد إلى بلاده، فان بني قريظة بأجمعهم سيكونون حينئذ في قبضة المسلمين.

فلو كانوا يملكون شيئاً من الرؤية السياسية الصحيحة لكان عليهم أن يعلنوا لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فور قطع العلاقات مع قريش - عن ندامتهم على

(286)

نقض الميثاق الذي عقدوه من قبل مع النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويعتذروا إليه ممّا بدر منهم لينجوا من الخطر - في صورة انتصار المسلمين على الكفار - ولكن الشقاء أصابهم عندما قطعوا العلاقات مع جيش قريش، ولم يلتحقوا بالمسلمين، ولم يعتذروا إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

على أنه لم يكن في مقدور النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يترك بني قريظة - بعد هزيمة جيش العرب - على حالهم، ويغض النظر عن موقفهم إذ لم يكن من المستبعد، أن يفكر العرب في مناسبة أخرى في تسيير جيش ضخم ومنظم آخر لاجتياح المدينة، ويتمكنوا مع مساعدة بني قريظة من استئصال الإسلام.

فكان يهود بني قريظة يعتبرون - في الحقيقة - العدو الداخلي الذي يهدّد كيان الإسلام من الداخل، وعلى هذا كان من الواجب معالجة الامر مع بني قريظة، وحلّ هذه المسألة الخطيرة بالنسبة إلى المسلمين من الاساس.

خيانة أبي لبابة:

لقد طلب يهود بني قريظة بعد محاصرة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يبعث إليهم «أبالبابة» الأوسي ليتشاوروا معه في الموقف، وقد كان أبالبابة حليفاً لليهود قبل دخول الإسلام إلى المدينة، فأرسله رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه وقالوا: يا ابا لبابة أترى أن نزل على حكم محمّد؟

قال: نعم - وأشار بيده إلى حلقه - يريد أنهم سوف يقتلهم ولم يحقن دماءهم، لو سلّموا.

لقد كان أبو لبابة يعلم أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لن يوافق على بقاء هذه الزمرة الشريرة الخائنة الخطرة على دين التوحيد، إلا أن أبا لبابة قد خان بفعله هذا المسلمين، ومصالح الإسلام العليا، وأفشى سراً كان عليه أن يكتمه قبل وقوعه، ولهذا ندم على فعله ندماً شديداً، فخرج من حصن بني قريظة وهو

(287)

يرتجف ويقول: إني خنت الله ورسوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وانطلق على وجهه، ولم يأت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمين وهم ينتظرون رجوعه إليهم - وربط نفسه في المسجد بعمود من أعمدته، وقال لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله علي ما صنعت!!

ويقول المفسرون: فنزل في خيانة أبي لبابة قول الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.)⁽¹⁾

فلما بلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خبر أبي لبابة، وكان قد استبطأه قال: أما أنه لوجاءني لاستغفرت له، فأما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

وبقي أبو لبابة مرتبطاً بالأسطوانة، وكانت ابنته أو زوجته تأتيه في مواعيد الصلاة، وتحل رباطه، فيصلي ثم تعيد الرباط.

فلما كان السحر من اليوم السابع نزلت توبة أبي لبابة بواسطة ملك الوحي على رسول الله وهو في بيت أم سلمة، والآية التي نزلت في توبته هي قوله تعالى:

(وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.)⁽²⁾

فلما نظرت أم سلمة إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو مستبشرٌ يضحك قال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لها:

«لقد تيب على أبي لبابة إن شئت فبشريه.»

فقامت إليه وهو مرتبط بالجذع في المسجد وقالت له: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك.

فلما عرف الناس بذلك أرادوا أن يطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله

1- الأنفال: ٢٧.

2- التوبة: ١٠٢.

- صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هو الذي يطلقني.

فلما مر عليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه. (1)

ولا شك إن زلة أبي لبابة كانت بسبب عواطفه تجاه يهود بني قريظة، فقد سلبه بكاء رجالهم ونسائهم، وصديانهم واستغاثتهم العاطفية القدرة على ضبط النفس، فكشف سرّاً من أسرار المسلمين كان عليه أن يكتمه، ولكن قوة الايمان بالله والخشية من عذابه أكبر وأعلى من كل شيء إلى درجة أنها دفعت بابي لبابة إلى أن يندم على فعله ذلك الندم العجيب، ويعمد - لجبران تلك الخيانة - إلى ما فعل من الانابة، والاستغفار، الأمر الذي تكون نتيجته أن لا تراود مثل هذه الفكرة نفسه مرة أخرى قط.

إلى أي مدى ذهب الطابور الخامس في مشاغبته؟

خرج «شأس بن قيس» اليهودي من الحصن ليتحدث مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نيابة عن بني قريظة، فطلب من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ان يسمح لليهود بني قريظة بأن يحملوا معهم أموالهم ويخرجوا من المدينة كما فعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مع بني النضير، فأبى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال: «لا، إلا أن تنزلوا على حكمي.»

فقال شأس: لك الاموال والسلاح وتحقن دماءنا، فابى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ورفض هذا الاقتراح أيضاً.

وهنا يطرح السؤال التالي نفسه وهو: لماذا رفض رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مقترحات مندوب بني قريظة؟!

إن السبب واضح، فانه لم يكن من المستبعد أن تقدم هذه الزمرة - بعد

[1- السيرة النبوية: ٢ / ٢٣٧ و ٢٣٨.

خروجها من قبضة المسلمين - على تحريك العرب المشركين الوثنيين ضد الإسلام والمسلمين على نحو ما فعلت بنو النضير، وتعرض المجتمع الاسلامي والدولة الإسلامية الفتية لأخطار كبرى جداً، وتسبب في سفك دماء كثيرة.

ولهذا لم يوافق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على اقتراحات مندوب بني قريظة، وعاد شأس إلى الحصن، واخبر قومه بمقالة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -، ورفضه لمقترحاته.

فقرر بنو قريظة التسليم للمسلمين من دون أي قيد أو شرط.

أو الرضا بما يحكم به سعد بن معاذ الأوسي - وكان حليفاً لهم - في حقهم.

ولهذا عمدوا إلى فتح باب الحصن، ودخل علي - عليه السّلام - على رأس كتيبة خاصة من المسلمين الحصن وجردوا بني قريظة من السلاح، وحبسوهم في منازل «بني النجار» ليتقرر مصيرهم فيما بعد.

وحيث أن يهود بني قينقاع قد أسروا على أيدي جنود الإسلام ثم عفي عنهم بوساطة من الخزرج وبخاصة «عبدالله بن أبي»، وانصرف النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن إهراق دمهم فيما مضى، لذا ضغط الاوسيون المتحالفون مع بني قريظة على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصرّوا عليه اصراراً شديداً بأن يعفو عن بني قريظة الذين كانوا متحالفين مع الأوس من قبل أن يقدم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المدينة، وذلك منافسة للخزرج، ولكن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قاوم هذا الطلب، وقال لهم:

«ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجلٌ منكم؟»

قالوا: بلى.

قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : فذاك إلى «سعد بن معاذ» فهو يحكم فيهم.

والطريف أن اليهود قد قبلوا هم أيضاً بما يحكم به سعد بن معاذ فقد بعث بنو قريظة إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - -

كما يروي ابن هشام⁽¹⁾ والشيخ

[السيرة النبوية: ٢ / ٢٤٠ .

(290)

المفيد⁽¹⁾ : يا محمّد نزل على حكم سعد بن معاذ.

وكان سعدٌ آنذاك يتداوى في خيمة لامرأة تدعى «رفيدة» من سهم أصابه في معركة الخندق، وكانت رفيدة تداوي الجرحى في سبيل الله، وكان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يعود سعداً بين الحين والآخر، فلما حكّمه في بني قريظة أتاه فتيان الأوس، وحملوه على حمار وقد وطنوا له بوسادة من ادم وكان رجلاً جسيماً جميلاً، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فلما طلع سعد على رسول الله والناس حوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جلوس، قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«قوموا إلى سيّدكم.»

فقام الناس على أرجلهم صفيين احتراماً لسعد، وحيّاه كل واحد منهم، حتّى انتهى إلى رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - ، وقد طلب منه رجالٌ قومه مراراً أن يحسن الحكم في حُلفائهم: يهود بني قريظة، ويخأصهم من خطر الموت والقتل قائلين: يا سعد أجمل إلى مواليك فأحسن فيهم فان رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - قد حكّمك فيهم لتحسن فيهم. ولكن سعداً حكم في ذلك المجلس - رغم كل ذلك الإلحاح، والضغط - بأن يُقتل رجال اليهود، وتقسّم أموالهم، وتسبى ذراريهم ونساؤهم. (2)

تقييم ما استند إليه سعد في حكمه:

ليس من شك في أنه إذا غلبت عواطف القاضي وأحاسيسه على عقله، تعرض جهاز القضاء للفوضى والاختلال، وانتهى إلى تمزق المجتمع وسقوطه،

1-الإرشاد: ص ٥٠ وأيضاً راجع زاد المعاد: ٧٣ / ٢ ، امتاع الاسماع: ٢٤٦ / ١ .
2-السيرة النبوية: ٢ / ٢٤٠ ، المغازي: ٥١٠ / ٢ ، زاد المعاد: ٧٣ / ٢ و ٧٤ .

(291)

وانهيار كل شيء، لارتباط كل شيء بالعدالة وارتباط العدالة بالقضاء والمؤسسة القضائية.

إن العواطف تشبه إلى حد بعيد الشهية الكاذبة التي تزيّن في نظر صاحبها كل مضر مهلك في حين إذا غلبت هذه العواطف والمشاعر العقل سحقت مصالح الفرد والمجتمع، أو أضرت به أشدّ وأبلغ إضرار.

إنّ عواطف سعد وأحاسيسه ومشاعره، ومنظر صبيان ونساء بني قريظة المحزن، وأوضاع رجالهم التي كانت تثير الاشفاق وهم في الحبس، وملاحظة الرأي العام في قبيلة الأوسيين الذين كانوا يلحّون على سعد أن يُحسن الحكم والرأي في بني قريظة، كل هذه الاعتبارات كان من شأنها أن تجعل القاضي فريسة العاطفة، فيصدر حكمه على أساس من تقديم مصالح أقلية خاننة مشاغبة على مصالح الاكثرية (أي عامة المسلمين) ويبرئ بني قريظة الجناة الخونة، أو يخفف عن عقوبتهم أكبر قدر ممكن، على الأقلّ أو يسلم لإحدى المقترحات السابقة.

إلا أن منطق العقل، وحرية القاضي واستقلاله في الحكم والقضاء ومراعاة المصالح العامة كل ذلك قاد سعداً إلى ناحية أخرى، فحكم بأن يقتل رجال تلك الزمرة المتآمرة الخائنة، وتصادر أموالهم، وتسبى نساؤهم وأطفالهم.

وقد استند هذا الحاكم في حكمه هذا إلى الامور التالية:

1- أن يهود بني قريظة قد تعهدوا للنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قبل مدة بأنهم لو تأمروا ضدّ الإسلام والمسلمين وناصروا أعداء التوحيد، واثاروا الفتن والقلاقل، وألبوا على المسلمين كان للمسلمين الحق في قتلهم ومصادرة أموالهم وسبي نساءهم. (1)

وقد رأى بأنه لو حكم بمعاقبة اليهود حسب هذا الميثاق لم يصدر حكماً مخالفاً

1- ولقد مرّ عليك نص هذا الميثاق الذي وقع عليه كعب بن الاسد رئيس بني قريظة.

(292)

للعادلة، ولم يرتكب ظلماً.

2- إن هذه الزمرة الناقضة للميثاق أخلت بأمن المدينة في ظل حرب القوى المشتركة، فترة من الزمن، وهاجمت منازل المسلمين، ولولا مراقبة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - للاوضاع وحراسة من عينهم من جنود الإسلام للحفاظ على أمن المدينة، لعلت تلك الزمرة الأفاعيل ولارتكبت أسوأ الفضائع والفجائع، ولو اتيح لهم أن يسيطروا على المدينة لقتلوا رجال المسلمين وصادروا أموالهم، وسبوا نساءهم وأطفالهم.

ومن هنا رأى سعد بن معاذ في نفسه بأنه لو قضى فيهم بمثل هذا القضاء لما خالف الحق.

3- من المحتمل جداً أن سعد بن معاذ رئيس الأوس الحلفاء لليهود بني قريظة، والذين كانت بينهم علاقات ودّ ومحبة كان مطلعاً على قوانين اليهود، الجزائية في هذا المجال، فإن التوراة تنصّ بما يلي: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن اجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكلّ الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويستعبد لك. وان لم تُسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها. وإذا دفعها الربُّ إلُك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السيف، واما النساء والأطفال واليهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك.» (1)

ولعلّ سعداً فكر في نفسه بأن القاضي المرضي والمقبول لدى الجانبين لو عاقب المعتدين حسب شريعتهم ما فعل إلا ما يقتضيه العدل والإنصاف.

4- والذي نتصوره هو أن أكبر أسباب هذا الحكم هو أن «سعد بن معاذ» رأى بأن عينيه أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عفا عن بني قينقاع المعتدين بناء على طلب من الخزر جبين، واكتفى - من عقابهم - باخراجهم من المدينة، واجلائهم

(293)

عنها ولكن تلك الزمرة التي شملها عفو النبي لم تكن تغادر أراضي الإسلام حتى بدأت بالمشاغبة والمؤامرة الدنيئة ضد الإسلام فذهب كعب بن الأشرف إلى مكة، وأخذ يتباكى - دجلا وخداعاً - على قتلى بدر، ويذرف عليهم دموع التماسيح، ولم يفتأ عن تأليب قريش ضد رسول الإسلام وأصحابه حتى عازمت قريش على تسيير جيشها نحو المدينة، وكانت واقعة، «أخذ» التي استشهد فيها اثنان وسبعون من خيرة أبناء الإسلام، ورجاله.

وهكذا فعلت بنو النضير المتآمرون الخونة، الذين عفا عنهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - واكتفى من عقابهم بمجرد اجلائهم عن المدينة، ولكنهم قابلوا هذا الموقف الانساني، بتأليب القبائل العربية المشركة ضد الإسلام والمسلمين، وكوّنوا اتحاداً نظامياً بينها، وألفوا منها جيشاً قوياً ساروا به إلى عاصمة الإسلام (المدينة)، فكانت وقعة (الاحزاب) التي لولا حنكة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وخطه حفر الخندق لقضي على الإسلام بسببها منذ الايام الأولى، ولما بقي من ذلك الدين خير ولا أثر ولقتل آلاف الناس.

لقد لاحظ سعد بن معاذ كل هذه الاعتبارات، فلم تسمح له التجارب الماضية بأن يستسلم لعواطفه، ويضحي بمصالح الآلاف في سبيل الحفاظ على مصالح اقلية لأنه كان من المسلم به أن هذا الفريق سيقوم في المستقبل بايجاد تحالف عسكري أوسع، وسيثير ويؤلب قوى العرب ضد الإسلام ويعرض مركز الإسلام، ومحوره الاساسي للخطر من خلال تدبير مؤامرات أخرى.

وعلى هذه الأساس رأى بأن وجود هذه الزمرة يضر المجتمع الاسلامي مائة بالمائة وأيقين بأن هذه الزمرة لو اتيح لها أن تخرج من قبضة المسلمين لما فتأت لحظة عن المؤامرة ولواجه المسلمون بسببها أخطاراً كبرى.

ومن المحقق أنه إذا لم تكن في المقام هذه الجهات والاعتبارات لكان إرضاء الرغبة العامة في الابقاء على بني قريظة أو التخفيف في عقابهم أمراً في غاية الأهمية بالنسبة إلى سعد بن معاذ، فان رئيس أي قوم، أو جماعة أوج ما يكون

(294)

إلى تأييد قومه وجماعته وكسب رضاهم ودعمهم، ولا ريب أن عدم الاستجابة لمطلبهم، وتجاهل توصياتهم بوجه أكبر ضربة لسيد القوم ورئيسهم، ولكن سعداً (رئيس الأوس) أدرك أن جميع هذه التوصيات والوساطات تخالف مصالح الآلاف من المسلمين، من هنا أثر عدم الحياد عن حكم العقل، والمنطق، على رضا قومه عنه.

هذا وإن الذي يشهد بدقة نظر سعد، وصواب رأيه، وصحة تشخيصه وتقديره للأمر أنه عندما أتى بحبي بن أخطب ليضرب عنقه فوقعت عينه على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يُخذل. أي لولا خذلان الله لليهود لا ستمروا في معاداة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتدبير المؤامرات ضده.

ثم أقبل على الناس فقال: يا أيها الناس لا بأس بأمر الله، ملحمة كتبها الله على بني إسرائيل.

ثم إنه قُتل في هذه الواقعة من النساء امرأة واحدة لأنها ألقت برحى من فوق الحصن فقتلت به أحد المسلمين، فقتلت قصاصاً.

وكان بين المحكوم عليهم بالقتل رجلٌ اسمه «الزبير بن باطا» شفع له رجل من المسلمين يدعى ثابت بن قيس، فلم يُقتل، وأُخلى سبيل زوجته وأولاده، وأعيدت إليه أمواله، وأسلم أربعة من بني قريظة، وقسمت غنائم العدو بين المسلمين بعد إخراج الخمس منها، وإخراج ما يرتبط بالأمور الإدارية الإسلامية العامة.

وقد أعطي للفارس سهمان، وللراجل سهمٌ واحدٌ، وسلم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أموال «الخمس» إلى زيد بن حارثة ليذهب بها إلى نجد ويشترى بها العتاد، والسلاح، والخيل، وغيرها من أدوات الحرب. (1)

-[1] تاريخ الطبري: ٢ / ٢٥٠، السيرة النبوية: ٢ / ٢٤١، زاد المعاد: ٢ / ٧٤.

(295)

وهكذا انتهت مشكلة بني قريظة في التاسع عشر من شهر ذي الحجة من السنة الخامسة للهجرة، وقد نزلت في شأن هذه الواقعة الآيات ٢٦ - ٢٧ من سورة الاحزاب إذ يقول سبحانه:

(وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَهَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَافِيهِمْ وَفَنَّفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ فِرِيقًا يَتَّقُونَ وَ تَاسِرُونَ فَرِيقًا وَأُورِثَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطُوهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا).

وقد استشهد «سعد بن معاذ» الذي سبق أن جرح في معركة الخندق بعد حادثه بني قريظة هذه. (1)

-[1] السيرة النبوية: ٢ / ٢٥٠ - ٢٥٤.

(296)

حوادث السنة السادسة من الهجرة

أعداء الإسلام تحت المراقبة المشددة (١)

لم تنتقض السنة الهجرية الخامسة إلا وقد انتهت فتنة «الاحزاب» و «بني قريظة»، وقضي عليهما بالكامل، وأصبحت المدينة وضواحيها برمتها في قبضة المسلمين وتحت سيطرتهم، وازدادت قواعد الحكومة الإسلامية الفتية رسوخاً وثباتاً، وساد هدوء نسبي في المنطقة التي تخضع للحكومة الإسلامية، غير أن هذا الهدوء كان هدوءاً مؤقتاً، وكان على قائد المسلمين الأعلى أن يراقب أحوال العدو وأوضاعه، وتحركاته ليقضي في المهد على كل مؤامرة ضد الإسلام بما أوتي من قوى وامكانيات.

ولقد سمح الهدوء الذي ساد المنطقة للنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن يقيم بعض مشعلي فتنة «الاحزاب» الذين هربوا من قبضة المسلمين بعد رحيل «الاحزاب». »

فلقد قُتل «حبي بن أخطب» الذي كان من مشعلي معركة الأحزاب، في غزوة بني قريظة، ولكن رفيقه «سلام بن أبي الحقيق» كان لا يزال يعيش في خيبر، ولا شك في أن هذا العنصر الخطر لم يكن ليفتأ لحظة واحدة عن إثارة وتأليب «الأحزاب» مرة أخرى ضد الإسلام، وخاصة أن العرب الوثنيين كانوا

1- [يستفاد من السيرة النبوية: ٣ / ٢٩١ ط ١٣٥٥ أن خطة اغتيال «سلام» كانت قبل نهاية السنة الهجرية الخامسة، ولكن بالنظر إلى أن قضية بني قريظة حدثت في التاسع عشر من شهر ذي الحجة يستبعد هذا الرأي.

(297)

مستعدين لشن حرب على الإسلام وكان من المحتمل إذا توفرت هناك جهة تتكفل بنفقات الحرب، أن تتكرر قضية الاحزاب مرة أخرى.

على أساس هذه المحاسبات كلّف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - (١) مجموعة من شجعان الخزرج وفوارسهم بأن يصفّوا هذا العنصر الخطر، الجريء والحاقد، بشرط أن لا يتعرّضوا لأحد من أبنائه وزوجاته.

فخرجوا حتّى قدموا خيبر، فدخلوا خيبر ليلاً ولم يدعوا باباً في الدار الا أغلقوه على أهله حتّى لا يحس بهم أحد إذا صاح واستغاث بأحد، ثم تسللوا إلى غرفته وكانت في الطابق الاعلى، فطرقوا باب حجرته، فخرجت إليهم امرأته وقالت: من أنتم؟ قالوا: ناس من العرب نلتمس الميرة، ففتحت الباب وسمحت لهم بالدخول عليه من دون التحقق من أمرهم، فدخلوا في غرفته وابتدروه وهو على فراشه باسيفهم بعد أن أغلقوا باب الغرفة على أنفسهم، وقضوا على ذلك المفسد الشرير الذي طالما أزعج المسلمين بفتنه ومؤامراته، ثم خرجوا، وانحدروا من الدرج واختبأوا في ممر مائي من خارج الحصن إلى داخله، فصاحت زوجته، واستغاثت بالجيران، فأوقد

اليهود النيران، واشتدوا في طلب تلك الجماعة الفدائية المسلمة، ولكن من دون جدوى، وعندما يسوا من القبض عليهم رجعوا إلى صاحبهم المقتول، وقد بلغ من جرأة المسلمين أن بعثوا أحدهم ليدخل بين اليهود في خبير ويأتي لهم بخبر ابن أبي الحقيق، لأنهم كانوا يظنون بأنه لا يزال على قيد الحياة.

فدخل ذلك الرجل بين اليهود فوجدهم وامرأته حول ابن أبي الحقيق، وفي يدها المصباح تنظر في وجهه، وتحديثهم، وتقص عليهم ما جرى، ثم أقبلت عليه

-[إن السبب أو الحكمة في تكليف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الخزرج بهذه المهمة هو أن الاوس قاموا بعملية مشابهة في حق «كعب بن الأشرف» اليهودي الخطر فأراد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إقامة توازن في كسب المفاخر بين تينك القبيلتين ولذلك أوكل مهمة تصفية هذا اليهودي المفسد إلى رجال الخزرج.

(298)

تنظر في وجهه ثم قالت: فاظ (أي مات) واله يهود.

فعاد إلى رفاقة وأخبرهم بنجاح عمليتهم وهلاك عدو الله: «سلام بن أبي الحقيق» على أيديهم، فخرجوا في تلك الليلة من مخبأهم وعادوا إلى المدينة وأخبروا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بما جرى. (1).

أهل الرأي من قريش يهاجرون إلى الحبشة:

توجه جماعة من أهل الرأي في قريش الذين أخافهم تقدم الإسلام وانتشاره المطرد بشدة، إلى البلاط الحبشي ليقطنوا ويقبموا في الحبشة فقد قالوا: الرأي أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر «محمد» على قومنا كنا عند النجاشي، فإننا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد وإن ظهر قومنا فنحن من عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير.

وخرجت هذه الجماعة وفيهم «عمرو بن العاص» بهدايا كثيرة من الحجاز قاصدة أرض الحبشة، وبلاط النجاشي بالذات.

وصادف دخولهم على «النجاشي» ورود «عمرو بن أمية الضمري» مبعوث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وحامل كتابه إلى النجاشي يوصيه فيه بجعفر بن أبي طالب، والمهاجرين الآخرين من رفقائه.

فقال «عمرو بن العاص»: لو دخلت على «النجاشي» بالهدايا وسألته عمرو بن أمية فاعطانيه، فضربت عنقه.

فدخل «عمرو بن العاص» على «النجاشي»، وسجد له - على النحو الذي كان متبعاً - فسأله النجاشي عن حاله، ثم قال: هل أهديت إلى من بلادك شيئاً؟

قال ابن العاص: نعم أيها الملك، قد أهديت إليك أدماً كثيراً، ثم قال: أيها

[1] السيرة النبوية: ٢ / ٢٧٤ و ٢٧٥.

(299)

الملك اني قد رأيت رجلاً خرج من عندك (ويقصد مبعوث رسول الله) وهو رسولٌ عدوٌ لنا، فاعطنيهِ لاقْتلته، فإنه قد أصاب من أشرفنا وخيارنا.

فغضب النجاشي لمقالة ابن العاص غضباً شديداً فصفعه صفعة كادت أن تكسر أنفه، ثم قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله. ويحك يا عمرو أتعني واتبعه فإنه والله لعلى الحق، وليظهرنَّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، ثم قال: أفتبايعني له على الإسلام؟

يقول عمرو بن العاص: فقلتُ نعم، فبسط يده فبايعته على الإسلام ثم خرجتُ إلى أصحابي، وقد حال رأيي عما كان عليه، وكنمت

أصحابي إسلامي. (1)

الوقاية من تكرار التجارب المرة:

تركتُ حادثة «الرجيع» المرّة التي قتل فيها جماعة من قبائل «عضل» و «القارة» من بني لحيان ثلثة من دعاة الإسلام غدرًا ومن دون رحمة، بل وسلمت رجلين منهم بقوا على قيد الحياة إلى قريش فصلبتهما قريشٌ صبراً إنتقاماً من رسول الله والمسلمين.

لقد تركت هذه الفاجعة المأساوية المؤلمة ألماً شديداً في نفوس المسلمين، وأحدثت جرحاً عميقاً في ضمائرهم وأدت إلى توقف حركة الارشاد والتبليغ والدعوة.

ولكن في الظروف المستجدة التي استطاع الإسلام أن يزيل - بعد الأحزاب وبني قريظة - كل العراقيل والعقبات عن سبيل المسلمين رأى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من الضروري تأديب بني لحيان لتعتبر بقية القبائل، فلا يؤذوا بعد ذلك فرق الدعوة ويعتات التبليغ الإسلامي.

[1] السيرة النبوية: ٢ / ٢٧٦ و ٢٧٧.

(300)

فاستخلف مكانه لإدارة شؤون المدينة «ابن أم مكتوم» في الشهر الخامس من السنة الهجرية السادسة ولم يُظهر لأحد ما يقصده، بل خرج يظهر أنه يريد الشام ليصيب «بني لحيان» على غفلة منهم، فلما وصل إلى طريق مكة عرّج حتى نزل بمنطقة تدعى غراب وهي منازل بني لحيان، وقد كان بنو لحيان قد عرفوا بمسير النبي إليهم فحذروه، وتمنعوا في رؤوس الجبال.

وكان غزو المسلمين هذا، وجبن العدو قد تركا أثراً نفسياً قوياً، فأحدث رعباً في قلوب أعداء الإسلام.

واستكمالاً لهذا الهدف العسكري الهام عمّد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى القيام بسلسلة من المناورات العسكرية، واستعراض القوة القتالية في جنوده ليرهب أعداء الله القريب منهم والبعيد ولتسمع بهم قريش خاصة فيذعرهم، فنزل في مائتي راكب من أصحابه حتى نزل عسفان على مقربة من مكة وقد قال من قبل:

«لو هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أننا قد جننا مكة.»

ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع الغميم (وهو موضعٌ بناحية الحجاز بين مكة والمدينة وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال). ثم عاد مع أصحابه إلى المدينة. (1)

هذا وكان جابر بن عبد الله الأنصاري يقول: سمعت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يقول حين رجوعه من هذه الغزوة:

«...أعوذ بالله من وُعاء السفر وكأبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال.» (2)

غزوة ذي قرد:

لم يقم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المدينة بعد عودته من الغزوة

- [السيرة النبوية: ٢ / ٢٧٩ و ٢٨٠.
- 2-تاريخ الطبري: ٢ / ٢٥٤، المغازي: ٢ / ٥٣٥، إمتاع الاسماع: ١ / ٢٥٩ و ٢٦٠.

السابقة إلا ليالي قلائل حتى أغار «عبيدة بن حصن الفزاري» بمساعدة بني غطفان، على إبل لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كانت ترعى في منطقة تدعى الغابة (وهي موضعٌ قرب المدينة من ناحية الشام) كانت مرعى أهل المدينة، وكان فيها آنذاك رجلٌ من بني غفار، وامرأة مسلمة له، فقتلوا الرجل، وأخذوا معهم المرأة والإبل.

وكان أول من أخبر الناس بذلك رجلٌ يدعى سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي وكان قد غدا يريد الغابة متوشحاً سيفه وقوسه ونبله، يريد الصيد، حتى إذا علا «ثنية الوداع» نظر إلى بعض خيول المغيرين، فصعد على تلة سلع وصرخ مستغيثاً ومستنجداً: واصباحاه، ثم خرج يشند في آثار القوم (المغيرين) فجعل يردّهم بالنبل، ولكن المعتدين لا ذوا بالفرار.

وكان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أول من سمع صراخ ابن الأكوع واستغاثته، فصرخ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هو مستغيثاً: الفرع، الفرع. فأسرع جماعة من الفرسان برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -، فلما اجتمعوا عنده أمر عليهم «سعد بن زيد الأشهلي» وقال له:

«أخرج في طلب القوم، حتى الحقك في الناس.»

فخرج الفرسان المسلمون في طلب القوم، وخرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من ورائهم، حتى أدركوا القوم في ذي قرد، فوقع بين المسلمين، وبين المغيرين قتال قليلٌ قتل فيه من المسلمين رجالان، ومن المعتدين ثلاثة، واستنقذت المرأة، وبعض الأبل المسروقة، ولكن العدو لجأ إلى غطفان، فأقام رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في تلك المنطقة يوماً وليلة، تخويفاً للعدو، ولم يَز من الصالح ملاحقة العدو رغم إصرار بعض المسلمين على ملاحقتهم، واستنقاذ بقية السرح (الأبل).

(302)

ثم رجع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قافلاً حتى قدم المدينة⁽¹⁾ وكانت هذه الغزوة في الثالث من ربيع الأول من السنة السادسة من الهجرة.⁽²⁾

النذر غير المشروع:

واقبلت المرأة الغفارية المسلمة التي استنقذت من أيدي المغيرين على ناقة من إبل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حتى قدمت على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخبرته بما جرى ثم قالت: يا رسول الله إني قد نذرتُ إن نجاني الله على هذه الناقة، أن أنحرها فأكلُ كبدها وسنامها.

فتبسم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال:

«بئس ما جزيتيها أن حملك الله عليها ونجاك ثم تتحرينها، انه لا نذر في معصية، ولا فيما لا تملكين إنما هي ناقة من إبلي فارجعي إلى أهلك على بركة الله.»⁽³⁾

وبذلك بيّن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حكماً في مجال النذر، وهو أن النذر لا يصح في مال اللغير، فلا نذر إلا في ملك.

والقصة إلى جانب ذلك تكشف عن الخلق العظيم الذي كان يتحلى به قائد الإسلام الأعلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ولطفه بأصحابه واتباعه، حيث جابه المرأة المذكورة برفق ولطف، وبصبرها بما لها وما عليها في منتهى التواضع والشفقة.

-
- 1- تاريخ الطبري: ٢ / ٢٥٥، المغازي: ٢ / ٥٣٧ و ٥٤٩ .
2- امتاع الاسماع: ١ / ٢٦٠ و ٢٦١ .
3- السيرة النبوية: ٢ / ٢٨١ - ٢٨٩، الطبقات الكبرى: ٢ / ١٣٣، امتاع الاسماع: ١ / ٢٦٣ قال صاحب الامتاع: و كانت الناقة هي القصواء، والقصواء اسم ناقة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

(303)

حوادث السنة السادسة من الهجرة

٤٠

تمرد بني المصطلق

لقد بلغت قوة المسلمين العسكرية في السنة الهجرية السادسة حداً ملفتاً للنظر، بحيث تمكن جماعة خاصة منهم أن يترددوا على المناطق القريبة من مكة بمنتهى الحرية، ومن دون خوف، بيد أن هذه القوة العسكرية لم تكن كافية للسيطرة على المناطق التي كان يتواجد فيها القبائل المشركة، ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم.

وإذا كان المشركون لا ينتزعون المسلمين حريتهم، وكانوا يسمحون لأن تجري النشاطات التبليغية من دون منع أو معارضة لما كان رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يقدم على شراء الاسلحة، وبعث سرايا، والمجموعات العسكرية، ولكن حيث ان نشاطات المسلمين التبليغية، ومجموعات الارشاد والدعوة كانت تتعرض باستمرار للمضايقة، والاذى، بل والاعتقال من قِبَل العدو، لذلك كان رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مضطراً بحكم العقل والفطرة أن يقوي من قدرات الإسلام الدفاعية.

لقد كانت العلة والأسباب الواقعية لأكثر الحروب التي وقعت إلى السنة الهجرية السادسة بل حتى آخر لحظة من حياة رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تتلخص في إحدى الأمور التالية:

1- الرد على اعتداءات المشركين الغادرة، مثل معركة «بدر» و «أحد» و

(304)

«الخنق.»»

2- تأديب وعقاب الظالمين الذين قتلوا رجالاً أبرياء من المسلمين، أو قتلوا جماعات الدعوة والتبليغ في البراري والقفار النائية، أو عرّضوا كيان الإسلام للخطر بنقضهم عهودهم، وتتمثل هذه الحروب في الغزوات الثلاثة ضد الطوائف اليهودية الثلاث (بني قينقاع، بني النضير، بني قريظة) وبني لحيان.

3- افشال واحباط المؤامرات، أو محاولات التمرد التي كانت على شرف الانعقاد في القبائل التي كانت تنوي بجميع الرجال والاسلحة غزو المدينة، واكتساح عاصمة الإسلام واستنصال المسلمين، وكانت أكثر الحروب الصغيرة والمناوشات العابرة ناشئة من هذا العامل الأخير.

غزوة بني المصطلق:

كان بنو المصطلق من قبائل «خزاعة» المتحالفة مع قريش.

وقد بلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن الحارث بن أبي ضرار زعيمها يعدّ العدة، ويجمع الرجال المقاتلين لمحاصرة المدينة وغزوها، فقرر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن يقضي على هذه المؤامرة في مهدها كما كان يفعل دائماً.

ولهذا أرسل أحد أصحابه وهو: «بريدة» إلى أرض بني المصطلق ليأتي بأخبارهم، فذهب بريدة، ودخل فيهم وتحادث - في هيئة متكررة - مع رئيسهم وعرف بنيته، ثم عاد إلى المدينة واخبر رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بما رآه وسمع، وأن بني المصطلق عازمون على المسير إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لمحاصرة المدينة.

فخرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في جمع من أصحابه حتى لقيهم عند ماء يدعى «المريسيع»، ونشبت الحرب بينهم وبين المسلمين، ولكن صمود المسلمين وبسالتهم التي كانت قد أرعبت قلوب قبائل العرب تسبب في أن

(305)

لا يطول القتال بين المسلمين وبين «بني المصطلق» فتفرق جيش العدو بأن قتل منهم عشرة رجال، كما وقتل رجل مسلم خطأ، فأصاب المسلمون غنائم كثيرة وسبوا جماعة كبيرة من نساء بني المصطلق. (1)

هذا وان النقاط والدروس المفيدة في هذه الواقعة تتمثل في السياسة الحكيمة التي مارسها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في حوادث هذه الغزوة، مما سنذكر بعضها عما قريب.

وقد شبَّ في هذه المنطقة ولأول مرّة خلفت بين المهاجرين والأنصار، كاد أن يأتي بنتائج مرّوعة أبسطها أن توجّه ضربة قوية إلى الإتحاد الحاصل بين المسلمين نتيجة هوى البعض وهوسهم لولا تدبير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - . وحكمته، الرشيدة التي أنهت كل شيء، وابتقت على روح التآخي بين المسلمين.

وتعودُ جذور هذه الحادثة إلى تزاحم رجلين من المسلمين على البئر بعد ان وضعت الحرب أوزارها.

فقد ازدحم «جهجاه بن مسعود» وهو من المهاجرين و «سنان بن وبر الجهني» وهو من الأنصار على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهني - مستغيباً بقبيلته على عادة الجاهليين - : يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، وكاد أن يتقاتل المسلمون من الفريقين فيما بينهم في هذه الحادثة، وفي هذا المكان البعيد عن عاصمة الإسلام ومركزه، ويتعرض بذلك كيانهم للسقوط والانهيار، لأنهم تواعدوا على القتال كل فريق انتصاراً لصريخه.

فلما عرف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بذلك قال:

«دَعُوها فإنها منتنة»⁽²⁾»

أي أن هذا النوع من الاستغاثة ولمثل هذا الدافع ما هو إلا من دعوى

-1 تاريخ الطبري: ٢ / ٢٦٠، امتاع الاسماع: ١ / ١٩٥ و ١٩٦ .
-2 السيرة النبوية: ١ / ٢٩٠ (الهامش).

الجاهلية، وقد جعل الله المؤمنين إخوة وحزباً واحداً، فانما ينبغي أن تكون الدعوة للمسلمين، وإلا كانت جاهلية، لاقيمة لها في الإسلام.⁽¹⁾

وبذلك قضى النبي الحكيم على الفتنة في مهدها، وجنب المسلمين أخطارها.

مناقق حاول إشعال الموقف:

أجل لقد استطاع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بهذا الاستنكار الشديد أن يطفئ نار الاختلاف والتنازع فيكف الفريقان (القبيلتان) عن استئناف التنازع والتقاتل.

إلا أن «عبد الله بن أبي» رئيس حزب المنافقين بالمدينة، والذي كان يكنُّ حقداً كبيراً على الإسلام وقد شارك في تلك الغزوة طمعاً في الغنيمة، أظهر - في هذه الحادثة - حقه، وضعيفته على الإسلام، وقال لرهط من أهل المدينة كانوا عنده آنذاك: هداما فعلمتم

بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم، لقد نافرنا (أي المهاجرين) وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لن رجعا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل (ويقصد بالأذل المهاجرين)!!!

فتركت كلمات «ابن أبي» أمام تلك الجماعة التي كانت لا تزال تعاني من بقايا عصبية جاهلية، أثرها في نفوسهم، وكادت توجه ضربة قاضية إلى صرح الوحدة الإسلامية، والاخوة الإيمانية التي كانت تشدُّ المسلمين - أنصاراً ومهاجرين - بعضهم ببعض كالبنيان المرصوص.

ومن حسن الحظ أن فتى غيوراً من فتيان المسلمين هوزيد بن الارقم

[1-راجع هوامش السيرة النبوية: ٢ / ٢٩٠.]

(307)

لما سمع بهذه الكلمات المثيرة للشغب والفتنة رد على «ابن أبي» بكلمات قوية شجاعة إذ قال: أنت والله الذليل القليل المبعض في قومك، ومحمد في عز من الرحمان، ومودة من المسلمين، والله لا أحبك بعد هذا أبداً.

ثم نهض ومشى إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأخبره الخبر، فرده رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثلاث مرات حفظاً للظاهر، قائلاً: لعلك وهمت يا غلام، لعلك غضبت عليه، لعله سقه عليك.

ولكن زيدا كان يؤكد على صحة ما أخبر به رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من مقالة المنافق الخبيث «عبدالله بن أبي»، وتحريكه للناس ضد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وهنا طلب عمر بن الخطاب من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يقتل «ابن أبي» قائلاً: مر به عباد بن بشر فليقتله. (1)

ولكن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أجاب عمر بقوله:

«فكيف يا عمر إذا تحدثت الناس أن محمداً يقتل أصحابه، لا. (2)»

ولقد مشى «عبدالله بن أبي» إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حين بلغه أن «زيد بن الارقم» قد بلغ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ما سمع منه، فحلف

- [تثبت دراسة حياة الخليفة الثاني أنه لم يبد في اية معركة من معارك الإسلام قوة وبسالة، بل كان في صف المتقاعدين دائماً. ولكن كلما أسر المسلمون أحداً كان هو أول من يقترح على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بقتله ونذكر للمثال ما يلي:
أ - هذا المورد الذي طلب فيه من رسول الله أن يُقتل ابن أبي.
ب - طلبه من النبي بأن يُقتل حاطب بن أبي بلتعة الذي تجسس لصالح المشركين من أهل مكة في فتح مكة.
ج - طلبه من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بقتل أبي سفيان الذي جاء به العباس عم النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى خيمة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قبيل فتح مكة، وغير ذلك من الموارد التي سبقت أو التي تأتي.
-2 امتاع الاسماع: ١ / ٢٠٧؛ السيرة النبوية: ٢ / ٢٩١.

(308)

بالله: ما قُلتُ ما قال، وقال بعض من حضر من أهل الرأي من أصحابه دفاعاً عن ابن أبي: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل.

ولكن الامر لم ينته إلى هذا، فقد كان هذا نوعاً من الهدوء المؤقت تماماً كالهدوء الذي يسبق العاصفة، الذي لا يمكن الاطمئنان إليه

فقد كان يتوجب على قائد المسلمين الأعلى أن يقوم فوراً بما يؤدي إلى أن ينسى الطرفان هذه القصة نهائياً، ولهذا أمر بالرحيل في ساعة من النهار لم يكن - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يرتحل فيها عادة.

فجاءه «أسيد بن حضير»، وقال: يا رسول الله لقد رحمت في ساعة منكراً ما كنت تروح في مثلها؟

فقال له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الاعزُّ منها الاذل»؟

فقال أسيد: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل، وأنت العزيز، إرفق به يا رسول الله، فوالله لقد جاء الله بك وان قومه لينظّمون له الخرز ليتوجه، وأنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً.

ثم أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالرحيل فارتحل الناس، وسار بهم النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يومهم ذاك حتى أمسى، وليتهم تلك حتى أصبح، من دون أن يسمح لهم بالنزول والإستراحة، إلا للصلاة، وسار بهم في اليوم هكذا حتى أتتهم الشمس وسلبوا القدرة على مواصلة السير فأذن لهم بالإستراحة، فنزل الناس، ولم يلبثوا أن وجدوا مسن الأرض فوقعوا نياماً من شدة التعب، وقد نسوا كل شيء من تلك الذكريات المرة، وكان هذا هو ما يريده النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقد سار بهم ليل نهار من دون توقف ليشغلهم عن الحديث الذي كان من

(309)

«عبدالله بن أبي» المنافق المفتن.⁽¹⁾

صراع بين الايمان والعاطفة:

كان عبدالله ابن «عبدالله بن أبي» من فتيان الإسلام الشجعان، ومن فرسانه اليواصل، وكان - كما تقتضيه تعاليم الإسلام - يبر بأبيه المنافق أكثر من غيره، ولكنه عندما عرف بما تفوه به أبوه في شأن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وظن أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سيقتل أباه جاء إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال: يا رسول الله انه قد بلغني أنك تريد قتل «عبدالله بن أبي»، فيما بلغك عنه فإن كنت لابد فاعلا فمرني به فانا أحمل اليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تامر به غيري، فيقتله فلا تدعني نفسي انظر إلى قاتل عبدالله بن أبي يمشي في الناس فاقتله، فأقتل (رجلا) مؤمناً بكافر فأدخل النار!!

إن حديث هذا الفتى يعكس - في الحقيقة - أعظم تجليات الإيمان وآثاره في النفس، والروح الإنسانية.

لماذا لم يطلب من النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يعفو عن أبيه؟! لأنه كان يعلم أن ما يفعله رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إنما هو بأمر الله تعالى، ولكن ابن عبدالله كان يرى نفسه في صراع روحي حاد.

فمن جانب كانت تدعوه عواطف البنوة والأبوة والأخلاق العربية أن ينتقم ممن يقتل أباه، ويسفك بالتالي دم مسلم.

ومن جانب آخر توجب عوامل أخرى مثل ضرورة استتباب الأمن والطمأنينة في البيئة الإسلامية أن يقتل رأس المنافقين «ابن أبي»، انه صورة من صورة الصراع بين مقتضى الايمان، ومقتضى العاطفة.

-[تاريخ الطبري: ٢ / ٢٦١ و ٢٦٢، مجمع البيان: ١٠ / ٢٩٢ - ٢٩٥.

(310)

ولقد اختار عبدالله بن عبدالله بن أبي طريقاً ثالثاً في هذا الصراع، يضمن مصالح الإسلام من جهة، ويحافظ على مشاعره من أن تجرح على أيدي الآخرين من جهة أخرى، وذلك بأن يكون هو الذي ينفذ حكم الاعدام في أبيه المنافق المشاغب.

وهذا العمل وان كان شاقاً مؤلماً إلا أن قوة الايمان بالله والتسليم لأمره سبحانه كانت تفيض عليه قدراً كبيراً من الطمأنينة والسكون

ولكن النبي الرحيم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ردأ على سؤال واقتراح عبدالله بن عبدالله بن أبي:

«بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا!!!»

وهذا الكلام الذي يكشف عن سمو أخلاق النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومبلغ رحمته، أدهش المسلمين جميعاً فتوجهوا باللوم والعتاب الحاد إلى المنافق «عبدالله بن أبي»، ولحقه بسبب ذلك ذلٌ شديدٌ بين الناس ما وراءه ذلٌ، وهوانٌ ما وراءه هوانٌ، واحتقره الناس حتى انه لم يعد أحدٌ يعابيه، ويقيم له وزناً.

لقد علم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المسلمين في هذه الحوادث ذُروساً مفيدة جداً، وأظهر جانباً من سياسة الإسلام الحكيمة، والرشيده.

فقد تحطم «عبدالله بن أبي» رئيس المنافقين بعد هذه الحادثة، ولم يعد له أي دور، بل عاش بقية حياته مهاناً محترقاً بين الناس بعد أن رأى الناس إيذاه المستمر لرسول الله، وعفو النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عنه، واطمأنوا عن مساوئيه.

وقد قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لعمر بن الخطاب ذات يوم حين بلغه إحتقار الناس لابن أبي ذلك الإحتقار، وسقوط محله في القلوب:

«كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لي: أقتله، لأرعدت له أنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. »

فقال عمر: قد والله علمتُ لأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أعظم بركة

(311)

من أمري. (1)

الزواج المبارك:

كانت «جويرية» بنت الحارث بن أبي ضرار رئيس بني المصطلق من جملة السبايا التي وقعت في أيدي المسلمين في غزوة بني المصطلق، فأقبل أبوها الحارث بفداء ابنته إلى المدينة فلما كان في وادي العقيق نظر إلى الإبل التي جاء بها لفداء ابنته فرغب في بيعين منها فغيبها في شعب من شعاب العقيق، ثم أتى إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال: يا محمد أصبتم إبنتي وهذا فداؤها، فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

«فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق في شعب كذا وكذا»!؟

فلما سمع الحارث بهذا الخبر الغيبي على لسان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - آمن هو وولداه به، وأسلم أناس آخرون من قومه كانوا معه، وأرسل إلى البعيرين فجاء بهما، فدفع الإبل إلى رسول الله ودفعت إليه ابنته «جويرية» فأسلمت هي أيضاً.

ثم خطبها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى أبيها، فزوجه إياها، وأصدقها أربعمئة درهم.

فلما بلغ الناس أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تزوج جويرية بنت الحارث وكان بأيديهم بعض الأسرى من بني المصطلق قالوا: أصهار رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأطلقوا ما كان بأيديهم من أولئك الأسرى وكانوا مائة عائلة، فما علمَ امرأة اعظم بركة على قومها منها، فقد اعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني

[السيرة النبوية: ٢ / ٢٩٢ و ٢٩٣، وفي السيرة الحلبية: ٢ / ٢٩١: لأرعدت له أنوف، وتعني هذه القولة النبوية الشريفة: ان النبي لو كان يأخذ باقتراح عمر بقتل عبدالله بن أبي لدافع عنه أناس حمية وعصبية، ولكنه اليوم وبعد أن خذله الناس أنفسهم لو أمر النبي أولئك المدافعين بقتله. لقتلوه دون إبطاء.]

(312)

المصطلق.

وهكذا أطلق جميع أسرى بني المصطلق الذين كانوا بأيدي المسلمين رجالا ونساء بفضل ذلك الزواج المبارك، أو قل بفضل هذه السياسة الاجتماعية الحكيمة، وعادوا إلى قبيلتهم. (1)

الفاسق يفتضح:

كان إسلام بني المصطلق اسلاماً نابعاً من قناعة ورغبة لأنهم لم يجدوا من المسلمين خلال مدة الأسر إلا حسن المعاملة والإحسان والعفو حتى أنه تم اطلاق جميع الأسرى ببعض الذرائع وعادوا إلى قبيلتهم وأهليهم.

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أرسل إليهم «وليد بن عقبة بن أبي معيط» لجباية زكاتهم، فلما سمعوا بقدمه خرجوا إليه راكبين ليكرموه وليؤدوا إليه ما عليهم من الزكاة، فلما سمع بهم هابهم، فرجع إلى رسول الله مسرعاً فأخبره بأن القوم هموا بقتله، وأنهم منعه ما قبلهم من صدقتهم، فطلب المسلمون غزوه، وفي الاثناء قدم وفدٌ من بني المصطلق على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقالوا: يا رسول الله سمعنا برسولك حين بعثته إلينا فخرجنا إليه لنكرمه، ونؤدي إليه ما قبلنا من الصدقة فأسرع راجعاً فبلغنا أنه زعم لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أننا خرجنا إليه لنقتله ووالله ماجئنا لذلك. فنزلت في هذا الشأن الآية السادسة من سورة الحجرات تؤيد مقالة بني المصطلق وتصف الوليد بالفسق، إذ يقول تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبينوا أن تُصيبوا قوماً بجاهلة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين.) (2)

[1-السيرة النبوية: ٢ / ٢٩٥، امتاع الاسماع: ١ / ١٩٨ و ١٩٩.
2-السيرة النبوية: ٢ / ٢٩٦ و ٢٩٧.]

٤١ قصة الإفك

بقي رئيس حزب النفاق عبدالله بن أبي يواصل تجارته بالجوراري، والإمام ويضعهن تحت تصرف الرجال للزنا بهن، ليجني من هذا الطريق أرباحاً طائلة.

حتى بعد دخول الاسلام في المدينة.

فعندما نزلت آيات تحريم الزنا كان ذلك الفاسق يمارس حرقته القذرة، حتى أن إماءه ضقن بهذا العمل الفاجر ذرعاً، فشكين إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقالت إحداهن: إن سيدي يكرهني على البغاء.

فنزل قوله تعالى في شجب هذا العمل الدنيء:

(وَلَا تُكْرَهُوا فِتْيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتُّوْا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. (1)(2))

ولقد اراد رجل يعيث بعفاف النساء كهذا، أن يسيء إلى امرأة ذات مكانة وشخصية في المجتمع الاسلامي⁽³⁾، ويتهمها بالزنا نكابة بالمؤمنين، والمؤمنات، وبغياً وحسداً.

-1 النور: ٣٣.
-2 مجمع البيان: ٤ / ١٤١، الدر المنثور: ٥ / ٤٦.
-3 اخترنا هذا التعبير لورود نوعين من شأن النزول في المقام بحيث لم يتأكد للمؤلف من هي المقصودة هنا، وستقرأ في الصفحات القادمة أدلة عدم ثبوت من عينه البعض.
إن ما يستفاد من الآيات والروايات المرتبطة بهذه القصة تفيد إجمالاً أن امرأة ذات مكانة في المجتمع الاسلامي آنذاك تعرضت لاتهام المنافقين لها، وأما من هي تلك المرأة على وجه التعيين فذلك ما لا يمكن البت فيه، على وجه القطع واليقين.

حقاً إن معاداة النفاق للايمان من أشد أنواع المعاداة، فإن العدو المشرك والكافر يعمد دائماً إلى إشفاء غيظه واطفاء غضبه وحنقه باستخدام عدائه في جميع الموارد والاوقات.

ولكن المنافق الذي يتظاهر بالايمان، ويتستر بالإسلام حيث انه لا يمكنه التظاهر بعدائه، فإن عداءه الباطني يتراكم ويتصاعد حتى يصل أحياناً إلى حد الانفجار، لهذا ينطلق المنافق في كيل التهم من دون حساب أو ميزان تماماً كما يفعل المجانين.

ونرى مثل هذه الحالة في عبدالله بن أبي.

ولقد ظهرت ذلّة «عبدالله بن أبي» رئيس حزب النفاق في واقعة بني المصطلق، وقد منعه ابنه من دخول المدينة، ولم يسمح له بدخولها إلا بوساطة من النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وهكذا آل مصير رجل كان يحلم بالملوكية والسلطان إلى أن يمنعه أخصن أقربائه عن الدخول إلى مسقط رأسه، فيما كان يطلب هو من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يكف عنه ولده.

إن من الطبيعي أن يعتمد رجلٌ مثل هذا إلى فعل كل ما يشفي غليله ويذهب غيظه، ومن ذلك ترويح الشائعات الكاذبة انتقاماً من المجتمع الإسلامي.

فعندما يعجز العدو عن المواجهة المباشرة يعتمد إلى حيك الشائعات، وترويجها واشاعتها ليستطيع من خلال ذلك، توجيه ضربة نفسية إلى المجتمع، وكذا بلبله الرأي العام، وإشغاله بالتوافه وصرفه عن القضايا المهمة والمصيرية.

إن سلاح الشائعات من الأسلحة المدمرة التي يمكن أن تستخدم في تشويه سمعة الأفراد الصالحين، وابعاد الناس عنهم.

المنافقون يتهمون شخصاً نقى الجيب:

يستفاد من الآيات النازلة في قضية «الإفك» أن المنافقين اتهموا شخصاً

(315)

بريئاً كان يتمتع في المجتمع الإسلامي آنذاك بتهمة الزنا، تحقيقاً لمآربهم الدينية، واضراراً بالمجتمع الإسلامي، وقد ردّهم القرآن وشجب عملهم بشدة قل نظيرها، وأبطل خطتهم.

فمن هو - ترى - ذلك البريء؟ ان في ذلك خلافاً بين المفسرين، فالأكثر على أنها «عائشة» زوجة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ويرى الآخرون أنها «مارية» القبطية أم إبراهيم وزوجة رسول الله أيضاً لقد ذكروا أسباباً مختلفة لنزول هذه الآيات لا تخلو عن إشكال. وها نحن ندرس القول الذي يذهب إلى أن المراد في هذه الآيات هو: «عائشة» وتوضيح ما يصح وما لا يصح في هذا المجال:

دراسة القول الأول:

يرى المحدثون والمفسرون من أهل السنة أن نزول آيات «الإفك» يرتبط بعائشة، ويذكرون في هذا المجال رواية مفصلة لا يتلاءم بعضها مع عصمة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومن هنا لا يمكن القبول بهذا القول على إطلاقه.

وها نحن نذكر ما يتلاءم من هذه القصة مع عصمة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثم نستعرض آيات الإفك، ثم نشير إلى القسم الذي يخالف عصمته - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في هذا القول.

إن اسناد هذه الرواية تنتهي برمتها إلى «عائشة (1)» نفسها، فهي تقول: كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إذا أراد سفراً أفرع بين نسائه، فأيهن خرج سهمها خرج بها معه، فلما كانت غزوة بني المصطلق أفرع بين نسائه كما كان يصنع عادة فخرج سهمي عليهن معه فخرج بي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فلما فرغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من سفره ذلك وجه قافلاً حتّى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً، فبات به بعض الليل، ثم أذن في الناس بالرحيل، فارتحل

1- راجع الدر المنثور: ٥ / ٢٤ - ٣٤.

(316)

الناس وخرجت لبعض حاجتي، وفي عنقي عقد لي، فيه جزع ظفار، (أي خرز يماني) فلما فرغت انسلت من عنقي ولا أدري فلما رجعت إلى الرّحل ذهب التمسّه في عنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الذي ذهب إليّ، فالتمسّه حتّى وجدته، وجاء القوم خلافي الذين كانوا يرحلون لي البعير، وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا اليهودج، وهم يظنون أنني فيه كما كنت أصنع، فاحتملوه، فشدّوه على البعير ولم يشكّوا أنني فيه، ثم أخذوا رأس البعير، فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب، قد انطلق الناس.

فتلقت بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إليّ. فوالله إني لمضطجعة إذ مرّ بي صفوان السلمي (وهو من فرسان الإسلام) وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته، فلم يبيت مع الناس، فرأى سوادي، فاقبل حتّى وقف وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلما رأني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون طعينة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وأنا متلففة في ثيابي. قال: ما خلفك يرحمك الله. فما كُلمته، ثم قرّب البعير فقال: إركبي، واستأخر عني فركبت، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعاً يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس، وما افتقدت حتّى أصبحت، ونزل الناس فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا؛ وارتجع العسكر (أي شكوا في) ووالله ما اعلم بشيء من ذلك. حتّى نزلت آيات «الافك» تبرئني مما اتهمني به المنافقون.

هذا القسم من شأن النزول الذي لخصناه لك من قصة مفصلة يمكن تطبيقها مع آيات «الافك»، وليس فيه ما ينافي عصمة رسول

الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

واليك الآيات التي نزلت في هذا المجال:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ)

(317)

عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَوْهُ بِالْأَسْنَتِمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ. (1)

أبرز النقاط في آيات «الإفك»:»

يستفاد من القرائن أن هذه التهمة كانت نابعة أساساً من المنافقين أي أنه من كيدهم، واليك هذه القرائن:

1-يقال: أن المراد من قوله سبحانه: «وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ» هو «عبدالله بن أبي» رئيس المنافقين، وكبيرهم.

2-لقد عبر تعالى في الآية الحادية عشرة عن الذين اتهموا المرأة بلفظ: «عصبة» وهذه العبارة تستعمل في الجماعة المنظمة، التي يربطها هدفٌ واحدٌ وتحدها غايةٌ واحدةٌ وتفيد أنهم كانوا متعاونين ومتعاضدين في المؤامرة ولم يكن مثل هذه الجماعة بين المسلمين إلا المنافقون.

3-«عبدالله بن أبي» بسبب منعه من الدخول إلى المدينة، بقي عند مدخل المدينة، فلما شاهد عائشة وهي راكبة بعير صفوان استغل الفرصة للايقاع برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - اشفاءً لغيظه، فبادر إلى استعمال سلاح التهمة والبهتان، وقال إن زوجة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - باتت مع اجنبي في تلك الليلة والله ما نجا منهما من الإثم أحدٌ.

1-النور: ١١ - ١٦.

(318)

4-إنه تعالى يقول في نفس الآية (أي الحادية عشرة): «وَلَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ.»

والآن يجب أن نرى كيف لا يكون إتهام مؤمن طاهر الجيب شراً للمؤمنين بل يكون خيراً لهم؟

إن سبب ذلك هو أنّ هذه القصة كشفت القناع عن نوايا المنافقين ومقاصدهم الشريرة واقتضوا برمتهم، هذا مضافاً إلى أنّ المسلمين أخذوا من هذه القضية دُرُوساً مفيدة، مذكورة في محلها.

الزوائد في هذه القصة:

هذا القدر من القصة يمكن تطبيقه مع القرآن الكريم، ولا يتنافى مع عصمة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولكن البخاري روى بين ثنايا هذه القصة أموراً - نقلها عن الآخرون في الاغلب - تعاني من إشكاليين أساسيين هما:

-1- منافاتها لمقام النبوة والعصمة - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

فقد روى البخاري عن عائشة نفسها قولها:

لما قديمنا المدينة لم أثبت أن أشتكيك شكوى شديدة (أي مرضت) ولا يبلغني من ذلك شيء وقد انتهى الحديث إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وإلى أبوي لا يذكران لي منه قليلاً ولا كثيراً إلا أنني قد أنكرت من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعض لطفه بي، وكنت إذا اشتكيك رحمني ولطف بي، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك، فأنكرت ذلك منه، كان إذا دخل عليّ وعندي أمي تمرضني قال: كيف تيكم، لا يزيد على ذلك. حتى إذا نقهت من وجعي بلغني ما قاله المناقون فيّ، فمرضت مرة أخرى فقلت يا رسول الله لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فمرضتني، فقال: لا عليك، فانتقلت إلى أمي، فقلت لأمي: يغفر الله لك تحدثت الناس بما تحدثوا به، ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً، فقالت: أي بُنية هوني

(319)

عليك الشأن فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل لها ضرائر إلا كثرن، وكثر الناس عليها⁽¹⁾.

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - شاور «أسامة بن زيد» في الامر، فأنتى عليّ خيراً وقاله، ثم قال: يا رسول الله أهلك ولا نعلم منهم إلا خيراً، وهذا الكذب والباطل!!

وشاور عليّاً فقال: يا رسول الله إن النساء لكثير، وأنتك لقادرٌ على أن تستخلف، وسل الجارية، فأنها سئصدفك (أي جارية عائشة) فدعا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بريرة ليسألها، فقالت: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً.

إن هذا القسم من الرواية يتنافى بقوة مع عصمة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لانه يكشف عن أن النبي وقع فريسة بأيدي الشائعات الكاذبة إلى درجة أنه غير سلوكه مع عائشة، وشاور أصحابه فيها!!

إن مثل هذا الموقف مع شخص بريء لا يوجد على تهمته أي دليل ليس فقط يتنافى مع مقام العصمة النبوية، بل يتنافى حتى مع مقام مؤمن عادي لأنه من المؤمنين ليس من الجائز أبداً أن تتغير الشائعات سلوك مسلم عادي تجاه شخص منهم، وحتى لو تركت تلك الشائعات تأثيراً في نفس المسلم، فليس من الجائز أن تحدث مثل ذلك التغيير والانقلاب في نظرتة وسلوكه.

إن القرآن الكريم يوثق في الآية ١٢ و ١٤ من سورة النور اولئك الذين وقعوا فريسة الشائعات وظنوا الظن السوء إذ يقول تعالى:

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ؟)

1-صحيح البخاري: ج ٦، تفسير سورة النور ص ١٠٢ و ١٠٣ وكذا الجزء ٥ ص ١١٨، السيرة النبوية: ٢ / ٢٩٩.

(320)

(وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ؟) (1)!

فاذا صحَّ هذا القسم من الرواية المذكورة في شأن النزول لزم أن نقول: ان هذا العتاب الشديد وهذا التوبيخ الصارخ كان يعمُّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أيضاً، والحال أن مقام النبوة الذي يلزم العصمة لا يسمح لنا بأن نقول بأن هذا الخطاب والتوبيخ موجهين إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

من هنا لا مناص من رفض كل هذه الرواية المذكورة في شأن النزول الذي يتنافى مع عصمة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أو القبول بالقسم الذي لا يتنافى منها مع عصمة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ورفض ما يتنافى معها.

2-سعد بن معاذ توفي قبل حادثة «الإفك»:

ويروي البخاري في صحيحه في ذيل شأن النزول عن عائشة نفسها: بعد أن سأل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بريرة عن أمري، فقالت في خيراً وصعد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: «من يعذرني ممن يؤذيني في أهلي (أي من يؤذيه) ويقولون ذلك لرجل، والله ما علمت على ذلك الرجل إلا خيراً، وما كان يدخل بيتاً من بيوتى إلا معي ويقولون عليه غير الحق. »

فقام «سعد بن معاذ» وقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله إن يك من الأوس آتاك برأسه، وإن يك من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك نمضي لك.

فتقل هذا الكلام على «سعد بن معاذ» وغضب منه، فقام وقال: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله. (2)

[1] أي لماذا - عندما سمعتم بهذا الافتراء - لم تظنوا بأنفسكم خيراً وقلتم: هذا إفاك، ولماذا - عندما سمعتم بهذا الكلام - لم تقولوا هذا بهتان لا يجوز ان نتكلم به.
2- كان «سعد بن معاذ» رئيس الأوس و «سعد بن عباد» رئيس الخزرج، وكانت بين هاتين القبيلتين منافسة قديمة، وكان «عبدالله بن أبي» خزرجياً، فاعتبر «سعد بن عباد» كلام «سعد بن معاذ» تعريضاً بالخزرج وخطأ من شأنهم.

(321)

فقام اسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - وقال: كذبت والله لنقتلنه وأنفك راغم. فانك منافقٌ تجادلُ عن المنافقين، والله لو نعلم ما يهوى رسولُ الله من ذلك في رهطي الأدئين ما رام رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مكانه حتى أتيتك برأسه، ولكني لا أدري ما يهوى رسولُ الله.

ثم تغالطوا، وقام الخزرج من جانب، والأوس من جانب آخر، وكادوا أن يشتبكوا ورسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على المنبر، فأشار رسول الله إلى الحيين جمعياً أن اسكتوا، ونزل عن المنبر فهذأهم وخفضهم حتى انصرفوا...

هذا القسم من القصة المذكورة في رواية البخاري غير صحيح، ولا يتلاءم مع التاريخ الثابت الصحيح لأن «سعد بن معاذ» كان قد مات بعد إصدار حكمه في بني قريظة متأثراً بجرح أصابه في معركة «الاحزاب»، وقد وقعت حادثة «الإفاك» بعد واقعة بني قريظة، وقد صرح البخاري نفسه بهذا في صحيحه (ج ٥ ص ١١٣) في باب «معركة الاحزاب وبني قريظة»، فكيف يمكن والحال هذه أن يحضر مجلس رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويجادل سعد بن عباد في قصة الإفاك التي وقعت بعد واقعة بني قريظة بعده شهور؟⁽¹⁾!

لقد ذهب المؤرخون إلى أن معركة الخندق ثم واقعة بني قريظة وقعتا في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة، فتكون النتيجة ان قضية بني قريظة انتهت في التاسع عشر من شهر ذي الحجة، وقد توفي سعد بن معاذ في أعقاب هذه الحادثة مباشرة لما انفجر به جرحه⁽²⁾ في حين وقعت غزوة بني المصطلق في شهر شوال

[1- نفس المصدر السابق، والجدير بالذكر أن ابن هشام لم يذكر في سيرته «سعد بن معاذ»، ولكنه روى جدال أسيد مع سعد بن عباد راجع السيرة النبوية: ٢ / ٣٠٠، وهكذا فعل ابن الاثير في الكامل في التاريخ: ٢ / ١٣٤، ولكن المغازي ذكر القصة كاملة، واتى باسم سعد بن معاذ راجع: ٢ / ٤٣١.
2- السيرة النبوية: ٢ / ٢٥٠.

(322)

من السنة السادسة.⁽¹⁾

أجل إن ما هو مهم في المقام هو أن نعرف أن حزب النفاق حاول أن يزلزل النفوس، ويبلبلها ببهت امرأة سالحة ذات مكانة في المجتمع الاسلامي يومذاك.

وقد فُسر قوله: **الَّذِي تولى كِبْرَهُ** (أي الَّذِي تحمل القسط الأكبر من هذه العملية الخبيثة بعدالله بن أبي، فهو الَّذِي قاد هذه العملية الرخيصة والخطرة كما صرحت بذلك عائشة نفسها أيضاً).

الرواية الاخرى في سبب النزول:

وتقول هذه الرواية أن الآيات الحاضرة نزلت في «مارية القبطية» زوجة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ووالدة إبراهيم .

فان هذه الرواية تقول: لما مات إبراهيم بن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حزن عليه حزناً شديداً، فقالت عائشة: ما الَّذِي يُحزنك عليه؟ ما هو إلا ابن جريح، فبعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - علياً صلوات الله عليه وأمره بقتله، فذهب علي صلوات الله عليه ومعه السيف، وكان جريح القبطي في حائط (أي بستان)، فضرب «علي» باب البستان، فأقبل جريح له ليفتح الباب، فلما رأى علياً صلوات الله عليه، عرف في وجهه الغضب، فأدبر راجعاً ولم يفتح باب البستان، فوثب علي - عليه السلام - على الحائط ونزل إلى البستان، وأتبعه، وولى جريح مدبراً، فلما خشى أن يرهقه (أي يدركه) صعِد في نخلة وصعد «علي» في أثره، فلما دنى منه رمى بنفسه من فوق النخلة، فبذت عورته، فاذا ليس له ما للرجال ولا له ما للنساء، فانصرف علي - عليه السلام - إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

- [السيرة النبوية: ٢ / ٢٩٧. ولعله فطن ابن هشام لهذه الناحية فترك ذكر سعد بن معاذ، بينما غفل عنها البخاري في صحيحه، راجع شروح البخاري منها: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر: ٨ / ٤٧١ و ٤٧٢ للوقوف على اضطراب الشرح في معالجة هذا التناقض.

(323)

فقال له: يا رسول الله إذا بعثتني في الأمر أكون كالمسمار المحمى في الوبر أم أتثبت؟

قال: لا بل تثبت.

قال: والَّذي بعثك بالحق ماله ما للرجال وما له ما للنساء.

فقال: الحمد لله الَّذي صرف عنا سوء أهل البيت.

وهذه الرواية التي نقلها «المحدث البحراني» في «تفسير البرهان» ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ و «الحويزي» في تفسير «نور الثقلين»

ج ٣ ص ٥٨١ - ٥٨٢ ضعيفة وغير مستقيمة من حيث المفاد، وهو ضعف ظاهر لا يحتاج إلى البيان.

ومن هنا لا يمكن القبول بها في شأن نزول هذه الآيات.

فالمهم هو وقوع أصل هذه الحادثة، كان من كان المتهّم في هذه الحادثة.

(324)

٤٢ رحلة سياسية دينية

كانت السنة الهجرية السادسة بكل حوادثها المرة والحلوة تقترب من نهايتها عندما رأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المنام أنه دخل البيت (الكعبة) وحلق رأسه، وأخذ مفتاح البيت، وعرف مع المعرفين، فقص - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذه الرؤيا على أصحابه وتفاءل بها خيراً.⁽¹⁾

ولم يلبث أن أمر أصحابه بالتهيؤ للعمرة، ودعا القبائل المجاورة التي كانت لا تزال على شركها وكفرها إلى مرافقة المسلمين في هذه السفارة، ولهذا شاع في جميع أنحاء الجزيرة العربية أن المسلمين سيتجهون في شهر ذي القعدة صوب مكة يريدون العمرة.

ولقد كانت هذه السفارة الروحانية تنطوي - مضافاً إلى العطاء الروحاني والمعنوي - على مصالح إجتماعية وأهداف سياسية، فقد عززت مكانة المسلمين في شبه الجزيرة العربية، وتسببت في انتشار دين التوحيد في أوساط المجتمع العربي آنذاك، وذلك:

أولاً:

لأن القبائل العربية المشركة كانت تتصور أن النبي الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يخالف كل عقائد العرب، وتقاليدهم الشعبية، والدينية حتى فريضة الحج، والعمرة التي كانت تعد من ذكريات الاسلاف ومواريتهم.

[مجمع البيان: ٩ / ١٢٦].

(325)

من هنا كانوا يخافون رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويتوجسون خيفة من دينه، وعقيدته، ولكن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عليه وآله وسلم - استطاع في هذه المناسبة باشتراكه، واشتراك أصحابه في مراسيم العمرة أن يخفف هذا الخوف لدى القبائل المشركة إلى حد كبير، وأن يوضح بعملة أن رسول الإسلام لا يعارض زيارة بيت الله الحرام، والفريضة المذكورة التي تعد من طقوسهم الدينية، وتقاليدهم المذهبية، بل يعتبرها فريضة مقدسة، فهو مثل والد العرب الاكبر «اسماعيل بن ابراهيم الخليل» عليهما السلام (يعمل على المحافظة على هذه التقاليد الدينية، وبهذا استطاع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يستقطب قلوب

من كان يتوهم أن رسالة «محمّد» ودعوته، ودينه يعارض جميع شؤونهم وتقاليدهم وأعرافهم الدينية، والشعبية، ويخالفها مخالفة مطلقة، ويقال من خوفهم، واستيحاقتهم.

ثانياً:

إذا استطاع المسلمون أن يحرزوا في هذا السبيل نجاحاً، ويؤدوا مناسك العمرة في المسجد الحرام بحرية، أمام أعين الآلاف من المشركين، فإن عملهم هذا بنفسه سيكون تبليغاً ناجحاً للإسلام، لأن أخبار المسلمين ستنتشر بواسطة المشركين الذين قدموا مكة من جميع المناطق لاداء مناسك العمرة، فس يحملون أنباء ما رأوه وشاهدوه من أفعال المسلمين الرشيدة، وأخلاقهم الفاضلة، إلى أوطانهم لدى عودتهم من مكة إلى بلادهم، وبهذا ينتشر نداء الإسلام في تلك المناطق التي لم يستطع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يبعث إليها الدعوة والمبلغين حتى ذلك الحين، ويترك هذا الأمر أثره المطلوب.

ثالثاً:

إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ذكر الناس في المدينة بحرمة الأشهر الحرم ثم أمر المسلمين بأن لا يحملوا معهم من الاسلحة شيئاً إلا السيف الذي يحمله كل مسافر معه.

ولقد جلب هذا الامر عواطف كثير من الغرباء عن الإسلام نحو هذا الدين، وغيّر من نظرتهم السلبية تجاه دعوة الإسلام، لأنهم شاهدوا بأعينهم أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يحرم القتال في هذه الأشهر، ويدافع بنفسه عن

(326)

هذه السنّة الدينية القديمة ويدعو إلى رعايتها خلافاً لكل الدعايات التي كانت تبثها قريش عن أن الإسلام لا يحترم هذه الأشهر، ويجيز الاقتتال وسفك الدماء فيها.

لقد فكر القائد الاسلامي مع نفسه بانه لو أصاب المسلمون في هذا السبيل أى نجاح، فانهم يكونون قد حققوا أملاً قديماً من آمالهم التي طالما تشوقوا إلى تحقيقها.

كما انه سوف يستطيع المهاجرون الذي طال بعدهم عن وطنهم، وأهلبيهم، أن يزوروا ذويهم واقرباءهم. هذا إذا سمحت قريش لهم بدخول مكة.

وأما إذا منعتهم قريش عن الدخول في الحرم فان مكانة قريش ستعرض - حينئذ - لخطر السقوط في العالم العربي، وسيلومهم العرب على ذلك، لأن جميع ممثلي القبائل العربية المحايدة سترى كيف عاملت قريش جماعة مسالمة أرادت دخول مكة لأداء مراسيم

العمرة، وزيارة الكعبة المعظمة، ولا تحمل معها أئ سلاح إلا ما يحمله المسافر في سفره عادة، في حين يرتبط المسجد الحرام بالعرب كافة، وإنما تقوم قريش بمجرّد سدانته، وإدارة شؤونه.

وهنا تتجلى حقانية المسلمين بشكل واضح، ويتضح عدوان قريش وينكشف للجميع بطلان مواقفها، فلا تستطيع قريش بعد ذلك أن تواصل تأليبها للقبايل العربية ضدّ الإسلام، وعقد تحالفات عسكرية واتحاد نظامي مع قواها لمحاربة المسلمين لأنها قد منعت الزوار المسلمين أمام أعين الألاف من الحجيج والزائرين من حقهم المشروع.

لقد لاحظ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كلّ هذه الجوانب وغيرها فامر المسلمين بالتوجّه نحو مكة، وأحرم الف واربعمئة⁽¹⁾ أو الف وستمئة⁽²⁾ أو الف وثمانمئة⁽³⁾ في «ذي الحليفة» و قلد سبعين بدنة (بغيراً) وبهذا أعلن عن هدفه من تلك الرحلة.

1- السيرة النبوية: ٢ / ٣٠٩.

2- مجمع البيان: ٢ / ٢٨٨.

3- روضة الكافي: ٣٢٢.

ولقد أرسل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عيناً له ليخبره عن قريش إذا وجدهم في أثناء الطريق.

ولما كان رسول الله بعسفان (وهي منطقة بين الجحفة ومكة) أتاه رجلٌ خزاعيّ كان يتقصى الأخبار لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فعاهدوا الله أن لا تدخلها أبداً وهذا «خالد بن الوليد» في خيلهم (وكانوا مائتين) قد قدّموا إلى كراع الغميم. (وهي موضع بين مكة والمدينة أمام عُسفان بثمانية أميال).

فلما سمع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعزم قريش على منعه ومنع أصحابه من العمرة قال:

«يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحربُ ماذا عليهم لوخلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرّين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظنُّ قريش، فوالله لا أزال اجاهد على الذي بعثني الله به حتّى يظهره الله، أو تنفردُ هذه السالفة»⁽¹⁾ أي أُقتل أو أموت.

ثم طلب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من يذّله على طريق آخر غير الطريق الذي هم بها لكي يتجنب مواجهة طليعة قريش بقيادة «خالد بن الوليد». »

فتعهد رجل من بني أسلم بذلك فسلك برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه طريقاً وعرأ كثيرة الحجارة بين شعاب حتى انتهوا إلى منطقة سهلة تدعى بالحديبية، فبركت هناك ناقرة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - « ما هذا لها عادة، ولكن حبسها حابسُ الفيل بمكة.(2)»

ثم أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الناس أن ينزلوا في ذلك المكان فنزلوا.

[السالفة: صفحة العنق، وكفى بهذه الجملة عن الموت لأنها لا تتفرد عما يليها إلا بالموت.
2-بحار الانوار: ٢٠ / ٣٢٩ وغيره. وقد أشار بهذا الكلام إلى واقعة الفيل.

(328)

ولما علمت طليعة قريش بمسير رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، لحقت به، حتى اقتربت منه وحاصرت موكبه ورجاله فكان على النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إذا أراد أن يواصل سيره باتجاه مكة ان يخترق صفوف رجال قريش، فيسفك دماءهم ويعبر على أجسادهم، وحينئذ كان الجميع يرى أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لا يهدف العمرة والزياره بل يريد الحرب والقتال، فكان مثل هذا العمل يسيء إلى سمعة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويضر بهدفه السلمى.

ثم أن قتل هؤلاء النفر من طليعة قريش لا يزيل جميع الموانع من طريقه، لأن قريشاً كانت تبعث بإمدادات مستمرة، ولم يكن لينته إلى هذا الحد.

هذا مضافاً إلى أن المسلمين ما كانوا يحملون معهم - حينذاك - إلا ما يحمله المسافر العادى من السلاح، ومع هذه الحال لم يكن القتال أمراً صحيحاً، وحكيماً بل كان يجب ان تحل المشكلة عن طريق التفاوض.

ولهذا عندما نزل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في تلك المنطقة قال:

« لا تدعوني قريش اليوم إلى خُطّة يسألونني فيها صلّة الرحم إلا أعطيتهم إياها.(1)»

ولقد بلغ كلام رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذا مسامع الناس، وكان من الطبيعي أن يسمّع به العدو أيضاً، ولهذا بعثوا برجال من شخصياتهم إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليتعرفوا على هدفه الاصيلي من هذا السفر.

مندوبو قريش عند النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

بعثت قريش بعدة مندوبين إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليتعرفوا على مقصده وهدفه في هذا السفر.

وكان أول أولئك المبعوثون هو: «بديل بن ورقاء الخزاعي» الذي أتى

رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في رجال من خزاعة فكلموه نيابة عن قريش وسألوه: ما الذي جاء به؟ فقال لهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«إننا لم نجيء لقتال أحد، ولكننا جننا معتمرين.»

فرجعوا إلى قريش وأخبروهم بأن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يات لقتال وإنما جاء معتمراً زائراً لبيت الله، ولكن قريشاً لم يصدقوهم وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا تحدثت بذلك عنّا العرب.

ثم بعثوا «مكرز بن حفص» فسمع من النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما سمعه سابقه، فعاد وصدق ما أخبر قريشاً به، ولكن قريشاً لم تصدق مكرزاً أيضاً كما لم تصدق سابقه.

فبعثت في المرة الثالثة الحليس بن علقمة⁽¹⁾ وكبير رماة العرب، لحسم الموقف، فلما رآه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مقبلاً قال:

«إن هذا من قوم يتألهون (أي يعظمون أمر الله) فابعثوا الهدى فيوجهه حتى يراه.»

فلما رأى الحليس، الهدى يسيل عليه من غرض الوادي في قلائده، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محلّه، رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إغظماً لما رأى، فقال لهم: يا معشر قريش والله ما على هذا حالناكم، ولا على هذا الذي عاقدناكم، أبصد عن بيت الله من جاء معظماً له وقد ساق الهدى معكوفاً إلى محله؟!، والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمّد وما جاء له، أو لأنقرن بالأحابيش نفرة رجل واحد، وهكذا امتنع الحليس من مواجهة رسول الله بالقوة واستخدام العنف معه لصدّه، وقد لاحظ بأعينه ان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمين لا يريدون إلا العمرة والزيارة لا القتال

والحرب، بل عاد يهدد قريشاً إذا هي أرادت صدّه عن ذلك.

فشق هذا الكلام وهذا التهديد على قريش وخافوا من مخالفته، فقالوا: مه، كف عنا يا خُلَيْس حَتَّى نَأْخُذَ لَأَنْفُسِنَا مَا نَرْضَى بِهِ.

ثم بعثوا أخيراً «عروة بن مسعود الثقفي» وكان رجلاً لبيباً تطمئن قريش إلى درايته وحكمته وخبره وكان لا يحب أن يمثل قريشاً في هذه المفاوضات لما رآه من معاملتهم مع الممثلين السابقين، ولكن قريشاً تعهدت له بان تقبل بما يقول، وأعلنت له عن ثقها الكاملة به، وبما سيخبر به، وبأنه غير متهم عندهم.

فخرج من عندهم حتى أتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فجلس بين يديه ثم قال: يا محمد جمعت أوشاب الناس (أي أخلاطهم) ثم جئت بهم إلى أهلك وقبيلتك، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمر، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً، (أو قال: أن يقرؤا عنك ويدعوك).

وعندما بلغ ابن مسعود في كلامه إلى هذا قال له أبو بكر وكان جالساً خلف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : أنحنُ ننكشفُ عنه، وندعه؟

لقد كان «عروة» كأى دبلوماسي ماكر، يحاول إضعاف معنويات أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بكلامه، وروغانه.

وأخيراً انتهت المباحثات دون جدوى. وهنا جعل «عروة» يتناول لحية رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ازدراء به - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، والمغيرة بن شعبة - وكان واقفاً على رأس رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - - يفرغ يده إذا تناول لحية النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويقول اكف يدك عن وجه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قبل أن لا تصل إليك.

فسأل عروة: يا محمد من هذا؟ فقال النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة (ويبدو أن جميع من كان حول النبي آنذاك أو بعضهم كانوا مقتنعين رعية للظروف الأمنية).

(331)

فغضب عروة وقال: «أي عُذْر، وهل غَسَلْتُ سَوْءَتِكَ إِلَّا بِالْأَمْسِ» وكان المغيرة قد قتل قبل إسلامه ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف فودى عروة المقتولين وأصلح الأمر.

فقطع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الكلام على عروة وقال له مثل ما قال لبديل ورفيقه، وأنه لم يأت يريد حرباً، بل جاء يريد العمرة، ولأجل أن يرى عروة مكانته بين أصحابه وأتباعه، قام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتوضأ أمامه، فرأى عروة بأمر عينيه كيف أنه لا يتوضأ إلا وتسابق أصحابه على النقاط القطرات المتناثرة من وضوئه، فرجع إلى قريش وقال لهم: يا معشر

قريش إتي قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإتي والله ما رأيت مَلِكاً في قوم قطّ مثَل محمّد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يُسلّمونهُ لشيء قطّ فَرُوا رأيكم. (1)

رسول الله يبعث مندوباً إلى قريش:

لم تثمر الاتصالات التي جرت بين مبعوثي قريش، وبين رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فكان من الطبيعي أن يتصور رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أنّ مبعوثي قريش لم يستطيعوا نقل هدفه إلى قريش، وإسماعهم الحقيقة، وأن أتهمهم لهم بالجن والكذب منعهم من قبول ما قد أخبروا به، ولهذا قرّر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يبعث هو مندوباً عنه إلى رؤوس الشرك ليوضح لهم هدف رسول الإسلام من هذا السفر، وأنه ليس لإزيارة بيت الله وأداء مناسك العمرة لا غير.

فاختار رجلاً لبيباً حازماً من بني خزاعة يدعى «خراش بن أمية» فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على بعير يقال له «الثعلب». ليلبغ أشرافهم عنه ما جاء له من

[المغازي: ٢ / ٥٩٨، امتاع الاسماع: ١ / ٢٨٧].

(332)

الزيارة والعمرة، فدخل مكة، وبلغ سادة قريش رسالة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولكن قريشاً - خلافاً لكل الأعراف الدولية والاجتماعية قديماً وحديثاً. والقاضية بحصانة السفراء وضرورة احترام كل مما يمت إليهم بصلة من ممتلكاتهم عمدت إلى جعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الذي امتطاه سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى مكة فعقروه عدواناً، وكادوا أن يقتلوا سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نفسه، ولكن وساطة جماعة من قادة العرب ادت إلى أن تخلى قريش سبيله حتى أتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

إن هذا العمل الدنيء أثبت - بوضوح - أن قريشاً لم تكن تريد السلام بل كانت دائماً في صدد اشعال فتيل الحرب.

ولم تلبث قريش أن كلّفت خمسين رجلاً من فتيانها بالطواف بعسكر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بغية أخذ شيء من أمواله، أو أسر بعض أصحابه لو اتيح لهم ذلك، ارباباً للمسلمين وتخويفاً لهم. ولكن هذه الخطة فشلت فشلاً ذريعاً، فان هؤلاء لم يصيبوا شيئاً بل أسرهم المسلمون جميعاً وأتى بهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فعفا عنهم، وخلى سبيلهم مع أنهم كانوا قد رَموا عسكر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالحجارة والنبل.

وبهذا ثبت رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مرة أخرى أنه يحب السلام ويسعى إليه وانه جاء معتمراً لا معتدياً ولا

محارباً. (1)

النبي يبعث سفيراً آخر إلى قريش:

رغم كل هذه الأمور ورغم كل التصلب والتعصب الذي أبدته القيادة القرشية المشركة ضد الإسلام والمسلمين وضد محاولات رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - السلمية لم ييأس رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من تحقيق السلام

[1-تاريخ الطبري: ٢ / ٢٧٨.

(333)

فقد كان يريد - واقعاً - أن يعالج المشكلة من طريق المفاوضات، ومن طريق تغيير التصورات التي كان يحملها اشراف قريش وسادتها المتعنتون المتصلبون عن رسول الله و دعوته.

ومن هنا كان يجب هذه المرة أن يختار - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رجلاً لم تخض يده في دماء قريش، ولهذا لم يصلح «علي بن أبي طالب» ولا «الزبير» ولا غيرهم من فرسان الإسلام وشجعانه الذين جالدوا صناديد قريش في ميادين القتال وأردوا فريقاً منهم صرعى، لمثل هذه السفارة، وهذه المهمة.

ولهذا تقرر - بعد التأمل - انتداب «عمر بن الخطاب» لهذه المهمة، أي الذهاب إلى مكة، والتحدث إلى سادة قريش، ورؤسائها، لأنه لم يكن قد أراق من المشركين حتى ذلك اليوم ولا قطرة دم، ولكن «عمر» اعتذر عن تحمل هذه المسؤولية، والقيام بهذه المهمة المحفوفة بالمخاطر قائلاً: يا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ؛إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدى (وهم عشيرته) من يمنعني، ولكني ادلك على رجل أعزبها مني، «عثمان بن عفان». (لكونه أموياً بينه وبين أبي سفيان زعيم قريش قرابة).⁽¹⁾

فدعا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «عثمان بن عفان» فبعثه إلى «أبي سفيان» وأشراف قريش، ليخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه انما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمة.

فخرج عثمان إلى مكة، فلقه «أبان بن سعيد بن العاص» حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فانطلق «عثمان» حتى أتى أبا سفيان وأشراف قريش فبلغهم عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطُف،

(334)

فامتنع عثمان عن الطواف إحتراماً لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ثم إن قريشاً احتبست عثمان عندها، ولعلهم فعلوا ذلك ريثما يتوصلوا إلى حلٍّ ثم يطلقوه ليبلغ إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رأيهم.

بيعة الرضوان:

إلا أن إبطاء مبعوث النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن العودة من مكة أوجد قلقاً شديداً في نفوس المسلمين، خاصة وأنه شاع أن عثمان قد قتل، فثارت ثورة المسلمين، واستعدوا للانتقام من قريش وعمد النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أيضاً إلى مخاطبتهم قاتلاً:

«لا تبرح حتى نناجز القوم.»

وذلك تقوية لارادة المسلمين، وتحريكاً لمشاعرهم الطاهرة.

وفي هذه اللحظات الخطيرة، وفي ما كان الخطر على الابواب، وبينما لم يكن المسلمون متهيئين للقتال قرر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يجند بيعته مع المسلمين.

فجلس رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تحت شجرة، وأخذ أصحابه يبايعونه على الاستقامة والثبات والوفاء واحداً واحداً، ويحلفون له أن لا يتخلوا عنه أبداً، وأن يدافعوا عن حياض الإسلام حتى النفس الأخير، وقد سميت هذه البيعة ببيعة «الرضوان» التي جاء ذكرها في قوله تعالى:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا.)⁽¹⁾

فأتضح موقف المسلمين بعد هذه البيعة، فإما أن تسمح لهم قريش بدخول مكة لزيارة بيت الله المعظم، وإما أن تتصلب في موقفها الراض فيكون بينهم

(335)

وبينما كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في هذه الحال إذ طلع عليهم «عثمان بن عفان»، وكان ذلك بنفسه طليعة سلام كان يريده رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فأخير عثمان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن الذي يمنع قريشاً من السماح لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بدخول مكة هو اليمين التي الزموا بها انفسهم أن لا يدعوه يدخل مكة هذا العام وانهم سيبعثون إليه من يتفاوض معه بهذا الشأن.

سهيل بن عمرو يفاوض رسول الله:

بعثت قريش - في المرة الخامسة - «سهيل بن عمرو» إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقد كلفته بانهاء المشكلة ضمن شروط خاصة سنقروها في ما يأتي.

فأقبل «سهيل بن عمرو» على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولما رآه النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: قد أراد القومُ الصلح حين بعثوا هذا الرجل.

فلما انتهى «سهيل» إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تكلم في المسألة كما يتكلم أي دبلوماسي بارع، فقال وهو يحاول إثارة عواطف النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأحاسيسه:

يا أبا القاسم إن مكة حرمتنا وعزنا، وقد تسامعت العربُ بك إنك قد غزوتنا ومتى ما تدخل علينا مكة عنوة تطمع فينا فنتخطف، وإنا لنذكرك الحرم، فان مكة بيضتك التي تفأقت عن رأسك.

فقال له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: فما تريد»؟

1- ولقد كان لهذه البيعة في نفسها أثرٌ سياسي مهم في نفس العدو، يقول الواقدي: فلما رأت عيون قريش سرعة الناس إلى البيعة وتشميرهم إلى الحرب اشتد رعبهم وخوفهم وأسرعوا إلى القضية (ج ٢ ص ٦٠٤). وراجع امتاع الاسماع: ١ / ٢٩١ أيضاً.

قال: أريد أن أكتب بيني وبينك هدنة على أن أخليها لك في قابل⁽¹⁾ فتدخلها، ولا تدخلها بخوف ولا فزع، ولا سلاح إلا سلاح الراكب، السيف في القراب.

فقبل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعقد مثل هذا الصلح.

وهكذا أدت مفاوضات «سهيل» مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى عقد صلح شامل وواسع بين قريش وبين المسلمين

ولقد تشدد «سهيل» في شروط هذا الصلح كثيراً، حتى كاد أن ينتهي هذا التشدد إلى قطع المفاوضات أحياناً، ولكن حيث أن الطرفين كانا يرغبان في الصلح والمواعدة، لهذا كانا يستأنفان التفاوض والتفاوض مرة أخرى، بعد كل أزمة تطرأ على المباحثات.

وأخيراً انتهت مفاوضات الجانبين - رغم كل ما أبداه مندوب قريش من التصلب - إلى عقد وثيقة مواعدة وهدنة نُظمت في نسختين ووقع عليها الجانبان.

ويروي كافة المؤرخين وارباب السير أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - استدعى علياً - عليه السلام - (، وامره أن يكتب تلك الوثيقة قائلًا له: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» فكتب «علي» ذلك فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم!!

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : اكتب: باسمك اللهم وامح ما كتبت. ففعل «علي» ذلك.

ثم قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : اكتب «هذا ما صلح عليه رسول الله سهيل بن عمرو. »

فقال سهيل، لو أحببتك في الكتاب إلى هذا لأقررت لك بالنبوة فامح هذا الاسم و اكتب: محمد بن عبدالله (أو قال: لو شهدت أنك رسول الله لم اقاتلك ،

- [أي افرغ لك مكة في العام القادم لتدخلها.

(337)

ولكن اكتب اسمك واسم ابيك.)

ولم يرض بعض من حضر من المسلمين في هذه النقطة بأن يرضخ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لمطالب «سهيل» إلى هذه الدرجة، ولكن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الذي كان يلاحظ مصالح عليا غفل عنها ذلك البعض كما سنذكرها فيما بعد رضي بمطلب «سهيل»، وقال لعلي - عليه السلام - : (أمحها يا علي).

فقال علي - عليه السلام - (بأدب بالغ: يا رسول الله إن يدئ لا تنطلق لمحو اسمك من النبوة.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : فضع يدي عليها، فمحي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بيده كلمة: رسول

الله نزولا عند رغبة «سهيل» مفاوض قريش. (1)

ان التسامح الذي أبداه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في تنظيم وثيقة الصلح هذه لا يعرف له نظير في تاريخ العالم كله، لأنه اظهر بجلاء أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يقع فريسة بيد الالهواء والاعراض الشخصية والعواطف والاحاسيس العابرة، وكان يعلم أن الحقائق لا تتبدل ولا تتغير بالكتابة والمحو، من هنا تسامح مع مفاوض قريش «سهيل» الذي تصلّب في مطالبه غير المشروعة كثيراً، حفاظاً على أصل الصلح. وحرصاً على السلام.

التاريخ يعيد نفسه:

ولقد ابتلى عليّ (- عليه السلام -) تلميذ النبي الأول بمثل هذه التجربة المرّة بعد

-[الارشاد: ص ٦٠، اعلام الوري: ١٠٦، بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٦٨ وقد اخطأ الطبري في هذا المقام إذ قال: في احدى رواياته لهذه الحادثة: قال لعلي - عليه السلام - : أمخ «رسول الله»، قال: لا والله لا أمحك أبداً فأخذه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وليس يحسن يكتب فكتب مكان «رسول الله»: محمّد. وهكذا نسب الكتابة إلى شخص رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ونحن نعلم انه أمي . لا يحسن الكتابة، وقد حققنا هذه المسألة في المجلد الثالث من موسوعة مفاهيم القرآن ٣١٩ - ٣٧٤.

(338)

رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فيوم امتنع عليّ - عليه السلام - عن محو كلمة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن اسم النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال له النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«يا عليّ إنّك أبيت أن تمحو اسمي من النبوة فوالذي بعثني بالحق نبياً لتجيبن أبناءهم إلى مثلها وأنت مضيض مضطهد»⁽¹⁾»

ولقد بقيت هذه القضية في ذاكرة عليّ - عليه السلام - ، حتّى إذا كان يوم «صفين» وخذع أصحاب الامام عليّ - عليه السلام - بالأسلوب الماكر الذي اتبعه جيش الشام الذي قاتل علياً - عليه السلام - بقيادة معاوية بن أبي سفيان ومساعدة عمرو بن العاص، وأجبروا الامام - عليه السلام - على عقد الصلح مع معاوية فشكّل الجانبان لجنة لتنظيم وثيقة ذلك الصلح، كُلف «عبيدالله بن رافع» كاتب الامام من جانب الامام عليّ - عليه السلام - بأن يكتب وثيقة الصلح، فكتب:

«هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين عليّ» قال عمرو بن العاص ممثل معاوية في تلك المفاوضات: لو علمنا أنك أمير المؤمنين لم

ننازك!!

وهكذا طالب عمرو بن العاص بحذف عبارة أمير المؤمنين.

وطال الكلام والتشاجر في هذا الموضوع، ولم يكن الامام عليّ يريد ان يعطي حجة للبطاء من أصحابه، ولهذا لم يرضخ لهذا المطلب، ولكنه بعد إلحاح من أحد قادة جيشه سمح بأن يمحي لقب «أمير المؤمنين» من اسمه ثم قال: «اللّه أكبر سنّةً بسنة.» وهو بذلك يشير إلى حديث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - له يوم الحديبية. (2)

1- الكامل في التاريخ: ٢ / ١٣٨، بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٥٣.
2- الكامل في التاريخ: ٣ / ١٦٢، راجع المصدر لتقف على القصة بكاملها ولتقف على مدار بين الامام وابن العاص.

(339)

نص صلح الحديبية:

وأخيراً عُقدت إتفاقية صلح وهُدنة بين رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقريش تضمنت المواد والشروط التالية:

- 1- تعهد المسلمون، وقريش بترك الحرب عشر سنين يأمنُ فيهن الناسُ، ويكف بعضهم عن بعض.
- 2- من أتى محمّداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمّد لم يردّه عليه.
- 3- من أحبّ أن يدخل في عقد محمّد وعهده (أي يتحالف معه) دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.
- 4- إنّ محمّداً يرجع بأصحابه إلى المدينة عامه هذا ولا يدخل مكة، وانما يدخل مكة في العام القابل في أصحابه فيقيم فيها ثلاثة أيام، لا يدخل فيها بسلاح إلا سلاح المسافر، السيوف في القرب. (1)
- 5- أن لا يستكره أحدٌ على ترك دينه ويعبد المسلمون الله بمكة علانية وبحرية، وان يكون الإسلام ظاهراً بمكة وان لا يؤذى أحد ولا يعير. (2)
- 6- لا إسلال (سرقة) ولا إغلال (خيانة) بل يحترم الطرفان أموال الطرف الآخر، فلا يخونه ولا يسرق منه. (3)
- 7- أن لا تعين قريش على محمّد وأصحابه أحداً بنفس ولا سلاح. (4)

هذا هو نص وثيقة «صلح الحديبية»، وقد جمعنا بنوده من المصادر المتنوعة

1- السيرة الحلبية: ٣ / ٢١.
2- بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٥٢.
3- مجمع البيان: ٩ / ١١٧ أو: «من قدم مكة من أصحاب محمّد حاجاً أو معتمراً أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر أو الشام فهو آمن على دمه وماله.»
4- بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٥٢.

التي أشرنا إلى بعضها في الهامش، وقد كتبت هذه الوثيقة في نسختين، ثم وقع عليها جماعة من شخصيات قريش، والمسلمين وشهدوا عليها وأعطيت نسخة إلى «سهيل بن عمرو» ممثل قريش، وُثِّرت نسخة عند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

نشيد الحرية:

لقد كان كل عاقل لبيب يحسن تقدير الامور يسمع نشيد الحرية من ثنايا هذا الصلح التاريخي، ومع أن كل بنود هذه المعاهدة جديرة بالاهتمام والاكبار، إلا أن النقطة التي تستحق الاهتمام والتقدير أكثر من سواها هي المادة الثانية في هذا الصلح، وهي المادة التي أزعجت بعض الصحابة يوم انعقاد تلك المعاهدة.

فقد انزعج صحابة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من هذا التمييز الصارخ، وقالوا حول قرار القيادة الحكيمة المتمثلة في قائد محتك كرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما كان ينبغي أن لا يقولوه، في حين تعتبر هذه المادة من أعظم بنود الوثيقة إذ تعكس نظرة رسول الإسلام وتفكيره حول كيفية تبليغ الإسلام وإشاعته ونشره، فانه يظهر منها - وبجلاء - مدى إحترام رسول الإسلام لمبدأ الحرية.

ولقد قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في معرض الاجابة على من اعترض من صحابته على البند القاضي بتسليم كل مسلم فرّ من قريش إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمين إلى قريش، دون العكس قائلاً:

«مَنْ جَاءَهُمْ مِنَّا فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ رَدَدْنَاهُ إِلَيْهِمْ فَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ مِنْ قَلْبِهِ جَعَلَ لَهُ مَخْرَجًا.»

وأراد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن الذي يهرب من جماعة المسلمين ويلجأ إلى المشركين فلا قيمة لإيمانه وإسلامه، إذ أن ذلك يدل على أنه لم يؤمن بهذا الدين حق الإيمان فلا داعي لأن يعاد إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إذ

لا اكراه في الدين وأما من هرب من المشركين إلى المسلمين فلو علم الله منه الصدق لنجاه حتماً.

ولقد كانت نظرية النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ورأيه متطابقاً كل التطابق مع موازين العقل والمنطق السليم، وقد تجلت صوابيته وحقانيته مع مضي الزمن في ما بعد، لانه لم يمض زمن طويل إلا وقريش - وبعد سلسلة من الحوادث المؤسفة - طلبت بنفسها إلغاء هذه المادة كما سيأتي بيانه في ما بعد.

إن هذه المادة تعد رداً فاطماً على تقولات وتخرصات المستشرقين المغرضين الذين يصرون على القول بأن الإسلام انتشر بالسيف

انهم حيث لا يتحملون رؤية هذا الامتياز العظيم الذي كسبه الإسلام الحنيف، حيث انتشر في مدة قصيرة جداً في شتى نقاط العالم ويقاعه، حتى كاد أن يعمّ المعمورة كلها، ولهذا اضطروا إلى إغراء انتشار الإسلام إلى عامل استخدام القوة، وقالوا: إن الإسلام انتشر بالقوة، ليشوهوا بذلك ملامح الإسلام ويخفوا الحقيقة خلف غطاء من الراجيف، في حين أن هذا الميثاق الذي عقد في الجزيرة العربية أمام عين المئات من المسلمين وغير المسلمين ويعكس بجلاء روح الإسلام وحقيقة تعاليمه السامية، ومع هذا يكون من مجانية الواقع القول بأن الإسلام انتشر بقوة السيف. لا بالدعوة الحرة، والتبليغ والارشاد.

هذا ولقد تحالفت قبيلة خزاعة - مع المسلمين في ضوء المادة الثالثة من الميثاق، بينما تحالفت قبيلة بني كنانة - وكانوا أعداء تقليديين لخزاعة مع قريش.

آخر الجهود للحفاظ على عملية الصلح:

كانت مقدمات الميثاق المذكور، وبنوده توحى بصورة جليّة وكاملة بأن أكثرها قد فرضت فرضاً على المسلمين، فلو أن رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قبل بامحاء كلمة «رسول الله» من اسمه، وبدأ الميثاق بعبارة «باسمك اللهم» على عادة الجاهلين بدل البسملة الكاملة فان غايته من ذلك كانت هي الحفاظ على

(342)

الصلح، وقرار الأمن في الجزيرة العربية.

ولو ان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رضي بأن يسلم المسلمين الهاربين من قبضة المشركين إلى جماعة المسلمين، ويعيدهم إلى القيادة الوثنية في مكة فان بعض ذلك كان بسبب تصلب سهيل ممثل قريش وتعنّته، ولو أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ماكان يرضخ لهذا الشرط (استجابة لرغبة الرأي العام الاسلامي الذي كان مخالفاً لمتل هذا الشرط ومعارضاً لا عادة المسلمين الهاربين من مكة إلى قريش، وحفاظاً على حقوق أولئك الأشخاص الهاربين) لتعطلت عملية السلام، ولما تحقق الصلح، ولفاتت المسلمين هذه النعمة الكبرى التي انطوت على آثار عظيمة في المستقبل كما أثبتت الوقائع في ما بعد.

من هنا قاوم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كل الضغوط من جهة، وتحمل عملية فرض هذا الشرط من جهة أخرى، ليصل إلى المقصد الأعلى والهدف الأكبر الذي تتضاءل تجاهه هذه المتاعب.

ولو كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يراعي الرأي العام ويلاحظ حقوق هذه الجماعة، لكان «سهيل» يتسبب - بسبب تصلبه الارعن - في اشتعال نائرة الحرب.

والقصة التالية تشهد بما تقول:

حينما انتهت مفاوضات السلام، وبينما كان الامام علي (- عليه السلام -) يكتب وثيقة المودعة والصلح دخل أبو جندل بن سهيل في مجلس النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو يرسف في الحديد.

فتعجب الجميع من حضوره هناك، إذ كان محبوساً في سجن أبيه سهيل (المفاوض) مدة طويلة.

ولم يكن لابي جندل من ذنب إلا أنه اختار التوحيد عقيدة، والإسلام ديناً، ورفض الوثنية والشرك وكان يحب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حباً شديداً فحبسه أبوه.

(343)

وكان أبو جندل قد بلغه أمر المفاوضات هذه، فهرب من محبسه وانفلت إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سالماً إليه طرقاتاً وعرة في الشعاب، والوديان.

فلما رأى «سهيل» ابنه أبا جندل وقد هرب من سجنه، ولجأ إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قام إليه فضرب وجهه، واخذ بتلاببه ثم قال: يا محمد لقد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيتك هذا، وهذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تردّه.

ولا شك أن كلام «سهيل» كان باطلاً، ولا مبرر لطلبه، لأن الميثاق لم تتم كتابته على الورق، ولم يوقع عليه الطرفان، ولم ينته - بالتالي - من مراحل النهائية والأخيرة بعد، فكيف يمكن الاستناد إليه، ولهذا أجابه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قائلاً:

«إنا لم نرضَ (نقض) بالكتاب بعد. (1)»

فقال سهيل: إذا والله لا أصلحك على شيء أبداً، حتى ترده الّ، ولم يزل يصرّ على كلامه ورفضه هذا حتى أنزع اثنتان ممن رافقه من شخصيات قريش هما مكرز وحويطب من تصلب سهيل وتشدده.

ثم قاما وأخذا أبا جندل من أبيه وأدخلا خيمة وقالوا: نحن نجبره.

ولقد فعلا ذلك حتى يُنهي ذلك التنازع، والجدال، ولكن إصرار سهيل على موقفه، أبطل تدبيرهما إذ قال: يا محمد لقد لجت القضية

بينني وبينك قبل أن يأتيتك هذا. (2)

فاضطُرَّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى أن يقوم بآخر سعي في طريق الحفاظ على الهدنة والصلح الذي كان له أثر عظيم في انتشار الإسلام ولهذا رضى بردّ أبي جندل إلى والده، لإعادته إلى مكة، ثم قال لذلك المسلم الاسير تطبيقاً لحاظره:

1-بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٣٤.
2-السيرة الحلبية: ٣ / ٢١ لَجَّت: وجبت وتمت.

(344)

«يا أبا جندل، إصبر واحتسب، فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهدَ الله، وإنا لا نغدرُ بهم. »

وانتهت جلسة المفاوضات، وتمّ التوقيع على نسختي الميثاق، وعاد سهيلٌ ورفاقه إلى مكة، ومعهم «أبو جندل» ابن سهيل في جوار مكرز وحويطب، ونحر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما كان معه من الهدى⁽¹⁾ في نفس ذلك المكان وحلق فنحر جماعة من المسلمين وحلقوا. (2)

تقييم عاجل لصلح الحديبية:

بعد أن فرغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من عقد صلح الحديبية بينه وبين رؤوس الشرك، وبعد أن توقف في أرض الحديبية مدة ١٩ يوماً عاد هو وأصحابه إلى المدينة، وعاد المشركون إلى مكة.

هذا وقد نشبت مشاجرات ومشادات كلامية حين تنظيم ذلك الميثاق وكتابته، بين أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فمنهم من كان يعتبر ذلك الصلح في صالح الإسلام وقليل منهم كان يعدّه مضرراً بمصلحة الإسلام والمسلمين.

ولقد انقضى الآن أكثر من أربعة عشر قرناً على عقد ذلك الصلح التاريخي العظيم فلندرس معاً تلك المعاهدة بموضوعية وتجرد، ونستعرض طرفاً من تلك الاعتراضات والمجادلات لتقف على معطيات تلك العملية، ونتائجها.

ان الذي نراه هو: ان هذا الصلح كان في صالح الإسلام مائة بالمائة، وانه هو الذي جعل أمر انتصار الإسلام قطعياً،

1- أي الابل التي ساقها معه.
2-تاريخ الطبري: ٢ / ٢٨١، بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٥٣، السيرة النبوية: ٢ / ٣١٨، امتاع الاسماع: ١ / ٣٩٤ و ٣٩٥.

(345)

لا شك فيه، واليك أدلة هذا الرأي:

1- إن حملات قريش المتتابة على المسلمين، والتحريكات الداخلية والخارجية التي أشرنا إليها في حوادث «أحد» و «الاحزاب» على نحو الاختصار، لم تترك للنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فرصة لنشر الإسلام بين القبائل، وفي المناطق المختلفة خارج شبه الجزيرة العربية.

من هنا كان - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يصرف أكثر أوقاته الثمينة في الدفاع والعمل على إفشال المؤامرات الخطرة التي كان العدو الداخلي والخارجي يحيكها باستمرار.

ولكن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فرغ باله بعد عقد صلح الحديبية مع قريش من ناحية الجنوب، فتهيأت الأرضية لانتشار الإسلام في المناطق الأخرى.

وقد ظهر أثر هذا الهدوء والاستقرار بعد سنتين من عقد تلك المعاهدة، فقد كان مع رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في الحديبية ألف و أربعمئة ولكنه عند ما توجه إلى مكة لفتحها بعد عامين خرج معه عشرة آلاف، وكان هذا التفاوت من نتائج صلح الحديبية مباشرة، لأن بعض الناس كانوا يخشون قريشاً فلا يلتحقون بالمسلمين لذلك السبب، ولكن بعد أن اعترفت قريش بالكيان الإسلامى بصورة رسمية، وأعطيت للقبائل الحرية الكاملة للانضمام إلى المسلمين زال الخوف المذكور عن كثير من القبائل، فاستطاع المسلمون أن يستغلوا تلك الفرصة ويقوموا بنشاط تبليغي ودعوة واسعة إلى الإسلام.

2- إن النتيجة الثانية التي حصل عليها المسلمون من هذه المعاهدة هي زوال الستار الحديبي الذي كان قد ضربه المشركون بين الناس وبين الإسلام، فقد سمح ذلك الصلح بالسفر إلى المدينة فكان الناس في سفرهم إلى المدينة يحتكون بالمسلمين ويلتقون بهم، فيتعرفون على تعاليم الإسلام السامية.

ولقد اثار نظم المسلمين، و إخلاصهم، وطاعة المؤمنين الكاملة لرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إعجاب المشركين كما أثار نفاة المسلمين، في أوقات الصلاة خاصة، وصفوفهم المتلاحمة أثناء هذه العبادة المباركة، وخطب رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -

الرائعة، واللذيذة، وآيات القرآن الكريم البليغة، والسهلة في نفس الوقت رغبة قوية في نفوس الكفار إلى الإسلام. هذا مضافاً إلى أن المسلمين استطاعوا بعد عقد ذلك الميثاق السفر إلى مكة وشتى نقاط الجزيرة بحجج مختلفة، والإتصال بذويهم واقاربهم، والتحدث معهم في أمر الإسلام وتعاليمه المقدسة المحببة، وقوانينه وآدابه الرائعة، وما جاء به من حلال و حرام.

وقد تسيبت كل هذه الامور في أن يلتحق كثير من رؤوس الشرك والكفر كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص بالمسلمين، ويعتقوا ذلك الدين قبل فتح مكة، وأن تساعد هذه المعرفة بحقائق الإسلام والاطلاع على مزاياه وفضائله على تسهيل عملية فتح مكة، وانهيار صرح الوثنية فيها من دون أية مقاومة من أهل مكة، بحيث سيطر المسلمون عليها بسهولة وأقبلت أفواج الناس تدخل في دين الله راغبة كما ستعرف تفاصيل ذلك في حوادث السنة الثامنة.

إن هذا الانتصار العظيم كان نتيجة الاتصالات التي اجراها المسلمون مع ذويهم وأصدقائهم في مكة خلال ترددهم المتكرر بعد زوال الخوف والحصول على الحرية في الدعوة بفضل صلح الحديبية.

3- إن الاتصال برؤوس الشرك أثناء عقد اتفاقية السلام مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في الحديبية، ساعد على ازالة كثير من العقد النفسية التي كانوا يعانون منها تجاه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، لأن أخلاق النبي الرفيعة، وحلمه وصبره أمام تعنت قادة المشركين وتصلبهم وعتوهم، وسعيه الحثيث وحرصه الصادق على تحقيق السلام، أثبت لهم بأن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - معدنٌ عظيمٌ من معادن الخلق الانساني الكريم.

فبالرغم من أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - قد أصيب على أيدي قريش بخسائر فادحة، وناله منهم أذى كثير، إلا أن فؤاده كان طافحاً بمشاعر اللطف، والحب والحنان على الناس.

(347)

لقد رأت قريش بام عينها كيف أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - خالف في عقد ميثاق الصلح آراء جماعة من أصحابه، المعارضة لبعض بنود الاتفاقية رغبة منه في تحقيق السلام، وكيف أثر الحفاظ على حرمة المسجد الحرام على هواه، ورغبته الشخصية.

إن هذا النوع من السلوك أبطل مفعول جميع الدعايات السيئة التي كانت تُروَّج ضد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ومواقفه وخُلقه، وأفكاره واثبتت للجميع أنه حقاً رجلُ سلام، وداعية خير للبشرية، وأنه حتى لو سيطر على مقاليد الجزيرة العربية، لما عامل أعداءه إلا بالحسنى واللطف، لأنه لم يكن مشكوكاً فيه بأنه لو كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يخوض حرباً ضد قريش في ذلك اليوم لغلغلبها وهزمها شر هزيمة كما يصرح بذلك القرآن الكريم أيضاً إذ يقول:

(وَلَوْ قَاتَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَّالِيًّا وَ لَا نَصِيرًا.)⁽⁴⁾

ومع ذلك أبدى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - تسامحاً كبيراً، وأعلن عن عطفه، وحنانه للمجتمع العربي، وبذلك أبطل كل الدعايات التي كانت تُروَّج ضده، وضدَّ دعوته العظيمة المباركة.

من هنا نهتدي إلى مغزى ما قاله الامام الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) (عن أهمية هذا الصلح حيث قال:

«وما كان قضية أعظم بركة منها.»

إن الحوادث اللاحقة اثبتت أن اعتراض عدد ضئيل من صحابة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب على هذا الصلح كان باطلاً ولا مبرر له.

وقد أدرج أرباب السير والتاريخ جميع هذه الاعتراضات، كما تنقل ردّ النبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عليها، ويمكن للوقوف عليها مراجعة السيرة النبوية

- [الفتح: ٢٢.

(348)

لابن هشام، وامتاع الاسماع وغيرهما ان قيمة هذه المعاهدة تتجلى من ان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يصل إلى المدينة حتى نزلت سورة الفتح التي وعدت المسلمين وبشترتهم بالانتصار ويمكن اعتبار هذا العمل مقدمة لفتح مكة كما يقول تعالى: **إنا**

فتحننا لك فتحاً ميبناً. (1)

قريش تصرُّ على إلغاء أحد بنود المعاهدة:

لم يمض زمان طويل حتى أجبرت الحوادثُ المُرّة قريشاً على أن تبعث إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من يطلب منه إلغاء المادة الثانية من معاهدة صلح الحديبية، وهي المادة التي أغضبت بعض صحابة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأثارت سخطهم، وقبل بها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تحت إصرار من «سهيل» ممثل قريش في مفاوضات الحديبية.

تلك المادة التي تقول: على الحكومة الإسلامية أن تعيد كل مسلم هارب من مكة إلى حكومة مكة، ولكن لا يجب على قريش أن تعيد كل هارب من المسلمين إلى مكة، إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

وقد أثارت هذه المادة - المجحفة في الظاهر - سخط البعض وإعتراضهم، ولكن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال لابي جندل في وقته:

«إنَّ اللهَ جاعِلٌ لك وِ لِمَن معك مِنَ المستضعفينَ فَرَجاً و مَخْرَجاً.»

ثم إن مسلماً آخر يدعى «أبوصير» كان قد حبسه المشركون ردحاً طويلاً من الزمن استطاع أن يفرّ من محبسه ويصل إلى المدينة، وقد وصلها سعيّاً على قدميه، فكتب شخصيتان من شخصيات قريش هما: «أزهر» و «الأخنس» كتاباً إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يطلبان منه إعادة أبي بصير إلى قريش

-[بحار الأنوار: ٢٠ / ٢٦٣ نقلاً عن اعلام الورى، وزاد المعاد في هدى خير العباد: ٢ / ١٢٦ .

(349)

ويذكر انه بالمعاهدة وأرسله مع رجل من بني عامر يرافقه غلامه، فدفع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «أبا بصير» إلى الرجلين عملاً بالمعاهدة قائلاً:
«يَا أَبَاصِيرِ إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا قَدْ عَلِمْتَ (أَي مِّنَ الْعَهْدِ) وَلَا تَصْلِحْ لَنَا فِي دِينِنَا الْغَدْرُ وَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لِّكَ وَ لِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَرَجاً وَ مَخْرَجاً.»⁽¹⁾

فقال أبوصير: يا رسول الله تردني إلى المشركين؟!

فقال له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثانية:

«إِنظِرْ يَا أَبَا بَصِيرٍ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ لَكَ مَخْرَجاً.»

ثم دفعه إلى العامري وصاحبه فخرج معهما باتجاه مكة.

فلما كانوا بذي الحليفة (وهي قرية تبعد عن المدينة بستة أميال يحج منها بعض أهل المدينة) صلى أبوصير ركعتين صلاة المسافرين ثم مال إلى أصل جدار فأتكأ عليه، ووضع زاده الذي كان يحمله وجعل يتغدى وقال لصاحبيه في لهجة الصديق: أدنوا فكلوا؟ فأكلوا معه ثم أنسهم ثم قال للعامري: ناولني سيفك انظر إليه إن شئت أصارم هو أم لا؟ فناوله العامري سيفه وكان أقرب إلى السيف من أبي بصير، فجرّد أبوصير السيف وقتل به العامري في اللحظة، فهرب الغلام يعدو نحو المدينة خوفاً، وسبق ابابصير إلى المدينة، وأخبر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بما جرى لسيدته العامري، فبينما رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جالس في أصحابه والغلام عنده يقصّ عليه ما جرى إذ طلع أبوصير، فدخل على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المسجد وقال: وَفَتِ ذِمَّتُكَ، وَأَدَّى اللَّهُ عَنكَ، وَقَدْ أَسْلَمْتَنِي بِيَدِ الْعَدُوِّ، وَقَدْ امْتَنَعْتُ بِدِينِي مِنْ أَنْ أُفْتَنَ.

ثم إن أبابصير بعد أن قال هذا الكلام خرج من عند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وغادر المدينة، ونزل ناحية على ساحل البحر، على طريق قافلة قريش

إلى الشام، تسمى «العيص». »

وعرف المسلمون الذين حُبسوا بمكة بهذا التطور، ففرّ منهم سبعون رجلاً، وانضموا إلى أبي بصير وكانوا ممن نالهم على يد قريش أشد العذاب والعنت، فلا حياة ولا حرية لهم.

من هنا قرروا أن يتعرضوا لقافلة قريش التجارية ويغيروا عليها، أو يقتلوا كل من وقعت يدهم عليه من قريش.

وقد لعبت هذه الجماعة دورها بصورة رائعة جداً بحيث أفلقت بال قريش، وسلبت منها الرقاد إلى درجة أنهم كتبوا إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يطلبون منه إلغاء هذه المادة (أي المادة الثانية). بموافقة الطرفين وقد أعلنوا موافقتهم على إلغائها، وإعادة أبي بصير وجماعته إلى المدينة والكف عن التعرض لتجارة قريش.

فوافق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على إلغاء تلك المادة، وطلب من المسلمين في منطقة «العيص» القدوم إلى المدينة .

وبهذا توفرت فرصة طيبة لجميع المسلمين، كما عرفت قريش أنها لا تستطيع سجن المؤمن، وحبسه في القيد، وان تقييده وحبسه أخطر بكثير من إطلاق سراحه، لأنه سيفرّ ذات يوم وهو يحمل روح الانتقام على سجانته.

النساء المسلمات لا يُسلمن إلى قريش:

بعد أن تم الاتفاق والتوقيع على معاهدة صلح الحديبية هاجرت «أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط» في تلك المدة، فخرج أخواها «عمارة» و «الوليد» ابنا عقبة حتى قدما على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يسألانه أن يردّ اختهما عليهما بالعهد الذي بينه وبين قريش في الحديبية، فلم يفعل ذلك رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال لهما:

«إن الله تقصّ العهْدَ في النساء.»⁽¹⁾

وقد نزل قوله تعالى يوضح حكم هذا الامر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمَ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا.)^(١)

كانت هذه قصة «الحديبية»، وقد أستطاع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في ظلّ الهدوء والأمن اللذين تحققا بسبب معاهدة الحديبية أن يرسل قادة العالم وزعماءه، وأن يبلغ نباً دعوته إلى مسامح شعوبهم، وستقف على مفصل هذا القسم من تاريخ الإسلام المشرق في الفصل القادم.

-[الممتحنة: ١٠].

(352)

حوادث السنة السابعة من الهجرة

٤٣

النبى يعلن عن رسالته العالمية

لقد أراحت معاهدة الحديبية بال رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من ناحية الجنوب (أي مكة)، وقد آمن برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولبى دعوته في ظل الهدوء والأمن والاستقرار الحاصل بسبب هذا الصلح جماعة من زعماء العرب ورجالها البارزين.

واغتتم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذه الفرصة ففتح على ملوك العالم وزعماء القبائل، ورجال الدين المسيحي يومذاك باب المراسلة، فكتبهم ووجه اليهم رسائل كثيرة عبر رسله وسفرائه، وقد عرض فيها عليهم رسالته ودعوته التي كانت يومذاك لا تخرج عن صورة العقيدة البسيطة وكان في مقدورها أن تضم تحت لواء التوحيد، وفي اطار التعاليم الاخلاقية والانسانية كل البشرية.

وقد كانت هذه هي الخطوة الأولى التي خطاها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد ١٩ عاماً من الصراع مع قريش العاتية

ولو أن الاعداء الداخليين لم يشغلوه بالصراعات والحروب لاستطاع رسول الإسلام ان يقوم بتوجيه دعوته إلى شعوب العالم آنذاك قبل هذا الوقت، ولكن الحملات الظالمة والمضايقات الشديدة التي قام بها العرب الوثنيون الجهلة طوال ما يقرب من عقدين من عمر

الرسالة أجبرت رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على أن يصرف قسماً عظيماً من أوقاته الغالية في ترتيب شؤون الدفاع عن حياض الإسلام وكيان المسلمين.

(353)

إن الرسائل التي وجهها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى الامراء والسلاطين، وإلى رؤساء القبائل، والشخصيات الدينية والسياسية البارزة داخل الجزيرة العربية وخارجها لدعوتهم إلى الإسلام تكشف عن طريقته في الدعوة والتبليغ، والارشاد والهداية

وبين أيدينا الآن نصوص ١٨٥ رسالة وكتاب من مكاتيب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ورسائله التي دعا فيها من أرسلها إليهم، إلى الإسلام، أو كتبه التي تشكل معاهداته ومواثيقه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - التي أعطاها أو عقدها مع الاطراف المختلفة وقد جمعها، وضبطها أرباب السير وكتّاب التاريخ وهي تكشف برمتها عن أسلوب الإسلام في الدعوة والتبليغ يعتمد على المنطق والبرهان، لا على السيف والقهر وعلى الاقناع لا الاكراه.

فيوم اطمأن بال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأمن جانب قريش وحلفائها، وجّه ندائه الالهي إلى مسامح البشرية في العالم وذلك عن طريق ارسال الرسائل، أو بعث المبلغين والدعاة إلى شتى أنحاء العالم.

إن نصوص هذه الرسائل، والاشارات الموجودة في خلالها، ونصائحه التي كان يوجهها - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى الناس، والتسامح الذي كان يبديه من نفسه خلال عقد الاتفاقيات وإبرام المعاهدات مع الاجانب، تشكل برمتها شواهد قاطعة، ودامغة ضد نظرية المستشرقين الذين أرادوا مسح وجه الإسلام

- [لقد اجتهد علماء الإسلام في جمع واحصاء رسائل النبي الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وكتبه قدر المستطاع، وإن أكمل المصادر الحاضرة من حيث الاستقصاء وسعة التتبع كتابان يتسمان بأهمية كبرى في هذا المجال وهما:
أ- الوثائق السياسية تأليف البرفيسور محمد حميد الله حيدرآبادي، الاستاذ بجامعة باريس.
ب- مكاتيب الرسول تأليف العلامة المحقق المحترم الشيخ علي الاحمدي.
والكتاب الأخير يمتاز بتحقيقات وتحليلات أدبية، وتاريخية وسياسية إسلامية في غاية الأهمية.

(354)

المشرق، بكيل الاتهامات الباطلة له، والزعم بأن تقدم الإسلام وانتشاره كان بفعل القهر، وبقوة السيف، وتحت عامل الفرض والاجبار واننا لنأمل أن نوفق ذات يوم لدراسة وتقييم تلك الرسائل والكتب واستجلاء هذه النقاط المذكورة واستخراج خطوط السياسة

النبوية ومعالم الدعوة المحمدية، من ثانياً تلكم الرسائل والكتب التاريخية الخالدة لنستطيع من خلال هذا العمل بيان أسلوب الإسلام في نشر دينه في شتى نقاط العالم.

الرسالة المحمدية كانت عالمية:

ينظر بعض الجهلة إلى مسألة عالمية الرسالة المحمدية بنظر الشك والترديد، وهم يتبعون في مثل هذه النظرة الجاهلة ما يروجه بعض الكتاب العملاء، وفي مقدمة هؤلاء المغرضين مستشرق معاد للإسلام هو «السير ويليم موير» الذي يقول: إن موضوع عالمية الرسالة المحمدية قد ظهر وتبلور في ما بعد، وأن محمّد إقتصر في دعوته من بدء رسالته إلى لحظة وفاته على العرب، ولم يكن «محمّد» يعرف أي مكان غير الجزيرة العربية.

ولقد اتّبع هذا المستشرق نهج أسلافه الإنجليز، وحاول التعظيم على الحقيقة في مقابلة الآيات الكثيرة التي تشهد - بجلاء - بأن رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - كان يدعو البشر عامة إلى التوحيد والاعتقاد برسالته وقال: إن محمّداً كان يقتصر في دعوته على العرب خاصة⁽¹⁾.

ونحن هنا ندرج بعض الآيات التي تشهد بأن رسالة الإسلام وأن الدعوة المحمدية كانت منذ بداية ظهورها دعوة عالمية، ويمكن مراجعة كتب التفسير والعقائد للوقوف على المزيد من التوضيح في هذا المجال.

-1- ها هنا مسألتان يجب التمييز بينهما:

أ- عالميّة الرسالة المحمّدية.

ب - خاتمية الرسالة المحمّدية.

وفي الأولى تعالج مسألة عالميّة رسالة النبيّ محمّد وعدم عالميتها وانه - صلّى الله عليه وآله وسلم - هل كان مبعوثاً لخصوص سكان الجزيرة العربية أم لعموم البشر، وللناس كافة، في حين أن المحور في المسألة الثانية هو أنه - صلّى الله عليه وآله وسلم - هل هو آخر نبي أو لا على انه يمكن ان يقول البعض ان دينه كان عالمياً إلا أن نبوته لم تكن خاتمة النبوات بل سيأتي بعده نبي آخر وشريعة أخرى. من هنا لابد من البحث - في النبوة الخاصة - حول كلا - المسألتين بصورة مستقلة، وقد بحثنا المسألتين في الجزء الثالث من مفاهيم القرآن بصورة موسعة.

(355)

آيات تدل على عالمية الرسالة المحمدية:

-1- وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا.⁽¹⁾

-2- وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ.⁽²⁾

-3- لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا.⁽³⁾

-4- هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ.⁽⁴⁾

والآن نسأل هذا الكاتب الإنجليزي: كيف تقول - مع هذه الدعوة العالمية - أن موضوع عالمية الرسالة الإسلامية قد ظهر وتبلور في ما بعد.

فهل مع وجود هذه الآيات ونظائرها ومع وجود سفراء رسول الله ومبعوثيه إلى المناطق النائية، والبلاد البعيدة، وإلى نصوص الرسائل التي بقيت مسجلة في صفحات التاريخ عن رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وخاصة ما بقي منها محفوظاً بعينه إلى الآن في المتاحف العالمية الكبرى يبقى مجال لأن يشك أحدٌ في عالمية رسالته.

والعجيب أن الكاتب المذكور يكتب بكل وقاحة قائلاً: ان محمداً لم يكن

- 1-سياً: ٢٨.
- 2-القلم: ٥٢.
- 3-بيس: ٧٠.
- 4-التوبة: ٣٣.

(356)

يعرف غير الحجاز، في حين أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سافر يوم كان في ربيعته السادس عشر مع عمه أبي طالب إلى الشام كما سافر إلى الشام في تجارة خديجة في سنّ الخامسة والعشرين، مع قافلة قريش التجارية.

حقاً ان من العجيب العجائب أننا كلما قرأنا في التاريخ أن شاباً يونانياً (هو الاسكندر المقدوني) كان يريد أن يسيطر على العالم، أو نسمع أن نابليون بونابرت كان يفكر في أن يكون امبراطور العالم الوحيد لم يبعثنا كل ذلك على الاستغراب والدهشة ولكن كلما يسمع فريق من المستشرقين بأن قائد المسلمين الأعلى وجّه دعوة الإسلام - وبأمر الله - إلى زعماء عصره العالميين الذين كان بينهم وبين قومه علاقات تجارية عريقة انكروا ذلك وبوقاحة، واعتبروه أمراً محالاً.

رُسُلُ الإسلام إلى المناطق النائية:

طرح رسول الإسلام قضية دعوة الملوك والامراء إلى الإسلام على شورى كبيرة من أصحابه كغيرها من المسائل المهمة فقال:

«أيها الناس ان الله قد بعثني رحمة وكافة فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم. »

فقال أصحابه: وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟ قال:

«دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلم وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتناقل. »

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - اختار ستة أشخاص من خيرة أصحابه وكتب معهم كتاباً إلى الملوك تضمنت دعوته العالمية، وبعثهم إلى مختلف نقاط الأرض.

وهكذا توجه سفراء الهداية ورسول الدعوة المحمدية في يوم واحد إلى إيران، والروم، والحبيشة، ومصر، واليمنية، والبحرين، والحيرة، و (الأردن) وسوف نقرأ معاً

(357)

مفصل ما احتوته رسائله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - . (1)

وعندما فرغ من كتابة الرسائل المذكورة قال بعض ذوي الاطلاع والعلم بأحوال بلاطات الملوك آنذاك لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يا رسول الله: إن الملوك لا يقرأون كتاباً إلا مختوماً، فاتخذ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يوماً خاتماً من فضة، فصّه منه، نقشه ثلاثة أسطر: محمّد رسول الله، في الاعلى لفظة الجلالة وتليه كلمة رسول الله ثم يليه اسمه الشريف، وختم به الكتب.

ولم يكتف بهذا بل ختم تلك الرسائل بالشمع أو الطين إمعاناً في السرية، والحفاظ عليها من التزوير. (2)

أوضاع العالم أيام إبلاغ الرسالة العالمية:

كانت الامبراطوريتان (الرومية والفارسية) تقسمان آنذاك قيادة العالم، وكانت الحروب قائمة بين دينك المعسكرين على قدم وساق، ومنذ زمن بعيد.

فلقد بدأ الصراع على النفوذ بين إيران والروم منذ عهد الهخامنشيين، واستمرّ حتى عصر الساسانيين ملوك إيران.

فكان الشرق تحت النفوذ الايراني، كما كانت العراق واليمن وشيء من آسيا الصغرى تعدّ من توابع الامبراطورية الايرانية ومستعمراتها.

وأما الامبراطورية الرومية فقد كانت منقسمة يومذاك إلى معسكرين شرقي وغربي لأن «تتودوز الكبير» امبراطور الروم قسم بلاده في سنة (٣٩٥) ميلادية بين ولديه، ومن هنا ظهرت الروم الشرقية والروم الغربية.

وقد انقضت الروم الغربية على أيدي متوحشي وبرابرة شمال أوربا، ولكن

1-السيرة النبوية: ٢ / ٦٠٦، الطبقات الكبرى: ١ / ٢٦٤، السيرة الحلبية: ٣ / ٢٤١ - ٢٤٢، بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٨٢.

2-السيرة الحلبية: ٣ / ٢٤٠ و ٢٤١.

الروم الشرقية التي كان مركزها يومذاك «القسطنطينية» وكانت تسيطر على الشام ومصر، فكانت تسيطر أبان ظهور الإسلام على قدر كبير من مقاليد السياسة العالمية إلى أن فتحت القسطنطينية عام (١٤٥٣) على يد السلطان محمد الثاني «محمد الفاتح»، وبذلك غربت شمس دولة الروم الشرقية، واضمحت نهائياً.

وقد كانت أرض الحجاز محاصرة بين هذين القطبين ومحاطة بهاتين القوتين العظيمنتين، ولكن حيث أن أراضي الحجاز لم تكن أراض خصبة، وكان أهلها في الأغلب من الرحل المتفرقين في البراري والقفار، لذلك لم تُبد كلتا الامبراطوريتين رغبتهما في الاستيلاء على تلك الأراضي، فقد كان الفساد والظلم، والحروب التي اتسمت بها طبيعة وحياة تينك الدولتين تمنعهما من الاطلاع على أي تغيير اجتماعي أو تحول سياسي يقع في هذه المنطقة من العالم.

فهم لم يكونوا يتصورون قط أن يتمكن شعبٌ - كان بعيداً عن روح الحضارة والمدنية - من وضع نهاية لإمبراطوريتهم، بفضل ما أتوا من إيمان، وانارة النقاط - التي كانت ترزح في ظلام جور السلطات الرومية وظلمها - بنور الإسلام المشرق، ولو كانوا يعرفون شيئاً عن هذه النهضة المشرقة وهذا الانفجار المعنوي العظيم في بدء حدوثه لقضوا عليه في أول الأمر، ولم يتركوه يمتد إلى ملكهم، ويقلب كل شيء رأساً على عقب.

رسول النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في أرض الروم:

كان قيصر الروم قد عاهدَ الله إذا غلب الفرس أن يسير إلى بيت المقدس من عاصمته: «القسطنطينية» مشياً على قدميه للزيارة، شكرًا لله وقد وفى بنذره هذا بعد انتصاره على إيران.

فكَلَفَ «دحية الكلبي» بايصال كتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى قيصر، وكان دحية قد سافر مراراً إلى الشام، وكان عارفاً بمناطقها وعاداتها معرفة كاملة، وكان إلى ذلك جميل الصورة حسن السيرة، ولهذا كان جديراً بتحمل هذه

المسؤولية الخطيرة لانقائها.

وقد توجه إلى «القسطنطينية» رأساً بعد أن كلفه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بايصال كتابه إلى قيصر، ولكنه ما أن وصل إلى بصرى (من مدن الشام) إلا وبلغه أن قيصرًا قد فارقه قاصداً بيت المقدس ولهذا بادر إلى الاتصال بحاكم بصرى: (1) «الحارث بن أبي شمر» واخبره بالمهمة الخطيرة التي جاء من أجلها.

يقول مؤلف الطبقات الكبرى: بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر يدعو إلى الإسلام وكتب معه كتاباً، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر، (ولعل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يعرف بمغادرة قيصر لعاصمة ملكه أو لعل ذلك الأمر كان مراعاة لامكانيات دحية المحدودة، وكون السفر إلى القسطنطينية كان يتطلب جهداً كبيراً أو لا يخلو من محاذير).

فدفعه عظيم بصرى إليه وهو يومئذ بحمص، وذلك بان استدعى عدي بن حاتم ووجهه مع سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليوصل كتابه إلى قيصر، فذهب به إليه ولما أراد الدخول على قيصر قال قومه لدحية: إذا رأيت الملك فاسجد له، ثم لا ترفع رأسك حتى يأذن لك.

فقال دحية: لا افعل هذا أبداً، ولا أسجد لغير الله! (أي انني قد جئت لتحطيم هذه السنن الجاهلية المقيتة فكيف أخضع لها، انما جئتكم من قبل نبي لا يبلغ ملككم بأن عهد عبادة البشر قد انقضى وانتهى وأنه لا يحق السجود إلا لله وحده، فكيف يمكنني ذلك وأنا أحمل هذه الرسالة التوحيدية اليكم؟!)(2)

ولقد أعجب قوم قيصر بمنطق دحية القوي، وموقفه الصلب، فقال له رجل منهم: أنا أدلك على أمر يؤخذ فيه كتابك، ولا تسجد له، ضع صحيفتك تجاه

- [كانت بصرى مركز محافظة حوران التي كانت تعد من مستعمرات قيصر. وكان الحارث بن أبي شمر - وبصورة عامة - جميع ملوك بني غسان، من ولاية قيصر على تلك المناطق.
-2 الطبقات الكبرى: 1 / 209.

المنبر فان أحداً لا يحركها حتى يأخذها هو، ثم يدعو صاحبها فشكر دحية الرجل، وأخذ بنصيحته، وفعل ما اشار به.

فلما أخذ قيصر الكتاب وجد عليه عنوان كتاب العرب فدعا المترجم الذي يقرأ بالعربية فاذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام اسلم تسلم يوتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين⁽¹⁾ ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا

بأننا مسلمون. محمد رسول الله.»

قيصر يحقق حول النبي:

احتتمل حاكم الروم اللبيب أن يكون كاتب هذه الرسالة هو: «احمد الموعود» الذي بشرت به الانجيل والتوراة، ولهذا قرّر أن يحقق حول شخصيته، ويتعرف على خصوصيات حياته، الدقيقة.

فبعث أحداً إلى الشام فوراً ليأتني له بقريب لمحمّد، أو من يعرف شيئاً عنه. حتّى يسأله عن شخصية رسول الإسلام - صلّى الله عليه وآله وسلم - فاتفق أن كان أبوسفيان بن حرب يومذاك بالشام للتجارة في ركب من قريش، فأخذهم

- [بين العلماء في تفسير هذه اللفظة خلاف، فيقول ابن الأثير: قيل هم الخدم والخول وقال بعض: هم الاكارون (أي الفلاحون) لأن أكثر الناس يومذاك كانوا من الفلاحين، وهم اطوع الناس للحاكم. ويؤيد هذا الرأي الأخير أنه جاء في بعض النسخ (الكامل: ٢ / ١٤٥) كلمة الاكارين بدل الاريسيين والاكار هو المزارع، واحتتمل البعض أن يكون الاريسيون طائفة كانت تعيش في الروم.

(361)

صاحب شرطة «قيصر» إلى بيت المقدس، فادخلهم على «قيصر» في مجلسه وحوله عظماء الروم.

فقال قيصر: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟.

فقال أبوسفيان: أنا أقربهم نسباً.

فقال قيصر: أدنوه منّي، وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائلٌ هذا عن هذا الرجل، فإن كذّبني فكذّبوه.

ثم طرح قيصر على أبي سفيان الاسئلة التالية:

1- كيف نسبُ محمّد فيكم؟

هو فينا ذو نسب.

2- فهل قال هذا القول منكم أحد قبله؟

لا.

3- فهل كان في أبائه من ملك؟

لا.

4- فأشرف الناس أتبعوه أم ضعفواهم؟

بل ضعفواهم.

5- أيزيدون أم ينقصون؟

بل يزيديون.

6- فهل يرتدّ منهم أحد سُخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟

لا.

7- فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

لا.

8- فهل يغدر؟

لا.

9- فهل قاتلتموه؟

(362)

نعم.

10- فكيف كان قتالكم إيّاه؟

الحربُ بيننا وبينه سجال، ينالُ منا وننالُ منه.

11- فماذا يأمركم؟

أعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول أبائكم، ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والصلة، ويأمرنا بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة.

فقال قيصر للترجمان قل لأبي سفيان ومن معه: إن كان ما تقول حقاً فسيملكُ موضعَ قدمي هاتين فهذه صفة نبيّ، وقد كنت اعلم أنه خارج لم اكن أظنه منكم، فلو أنّي أعلمُ أنّي أخلصُ إليه لتجشمتُ لقاؤه، ولو كنتُ عنده لغسلتُ قدميه!!

فاعترض ابن أخي قيصر على كتاب رسول الله وقال لعمه: قد ابتدأ بنفسه وسماك صاحب الروم.

فقال قيصر: والله انك لضعيف الرأي. أتري أرمي بكتاب رجل يأتيه الناموس الاكبر، وهو أحقُّ أن يبدأ بنفسه، ولقد صدق أنا صاحب الروم، والله مالكي، مالكة.

قال أبوسفيان: فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الاصواتُ عنده، وكثر اللغظه، فأمر بنا فأخرجنا قال: قلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أمرَ أمرُ ابن أبي كيشة، أنه ليخافه ملك بني الأصفر.

وروي أيضاً أن أباسفيان قال: لما سألتني قيصر عن رسول الله جعلتُ ازهدُ له شأنه، وأصغرُ له أمره واقول له: أيها الملك، ما يهملك من أمره، إن شأنه دون ما يبلغك، وجعل قيصر لا يلتفت إلى ذلك، ثم قال: أنبئني عما أسألك من شأنه.⁽¹⁾

[بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٨٤ - ٣٨٦، تاريخ الطبري: ٢ / ٢٩٠ و ٢٩١.]

(363)

أثر رسالة النبي إلى قيصر:

لم يكتف قيصر بالمعلومات التي حصلها من أبي سفيان حول رسول الإسلام - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بل كتب إلى أحد علماء الروم وأسأفتهم يسألهم عن هذا الأمر.

فأجابه ذلك الاسقف: هذا النبيُّ الَّذِي كُنَّا ننتظره، بشرنا به عيسى بن مريم.

فعمد قيصر إلى خطة ليجسّ بها نبض قومه، ويختبرهم ويعرف ما إذا كانوا يرضون بإسلامه أولاً، فجمع عظماءهم في صومعة له بحمص فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد، وان يثبت لكم ملككم وتتبعون ما قال عيسى بن مريم.

فقال الروم: وما ذاك أيها الملك؟

قال: تتبعون هذا النبي العربي.

فتاروا في وجهه، ورفعوا الصليب، فلما رأى منهم ذلك يؤس من اسلامهم وخافهم على نفسه وملكه، فسكنهم ثم قال: إنما قلت لكم ما قلتُ اختبركم لأنظر كيف صلابتكم في دينكم، فقد رأيتُ منكم الذي أحبّ. فسكنوا ورضوا عنه. ثم أمر باكرام دحية، وكتب جواباً على رسالة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأرسله مع دحية وارسل بهدية إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .⁽¹⁾

سَفِيرِ النَّبِيِّ فِي الْبِلَاطِ الْإِيرَانِي:

يوم توجه سفير رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بكتابه إلى البلاط الإيراني

[الطبقات الكبرى: ١ / ٢٥٩ - ٢٦٠، السيرة الحلبية: ٣ / ٢٤٥ - ٢٤٦، الكامل في التاريخ: ٢ / ١٤٤، بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٧٩.]

(364)

كان الملك الذي يحكم هذه الأرض الواسعة هو «خسرو پرويز» ثاني ملك بعد انوشيروان، الذي جلس على العرش الملكي الإيراني مدة ٣٢ عاماً قبل الهجرة النبوية المباركة.

وقد واجهت حكومة هذا الملك خلال مدة سلطانه أنواعاً عديدة من الحوادث المرة والحلوة، وكانت مكانة ايران في عهده تعاني من الاضطراب، وعدم الاستقرار بشكل ملحوظ.

وقد امتدّ النفوذ الإيراني ذات يوم حتى شمل آسيا الصغرى، وامتدّ إلى مشارف القسطنطينية، وأتى بصليب عيسى الذي كان أقدس شيء عند النصارى إلى طيسفون (المدانن)، فطلب سلطان الروم الصلح وبعث سفيراً من قبله إلى البلاط الإيراني لعقد معاهدة الصلح.

بيد أنّ سوء تدبير الملوك في تلك الدولة العظمى، وانغماسهم في اللذة والمجون أكثر من المتعارف تسبب في أن تصبح ايران على حافة السقوط والانهدام في أواخر العهد الساساني، فقد خرجت المستعمرات من تحت النفوذ الإيراني الواحدة تلو الأخرى، واجتاح العدو الرومي الأراضي الإيرانية إلى الاعماق، ووصل الأمر بخسرو پرويز امبراطور ايران إلى أن يهرب من وجه الروم الغزاة، وقد أثار هذا الهروب الخانع وهذه الهزيمة المنكرة سخط الشعب يومذاك، فقتل بيد ابنه «شبرويه» .»

ويُعزي محلّو التاريخ القديم تخلف ايران وضياح قوتها إلى غرور قادتها وحكامها وميلهم إلى البذخ والترف، وهناء العيش ورغد الحياة، والزينة واللذة. ولو كان ذلك الملك يتلقى رسالة السلام التي عرضها الإسلام بالصورة اللائقة لبقيت عظمة ايران على حالها في ظل هذا السلام دون أن يصيبها ما أصابها.

ولو أن رسالة رسول الإسلام لم تترك أثراً حسناً في نفس «خسرو پرويز» يومذاك فإن ذلك لم يكن لتقصير أو عيب في تلك الرسالة أو في سلوك حاملها

(365)

إلى البلاط الإيراني، بل كان لنفسية ذلك الحاكم المغرور، المنحرفة، وأنانيته الطاغية، التي لم تسمح له بالتفكير بعض اللحظات في كتاب رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كما فعل «قيصر»، أو غيره. بل لم يمهل المترجم حتى ينتهي من قراءة كتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، إنما صاح به في تلك الاثناء، وأخذ منه رسالة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومزّقها بوقاحة بالغة، واسلوب بالغ في الجفاف، وسوء الادب.

واليك تفصيل الحادث:

في مطلع السنة الهجرية السابعة بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - احد فرسانه الشجعان وهو «عبدالله بن حذافة السهمي»، إلى ايران وكتب معه كتاباً إلى «خسرو پرويز» ملك ايران يومذاك يدعوه فيه إلى الإسلام وامره أن يدفع الكتاب إلى كسرى نفسه واليك نص هذه الرسالة:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمّد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، واشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله. أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله كافة لا نذر من كان حياً، ويحقّ القول على الكافرين أسلم تسلم، فان ابيتّ فعليك اثم المجوس. »

فلما دخل سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على «خسرو پرويز» أمر بأن يؤخذ منه كتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولكن عبدالله بن حذافة قال: لا حتى أدفعه اليك كما امرني رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ثم دنا وسلم الكتاب فدعا كسرى بمت ترجمه ليقرا الكتاب، فلما قرأه، فاذا فيه، من محمّد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس أغضبه حين بدأ رسول الله بنفسه، وصاح، وأخذ الكتاب، فمزّقه قبل أن يعلم ما فيه وقال: يكتب إليّ بهذا.

ثم أمر باخراج حامل الكتاب من قصره، فأخرج عبدالله بن حذافة السهمي، ولما رأى ذلك قعد على راحلته وسار حتى وصل إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

(366)

فاخبره الخبر، فغضب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من موقف كسرى فدعا عليه قائلاً: اللهم مزّق ملكه. (1)

نظرية اليعقوبي:

ويختلف ابن واضح الاخباري المعروف باليعقوبي في تاريخه - مع عامة المؤرخين - : قرأ كتاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثم كتب كتاباً إليه جعله بين سرقتي حرير وجعل فيهما مسكاً، فلما دفعه الرسول إلى النبي فتحه فاخذ قبضة من المسك فشمه، وناوله أصحابه، وقال: لا حاجة لنا في هذا الحرير، ليس من لباسنا، وقال: لتدخلن في أمري أو لاتيئك بنفسي ومن معي، وأمر الله اسرع من ذلك⁽²⁾.

ولكن هذا رأي ينفرد به اليعقوبي ولا يوافقه عليه أحد من أرباب السير إلا احمد بن حنبل الذي يقول: أهدى كسرى لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقيل منه⁽³⁾.

أوامر «خسرو» إلى واليه على اليمن:

تقع أرض اليمن الخصبة في جنوب مكة، وكان ملوكها وحكامها ولاية منصوبين من قبل البلاط الايراني بأجمعهم، وكان الذي يحكم اليمن يوم مرسله النبي لقادة العالم وملوكه رجل يدعى «بازان» فكتب طاغية ايران المغرور «خسرو» بعد أن مزق رسالة النبي إلى عامله باليمن (بازان):

بلغني أن في أرضك رجلاً يتنّباً فاستنّبته، فان تاب والآ فابعث به إلى.

فبعث «بازان» رجلين من فرسانه يدعى أحدهما: «فيروز» والآخر «خرخسره» وكتب معهما كتاباً إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يأمره فيه أن

1- الطبقات الكبرى: ١ / ٢٦٠.

2- تاريخ اليعقوبي: ١ / ٦٦.

3- مسند احمد بن حنبل: ١ / ٩٦.

ينصرف معهما إلى كسرى أو أن يجبراه على الرجوع إلى دين آبائه وان أبي قتلوه وأرسلوا برأسه إلى الملك حسب رواية ابن حجر في الاصابة.

إن رسالة كسرى إلى «بازان» تكشف عن جهل هذا الحاكم، وعدم معرفته بما كان يجري في بلاده ومستعمراته، فقد بلغ من جهله أنه لم يكن يعلم أن هذا الرجل الذي يدعي النبوة⁽¹⁾ قد مضى على ادعائه النبوة أكثر من ١٩ عاماً.

ثم إن الذي ادعى النبوة في منطقة نائية، وانتشر دينه، وأصبح من القوة والشوكة بحيث يجرأ على مراسلة الامبراطور، ودعوته إلى دينه لا يمكن أخذه واحضاره إلى اليمن بواسطة رجلين. وأن الأمر -بالتالي- لن يتم بمثل هذه السهولة، والبساطة، التي تصورها

وعلى كل حال لما قدم مبعوثا «بازان» المدينة ودخلا على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قدما رسالة «بازان» إليه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقالوا: لقد بعثنا «بازان» إليك لتنتقل معنا، فان فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك بكتاب ينفعك، ويكف عنك به، وإن أبيت فهو من قد علمت، فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك.

وكانا قد دخلا على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقد حلقا لحاهما وأطلقا شواربيهما، فاستمع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى كلامهما، وقبل أن يجيب على مطلبهما دعاهما إلى الإسلام وقد كره النظر إليهما لما كانا عليه من الهيئة فقال لهما: من أمركما بهذا؟! قالوا: أمرنا بهذا ربنا (يعنيان كسرى) فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «لكن ربي أمرني بإعفاء لحييتي وقص شاربي.»⁽²⁾

فأرعبتهما، هيبه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وجلال محضره، بحيث أخذا

- [حسب تعبير كسرى.
2- الكامل في التاريخ: ٢ / ١٤٦ .

(368)

يرتجفان عندما عرض رسول الله الإسلام عليهما.

ثم قال لهما رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «

«إرجعا حتى تأتياني غداً.»

وفي هذه الإثناء أتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الخبر من السماء أن الله عز وجل قد سلط على كسرى ابنه شيرويه، فقتله في شهر كذا وكذا وكذا لكذا، وكذا من الليل.

فلما حضر الرجلان (مبعوثان بازان) عند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من غد قال لهما رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «

«إن ربي قد قتل ربكما ليلة كذا وكذا من شهر كذا وكذا. بعد ما مضى من الليل كذا وكذا سلط عليه شيرويه فقتله.»⁽¹⁾

وكانت الليلة التي ذكرها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هي ليلة الثلاثاء العاشر من شهر جمادى الأولى سنة سبع من الهجرة.

فاستغرب الرجلان لخبر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقالوا: هل تدري ما تقول؟ إنا قد نقمنا منك ما هو أيسر من هذا. فنكتب بها عنك ونخبر الملك (أي باذان).

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«نعم أخبراه ذلك عني وقولا له: إن ديني وسُلطاني سيبليغ ما بلغ ملك كسرى، وينتهي إلى منتهى الخُفت والحافر، وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملكتك على قومك.»

ثم أعطى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لخرخسة منطقة (أي حزاماً) فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان باليمن وأخبراه الخبر.

- [الطبقات الكبرى: ١ / ٢٦٠، بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٨٢.

(369)

فقال باذان: والله ما هذا بكلام ملك وإنما لأرى الرجل نبياً كما يقول، ولننظر ما قد قال، فلنن كان ما قد قال حقاً فإنه لا ريب نبى مرسل، وإن لم يكن فسندى فيه رأينا.

فلم يلبث أن قدم عليه كتاب شيرويه: أما بعد فاني قد قتل كسرى ولم أقتله إلا غضباً لفارس، لما كان استحل من قتل أشرافهم، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب اليك فيه فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه.

وقد تسبب كتاب «شيرويه» هذا في أن يعتق «بادان» الإسلام هو وجميع رجال دولته وكانوا من الفرس، وكتب إلى رسول الإسلام -

صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يخبره بإسلامه وإسلام أعضاء حكومته. (1)

سفيرُ النبي في أرض مصر:

تُعتبر «مصر» مهد الحضارات والمدن العريقة، ومركز سلطان الفراعنة، وموضع سيادة الإقباط.

ويوم أشرق شمس الإسلام على أرض الحجاز كانت «مصر» قد فقدت استقلالها، وقوتها، وكان المقوقس قد فوض إليه حكم

«مصر» من قِبَل قيصر الروم لقاء ١٩ مليون دينار يدفعها إلى قيصر.

وكان «حاطب بن أبي بلتعة» - وكان فارساً بارعاً وله قصة في تاريخ الإسلام سيأتي ذكرها في حوادث السنة الثامنة - أحد الستة الذين كلفوا ببلاغ كتب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى الملوك والرؤساء يومذاك وقد أمره رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بإيصال كتابه إلى المقوقس حاكم «مصر».

واليك نصّ كتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى المقوقس:

[بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٩١].

(370)

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط» (ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون.⁽¹⁾)

فخرج «حاطب» بكتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حتى قدم «مصر»، وأراد الدخول على حاكمها، «المقوقس» علم بأنه يسكن في أحد قصوره الشامخة على ضفاف النهر، في الأسكندرية، فركب زورقاً، نقله إلى قصر «المقوقس». « فلما وصل «حاطب» إلى قصر «المقوقس» أكرمه وأخذ كتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقرأه، وفكر في مضمونه بعض الوقت، ثم قال لسفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه (أي من قومه) وأخرجوه من بلده إلى غيرها أن يسأط عليهم.

فقال حاطب وكان حكيماً فهيماً: أأست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله؟

فماله حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه أن لا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالى حتى رفعه الله إليه ؟

فأعجب المقوقس - الذي لم يكن يتوقع أن يجابه بهذا المنطق القوي المفحم - برد حاطب وقال له: أحسنت، انت حكيم جاء من عند حكيم⁽²⁾.

فتجرأ حاطب لما رأى هذا الموقف الخاضع من ملك مصر وقال: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى (يعني فرعون) فأخذه الله نكال الآخرة

(371)

والاولى، فانتقم به، ثم انتقم منه فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرك بك، ان هذا النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى ولعمري ما بشاره موسى بعبسى عليهما الصلاة والسلام إلا كيشارة عيسى بمحمد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وما دعاونا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الانجيل، وكل نبي أدرك قوماً فهم أمثؤه، فالحق عليهم أن يطبعوه، فانت ممن أدرك هذا النبي، ولسنا ننهك عن دين المسيح - عليه السلام - ولكننا نأمرك به.

وهو يقصد بكلامه الأخير أن الإسلام هو الصورة الاكمل لدين المسيح.

انتهى الحوار بين حاطب سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والمقوقس حاكم مصر إلا أن المقوقس لم يعطه جواباً قاطعاً في ذلك المجلس، فكان على حاطب أن يلبث في مصر مدة حتى يتلقى جواب كتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - . (1)

ثم طلب المقوقس حاطباً ذات يوم وانفرد به في قصره، وسأله عن ما جاء به رسول الله وإلى م يدعو؟ فقال له حاطب: إلى أن نعبد الله وحده، ويأمر بالصلاة، خمس صلوات في اليوم والليلة ويأمر بصيام رمضان، وحج البيت، والوفاء بالعهد، وينهى عن أكل الميتة والدم...و..

فقال له المقوقس: صفه لي.

قال حاطب: فوصفت فأوجزت.

فقال المقوقس: مصديقاً ما ذكره حاطب من أوصاف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذه صفته، وكنث أعلم أن نبياً قد بقي، وكنث أظن أن مخرجاً بالشام وهناك كانت تخرج الانبياء من قبله، فأراه قد خرج في أرض العرب، في أرض جهد ويؤس، والقبط لا تطاوعني في أتباعه، وسيظهر على البلاد، وينزل أصحابه من بعد بساحتنا هذه، حتى يظهروا على ماها هنا.

(372)

ثم طلب المقوقس من حاطب أن يكتفم أمر هذا الحوار الذي دار بينه وبين حاطب عن قومه قاتلا: وأنا لا أذكر للقبط من هذا حرفاً واحداً، ولا أحب أن يعلم بمحادثتي (أو بمحاورتي) إياك. (1)

ثم إنه اكرم حاطباً مدة اقامته بمصر إكراماً بالغا، وأحسن قرأه، وضيافته.(2)

المقوقس يكتب كتاباً إلى النبي:

ثم إنَّ حاكم «مصر» المقوقس دعا كاتبه العربي، وأمره أن يكتب كتاباً إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذا نصه:
بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد بن عبدالله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد فقد قرأتُ كتابك، وفهمتُ ما ذكرتُ فيه،
وما تدعو إليه، وقد علمتُ أن نبياً قد بقي، وقد كنتُ أظنُّ أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك، وبعثتُ اليك بجاريتين لهما مكانٌ في
القبط عظيمٌ، وبثياب، وأهديتُ إليك بغلة لتركبها والسلام عليك.(3)

إن الاحترام الذي أبداه «المقوقس» في رسالته المذكورة، وتقدير اسم النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على اسمه وكذا هداياه التي
بعثها إلى رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - و تكريم سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كلها تحكي عن أنَّ المقوقس
قبل دعوة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في سرّه ولكن حبّه في البقاء في السلطة منعه من التظاهر بإيمانه وإسلامه، ومن
الإنقياد العمليّ والعلنيّ للإسلام.

خرج «حاطب» بصحبة جماعة من الحرس المحافظين وهو يحمل الهدايا التي بعثها المقوقس من عند المقوقس ولما وصل إلى
الشام أذن للمحافظين بالانصراف ثم واصل هو سفره ضمن قافلة إلى المدينة، ولما قدم المدينة على رسول الله - صَلَّى الله عليه
وآله وسلم -

-
- 1-سيرة زيني دحلان: ٣ / ٧١ .
 - 2-الطبقات الكبرى: ١ / ٢٦٠ .
 - 3-الطبقات الكبرى: ١ / ٢٦٠ .

(373)

سَلَّمَ إليه كتاب المقوقس وهداياه قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

«صَنَّ بملكه، ولا بقاء لملكه.(1)»

المغيرة بن شعبة في البلاط المصري:

توجه المغيرة بن شعبة الذي كان معروفاً بحكمه وعقله ودهائه، والذي أصبح في ما بعد من رجال السياسة العرب ودهاتها
المعروفين.

توجّه في جمع من قبيلة ثقيف إلى البلاط المصري، فسألهم كبير المصريين (المقوقس):

كيف خلصتم إليّ، وبينني وبينكم محمّد وأصحابه.

فقال: لصقنا بالبحر.

قال: فكيف صنعتم فيما دعاكم إليه

قالوا: ما تبعه متّاً رجلٌ واحد.

قال: فكيف صنع قومُه؟

قالوا: تبعه أحداثُهم، وقد لا قاه من خالفه في مواطن كثيرة.

قال: فالى ماذا يدعو؟

قالوا: إلى أن نعبّد الله وحده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا، ويدعو إلى الصلاة، والزكاة، ويأمر بصلة الرحم، ووفاء العهد، وتحريم الزنا، والربا، والخمر.

فقاطعهم المقوقس قائلاً: هذا نبي مرسلٌ إلى الناس كافة، ولو اصاب القبط، والروم لا تبعوه، وقد أمرهم بذلك عيسى، وهذا الذي تصفون منه نعت الانبياء من قبله، وستكون له العاقبة حتّى لا ينازعه أحد، ويظهر دينه إلى منتهى الخفت والحافر.

- [الطبقات الكبرى: ١ / ٢٦٠ وغيره.

(374)

فاستاء رجال ثقيف من هذا الكلام وقالوا بكل صلافة ووقاحة: لو دخل الناس كلهم معاه ما دخلنا معاه. فهزّ المقوقس رأسه ساخراً بهم وقال: أنتم في اللعب (1) بيد ان هذه الرواية لا توافق بقية المصادر التاريخية لان النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - كاتب ملوك العالم وقادته في السنة السابعة من الهجرة، على حين كان المغيرة في معركة الخندق قد آمن، وكان في الحديدية في صفوف المسلمين، حتّى أنه كان بينه وبين مندوب قريش المفاوض عروة بن مسعود الثقفي مشاجرة مرذكرة عند استعراض قصة الصلح.

وعلى فرض صحة هذه الرواية لا بد من القول بأن المغيرة لم يكن في وفد ثقيف.

وفي الختام ينبغي أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى أن الواقدي نقل نص رسالة النبي إلى عظيم القبط بصورة أخرى.

ولكن أسلوب الرسالة وعباراتها تدل على أن هذه الصورة لا أساس لها من الصحة، لأنها تتضمن تهديداً من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لعظيم القبط بالحرب والغزو انجاء فيها: «وأمرني (أي الله) بالإعذار والإنذار، ومقاتلة الكفار حتى يدينوا بديني». (2)»

ومما لا شك فيه أن هذا غير صحيح لأن امكانيات المسلمين في ذلك اليوم لم تكن لتسمح لهم بمقاتلة المكيين فكيف يغزو «مصر» وهي منطقة نائية جداً.

هذا مضافاً إلى أن صدور مثل هذا الكلام عن النبي في أول دعوة له إلى الإسلام لا يتلاءم ونفسية وخلق ذلك الرجل العظيم الذي كان يقدر الظروف آنذاك أفضل من غيره.

* * *

1- السيرة الدحلانية: ٣ / ٧٠ .
2- فتوح الشام: ٢ / ٢٣ .

(375)

سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في أرض الذكريات «الحبشة»:»

تقع «الحبشة» في آخر أفريقيا الشرقية وتبلغ مساحتها ١٨٠٠ كيلومتراً مربعاً، وعاصمتها اليوم: أديس أبابا.

ولقد تعرّف الشرقيون على هذه الأرض قبل ظهور الإسلام بقرن، وذلك على اثر هجوم الجيش الايراني الذي تمّ في عهد حكومة الملك الفارسي «انوشيروان»، وبلغ هذا التعرف والتردد ذروته في هجرة المسلمين من مكة إلى الحبشة (الهجرة الأولى والهجرة الثانية).

ويوم قرر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يبعث ستة من خيرة رجاله الشجعان إلى نقاط مختلفة، ونائية من العالم لإبلاغ نداء رسالته العالميّة كلف: «عمرو بن أمية الضمري» بأن يأخذ كتابه إلى الحبشة، ويسلمه إلى النجاشي ملكها العادل الطيب. على أن الكتاب الذي ستقرأ نصّه قريباً ليس هو الكتاب الوحيد الذي بعثه رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى النجاشي، بل سبق أن كتب - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إليه قبل هذا يوصيه بالمهاجرين المسلمين، ويطلب منه فيه أن يلطف بهم، ويرعاهم، ولا يزال نصّ هذين الكتابين موجوداً في المصادر التاريخية الإسلامية. (1)

وربما حصل اشتباه بين هذين الكتابين (الرسالة التي بعثها النبي لابلاغ دعوته العالمية، والرسالة التي أوصى فيها النجاشي بالمهاجرين) فخلط بعض المؤرخين بين عبارتيهما.

ويوم قدم سفيرُ النبي بكتاب الدعوة إلى الإسلام ، الحبشة على النجاشي كان بعض المهاجرين المسلمين لا يزالون في أرض الحبشة، يعيشون في كنف

-[تاريخ الطبري: ٢ / ٢٩٤.

(376)

النجاشي وحمایته، بينما عاد بعضهم من قبل إلى المدينة، وهم يحملون أجمل الذكريات والخواطر عن عدل حاكمها الطيب «النجاشي»، ولطفه، وحسن وفادته.

من هنا كانت أرض الحبشة في نظر المسلمين تُعتبر أرض الذكريات الجميلة والخواطر الحلوة، وكانوا يمدحون حاكمها ويصفونه بالعدل والاستقامة. ولو اننا لاحظنا في كتاب النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إليه نوعاً من اللطف، واللين في القول فان ذلك مرده إلى معرفة رسول الله بنفسية النجاشي وخلقه وحسن موقفه.

فانك لا تجد لتهديدات رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في كتبه ورسائله الاخرى إلى الملوك والزعماء بالعقاب الالهي إن رفضوا القبول بدعوته، وحملهم مسؤولية شعوبهم في عبارات صريحة وقاطعة، أي اثر في هذا الكتاب.

فقد كتب رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إلى النجاشي مايلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى النجاشي مَلِكِ الحَبَشَةِ.

سلامٌ عليك، أحمد الله الذي لا اله إلا هو الملك القُدوس السلامُ المؤمنُ المهيمنُ، وأشهدُ أن عيسى بن مريم روحُ الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحسنة فحملت بعبسى، حملتُه من رُوحه، ونفخه، كما خَلَقَ آدمَ بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاتة على طاعته، وأن تتبني وتوقن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك وقد بلغتُ ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى. (1)»

لقد بدأ رسولُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كتابه بالتسليم على حاكم الحبشة وأرسل إليه بتحياته الشخصية، ولكنه لم يفعل هذا في كتاب غيره، فلم يرسل بتحياته الشخصية إلى «كسرى» و «قيصر» و «المقوقس» حكّام إيران والروم

(377)

ومصر، بل بدأ كتبه إليهم بالسلام العام حيث قال: «السلام على من اتبع الهدى. »

ولكنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سلم في كتابه هذا، على النجاشي نفسه، وقال: «السلام عليك»، وبهذا خصّه دون غيره من الزعماء والملوك باحترام وتكريم خاصين.

وقد أشار - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في هذا الكتاب إلى جملة من صفات الله البارزة التي تدلّ جميعها على تنزهه سبحانه، وعظمته وجلاله.

ثم أشار إلى مسألة ألوهية المسيح (التي هي من ولاند التفكير الكنسي المنحط) وردّ على ذلك باستدلال قويّ خاصّ مستلهم من القرآن الكريم، حيث قايس ولادة المسيح - عليه السّلام - بخلق آدم، وأثبت ان ولادة شخص من دون أب لو كان دليلاً على ألوهيته، أو كونه ابناً لله، لصحّ ذلك في حق آدم، الذي خلق من غير أب ولا أم، ولكن لا يرى أحدٌ فيه مثل هذا الرأي.

ثم ختم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كتابه هذا باخراج دعوته في لباس النصح والموعظة، تجنباً من إظهار نفسه بمظهر الأمر.

محاورة سفير النبيّ وحاكم الحبشة:

لما مثل سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمام النجاشي قال للنجاشي:

يا أصحابة إنّ عليّ القول، وعليك الاستماع، إنّك كأنك في الرقة علينا منا، وكأنا في الثقة بك منك لأننا لم نظن بك خيراً قط إلاّ نلناه، ولم نحفظك على شرّ قط إلاّ أمناه، وقد أخذنا الحجة عليك من قبل آدم، والانجيل بيننا وبينك شاهد لا يُردّ، وقاض لا يجور، وفي ذلك موقع الخير، واصابة الفضل، وإلاّ فأنت في هذا النبيّ الأمي كاليهود في عيسى بن مريم، وقد فرّق رُسُلُه إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له، وأمنك على ما خافهم عليه لخبر سالف، وأجر ينتظر.

فقال النجاشي: أشهد بالله أنه للنبيّ الذي ينتظره أهل الكتاب، وإنّ

(378)

بشارة موسى براكب الحمار، كيشارة عيسى براكب الجمل، وانه ليس الخير كالعيان، ولكن أعواني من الحبشة قليل، فانظرنني حتّى

أكثر الأعوان، واليّن القلوب ولو استطيع أن آتية لأتيتّه. (1)

رسالة النجاشي إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

ثم كتب كتاباً إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم؛ إلى محمّد رسول الله منّ النجاشي، سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته، أذني لا اله إلا هو، أذني هدايني إلى الإسلام.

أما بعد، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فوربّ السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثروفاً⁽²⁾ إنه كما قلت وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابك، وأشهد أنك رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقد بايعتُك وبايعتُ ابن عمك وأسلمتُ على يدَيْه لله ربّ العالمين، وقد بعثتُ إليك يا نبيّ الله فان شئت أن آتيتك لفعلتُ يا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأني أشهدُ أنّ ما تقولُ حقٌّ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.⁽³⁾»

ثم إنّ النجاشي بعث بهدايا خاصّة إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وكتب إليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد ذلك كتابين آخرين أيضاً، وكان في كلّ مرة يحترم كتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويقبله ويضعه على عينيه.

تقييم سريع لمراسلة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قادة العالم:

ربما تصوّر بعض العارفين بأحوال الساسة في ذلك اليوم أن دعوة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لحكّام وشعوب العالم يومذاك كان أمراً خارج المألوف وعملاً

1- السيرة الحلبية: ٣ / ٢٤٨، الطبقات الكبرى: ١ / ٢٥٩.
2- الثفروق: الاقماغ التي تلتق باليسر.
3- تاريخ الطبري: ٢ / ٢٩٤، بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٩٢.

غير متعارف، ولكنّ مضى الزمان أثبت أنّ ذلك العمل كان من وظائف النبي ومهامه الأساسية.

أولاً:

ان إرسال سنة سفراء في يوم واحد إلى أنحاء العالم، محمّلين برسائل قوية مبرهنة أغلق كل باب للشكّ في وجه المخالفين في المستقبل، فلا مجال لأن يشك أحدُ هذا اليوم وهو يرى هذا العمل العظيم في عالميّة الرساله المحمّدية، فمضافاً إلى الآيات الواردة في هذا الصعيد يعدّ إرسال السفراء بنفسه دليلاً قاطعاً وكبيراً على عالمية الرسالة الإسلامية.

ثانياً:

لقد تأثر جميع الزعماء والملوك والقادة الذين راسلهم النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما عدا «خسرو پرويز» ملك ايران الذي كان طاغية مستبدّاً متكبّراً - برسائل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ودعوته، وأكرموا سفراءه.

كما أن قضية ظهور النبي العربي قد أصبح حديث الاوساط والمحافل الدينية بسبب هذا العمل.

لقد أيقظت هذه الرسائل والكتب بمحتوياتها ومضامينها القوية المبرهنة العقول الغافية، وهزت الغافلين بشدة، وأثارت مشاعر الشعوب العالمية المتحضرة، ودفعتهم إلى البحث والتحقيق حول من بشر به التوراة والانجيل، كما تسبب في أن يجري العلماء والاساقفة والقساوسة غير المغرضين باتصالات بمن ينتسب إلى هذا الدين، ويقيموا ارتباطاً مع هذه العقيدة بشكل وآخر.

ومن هنا ولأجل هذا تسابقت أفواج وفرق كبيرة من رجال الدين من الشرائع الدينية المختلفة التي كانت سائدة آنذاك في الايام الاخيرة لحياة رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبعدها إلى القوم على المدينة لدراسة أوضاع الدين الجديد، والتعرف على ماهيته ومنطقه.

ولقد شرحنا في الفصول الماضية وبشكل مفصل نوع ومدى التأثير الذي تركته رسائل النبي وسفراؤه في نفوس حكام الروم ومصر والحبشة، وما نحن نواصل ببيان بقية التأثيرات التي تركتها مراسلة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لحاكم

(380)

الحبشة العادل، وملكها البار: اصحمة النجاشي.

فقد عمد النجاشي بعد تقديم الهدايا إلى سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، إلى ارسال ثلاثين رجلاً من القساوسة والاساقفة الاحباش إلى أرض المدينة للتحقيق في أمر الإسلام، ونبوة محمد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وليروا عن كتب حياته الزاهدة البسيطة، ولا يتصوروا أنه يعيش كما كان يعيش الملوك والجبابة في ذلك العصر.

ولما قدم مبعوثو النجاشي المدينة على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سألوه عن نظريته حول السيد المسيح - عليه السلام - فبين رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عقيدته حول ذلك النبي العظيم بقراءة الآية التالية:

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالتَّانِجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِءُ الْأَكْمَامَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ⁽¹⁾)

وقد كان لهذه الآيات أثرٌ عجيبٌ في نفوس أولئك القساوسة والاساقفة حتى أنهم بكوا عند سماعها من دون اختيار.

وبعد التحقيق الدقيق في دعوة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عاد هذا الفريق من علماء الدين المسيحي إلى الحبشة،

وأخبروا النجاشي بما سمعوه وشاهدوه، فبكى هو أيضاً لما سمع من أولئك الرجال⁽²⁾.

وقد نقل ابن الاثير في «الكامل» و «أسد الغاية» قصة هذا الوفد بصورة أخرى إذ كتب بعد ذكر ما مرّ من رسالة النجاشي بإضافة قوله: «وبعثت

1- المائدة: ١١٠ .
2- اعلام الوری: ص ٤٦ .

(381)

إليك بابني أرمي بن الاصحم» فخرج ابن النجاشي في ستين نفساً من الحبشة (قاصدين المدينة) في سفينة في البحر، فلما توسطوا البحر غرقوا كلهم.

ولكن وصول الرسالة التي اشار اليها ابن الاثير إلى الرسول الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - شاهد على أنه لم تحدث مثل هذه الحادثة لمبعوثي النجاشي.⁽¹⁾

كتاب رسول الله إلى أمير الغساسنة (بالشام):

الغساسنة فرع من قبيلة «الازد» القحطانيين الذين سكنوا «اليمن» مدة طويلة، وكانت أراضيهم تسمى من سدّ مأرب، فلما انهزم ذلك السدّ اضطروا إلى الرحيل عن «اليمن» ونزلوا بالشام. فسيطروا على جزء من أراضيها وحكموا فيها، وانتهى بهم الامر إلى تشكيل دولة الغساسنة. التي كانت تحكم تلك الديار تحت نفوذ قياصرة الروم وسيادتهم، فلما جاء الإسلام أزال نظامهم، وانتهت حكومتهم، بعد أن حكم منهم، اثنان وثلاثون ملكاً في مناطق «الجولان»، و «اليرموك»، و «دمشق».⁽²⁾

وقد بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «شجاع بن وهب» وهو أحد السفراء الستة الذين بعثهم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لا بلاغ الرسالة الإسلامية إلى العالم - إلى أرض الغساسنة، وقد حملته كتاباً إلى ملكها يومذاك «الحارث بن أبي شمر الغساني»، فخرج شجاع بكتاب النبي إلى الشام لتسليمه إلى ملك الغساسنة فأنتهى إليه وهو بغوطة دمشق وهو مشغول باعداد المقدمات لاستقبال «قبصر» الذي كان في طريقه إلى زيارة بيت المقدس وفاء للنذر الذي نذره للانتصار على ايران كما مر.

ولهذا لم يستطع «شجاع» من الوصول إلى الأمير الغساني إلا بعد انتظار دام

1- اسد الغاية: ١ / ٦٢، الكامل في التاريخ: ٢ / ١٤٥ .
2- راجع معجم البلدان، ومروج الذهب وغيرهما.

(382)

ثلاثة أيام، فاستغلَّ «شجاع» هذه الفرصة وصادق فيها حاجب الأمير الغساني فكان يحدثه عن صفة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخلاقه وما يدعو إليه من العقيدة الطاهرة، فأثرت كلمات «شجاع» تأثيراً عجبياً في نفس ذلك الحاجب الذي كان رومياً حتى أنه رقى وغلبه البكاء وقال: إني قرأت الإنجيل وأجد صفة هذا النبي بعينه، وأنا أؤمن به وأصدقّه، وأخاف من «الحارث» أن يقتلني إذا عرف باسلامي وكان يكرم سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويحسن ضيافته طوال تلك المدة، ويقول إن الحارث يخاف قيصر أيضاً.

ثم لما خرج «الحارث» ذات يوم وجلس على عرشه أذن لسفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالدخول عليه، فلما مثل بين يديه دفع إليه كتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقرأه وكان نصّه كالتالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلامٌ على من اتبع الهدى، وآمن به وصدق، وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى ملكك.»

فانزعج الحارث ممّا قرأ في آخر الكتاب ورمى به جانباً، وقال: من ينتزع مني ملكي؟ أنا سائر إليه، ولو كان باليمن جنته، عليّ بالناس.

وبهذا أمر بإعداد العسكر حالاً ليستعرض قوته العسكرية أمام سفير النبي إرعاباً وتخويفاً له. ولجل أن يظهر نفسه بمظهر المدافع عن ملك قيصر بادر إلى كتابة رسالة إلى «قيصر» يخبره فيها بما عزم عليه من غزو رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - !! واتفق أن وصلت رسالة الامير الغساني إلى «قيصر» في الوقت الذي كان فيه «دحية الكلبي» سفير النبي إلى الروم في مجلس قيصر، وكان «قيصر» يحاوره، ويسأله عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وعن صفته ودينه، فانزعج «قيصر» من مبادرة الحاكم الغساني العجولة وكتب إليه يمنعه عن السير إلى رسول الإسلام طالباً منه أن يلتقي به في مدينة «ابيليا.»

(383)

فغيّر موقف «قيصر» الايجابي هذا موقف عميله: الحاكم الغساني السلبي تبعاً للمثل القائل «الناس على دين ملوكهم» فبادر من فوره إلى إكرام سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومنحه هدايا ثمينة، ووجّهه نحو المدينة معززاً مكرماً وقال له: «اقرأ على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مني السلام.»

ولكن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يرض بهذا الموقف الدبلوماسي الذي لم يكن ينمُّ عن واقع صادق فقال: باد ملكة. أي

سيزول ملكه عما قريب. فمات «الحارث» في السنة الهجرية الثامنة أي بعد عام واحد من هذه القضية. (1)

سادس السفراء في أرض اليمن:

سادس سفراء النبي هو المبعوث إلى أرض اليمامة (وهي من نجد)، وهو سليط بن عمرو.

فقد خرج سليط هذا بكتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى «هودة بن علي» الحنفي ملك اليمامة يدعو به إلى الإسلام ولما قدم عليه سلم الكتاب إليه وفيه.

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هودة بن علي. سلام على من أتبع الهدى و أعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر (أي يعمُ الشرق والغرب) فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك.»

وحيث أن ملك اليمامة (هودة) كان نصرانياً لذلك بعث إليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سليطاً وكان ممن عاش مدة من الزمن في أرض الحبشة عندما هاجر إليها فريقاً من المسلمين فراراً من اضطهاد وفتنة قريش لهم، وعرف بتقاليد النصراني ومنطقهم، وكانت تعاليم الإسلام وكذا اختلاطه بمختلف الفئات في رحلاته وأسفاره قد صنعت منه رجلاً شجاعاً قوياً وذكياً وقد استطاع بما أوتي

-[السيرة الحلبية: ٣ / ٢٥٥ و ٢٥٦، الطبقات الكبرى: ١ / ٢٦١.]

(384)

من قوة المنطق، والشجاعة أن يقنع بكلامه وحديثه ملك اليمامة عندما قال له: يا هودة أنه سؤدتك (١) أعظم حائلة (أي بالية) وأرواح في النار، وإنما السيد من متع بالإيمان ثم زود بالتقوى. ان قوماً سعد برأيك فلا يشقون به، وإني أمرك بخير مأمور به، وأنهاك عن شيء منهى عنه. أمرك بعبادة الله، وأنهاك عن عبادة الشيطان، فان في عبادة الله الجنة، وفي عبادة الشيطان النار، فان قبلت نلت ما جوت وأمنت ما خفت، وان ابيت فبيننا وبينك كشف الغطاء وهول المطلع.

كانت ملامح ملك اليمامة المتغيرة المتأثرة توحى بحسن تأثير كلمات سليط سفير النبي في نفس ذلك الملك، ولهذا طلب من سليط أن يمهل مدة حتى يفكر في أمر النبي ودعوته، وكان من الملوك العقلاء.

وصادف أن قدم اليمامة عليه في ذلك اليوم اسقف كبير من كبار أساقفة الروم، فتحدث معه «هودة» في قضية النبي، ودعوته، واليك ما دار بينهما من الحوار.

قال هودة للاسقف: جاءني كتاب من النبي يدعوني إلى الإسلام فلم أجبه.

فقال الاسقف: لم لا تجيبه.

قال هودة: ضننتُ بديني وأنا أمليكَ قومي، ولنن اتبعته لا أمليكَ.

قال: بلى والله لنن اتبعته لئملكناك، وان الخير لك في اتباعه، وأنه للنبي العربي الذي بشر به عيسى بن مريم - عليه السلام - . وانه لمكتوب عندنا في الانجيل: محمّد رسول الله.

فتركت نصيحة الاسقف وكلماته أثراً عميقاً وقويماً في نفس ملك اليمامة «هودة» فاستدعى سفير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وكتب إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

- [يقصد أنه سوده كسرى وهو في النار.

(385)

كتاباً هذا نصه: «ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني فاجعل إليّ بعض الأمر اتبعك (أي أنه كان يطلب أن يجعله النبي خليفة له من بعده).

ولم يكتف «هودة» بهذا بل بعث وفداً إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بزعامة «مجاة بن مرارة» ليبلغ إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رسالته ويقول له - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : ان جعل الأمر له من بعده أسلمّ وسار إليه ونصره، وإلاّ قصّد حربته.

فلما قدم الرسول على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخبره بما جرى وقرأ الكتاب على النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: «لا ولا كرامة، لو سألتني سيابة من الارض ما فعلت اللهم اكفنيه.⁽¹⁾»

رسائل أخرى لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

هذا وان الرسائل والكتب التي بعثها رسول الله لغير من ذكرناه من القادة والزعماء والشخصيات الدينية والسياسية اكثر من ما أدرجناه هنا، وقد استطاع العلماء المحققون أن يجمعوا ويثبتوا في كتب خاصة صورة ٢٩ رسالة من رسائل الدعوة إلى الإسلام التي بعثها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تركنا إدراجها هنا رعاية للاختصار⁽²⁾.

- [السيرة الحلبية: ٣ / ٢٥٤، الكامل في التاريخ: ٢ / ١٤٦، الطبقات الكبرى: ١ / ٢٦٢ و سيابة من الارض أي قطعة من الأرض.
-2 راجع مكاتيب الرسول للعلامة الاحمدي، وغيره من المؤلفات في هذا المجال.

(386)

قلعة خيبر أو بؤرة الخطر

يوم طلع نجم الإسلام في أرض المدينة حقدت اليهود على رسول الله، والمسلمين أكثر من قريش، وعملت بمختلف الطرق والحيل من أجل القضاء على الإسلام والإيقاع برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه.

ولقد ابتلي يهود المدينة وما حولها بمصير سيء نتيجة أعمالهم وتصرفاتهم السيئة، فقتل فريق منهم، وأجلي آخرون مثل قبيلة بني قينقاع وبني النضير من أرض المدينة فسكنوا «خيبر» و «وادي القرى» أو نزلوا بأدراعات الشام.

وكانت خيبر منطقة واسعة وخصبة تقع على بُعد اثنين وثلاثين فرسخاً من المدينة وكان قد سكنها اليهود قبل بعثة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبنوا فيها سبع قلاع وحصون قوية لتحصنهم وتحفظهم.

وحيث أن التربة والمناخ في تلك المنطقة كانت قد جعلت من تلك المنطقة مكاناً جيداً وصالحاً للزراعة جداً، لذلك كان سكانها اليهود قد حصلوا على مهارة كبرى في أمور الزراعة وجمع الثروات، وتهيئة وسائل الدفاع والقتال، وإعداد السلاح والقوة.

وكان عدد نفوسها يقارب عشرين ألف نسمة بينهم عدد كبير من المقاتلين الشجعان. (1)

[1] السيرة الحلبية: ٣ / ٣٦، تاريخ الطبري: ٢ / ٤٦.

إن أكبر ذنب أترفه يهود «خيبر» هو أنهم شجّعوا جميع القبائل العربية على محاربة الحكومة الإسلامية والقضاء عليها، واستطاع جيش الأحزاب المشرك بمساعدة يهود «خيبر» أن يتحركوا في يوم واحد من مختلف مناطق الجزيرة العربية لاجتياح المدينة واستئصال المسلمين في أكبر تحالف عسكري واتحاد نظامي من نوعه في ذلك العصر كما سبق وأن عرفت في قصة «معركة الأحزاب» ولكن هذا الجيش المعتدي الظالم تفرق بفعل تدابير رسول الإسلام الحكيم وأصحابه بعد شهر من الانتظار خلف الخندق، وتقهر وعادت أحزابه ومن جملتهم يهود خيبر متشتتة متفرقة إلى أوطانها تجرّ أذيال الخيبة والخسران، واستعادت عاصمة الإسلام استقرارها وأمنها.

إن خيانية، وخبائثة ولؤم يهود خيبر حملت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على أن يقضي على بؤرة المؤامرة ومركز الفساد والخطر هذا، وأن يجرد سكانها جميعاً من السلاح، لأنه كان يخشى أن يعود هذا الشعب المعاند الخبيث - ببذل الأموال الطائلة - إلى

تأليب العرب الوثنيين مرة أخرى ضد المسلمين ويعيدوا قصة الأحزاب مرة أخرى. وخاصة أن تعصّب اليهود لدينهم ومعتقدهم كان أشدّ من تعصّب قريش للوثنية، ولهذا التعصب كان يسلم ألف مشرك وتني ولا يدع يهوديٍّ واحدٍ دينه، ومعتقده!!

ثم إنّ عاملاً آخر حمل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على تحطيم قدرة الخبيريين وشوكتهم، وانتزاع السلاح منهم ورصد تحركاتهم بواسطة فرسانه ورجاله، أنه راسل الملوك والسلاطين، ودعاهم جميعاً وبشكل قوي إلى الإسلام، فلم يكن من المستبعد أن يستغل «كسرى» و «قيصر» يهود خيبر فيتعاونوا جميعاً للقضاء على الإسلام والنهضة الإسلامية في مهدها، أو تحرك اليهود ذبّك الملكين ضدّ الإسلام كما حرّكت من قبل المشركين ضدّ هذا الدين، وتسبّبت في وقوع مشاكل.

خاصة أن الشعب اليهودي كان ضليعاً في الحروب التي دارت بين الروم

(388)

والفرس في تلك العصور، وكان اليهود يتعاونون مع أحد الطرفين.

من هنا رأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ان من الحكمة بل ومن الضرورة بمكان أن يطفئ شرارة الخطر هذه إلى الأبد

وكانت هذه الفرصة أفضل الفرص لهذا العمل، لأنّ بال النبيّ كان قد فرغ من ناحية الجنوب (أي قريش) بعد صلح الحديبية، وكان يعلم أنه لو أقدم على عمل ضد اليهود لم تمتد يد من جانب قريش لمساعدتهم، ولكي يمنع من وصول أيّة مساعدات وامدادات لهم من ناحية قبائل الشمال مثل «غطفان» الذين كانوا أصدقاء لليهود خيبر والمتعاونين معهم في معركة «الأحزاب» نفذ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خطة سيايّي تفصيلها مستقبلاً.

لهذه الاسباب والعوامل والاعتبارات أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المسلمين بالتهبؤ لغزو خيبر آخر مركز من مراكز اليهود في الجزيرة العربية. وقال: «لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد أما الغنيمة فلا.»

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - استخلف على المدينة «نميلة بن عبد الله الليثي»، ودفع راية بيضاء إلى «علي بن أبي طالب» - عليه السّلام - وأمر بالتوجه إلى خيبر، ولكي تسرع الابل في سيرها اذن لعامر بن الاكوع أن يحدو بالابل لان الابل تُسْتَحْتُّ بالحداء، فأخذ يرتجز قائلاً:

والله لولا الله ما اهتدينا * ولا تصدقنا ولا صلينا

إنّا إذا قومٌ بَعُو علينا * وإن أرادوا فتنة أبينا

فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةَ عَلَيْنَا * وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَأَقِينَا

وقد عكست هذه الأبيات الجميلة جانباً من هدف هذه الغزوة، فهي تفيد أن اليهود ظلمونا، وأشعلوا نيران الفتنة وقد خرجنا لاطفانها، وتحملنا في سبيل ذلك عناء هذا السفر.

ولقد سُرَّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمضامين هذه الابيات فدعا لابن الاكوع، وقال: «يرحمك الله» وقد استشهد ابن الاكوع هذا في هذه الغزوة.

(389)

هذا وقد كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يراعي مبدأ الاستتار في جميع تحركاته العسكرية، فقد كان يحب أن لا يعرف العدو بمسيره ومقصده حتى يفاجئ العدو ويباغته، ويحاصره قبل أن يستطيع فعل شيء، هذا مُضافاً إلى ناحية أخرى وهي أن يظن حلفاء العدو الذي يقصده بأنه يقصدهم ويسير اليهم، فيغلقوا على أنفسهم أبواب منازلهم ولا ينضم بعضهم إلى بعض.

وربما تصوّر البعض في هذه الغزوة أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يقصد منطقة الشمال (شمال المدينة) لتأديب قبائل غطفان وفزارة الذين تعاونوا مع اليهود في معركة الاحزاب، لما وجدوه متوجهاً نحو الشمال.

ولكنه عندما وصل إلى منطقة «الرجيع» عرج بجيشه صوب «خيبر» وبهذا قطع الطريق على اية إمدادات عسكرية من ناحية الشمال إلى خيبر، بقطع خط الارتباط بين قبائل غطفان وفزارة ويهود خيبر، فمع ان حصار خيبر طال مدة شهر واحد تقريباً لم تستطع القبائل المذكورة ان تمدّ حلفاءها اليهود بأي شيء.⁽¹⁾

ولقد خرج مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى خيبر ما يقرب من ألف وستمائة مقاتل، بينهم مائتا فارس.⁽²⁾

وعندما أشرف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على خيبر قرأ الدعاء التالي الذي يكشف عن نيته الحسنة:

- [السيرة النبوية: ٢ / ٣٣٠.

-2الإمامي للطوسي: ١٦٤، يذهب ابن هشام في سيرته: ٢ / ٣٢٨ إلى ان خروج النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى خيبر كان في المحرم، وبينما ذهب ابن سعد في الطبقات الكبرى: ٢ / ٧٧ إلى انه كان في جمادى الثانية من السنة السابعة، وحيث ان ارسال الرسل إلى الملوك والامراء تم في شهر محرم من هذه السنة ذاتها لذلك يكون الرأي الثاني أقرب إلى الصحة، وخاصة أن مهاجري الحبشة التحقوا برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في خيبر بعد وصول رسالة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى النجاشي بواسطة «عمرو بن أمية» لان ذهاب رسول النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى الحبشة وعودته مع المهاجرين إلى المدينة ثم خيبر بحاجة إلى زمان، وحيث ان توجه الرسل والسفراء كان في شهر محرم لذلك يجب ان يكون قتال الخيبريين في الاشهر التالية.

(390)

اللهم ربّ السماوات وما الضلّلن

وربَّ الارضين وما اقلنَّ

وربَّ الشياطين وما اضللنَّ

وربَّ الرياح وما أذرينَّ

فإننا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وخير ما فيها ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها. »

إن هذا الدعاء وما رافقه من حالة التصرع، وذلك أمام أعين ألف وستمائة من الجنود الشجعان الذين كان كل واحد منهم شعلة متقدة من الشوق إلى القتال في سبيل الله يكشف عن أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يكن يهدف من مسيره إلى هذه الأرض الاستعمار أو الانتقام بل جاء من أجل ان يقضي على بؤرة الخطر التي كان من المحتمل أن تتحول في كل لحظة إلى قاعدة انطلاق للمشركين الوثنيين، حتى لا تهدد النهضة الإسلامية من هذه الناحية فيما بعد.

وسترى أنت أيها القارئ الكريم كيف أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد فتح القلاع والحصون اليهودية، وانتزاع السلاح من سكانها المتأمرين المشاغبيين فوض إليهم اراضيهم، واكتفى منهم بأخذ الجزية في مقابل المحافظة على أموالهم وأنفسهم، وبعد أن ربطهم بمعاهدة قوية ملزمة.

إحتلال النقاط والطرق الحساسة ليلاً:

كان لكل حصن من حصون خيبر السبعة اسم خاص يعرف به فهي عبارة عن: «ناعم» و «القموص» و «الكتيبة» و «النطاة»، و «شوق» و «سطح»، و «سلام»، وربما سمي بعض هذه الحصون باسم زعيم الحصن وسيده، مثل حصن مرحب.

كما أنه كانوا قد بنوا عند كل حصن من تلك الحصون برجاً للمراقبة، ولرصد كل التحركات خارج الحصن، ولأجل أن ينقل الحراس والمراقبون المستقرون في هذه الأبراج الأخبار إلى داخل الحصن.

(391)

وقد كانت تلك البروج والحصون قد شيدت بحيث يسيطرُ سكانها على خارج الحصن سيطرة كاملة وكانوا يستطيعون - عن طريق المجانيق⁽¹⁾ وغيرها من آلات الرمي - إبعاد أي عدو، وافشال أيّة محاولة للاقتراب إلى الحصن، وذلك برميهِ بالاحجار وما شابهها

وقد كان بين سكان هذه الحصون البالغ عددهم عشرين ألفاً، ألفان من الفرسان الشجعان والصناديد الابطال الذين توفرت لهم كل ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب، والذين أعدت لهم في المخازن كل ما يحتاجون إليه من الاسلحة والعتاد.

وكانت هذه الحصون من الإحكام والقوة بحيث كان من المستحيل إحداث أية ثغرة في حيطانها أيضاً، ومن أراد الاقتراب إليها رمي بالاحجار فجرح بها أو قتل، فكانت تعدُّ هذه الحصون - في الحقيقة - متاريس قوية لمقاتلي اليهود.

لقد واجه المسلمون في هذه الغزوة مثل هذا العدو المسلح، الممتنع بمثل هذه المتاريس القوية، فكان لا بدّ لفتح هذه القلاع من استخدام تكتيك عسكري دقيق.

ولهذا فإنّ أوّل عمل قام به رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه في هذا السبيل هو احتلال كل النقاط والطرق الحساسة ليلاً.

وقد تم هذا العمل بسرية وسرعة بالغة جداً بحيث لم يعرف به حتّى مراقبو الابراج اليقظون أيضاً.

ولما كان صبيحة تلك الليلة خرج عُمال خيبر غادين إلى مزارعهم وبساتينهم وهم يحملون مساحيهم ومكاتلهم وإذا بهم يفاجأون بجنود الإسلام الابطال وقد احتلوا بقوة الايمان جميع النقاط الحساسة وسدّوا جميع الطرق عليهم بحيث لو قدّموا شبراً لقبض عليهم، فأفزعهم ذلك وخافوا خوفاً شديداً، فأدبروا

1- وهي أجهزة حديدية بدائية تقذف الحجر أو الحديد.

(392)

هرباً وهم يقولون: محمّد والجيش معه. وباردوا فوراً إلى إغلاق أبواب الحصون وإحكامها، وعقدوا شورى عسكرية في داخل حصنهم المركزي.

وعندما رأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مساحي اليهود ومكاتلهم وغيرها من أدوات الهدم قال متفانلاً:

«الله أكبر خربت خيبرُ أنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المُنذرين.»

وكانت نتيجة الشورى العسكرية اليهودية في هذه الغزوة هي أن يجعلوا الأطفال والنساء في أحد الحصون، ويجعلوا الذخيرة من الطعام في حصن آخر، ويستقر المقاتلون الشجعان على الأبراج ويدافعوا عن كل قلعة وحصن بالأحجار، ويخرج الابطال الصناديد من كل حصن ويقاتلوا المسلمين خارجه.

كانت هذه هي خطة اليهود لمواجهة جنود الإسلام وقد أصروا على تنفيذها حتى آخر لحظة من القتال ولهذا استطاعوا أن يقاوموا في وجه الجيش الاسلامي مدة شهر واحد تقريباً بحيث كانت محاولة فتح كل حصن من تلك الحصون تستغرق عشرة أيام دون نتيجة.

متاريس اليهود تتهاوى:

كانت هناك نقطة لا تحظى بأهمية تُذكر من الناحية العسكرية وَاكان مقاتلو اليهود يسيطرون عليها سيطرة كاملة، ولم يكن فيها أي مانع من استهداف مخيم المسلمين ورميها من جانب العدو.

ولهذا جاء أحداً المقاتلين المسلمين إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو «محمَّد بن مسلمة» وقال له:

يا رسول الله صلى الله عليك إنك نزلت منزلك هذا فان كان عن أمر (الهي) أمرت به فلا نتكلم فيه، وان كان الرأي تكلمنا؟ يا رسول الله دنوت من الحصن، وان أهل النطاة مرتفعون علينا وهو أسرع لا نحطاط نبلهم فتحوّل يا رسول الله إلى موضع بريء من النخل والبناء حتى لا ينالنا نبلهم.

(393)

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو يراعي واحداً من مبادئ الإسلام العظيمة (الشورى) واحترام الآخرين: «بل هو الرأي، أنظر لنا منزلنا بعيداً من حصونهم، بريئاً من الوباء نأمن فيه بيّاتهم»، فطاف محمَّد حتى انتهى إلى الرجيع (وهو واد بقرب خيبر) ثم رجع إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليلاً فقال: وجدت لك منزلاً، فأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فحولت خيمة القيادة عند المساء إلى ذلك المكان الأكثر أماناً من بيّات اليهود وغدرهم فكان النبي يغدو كل يوم فيقاتل أهل النطاة يومه إلى الليل ثم إذا أمسى رجع إلى الرجيع حيث غرفة القيادة، وكان يناوب بين أصحابه في حراسة الليل في مقامه بالرجيع سبعة أيام.⁽¹⁾

على أنه لا يمكن البتّ في تفاصيل واقعة خيبر ولكن المستفاد من المصادر التاريخية هو أن جنود الإسلام حاصروا القلاع والحصون حصناً تلو حصن، وحاولوا قطع ارتباط الحصن المحاصر ببقية الحصون ثم فتحه، ثم محاصرة حصن آخر.

ولقد تم فتح هذه الحصون ببطء لأنها كانت مرتبطة ببعضها بارتباط سرّي، أو كان المقاتلون يدافعون عنها دفاعاً مستميتاً، ولكن الحصون التي كان الرعب والخوف يسيطر على مقاتليها وحراسها، أو التي ينقطع ارتباطها بالخارج بصورة كاملة كان يتم السيطرة عليها بسهولة، وتسفك فيها دماء أقلّ، ويتقدم العمل فيها بسرعة أكبر.

وان أول حصن فُتح على أيدي المسلمين بعد شيء كبير من الجهد - كما يذهب إليه جمع من المؤرخين - هو حصن «ناعم». ولقد استشهد في فتح هذا الحصن أحد المقاتلين المسلمين البارزين، يدعى «محمد بن مسلمة» الانصاري، وجرح خمسون رجلاً من مقاتلي الإسلام، فقد استشهد الفارس المذكور بعد أن رماه اليهود بصخرة كبيرة من فوق الحصن فقتل من فورهِ، وقيل أنه توفي بعد ثلاثة أيام - حسب رواية ابن الاثير في أسد الغابة (2) - ونقل الجرحى الخمسون إلى

1- السيرة الحلبية: ٣ / ٣٩ .

2- اسد الغابة: ٤ / ٣٣٤ .

(394)

منطقة أخرى من المعسكر خصصت لغرض التضמיד، (1) كما انه سمح لبعض نساء بني غفار بأن يأتين إلى «خيبر» لمساعدة المسلمين وتضמיד الجرحى وتقديم غير ذلك من الخدمات التي يليق بهن في المعسكر، وقد أظهرت تلك النسوة من أنفسهن تفانياً، وتضحية عجيبة. (2)

ولقد رأت الشورى العسكرية الإسلامية أن يعمد المقاتلون المسلمون - بعد فتح حصن «ناعم» إلى فتح حصن «القموص» الذي كان يرأسه أبناء «أبي الحقيق»، ولقد فتح هذا الحصن بفضل تفاني جنود الإسلام وأسرت منه «صفية بنت حبي بن أخطب» التي صارت فيما بعد من زوجات رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ولقد قوى هذان الانتصاران العظيمان معنوية الجنود المسلمين وألقى رعباً شديداً في نفوس اليهود ولكن المسلمين وقعوا في مخمصة شديدة بسبب قلّة المواد الغذائية بحيث اضطروا إلى أن يأكلوا من بعض الانعام المكروهة اللحم، وقد كان هناك بين حصون اليهود حصن مملوء طعاماً إلا أن المسلمين لم يظفروا به حتّى ذلك الحين.

التقوى في ظروف المخمصة الشديدة:

في مثل هذه الحالة التي كان قد استولى فيها جوعٌ شديدٌ على المسلمين، اضطروا معه إلى تناول لحوم ما كره أكله من الأنعام أتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - راع أجيراً لليهود يرعى لهم غنمهم، ورسول الله محاصر لبعض حصون خيبر فقال: يا رسول الله اعرض على الإسلام فعرضه عليه، فأسلم، وكان رسول الله لا يحقر أحداً أن يدعوهُ إلى الإسلام ويعرضه عليه - فلما أسلم قال: يا رسول الله اني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم وهي أمانة عندي فكيف أصنع بها؟ فقال له رسول الله

1- السيرة الحلبية: ٣ / ٤٠ .

2- السيرة النبوية: ٣ / ٣٤٢ .

أمام عيون المئات من جنوده الجياع:

«أخرجها من العسكر ثم صبح بها وارمها بحصيات فإن الله عز وجل سيؤدّي عنك أمانتك.»

ففعل الراعي ما أمره به رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وخرجت الغنم إلى صاحبها حتى دخلت الحصن كأن سائقاً يسوقها،

وقد قاتل ذلك الرجل إلى جانب المسلمين حتى استشهد.⁽¹⁾

أجل لم يكتسب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لقب «الأمين» من قومه في فترة شبابه فقط بل كان أميناً في جميع الحالات والظروف وهو القائل:

«ما من شيء كان في الجاهلية إلا هو تحت قدمي إلا الامانة فانها مؤداة إلى البر والفاجر⁽²⁾»، وقد بقي تردد القطعان حراً طوال مدة الحصار ولم يفكر ولا واحد من المسلمين بأخذ غنم منها لانهم تعلموا الأمانة والتقوى والصدق والورع من معلمهم الاكبر «محمد» الصادق الأمين - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

نعم غلب الجوع الشديد على العسكر ذات يوم حتى كادوا أن يهلكوا فأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن تؤخذ شاتان من غنم اليهود اضطراراً، واطلق البقية لتدخل الحصن بامان⁽³⁾، ولولا ذلك الاضطرار الذي يباح معه المحذور بقدره لما سمح رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بذلك، ولما رأى جوع أصحابه وتضوّرهم من شدة السغب دعا قائلاً:

«اللهم إنك قد عرفت حالهم وان ليست بهم قوة، وان ليس بيدي شيء أعطيهم إياه فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء، وأكثرها طعاماً.⁽⁴⁾»

ولم يكن يأذن لاحد من المسلمين بأن يأخذ شيئاً من اموال الناس ابداً.

في ضوء كل هذا تتضح دسائس جماعة من المستشرقين في تاريخنا المعاصر فهم يصرون على القول بأن غزوات الإسلام ومعاركه كانت للإغارة وجمع الغنائم ومصادرة الأموال والسيطرة عليها وان جنوده لم يكونوا يتقيدون خلال تلك المعارك بمبادئ العدالة والامانة، وذلك كيد منهم للإسلام، ومحاولة بغیضة للحط من قيمة الاهداف الإسلامية العليا، وتشويهها.

ولكن النموذج المذكور هنا، وأمثاله ممّا بعدُ بالعشرات في صفحات التاريخ الإسلامي تشهد بكذبهم فإن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لم يأذن وهو في أشدّ الظروف وأصعبها وجنوده الأوفياء قد غلبهم الجوع ودنوا من الهلاك، بأن يخون راع في أغنام كان يرعاها لليهودي، بل أمره بردها إلى صاحبه وهو في قتال مع اليهود على حين كان يمكنه مصادرتها جملة واحدة.

فتح الحصون الواحد تلو الآخر:

بعد فتح القلاع المذكورة حمل جنود الإسلام على حصن الوطيح، وسلام، ولكنهم واجهوا مقاومة عنيفة من اليهود الذين كانوا يدافعون عنها خارجها، من هنا لم يستطع جنود الإسلام الأبطال رغم كل التضحيات التي ذكرها كاتب السيرة المعروف ابن هشام - في موضع خاص من سيرته - ان يحرزوا انتصاراً بل ظلوا يجالدون مقاتلي اليهود أكثر من عشرة أيام، ولكنهم كانوا يعودون في كل يوم إلى مقرهم من دون نتيجة.

وذاث يوم بعث رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أبابكر واعطاه رايته البيضاء على رأس جماعة من المقاتلين المسلمين لفتح بعض حصون خيبر، ولكنه رجع ولم يكن فتح وكل من الامير والجنود يلقي باللوم على الآخر، ويتهمه بالجبن والفرار.

فبعث رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في يوم آخر «عمر بن الخطاب» على

(397)

رأس جماعة أخرى فكان كرفيقه إذ رجع ولم يحقق فتحاً، بل عاد - حسب ما يروي الطبري - ⁽¹⁾فزعاً مرعوباً وهو يصف شجاعة مرحب وقوته البالغة، فأغضب هذا العمل رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وفرسان الإسلام الأبطال وقادة الجيش الإسلامي، فجمع رسول الله صناديد جيشه وقال:

«لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غداً رَجلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ يَفْتَحُ عَلَيَّ يَدِيهِ لَيْسَ بِفَرَارٍ» أو: «كرار غير فرار» حسب نقل الطبري والحلي. ⁽²⁾

وقد أثارت هذه الجملة الخالدة الحاكية عن فضيلة وشجاعة وتفوق ذلك الفارس الذي قدر أن يكون الفتح على يديه وتمييزه المعنوي على غيره موجة من الفرح الممزوج بالاضطراب بين أفراد الجيش وقادته الشجعان.

فقد بات كل واحد منهم يتمنى أن يكون هو صاحب هذا النوط الخالد والعظيم، وان تصيب القرعة اسمه.

ولما بلغ علياً - عليه السلام - مقالة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - هذه وهو في خيمته قال: «اللهم لا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت. ⁽³⁾»

غطى ظلام الليل كل مكان، وذهب جنود الإسلام إلى أماكن نومهم، وبينما بقي الحراس يتحارسون طوال الليل، ويرصدون أوضاع العدو الغادر

1- تاريخ الطبري: ٢ / ٣٠٠.
2- مجمع البيان: ٩ / ١٢٠، السيرة الحلبية: ٢ / ٣٧، السيرة النبوية: ٣ / ٣٣٤، أمتاع الاسماع: ١ / ٣١٤ ولقد انزعج المؤرخ الاسلامي المعروف ابن أبي الحديد من فرار هاتين الشخصيتين فقال في ضمن قصيدة له:

وما أنسَ لا أنسَ اللّذين تقدّما * وفرّهما وفرّ قَدَ علما حُوبُ

وللراية العظمى وقد ذهبها * ملابس ذلّ فوقها وجلابيب

يشلّهما من آل موسى شمردلّ * طويل نجاد السيف أجيد يعيوبُ
(الغدِير: ٧ / ٢٠١ اقتباساً من القصائد العلويات).
3- السيرة الحلبية: ٢ / ٣٥.

(398)

وتحركاته.

وعند الصباح ومع طلوع الشمس التي شقت بأشعتها رداء الظلام، وأضاءت السهل والجبل، تجمع قادة الجيش الاسلامي وصناديده وأبطاله وغيرهم من الرجال وفيهم الاميران المنهزمان بالأمس حول رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهم يريدون بشوق بالغ أن يعرفوا من سيعطيه الراية اليوم، وقد تناول لها أبو بكر وعمر. (1)

ولم يطل هذا الانتظار، فقد كسر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جدار الصمت هذا عندما قال: «ابن علي»!؟

فقيل يا رسول الله به رمد، وهو راقد بناحية.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«إبتوني بعليّ. (2)»

إنّ هذه العبارة تكشف عن أن ما أصاب علياً - عليه السّلام - من الرمد كان من الشدة بحيث سلبه القدرة على المشي، وعاقه عن الحركة.

فأمَرَ رسولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - يده الشريفة على عيني علي - عليه السَّلَام - ودعا له بخير، فعوفي من ساعته، واستعادت عيناه - عليه السَّلَام - سلامتها افضل ممَّا كانت بحيث لم يرمد - عليه السَّلَام - حتَّى آخر حياته بفضل تلك المسحة النبوية المباركة.

ثم دفع رسولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - اللواء إلى عليّ - عليه السَّلَام - ودعا له بالنصر كما أنه أمره بأن يبعث إلى اليهود قبل قتالهم من يدعو رؤساء الحصون إلى الإسلام فإن أبوا اعتناق الإسلام أخبرهم بوظائفهم في ظل الحكومة الإسلامية وأن عليهم أن يسلموا أسلحتهم إلى حكومة الإسلامية، ويعيشوا بحرية وأمان

1- هذه هي عبارة الطبري: ٢ / ٣٠٠، كنز العمال: ج ٦.
2- بحار الأنوار: ٢١ / ٢٨ و ٢٩، تاريخ الخميس: ٢ / ٤٩.

(399)

تحت ظل هذه الحكومة شريطة أن يدفعوا الجزية.(1)

وإذا رفضوا ذلك وهذا قاتلهم، ثم قال لعلي الذي أوكل إليه قيادة تلك المجموعة:

«لئن يَهْدِي اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ.»(2)

أجل إن النبي الاكرم - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - يفكر في هداية الناس حتَّى في أشد لحظات الحرب، وهذا يفيد بأن جميع حروب رسولِ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - كانت لهداية الناس لا غير.

الانتصار الكبير في خيبر:

عندما كُفِّت عليٌّ - عليه السَّلَام - من جانب النبي - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - بفتح قلعتي سلاط والوطيح (وهما الحصنان اللذان عجز عن فتحهما الأميران السابقان ووجها بفرارهما ضربة لا تجبر إلى شرف الجيش الاسلامي)، ارتدى درعاً قوياً وحمل معه سيفه الخاص ذالفقار وراح يهرول بشجاعة منقطعة النظير نحو القلعتين المذكورتين، والجنْدُ خلفه، حتَّى ركز الرابطة التي أعطاهها له رسولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - على الأرض تحت الحصن.

ولما رأى اليهود انه دنا من الحصن خرج إليه كبار صناديدهم.

وكان أول من خرج إليه أخو مرحب ويدعى «الحارث» فتقدم إلى عليّ وصوته يدوي في ساحة القتال بحيث تأخر من كان خلف

عليّ من شدة الفرع.(3)

ولكن لم يمض زمان حتى سقط الحارث على الارض جثة هامدة بضربة قاضية من علي - عليه السّلام - .

-
- 1- صحيح مسلم: ١٩٥ / ٥ ، صحيح البخاري: ١٨ / ٥ .
 - 2- السيرة الحلبية: ٣٧ / ٢ .
 - 3- امتاع الاسماع: ٣١٤ / ١ قال: فانكشف المسلمون وثبت عليّ.

(400)

فغضب مرحب بطل خيبر المعروف لمقتل أخيه الحارث وخرج من الحصن وهو غارق في السلاح، فقد لبس درعا يمانياً، ووضع على رأسه خوذة منحوتة من حجارة خاصة، وتقدم إلى عليّ - عليه السّلام - كالفحل الصوّول يرتجز ويقول:

قَدْ عَلِمْتُ خَيْبِرُ أَنِي مَرْحَبُ * شَاكِي السِّلَاحِ بَطْلُ مَجْرَبُ
إِنْ غَلَبَ الدَّهْرُ فَاثِي أَعْلَبُ * وَالْقَرْنُ عِنْدِي بِالدِّمَا مُخَضَّبُ⁽¹⁾

فأجابه عليّ - عليه السّلام - مرتجزاً وقد أظهر للعدو شخصيته العسكرية في رجزه:

أَنَا الَّذِي سَمَّيْتَنِي أُمِّي حَيْزِرَةٌ * ضَرَّغَامُ أَجَامٍ وَلَيْتُ قَسْوَرَةٌ
عَبَلُ الزَّرَاعِينِ غَلِيظُ الْقَيْصِرَةِ * كَلَيْثُ غَابَاثُ كَرِيهِ الْمَنْظَرَةِ

وبعد أن انتهى الطرفان من إنشاد رجزهما تبادلوا الضربات بالسيوف والرماح، فألقت قعقة السيوف وصوت الرماح رعباً عجبياً في قلوب المشاهدين، وفجأة هبط سيف بطل الإسلام القاطع على المفرق من رأس «مرحب» بطل اليهود قدّت خوذته نصفين ونزلت على رأسه وشقته نصفين إلى أسنانه!!

ولقد كانت هذه الضربة من القوة بحيث أفضت أكثر من خرج مع «مرحب» من أبطال اليهود وصناديدهم ففروا من فورهم، ولجأوا إلى الحصن، وبقي جماعة فقاتلوا عليّاً منازل فقاتلهم حتى قتلهم جميعاً، ثم لاحق الفارين منهم حتى باب الحصن، فضربه عند الحصن رجل من اليهود فطاح ترسُه من يده فتناول - عليه السّلام - باباً كان على الحصن وانتزعه من مكانه، فترس به عن نفسه فلم يزل ذلك الباب في يده وهو يقاتل حتى فتح الله على يديه ثم القاه من يده حين فرغ، وقد حاول ثمانية من أبطال الإسلام ومنهم أبو رافع مولى رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أن يقلبوا ذلك الباب أو يحركوه من مكانه فلم يقدرُوا على ذلك.⁽²⁾

1- يروي ابن هشام في سيرته أشعار مرحب بصورة أخرى: ٣٣٢ / ٢ .
2- تاريخ الطبري: ٩٤ / ٢ ، سيرة ابن هشام: ٣٤٩ / ٢ ، تاريخ الخميس: ٤٧ / ٢ - ٥٠ .

وهكذا فتحت القلعة التي عجز عن فتحها المسلمون عشرة أيام، في مدة قصيرة على يد بطل الإسلام الأول «علي بن أبي طالب» - عليه السَّلام - .

ويقول اليعقوبي في تاريخه: ان الباب الذي قلعه علي - عليه السَّلام - كان من الصخر وكان طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعين. (1) ويقول الشيخ المفيد في إرشاده بسند خاص عن امير المؤمنين قصة قلعه ذلك الباب:

«لما عالجتُ باب خيبر جعلته مجنناً لي فقاتلتهم به، فلما أجزاهمُ الله وضعتُ الباب على حصنهم طريقاً ثم رميتُ به في خندقهم، ولما قال له رجل: لقد حملت منه ثقلاً قال - عليه السَّلام - :

«ما كان إلا مثل جُنَّتي التي في يدي في غير ذلك المقام. (2)»

وقد نقل المؤرخون قضايا عجيبة حول قلع باب خيبر هذا وخصوصياته ومواصفاته، وعن بطولات علي - عليه السَّلام - في فتح هذا الحصن، وجميعها لا تتماشى ولا تتساير مع القدرة البشرية المتعارفة، ولا يمكن أن تصدر منها.

ويقول علي - عليه السَّلام - نفسه في هذا الصدد ما يرفع كل شك وإبهام قد يعترض المرء في هذا المجال:

«ما قلعتها بقوة بشرية ولكن قلعتها بقوة الهية ونفس بلقاء ربها مطمئنة رضية. (3)»

تحريف الحقائق:

لو أننا أردنا أن نلتزم بحدود الحق والانصاف لوجب أن نقول أنّ «ابن هشام» في سيرته و «الطبري» في تاريخه ذكرا قصة مبارزة علي - عليه السَّلام - في يوم

1- تاريخ اليعقوبي: ٢ / ٤٦ .

2- الارشاد: ص ٦٢ - ٦٥ .

3- بحار الأنوار: ٢١ / ٤٠ .

خيبر بصورة مفصلة، نقلوا تفاصيلها بصورة دقيقة، ولكنها ذكرا في نهاية بحثهما التاريخي قصة خيالية لا أساس لها وهي ان مرحباً قُتل على يدي «محمد بن مسلمة» وقالوا: ويرى البعض أن مرحباً اليهودي قتل محمد بن مسلمة انتقاماً لأخيه الذي قتل عند فتح حصن «ناعم» على أيدي اليهود، فقد كلفه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بقتال مرحب فيرز إليه فقتله.

إن هذا الاحتمال من الوهن والبطلان بحيث لا يقاوم التاريخ الإسلامي المسلم والمتواتر، هذا مضافاً إلى أن هذه الاسطورة التاريخية تعاني من اشكالات، ومواخذات نذكرها للقارئ الكريم:

1- إن محمد بن مسلمة لم يكن بذلك الرجل الشجاع، والبطل الصنديد الذي توهله شجاعته لأن يكن فاتح خيبر وقاتل بطلها الأكبر، فإن التاريخ لا يذكر عنه نموذجاً بارزاً من بطولته وشجاعته، إنما كلف في السنة الثالثة من جانب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقط بأن يغتال «كعب بن الأشرف» الذي حرّك المشركين والبهيم ضد الإسلام والمسلمين بعد معركة بدر الكبرى، وقد بقي ثلاثة أيام بلياليها لا يطعم شيئاً خوفاً، فأنكر عليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خوفه وسأله عن سبب ذلك فقال: يا رسول الله قلت لك قولاً لا أدري هل أفينّ به أم لا؟ فلما رأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - منه ذلك أرسل معه أربعة رجال آخرين ليعينوه في هذه المهمة، ويتخلصوا من «كعب» الذي كان يريد إعادة القتال بين المسلمين والمشركين.

فخرجوا إليه في منتصف الليل وقتلوا عدوّ الله كعباً وفق خطة خاصة ولكن «محمد بن مسلمة» جرّح أحد رفاقه من شدة الخوف والرعب التي أصابته، ولا شك أن صاحب مثل هذه النفسية لا يمكنه أن يبارز صناديد «خيبر» المعروفين وينازلهم.

2- إن فاتح «خيبر» لم يقاتل مرحباً ويقتله وحده، بل قاتل بعد مصرع مرحب من كانوا قد جاؤوا معه إلى ساحة القتال من شجعان اليهود فلاحق

(403)

الفازين، ونازل الذين بقوا ولم يفرّوا.

واليك أسماء من بقوا في ساحة القتال وقاتلوا علماً - عليه السلام - بعد قتله مرحباً:

1- داود بن قابوس.

2- ربيع ابن أبي الحقيق.

3- أبو البانت.

4- مرة بن مروان.

5- ياسر الخيبري.

6- ضحيج الخيبري.

وكل هؤلاء كانوا من صناديد اليهود وابطالهم، وكانوا يقاتلون خارج حصن خيبر ويمنعون من أية محاولة لفتح قلاع اليهود في هذه
الوقعة.

إن هؤلاء الستة قتلوا على يد علي بن أبي طالب - عليه السَّلام - وهم يرتجزون في ساحة القتال ويطلبون المبارز والمناجز. (1)

فمن يكون والحال هذه فاتح «خيبر» وقاتل مرحب؟

إذا كان «محمَّد بن مسلمة» فانه لا يمكن أن يعود بعد قتل مرحب إلى معسكر المسلمين ويتجاهل أولئك الأبطال خلف مرحب بل
لابد أن يقاتلهم، في حين اتَّفقت كل السير والتواريخ على أن هؤلاء قتلوا جميعاً على يد علي بن أبي طالب - عليه السَّلام - .

3- ان هذه الاسطورة التاريخية تتنافى مع الحديث المنقول عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فانه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال في حق علي - عليه السَّلام - «: يفتح الله على يديه» مع العلم بأن المانع الأكبر من فتح خيبر كان هو مرحب الذي
أجبرت شجاعته الأميرين السابقين على الفرار، فإذا كان قاتل مرحب هو

[1- ناسخ التواريخ: ٢ / ٢٨٢ - ٢٨٦ .

(404)

«محمَّد بن مسلمة» لزم أن يقول رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جملة هذه في حق «محمَّد بن مسلمة» لا في حق «علي -
عليه السَّلام - الذي أعطاه الراية بعد أن قال تلك الجملة: «يفتح الله على يديه. »

يقول الحلبي كاتب السيرة المعروف: قيل: القاتل له (اي لمرحب) علي كرم الله وجهه وبه جزم مسلم رحمه الله في صحيحه. قال
بعضهم: والاحبار متواترة به وقال ابن الاثير: الصحيح الذي عليه أهل السير والحديث أن علياً قاتله كرم الله وجهه. (1)

ولقد وقع الطبري في تاريخه، وابن هشام في سيرته في شيء من الإضطراب والفوضى وكتبا قصة هزيمة ورجوع الرجلين اللذين
كلَّفَا قبل علي - عليه السَّلام - بفتح قلاع اليهود بصورة لا تتفق مع مفهوم الجملة التي قالها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -
- في حق علي - عليه السَّلام - .

فقد قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في حقه: «وليس فرّار» (2) «يعني أن الذي سوف يعطيه الراية لا يفر أبداً، ومفهوم
هذه الجملة هو أن علياً - عليه السَّلام - لا يفرّ و لا يجبن أمام العدو كما فر القائدان السابقان، وهذا يعني أن القائدين السابقين فرّا أمام
العدوّ، واخليا الساحة، في حين أن الكاتبين المذكورين لا يذكران مسألة فرار القائدين المذكورين، وإنما يكتبان رجوعهما كما لو

أنهما قد أدّيا وظيفتهما القتالية والعسكرية على الوجه الكامل، ولكنهما لم يوفقا للفتح. (3)

ثلاث نقاط مشرقة في حياة علي - عليه السَّلام - :

ونختم هذا البحث بذكر ثلاث فضائل لفتاح خبير ذكرها أحد خصومه لها ارتباط بموقفه - عليه السّلام - في خبير:

1- السيرة الحلبية: ٣ / ٣٨، وراجع زاد المعاد: ٢ / ١٣٤ و ١٣٥.

2- المغازي: ٢ / ٦٥٣.

3- السيرة النبوية: ٣ / ٣٤٩.

(405)

أمر معاوية سعد بن أبي وقاص يوماً فقال: ما منعك ان تسبّ أبا تراب؟

فقال: أما ما ذكرتُ ثلاثاً قالهنّ له رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فلن أسبّه لأن تكون لي واحدة منهنّ أحبُّ إليّ من حُمير النعم.

ثم أخذ سعد في عد تلك المناقب فقال:

1- سمعت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يقول له وقد خَلَفَه في بعض مغازيه (1) فقال له عليّ: يا رسول الله خَلَفْتَنِي مع النساء والصبيان؟

فقال له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبوة بعدي.»

2- وسمعتَه يقول يوم خبير:

لأعطين الراية رجلاً يحبُّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. قال فتناولنا لها فقال: أدعوا لي علياً. فاتي به أرمد فبصق في عينه، ودفع الراية إليه ففتح الله عليه. (2)

3- ولما نزلت هذه الآية «فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل...» دعا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال:

«اللهم هؤلاء أهل بيتي.» (3)(4)

عوامل الانتصار:

فتحت حصون «خبير»، واستسلم اليهودُ للمسلمين بشروط خاصة، ولكن يجب أن نرى ماهي العوامل التي ادت إلى هذا الانتصار،

فهذه هي في الحقيقة

-
- 1- وهي إشارة إلى واقعة تبوك.
 - 2- وهي إشارة إلى واقعة خيبر.
 - 3- وهي إشارة إلى قصة مباحلة النبي نصارى نجران.
 - 4- صحيح مسلم: ٧ / ١٢٠.

(406)

النقاط الهامة في هذا القسم.

إن انتصار المسلمين الساحق في هذه الغزوة يعودُ إلى عوامل يمكن الإشارة إليها على نحو الاجمال ثم شرحها بالتفصيل في ما بعد .

1- التخطيط العسكري والتكتيك الحربي الدقيق.

2- تحصيل المعلومات ومعرفة أسرار العدو الداخلية.

3- تفاني الامام علي بن أبي طالب، وبطولته النادرة. وهنا نحن ندرس هذه الأمور الثلاثة على وجه التفصيل:

1- التخطيط والتكتيك العسكري الدقيق:

لقد هبط الجيش الاسلامي في منطقة قطع بها المسلمون ارتباط اليهود باصدقائهم القدامى (قبائل غطفان).

وقد كان بين قبائل غطفان فرسان كثيرون، ولو استطاعوا أن يعينوا اليهود في هذه الموقعة لما أمكن فتح حصون خيبر.

فان «غطفان» لما سمعت بمسير رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى خيبر خرجوا ليظاهروا اليهود عليه، ولكنهم ما أن

سمعوا الشائعة التي مفادها أن أصحاب محمّد قد قصدوهم من طريق آخر ظنوا انهم سيهاجمون أموالهم وأهليهم فرجعوا من منتصف

الطريق على أعقابهم، وأقاموا في أهليهم وأموالهم وخلّوا بين رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبين «خيبر». »

يقول المؤرخون: إن هذه الشائعة كانت نتيجة نداء غيبيّ سمعه رجالُ غطفان ظنوا أن المسلمين داهموا أهليهم⁽¹⁾ ولكنه ليس من

المستبعد أن تكون هذه الشائعة من فعل المسلمين المتسترين من قبائل غطفان، والذين أمروا بأن يتظاهروا بالكفر، ويبقوا في قبائلهم

حتّى يعينوا إخوانهم المسلمين في اللحظات

[1-المغازي: ٢ / ٦٥١ - ٦٥٣.

(407)

المناسبة.

فخططوا لهذه الموقعة بمهارة كبيرة وكانوا في ذلك ناجحين جداً إلى درجة أنه تسبب في أن تعدل إمدادات غطفان العسكرية لليهود من مواصلة مسيرها إلى «خيبر»، والعودة إلى أهلهم وترك اليهود وشأنهم.

وقد سبق لهذا نظير في معركة «الاحزاب» يوم امتنعت قبائل غطفان عن نصره اليهود بسبب شائعة بثها بينهم رجل من المسلمين من بني غطفان يدعى «نعيم بن مسعود»، وتفرق على أثره جماعة الاحزاب، وانفرط عقدهم.

2- تحصيل المعلومات حول العدو:

لقد كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كما أسلفنا مراراً يُولي تحصيل المعلومات ومعرفة أسرار العدو، أهمية كبيرة.

ولهذا بعث قبل محاصرة «خيبر» طليعة من المسلمين وأمر عليهم «عباد بن بشر» ووجههم إلى «خيبر»، فالتقوا بيهودي قرب حصون «خيبر»، و بعد التحقيق معه تبين أنه عين لليهود يتجسس لهم الاخبار فأخذه إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فسأله عن أوضاع اليهود في حصون «خيبر».

فقال: أفتؤمنني يا أبا القاسم على أن أصدقك؟ فأمنه عباد.

فقال اليهودي: القوم مرعوبون منكم خائفون وجلون لما قد صنعتم بمن كان بيثرب.

ثم قال: خرجت من حصن «النتاة» من عند قوم ليس لهم نظام تركتهم يتسللون من الحصن في هذه الليلة إلى «الشق» وقد رعبوا منك حتى أن أفندتهم لتحقق، فاذا دخلت الحصن غداً وأنت تدخله، قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : إن شاء الله، قال اليهودي إن شاء الله أوقفك على حصن اليهود الذي فيه منجنيق مفلكة ودبابتان وسلاح من دروع وبيض وسيوف، فانصب المنجنيق على حصن الشق وتدخل الرجال تحت الدبابتين فيحفرون الحصن فتفتحه من

إن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وإن لم يستخدم هذه الادوات التخريبية إلا أن المعلومات التي وقف عليها من ذلك اليهودي الأسير كانت مهمة لأنها أوضحت نقطة الحملة غداً، وعرف النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن التغلب على حصن «النتاة» لا يحتاج إلى قوة كبيرة، وأنه لابد من رعاية المزيد من الحيلة والحذر عند فتح حصن «الشق». »

نموذج آخر: عند فتح إحدى القلاع أتى يهودئ إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد ثلاثة أيام مضت على محاصرتها وقال - ولعله لتخليص نفسه - إنك لو اقامت شهراً ما بالوا، لهم جدولٌ تحت الأرض يخرجون بالليل فيشربون بها ثم يرجعون إلى قلعهم فيمنعون منك، فان قطعت مشربهم عليهم ضجهم.

وفي رواية أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يوافق على قطع الماء عن العدو. (2)

وفي أخرى؛ قطع عليهم مشاربهم مؤقتاً فلم يطبقوا المقام على العطش. (3)

-3- تفاني امير المؤمنين:

ولقد ذكرنا تفاني علي بن أبي طالب، وبطولته في هذه الموقعة بصورة مجملة، وما نحن ننقل عبارة قالها هو - عليه السلام - عن هذه المسألة:

وَرَدْنَا مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خبير على رجال من اليهود وفرسانها من قریش وغيرها، فتلقونا بأمثال الجبال من الخيل والرجال والسلاح، وهم في أمنع دار وأكثر عدد، كلٌ ينادي ويدعو ويبادر إلى القتال، فلم يبرز اليهم من أصحابي أحدٌ إلا قتلوه حتى احمرت الحدق، ودعيت إلى النزال، وأهمت كل امرئ نفسه، والتفت بعض أصحابي إلى بعض وكلٌ يقول: يا أبا الحسن انهض.

-
- 1- السيرة الحلبية: ٣ / ٣٥ .
2- ناسخ التواريخ: ٢ / ٢٩٩، المصدر السابق: ٤٠ .
3- الخصال: ص ٣٦٩ .

(409)

فأنهضني رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى دارهم فلم يبرز إليّ أحدٌ منهم الاقتلته، ولا يثبت لي فارس إلا طحنته، ثم شددت عليهم شدة الليث على فريسته حتى أدخلتهم جوف مدينتهم مسدداً عليهم فاقتلعت باب حصنهم بيدي حتى دخلت عليهم مدينتهم وحدي أقتل من يظهر فيها من رجالها، وأسبي من أجد من نساها حتى افتتحتها وحدي ولم يكن لي فيها معاونٌ إلا الله وحده. (1)

الرحمة في ساحة القتال:

عندما افتتح حصن «القموص» سببت «صفية بنت حيي بن أخطب» وامرأة أخرى، فمر بهما «بلال» على القتلى فصاحت صفية صياحاً شديداً جزءة ممّا رأت، فكره رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما صنع بلال وقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«أذهبت منك الرحمة؟ تمر بجارية حديثة السن على القتلى؟»

فقال بلال: يا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما ظننت أنك تكره ذلك، وأحببت أن ترى مصارع أهلها. (2)

ولم يكتف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بهذا القدر من تطييب خاطر «صفية» بل احترمها، وعين لها مكاناً خاصاً للاستراحة في المعسكر، واختارها زوجة لنفسه، وبهذا الطريق أزال آثار ذلك الصنيع السيء الذي قام به بلال.

لقد تركت أخلاق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتعامله الإنساني الرفيع مع «صفية» أثراً حسناً في نفسها، فقد صارت في ما بعد من أزواج النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الوفيات المخلصات، وقد حزنّت عند وفاته، وبكت له أكثر من بقية ازواجه⁽³⁾.

- [الخصال: ص ٣٦٩ باب السبعة.
2- المغازي: ٢ / ٦٧٣، تاريخ الطبري: ٣ / ٣٠٢.
3- المغازي: ٢ / ٦٧٣، تاريخ الطبري: ٣ / ٣٠٢.

(410)

مصرع كنانة بن الربيع:

منذ أن أجلي «بنو النضير» عن المدينة وسكنوا «خيبر» أحدثوا صندوقاً لجمع الأموال لإدارة شؤونهم العامة، ولسد نفقات الحروب، ولإعطاء دية كل من كان يُقتل من بني النضير.

فبلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن هذا الكنز وهذه الأموال قد أودعت عند «كنانة بن الربيع» زوج «صفية»، فلما افتتح - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خيبر طلب الربيع وسأله عن كنز اليهود، فأنكر ذلك فأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بحبسه، ثم عرف بعد التحقيق من اليهود، بمكان ذلك الكنز، وقد كان بخربة، إذ قال له يهودي إنني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة أيام الحرب فأمر رسول الله بالخربة فحفرت فأخرج منها بعض ذلك الكنز، فسأل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «كنانة» عما بقي فأبى أن يؤديه أو يخبر بموضعه، فدفعه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى محمّد بن مسلمة فضرب عنقه قصاصاً لأخيه الذي قتل في وقع خيبر «محمود بن مسلمة» والذي قتله اليهود بالقاء رحي من حجر من فوق حصونهم على رأسه، وإنما قتل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كنانة بضرب عنقه، لتواطؤه ضدّ الإسلام، وكتمانه مثل هذا الأمر، وتأديباً لغيره من اليهود حتى يتورعوا عن حبك المؤامرات ضد رسول الإسلام وضدّ أصحابه، وضدّ الحكومة الإسلامية، وكان «كنانة» آخر من قتل من يهود خيبر.⁽¹⁾

تقسيم غنائم الحرب:

بعد افتتاح حصون «خيبر»، وتجريد العدو من كل أسلحته، وجمع الغنائم أمر

- [السيرة النبوية: ٣ / ٣٣٧، بحار الأنوار: ٢١ / ٣٣.

رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن تجمع الغنائم كلها في مكان واحد، ثم أمر - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رجلاً بأن ينادي في الناس:

«أدوا الخيط والمخيطة، فإنَّ العُلُولَ عازٌّ وشنارٌ ونازٌ يوم القيامة.»⁽¹⁾

ولقد شدّد قادة الإسلام وائتمته الحقيقيون على أهميّة الامانة تشديداً بالغاً حتّى أنهم اعتبروا ردّ الامانة - مهما صغرت ودقت - من علائم الايمان، والخيانة وعدم ردّها من علائم النفاق.

من هنا عندما عثر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في رحل مُسلم من المقاتلين شيئاً من أموال الغنيمة لم يردّها إلى بيت المال لم يصلّ على جنازة ذلك الرجل عندما استشهد، واليك تفصيل هذه الحادثة.

لما انصرف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه من خيبر ومع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - غلام له، يقوم له بشؤونه، وفيما كان ذلك يضع رَحْلَ النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إذ أتاه سهمٌ لا يُعلمُ راميه فاصابه فقتله، فقال المسلمون: هنيئاً له الجنة.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ شِمْلَتَهُ⁽²⁾ الآن لتحترق عليه في النار، كان قد غلّها من فيء المسلمين يوم خيبر!!»

فسمع رجل من أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذا الكلام فأتاه وقال: يا رسول الله، أصبت شراكين لنعلين لي فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «يُقَدُّ لك مثلهما في النار.»⁽³⁾

وهذه القصة تفضح أيضاً دسائس بعض المستشرقين، لأنهم كانوا يصفون حروب الإسلام ومعاركه العادلة بأنها كانت من أجل الاغارة على أموال الناس

1- وسائل الشيعة: ج... باب جهاد النفس الحديث ٤، المغازي: ٢ / ٦٨١.
2- الشملة كساء غليظ يُلتحفُ به.
3- السيرة النبوية: ٢ / ٣٣٩، امتاع الاسماع: ١ / ٣٢٣ و ٣٢٤.

ومصادرتها كما يفعل قطاع الطرق، متجاهلين عمداً وكيداً الأهداف الإنسانية والالهية العليا لهذه المعارك والغزوات، والحال أن مثل هذه الانضباطية والنظم والورع ممّا لا يمكن تصوّره في قوم همهم الاغارة والنهب والسلب.

إن قائد شعب أو قوم هذا هو همهم وهذه هي همتهم لا يمكن أبداً أن يعتبر ردّ الأمانة من واجبات الدين ومن علائم الايمان، كما لا يمكنه أن يربي أتباعه وأصحابه بمثل هذا التربية الرفيعة، بحيث يجعله يجتنب عن سرقة صغيرة جداً مثل غلّ سراكى نعلين لقيمة لهما تذكر.

قافلة من أرض الذكريات:

قبل أن يتوجّه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالمسلمين إلى «خيبر» بعث «عمرو بن أمية» إلى البلاط الحبشي لغرض إيصال رسالته إلى ملك الحبشة النجاشي، وليطلب منه أن يهيء المقدمات اللازمة لترحيل المسلمين المهاجرين من الحبشة إلى المدينة.

فهيئاً النجاشي سفينتين لأولئك المهاجرين بعد أن جهزهم بجهاز حسن وامر لهم بكسوة، فسارت بهم حتّى وصلت إلى السواحل القريبة من المدينة.

ولما علم المسلمون بمسير رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى «خيبر» توجّهوا من فورهم إلى «خيبر» فقدموا مع «جعفر بن أبي طالب» على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يوم «خيبر» بعد أن افتتحت جميع حصون اليهود وقلاعهم.

فلما رأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جعفرأ مشى في استقباله (١٢) خطوة ثم قبّل ما بين عينيه والتزمه وقال:

«ما أدري بأيّهما أنا أسرُّ بفتح خيبر أم بقدم جعفر؟».

وفي رواية أخرى قال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«لا أدري بأيّهما أنا أشدُّ فرحاً بقدمك يا جعفر أم بفتح الله على أخيك خيبر.»

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال لجعفر:

(413)

«يا جعفر ألاّ امنحك؟ ألاّ أعطيك ألاّ أحبوك؟».

فظن الناس أنه يعطيه ذهباً أو فضة، فتشوّف الناس لذلك. فقال له:

أني أعطيك شيئاً إن أنت صنعته في كل يوم كان خيراً لك من الدنيا وما فيها. »

ثم علمه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الصلاة المعروفة بصلاة جعفر الطيار. (1)

حجم الخسائر وعدد القتلى:

لم يتجاوز عدد قتلى المسلمين في هذه الغزوة ٢٠ شخصاً ولكن قتل من اليهود أكثر من هذا بكثير، وقد سجل التاريخ أسماء ٩٣ رجلاً منهم⁽²⁾.

العفو بعد الانتصار:

المؤمنون بالله واصحاب المروءات من البشر يعاملون العدو المنهزم المقهور عند الغلبة عليه والظفر به باللطف والحب، ويعفون عنه ويتناسون روح الانتقام، أجل إنهم يشملون العدو منذ استسلامه بعطفهم وحنانهم وتلك هي حقيقة اثبتتها وقائع التاريخ الحية.

وكذلك فعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عندما تغلب على يهود خيبر فقد عاملهم بعد الانتصار معاملة حسنة، وشملهم بعفوه، ولطفه رغم كل ما ارتكبه في حق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من ظلم وجناية وتأليب للعرب الوثنيين ضد الإسلام واشعال حروب كادت أن تودي بالحكومة الإسلامية وتستأصل المسلمين، وتقضي على جهود رسول الإسلام.

فقد قبل بطلب اليهود بأن يسكنهم في خيبر كما كانوا، وأن يترك أراضيهم

1-فروع الكافي: ١ / ١٢٩ و ١٣٠، الخصال: ٢ / ٨٢ و ٨٣، امتاع الاسماع: ١ / ٣٢٥.
2-بحار الأنوار: ٢١ / ٣٢.

(414)

وبساتينهم بأيديهم، على أن يكون له نصف محاصيلها سنوياً.

بل إن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - - كما يروي ابن هشام - هو الذي اقترح هذا الأمر على اليهود، وترك لهم حرية التصرف في مزارعهم وأراضيهم ليغرسوا أو يزرعوا ما يريدون من الشجر.⁽¹⁾

لقد كان في مقدور النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، كأى فاتح آخر، أن يريق دمهم جميعاً، أو أن يجلبهم برمتهم من أراضيهم، أو يجبرهم على اعتناق الإسلام ولكنه - خلافاً لتصور زمرة مغرضة من المستشرقين، وطلّاع الاستعمار الثقافي الذين يتصوّرون ويزعمون بأن الإسلام دين القهر والقوة، وان المسلمين أجبروا الأمم والاقوام المغلوبة على ترك عقائدها، واعتناق الإسلام - لم يفعل مثل هذا العمل قط، بل تركهم أحراراً في ممارسة شعائرهم، والبقاء على ما كانوا يعتقدونه من أصول دينهم وفروعه.

ولم يحارب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه يهود «خيبر» إلا لأن «خيبر» قد تحوّلت إلى بؤرة خطيرة للمؤامرة، والكيد بالاسلام والمسلمين، فقد كانوا يمدّون المشركين بكل ما يريدون للقضاء على الحكومة الإسلامية الحديثة التأسيس، ولهذا اضطرّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى مقاتلتهم، وتجريدهم من أسلحتهم، حتّى يعيشوا تحت ظل الحكومة الإسلامية

بمنتهى الحرية، ويشغلوا بمشاغلهم في الزراعة، وقيموا شعائرهم الدينية من دون أن يجدوا فرصة للمشاغبة والتأمر ضد رسالة التوحيد الكبرى، إذ كانوا يسببون مشاكل كبيرة للمسلمين - في غير هذه الصورة - ويمنعون من تقدّم الإسلام وانتشاره. وأما الجزية (2) فقد كان لقاء دفاع الحكومة الإسلامية عنهم، وحمايتهم من الأعداء، وتوفير الأمن لهم، إذ كان حماية أموالهم وأنفسهم من وظائف المسلمين.

ثم إن المحاسبة الدقيقة تقودنا إلى أن ما كان يدفعه المسلمون إلى الحكومة

- [السيرة النبوية: ٢ / ٣٣٧].
-2الجزية ما يؤخذ من أهل الذمة.

(415)

الإسلامية من الضرائب الإسلامية كان أكثر بكثير ممّا كان يدفعه اليهود، والنصارى إلى الحكومة الإسلامية بعنوان الجزية.

فقد كان يتوجب على كلّ مسلم أن يدفع إلى الحكومة الإسلامية الخمس والزكاة وربما توجب عليه ان يدفع شيئاً من أصل ماله لسدّ نفقات واحتياجات الحكومة الإسلامية بينما كان اليهود والنصارى الذين كانوا يعيشون في ظلّ الحكومة الإسلامية في أمن وأمان ويتمتعون بجميع الامتيازات والحقوق الاجتماعية الفردية يدفعون إلى الحكومة الإسلامية الجزية بدل ما كان يدفعه المسلمون، فالجزية شيء والأتاوة شيء آخر، على خلاف ما يروّجه بعض الكتاب المغرضين.

ولقد كان عامل الجباية الذي كان يزور خيبر بأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لتقدير حجم المحاصيل فيها، ثم تنصيفها رجلا عادلا ورعاً إلى درجة أن اليهود أنفسهم أعجبوا بعدله، واعترفوا بانصافه، هو «عبدالله بن رواحة» الذي استشهد فيما بعد، في موقعة «مؤتة».

فقد كان «ابن رواحة» يخبّن نصيب المسلمين من محاصيل خيبر، وربما تصوّر اليهود أنه أخطأ في التخمين والخرص، وخبّن أكثر ممّا هو الحق فقالوا له: تعديت علينا!

فكان عبدالله يقول: إن شئتم فلكم وإن شئتم فلنا.

فتقول اليهود - معجبة بهذا الانصاف العظيم والعدل الكبير الذي كان يتحلّى به مخزّص الحكومة الإسلامية - : بهذا قامت السماوات والارض. (1)

ولقد حصل المسلمون أثناء جمع غنائم «خيبر» على قطعة من التوراة، فطلبت اليهود من النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يعيدها اليهم، فأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مسؤول بيت المال باعادتها اليهم. (2)

وهذا يكشف عن إحترام رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - للشرائع الأخرى.

سلوك اليهود المتعجرف:

في قبال كل هذه الألفاف لم تكف اليهود عن خيانتها وكبدها، بل ظلت تخطط - في الخفاء - للايقاع برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه، والحاق الأذى بهم.

ولنقف فيما يأتي على نموذجين من هذا الأمر:

1- لما اطمأن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قررت جماعة من اليهود في الخفاء أن تقضي على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بدس سم إليه. فأهدت له «زينب بنت الحارث» زوجة «سلام بن مشكم اليهودي» شاة مشوية وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقيل لها الذراع، فاكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، تناول الذراع، فلاك منها مضغة فلم يسغها، ومعه «بشر بن البراء بن معرور» قد اخذ منها كما أخذ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأما بشر فقد ابتلعها، وأما رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقد لفظها وعرف بأنها مسمومة، ومات بشر من أكلته التي أكل ثم دعا زينباً، وقال لها: سممت الذراع؟ فاعترفت. فقال لها: ما حملك على ذلك. قالت: قتلت أبي وعمي وزوجي، ونلت من قومي ما نلت فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيخبر.

فعفا عنها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ولم يلاحق من تواطأوا معها.⁽¹⁾

1- السيرة النبوية: ٢ / ٣٣٧ و ٣٣٧ ، المغازي: ٢ / ٦٧٧ و ٦٧٨ ، وامتاع الاسماع: ١ / ٣٢٣ هذا والمعروف أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال في: مرضه الذي مات فيه: إن هذا الأوان وجدت فيه إنقطاع أبهري من الأكلة التي أكلت بخبير، فإن النبي، وإن كان لفظ المضغ إلا أن بقايا السم اختلط ببزاقه الشريف، وأثر في جسمه المبارك حتى أودي بحياته المقدسة بعد حين.

لاشك لو أن مثل هذه الحادثة حدثت لغير رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من القادة والزعماء لصبغوا الأرض بدماء من ظنوا أنه قصد قتلهم، أو ملأوا السجون بهم وحبسوهم، أو أعواماً مديدة أو اخضعوهم لاشد أنواع التعذيب الجسدي والنفسي كما يحدثنا بذلك التاريخ القديم والحديث.

إن هذه المؤامرة الدنيئة التي قامت بها امرأة من اليهود جعلت الكثير من أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يسيئون الظن بصفية اليهودية التي أصبحت في عداد أزواج النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فقد باتوا يتصوّرون أنها ربما أقدمت في ليلة من الليالي على اغتيال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ولهذا عندما أعرس رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بها بخبير أو في أثناء الطريق بات «أبو أيوب الانصاري» يحرس قبة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - التي دخل بها بصفية ليلة عرسه بها، وبقي يطوف بالقبة حتى أصبح رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فلما رأى أبو أيوب قال: مالك يا أبا أيوب؟

قال: يا رسول الله خفتُ عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت أباهما وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتُها عليك. فشكره رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ودعا له بخير.⁽¹⁾

2- والنموذج الثاني من جفاء اليهود، وكيدهم حتى بعد عفوا النبي عنهم، ولطفه بهم أن «عبدالله بن سهيل» الذي كُلف من جانب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في إحدى السنين بخرص محاصيل خبير وتقديرها وحمل نصيب المسلمين منها إلى المدينة قتلتها جماعة مجهولة من اليهود أثناء قيامه بواجبه في خبير وقد كسروا

[السيرة النبوية: ٢ / ٣٣٩ و ٣٤٠، بحار الأنوار: ٢١ / ٣٣].

عنفه وألقوه في بئر، فقدم جماعة من زعماء اليهود المدينة ودخلوا على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخبروه بهذه العملية الغادرة المجهول فاعلمها، وتقدم إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أيضاً «عبدالرحمان» أخو عبدالله بن سهل وإبنا عمه وكان عبدالرحمن من أحدثهم سناً وكان صاحب الدّم فلما تكلم قبل ابني عمه قال رسول الله: الكُبر الكُبر (أي قدموا الاكبر للكلام إرشاداً إلى الأدب في تقديم الأسنّ وهو خلق يدعو إليه الإسلام).

فذكروا لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قتل صاحبهم وطلبوا القصاص فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«أتسمون قاتلكم، ثم تحلفون عليه خمسين يميناً فنسلمه إليكم.»

وحمل هذا التعليم النبوي أولياء الدم على أن يجعلوا التقوى والورع نصب أعينهم ولم يستسلموا لثورة العاطفة فقالوا: يا رسول الله ما كنا لنحلف على ما لا نعلم.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«أَفِيحْلَفُونَ (أي يحلف اليهود) بالله خمسين يمينا ما قتلوه، ولا يعلمون له قاتلا، ثم يبرأون من دمه؟»

قلوا يا رسول الله ما كنا لنقبل ايمان اليهود، ما فيهم من الكفر أعظم من أن يحلفوا على إثم.

فكتب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى يهود خيبر كتاباً فيه: انه قد وُجِدَ قَتِيلٌ بَيْنَ أَيْبَاتِكُمْ فَدُوهُ (أي أعطوا دينته).

فكتبوا إليه يحلفون بالله ما قتلوه، ولا يعلمون له قاتلا.

فلما رأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن المشكلة قد وصلت إلى طريق مسدودة وداه بنفسه من عنده مائة ناقية⁽¹⁾

[1] السيرة النبوية: ٢ / ٣٥٤ - ٣٥٦.

(419)

وهكذا اثبت النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لليهود مرة أخرى بأنه ليس داعية حرب ولا طالب قتال وسفك دماء، ولو كان كغيره

من الزعماء والسياسيين لاتخذ من قصة مقتل عبدالله ذريعة للقضاء على حياة تلك الزمرة المعتدية، المشاغبة المخلة بالأمن.⁽¹⁾

إن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كما يصرح بذلك القرآن الكريم ويصفه: نبي الرحمة، فهو لا يحتكم إلى السيف ما لم يبلغ

الامر مداه.

حيلة مُجازة:

كان في خيبر تاجر يدعى الحجاج بن علاط السلمي له تجارة مع أهل مكة، وكان ممن حضر يوم خيبر. وشاهد لطف النبي ورحمته

فأسلم طائعاً راعياً.

ولما فرغ المسلمون من أمر «خيبر» أتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال: يا رسول الله إن لي بمكة مالا متفرقاً في

تجار مكة فاذن لي يا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن احتال لأخذها، فأذن له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم

- بذلك ليستنقذ أمواله من المشركين وغيرهم في مكة.

فقدم مكة، فرآه رجالٌ قريش اجتمعوا حوله وأخذوا يسألونه عن أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولم يكونوا علموا بإسلامه فأجابهم قائلاً: لقد هُزم محمّد بخيبر هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وقُتِل أصحابه قتلاً لم تسمعوا بمثله قط، وأسر محمّد اسراً، وقالت اليهود: لا نقتله حتّى نبعث إلى أهل مكة فيقتلوه بين

- [لم تنحصر تعديت اليهود وتجاوزاتهم على ما ذكرناه فلطالما خطّطوا ودبّروا الحيل لا لحاق الأذى والضرر بالمسلمين، ومن جملة ذلك حادث عبدالله بن عمر الذي ذهب إلى خيبر في عهد الخليفة الثاني لعقد اتفاقية مع أهلها فاعتدوا عليه بالضرب فلما عرف بذلك عمر رأى أن يجلبهم من خيبر لقول رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «: لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان» فقال لصحابة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من كان له حق عند اليهود فليأخذه ثم أجلاه من خيبر جزاء كيدهم وتآمرهم المستمر. (المصدر).

(420)

أظهرهم إنتقاماً لمن أصاب رجالهم.

فرح سادة قريش لهذا الخبر الكاذب فرحاً شديداً، ثم قال الحجاج لهم:

أعينوني على جمع مالي بمكة وعلى غرمائي فإني أريد أن أقدم خيبر فأصيب من محمّد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى ما هنالك فجمعوا له ماله كاسرع ما يكون.

فلما سمع «العباس بن عبدالمطلب» هذا الخبر جاء إلى الحجاج وقال يا حجاج ما هذا الخبر الذي جئت به، فأشار الحجاج إلى العباس بأنّه سيخبره بحقيقة الأمر، ثم التقى العباس خفية وأخبره بأنه ماكر أهل مكة، وأنّ النبي ظفر بيهود خيبر، وطلب من العباس أن يكتّم ذلك حتّى يغادر مكة، وينجو بنفسه وماله.

فلما فرغ من جمع ماله كله غادر مكة بسرعة فائقة. فلما مضى على ذلك ثلاثة أيام واطمأنّ العباس من نجاة الحجاج لبس حلة جميلة، وتعطر وأخذ عصاه ثم خرج حتّى أتى الكعبة فتعجبت قريش لذلك، وظنت أنه فعل ذلك تجلّداً، فقالت للعباس: يا أبا الفضل هذا والله التجلّد لحرّ المصيبة، قال: كلا، والله الذي حلقتم به، لقد افتتح «محمّد» خيبر، وترك عروساً على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، وأصبحت له ولأصحابه.

فقالوا: من جاءك بالخبر.

فقال: الذي جاءكم بما جاءكم (ويعني الحجاج الذي احتال عليهم). ولقد دخل عليكم مسلماً، فأخذ ماله، وانطلق ليلحق بمحمّد وأصحابه، فيكون معه.

فغضبت قريش لهذه المكيدة وانزعجت إنزعاجاً شديداً، ولكن بعد فوات الأوان، ولم يلبثوا أن جاءهم خبر انتصارات المسلمين الساحقة على اعدائهم.⁽¹⁾

[بحار الأنوار: ٢١ / ٣٤، زاد المعاد: ٢ / ١٤٠، والسيرة النبوية: ٢ / ٣٤٥ و ٣٤٦.

(421)

٤٥

قِصَّة فَدَاك

كانت «فدك» منطقة خصبة، كثيرة الخير، قرب خيبر، وهي تبعد عن المدينة بما يقرب من (١٤٠) كيلومتراً، وكانت تعتبر بعد حصون خيبر النقطة الهامة التي يعتمد عليها يهود الحجاز.⁽¹⁾

وقد ملأت القيادة الإسلامية - بعد أن هُزم اليهود في خيبر ووادي القرى وتيماء الفراغ الذي حصل في شمال المدينة - بالقوة العسكرية الإسلامية.

ولأجل أن تنتهي الوجود السياسي اليهودي في هذه المنطقة التي كانت بمثابة منبع خطر، وبؤرة شغب ضد الإسلام بعثت القيادة الإسلامية سفيراً إلى سادة فدك وزعمائها، لمعرفة موقفهم فأثر «يوشع بن نون» الذي كان يرأس سكان تلك المنطقة، الصلح والسلام على الحرب والقتال، وتعهّد بأن يسلم كل سنة نصف محاصيل فدك إلى رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - .⁽²⁾

وأن يعيش هو وقومه من الآن تحت راية الحكومة الإسلامية ولا يشاغب ولا يتأمر ضد المسلمين، على أن تتعهد الحكومة الإسلامية - في مقابل هذا المبلغ - بتوفير الأمن في المنطقة.

[1- راجع كتاب «مراسد الاطلاع»: ٣ / ١٠٢٠ مادة فدك.
2- السيرة النبوية: ٢ / ٣٥٣، امتاع الاسماع: ١ / ٣٣١، فتوح البلدان: ٤٢.

(422)

حكم الاراضي المفتوحة بلا قتال:

ومن الجدير بالذكر هنا أن الأراضي التي يسيطر عليها المسلمون بالحرب والقتال تعود ملكيتها إلى عامة المسلمين ويكون إدارتها بيد القائد الأعلى للأمة.

أما الاراضي التي لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ولم يسيطر عليها المسلمون بالقتال فتكون لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والامام من بعده خالصة، فهو يتصرف فيها كما يشاء ويرى، فله أن يهبها، وله أن يؤجرها، ومن جملة ما له أن يفعل فيها هو أن يهبها لأقربائه فيسدوا بها حاجتهم، ويديروا بها معيشتهم.⁽¹⁾

وعلى هذا الاساس وهب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فدكاً لابنته الطاهرة فاطمة الزهراء، وقد أريد من إيهاب هذه الارض لها - كما تشهد بذلك القران - أمران:

- [1] قيادة الأمة كانت بعد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كما صرح النبي بذلك مراراً، لـ: «علي بن أبي طالب»، ومثل هذه المسؤولية الثقيلة تحتاج ولا شك إلى ميزانية كبيرة، فكان لعلّ - عليه السلام - أن يصرف من أموال فدك وعائداتها إذا صارت تحت تصرفه اكبر قدر ممكن ليحفظ به ذلك المنصب، ويستطيع القيام بمتطلباته.

وكانّ جهاز الخلافة - بعد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أدرك هذه الحقيقة، ولهذا عمد منذ الايام الأولى لوفاة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى انتزاع فدك من أهل بيت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

2- لقد كان من الواجب أن تعيش ذرية النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - التي كان يتمثل مصداقها الكامل في وحيدة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فاطمة الزهراء،

- [1] وقد طرحت هذه المسألة في الآية 6 و 7 من سورة الحشر وعولجت في الكتب الفقهية في باب الجهاد تحت عنوان «الفيء» و «الأنفال». »

وابنيها الحسن والحسين) عليهما السلام (بعد وفاة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بصورة تليق بمقام رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وشرفه، ومكانته السامية. ولهذا الهدف وهب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فدكاً لابنته فاطمة الزهراء) عليها السلام.)

يقول المفسرون والمحدثون الشيعة وبعض علماء السنة انه لما نزل قوله تعالى:

(وَآتَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ).⁽¹⁾

دعا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ابنته فاطمة وفوض إليها فدكاً⁽²⁾ وقد روى هذا الأمر ابو سعيد الخدري وهو من كبار صحابة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ويعترف جميع المفسرين، سنة وشيعة، بان هذه الآية نزلت في حق أقرباء رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وابنته الزهراء
أظهر أقوى مصاديق «ذي القربى»، حتى انه كان علي بن الحسين السجاد في الشام بعد واقعة كربلاء، وسأله بعض الشاميين عن
نسبه، فتلا - عليه السلام - الآية المذكورة للتعريف بنفسه، وحيث أن مفاد الآية والمراد بها كان معلوماً عند المسلمين كافة قال
الشامي متعجباً: وانكم للقرابة الذي أمر الله أن يؤتى حقه.(3)

وخلاصة القول ان ثمة اتفاقاً بين علماء السنة والشيعة في أن هذه الآية قد نزلت في شأن الزهراء وابنيها، نعم هناك خلاف في ان
رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهب ساعة نزول هذه الآية فدكاً لابنته فاطمة، ام لا، ولقد اتفق علماء الشيعة على الشق
الأول، وذهبوا إلى أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهب فدكاً عند نزول الآية لفاطمة ووافقهم على ذلك جمعٌ من علماء السنة.
وقد أراد المأمون العباسي (لسبب ما) اعادة فدك إلى بني الزهراء فكتب

1-الإسراء: ٢٦.
2-مجمع البيان: ٣ / ٤١١، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٦ / ٢٦٨، الدر المنثور: ٤ / ١٧٧.
3-الذّر المنثور: ٤ / ١٧٦.

(424)

إلى المحدث المعروف «عبدالله بن موسى» وطلب منه أن يرشده في هذا الامر، فكتب إليه عبدالله بن موسى الحديث المذكور الذي
يوضح شأن نزول هذه الآية، فاعاد المأمون فدكاً إلى أبناء الزهراء وذريتها⁽¹⁾ فكتب الخليفة العباسي إلى وإليه على المدينة يومذاك
بأن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهب فدكاً لابنته فاطمة الزهراء وهذا أمرٌ مسلم، ولا خلاف فيه حيث كانت قضية فدك
وخطبة الزهراء (عليها السلام) ممّا يتوارثه العلويون وأحفاد فاطمة (عليها السلام).

وقد جلس المأمون ذات يوم على كرسي خاص للاستماع إلى مظالم الناس وشكاياتهم، فكانت أول ما أعطي له، رسالة وصف
صاحبها نفسه فيها بأنه يدافع عن الزهراء، فقرأ المأمون الرسالة وبكى مدة، ثم قال: من هو المحامي عن الزهراء؟ فقام شيخٌ كبيرٌ،
وقال: أنا هو ذا، فانقلب مجلس المأمون من مجلس القضاء إلى مجلس حوار ومناظرة بين المأمون وبين ذلك الشيخ، وأخيراً وجد
المأمون نفسه مغلوباً محجوجاً فأمر رئيس ديوانه بان يكتب كتاب ردّ فدك إلى أبناء الزهراء، فكتب ذلك الكتاب، وشحه المأمون
بتوقيعه، وفي هذه المناسبة قام دعبل الذي حضر ذلك المجلس وانشأ شعراً هذا مطلعُه:

أصبح وجهُ الزمان قد ضحكا بردَ مأمون هاشم فدكاً⁽²⁾

وليس الشيعة بحاجة - في اثبات ان فدكاً كان ملكاً طلقاً وخالصاً للزهراء فاطمة بنت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى الدلائل المذكورة، لأن الصديق الأكبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عليه السلام - قد صرَّح بمالكيته بفدك في إحدى رسائله إلى واليه على البصرة عثمان بن حنيف إذ قال:

«بلى كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكُّ مِنْ كُلِّ مَا أَظْلَمَتْهُ السَّمَاءُ فَسَخَّتْ عَلَيْهَا نَفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَّتْ عَنْهَا نَفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ وَنَعَمَ الْحُكْمَ اللَّهُ. (3)»

-
- 1- مجمع البيان: ٣ / ٤١١ عند تفسير قوله تعالى: «وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ» الاسراء: ٢٧ فتوح البلدان، ص ٤٦ .
2- شرح ابن أبي الحديد: ١٦ / ٢١٧ .
3- نهج البلاغة: الكتاب ٤٥ .

(425)

قصة فدك بعد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

لقد حُرمت ابنة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - العزيزة فاطمة من ملكها الخالص (فدك) بعد وفاة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لأغراض سياسية خاصة، وأخرجوا عمالها من تلك الارض، فعمدت إلى إثبات حَقِّها واسترداد ملكها من جهاز الخلافة عن طريق القانون.

ففي الدرجة الأولى كانت قرية فدك في يدها، واليد دليل الملك، ولكن جهاز الخلافة طلب منها مع ذلك دليلاً على كون فدك ملكها، خلافاً لكل الموازين القضائية الإسلامية.

إذ لا يُطلب من أي واحد له يد على شيء (أي يكون ذلك الشيء تحت تصرفه) أن يقيم دليلاً على ملكيته لذلك الشيء، ولكن الخلافة لم تعر ليد الزهراء على «فدك» أهمية، بل طالبتها بان تأتي بشاهد على ملكيته.

ولهذا اضطرت فاطمة الزهراء (عليها السلام) (إلى ان تأتي للشهادة على ذلك بشخصية ذات مكانة هامة كعلي - عليه السلام - وامرأة تدعى أم أيمن التي شهد لها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأنها من نساء الجنة. (1))

ويعتق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «رباح» حسب رواية البلاذري (2)، ولكن جهاز الخلافة لم يعر اهتماماً لشهادة هؤلاء الشهود، وحرَم ابنة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من ملكها الذي وهبها والدها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ولقد كانت «الزهراء» و «علي» وابناهما الحسن والحسين (عليهم السلام) (مطهرين من كل رجس كما صرح بذلك قوله تعالى:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً. (3))

- 1- الاصابة: ٤ / ٤٣٢ .
2- فتوح البلدان: ص ٤٤ .
3- الاحزاب: ٣٣، راجع كتاب: آية التطهير في احاديث الفريقين: ج ١ و ٢ .

(426)

ولو أن هذه الآية شملت نساء النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لكانت فاطمة الزهراء من أوضح مصاديقها قطعاً وقيناً، ولكن الخلافة تجاهلت - مع الأسف - حتى هذا الدليل، واعتبر الخليفة ادعاءها ادعاءً غير مشروع.

وفي المقابل يرى علماء الشيعة أن الخليفة الأول أذعن في نهاية الأمر لصحة رأي الزهراء وصحة إدعائها وشرعيته، وكتب كتاباً يصرح بأن ملكاً خالصاً للزهراء وأعطاه ذلك الكتاب، ولكن رفيق الخليفة وصاحبه لما صادف الزهراء في أثناء الطريق وعرف بأنها حصلت على اعتراف صريح من الخليفة بملكيتها لفدك أخذ منها ذلك الكتاب واتي به إلى الخليفة الأول وقال معترضاً على شهادة علي - عليه السلام - وام أيمن لها: ان علياً يجزئ إلى نفسه وأم أيمن امرأة.

ثم عمد إلى الكتاب فمحاه وخرقه. (1)

هذا ويروي الحلبي في سيرته هذه الحادثة بصورة أخرى إذ يكتب قائلاً: ان ابا بكر كتب لفاطمة بفدك ودخل عليه عمر فقال: ما هذا؟ فقال: كتاب كتبه لفاطمة بميراثها من أبيها، فقال: ماذا تنفق على المسلمين وقد حاربك العرب كمتاري، ثم أخذ عمر الكتاب فشقّه. (2)

ما قاله أحد متكلمي الشيعة، وهو ابن أبي الحديد يقول: قلت لمتكلم من متكلمي الامامية يُعرف بعلي بن تقي من بلدة النيل: وهل كانت فدك إلا نخلاً يسيراً وعقاراً ليس بذلك الخطير! فقال لي: ليس الأمر كذلك، بل كانت جليلة جداً، وكان فيها من النخل نحو ما بالكوفة الآن من النخل، وما قصد ابوبكر وعمر بمنع فاطمة عنها إلا ألا يتقوى علي بحاصلها وغلتها على المنازعة في الخلافة، ولهذا اتبعا ذلك بمنع فاطمة وعلي وسائر بني هاشم وبني المطلب حقهم في الخمس، فإن الفقير الذي لا مال له تضعف همته ويتصاغر عند نفسه، ويكون مشغولاً بالاحتراف والاكتساب عن طلب الملك والرئاسة. (3)

- 1- شرح ابن أبي الحديد: ١٦ / ٣٧٤ .
2- السيرة الحلبيّة: ٣ / ٣٩١ .
3- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٦ / ٢٣٦ .

(427)

ويكتب هذا الكاتب في موضع آخر من كتابه أيضاً: سألت علي بن الفارقي مدرّس المدرسة الغربية ببغداد، فقلت له: أكانت فاطمة صادقة؟ قال: نعم، قلت: فلم لم يدفع إليها أبوبكر فدكاً وهي عنده صادقة؟ فتبسم، ثم قال كلاماً لطيفاً مستحسنًا مع ناموسه وحرمة وقلة دعابته، قال: لو أعطاه اليوم فدكاً بمجرد دعواها ل جاءت إليه غداً، وأدعت لزوجها الخلافة، وزحزحته عن مقامه، ولم يكن

يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء،، لانه يكون قد سجل على نفسه على أنها صادقة فيما تدعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى بيّنة ولا شهود. وهذا كلام صحيح، وان كان أخرجه مخرج الدُعاة والهزل.(1)

لقد بدأ منع بني الزهراء من فدك في عهد الخليفة الأول، وبعد ان قضى علي - عليه السّلام - وتسلم معاوية زمام الامر، وزرع فدكاً بين ثلاثة هم: (مروان بن الحكم وعمرو بن عثمان، وابنه يزيد).

ولما ولي الأمر «مروان» سيطر على فدك بصورة كاملة، ووهبها لابنه عبدالعزيز، واعطاها عبدالعزيز لولده «عمر بن عبدالعزيز».(2)»

وحيث انه كان حاكماً معتدلاً السيرة بين خلفاء بني أمية لهذا فان أول بدعة أزاحها كان هو اعادة فدك إلى بني فاطمة، ثم انتزعها الخلفاء الذين توالوا بعده من ايدي بني هاشم، وكانت بأيديهم حتّى يوم انقرضت فيه حكومة الامويين.

وقد اضطرب أمر فدك اضطراباً عجبياً أيام الخلافة العباسية، فلما ولي أبو العباس السفاح ردّها على عبدالله بن الحسن بن الحسن، ثم قبضها ابو جعفر من بني حسن، ثم ردّها محمّد المهدي ابنه، على ولد فاطمة) عليها السلام، ثم قبضها موسى الهادي بن المهدي وهارون أخوه، لاسباب سياسية خاصة، حتّى وصل الدور إلى المأمون فردها على الفاطميين اصحابها الشرعيين ضمن تشريفات

1- شرح ابن أبي الحديد: ١٦ / ٢٨٤.
2- شرح ابن أبي الحديد: ١٦ / ٢٧٨.

خاصة وبصورة رسمية.

ثم اضطرب امر فدك من بعده أيضاً فربما سُلِّبت من أصحابها وربما رُدَّت إليهم. وهكذا تراوحت بين السلب والرد.

ولقد استغلّت فدك في عهد الامويين والعباسيين في أغراض سياسية بحتة قبل أن تستغلّ في أغراض اقتصادية.

فلقد كان الخلفاء في صدر الإسلام يحتاجون إلى عائدات فدك المالية، مضافاً إلى انهم انتزعوها من يد على لغرض سياسي ولكن في العصور المتأخرة عن ذلك كثرت ثروة الخلفاء وزادت زيادة هائلة بحيث لم يكونوا بحاجة إلى عائدات فدك، ولهذا فان عمر بن عبدالعزيز لما أعاد فدكاً إلى بني فاطمة احتج عليه بنو أمية واعترضوا قائلين: هجّنت فعل الشيخين، وإن أبيت إلا هذا فامسك

الأصل وأقسم الغلّة.(1)

فدك في محكمة التاريخ:

إن دراسة وتقييم ملفّ «فدك» تثبت بوضوح أن منع ابنة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من حقها المشروع كان عملاً سياسياً بحتاً، أي إنه ما كان يستند إلى أي مبرر شرعي مطلقاً، وإن المسألة كانت أوضح من أن تخفى على خليفة العصر.

وقد أوضحت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام (هذه الحقيقة في خطابها الساخن البليغ إذ قالت: هذا كتابُ الله حكماً عدلاً وناطقاً فصلاً يقول: وَ يَرثُنِي وَ يَرثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ (2) وَ وَرثَ سَلِيمَانُ دَاوُدَ (3) وَ بَيْنَ عَزْرَجَلٍ فِي مَاوَرَعٍ مِنَ الْأَقْسَاطِ وَ شَرَعَ مِنَ الْفَرَائِضِ وَ الْمِيرَاثِ. (4)»

-
- 1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٦ / ٢٧٨.
 - 2- مريم: ٦.
 - 3- النمل: ١٦.
 - 4- الاحتجاج للطبرسي: ١ / ١٤٥.

(429)

إن البحث حول دلالة الأيتين على وراثته أبناء النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عنه، والحديث الذي رواه الخليفة وحده يوجب اطالة الكلام، وفي إمكان من يحبّ التوسع أن يراجع كتب التفسير المفصلة.

السيطرة على وادي القرى:

إن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يضع نهاية لنشاط القوى المضادة للإسلام في هذه المنطقة (خيبر) فقط بل رأى أن يتوجه إلى وادي القرى الذي كان يشكل مركزاً آخر من مراكز اليهود. فحاصر بنفسه حصونهم عدة أيام، حتّى فتحها، ثم عقد بعد الفتح معاهدة مع أهلها على غرار معاهدة «خيبر». »

وبهذا طهرت أرض الحجاز من فتنة اليهود الاوغاد، وقد جردوا من أسلحتهم ووضعوا تحت حماية المسلمين ومراقبتهم الدقيقة. (1)

1- الكامل في التاريخ: ٢ / ١٥٠.

(430)

٤٦

عمرة القضاء (١)

كان يحق للمسلمين بعد التوقيع على معاهدة صلح الحديبية أن يدخلوا بعد عام واحد من تاريخ يوم التوقيع مكة، ثم يغادروها بعد ثلاثة ايام يقيمون فيها شعائر العمرة وكان عليهم بموجب الاتفاق أن لا يحملوا معهم إلا سلاح الراكب: السيف في القرب، ليس غير

والآن مضى عام واحد على يوم التوقيع على المعاهدة المذكورة، وأن الاوان ليستفيد المسلمون من هذه المادة في تلك الاتفاقية، وان يتوجه المسلمون المهاجرون الذين مضى عليهم سبعة أعوام ابتعدوا فيها عن بيوتهم ووطنهم ومسقط رؤوسهم، ورجحوا الحياة في الغربية، وتحمل متاعها على العيش في الوطن للمحافظة على عقيدة التوحيد.

يتوجه مثل هؤلاء مرة أخرى إلى زيارة بيت الله الحرام ولقاء الاحباب والأقرباء وتفقد المنازل والبيوت التي ولدوا فيها وترعرعوا في رحابها.

- [العمرة أعمال خاصة ومناسك معينة يمكن للمرء الاتيان بها طوال اشهر السنة على العكس من أعمال الحج التي يجب أداؤها فقط في شهر ذي الحجة وقد توجه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى مكة في يوم الإثنين السادس من شهر ذي القعدة من السنة الهجرية السابعة. وسميت هذه العمرة عمرة القضاء لأنها كانت بدلا عن العمرة التي منع النبي والمسلمون عنها في عام الحديبية.

(431)

ولهذا عندما أعلن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بان يستعد من حُرْم من العمرة في العام الماضي للعمرة، دب شوق عجيب في نفوس المسلمين، واغرورقت دموع الفرح في عيونهم، فخرج مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ألفا شخص بدل ألف وثلاثمائة وهم عدد الذين خرجوا معه في السنة الماضية.

وكان بين الخارجين مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جمع كبير من شخصيات المهاجرين والانصار البارزة الذين كانوا يلزمون رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - طول سيره ملازمة الظل لصاحب الظل.

وساق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في هذه العمرة ستين بدنة وقد قَلَّدها⁽¹⁾، وأحرم من مسجد المدينة واتبعه الآخرون، وخرج ألفان وهم يلبون مرتدين أثواب الاحرام يقصدون مكة.

ولقد كان هذا الموكب العظيم من الجلال والمغزى المعنوي بحيث لفت نظر الكثير من المشركين إلى حقيقة الإسلام ومعنويته الرائعة.

ولو قلنا: ان هذا السفر كان - في حقيقته - سفيراً تبليغياً، وان المشتركين فيه كانوا - في حقيقة الامر - طلائع التبليغ والدعوة لما قلنا جزافاً، فان آثار هذا السفر المعنوي ظهرت للتو فقد انبهر بمنظر سلوكهم وعبادتهم ونظامهم الدُ أعداء الإسلام أمثال «خالد بن الوليد» بطل معركة أحد وعمرو بن العاص داهية العرب فرغبوا في الإسلام، وأسلموا بعد قليل.

وحيث ان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يكن آمناً من غدر قريش فقد كان يحتمل أن يباغته ويباغته أصحابه في أرض مكة، ويسفكوا دماء جماعة

- [البينة الناقة تنحر بمكة والجمع بُنْ وتقليد البينة أن يجعل في عنقها نعلا فيُعَلَم أنها هدى.]

(432)

منهم وهم لا يحملون معهم إلا سلاح الراكب إذ لم يكن مسموحاً للمسلمين - حسب المعاهدة - أن يأخذوا معهم سلاحاً غير ذلك.

من هنا عمد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تحسباً لأي طارئ إلى تكليف مائتي رجل من المسلمين بالتسلح الكامل، وأمر عليهم «محمّد بن مسلمة» وحملهم على مائة فرس سريع، وأمرهم بالتوجه صوب مكة أمام القافلة الكبرى، والاستقرار في منطقة «مرّ الظهران» قرب الحرم، ينتظرون ورود رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومن معه.

فعرف عيون قريش الذين كانوا يراقبون تحركات رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بقضية الفرسان المسلّحين المائتين، واستقرارهم في وادي «مرّ الظهران»، وأخبروا سادة قريش بالأمر.

فبعثت قريش «مركز بن حفص» إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليكلموه في هذا الإجراء فأتى مركز إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وسلّمه اعتراض قريش وانه تعهّد - قبل ذلك - أن لا يدخل مكة إلاّ بسلاح المسافرين.

فأجابه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

«لا تُدْخِلْهَا إِلَّا كَذَلِكَ وَلَكِنْ يَكُونُ هُوَ لَأَقْرَبِيَيْنَ مِنَّا.»

وقد أفهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مركزاً بهذه العبارة بأن قريش لو استعّلت عدم حمل النبي واصحابه للسلاح الثقيل فباغتتهم أدركتهم هذه القوة الاحتياطية المسلحة القوية المستقرة على مقربة من الحرم، ومثوهم بالسلاح والعتاد.

فعاد «مركز» واخبر قريشاً بما سمع من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فادركت قريش حنكة رسول الإسلام ويُعد نظره، وحسن تقديره للامور،

ففتحت أبواب مكة في وجه المسلمين، وخرج رؤوس المشركين وأهلهم ومن تبعهم إلى رؤوس الجبال، وخلّوا مكة، وقالوا: لا ننظر إلى محمّد ولا إلى اصحابه، ولكنهم كانوا يراقبون المشهد من بعيد. (1)!!

النبي يدخل مكة:

دخل رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - وهو على راحلته القصواء وأصحابه متوشحوا السيوف محدقون به يلبّون وهم ألفان، فدوّى صوتهم الموحّد بالتلبية في أرجاء مكة، وكانت نغمة هذه التلبية الكبرى من الجلال والجمال بحيث بهرت كل سكان مكة، وسحرت قلوبهم وعطفها نحو المسلمين، وفي نفس الوقت أربع اتحاد المسلمين، ونظامهم، والتفافهم حول النبي قلوب المشركين، ولم يقطع رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - تلييته حتّى استلم الركن.

فلما انتهى رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - إلى البيت وهو على راحلته وابن رواحة أخذ بزمامها وقد صف له المسلمون حين دنا من الركن حتّى انتهى إليه استلم الركن بمحجنه مضطبعاً بثوبه على راحلته انشد عبدالله بن رواحة يقول:

خَلُّوا بَنِي الْكَفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ * إِنِّي شَهِدْتُ أَنَّهُ رَسُولُهُ

حَقّاً وَكُلُّ الْخَيْرِ فِي سَبِيلِهِ * نَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ

كَمَا ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ * ضَرْباً يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ

ويذهلُ الخليلُ عن خليله(2)

وظاف رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - بالبيت المعظم على راحلته، وهنا أمر

1- امتاع الاسماع: ١ / ٣٣٧ و ٣٣٨.
2- زاد المعاد: ٢ / ١٥٢.

- صلّى الله عليه وآله وسلم - ابن رواحة ان يردّد هذا الدعاء بلحن ونغم خاص؛ وان يتبعه المسلمون:

«لا إله إلا الله وحده وحده، صدق وعده، ونصر عبده واعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.»

كانت مكة بجميع مشاعرها في ذلك اليوم تحت تصرف المسلمين، المسجد، الكعبة، الصفا، المروة، وغيرها. وقد كانت هذه الشعارات التوحيدية الساخنة في مكان كان طوال سنين مديدة مركزاً للوثنية، والشرك توجه ضربات روحية قوية إلى نفسية سادة المشركين، وأتباعهم، مما كان يُوحى بغلبة «محمد» - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - على كل أرجاء الجزيرة العربية حتماً وبقيناً.

ولما قضى رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - نُسكه دخل البيت فلم يزل فيه حتى حان الظهر، فصعد بلال الذي طالما عذب في هذا البلد بسبب اسلامه فوق ظهر الكعبة بأمر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، واذن لصلاة الظهر.

ولقد كان لهذا المنظر مردود عجيب في نفوس المشركين فبالل واقف في نقطة طالما عُدت فيها الشهادة بالتوحيد وبرسالة محمد، ذنباً لا يُغتفر، وجريمة لا ينجو صاحبها من العذاب، يردد ويردد معه المسلمون ما يردد من فصول الأذان فصلاً فصلاً في خشوع وروحانية بالغة.

لقد أزعج أذان بلال المشركين واعداء التوحيد، حتى قال «صفوان بن أمية»: الحمد لله الذي أذهب أبي قبل أن يرى هذا، وقال خالد بن أسيد: الحمد لله الذي أمات أبي ولم يشهد هذا اليوم، ولم يسمع هذا العبد الحبشي يقول ما يقول.

واما «سهيل بن عمرو» فانه لما سمع تكبير بلال غطى وجهه بمنديل.

انهم لم ينزعوا من صوت «بلال» بل أخرجتهم مضامين فصول الأذان التي كانت ضد ما يحملونه من المعتقدات الباطلة الموروثة، وجعلتهم يعانون بسبب

(435)

ذلك من عذاب روعي شديد.

ثم ان رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - حين أراد السعي بين الصفا والمروة سمع بأن قريشاً تحدثت بينها أن محمداً وأصحابه في عسرة وجهد وشدة، وان الذين هاجروا معه إلى المدينة مرضى، وأنهم صقوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه، فهورول رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - هرولة في المكان المعلم الآن في المسعى، وتبعه المسلمين وقد قال لهم قبل ذلك.

«رحم الله امرء أراهم اليوم من نفسه قوة»⁽¹⁾

وذلك ليبطل ما اشاعته قريش حول المسلمين المهاجرين من الضعف والهزال بسبب ظروف المهجر. وهذا إن دل على شيء فانما يدل على امرين:

أولاً: جواز القيام بالأعمال السياسية في موسم الحج.

ثانياً: ان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان حذراً جداً فكان يبطل كل خطط العدو أولاً بأول.

يقول صاحب زاد المعاد: أمر النبي بذلك ليرى المشركون جدهم وقوتهم، وكان يكايدهم (أي يبطل كيدهم) بكل ما استطاع.(2)

ثم ان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد أن فرغ من السعي نحر البدن، ثم قصر من شعره، ثم خرج من إحرامه، وتبعه المسلمون في كل ما فعل.

ثم أمر - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مائتين من أصحابه بعد أن طافوا بالبيت وانتهوا من مناسك العمرة ان يذهبوا إلى أصحابه بمر الظهران فيقيموا على السلاح فيأتي الآخرون فيقضوا مناسكهم، ففعلوا.

إنتهت أعمال العمرة ونسكها، وذهب المهاجرون إلى منازلهم التي هجروها قبل سبعة أعوام، ليجدوا اللقاء بذويهم وأقربائهم بعد طول فراق، واستضافوا

1-تاريخ الطبري: ٢ / ٣٠٩، وراجع نظيره في زاد المعاد: ٢ / ١٥٢.
2-زاد المعاد: ٢ / ١٥٢، ولنا مقال مفصل في هذا المجال تحت عنوان الحج عبادة وسياسة نشر في مجلة الشهيد فراجع.

(436)

جماعة من الأنصار في بيوتهم وفاء لجميلهم وتقديراً لخدماتهم حين قدموا عليهم المدينة بعد الهجرة، فأسكنوهم وكرمهم في منازلهم وخدموهم سنيماً عديدة.

النبي يغادر مكة:

تركت أحوال المسلمين وأوضاع الإسلام وجلال الموكب النبوي وعظمته أثراً بليغاً وعجيباً في نفوس سكان مكة المشركين، فقد تعرفوا على نفسية المسلمين النبيلة الطيبة في هذه الزيارة اكثر من أي وقت مضى وكاد ذلك أن «يفعل» فعلته، ويحدث إنقلاباً روحياً في تلك البيئة.

ولما رأى زعماء المشركين أن توقف النبي وأصحابه في مكة سيؤثر في عقائد أهل مكة ويضعف تمسكهم بوثنيتهم، ويوجد علاقات المحبة بينهم وبين المسلمين، لهذا بعثوا أحدهم وهو حويطب إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد انقضاء المدة المقررة للاقامة في مكة في المعاهدة - ليطلب منه مغادرة مكة قاتلاً: انه قد انقضى اجلك فاخرج عنا.

فانزعج بعض أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من مقالة مبعوث قريش هذا، ولكن النبي لم يكن بالذي يخالف ما تعهد به، ولهذا أمر بأن ينادى في المسلمين بالرحيل فترك هو والمسلمون مكة فوراً.

ولقد تأثرت «ميمونة» أخت أم الفضل زوجة العباس، بما شهدت من مشاعر المسلمين وروحانيتهم فأرسلت إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن طريق عمه العباس أنها ترغب في الزواج برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فوافق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - (1) وتزوجها، وبهذا قوى علاقته مع قريش.

ان رغبة فتاة في الزواج بمن يكبرها بسنين عديدة لدليل واضح على مدى التأثير الروحي والمعنوي الذي تركه النبي والمسلمون في النفوس حتى أن النبي

- [حياة محمد: ص ٤٠١ .

(437)

- صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لما طلب من مبعوث قريش بأن يمهله بعض الوقت ليعرس بين أظهرهم، ويصنع لهم طعاماً يحضروه، أبوا امهاله خوفاً من تعاطم تأثيره في النفوس، وقالوا له: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا. (1)

فأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يخرج المسلمون من مكة في منتصف النهار ولم يبق بمكة إلى وقت الظهر، وخلف ابا رافع ليحمل إليه زوجته «ميمونة» حين يمسي، فأقام أبو رافع حتى أمسى، فخرج بميمونة ومن معها فلقوا عناء من سفهاء المشركين، ولاموا «ميمونة» على فعلها، ولكن كلامهم لم يؤثر قط في نفسها، فقد رغبت في الزواج برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بدافع الرغبة في خلقه وسمو أخلاقه.

وهكذا تحققت رؤيا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الصادقة التي رآها قبل سنة واحدة بأنه دخل البيت، وحلق راسه، ونزلت بعد هذه الوقائع الآية ٢٧ من سورة الفتح تتحدث عن تحقق هذا الوعد حيث أخبرت ضمناً عن فتح قريب، - هو فتح مكة - الذي تحقق في السنة الثامنة من الهجرة إذ يقول سبحانه:

(لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَهُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا.) (2)

- [السيرة النبوية: ٢ / ٣٧٢، تاريخ الخميس: ٢ / ٦٢ - ٦٥ .
2-الفتح: ٢٧ .

(438)

احداث السنة الثامنة من الهجرة

٤٧ معركة مؤتة

انقضت السنة الهجرية السابعة، واستطاع المسلمون بفضل معاهدة صلح الحديبية ان يزوروا معاً بيت الله المعظم ويعتصروا في أمان، ويرتدوا في مركز حكومة الوثنيين شعارات قوية لصالح عقيدتهم التوحيدية إلى درجة انهم استطاعوا ان يستميلوا نحو الإسلام قلوب جماعة من سراة قريش وزعماء المشركين امثال «خالد بن الوليد»، «وعمر بن العاص»⁽¹⁾ و«عثمان بن طلحة»، فلم يلبثوا ان جاؤوا طائعين راغبين إلى المدينة، واعتنقوا الإسلام وقطعوا علاقاتهم بحكومة مكة الوثنية المشركة التي لم يبق منها إلا جسم من دون روح، وهيك من دون حياة.⁽²⁾

وذكر بعض المؤرخين اسلام خالد أو ابن العاص في السنة الخامسة من الهجرة.

ولكن هذا غير صحيح قطعاً لأن «خالداً» كان يقود في الحديبية مائتين من فرسان قريش، ونحن نعلم أن اسلام هذين الرجلين تم في وقت واحد.

كان ثمة أمنٌ نسبيٌ يسود أكثر مناطق الحجاز في أوائل السنة الثامنة، وكان نداء الإسلام قد وصل إلى أكثر النقاط ولم يبق من نفوذ اليهود شيء، ولم

1- لقد ذكر الواقدي في مغازيه: ٢ / ٧٤٣ و ٧٤٥ علة اسلام عمرو بصورة أخرى.
2- الطبقات الكبرى لابن سعد: ٤ / ٢٥٢ - ٢٦١.

(439)

تعد قريش تهديد المسلمين من ناحية الجنوب، ولهذا فكر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في أن يركز دعوته على سكان المناطق الحدودية للشام، ويستميل إلى الإسلام قلوب أولئك الاقوام التي كانت في تلك الايام تعاني من ظلم السلطات الرومية.

ولهذا الغرض وجه «حارث بن عمير الازدي» مع كتاب إلى «الحارث بن أبي شمر الغساني» ملك «بصرى» الذي كان حاكم الشامات المطلق يومذاك، وكان يحكم من جانب قيصر.

فلما نزل مبعوث النبي مؤتة» عرف به شرحبيل وكان حاكم المناطق الحدودية، فقبض عليه، وحقق معه، فاعترف له بانه يحمل كتاباً من جانب رسول الإسلام إلى حاكم الشامات المطلق (الحارث الغساني)، فأمر بان يوثق وقدمه وضرب عنقه صبراً مخالفاً بذلك كل الأعراف العالمية القاضية باحترام السفراء وحصانتهم.

فعرف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بذلك وغضب لمقتل رسوله بشدة وندب الناس فأخبرهم بمقتل سفيره ومن قتله، ودعا المقاتلين المسلمين إلى الخروج للاقتصاص من قاتل «الحارث». »

حادثة أفجع من السابقة:

واتفق أن وقعت في نفس الايام حادثة أخرى افجع من الأولى، أكدت عزم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على تأديب سكان المناطق الحدودية الشامية الذين سلبوا دعاة الإسلام حرية العمل والدعوة، وقتلوا دون رحمة، وغدراً سفير النبي، وجماعة الدعوة والتبليغ واليك مفصل الحادثة الثانية:

بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في شهر ربيع الاول سنة ثمان من الهجرة على رأس خمسة عشر رجلاً إلى منطقة «ذات أطلاح» من ارض الشام، خلف وادي القرى لدعوة الناس إلى الإسلام، فخرجوا حتى انتهوا إلى تلك

(440)

المنطقة فدعوا أهلها إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم، ورشقوهم بالنبل فلما رأى أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ذلك قاتلوهم اشد القتال، حتى قتلوا مؤثرين عز الشهادة على ذل الأسر، وافلت منهم رجلٌ جريح من القتلى، فلما جنَّ الليل تحامل حتى اتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فاخبره الخبر فشق ذلك على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فتسبب العدوان على دعاة الإسلام وقتلهم في ان يصدر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمراً بالخروج إلى الجهاد في شهر جمادى، ووجه جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل لتأديب المتمردين، و مزاحمي دعوة الإسلام.

فتجمع ثلاثة آلاف بعد الاذان بالجهاد في معسكر خارج المدينة يدعى «الجرف» فخرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بنفسه إلى ذلك المعسكر، وخطب في المقاتلين خطاباً، هذا نصه:

«أغزوا بسم الله أذعوهم إلى الإسلام فإن فعلوا فاقبل منهم واكف عنهم والآن فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين الناس، فلا تعرضوا لهم، وستجدون آخرين للشيطان في رؤوسهم مفاحص فاقلعوها بالسيف، ولا تقتلن امرأة ولا صغيراً مرضعاً ولا كبيراً فانياً، لا تغرقن نخلاً ولا تقطعن شجراً، ولا تهدموا بيتاً.»⁽¹⁾

ثم قال: جعفر بن أبي طالب أمير الناس، فان قُتِلَ فزيد بن حارثة، فان اصيب زيد فعبدة الله بن رواحة فان اصيب عبد الله بن رواحة فليرضي المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم.

ثم امر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المقاتلين بالتحرك نحو الهدف، وخرج فشيّعهم مع جماعة من اصحابه حتى «ثنية الوداع» وهناك ودّعهم وكان المسلمون المشيعون يقولون: دفع الله عنكم وردكم سالمين غانمين، صالحين.

ولكن ابن رواحة أجابهم قائلاً:

لكنني أسأل الرحمان مغفرة * وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا

أو طعنة بيدي حرّان مجهزة * بحربة تنفذ الاحشاء والكبدا

حتّى يقال إذا مرّوا على جدثي * يا أرشد الله من غاز وقد رشدا. (1)

وانت أيها القارىء الكريم يمكنك أن تعرف من خلال هذه الابيات عمق ايمان هذا الفارس القائد وحبه للشهادة في سبيل الله.

ثم ان الناس رأوا عبدالله بن رواحة لما ودع من ودع بكى، فقالوا ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا، ولا صباية بكم ولكني سمعت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يقرأ آية من كتاب الله عزوجل يذكر فيها النار:

(وَ إِنْ مِنْكُمْ إِيَّاهُ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا.) (2)

فلست أدري كيف لي بالصدور بعد الورود. (3)

خلاف حول من هو الامير الاول؟

لقد كتب بعض المؤرخين: أن الامير الاول كان هو زيد بن حارثة ابن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالتبني، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم عبدالله بن رواحة، ولكن محققي الشيعة يرون عكس هذا فهم يعتبرون جعفر بن أبي طالب قائد الجيش وزيداً وعبدالله معاوينين أو خليفتين له على الترتيب فيجب ان نرى أي الرأي يوافق الحقيقة.

لتحصيل الحقيقة في هذا المجال هناك طريقتان:

1- ان زيد بن حارثة لم يكن يعادل من ناحية التقوى والعلم والمكانة

1-بحار الأنوار: ٢١ / ٦٠، الطبقات الكبرى: ٢ / ١٢٨.

2-مريم: ٧١.

3-السيرة النبوية: ٢ / ٣٧٤.

الاجتماعية جعفر بن أبي طالب (جعفر الطيار).

يقول ابن الاثير عنه: جعفر بن أبي طالب كان اشبه الناس برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خَلْقاً وَخُلُقاً، أسلم بعد إسلام أخيه عليّ بقليل. روي أن أباطالب رأى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وعلياً رضي الله عنه يصليان وعليّ عن يمينه، فقال لجعفر: صَلِّ جناح ابن عمك وصلِّ عن يساره. (1)

وجعفر رأس المهاجرين إلى الحبشة الذين هاجروا اليها حفاظاً على دينهم وعقيدتهم من الفتنة وهو الذي استمال قلب النجاشي بما تكلم به عنده من الحجة وقرأ عليه آيات من القرآن عن المسيح - عليه السّلام - وأمه مريم، واثبت كذب مبعوثي قريش لاستعادتهم إلى ارض الحجاز، و هو الذي وُفِّقَ لأن يخطب ودَّ النجاشي ويكسب حمايته للمهاجرين الملاحقين إلى درجة أنه طرد مندوبي قريش. (2)

ان جعفرأ هو الشخصية البارزة التي لما راه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يوم خيبر وقد عاد من الحبشة مشى إليه (١٢) خطوة وعانقه وضمه وقبّل مابين عينيه وبكى من فرط الشوق إليه وقال في حقه:

«بأيهما اسرّ بقدم جعفر ام بفتح خيبر. »

إنه هو ذلك الرجل العظيم الذي كان يذكر عليّ - عليه السّلام - ، بعد استشهاده شجاعته وبسالته، فعندما سمع عليّ - عليه السّلام - بمبايعة عمرو بن العاص لمعاوية، وتقرّر أن يوكل معاوية حكومة مصر إلى عمرو إذا غلبا علياً، غضب علنً عليه السّلام - من هذا الامر وتذكر شجاعة عمّه حمزة وأخيه جعفر وقال:

لو أنّ عندي يابن حرب جعفرا * أو حمزة القرم الهمام الازهرا

1- اسد الغابة: ١ / ٢٨٧.

2- اسد الغابة: ترجمة جعفر بن أبي طالب، وغيره من المصادر في هذا المجال.

رأت قريشٌ نجمَ ليلٍ ظُهِرا. (1)

فهل مع هذه المواصفات والجهات التي نقلنا قسماً منها هنا فقط يجيز العقل أن يفرض رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قيادة القوات إلى زيد ويجعل جعفر معاونه أو خليفته الاول.

2-ان الأشعار التي انشدها شعراء الإسلام الاذإن في رثاء هؤلاء القادة بعد استشهادهم حاكية عن ان القائد الاعلى في هذه المعركة الكبرى (موتة) كان «جعفر» وكان أمر المعاونة والخلافة يرتبط بالرجلين الآخرين، فهذا «حسان» شاعر عصر الرسالة انشد شعراً بعد أن بلغه استشهاد أولئك القادة بصورته المفجعة قال فيه:

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا * بموتة منهم ذوالجناحين جعفر

وزيدٌ وعبدالله حين تتابعوا * جميعاً وأسباب المنية تخطر (2)

فكلمة تتابعوا تشهد بجلاء على أن مقتل هؤلاء القادة الذين ذكرهم تمّ على النحو الذي جاء ذكرهم، يعني أن جعفرأ كان اول الشهداء ثم تلاه في قيادة الجيش الاسلامي ثم الشهادة زيدٌ، ثم ابن رواحة.

وان اوضح الادلة على ذلك قصيدة «كعب بن مالك» في رثاء شهداء موتة، التي يصرح فيها بان جعفرأ كان هو القائد الأول، وقد كان صاحب هذه الأبيات ممن شاهد تفويض أمر القيادة العليا للجيش من جانب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى جعفر

يقول كعب في قصيدته:

إذ يهتدون بجعفر ولوائه * فُدام أولهم فنعم الأول (3)

إن هذه القصائد الرثائية التي أنشدت في أعقاب استشهاد أولئك القادة، وسلمت من يد التحريف اقوى شاهد على ان ما كتبه مؤرخو السنّة حول هذا

1-وقعة صفين: ص ٤٩ .

2-السيرة النبوية: ٢ / ٣٨٤ .

3-السيرة النبوية: ٢ / ٣٨٦ .

المطلب يخالف الحقيقة، وأن الرواة اختلفوا هذا الترتيب لدوافع وأغراض سياسية لا مجال لذكرها، وبيانها هنا، وقد تبعهم في ذلك كُتّاب السيرة وادرجوه في كتبهم من دون تمحيص وتحقيق.

والعجب أن ابن هشام الذي نقل كل هذه الابيات والقصائد قال: ان جعفرأ كان المعاون الأول لزيد بن حارثة، وليس القائد الأعلى

للجيش، وهو كما ترى تناقض مكشوف. (1)

جيشا الروم والإسلام يتواجهان:

كانت «الروم» قد أصيبت يومذاك - نتيجة الحروب العديدة والطويلة مع منافستها إيران - بالفوضى، والهرج والمرج الشديدين. فمع ان قادة الروم كانوا سكارى من نشوة الانتصار على إيران إلا أنهم قد بلغهم شيء كثير عن شجاعة المسلمين وبسالتهم النابعة من إيمانهم والتي كسبوا عن طريقها أمجاداً عظيمة، وكانوا يراقبون على الدوام تحرك جنود الإسلام ونشاطاتهم العسكرية. ولهذا لما بلغ هرقل قيصر الروم بموعد توجه جنود الإسلام إلى ناحية الشام لتأديب عميله شرحبيل الغساني، أرسل جيشاً عظيماً وقوياً لمواجهة جنود الإسلام البالغ عددهم ثلاثة آلاف. وقد أعدَّ «شرحبيل» حاكم أرض الشام وحده مائة ألف فارس من مختلف القبائل القاطنة في الأراضي الشامية ووجهه إلى حدود الشام لا يقاف تقدم الجيش الإسلامي، وقد أعدَّ قيصر قبل ذلك مائة ألف جندي رومي فنزل في منطقة تدعى «مأب» من مدن البلقاء، وأستقرَّ هناك كقوة احتياطية تتدخل عند اللزوم.⁽²⁾

- [السيرة النبوية: ٢ / ٣٨٠].
- [المغازي: ٢ / ٧٦٠، السيرة النبوية: ٢ / ٣٧٥].

(445)

ولقد كان تجميع هذا القدر الهائل من الجنود والمقاتلين لمواجهة جيش يقلّ عدداً بكثير عن هذا القدر نابغاً من الانبياء التي بلغت قادة الروم والشام عن فتوحات المسلمين وانتصاراتهم الساحقة وعن الوقوف على شجاعتهم وبسالتهم التي ذاع صيتها، وإلا فإن عشر هذا العدد، (أي عشرون ألف) يكفي لمواجهة ثلاثة آلاف مقاتل مهما كانت شجاعة هؤلاء.

كما أنه لدى المقارنة بين العسكريين كان الجيش الإسلامي أضعف من جيش الروم بكثير، سواء من ناحية العتاد، أو من ناحية المعرفة بفنون القتال وتكتيكاته العسكرية، لأن القادة العسكريين الروم كانوا قد كسبوا خبرة حربية واسعة نتيجة المشاركة في الحروب العديدة والطويلة التي دارت بين الروم وبين إيران، وعرفوا بالتالي مفاتيح الانتصار، بينما كانت معلومات الجيش الإسلامي الناشي معلومات بدائية وبسيطة في هذا المجال.

هذا مضافاً إلى عدم وجود التكافؤ بين الجيش الإسلامي والجيش الروماني في نوعية المعدات الحربية والأجهزة القتالية ووسائل النقل وماشابه ذلك.

وفوق هذا وذلك فإن القوة الإسلامية كانت تحارب في أرض غريبة عليها، وتقوم بدور المهاجم، بينما كان الرومان يقاتلون في بلادهم دفاعاً وهم يتمتعون بجميع مستلزمات القتال ومتطلبات الحرب.

وفي مثل هذه الحالة يجب ان تكون القوة المهاجمة قوية جداً، بحيث يمكنها ملافاة سلبيات الظروف غير المساعدة.

ومع هذا فأنا سنرى عما قريب كيف أن قادة الجيش الاسلامي قاوموا وآثروا الصمود والقتال على الهروب والفرار مع انهم كانوا يرون الموت على بعد أقدام معدودة منهم، وبهذا أضافوا إلى أمجادهم أمجاداً أخرى، وسطروا اسطراً أخرى في سجل بطولاتهم. منذ أن ورد المسلمون المناطق الحدودية للشام عرفوا باستعدادات العدو العريضة، وحجم قدراته العسكرية الواسع فشكّلوا من فورهم شورى عسكرية

(446)

فقال البعض: نكتب إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فنخبره الخبر، فإما يردنا وإما يزيدنا رجالا. وكاد هذا الرأي ان يلقى قبولا من المشاورين الآخرين لولا أن «عبدالله بن رواحة» الذي طلب ساعة خروجه من المدينة من الله ان يرزقه الشهادة كما اسلفنا، شجعهم على الصمود وقال: «والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد، ولا بكثرة سلاح، ولا بكثرة خيول، إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، انطلقوا، والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد فرس واحد، وإنما هي إحدى الحسينين، إما ظهوراً عليهم، فذلك ما وعدنا الله ووعدنا نبينا، وليس لوعده خُلف، وإما الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان. »

فقوت هذه الخطبة الحماسية الصادقة معنويات المقاتلين المسلمين وبثت فيهم روح البسالة والمقاومة.

ثم تواجه الجيشان في منطقة تدعى «مشارف» ولكن جنود الإسلام تأخروا وانسحبوا قليلا لبعض العلى، ونزلوا في مؤتة. فقسم جعفر بن أبي طالب قائد الجيش، جنود الإسلام إلى اقسام: مختلفة، وأمر على كل قسم اميراً، ثم بدأت المبارزة الفردية عى نحو ما كان متعارفاً في حروب العرب، فكان على جعفر ان يأخذ اللواء بيده ويوجه صفوف المقاتلين المسلمين، ويقاثل في نفس الوقت.

ثم اننا نكتشف مدى الشجاعة الروحية وثبات الارادة لتحقيق الهدف من خلال الرجز الذي أنشده «جعفر» خلال القتال فقد أخذ يرتجز ويقول:

يا حَبْدَا الجنة واقترأبها * طيبة وبارداً شراؤها

والروم رومٌ دنا عذابها * كافرة بعيدة أنسابها

على إذ لا قيتُها ضرابها⁽¹⁾

ولقد قاتل قائد الجيش الاعلى (جعفر) قتالا عظيماً، فلما حاصره الأعداء في ساحة القتال وأيقن بالشهادة وثب إلى الارض ثم عقر فرسه في الحال لكي

(447)

لا ينتفع به العدوُ واخذ يقاتل، وهو آخذ باللواء بيمينه، فقطعت يمينه فاخذه بشماله فقطعت فاحتضنه بعضديه حتى لا يسقط لواء رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على الأرض حتى قتل وقد وُجِدَ به ثمانون جراحة أو تزيد. (1)!!

فلما قُتِلَ «جعفر» أخذ الراية «زيد بن حارثة» معاونه الاول فقاتل ببسالة عظيمة حتى قتل برماح القوم.

فاخذ الراية «عبدالله بن رواحة» معاونه الثاني، ثم تقدّم بها وهو على فرسه، فجعل يقاتل ويرتجز، فاحسّ بالجوع أثناء القتال، والحّ عليه، فاتاه رجل بعرق من لحم ليزيل به جوعه ويشدُّ به صلْبَه، فلم يأكل منه شيئاً حتى سمع صوت هجوم العدو، فلقى الطعام من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قُتِلَ.

حيرة المقاتلين المسلمين بعد مقتل القادة:

وهنا بدأت حيرة المقاتلين المسلمين، فقد قُتِلَ القائد الأعلى للجيش ومعاوناه وعلى الترتيب الذي ذكر.

ولكن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان قد تحسّب لهذه الحالة، وترك أمر اختيار القائد في مثل هذا الوضع إلى الجنود انفسهم، فأخذ الراية «ثابت بن أقرم» وقال: يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم. فقالوا: انت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطَلَحَ على «خالد بن الوليد» الذي كان حديث عهد بالاسلام آنذاك.

ولقد كانت الساعة التي انيط فيها القيادة إلى خالد ساعة خطيرة وحساسة جداً، حيث قد تغلبت الخوف والرعب على المسلمين كافة.

فعمد القائد الجديد إلى استخدام تكتيك عسكري لم يعرف له مثيل، فقد

1- المغازي: ٢ / ٧٦١، وقد اثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما في الجنة وسمى في ما بعد بجعفر الطيار، راجع السيرة النبوية: ٢ / ٣٧٨.

(448)

امر بالعسكر إذا جنّ الليل أن يحدث بعض التغييرات في صفوفه من دون ضجيج فتنتقل الميسرة إلى اليمين، واليمين إلى الميسرة، وتتأخر المقدمة إلى مكان القلب، ويتقدم القلب إلى موضع المقدمة. ففعل المسلمون ذلك، واستمرت هذه التغييرات حتى طلع الفجر

كما أنه أمر جماعة من المسلمين المقاتلين أن يخرجوا من الجيش ليلاً، ويذهبوا إلى مكان بعيد فإذا اسفر الصبح التحقوا بالمسلمين سريعاً وهم يكبرون حتى يظن العدو وصول امدادات عسكرية بشرية جديدة إلى المقاتلين المسلمين وقد تسبب هذا التكتيك بنفسه في أن يحجم الجيش الكافر عن مهاجمة المسلمين واستئصالهم، بعد ان قتل خيرة قادتهم.

فلما كان الصبح ورأى العدو وجوها جديدة، كما رأوا إمداد المسلمين بمجموعة عسكرية جديدة قالوا: قَدْ جاءهم مدد. فرعبوا وانهمزوا فقاتلهم المسلمون، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وقُتِل في هذه الاثناء أحدُ الجنود المسلمين.

ثم ساد الموقف صمتٌ رهيبٌ، فاستفاد من هذا الصمت والأمن الذي كان يخيم على الجيش فرجعوا من حيث أتوا. إن اكبر انتصار للمسلمين هو ان قوة قليلة محدودة واجهت جيشاً عظيماً منظماً ثلاثة ايام، وبالتالي نجوا بأنفسهم، وكان تدبير الامر الجديد تدبيراً حكيماً خلّص المسلمين من موت محتم، فعادوا سالمين إلى المدينة، وكان هذا مما يشكرون عليه، ويستحقون والثناء.⁽¹⁾

الجنود يعودون إلى المدينة:

وقبل ان يقدم جنود الإسلام من «موتة» المدينة كانت قد وصلت إلى المسلمين أنباء انسحابهم وانباء سيئة عن وضع الجيش، من هنا ذهب المسلمون الى

[1- السيرة النبوية: ٢ / ٣٨١ و ٣٨٨ و ٣٨٩.

(449)

منطقة الجرف لاستقبالهم.

ومع ان عمل القائد الجديد كان تكتيكاً حكيماً إلا ان مثل هذا الصنيع حيث انه كان يتنافى مع ما حققه المسلمون من أمجاد مشرقة وتنافى مشاعرهم وبسالتهم الذاتية والاصيلة لذلك استقبلوهم بشعارات نابية وانتقادات جارحة والقوا بالتراب والحجارة في وجوه المقاتلين العائدين، وقالوا: يا فَرَّار، أفررتم في سبيل الله؟

وقد كانت ردة فعل بعض المسلمين قوية جداً إلى درجة انه اضطر بعض الشخصيات التي شاركت في تلك المعركة إلى أن يقعد في بيته، ولا يظهر في الملأ، فكان الناس - إذا خرجوا - يشيرون اليهم بالاصابع ويقولون: ألا تقدمت مع أصحابك؟⁽¹⁾

ولقد كانت ردة فعل المسلمين تجاه عملية انسحاب جنود الإسلام الذكية، كاشفة عن روح الشهامة والجهاد التي أوجدها الايمان بالله والايمن بيوم القيامة في نفوسهم بحيث صاروا يعدّون القتل والشهادة في سبيل الله، أفضل من الانسحاب والتأخر.

أسطورة بدل التاريخ الصحيح:

حيث إن الامام علي بن أبي طالب - عليه السّلام - قد اشتهر بين المسلمين بأسد الله، لذلك أراد البعض أن يحنثوا تجاه هذا القائد قائداً آخر، ويمنحونه لقب سيف الله، ولم يكن ذلك إلاّ خالد بن الوليد من هنا قالوا ان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لقب خالد بن الوليد بعد رجوعه من معركة «مؤتة» بسيف الله (2) ولو أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - منح مثل هذا اللقب لخالد في مناسبة

1-المغازي: ٢ / ٧٦٥.
2-السيرة النبوية: ٢ / ٣٨٢، السيرة الحلبية: ٢ / ٧٩.

(450)

اخرى لما كان للبحث والنقاش مجال.

ولكن الاوضاع بعد معركة «مؤتة» ما كانت توجب بل ولا تسمح بأن يعطيه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مثل هذا اللقب، فهل من يرأس فريقاً يسميه المسلمون الفُرّار، ويحثون في وجوههم التراب يحسن أن يُعطي في مثل هذه المناسبة لقب سيف الله؟ أجل؛ لو أنّ خالدًا كان مظهرًا لسيف الله في غزوات ومعارك أخرى امكن القبول بذلك، أما في هذه المعركة فلم يكن مظهرًا لسيف الله، ولم يصدر منه بعد تقليده إمارة الجيش إلاّ تكتيك عسكري حكيم، ولما وصف هو ومن معه بالفراريين، خاصة ان ابن سعد يكتب قائلا: فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فأخذ اللواء، وانكشف الناس فكانت الهزيمة فتبعهم المشركون فقتل من قُتل من المسلمين (1).

إن مختلقي هذه الاسطورة أضافوا لتأكيد مطلبهم هذه الجملة أيضاً: قال خالد: لقد اندق يومئذ (أي يوم مؤتة) في يدي سبعة أسياف فما ثبت بيدي إلا صفيحة يمانية (2).

ان مختلق هذه الكذبة غفل تماماً عن أن خالدًا وجنوده لو كانوا أبدووا في هذه المعركة مثل هذه البسالة ولو انجزوا في هذه الحرب مثل هذا العمل العظيم فلماذا سمّاهم أهل المدينة بالفرّار؟ ولماذا حثوا التراب في وجوههم؟ ولما وقع الناس في خالد بعينه (3)، إذ كان من اللازم في هذه الصورة أن يزرعوا طريقهم بالورود، ويقربوا بين أيديهم القرابين إبتهاجاً بعودتهم الظافرة واعجاباً بعملهم الجبار!!

النبي يبكي بشدة لمقتل جعفر:

لقد بكى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في مقتل ابن عمه «جعفر» بشدة

1- الطبقات: ٢ / ١٢٩، امتاع الاسماع: ١ / ٣٤٩.

2- اسد الغابة: ٢ / ٩٤.

3- السيرة الحلبية: ٣ / ٦٨ وغيره.

(451)

ولكي تعرف زوجته اسماء بنت عميس بمصرع زوجها دخل عليها، فقال لاسماء: ايتيني ببني جعفر.

فجاءت بهم إليه فضمهم وشمهم، ثم ذرفت عيناه ثم بكى، فعرفت أسماء بمصرع زوجها فصاحت وبكت ثم خرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى اهله وقال:

«لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم» وكان كلما تذكر جعفرأ وزيد بن حارثة بكى. (1)

1- بحار الأنوار: ٢١ / ٥٤، المغازي: ٢ / ٧٦٦، السيرة الحلبية: ٣ / ٦٨، امتاع الاسماع: ١ / ٣٥١.

(452)

٤٨

غزوة ذات السلاسل

منذ أن هاجر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى المدينة، وأصبحت «المدينة» مركز الإسلام وقاعدته، وموضع تمرکز المسلمين وعاصمتهم، ظل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يراقب أوضاع أعداء الإسلام، ويرصد تحركاتهم، ومؤامراتهم، وكان يولي مسألة تحصيل المعلومات المفصلة عن المتآمرين من المشركين وغيرهم إهتماماً كبيراً، ويعمد دائماً إلى إختيار أفضل العناصر لإرسالهم - بمختلف الحجج - إلى نواحي مكة، وبثهم في القبائل المشركة المختلفة لتجسس أخبارهم، والتعرف على نواياهم، وتدابيرهم.

ولقد استطاع النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بفضل الاطلاع المبكر والدقيق على المؤامرات التي كانت تحاك ضده أن يُفْتِئِل الكثير من خطتهم.

فقد كان - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يباغت العدو، ويحاصره قبل أن يتحرك من مكانه، عن طريق المجموعات العسكرية التي كان يقودها بنفسه، أو التي كان يؤمّر عليها أحد أركان جيشه ويوجهها صوب مكان تجمع العدو، فيفرقون جمعهم، ويشنتون شملهم، ويقضون على المؤامرة في مهدها، وبهذا كان الكيان الاسلامي في أمن من خطر الأعداء، وكان هذا العمل وهذا التدبير يجنب الطرفين المزيد من أراقة الدماء وإزهاق الأرواح.

إنَّ الإطّلاع المبكّر على أسرار العدو العسكرية، ومعرفة حجم طاقاته، ومبلغ إستعداداته، واكتشاف خطّته، وتكتيكاته يُعدّ من العوامل الجوهرية، والمؤثّرة في

(453)

الظفر والانتصار.

فِلْدُول الكبرى اليوم أجهزةً طويلةً وعريضةً، وتشكيلاتٌ واسعةٌ، ومعقّدةٌ لإعداد وتخريج الجواسيس البارعين، وإرسالهم إلى النقاط والمراكز المطلوب اكتشاف أسرارها، والتعرف على أوضاعها وخصائصها، وترصد هذه الدول ميزانيات ضخمة لهذا الغرض. (1)

وكان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أوّل من ابتكر في تاريخ الإسلام هذا العمل في صورته المنظّمة، وتبعه في ذلك الخلفاء الذين جاؤوا من بعده، وبخاصّة الامام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب الذي كان يستعين بجواسيس وعيون كثيرين في مجالات مختلفة، عسكرية، وإدارية.

فكان - عليه السّلام - إذا نصبَ والياً على بلد، جعل عليه عيناً يراقب أعماله وتصرفاته، ويخبر الإمام بها أوّلاً بأوّل، فكان الإمام يكتب إلى ذلك الوالي، ويوبّخه على تصرفاته وانحرافاتِهِ إن بلغَهُ شيءٌ من ذلك. (2)

ولقد كلّف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في السنة الثمانية ثمانيّة رجال من المهاجرين، بالتوجّه تحت إمرة «عبدالله بن جحش» إلى موضع معين، والنزول فيه، للتعرف على نشاطات قريش، ومؤامراتهم.

وقد كان عدم مفاجأة قريش للنبيّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في معركة «أُحُد» وخروجه المبكّر من المدينة بقواه، وجنوده، والنزول في منطقة مناسبة عسكرياً خارجها، وحفره المبكّر أيضاً للخندق المعروف في شمال المدينة، والذي منع العدو (جيش الاحزاب) من اقتحام المدينة المنوّرة، كل ذلك كان نابعاً من معرفة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المسبقة والدقيقة بأسرار العدو، ونواياه،

1-راجع: كتاب: المخابرات والعالم وغيره.
2-راجع: نهج البلاغه قسم الرسائل والكتب، رقم 33 و 45 وكتاب الغارات. هذا وقد بحثنا موضوع الاستخبارات والتجسس في النظام الاسلامي بصورة مسهية في كتابنا: معالم الحكومة الإسلامية، فراجع.

(454)

وحجم قواته، وبالأرض، وذلك عن طريق عيونه وجواسيسه الانكباء اللبيقين، اليقطين الذين كانوا يرصدون - بدقة وباستمرار - أوضاع العدو، وتحركاته، وينقلون معلوماتهم إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبذلك كانوا يقومون بواجبهم الديني في مجال الحفاظ على عقيدة التوحيد، وصيانتها من خطر السقوط.

إنّ هذا التدبير الذكيّ، والطريقة الحكيمة التي ابتكرها وأخذ بها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تُعتبر أكبر درس للمسلمين اليوم، ودائماً.

ولهذا يتوجب على قادة المسلمين المخلصين أن يعرفوا بكل ما يُحاك - في بلاد الإسلام أو في غيرها من بلاد العالم - من مؤامرات ضدّ المسلمين، وما يدبّر من حُطط لتقويض دعائم الإسلام ويبادروا إلى إطفاء شرارات الفتن في مهدها، وقيل اشتعالها، وأن يسلكوا نفس المسلك الذي سلكه رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليحصلوا على ذات النتيجة، ولا شك أنّ مثل هذا العمل لا يتيسّر من دون أجهزة مناسبة، ومن دون تشكيلات خاصّة.

ولقد استطاع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في غزوة: «ذات السلاسل» الذي هو موضوع بحثنا الآن، أن يطفئ نار الفتنة عن طريق استخدام المعلومات الدقيقة التي حصل عليها عن العدو.

ولو أنّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أغلق على نفسه هذا الباب لتحتمل خسائر لا تُجبر، ولتعرّضت الكثير من جهوده المباركة في سبيل نشر الدعوة الإسلامية لخطر الفشل والإخفاق.

تفاصيل هذه الغزوة:

لقد أبلغ العيون وعناصر المخابرات الإسلامية رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن آفاقاً من الناس قد تحالفوا وتعاهدوا في ما بينهم في منطقة تدعى ب: «وادي اليباس» على التوجّه إلى المدينة المنوّرة للقضاء على الإسلام بكل ما لديهم من قوة، فإمّا أن يُقتلوا في هذا السبيل، أو يقتلوا «محمّداً» أو فارسه البطل الفاتح

(455)

«علي بن أبي طالب!!»

ويقول علي بن إبراهيم في تفسيره: «نزل جبرئيل على محمّد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخبره بقصتهم، وما تعاهدوا عليه وتواتقوا»⁽¹⁾

غير أن شيخ الشيعة ومحققهم الكبير المرحوم «الشيخ المفيد» (المتوفى عام ٤١٣ هـ) يقول: بأن أعرابياً جاء إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وأخبره باجتماع قوم من العرب بوادي الرمل⁽²⁾ للتآمر عليه، وعلى الإسلام، (واضاف) بأنهم يعملون على أن يبيتوه بالمدينة. (3)

فرأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يُطلع المسلمين على هذا الأمر، فأمر مؤذنه بان ينادي: الصلاة جامعة وهي جملة كان يراد منها اجتماع الناس للصلاة واستماع أمر مهمّ وذو بال.

فعلا مؤذن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مكاناً مرتفعاً ونادى: الصلاة جامعة، فسارع المسلمون إلى الاجتماع في مسجد النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثم رقى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المنبر وقال في ما قال:

«أيها الناس، إنّ هذا عدوّ الله وعدوّكم قد عمل على أن يبيتكم فمنّ لهم؟»

فانتدب جماعة أنفسهم لهذا الأمر، وأمر عليهم النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أبابكر، فتوجه أبوبكر بتلك المجموعة إلى قبيلة «بني سليم»، ولما سار بهم مسافة واجه أرضاً خشنة وكانت قبيلة «بني سليم» تسكن في شعب واسع، فلما أراد المقاتلون المسلمون ان يندحروا إلى الشعب عارضهم بنو سليم وقاموهم، فلم ير قائد المجموعة بدأً من الانسحاب بمجموعته والرجوع بهم من حيث أتى!!

1- تفسير علي بن ابراهيم: ٢ / ٣٣٤ سورة العاديات.
2- يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ وادي الرمل هو وادي اليايس نفسه. وذلك للمناسبة بين الوصفين.
3- الارشاد: ص ٨٦.

يقول علي بن ابراهيم في تفسيره: قالوا (أي بني سليم لابي بكر): ما أقدمك علينا؟

قال: أمرني رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن أعرض عليكم الاسلام فان تدخلوا فيما دخل فيه المسلمون لكم مالهم، وعليكم ما عليهم، وإلا فالحربُ بيننا وبينكم.

فهذّه زعماء تلك القبيلة - وهم يباهون بكثرة رجالهم ومقاتليهم - بقتله وقتل من معه، فأرعب لتهديدهم وعاد بجماعته إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رغم أن أفرادهم كانوا يصرون على مقاتلة بني سليم تنفيذاً لأوامر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - !! -

ولقد أزعجت عودة الجيش الإسلامي بهذه الصورة المهينة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فأمر عمر بن الخطاب أن يتولى قيادة تلك المجموعة ويتوجه بها إلى «وادي الياض»، ففعل عمر ذلك.

ولكن العدو كان قد ازداد - هذه المرة - يقظة وتحسباً فكمن عناصره عند فم الوادي، واختبأوا وراء الأحجار والأشجار بحيث يرون المسلمين، ولا يراهم من المسلمين أحد.

ولهذا خرجوا على المسلمين بغتةً عندما حلّ الجيش الإسلامي بذلك الوادي، وقابلوهم ببسالة وشجاعة، فأمر قائد المجموعة الإسلامية أفرادها بالانسحاب، وعاد بهم إلى المدينة مهزوماً مذعوراً كسابقه، فلقي من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما لقيه صاحبه من قبل من الاستياء، والكراهية.

وهنا قال عمرو بن العاص وكان من دهاة العرب وساسته الماكرين، وقد كان يومئذ قريب عهد بالاسلام: إبعثني يا رسول الله إليهم، فإن الحرب خدعة، فلعلّي أخدعهم!

فانفذه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مع جماعة ووصّاه فلما صار إلى الوادي خرج إليه بنو سليم فهزموه، وقتلوا من أصحابه جماعة!

(457)

الإمام عليّ ينتدب لقيادة العملية:

هذه الهزائم المتلاحقة أزعجت المسلمين وأحزنتهم بشدة فعمد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى تنظيم مجموعة جديدة واختار لقيادتها «عليّ بن أبي طالب»، وأعطاه راية.

وطلب عليّ - عليه السّلام - من زوجته «فاطمة» بنت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن تأتي له بالعصابة التي كان يشدها على جبينه في اللحظات الصعبة، فتعصّب بها، فحزنت «فاطمة» لمنظر زوجها وهو يتوجه بمثل هذه الصورة إلى «وادي الياض» للقيام بأمر خطير، وبكت إشفافاً عليه، فسأها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهذاها، ومسح الدموع عن عينيها.⁽¹⁾

ثم أتته - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - شيع عليّاً حتّى بلغ معه مسجد الأحزاب، وعليّ راكب على فرس أبلق، وقد لبس بردين يمانيين، وحمل رمحاً هندياً بيده.

ثم توجه علي - عليه السّلام - بإفراده نحو الهدف، إلا أنه سلك طريقاً غير الطريق المعروفة ليعمي على العدو، حتّى أن الذين خرجوا معه تصوّروا أنه يقصد العراق، وقد قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في علي - عليه السّلام - حينما وجهه لهذه المهمة:

«أرسلته كراراً غير فرار.»

إن تخصيص «عليّ» - عليه السّلام - بهذه الجملة يكشف عن أن القادة الذين سبقوه في هذه الحادثة لم ينسحبوا فقط، بل كان انسحابهم مقروناً بالهزيمة القبيحة.

* * *

عوامل انتصار الامام عليّ في هذه الموقعة:

هذا ويمكن أن نلخص عوامل انتصار الامام عليّ - عليه السّلام - في هذه الموقعة

[1-بحار الأنوار: ٢١ / ٨١ ، الارشاد: ٨٧.

(458)

في ثلاثة أمور اساسية هي:

1- أنه - عليه السّلام - أخفى مسيره ووجهته على العدو، فلم يشعر العدو بوجهته ومقصده، لأنه غير مسيره حتى لا يعرف العدو به بواسطة الأعراب من سكان البادية.

2- أنه - عليه السّلام - اتبع مبدءاً هاماً من مبادئ العمل العسكري، واستخدم تكتيكاً مهماً من التكتيكات الحربية وهو: مبدأ الكتمان والتستر، فقد كان - عليه السّلام - يسير بأفراده ليلاً، ويكمن نهاراً، يستريح خلاله.

وهكذا حتى دنا من ارض العدو، وقبل أن يصل فم الوادي أمر جنوده بالنزول والاستراحة لاستعادة نشاطهم من جهة، ولكي لا يحس العدو بمجيئهم من جهة أخرى.

ولهذا السبب الأخير نفسه أمر - عليه السّلام - جنوده بان يكفوا أفواه خيولهم حتى لا يشعر العدو بوجودهم بصهيلها.

وعند الفجر صلى «عليّ» - عليه السّلام - بجنوده صلاة الصبح، ثم صعد بهم الجبل حتى وصل إلى القمة، ثم انحدر بهم - بسرعة فائقة - إلى الوادي حيث يسكن «بنو سليم» فحاطوا بهم وهم نيام، فلم يستيقظوا إلا وقد حاصرهم المسلمون، فاستروا منهم فريقاً، وفرّ آخرون.

3- شجاعة «عليّ» - عليه السّلام - وبسالته النادرة فهو الذي قتل الشجعان الاربعة المعروفين في تلك الموقعة فأرعب العدو إرعباً شديداً فقد معه القدرة على المقاومة في وجه عليّ - عليه السّلام - ففرّ تاركاً وراءه شيئاً كثيراً من الغنائم.⁽¹⁾

ولقد عاد بطلُ الإسلام الظافر إلى المدينة بفتح لا سابق له، فخرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في جماعة من أصحابه لاستقباله، واستقبال من معه من جنود الإسلام.

- [تفسير فرات الكوفي: ٢٢٢ - ٢٢٦، مجمع البيان: ١٠ / ٥٣٨.

(459)

وما أن وقعت عينا القائد الفاتح على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حتَّى ترَجَّل من فرسه فوراً، فقال له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو يربت على كتفه:

«إركبُ فإنَّ اللهَ ورسوله عنك راضيان. »

وفي هذه اللحظة بالذات اغرورقت عينا «عليّ» - عليه السَّلام - بالدموع استبشاراً فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في شأن «عليّ» - عليه السَّلام - قولته المعروفة:

«يا عليّ لولا أنّي أشفقُ أن تقولَ فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في المسيح لقلْتُ فيك اليوم مقالا لا تمرُّ بمأى من الناس إلّا اخذوا التراب من تحت قدميك.⁽¹⁾»

ولقد بلغت تضحية «عليّ» - عليه السَّلام - وبسالته، وشجاعته في هذه الواقعة من الأهمية بحيث نزلت فيها سورة كاملة هي سورة العاديات التي يقول سبحانه فيها:

(يَسْمُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ * الرَّحِيمَ وَالْعَادِيَاتِ صَبِيحاً * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً).

إن القسم بخيول الغزاة المغيرين صباحاً، والمشعلين بحوافرها شرارات الفتح والانتصار.

إنَّ هذا القسم الحماسيَّ الجميل لهو تكريمٌ رائعٌ لبطولات جنود الإسلام في هذه العملية الظافرة، واكبارٌ بروحهم القتالية العالية.

إعترض وجواب

هذا ولقد اعترض بعض الملحدين ذات مرّة على هذا النوع من الأيمان

- [الإرشاد: ص ٨٤ - ٨٦.

(460)

والأقسام في القرآن الكريم وقال ساخرأ: وماذا يعني القَسَم بالخيل الضابحة، العادية، والشرارات المنقحة من حوافرها؟!!

ولقد غاب عن هذا الملحد أن القَسَم بخيل الغزاة المجاهدين أو القسم بالشرارات المنقحة من حوافرها بسبب احتكاكها بالصخور في أرض المعركة إنما هو إشعارٌ بأهمية الجهاد ضد الظالمين أعداء البشرية.

إنّ مثل هؤلاء الجنود البواسل ليسوا وحدهم الذين يحظون - في نظر الإسلام - بمنزلة رفيعة ومكانة عالية، بل خيولهم التي تحملهم في هذا الجهاد المقدّس، وكذا الشرارات التي تنقح من حوافرها تحظى بالقداسة والأهمية أيضاً.

واية قيمة - ترى - أعلى من محاربة الظالمين الجائرين، وانقاذ البشرية من براثن ظلمهم وجورهم، ومن حيفهم وعسفهم؟!

إنّ مثل هؤلاء وما يمكنهم من أهدافهم من الأدوات، والوسائل مقدّسون جمعياً، لأنهم يحررون - بجهادهم - الانسان من قيود الطغاة، الظالمين، ويمهدون لحاكمية الله في الأرض، وأي هدف أعلى واعظم قدسية من هذا الهدف؟

ولقد دعا القرآن الكريم المؤمنين - من خلال تقديس خيول المجاهدين وضبحها وعدوها وشرارات حوافرها - إلى العناية بالجهاد دائماً، وإلى تجميع قواهم، والاستعداد لكسر القيود التي ترزح على ايدي البشرية وأرجلها وعقولها، وإلى تحطيم القلاع التي ضربها الطغاة على الشعوب المغلوب على امرها.

أجل؛ إن فِرَقَ التحرير والجهاد الإسلامية لا تستحق وحدها التقديس والاكبار بل تستحق خيولها ومراكبها، وشرارات حوافرها التقديس كذلك.

ولقد استبدلت تلك الخيول هذا اليوم بالدبابات والطائرات فهي مقدسة أيضاً، كما كانت خيول الغزاة والمجاهدين في عصر الرسالة، كما وأن أزيد محرقاتها، هو الآخر يحظى بالتقديس كما كانت أنفاس الخيول تحظى بالتقديس في عصر الرسالة لأنها تحقق ذات الهدف، ونفس الغاية المقدسة وهي: تحرير الإنسان من براثن الظلم والطغيان.

(461)

هذا هو ملخص غزوة «ذات السلاسل» التي سجّلها وضبطها مفسّرو الشيعة، ومؤرّخوهم، ورَوّوها بأسناد صحيحة.

غير أن مؤرّخي أهل السنة كالطبري⁽¹⁾ روى هذه الواقعة بنحو آخر يختلف عما ذكرناه هنا، اختلافاً شاسعاً.

ولا يبعد أن يكون «ذات السلاسل» إسمًا لغزوتين نقل كل واحد من الفريقين: «السنة والشيعة» واحدة منها، وأعرض عن ذكر الأخرى لأسباب خاصة.

(462)

٤٩ فَتْحُ مَكَّةَ

قصة «فتح مكة» من قضايا التاريخ الاسلامي الجديرة بالمطالعة والتأمل، لما تنطوي عليه هذه الحادثة من دروس وعبر، ولكونها تعكس - بصدق وجلاء - أهداف رسول الإسلام - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - المقدسة، كما تشكف عن أخلاقه العالية، وسيرته الحسنة، وأسلوبه الانساني مع الصديق، والعدو.

في هذا الفصل من التاريخ يتجلى ما كان يتحلى به خاتم الانبياء - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من صدق ووفاء، كما يتبين صدق أصحابه، ووفائهم، واحترامهم لكل ماتعهدوا، والتزموا به للخصم في معاهدة «صلح الحديبية»، بينما يتضح من جانب آخر نفاق المشركين من قريش، وخيانتهم في تنفيذ بنود اتفاقية الصلح، وبالتالي نقضهم للعهد وبالتالي عدم احترامهم لأى شيء من الالتزامات!!

إن دراسة هذا الفصل تثبت لناحنكة النبي، وحسن تدبيره، وسياسته الحكيمة في فتح أصعب وأخر قلعة من قلاع العدو الكافر، المتصلب في شركه، وكفره، والتمادي في عناده وتعسفه، وكان هذا الرجل الألهي قد أمضى شطراً من حياته في إحدى المعاهد العسكرية العليا، فهو يخطط افضل من أي قائد محنك قدير، للفتح، ويكون تخطيطه من الدقة والمتانة، والعمق والحكمة، بحيث يصيب المسلمون فتحاً عظيماً بأقل قدر من المتاعب والمشاكل.

وبالتالي يتجلى في هذا القسم من التاريخ الاسلامي الوجه الانساني الرحيم الذي كان يتسم به رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - الذي كان يحرص على دماء

(463)

أعداء الرسالة الالاء، وأموالهم، ويسعى إلى حفظها وصيانتها، كما لو كانوا أصدقاء لا أعداء.

فهو يعفو بمروءة كبيرة، ويعد مدى واسع، ورؤية مستقبلية عميقة عن قريش، ويغفر لهم جرائمهم وأذاهم ويصدر عفواً عاماً لم يعرف له تاريخ الفاتحين نظيراً في أسبابه، وعلله، وفي ظروفه وملابساته.

واليك تفاصيل هذه الحادثة الكبرى من بدايتها إلى نهايتها.

تفاصيل فتح مكة:

لقد قرأنا في ما مضى أنّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عقد في السنة السادسة معاهدة صلح مع قريش، نصّت المادة الثالثة منها على: أنّ لكل من قريش والمسلمين أن يتحالفوا مع من شأؤوا من القبائل، فتحالفت «خزاعة» مع المسلمين، وتعهّد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لخزاعة في هذا التحالف بان يدافع عن أرضهم وأموالهم وأنفسهم كلما تعرّضوا لخطر، وطلبوا ذلك.

وتحالفت قبيلة «بني كنانة» - وكانوا من أعداء خزاعة التقليديين - مع قريش.

ولقد تمّ كلّ هذا في ضوء عقد معاهدة صلح مدّتها عشر سنوات تعهّد فيها الطرفان بالحفاظ على الأمن الاجتماعي، والسلام الشامل في كافة أرجاء الجزيرة العربية.

ولقد تعهّد الطرفان - في هذه المعاهدة - بأن لا يقوم أيّ واحد منهما بعمليات عسكرية وتحركات عدائية، لاضدّ الآخر، ولا ضدّ حليف الطرف الآخر، كما لا يحرك حليفه ضد حليف الطرف الآخر.

ولقد انقضت سنتان من تاريخ التوقيع على هذه المعاهدة، وعاش الجانبان في هذه الفترة في سلام ورفاه، وأمن وإستقرار إلى درجة أنّ المسلمين، استطاعوا - بعد مضيّ سنة واحدة من التوقيع على تلك المعاهدة، أن يزوروا - بكامل

(464)

حريتهم - بيت الله الحرام، في مكة المكرمة، ويؤدوا مناسك العمرة أمام عُيون الألاف من أعدائهم الوثنيين وهي العمرة التي سميت بعدنّذ بعمره القضاء كما عرفت.

* * *

ولقد بعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة كتيبة قوامها ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة ثلاثة فرسان من أركان جيشه، إلى تخوم الشام وحدودها، لمعاقبة وتأديب المتمردين والجنّة من ولاة الروم وعمّالهم فيها، وبالضبط أولئك الذين قتلوا دعاة الإسلام - الذين ابتعثهم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - للدعوة والتبليغ - من دون ذنب أو جرم.

والجيش الإسلامي وإن استطاع أن ينجو بنفسه من هذه المعركة، ويخرج منها بسلام، من دون أن تكلفه تلك المواجهة خسائر كبرى في الأرواح سوى ثلاثة هم قادة الجيش - على ما مر في قصة غزوة مؤتة - إلاّ أنه ما عاد بانتصار باهر كان يأمله جنود الإسلام المجاهدون، بل كانت العملية في هذا المعركة اشبه ما تكون بعملية الكرّ والفرّ.

وقد أوجب انتشار هذا النبأ جرأة سادة قريش وسراتها، فقد تصوروا أن المسلمين تضاءلت فيهم (أو انعدمت) روحُ الفروسية والاقدام، وروح الشجاعة والبسالة.

من هنا قرّرت قريش أن تخلّ بالأمن والهدوء اللذين استتبّا بعد إتفاقية الحديبية، فبادرت - أولاً - إلى توزيع الأسلحة على قبيلة «بني بكر» من كنانة، وإلى تحريضهم على أن يبيّتوا «خزاعة» المتحالفين مع المسلمين، فيغيروا عليهم ليلاً، ويقتلوا فريقاً، ويأسروا آخرين!!

بل لم تكتف قريشُ بهذا، إنما اشترك جماعة من رجالها في هذا العمل الغادر بصورة مباشرة، وبذلك نقضوا عهدهم الذي أعطوه في الحديبية، وأحلّوا عملياً بالأمن والسلام، وأحلّوا الفوضى والقتال، مكان الاستقرار والهدوء اللذين سادا الجزيرة خلال عامين في أعقاب عقد معاهدة الحديبية!

(465)

أجل، لقد حملت «بنوبكر» ومن ساعدهم من رجال قريش بتحريك من زعامة مكة على «خزاعة» ليلاً، وكان بعضهم نياماً، والبعض الآخر يتهدد ويعبد الله ليلاً، فقتلوا من خزاعة جماعة، وأسروا آخرين، وغادر - منهم - فريقٌ منازلهم تحت جناح الظلام، ولجأوا إلى مكة التي كانت للعرب يومئذ منطقة أمن لا يجيزون الاعتداء فيها على لا جئ إليها، ودخل الذين لجأوا إلى الحرم دار «بُديل بن ورقاء»⁽¹⁾ «وشكوا إليه ما حلَّ بهم على أيدي رجال قريش، وحلفائهم من بني كنانة ليلاً، من قتل وأسر وتشريد!!

كما وعدَّ المظلومون من خزاعة إبلاغ مظلمتهم إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فارسلوا رئيسهم: «عمرو بن سالم» فقدم المدينة على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فوقف عليه وهو - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جالسٌ في المسجد بين ظهراييني الناس، وأخبره بما لحق بحلفائه من خزاعة على أيدي بني بكر من كنانة بتحريك وتحريض من قريش، وأنشد أبياتاً يستغيث فيها برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إذ قال:

يا ربّ إني ناشدُ محمّداً * جلف أبينا وأبيه الاتلدا

فأنصُرْ هَدَاكَ اللهُ نصرأ أعتدا * وأدغ عبادَ اللهُ يأتوا مددا

فيهم رسولُ اللهُ قد تجردا * إن سيم خسفاً وجههُ ترَبدا

في فيلق كالبحر يجري مزبدا * إن قريشاً اخلفوك الموعدا

وَنَقَضُوا ميثاقَكَ المؤكّدا * وجعلوا لي في كداء رسدا

هم بيتونا بالوتير هُجدا * وقتلونا ركعاً وسُجداً

وقد كان «ابن سالم» يعيد البيت الأخير ويكرّره إثارة لمشاعر المسلمين، ويكرّر عبارة: فُئلنا وقد أسلمنا.

- [كان يُدِيل من شخصيات «خزاعة» من ذوي السن والشرف فيهم، وكان يعيش في مكة، وكان له من العمر آنذاك ٩٧ عاماً (أمالى الطوسي: ٢٣٩).

(466)

فانزعج رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من قريش لغيرها ونقضها للعهد، ووعد «خزاعة» بالنصرة، وقال:

«نُصِرْتُ يا عمرو بن سالم.»

وقد أفاض هذا الوعد القاطع والقوي حالة من الطمأنينة على قلب مبعوث خزاعة: «عمرو بن سالم» إذ قد تيقن أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - سينتقم لخزاعة ممن غدروها بها وبيتوها، وفتكوا بأبنائها، وبخاصة من قريش التي حرّضت بني بكر على خزاعة، واشعلت شرارة هذه الفتنة، وبالتالي كانت السبب الحقيقي وراء هذه الجريمة النكراء، ولكن ابن سالم ما كان يظن أن هذه المسألة ستنتهي بفتح مكة، وتقويض دعائم الحكومة الوثنية الجاهلية، والقضاء عليها إلى الأبد!!

ولم يلبث أن قدم المدينة على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - «بُدَيْل بن ورقاء» في جماعة من «خزاعة»، وأخبروه بما فعلته قريش وبنو بكر من قتل فتيان خزاعة، ثم عادوا قافلين إلى مكة.

قريشٌ تتوجس خيفة من ردّ النبي:

ندمت قريش بشدة على ما صنعت من تأليب بني بكر على خزاعة ومساعدتهم العملية في العدوان على الأخيرة، وأدركت للتوّ، بأنّ هذا الذي صنعتُهُ هو نقضٌ للمُدة والعهد الذي بينهم وبين رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، وأنّ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لن يدع هذه الجريمة النكراء تمرّ دون ردّ قاطع وحاسم، ولهذا بادرت إلى إيفاد زعيمها «أبي سفيان بن حرب بن أمية» إلى المدينة المنورة لتطبيب خاطر النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، وتسكين غضبه وتأكيد إحترام قريش لمعاهدة الصلح.

فتوجّه أبو سفيان إلى المدينة، والتقى في «عسفان» بدِيل بن ورقاء الخزاعي وهو عائدٌ من المدينة، فسأله: هل كان في المدينة؟ وهل أخبر محمّداً بما أصاب

(467)

خزاعة؟

فقال بُدَيْل: لا، ولكني سرتُ في بلاد كعب وخزاعة في قتيل كان بينهم، فأصلحتُ بينهم.

قال هذا، وواصل سيره باتجاه مكة.

ولكن أبوسفیان عمد - لمعرفة ما إذا كان بُدَيْل عائداً من المدينة أولاً - إلى أبعاد لإبل «بُدَيْل» وجماعته، ففتَّها فوجد فيها نوى من تمر المدينة فايقن بأن القوم كانوا في المدينة وأنهم جاؤوا محمّداً، وأخبروه بما جرى.

قدم أبوسفیان المدينة فدخل على ابنته «أم حبيبة» زوجة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فلما أراد أن يجلس على فراش رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - طوته أم حبيبة عنه، فقال: يا بِنْتِ ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟! قالت: بل هو فراش رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأنت رجلٌ مشرِكٌ نجسٌ، ولم أحبُّ أن تجلس على فراش رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

وفي امتاع الاسماع أن ابا سفيان لما دخل على ابنته أم حبيبة ذهب ليجلس على فراش رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فطوته دونه وقالت: أنت امرؤٌ نجس مشرِكٌ!

فقال: يا بنية! لقد أصابك بعدي شرٌ.

قالت: هداني الله للاسلام، وأنت يا أبتي سيد قريش وكبيرها، كيف يسقطُ عنك دخولك في الإسلام وانت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر!!

قال: يا عجباه! وهذا منك أيضاً! أأترك ما كان يعبد آبائي، وأتبع دين محمّد؟!

أجل هذا هو منطق ابنة رجل حاك مؤامرات عديدة وقاد جيوشاً ضد الإسلام طيلة عشرين عاماً تقريباً، وكانت تربطه بأُم حبيبة رابطة الأبوة والبنوة الوثيقة، ولكن حيث أن تلك المرأة ترعرعت في مهد السلام، ونشأت في مدرسة

التوحيد حصل لها مشاعر دينية قوية جداً حتّى أنها رجحت المشاعر الدينية على المشاعر العاطفية الشخصية مقاومة في هذا السبيل رغباتها الذاتية، وميولها الشخصية.

لقد أنزعج أبوسفيان من سلوك ابنته التي كان يتصور أنها ملجأه وملاذئه الوحيد في المدينة، فخرج من منزلها فوراً، حتى أتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فكلمه حول تجديد العهد، واستمراره، فلم يرد عليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كناية عن عدم اعتناؤه به.

فذهب إلى بعض أصحابه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يطلب منهم ان يشفعوا له عند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأن يُقنعوه بتجديد ميثاق الصلح، ولكن دون جدوى.

وأخيراً دخل على «علي بن أبي طالب» وعنده فاطمة الزهراء) عليها السلام (والحسن والحسين) وهما آنذاك غلامان يديان بين أيديهما فقال: يا علي، أنك أمس القوم فؤاً رَحماً، وإنني جنثٌ في حاجة فلا أرجعُ كما جنثٌ خائباً فاشفع لي إلى رسول الله.

فقال عليّ - عليه السّلام - : ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على أمر ما نستطيع أن نكلّمه فيه.

فالتفت إلى فاطمة - وهو يحاول إثارتها عاطفياً - فقال: يا ابنة محمّد هل لك أن تأمري بُنَيْك هذا فيجبر بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟

ولما كانت فاطمة) عليها السلام (تعرف بنوايا أبي سفيان الشريرة لذلك قالت: ذلك إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - - إنهما صبيان وليس مثلهما يجبر.⁽¹⁾

فقال أبو سفيان: يا أبا الحسن إنني أرى الأمور قد اشتدت عليّ، فانصحنى.

فقال عليّ - عليه السّلام - : ما أجد لك شيئاً أمثل من أن تقوم فتجبر بين

[1] امتاع الاسماع: ١ / ٣٥٩.

الناس (أي تعطي الأمان للمسلمين) ثم إلحق بأرضك.

فقال أبوسفيان: أوترى ذلك مُغنياً عني شيئاً؟ قال: لا والله، ما أظنّه، ولكني لا أجد لك غير هذا.

فقام أبوسفيان في المسجد، وكان يثق بصدق عليّ في نصيحته، فقال: أيها الناس؛ إنني قد أجرثُ بين الناس.

ثم ركب بغيره، وأطلق راجعاً إلى مكة، وأخبر سادة قريش بما صنع، وذكر نصيحة «عليّ» إياه، فقال: إنّ عليّاً نصحني أن أجبر الناس، فناديت بالجوار. فقالوا: فهل أجاز ذلك محمّد؟

قال: لا.

قالوا: ويلك والله ما زاد الرجلُ (ويقصدون عليّاً) على أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت، لأن النبي لم يجز أمانه، وما لا يجيزه الطرفان لا قيمة له في ميزان العهود.

ثم إنّ سادة قريش عقدوا مجلساً من فورهم للتشاور في ما يطفي غضب المسلمين، ويثني رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - عن عزمه (1).

جاسوسٌ يُكتشف!

إنّ تاريخ رسول الإسلام - صلّى الله عليه وآله وسلم - يكشف عن انه - صلّى الله عليه وآله وسلم - كان يسعى دائماً إلى أن يُقعّ العدو بالحق، ويجعله يستسلم لمنطق الدين، ولم يكن يهدف قط للانتقام من العدو وأبادته.

ففي الكثير من الغزوات والمعارك التي شارك فيها - صلّى الله عليه وآله وسلم - بنفسه أو سرايا التي بعثها كان الهدف الأساسي هو القضاء على مؤامرة العدو، وإفشالها، وتشتيت شمله، وتفريق اجتماعه قبل ان يقوم بعمل يضر بالإسلام

- [المغازي: ٢ / ٧٨٠ - ٧٩٤، السيرة النبوية: ٢ / ٣٨٩ - ٣٩٧، بحار الأنوار: ٢١ / ١٠٢].

(470)

والمسلمين، فقد كان النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - يعرف جيداً أنه لو أزيلت الموانع ورُفعت عن طريق الدعوة الإسلامية لترك منطق الدين الحنيف أثره في المجتمع الحرّ، وكان يعلم بأن الذين يعقدون الاجتماعات، ويقومون التحالفات العسكرية ليحولوا دون تقدم الإسلام وانتشاره، لو جُرّدوا من أسلحتهم، وأنهيت حالة الحرب بينهم وبين الإسلام وتركوا فكرة التغلب على الإسلام عن طريق القوة العسكرية، وسمعوا منطق الإسلام في جوّ بعيد عن صخب القتال، لا نجذبوا إلى عقيدة التوحيد بدافع الفطرة وهدايتها، ولاستجابوا لنداء الضمير، وصاروا من أنصار الإسلام ومؤيديه المخلصين الأوفياء.

ولهذا السبب كانت الجماعات والاقوام التي يتغلب عليهم جنود الإسلام ثم يتسنى لهم مناخ التفكير الحرّ في العقيدة والتعاليم الإسلامية السامية في جوّ بعيد عن الضوضاء والصخب، تنجذب إلى الإسلام وترغب فيه، وتعتنق بل تشمّر عن ساعد الجدّ لنشر العقيدة الإسلامية التوحيدية.

وقد تجلّت هذه الحقيقة في موضوعنا الراهن وهو فتح مكة بصورة أكمل وأقوى، فقد كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يدرك جيداً لو أنه فُتِحَت مكة، وجُزِد العدو من السلاح ووفرت أجواء حرة آمنة بعيدة عن الكبت والاضطهاد فإنه لم يلبث أن يصبح هذا الفريق المعادي والمناهض للإسلام بشدة، من أنصار هذا الدين، ومن المجاهدين الصادقين، الساعين في نشره.

ولهذا يجب التغلب على هذا العدو، وكسر شوكته، ولكن يجب عدم إفنائه وإبادته، بل ينبغي تجنب إراقة الدماء، وازهاق الأرواح ما أمكن.

ولأجل الوصول إلى هذه الغاية المقدسة (الغلبة على العدو من دون إراقة الدماء) استخدم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أسلوب مباغطة العدو.

فقبل أن يفكر العدو في الدفاع عن نفسه، ويجمع قواه، ويستعد للمواجهة، كان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يحاصر العدو في أرضه، ويجزده من سلاحه، ويجهض محاولته، ومؤمرته.

(471)

على أن مبدأ «مباغطة العدو» إنما يمكن الاستفادة منه إذا بقيت جميع الأسرار العسكرية للجانب المباغت طي الكتمان، وتمت الترتيبات اللازمة في سرية كاملة، بحيث لم يعرف بها العدو، بل لا يعرف العدو أساساً هل ينوي النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الهجوم عليه، أو لا، وعلى فرض أنه ينوي ذلك لا يخبر أحداً شيئاً عن موعد تحرك الجيش الإسلامي، ووجهته، إذ في غير هذه الصورة لا يمكن الاستفادة من مبدأ «مباغطة العدو».

ولقد أعلن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن التعبئة العامة لفتح مكة، وتحطيم أقوى قلعة من قلاع الوثنية وازالة حكومة قريش الظالمة التي كانت تمثّل أقوى مانع في طريق تقدم الدعوة الإسلامية وانتشارها وتوسعها، وقد طلب من الله سبحانه في دعائه أن يعي على عيون قريش وجواسيسهم فلا يعرفوا بشيء عن حركة المسلمين ومقصدهم إذ قال: «اللهم خذ العيون والأخبار من قريش حتى نباغتها في بلادها»⁽¹⁾.

أو قال: «اللهم خذ على قريش أبصارهم، فلا يروني إلا بغتة، ولا يسمعون بي إلا فجأة»⁽²⁾.

فاجتمع في مطلع شهر رمضان ناسٌ كثيرون من مختلف المناطق خارج المدينة، وداخلها.

ويذكر المؤرخون جدولاً تفصيلياً بالطوائف والقبائل التي شاركت في هذا الفتح العظيم، واليك ما ذكره:

المهاجرون: سبعمائة مع ثلاثمائة من الخيل وثلاثة ألوية.

الأنصار: أربعة آلاف مع سبعمائة من الخيل، وألوية كثيرة.

قبيلة مزينة: ألف مع مائة فرس، ومائة درع، ولواءان.

1- السيرة النبوية: ٢ / ٣٩٧.

2- المغازي: ٢ / ٧٩٦.

(472)

قبيلة جهينة: ثمانمائة مع خمسين فرساً، وأربعة ألوية.

قبيلة بني كعب: خمسمائة مع ثلاثة ألوية.

وكان بقية الجيش من قبائل غفار، واشجع، وبني سليم.⁽¹⁾

ويقول ابن هشام: كان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف من بني سليم سبع مائة، ويقول بعضهم: ألف، ومن بني

غفار اربع مائة، ومن أسلم أربع مائة، ومن مزينة ألف وثلاثمائة شخص، وسائرهم من قريش، والأنصار وحلفائهم وطوائف العرب

من تميم، وقيس وأسد.⁽²⁾

ولتحقيق مبدأ المباغته والكتمان وضعت جميع الطرق المؤدية إلى مكة تحت المراقبة الشديدة من قبل عناصر الحكومة الإسلامية

كما روقب بشدة تردد المارة والمسافرين بواسطة الحرس.⁽³⁾

وبينما كان جيش الإسلام يتهيأ للتحرك باتجاه مكة، نزل جبرئيل على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وأخبره بأن أحد

البيضاء من المسلمين أقدم على إرسال كتاب إلى قريش، يخبرهم فيه بتوجه النبي وأصحابه إلى مكة، وأنه أعطى ذلك الكتاب إلى

أمرأة تدعى «سارة» - وكانت مغنية من مغنيات مكة - لتوصله إلى مكة لقاء مال تقبضه.

ولقد كانت «سارة» - كما أسلفنا - مغنية بمكة، تغني لأهل مكة، وربما شاركت في مجالس العزاء في قريش أيضاً، وقد تعطل عملها

بعد معركة «بدر»، ومقتل جماعة من رجال قريش، ودخول الحزن في كل بيوت مكة، فلم تعد تستطيع أن تغني وتطرب، من

ناحية، ومن ناحية أخرى كان أبوسفیان قد أمر الناس بأن لا يبكوا، ولا يقيموا المآتم والمناحات على قتلى بدر حتى لا يذهب

1- المغازي: ٢ / ٨٠٠، امتاع الاسماع: ١ / ٣٦٤.

2- السيرة النبوية: ٤ / ٦٣.

3- بحار الأنوار: ٢١ / ١٣٠، امتاع الاسماع: ١ / ٣٦١.

غيضهم على «محمّد» - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه الذين قتلوا رجالاً من قريش في بدر. من هنا تركت «سارة» مكة بعد عامين وقدمت المدينة، وعندما عرف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمجيئها إلى المدينة سألتها: هل أسلمت؟ فقالت: لا، فقال لها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :ولما أتيت إلى المدينة؟ فقالت: إني مولاتكم، وقد أصابني جهْدٌ، وأتيتكم أتعرَضُ لمعروفكم.⁽¹⁾

فأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فكُسِيتَ وَ حُمِلَتِ وَ جُهِرَتِ.

ومع أن هذه المرأة قد شملها الإسلام بلطفه ورحمته ولكنها خانت النبي والمسلمين عندما تطوّعت للقيام بعملية جاسوسية ضد الإسلام والمسلمين بأخذ كتاب «حاطب بن بلتعة» واخفائه في شعر رأسها لتبلغه إلى قريش لقاء عشرة دراهم، مفسية بذلك سراً للمسلمين، تضيع - على أثره - جهود النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتفشل خطته!!

ولما عرف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بهذا الأمر إثر خبر من السماء بعث ثلاث رجال من فرسانه الاشواوس هم علي والمقداد والزبير، ليدركوا المرأة الخائنة، على طريق مكة ويأخذوا منها ذلك الكتاب الذي يحذر قريشاً ممّا أجمع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عليه.

فخرج الرجال الثلاثة في طلبها مجدين حتى أدركوها في منطقة تدعى «روضة الخاخ»⁽²⁾ فاستنزلوها، وفتشوا عن الكتاب في رحلها فلم يجدوا شيئاً، فسألوها عنه فانكرت فقال لها علي - عليه السلام - .

«إني أخلف بالله ما كذب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولا كُذِّبنا، ولتُخرجنّ لنا هذا الكتاب أو لنكشفنّك.»⁽³⁾

1-بحار الأنوار: ٢١ / ١٣٦، امتاع الاسماع: ١ / ٣٦٢ و ٣٦٣.

2-وقال ابن هشام: فادركوها بالخليقة (ج ٢ ص ٣٩٩).

3-السيرة النبوية: ٤ / ٤١، وذكر مؤلف الامتاع شخصين فقط هما الامام علي والزبير (ج ١ ص ٣٦٢).

ولما رأت تلك المرأة هذا الجِدَّ من علي - عليه السلام - وكانت تعرف أن علياً لا يتركها حتى ينفذ أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قالت: إعرض، فأعرض علي، فحلّت ضفائر شعرها فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليه، فأتى به رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فانزعج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لفعل «حاطب» وكان من المسلمين السابقين، فدعاه من فوره وقال له عتاباً ومستفهماً: يا حاطب ما حملك على هذا؟

فحلف حاطب بالله ورسوله أنه لم يقصد شراً، وقال: يا رسول الله، أما والله إني لمؤمنٌ بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت، ولكي كنت امرأةً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولدٌ وأهلٌ فصانعتهم عليه!!

ويستفاد من اعتذار حاطب هذا أن أسباط قريش كانوا يضغطون على من تخلف في مكة من أقارب المهاجرين وعوائلهم، ويؤذونهم، ولا يتركون أذاهم إلا إذا حصلوا منهم على أسرار المسلمين بالمدينة.

وهذا الاعتذار وإن كان غير وجيه، لأن ذلك لا يبرر إفشاء أسرار المسلمين لأعدائهم الحاقدين، غير أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - اصفح عنه، وخلق سبيله لمصالح معينة منها: سابقة «حاطب» في الإسلام.

إلا أن «عمر بن الخطاب» طلب من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يضرب عنقه، فقال له النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :
وما يُدريك يا غمر لعلَّ الله اطلعَ يومَ بدرٍ على أصحابِ بدرٍ فقال: أعملوا ما شئتمُ فقد غفرتُ لكم.⁽¹⁾

ولكي لا يتكرر مثل هذا العمل الخطر والاثم أنزل الله سبحانه قرآناً بهذا الشأن في عدة آيات إذ يقول:

[1- امتاع الاسماع: ١ / ٣٦٣ وغيره.

(475)

بسم الله الرحمن الرحيم

يا ايها الذين ءامنوا لا تتخذوا عدوي و عدوكم اولياء تلقون اليهم بالموءة و قد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول و
ياكم ان تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجهم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون اليهم بالموءة و انا اعلم بما اخفيتم و ما
اعلنتم و من يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل * ان يتفقوكم يكونوا لكم اعداء و يبسطوا اليكم ايديهم و انسنتهم بالسوء و ودوا
لو تكفروا * لن تنفعكم ارحامكم و لا اولادكم يوم القيمة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير * قد كانت لكم اسوة حسنة في
ابراهيم و الذين معه اذ قالوا لقومهم انا يراءوا منكم و مما تعبدون من دون الله كفرننا بكم و بدا بيننا و بينكم العدة و البغضاء
ابداً حتى تؤمنوا بالله وحده الا قول ابراهيم لآبيه لاسْتَغْفِرَنَّ لَكَ و ما املك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا و اليك انبنا و
اليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنَةً للذين كفروا و اغفر لنا ربنا انك انت العزيز الحكيم * لقد كان لكم فيهم اسوة حسنة لمن كان
يرجو الله و اليوم الآخر و من يقول فان الله هو الغني الحميد * عسى الله ان يجعل بينكم و بين الذين عاديتم منهم موءة و الله
قدير و الله غفور رحيم * لا ينهكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين و لم يخرجوكم من دياركم ان تبرؤهم و تقسطوا اليهم ان

اللَّهُ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلوَكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجوَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَ ظَهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمُ وَ

مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. (1)

النبي يتحرك باتجاه مكة:

أخذاً بمبدأ «المباغثة» كتم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - موعد الحركة، ووجهتها، فلم يكن أحدٌ يعرف أين يريد رسول

الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على وجه التحديد. (2)

[1] الممتحنة: ١ - ٦، راجع السيرة النبوية: ٢ / ٣٩٩، مجمع البيان: ٩ / ٢٦٩ و ٢٧٠.
[2] المغازي: ٢ / ٨٠٢، الامتاع: ١ / ٣٦٢، قال: وأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الناس بالجهاز وطوى عنهم الوجه الذي يريد، فظانٌ يظنُّ أنه يريد الشام وظانٌ يظنُّ ثقيفاً وظانٌ يظنُّ هوازن.

(476)

وفي اليوم العاشر من شهر رمضان من السنة الثامنة أصدر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أوامره بالخروج، وكان قد أصدر أوامره للمسلمين كافة من قبل بالاستعداد والتهيؤ للخروج.

ثم أنه استخلف على المدينة رجلاً من بني غفار يدعى «أبارهم» ثم استعرض جيشه خارج المدينة على عادته.

ثم لما كان - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمكان يدعى «الكديد» طلب شيئاً من الماء امام المسلمين، وافطر به في تلك الساعة من النهار، وأمر الجند بان يفطروا اقتداء به هم أيضاً.

فافطر اكثر المسلمين، وأمسك البعض ولم يفطر ظناً بأن الجهاد في حالة الصوم أفضل، واكبر أجراً، ولم يعرف هؤلاء السدج غير المفطرين، بان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الذي أمر بالافطار في شهر رمضان في تلك الحال، هونفسه الذي أمر بالصوم أيضاً.

فاذا كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قائد حق ودليل سعادة فانه - في كلتا الحالتين - يريد سعادة الناس، وينشد خيرهم، فلا معنى إذن لأن يطاع في أمره، ولا يطاع في نهيه.

ولهذا غضب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لامتناع ثلة من المسلمين عن الإفطار كما أمر وقال عنهم: «أولئك العصاة. (1)!!»

وأمرهم بأن يفطروا قاتلاً: «إنكم مُصْبِحُوا عَدُوِّكُمْ، وَالفَطْرُ أَقْوَى لَكُمْ.»

إنّ مثل هذا التقدّم على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتجاهل أمره ما هو في الحقيقة إلا نوع من الانحراف عن الحق، وهو يكشف عن ضعف في إيمان الجماعة العاصية، المتمردة عن أمر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ولهذا نزل فيه قرآنٌ يلومهم، ويؤيخهم على عصيانهم إذ قال سبحانه:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (2)

1- وسائل الشيعة: ٧ / ١٢٤، السيرة الحلبية: ٣ / ٩٠، المغازي: ٢ / ٨٠٢.
2- الحجرات: ١.

(477)

هذا وقد كان «العباس بن عبدالمطلب» من المسلمين الذين بقوا، في مكة بأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليتجسس له الأخبار، ويطلعه على نوايا قريش، وخططهم أولاً بأول.

وقد تظاهر العباس - بعد فتح خيبر - بإسلامه - ولكنه بقي محافظاً على علاقاته بسادة قريش وزعمائها، فقرر أخيراً أن يكون آخر من يهاجر من بيوت المسلمين، فغادر مكة متوجهاً إلى المدينة، وصادف خروجه مسير رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى مكة، فالتقى ببعض الطريق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ولقد كان بقاء العباس بن عبدالمطلب في مكة بعد هجرة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مفيداً للجانبين: (قريش والمسلمين) فلو لم يكن العباس، ونشاطاته السياسية الذكيّة، لما تيسر فتح مكة من دون مقاومة قريش، ومن دون إراقة دماء وإزهاق نفوس.

من هنا لا يبعد أن يكون خروج العباس من مكة في تلك اللحظات والظروف الخطيرة قد كان هو الآخر بأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عليه وآله وسلم - لكي يستطيع القيام بدوره الإصلاحية، الذي سنأتي على ذكره قريباً.

العفو عند المقدرة:

لقد كانت سوابق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المشرفة، وإخلاقه الحميدة، وصدقته وأمانته، طوال حياته من الأمور الواضحة المعلومة عند أقربائه، وأبناء عشيرته.

فقد كان الجميع يعلم بأن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يرتكب طيلة حياته الشريفة إثماً، ولم يفكر في ذنب، ولم ينو الاعتداء على أحد، ولم يُقلّ بلسانه سوءاً ولا قبيحاً، ولا خان في أمانة، ولا افشى سراً ولا تخلف عن فضيلة.

ولهذا استجاب لدعوته - في الايام الاولى من دعوته العامة - الاكثرية الساحقة من قبيلته (بني هاشم)، والتفوا حوله، وتحملوا الدفاع عنه، ودعم

(478)

موافقه.

ولقد اشار أحد المستشرقين المنصفين إلى هذه الحقيقة، واعتبرها دليلاً على طهارة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وصدقته ونزاهته، فهو يقول: مهما كان المرء متكئاً متسترأ على اعماله وأفكاره فانه لا يستطيع بحال أن يخفي تفاصيل حياته عن ذويه واقربائه، ولو كان لمحمد حالات نفسية أو أفعال سيئة لما خفيت على أقربائه، ولما كانوا ينقادون إليه بمثل هذه السرعة. (1)

نعم يُستثنى من بني هاشم عدة أشخاص أحجموا عن الايمان برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والاستجابة لدعوته، ويمكن الإشارة - في هذا المجال - بعد أبي لهب المعروف بل والمصرح بعداوته في القرآن - إلى «أبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب» و «عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة» اللذين خاصما رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وعارضوا دعوته بشدة، ولم يكتفيا بعدم الايمان برسالته، بل منعا من انتشار الحق، وأذيا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - اشد الأذى وألبا عليه اكثر من أي شخص آخر.

ولقد كان أبوسفيان هذا ابن عم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - و أخاه من الرضاعة، وكان يآلف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قبل البعثة، ولكنه اختلف مع النبي بعد ابتعاثه بالرسالة، وبنى على مخالفته ومعاداته. (2)

وأما عبدالله بن أبي أمية فهو أخو أم سلمة ابنة عاتكة عمه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وابنة عبدالمطلب.

ولقد حدى انتشار الإسلام في كل أنحاء الجزيرة العربية بهذين الرجلين إلى أن يخرجوا من مكة ويلتحقا بالمسلمين.

فقد خرجا قبيل الفتح من مكة، فلقيا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه في أثناء الطريق، وعلى وجه التحديد في نقطة تدعى بثنية العقاب،

1-الأبطال: لكارليل الانجليزي.
2-المغازي: ٢ / ٨٠٦ و ٨٠٧.

(479)

والنبي قاصد مكة، فاستأذنا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليدخلا عليه، وأصرّا على ذلك، فابى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يأذن لهما.

وقد وسطا أم سلمة، وطلبنا منها بلهجة عاطفية أن تشفع لهما عند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حتى يرضى عنهما، فكلّمته، فيهما، ولكن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أبى وقال:

«لا حاجة لي بهما، أما ابن عمّك عِرضي وأما ابن عمّتي وصهرتي فهو الذي قال بمكة ما قال.⁽¹⁾»

ولما كان «عليّ» - عليه السّلام - أعرّف الناس بنفسيّة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأخلاقه، وبطريقة استعطافه، فقد كلّمه أبوسفیان في الأمر، فعلمه علي بن أبي طالب - عليه السّلام - أن يأتي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من قبّل وجهه فيقول:

(قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطين.⁽²⁾)

فإن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سيجيبه بما قاله يوسف لاختوته إذ قال لهم:

(قال لا تتربّب عليكم اليوم يَغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين.⁽³⁾)

لأنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لا يرضى بأن يتفوق عليه أحدٌ في حسن القول.

ففعل أبوسفیان هذا ما أشار عليه الامام علي - عليه السّلام - ودخل من الطريق الذي بيّنه له، فعفا عنه رسول الله كما فعل يوسف باختوته، فانشد أبوسفیان قصيدة أراد بها أن يُكفّر عما سبق منه، قال فيها:

1- فهو ممن اقترح على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمكة أموراً غير معقولة، وقد جاء ذكر هذه المقترحات في الآيات: ٩٠ - ٩٣ من سورة الاسراء راجع مجمع البيان: ٦ / ٤٣٩ وأسد الغابة: ٥ / ٢١٣ و ٢١٤ .
2- يوسف: ٩١ .
3- يوسف: ٩٢ .

لعمرك إني يوم أحمل راية * لِتُعَلِّبَ خَيْلُ اللات خَيْلَ مُحَمَّد

فكالمُدْلِج الحيران أظلم ليّله * فهذا أواني حين أهدى فأهتدي⁽¹⁾

ويكتب «ابن هشام» في سيرته قائلا: قال أبوسفیان ومعه ابنه، لما أعرض رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عنه وأبى أن

يأذن له: والله ليقبّلني، أو لأخذت بيد ابني هذا فلاذهيّن في الارض حتى أهلك عطشاً وجوعاً وأنت أحلم الناس مع رحمي بك.⁽²⁾

وقد سبق أن قالت أم سلمة لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقد كَلَّمته في أبي سفيان: بأبي أنت و أمي يا رسول الله أَلَمْ تَقُلْ:

أَنَّ الإسلامَ يَجِبُ ما كان قبله؟ فرَقَّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لهما، وأذن لهما، فدخلا، وقبل اسلامهما. (3)

تكتيك راع لجيش الإسلام:

تقع «مَرَّ الظهران» على بُعد عدة كيلومترات من مكة المكرمة، وقد قاد رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جيشه العظيم (وقوامه عشرة آلاف) حتَّى مشارف مكة بمهارة بالغة.

ومع أنَّ عيون قريش وجواسيسها كانت تتجسَّس الأخبار وكان هناك من يعمل لصالح قريش، ولكنَّهم مع ذلك لم يستطيعوا أن يعرفوا شيئاً عن نوايا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهدفه.

ولما وصل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى مشارف مكة عمد - لإرعاب أهل مكة حتَّى يتركوا مقاومة المسلمين عند دخول مكة وفتحها، ويتسنى لهم تحطيمُ صرح الوثنية من دون إراقة الدماء - إلى إصدار أمر لجنوده باشعال النيران

1- [الاصابة: ٤ / ٩٠، اسد الغابة: ٥ / ٢١٣ و ٢١٤.

2- السيرة النبوية: ٢ / ٤٠٢.

3- بحار الأنوار: ٢١ / ١١٤ و ١١٥.

فوق الجبال والتلال، وللمزيد من تخويف سكان مكة والإظهار بمظهر القوة أمرُ بأن يُشعلَ كلُّ واحد من الجنود النار وحده، في شريط طويل على الأرض.

كانت قريش وحلفاؤها يغطون في نوم عميق آنذاك من جهة، بينما كانت النيران من جهة أخرى قد غطت كلَّ المرتفعات المشرفة على مكة فلم تستيقظ إلا على منظر أروع قلوبهم، ولفت أنظارهم.

وفي هذه الاثناء كان بعض سادة قريش ك: «أبي سفيان بن حرب» و «حكيم بن حزام» وغيرهما قد خرجاً من مكة يتجسسون الأخبار.

ففكَّر «العباس بن عبدالمطلب» الذي لازم رسولَ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من منطقة الجحفة، فكر في نفسه بأنه إذا ما اتفق أن واجه جنودُ الإسلام مقاومة من قريش عند دخول مكة لادى ذلك إلى أن يُقتل جمعٌ كبيرٌ من قريش، ولهذا فان من الأفضل أن يقوم بدور عمليِّ لصالح الطرفين، ويقنع قريشاً بالتسليم، وعدم المقاومة.

فركب بغلة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - البيضاء وتوجه صوب مكة ليخبر قريشاً بمحاصرة مكة من قِبَل جنود الإسلام ويخبرهم بكثرة عددهم، وبمبلغ شجاعتهم وإصرارهم على تحقيق أهداف النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويقنعهم بأنه لا مناص من التسليم للأمر الواقع.

فبينما هو كذلك إذ سمع صوت أبي سفيان وبُديل بن ورقاء يتحدثان في جوف الليل فيقول أبو سفيان: ما رأيثُ كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً، فيقول بديل: هذه خزاعة حمشتها الحرب.

فيقول أبو سفيان: خزاعة أذلُّ وأقلُّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

فصاح العباسُ بأبي سفيان وقال: يا أبا حنظلة.

فقال أبو سفيان: لبيك، أبو الفضل مالك؟

فقال العباس: هذا رسولُ الله في عشرة آلاف من المسلمين.

فارتعد أبوسفيان لما سمعه من العباس حول عظمة القوة الإسلامية، فقال وهو

(482)

يرتجف، وتصطكُ اسنانه من الفرع، فما الحيلة فداك أبي وأمي؟

فقال العباس: إركب في عَجْز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فاستأمنهُ لك.

فركب أبوسفيان خلف العباس، ورجع صاحبه (حكيم وبديل) إلى مكة.

ولقد كان مسعى العباس - كما ترى - في مصلحة الإسلام كله، فقد أربع شيطان قريش، وزعيمها وعقلها المدبّر أبا سفيان، وكان موثقاً في هذه الخطوة جداً بحيث لم يعد يفكر أبو سفيان إلا في التسليم، وإلقاء السلاح والكف عن المقاومة، بل ومَنَعَه العباسُ من العودة إلى مكة، في نفس الليلة (ليلة فتح مكة) وأخذه معه إلى معسكر المسلمين بُغية تقييده، ومنعه من العودة إلى مكة، إذ كان من المحتمل جداً أن يقع فريسة أفكار المتطرفين في الزعامة المكية فيدبّرون معاً خطة لمواجهة جيوش الإسلام فيقع - حينئذ - ما لا يُحمد عقباه، من سفك الدماء، وذهاب الأنفس والأرواح.

العباس يصطحب أبا سفيان إلى خيمة النبي:

دخل العباس - وهو على بغلة بيضاء وقد اردف خلفه أباسفيان - في معسكر المسلمين، وهو يقصد خيمة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من خلال نيران المسلمين التي أمر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بإشعالها، وكان كلما مرَّ بنار من نيرانهم قالوا: عمُّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فلا يمنعون من مروره، حتَّى إذا لقيا عمر بن الخطاب في الاثناء ورأى عمر أباسفيان خلف العباس على عجز البغلة همَّ بقتله في المكان، ولكن عمَّ النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أجار أباسفيان في الحال، ومنع بذلك عمر من إلحاق الأذى به، وهو في جواره.

وأخيراً وصل العباس برفقة أبي سفيان إلى خيمة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فترجلاً، فاستأذن العباس رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - للدخول مع أبي سفيان عليه فأذن لهما، فوعدت مشادةً كلاميةً شديدةً بين العباس وعمر بين

(483)

يدى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حول أبي سفيان وكان عمر يقول: أبوسفيان عدوُّ الله فلا بد أن يُقتل، ولكن العباس كان يقول: يا رسول الله إنِّي قد أجزته، فقطع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - دابر هذه المناقشة عند ما قال:

«إذهب يا عَبَّاس إلى رَحلك، فاذا أصبحتِ فَأْتيني به.»

فذهب العباسُ بأبي سفيان إلى رحله، فبات عنده ليلته كما أمر، فلما أصبح غدى به إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

أبوسفيان بين يدي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

لما مثل أبوسفيان عند الصباح بين يدي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في خيمته قال له النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : -

«ويحك يا أبا سفيان؛ ألم يأن لك أن تعلم أنه لا اله إلا الله؟»

فقال أبوسفيان: بأبي أنت وأمي ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك والله لقد ظننتُ أن لو كان مع الله آله غيره، لقد أغنى عني شيئاً بعد .

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟»

قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، أما والله فإنَّ في النفس منها حتَّى الآن شيئاً!!

فغضب العباس من شك أبي سفيان، ولجأته وعناده فقال له: ويحك، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ عُنُقُكَ.

فشهد أبو سفيان شهادة الحق، فاسلم ودخل في عداد المسلمين.

أن إسلام أبي سفيان الذي حصل في جَوْ من الرعب والتهديد وإن لم يكن بالإسلام الذي كان يريد رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويطلبه دينه الحنيف، ولكن مصالح معينة كانت توجب أن يدخل أبو سفيان في عداد المسلمين كيفما كان ليرتفع بذلك أكبر سدّ، وينزاح أكبر مانع من طريق الدعوة

(484)

الإسلامية، لأنّ رجالاً مثل «أبي سفيان» و «أبي جهل» و «عكرمة» و «صفوان بن أمية» وغيرهم، كانوا قد أوجدوا جَوْاً من الرعب والخوف في مكة استمرّ أعواماً عديدة، فلم يكن يجرؤ أحدٌ من المكيين في مثل هذا الجوّ المشحون بالخوف أن يفكر في الإسلام، أو يظهر رغبته في إعتناقه، والانضواء تحت لوائه.

فإذا لم يكن إسلام أبي سفيان الظاهري والسطحي مفيداً من حيث الواقع، ولكنه كان مفيداً جداً لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وللذين كانوا تحت سيطرة أبي سفيان ونفوذ زعامته من جماهير مكة، وبالتالي لمن كانت له علاقات قُربى معه.

ومع ذلك لم يسمح رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بإخلاء سبيل أبي سفيان لأنه لم يكن آمناً - وحتى مع إظهاره الإسلام - من جانبه قبل أن يتم فتح مكة، ولهذا أمر - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عمّه العباس بأن يحبسه بمضيق الوادي عند ممرّ الجنود ليُبصر عظمة القوات الإسلامية وكثافتها قاتلاً:

«يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خَطَمِ الجبل (أي انفه) حتّى تمرّ به جنودُ الله فيراها. »

ثم إن العباس. قال لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :يا رسول الله إنّ أبا سفيان هذا رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً.

واستجاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لهذا الطلب، ومع أن أبا سفيان كان قد عادى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وآب ضده طيلة عشرين عاماً، وأثار في وجه دعوته الحروب والفتن الكثيرة، ووجّه بذلك ضربات كثيرة إلى الإسلام والمسلمين، فمنحه - رغم ذلك ولمصالح خاصة - مقاماً، وقال كلمته التاريخية في حقه... تلك الكلمة التي تكشف عن عظمة أخلاق رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وسمو روحه، وعمق حكمته إذ قال:

«مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفِيَانَ فَهُوَ آمِنٌ.

وَمَنْ أَعْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ.

وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ.

وَمَنْ طَرَحَ السَّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ.⁽¹⁾»

* * *

مكة تستسلم من دون إراقة دماء:

تقدّم جيش التوحيد العظيم نحو مكة، حتّى أصبح على مقربة منها.

وقد كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عازماً على أن يفتح مكة من دون إراقة دماء، وإزهاق أرواح، وأن يسلم العدو من دون أية شروط.

وكان من العوامل التي ساعدت على تحقيق هذه الغاية - مضافاً إلى عامل التكتّم والتستّر ومبدأ المباغته - أن العباس عمّ النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - توجه إلى مكة كداعية صلح ووسيط سلام بن قريش والنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فكان أن أتى بأبي سفيان إلى معسكر الإسلام كما أسلفنا، وبذلك توصل إلى تحييد أبي سفيان، ولم يكن في مقدور سادة قريش أن يتخذوا قراراً حاسماً من دون أبي سفيان.

وعندما خضع أبو سفيان أمام عظمة رسول الإسلام الفريدة وأظهر الإسلام رأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يستفيد منه لإرهاب المشركين أكثر قدر ممكن، فأمر العباس بأن يحبسه عند مضيق الجبل ليرى بأمر عينيه حشود المجاهدين من المسلمين - كما أسلفنا - في وضوح النهار مع كامل عدّتهم واسلحتهم، ونظامهم وقوتهم، فيخبر قريشاً بذلك، فيزيدهم خوفاً ورهبة، فينصرفوا عن فكرة مقاومة الجيش الإسلامي عند دخوله إلى مكة.

وفعل العباس ما أمره الرسول الكريم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فحبس أبا سفيان

[1]- السيرة النبوية: ٢ / ٤٠٠ و ٤٠٤، مجمع البيان: ١٠ / ٥٥٤ - ٥٥٦، المغازي: ٢ / ٨١٦ - ٨١٨، شرح نهج البلاغة الحديدي: ١٧ / ٢٦٨.

حيث أمر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فمرّت القبائل مع راياتها أمام أبي سفيان، وكانت بعض قطعات الجيش الاسلامي على النحو التالي:

1- كتيبة قوامها ألف مقاتل من بني سليم بقيادة خالد بن الوليد، وفيها لواءان، أحدهما مع «عباس بن مرداس»، والآخر مع «المقداد»

2- فوجان قوامهما خمسمائة مقاتل بقيادة «الزبير بن العوام» الذي كان يحمل معه لواءاً أسود، وكان أكثر أفراد هذا الفوج من المهاجرين.

3- فوج قوامه ثلاثمائة مقاتل من بني غفار بقيادة «أبي ذر الغفاري» وكان لوائه معه.

4- فوج قوامه اربعمائة مقاتل من بني سليم بقيادة «يزيد بن الخصيب» ومعه لوائه.

5- فوجان قوامهما خمسمائة مقاتل من بني كعب بقيادة «بشر بن سفيان» ورأيته معه.

6- كتيبة قوامها ألف مقاتل من بني مزينة، فيها ثلاثة ألوية، لواء مع النعمان بن مقرن، ولواء مع بلال بن الحارث، ولواء مع عبدالله بن عمر.

7- كتيبة قوامها ثمانمائة مقاتل من جهينة، فيها أربعة ألوية، لواء مع «معبد بن خالد» و «سويد بن صخرة» و «رافع بن مكيث» و «عبدالله بن بدر» .

8- فوجان قوامهما مائتا مقاتل من بني كنانة، وبني ليث وضمرة، بقيادة «أبي واقد الليثي»، وكان لوائهما معه.

9- فوج قوامه ثلاثمائة مقاتل من بني أشجع، وفيها لواءان أحدهما بيد «معقل بن سنان» والآخر مع «نعيم بن مسعود»⁽¹⁾.

[1- لقد سجّل المؤرخ الاسلامي الشهير «الواقدي» عدد أفراد هذه القطعات في تاريخه «المغازي»: ٣ / ٨٠٠ و ٨٠١ و ٨١٩ بشكل دقيق، وقد نقلها عنه ابن أبي الحديد في ج ١٧، ص ٢٧٠ و ٢٧١.

وعندما كانت هذه القبائل والقطعات تمرّ، سأل أبو سفيان العباس عن إسمها، وخصوبياتها، فكان العباس يوضح له كل ذلك.

والذي كان يزيد هذا الجيش المنظم جلالاً وعظمة أن قادة هذه الافواج والكتائب كانوا إذا مروا على العباس وأبي سفيان كبروا ثلاثاً بأعلى أصواتهم وبشكل منظم، وكبر من ورائهم جنودهم بصوت واحد ومنظم أيضاً كأكبر شعار اسلامي.

ولقد كان لهذه التكبيرات الهادرة التي كانت تدوي في وديان مكة، وترددها الجبال والوديان، أكبر الاثر في نفوس الاصدقاء والاعداء، فكانت تزيد بهيبتها وجلالها من محبة الاصدقاء للنظام الاسلامي العظيم، بينما ترهب أعداء الله، وتغرقهم في خوف ورعب شديدين.

هذا وكان أبو سفيان ينتظر بفارغ الصبر عبور الكتيبة التي فيها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولهذا كان يسأل العباس كلما مرت قطعة من قطعات الجيش الاسلامي: افيها محمّد؟ أو ما مضى بعد محمّد؟!

فيقول العباس: لم يمض بعد، لو رأيت الكتيبة التي فيها محمّد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رأيت الحديد و الخيل والرجال وما ليس لأحد به طاقة.

وبينما هما كذلك إذ طلعت كتيبة عظيمة قوامها خمسة آلاف مقاتل، فيها ألفا دارع فقط، فيها الرايات والألوية الكثيرة، فيها المهاجرون والانصار، مع كل بطن وقبيلة من قبائل الأنصار راية ولواء، وكانت تسمى كتيبة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الخضراء لأن أفرادها كانوا في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق، وقد ركبوا الخيول العربية الاصيلة، والخمر من الإبل، ورسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في وسطها راكب على ناقته القصواء، وقد أحرق به كبار الشخصيات من

(488)

المهاجرين والانصار، والنبى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يحدّثهم.

فارعبت عظمة هذه الكتيبة أبا سفيان، بشدة، حتّى أنه قال للعباس من دون إختيار: ما لأحد بهؤلاء قبيل ولا طاقة يا أبا الفضل! والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً.

فقال له العباس - بنبرة مويخة - : ويحك يا أبا سفيان ليس بملك إنّها النبوة. فليس هذه العظمة والجلال من أثر الملك المادي الدنيوي إنما هو فعل الرسالة الالهية، إنه جلال النبوة، وأنه بالتالي من فضل الله عزّوجلّ الذي أدخل الاسلام في قلوب هذه الجماهير المؤمنة، وهذه الجموع المجاهدة في سبيل الله.

أبو سفيان يرجع إلى مكة:

إلى هنا قام العباس بدوره على أفضل صورة، فقد أربأ أبو سفيان من قوة الإسلام العسكرية الكبرى، ولهذا رأى النبي - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - أن يخلى سبيله ليذهب إلى مكة قبل دخول جنود الإسلام فيها، فيخبر أهلها بعظمة وقوة الجيش الإسلامي القادم اليهم، ويحذّرهم من مغبة المقاومة والمواجهة، ويدلهم على طريق الخلاص والنجاة، وهو التسليم للأمر الواقع، والقاء السلاح، والاستسلام من دون قتال ومقاومة، ومن دون قيد وشرط، لأن بمجرد تخويف أهل مكة من دون إرشادهم إلى طريق الخلاص ما كان ليحقق هدف النبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - ، وهو الفتح من دون دماء.

فدخل أبو سفيان مكة، وقد بات الناس ليلتهم في رعب شديد، وترقّب رهيب حتى أصبحوا، ولم يكن بإمكانهم أن يقرّروا شيئاً من دونهم، فلما رأوه قادمًا أحاطوا به، فاخذ يشير إلى ناحية المدينة، وقد اصفرّ وجهه، وانهارت قواه وصرخ بأعلى صوته، يا معشر قريش، هذا محمّد قد جاءكم فيما لا قبيل لكم به، أو قال: هذا محمّد في عشرة آلاف فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن.

(489)

على أنّ رسول الله - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - لم يكتف بهذا بل أضاف إلى الأماكن الثلاثة التي أعلنها للجوء للناس إليها حتى يأمّنوا من القتل، موضعاً آخر، حيث عقد لابي رويحة «عبدالله بن عبدالرحمان الخثعمي» لواء وأمره أن ينادي:
«من دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن.⁽¹⁾»

وقد تسبّب أبو سفيان ببدائه في إضعاف المعنويات عند أهل مكة بشدة حتى أنهم أنصرفوا عن فكرة المقاومة، لو كانت، وأثمرت جهود العباس ومساعيه في الليلة الفاتنة، وأصبح فتح مكة من دون مقاومة في نظر أهل الرأي وعند من ينظر إلى واقع الأمور، أمراً مسلماً وقطعياً.

ففرح الناس، وتفردوا، ولجأ بعضهم إلى دورهم، والبعض الآخر إلى المسجد، واسدى أعدى أعداء الرسالة ونعني أبا سفيان، ونتيجة لتدبير رسول الله الحكيم، أكبر خدمة لجنود الإسلام حيث مهّد لهم - بما أوجده في نفوس المكين وقلوبهم من هزيمة نفسية - طريق الفتح العظيم بسلام، ومن دون مشاكل تُذكر، اللهم إلا «هند» زوجة أبي سفيان التي كانت تحرّض الناس على المقاومة، وراحت تشتم زوجها وتسبّه باقذع الشتائم والسباب، وتتهمه بالجبن والذل.

بيد أنّ الأمر كان قد قُدر، ولم تعد تنفع أية محاولة معاكسة، ولم تكن تلك الكلمات والأعمال المعارضة سوى هباء في شبك!

ونظير هذا الذي فعلته هند، ما فعله وقام به بعض الزعماء المتطرفين مثل «صفوان بن أمية» و «عكرمة بن أبي جهل» و «سهيل بن عمرو» ممثّل قريش في صلح الحديبية، الذين تحالفوا فيما بينهم على أن يعملوا على منع قوات الإسلام من دخول مكة، وانخدع

بهم فريق من البسطاء والمغفلين، فشهروا السلاح في وجه أول قطعة من قطعات الجيش الإسلامي، وسدوا بذلك الطريق عليها في محاولة يائسة لتحقيق مآربهم

[1] امتناع الاسماع: ١ / ٣٧٩.

(490)

القوات الإسلامية تدخل مكة:

وقبل ان تدخل قوات الإسلام مكة كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد دعا جميع قادة وأمرأه جيشه وقال لهم بانه يريد ان يفتح مكة من دون اإراقة أية دماء ولهذا امرهم ان لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، إلا أنه أمر بقتل عشرة وان وجدوا تحت أستار الكعبة وهم: «عكرمة بن أبي جهل» و «هبار بن الاسود» و «عبدالله بن أبي سرح» و «مقيس بن حبابه الكندي» و «الحويرث بن نقيذ» و «عبدالله بن خطل» و «صفوان بن أمية» و «وحشي بن حرب» قاتل حمزة. و «عبدالله بن الزبعرى» و «حارث بن طلالة» واربع نسوة وكان كل واحد من هؤلاء قد قتل أحداً أو ارتكب جنابة أو شارك في مؤامرة أو حرب ضد الإسلام والمسلمين⁽¹⁾.

وقد بلغ الأمر والقادة هذا الأمر إلى جنودهم كافة، ومع أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يعرف مسبقاً بمعنويات المكيبين المنهارة، وعدم قدرتهم على المقاومة، إلا أنه - مع ذلك - لم يترك جانب الاحتياط والحذر الذي يفرضه العمل العسكري، عند دخول مكة، حيث رسم لدخولها خطة دقيقة.

قد وصل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بجيشه كله إلى «ذي طوى» (وهو موضع مرتفع كانت تُرى منه بيوت مكة و منازلها) وهو في كتيبة قوامها خمسة آلاف، فلما رأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - منازل مكة اغرورقت عيناه بدموع الشوق والحنين، فانحنى تواضعاً لله تعالى وشكراً، حتى رأى ما رأى من فتح الله، وكثرة المسلمين حتى مسّت لحيته الشريفة واسطة الرحل أو يقرب منه.

[1] السيرة النبوية: ٢ / ٤١٠، تاريخ الخميس: ٢ / ٩٠ - ٩٤ وقد ذكر صاحب تاريخ الخميس تفاصيل ما ارتكبه هذه الجماعة المهدورة دماؤها وما آل إليه أمرهم بعد فتح مكة.

(491)

ومراعاة لجانب الحذر والاحتياط فرّق - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جنوده فأمر البعض بأن يدخلوا مكة من أسفلها، وأمر البعض بأن يدخلوها من أعلاها، ولم يكتف بهذا بل أمر وحدات من الجيش بان تدخل من جميع المداخل والطرق المؤدية إلى داخل مكة.

فدخلت جميع وحدات الجيش الاسلامي وقطعاته وكتائبه وفرقه مكة من دون قتال ومن دون ان تلقى من أهلها مقاومة، فقد كانت جميع الأبواب مفتحة في وجوههم إلا المدخل الذي دخل منه «خالد بن الوليد» بفرقته، فقد عمد جماعة من المكيين بتحريض من «عكرمة» و «صفوان» و «سهيل» على شهر أسلحتهم في وجوه المسلمين، ورموا بالنبل لمنعهم من دخول مكة، ووقع قتال بين الجانبين، ولكن محرّضي هذه الجماعة اختفوا بعد شيء من القتال والمقاومة، وفرّ الآخرون بعد أن قتل منهم المسلمون اثني عشر أو ثلاثة عشر شخصاً⁽¹⁾.

ومرة أخرى قام أبوسفیان و من حيث لا يشعر بعمل آخر لصالح الإسلام في هذه الحادثة، فإنه كان لا يزال مرعوباً ممّا رأى من كثرة الحشود العسكرية الإسلامية وقوتها وكان يعلم ان المقاومة لا تجدي نفعاً ولا تجرّ على أهل مكة إلا الضرر، ولهذا نادى بأعلى صوته - حقناً للدماء - : يا معشر قريش علام تقتلون أنفسكم؟ من دخل داره فهو آمن، ومن وضع السلاح فهو آمن... فلا يدفع محمّداً شيء، فضعوا اسلحتكم، وادخلوا في بيوتكم، واغلقوا عليكم أبوابكم أو ادخلوا المسجد، تسلموا.

فكان لنداء أبي سفیان هذا أثره في نفوس الناس فجعلوا يقتحمون الدور، ويغلقون عليهم، ويطرحون السلاح في الطرقات حتّى يأخذها المسلمون، بينما لجأ بعضهم إلى المسجد.

ولما ظهر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على «ثنية أذاخر» نظر إلى لمعان

[1]- السيرة النبوية: ١ / ٤٠٨، وحسب المغازي: ٢ / ٨٢٥ - ٨٢٦ قُتِل ثمان وعشرون رجلاً.

(492)

السيوف وهي تصعد وتهبط فقال: «ما هذه البارقة؟ ألم أنه عن القتال»؟

فقيل: يا رسول الله، خالد بن الوليد قوتل، ولو لم يقاتل ما قاتل. فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : « قضى الله خيراً »

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - دخل مكة من ناحية أذاخر، وهي أعلى نقطة في مكة في موكب عظيم جليل، فضرب له قبة من ادم بالحجون (عند قبر عمّه العظيم أبي طالب) ليستريح فيها، وقد أصروا عليه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن ينزل

في بعض بيوت مكة فأبى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .⁽¹⁾

كسرُ الاصنام وغسل الكعبة:

لقد استسلمت مكة التي كانت مركزاً رئيسياً للشرك والوثنية طوال أعوام عديدة ومديدة، أمام قوات التوحيد الظافرة، وسيطر جنود الإسلام على جميع نقاط تلك المدينة المقدسة.

ولقد استراح رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الخيمة التي ضربوها له في الحجون بعض الوقت.

ثم انه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد أن اطمأنَّ واغتسل ركب راحلته «القصواء» وتوجَّه إلى المسجد الحرام لزيارة بيت الله المعظم والطواف به، بينما كان يحمل معه السلاح، والمغفر على رأسه، وتحيط به هالة من العظمة والجلال، ويحذق به المهاجرون والانصار، وقد صفَّ له الناس من المسلمين والمشركين، بعضٌ يغمره الفرح والسرور، وآخرون يكادون ينفجرون من الغيظ.

ولما انتهى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى الكعبة فرأها ومعها المسلمون تقدّم على راحلته، ولم يترجّل منها لأسباب خاصة فاستلم الركن بمحجنه بدل استلامه بيده، وكَبَّر فكَبَّر المسلمون لتكبيره، ورَجَّعوا التكبير حتَّى ارتجّت مكة لتكبيرهم

- [الامتاع: ١ / ٣٨٠].

(493)

ودوى صوتهم في الجبال والوهاد، وسمعهم المشركون الذين كانوا قد تفرّقوا فوق الجبال ينظرون إلى ذلك المشهد وقد بلغ من هياج المسلمين، وهم يطوفون بالبيت من شدة سرورهم جداً كاد أن يمنع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من الطواف بالبيت بفكر هادئ فإشار اليهم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن اسكتوا، فسكت الجميع بأمره، وساد الصمت كل أرجاء المسجد الحرام، فطاف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالبيت على راحلته، وقد أخذ بزمامها «محمّد بن مسلمة» وفيما احتبست الاصوات في الصدور، واتجهت الأبصار إليه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فوقع عيناه الشريفتان - في الشوط الأول من طوافه - على الاصنام الكبرى «هبل» و «اساف» و «نائلة» منصوبة فوق الكعبة، فجعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كلما مرّ بصنم منها يشير بقضيب في يده ويقول: «جاء الحقّ وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» فيقع الصنم لوجهه.

وأمر - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بهُبل أكبر أصنام المشركين فحطم وكسر في مرأى من المشركين، ولقد كان هذا الصنم الكبير يهيمن على عقول الجاهليين في الجزيرة العربية، وسيطر على أفكارهم أعواماً عديدة.

ولما كسر المسلمون ذلك الصنم قال الزبير لأبي سفيان وكان ينظر إلى ذلك المشهد: يا أبا سفيان لقد كُسر هُبل، أما إنك قد كنت منه يوم «أُخذ» في غرور، حين تزعم أنه قد أنعم.

فقال أبو سفيان: دغ هذا عنك يا ابن العوام فقد أرى لو كان مع إله محمّد غيره لكان غير ما كان.

ولما انتهى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من طوافه بالبيت انصرف فجلس ناحية من المسجد، والناس حوله، ثم أرسل بلالا إلى «عثمان بن طلحة» يأتيه بمفتاح الكعبة، وكان عثمان يومذاك سادن الكعبة، وقد كانت السدانة تُتوراث جيلا بعد جليل.

فجاء بلال إلى عثمان فقال: إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يأمرك أن

(494)

تأتي بمفتاح الكعبة، فاستجاب عثمان، إلا أن أمه منعتة عن ذلك، وكان المفتاح يومئذ عندها وقالت له: أعيذك بالله أن تكون الذي تذهب مأثرة قومه على يديه.

فقال لها عثمان: فوالله لتدفعنه إليّ، أو ليأتيتك غيري فيأخذ منك، فسلمته إياه.

ففتح رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - به باب الكعبة ودخل البيت، ودخل من بعده - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أسامة بن زيد وبلال وعثمان وسادتها، ثم أمر النبي باغلاق باب الكعبة، ووقف خالد بن الوليد على الباب يذب الناس عن الباب.

وكانت جدران الكعبة من الداخل مغطاة بصور الانبياء والملائكة وغيرهم، فأمر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمحوها جميعاً، وغسلها بماء زمزم.

عليّ - عليه السّلام - على كتف النبي
- صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

يقول المحدثون والمؤرخون: لقد كسرت بعض الأصنام الموضوعة في الكعبة على يد «عليّ بن أبي طالب» وذلك عند ما قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لعليّ - عليه السّلام - :

«اجلس».

فجلس إلى جنب الكعبة ثم صعد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على منكبيه ثم قال: إنهض بي إلى الصنم... فحاول أن ينهض فلم يُطوَّق.

فلما رأى النبي ضعفه تحته، قال:

«اجلس».

فجلس عليّ - عليه السّلام - ثم نزل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عنه، ثم جلس - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثم قال:

فصعد عليّ - عليه السّلام - علي منكبه، ثم نهض به فالقى صنم قريش الاكبر، وكان من نحاس، ثم ألقى بقيّة الاصنام إلى الارض وحطّمها.

وقد أنشد شاعر الحلة الشهير بابن العرندس، وهو من شعراء القرن التاسع الهجريّ قصيدة ذكر فيها هذه الفضيلة بقوله:

و صُعودُ غارب أحمد فضلٌ له * دون القرابة والصحابة أفضلًا⁽¹⁾

ثم ان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمر بان يُفتح باب الكعبة فوقف علي الباب، وأخذ بعضادتي الباب فاشرف علي الناس بطلعته المنيرة ومحياه الجميل وقال:

«الحمد لله الذي صدق وعده و نصر عبده و هزم الأحزاب وحده.»

ولقد كان الله سبحانه قد وعد نبيه الكريم في آية من آيات الكتاب العزيز بأن يعيده إلى مسقط راسه إذ قال:

(إِن الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ فُلِّنْ لَّيَّ اعْلَمْ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَ مَن هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ.)⁽²⁾

وقد أخبر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بحمده هذا عن تحقّق وعدالله له، وبرهن مرة أخرى علي صدقه، وصحة دعواه.

وفي ما كان الصمتُ يخيم علي أرجاء المسجد الحرام، وفي ما كانت الانفاس محتبسة في الصدور، وتجول في رؤوس الحاضرين وانفسهم أفكارٌ مختلفة، وخواطرٌ شتى، ويتذكر أهل مكة المشركون ما ألحقوه برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واتباعه من الأذى والعذاب الشديد، فتذهب بهم تصوراتهم مذاهب شتى!!

إن الذي سبق لهم أن اشعلوا حروباً كثيرة ضد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقتلوا خيرة شبابه وأصحابه، بل وتمادوا في غيهم وعدوانهم حتّى أنهم تأمروا

1-مسند احمد بن حنبل: ١ / ٨٤ باسناد صحيح، السيرة الحلبية: ٣ / ٨٦ ، تاريخ الخميس: ٢ / ٨٦ و ٨٧ ، مستدرک الحاكم: ٢ / ٣٦٧ ،
وراجع بقيه المصادر في موسوعة الغدير: ٧ / ١٠ - ١٣ .
2-القصص: ٨٥ .

لاغتياله بالهجوم عليه في منزله ليلاً، وتقطيعه بالسيوف إرباً إرباً، هاهم الآن يرون أنفسهم أسرى في قبضته، وهو - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قادر على أن ينتقم منهم كيفما شاء!!

إن من الطبيعي أن يتحدث أهل مكة في أنفسهم وهم يتذكرون معاداتهم الشديدة والطويلة لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وجرائمهم الكبرى بحقه، وبحق دعوته ويقول بعضهم: أنه سيقتلنا حتماً، أو يقتل فريقاً منا، ويحبس آخرين، ويسبي ذريتنا ونساءنا، جزاء ما فعلنا.

وبينما كانوا - في تلك اللحظات - فريسة هذه الافكار والتصورات الشيطانية، كسر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جدار الصمت الرهيب الذي يخيم على أرجاء المسجد الحرام وقال سائلاً:

«ماذا تقولون... وماذا تظنون؟!»

فقال أهل مكة: وقد تملكتم حيرةً شديدةً، وخوفٌ عظيمٌ وهم قد عَرَفُوا رحمة النبي ورأفته، ولطفه، وخُلِقَ العظيم: نقول خيراً، ونظن خيراً، أحمُّ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقد سمع هذه العبارات العاطفية:

«فاني أقول لكم كما قال أخي يوسف» قال لا تثريب عليكم اليوم يغفور الله لكم وَهُوَ أرحمُ الراحمين.⁽¹⁾»

وكان أهل مكة قد أطمأؤوا إلى عفو النبي وصفحه قبل ذلك نوعاً عندما رأوا رد فعله الشديد على احد قادة جيشه عندما اخذ ينادي حين دخول مجموعته العسكرية مكة من احدى مداخلها:

اليومَ يومُ المَلحمة * اليومَ تُسبى الخُرمة

[المغازي: ٢ / ٨٣٥، بحار الأنوار: ٢١ / ١٠٧ و ١٣٢ والآية هي ٩٢ من سورة يوسف.

فغضب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لهذا الشعار وقال رداً عليه:

«اليوم يوم المرحمة⁽¹⁾»

كما أنه أمر - لغرض تأديب من أطلق هذا الشعار - بأخذ اللواء منه، وأعطاه إلى شخص آخر، وقيل أنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عزله عن قيادة المجموعة، وأمر ابنه مكانه، وكان هذا الأمير هو سعد بن عبادة رئيس الخزرج.

وقد دفع هذا النوع من اللطف والموقف الايجابي الذي لاحظته أهل مكة المشركون أن يأمل الناس المغلوبون في العفو العام إلى درجة كبيرة، خاصة أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد آمن من دخل المسجد الحرام أو بيت أبي سفيان، أو ألقى السلاح، أو أغلق على نفسه باب منزله.

كل هذه الأمور كانت قد فتحت على أهل مكة بصيصاً من الأمل في العفو الشامل.

النبي يعلن عن العفو العام:

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أعلن عن العفو العام عن جميع أهل مكة بقوله:

«ألا لبسَ جيرانُ النبيِ كنتُم، لقد كذبْتُم، وطردتُم، وأخرجتُم، وَ آذيتُم، ثم ما رضيتُم حتَّى جئتموني في بلادِي تقاتلونني إذهبوا فانتمُ الطلقاء.»⁽²⁾

بلال يرفع الأذان على سطح الكعبة:

ثم حان وقتُ صلاة الظهر، فعلا مؤذن الإسلام «بلال» الحبشي سطح الكعبة المعظمة، ورفع في الحاضرين وبصوت عال نداء التوحيد والرسالة

1-المغازي: ٢ / ٨٢١ و ٨٢٢.
2-بحار الأنوار: ٢١ / ١٠٦، السيرة النبوية: ٢ / ٤١٢.

(الأذان)، فكان كل واحد من المشركين يقول كلاماً، غضباً وحنقاً على بلال. فمنهم من قال: الحمد لله الذي أكرم أبي فلم يسمع هذا اليوم!!

وقال أبو سفيان أما أنا فلا أقول شيئاً، لو قلتُ شيئاً لاخبرته هذه الحصباء.⁽¹⁾!!

إن هذا العجز الخرف المعاند الذي لم يشرق في قلبه نور الإسلام حتى آخر لحظة من حياته، خلط بين مسألة الإطلاع على الغيب، وتلقي الحقائق عن طريق الوحي، وبين مسألة التجسس الذي يعتمد جبايرة العالم وطغاته.

إن مسألة اطلاع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على قضايا الغيب أمر يحصل بطرق غير عادية ولا متعارفة، في حين تحصل معرفة جبايرة العالم بمجريات الأمور في بلادهم عن طريق استخدام عناصر بشرية، أو من يسمون برجال المخابرات والأمن.

وعلى كل حال فان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - صَلَّى بالمسلمين صلاة الظهر ثم دعا «عثمان بن طلحة» وردَّ إليه مفتاح الكعبة، وقال له:

«هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء.(2)»

وروي أنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال:

«خذوها يا بني أبي طلحة تالدة خالدة لا ينزعها منكم أحدٌ إلا ظالم.(3)»

ولم يكن غير هذا بمتوقع من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فان النبي الذي بعثه الله سبحانه إلى الناس ليدعوهم إلى أداء الامانة - فيما يدعوهم إليه - وليبليغهم قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** (من المسلم أن يكون أول من يلتزم بهذا التعليم الإلهي، فيعيد مثل تلك الامانة الكبرى إلى صاحبها).

1- السيرة النبوية: ٢ / ٤١٣ .
2- السيرة النبوية: ٢ / ٤١٢ ، المغازي: ٢ / ٨٣٨ ، الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ١٣٧ .
3- السيرة النبوية: ٢ / ٤١٢ ، المغازي: ٢ / ٨٣٨ ، الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢ / ١٣٧ .

(499)

إنه لم يكن بالذي يهضم حقوق الناس ويدوسها، في ظل ما أوتي من قوة، ويقول للناس بكل صراحة: «خذوها يا بني أبي طلحة، تالدة خالدة لا ينزعها منكم أحدٌ إلا ظالم.»

ثم ان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ألغى جميع مناصب الكعبة التي كانت في الجاهلية إلا ما كان نافعاً للناس كالسدانة والحجابه (وهي القيام بشؤون أستار الكعبة) وسقاية الحجيج.(1)

النبي يتحدث إلى اقاربه:

ولكي يعرف أقرباء النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن وشيجة القربى التي تربطهم برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لا ترفع عن كاهلهم أية مسؤولية من المسؤوليات، بل تزيد من مسؤوليتهم ألقى فيهم خطاباً خاصاً بين فيه أن رابطة القربى مع النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لا تبرر لأحد من أقربائه بأن يتجاهل قوانين الحكومة الإسلامية، ويتخذ من انتسابه إلى زعيم هذه الحكومة ذريعة وغطاء لارتكاب ما لا يحل للأخريين كما هو الحال في أنظمة الحكم البشرية.

ولقد شجب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في خطابه هذا الذي خطبه في اجتماع ضمّ رجال بني هاشم وبني عبدالمطلب، كل تمييز، وتفضيل غير صحيح، ودعا إلى لزوم العدل ومراعاة المساواة، بين جميع الطبقات إذ قال:

«يا بني هاشم، يا بني عبدالمطلب إني رسول الله اليكم، وإني شفيقٌ عليكم، ولا تقولوا: إنَّ محمداً منّا، فوالله ما أوليائي منكم ولا من غيركم إلا المتقون فلا أعرفكم تأتوني يوم القيامة تحملون الدنيا على رقابكم ويأتي الناس يحملون الآخرة.

ألا وإني قد أعذرت فيما بيني وبينكم، وفيما بين الله عزّوجلّ وبينكم وإن

-[بحار الأنوار: ٢١ / ١٣٢].

(500)

لي عملي ولكم عملكم.⁽¹⁾»

خطابُ النبي التاريخي في المسجد الحرام:

كان الاجتماع الذي شهده المسجد الحرام يوم فتح مكة اجتماعاً عظيماً جداً.

المسلمون والمشركون، والصدیق والعدو حضروا بأجمعهم في ذلك الاجتماع، وكانت تجلُّ هالةً من عظمة الإسلام وعظمة نبيه الكريم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رحاب ذلك المكان المبارك، وكان الصمت والهدوء، وحالة من الانتظار والترقب، تخيم على اجواء مكة.

لقد أن الأوان - الآن - لأن يكشف رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - للناس عن الملامح الحقيقية لدعوته المباركة ويوقف ذلك الحشد الهائل المتعطش على معالم رسالته العظمى، ومبادئ دينه الحنيف، وبالتالي أن يكمل حديثه الذي بدأه قبل عشرين عاماً ولكنّه لم يُوفق لإتمامه بسبب مضايقات المشركين، ومعارضتهم، وبسبب ما أوجده من عقبات وعراقيل في طريقه.

ولقد كان رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ابن تلك المنطقة، وتلك البيئة، ولهذا كان عارفاً - تمام المعرفة - بأمراض المجتمع العربي، وأدوائه، وعلاج تلك الأدواء ودوائها.

لقد كان يعرف - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - علل إنحطاط المجتمع المكيّ وأسباب تخلفه عن ركب الحضارة والمدنية، وعن اللحاق بقافلة التكامل البشري الصاعد. من هنا رأى أن يضع يده على مواضع الداء في ذلك المجتمع المريض، وأن يعالج امراض البيئة العربية بشكل كامل، وكأي طبيب حاذق، وحكيم ماهر.

ونحن هنا ندرج أبرز المقاطع في الخطاب التاريخي الذي ألقاه سيد المرسلين

- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - على الحشود الكبيرة المتجمعة في ذلك اليوم عند بيت الله المعظم.

تلك المقاطع التي يعالج كل واحد منها مرضاً اجتماعياً خاصاً من أمراض المجتمع في ذلك العصر وحتى في عصرنا الحاضر.

-1- التفاخر بالنسب:

كان التفاخر بالنسب والقبيلة والعشيرة من الامراض المستحكمة المتجذرة في البيئـة العربية الجاهلية، وكان من اكبر أمجاد المرء أن ينتسب إلى قبيلة معروفة، ويتفرع نسبه عن عشيرة بارزة كفريش مثلاً:

ولقد قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في خطابه المذكور لإبطال هذه السنـة الجاهلية المقيتة.

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَفَاخُرَهَا بِأَبَائِهَا.

أَلَا إِنَّكُمْ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ طِينٍ.

أَلَا إِنَّ خَيْرَ عِبَادِ اللَّهِ عَبْدٌ اتَّقَاهُ.»

لقد عمد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في خطابه - لإفهام العالم البشري بأن ملاك الشخصية والتفوق إنما هو (التقوى) والورع فقط - إلى تصنيف الناس إلى صنفين لا ثالث لهما، واعطى الفضيلة والمنزلة لأهل التقوى والورع خاصة.

وبهذا التصنيف الواقعي في ملاكاته أبطل جميع المعايير الخيالية والملاكات والمقاييس المصطنعة إذ قال:

«إنما الناس رجلان:

مؤمنٌ تقى كريمةً على الله.

وفاجرٌ شقى هينٌ على الله.»

-2- التفاضل بالقومية العربية:

لقد كان رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يعلم جيداً أن هذه الجماعة من

البشر تعتبر (العربية) والانتساب إلى العرق العربي من المفاخر الكبرى، وكانت النخوة العربية قد ترسخت في قلوب تلك الجماعة وعروقتها كداء دفين ومرض مزمن، فقال في خطابه لمعالجة هذا الداء الخبيث وتحطيم هذا الصرح الموهوم:

«إن العربية ليست بأب والد، ولكنه لسان ناطق، فمن قَصُر عمله لم يبلغ به حسبُه.»

وهل نجد كلاماً أعمق مغزى، وأوضح مراداً، وأقوى وقعاً في النفوس من هذا الكلام!؟

-3 لجميع أبناء البشر لا لبعض دون بعض:

لقد قال داعية الحرية الحقيقية، ورائد حقوق الإنسان الواقعي بهدف تقوية ودعم مبدأ المساواة بين الافراد والجماعات البشرية:

«إنَّ الناس من آدم إلى يومنا هذا مثلُ اسنان المشط، لا فضل للعربي على العجمي، ولا للأحمر على الأسود إلا بالتقوى.»

وقد ألغى رسولُ الإنسانية الاعظم بهذا البيان الصريح كل انواع التمييز الظالمة، وكل ألوان التشدد مع الآخرين، وفعل وبين في ذلك العصر ما لم يفعله ولم يبينه ميثاق حقوق الإنسان مع كل هذه الضجة الاعلامية التي نشهدها في عالمنا الحاضر.

-4 الحروب الطويلة والاحقاد القديمة:

لقد نشأت الاقوام العربية - نتيجة اشتغالها المستمر بالحروب الداخلية المتلاحقة والطويلة - على الحقد والضغينة.

فقد كانت نيرانُ الحروب مشتعلة في المجتمعات العربية على قدم وساق ومن دون انقطاع.

ولقد واجه رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد سيطرته الكاملة على الجزيرة

العربية هذه المشكلة.

فقد كان يتوجب عليه - بغية إقرار الأمن والهدوء والحفاظ عليهما في البيئة الإسلامية أن يبادر إلى وضع نهاية لهذه المعضلة، وأن يعالج هذا الداء المزمن فلم يجد دواء لهذا الداء إلا أن يطلب من الناس كافة أن يتنازلوا عما لهم من دماء في أعناق الآخرين سُفِكت في العهد الجاهلي، وأن تعتبر جميع ملفات العهد القديم باطلة، ومنتهية، ليتمكن عن هذا الطريق الحيلولة دون إراقة الدماء التي تعرض المجتمع الاسلامي الناشئ للخطر، وحتى ينتزع من أذهانهم ونفوسهم فكرة الاغارة والقتل العشوائي الذي كان يتم بحجة القصاص في حين كان من الممكن ان يتم بشكل القصاص الحقيقي العادل، فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - للوصول إلى مثل هذه الغاية السامية.

«ألا إن كلَّ مالٍ ومأثرةٍ ودمٍ في الجاهلية تحت قدميَّ هاتين.»

-الأخوة الإسلامية:

ولقد ارتبط قسمٌ من خطاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في ذلك الحشد العظيم بمسألة اتحاد المسلمين ووحدة كلمتهم، وحق المسلم على أخيه المسلم.

وقد كان مقصوده - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من بيان هذه الحقوق المتبادلة بين المسلمين التي تعتبر من مميزات الدين الإسلامي الحنيف، هو أن يرغب غير المسلمين في الإسلام إذا هم سمعوا ورأوا مثل هذه الحقوق، ومثل هذه العلاقات المتينة بين المسلمين. فقد قال في هذا الصعيد:

«المُسلِمُ أخو المُسلِم، والمُسلِمون إخوةٌ وهم يدٌ واحدةٌ على من سواهم، تتكافؤ دماؤهم، ليسعى بدمتهم أدناهم.»⁽¹⁾

- [لقد نقلنا هذه المختارات من: روضة الكافي: ٢٤٦، السيرة النبوية: ٢ / ٤١٢، المغازي: ٢ / ٨٣٦، بحار الأنوار: ٢١ / ١٠٥، شرح ابن أبي الحديد: ١٧ / ٢٨١.]

(504)

معاقبة المجرمين:

ليس من شك في أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان مظهرًا كاملاً للإنسانية والرحمة ومثلاً أعلى في العفو والصفح، فهو رغم مشاعر بعض المتطرفين الملتهبة، أصدر عفوه العام عن أهل مكة كافة.

بيد أنه كان هناك بين المكيين عدة أشخاص تجاوزوا الحد في معاداتهم للنبي ومعارضتهم للرسول، وارتكبوا في هذا السبيل جرائم لا تغفر، فلم يكن من الصالح - مع كل ما تسببوه من فجاج وفضائح - أن يعيشوا بين المسلمين في أمان وراحة، إذ كان من الممكن أن يسببوا استخدام العفو النبوي فيعودوا إلى مشاغبتهم، وتآمرهم ضد الإسلام مرة أخرى ويتسببوا في ظهور مشاكل أمنية جديدة لا يُعرف مداها، وتبعاتها.

وقد قُتل بعض هؤلاء المجرمين على أيدي المسلمين في الطرقات، ولجأ اثنان منهم إلى بيت «أم هاني» بنت أبي طالب أخت الامام علي - عليه السلام - ، فلاحقهما «علي» وهو غارق في الحديد لا يُعرف، فدخل بيت أم هاني يطلبهما⁽¹⁾ فواجهت أم هاني فارساً لا يُعرف فقالت: أنا امرأة مسلمة وقد أجزت هذين، وجوار المسلمة محترم.

وفي أكثر المصادر أنها قالت: يا عبدالله أنا أم هاني ابنة عم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأختُ علي بن أبي طالب، انصرف عن داري.

وهنا عمد الإمام علي - عليه السّلام - إلى الكشف عن هويته لتعرفه، فنزع المغفر عن رأسه، وأسفر عن وجهه.

فما أن وقعت عيننا أم هاني على أخيها «علي» بعد فراق طال سنيناً عديدة

-[يقول ابن هشام إن الرجلين هما: «الحارث بن هشام» و «زهير بن أبي أمية بن المغيرة» (السيرة النبوية: ٢ / ٤١١).

(505)

ومديدة إلا وانحدرت منهما دموع الشوق والفرحة، واعتنقت أحاها، ثم توجهتا معاً إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليعطي رأيها في أمانها، وجوارها فامضى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جوار تلك المرأة المسلمة، وأمانها قائلاً:
«قد أجزنا من أجرت وأمنا من أمّنت فلا يقتلها»⁽¹⁾»

وقد كان عبدالله بن سرح الذي أسلم ثم ارتدّ عن الإسلام احد العشرة الذين أمر النبي بقتلهم، ولكنه نجا من القتل بشفاعته عثمان له.

قصة عكرمة وصفوان:

ولقد فرّ «عكرمة بن أبي جهل» أحد كبار مثيري الحروب ومشعلي الفتن ضد الإسلام والمسلمين، إلى اليمن، إلا أنه نجا من القتل هو الآخر بشفاعته زوجته، في قصة مفصلة.

وأما «صفوان بن أمية» فإنه مضافاً إلى جرائمه الفادحة، كان قد قتل مسلماً إنتقاماً لأبيه «أمية بن خلف» الذي قُتِل على ايدي المسلمين في بدر، وذلك عندما صلبه أمام حشد كبير من أهل مكة في وضح النهار، ولهذا أهدر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - دمه، فعزم أن يخرج من الحجاز عن طريق البحر فراراً من القتل، وبخاصة عندما علم بأنه من جملة العشرة الذين أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بقتلهم وأهدر دمهم.

فطلب «عمير بن وهب» من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يعفو عنه، فقبل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - شفاعته، وأعطاه عمامةً ليدخل بها مكة كعلامة أمان من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ويصطحب معه إلى مكة «صفوان بن أمية»، فذهب عميرٌ إلى جدّة، وأخبر صفوان بذلك، وقدم به مكة

-[الإرشاد: ٧٢ إعلام الوري بأعلام الوري: ١١٠ ، السيرة النبوية: ٢ / ٤١١، الطبقات الكبرى: ٢ / ١٤٤ و ١٤٥.

(506)

على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فلما وقعت عينا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على كبير المجرمين بل
اكبرهم يومئذ قال له رداً عليه لما سأله قاتلاً: أن عمير يزعم أنك قد أمنتني؟

«صدقت، إنزل أبا وهب. »

ثم دعاه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى الإسلام فقال: اجعلني بالخيار شهرين، فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :
وسلم - :

«أنت بالخيار فيه أربعة أشهر.⁽¹⁾»

وبهذا أمهله رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أربعة أشهر كفرصة يفكر فيها في الإسلام، ودعوة النبي.

ان دراسة اجمالية وسريعة لهذا الموقف تكشف القناع عن حقيقة مسلمة في الإسلام وفي تاريخه العظيم يحاول المستشرقون
المغرضون إنكارها وإخفاءها، وهو أن رؤوس الشرك كانوا أحراراً في اختيار العقيدة الإسلامية واعتناقها.

فهم اختاروها واعتنقوها بمحض إرادتهم من دون إكراه أو إجبار، ولا إرعاب أو تخويف، بل كانت القيادة الإسلامية تسعى دائماً
إلى أن يتم اعتناق عقيدة التوحيد عن طريق التدبر والتفكير الصحيح، لا عن طريق الارعاب والتخويف.

هذا هو أبرز حوادث فتح مكة وأكثرها عبرة، وبقي أن نتعرض لذكر حادثتين جديرتين بالاطلاع والتأمل استكمالاً لهذه الدراسة.

وتانك الحادثتان هما:

-1 مبايعة النبي نساء مكة:

بعد بيعة «العقبة» كانت هذه هي المرة الأولى التي اخذ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

-[1] السيرة النبوية: ٢ / ٤١٨، المغازي: ٢ / ٨٥٤.

البيعة من النساء بشكل ظاهرٍ ورسْميٍّ، ولقد بايعنهُ على الامور التالية:

-[1] أن لا يُشركنَ بالله شيئاً.

-2 ولا يسرقن.

3-ولا يزنين.

4-ولا يقتلن أولادهن.

5-ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن.

6-ولا يعصين النبي في معروف.

ولقد تمت هذه البيعة بالكيفية التالية وهي: أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمر بقدر من ماء ثم ألقى في الماء شيئاً من الطيب وا لعطر ثم ادخل يده فيه وتلا الآية (1)التي وردت فيها الامور المذكورة ثم نهض من مكانه وقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - للنساء:

«مَنْ أَرَادَتْ أَنْ تَبَاعِ فَلْتَدْخُلْ يَدَهَا فِي الْقَدْحِ فَانِي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ.»(2)

وكانت العلة في أخذ مثل هذه البيعة - الخاصة في موادها وبنودها - من نساء مكة هي وجود عدد كبير من النسوة الفاسدات بينهن، فلو أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يُقدِّم على أخذ مثل هذه البيعة منهن لكان من المحتمل أن تستأنف تلك النسوة الفاسدات عملهن القبيح حتى في السر.

وكانت «هند» زوجة أبي سفيان بن حرب، وأم معاوية ذات السوابق السوداء والفاضحة من بين تلك النسوة.

وقد كانت هذه المرأة لفاضحة في طبعها وخشونة، في سلوكها، تهيم على عقلية زوجها أبي سفيان، ولطالما فرضت عليه آراءها، حتى أنها يوم قرّر أبو سفيان الاستسلام للأمر الواقع، ورغب أهل مكة في السلام حرّضت الناس على القتال

1-المتحنة: ١٢.

2-بحار الأنوار: ٢١ / ١١٣.

وسفك الدماء ومواجهة جنود الإسلام.

إن تحريضات هذه المرأة بالذات هي التي أشعلت نيران الحرب في «أحد»، تلك النيران التي كلفت، رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سبعين شهيداً كان أبرزهم «حمزة» الذي بقرت تلك المرأة الفاسدة الفاجرة الحاكمة وبمنتهى القسوة والفاضحة بطنه، وشقّت صدره، واستخرجت كبده، وقطعته بأسنانها نصفين.

لم يكن لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بُدٌّ من أخذ هذا النوع من البيعة من هذه المرأة وأمثالها في مرأى ومسمع من الناس

وقد تلا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما نزل من قوله تعالى من شروط البيعة عليهن، فلما بلغ إلى قوله: «ولا يسرقن» نهضت هند - وكانت آنذاك متنقبة متنكرة - وقالت: إنَّ أبا سفيان رجلٌ ممسكٌ والله إنني كُنْتُ لأصبتُ من مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة وما كنتُ أدري أكان ذلك حلالاً أم لا؟

فنهض أبو سفيان وقال: ما أصبت من مالي فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال.

فعرّف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من خلال هذا الحوار بين هند و أبي سفيان أن المتكلمة هي «هند» بنت عتبة فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لها سائلاً: «وانك لهند بنت عتبة»؟!

قالت: نعم، فاعفُ عما سلف عفا الله عنك!

ولما بلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى قوله تعالى: «ولا يزينين» نهضت هند مرة أخرى وذكرت وهي تبرئ نفسها من هذه الوصمة، وذكرت جملة كشفت عن خبيئة نفسها من دون شعور.

فلقد قالت: يا رسول الله أو تزني الحرة؟!

لقد كان هذا الدفاع يعدُّ - من منظار علم النفس - نوعاً من كشف القناع عما في السريرة والافصاح عما في الضمير. وحيث أن هنداً كانت تعرف أنها كانت فيما مضى تفعلُ مثل هذا، وكانت واثقة من أنّ الناس عند سماع هذه

(509)

العبارة سيلتفتون بانظارهم إليها لذلك لهذا سارعت فوراً - وبهدف صرف الأنظار عن نفسها - إلى القول: وهل تزني إلا الأمة دون الحرة.

ومن الصدق انه كان من الرجال في ذلك المجلس بعض من سبقت له معها علاقات غير مشروعة في العهد الجاهلي فتعجب من

إنكارها، فضحك حتى استغرق في الضحك، وتسبب دفاع هند عن نفسها في المزيد من افتضحها. (1)

هدم بيوت الاصنام بمكة وما حولها:

كانت في مكة وضواحيها بيوتٌ عديدةٌ وكثيرةٌ للاصنام التي كانت تقدّسها، وتحترمها القبائل المختلفة الفاطنة في تلك المناطق، وحتى يقضي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على جُذُور الوثنية في أرض مكة قام بارسال فرق عسكرية متعددة إلى تلك المناطق لهدم تلك المعابد، والبيوت، وإزالة الاصنام والاثاث.

كما أنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أعلن في مكة نفسها أن من كان في بيته صنمٌ فليكسره، وفي هذا السياق أرسل «عمرو بن العاص» لتحطيم صنم «سواح» وسعد بن زيد لهدم صنم «مناة». »

وتوجه «خالد بن الوليد» على رأس فرقة عسكرية إلى «تهامة» لدعوة قبيلة «جذيمة بن عامر» إلى الإسلام وهدم صنم «عزى»، وقد نهأه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حين كلفه بهذه المهمة عن القتال وإراقة الدماء وبعث معه «عبدالرحمان بن عوف» ليعينه على ذلك.

وكانت قبيلة بني جذيمة قد قتلت عمّ خالد بن الوليد⁽²⁾ ووالد عبدالرحمان لدى رجوعهما من اليمن في ايام الجاهلية وصادرت أموالهما، ولهذا كان «خالد»

1- مجمع البيان: ٥ / ٢٧٦.
2- هو الفاكه بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، راجع للوقوف على اصل هذه الواقعة السيرة النبوية: ٤ / ٧٤، تاريخ البعقوبي: ٦١ / ٢.

يحقد عليهم.

فلما التقى «خالد» بني جذيمة في أرضهم، وجدهم قد أخذوا السلاح، وتهيأوا لقتاله فأمنهم وقال لهم: ضَعُوا السلاح فان الناس قد أسلموا.

فرأى زعماء القوم ان يضع الناس السلاح، ويسلموا لجنود الإسلام ولكن رجلا من القوم أدرك بفطنته سوء نية خالد، فقال لزعماء القبيلة: والله لا أضع سلاحي أبداً، فما بعد وضع السلاح إلا الأسار، وما بعد الأسار إلا ضرب الاعناق!

ولكن بني جذيمة رفضت قوله، وأخذت براى أسياها فوضعت السلاح، وأمن الناس، فأمر خالد جنوده فوراً بان يكتفوا رجال القبيلة، وباتوا في وثاق.

فلما كان في السحر أمر بان يُقتل فريقٌ منهم، وأطلق سراح آخرين.

وعندما بلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نبأ هذه الجريمة النكراء غضب - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على خالد غضباً شديداً، ودعا علياً من فوره، وأعطاه مبلغاً كبيراً من المال وأمره بالتوجه إلى بني جذيمة، وان يدفع دية من قُتِلَ أو جرح خالد من رجالهم، وثمان كل ما خسروه أو فقدوه من أموالهم بدقة وعناية كاملتين.

فودى علي - عليه السَّلام - لهم كل ما أصاب خالد، حتّى أنه ليدي مبلغة الكلب (وهي الاناء الذي يلغ فيه الكلب) حتّى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وذاه بقيت معه بقية من المال، فدعا رؤساء تلك القبيلة المنكوبة وقال لهم: هل بقي لكم من دم أو مال لم يود لكم؟

فقالوا: لا.

فقال - عليه السَّلام - :فاني أعطيك هذه البقية من المال إحتياطاً لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ممّا يُعلم ولا تعلمون.

ففعّل ثم رجع إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فاخبره الخبر فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

(511)

«أصبت واحسنت.»

ثم قام رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه حتّى انه ليرى ممّا تحت إبطيه وقال:

اللهم إني أبرأ ممّا صنّع خالد بن الوليد. »

قالها ثلاث مرات.⁽¹⁾

لقد تلافى علي - عليه السَّلام - جميع الخسائر المادية والروحية التي لحقت ببني جذيمة، وقد أعطى شيئاً من ذلك المال لمن ارتاع، وفزع من صنع خالد و جنوده، وطيب خواطرهم وقال: وهذه لروعة القلوب.

وعندما عرف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بصنيع علي - عليه السَّلام - وإجراءاته العادلة والإنسانية مع بني جذيمة المنكوبين قال في حقه:

«والله ما يسرني يا عليّ أنّ لي بما صنعت خُمر النِّعم ..⁽²⁾أرضيتني رضي الله عنك... يا عليّ أنت هادي أمّتي، ألا إن السعيد كل

السعيد من أحبّك وأخذ بطريقتك، ألا إن الشقيّ كل الشقيّ من خالفك ورغب عن طريقتك إلى يوم القيامة.⁽³⁾»...

جرائم أخرى لخالد:

لم تقتصر جرائم خالد التي ارتكبها طيلة حياته الإسلامية في ظاهرها على ما ذكر بل لقد ارتكب جريمة أخرى في أيام حكومة «أبي بكر» اكبر وافضع ممّا مرت، واليك خلاصة هذه الواقعة:

لقد ارتدَّت بعض القبائل - بعد وفاة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، أو

-
- 1- السيرة النبوية: ٢ / ٤٢٠، الكامل لابن الاثير: ١ / ١٧٣ و ١٧٤، امتاع الاسماع: ١ / ٤٠٠.
 - 2-الخصال: ص ٥٦٢.
 - 3-مجالس ابن الشيخ: ص ٣١٨.

(512)

بالاحرى وفي الحقيقة رفضت الاعتراف بخلافة أبي بكر، وامتنتعت عن أداء الزكاة إليه، فبعث أبو بكر فرقة عسكرية مختلفة لقمع تلك الجماعات المتمردة.

وبعث خالد بن الوليد على رأس فرقة عسكرية إلى قبيلة «مالك بن نويرة» لمقاتلتها بحجة الارتداد، وما كان «مالك» وجميع أفراد قبيلته مستعداً للقتال، وكانوا يقولون: نحن مسلمون، فلا معنى لمقاتلتنا. فمكر بهم خالد على نحو مكره ببني جذيمة في عهد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وأمنهم، وطلب منهم إلقاء أسلحتهم، فلما وضعوا أسلحتهم، أمر بحبسهم، ثم قتلهم وقتل زعيمهم المسلم الصالح «مالك بن نويرة» واعتدى على زوجته في نفس الليلة⁽¹⁾. فهل يصح أن يوصف هذا الرجل - على هذه السوابق السوداء، ومع هذا الملفت المخزي - بسيف الله، وأن يُعدَّ من أمراء الإسلام المجاهدين الصالحين؟⁽²⁾!!

-
- 1-الكامل في التاريخ: ٣ / ١٤٩، أسد الغابة: ٤ / ٢٩٥، تاريخ ابن عساکر: ٥ / ١٠٥ و ١١٢، تاريخ ابن كثير: ٦ / ٣٢١، تاريخ الخميس: ١ / ٢٣٣.
 - 2-لقد ورد ذكر هذه الحادثة في كتب التاريخ في حوادث السنة الأولى من حكومة «أبي بكر» بصورة مفصلة وقد ذكرناها ملخصة. وللوقوف على تحليل هذه القضية المؤسفة راجع كتاب النص والاجتهاد: ٦١ - ٧٥.

(513)

٥٠ معركة حنين

كانت طريقة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عند فتح أية منطقة من المناطق هي أن يقوم بنفسه بإدارة شؤونها السياسية والدينية مادام هو فيها، فإذا اراد أن يغادرها عيّن أفراداً صالحين للقيام بتلك الأمور، وشغل تلك المناصب لأن الناس في تلك المناطق

كانوا قد اعتادوا على النظام المباد، ولم يكن لهم معرفة بالنظام الجديد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الإسلام دينٌ متكامل، ونظامٌ سياسي، اجتماعي، أخلاقي، ومعنوي يستمد قوانينه من منبع الوحي الطاهر، ويحتاج إيقاف الناس على تلثم القوانين والتعليم، وتطبيقها العملي إلى أفراد صالحين متمرسين ومدربين على التقيف والتطبيق الصحيحين، ليتمكن إيقاف الناس في تلك المناطق على مبادئ الإسلام وأصوله الصحيحة، وتنفيذ البرنامج السماوي الإسلامي في حياتهم على النحو الصحيح.

وقد فعل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذا عند فتح مكة، فإنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد أن قرر مغادرة مكة والمسير إلى قبيلتي «هوازن» و «ثقيف» عَيْنَ «معاذ بن جبل» ليعَلِّمَ الناس القرآن، وأحكام الإسلام، و «عتاب بن أسيد» الذي كان رجلاً مؤهلاً، لإدارة الأمور، والصلاة بالناس جماعة، ثم غادر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مكة بأصحابه بعد أن مكث فيها خمسة عشر يوماً متوجهاً إلى أرض هوازن.⁽¹⁾

1- الطبقات الكبرى: ٢ / ١٣٧، والمغازي: ٣ / ٨٨٩.

(514)

جيش قليل النظير:

كان الجيش الذي سار به رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى هوازن يبلغ (١٢) ألفاً من الجنود المسلحين: عشرة آلاف هم الذين صحبوه من المدينة، وشاركوا في فتح مكة، والفاان من رجال وشباب قريش الذين أسلموا بعد الفتح، وقد أوكل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قيادتهم إلى أبي سفيان.⁽¹⁾

ولقد كان مثل هذا الجيش العظيم والجمع الكبير قليل النظير، ونادر المثل في تلك العصور، وقد صارت هذه الكثرة ذاتها سبباً في هزيمته في مبدأ الأمر، فقد أعجب أفراد هذا الجيش بكثرتهم - على خلاف ما مضى - فتجاهلوا التكتيكات العسكرية الدقيقة، وغفلوا عن خطط العدو و نوايا فكان ذلك داعياً إلى هزيمتهم!!

فقد قال أبو بكر لما رأى كثرة المسلمين: لو ألقينا بني شيبان ما بألينا، لن نُغَلَبَ اليومَ من قلة.⁽²⁾

ولكنه لم يكن يعرف أن الانتصار ليس هو بكثرة الافراد وضخامة الجيش، بل ان هذا العامل غير مهمّ بالقياس إلى بقية العوامل.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة إذ قال تعالى:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ خُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثْرَتَكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ

مُدْبِرِينَ.⁽³⁾)

تحصيل المعلومات العسكرية:

بعد فتح مكة دبّت حركة خاصة في قبائل هوازن وثقيف، وجرت اتصالات مكثفة بينها، وكان حلقة الاتصال، والمدبر الحقيقي لهذه التحركات شاب عُرف

1- الطبقات الكبرى: ٢ / ١٣٩، المغازي: ٣ / ٨٨٩.

2- الطبقات الكبرى: ٢ / ١٥٠، المغازي: ٣ / ٨٨٩.

3- التوبة: ٢٥.

(515)

بالفروسية والشجاعة يدعى «مالك بن عوف النصرى».

وقد تفرّر بعد سلسلة من الاتصالات والمداولات بين زعماء هوازن وثقيف أن تبادل القبيلتان المذكورتان إلى توجيه ضربة قوية إلى جيش الإسلام عبر خدعة عسكرية، قبل أن يغزوها جنود الإسلام في عقر دورها.

فقد اختارت لقيادة هذه المهمة شاباً متهوراً في العقد الثالث من عمره هو مالك بن عوف النصرى الذي أشرنا إليه عما قريب، واشترك في هذه الغزوة جميع قبائل هوازن وثقيف بصورة موحّدة.

فكان من تدبير هذا القائد أن اقترح على جيشه أن يجعلوا النساء والأطفال والأموال وراء ظهورهم وعندما سألوه عن علة ذلك الاجراء قال: اردتُ من جعل كل رجل أهله وماله وولده ونساءه خلفه حتّى يقاتل عنهم.⁽¹⁾

فقبل المشتركون في تلك العملية بأمر قائدهم هذا بالاجماع، وجعلوا أموالهم وأهليهم خلفهم.

وقد خالف شيخ مجرب حنكته الحروب منهم يدعى «ريد بن الصمة» هذه الخطة عندما سمع رغاء البعير، وثغاء الشاة، وخوار البقر، وبكاء الصغير، وجادل فيها مالكا، واعتبرها خطة فاشلة من الناحية العسكرية وقال للناس: يا قوم إن هذا فاضحكم في عورتكم، وممكّن منكم عدوكم، وهل يردّ المنهزم شيء؟

ولكن مالكا لم يعر كلام هذا الشيخ ونصيحته اهتماماً وقال: - وهو يتهمه بالجهل بفنون القتال الحديثة - : أنك قد كبرت وكبر علمك، وحدث بعدك من هو ابصر بالحرب منك.

ولقد اثبت المستقبل صحة ما قاله ذلك الشيخ المحنك فان إشراك النساء والأطفال والانعام في الحرب، وإخراجهم إلى ساحة القتال أحدث لمقاتلي

1- المغازي: ٣ / ٨٩٧.

ثقيف وهوازن مشاكل كثيرة، فيما بعد.

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لما سمع بتحركات هاتين القبيلتين بعث «عبدالله بن حردد الأسلمي»، وأمره أن يدخل في هوازن وثقيف فيقيم فيهم حتى يعرف بنواياهم وخططهم، ثم يأتيهم بخبرهم، فانطلق الرجل اليهم ثم عاد إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأخبارهم.

وكان «مالك بن عوف» قائد هوازن وثقيف قد بعث بدوره ثلاثة جواسيس ليتجسسوا له على المسلمين، ويأتوه بأخبارهم، فعادوا بأجمعهم فزعين مما شاهدوه من قوة المسلمين وكثرتهم.

فقرر قائد العدو أن يجبر ضعف جنوده وقتلهم باستخدام الخدع العسكرية، والتوسل بأسلوب المباغته ليفرق - بهجوم مفاجئ - صفوف المسلمين، ويهدم نظامهم وانسجامهم، ويصيبهم بالهرج والمرج، والفوضى والحيرة ليختل باختلال الجيش أمر القيادة، فلا تتمكن من ضبط الأمور، وتحقيق انتصار على المسلمين.

ولتحقيق هذا الهدف هبط «مالك بن عوف» بجيشه في واد ينحدر إلى منطقة «حنين»، وأمر بأن يختفي الجنود والمقاتلون خلف الصخور والاحجار، وفي شغاف الجبال، وكل ما ارتفع من ذلك الوادي ونشز، حتى إذا انحدر جنود الإسلام في هذا الوادي في غفلة من هذا التدبير خرج رجال هوازن وثقيف من مكانهم، وكما نهم، ورموا المسلمين الغافلين عن خطة العدو، بالحجارة والنبال، ثم بخرج اليهم فريق في أسفل الوادي ويضربونهم بالسيف!!

تجهيزات المسلمين:

كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عارفاً بقوة العدو وعناقه فدعى «صفوان بن أمية» قبل مغادرة مكة، واستعار منه مائة درع بأدائها كاملة عارية مضمونة، ولبس رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نفسه درعين كما لبس المغفر والبيضة، وركب بغلته البيضاء وسار خلف جيشه وسار حتى دنوا جميعاً من

الوادي فاستراحوا ليلتهم عند فم الوادي، ومع غلس الصبح انحدرت كتيبة «بني سليم» بقيادة «خالد بن الوليد» في وادي «حنين»، وبينما دخل أكثر جنود الإسلام ذلك الوادي حمل عليهم رجال هوازن من كمانتهم في مضيق الوادي وشعابه حملة رجل واحد، وأخذوا يرشقونهم بالاحجار والنبال، فالقت أصوات الاحجار والنبال فزعاً شديداً في قلوب المسلمين الذين مطروا بالسهم والنبال والاحجار من جانب، بينما احتوشهم فريق آخر من هوازن بسيوفهم ووقعوا فيهم ضرباً وقتلاً.

أجل لقد فعلت مكيدة هوازن فعلتها في قلوب المسلمين، فقد أوحشتها، وأصابت المسلمين بالفوضى، وخلخت صفوفهم فلاذوا بالفرار من دون إختيار، وقد أخذوا هم بنظامهم أكثر من ما فعله العدو بهم.

ففرح المنافقون في جيش رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لهذا الحادث، وسروا به سروراً عظيماً حتى قال أبو سفيان شامتاً: لا ينتهي هزيمتهم دون البحر، وقال آخر: الا بطلَ السحرُ اليوم، وقال ثالثٌ: لا يجتبرها محمدٌ وأصحابه، وعزم رابعٌ على اغتيال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في ذلك الوضع المضطرب وإطفاء شعلة رسالته المقدسة.⁽¹⁾

استقامة النبي ومن ثبت من أصحابه:

لقد ازعج فرارُ المسلمين الذي كان نابعاً - في الدرجة الأولى من الفرع والفوضى التي أصابتهم، رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وأدرك - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأنه لو تأخر لحظة واحدة عن فعل ما يجب أن يفعله لتغيّر وجهُ التاريخ ولتبدّل مسار البشرية، ولحطّم جيش الشرك جيش التوحيد.

- [المغازي: ٣ / ٩٠٩ - ٩١٠، السيرة النبوية: ٢ / ٤٤٣، امتاع الاسماع: ١ / ٤١١ و ٤١٢.

(518)

من هنا صاح بأعلى صوته وهو على بغلته:

«يا أنصار الله وانصار رسوله أنا عبدُ الله ورسولُهُ.»

قال هذا واندفع ببغلته إلى ساحة القتال في المكان الذي جعله «مالك» وجنوده مسرحاً لمهاجمة المسلمين ومباغتتهم وقتالهم، ومشى معه من لازمه في تلك اللحظات وثبتوا معه كعلي بن أبي طالب - عليه السلام - والعباس بن عبدالمطلب، والفضل بن العباس، وأبي سفيان بن الحارث - الذين لم يغفلوا عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - منذ بدء القتال لحظة واحدة - ، وأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عمّه العباس الذي كان صاحب صوت عظيم أن ينادي في المسلمين الذي كانوا يواصلون فرارهم، ولا يلوون على شيء:

«يا معشر الانصار، يا معشر السمرة.⁽¹⁾»

ويقصد من السمرة الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان، فكان هذا النداء تذكيراً بتلك البيعة التي تعهدوا فيها لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بان ينصروه حتى الموت.

فبلغت صرخاتُ العباس مسامع المسلمين فثارت حميئتهم، وأخذوا يثوبون إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهم يقولون:
لبيك لبيك.

لقد أوجبتُ نداءاتُ العباس المتلاحقة التي كانت تخبر وتنبئ في الحقيقة عن سلامة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن تعود الجماعات الهاربة من ساحة القتال إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهي نادمة على فرارها ندماً شديداً، ونظّموا صفوفهم أمام العدو من جديد أفضل ممّا مضى، ثم حملوا حملة رجل واحد على العدو الغادر بأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لغسل ما لحق بهم من عار الفرار، واستطاعوا في أقصر مدة من الوقت ان يجبروا العدو على الانسحاب والفرار والرسول القائد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يقول تشجيعاً لهم، وتقوية لمعنوياتهم:

1- ولقد ذكر صاحب المغازي: في ج ٣ ص ٩٠٢ جانباً من بطولات علي - عليه السّلام - وتضحياته في هذه الموقعة.

(519)

«أنا النبي لا كذب

أنا ابن عبدالمطلب.»

وقد تسبّب استخدام هذا التدبير العسكري الحكيم في إرعاب رجال هوازن ومن ساعدهم من ثقيف المقاتلين، بشدة بحيث انهزموا أمام هجوم المسلمين هذا هزيمة قبيحة ومنكرة، تاركين وراءهم اموالهم ونساءهم وصبيانهم الذين أتوا بهم إلى ساحة المعركة، وجعلوهم خلف ظهورهم بناء على أوامر قائدهم مالك - كما أسلفنا - وفروا بعد أن قُتِلَ منهم جماعة إلى منطقة أوطاس ونخلة، وقلاع الطائف.

غنائم الحرب:

لقد بلغت خسائر المسلمين من الارواح في هذه المعركة ثمانية أشخاص في مقابل أسرسة آلاف نفر من العدو. كما وأن المسلمين غنموا في هذه الواقعة أربعة وعشرين ألف بعير، وأربعين ألف رأس غنم، وأربعة آلاف أوقية⁽¹⁾ من الفضة. ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمر بأن يؤخذ الاسرى والغنائم إلى منطقة تدعى الجعرانة (وهي ماء بين الطائف ومكة) وكلف أشخاصاً معيّنين بحراستها وحفظها وجعل الاسرى في بيوت خاصة، كما أمر بان تُحفظ الغنائم من دون أن يتصرف فيها أحدٌ في ذلك المكان، ريثما يرى فيها رأبه، بعد ان يلاحق فلول العدو الذي فرّ إلى أوطاس ونخلة والطائف⁽²⁾.

لقطتان من الخلق النبوي العظيم:

وينبغي ان نشير هنا إلى قصتين تدلان على سمو الاخلاق النبوية، وعمق

1-الرطل ٢٥٦٤ غرام والاقية ١٢ / ١ من الرطل فعلى هذا تكون الأوقية ٢١٣ غراماً، وأربعة آلاف أوقية تساوي ٨٥٢ كيلو غراماً.
2-كتب ابن هشام في سيرته أن عدد القتلى في هذه المعركة كان أربعة أشخاص، ولكن معركة واسعة مثل هذه يتوقع أن يكون قتلها أكثر من هذا العدد.

(520)

الرحمة الإسلامية:

1-بعد أن أعاد النبي المسلمون الهاربين إلى ساحة المعركة فكروا على هوازن وهزموهم هزيمة قبيحة، قالت ام سُلَيْم بنت ملحان للنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : يا رسول الله! ما رأيت هؤلاء الذي أسلموا وفرّوا عنك وخذلك!! لا تعفُ عنهم إذا أمكنك الله منهم، تقتلهم كما تقتل هؤلاء المشركين!

فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : يا أم سُلَيْم! قد كفى الله، عافية الله أوسع. (1)

وهكذا نجد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يعفو عن أصحابه الهاربين الذين خذلوهم في تلك الموقعة.

2-حنق المسلمون على المشركين في وقعة حنين فقتلواهم حتى اخذوا في قتل الذرية، فلما بلغ ذلك رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: ما بال أقوام ذهب بهم القتل حتى بلغ الذرية! ألا لا تقتل الذرية.

فقال أسيد بن الحضير: يا رسول الله أليس إنما هم أولاد المشركين!

فقال: أو ليس خياركم أولاد المشركين؟! كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسائها، وأبواها يهودانها أو ينصرانها. (2)

1- امتاع الاسماع: ١ / ٤٠٩.

2- امتاع الاسماع: ١ / ٤٠٩.

(521)

٥١

غزوة الطائف

«الطائف» من مصايف الحجاز ومن المناطق الخصبة، الكثيرة الزرع فيها، وتقع الطائف في الجنوب الشرقي من مكة على بعد (١٢) فرسخاً منها، وقد كانت ولا تزال بسبب مناخها اللطيف، وبساتينها المثمرة، ونخيلها الكثيرة مقصداً بل مركزاً وموطناً لطلاب اللذة والراحة من أهل الحجاز.

وقد كانت قبيلة ثقيف التي كانت تُعدُّ من القبائل العربية القوية الكثيرة العدد تسكن في هذا البلد.

وكانت أعراب ثقيف من الذين شاركوا في معركة «حنين» ضدَّ الإسلام والمسلمين، ثم لجأوا بعد الهزيمة المنكرة التي لحقت بهم على أيدي جنود الإسلام الظافرين إلى بلدتهم الذي كان لهم آنذاك فيه حصن قويّ ومنيع.

ولتكميل الانتصار الإسلامي أمر الرسولُ القائدُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بملاحقة الهاربين المنهزمين في معركة حنين. من هنا كُفِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أبا عامر الأشعري وأبا موسى الأشعري وفريقاً من جنود الإسلام بملاحقة من لجأ منهم إلى «أوطاس» فُقِّلَ القائدُ الأولُ في هذه الواقعة، واستطاع الثاني أن يحرز انتصاراً كبيراً على العدو ويفرق جمعه.⁽¹⁾

وأما النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - نفسه فقد توجه بالبقية من جيشه إلى

-[المغازي: ٣ / ٩١٥ و ٩١٦.

(522)

الطائف⁽¹⁾، ومرَّ في طريقه على حصن مالك بن عوف النصري مثير فتنة «حنين» ورأس المؤامرة، فهدمه وسوّاه بالأرض.

على أن تهديم حصن «مالك» لم يكن بدافع انتقامي بل كان لأجل أن لا يترك وراءه نقطة اعتماد وملجأ للعدوّ.

تحركت أعمدة الجيش الإسلامي الواحدة تلو الأخرى، واستقرت حول مدينة الطائف.

كان حصن الطائف حصناً منيعاً، مرتفع الجدران، قوي البنيان، فيه أبراجٌ للمراقبة مسيطرةٌ على خارج الحصن سيطرة كاملة.

ومنذ أن استقرَّ الجيش الإسلامي خارج الطائف بدأ حصاره لها، غير أنَّ الحصار لم يتكامل بعدُ حتّى عمَدَ العدو إلى رمي المسلمين

للحيلولة دون تقدّمهم نحو المواقع المرسومة لهم، فُقِّلَ بهذا جماعة من المسلمين في بداية هذه الواقعة.

فأمر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - الجيش بالانسحاب والتراجع التكتيكي إلى نقطة بعيدة عن مرمى العدو، والتمركز

فيها ريثما تصدر الأوامر الجديدة.

وهنا اقترح «سلمانُ الفارسي» الذي سبق له أن اقترح حفر الخندق في معركة الاحزاب، وكان ذا خبرة بفنون القتال، اقترح على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن يرمي الحصن بالمنجنيق⁽²⁾، وكان هذا الجهاز الذي كان يُستخدم في حروب تلك الأعرص يؤدي نفس دور الدبابة في الحروب الراهنة.

فقام أمراء الجيش الاسلامي بنصب المنجنيق بارشاد وتوجيه من سلمان، وأخذوا يرمون الحصن المذكور وأبراجه الشاهقة بالحجارة طوال عشرين يوماً متوالياً.

ولكن العدو لم يسكت تجاه هذه العمليات القوية التي بدأها المسلمون ،

1-بحار الأنوار: ٢١ / ١٦٣ .
2-امتاع الاسماع: ١ / ٤١٧ .

(523)

فزاد من رمية واستمر في ذلك، ف وقعت بين المسلمين بعضُ الاصابات نتيجة ذلك⁽¹⁾.

والآن يجب أن نرى كيف حصل المسلمون على جهاز المنجنيق، هذا؟

يرى البعض أن سلماناً هو الذي صنع هذا الجهاز وعلم المسلمين كيفية استخدامه في هذه الغزوة⁽²⁾.

ويرى آخرون ان المسلمين حصلوا على هذا الجهاز وغنموه من اليهود في خيبر عند فتح قلاعهم وحصونهم واصطحبوه معهم إلى الطائف واستخدموه في غزوها.

ولا يبعد أن الصحابي الجليل سلمان الفارسي قد ادخل بعض التحسينات على ذلك الذي جلبه المسلمون من خيبر، وعلم المسلمين كيفية نصبه واستخدامه في القتال، فانه يستفاد من التاريخ أن المنجنيق لم يكن منحصرأ في المنجنيق الذي حُصل عليه من يهود خيبر، لأن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعث الطفيل بن عمرو الدوسي لتحطيم أصنام لقبيلة «دوس» في وقت متزامن مع خروجه إلى معركة حنين ثم الطائف فعاد الطفيل فاتحاً مع من خرجوا تحت إمرته من جنود الإسلام الاربعمانية، وكانوا برمتهم من أبناء قبيلته، فقد قدم الطائف على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مع آلة منجنيق واحدة وعربيتين حربيتين خاصتين، وقد استُخدمت هذه الآليات في غزوة الطائف.

شدخُ جدار الحصن بالمنجنيق:

كان لابدّ لاختراع العدو ودفعه إلى الاستسلام من القيام بحملات واسعة ومن مختلف الأطراف والنواحي، ولهذا تقرر أن يقوم جنود الإسلام، مضافاً إلى

1- الطبقات الكبرى: ٢ / ١٥٨.
2- السيرة النبوية: ٤ / ١٢٦، و ابن هشام يرى أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هو اول من أستخدم المنجنيق في الجزيرة العربية.

(524)

رمي الحصن بالمنجنيق، بإيجاد ثغرة في الجدار فواجهوا مشكلة كبرى، لأن السهام والاحجار، والنيران كانت تنصبُّ على رؤوس المقاتلين المسلمين كالمطر، ولم يكن في مقدور أحد منهم الاقتراب والذنو من جدار الحصن، فكان أفضل وسيلة لتحقيق هذا الهدف هو استخدام الدبابة التي كانت في جيوش العالم الكبرى في تلك العصور في صورتها البدائية. وكانت الدبابة آنذاك تُصنَّع من الخشب وتُعطى بجلود البقر، ويدخل تحتها جماعة من الجنود الاقوياء ثم تتحرك نحو الحصن حتّى تندو إليه، ويقوم الجنودُ بعملية إيجاد ثغرة أو نَقَب في جدار الحصن، فاستخدم نفراً من جنود الإسلام الشجعان الاشداء هذا الجهاز بالطريقة المذكورة، بيد أن العدو قد حال دون هذا العمل إذ ألقى على الدبابة سكك الحديد المحماة بالنار فاخرب سقفها، واضطرَّ أفرادها إلى الخروج منها، فرمنهم تقيف بالنبل فقتلت منهم رجلا واحداً ولم ينتج هذه التكتيك القتالي، ولم يتحقق أى نجاح في هذا المجال، فأنصرف المسلمون عن استخدامه. (1)

ضغوط اقتصادية ونفسية:

إن تحقيق الانتصار لا ينحصر في مجرد استخدام الطرق والتكتيكات العسكرية، بل للقائد الحكيم أن يستخدم - لضعاف قوة العدو و كسر صموده - الضربات والضغوط الاقتصادية ويجبره على الاستسلام.

وقد تكون الضربة النفسية والاقتصادية اقوى مفعولا بدرجات أي إن أثرها تفوق بمراتب عديدة أثر الضربة العسكرية، والإضرار البدني الذي يلحق بجنود العدو وأفراده.

ولقد كانت أرض الطائف أرض زراعة، ونخيل وأعناب، وكانت معروفة

1- المغازي: ٣ / ٩٢٨.

(525)

في الحجاز بخصبها، وكثرة محاصيلها وخيراتها، لأن أهلها كانوا يجهدون كثيراً في تنمية نخيلهم وأعنابهم ورعايتها، ويؤلون الحفاظ عليها اهتماماً كبيراً، ويعطون هذا الأمر القسط الأكبر من جهودهم.

فأعلن رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لتهديد المتمردين اللاجئين إلى الحصن، والمعتمدين به، بأنه سيعمد إلى قطع أعناب ثقيف، وإفناء مزارعها إذا واصل المعتمضون بالحصن مقاومتهم ولم يسلموا للمسلمين.

فلم يكثرث العدو بهذا التهديد لأنه لم يك يتصور أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو النبي الذي عُرف برحمته ورأفته - يستخدم مثل هذه الطريقة.

وفجأة وجدت «ثقيف» أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أصدر أوامره بقطع الأعناب، واتلاف المزارع وتحريقها، فوقع المسلمون فيها يقطعون ويحرقون.

فعبّثت «ثقيف» لذلك وضّجت، واستغاثت برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأقسمت عليه بالرحم والقرابة أن يكف عن ذلك، فتركها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إحتراماً لوشيجة القري التي كانت بينه وبين «ثقيف». »

ان المعتمضين بحصن الطائف وان كانوا من مثيري معركة حنين والطائف، وتلك الغزوتان اللتان كلفتا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الكثير من الخسائر والمتاعب غير أنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قَبِلَ مع ذلك التماس العدو وطلبه هذا، فابدى وللمرة الأخرى وجه الإسلام الرحيم وكشف عن إنسانيته في التعامل مع العدو اللدود في ميدان القتال، وأمر أصحابه بالكف عن قطع الاعناب وتحريقها.

ثم إن مع ما نعرفه ونعهده من أخلاق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأساليبه الإنسانية في مجال التعامل مع العدو، يمكننا أن ندرك بسرعة أن الامر بقطع الاعناب وتحريق المزارع كان مجرد تهديد ومحاولة ضغط على العدو بحيث إذا لم تنجح هذه الطريقة معه لكف عنها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حتماً.

كانت قبيلة «ثقيف» جماعة ثرية، وذات مال كثير، وعبيد واماء كثيرين، ولكي يحصل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على معلومات دقيقة عن الاوضاع في داخل الحصن، ويعرف بالتالي حجم امكانات العدو ومدى استعداداته من جهة، ويوجد الاختلاف في صفوفه من جهة أخرى أمر أن يعلن عن القرار التالي: و ينادى: أئ عبد نزل من الحصن وخرج البنا فهو حرٌ.

ونفَعَتْ هذه الطريقة إلى حدّ ما، فقد خرج من الحصن بطريقة ماهرة حوالي بضعة عشر رجلا من عبيد ثقيف ورقيقهم، والتحقوا بصفوف المسلمين فعرف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من خلال التحقيق معهم أنّ المعتمدين بالحصن لا ينوون الاستسلام، وأنهم مستعدون للمقاومة حتّى لو طال الحصار عاماً واحداً، فإنهم قد أعدوا لمثل هذا الحصار الطويل الطعام الكافي، ولن يقعوا في أزمة بسبب طول الحصار.

جيش الإسلام يعود إلى المدينة:

استخدم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في هذه الغزوة جميع الاساليب والتكتيكات العسكرية المادية والنفسيّة ضدّ العدو، وقد اثبتت التجربة أن فتح الحصن يحتاج إلى مزيد من الصبر و العمل، على حين لم تكن ظروف الجيش الاسلامي وامكاناته - يومذاك - لتسمح بذلك القدر من الصبر والترقب، والانتظار والتوقف، اكثر ممّا توقف ومكث في تلك المنطقة وذلك:

أولاً: لأنه قُتِلَ في اثناء هذه المحاصرة (١٣) مسلماً سبعة منهم من قريش، وأربعة من الانصار، ورجل واحد من قبيلة أخرى.

هذا مضافاً إلى من استشهد من المسلمين في وادي «حنين» إثر هجوم العدو الغادر، وانفراط صفوف الجيش الاسلامي، والذين لم يذكر التاريخ مع

(527)

الأسف أسماءهم، وخصوصياتهم، ولهذا كان قد دبَّ نوعٌ من التعب في نفوس جنود الإسلام لم يكن من الصالح تجاهله.

وثانياً: أن شهر شوال قد انتهى، وبدأ شهر ذي القعدة الذي كان معدوداً عند العرب من الاشهر الحرم وقد أيد الإسلام فيما بعد هذه السنّة، وأكّد حرمة الاشهر الحرم.

من هنا كان من الضروري - حفاظاً على هذه السنّة - (١)إنهاء الحصار في أقرب وقت لكي لا تتهم عربٌ ثقيف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمخالفة السنّة الصالحة وخرقها.

أضف إلى ذلك دُنُو حلول موسم الحج، مع العلم بأن إدارة ذلك الموسم ومناسكه كانت في ذلك العام للمسلمين، بعد أن كانت - قبل ذلك - تُدار بواسطة المشركين وبرعايتهم.

ولا شك أن موسم الحج الذي كان سبباً لحصول اجتماع بشريّ عظيم من سكان الجزيرة العربية كان يوفّر أكبر وأفضل فرصة لتبليغ الإسلام وبيان حقيقة التوحيد، وكان على النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أن يستغلّ هذه الفرصة العظيمة التي أُتيحت له لأول مرة، في مجال الدعوة، ويستفيد منها أكبر قدر ممكن ويولي إهتمامه لقضايا أخرى أكثر أهمية وخطورة من فتح حصن واقع في منطقة نائية.

مع أخذ هذه الظروف بنظر الاعتبار ترك الرسول القائد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - حصار الطائف وعاد بجيشه إلى الجعرانة التي جعلها محلاً لحفظ أسرى حنين وغنائمها.

- [ويبدلُ على هذا الأمر أنّ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ترك مكة متوجّهاً إلى الطائف في الخامس من شهر شوال واستغرقت مدة الحصار عشرين يوماً، وصرفت بقية الأيام (وهي خمسة) في المسير إلى حنين، وفي المعركة. وقلنا بان الحصار طال عشرين يوماً يستند إلى رواية نقلها ابن هشام، إلا أن ابن سعد ذكر مدة الحصار أربعين يوماً (الطبقات الكبرى: ١٥٨/٢).

(528)

حوادث ما بعد الحرب:

انتهت حوادث معركة «حنين» و«الطائف» وعاد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من دون تحقيق نتيجة قطعية إلى «الجعرانة» لتقسيم غنائم معركة «حنين». »

والغنائم التي حصل عليها المسلمون في معركة «حنين» كانت من أكبر الغنائم التي غنمها طوال المعارك الإسلامية كلها، لأن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يوم قدم «الجعرانة» كان هناك ستة آلاف أسير، و (٢٤) ألف من الإبل وأكثر من (٤٠) ألف رأس غنم و (٨٥٢) كيلو غرام من الفضة يحافظ عليها في مركز الغنائم⁽¹⁾ وكان من الممكن أن تسدّد القيادة من هذه الغنائم قسماً كبيراً من ميزانية الجيش الإسلامي.

لقد مكث رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في «الجعرانة» ثلاثة عشر يوماً، وفي هذه المدة قسّم تلك الغنائم بطريقة خاصة ملفتة للنظر وجديرة بالتأمل والدراسة.

فقد خلى سبيل بعض الأسرى، وتركهم لذويهم، وخطّط لاختضاع (أو بالاحرى إسلام) مالك بن عوف النصراني مثير معركة حنين والطائف الهارب، كما أظهر تقديره وشكره لمواقف الأشخاص في هاتين الغزوتين وخدماتهم، وجذب بسياسته الحكيمة أفئدة أعداء الإسلام ورغبتهم في عقيدة التوحيد الشريفة، وأنهى نقاشاً حدث بينه وبين جماعة الأنصار حول طريقة تقسيم الغنائم بخطبة جميلة.

واليك تفصيل الكلام في المواضيع المذكورة:

1- لقد دأب رسول الإسلام - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - على احترام حقوق الأفراد، وتتمين جهودهم مهما ضولت ودقّت، وعلى أن لا يبخس أحداً عمله، فإذا أحسن

[الطبقات الكبرى: ٢ / ١٥٢].

(529)

إليه أحدٌ قابل إحسانه بما يزيد عليه أضعافاً مضاعفة. وكان ذلك من أبرز صفاته وأخلاقه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - .

فقد رضع رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وترعرع في قبيلة بني سعد التي هي من قبائل هوازن، وقد ارضعته امرأة من هذه القبيلة تُدعى «حليمة السعدية»، وقد بقي في تلك القبيلة خمسة أعوام.

وقد شاركت قبيلة بني سعد في معركة حنين ضد الإسلام فسببت بعض نسايتهم وأطفالهم على أيدي المسلمين، كما وقعت بعض أموالهم بأيديهم أيضاً، وقد ندمت على فعلها ندماً شديداً.

وقد كانوا يعلمون أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - نشأ وترعرع فيهم، ورضع بلبن نسايتهم هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانوا يعرفون أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ملء قلبه الرحمة والمروءة ومعرفة الجميل، فإذا سنح لهم أن يذكروه بذلك لأطلق أسراهم حتماً.

فقدّم أربعة عشر رجلاً من رؤسائهم الذين كانوا قد أسلموا جمعياً «الجعرانة» على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وقد أمروا على أنفسهم شخصيتين من رجالهم أحدهما هو «زهير بن صرد» و الآخر عمّ للنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من الرضاة، فقالوا: يا رسول الله إنّما في هذه الأسرى من يكفلك من عماتك وخالاتك، وحواضنك، وقد حضّناك في حجورنا وارضعناك بثدينا، ولقد رأيتك مرضعاً فما رأيت مرضعاً خيراً منك، ورأيتك فطيماً فما رأيت فطيماً خيراً منك، ورأيتك شاباً فما رأيت شاباً خيراً منك، وقد تكاملت فيك خلال الخير، ونحن مع ذلك أهلك وعشيرتك فأمنن علينا من الله عليك.

وقال زهير بن صرد: يا رسول الله إنّما في هذه الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفّنك، ولو أننا ملّخنا للحارث بن أبي شمر، أو النعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفه وعائدتنا علينا وأنت خير المكفولين.

(530)

فقال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لهم:

«إن أحسنَ الحديثِ أصدقُهُ، وعندِي من ترون من المسلمين، فابناؤُكم ونساؤُكم أحبُّ إليكم أم أموالكم؟»

قالوا: يا رسول الله خيّرتنا بين أحسابنا وأموالنا وما كُنّا نعدُّ بالأحساب شيئاً، فرَدَّ علينا أبناءنا ونساءنا.

فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«أما ما لي ولبني عبدالمطلب فهو أنكم وأسأل لكم الناس وإذا صَلَّى الظهرَ بالناس فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين،

وبالمسلمين إلى رسول الله فاني سأقول: لكم ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم وأسأطِبُ لكم إلى الناس.»

فلما صَلَّى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الظهرَ بالناس قاموا فتكلموا بالذي أمرهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم

- فقالوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم.

وبهذا وهب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لهم نصيبه من الاسرى.

فقال المهاجرون: أمّا ما كان لنا فهو لرسول الله.

وقال الانصارُ: ما كان لنا فهو لرسول الله.

وهكذا وهب الانصارُ والمهاجرون نصيبهم من الاسرى تبعاً لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولم يتأخر عن ذلك إلا قليلون

مثل «الاقرع بن حابس» و «عبيدة بن حصن» فقد امتنعا عن أن يهبنا نصيبهما، ويطلقا سراح ما عندهم من السبايا، فقام رسول

الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال: إن هؤلاء القوم جاؤوا مسلمين وقد استأنيتُ بهم، فخيّرْتهم بين النساء والأبناء، والأموال،

فلم يعدلوا بالأبناء والنساء، فمن كانت عنده منهنّ شيء فطابت نفسه أن يرده فليرسل،

(531)

ومن أبى منكم وتمسك بحقه فليردّ عليهم، فله بكل انسان ست فرائض (أي سوف أعطيه بدل الواحد ستاً) من أول ما يفىء الله به

علينا. (1)

فكان لعمل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذا أثرٌ عظيم في نفوس المسلمين حيث خلّوا سبيل جميع من كان في أيديهم من

الاسرى والسبايا إلا امرأة عجزاً امتنع «عبيدة» من ردها إلى ذويها.

وهكذا أثمر عمل صالحٍ عُرست ثنيتاه - قبل ستين عاماً - في أرض قبيلة بني سعد على يدي حليلة السعدية، فاتت أكلها بعد مدة طويلة وأطلق بفضل ذلك العمل الصالح سراح الاسرى والسبايا من هوازن. (2)

ثم ان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - دعا أخته من الرضاعة «الشيما» (3) «وبسط لها رداءه ثم قال: اجلسي عليه، ورحب بها، ودمعت عيناه، وسألها عن أمه وأبيه من الرضاعة، فأخبرته بموتها في الزمان، ثم قال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لها: «إن أحببت فأقيمي عندنا محبة مكرمة وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت. »

فقال: بل ثمّعتني وتردّني إلى قومي، فمتّعها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وردّها إلى قومها، بعد أن أسلمت طوعاً ورغبة، وأعطاه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثلاثة أعبد وجارية. (4)

وقد قوى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - باخلائه سبيل جميع أسرى هوازن وسباياها من رغبة هوازن في الإسلام فاسلموا من قلوبهم، وهكذا فقدت

1-المغازي: 3 / 949 - 953 .
2-الطبقات الكبرى: 2 / 153 و 154، السيرة النبوية: 2 / 490، والحادثة التاريخية هذه جسدت مضمون قول الله تعالى (مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فلنحبيبه حياة طيبة ولنجزينهم بأحسن ما كانوا يعملون) (النحل: 97) .
3-هي الشيماء بنت الحارث بن عبدالعزى.
4-البداية والنهاية: 2 / 363 و 364، الامتاع: 1 / 413 .

«الطائف» آخر حليف من حلفائها.

-2- اسلام مالك بن عوف:

في هذه الأثناء اغتتم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الفرصة ليعالج مشكلته مع «مالك بن عوف النصرى» مثير حرب حنين، عن طريق وفد بني سعد وذلك بترغيبه في الإسلام وعزله عن حليفه: «تقيف. »

ولهذا سألهم عن مالك ما فعل؟ فقالوا يا رسول الله هو بالطائف مع تقيف.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وما له وأعطيتُه مائة من الإبل.»

فبَعَّ وفد هوازن مالكا كلام رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأمانته المشروط، فقرّر مالك الذي كان يرى بأمر عينيه تعاضم أمر الإسلام واشتداد أزره كما رأى رحمة النبي ولطفه، أن يخرج من الطائف، ويلتحق بالمسلمين، ولكنه كان يخشى أن تعرف

«ثقيف» بنيته فتحبسه في الحصن، ولهذا عمد إلى خطة خاصة للفرار، فقد أمر باعداد راحلته فهَيَّئَتْ له، وأمر بفرس له فآتي به إلى الطائف، فركب فرسه وركَّضَهُ حَتَّى أتى راحلته حيث أمر بها أن تُحبس فركبها، فلحق برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فادركه بالجرانة أو بمكة، فردَّ عليه النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل كما وعدَّ من قبل، واسلم فحسُن إسلامه، ثم استعمله رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على من أسلم من قومه وقبائل «ثماله» و «سلمة» و «فهم» .»

وقد انشد «مالك بن عوف» أبياتاً عندما أسلم يصف فيها خلائق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الكريمة، ويمدحه أجمل مديح إذ يقول:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله * في الناس كلهم بمثل محمَّد

أوفى وأعطى للجزيل إذ اجتدي * ومتى تشأُ يخبرك عما في غد

(533)

وإذا الكتيبة عرَدتُ أنياها * بالسهمريّ وضرب كلَّ مهتد

فكأنه ليثٌ على أشباله * وسط الهبابة خادرٌ في مرصد

وصار يقاتل بتلك القبائل ثقيفاً لا يخرج لهم سرخٌ إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم لما حصل عليه من مكانة وعزة في الإسلام، وبعد أن أدرك فُبح موقف «ثقيف» (1) .»

3- تقسيم الغنائم:

كان أصحابُ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يلحون عليه أن يسرع في تقسيم غنائم الحرب، ولكي يدلل النبي الكريم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على حياده الكامل في تقسيم الغنائم قام إلى بغير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها ثم قال:

«أيها الناس والله مالي في فينكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردودٌ عليكم، فادّوا الخياط والمخيط فإن الغلُولَ (أي الخيانة في بيت المال) يكونُ على أهله عاراً، وناراً، وشناراً يوم القيامة.»

ثم ان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قسّم أموال بيت المال بين المسلمين، واما الخمس الذي هو حقه الخاص به فقد ورَّعه بين أشرف قريش الحديثي العهد بالاسلام يتألفهم، ويتألف بهم قومهم، فأعطى من هذا المال لـ: أبي سفيان بن حرب، وابنه معاوية،

وحكيم بن حزام، والحارث بن الحارث، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، والعلاء بن جارية وصفوان بن أمية، وغيرهم ممن كانوا يعادونه إلى الأمس القريب من رؤوس الشرك ورموز الكفر، لكل واحد منهم مائة بعير. (2)

1- السيرة النبوية: ٢ / ٤٩١ وعزّدت أي عوّجت.
2- راجع المحبّر: ص ٤٧٣، المغازي: ٣ / ٩٤٤ - ٩٤٨، السيرة النبوية: ٣ / ٤٩٣، امتاع الاسماع: ١ / ٤٢٣.

(534)

وقد كان لهذا العطاء السخيّ أثره الطيب والبالغ في نفوس تلك الجماعة التي شملها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - برحمته، ولطفه، وعنايته، وكرمه، واشتدّت رغبتهم في الإسلام.

وهذا الفريق هم من يُصطلح عليهم في الفقه الاسلامي بالمؤلفة قلوبهم، وهم يشكّلون إحدى مصارف الزكاة بنص القرآن الكريم. ويقول ابن سعد في الطبقات الكبرى بعد ان ذكر قصة هذا التقسيم الخاص للغنائم: وأعطى ذلك كله من الخمس وهو أثبت الاقارب عندنا. (1)

ولقد شق هذا النوع من الاسلوب في تقسيم الغنائم وهذا النمط من البذل الذي مارسه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، على بعض المسلمين، وبخاصة الانصار وقد جهلوا بالمصالح التي كان يراعيها، والأهداف العليا التي كان يتوخّاها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من هذا النوع من البذل والعطاء (وهو تخصيص حديثي العهد بالاسلام باكثر الغنائم).

لقد كانوا يتصورون ان التعصب القبلي هو الذي دفع بالرسول القائد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى أن يقسم خمس الغنيمة بين أبناء قبيلته حتّى أن احدهم (وهو ذو الخويصرة التميمي) قال لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بكل وقاحة: يا محمّد قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم، لم أرك عدلت!!

فغضب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من كلامه هذا وقال:

«وَيْحَكَ إِذَا لَمْ يَكُنْ الْعَدْلُ عِنْدِي فَعِنْدَ مَنْ يَكُونُ»!؟

فطلب عمر بن الخطاب من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يأذن له بقتله، فلم يأذن له النبي وقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :
وسلم - :

«دَعُهُ فَإِنَّهُ سَيَكُونُ لَهُ شِيعَةٌ يَتَعَمَّقُونَ فِي الدِّينِ (أي يتتبعون أقصاه) حَتَّى

(535)

يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية⁽¹⁾.»

وقد كان هذا الرجل - كما قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - - زعيم فرقة الخوارج في عهد حكومة الإمام علي - عليه السلام - ، فهو الذي قاد تلك الفرقة الخطرة، غير أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يقدم على عقوبته على ما بدر منه فيما بعد لأن القصاص أو العقاب قبل الجناية يخالف قواعد الإسلام.

ولقد رفع «سعد بن عباد» شكوى الأنصار حول كيفية تقسيم الخمس إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقال النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لسعد: إجمَع مَنْ كان هاهنا من الأنصار في هذه الحظيرة.

فجمع سعدُ الأنصار في تلك الحظيرة، فلما اجتمعوا دخل عليهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وعليه جلالُ النبوة، وهيبة الرسالة، فحمد الله واثى عليه بالذي هو أهله ثم قال:

«يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضللاً فهداكم الله وعالة فاغناكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم؟»

قالوا: بلى الله ورسوله أمنٌ وفضل!

قال:

ألا تجيبوني يا معشر الانصار؟»

قالوا: وماذا نجيبك يا رسول الله ولرسول الله المنُّ والفضل؟

قال:

«أما والله لو شئتم قلتم فصدقتم أتيناكم مكذبا فصدقناكم ومخذولاً فنصرتناك

1- السيرة النبوية: ٢ / ٤٩٦، السيرة الحلبية: ٣ / ١٢٢، وفي المغازي: ٣ / ٩٤٨ أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال فيه: «دعه إن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية... يخرجون على فرقة من المسلمين». وراجع امتاع الاسماع: ١ / ٤٢٥ وجاء في السيرة الحلبية انه أصل الخوارج.

وطريداً فأويناك وعانلاً فأسيناك (1) وجدُّنم في أنفسكم يا معشر الأنصار في شيء من الدنيا تألفت به قوماً ليسلموا و كُنْتُمْ إلى
إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكُم؟

والذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيده لولا الهجرة لكنتُ امرءاً من الأنصار، ولو سلكَ الناسُ شِعْباً وسلكتُ الأنصارُ شِعْباً لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأنصار.»
ثم ترخَّم على الأنصار وعلى أبنائهم وعلى أبناء أبنائهم فقال:

«اللَّهُمَّ أَرْحَمِ الأنصارِ وَأَبْنَاءِ الأنصارِ وَأَبْنَاءِ أبنَاءِ الأنصار.»

وقد كانت كلماتُ النبي - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - هذه من القوة والعاطفية بحيث أثارت مشاعر الأنصار، فبكوا بعد سماعها بكاءً
شديداً حتَّى اخضلت لحاهمُ وابتلت بالدموع وقالوا: رَضِينَا يَا رَسُولَ اللهِ حَظًّا وَقِسْمًا!!!
ثم انصرف رسول الله - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - وتقرَّ قوا . (2)

ان هذه القصة تكشف عن عمق حكمة النبي - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - وعن حنكته السياسيَّة البالغة، وكيف أنه كان يعالج المشاكل
باساليب مناسبة وبروح الصدق واللطف.

رسول الله يعتمر:

ثم ان رسول الله - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - خرج من الجعرانة معتمراً، بعد ان قسم الغنائم، فلما فرغ من عمرته انصرف راجعاً
إلى المدينة، فقدم المدينة في اواخر شهر ذي القعدة، أو أوائل شهر ذي الحجة.

- [1] إن هذا يفيد ان النبي - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - ما كان ينسى فضل أحد عليه وان كان هو - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - صاحب
الفضل الاكبر على الناس اجمعين.
- [2] السيرة النبوية: ٢ / ٤٩٨ و ٤٩٩، المغازي: ٣ / ٩٥٧ و ٩٥٨.

فرغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في منتصف شهر ذي القعدة، من السنة الثامنة للهجرة من قسمة غنائم حنين في الجعرانة، وكان موسم الحج على الأبواب، وكانت هذه السنة هي السنة الأولى التي كان يتوجب على الحجاج العرب، مسلمين ومشركين، أن يقوموا بمناسك الحج تحت رعاية الحكومة الإسلامية

وكان اشتراك رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في هذه الشعائر يزيد الحج عظمة وجلالاً، وكان من الممكن - وبفضل قيادته الحكيمة - أن تتم في ذلك الحشد الهائل والاجتماع العظيم دعوةً صحيحةً وقويةً وواسعةً إلى الإسلام، بينما كانت ثمة مسؤوليات في المدينة تنتظر عودة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وقد مضى على مفارقتها المدينة ما يقرب من ثلاثة أشهر، وكانت الأعمال التي يجب أن يقوم بها هو بنفسه قد تعطلت طوال هذه المدة.

وبعد دراسة هذه المسألة من جوانبها المختلفة رأى الرسول القائد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يكتفي بعمره، يغادر بعدها مكة ليصل إلى المدينة في أقرب وقت ممكن.

ولكنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رأى أنه لا بد أن يعين شخصاً صالحاً لإدارة الأمور السياسية والدينية في المنطقة الحديثة العهد بالفتح الإسلامي (نعني مكة) حتى لا تحدث في غيابه أزمة فيها، وحتى تجري الأمور على النسق الصحيح والمطلوب.

(538)

من هنا استخلف النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «عتاب بن اسيد» على مكة، وكان عتاب شاباً لبيباً يتسم بالصبر والجلد، وكان له من العمر إذ ذاك عشرون سنة، وقد قرّر له النبي راتباً قدره درهمٌ واحدٌ كل يوم.

وبهذا العمل (أي تعيين شاب حديث العهد بالإسلام والإيمان في مقتبل العمر، ولكن كفؤ لتسيير الأمور في مكة، وتفضيله على كثير من الشيوخ وكبار السن) حطّم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سداً خيالياً، ومفهوماً باطلاً في مجال التوظيف والتأجير.

فان جماعة من الناس لما أمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «عتاباً» على أهل مكة قالوا: إن محمداً لا يزال يستخفُّ بنا حتى ولّى علينا غلاماً حدث السنّ ابن ثمانية عشر سنة، ونحن مشايخ ذوو الأسنان فاجابهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بقوله في كتاب كتبه لعناب:

« لا يَحْتَجُّ مُنْتَجِّ مُنْكُمْ فِي مَخَالَفَتِهِ بِصَغَرِ سِنِّهِ، فَلَيْسَ الْأَكْبَرُ هُوَ الْأَفْضَلُ بَلِ الْأَفْضَلُ هُوَ الْأَكْبَرُ وَهُوَ الْأَكْبَرُ فِي مَوَالِئِنَا وَمَوَالِيَةِ أَوْلِيَانِنَا وَمَعَادَاةِ أَعْدَائِنَا فَلِذَلِكَ جَعَلْنَا الْأَمِيرَ عَلَيْكُمْ وَالرَّئِيسَ عَلَيْكُمْ فَمَنْ أَطَاعَهُ فَمَرْحَباً بِهِ وَمَنْ خَالَفَهُ فَلَا يُبْعَدُ اللَّهُ غَيْرَهُ. (1) »

وبهذا أثبت - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عملياً أن حيازة المناصب الاجتماعية إنما تدور فقط حول معيار الأهلية والجدارة، والكفاءة، وأن صغر السن لا يمنع من ذلك إذا كان صاحبه يتمتع بكفاءة عالية.

ثم ان «عَتَاباً» قام فخطب في الناس فقال: أَيُّهَا النَّاسُ أَجَاعَ اللَّهُ كَيْدَ مَنْ جَاعَ عَلَى دَرَاهِمٍ، فَقَدْ رَزَقَنِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - دَرَاهِمًا كُلَّ يَوْمٍ، فَلَيْسَتْ بِي حَاجَةٌ إِلَى أَحَدٍ. (2)

1- بحار الأنوار: ٢١ / ١٢٢ و ١٢٣، امتاع الاسماع: ١ / ٤٣٢ و ٤٣٣.
2- السيرة النبوية: ٢ / ٥٠٠.

(539)

وأحسن رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - الاختيار أيضاً عندما عَيَّن «معاذ بن جبل» ليعلمَ الناس القرآن ويفقههم في الدين، فقد كان معاذ ممن عرف بالفقه، والمعرفة باحكام القرآن بين أصحاب رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - حتَّى أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لما بعثه للقضاء، إلى اليمن سأله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : بِمَ تَقْضِي إِنْ عَرَضَ قِضَاءٌ فَقَالَ: أَقْضِي بِمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ.

قال: فإن لم يكن في كتاب الله ؟

قال: أقضي بما قضى به الرسول.

قال: فإن لم يكن فيما قضى به الرسول ؟

قال: أجتهد رأيي ولا ألو.

فضرب النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - صدره، وقال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لَمَا يَرْضَى رَسُولُ اللَّهِ.» (1)

قصة كعب بن زهير بن ابي سلمى:

كان «زهير بن أبي سلمى» من شعراء العرب البارعين في العهد الجاهلي، فهو صاحب إحدى المعلقات السبع التي بقيت منصوبة في الكعبة المعظمة حتى قبيل نزول القرآن الكريم، وكانت تفتخر بها العرب، وتبدأ معلقته تلك بقوله:

أَمِنْ أُمَّ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ * بِخَوَامِنِ الدَّرَاجِ فَالْمُنْتَلَمِ

وقد توفي «زهير» قبل عصر الرسالة، وخُف ولذّين هما: «بجير»، و «كعب» وكان الأول ممّن آمن برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ونصّره، وأحبّه، بينما عادى الثاني (كعب) رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بشدّة، وحيث إنه كان ذا قريحة شعرية موروثة قوية، لهذا كان يهجو رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في قصائده

- [الطبقات الكبرى: ٢ / ٣٤٧ و ٣٤٨، ويكتب الجزري في اسد الغابة: (ج ٣ ص ٣٥٨) كان عتاب رجلاً خبيراً صالحاً فاضلاً.

(540)

وأشعاره ويؤلب الناس ضدّ الإسلام.

ولما قدم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المدينة في الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة كان «بجير» قد شارك مع النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في فتح مكة، وحصار الطائف، وقد شاهد عن كثب كيف هدّد النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالقتل بعض الشعراء الذين كانوا يهجون رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويؤلبون الناس ضدّ الإسلام، وأهدر دماءهم.

فكتب بهذا إلى أخيه (كعب) ونصحته في آخر كتابه قائلاً: إن كائن لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً.

فاطمأن كعب بكلام أخيه، وتوجّه من فوره إلى المدينة فدخل المسجد ورسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يتهيأ لصلاة الصبح، فصلى مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لأول مرّة ثم جلس إليه، ووضع يده في يده، وكان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لا يعرفه، فقال: يا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً فهل أنت قابلٌ منه إن أنا جئتك به ؟

قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : نعم.

قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير . (1)

ثم أخرج كعب قصيدته اللامية العصماء التي مدح فيها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والتي كان قد أنشأها من قبل، وانشدّها بين يدي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المسجد ليتلافى بها ما سبق أن بدّر منه من هجاء وطعن في سيد المرسلين - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - . (2)

1- روي أنه وثب على كعب - في تلك الحال - رجلاً من الانصار فقال: يا رسول الله دعني وعدو الله أن أضرب عنقه، فقال النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :دعه عنك فإنه قد جاء تائباً نازعاً (عما كان عليه)، السيرة النبوية: ٢ / ٥٠١ .
2- السيرة الحلبية: ٣ / ٢٤٢ .

(541)

وهذه القصيدة الرائعة هي من أفضل قصائد كعب وقد اعتنى المسلمون بحفظها ونشرها منذ أن أنشدها الشاعرُ المذكور بين يدي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المسجد، وقد شرحها علماء الإسلام كثيراً، وعدد ابیات هذه اللامية (أي التي تنتهي قوافيها باللام المضمومة) ٥٨ بيتاً ومطلعها:

بانث سعادُ فقلبي اليوم متبولٌ * متيمٌ إثرها لم يُفد مكبولُ

لقد بدأ كعب قصيدته هذه - على عادة شعراء العهد الجاهلي (الذين كانوا يبدأون قصائدهم بمخاطبة محبوبتهم أو مخاطبة الاطلال) - بذكر سعاد زوجته وابنة عمه، ولقد خصها بالذكر لطول غيبته عنها، لهروبه من النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فيقول: فارقنتي سعادُ فراقاً بعيداً فقلبي اليوم أسقمه الحبُّ، وأضناه، فهو ذليلٌ لغيبتها لم يخلص من الأسر والقيد.

ثم يمضي في هذا النمط من الكلام حتى يصل إلى أن يعتذر من صنيعه السيء فقال:

تُبَيِّتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي * وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ

مهلاً هَدَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِ * لَمَّا الْقُرْآنَ فِيهَا مَوَاعِيظُ وَتَفْصِيلُ

لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ * أَذْنَبْ وَلَوْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلُ

إلى أن قال:

إن الرسولَ لنورٌ يُستضاءُ بهُ * مُهَنَّدٌ من سيوفِ الله مسلولٌ(1)(2)

1- السيرة النبوية: ٢ / ٥٠١ - ٥١٤ .
2- يقال: إن كعباً عندما فرغ من انشاء قصيدته كساه النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بُردة كانت عليه، فلما كان زمن معاوية أرسل إلى كعب أن بعنا بُردة رسول الله، فقال: ما كنت لأؤثر بثوب رسول الله أحداً، فلما مات كعب اشتراها معاوية من أولاده بعشرين ألف درهم وهي البردة التي كان يلبسها الخلفاء الامويون والعباسيون (راجع الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٧٦). وجاء في ناسخ التواريخ الجزء الثالث من المجلد الثاني أن كعباً لما قال «إن النبي لسيفٌ يستضاء به» قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «إن النبي لنورٌ.»

(542)

حُزْنُ قَارِنٍ فَرِحًا:

في أواخر السنة الثامنة للهجرة فقد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كُبرى بناته: «زينب»، وقد تزوجت زينب قبل البعثة بابن خالتها أبي العاص، وأمنت بأبيها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد البعثة من دون تأخير، ولكن زوجها ظل على شركه، وشارك في «بدر» ضد الإسلام والمسلمين، وأسير في تلك المعركة فخلّى رسول الله سبيله، شريطة أن يبعث بابنته «زينب» إلى المدينة.

وفعل ابن العاص ذلك فجهر زوجته «زينب» وبعثها برفقة أخيه إلى المدينة، غير أن سادة قريش عرفوا بذلك، فكلفوا من يعيدها إلى مكة، فلحق بها الرجل في أثناء الطريق، فضرب هودجها برمحه ففزعت زينب ابنة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واسقطت حملها من شدة الفرع، ولكنها لم تتصرف عن الذهاب إلى المدينة، فقد اصلت سيرها حتى قدمت المدينة وهي عليلاً، وقضت بقية عمرها مريضة حتى توفيت في أواخر السنة الثامنة من الهجرة.

ولكن هذا الحزن قارنه فرح وسرور فقد رزق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في أواخر نفس ذلك العام ولداً اسمه «ابراهيم» من زوجته «مارية القبطية» (وهي الجارية التي أهداها المقوقس حاكم مصر إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -).

والجدير بالذكر أنه عندما بشرت سلمى (المولدة) رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بذلك، أعطاها هدية ثمينة، وعق له في اليوم السابع من ولادته، وخلق شعره، وتصدق بوزن شعره، فضة في سبيل الله. (1)

-[تاريخ الخميس: ٢ / ١٣١].

(543)

حوادث السنة التاسعة من الهجرة

٥٣

علي بن أبي طالب في أرض طي

إسلام عدي بن حاتم:

انقضت السنة الهجرية الثامنة بكل حوادثها المرّة والخلوة، فقد سقطت أكبر قاعدة من قواعد الوثنية والشرك في أيدي المسلمين، وعاد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى المدينة ظافراً منتصراً على أعداء الإسلام إنتصاراً كاملاً، وقد هيمنت ظلال القوة العسكرية الإسلامية على أكثر أنحاء الجزيرة العربية ونقاطها.

كما أخذت القبائل العربية المتمردة التي لم تكن تتصور إلى ذلك اليوم أن تتحقق مثل هذه الانتصارات لدين التوحيد، أخذت تفكر شيئاً فشيئاً في التقرب إلى المسلمين وقبول معتقداتهم، واعتناق دينهم.

من هنا كانت وفود القبائل العربية المختلفة، وأحياناً مجموعة من أفراد قبيلة ما بقيادة رئيسها تقدم على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتعلن عن إسلامها، وقبولها للرسالة المحمدية.

وقد ازداد قُدومُ وفود القبائل هذه على عاصمة الإسلام (المدينة المنورة) في هذا العام حتى سمي بعام الوفود. (1)

- [لقد سجّل المؤرخ المعروف محمّد بن سعد - في كتابه - خصوصيات واسماء هذه الوفود وتفصيل القسم الأكبر من تفاصيل ما دار بينها وبين النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وما خصّهم به رسول الإسلام من اللطف لا يسع المجال لذكره هنا، وقد ذكر أسماء ثلاثة وسبعين وفداً من تلك الوفود التي وفدت على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - طوال السنة التاسعة من الهجرة أو ما قبلها بقليل (الطبقات الكبرى: ١ / ٢٩١ - ٣٥٩).

(544)

وعندما قدم وفدٌ من قبيلة «طيّ» وفيهم سيدهم «زيدُ الخيل» على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتحادث مع النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أعجب رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعقل زيد وحكمته ووقاره فقال عنه:

«ما ذكّر لي رجُلٌ من العرب بفضّل ثم جاءني إلّا رأيتُهُ دونَ ما يُقال فيه إلّا زيد الخيل، فانه لم يبلغ كلَّ ما كان فيه.»

ثم سمّاه رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - زيد الخير. (1)

إن دراسة قصة الوفود، والإمعان والتدبر في ما دار بينهم وبين رسول الإسلام يفيد بوضوح وجلاء ان الإسلام انتشر في شبه الجزيرة العربية عن طريق الدعوة والتبليغ.

على أن طواغيت ذلك العصر أمثال أبي سفيان وأبي جهل كانوا يحاولون الحيلولة دون انتشار هذا الدين، فكانت لأجل ذلك حروب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فمضافاً إلى أن أكثرها كان لإفشال تلك المؤامرات، كان الهدفُ منها

- [السيرة النبوية: ٢ / ٥٧٧. هذا وينبغي الإشارة هنا وبالمناسبة إلى أنه كان من سيرة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يغيّر الأسماء القبيحة التي اعتاد الجاهليون على تسمية أبنائهم بها أثاراً للإسم الحسن ولأن الإسم يورث الاحساس بالشخصية لدى صاحبه على العكس من الإسم القبيح، وقد ثبت هذا نفسياً، بل ربما غيّر الأسماء التي قد يشعر معها الإنسان بالعظمة، والفخر والزهو منعاً من أن تحدث لأصحابها مثل ذلك. فعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عن أبيه - عليهما السلام - : إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يغيّر الأسماء القبيحة في الرجال والبلدان (قرب الإسناد ص ٤٥) ولهذا غيّر أسماء كثيرة لرجال ونساء فغيّر اسم ابنة عمر كانت يقال لها عاصية فسمّاها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جميلة (صحيح مسلم: ٦ / ١٧٣) وغيّر اسم غافل بن البكير فسمّمه عاقلاً، وقد روي أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: «إن أول ما ينحل احذكُم ولذّة الاسم الحسن» (بحار الأنوار: ٢٣ / ١٢٢).

(545)

هو قمع أولئك الطواغيت الذين كانوا يصدون عن سبيل الله ويمنعون من دخول مجموعات الدعوة والتبليغ الإسلامية إلى مناطق الحجاز ونجد وغيرها.

إن من البديهي أن لا يتيسر انتشار أي دين، وتطبيق أي برنامج إصلاحي من دون تحطيم الطواغيت، وإزالة الأشواك من طريقه. ومن هنا نرى أن جميع الانبياء والرسل، وليس رسول الله فقط كانوا يجتهدون قبل أي شيء في تحطيم الطواغيت وإزالة السدود والموانع، من طريق الدعوة.

ويتحدث القرآن الكريم في سورة خاصة عن قدوم هذه الوفود على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وما حققه الإسلام من فتح وانتصار ساحق إذ يقول:

(ب) **سم الله الرحمن الرحيم إذا جاء نصرُ الله والفتحُ * ورأيت الناسَ يدخلونَ في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً.**⁽¹⁾

وبالرغم من هذا الإقبال المتزايد على الإسلام لدى القبائل وقدم الوفود المتلاحق على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقد قام في السنة التاسعة من الهجرة ببعث عدة سرايا، ووقعت غزوة واحدة، وكانت السرايا هذه لأجل إفتشال المؤامرات التي كانت تحاك ضد الإسلام والمسلمين، وكانت في الأغلب لهدم الأصنام الكبيرة التي كانت لا تزال القبائل العربية المشركتة تقديسها وتعبدتها، ومن جملة هذه السرايا سرية علي بن ابي طالب - عليه السلام - التي وُجّهت إلى أرض «طي» بأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومن بين ما وقع في السنة التاسعة يمكن الاشارة إلى غزوة «تبوك».

ففي هذه الغزوة غادر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المدينة متوجهاً إلى أرض تبوك، ولكنه لم يلق فيها أحداً، فعاد من غير قتال، إلا أنه مهّد الطريق لفتح البلاد الحُدُودية لمن يأتي في المستقبل.

-[النصر: ١ - ٣.

(546)

هدم بيوت الاصنام:

لقد كانت الوظيفة الاساسية الأولى من وظائف النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هي: نشر عقيدة التوحيد، واجتثاث جذور كل نوع من أنواع الشرك، وقد كان - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يسلك - لتحقيق هذه الغاية، ولارشاد الضالين والوثنيين - طريق المنطق والاستدلال، قبل أي شيء فكان يلفت أنظارهم بالأدلة الواضحة والبراهين الساطعة إلى بطلان الشرك والوثنية، فاذا لم يُجد معهم

المنطقُ المبرهنُ، والارشادُ المستدلُّ، ولجوا في كفرهم وشركهم سمحَ لنفسه بأن يتوسَّلَ بالقوة، ويداوي أولئك المرضى روحاً وفكراً والذين يمتنعون عن استعمال الدواء وبمحض اختيارهم، بالمعالجة الجبرية.

فإنه إذا شاع داء الكوليرا في بلد من البلدان مثلاً، وامتنع فريقٌ من الناس عن قبول تلقيحهم بالمصل اللازم لمكافحة ذلك المرض، فإنَّ المسؤول في ذلك البلد يرى لنفسه الحق في أن يجبر تلك الجماعة الضيقة التفكير التي تعرَّضُ سلامة نفسها وسلامة غيرها للخطر من حيث لا تشعر على الرضوخ لعملية التلقيح المذكورة.

لقد أدرك رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في ضوء تعاليم الوحي أنَّ الوثنية أشبه شيء بجرثومة «الكوليرا» تهدم فضائل الإنسان، وشرفه، وتقضي على مكارم الاخلاق، وتحطُّ من مكانة الإنسان الرفيعة، وتجعله كائنًا حقيراً أمام الطين والحجر والموجودات المنحطَّة.

وعلى هذا الاساس أمر من جانب الله تعالى بأن يجتثَّ جذورَ الشرك من كيان ذلك المجتمع الموبوء، وبزيل كل مظاهر الوثنية، وكل أنواعها وأشكالها، وإذا ما قاومت جماعةٌ هذا العمل، وعارضت هذا الاجراء حطَّ مقاومته بالقوة العسكرية، والقبضة الحديدية.

إنَّ التفوقَ العسكري أعطى لرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فرصة بعث

(547)

الفرقَ العسكرية لتحطيم وهدم كل بيوت الأصنام، وأن لا يبقوا في منطقة الحجاز صنماً إلا هَدَمَوه.

عليّ في أرض طي:

ولقد كان رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يعرفُ من قَبْل، أن في قبيلة طيِّ صنماً كبيراً يُقدَّسُ إلى الآن ومن هنا بعث - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بطل جيشه الشجاع علي بن أبي طالب - عليه السَّلام - على رأس مائة وخمسين فارساً إلى أرض طي، وأمره بأن يحطِّمَ صنم طيِّ، ويهدم بيته.

وقد أدرك قائد هذه السرية أن القبيلة المذكورة ستقاوم جنود الإسلام وأنَّ الأمر لن يتمَّ من دون قتال، ولهذا حمل بأفراده على موضع ذلك الصنم، عند الفجر والناس نيام، فاستطاع أن يأسر جماعة من تلك القبيلة ممن قاوم، وان يعود بهم وبالغنائم إلى المدينة وقد فرَّ «عدي بن حاتم الطائي» الذي انضمَّ فيما بعد إلى صفوف المسلمين، المجاهدين في سبيل الله، وكان يرأس تلك القبيلة، حين سمع بتوجه علي - عليه السَّلام - نحوها.

ولنستمع إلى عدِّي الطائي نفسه وهو يقصُّ علينا قصة هروبه.

يقول عدي: ما من رجل كان أشدّ كراهية لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حين سمع به، منّي.

أما أنا فكنّثُ إمرءاً شريفاً، وكنّثُ نصرانياً، وكنّثُ أسيرُ في قومي بالمرباع (أي أخذ الربع من الغنائم لأني سيدهم) فكنّثُ في نفسي على دين، وكنّثُ ملكاً في قومي لما كان يُصنّع بي. فلما سمعتُ برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كرهته، فقلتُ لسلام كان لي عربي، وكان راعياً لابلي: لا أبأ لك أعددي من إبلي أجمالاً دُلاً سماناً، فاحتبسها قريباً منّي، فاذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فأدني؛ ففعل؛ ثم أنه أتاني ذات غداة، فقال: يا عدي ما كنت صانعاً إذا غشيتك خيلُ محمّد، فأصنعه الآن، فاني قد رأيتُ رايات، فسألْتُ

(548)

عنها، فقالوا: هذه جيوش محمّد. قال: فقلت: فقرب إليّ أجمالي فقربها، فاحتملتُ بأهلي وولدي، ثم قلتُ: ألحقُ بأهل ديني من النصراني بالشام فسلكتُ الجوشية⁽¹⁾ وقد تركتُ أختي في قومي.

ثم غزت خيلُ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قومي فتصيب (أختي) ابنة حاتم فيمن أصابت، فقدم بها على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في سبأ من طي، وقد بلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هروبي إلى الشام.

فجعلت ابنة حاتم في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا يُحبسن فيه، فمرَّ بها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقامت إليه أختي وكانت امرأة جزلة، فقالت: يا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هلك الوالدُ، وغاب الوافدُ، فأمننُ عليَّ من الله عليك.

قال: ومن وافدك؟

فقالت: عدي بن حاتم.

قال: الفارُّ من الله ورسوله؟

ثم مضى رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتركني حتّى إذا كان من الغد مرّ بي، فقلت له مثل ذلك، وقال لي مثل ما قال بالأمس، حتّى إذا كان من الغد مرّ بي وقد يئسْتُ منه، فإشار إليّ رجلاً من خلفه أن قومي فكلميه، فقامت إليه، وقالت: يا رسول الله هلك الوالدُ، وغاب الوافدُ، فأمننُ عليَّ من الله عليك، فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«قَدْ فَعَلْتُ فَلَ تَعْجَلِي بِخُرُوجِ حَتَّى تَجِدِي مِنْ قَوْمِكَ مَنْ يَكُونُ لَكَ ثِقَةً حَتَّى يُبَلِّغَكَ إِلَى بِلَادِكَ ثُمَّ أَدْنِي.»

تقول أختي: فسألْتُ عن الرجل الذي أشار إليّ أن أكلمه فقبل: علي بن أبي طالب رضوان الله عليه.

ثم إن أختي أقامت حتى قدم ركب من بلي أو قضاة قالت: وإنما أريد أن

[الجوشية: جبل للضبب قرب ضرية. من أرض نجد.

(549)

أتي أخي بالشام. قالت: فجنث رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقلت: يا رسول الله قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ.

قالت: فكساني رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وحملي، واعطاني نفقة، فخرجت معهم حتى قدمت الشام.

قال عدي: فوالله إنني لعاقد في أهلي إذ نظرت إلى ظعينة (وهي المرأة في هودجها) تصوب إلي تؤمنا قال: فقلت ابنة حاتم، قال:

فإذا هي هي، فلما وقفت علي أخذت في اللوم تقول: القاطع الظالم، احتملت أهلك وولدك، وتركت بقية والدك عورتك.

فقلت: أي أختي، لا تقولي إلا خيراً، فوالله مالي من غدر، لقد صنعت ما ذكرت، ثم نزلت فأقامت عندي فقلت لها، وكانت امرأة

حازمة: ماداترين في أمر هذا الرجل؟

قالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فلن تدل في عز اليمن، وأنت أنت. فقلت:

والله إن هذا الرأي.

قال عدي: فخرجت حتى أقدم على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - المدينة فدخلت عليه، وهو في مسجده، فسلمت عليه،

فقال: من الرجل؟ فقلت: عدي بن حاتم، فقام رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه،

إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفتني، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها. فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك.

ثم مضى بي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً ففذفها إلي، فقال: اجلس

على هذه، فقلت: بل أنت فاجلس عليها فقال: بل أنت، فجلست عليها، وجلس رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بالأرض (وهو

عظيم الحجاز) فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك ثم قال: إيه يا عدي بن حاتم، ألم تك ركوسياً (وهو دين بين دين النصارى

(550)

والصابئين)؟

قلت: بلى.

قال: أولم تكن تسيئر في قومك بالمرباع ؟

قلت: بلى.

قال: فإن ذلك لم يخل لك في دينك.

قلت: أجل والله، وعرفت أنه نبيُّ مُرسَل، يَعْلَمُ ما يُجْهَل، ثم قال: لعلك يا عديّ إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ماترى من حاجتهم، فوالله ليوشكنَّ المألُ أن يفيض فيهم حتّى لا يوجد من يأخذُه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ماترى من كثرة عدوهم وقلّة عددهم، فوالله ليوشكنَّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتّى تزور هذا البيت، لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أنّ الملك والسلطان في غيرهم وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتِحَتْ عليهم.

قال عديّ: فاسلمت.

وكان عديّ يقول: قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة والله لتكوننّ، قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فُتِحَتْ، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتّى تحجّ هذا البيت، وأيم الله لتكونن الثالثة، ليفيطن المألُ حتّى لا يوجد من يأخذه. (1) ولقد نقل العلامة الطبرسي في تفسير قوله تعالى: **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَيْبَاتَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ بْنِ مَرْيَمَ** (2) (اللقاء الذي تمّ بين عديّ ورسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - ويقول: قال عديّ انتهيتُ إلى رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - وهو يقرأ من سورة البراءة هذه الآية (اتخذوا أحبارهم...)) حتّى فرغ منها،

[1]المغازي: ٢ / ٩٨٨ و ٩٨٩، السيرة النبوية: ٢ / ٥٧٨ - ٥٨١، الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة الامامية: ص ٣٥٢ - ٣٥٤، امتناع الاسماع: ١ / ٤٤٥.
[2]التوبة: ٣١.

(551)

فقلت له: انا لسنا نعبدهم، فقال: أليس يحرمون ما أحلّ الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه، فقلت: بلى، قال: فبئلك عبادتهم. (1)

[1]مجمع البيان: ٣ / ٢٤.

(552)

عَزْوَةُ تَبُوكَ

تبوك هي قلعة قويّة، ربيعة الجدران مقامة عند عين ماء على الشريط الحدودي السوري في طريق «حجر» و «الشام.»

وكانت سورية آنذاك من مستعمرات إمبراطورية الروم الشرقية، التي كانت عاصمتها القسطنطينية.

وكان جميع سكان المناطق الحدودية للشام نصارى على دين المسيح عيسى بن مريم - عليه السّلام - وكان اكثر زعمائها ولاة منصوبين من قبيل حاكم الشام الذي كان يمثّل هو بدوره إمبراطور الروم، ويمثّل أوامره.

ولقد كان لانتشار الإسلام السريع في شبه الجزيرة العربية وفتوحات المسلمين المشرقة في الحجاز صدها في خارج الحجاز ينعكس بالوسائل الموجودة في ذلك اليوم، وكان ذلك يُرعبُ الأعداء، ويدفعهم إلى التفكير في حيلة.

ولقد دفع سقوط حكومة «مكة» الوثنية، واعتناق زعماء الحجاز الكبار للدين الاسلامي، وبطولات جنود الإسلام الباهرة وبسالتهم وتقانيهم الفريد في طريق عقيدتهم، بامبراطور الروم إلى أن يحشد جموعاً كبيرة، ويتهيأ لمهاجمة المسلمين وغزوهم بغتة، لأنّه كان يرى تزلزل سلطانه مع انتشار الإسلام المطرد، وكانت مخاوفه تزداد يوماً بعد يوم وهو يرى تعاضم القوة الإسلامية العسكرية، وانتشار نفوذه السياسي.

(553)

كانت الروم - آنذاك - المنافسة الوحيدة، والقوية لإيران، وكانت تملك أعظم قوة عسكرية، وكانّت مغترةً أشدّ الغرور بنفسها، لما أصابته من فتوحات وانتصارات في معاركها الكبرى مع إيران، وما ألحقته من هزائم نكراء بإيران في تلك العصور.

وقد كان جيش الروم يتألّف من أربعين ألف فارس وراجل، وكان مجهّزاً بأحدث أسلحة وتجهيزات ذلك العصر، وقد استقرّ هذا الجيش على الشريط الحدودي لأرض الشام، والتحقّت به قبائل عديدة تسكن الحدود مثل قبيلة «لخم» «عاملة» «غسان» «جذام»، وتقدّمت طلائع ذلك الجيش حتّى منطقة «البلقاء».

ولقد بلغ نبأ استقرار فريق من جنود الروم على الشريط الحدودي للشام إلى مسامع النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - عن طريق القوافل التجارية التي تعمل على طريق الحجاز - الشام فلم ير رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - بدأً من أن يردّ على هؤلاء المعتدين، بجيش عظيم، ويحافظ بذلك على الدين الذي قام بفضل الدماء الزكية التي أريقّت من أصحابه، وبفضل تضحياته هو - صلّى الله عليه وآله وسلم - وهو الآن على أبواب أن يعمّ العالم نورُه وهُداه، من ضربات العدو المفاجئة.

ولقد بلغ هذا الخبر المقلق أهل المدينة، وأمر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، والناس في زمان عسرة، وشدة من الحرّ، وجذب من البلاد، وقد طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال الذي هم عليه.

ولكن الدوافع المعنوية، وروح الحفاظ على الأهداف المقدّسة، والجهاد في سبيل الله مقدّم عند عباد الله المؤمنين الصالحين على كل تلك الأمور.

تعبئة المقاتلين وتهيئة نفقات الحرب:

كان رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يعرف على نحو الاجمال مدى وحجم

(554)

استعدادات العدو، وطاقاته، وقدرته على القتال.

من هنا كان مطمئناً إلى أن الانتصار في هذه المعركة بحاجة - مضافاً إلى الخُفية المعنوية القوية وهي الايمان بالله والقتال ابتغاء لمرضاته - إلى قوة عسكرية كبيرة جداً ولهذا بعث رجالاً إلى مكة، ونواحي المدينة يدعون المسلمين إلى المشاركة في الجهاد في سبيل الله، ويحثون أهل الغنى والثروة، على تهيئة نفقات الجهاد في سبيل الله من الزكاة.

وأخيراً أعلن ثلاثون ألفاً من المسلمين استعدادهم للمشاركة في هذه الغزوة واجتمعوا في معسكر عند «ثنية الوداع» وتهيأ قدر كبير من نفقات القتال عن طريق الزكاة، وكان الجيش الإسلامي يتألف من عشرة آلاف فارس، وعشرين ألف رجل.

وقد أمر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أن تتخذ كل قبيلة راية لنفسها.

المتخلفون عن القتال:

كانت غزوة «تبوك» خير محك لمعرفة المجاهدين الصادقين وتمييزهم عن غير الصادقين من أدعياء الإيمان والمنافقين لأن التعبئة العامة لهذه الغزوة أعلنت في وقت كان الناس يستعدون فيه للحصاد من جهة، وكان الحرّ على أشده من ناحية أخرى، فكشف تخلف البعض - بالأعذار والحجج المختلفة - القناع عن وجههم الحقيقي ونزلت آيات في ذمهم جميعها في سورة براءة.

لقد تخلف البعض عن المشاركة في هذه الغزوة للأسباب والعلل التالية:

1- عندما قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - للجد بن قيس، - وكان من الشخصيات ذات المكانة الاجتماعية المرموقة -:

«أبا وهب هل لك العام تخرج معنا»؟

فقال: يا رسول الله أو تأذن لي، ولا تفتني (1) فوالله لقد عرف قومي ما أهد

-1 أي أخشى الافتتانُ بينات الروم فلا تفتني بهنَّ يا رسول الله.

(555)

أشدَّ عجباً بالنساء مني، واني لأخشى إن رأيتُ بنات بني الأصفر (الروم) لا أصيرُ عليهنَّ.

فأعرض عنه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد أن سمع منه ذلك العذر الصبياني، وقد نزل فيه قول الله تعالى:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِذْنٌ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنْ جَهَنَّمُ لَمَحِيطةٌ بِالْكَافِرِينَ. (1))

2- المنافقون:

إن جماعة ممن تظاهروا بالإسلام والإيمان وهم منه خلؤ، أخذوا يثبطن الناس عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في غزوة تبوك، وربما تحججوا بشدة الحر فقالوا: يغزو محمدُ بني الأصفر مع جَهْدِ الحال والحرِّ، والبلد البعيد، إلى ما لا قيل له به، يحسب محمدٌ أن قتال بني الأصفر اللعاب، فنزل فيهم قول الله تعالى:

(وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً، وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جِزَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. (2))

وقد كان بعضُ المنافقين يخوفون المسلمين من المشاركة في هذه الغزوة، وكانوا يقولون في هذا الصدد: تحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم، والله لكأننا بكم غداً مقرنين في الحبال؟ (3) !

اكتشاف شبكة جاسوسية في المدينة:

كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كما أسلفنا يولي مسألة تحصيل المعلومات عن العدو وتحركاته اهتماماً كبيراً، وكان أكثر انتصاراته تعود إلى حسن استخدامه لهذه الوسيلة وبالتالي لمعرفة الدقيقة بتحركات العدو ونشاطاته، وعلى

-1 التوبة: ٤٩ .

-2 التوبة: ٨١ و ٨٢ .

-3 امتاع الاسماع: ١ / ٤٥٠ .

(556)

هذا الاساس كان يقضي على الكثير من المؤامرات في مهدها.

ولقد بلغ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت «سويلم» اليهودي، ويخططون لتثبيط المسلمين عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في هذه الغزوة، فبعث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «طلحة بن عبيد الله» في نفر من أصحابه لإرهاب أولئك المتآمريين حتى يكفوا عن التآمر، وأمره بأن يحرق عليهم بيت «سويلم». ففعل طلحة ذلك إذ أقتحم البيت بَعْتَه، وهم يخططون، ويُدبِّرون مؤامرتهم، وأحرق البيت، وفرُّوا وسط ألسنة اللهب، وأعمدة الدخان، وافئسوا، وانكسرت رجلٌ أحدهم حين الفرار.

وقد كانَ هذا الاجراء مُفيداً في ردع المنافقين المشاغبيين عن العودة إلى مثلها حتى قال أحد رؤوسهم وهو «الضخَّاك بن خليفة»:»

كَادَتْ وَيَبَيْتَ اللّٰه نَارُ مُحَمَّدٍ * بِشَيْطَانِهَا الضَّخَّاکِ وَابْنُ أَبِي رِق

وظَلَّتْ وَقَدْ طَبَّقَتْ كِبْسَ سَوَيْلِمٍ * أَنْوَاءَ عَلَى رَجُلِي كَسِيرًا وَمَرْفَقِي

سَلَامٍ عَلَيكُمْ لَا أَعُوذُ لِمِثْلِهَا * أَخَافُ وَمَنْ تَشْمَلُ بِهِ النَّارُ يَحْرَقُ⁽¹⁾

3- البكاؤون:

لقد أتى رجالٌ من المسلمين رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كانوا يرغبون في الخروج مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى هذه الغزوة، وطلبوا منه ما يحملهم عليه من دابة فقد كانوا أهل حاجة فقراء، فقال لهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «لا أجد ما أحملكم عليه.»

فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً، ألا يجدوا ما ينفقون.

فإذا كان بين أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رجالٌ نافقوا، وتركوا الخروج مع رسول الله متعللين، بالأعذار السخيفة، فقد كان إلى جانب ذلك أيضاً من كان يبكي بكاء مُراً لعدم تمكنه من المشاركة في الجهاد المقدس حتى عرفوا

[1] السيرة النبوية: ٢ / ٥١٧.

في التاريخ الاسلامي بالبكاين، ونزل فيهم قرآنٌ إذ يقول تعالى:

(وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّاتُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ.)⁽¹⁾

4- المتخلفون:

ولقد أبطأ بعض أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن الخروج، وتَخَلَّفوا لا عَن شَكِّ وارتياب، أو رغبة عن الجهاد في سبيل الله، وقد كانوا أهل صدق لا يُتَّهَمون في إسلامهم، إنَّما تَخَلَّفوا حتَّى يلتحقوا بركب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد أن يَفْرَغوا من الحصاد والقطاف وهم (المخَلَّفون) الثلاثة حسب تعبير القرآن الكريم الذين فاتتهم غزوة تبوك، فوبَّخهم الله تعالى وعاقبهم على تَخَلُّفهم ليكونَ في ذلك عبرة لمن سواهم كما ستعرف تفصيل ذلك عمَّا قريب.

5- المجاهدون الصادقون:

الذين لبُّوا نداء رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتهيَّأوا من فورهم للخروج معه في شوق بالغ، ورغبة عظيمة في الجهاد.

عدم مشاركة «علي» في غزوة تبوك:

لقد كان من أبرز فضائل علي بن أبي طالب - عليه السَّلام - أنه شارك في جميع المعارك، ولازم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في جميع غزواته، وكان هو حاملُ لوائه في تلك المعارك والغزوات - ما عدا تبوك حيث بقي في المدينة بأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولم يشارك في هذا الجهاد المقدس لأن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يدرك جيِّداً أن بعض المنافقين والمتربِّصين، والمتحيين الفرصَ من رجال قريش سيستغلُّون فرصة غيبة النبي القائد عن المدينة (مركز الدولة الإسلامية) فيثيرون فيها فتنة، وبجهزون على الحكومة الإسلامية الفتية بانقلاب أو ما شابه ذلك، وأن مثل هذه الفرصة انما تسنح لهم إذا قصد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

- [التوبة: ٩٢].

(558)

مكاناً نائياً، وانقطع ارتباطه بعاصمة الإسلام (المدينة)!!

ولقد كانت «تبوك» أبعد نقطة خرج إليها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في جميع غزواته، فكان يحدس - بقوة - أن تقوم القوى المضادة للإسلام بقلب الأوضاع في غيابه، ويجمعوا من يروا رأيهم ويذهبُ مذهِبهم من شتى أنحاء الحجاز، ويتحدوا لضرب الدولة الإسلامية والقضاء عليها من الداخل.

ولهذا - رغم أنه استخلف «محمَّد بن مسَّلمة» على المدينة - قال للامام «علي بن أبي طالب»:

«أنتَ خليفتي في أهل بيتي ودار هجرتي وقومي.

يا علي إنَّ المدينة لا تُصَلِّحُ إلاَّ بي وبك.»

ولقد أزعج بقاء عليّ - عليه السّلام - في المدينة، المنافقين الذين كانوا يترصّون بالاسلام الدوائر، ويتحيتون الفرصة، ويفكرون في انقلاب في غيبة النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - لأنهم كانوا يعرفون أنهم لن يعوّدوا يستطيعون مع وجود عليّ - عليه السّلام - في المدينة، ومراقبته الدقيقة لتحركاتهم ونشاطاتهم فعل أي شيء ممّا كانوا ينوون القيام به، ولهذا أرفجوا به، وبتوا شائعات خبيثة حوله، بغية إجباره على مغادرة المدينة فقالوا: ما خلف رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - عليّاً إلاّ استنقلاً له، وتخفّفاً منه، أو: أن رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - دعاه إلى الخروج لتبوك، ولكن عليّاً امتنع من الخروج بحجّة الحرّ الشديد، وبُعد الطريق وإيثاراً للدعة والراحة والرفاهية!!

ولإبطال هذه الشائعة الخبيثة، وتكذيب هذا الكلام، أخذ عليّ - عليه السّلام - سلاحه، وخرج حتّى أتى رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - وهو نازلٌ بالجرف (وهو موضعٌ على ثلاثة أميال من المدينة) فقال:

«يا نبيّ الله، زعم المنافقون أنّك إنّما خلّفْتني أنّك استنقَلْتني وتخفّفْت منّي.»

فقال رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - حينئذ كلمته التاريخية الخالدة التي تعتبر

(559)

من أبرز الأدلة وأقواها وأوضحها على إمامة عليّ بن أبي طالب - عليه السّلام - وخلافته بعد رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - بلا فصل:

«كذبوا، ولكنّي خلّفْتك لما تركتُ ورائي فأرجع فأخلفني في أهلي وأهلك أفلا ترضى يا عليّ أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي.»⁽¹⁾

فرجع عليّ - عليه السّلام - إلى المدينة المنورة، ومضى رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - على سفره.⁽²⁾

جيش الإسلام يتحرك نحو تبوك:

لقد دأب رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - - إذ خرج لتأديب قوم يكيدون بالاسلام، ويمنعون من تقدمه وانتشاره أو يقصدون الهجوم - على المدينة واجتياحها، أو إيجاد فتن فيها، على أن لا يبوح بمقصده ووجهته لجنوده وأمرائه جيشه، وأن يسير بالجيش في طريق آخر غير الوجه الذي ينويه باطناً، حتّى لا يعرف به العدو فيتهيأ لمواجهة، وبذلك يتسنى له - صلّى الله عليه وآله وسلم - أن يباغت العدو، ويحقّق الانتصار الساحق عليه.⁽³⁾

غير أنّ رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - عدل عن هذه السيرة في قضية غزو الروميين الذين اجتمعوا في حدود الشام وهم يتأهبون للهجوم على عاصمة الإسلام.

فقد بيّن للناس - منذ أعلن التعبئة العامة - الوجهة التي يقصدها، وكان السرُّ في ذلك هو أن يعرف المجاهدون أهمية هذا السفر وصعوبته، وأن يحملوا الزاد الكافي والعدة اللازمة.

1- امتناع الاسماع: ١ / ٤٤٩ و ٤٥٠.
2- السيرة النبوية: ٢ / ٥٢٠، بحار الأنوار: ٢١ / ٢٠٧ و ٢٠٨، وللوقوف على دلالة هذا الحديث على امامة امير المؤمنين - عليه السلام - راجع كتب العقائد والكلام.
3- المغازي: ٣ / ٩٩٠.

(560)

هذا مضافاً إلى أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان مضطراً - لتقوية الجيش الاسلامي - إلى أن يستعين بقبائل «تميم» و «غطفان» و «طي» التي كانت تسكن في مناطق بعيدة عن المدينة.

وقد عمد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لهذا الغرض إلى مراسلة زعماء تلك القبائل، وساداتها كما كتب إلى «عتاب بن أسيد» أمير مكة الشاب دعا فيه رجال تلك القبائل، وفتيان مكة إلى المشاركة في هذا الجهاد المقدس. (1)

ومثل هذا النوع من الدعوة الصريحة العامة لا ينسجم مع الكتمان والسرية، لأنه كان لا بد أن يخبر - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رؤساء القبائل في هذا الموضوع، ويذكر لهم أهميته، ليحملوا معهم الزاد والعدة اللازمة الكافية.

النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يُستعرضُ جيشَهُ:

ولما حان موعد تحرك الجيش استعرض رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - جيشه في معسكر المدينة العظيم، المؤلف من المؤمنين الفدائيين الغيارى على الإسلام، والذين فضّلوا المشقة والموت في سبيل الهدف على الاستراحة في الظلال، والتجارة، وكسب المال واكتناز الثروة، وخرجوا يستقبلون الموت في سبيل الدين بقلوب تفيض إيماناً ويقيناً.

لقد كان هذا المشهد جميلاً ورائعاً جداً، وكان له أثرٌ قويٌّ في نفس المتفرجين.

وفي هذه المناسبة ألقى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خطبة مهمة، لتقوية معنويات المجاهدين، قد شرح فيها هدفه من هذه التعبئة العامة الواسعة.

فبعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله قال:

«أيُّها الناس! أما بعدُ، فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ وأوثقُ العُرَى كَلِمَةُ

التقوى، وخير الملة إبراهيم - عليه السلام - ، وخير السنن سنن محمد، وأشرف الحديث ذكر الله وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأمور عواقبها، وشَرَّ الأمور محدثاتها وأحسن الهدى هدى الأنبياء وأشرف القتل قتل الشهداء.»
إلى آخر الخطبة التي وردت بكاملها في المصادر التاريخية والتي ادرج فيها مجموعة كبرى وهامة من التعاليم الإسلامية الهامة فرغب الناس في الجهاد لما سمعوا هذا من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - (1) ثم أصدر رسول الله أوامره للجنود بالتوجه إلى ثغور الشام من الطريق الذي عيّنه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

قصة مالك بن قيس:

رجع مالك بن قيس «ابوخيثمة» بعد أن سار رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أياماً إلى أهله في يوم حار، فوجد المدينة فارغة، وعرف بمسير جنود الإسلام ثم دخل في عريش له، فوجد امرأتين له قد رشتا الماء في العريش، وبردتا له ماء، وهياتا له طعاماً، فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأته، وما صنعتا له، وفكر في ما فيه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه من الحال، وقد انطلقوا إلى جهاد العدو في شدة الحر فقال: رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الشمس والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيباً، وامرأة حسناء في ماله مقيم؟ ما هذا بالنصف.
ثم قال: لا أدخل عريش واحدة منكم حتى ألق برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه المجاهدين فهينا لي زاداً، ففعلنا ثم قدم بغيره فارتحل، ثم خرج في طلب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد لقي في أثناء الطريق أبا خيثمة «عمير بن وهيب الجمحي» وهو يطلب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - (2).

1-المغازي: ٣ / ١٠١٦، بحار الأنوار: ٢١ / ٢١٠ - ٢١٢.
2-السيرة النبوية: ١ / ٥٢٠ وقد ذكر الواقدي هذه القصة باختلاف يسير ونسبها إلى عبد الله بن خيثمة.

لقد كان هذا الرجل ممن لم يُوفَّق - في بداية الامر - لمرافقة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلا أنه التحق بركبه المقدس ونال السعادة العظمى بحسن اختياره الذي يستحق الاكبار والتقدير، ولم يكن مثل أولئك الذين طلبتهم السعادة ولكنهم رفضوها، وابتعدوا عنها، وأثروا البقاء في ضلالهم وشفانهم.

فهذا «عبد الله بن أبي» رئيس المنافقين وكبيرهم الذي عزم على أن يشارك مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في هذه الغزوة أقام خيمته في معسكر المسلمين، ولكنه لخبث سريرته، وعدائه الشديد للإسلام ونيبه الكريم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بدّل

رأيه ساعة رحيل الجيش الإسلامي، وعاد إلى المدينة مع أصحابه ليقوم بالشغب، وحيث أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان على علم بنفاقه، وخبث سريرته وكان يدرك جيداً أن مشاركة هذا العنصر المنافق وجماعته في ذلك الجهاد لن تعود على المسلمين بفائدة، لذلك لم يهتم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بانفصاله عن الجيش الإسلامي ورجوعه إلى المدينة.

مصاعب الطريق:

لقد واجه جيش الإسلام في أثناء الطريق متاعب ومشاقاً كثيرة، ولهذا سمي هذا الجيش بجيش «العُسرة» ولكن إيمانهم العميق بالله، وحبهم الشديد للهدف المقدس سهّل لهم تلك المصاعب، وهون عليهم تلك المشاق، التي استقبلوها بصدور رحبة.

وعندما وصل جيش الإسلام إلى أرض ثمود غطى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وجهه بثوبه، واستحثّ راحلته ومرّ على بيوتهم، وأطلالهم بسرعة وقال لأصحابه:

«لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ بَاكُونَ خَوْفاً أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَهُمْ.»

وهو بذلك يحثُّ أصحابه على التدبر في أحوال من مضى من الاقوام

(563)

والشعوب، والتفكّر في مصائرهم ومآلوا عليه بسبب عُنُوهم وعنادهم، وتمرّدهم على الحق، فان ظلال الموت التي كانت تخيم على تلك الربوع والأطلال الصامتة خيرُ عبرة للجبال والاقوام الأخرى.

ثم نهى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الناس عن أن يشربوا من مائها شيئاً، وأن لا يتوضأوا به للصلاة، وأن لا يحاسن به حيس، ولا يطبخ به طعام، وأن العجين الذي عُجِنَ به، أو الحيس الذي فُعلَ به يُعلَفُ الإبل، وأن الطبخ الذي طُبِخَ به يُلقى، ولا يأكلوا منه شيئاً.⁽¹⁾

ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثم ان الناس ارتحلوا من تلك المنطقة حتى إذا مضى من الليل بعضه وصلوا إلى البئر التي كان تشرب منها ناقهٌ صالح النبي - عليه السّلام - ، فنزلوا عليها بأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

تعليمات احتياطيّة:

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يعرفُ بالرياح الشديدة والسامة والعواصف القوية التي كانت تهبُّ في تلك الأرض بين الحين والآخر، وتبلغ من الشدة والقوة بحيث ربما تحمل البعير بصاحبه، وتلقيه في وادٍ آخر.

ولهذا أصدر - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى أصحابه تعليمات احتياطية مشددة فأمرهم بأن يعقلوا إبلهم ولا يخرج أحدٌ منهم في تلك الليلة وحده، بل يخرج من خبائه مع صاحبه.

وقد اثبتت التجارب والاحداثُ فيما بعد أن التعليمات الاحتياطية النبوية المذكورة كانت مفيدة جداً، لأن شخصين من بني ساعدة من أذنين كانوا في ركب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تجاهلاً هذه التعليمات فخرجا منفردين من

- [السيرة النبوية: ٢ / ٥٢١ و ٥٢٢، السيرة الحلبية: ٣ / ١٣٤ و ١٣٥.

(564)

خبائهما ليلاً، فاختنق أحدهما لشدة الرياح، بينما احتملت الريح الرجل الآخر، وضربت به الجبل، ولما علم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بذلك انزعج بشدة وقال:

«ألم أنهكُم أن لا يخرج منكم أحدٌ إلاّ ومعه صاحبه.»⁽¹⁾

هذا وقد استعمل رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على حرس العسكر «عباد بن بشر» فكان يطوف في أصحابه على العسكر.

ثم اصبح الناس ولا ماء معهم، وحصل لهم بسبب العطش ما كاد يقطع رقابهم، حتى حمل ذلك بعضهم على نحر إبلهم ليشتقوا اكراشها، ويشربوا ماءها، بينما صبر آخرون، وانتظروا حصول الماء على ظمأ شديد، وقلوب ملتهبة عطشاً.

ولقد أعان الله تعالى الذي كان قد وعد نبيّه الكريم بالنصر أصحابه المسلمين الأوفياء، مرة أخرى إذ أرسل سحابة فمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا ما يحتاجون إليه.

علم رسول الله بالمغيبات:

لاشك في أن في مقدور رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يطلع على الغيب ممّا يخفى على الناس، ويخبر به كما يصرح القرآن الكريم بذلك، إلا أن هذا العلم لا ريب محدودٌ، ويحتاج إلى تعليم الله سبحانه. يقول تعالى:

(عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ.)⁽²⁾

من هنا يمكن أن تخفى على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في بعض الاحايين، أبسط الأمور، كأن يفقد مفتاحاً، أو يضيع مالا ولا يعرف بمكانه ومصيره، بينما يقدر - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يعلم بأخفى الأمور الغيبية واشدها غموضاً فيثير حيرة

الناس ودهشتهم وعجبهم.

والسبب في كل ذلك هو ما ذكرناه، فان مشيئة الله سبحانه لو تعلقت بأن يعلم نبيّه بشيء من عالم الغيب ويخبر به علم وأخبر، وإلا كان - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كغيره من أفراد البشر العاديين.

وفي ضوء هذا البيان لا بد أن ننظر إلى القصة التالية:

لما كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ببعض الطريق إلى تبوك ضلّت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها، فقام أحد المنافقين، وقال: أليس محمّد يزعم أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو يكشف النقاب ببيانه الرائع:

«إن رجلاً قال: هذا محمّد يخبركم أنه نبيّ ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ واني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلّني الله عليها وهي في هذا الوادي في شعب كذا وكذا وقد حبسناها شجرةً بزمامها فأنطلقوا حتّى أتوني بها.»

فذهب بعض الصحابة من فورهم، وجاءوا بها. (1)

إخباره بمغيّب آخر:

لقد تخلف أبو ذر عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إذ أبطأ به بعيره، فانتظره المسلمون ريثما يقوم بعيره، ولكن دون جدوى فترك أبوذر البعير، وأخذ متاعه فحملهُ على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ماشياً، ونزل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في بعض منازلهم ونزل المسلمون ليستريحوا فيه بعض الوقت، وفجأة لاح من بعيد رجلٌ، فلما نظر إليه ناظرٌ من المسلمين قال: يا رسول الله هو والله أبوذر، فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«رَحِمَ اللَّهُ أَبَا ذَرٍّ يَمْشِي وَحَدَهُ وَيَمُوتُ وَحَدَهُ وَيُبْعَثُ وَحَدَهُ» (1) »

وقد كشف المستقبل عن صحة هذه النبوءة، فقد توفي أبوذر في صحراء «الربذة»، وعنده امرأته وغلّامه بعيداً عن الناس في حالة مأساوية (2).

لقد تحققت نبوءة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في معركة تبوك بعد ثلاثة وعشرين عاماً، فقد نُفِيَ هذا الصحابيُّ المجاهدُ الصادق إلى الشام ثم إلى الربذة لا لشيء إلا لأنه جهر بالحق، وطالب بالعدل، وفقد قواه وطاقاته البدنية شيئاً فشيئاً حتى غدا طريح الفراش، في تلك المنطقة الوعرة.

وفيما كان يمضي الدقائق الاخيرة من حياته الحافلة بالاحداث والتطورات، وامرأته جالسةً عنده ترمق محيآه المشرق المتعب وقد عرق جبينه، وهي تمسح بيدها العرق وتبكي قال لها: ما يُبكيك؟

فقال: أبكي أنه لا يد لي بتغيبك (أي ليس لي من يعينني على دفنك، أو ليس عندي ثوب يسعك كفناً)!

فارتسمت على شفتي أبي ذر ابتسامةٌ مُرّة وقال: لا تبكي عليّ، فاني سمعتُ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ذات يوم وأنا عنده في نفر يقول: ليموتنَّ رجلٌ منكم بفلاة من الأرض تشهدهُ عصابةٌ من المؤمنين (ثم قال:): فكلُّ من كان معي في ذلك المجلس مات في جماعة وقرية، فلم يبق منهم غيري، وقد أصبحت بالفلاة أموت فراقبي الطريق، فانك سوف ترين ما أقول لك فاني والله ما كذبتُ ولا كُذبتُ.

قال هذا وفاضت روحه المباركة (3).

ولقد صدّق أبوذر، فقد كانت ثمة قافلة من المسلمين تضم شخصيات

1- السيرة النبوية: ٢ / ٥٢٥.
2- المغازي: ٣ / ١٠٠٠ و ١٠٠١.
3- اسد الغابة: ١ / ٣٠٢، الطبقات الكبرى: ٤ / ٢٢٣، حلية الاولياء: ١ / ٣٠٢.

كبرى مثل «عبد الله بن مسعود» و «حجر بن عدي» و «مالك الاشتهر» تتقدم نحو تلك المنطقة.

رأى «عبد الله» من بعيد مشهداً عجباً... مشهد جسد بلا روح على قارعة الطريق، وعند ذلك الجسد امرأة وصبي وهما يبكيان.

فعطف «عبد الله» زمام راحلته نحو ذينك الشخصين وتبعه من معه في القافلة أيضاً، وما أن وقعت عيننا عبد الله على ذلك الجسد حتى عرف صاحبه، فهذا هو رفيقه وأخوه في الإسلام أبو ذر!!

فاغرورقت عيناه بالدموع، ووقف عند جثمان أبي ذر، وتذكر نبوءة رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - في غزوة تبوك وقال: «رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده.»

ثم صلى ابن مسعود على أبي ذر، ثم وراه الثرى، وبعد أن فرغ من دفنه، وقف مالك الاشرى عند قبره وقال: اللهم إن هذا صاحب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عبدك في العابدين، وجاهد فيك المشركين، لم يغير ولم يبدل لكنه رأى غريباً منكراً فغيره بلسانه وقلبه، حتى جني ونفي وحرم واحتقر ثم مات وحيداً غريباً بصر . (1)

وقد اشار السبكي في ابيات له إلى هذا كما في السيرة الحلبية:

وعاش أبوذر كما قلت وحده * ومات وحيداً في بلاد بعيدة

[1- ذكر المؤرخون قصة وفاة أبي ذر ودفنه بـصور مختلفة، فيستفاد من بعض المصادر التاريخية أن أبازر كان على قيد الحياة عندما قدمت القافلة المذكورة وتحدث مع رجالها، ولكن بعض المصادر الأخرى تنص على أنه مات قبل قدوم تلك القافلة إلى تلك المنطقة كما أنه صرح البعض أن زوجة أبي ذر وابنه حملاً جثمانه إلى قارة الطرق بينما قال آخرون أن زوجته وابنه جلسا على قارة الطريق ودلاً القافلة على محل جثمانه الطاهر، راجع للوقوف على ذلك الطبقات الكبرى: ٤ / ٣٤ - ٢٣٢، والدرجات الرفيعة: ص ٥٣.

(568)

جيش الإسلام في أرض تبوك:

حلّ جيش التوحيد في مطلع شهر شعبان سنة تسع من الهجرة في أرض تبوك، ولكن دون أن يرى أثراً لجيش الروم، وكأنّ جنود الروم لما علموا بكثرة جنود الإسلام وبشهامتهم وتضحيتهم النادرة التي شهدوا نموذجاً منها عن كذب في معركة «مؤتة» رأوا من الصالح ان ينسحبوا إلى داخل بلادهم ولا يواجهوا المسلمين، ويثبتوا بذلك عملياً نبأ اجتماعهم ضدّ المسلمين، ويتظاهروا بأنه لم تراودهم فكرة الهجوم على المسلمين قط، وأن هذا النبأ لم يكن إلا شائعة لا أكثر، فيثبتوا من هذا الطريق حيادهم بالنسبة للحوادث والوقائع التي تحدثت في الجزيرة العربية. (1)

في هذه اللحظة جمع رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - قادة جيشه الكبار، وتبعاً للاصل الاسلامي «وشاورهم في الأمر» تحدث معهم حول التقدّم في أرض العدو أو الرجوع إلى المدينة وشاورهم في ذلك.

فكانت نتيجة التشاور هي أنَّ على الجيش الاسلامي الذي تحمَّل مشاق كثيرة في هذه السفرة، أن يعود إلى المدينة، ليستعيد نشاطه، وقواه، هذا مُضافاً إلى أن المسلمين حققوا هدفهم السامي من هذه السفرة وهو تفريق جيش الروم وتبديد اجتماعهم بعد لقاء الرعب الشديد في قلوبهم، وقد يبقى هذا الرعب في قلوب الروميين إلى مدة مديدة بحيث يصرفهم عن فكرة تسيير جيش للهجوم على المسلمين، وهذا القدر من النتيجة التي من شأنها أن تضمن أمن الحجاز من ناحية الشمال رداً من الزمن تكفي للمسلمين فعلاً حتى يقضي الله ما يقضي في المستقبل.

- [يكتب الواقدي في المغازي: ٣ / ١٠١٤ و ١٠١٥ أقام رسول الله بنبوك عشرين ليلة وهكذا يقول: إن النبي بعد أن صلى الفجر ذات يوم جمع الناس، فخطب فيهم خطبة بليغة ضمَّنها مواعظ وتعاليم عظيمة كثيرة ثم ادرج نصَّ الخطبة.

(569)

ولقد اضاف كبار المشيرين - حفاظاً على مكانة الرسول القائد، وإشعاراً بأن رأيهم هذا قابل للأخذ والرد - قائلين: إن كنت أمرت بالسَّير فسير⁽¹⁾.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«لو أمرتُ به ما أَسْتَشِرُّكُمْ فِيهِ.»

وهكذا احترمت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - آراء مشاوريه ورضى بالعودة إلى المدينة⁽²⁾.

وحيث كان هناك حكامٌ وولاةٌ يعيئون في المناطق الحدودية السورية والحجازية فساداً ولهم نفوذ كبيرٌ في قبائلهم ومناطقهم، وكانوا جميعاً نصارى، ولهذا كان من المحتمل بقوة أن يستغل الروم قواهم ضد الإسلام ويحملوا بمساعدتهم على الحجاز.

ولهذا كان يتعين أن يعقد معهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - معاهدة عدم اعتداء، ليأمن جانبهم ويحصل على أمن أوسع، فأجرى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - اتصالات مباشرة مع أولئك الحكام والولاة الذين كانوا يعيشون على الشريط الحدودي على مقربة من تبوك وعقد معهم معاهدات عدم تعرض واعتداء بشروط خاصة كما أرسل مجموعات إلى النقاط النائية عن تبوك ليحقق بذلك مزيداً من الأمن للمسلمين.

لقد اتصل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - شخصياً بزعماء «أيلة» و «أذرح» و «الجرباء»، وتمَّ عقد معاهدة عدم تعرض واعتداء بين الجانبين. و «أيلة» مدينةٌ ساحلية تقع على ساحل البحر الأحمر، ولا تبعدُ عن الشام كثيراً، وكان زعيم تلك المنطقة هو «يوحنا بن رُوية»، فهو يومَ أتى به إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وعليه صليب من ذهب على عادة النصارى، قدَّم لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

فرساً أبيض، وأعلن عن طاعته لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فاحترمه النبي وكرمه، وصالحه، وكساه بُرداً يمينياً.
وقد قَبِلَ «بِوَحْنَا» هذا، أن يبقى على نصرانيته شريطة أن يدفع للنبي جزية قدرها ثلاثمائة دينار سنوياً وعلى أن يحسنَ إلى مَنْ يَمُرُّ على أيلة من المسلمين وكتب له رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كتابَ أمان وَقَعَهُ الطرفان، واليك نص الكتاب المذكور:
«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن روية وأهل أيلة لسُنْفِهِمْ وسياراتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة محمد رسول الله ولمن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، ومن أحدث حدثاً، فانه لا يحول ماله دون نفسه، وأنه طَيِّبَةٌ لمن أخذه من الناس وانه لا يحل أن يُمْنَعُوا ماء يردونه ولا طريقاً يُريدونه من بَرٍّ وبحر.»
هذا الكتاب يكشف عن قاعدة مهمّة في السياسة الإسلامية وهي أن أيّ شعب أراد أن يسالم المسلمين وقر الإسلام له كل أمن وسلام. (1)

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - صالح بقية الحكام الحدوديين مثل سادة أقوام «أذرح» و «جرباء» التي كانت تتمتع باهمية استراتيجية، وبذلك ضمن أمن المنطقة الإسلامية من ناحية الشمال.

بعث خالد إلى دومة الجندل:

على طريق تبوك كانت تقع منطقة عامرة خضراء ذات أشجار وزروع ومياه جارية تضم حصناً منيعاً، وتبعد عن الشام بما يقرب من خمسين فرسخاً، تسمى «دومة الجندل» (2) «وكان يحكمها يومذاك رجلٌ مسيحي يدعى «اكيدر بن

1-السيرة النبوية: ٢ / ٥٢٦، السيرة الحلبية: ٣ / ١٤١، بحار الأنوار: ٢١ / ١٦٠ .
2-يقول الواقدي في المغازي: ٣ / ١٠٢٥ تقع دومة الجندل على عشرة أميال من المدينة.

وحيث إنَّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يخشى هجوماً آخر من الروم، والاستعانة بحاكم دومة المسيحي وبهذا يعرّضون أمن الحجاز للخطر، لذلك رأى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يستفيد من قوته الحاضرة أكبر قدر ممكن فبعث مجموعة من المقاتلين بقيادة خالد بن الوليد إلى المنطقة المذكورة لتطويعها وتطويع حاكمها.

فتوجه خالد مع فرسانه إلى دومة الجندل حتَّى اقتربوا إلى حصنها، وكمنوا قريباً منه.

وفي تلك الليلة خرج «اكيدر» وأخوه «حسان» من الحصن ومعه نفر من اهل بيته للصيد فلما ابتعدوا عن الحصن حاصرتهم خيل خالد وأسروا «اكيدر» بعد قليل من القتال والمواجهة، وقُتل اخوه «حسان» ولجأ البقية إلى الحصن، واعتصموا به، فصالح خالد «اكيدر» على أن يطلب له ولقومه الأمان من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لقاء أن يفتح أبواب الحصن في وجهه المسلمين ويلقي أهلها الاسلحة.

فأمر اكيدر الذي كان يثق بصدق المسلمين واحترامهم لوعودهم وغهودهم، أمر قومه أن يفتحوا أبواب الحصن ويسلموا للمسلمين، ويلقوا اسلحتهم ويتركوا القتال، وكانت الاسلحة تبلغ أربعمائة درع، وأربعمائة رمح وخمسمائة سيف ثم توجه خالد باكيدر وقومه وما حصل عليه من الغنائم إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فخلب منظرُ الديباج المخوّص بالذهب عيون جماعة من طلاب الدنيا. فاخذوا يتلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو لا يكثرث بتلك الثياب:

«فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَمَنَادِيلُ الْجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا.»

لقد حضر «اكيدر» عند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وامتنع عن قبول الإسلام إلا أنه رضي بأن يعطي الجزية للمسلمين، وصالحه النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

(572)

على ذلك وكتب له كتاباً، ثم أهدى له - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هدية واستعمل على حرسه «عباد بن بشر» ليوصله إلى دومة الجندل سالمًا.⁽¹⁾

تقييم إجمالي لغزوة تبوك:

إن النبي الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وإن لم يلقَ في هذا السَفَر الشاق كيداً ولم يواجه العدو، ولم يقاتل إلا أنَّ هذه السَفرة عادتْ عليه بسلسلة من الفوائد المعنوية والروحية هي:

أولاً:

صعود مكانة وسمعة الجيش الإسلامي، فقد زاد من عظمته وقوته في قلوب سكان الحجاز، وحُكّام المناطق الحدودية السورية، وعرف الصديقُ والعدوُّ أن المقدرة العسكرية الإسلامية بلغت من القوة والعظمة بحيث أصبح في مقدورها أن تواجه أكبر القوى العالمية وتقارعها، وتلقي الرعب والخوف في قلوبها.

إن انتشار هذا الموضوع بين القبائل العربية التي عُجنت جيلتها بروح التمرد والطغيان أوجب أن تتخلى عن فكرة الطغيان والمعارضة، والتأمر ضدَّ الإسلام رداً من الزمن، وأن لا تتفكر في هذه الأمور.

ولهذا السبب أخذت وفودُ القبائل التي لم تخضع للإسلام حتى ذلك اليوم تبتاعاً على رسول الإسلام - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بعد رجوعه من تبوك إلى المدينة، وتظهر لرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - طاعتها وخضوعها حتى سمي ذلك العام بعام الوفود لضخامة عدد تلك الوفود والبعثات التي قدمت المدينة على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - .

ثانياً:

ضمن المسلمون عن طريق عقد المعاهدات المختلفة المتعددة مع حُكّام المناطق الحدودية الحجازية والسورية أمن هذه المنطقة، واطمأنوا بسببها إلى أنهم سوف لن يتعاونوا مع جيش الروم، ولن يدخلوا مع تلك الدولة في مؤامرة ضدَّ

[الطبقات الكبرى: ٢ / ١٦٦، بحار الأنوار: ٢١ / ٢٤٦].

(573)

الإسلام والمسلمين.

ثالثاً:

مهّد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بهذا السفر الشاق الطريق لفتح الشام، فقد عرف قادة جيشه طرق هذه المنطقة ومشاكلها، وعلمهم كيفية تجييش الجيوش الكبرى في وجه القوى العظمى في ذلك العصر، من هنا كانت الشام وسورية هي أوّل منطقة فتحها المسلمون بعد وفاة رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - .

رابعاً:

تميّز المؤمن عن المنافق في هذه التعبئة العامة وحصلت عملية تصفية وفرز كبيرة وعميقة في جماعة المسلمين.

المنافقون يخطّون لاغتيال النبي:

أقام رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - مدة بضع عشرة يوماً في تبوك ⁽¹⁾ وبعد أن بعث خالداً إلى «دومة الجندل» توجه بالمسلمين إلى المدينة. ولدى العودة تأمر (١٢) منافقاً ثمانية منهم من قريش والباقي من أهل المدينة لاغتيال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - .

عليه وآله وسلم - في أثناء الطريق وقبل أن يصلَ إلى المدينة، وذلك بتنفير ناقة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في عقبة بين المدينة والشام ليطرحوه في واد كان هناك. وعندما وصل الجيش الإسلامي إلى بداية تلك المنطقة (العقبة) قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - :
«من شاء مِنكُمْ أَنْ يَأْخُذَ بَطْنَ الْوَادِي فَإِنَّهُ أَوْسَعُ لَكُمْ.»

فأخذَ الناس بطن الوادي، ولكن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أخذَ طريق العقبة فيما يسوق «حذيفة بن اليمان» ناقة النبي، ويقودها «عمار بن ياسر» فبينما هم يسرون إذ التفت رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إلى خلفه، فرأى في ضوء

-[السيرة النبوية: ٢ / ٥٢٧ وذهب ابن سعد في الطبقات انه مكث بتبوك عشرين يوماً (ج ٢ ص ١٦٨)].

(574)

ليلة مقمرة فرساناً مثلثمين لحقوا به من ورائه لينفروا به ناقته، وهم يتخافتون، فغضب رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، وصاح بهم وأمر حذيفة أن يضرب وجوه رواجلهم. قائلاً: إضرب وجوه رواجلهم.

فأرعبهم رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بصياحه بهم إرعاباً شديداً، وعرفوا بان رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - علم بمكرهم ومؤامرتهم، فاسرعوا تاركين العقبة حتى خالطوا الناس.

يقول حذيفة: فعرفتهم برواجلهم وذكرتهم لرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وقلنت: يا رسول الله ألا تبعث إليهم لتقتلهم؟ فاجابهُ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في لحن ملؤه الحنان والعاطفة:

«إن الله أمرني أن أعرض عنهم، وكره أن يقول الناس أنه دعا أناساً من قومه وأصحابه إلى دينه فاستجابوا له فقاتل بهم حتى ظهر على عدوه ثم أقبل عليهم فقتلهم ولكن دعهم يا حذيفة فإن الله لهم بالمرصاد.» (1)

وقد أنزل الله سبحانه إثر هذه الحادثة الآية ٦٥ من سورة التوبة التي قال تعالى فيها: **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ**

وَنُلْعَبُ.(2)

النية تقوم مقام العمل:

ليس ثمة مشهد أعظم جلالاً من مشهد جيش فاتح يعود إلى أحضان الوطن، كما ليس هناك أمرٌ أذكى وأهناً عند الجندي المجاهد من الغلبة على العدو، التي تحفظ أمجاده، وتضمن بقاء كيانه، وسلامته، وقد تجلّى هذان الأمران عند عودة الجيش الإسلامي المنتصر إلى المدينة.

لقد دخل الجيش الإسلامي الفاتح المدينة بجلال عظيم بعد أن طوى المسافة

1-المغازي: ٣ / ١٠٤٢ - ١٠٤٥، مجمع البيان: ٣ / ٤٦، بحار الأنوار: ٢١ / ٢٤٧، الدرجات الرفيعة: ص ٢٩٨ و ٢٩٩، وامتناع الاسماع: ١ / ٤٧٧.
2-راجع مجمع البيان: ٣ / ٤٦.

(575)

بين «تبوك» و «المدينة»، وكانت تغمر جنود الإسلام فرحةً كبيرة، وتظهر على كلماتهم وأعمالهم أمارات الاعتزاز بما أحرزوه من غلبة على العدو، ومن أداء لحق الجندية، وكان السبب واضحاً لأنهم أرعبوا دولة قويّة سبق لها أن هزمت الامبراطورية الايرانية، فهم أخافوا الروم التي انسحبت من تبوك قبل وصول المسلمين إليها، وهم طوّعوا حكام وزعماء المدن والمناطق الحدودية السورية والحجازية، وأخضعوهم للدولة الإسلامية

لا شك أنّ الغلبة على العدو فخرٌ عظيم أصاب هذا الجيش، وكان طبيعياً أن يفخر أفراد هذا الجيش ويتباهوا على الذين تخلفوا في المدينة من دون عذر، ولكن حيث ان مثل هذا النمط من التفكير وهذه العودة الظاهرة كان من الممكن أن يوجد غروراً لدى البعض فيسيئوا إلى بعض الذين تخلفوا في المدينة الذين بقوا فيها لعذر وقلوبهم مع جنود الإسلام، ويشاركونهم بافئدتهم في أفراحهم، وأتراحهم لهذا التفت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهُم على مشارف المدينة وقد توقّفوا خارج المدينة بعض الوقت:

«إنّ بالمدينة لأقواماً ما سيرثم سيراً ولا قطعنم وادياً إلا كانوا معكم.»

قالوا يا رسول الله: وهم بالمدينة؟

قال: «نعم، حبسَهُم العُنزُ.»⁽¹⁾

أجل إنهم كانوا ينشوقون إلى الجهاد هذا الواجب الإسلامي الكبير، ولكن العذر منعهم من الاشتراك فيه.

إن النبي الأكرم بهذه العبارة المقتضبة أشار - في الحقيقة - إلى واحد من البرامج الإسلامية التربوية، وذكر بأن النية الطيبة والفكر الصالح يقوم مقام العمل الصالح الطيب، وأن الذين يُحرَمون من القيام بالأعمال الصالحة لافتقادهم القدرة عليها أو فقدان الامكانيات يمكنهم أن يشاركوا الآخرين في

1-السيرة الحلبية: ٣ / ١٦٣، بحار الأنوار: ٢٠ / ٢١٩.

ثواب العمل الصالح إذا نُورُوا ذلك، واشتاقُوا إليه قَلْبِيًّا.

إذا كان الإسلام يهتَمُّ باصلاح الظاهر، فإنه يهتَمُّ أكثر باصلاح القلب والفكر، باصلاح الباطن والسريرة، لأن اصلاح العقيدة وطريقة التفكير هو منبع جميع الاصلاحات، وأعمالنا كُلُّها وليدة أفكارنا ونوايانا.

إذا خَفَّفَ النبيُّ الاكرمُ بقوله هذا من غُلُوِّ المجاهدين وغرورهم، وحفظ مكانة المعذورين من المخلفين فلا يلحق بهم هوانٌ إلا أنه قَرَّرَ في نفس الوقت أن يوبَّخَ المتخلفين من دون عذر ويلقنهم درساً لن ينسوه، وللنموذج نقل هنا قصة ثلاثة من المتخلفين.

أخذ المتخلفين بالعقاب النفسي:

يوم أُعلنَ في المدينة عن التعبئة العامة تخلف ثلاثة من المسلمين في المدينة هم: «هلال بن أمية» و «كعب بن مالك» و «مرارة بن الربيع» فقد حضر هؤلاء عند رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لدى خروجه إلى تبوك واعتذروا إليه بمعاذير عن الاشتراك في الجهاد، فاعتذر أحدُهم، بأن الوقت هو وقتُ إدراك الثمر، وأنهم سيلتحقون بجيش الإسلام إذا فرغوا من الحصاد والقطاف.

إن هؤلاء وامثالهم ممن يريدون الدين والدينار، وتهتمهم مصالحهم المادية الشخصية والاستقلال السياسي معاً يعانون من نظرة ضيقة وقصيرة تعادل اللذائذ المادية العابرة بالحياة الإنسانية الشريفة، التي تتحقق تحت لواء الإستقلال الفكري والسياسي والثقافي، بل ربما رجَّحوا الأولى على الثانية.

ولهذا كان على النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بعد العودة - أن يودب مثل هذه العناصر حتى لا تسري عدوى هذه الحالة المرضية إلى الآخرين.

إنهم لم يتخلفوا عن هذا الجهاد فحسب، بل لم يعملوا بالعهد الذي أعطوه لرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أيضاً، فإنهم انشغلوا بالتجارة، وجمع المال حتى فوجئوا بعودة رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - المضفرة إلى المدينة فبادروا عند

ذلك لتلافي ما بدر منهم من تخلف إلى الحضور عند رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - للتسليم عليه وتقديم التهاني إليه كما فعل الآخرون.

إلا أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أعرض بوجهه عنهم ولم يكثرث بهم، وعندما بدأ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالكلام في ذلك الاجتماع العظيم وسط موجة من الفرح والابتهاج كان أول ما قاله هو:

«لا تُكلمنَّ أحداً من هؤلاء الثلاثة.»

ومع أن عدد المتخلفين كان يقارب التسعين شخصاً، إلا أن أكثرهم حيث كانوا من المنافقين، ولم يكن يتوقع منهم أن يشاركوا المسلمين في جهاد العدو لهذا تركّز ثقل هذه القطيعة على هؤلاء المسلمين الثلاثة الذين كان بعضهم سبقَ منه أن اشترك في غزوة بدر مثل «مرارة» و «هلال»، وكانت لهم شخصية ومكانة بين المسلمين!!

ولقد تركت سياسة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الحكمة التي كانت جزءاً لا ينفك من دينه أثراً عجبياً، فقد تعطلت التجارة والأخذ والعطاء مع المتخلفين، وكسدت بضائعهم، ولم يشترها أحدٌ، وقطع أقرب أقرباء المخلفين روابطهم وعلاقتهم مع المخلفين المذكورين إتباعاً لأوامر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وتركوا حتى الحديث العابر معهم.

ففعلت مقاطعة الناس للمخلفين فعلتها، وضغطت عليهم نفسياً بشدة حتى ضاقت عليهم الأرض على رحابتها في نظرهم كما يقول القرآن الكريم.

(حتى إذا ضاقتَ عليهم الأرض بما رحبتَ وضاقتَ عليهم أنفسهم.)⁽¹⁾

ولكن هؤلاء الثلاثة المعروفين بفراسة كاملة أدركوا أن العيش في البيئة الإسلامية لا يمكن إلا بالالتحاق الحقيقي بصوف المسلمين، وأنه لا دوام لحياة الأقلية الصغيرة أمام الاكثريّة الفاطمية، وبخاصة إذا كانت الأقلية تتألف من

-[التوبة: ١١٨]، وتذكر التفاسير كيفية توبتهم وأنابتهم على وجه التفصيل فليراجعها من يريده.

جماعة مشاغية ومغرضة.

هذه المحاسبات من جانب، والانجذاب الفطري من جانب آخر دفعت بهؤلاء المخلفين إلى العودة إلى حظيرة الايمان الواقعي، وأن يظهرُوا ندمهم على فعلهم القبيح بالتوبة إلى الله، والانابة إليه ، وقبل الله تعالى توبتهم، وأخبر نبيّه الكريم بعفوه عنهم فبادر النبي -

صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من فوره إلى الاعلان عن عفوه ورفع المقاطعة عنهم.⁽¹⁾

قصة مسجد ضرار:

كانت «المدينة» و «نجران» تُعتبران بالنسبة إلى أهل الكتاب منطقتين واسعتين ومركزيتين في شبه الجزيرة العربية، فقد كانوا يتركزون في هاتين المنطقتين أكثر من أي مكان آخر، ولهذا اعتنق فريقٌ من عرب الأوس والخزرج الدين المسيحي واليهودي. ويبدو أن «ابا عامر» والد «حنظلة غسيل الملائكة» المستشهد في غزوة أحد، كان قد رغب في الدين المسيحي في العهد الجاهلي، فأنسلخ في صفوف الزُهبان، فلما ظهر نجم الإسلام من أفق المدينة بعد هجرة النبي إليها، واحتوى الدين الجديد الأديان الأخرى انزعج «أبو عامر» من هذه الظاهرة بشدة، فشرع بصدق في التعاون مع منافقي الأوس والخزرج. وقد عرف رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بخططهم التخريبية، وأراد اعتقاله، فخرج «أبو عامر» من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى الطائف، وهرب من الطائف بعد سقوطها إلى الشام، وأخذ يقود من هناك شبكة تجسسية لحزب المنافقين.

[1- السيرة الحلبية: ٣ / ١٦٥، بحار الأنوار: ١٠ / ١١٩ وهذا النوع من المحاربة التي سلكها النبي مع المخلفين علم المسلمين درساً كبيراً ومفيداً في مقابل الاقليات الصغيرة، وهو لا يحتاج إلا إلى الاخلاص والاتحاد والعزم هذا ويذكر الواقدي في المغازي: (٣ / ١٠٤٩ - ١٠٥٦) قصة هؤلاء المخلفين بصورة أكثر تفصيلاً مما ذكرناه هنا.

(579)

وقد كتب إلى المنافقين في المدينة في إحدى رسائله ان استعدوا وابنوا مسجداً في قباء في مقابل مسجد المسلمين وصلوا فيه في أوقات الصلاة ليمكنكم - تحت غطاء أداء الفرائض - التحدث حول الأمور المتعلقة بالإسلام والمسلمين، وكيفية تنفيذ المؤامرات الحزبية ضدهم.

لقد كان «ابو عامر» على غرار أعداء الإسلام في العصر الحاضر يرى أن أفضل وسيلة لهدم واستئصال الدين في بلد يسوده الدين هو الاستفادة من نفس سلاح الدين، ومن المعلوم أنه يمكن توجيه الضربة إلى الدين باسم الدين أكثر من أي عامل أو وسيلة أخرى.

لقد كان «ابو عامر» يعلم أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لا يسمح لحزب المنافقين بإقامة مركز لهم مطلقاً إلا إذا كان لذلك صبغةً دينيةً، وكان تحت عنوان مسجد.

عندما كان رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يتجهز إلى «تبوك» أتاه جماعة من المنافقين وطلبوا منه ان يسمح لهم ببناء مسجد في محلّتهم بقباء بحجة أن ذوي العلة والحاجة لا يمكنهم أن يقطعوا المسافة بين قباء ومسجد النبي للصلاة معه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في الليلة المطيرة والليل الشاتية، فأوكل النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أمر النظر في طلبهم إلى ما بعد العودة

من تبوك . (1)

غير أن حزب النفاق بادروا إلى اختيار نقطة من الأرض في قباء، واسرعوا في إقامة مركز لهم تحت غطاء المسجد ولما عاد النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من تبوك حضروا عنده وطلبوا منه أن يصلي فيه ركعتين لئیسبغوا بذلك الشرعية على مركزهم، وفي هذه الاثناء نزل جبرئيل على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وأخبره بحقيقة هذا الأمر، وسمّاه في آيات نزل بها على النبي بمسجد ضرار، ووصفه بأنه مركز بُني لإيجاد الفرقة بين المسلمين، والتأمر عليهم إذ يقول تعالى:

-[المغازي: ٣ / ١٠٤٦].

(580)

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَسْهَدُ لَهُمْ لَكَذِبُونَ * لَاتَتَّمُ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ⁽¹⁾).

فأمر النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فوراً بإحراق ذلك المسجد وتسويته بالأرض فحرق وهدم وسوّي بالأرض وتحول مكانه إلى مزبلة فيما بعد .⁽²⁾

إن تحريق وهدم مسجد الضرار كانت ضربة قاضية لحزب النفاق فمنذئذ تلاشت وشائج وروابط ذلك الحزب الخبيث، وهلك حاميه الوحيد عبد الله بن أبي بعد شهرين من غزوة تبوك.

ولقد كانت غزوة تبوك آخر الغزوات الإسلامية التي شارك فيها رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إذ لم يشارك - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بعدها في أي قتال.

-[التوبة: ١٠٧ و ١٠٨].

-[السيرة النبوية: ٢ / ٥٣٠، بحار الأنوار: ٢٠ / ٢٥٣].

(581)

٥٥

وَفَدْ ثَقِيفَ فِي الْمَدِينَةِ

انتهت غزوة تبوك بكل مشاكلها، ومتاعبها الكثيرة وعاد جنود الإسلام المجاهدون إلى المدينة بآبدان متعبة من وعناء السفر، وبعيد الطريق، ولم يلق جنود الإسلام كيداً ولم تحصل بينهم وبين الجيش الرومي اية مواجهة كما ولم يواجهوا عدواً طوال ذلك الطريق،

ولم يغنموا غنيمة. من هنا اعتبر بعض السذج من المسلمين تسيير هذا الجيش الضخم عملاً لغواً وعبثاً، وذلك لأنهم لم يعرفوا بالآثار والنتائج غير المرئية لهذه الحركة العسكرية الواسعة، ولم يمض وقتٌ كبيرٌ إلا وأتضحت نتائجها، فقد أسلمت على أثر هذه المناورة العسكرية العظمى أشد القبائل عداً و عناداً للإسلام، وخضعت لسلطان المسلمين، بايفاد مندوبيها ووفودها إلى المدينة، وإظهار الطاعة والإسلام عن طريقها، كما أنها عمدت إلى فتح أبواب حصونها الحصينة في وجه المسلمين ليحطّموا أصنامها وأوثانها، وينصبوا على حطامها ألوية التوحيد.

ان الجماعات السطحية التفكير القصيرة النظر تهتم - عادة - بالنتائج المرئية الحاضرة، فمثلاً إذا واجه جنود الإسلام خلال الرحلة عدواً، وقاتلوه وقضوا عليه، وغنموا غنائم من أمواله قالت هذه الجماعة: لقد حققت هذه العملية العسكرية نتائج باهرة!! ولكن أصحاب الرؤية العميقة والنظرة البعيدة يحلّلون الامور على غير هذا النمط، فهم يمتدحون أي عمل يخدم الهدف والنتيجة النهائية ويعتبرونه نجاحاً باهراً.

(582)

ومن حسن الاتفاق أن غزوة تبوك خدمت هدف النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وهو اجتذابُ الاقوام العربية إلى الإسلام - خدمة كبرى - لأنه قد شاع في جميع انحاء الجزيرة العربية أن الروميين (الذين غلبوا الايرانيين الذين طالما سادوا نصف المعمورة في ذلك الوقت وحكموا حتّى اليمن وماحولها في آخر حروبهم، واستعادوا منهم صليبيهم واعادوه إلى بيت المقدس) أُرعبوا بالقوة الإسلامية الكبرى، وانصرفوا عن مقابلة جنود الإسلام.

لقد دَفَع هذا النبأ أشدَّ القبائل عناداً، والتي كانت حتّى يوم أمس غير مستعدة للتعايش مع الإسلام والخضوع له، دفعها إلى أن تتغيّر من مواقفها المتعنتة المتصلبة، وتفكّر في التعاون والتعايش مع المسلمين، ولكي تسلّم من عدوان القوى الكبرى في ذلك اليوم (إيران والروم) انضوت تحت لواء الإسلام واعلنت عن إنتمائها إليه. واليك فيما يلي نموذج من هذه التطورات التي حدثت في مواقف تلك القبائل العربية المعادية للإسلام.

وقوع الفرقة والاختلاف في قبيلة ثقيف:

كانت قبيلة ثقيف معروفة بطغيانها وعنادها العجيب بين القبائل العربية، ولقد قاوموا حصار الجيش الاسلامي لهم مدة شهر واحد معتممين بحصونهم في الطائف ولم يسلموا . (1)

هذا وكان «عروة بن مسعود الثقفي» وهو أحد سادة ثقيف قد علم بانتصار المسلمين الكبير في أرض تبوك، فقدم على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قبل أن يدخل المدينة، وأسلم على يديه واستأذنه في أن يذهب إلى الطائف، ليدعو قبيلته إلى دين التوحيد

فحضره رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من مخاطر هذا العمل لأتته - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يعرف أن فيهم نخوة الامتناع الذي كان

[المغازي: ٢ / ٩٢٢ - ٩٣٨ .

(583)

منهم.

وقال له: انهم قاتلوك.

فقال عروة: يا رسول الله أنا أحب إليهم من أباكارهم، (أو من أبصارهم)، وكان فيهم كذلك محبباً مطاعاً.

ولقد كان قوم عروة وسائر قادة تقيف لم يدركوا بعد ما أدركه عروة من عظمة الإسلام وكان فيهم نخوة وكبر يمنعانهم من الخضوع للحق.

ولهذا قررت أن ترشق بالنبال والسهم أول داعية أتتها ليدعوها إلى الإسلام... وهكذا رشقوا بالنبال «عروة» في الوقت الذي كان يدعوهم إلى الإسلام، فقال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إليّ. (1)

وَفْدُ تَقِيفٍ:

ندم رجال تقيف - بعد مقتل عروة - على فعلهم هذا بشدة وعرفوا بأن الحياة لم تغد ممكنة وميسرة لهم في قلب الحجاز الذي رفعت على جميع مناطقه ألوية التوحيد وخاصة بعد أن أصبحت جميع المراعي والطرق التجارية تحت رحمة المسلمين، ففرروا في ندوة مشاورية عقدت لدراسة مشكلاتهم أن يبعثوا مندوباً من قبيلهم إلى المدينة ليتفاوض مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويعلم له عن استعداد قومه لاعتناق دين التوحيد ضمن شروط معينة، واتفقوا على إيفاد «عبداليل» إلى المدينة وإبلاغ رسالتهم إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولكن عبد ياليل رفض القيام بهذه المهمة وقال: لست فاعلاً ذلك حتى تُرسلوا معي رجلاً، لأنه كان لا يثق بثبات رأيهم، وكان يخشى أن يصنعوا به ما صنعوا بعروة بن مسعود. فاتفقوا أن يبعثوا معه خمسة رجال من تقيف ليقوموا جميعاً بالتقدم

[السيرة النبوية: ٢ / ٥٣٧ و ٥٣٨ .

(584)

على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والتفاوض معه.

توجه هذا الوفدُ السداسيُّ إلى المدينة، ونزلوا بعد طيِّ مسافةٍ خارج المدينة عند قناةٍ فألفوا عندها المغيرة بن شعبة الثقفي يري خيولاً لأصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فلما رأى المغيرة زعماء قبيلته وعرف هدفهم وثب يشند إلى المدينة ليبيِّن رسولَ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد أن ترك الخيول عند الثقفيين، وليخبره بقرار قبيلة ثقيف التي طال عنادها، فلقبه أبوبكر قبل أن يدخل على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأخبره المغيرة عن ركب ثقيف، فرجاه أبوبكر أن يسمح له بتبشير النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قبل أن يحدثه المغيرة بالأمر ففعل المغيرة فدخل أبو بكر على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأخبره بقدمهم عليه وأنهم جاؤوا ليعتقوا الإسلام بشروط، فأمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - باكرامهم، وضربَ لهم قبة في ناحية مسجده، وكلف خالد بن سعيد بالقيام بشؤون ضيافتهم.

ثم حضر وفدُ ثقيف عند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومع أن المغيرة كان قد علمهم كيف يُحيون رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فانهم حيَّوه بتحية الجاهلية تكبراً منهم وغروراً ثم أخبروا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - برأي ثقيف وأضافوا أنهم مستعدون لاعتناق الإسلام ضمن شروط خاصة، سوف يُعرضونها عليه في جلسة تالية.

واستمرت مفاوضات وفد ثقيف مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عدة أيام، وكان «خالد بن سعيد» هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في هذه المفاوضات.

شروط وفدِ ثقيف:

قَبِلَ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كثيراً من شروط ثقيف حتَّى انه ضمن لاهل الطائف - ضمن ذلك العهد - أمن منطقة الطائف وما يرتبط بالطائفيين من

(585)

أراض، ولكن بعض شروطهم كانت غير صحيحة، ووقحة إلى درجة أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - غضب بسببها، ولا بأس بأن نتعرض لذكر بعض هذه الشروط:

قال وفد ثقيف: ان قبيلة ثقيف مستعدة لان تعتنق الإسلام شريطة أن يترك بيت أصنامهم على حاله، وأن يعبدوا «اللات» وهو صنم القبيلة الاكبر مدة ثلاث سنين فأبى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فلما رأوا غضب النبي وابعاءه أخذوا يتنازلون عن المدة التي ذكروها سنة سنة وهو يأبى عليهم حتى سألوا شهراً واحداً، فأبى عليهم أن يدعها ولا يوماً.

ولقد كان مثل هذا الطلب من النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الذي كان تُشْرُ التوحيد، وهُدْم بيوت الاصنام، وتحطيم الاوثان يشكل هدفه الاساسي كان طلباً مخجلاً جداً، ولقد كان مثل هذا الطلب يكشف عن أنهم كانوا يريدون إسلاماً لا يضر بمصالحهم المادية وميولهم الباطنية، أما إذا كان غير هذا فلن يقبلوه ولن يرضوا به.

ولهذا عندما عرف وفدُ ثقيف بقبح مطلبهم هذا بادروا إلى التعلل والاعتذار بأنهم إنما أرادوا بذلك إرضاء نسايتهم وذرايتهم وسفهاء قبيلتهم، حيث أنهم يكرهون أن يروّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام فاذا أبى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عليهم ذلك فليبعث معهم شخصاً من غير قبيلتهم ليهدمها، فوافق النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على هذا الشرط، لأن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يريد محو وازالة جميع المعبودات الباطلة عن الحياة البشرية سواء أتم هذا على أيدي الطائفيين أم على أيدي غيرهم.

والشرط الآخر هو أن يعفيهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من الصلاة. فلقد كانوا يتصورون أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يمكنه التصرف في الأحكام الإلهية كما يفعل قادة أهل الكتاب، حسب زعمهم، حيث كانوا يكلفون جماعة بهذه الاحكام، بينما يُعفون جماعة أخرى منها، وذلك غفلة منهم عن

(586)

أنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يتبع الوحي الإلهي، ولا يمكنه التغيير فيه قيد شعرة.

إن هذا الشرط كان يكشف عن انه لم يكن قد ترسخت في أفئدتهم روح التسليم المطلق بعد، وأن اعتناقهم للإسلام كان نتيجة ظروف ساقتهم إلى اسلام ظاهري سطحي، وإلا فلا داعي ولا مبرر للإيمان ببعض ما جاء في الإسلام دون بعض، فيقبلوا شيئاً ويرفضوا شيئاً آخر.

إن الإسلام، والايمان بالله إن هو إلا نوعٌ من التسليم الباطني الروحي، والخضوع القلبي الذي يقبل المرء في ظلّه جميع التعاليم والدساتير الإلهية عن طواعية ورغبة، وفي مثل هذه الحالة لا غير لاتجد فكرة التبويض في التعاليم الإلهية طريفاً إلى روح إنسان ومخيلته.

ولأجل هذا قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في جوابهم:

«لأخبر في دين لا صلاة فيه.(1)»

إن المسلم الذي لا يسجد ولا يركع لله تعالى في اليوم والليلة ولا مرة واحدة، ولا يذكر ربّه لا يكون مسلماً بالمعنى الصحيح.

هذا وعندما اتفق الطرفان على شروطهما نظمت معاهدة تشمل المواد والشروط المتفق عليها، وقّع عليها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وحينئذ أذن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لوفد ثقيف بالعودة إلى قومهم، واختار منهم أحدثهم سناً وهو «عثمان بن أبي العاص» الذي كان أحرصهم على التفقه في الإسلام، وتعلّم القرآن خلال وجوده بالمدينة فأمره عليهم، وجعله نائباً دينياً، وسياسياً عنه في قبيلة ثقيف وأوصاه - فيما أوصاه - بأن يصلي بالناس جماعة مراعيّاً أضعفهم قاتلاً له:

«يا عثمان تجاوز (2) في الصلاة وأقدر الناس بأضعفهم فإنّ فيهم الكبير

1- السيرة الحلبية: ٣ / ٣١٧ .
2- تجاوز: أي خفف الصلاة وأسرع بها.

(587)

والصغير والضعيف وذا الحاجة.»

ثم كلف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «أبا سفيان بن حرب»، و «المغيرة بن شعبة» بالتوجه إلى الطائف مع وفد ثقيف لهدم الأصنام فيها، أجل إن أبا سفيان الذي كان وحتى يوم أمس من حفظة الأصنام وهو الذي أراق في سبيلها أنهرًا من الدماء، يمشي الآن إلى الطائف وهو يحمل فأسه ومعوّله لتحطيم الأصنام فيها، ويحوّلها إلى تلبّ من الحطب، ويبيع ما يتعلق بها من ذهب وفضة وحلي ليقضي بأموالها ديون «عروة» و «الأسود» حسب أوامر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - . (1)

1- السيرة النبوية: ٢ / ٥٣٧ - ٥٤٣، السيرة الحلبية: ٣ / ٢١٦ - ٢١٨، ولقد وردت قصة وفد ثقيف في كتاب «أسد الغابة»: ١ / ٢١٦ و ج ٣ ص ٤٠٦ أيضاً.

(588)

حوادث السنة التاسعة من الهجرة

٥٦

إعلان البراءة من المشركين في منى

في أواخر السنة التاسعة من الهجرة نزل أمين الوحي جبرئيل على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعدة آيات من سورة التوبة (سورة براءة)، وكلف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن يبعث بها رجلاً إلى مكة ليتلوها مع عهد ذي أربعة بنود في موسم الحج.

ولقد رُفِعَ الأمان في هذه الآيات عن المشركين، وألغيت جميعُ العهود (إلا العهود والمواثيق التي التزم بها أصحابها ولم ينقضوها)، وأبْلَغَ إلى رؤوس الشرك وأتباعهم أن عليهم أن يوضحوا مواقفهم من الحكومة الإسلامية التي تقوم على أساس التوحيد، وذلك خلال أربعة أشهر، وإذا لم يتركوا الشرك والوثنية خلال هذه الأشهر الأربعة نُزعت منهم الحصانة، ورفع عنهم الأمان.

عندما ينتهي المستشرقون إلى هذه القصة وهذا الفصل من التاريخ الإسلامي يصوبون رماح حملاتهم إلى الإسلام ويعتبرون هذا الموقف الحاسم والحكيم مخالفاً لمبدأ الحرية الاعتقادية، ولكنهم إذا طالعوا صفحات التاريخ الإسلامي من دون أي تعصب وانحياز، ودَرَ سوا الدوافع الحقيقية وراء هذا الاجراء، والتي ذُكرت في هذه السورة، وفي النصوص التاريخية لسلموا من كثير من هذه الأخطاء، ولصدّقوا واعترفوا بأن هذا العمل لا ينافي حرية العقيدة التي يحترمها عقلاء العالم، أبداً، واليك فيما يأتي الدوافع وراء صدور هذا العهد (البراءة).

1- كان التقليد السائد عند العرب في العهد الجاهلي هو أن على زائر

(589)

الكعبة ان يعطي الثوب الذي يدخل به إلى مكة المكرمة لفقير ويطوف بثوب آخر، وإذا لم يكن له ثوبٌ آخر، فان عليه أن يستعير ثوباً ويطوف به حتى لا يضطرَّ إلى الطواف عرياناً، وإن لم يمكنه ان يستعير ثوباً طاف بالبيت المعظم عارياً، بادي السوءة.

وقد دخلت امرأة ذاتُ جمال كبير، ذات يوم المسجد الحرام، وحيث أنها لم تك تملك ثوباً آخر، لذلك اضطرَّت تبعاً لذلك التقليد الجاهلي الخرافي أن تطوف عارية بالبيت المعظم، ومن الواضح أن مثل هذا الطواف الفاضح أي الطواف بالجسد العاري في أقدس بقعة من بقاع العالم على مرأى من جموع الطائفين بالبيت ينطوي على نتائج سيئة بالغة السوء.

2- لقد نزلت الآيات الأولى من سورة التوبة بعد أن انقضت عشرون سنة على بعثة النبي الكريم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وفي هذه المدة كان منطق الإسلام القوي حول المنع من الوثنية والشرك قد بَلَغَ إلى مسامح المشركين في شبه الجزيرة العربية فإذا كانت جماعةٌ قليلةٌ منهم لا يزالون يُصِرُّون على الشرك والوثنية لم يكن ذلك إلا عن عصبية وعناد.

من هنا كان الوقت قد حانَ لأن يستخدم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - آخر علاج لإصلاح ذلك المجتمع المنحرف، وأن يستعين بمنطق القوة لضرب كل مظاهر الوثنية، وأن يعتبرها نوعاً من العدوان على الحقوق الالهية والإنسانية، وبهذه الطريقة يقضي على منبع ومنشأ منات العادات السيئة في المجتمع.

ولكن المستشرقين الذين اعتبروا هذا العمل مخالفاً لمبدأ حرية الاعتقاد الذي هو أساس الدين الاسلامي وقاعدة المدنية الراهنة، قد غفلوا عن هذه النقطة لأن مبدأ حرية العقيدة محترم مادام لا يضرُ بسلامة الفرد والمجتمع، إذ في غير هذه الصورة يجب مخالفتها حتماً بحكم العقل وسيرة جميع المفكرين.

فإذا كان في أوروبا اليوم مثلاً جماعة من الشباب المنحرفين ينادون بحرية العري إنطلاقاً من افكار منحرفة فاسدة وقاموا - على أساس أن إخفاء بعض

(590)

الأقسام من الجسد يثير الفضول ويوجب تحريك الغريزة ويسبب فساد الاخلاق - بتشكيل نوادي العري السرية، فهل يسمح الفكر الانساني الرشيد بأن يسمح لمثل هذه الجماعة بان تفعل ما تريد تحت قناع حرية العقيدة، ويقول: إن الاعتقاد أمرٌ محترم، أو أن العقل يقضي بان نحارب مثل هذه الفكرة الحمقاء حفاظاً على سعادة تلك الجماعة نفسها، وسعادة المجتمع وهذا الموقف مما لا يتخذه الإسلام فحسب بل هو موقف جميع العقلاء في العالم من جميع الاتجاهات والحركات الهدامة التي تهدد مصالح المجتمع بالخطر، فهم يحاربونها بلا هوادة، وهذه الحرب هي في الحقيقة هي محاربة المعتقدات الحمقاء لدى الجماعات المنحطة.

إن الوثنية ليست سوى حفنة من الأوهام والخرافات التي تستتبع مئات العادات الدينية، وقد بذل رسول الإسلام جهوداً كبرى وكافية في سبيل هدايتهم، وبعد أن انقضى أكثر من عشرين عاماً من دعوته كان الوقت قد حان لاستئصال جذور الفساد باستخدام القوة العسكرية كأخر وسيلة.

3- ومن جانب آخر فان الحج هو أكبر العبادات والشعائر الإسلامية ولم تكن الصراعات والمواجهات التي وقعت بين الإسلام ورووس الشرك لتسمح حتى يوم نزول هذه السورة بأن يعلم الرسول الكريم المسلمين مناسك الحج على الوجه الصحيح وبعيداً عن أي نوع من أنواع الشوائب والزوائد.

من هنا كان يتوجب أن يقوم النبي الكريم بنفسه بالمشاركة في هذا المؤتمر الاسلامي العظيم، ويعلم المسلمين هذه العبادة الكبرى بصورة عملية، ولكن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - انما كان يمكنه المشاركة في هذه المراسم والمناسك إذا خلت منطقة الحرم الإلهي ونواحيها من كافة المشركين الذين أعطوا مقام العبودية والعبادة للأصنام الخشبية، والحجرية، ويطهرها من كل معالم الشرك والوثنية، ويصبح الحرم الإلهي خالصاً للموحدين والعباد الواقعيين.

4- إن جهاد النبي لم يك له أي ارتباط بحرية العقيدة، فالعقيدة ليست شيئاً يمكن أن يفرض على أحد، ويوجد أو يحى بالقهر. إن روح الإنسان ونفسه

هو مركز الاعتقاد ومقرّه، وظرفه ومكانه، وهو لا يخضع لأي قهر أو تسخير، وإن ظهور العقائد في منطقة الضمير يتوقف على سلسلة من المقدمات والأوليات التي توجب حصول العقيدة، وظهور العقيدة وحصولها من دون تلك المقدمات أمر محال.

وعلى هذا الأساس فإن مسألة الاعتقاد لا تخضع للقهر، ولا تقبل الفرض، بل كان نضال النبي ينحصر في النضال ضدّ مظاهر هذه العقيدة وهي عبادة الاوثان.

من هنا هدم كل بيوت الاصنام، وحطم الأوثان بينما ترك الانقلاب في العقائد والضمانات لعامل الزمن الذي كان مروره يستتبع - لا محالة - مثل هذا التطور والتحول والانقلاب.

ان العوامل الاربعة المذكورة دفعت برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى أن يستدعي أبا بكر ثم يعلمه الآيات الاولى من سورة التوبة ويأمره بأن يذهب برفقة اربعين رجلاً من المسلمين ⁽¹⁾ إلى مكة، ويتلو هذه الآيات التي تتضمن البراءة من المشركين في يوم الأضحى على مسامح الناس.

فتهاياً أبا بكر للقيام باداء هذه المهمة، وتوجه نحو مكة، إلا أنه لم يلبث أن نزل أمين الوحي على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - برسالة من الله سبحانه وهي:

«إِنَّهُ لَا يُؤَدِّي عَنْكَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ.»

ولهذا استدعى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - علياً وأخبره بالخبر ثم قال له: إركب ناقتي العضاء والحق أبا بكر فخذ براءة من يده، وامض بها إلى مكة وانبذ بها عهد المشركين إليهم، أي اقرأ على الناس الوافدين إلى منى من شتى انحاء الجزيرة العربية براءة بما فيها النقاط الاربعة التالية:

1- وقد ذكر الواقدي انهم كانوا ثلاثمائة (المغازي: 3 / 1077).

1- أن لا يدخل المسجد مشركاً.

2- أن لا يطوف بالبيت غريباً.

3- أن لا يحج بعد العام مشركاً.

4- أَنْ مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عَهْدٌ فَهُوَ لَهُ إِلَى مَدَّتِهِ، أَيُّ إِنَّهُ مُحْتَرَمٌ مِيثَاقُهُ وَمَأْلَهُ وَنَفْسُهُ إِلَى يَوْمِ انْقِضَاءِ الْعَهْدِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَهْدٌ وَمَدَّةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَإِلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ أَخَذْنَا بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ قَتَلْنَا، وَذَلِكَ بَدَأَ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ (العاشر من شهر ذي الحجة).

إِذَا عَلِيَ هَذَا الْفَرِيقُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَحْدُدُوا مَوْقِفَهُمْ مِنَ الْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَإِنَّمَا أَنْ يَنْضُورُوا إِلَى صُفُوفِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَنْبِذُوا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كُلَّ مَظَاهِرِ الشَّرْكِ وَيَحْطُمُوهَا، وَإِنَّمَا أَنْ يَسْتَعِدُّوا لِلْقِتَالِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ . (1)

فَخَرَجَ عَلِيٌّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - الْعَضْبَاءَ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ «جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ» الْأَنْصَارِيُّ حَتَّى ادْرَكَ أَبَا بَكْرٍ فِي الْجَحْفَةِ فَأَبْلَغَهُ أَمْرَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فَدَفَعَ أَبُو بَكْرٍ آيَاتِ الْبِرَاءَةِ إِلَى عَلِيٍّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

وَيُرْوَى مَحْدُوثُ الشَّيْخَةِ وَجَمَاعَةٍ مِنْ مَحْدُوثِي السَّنَةِ أَنَّ الْإِمَامَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أَنْ أَخِيرَكَ بَيْنَ أَنْ تَسِيرَ مَعِيَ أَوْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ فَرَجَحَ أَبُو بَكْرٍ الْعُودَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى الْمَسِيرِ مَعَ عَلِيٍّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِلَى مَكَّةَ...: بَلْ أَرْجِعْ إِلَيْهِ، وَعَادَ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ أَهْلَتَنِي لِأَمْرِ طَالَتِ الْإِعْنَاقُ إِلَيَّ فِيهِ، فَلَمَّا تَوَجَّهْتَ لِي رَدَدْتَنِي عَنْهُ، مَا لِي أَنْزَلَ فِيَّ قُرْآنًا؟! «

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : « لَا وَلَكِنَّ الْأَمِينَ جِبْرِئِيلَ هَبَطَ إِلَيَّ عَنِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِأَنَّهُ لَا يُؤَدِّي عَنْكَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ، وَعَلَيَّ مِنِّي، وَلَا يُؤَدِّي عَنِّي إِلَّا عَلِيٌّ. (2) »

1- فروع الكافي: 1 / 326 .
2- الارشاد: ص 37 .

إِلَّا أَنْ بَعْضَ رَوَايَاتِ أَهْلِ السَّنَةِ تَفِيدُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أُتِيَتْ إِلَيْهِ أَمَارَةُ الْحَجَّاجِ فِي ذَلِكَ الْعَامِ، بَيْنَمَا كُفِّفَ عَلِيٌّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَحْدَهُ بِمَهْمَةٍ قِرَاءَةِ آيَاتِ الْبِرَاءَةِ وَالنَّقَاطِ الْارْبَعَةِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْكَبِيرِ بِمَنَى . (1)

دَخَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَكَّةَ فِي الْيَوْمِ الْعَاشِرِ مِنْ شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ، صَعَدَ عَلَى جَمْرَةِ الْعَقْبَةِ وَقَرَأَ عَلَى النَّاسِ الْآيَاتِ الثَّلَاثَ عَشْرَةَ مِنْ صَدْرِ سُورَةِ التَّوْبَةِ (بِرَاءَةٍ) وَأَذَانَ رَسُولِ اللَّهِ الْمُتَضَمِّنَ لِلنَّقَاطِ الْارْبَعَةِ، رَافِعًا صَوْتَهُ بِهِ، بِحَيْثُ يَسْمَعُهُ جَمِيعٌ مِنْ حَضْرٍ، وَذَلِكَ بِمُنْتَهَى الشَّجَاعَةِ وَالْجُرْأَةِ، وَأَخْبَرَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَاعَهُدَ وَلَا مَدَّةَ لَهُمْ مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بِأَنَّهُمْ أَنْ يَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ إِبْتِدَاءً مِنْ يَوْمِ قِرَاءَةِ ذَلِكَ الْإِعْلَانِ، فَإِذَا انْقَضَتْ هَذِهِ الْمَدَّةُ قُتِلُوا إِذَا وُجِدُوا عَلَى

الشرك، فعليهم أن يبادروا خلال هذا الأجل المضروب إلى تطهير بيئتهم من كل أنواع الوثنية وإلا سُلِّيت عنهم الحصانة، ورفع عنهم الأمان.

لقد كان أثر هذه الآيات وهذا الأذان النبويّ هو أنه لم يمض على قراءتهما أربعة أشهر إلا وأقبل المشركون على اعتناق عقيدة التوحيد أفواجاً أفواجاً، وهكذا استئصلت جذور الوثنية في شبه الجزيرة العربية في أواسط السنة العاشرة من الهجرة.

تعصّب بغيضٍ في تحليل هذا الحدث:

لاريب أن عزل أبي بكر عن مقام إبلاغ آيات البراءة، وتنصيب علي بن أبي طالب مكانه لأداء تلك المهمة بأمر الله تعالى يُعدُّ من ابرز فضائل علي ومناقبه المسلمة التي لا تقبل الإنكار والشك، ولكن جماعة من الكتاب المتعصبين وقعوا في الخطأ والانحراف مع ذلك عند تحليل ودراسة هذه الحادثة.

[1] السيرة النبوية: ٢ / ٥٤٦ وراجع للوقوف على المصادر العديدة لهذه القضية الغدير: ٦ / ٣٣٨ - ٣٥٠.

(594)

فهذا «الألوسي البغدادي» يكتب في تفسيره عند دراسة وتحليل هذه الحادثة: النكتة في نصب الامير كرم الله تعالى وجهه ميّغاً نقضَ العهد في ذلك المحفل ان الصّديق رضي الله تعالى عنه لما كان مظهراً لصفة الرحمة والجمال كما يرشد إليه ما تقدم في حديث الاسراء ولما كان علي كرم الله وجهه والذي هو أسد الله ومظهر جلاله فوض إليه نقض عهد الكافرين الذي هو من آثار الجلال وصفات القهر. (1)

إن هذا التفسير النابع من منبع التعصّب لا ينسجم مع كلام رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - لأنه قال عند الإجابة على أبي بكر: «إنّ هذه الآي لا يؤدّيها إلا أنا أو رجلٌ منّي» أي لا يصلح لأدائها غير هذين الرجلين وليس في هذا الكلام أي اشارة إلى الرأفة والشجاعة.

هذا مضافاً إلى أن رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - المظهر الكامل للرحمة والرأفة وبناء على ما قاله الألوسي يجب أن لا يُكلف حتّى رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - بابلاغ هذه الآيات، على حين أن الوحي قال: هذه الآيات لا يؤدّيها إلا أنت أو رجلٌ منك.»

ولقد برّر جماعة أخرى هذا المطلب بنحو آخر فقالوا: لقد كان التقليد المتَّبَع عند العرب في نقض العهود مهما كانت هو ان يقدم نفسُ الموقع على العَهْد أو أحد أسبابه على نبذ العهد ونقضه، إذ في غير هذه الصورة كان المتعارف عندهم أن يبقى العهد على حاله، وحيث أن علي بن أبي طالب كان من اقرباء النبي لهذا كُفِّفَ بإبلاغ هذه الآيات التي تضمنت نبذ العهد.

ولكن هذا التفسير والتوجيه غير مقنع، لأنه كان ثمة بين اقرباء رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من هو أقرب إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مثل عمّه العباس، فلماذا لم يكفّف بإبلاغ آيات البراءة، ونبذ العهد إلى المشركين؟

- [روح المعاني: ١٠ / ٤٥ تفسير سورة التوبة.

(595)

ثم لماذا لم يتبع النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذه العادة من أول الأمر وهو العارف بتقاليد مجتمعه؟

إذا أردنا أن نقضي في هذه القضية التاريخية بالقضاء المحايد المنصف وجب أن نقول: إن علة هذا العزل، والنصب لم تكن لا دافع الرغبة في المقام، والطموح إلى السلطة، ولا وشيجة القربى مع علي - عليه السّلام - بل كان الغرض من هذا التغيير هو الكشف عملياً عن أهليّة أمير المؤمنين علي - عليه السّلام - وصلاحيّته للقيام بالمهامّ المتعلّقة بالحكومة الإسلامية وليعلّم الناس أنه عدليّ النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الجوانب الروحية، وفي مجال الأهليّة، والصلاحيّة.

وانه إذا ما غابت شمسُ الرسالة بعد حين وجب أن تُسلّم مقاليدُ الحكم، وازمّة التصرّف في المسائل والأمر المتعلّقة بشؤون الخلافة إلى عليّ - عليه السّلام - إذ لا يصلح لهذا العمل الخطير سواه، وانه يجب أن لا يقع المسلمون بعد وفاة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الإشكال والتشتت، والاختلاف والحيرة في هذا الأمر، لأنهم قد رأوا بأمر عينهم كيف نصب «عليّ» من جانب النبي بأمر الله تعالى لنبذ العهود مع المشركين، الذي هو من صلاحيات واختيارات، الحاكم الاسلامي وشؤونه.

(596)

حوادث السنة العاشرة من الهجرة

٥٧

في رثاء الولد العزيز

«يا إبراهيم إنّنا لن نُغني عنك من الله شيئاً إنّنا بك لمحزّونون تبكي العين ويحزن القلب ولا نقول ما يُسخطُ الربّ، ولولا أنّه وغدّ

صديقٌ وموعدٌ جامعٌ فإنّ الآخر منا يتبع الأول لو جدنا عليك يا إبراهيم وُجداً شديداً ما وُجداً»⁽¹⁾

هذه العبارات قالها رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - في رثاء ولده العزيز «إبراهيم» في اللحظات التي كان يلفظ فيها أنفاسه الأخيرة في حجر أبيه الرحيم، وبينما كان الوالد العظيم واضعاً شفتيه على خدّ ابنه، ويودّعه بروح ملؤها المشاعرُ والعواطفُ، من جانب، وراضيةً بالتقدير الإلهي.

إنَّ حبَّ الأولاد والأبناء من أرفع وأظهر تجلّيات الروح الإنسانية، كما أنه خير دليل على سلامة الروح ولطفاتها. لقد كان رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - يقول دائماً: «اكرموا أولادكم» (2) «وذهب إلى أبعد من ذلك إلى درجة أنه اعتبر مودّة الأبناء والعطف عليهم من مكارم أخلاقه ومحاسن سجايه» (3).

ففي السنين والأعوام الماضية واجه النبيُّ الأكرم - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - مصيبة

-
- 1- السيرة الحلبية: ٣ / ٣١١، بحار الأنوار: ٢٢ / ١٥٧.
 - 2- بحار الأنوار: ١٠٤ / ٩٥ عن مكارم الأخلاق.
 - 3- المحجة البيضاء: ٣ / ٣٦٦.

(597)

افتقاد ثلاثة من أولاده هم: «القاسم والطاهر، والطيب»⁽¹⁾ «وثلاث من بناته وهن: «زينب» و «رقية» و «أم كلثوم» ولقد حزن لفقدهم حزناً شديداً وكانت «فاطمة» هي البنت الوحيدة التي بقيت له من زوجته الكريمة خديجة.

لقد بعث رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - في السنة السادسة من الهجرة سفراء إلى البلاد المختلفة خارج الجزيرة العربية وكان من جملة الكتب التي أرسلها إلى الأمراء والملوك هي رسالته إلى حاكم مصر يدعوه فيها إلى الإسلام، وإلى عقيدة التوحيد، وهذا الحاكم وإن لم يلبّ نداء النبيِّ في الظاهر، ولم يقبل دعوته إلا أنه اجاب على كتاب النبيِّ باجابة حسنة مضافاً إلى أنه أرسل إليه - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - هدايا منها جارية تدعى «مارية».

ولقد نالت هذه الجارية فيما بعد شرف تزوج النبيِّ الكريم بها وولدت له ابناً سماه «إبراهيم» أحبّه رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - حباً شديداً.

ولقد خففت ولادة إبراهيم الكثير من الاحزان التي كان رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - يعاني منها بسبب افتقاده لأولاده الستة، واشعلت في نفس النبيِّ - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - بصيصاً من الأمل، ولكن هذا البصيص من الأمل سرعان ما غاب بعد ثمانية عشر شهراً، وانطفأ.

لقد خرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من بيته ذات يوم ليعمل، وعندما عرف بتدهور خطير في صحة ولده الحبيب الوحيد «إبراهيم» عاد من فورهِ إلى منزله، واخذ ابنه من حضن أمه، وفيما كانت تعلو ملامحه علامات الغم والاضطراب نطق بهذه العبارات.

إن حزن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبكائه في موت ابنه «إبراهيم» دليل حيٌّ على عاطفته الإنسانية التي استمرت حتى بعد وفاة ذلك الولد الحبيب، وإن إظهار تلك العواطف والإعراب عن الحزن والأسى كان يكشف عن روح

- [بحار الأنوار: ٢٢ / ١٦٦، ولكن بعض علماء الشيعة قالوا: أولاده الذكور من خديجة اثنان فقط راجع ج ٢٢ ص ١٥١ من بحار الأنوار.

(598)

رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - العاطفية التي كانت تبرز من دون اختيار فيما دلَّ تجنب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - التكلم بما يسخط الله في هذه المصيبة المولمة على إيمانه ورضاه بالتقدير الإلهي الذي لا مفرَّ لأحد منه.

إعتراض غير وجيه:

استغرب عبد الرحمان بن عوف الأنصاري من بكاء النبي على ولده «إبراهيم»، فاعترض على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «ألم تكن نهيت عن البكاء، وانت تبكي؟»

إن هذا المعترض لم يكن جاهلاً بمبادئ الإسلام وقواعده الرفيعة فحسب، بل كان غافلاً حتى عن العواطف والمشاعر الإنسانية الخاصة التي اودعتها يد الخالق في ضميره أيضاً.

إن جميع الغرائز الإنسانية خُلقت في الكيان البشري لأهداف خاصة ويجب أن يتجلى كل واحد منها في وقته المناسب وموقعه اللازم، فالشخص الذي لا يحزن لفقد أحبائه وأعرائه ولا يغمم لفراقهم، ولا تدمع عيناه لذلك، وبالتالي إذا لم يُظهر من نفسه أية ردة فعل عند فراقهم لم يكن سوى قطعة من الصخر، ولا يستحق اسم الإنسانية

ولكن ثمة نقطة مهمّة وجديرة بالانتباه، وهي أنّ هذا الاعتراض وإن كان اعتراضاً غير موجّه، إلا أنه يكشف عن وجود حرية كاملة، وديمقراطية حقيقية في المجتمع الإسلامي الحديث التأسيس إلى درجة أنّ شخصاً عادياً من الناس تجرأ على أن ينتقد عمل قائده بمطلق الحرية ومن دون خوف أو وجل، وسمع الجواب.

ومن هنا قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«لا، إنما هذا رَحْمَةٌ، ومن لا يرحم لا يُرحَم.»⁽¹⁾

1-بحار الأنوار: ٢٢ / ١٥١.

(599)

أو قال:

«لا، ولكنَّ نَهَيْتُ عن حَمْسِ وجوه وشَقِّ جيوب ورنة شيطان.»⁽¹⁾

ولقد كَلَّفَ رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ⁽²⁾بتجهيز «إبراهيم» وغسله وكفنه وتحنيطه،

ثم إنَّ النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - شَيَّعه مع جماعة من أصحابه، ومضى حتَّى انتهى به إلى قبره في البقيع.

ثم إن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رأى في قبر «إبراهيم» خللاً فسوّاه بيده ثم قال:

«إذا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا فَلْيُتَّقِ.»⁽³⁾

مكافحة الخرافات:

عندما مات إبراهيم ابن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - انكسفت الشمسُ فتصوّر البعضُ ممن جهل سننَ الطبيعة وقوانينَ العالم الطبيعيّ أن الشمس انكسفتْ لموت إبراهيم.

ولا شك أنّ مثل هذا التصور الباطل وان كان قضية خيالية ووهماً سخيفاً إلا أنه كان من شأنه أن ينفع النبي، ويعزّز مكانته في المجتمع الذي طالما آمن بالخرافة وعشقها.

ولو أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان قائداً عادياً ومادياً لكان من الجائز أن يؤيّد صحّة هذا التصور ليكتسب من وراء ذلك عظمة وقوة.

ولكن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على عكس هذا التوقّع رقى المنبر، وأطّلَعَ الناسَ على حقيقة الأمر وقال:

1-السيرة الحلبية: ٣ / ٣١٠ و ٣١١.

2-بحار الأنوار: ٢٢ / ١٥٦، وروي في السيرة الحلبية ان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كَلَّفَ الفضل بن العباس (ابن عم النبي) بتجهيز إبراهيم.

3-بحار الأنوار: ٢٢ / ١٥٧.

(600)

«أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تجريان بأمره مطيعان له فلا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته.⁽¹⁾»

إن النبي الكريم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - على عكس ما يفعله النفعيون الوصوليون الذين لا يكتفون بتفسير الحقائق وتجييرها لمصالحهم، واستخدامها لمآربهم، بل طالما يحاولون استغلال جهل الناس ونزوعهم إلى الخرافات لمصالحهم.

إنَّ رسول الإسلام على عكس هذه الجماعة لم يكتم الحقيقة، ولم يستفد من جهل الناس وغفلتهم لمصالح نفسه.

ولو أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كان يُسبغ في ذلك اليوم لباس الصحة على مثل هذه الفكرة الباطلة وهذا التصور الخيالي لم يمكنه أن يطرح نفسه قائداً خالداً للبشرية ورسولاً مختاراً من جانب خالق الطبيعة، والمؤسس الحقيقي لقوانين العامل المادي، في العالم الراهن الذي كشف فيه القناع عن اسرار الطبيعة، واتضح فيه قوانين العالم المادي ونواميسه، وعلل الكسوف والخسوف وغيرهما من تفاعلات الطبيعة.

إن دعوة النبي الأكرم لم تكن مختصة بجماعة العرب كما أنها لا تخضع لحدود زمانية أو مكانية، فلو أنه كان نبي الأقاليم والأجيال الغابرة، فهو كذلك نبي عصر الفضاء، وقائد عصر اكتشاف أسرار الطبيعة ورموزها.

إن احاديث هذا النبي العظيم، وكلماته من القوة، والمتانة ومن الصحة، والاتصاف بالواقعية بحيث لم يتطرق إليها أي إشكال حتى مع التطورات العلمية الأخيرة التي قلبت كثيراً من معارف البشر القديمة رأساً على عقب.

- [المحاسن: ص ٣١٣، السيرة الحلبية: ٣ / ٣١٠ و ٣١١.

(601)

٥٨

وفد نجران في المدينة

تقع «نجران» بقرها السبعين التابعة لها، في نقطة من نقاط الحجاز واليمن الحدودية، وكانت هذه المنطقة في مطلع ظهور الإسلام المنطقة الوحيدة التي غادر أهلها الوثنية لأسباب معينة واعتنقوا المسيحية⁽¹⁾ من بين مناطق الحجاز.

وقد كتب رسول الإسلام كتاباً إلى اسقف نجران «⁽²⁾أبو حارثة» يدعو أهلها فيه إلى الإسلام يوم كتب كتاباً إلى ملوك العالم ورؤسائه.

واليك مضمون هذا الكتاب:

«بِسْمِ إِلَهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى أَسْقَفِ نَجْرَانَ وَأَهْلِ نَجْرَانَ إِنْ أَسْلَمْتُمْ فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمْ اللَّهُ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ⁽³⁾ وَيَعْقُوبَ أَمَا بَعْدَ فَإِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ، وَأَدْعُوكُمْ إِلَى وَايَةِ اللَّهِ مِنْ وَايَةِ الْعِبَادِ، فَإِنَّ أَيْتِمَ فَالْجِزِيَّةِ، فَإِنَّ أَيْتِمَ فَقَدْ أَذْنَتَكُمْ بِحَرْبٍ وَالسَّلَامِ.»

واضافت بعض المصادر التاريخية الشيعية أن النبي الاكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كتب في ذلك الكتاب الآية المرتبطة بأهل الكتاب⁽⁴⁾ والتي تدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار.

-
- [ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان: ٥ / ٢٦٦ - ٢٧٧ علل اعتناقهم للمسيحية.
- [2] الاسقف معرب كلمة يونانية هي ايسكوب وتعني الرقيب والمناظر وهو اليوم منصب اعلى من منصب القسيس.
- [3] بحار الأنوار: ٢١ / ٢٨٥.
- [4] المراد من تلك الآية هو قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا» (آل عمران: ٦٤. الاقبال: ص ٤٩٤).

(602)

قدم سفير رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - نجران وسلم كتابه المبارك إلى أسقف نجران، فقرأ ذلك الكتاب بعناية ودقة متناهية، ثم شكّل جماعة للمشاورة وتداول الأمر واتخاذ القرار مكوّنة من الشخصيات البارزة الدينية وغير الدينية، وكان أحد أعضاء هذه المجموعة «شرحبيل» الذي عُرف بعقله وثبّله، وتدبيره وحكمته، فقال في معرض الاجابة على استشارة الاسقف اياه: قد علمت ما وعد الله ابراهيم في ذرية اسماعيل من النبوة، فما يؤمنك أن يكون هذا الرجل، ليس لي في النبوة رأي، لو كان أمر من أمور الدنيا أشرت عليك فيه وجهدت لك.

فقرر المتشاورون ان يبعثوا وفدأ إلى المدينة للتباحث مع رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، ودراسة دلائل نبوته، فاختر لهذه المهمة ستون شخصاً من أعلم أهل نجران وأعقلهم، وكان على رأسهم ثلاثة اشخاص من اساقفتهم هم:

1- «أبو حارثة بن علقمة» اسقف نجران الأعظم والممثل الرسمي للكنائس الرومية في الحجاز.

2- «عبد المسيح» رئيس وفد نجران المعروف بعقله ودهائه، وتدبيره.

3- «الأيهم» وكان من ذوي السن ومن الشخصيات المحترمة عند أهل نجران⁽¹⁾.

قدم هذا الوفد المسيحي المدينة ودخلوا المسجد على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وهم يلبسون أزياءهم الكنسية ويرتدون الدباج والحريير، ويلبسون خواتيم الذهب ويحملون الصلبان في اعناقهم، فأزعج منظرهم هذا وخاصة في المسجد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فشعروا بانزعاج النبي ولكّهم لم يعرفوا سبب ذلك، فسألوا «عثمان بن عفان» و «عبد الرحمان بن عوف» وكانت بينهما صداقة قديمة، فقال الرجلان لعلي بن أبي طالب: ماترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟

قال: أرى أن يَصْعُوا خُلُومَهُمْ هذه وخواتيمهم ثم يعودون إليه.

[1] السيرة الحلبية: ٣ / ٢١١ و ٢١٢.

(603)

ففعّلوا ذلك ثم دخلوا على النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فسألوا عليه فرد عليهم السَّلَامَ، واحترمهم، وقَبِلَ بعض هداياهم التي أهدها إليه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، ثم إن الوفد - قَبِلَ ان يبدأوا مفاوضاتهم مع النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قالوا: إن وقت صلاتهم قد حان واستأذنه في أدائها، فاراد الناسُ منهم ولكن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - اذن لهم وقال للمسلمين: دعوهم فاستقبلوا المشرق، فصلّوا صلاتهم . (1)

وبذلك اعطى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - درساً في التسامح الديني يدفع افتراءات اعداء الإسلام على هذا الدين.

مفاوضات وَفْدِ نَجْرَانَ مَعَ النَّبِيِّ:

لقد نَقَلَ طائفة من كُتَّابِ السيرة، والمحدثين الاسلاميين نصَّ الحوار الَّذِي دار بين وفد نجران المسيحي ورسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، ولكن المرحوم السيد ابن طاووس نقل نص هذا الحوار وقضية المباحلة بنحو أدقّ وأكثر تفصيلاً ممّا ذكره الآخرون من المحدثين والمؤرخين.

فقد ذكر جميع خصوصيات المباحلة من البداية إلى النهاية نقلاً عن كتاب المباحلة لمحمد بن المطلب الشيباني (2) وكتاب عمل ذي الحجة للحسن بن اسماعيل (3)، غير أن نقل جميع تفاصيل هذه الواقعة التاريخية الكبرى الَّتِي قَصَرَ حَتَّى فِي الاشارة إليها اشارة عابرة بعض أصحاب السيرِ أمر خارج عن نطاق هذا الكتاب، ولهذا فاننا نكتفي بنقل جانب من هذا الحوار الَّذِي نقله ورواه الحلبي في

[1] السيرة الحلبية: ٣ / ٢١٢.

2- هو محمّد بن عبد الله بن محمّد بن عبيد الله بن البهلول بن همام بن المطلب المولود عام ٢٩٧ هـ والمتوفى عام ٣٨٧ هـ.
3- من اراد الوقوف على خصوصيات هذه الواقعة التاريخية فليراجع كتاب الاقبال للمرحوم السيد ابن طاووس ص ٤٩٦ - ٥١٣.

(604)

سيرته (1).

عرض رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - على وفد نجران وتلا عليهم القرآن، فامتنعوا وقالوا: قد كنّا مُسلمين قبلك.

فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :كَذِبْتُمْ، يمنعكم من الإسلام ثلاثٌ: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن الله ولدًا.

فقالوا: المسيح هو الله لأنه أحيا الموتى، وأخبر عن الغيوب، وأبرأ من الأدواء كلها، وخلق من الطين طيراً.

فقال النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم.

فقال أحدُهم: المسيح ابن الله لأنه لا أب له.

فسكت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عنهم فنزل الوحي بقوله تعالى:

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ.) (2)

فقال وفد نجران: إنا لا نزدادُ منك في أمر صاحبنا إلا تبايناً، وهذا الأمر الذي لا نقره لك، فهلم فلنلاعنك أبتنا أولى بالحق فنجعل لعنة الله على الكاذبين. (3)

فانزل الله عزَّ وجلَّ آية المباهلة على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلِ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ.) (4)

فدعاهم إلى المباهلة، فقبلوا، واتفق الطرفان على ان يقوما بالمباهلة في اليوم اللاحق.

1- السيرة الحلبية: ٣ / ٢٣٩.

2- آل عمران: ٥٩.

3- بحار الأنوار: ٢١ / ٣٢٠، ولكن آية المباهلة، وكما يستفاد من السيرة الحلبية تفيد ان النبي هو الذي اقترح المباهلة ابتداء كما تفيد عبارة «تعالوا ندع ابناينا.»...

4- آل عمران: ٦١.

خروج النبي للمباهلة:

تُعتبر قصة مباحلة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مع وفد نجران من حوادث التاريخ الإسلامي المثيرة والجميلة، وهي وإن قصرت بعض المفسرين والمؤرخين في رواية تفاصيلها، وتحليلها، إلا أنَّ ثلة كبيرة، من العلماء كالزمخشري في الكشاف⁽¹⁾ والإمام الفخر الرازي في تفسيره⁽²⁾ وابن الأثير في الكامل⁽³⁾ أعطوا حق الكلام في هذا المجال وها نحن ننقل هنا نصَّ ما كتبه الزمخشري في هذا المجال:

حان وقت المباهلة... وكان النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ووفد نجران قد اتفقا على أن يُجريا المباهلة خارج المدينة، في الصحراء... فاختر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من المسلمين ومن عشيرته وأهله أربعة أشخاص فقط وقد اشترك هؤلاء في هذه المباهلة دون غيرهم، وهؤلاء الأربعة لم يكونوا سوى علي بن أبي طالب - عليه السَّلام - وفاطمة الزهراء بنت رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - والحسن والحسين لأنه لم يكن بين المسلمين من هو أظهر من هؤلاء نفوساً، ولا أقوى وأعرق إيماناً.

طوى رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - المسافة بين منزله، وبين المنطقة التي تقرر التباهل فيها في هيئة خاصة مثيرة، فقد غدا محتضناً الحسين (4) آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي خلفها، وهو يقول: إذا دعوت فأمّنوا.

كان زعماء وفد نجران ورؤساؤهم قد قال بعضهم لبعض - قبل أن يغدو

-
- 1- ج ص ٣٨٢ و ٣٨٣.
 - 2- مفاتيح الغيب: ٢ / ٤٧١ و ٤٧٢.
 - 3- ج ٢ ص ١١٢.
 - 4- جاء في بعض الروايات أن النبي غدا آخذاً بيد الحسن والحسين تتبعه فاطمة وبين يديه علي (بحار الأنوار: ٢١ / ٣٣٨).

(606)

رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إلى المباهلة: أنظروا محمّداً في غد، فإن غدا بولده وأهله فاحذروا مباهلتته، وإن غدا بأصحابه فباهلوه فإنه ليس على شيء. وهم يقصون أن النبي إذا جاء إلى ساحة المباهلة محفوقاً بأبهة مادية، وقوة ظاهرية، تحف به قادة جيشه وجنوده فذلك دليل على عدم صدقه، وإذا أتى بولده وأبنائه بعيداً عن أية مظاهر مادية وتوجه إلى الله بهم وتضرع إلى جنبه كما يفعل الانبياء دل ذلك على صدقه لأن ذلك أكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقته، حيث استجراً على تعريض أعزته، وأفلاذ كبده، وأحب الناس إليه لذلك، ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه.

وفيما كان رجال الوفد يتحادثون في هذه الأمور إذ طلع رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - والاعصان الأربعة من شجرته المباركة بوجوه روحانية نيرة فاخذ ينظر بعضهم إلى بعض بتعجب ودهشة، كيف خرج رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بانبته الوحيدة، وأفلاذ كبده وكبدها المعصومين للمباهلة، فادركوا أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - واثق من نفسه ودعوته وثوقاً عميقاً، إذ إن المتردد غير الواثق بدعوته لا يخاطر بأحبائه واعزته ويعرضهم للبلاء السماوي.

ولهذا قال أسقف نجران: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لازاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا،

ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة. (1)

1- يروي العالم الشيعي الكبير السيد ابن طاووس في كتاب «الاقبال»: «أقبل الناس من أهل المدينة من المهاجرين والأنصار، وغيرهم من الناس في قبائلهم وشعاراتهم من راياتهم واحسن شاراتهم وهيئتهم... ولبث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في حجرته حتى منع النهار ثم خرج أخذاً بيد علي والحسن والحسين أمامه، وفاطمة - عليها السلام - من خلفهم فاقبل بهم حتى أتى الشجرتين فوقف بينهما من تحت الكساء على مثل الهيئة التي خرج بها من حجرته، ثم أرسل إلى وفد نجران ليباهلهم.

(607)

إنصراف وفد نجران عن المباهلة:

لما رأى وفد نجران هذا الأمر (وهو خروج النبي بأحبتيه واعزته) وسمعوا ما قاله اسقف نجران تشاوروا فيما بينهم ثم اتفقوا على عدم مباهلة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، معلنين عن استعدادهم لدفع الجزية للنبي كل سنة، لتقوم الحكومة الإسلامية في المقابل بالدفاع عن أنفسهم وأموالهم، فقبل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بذلك، وتقرّر أن يتمتع نصارى نجران بسلسلة من الحقوق في ظل الحكومة الإسلامية لقاء مبالغ ضئيلة يدفعونها سنوياً، ثم قال النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«أما والذي نفسي بيده لقد تدلّى العذاب على أهل نجران، ولو لا عُنُونِي لَمُسِخُوا قردة وخنازير ولأضرم الوادي عليهم ناراً ولاستأصل الله تعالى نجران وأهله.»

عن عائشة: إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خرج (أي يوم المباهلة) وعليه مرط⁽¹⁾ مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن فادخله ثم جاء الحسين فادخله، ثم فاطمة، ثم علي، ثم قال: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً.**⁽²⁾

ثم يقول الزمخشري في نهاية هذا الكلام: وفيه دليل لاشيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام، وفيه برهان على صحة نبوة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك.

صورة العهد النبوي لأهل نجران:

سأل وفد نجران النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يكتب مقدار الجزية التي اتفق عليه دفعها من قبل أهالي نجران إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في كتاب، وأن

[1] كساء.

[2] الاحزاب: ٣٣.

يضمن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمن نجران في ذلك الكتاب، فكتب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب بأمر النبي كتاباً هذا نصه.

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما كتب النبي محمّد رسول الله لنجران وحاشيتها، إذ كان له عليهم جُكْمَةٌ في كل ثمرة وصفراء وبيضاء وسوداء ورقيق فأفضل عليهم وترك ذلك لهم: ألفي حلة من حلل الأواقي في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلة، كل حلة أوقية، ومازدت حلل الخراج أو نقصت عن الأواقي فبالحساب، وما نقصوا من درع أو خيل أو ركاب أو عرض أخذ منهم بالحساب، وعليهم في كل حرب كانت باليمن ثلاثون درعاً، وثلاثون فرساً، وثلاثون بعيراً عارية مضمونة لهم بذلك، وعلى أهل نجران مائة رسلي (واستضافتهم) شهراً فدونه، ولهم بذلك جوار الله وذمة محمّد النبي رسول الله على أنفسهم وملتهم وارضهم واماوهم وبيعهم ورهانيتهم على أن لا يعشّروا ولا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به فمن أكل الربا منهم بعد ذلك فدمّتي منه بريئة.»⁽¹⁾

أكبر فضيلة:

تعتبر واقعة المباحلة وما نزل فيها من القرآن أكبر فضيلة تدعم موقف الشيعة على مر التاريخ. لأن ألفاظ الآية النازلة في المباحلة ومفرداتها تكشف عن مكانة ومقام من باهل بهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والذين يتخذهم الشيعة قادة لهم.

فهذه الآية اعتبرت الحسن والحسين ابناء لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وفاطمة الزهراء المرأة الوحيدة التي ترتبط برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويصدق عليها عنوان «نساءنا». وقد عبّر عن علي - عليه السّلام - بانفسنا فكان علي - عليه السّلام - تلك الشخصية العظيمة بحكم هذه الآية بمنزلة نفس رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -، ترى أية فضيلة أعظم وأسمى من أن ترتفع مكانة المرء من

- [فتوح البلدان: ص ٧٦، امتاع الاسماع: ص ٥٠٢ واعلام الورى: ص ٧٨ و ٧٩.

الناحية المعنوية ارتفاعاً وتسمو سمواً عظيماً حتّى أنه يوصف صاحبها بانه بمنزلة نفس النبي. (1)

أليست هذه الآية شاهد صدق على أفضلية أمير المؤمنين علي - عليه السّلام - على جميع المسلمين.

لقد ذكر الفخر الرازي الذي عرف الجميع أسلوبه في الأبحاث الكلامية ومواقفه من القضايا المرتبطة بالإمامة، ذكر استدلال الشيعة بهذه الآية ثم أورد على هذا الاستدلال اعتراضاً قليل الأهمية ممّا لا يخفى جوابه على أرباب العلم وأهل المعرفة.

هذا ويستفاد من الأحاديث الواردة عن أئمة أهل البيت أنّ المبالهة لا تختص بالنبى الاكرم بل يجوز أن يتباهل كلُّ مُسلم في القضايا الدينية مع مَنْ يخالفه ويجادلُه فيها، وقد جاءت طريقة المبالهة والدعاء المخصوص بها في كتب الحديث، وللوقوف على هذا الامر يراجع كتاب «نور الثقلين» (2)»

1- وقد استند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى هذه الآية في قوله: «عليّ منى كنفسى.»
2- نور الثقلين: ١ / ٢٩١ و ٢٩٢، وراجع أيضاً الكافي ج ٢ كتاب الدعاء باب المبالهة، وقد أشار العلامة الطباطبائي في احدى رسائله إلى هذا الموضوع أيضاً، ويعتبره من معجز الإسلام الخالدة.

(610)

٥٩

تاريخ المبالهة عاماً وشهراً ويوماً

إن حادثة المبالهة من قضايا التاريخ الاسلامي المعروفة المتواترة التي جاء ذكرها في كتب التفسير، والتاريخ والحديث بصورة مبسطة ومفصلة لمناسبة وأخرى، وتتلخص هذه القصة فيما يلي:

لقد كتب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - - يوم راسلَ ملوك العالم وامراءه يدعوهم إلى الإسلام - كتب كتاباً إلى اسقف نجران «ابو حارثة» دعا فيه أهل نجران إلى الإسلام ولما تسلّم أبو حارثة كتاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - شاور جماعة من اصحابه، فاشاروا عليه بأن يبعثوا وفداً يمثلون أهل نجران إلى المدينة، ليتفاوضوا مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن كتب.

وفعلاً قدم الوفد المذكور المدينة، والتقى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبعد مداولات ومفاوضات كثيرة اقترح النبي الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على ذلك الوفد المبالهة بأمر الله سبحانه، بأن يخرج الجميع (الطرفان) إلى الصحراء، ويدعوا كلُّ واحد من الجانبين على الآخر، فرضوا باقتراح رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ولكنهم أحجموا عن المبالهة لما شاهدوا ما عليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من حالة معنوية، وروحانية عظيمة، حيث إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واصطحب معه إلى المبالهة أربعة انفار من أفضل أحبته وأعزته، وتقرّر أن ينضوي نصارى نجران تحت مظلة الحكومة الإسلامية وهم على دينهم شريطة أن يدفعوا جزية (وهي مبلغ ضئيل).

(611)

هذه هي خلاصة قضية المباهلة التي لا يستطيع انكارها وإخفاءها أي مفسر أو مؤرخ على النحو الذي ذكر، والآن يجب أن نرى متى وفي أي يوم وشهر وعام وقعت هذه الحادثة الإسلامية الكبرى.

عام المباهلة حسب المشهور:

يقول مؤلف كتاب مكاتيب الرسول في هذا الصدد: لاختلاف عند المؤرخين ان كتاب الصلح كتب سنة عشرة من الهجرة، فتكون سنة المباهلة نفس هذه السنة أيضاً، لان كتاب الصلح هذا انما كتب عندما أحجم الوفد النجراني النصراني من مباهلة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وقد ادرج نصُ كتاب الصلح هذا في مصادر عديدة نذكر بعضها في الهامش.⁽¹⁾

الشهر واليوم الذي وقعت فيه المباهلة:

إن المشهور بين العلماء هو أن المباهلة وقعت في اليوم الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة، وذهب المرحوم الشيخ الطوسي إلى أنها وقعت في اليوم الرابع والعشرين من ذلك الشهر، وروى في كتابه دعاء خاصاً في هذه المناسبة .⁽²⁾ واما المرحوم السيّد ابن طاووس فقد نقل حول يوم المباهلة أقوالاً ثلاثة، وذكر بأن أصح تلك الأقوال والروايات هو القائل بان يوم المباهلة هو الرابع والعشرون من شهر ذي الحجة، وقد ذهب البعض إلى أنه اليوم الواحد والعشرون بينما ذهب آخرون إلى أنه اليوم السابع والعشرون .⁽³⁾

1- تاريخ يعقوبي: ٦٥ / ٢، الدر المنثور: ٣٨ / ٢ .
2- مصباح المتهدج: ص ٧٠٤ .
3- الإقبال: ص ٧٤٣ .

(612)

ثم انه رحمه الله روى في آخر كتابه⁽¹⁾ قصة المباهلة بصورة مفصلة لم ترد في أي كتاب أو مؤلف آخر، ونوّه بأن محتويات هذا الباب اقتبست من الكتابين التاليين:

1- كتاب المباهلة تأليف أبي المفضل محمّد بن عبد المطلب الشيباني .⁽²⁾

2- كتاب عمل ذي الحجة تصنيف الحسن بن اسماعيل بن أشناس .⁽³⁾

إلى هنا اتضح ان يوم المباهلة على المشهور هو اليوم الرابع والعشرون أو الواحد والعشرون أو الخامس والعشرون أو السابع والعشرون من شهر ذي الحجة.

وأما رأينا حول التاريخ الدقيق لهذه الواقعة من حيث العام والسنة.

إن خلاصة القول هي أنّ هذه الأقوال والآراء حول عام ويوم المباهلة لا توافق النقول التاريخية الأخرى التي يتسم بعضها بطابع القطعية إلى حدّ بعيد، واليك ادلتنا على ذلك فيما يلي:

رأينا حول عام المباهلة:

لقد جاء في ختام الكتاب الذي بعثه النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى أسقف نجران عبارة: «وإن أبيتُم فالجزية»، وقد جاءت لفظة الجزية في القرآن الكريم

[1] الإقبال: ص ٧٤٣.
2- لم ينقل المرحوم السيد نسبه بصورة صحيحة، فقد ذكر النجاشي نسبه على النحو التالي: محمّد بن عبد الله بن محمّد بن عبد الله بن بهلول بن الهمام بن المطلب وعلى هذا الأساس يكون جده المطلب وليس عبد المطلب كما انه يكون المطلب جده الخامس. وينبغي الإشارة هنا إلى أن لمحمّد بن عبد الله - حسب ما يرى النجاشي - فترتين من الحياة، كان في إحداها موثوقاً به، وفي الأخرى غير موثوق به ولهذا يقول: اجتنب الرواية عنه إلا عندما يروي الثقات عنه أيام استقامته وصلاحه (راجع فهرست النجاشي ص ٢٨١ - ٢٨٢).
3- جاء ذكره في اسناد الصحيفة السجادية وهو من مشايخ الطائفة الإمامية وقد توفي عام ٤٦٠ هـ وقد نقل احاديث المباهلة (راجع الذريعة ج ١٥ ص ٣٤٤).

(613)

في سورة التوبة والظاهر أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - استخدم هذه الجملة واللفظة في الكتاب المذكور اتباعاً للآية المذكورة، وقد نزلت سورة التوبة قبيل غزوة تبوك بقليل، وقد وقعت هذه الغزوة بعد شهر رجب من السنة التاسعة.
وبناء على هذا يبعد أن يكون رسول الله قد كتب لأهل نجران كتاباً، بعثوا بجوابه إليه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعد عام ونصف العام على يد وفداهم.

إن هذه الواقعة التاريخية تحكي عن أن هذه الحادثة قد وقعت في السنة العاشرة من الهجرة.

2- اتفق كتاب السيرة على أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعث علياً - عليه السّلام - إلى اليمن للقضاء وتعليم الاحكام الدينية، وقد مكث عليّ - عليه السّلام - هناك ردهاً من الزمان لأداء مهامه المخولة إليه وعندما علم بتوجه النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى مكة للحج، خرج هو أيضاً إلى مكة على رأس جماعة من أهل اليمن، فلقى النبي بمكة، وقدم إليه الف حلة من البز كان قد أخذها من أهل نجران من باب الجزية التي فرضت وكتبت عليهم في معاهدة الصلح.⁽¹⁾

إن هذه القضية التاريخية تفيد ان واقعة المباهلة وكتابة العهد لا ترتبط بالسنة العاشرة من الهجرة، وذلك لأن أهل نجران تعهدوا في وثيقة الصلح أن يدفعوا إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في كل سنة ألفي حلة (مخيطة وغير مخيطة)، الف حلة منها في شهر رجب، والف حلة أخرى في شهر صفر .⁽²⁾

فاذا سلّمنا بأن وثيقة الصلح كتبت في شهر ذي الحجة وجب أن نقول ان المقصود منه هو شهر ذي الحجة من الاعوام السابقة على السنة العاشرة.

لأنه كيف يمكن أن نقول بأن كتابة وثيقة الصلح، وتنفيذها بواسطة الامام

1- السيرة النبوية: ٢ / ٦٠٢ و ٦٠٣، الارشاد: ص ٨٩.
2- الطبقات الكبرى: ١ / ٣٤٨، والارشاد: ص ٩٢.

(614)

علي - عليه السّلام - قد تمّ معاً في السنة العاشرة.

وإذا ارتضينا القول المشهور حول اليوم والعام الذي كتبت فيهما وثيقة الصلح، امكن في هذه الصورة أن يكون عقد الصلح قد تمّ في السنة العاشرة، ولكن يجب أن نُرجع تاريخ كتابته إلى ما قبل شهر رجب لأن الفرض هو أن الامام علياً - عليه السّلام - قد استلم أول قسط من الجزية المقررة في شهر رجب في السنة العاشرة.

والخلاصة أنه مع ملاحظة هذه القضية التاريخية (وهي أن الإمام علياً استلم القسط الاول من الجزية من أهل نجران في شهر رجب وسلمه إلى رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - في مكة في شهر ذي الحجة) وجب أن نختار احد القولين التاليين:

الف: إذا سلّمنا بان يوم وشهر تنظيم وثيقة الصلح هو شهر ذي الحجة وجب ان نقول ان المقصود منه هو أشهر ما قبل السنة العاشرة.

باء: إذا ترددنا في يوم وشهر كتابة الصلح على نحو التردد في تحديد عامه، أمكن في هذه الصورة ان نقول بان يوم المباهلة وكذا يوم تنظيم وثيقة الصلح يرتبطان باشهر ما قبل شهر رجب من السنة العاشرة للهجرة.

زمن المباهلة يوماً وشهراً:

إلى هنا اتضح انه من غير الممكن ان يكون عام المباهلة هو السنة العاشرة من الهجرة حتماً، إلا في صورة واحدة وهي أن نغيّر رأينا في اليوم والشهر اللذين تمت فيهما كتابة وثيقة الصلح.

وقد حان الحين الآن لأن نحدّد تاريخ المباهلة من حيث اليوم والشهر في ضوء الاحداث والوقائع التاريخية، فنقول: إن الشهر واليوم اللذين وقعت فيهما قضية المباهلة هما - حسب ما هو مشهور بين العلماء كما أسلفنا - شهر ذي الحجة

(615)

واليوم الرابع والعشرون أو الخامس والعشرون وعلى قول: الحادي والعشرون، أو السابع والعشرون من ذلك الشهر.

والآن يجب أن نرى هل تنطبق هذه الاقوال على غيرها من الحوادث التاريخية القطعية أم لا ؟

إن الدراسة التالية تثبت لنا أن قضية المباهلة من غير الممكن أن تكون قد وقعت في شهر ذي الحجة من السنة العاشرة مطلقاً، لأنّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد توجّه إلى مكة المكرمة لتعليم مناسك الحج في السنة العاشرة من الهجرة، وفي اليوم الثامن عشر من هذا الشهر (وهو يوم الغدير) نصب في منطقة غدير خم التي تبعد عن الجحفة (1) بميلين⁽²⁾، علياً خليفة على المسلمين من بعده.

ولم تكن حادثة الغدير بالحادثة التي تنتهي ذبولها في يوم واحد ليتابع النبي سفره إلى المدينة فوراً لأن النبي - بشهادة التاريخ - أمر بعد نصب عليّ - عليه السّلام - للخلافة أن يجلس عليّ في خيمة، وان يدخل عليه المسلمون الحاضرون ثلاثة ثلاثة، ويهتفون بالخلافة والإمرة وقد استمر هذا العمل حتّى الليلة التاسعة عشرة من شهر ذي الحجة، وقد هُنّأت «أمهات المؤمنين» علياً - عليه السّلام - في نهاية

« [الجحفة] على وزن طعمة تقع على بعد ثلاثة منازل من مكة وسبعة منازل من المدينة وتبعد عن البحر الاحمر بستة اميال تقريباً وتقرب من رابع التي تقع الآن على الطريق بين مكة والمدينة راجع كتاب التحرير للنووي والتهذيب له أيضاً، هذا ويقول ياقوت الحموي في مراصد الاطلاع ص ١٠٩: ان الجحفة تقع على بعد أربعة اميال من مكة وهي ميقات أهل مصر والشام، وتبعد عن البحر بستة أميال، وعن غدير خم بميلين. وهي الآن تبعد عن مكة - حسب المقاييس الحديثة - بمائتين وعشرين كيلومتراً ويقول المسعودي في كتابه «التنبيه والاشراف» ص ٢٢١ - ٢٢٢ أيضاً: أن غدير خم يقرب من الماء المعروف بالخرار بناحية الجحفة، وولد علي رضي الله عنه وشيعته يعظمون هذا اليوم.

2- الميل عبارة عن ثلاثة آلاف ذراع، والفرسخ عبارة عن تسعة آلاف ذراع وقيل: ان الميل عبارة عن أربعة آلاف ذراع، والفرسخ عبارة عن اثني عشر ألف ذراع، وعلى آية حال فان الميل ثلث الفرسخ، وثلاثة اميال تعادل فرسخاً كاملاً (راجع القاموس مادة: ميل).

(616)

مراسيم التهنة (1)

من هنا لا يمكن القول بان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - غادر ارض غدير خم في اليوم التاسع عشر، خاصة ان تلك المنطقة كانت المحل الذي تتشعب فيه طرق المدنيين والمصريين والعراقيين، وبناء على هذا لا بدّ أن الجماعات المختلفة الاوطان

التي كانت تريد التوجه إلى أوطانها قد ودّعت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ولا شك أن عملية التوديع هذه قد أوجبت مكث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في أرض الغدير مدة أطول.

وحتى لو فرضنا - افتراضاً - أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - توجه نحو المدينة في اليوم التاسع عشر، فهل يمكن ان نقول - في ضوء المحاسبات التي نملكها من التاريخ حول مقدار طيّ هذه المسافة - أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قدم المدينة في اليوم الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين، واخذ بمقدمات قضية المباهلة ثم كتب وثيقة الصلح بينه وبين أهل نجران؟، كلا حتماً، لأن المسافة بين مكة والجحفة كما ذكرنا في الهامش المتقدم هي ثلث المسافة بين مكة والمدينة.

ويجب أن نرى الآن كم كان يستغرق من الزمن مجموع سفر القوافل - آنذاك - من مكة إلى المدينة المنورة ؟

لا توجد هنا أية وثيقة توضح ذلك إلا حديث سفر النبي الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نفسه الذي وضعه التاريخ تحت تصرفنا فان التاريخ يقول: إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قطع هذه المسافة عند هجرته من مكة إلى المدينة في مدة تسعة أيام. (2)

1- جاء تفصيل مراسيم التهنئة في موسوعة الغدير: الجزء ١ ص ٢٤٥ - ٢٥٧.
2- غادر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مكة مهاجراً إلى المدينة في الليلة الرابعة من شهر ربيع، ووصل إلى محلة «قبا» حوالي الظهر في اليوم الثاني عشر من نفس ذلك الشهر، وتدلّ القرائن على أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قطع هذه المسافة بسرعة بسبب ملاحقة قريش له (السيرة النبوية: ٢ / ٣٩٩، الطبقات الكبرى: ١ / ١٣٥).

(617)

كما أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قطع هذه المسافة في مدة أحد عشر يوماً. (4)

وسبب التفاوت بين هاتين الرحلتين هو أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قطع المسافة المذكورة في الرحلة الأولى برفقة شخصين، بينما قطع تلك المسافة في الرحلة الثانية بصحبة جيش قوامه عشرة آلاف رجل، ومن الطبيعي أن تتم الحركة في الصورة الثانية بصورة أكثر بُطءاً.

ولنفترض أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - غادر أرض «غدير خم» في اليوم التاسع عشر، فاننا إذا اتخذنا تسعة أيام مقياساً لتقييمنا وجب أن نقول أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لابد أنه قطع المسافة بين الجحفة والمدينة في ستة أيام لأن المسافة بينهما هي ثلثا مجموع المسافة بين مكة والمدينة، وبالتالي دخل المدينة في اليوم الرابع والعشرين.

وإذا اعتبرنا الثاني (أي احد عشر يوماً) انه هو المقياس وجب أن يقطع تلك المسافة (أي بين الجحفة والمدينة) في سبعة ايام ونصف اليوم، فيكون - حسب القاعدة - قد قدم المدينة في اليوم السادس والعشرين حوالي الظهر منه.

فهل يمكن القول - في ضوء هذه المحاسبة - بأن قضية المباهلة وقعت في اليوم الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين أو السابع والعشرين؟

إن بطلان هذا القول، وخلوه عن الصحة يتضح أكثر إذا عرفنا بأن وفد نجران قبلوا بالتباهل بعد سلسلة من المفاوضات والمداولات، وقد انصرفوا عن التباهل في المآل ووقفوا على وثيقة صلح بينهم وبين النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، تحت شروط خاصة.

فإن أعضاء الوفد المذكور دخلوا المدينة وهم يرتدون ثياباً راقية من الديباج والحريز، وفي أيديهم خواتيم من ذهب، وعلى صدورهم صلبان من ذهب، وتوجهوا

-[بحار الأنوار: ٢٢ / ١٩.

(618)

فور قدومهم - وعلى هذه الهيئة - إلى مسجد النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولكن النبي واجههم بالكره بسبب الهيئة التي دخلوا بها عليه.

فانتهى هذا اللقاء من دون عمل شيء وتفرق أعضاء الوفد، وهم في حيرة من موقف النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فالتقى الوفد علياً - عليه السلام - وسأله عن سبب استياء النبي واعراضه عنهم، فأخبرهم الامام علي - عليه السلام - بأن عليهم أن ينزعوا تلك الثياب والحلي عنهم، ويدخلوا على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بثياب عادية حتى يرتاح اليهم النبي ويستقبلهم بوجه منبسط.

فعاد أعضاء الوفد ودخلوا على النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثانية ولكن بثياب عادية خالية عن الزينة والحلي، فاستقبلهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ببشاشة خاصة، ورحب بهم ترحيباً كبيراً، ثم سألوا النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يؤدوا صلاتهم في المسجد، فاذن لهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بذلك، ثم دخلوا مع النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في مناظرات ومناقشات مفصلة، وبعد مناظرات مفصلة ذكرها أكثر المفسرين والمؤرخين ومنهم ابن هشام في سيرته⁽¹⁾ اتفقوا على أن يحسموا الأمر بالمباهلة، وحُدِّدَ يوم المباهلة.

ولما كان ذلك خرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في ذلك اليوم مع ابنته الزهراء وصهره علي بن أبي طالب، وسبطيه الحسن والحسين، إلى الصحراء للمباهلة مع وفد نجران.

ولكن وفد نجران بعد أن رأوا النبي ومن معه وماهم عليه من البساطة والجلال انصرفوا عن الدخول في المباهلة ورضخوا طائعين لدفن جزية سنوية إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فهل هذه الوقائع التي استغرقت - كما يقول بعض المؤرخين - اربعة مجالس يمكن أن تكون قد تَمَّت في يوم واحد ؟

[1-السيرة النبوية: ج ٢ ص ٥٧٥، مجمع البيان: ج ١ ص ٤١٠ .

(619)

إن المحاسبات تقضي وتفيد بأن مراسيم المباهلة، وكتابة وثيقة الصلح من غير الممكن أن تكون قد وقعت في اليوم الواحد والعشرين أو الرابع والعشرين، أو الخامس والعشرين أو السابع والعشرين من شهر ذي الحجة من السنة العاشرة للهجرة.

هذا مضافاً إلى أن «نجران» مدينة حدودية بين الحجاز واليمن، ولا بد أن تردّد القبائل كان من شأنه ان ينقل إلى مسامع النجرانيين أنباء وجود رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في مكة لاداء مناسك الحج، ولهذا فان من المستبعد ان يكون وفد نصارى نجران قد اقدم على التوجه إلى المدينة للحضور عند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قبل التأكد الكامل من عودته إلى المدينة والاستقرار الكامل فيها.

هل كانت قضية المباهلة في السنة التاسعة؟

هنا يمكن أن يقال بأن قضية المباهلة وقعت في شهر ذي الحجة من السنة التاسعة، وقد ذهب إلى هذا الرأي بعض المؤرخين أيضاً .⁽¹⁾

ولكن المحاسبات التاريخية تثبت أيضاً بطلان هذا الرأي، وذلك لأن الامام علياً الذي كان من الشاهدين لقضية المباهلة، كما أنه هو الذي كتب وثيقة الصلح بيده الشريفة كان قد كُلف في التاسع من شهر ذي الحجة من هذه السنة (التاسعة) من قبل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمهمة إبلاغ آيات البراءة - إلى

[1- جاء ذكر هذا عند تفسير سورة التوبة. نقل صاحب الغدير: في ج ٦ ص ٣١٨ - ٣٢١ هذا الرأي من اثنين وسبعين شخصاً من علماء السنة، وكان قضية المباهلة بين النبي ووفد نجران وقعت في آخر هذه السنة (التاسعة)، لأنه ورد أن هذا الأمر قد تم في شهر ذي الحجة بعد فتح مكة، ولا بد ان المراد بذي الحجة ليس هو ذو الحجة من عام حجة الوداع وهي السنة العاشرة التي وقعت فيها قضية الغدير فاذن هو ذو الحجة من السنة السابقة على عام الغدير واستغرقت اربعة مجالس (بتلخيص).

(620)

المشركين في يوم الحج الاكبر بمنى، وفي الحقيقة كانت السنة الثانية التي كانت قد أنيطت اماره الحج واداره امر الحجيج إلى المسلمين، وكان قد اختير أمير المؤمنين أميراً على الحج فيها.

ونحن نعلم أن مناسك الحج تنتهي في اليوم الثاني عشر من شهر ذي الحجة، ولاشك أن شخصية بارزة ومسئولة كالامام علي - عليه السلام - الذي كان يرأس الحج في ذلك العام من غير الممكن أن يكون قد غادر مكة في اليوم الثالث عشر ويتوجه إلى المدينة وهو الذي كانت له أقرباء وانساب كثيرون في مكة، هذا مضافاً إلى أن حركة الحجيج لم تكن في تلك العصور حركة انفرادية حتى يستطيع كل واحد منهم أن يقطع الفيافي القفراء والصحاري القاحلة الموحشة بمفرده فكان على من يريدون الحج ان يتوجهوا بصورة جماعية إلى مكة أو يغادروها إلى بلادهم.

ولهذا فإن علياً - عليه السلام - مهما اسرع وجدّ في السير قافلاً إلى المدينة، وقطع المسافة بين مكة والمدينة بسرعة فائقة فإنه من غير الممكن أن يكون قدم المدينة قبل اليوم الرابع والعشرين، ولهذا كيف يمكن أن يقوم بارشاد وفد نجران ودلائهم على ما يجب ان يفعلوه حتى يستقبلهم النبي ببشاشة ويرحب بهم، ويشهد المبالهة مع المتباهلين.

إن الشواهد والادلة التاريخية تشهد بان النظرية المشهورة حول زمن المبالهة (يوماً وشهراً وعماماً) لا تحظى بالاعتبار الكافي، ولا بدّ - لمعرفة زمن هذه الحادثة التي هي من مسلمات القرآن والتفسير والحديث - من مزيد التحقيق، ومزيد الدراسة، والتقصّي.

وهنا يبقى سؤالاً لا بدّ من الإجابة عليه وهو: كيف اختار المشهورون من العلماء مثل هذه النظرية حول يوم المبالهة وشهرها وعمامها.

والجواب هو: أن المرحوم الشيخ الطوسي اختار هذا القول استناداً إلى رواية مسندة نقلها في كتابه ولكن في سند الحديث المذكور رجالاً غير ثقات في نظر

(621)

علماء الرجال، نظراء:

1- محمّد بن أحمد بن مخزوم استاذ التلعكبري في الحديث فهو ممن لم يوثق. (1)

2- الحسن بن علي العدوي وقد ضعفه العلامة. (2)

3- محمّد بن صدقة العنبري وقد وصفه الشيخ الطوسي بالغلوّ. (3)

وقد ذكر المرحوم السيد ابن طاووس في كتاب «الاقبال» أموراً تتعلق بالمباهلة نقلاً عن كتاب أبي المفضل وقد ذكرنا في الهامش (ص ٦١٢) أن ابا المفضل له فترتان في حياته، فهو موثق في حال وغير موثق في حال آخر، ولا يُدرى في أي حال من الحالين كتب أبو المفضل قضايا المباهلة، واخذها عنه العلماء.

كما ان السيد استند في كتابه المذكور (ص ٧٤٣) على حديث مرفوع (وهو ما فيه نقص في رجال سنده)، وذكر في ضوئه ان يوم المباهلة هو اليوم الرابع والعشرون على حين لا تقوم مثل هذه الرواية باتبات المدعى.

1- وان حاول المامقاني في تنقيح المقال توثيقه لكونه استاذ حديث.
2- تنقيح المقال: ١ / ٢٩٤.
3- رجال الشيخ الطوسي: ٣٩.

(622)

٦٠

١ - تقييم البراءة من المشركين ٢ - وفود القبائل في المدينة

تركت البراءة القوية التي أعلنها امير المؤمنين علي - عليه السّلام - في موسم الحج في السنة التاسعة بمنى بامر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والتي أعلن فيها بصراحة وبصورة رسمية ان الله ورسوله بريئان من المشركين والوثنيين، وأن على المشركين أن يضعوا حداً لشركهم خلال أربعة أشهر فإما أن يسلموا ويكفوا عن عبادة الاصنام ويهجروها، وإما أن يستعدوا لمواجهة شاملة.

لقد ترك إعلان هذه البراءة الصريحة أثره العميق والسريع، فقد ارتبكت القبائل العربية القاطنة في شتى أنحاء الجزيرة العربية التي كانت بسبب عنادها ولجاجتها ترفض الخضوع لمنطق القرآن والاستجابة لنداء التوحيد وتصر على المضّي في عاداتها الشنيعة، والعكوف على الاوهام والخرافات وعبادة الاصنام والأوثان.

لقد ارتبكت هذه القبائل، على اثر تلك البراءة الصريحة القوية، فعمدت إلى إيفاد وفود ومندوبين من جانبها إلى المدينة عاصمة الإسلام، وقد دار بين كل واحد من هذه الوفود وبين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حوار خاص.

وقد ذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى⁽¹⁾ مواصفات وخصوصيات اثنين

[1- الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٩١ - ٣٣٠.

وسبعين وفداً من تلك الوفود.

إن توافد هذه البعثات والوفود العجيب وخاصة في أعقاب إعلان البراءة يكشف عن أن مشركي العرب فقدوا في السنة العاشرة من الهجرة كل حصن يمنهم عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، والأل كانوا يلجأون إليه، ويتظاهرون على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ولم تنته المدة المضروبة (اربعة أشهر) بعد إلا ودخلت كل مناطق الحجاز وكل أقوامها تحت راية التوحيد، ولم يبق في الحجاز بيت تعبد فيه الاصنام والاثان ظاهراً حتى أن فريقاً من سكان اليمن والبحرين واليمامة انتبهوا إلى الإسلام فاقبلوا عليه واعتنقوه.

محاولة اغتيال النبي:

عُرفت قادة بني عامر من بين القبائل العربية - يومئذ - بالشر والطغيان، وقد اعتزم ثلاثة اشخاص منهم هم: «عامر» و «أربد» و «جبار» على أن يدخلوا المدينة على رأس وفد من بني عامر، ويتظاهروا بالتفاوض مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ثم يغدروا به في المجلس ويغتالوه.

وكانت الخطة تقضي: بأن يتحدث «عامر» إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويفاوضه، وفيما هو يفعل ذلك يبادر «أربد» إلى ضرب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بسيفه.

ولم يخبر بقية اعضاء الوفد بنوايا هؤلاء الثلاثة وخطتهم، ولهذا أعلنوا لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن رغبتهم الصادقة في الإسلام، ووفائهم لشخص النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ولكن «عامراً» احجم عن أي نوع من انواع

التظاهر بالإسلام في ذلك المجلس وكان بصراً على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يخلو به في مكان آخر ليتحدث معه على انفراد تمهيداً لتنفيذ الخطة المشؤومة وهو ينظر إلى «أربد» وينتظر منه ما كان أمره به واتفقا عليه، ولكن لا يزداد نظراً إلى «أربد» إلا ويزداد «أربد» حيرة ودهشة هذا ورسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يقول لعامر كلما قال: خائني: لا والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له.

فلما أيس «عامر» من «اربد»، وكان «اربدأ» كلما عزم أن يجرد سيفه ويهجم على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هاب النبي، ومنعته عظمتة ومهابته، فانصرف عن نيته، قال عامر وهو يترك مجلس النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً وهو بذلك يكشف عن عناده وعتوه.

فقابله رسول الله بحلم كبير، ولم يرد على كلامه وتهديده وانما اكتفى بأن دعا عليه وعلى صاحبه بعد أن غادرا مجلس النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ولقد استجاب الله لدعاء نبيه سريعاً فقد خرج هو وصاحبه راجعين إلى بلادهم حتى إذا كانوا في اثناء الطريق بعث الله الطاعون في عنق «عامر» فقتله ذلك المرض الوبيء في بيت امرأة من بني سلول في صورة فضيحة، وحالة سيئة.

وأما «اربد» فارسل الله عليه وعلى جملة صاعقة وهو في الصحراء فاحرقتهما، وقد تسببت هاتان الحادثتان الفضيعتان اللتان أصابتا عدوين لؤدين من أعداء النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في أن يزداد تعلق بني عامر برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويتضاعف حبهم له - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

أمير المؤمنين في ربوع اليمن:

لقد مكّن اقبال اهل الحجاز على الإسلام وأمن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

(625)

جانب القبائل العربية، مكّن النبي من العمل على مدّ شعاع الإسلام إلى البلاد المتاخمة للحجاز.

فكان أول ما فعل - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في هذا الصعيد هو بعث أحد أصحابه العلماء وهو «معاذ بن جبل» إلى اليمن ليبلغ إلى اهلها نداء التوحيد ويشرح لهم معالم الإسلام وتعاليمه المقدسة، وقد أوصاه بوصايا كثيرة ومفصلة منها قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

«يَسِّرْ وَلَا تُعَسِّرْ وَبَيِّنْ وَلَا تُنْفِرْ وَإِنَّكَ سَتَقْدِمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَسْأَلُونَكَ مَا مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ: فَقُلْ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.»

ويبدو أن معاذاً رغم انه كان ملماً بالكتاب العزيز والسنة النبوية وتعاليمها واحكامها، إلا انه لما سأله امرأة عن حق الزوج على الزوجة لم يملك لها جواباً مقنعاً، ولهذا رأى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأن يوجه إلى اليمن تلميذه المتميز «علي بن

أبي طالب «ع عليه السّلام - حتّى يتمكّن في ضوء دعوته الدائبة، واحاديثه المبرهنة، وما يمتلك من شجاعة أدبية نادرة، وقوة عقلية متميزة من نشر الإسلام العظيم في تلك الربوع.

هذا مضافاً إلى أن النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - كان قد بعث «خالد بن الوليد (1)» إلى اليمن من قبل ليزيل المشكلات التي كانت تعرقل تقدّم الإسلام في تلك الديار ولكنه لم يُوفّق في مدة بقائه لعمل شيء في هذا المجال . (2)

فاستدعى النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - علياً - عليه السّلام - وأخبره بأنه يريد أن يذهب إلى اليمن ليدعو أهلها إلى الإسلام، وليختم ركازهم، ويعلمهم

1- صحيح البخاري: ١٦٣ / ٥ .
2- السيرة الحلبية: ٢٦٤ / ٣ .

(626)

الاحكام، ويبين لهم الحلال والحرام، وإلى أهل نجران ليجمع صدقاتهم ويقدم عليه بجزيتهم، فقال عليّ - عليه السّلام - بتواضع بالغ:

«يا رسولَ الله تبعثني وأنا شابُّ أقضي بينهم ولا أدري ما القضاء» أي ما فعلته قيل هذا.

فضرب رسولُ الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - بيده في صدر عليّ - عليه السّلام - وقال:

«اللهم أهد قلبه وثبّت لسانه.»

ثم قال - صلّى الله عليه وآله وسلم - :

«يا عليّ لا تقاتلنَّ أحداً حتّى تدعوه وأيمُ الله لئن يهديّ الله على يدك رجلاً خيراً لك ممّا طلعت عليه الشمس وغربت ولك ولاؤه يا عليّ.»

ثم أوصاه - صلّى الله عليه وآله وسلم - بوصايا أربع هامة إذ قال:

يا عليّ أوصيك:

1- بالدعاء فإن معه الإجابة.

2- وبالشكر فإنّ معه المزيد.

3- وإياك أن تخفّر عهداً أو تعين عليه.

4- وأنهاك عن المكر، فإنه لا يحيقُ المكر السيء إلا بأهله، وأنهاك عن البغي، فإنه من بُغي عليه لينصرنه الله.»

ولقد بقي علي - عليه السّلام - يقومُ بالقضاء طيلة أيام اقامته في اليمن بصورة عجيبة محيرة، وقد دُوت أكثر اقصيته في كتب التاريخ والحديث.

هذا ويروي «البراء بن عازب» وكان من الذين صحبوا علياً - عليه السّلام - في سفره هذا إلى اليمن انه لما انتهى عليّ - عليه السّلام - ومن معه إلى أوائل أهل اليمن، وبلغ القوم الخبر، فخرجوا إليه صفّ عليّ - عليه السّلام - الجنود الذين كانوا

(627)

قد استقروا هناك من قبل بقيادة خالد بن الوليد، ثم صلّى بهم صلاة الفجر، ثم دعا قبيلة همدان كلّها، وكانت أكبر القبائل اليمنية، ليقرأ عليهم كتاب رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم -، فحمد الله، واثنى عليه، ثم قرأ على القوم كتاب رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - فاسلمت همدان كلّها في يوم واحد متأثرة بجلال المشهد، وحلاوة البيان، وعظمة المنطق النبوي، فكتب امير المؤمنين - عليه السّلام - بذلك إلى رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - فلما قرأ كتابه استبشر وابتهج وخرّ ساجداً شاكراً لله تعالى ثم رفع رأسه وجلس وقال:

«السلام على أهلِ هَمْدان. السلام على أهلِ هَمْدان.»

ثم تتابع - على أثر اسلام همدان - أهل اليمن على الإسلام. (1)

[الكامل في التاريخ: ٢ / ٣٠٥، بحار الأنوار: ٢١ / ٣٦٠ - ٣٦٣.]

(628)

٦١ حجة الوداع

تُعتبر مراسم الحج ومناسكه من أعظم العبادات الإسلامية الجماعية التي يؤديها المسلمون، جلالاً وأبهة، وذلك لأن أداء مراسم الحج ومناسكه في كل سنة مرة واحدة يُمثّل بالنسبة للأمة الإسلامية أكبر مظاهر الاتحاد، والوحدة ودليلاً كاملاً على الترفع عن المناصب والدرجات وتكوّن نموذجاً بارزاً للمساواة بين جميع أبناء البشر، وسبيلاً إلى تقوية أواصر الأخوة المتينة بين المسلمين،

فاذا كان المسلمون لا ينتفعون بهذه المائدة الكبرى التي منحها ربهم لهم، وإذا كانوا لا يستفيدون من هذا المؤتمر الاسلامي السنوي العظيم (الذي يمكنه بحقي أن يجيب ويعالج الكثير من مشكلاتنا الاجتماعية، ويكون نقطة تحول عميق في حياتنا) استفادة كاملة لانقته، فإن ذلك ليس - وبدون ريب أو شك - ناشئاً من قصور في القانون الاسلامي، بل هو دليل على قصور قادة المسلمين وتقصير حكامهم الذين لا يُولون هذه المراسم وهذا الموسم العظيم اهتماماً مناسباً، ولا يفكرون في استغلاله على الوجه المطلوب.

فمنذ أن فرغ إبراهيم الخليل - عليه السلام - من اقامة صرح الكعبة المعظمة ودعا الموحدين إلى زيارتها، والحج إليها لم تزل هذه البنية الشريفة كعبة القلوب، وطاق الشعوب والاقوام والجماعات الموحدة التي تأتي إليها كل عام من شتى نقاط العالم، ومن مختلف أنحاء الجزيرة العربية، ويؤدون عندها المناسك التي علمها إياهم النبي العظيم إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا السلام.

(629)

ولكن تقادم العهد، وانقطاع شعب الحجاز عن قيادة الأنبياء، وأنانية قريش، وسيادة الوثنية على عقول العرب أوجب أن تتعرض مراسم الحج ومناسكه - من حيث الزمان والمكان - لعملية تحريف وتغيير، وان تفقد صبغتها الحقيقية ووجهها الواقعي.

لهذه الجهات أمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في السنة العاشرة من الهجرة، ومن قبل الله سبحانه ان يشارك في مراسم الحج شخصياً، ويقوم بتعليم مناسك الحج للناس، ويوقفهم على واجباتهم في هذه العبادة الكبرى عملياً، كما يقوم بإزالة كل ما علق بها من زوائد طيلة السنوات الغابرة، ويعين حدود «عرفات» و «منى» ويوم الإفاضة منها ولهذا فإن السفر كان سرفاً ذا طابع تعليمي، قبل أن يكون ذا طابع سياسي واجتماعي.

أمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في الشهر الحادي عشر من العام العاشر للهجرة (أي شهر ذي القعدة) بأن ينادى في المدينة وبين القبائل بأن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقصد مكة للحج هذا العام، فحدث هذا الاعلان شوقاً وابتهاجاً عظيمين في نفوس جمع كبير من المسلمين، فتهيأ عدد هائل منهم لمرافقة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وضربت مضارب وخيم كثيرة خارج المدينة المنورة بانتظار حركة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وتوجهه إلى مكة . (1)

وفي اليوم السادس والعشرين من شهر ذي القعدة خرج رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من المدينة متوجهاً إلى مكة وقد استخلف مكانه في المدينة أبا دجانة الانصاري، وقد ساق معه ما يزيد عن ستين بدنة.

وعندما بلغ الموكب النبوي العظيم إلى «ذي الحليفة» (وهي نقطة فيها مسجد الشجرة أيضاً) أحرم بلبس قطعتين عاديتين من القماش الأبيض من مسجد الشجرة، ودخل الحرم، ولبي عند الاحرام قائلاً:

(630)

«لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمَلِكُ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ.»

وهو بذلك يلبي نداء إبراهيم، كما أنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان يكرّر هذه التلبية كلما شاهد ركباً، أو علا مرتفعاً من الأرض، أو هبط وادياً.

ولما شارف مكة قطع التلبية المذكورة.

وفي اليوم الرابع من شهر ذي الحجة، دخل - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مكة المكرمة وتوجّه نحو المسجد الحرام رأساً، ثم دخله من باب بني شيبه وهو يحمدهم الله ويثني عليه ويصلي على إبراهيم - عليه السّلام - .

ثم بدأ من الحجر الأسود فأستلمه (1) أولاً، ثم طاف سبعة أشواط حول الكعبة المعظمة، ثم صلى ركعتين خلف مقام إبراهيم وعندما فرغ من صلاته سعى بين الصفا والمروة (2) ثم التفت إلى حجاج بيت الله الحرام وقال:

«مَنْ لَمْ يَسُقْ مِنْكُمْ هَدِيًّا فَلْيُحِلِّ وَلْيَجْعَلْهَا عُمْرَةً (أي فليقصّر أي يأخذ من شعره وظفره فيحلق له ما حرم عليه بالاحرام) ومن ساق منكم هدياً فليؤم على إحرامه.»

وقد كره البعض هذا واعتدروا بأنه يعزّ عليهم (أولا يلد لهم) أن يخرجوا من الاحرام فيحلق لهم ما يحرم على المحرم فيلبسوا الثياب ويقربوا النساء ويتدهنوا ورسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على إحرامه أشعث أغبر.

I- المراد من الاستلام هو مسح الحجر الأسود باليدين قبل الشروع بالطواف وفلسفة هذا العمل هي أن هذا الحجر كان يقف عليه إبراهيم لدى بناء جدران الكعبة وإقامتها ورفعها، واستلامه نوع من تجديد الميثاق مع الخليل - عليه السّلام - والعمل على نصره عقيدة التوحيد على نحو ما فعل إبراهيم.

ولقد اعتمر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الفترة المدنية مرتين، إحداهما في السنة السابعة والأخرى في السنة الثامنة بعد فتح مكة، وكانت هذه ثالث عمرة يقوم بها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مع الحج (الطبقات الكبرى: ٢ / ١٧٤).

2- الصفا والمروة جبلان على مقربة من المسجد الحرام والسعي هو المشي بينهما ابتداء من الصفا وانتهاء بالمروة.

(631)

وربما قالوا: لا يصحّ هذا، كيف تقطر رؤوسنا من الغسل (1) ونحن زوّار بيت الله؟

فالتفت النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى عمر وكان ممن بقى على إحرامه وقال له: مالي أراك يا عمر مُحرمًا؟ أسقت هدياً؟

قال عمر: لم أسق.

فقال النبي: قَلِمَ لَا تُحِلُّ وَقَدْ أَمَرْتُ مَنْ لَمْ يَسُقْ بِالِإِحْلَالِ ؟

قال عمر: والله يا رسول الله لا أحللتُ وانت محرّمٌ.

فغضب النبي لموقف الناس المتلكئ هذا وقال:

«لو كنتُ استقبلتُ من أمري ما استئبرثُ لفعلتُ كما أمرتكم.»

وهو - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يعني: أنني لو كنتُ أعلم بالمستقبل ولو عرفت بموقف الناس المتردد وخلافهم هذا من قَبْلِ لما سقتُ الهدى، ولفعلتُ ما فعلتموه من عدم سوق الهدى، ولكن ماذا عساي أن أفعل الآن وقد سقتُ الهدى، ولا يمكنني الإحلال من الإحرام، فيجبُ عليّ أن أبقى على إحرامي «حتّى يبلغ الهدىَ محلّه» أي أنحرُ هديي بمنى كما أمر الله سبحانه، وأما أنتم فمَنْ لم يسُق الهدى منكم فإنّ عليه أن يُحلَّ إحرامه، واحسبوها عمرة، ثم أحرموا للحج مرة أخرى . (2)

الإمام علي يعود من اليمن:

لما علم علي - عليه السّلام - بتوجه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلى مكة

1- هذه العبارة كناية عن مقاربة الأزواج وغسل الجنابة لأن مقاربتهم هي أحد محرمات الإحرام وترتفع هذه الحرمة بالتقصير وهو أخذ شيء من شعر الرأس أو اللحية أو تقليم الظفر.
2-بحار الأنوار: ٢١ / ٣١٩، وهذه القصة توقفتنا على تعنت فريق من الصحابة وتمردهم على تعليمات النبي وأوامره الأكيدة وهم يعلمون أنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى وثمة شواهد وموارد أخرى كثيرة على الموضوع، وقد جمعها المغفور له العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي في كتاب اسماء «النص والاجتهاد.»

للمشاركة في مراسم الحج خرج هو وجنوده وقد ساق معه (٣٤) هدياً للمشاركة في الحج، واصطحب خُلاً من بَرِّ اليمن وحريرها قد أخذها من اهل نجران وهي الجزية التي تقرّر دفعها إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ولقد تعجل عليّ - عليه السّلام - إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واستخلف على جنده الذين خرجوا معه إلى الحج رجلاً من أصحابه لقيادتهم حتّى مكة، فالتحق برسول الله ولقيه على مشارف مكة فسر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - به، وبما أحرّزه من نجاحات في مهمته التي بعثه بها إلى أرض اليمن، وقد أخبر بها النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على وجه التفصيل .

فلما فرغ من بيان اخبار سفره قال له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :انطلقْ فطفُ بالبيت، وجلِّ كما حلَّ أصحابك.

فقال علي: يا رسول الله اني اهللت كما اهللت.

فسأله النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن كيفية إهلاله ساعة أحرم للحج فقال علي - عليه السَّلام - : يا رسول الله اني قلت حين أحرمت: اللَّهُمَّ اني أَهَلُّ بما أَهَلُّ به نبيُّك وعبدُك ورسولُك مُحَمَّدٌ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

قال النبي وقد أخبره بأنه يشاركه في الحكم ما دام أَهَلُّ بهذه الكيفية: فهل مَعَكَ هديٌّ ؟

قال علي: نعم وهو يشير إلى الهدى الذي ساقه معه من اليمن.

فاشركه رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الحكم، وثبت على إحرامه مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حتَّى فرغاً عن الحج ونحر رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الهدى عن نفسه، كما نحر علي هديه أيضاً .⁽¹⁾

ثم إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمر علياً - عليه السَّلام - بأن يرجع إلى جنوده الذين فارقتهم، ويصطحبهم إلى مكة، فلما رجع علي - عليه السَّلام - إليهم

-[الإرشاد: ص ٩٢، ان هذا يدل على أن النية الاجمالية كافية ولا يلزم وقوف الناوي على تفاصيل العمل وجزئياته.

(633)

وجد أن الرجل الذي استخلفه على اولئك الجنود قد عمد فكسا كل رجل من القوم حلة من البز الذي كان قد أخذه علي من أهل نجران ليسلمها إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فانزعج من هذا التصرف غير المشروع وقال له: وبلك ما هذا ؟

قال: كسوت القوم ليتجملوا به إذا قدموا في الناس بمكة فقال علي - عليه السَّلام - : وبلك! أنزع قبل أن تنتهي إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فانزع ذلك الرجل الحلل من الجنود، وردّها إلى مكانها مع الأشياء الأخرى من جزية أهل نجران.

فانزع جماعة من اولئك الجنود ممن يزعمهم العدل والنظام دائماً ويريدون أن تسير الامور وفق أهوائهم ومشتهياتهم وان خالفت سنن الحق ومبادئ العدالة، وأبدوا شكواهم من ما صنع بهم من استرداد الحل والثياب.

ولما قدموا على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمكة اشتكوا علياً - عليه السَّلام - فقام رسول الله خطيباً في الناس وقال:

«أيها الناس، لا تشكوا علياً، فوالله إنه لأخشن في ذات الله (أو في سبيل الله) من أن يشكى. (1)»

مراسم الحج تبدأ:

انتَهتْ أعمالُ العمرة، وكان النبيُّ - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - يكره أن ينزل ويمكث في دار أحد في المدة التي بين العمرة والحج ولهذا أمر بأن تُضرب له خيمة خارج مكة.

لقد حلَّ اليوم الثامن من شهر ذي الحجة، فخرج زوّار بيت الله الحرام في ذلك اليوم من مكة إلى أرض عرفات ليقفوا في اليوم التاسع وهو يوم عرفة من ظهر ذلك اليوم وحتى الغروب منه.

- [السيرة النبوية: ٤ / ٦٠٣ وفي البحار: ٢١ / ٣٨٥: أمر النبيُّ - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - منادياً أن ينادي في الناس: «ارفعوا ألسنتكم عن عليٍّ فإنه خشنٌ في ذات الله غير مDAHن في دينه.»

(634)

وقد صدَّ النبي عرفات أيضاً في اليوم الثامن من شهر ذي الحجة (الذي يُدعى يوم التروية أيضاً) من طريق منى، وتوقَّف في «منى» إلى طلوع الشمس من اليوم التاسع ثم ركب بعيره، وتوجه نحو عرفات، ونزل في خيمة كانت قد ضربت له في مكان يُدعى «نمرة.»

وقد ألقى في ذلك الاجتماع الهائل خطاباً تاريخياً هاماً وهو على ناقته.

خطابُ النبيِّ التاريخي في حجة الوداع:

...في ذلك اليوم الذي كانت عرفات تشهد فيه اجتماعاً عظيماً وحشداً بشرياً هائلاً، لم يشهد مثله شعبُ الحجاز من قبل حتى ذلك اليوم، كان نداء التوحيد وشعار الإسلام يدوي في ربوع تلك المنطقة التي كانت فيما مضى من الزمان موطن المشركين ومسكن الوثنيين ولكنها قد تحولت الآن إلى قاعدة الموحدين، وملتقى عباد الله المؤمنين.

في هذه المنطقة بالذات (أي أرض عرفات) نزل رسول الله - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - وصلى الظهر والعصر وهو يؤمُّ مائة الف، ثم خطب فيهم خطاباً تاريخياً وهو راكب على راحته، وكان أحد اصحابه - وكان رفيع الصوت قويه - يكرر كلماته - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - ليسمعه آخر من في ذلك الحشد.

لقد بدأ رسول الله - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - ذلك الخطاب هكذا:

«أيها الناسُ اسمعوا قولي واعقلوه فاني لا أدري لعلِّي لا ألقاكم بعدَ عامي هذا بهذا الموقف أبداً.

أيها الناسُ إنَّ دماءكمُ واموالكم (1) عليكم حرامٌ إلى أن تلقوا ربكم.»

وتأكيداً لحرمة أموال المسلمين ودمانهم قال - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - لربيعة بن أمية:

(635)

«قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: هَلَّا تَدْرُونَ أَيَّ شَهْرٍ هَذَا؟»

فاجابوا: الشهرُ الحرام الَّذي يحرم فيه القتال و اراقة الدماء. فقال النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لربيعة:

«قُلْ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَائِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ إِلَى أَنْ تَلْقُوا رَبَّكُمْ كَحَرَمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا.»

ثم قال - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لربيعة:

«قُلْ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ هَلْ تَدْرُونَ أَيَّ بَلَدٍ هَذَا؟.»

فاجابوا جميعاً: البلدُ الحرام، الَّذي يحزُم فيه القتال والعدوان. فقال رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لربيعة:

«قُلْ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَائِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ إِلَى أَنْ تَلْقُوا رَبَّكُمْ كَحَرَمَةِ بَلَدِكُمْ هَذَا.»

ثم قال - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لربيعة:

«قُلْ لَهُمْ: هَلْ تَدْرُونَ أَيَّ يَوْمٍ هَذَا؟.»

فاجابوا بأجمعهم: يوم الحج الاكبر.

فقال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لربيعة:

«قُلْ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَائِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ إِلَى أَنْ تَلْقُوا رَبَّكُمْ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا.»

أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ كُلَّ دَمٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَإِنْ أُولَ دِمَائِكُمْ أَضَعُ دَمَ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ (وكان من أقرباء النبي).

وهكذا ألغى رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عادة الثارات الجاهلية المشؤومة وبدأ بأقربائه.

ثم قال - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - :

«إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ وَقَدْ بَلَغْتُ فَمَنْ كَانَتْ

عنده أمانة فليؤدّها إلى من انتمته عليها.

أيها الناس إنّ كل رباً موضوعٌ ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون وإنّ ربا العباس بن عبد المطلب موضوعٌ كلّهُ.

أيها الناس إن الشيطان قد يبس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضي به ممّا تحقرون من أعمالكم (أو رضي منكم بمحقّرات الأعمال)، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس إنّ النسبيّة (1) زيادةً في الكفر يُضللّ به الذين كفّروا يُحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرّم الله فيخلّوا ما حرّم الله ويُحرّموا ما أحلّ الله وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرّمٌ ثلاثه متواليه (ذو القعدة وذو الحجة وشهر المحرم ورجب).

أيها الناس إن لكم على نسانكم حقاً ولهنّ عليكم حقاً:

لكم عليهن أنّ لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه (أي لا تضيّقن في بيوتكم من تكرهونه).

وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهنّ في المضاجع، وتضربوهنّ ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهنّ رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف واستوصوا بالنساء خيراً فإنهنّ عندكم عوان لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهنّ بأمانة الله واستحلّتم فروجهنّ بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولني فاني قد بلغنّ وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً
أمراً نبياً كتاب الله وسنة نبيّه . (2)

أيها الناس اسمعوا قولني واعقلوه تعلّمن أنّ كل مسلم أخٌ للمسلم وإنّ

- [شرحنا النسبيّة في ص ٨٣ من هذا الكتاب فراجع.
2- لقد أوصى رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - الأمة في هذه الخطبة التاريخية بالكتاب والسنة، ولكنه أوصى في خطبة الغدير وفي أخريات حياته بالكتاب والعترة، وحيث أن هذين الحديثين وردا في واقعتين فلا تنافي بينهما، لأنه يصحّ أن يجعل النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - السنة عدلاً للكتاب في واقعة، ويوصي بالعترة والخلفاء من أهل بيته في موضع آخر ويؤكد على اتباعهم الذي هو أخذٌ بالسنة أيضاً.
وقد تصور بعض اعلام السنة كالشيخ محمود شلتوت في تفسيره ان النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - تحدث بمثل هذا الكلام في واقعة واحدة فقط، ولهذا جعل لفظ «عترة» في الهامش نسخة بدل في حين لا نحتاج إلى مثل هذا التصحيح ابدأ لأنه لا تعارض بين النقلين أساساً ليعالج بهذه الطريقة.

المسلمين إخوة فلا يحلّ لامري من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم إلا فليبلغ شاهدكم غائبكم لا نبيّ بعدي

ولا أمة بعدكم . (1)

«ألا كُلُّ شيء من أمر الجاهليّة تحت قدمي موضوع. (2)»

و هنا قطع النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - خطابه، ورفع سبّابته نحو السماء (كعلامة على الشهادة) وهو ينكتها إلى الناس وقال:

«اللَّهُم اشْهَدْ»

اللَّهُم اشْهَدْ

اللَّهُم اشْهَدْ⁽³⁾»

ولقد مكث رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في عرفات حتّى غروب اليوم التاسع، وعندما اختفى قرصُ الشمس عن الأفق، واطلمَ الفضاء بعض الشيء ركبَ ناقته، وافاضَ إلى المزدلفة وامضى فيها شطراً من الليل ولم يزلْ واقفاً من الفجر إلى طلوع الشمس في المشعر، ثم توجّه في اليوم العاشر إلى «منى» وأدى مناسكها من رمي الجمار والذبح والتقشير ثم توجّه نحو مكة لأداء بقية مناسك الحج.

-
- 1- الخصال: ص ٤٨٧.
 - 2- بحار الأنوار: ٢١ / ٤٠٥.
 - 3- امتاع الاسماع: ١ / ٥٢٣ والطبقات الكبرى: ٢ / ١٨٤.

(638)

وهكذا عم رسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - الناسَ مناسك الحج بصورة عملية، وحدد أو أكد على مشاعره بصورة دقيقة. ويُطلَقُ على هذه الحجة التاريخية في كتب التاريخ والحديث «حجة الوداع» تارة، و «حجة البلاغ» أخرى، و «حجة الإسلام» ثالثة، وإنما يُطلق كلُّ عنوان من هذه العناوين على هذه الحجة لمناسبة لا تخفى على القارئ البصير . (1)

هذا وتلفت نظر القراء الكرام في خاتمة هذا الفصل إلى أن المشهور بين المحدثين هو أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ألقى هذا الخطاب التاريخي الخالد في يوم عرفة ولكن يذهب بعض المؤرخين إلى أن هذه الخطبة أُلقيت في اليوم العاشر من شهر ذي الحجة، ويرى آخرون أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - خطب خطباً عديدة في هذه الحجة مستغلاً كل فرصة سانحة لإبلاغ مبادئ رسالته الإلهية.

هذا وقد وقعت في أثناء هذه الرحلة المقدسة قضايا ووقائع لطيفة وجديرة بالدرس والتأمل والتعليق، وقد تركنا ذكرها هنا رعاية

للاختصار . (2)

1-راجع امتاع الاسماع: ٥١٠ / ١ هذا ولعلّ الوجه في تسمية هذه الحجة بالوداع لانها آخر حجة للنبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - ، وبالبلاغ هو نزول قوله تعالى «يا ايها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك» في أعقابها وبالتمام والكمال هو نزول قوله تعالى: «اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي.»

2-راجع بحار الأنوار: ١ / ٣٧٨ - ٤١٣ ، امتاع الاسماع: ١ / ٥١٠ - ٥٣٤.

(639)

٦٢

إكمال الدين الإسلامي بتعيين الخليفة

الخلافة حسب عقيدة علماء الشيعة الإمامية منصبٌ إلهي يعطى من قبل الله تعالى لأفضل أفراد الأمة، وأصلحهم، وأعلمهم، والفرق الواضح بين الامام والنبى هو: أن النبي مؤسس قواعد الشريعة، وهو الذي يوحى إليه وينزل عليه الكتاب من السماء، والامام وان كان لا يتمتع بأي واحد من هذه الشؤون إلا أنه مضافاً إلى شؤون الحكومة والقيادة هو المبيّن لما جاء به رسول الله من الدين ممّا لم يوفق - بسبب الظروف المعاكسة أو عدم الفرص المناسبة - لبيانه أو اظهاره، وترك مهمة بيانه على عاتق اوصيائه وخلفائه.

وعلى هذا الاساس فان الخليفة - من وجهة نظر عقيدة الشيعة الإمامية - ليس مجرد حاكم زمني للمسلمين وليس المطبق لقوانين الشريعة المقدسة والحافظ للحقوق الاجتماعية، والحارس لثغور المسلمين وحدود بلادهم المدافع عنها، فحسب بل هو علاوة على كل ذلك الموضح لما خفي من معالم الدين، والمكمل المبيّن لذلك الجانب من أحكام الشريعة وقوانينها الذي لم يُبيّن من قبل مؤسس الشريعة لبعض الاسباب.

أما الخلافة في عقيدة أهل السنة فهي منصبٌ عاديّ وليس الهدف منها إلا حفظ الكيان الظاهري والشؤون المادية للأمة الإسلامية، والخليفة لا ينصبّ إلا باختيار الناس وانتخابهم أحداً لشغل منصب الحكم والقضاء وإدارة الأمور السياسية والاقتصادية وماشابهها، وذكر تفصيل ما بيّنه صاحبُ الشريعة من

(640)

الأحكام على نحو الاجمال.

وأما بيان ما لم يوفق النبي لبيانه لأسباب خاصة فهو يرتبط بعلماء الإسلام وفقهاء المسلمين فهم يعالجون ما يستجد للناس من مشكلات فقهية ودينية من هذا النوع عن طريق الاجتهاد، والرأي.

وعلى أساس هذا الاختلاف في الموقف من قضية الخلافة وحقيقتها والنظرة اليها انشطرت الأمة الإسلامية إلى طائفتين واتجاهين لا يزالان باقيين إلى هذا اليوم.

وبناء على النظرية الاولى يكون الامام مشاركاً للنبي في بعض شؤونه، فيشترط في الإمام أيضاً ما يشترط في النبي. واليك الشروط
المعتبرة في النبي، التي تشترط في الإمام أيضاً:

1- يجب أن يكون النبي معصوماً، يعني أن لا يحوم حول الإثم والمعصية طول حياته أبداً، ولا يزل أو يخطأ في بيان أحكام الدين
وحقائقه، وعند الاجابة على أسئلة الناس واستفساراتهم الدينية، ويشترط في الامام ذلك أيضاً، والدليل في الموردين واحد.

2- يجب أن يكون النبي أعلم الناس بالشريعة، ويجب أن لا يخفى عليه شيء من مسائل الشريعة مطلقاً، وهكذا يجب أن يكون الامام
اعلم الناس باحكام الدين ومسائله لكونه مكملاً أو مبيناً لما لم يبين من مسائل الشريعة في زمن النبي.

3- إن النبوة منصبٌ تعييني وليس منصباً انتخابياً، بمعنى أن النبي لا يكون نبياً إلا إذا عبَّه الله وابتعثه، ونُصِب في مقام النبوة من
جانبه سبحانه، لأنه تعالى دون سواه يميز. المعصوم عن غير المعصوم، وهو سبحانه دون غيره يعلم من بلَّغ درجة العصمة عن
الخطأ والمعصية في ظل العناية الربانية الغيبية الخاصة، بحيث يعرف كل تفاصيل الدين وجزئياته.

إن هذه الشروط الثلاثة كما هي معتبرة في النبي، كذلك هي معتبرة ومشترطة في خليفته والقائم مقامه.

(641)

ولكن بناء على النظرية الثانية لا يشترط أي شيء من هذه الشروط المعتبرة في النبي، في الخليفة فلا تجب العصمة، ولا العدالة،
ولا يجب العلم والاحاطة بالشريعة ولا يشترط فيه التعيين من جانب الله، والارتباط بعالم الغيب، بل يكفي في استحقاق الخلافة أن
يكون الشخص قادراً في ظلّ ذكائه، ومشورة المسلمين على حفظ الكيان الاسلامي، وقادراً على إقرار الأمن في البلاد بتطبيق
قوانين الشريعة الجزائية، كما ويتمكن من توسيع رقعة الأرض الإسلامية في ظل الدعوة إلى الجهاد.

وعلى الآن ان نعالج هذه المسألة (أي هل الخلافة والامامة منصبٌ تنصيبي أو انتخابي وهل على النبي ان يعين نفسه من يخلفه،
أو يوكل الامر إلى الأمة لتختار من تريد) وندرسها في ضوء المحاسبات الاجتماعية ليلمس القارئ بوضوح أن الأحوال والظروف
الاجتماعية كانت توجب أن يقوم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بتعيين خليفته في حياته ويحلّ بذلك مشكلة الخلافة من بعده،
ولا يوكل الأمر إلى الأمة.

واليك توضيح هذا القسم وبيانه:

إقتضاء المحاسبات الاجتماعية في مسألة الخلافة:

لاشك في أن الدين الإسلامي دينٌ عالمي، وشريعة خاتمة، وقد كانت قيادة الأمة الإسلامية من شؤون النبي الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مادام على قيد الحياة، وكان عليه أن يوكل مقام القيادة من بعده إلى أفضل أفراد الأمة واكملهم.

إن في هذه المسألة وهي هل أن منصب القيادة بعد النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هل هو منصب تنصيصي تعيني أو انه منصب انتخابي اتجاهين:

فالشريعة يرون أن مقام القيادة منصبٌ تنصيصي ولا بد أن يتعين خليفة النبي من جانب الله سبحانه.

(642)

بينما يرى أهل السنة أن هذا المنصب منصبٌ انتخابي جمهوري، أي أن على الأمة أن تقوم بعد النبي باختيار فرد من أفرادها لادارة البلاد.

إن لكل من الاتجاهين المذكورين دلائل ذكرها أصحابهما في الكتب العقائدية، إلا أن ما يمكن طرحه هنا هو تقييم ودراسة المسألة في ضوء دراسة وتقييم الظروف السائدة في عصر الرسالة فإن هذه الدراسة كفيلاً بإثبات صحة هذا الاتجاه أو ذلك.

إن تقييم الأوضاع السياسية داخل المنطقة الإسلامية وخارجها في عصر الرسالة يقضي بأن خليفة النبي كان لا بد أن يعين من جانب الله تعالى ولا يترك الأمر من دون مثل هذا التعيين الالهي، فإن المجتمع الإسلامي كان مهدداً على الدوام من جانب الخطر الثلاثي (الروم - إيران - المنافقون) بشنّ الهجوم الكاسح، وإلقاء بذور الفساد والاختلاف بين المسلمين.

كما أن مصالح الأمة كانت توجب أن توجّد صفوف المسلمين في مواجهة الخطر الخارجي وذلك بتعيين قائد سياسي من بعده، وبذلك يسدّ الطريق على نفوذ العدو في جسم الأمة الإسلامية والسيطرة عليها، وعلى مقدراتها.

واليك بيان وتوضيح هذه المطلب:

لقد كانت الامبراطورية الرومية احد اضلاع المثلث الخطر الذي يحيط بالكيان الاسلامي ويتهدده من الخارج والداخل.

وكانت هذه القوة الرهيبة تتمركز في شمال الجزيرة العربية، وكانت تشغل بال النبي القائد على الدوام حتى إن التفكير في امر الروم لم يغادر ذهنه وفكره حتى لحظة الوفاة، والاتحاق بالرفيق الأعلى.

وكانت أول مواجهة عسكرية بين المسلمين، والجيش المسيحي الرومي وقعت في السنة الهجرية الثامنة في أرض فلسطين وقد ألت هذه المواجهة إلى مقتل القادة العسكريين البارزين الثلاثة وهم: «جعفر الطيار»، و «زيد بن حارثة» و «عبد الله بن رواحة.»

ولقد تسبب انسحاب الجيش الإسلامي بعد مقتل القادة المذكورين إلى تزايد جراءة الجيش القيصري المسيحي فكان يخشى بصورة متزايدة أن تتعرض عاصمة الإسلام للهجوم الكاسح من قبل هذا الجيش.

من هنا خرج رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في السنة العاشرة للهجرة على رأس جيش كبير جداً إلى حدود الشام ليتصدى بنفسه إلى أية مواجهة عسكرية يقوم بها العدو، وقد استطاع الجيش في هذه الرحلة الصعبة والمضنية أن يستعيد هيئته الغابرة ويجدد سلطته السياسية.

غير أن هذا الانتصار المحدود لم يُقنع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأعدَّ قُيْلَ مرضه جيشاً كبيراً من المسلمين وأمر عليهم «أسامة بن زيد» وكلفهم بالتوجه إلى حدود الشام، والحضور في تلك الجبهة.

أما الضلع الثاني من المثلث الخطير الذي كان يهدد الكيان الإسلامي فكان الامبراطورية الإيرانية (الفارسية) وقد بلغ من غضب هذه الامبراطورية على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ومعاداتها لدعوته أن أقدم امبراطور إيران: «خسرو پرويز» على تمزيق رسالة النبي: وتوجيه الاهانة إلى سفيره باخراجه من بلاطه والكتابة إلى واليه وعميله باليمن بان يوجه إلى المدينة من يقبض على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، أو يقتله ان امتنع!!

و «خسرو» هذا وإن قُتِلَ في زمن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلا أن موضوع استقلال اليمن - التي رزحت تحت استعمار الامبراطورية الإيرانية رداً طويلاً من الزمان - لم يغيب عن نظر ملوك إيران آنذاك، وكان غرور أولئك الملوك وتجبرهم، وكبرياؤهم لا يسمح بتحمل منافسة القوة الجديدة (القوة الإسلامية) لهم.

والخطر الثالث كان هو خطر حزب النفاق الذي كان يعمل بين صفوف المسلمين في صورة الطابور الخامس، على تقويض دعائم الكيان الإسلامي من الداخل إلى درجة أنهم قصدوا اغتيال رسول الله، في طريق العودة من تبوك إلى

المدينة.

فقد كان بعض عناصر هذا الحزب الخطر يقول في نفسه: ان الحركة الإسلامية سينتهي أمرها بموت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ورحيله وبذلك يستريح الجميع. (1)

ولقد قام أبوسفيان بن حرب بعد وفاة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمكيدة مشؤومة لتوجيه ضربة إلى الأمة الإسلامية من الداخل، وذلك عندما أتى علياً - عليه السَّلَام - وعرض عليه ان يبايعه في مقابلة من عينه رجالُ السقيفة، ليستطيع بذلك تشطير الأمة الإسلامية الواحدة إلى شطرين متحاربين متقاتلين فيتمكن من التصيّد في الماء العكر.

ولكن الامام عليا - عليه السَّلَام - أدرك بذكائه البالغ نوايا أبي سفيان الخبيثة، فرفض مطلبه وقال له كاشفاً عن دوافعه ونواياه الشريرة:

«والله ما أردت بهذه إلا الفتنة وانك والله طالما بغيت للإسلام شراً... لاجحة لنا في نصيحتك.(2)!!»

ولقد بلغ دورُ المنافقين التخريبي من الشدة بحيث تعرّض القرآن لذكرهم في سور عديدة هي سورة آل عمران، والنساء، والمائدة، والانفال، والتوبة، والعنكبوت، والاحزاب، ومحمّد، والفتح، والمجادلة، والحديد، والمنافقين، والحشر.

فهل مع وجود هؤلاء الاعداء الخطرين والاقوياء الذين كانوا يتربصون بالاسلام الدوائر، ويتحيتون الفرص للقضاء عليه يصحّ ان يترك رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمته الحديثة العهد بالاسلام، الجديدة التأسيس من دون ان يعين لهم قائداً دينياً سياسياً.

إن المحاسبات الاجتماعية تقول: انه كان يتوجب ان يمنع رسول الاسلام

1-الطور: ٣٠.
2-الكامل في التاريخ: ٢ / ٢٢٢، العقد الفريد: ٢ / ٢٤٩.

بتعيين قائد للامة، من ظهور أيّ اختلاف وانشقاق فيها من بعده، وان يضمن استمرار وبقاء الوحدة الإسلامية بإيجاد حصن قوي وسياح دفاعي متين حول تلك الأمة.

إن تحصين الأمة، وصيانتها من الحوادث المشؤومة، والحيلولة دون حدوث ظاهرة مطالبة كل فريق الزعامة لنفسه دون غيره، وبالتالي التنازع على مسألة الخلافة والزعامة لم يكن ليتحقق إلا بتعيين قائد للأمة، وعدم ترك الامور للقدر.

إن المحاسبة الاجتماعية تهدينا إلى صحة نظرية «التنصيب على القائد بعد رسول الله»، ولعلّ لهذه الجهة، ولجهات أخرى طرح رسول الإسلام مسألة الخلافة في الأيام الأولى من ميلاد الرسالة الإسلامية وظلّ يواصل طرحها والتذكير بها طول حياته حتى الساعات الأخيرة منها حيث عينَ خليفته ونصَّ عليه بالنص القاطع الواضح الصريح في بدء دعوته، وفي نهايتها أيضاً.

واليك بيان كلا هذين المقامين:

1- النبوة والامامة توأمان:

بغض النظر عن الأدلة العقلية على صحة المحاسبة الاجتماعية التي تثبت حقانية الرأي الأول بصورة قطعية هناك أخبار وروايات وردت في المصادر المعتبرة تثبت صحة الموقف والرأي الذي ذهب إليه علماء الشيعة، وتصدقه، فقد نص النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - على خليفته من بعده في الفترة النبوية من حياته مراراً وتكراراً، وأخرج موضوع الامامة من مجال الانتخاب الشعبي، والرأي العام.

فهو لم يعين (ولم ينص على) خليفته ووصيه من بعده في اخريات حياته فحسب، بل بادر إلى التعريف بخليفته ووصيه في بدء الدعوة يوم لم ينضو تحت راية رسالته بعد سوى بضعة عشرات من الأشخاص، وذلك يوم أمر من جانب الله العلي القدير أن ينذر عشيرته الاقربين من العذاب الالهي الاليم، وأن يدعوهم

(646)

إلى عقيدة التوحيد قبل ان يصدع برسالته للجميع ويبدأ دعوته العامة للناس كافة.

فجمع أربعين رجلاً من زعماء بني هاشم وبني المطلب ثم وقف فيهم خطيباً فقال:

«أيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم.»

فأحجم القوم، وقام علي - عليه السلام - وأعلن موازرتة وتأييده له، فأخذ رسول الله برقبته والتفت إلى الحاضرين وقال:

«إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم.⁽¹⁾»

وقد عُرفَ هذا الحديث عند المفسرين والمحدثين بـ: «حديث يوم الدار» و «حديث بدء الدعوة.»

على أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لم يكتف بالنص على خليفته في بدء رسالته، إنما صرح في مناسبات شتى، في السفر والحضر، بخلافه علي - عليه السلام - من بعده ولكن لا يبلغ شيء من ذلك في الأهمية والظهور والصراحة والحسم ما بلغه حديث الغدير.

2- قصة الغدير:

لما انتهت مراسيم الحج، وتعلم المسلمون مناسكه عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قرّر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - الرحيل عن مكة، والعودة إلى المدينة، فأصدر أمراً بذلك.

ولما بلغ موكب الحجاج العظيم إلى منطقة «راغ»⁽²⁾ التي تبعد عن

1- تاريخ الطبري: ٢ / ٢١٦، الكامل في التاريخ: ٢ / ٦٢ و ٦٣ وقد مر مفصلة في هذه الدراسة فراجع.
2- رايغ تقع الان على الطريق بين مكة والمدينة.

(647)

«الجحفة⁽¹⁾» بثلاثة أميال نزل أمين الوحي جبرئيل على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمنطقة تدعى «غدِير خم» وخاطبه بالآية التالية: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ.»⁽²⁾

إن لسان الآية وظاهرها يكشف عن أن الله تعالى ألقى على عاتق النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مسؤولية القيام بمهمة خطيرة، وأي أمر أكثر خطورة من أن ينصب علياً - عليه السَّلام - لمقام الخلافة من بعده على مرأى ومسمع من مائة ألف شاهد.

من هنا أصدر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمره بالتوقف، فتوقفت طلائع ذلك الموكب العظيم، والتحق بهم من تأخر.

لقد كان الوقت وقت الظهيرة، وكان الجو حاراً إلى درجة كبيرة جداً، وكان الشخص يضعُ قسماً من عباءته فوق رأسه والقسم الآخر منها تحت قدميه، وصنع للنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مظلةً وكانت عبارة عن عباءة أقيت على أغصان شجرة، (سُمرَة) وصَلَّى رسولُ الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالحاضرين الظهر جماعة، وفيما كان الناسُ قد احاطوا به صعَدَ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على منبر أُعِدَّ من أحجاج الإبل وأقتابها، وخطب في الناس رافعاً صوته وهو يقول: «الحمد لله وَنَسْتَعِينُهُ وَنُؤْمِنُ بِهِ وَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، الَّذِي لَا هَادِيَ لِمَنْ ضَلَّ وَ لَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَى وَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

أَمَا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ نَبَّأَنِي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ أَنَّهُ لَمْ يَعْمَرْ نَبِيٌّ إِلَّا مِثْلَ نَصْفِ الَّذِي قَبْلَهُ، وَإِنِّي أَوْشِكُ أَنْ أَدْعَى فَأَجِيبُ وَأَنِي مَسْئُولٌ وَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ فَمَاذَا أَنْتُمْ قَاتِلُونَ؟

1- من مواقيت الاحرام وتنشعب منها طرق المدنيين والمصريين والعراقيين.
2- المائدة: ٦٧.

(648)

قالوا: نشهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَنصحت وَجهدت فجزاك الله خيراً، قال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«أَلَسْتُمْ تَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَ أَنَّ جَنَّتْهُ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي

القبور؟»

قالوا: بلى نشهدُ بذلك.

قال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«اللَّهُمَّ اشْهَدْ.»

ثم قال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ مَا إِن تَمَسَّكْتُمُ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا.»

فنادى مناد: بأبي أنت وأمي يارسول الله، وما الثقلان؟

فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«كِتَابُ اللَّهِ سَبَبٌ طَرَفٌ بِيَدِ اللَّهِ وَطَرَفٌ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ وَالْآخِرُ عَتْرَتِي وَإِنَّ اللَّطِيفَ الْخَبِيرَ نَبَأَنِي أَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ

الْحَوْضَ فَلَا تَقْدَمُوهُمَا فَتَهْلِكُوا وَلَا تَقْصُرُوا عَنْهُمَا فَتَهْلِكُوا.»

وهنا أخذ بيد «علي» - عليه السَّلام - ورفعها حتى روي بياضُ أبطهما وعرفه الناس اجمعون ثم قال:

«أَيُّهَا النَّاسُ مِنْ أَوْلَى النَّاسِ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؟»

قالوا: الله ورسوله أعلم.

فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

«إِنَّ اللَّهَ مَوْلَايَ وَأَنَا مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنَا أَوْلَى بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ⁽¹⁾، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ

وَانصُرْ مَنْ نصره، وَاخْذَلْ مَنْ خذله وَاحِبْ مَنْ احبه وَابْغُضْ مَنْ ابغضه وَاذْرُ الْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ.»⁽²⁾

1- لقد كرر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذه العبارة ثلاث مرات دفعاً لأي التباس أو اشتباه.
2- راجع للوقوف الكامل على مصادر هذا الحديث المتواتر موسوعة الغدير للعلامة الاميني.

لقد تعلقت المشيئة الربانية بأن تبقى واقعة الغدير التاريخية في جميع القرون والعصور كتاريخ حي يجتذب القلوب والافئدة، ويكتب عنه الكتاب الاسلاميون في كل عصر وزمان ويتحدثون حوله في مؤلفاتهم المتنوعة في مجال التفسير والتاريخ والحديث والعقائد، كما يتحدث حوله الخطباء في مجالس الوعظ ومن فوق صهوات المنابر، ويعتبرونها من فضائل الإمام «علي» الذي لا يتطرق اليها أي شك أو ريب.

ولم يقتصر هذا على الكتاب والخطباء بل استلهم الشعراء من هذه الواقعة الكبرى التي فجرت بالتفكير حول هذه الحادثة، وبالاخلاص لصاحب الولاية ينابيع التعبير في وجودهم فانشأوا أروع القصائد، وجادت قرائحهم بأنواع مختلفة من القصيد الجميل، وخلفوا لمن بعدهم وبلغات مختلفة آثاراً أدبية ولائية خالدة.

ولهذا قلّمنا نجد حادثة تاريخية حظيت في العالم البشري عامة وفي التاريخ الإسلامي والأمة الإسلامية خاصة بمثل ما حظيت به واقعة الغدير، وقلما استقطبت اهتمام الفئات المختلفة من المحدثين والمفسرين والكلاميين والفلاسفة، والشعراء والأدباء، والكتاب والخطباء، وارباب السير والمؤرخين كما استقطبت هذه الحادثة، وقلّمنا اعتنوا بشيء مثلما اعتنوا بها.

إن من أسباب خلود هذه الواقعة الكبرى و دوام هذا الحديث هو: نزول آيتين من آيات القرآن الكريم فيها⁽¹⁾، فما دام القرآن الكريم باقياً مستمراً يتلى آناء الليل وأطراف النهار تبقى هذه الحادثة في الأذهان والنفوس ولا تمحو خاطرتها من العقول والقلوب.

-المائدة: ٦٧ و٣.

(650)

وحيث إن المجتمع الإسلامي في العصور الغابرة وكذا الطائفة الشيعية كانوا يعتبرون هذا اليوم عيداً كبيراً من الأعياد الدينية، وكانوا يقيمون فيها ما يقيمونه من المراسيم في الأعياد الإسلامية لهذا فان هذه الحادثة التاريخية (حادثة الغدير) قد اتخذت طابع الابدية والخلود الذي لاتمحي معه خاطرتها من الأذهان والخواطر.

هذا ويُستفاد من مراجعة التاريخ بوضوح أن اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة الحرام كان معروفاً بين المسلمين بيوم عيد الغدير وكانت هذه التسمية تحظى بشهرة كبيرة إلى درجة أن ابن خلكان يقول حول «المستعلي بن المستنصر»: فبويع في يوم غدير خمّ وهو الثامن عشر من شهر ذي الحجة سنة ٤٨٧. (1)

وقال في ترجمة المستنصر بالله العبيدي: وتوفي ليلة الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة سبع وثمانين واربعمائة، قلت: وهذه هي ليلة عيد الغدير اعني لية الثامن عشر من شهر ذي الحجة وهو غدير خم. (2)

وقد عدّه أبو ریحان البيرواني في كتابه «الأثار الباقية» ممّا استعمله أهل الإسلام من الأعياد. (3)

وليس ابن خلكان وابوريجان البيروني، هما الوحيدان اللذان صرحا بكون هذا اليوم هو عيد من الاعياد، بل هذا الثعالبي قد اعتبر هو الآخر ليلة الغدير من الليالي المعروفة بين المسلمين (4).

إن عهد هذا العيد الاسلامي وجذوره ترجع إلى نفس يوم «الغدير» لأن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمر المهاجرين والانصار بل أمر زوجاته ونساءه في ذلك

- 1-وفيات الأعيان: ٦٠ / ١ .
- 2-وفيات الأعيان: ٦٠ / ١ .
- 3-ترجمة الآثار الباقية: ٣٩٥، الغدير: ١ / ٢٦٧ .
- 4-ثمار القلوب: ص ٥١١ .

(651)

اليوم بالدخول على «عليّ» - عليه السّلام - وتهنئته بهذه الفضيلة الكبرى.

يقول زيد بن ارقم: كان أول من صافق النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وعلياً: أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وباقي

المهاجرين والانصار وباقي الناس (1).

الدلائل الأخرى على أبدية الغدير:

ويكفي في أهمية هذا الحدث التاريخي أن هذه الواقعة التاريخية رواها مائة وعشرة صحابي، على أن هذه العبارة لاتعني أن رواية هذه الواقعة اقتصر على هؤلاء المائة والعشرة من ذلك الحشد الهائل بل يعني أن هؤلاء جاء ذكرهم في كتب أهل السنة ومصنفاتهم.

صحيح أن رسول - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ألقى خطابه المذكور الذي تضمن نصب عليّ - عليه السّلام - للخلافة في مائة الف أو يزيدون من الناس ولكن كثيراً منهم كانوا قد أتوا من مناطق نائية من الحجاز ولهذا لم يرو عنهم هذا الحديث، كما ان كثيراً من الذين حضروا ذلك المشهد التاريخي العظيم رووا ونقلوا للأخرين هذا الحديث ولكن التاريخ لم يوفق لذكر أسمائهم، أو إذا تمّ ذلك لكن لم يصل إلينا.

ثم إنه روى هذا الحديث في القرن الثاني الاسلامي وهو عصر التابعين تسعة وثمانون تابعياً.

وقد بلغ عدد من روى حديث «الغدير» في القرون اللاحقة في كتابه من علماء أهل السنة وفضلائهم ثلاثمائة وستون شخصاً، وصححه جمع كبير منهم واعترفوا بتواتره.

ففي القرن الثالث رواه اثنان وتسعون عالماً.

وفي القرن الرابع رواه أربعة واربعون.

1-راجع مصدره في الغدير: ٢٧٠ / ١.

(652)

وفي القرن الخامس رواه أربعة وعشرون.

وفي القرن السادس رواه عشرون.

وفي القرن السابع رواه واحدٌ وعشرون.

وفي القرن الثامن رواه ثمانية عشر.

وفي القرن التاسع رواه ستة عشر.

وفي القرن العاشر رواه أربعة عشر.

وفي القرن الحادي عشر رواه اثنا عشر.

وفي القرن الثاني عشر رواه ثلاثة عشر.

وفي القرن الثالث عشر رواه اثنا عشر.

وفي القرن الرابع عشر رواه عشرون عالماً.

ولم يكتف البعض بنقل ورواية هذا الحديث في كتبهم ومؤلفاتهم بل ألفوا حوله رسائل أو كتباً مستقلة.

وقد ألف المؤرخ الإسلامي الكبير «الطبري» كتاباً في هذا المجال أسماه «الولاية في طرق حديث الغدير» روى فيه هذا الحديث

عن النبي بخمس وسبعين سنداً.

ولقد روى «ابن عقدة» في رسالة «الولاية» هذا الحديث بمائة وخمسين سنداً.

وروى أبو بكر محمد بن عمر البغدادي المعروف بالجمعاني هذا الحديث بخمس وعشرين سنداً.

كما روى من علماء الحديث هذه الواقعة نظراء:

أحمد بن حنبل الشيباني بـ ٤٠ سنداً

ابن حجر العسقلاني بـ ٢٥ سنداً

الجزري الشافعي بـ ٨٠ سنداً

أبو سعيد السجستاني بـ ١٢٠ سنداً

(653)

الأمير محمّد اليميني بـ ٤٠

النسائي بـ ٢٥٠ سنداً

أبو العلاء الهمداني بـ ١٠٠ سند

أبو العرفان الحبان بـ ٣٠ سنداً

وبلغ عددُ من ألف رسالة خاصة أو كتاباً مستقلاً حول هذه الواقعة وخصوصياتها وتفاصيلها ٢٦ شخصاً ولعلّ هناك غيرُهم ممن ألف كتاباً أو رسالة مستقلةً حول هذا الحدث التاريخي الهامّ لم يذكر التاريخ أسماءهم، أو ضاعت مؤلفاتهم مع التطورات التي طرأت على الأمة الإسلامية وضيّعت الكثير من تراثها الفكريّ خلال عمليات الاغارة والنهب أو الهدم والإحراق (ولقد أقتبسنا كل هذه الاحصاءات من كتاب الغدير الجزء الاول).

ولقد كتب علماء الشيعة كتباً قيمة حول هذه الواقعة أجمعها واشملها كتابُ «الغدير» بقلم العلامة الجليل والكاتب الاسلامي القدير المرحوم آية الله الشيخ الأميني(رضي الله عنه)(والذي يقع في أحد عشر مجلداً في مايقرب من ستة آلاف صفحة، وقد استفدنا كثيراً من تلك الموسوعة في تنظيم الفصل الحاضر).

ثم ان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يلبث ان نزل عليه قوله تعالى بعد نصبه علياً لإمرة المسلمين في تلك الواقعة:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ اَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا.)^(١)

فكَبَّرَ النبيُّ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بصوت عال ثم أضاف قائلاً:

«الحمد لله على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الرب برسالاتي، وولاية عليّ بن أبي طالب من بعدي.»

ثم نزل رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من ذلك المنبر المصنوع من أحجاج

- [المائدة: ٣.

(654)

الابل وأمر امير المؤمنين علياً - عليه السّلام - أن يجلس في خيمة وأمر كافة الناس وكلّ من حضر المشهد من أمتة ومنهم الشيخان ومشيخة قريش ووجوه الأنصار كما أمر أمهات المؤمنين بالدخول على أمير المؤمنين - عليه السّلام - وتهنئته على تنصيبه لمنصب الإمامة والخلافة بعد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ففعل الناس ذلك وانكبوا على «علي» - عليه السّلام - بايديهم وكان أول من صافق وهناً علياً أبو بكر وعمر واصفين إياه بالولاية. وهنا قام «حسان بن ثابت الأنصاري» شاعر الإسلام واستأذن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في أن ينشد شعراً بهذه المناسبة، فأذن له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قائلاً: قل على بركة الله.

فقام حسان وقال:

يُنَادِيهِمْ يَوْمَ الْغَدِيرِ نَبِيَّهُمْ * بَحْمٍ وَ أَسْمِعَ بِالنَّبِيِّ مَنَادِيًا

وقد جاءه جبريلُ عن أمر ربّه * بأنّك معصومٌ فلا تُكُ وانيا

وَبَلَّغُهُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ رُبُّهُمْ * إِلَيْكَ وَلَا تَخْشَى هُنَاكَ الْأَعَادِيَا

فَقَامَ بِهِ إِذْ ذَاكَ رَافِعَ كَفَّهُ * بِكَفِّ عَلِيٍّ مَعْلَنَ الصَّوْتِ عَالِيًا

فَقَالَ فَمَنْ مَوْلَاكُمْ وَوَلِيُّكُمْ * فَقَالُوا وَلَمْ يُبْدُوا هُنَاكَ تَعَامِيَا

الهِكَ مَوْلَانَا وَأَنْتَ وَلِيُّنَا * وَلَنْ تَجِدُنْ فِينَا لَكَ الْيَوْمَ عَاصِيَا

فَقَالَ لَهُ: قُمْ يَا عَلِيُّ فَإِنِّي * رَضِينَاكَ مِنْ بَعْدِي إِمَامًا وَهَادِيَا

فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا وَلِيُّهُ * فَكُونُوا لَهُ أَنْصَارَ صَدَقَ مَوْلِيَا

هناك دعا اللّهم وال وليّه * وكُنْ للذي عادى علياً معادياً

فياربِ انصرْ ناصريه لنصرهم * امام هُدى كالبدر يَجُلُو الدياجيا

و لقد كان هذا الحديث على مدى التاريخ الاسلامي اكبر دليل على افضلية علي - عليه السّلام - على جميع صحابة النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - كافة، حتى أن أمير المؤمنين علياً - عليه السّلام - احتج به مراراً فقد احتج به في مجلس الشورى الذي عقد لتعيين الخليفة عقب وفاة الخليفة الثاني، وفي أيام خلافة عثمان وفي أيام

(655)

خلافته - عليه السّلام - أيضاً، كما أن شخصيات كثيرة من وجوه المسلمين إحتجوا به على منكري حق علي وأفضليته وكان ذلك دأبهم دائماً وأبداً.

(656)

حوادث السنة العاشرة من الهجرة

٦٣

١ - المتنبئون كذباً (١) ٢ - التفكير في أمر الروم

بعد الانتهاء من مراسم تعيين الخليفة في «غدِير خم» انفصلت جُمُوع الحجيج المشاركة في مراسم «حجة الوداع» من الوافدين من الشام ومصر، عن النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - في أرض الجحفة والذين شاركوا في هذه المراسم من «حضر موت» و «اليمن» انفصلوا عنه في هذه النقطة أو في نقطة سابقة وقلوا راجعين إلى أوطانهم.

ولكنّ العشرة آلاف الذين خَرَجوا مع رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - عادوا مع النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - إلى المدينة، ووصلوها قبل أن تأتي السنة العاشرة من الهجرة على نهايتها.

كان رسولُ الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - والمسلمون فرحين جداً لانتشار الإسلام في شتى نقاط الجزيرة العربية، ولانتهاء عهد الحاكِمية الوثنيّة والشرك في كل مناطق الحجاز، وبالتالي لزوال جميع الموانع والعراقيل التي كانت تحول دون نفوذ الإسلام وانضواء الناس تحت لوائه المبارك.

لم يكن شهر ذي الحجة من السنة العشرة قد انتهى بعدُ يوم قدم نفران من «اليمامة» المدينة، وسأما كتاباً من مسيلمة الذي عُرف

فيما بعد بـ «مسيلمة

- [كانت مراسلة مسيلمة للنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في نهايات السنة الهجرية العاشرة وكذا ادعاء الاسود العنسي للنبوة، وقد دمجتا ذكرهما في حوادث الفصل الثالث والستين تقيلاً لفصول هذا الكتاب.

(657)

الكذآب» إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ففتح أحد كتاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الرسالة وقرأها عليه فكان مضمونها ان شخصاً باليمامة يدعي «مسيلمة» يدعي النبوة ويشرك نفسه مع رسول الإسلام في أمر الرسالة، ويريد من خلال كتابه أن يُبلغ النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بذلك ويعرفه بنبوته.

وقد اثبتت كتب السير والتواريخ الإسلامية نصَّ الكتاب المذكور.

ويوحى أسلوبُ الرسالة المذكورة بأنَّ صاحبها اراد تقليد الاسلوب القرآني في البيان والتعبير ولكن محاولته باءت بالفشل فلم يستطع تقليده، واتى بعبارات خاوية خالية من الروح، يفوقها الكلامُ العادي في القوة بدرجات.

فلقد كتب «مسيلمة» في كتابه هذا⁽¹⁾:

أما بعد، فاني قد أشركتُ في الأمر معك، وان لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الارض، ولكنَّ قریشاً قومأ يعتدون.

ولما وقف رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على مضمون الرسالة، التفت إلى من حملها إليه وقال: «أما والله لولا أن الرُّسل لانقُتل لضربتُ أعناقكما لأنكما أسلمتُما من قَبَل وقيلتُما برسالتني فلم اتبعتما هذا الاحمقَ وتركتما دينكما.»

ثم ان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أملى على كاتبه كتاباً إلى مسيلمة قصير المحتوى، مفحم المفاد. واليك نصَّ رسالة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

«بِسْمِ الله الرحمن الرحيم.

من محمَّد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب السلام على من اتبع الهدى.

أما بعد فإنَّ الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.⁽²⁾»

1-ومن شدة جهله أنه لم يبدأ كتابه باسم الله، بل ولم يفعل ما فعله حتى المشركون في العهد الجاهلي.
2-السيرة النبوية: ٢ / ٦٠٠ و ٦٠١ وتكفي مقارنة بين نص الكتابين في معرفة حقيقة الشخصين.

(658)

لمحة عابرة عن هوية مسيلمة:

كان مسيلمة من الأشخاص الذين وقّدا على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المدينة في السنة العاشرة من الهجرة وأسلم في من اسلم ولكنه بعد أن عاد إلى موطنه ادّعى النبوة، وأجابه طائفة من السّدج والبسطاء، وربما من المتعصبين من قومه. ولم يكن نجاح دعوته الباطلة في «اليمامة» دليلاً على شخصيته الواقعية، بل التفتّ حوله فريق ممن تبعه تعصباً وحمية مع أنهم علموا بكذبه، وزيف دعوته إذ كانوا يقولون: «كذّاب ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مضر» وقد قال هذه العبارة أحدُ أتباعه لما سأل مسيلمة ذات مرة: من يأتيك؟ قال: رحمان، قال: أفي نور أو في ظلمة؟ فقال: في ظلمة، فقال: أشهد أنك كذّاب وأن محمّداً صادقٌ ولكن كذّاب ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مضر. (1)

إن من المسلم أنّ الرجل قد ادعى النبوة، وتبعه على ذلك فريق من قومه، ولكنه لم يثبت قط أنه تصدّى لمعارضة القرآن، وما أثار عنه - في النصوص التاريخية - من عبارات وجُمَل في معارضة القرآن لا يمكن أن تكون من كلام رجل فصيح كمسيلمة لأن عباراته العادية واحاديثه الأخرى في غاية البلاغة والإتقان، فكيف تصدّرمه هذه العبارات الضعيفة.

ولهذا يمكن القول بأن ما نقل عنه - على غرار ما نُقل عن معاصره «الاسود بن كعب العنسي» الذي ادعى النبوة معه في اليمن - إنما هي أمورٌ نُسبت إليه، وألصقت به الصاقاً لأسباب خاصة لان عظمة القرآن وبلاغته الفائقة في حدِّ لايجزؤ معها أحدٌ على التفكير في معارضة القرآن ومقابلته، ويعلم كلُّ عربيٍّ بحكم فطرته الإلهية أنّ هذا الأسلوب الجذّاب وأنّ عظمة المعاني القرآنية سموّها تجعل القرآن الكريم فوق حدود الطاقة البشرية، فكيف يحاول أحد معارضته ومقابلته.

1-تاريخ الطبري: ٢ / ٥٠٨ ويقصد بالاول مسيلمة وبالتالي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

(659)

ثم ان مواجهة المرتدين من العرب كان أول ما قام به الخلفاء بعد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولهذا حُوصرت منطقة «مسيلمة» من قبل جنود الإسلام، وضيق عليه الحصار شيئاً فشيئاً، حتى إذا اتضحت هزيمة ذلك الكذاب، قال له بعض أتباعه السّدج: أين ما كنت تعدّنا (من النصر الالهي) فقال مسيلمة: أما الدين فلا، قاتلوا عن أحسابكم.

ولكنّ الدفاع عن الاحساب والكرامة لم يُجد مسيلمة ولا أتباعه شيئاً، فقد قُتل هو وفريق منهم في بستان على أيدي المسلمين، وانتهت بذلك خرافة نبوته المدّعاة.⁽¹⁾

إن هذه العبارة القصيرة تكشف عن انه كان رجلاً فصيحاً وناطقاً بليغاً، كما انها تفيد انه لم يكن صاحب تلك العبارات الباردة الخاوية التي تُسببت إليه - في التاريخ والسيرة - في معارضة القرآن الكريم.

التفكير في أمر الروم:

مع أن ظهور مثل هؤلاء المتنبيين الكذبة في شتى مناطق الحجاز كان خطراً على وحدة أهلها الدينية، فان التفكير في أمر الروم - الذين كانت الشامات وفلسطين من مستعمراتهم آنذاك - كان يستأثر باهتمام رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أكثر من غيره لأنه كان يعلم بأنّ القادة اللاتقنين في اليمامة واليمن قادرين على مواجهة المتنبيين، ولهذا قضى على «الاسود العنسي» وهو رجلاً آخر ادّعى النبوة كذباً في عهد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وذلك بعد يوم من وفاة النبي على يد والي اليمن.

لقد كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - متيقناً واثقاً من أن الدولة الرومية التي تلاحظ اتساع رقعة النفوذ الاسلامي الصاعد، والتي رأت كيف أن رسول

-[تاريخ الطبري: ٢ / ٥١٤ - ٥١٦ .

(660)

الإسلام استطاع أن يقتلع جذور اليهودية من الحجاز، وفرض الجزية على فريق النصارى يدفعونها للحكومة الإسلامية، غاضبة لذلك أشدّ الغضب.

لقد كان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - منذ أمد بعيد يعتبر خطر الروم خطراً جدياً لا يمكن التغاضي عنه واحتقاره، ولهذا السبب نفسه وجه في السنة الثامنة من الهجرة جيشاً كبيراً قوامه ثلاثة آلاف بقيادة «جعفر بن أبي طالب» و «زيد بن حارث» و «عبد الله بن رواحة» إلى تخوم الشام حيث يسيطر الروم، وقد استشهد في هذه المعركة القادة الثلاثة، وقفل الجيش الاسلامي راجعاً إلى المدينة من دون انتصارات بتدبير من خالد بن الوليد.

وفي السنة التاسعة عندما بلغه نبأ استعداد الروم لمهاجمة الحجاز وهو آنذاك في المدينة خرج - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بشخصه على رأس جيش قوامه ثلاثون ألفاً إلى تبوك، وعاد من دون مواجهة إلى المدينة.

ولهذا كان هذا الخطر جدياً في نظر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

ومن هنا فانه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لما عاد من «حجة الوداع» إلى المدينة هياً جيشاً من المهاجرين والانصار اشرك فيه اشخاصاً معروفين بارزين مثل أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص و. و. وأمر بأن يشارك فيه كل من هاجر إلى المدينة خاصة.⁽¹⁾

ثم ان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لتحريك مشاعر المجاهدين عقد بيده ⁽²⁾لواء لأسامة بن زيد الذي أمره على ذلك الجيش. وقال له:

-[السيرة النبوية: ٢ / ٦٤٢، النص والاجتهاد: ١٢٠ .
-2 يذهب كتاب السنة إلى ان النبي عقد اللواء المذكور في ٢٦ صفر، وحيث إن وفاة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حسب روايتهم كانت في ١٢ ربيع الاول لهذا فان من الممكن ان تقع الحوادث التي سيأتي ذكرها مستقبلاً تدريجياً في مدة ١٦ يوماً، ولكن حيث إن الشيعة يرون تبعاً لمارواه عترة النبي ان وفاة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كانت في ٢٨ صفر لهذا يجب أن يكون عقد اللواء قدتمّ قبل ٢٦ صفر بمدة ليتمكن وقوع كل هذه الحوادث الكثيرة في هذه المدة.

(661)

«سير إلى موضع قتل أبيك فواطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش، فاغز صباحاً وشنّ الغارة على أهل أبنى.»⁽¹⁾

فاعطى «أسامة» اللواء إلى «بريدة» وعسكر بالجرف ⁽²⁾ليتحقق به جنود الإسلام أفواجاً أفواجا، وليتحرك الجميع في وقت واحد. لقد اختار رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لقيادة هذا الجيش شاباً في مقتبل العمر، وأمره على طائفة كبيرة من شيوخ الانصار والمهاجرين، ولقد أراد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من فعله هذا أمرين:

أولاً: أن يجبر - من خلال ذلك - مالحق من المصيبة بأسامة بسبب مقتل والده «زيد بن حارث» الذي استشهد في معركة مؤتة مع الروم، وليرفع من شخصيته.

ثانياً: أراد أن يؤكد قانونه في مجال التوظيف وتوزيع المناصب والمسؤوليات ويجعل ذلك على اساس الكفاءة والشخصية القيادية، ان المناصب والمسؤوليات الاجتماعية لا تحتاج إلى غير الكفاءات والمؤهلات ولا ترتبط بحال بالعمر والسن. لقد فعل النبي ذلك حتى يهيء الشباب الذين يتمتعون بالمؤهلات الكافية لتسلم المسؤوليات الاجتماعية الثقيلة ويعلموا أن المناصب والمهام - في النظام الاسلامي - ترتبط ارتباطاً مباشراً بالكفاءة والمؤهلات القيادية، لا العمر والسن.

ثم ان الإسلام الواقعي هو الانضباطية الشديدة والانقياد الكامل تجاه التعاليم الالهية السامية، والمسلم الحقيقي هو من ينفذ لتعاليم الله تعالى وأوامره وتعاليمه ويقبل بها من كل قلبه كجندي في ساحة القتال، سواء أكانت له فيها نفع أم لا، وسواء أكانت تضره أم لا، سواء أكانت مطابقة لأهوائه ومطامحه أم لا.

« 1-أبني» من مناطق اللقاء وتقع في الأراضي السورية وقرب مؤتة بين «عسقلان» و «الرملة».
2-منطقة واسعة على بعد ثلاثة أميال، مدينة من جانب الشام.

(662)

ولقد بيّن الامام عليّ - عليه السّلام - حقيقة الإسلام في عبارة موجزة ولكن بليغة ومعبرة إذ قال: «الإسلام هو التسليم»⁽¹⁾.

إن الذين يؤمنون ببعض تعاليم الإسلام دون بعض، كلما واجهوا مالا يوافق أهواءهم الباطنية منها اعترضوا عليه وحاولوا التملّص من المشاركة في تنفيذه بشتى المعاذير والحجج.

لاشك أن هذا الفريق يفتقر إلى روح الانضباطية، والتسليم الواقعي والانقياد الكامل الذي يمثل روح الإسلام وأساسه.

لقد كان تأمير قائد شاب يدعى «أسامة بن زيد» الذي لم يكن يتجاوز يومذاك - العشرين عاماً⁽²⁾ شاهد صدق على ما نقول، لأنّ تأميره على لفيف من الصحابة يكبرون عنه في العمر أضعافاً شقّ على البعض، لأنهم اعترضوا على الاجراء، وطعنوا في أسامة، واطلقوا عبارات تكشف جميعها عن افتقارهم لروح الانقياد والطاعة والتسليم الذي يجب أن يتحلّى بها الجندي المسلم تجاه قائد الإسلام الأعلى (النبي)، واوامره وتعييناته.

ولقد كان محور كلامهم هو أن النبي أمّر شاباً صغير السنّ على شيوخ من الصحابة⁽³⁾.

غفلوا عن المصالح والأهداف التي توخاها رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - من هذا الإجراء، وكانوا يقدرّون كل عمل بعقولهم الضيقة المحدودة، وقيسونه بمقاييسهم الشخصية.

فرغم أنهم لمسوا من قريب كيف أن النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - كان يحرص على تعبئة هذا الجيش وبعثه، ولكن عناصر مشبوهة أخّرت حركة الجيش المذكور

1- نهج البلاغة: قصار الحكم ١٢٥.
2- ذهب البعض مثل السيرة الحلبية إلى انه كان في السابعة عشر من عمره وذهب آخرون إلى انه كان في الثامنة عشرة من عمره.
المهم انهم اتفقوا على انه لم يتجاوز العشرين سنة.
3- الطبقات الكبرى: ٢ / ١٩٠.

(663)

من معسكر «الجرف» وتوجهه إلى النقطة المطلوبة، وكانت تسعى لعرقلة هذه المهمة.

وبعد يوم من عقد رسول - صلّى الله عليه وآله وسلم - اللواء لأسامة مرض - صلّى الله عليه وآله وسلم - بشدة وأصابه صداعٌ شديدٌ تركه طريح الفراش واستمر هذا المرض عدة أيام حتى قضى صلوات الله عليه.

وقد علم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في مرضه أنّ هناك من تخلف عن جيش أسامة وأن هناك من يعرقل توجهه نحو المنطقة التي عينها، وأن هناك بالتالي من يطعن في أسامة فغضب - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لذلك غضباً شديداً، وخرج وهو يلتحف قطيفة، وقد عصّب جبهته بعصابة إلى مسجده ليتحدث إلى المسلمين من قريب، ويحذرهم من مغبة هذا التخلف، فصعد المنبر على ما هو عليه من حمى شديدة وبعد أن حمد الله واثني عليه قال:

«أما بعد أيّها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، ولئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله وأيم الله كان للإمارة خليفاً وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإن كان لمن أحبّ الناس إليّ وإنهما لمخبلان لكل خير، واستوصوا به خيراً فإنه من خياركم.»

ثم نزل - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ودخل بيته واشتدت به الحمى، فجعل يقول لمن يعود من أصحابه:

«أنفذوا بَعَثَ أسامة.(1)»

ولقد بلغ من إصرار رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على بعث جيش أسامة انه كان يقول وهو في فراش المرض:

«جَهّزوا جيش أسامة، لعن الله من تخلف عنه.(2)»

وقد تسببت هذه التأكيدات في أن يحضر جماعة من المهاجرين والأنصار

- [الطبقات الكبرى: ٢ / ١٩٠ .
-2 الملل والنحل: ج ١ المقدمة الرابعة : ٢٣ .

عند رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - للتوديع والخروج عن المدينة تلقائياً والاتحاق بجيش أسامة في معسكره بالجرف .
وفيما كان أسامة يتهيأ للتوجه بجيشه إلى حيث أمر الرسول الكريم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بلغ بعض الصحابة الحاضرين في الجيش انباء عن تدهور صحة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فتسببت في عدولهم عن الحركة حتى كان يوم الاثنين، فحضر أسامة عند رسول - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليودّعه فرأى آثار التحسن بادية على ملامح النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .
فقال له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حاثاً إياه على المبادرة والمسارة في الخروج:

«أعدّ على بركة الله.(1)»

فعاد أسامة إلى المعسكر وأمر بالتحرك فوراً، ولكن الجيش لم يكن قد غادر «الجرف» بعد، حتى جاء نبأ من المدينة بأن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يحتضر، فعمد من كانوا يبحثون عن حجة للتخلف عن جيش أسامة، والذين حاولوا خلال ستة عشر يوماً أن يعرفوا توجهه بشتى المعاذير والحجج إلى التوسل هذه المرة بقضية احتضار النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وعادوا إلى المدينة فوراً، وعاد الجيش برمته هو الآخر إلى المدينة متجاهلين - جميعاً - أوامر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالخروج.

ولم يتحقق أحد آمال النبي الأكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في أيام حياته بسبب اللانضباطية التي ابداهها فريق من شيوخ القوم واعيان الجيش.

الإعذارُ غير المقبولة:

إن خطأ كبيراً كهذا ارتكبه بعض من تسلم أمور الخلافة بعد رسول الله

[1] الطبقات الكبرى: ٢ / ١٩٠.

(665)

- صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وسموا أنفسهم خلفاء النبي لايمكن أن يبرر أبداً.

ولقد أراد بعض علماء السنة أن يبرروا هذا التخلف بطرق ووجوه مختلفة لأنهم عجزوا - رغم ذلك - أن يُخرجوا عذراً مقبولاً ودليلاً مرضياً لاولئك المتخلفين عن جيش أسامة.

وللاطلاع على ماأثت لذلك من أعذار سقيمة راجع «المراجعات (1)» و«النص والاجتهاد» (2)»

الاستغفار لأهل البقيع:

كتب فريقٌ من اصحاب السيرة ان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خرج في الليلة التي توفي في صبيحتها مع أبي مويهبة خادمه إلى البقيع مع ما كان عليه من شدة الحمى والوجع ليستغفر لأهل البقيع (3)

ولكن المؤرخين الشيعة يرون ان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يوم أحس بالوجع اخذ بيد «علي» - عليه السلام - وخرج معه إلى البقيع وخرج خلفه جماعة فقال لمن خرج معه:

«إني أمرت أن استغفر لأهل البقيع.»

وعندما جاء البقيع سلم على أهل القبور هناك وقال:

«السلام عليكم أهل القبور ليُهنئكم ما أصبحتم فيه ممّا أصبح الناس فيه اقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضا يتبع آخرها أولها.»

ثم استغفر ودعا لأهل البقيع طويلاً ثم التفت إلى عليّ - عليه السّلام - وقال: يا عليّ إني خُبرت بين خزائن الدُّنيا والخلود فيها أو الجنة فاخترت لقاء ربّي والجنة. إن جبرئيل كان يعرضُ عليّ القرآن كلّ سنة مرّة وقد عرضهُ عليّ العام مرّتين ولا

-
- 1-المراجعة ٩٠ و ٩١.
2-ص ١٥ - ١٦.
3-الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٠٤.

(666)

أراه إلا لحضور أجلي.⁽¹⁾»

أنّ الذين ينظرون إلى الكون من المنظار المادي البحث ويحصرون كل الوجود في إطار المادة وآثارها، فالوجود عندهم يساوق المادة قد يتردّدون في قبول هذا الأمر، ويقولون: كيف يمكن مخاطبة الأرواح؟ وكيف يمكن الاتّصال بهم؟

كيف يمكن أن يعرف المرء بموته وأجله؟

ولكن الذين كسروا جدار المادية هذا واعتقدوا بوجود الروح المجردة عن البدن المادي العنصري لاينكرون مسألة الارتباط والاتّصال بالارواح⁽²⁾، ويعتبرونه امراً ممكناً وواقعياً.

ثم ان النبي الذي يتحلّى بالعصمة في مجال ارتباطه بعالم الوحي والعوالم المجرّدة من المادة، يمكنه - على وجه القطع واليقين - أن يخبر عن حلول أجله بأمر الله وإذنه وإخباره إياه.

-
- 1-بحار الأنوار: ٢٢ / ٤٦٦ و ٤٧٢، الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٠٤.
2-طبعاً نحن لانعرف بكل ما يدعيه ادعاء الاتّصال بالارواح فان لذلك طريقه الصحيح، وأسلوبه المشروع.

(667)

حوادث السنة الحادية عشرة من الهجرة

٦٤

الكتاب الذي لم يكتب

تُعَدُّ الأيام الأخيرة من حياة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من أكثر حقول التاريخ الإسلامي أهمية وحساسية ودقة.

لقد مرَّ الإسلام والمسلمون في تلك الأيام بساعات مؤلمة، وحرجة.

إن مخالفة بعض الصحابة الصريحة لأوامر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتخلّفهم عن جيش أسامة كلُّ ذلك كان يكشف عن نشاطات سرية تنبئ عن عزمهم المؤكّد على الاستيلاء على زمام الحكومة والإمارة والقيادة السياسية في المجتمع الإسلامي بعد رحيل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وإزاحة الخليفة الذي نصبه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الغدير للإمارة عن مسند الحكم.

ولقد كان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نفسه عارفاً بنواياهم على نحو الاجمال ولهذا كان يصرّ على خروج جميع أعيان الصحابة في جيش أسامة ومغادرة المدينة فوراً لمقاتلة الروم لكي يعطل بذلك خططهم.

ولكن دهاة السياسة اعتذروا عن الخروج مع أسامة بحجج ومعاذير معينة، لكي يستطيعوا تنفيذ خططهم بل وعرقلوا مسير الجيش المذكور حتى توفي رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

فعادوا إلى المدينة - بعد توقّف دام ١٦ يوماً - على أثر تدهور صحة النبي واحتضاره، فلم يتحقق ما كان يريده رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من تفرغ المدينة منهم، فلا يكون أحدٌ منهم فيها يوم وفاته ليستطيع خليفته المنصوب للإمارة

(668)

يوم غدِير خم (نعني الامام علياً) تسلّم زمان الحكم دون منازع ومزاحم من المعارضين السياسيين.

إنهم لم يكتفوا فقط بالعودة إلى المدينة بل حاولوا أن يحولوا دون أي عمل من شأنه أن يؤدي إلى دعم وتثبيت منصب الامام علي وخلافته لرسول الله بلافصل، فحاولوا منع النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وصرفه عن البحث في هذه المسألة بشتى الوسائل، والسبل.

فعمد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الذي عرف بنشاط بعض زوجاته من بنات بعض أولئك الصحابة، المشين، عمد إلى الخروج إلى المسجد مع ما كان عليه من الحمى والوجع، ووقف إلى جانب المنبر وقال للناس بصوت عال سُمع خارج المسجد:

«أيتها الناس سَعَرَت النار، وأقْبَلت الفتن كَقَطْع الليل المظلم، وإنّي والله ما تمسكون عليّ بشيء، اني لم أحلّ إلا ما أحلّ الله، ولم أحرم إلا ما حرّم الله.» (1)

إنّ هذه العبارة تكشف عن القلق الشديد الذي كان يحمله النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - على مستقبل الإسلام بعد وفاته، فما هو المقصود - تُرى - من النار التي سعرت؟

أليس هي فتنة الاختلاف والافتراق التي كانت تنتظر المسلمين، والتي اشتعلت بعد وفاة رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وتعالى لهيبتها، ولا يزال ذلك اللهيب مشتعلًا، وتلك النار مستعرة؟! -

إيتوني بقلم وقرطاس:

كان رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يعرف بما يجري من نشاطات خارج

[السيرة النبوية: ٢ / ٦٥٤، الطبقات الكبرى: ٢ / ٢١٥ و ٢١٦.]

(669)

منزله للسيطرة على الحكم، ولهذا قرر بغرض الحيلولة دون انحراف مسألة الخلافة من محورها الأصلي والحيلولة دون ظهور الاختلاف والافتراق - أن يدعم مكانة عليّ ويعزز امارته وخلافته وخلافة أهل بيته وذلك بأن يثبت الأمر في وثيقة حيّة وخالدة تضمن بقاء الخلافة في خطها الصحيح.

من هنا يوم جاء بعض الصحابة لعيادته اطرق برأسه إلى الارض ساعة ثم قال بعد شيء من التفكير وقد التفت اليهم:

«إيتوني بدواة وصحيفة اكتب لكم كتاباً لاتضلون بعده.»

قبادر عمر وقال: ان رسول الله قد غلبه الوجع، حسبنا كتابُ الله.(1)

فناقش الحاضرون رأي الخليفة، فخالفه قومٌ وقالوا: هاتوا الدواة والصحيفة ليكتب النبي ما يريد، وناصر آخرون عمرَ وحالوا دون الاتيان بمطالبه النبي، ووقع تنازع بينهم وكثر اللغط فغضب رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بشدة لتنازعهم ولما وجّه إليه من كلمة مهينة، وقال:

«قُومُوا عني لاينبغي عندي التنازع»

قال ابنُ عباس بعد نقل هذه الواقعة المؤلمة المؤسفة: «الرزية كلُّ الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله.(2)»

إن هذه الواقعة التاريخية قد نقلها فريق كبير من محدثي الشيعة والسنة ومؤرخيهم وتعتبر روايتها - حسب قواعد فنّ الدراية والحديث - من الروايات المعتبرة الصحيحة غاية مافي الأمر ان اغلب محدثي أهل السنة نقلوا كلام «عمر» بالمعنى لابللفظ، ولم يورد نص الكلمات الجارحة النابية التي نطق بها في ذلك

[1] الملل والنحل: ج ١ المقدمة الرابعة ص ٢٢. طبعاً لم يكن الهدف من «اكتب» أن يكتب النبي بيده ذلك الكتاب فالنبي لم يكتب شيئاً في حياته أبداً كما هو مبحوث في ابحاث أمية النبي بل المقصود هو الإملاء على كتاب.
2- صحيح البخاري كتاب العلم: ١ / ٢٢ و ١٤ / ٢، صحيح مسلم: ١٤ / ٢، مسند أحمد: ١ / ٣٢٥، الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٤٤، الملل والنحل: ١ / ٢٢.

(670)

المجلس المقدس.

ولا يخفى أن الإحجام عن نقل نص عبارته ليس لأجل أن العبارات التي تفوه بها تعدّ إهانة لمقام النبوة، بل ان هذا التصرف لأجل الحفاظ على مقام الخليفة ومكانته حتى لايسيء الآخرون النظرة إليه إذا عرفوا بما قاله في حق رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - .

من هنا عندما بلغ أبو بكر الجوهري مؤلف كتاب «السقيفة» في كتابه إلى هذا الموضوع من القضية قال عند نقل كلام عمر هكذا: وقال عمر كلمة معناها أن الوجع قد غلب على رسول الله.⁽¹⁾

ولكن بعضاً آخر عندما يريد نقل مقاله الخليفة لايصرّح باسمه حفظاً لمقامه فيقول: فقالوا: هجر رسول الله.⁽²⁾

إن من المسلم أن مثل هذه العبارة الجارحة النابية لو صدرت عن أي شخصية مهما كان مقامها لعدّت ذنباً لا يُغتفر لأن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بنص القرآن مصونٌ من أي نوع انواع الخطأ والاشتباه والهديان فهو لاينطق إلا بالوحي.

إن اختلاف الصحابة لدى رسول الله الطاهر المعصوم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وفي محضره كان عملاً سيئاً، ومشيناً إلى درجة أن احدى أزواجه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - اعترضت على هذه المخالفة وقالت من وراء حجاب: ألا تسمعون النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يعهدُ اليكم؟ إنثوا رسول - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بحاجته.

فقال عمر: اسكنن فانكن صويحبات يوسف. إذا مرض عصرئث اعينكث. وإذا صح أخذئث بعنقه.⁽³⁾

[1] شرح نهج البلاغة الحديدي: ٢ / ٢٠.
2- صحيح مسلم: ١ / ١٤، مسند أحمد: ١ / ٣٥٥.
3- كنز العمال: ٣ / ١٣٨، الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٤٤. وفي الطبقات: ان النبي قال (في الرد على عمر) هُنَّ خيرٌ منكم.

ان بعض المتعصبين وان التمسوا لمخالفة الخليفة لطلب النبي أعذاراً⁽¹⁾ في الظاهر إلا أنهم خطأوا كلامه الذي قال فيه «حسبنا كتاب الله»، واعتبروه كلاماً غير صحيح، وصرّحوا جميعاً بأن الركن الاساسي للاسلام هو السنة النبوية، ولا يمكن أن يغني كتاب الله الامة الإسلامية عن احاديث رسول الإسلام - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واقواله.

ولكن الاعجب من كل ذلك أن الدكتور «هيكل» مؤلف كتاب «حياة محمّد⁽²⁾» ضمن دفاعه عن الخليفة كتب يقول: ما فتى ابن عباس بعدها يرى أنهم أضاعوا شيئاً كثيراً بأن لم يسارعوا إلى كتابه ما أراد النبيّ إملأه. أما عمر فظنّ ورأيه أن قال الله في كتابه الكريم: «ما فرطنا في الكتاب من شيء⁽³⁾»

فلو أنه لاحظ ما قيل هذه الجملة القرآنية وما بعدها لما فسرها بمثل هذا التفسير، ولما أيد الخليفة في مقابل نص النبي المعصوم المطاع، لأن المقصود من الكتاب في الآية هو الكتاب التكويني، وصفحات الوجود، فان لكل نوع من الانواع في عالم الوجود صفحة من كتاب الصنع، وتشكل كل الصفحات غير المعدودة كتاب الخليفة والوجود واليك نص الآية:

«وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أُمَّتَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ.»⁽⁴⁾

وحيث أن ما قبل الجملة التي استدل بها يرتبط بخلقة الدواب والطيور، ويرتبط ما بعدها بموضوع الحشر في يوم القيامة يمكن القول بصورة قاطعة بان المراد من الكتاب في الجملة المستدل بها والذي لم يفرط فيه من شيء هو الكتاب التكويني، وصفحة الخلق.

-1[رد العلامة المجاهد السيد شرف الدين في كتاب المراجعات المراجعة ٨٦ جميع هذه الاعذار بصورة رائعة.
-2حياة محمّد: ص ٥٠١.
-3الانعام: ٣٨.
-4الانعام: ٣٨.

ثم اننا لو قبلنا بأن المقصود من الكتاب هو القرآن الكريم فان من المسلم أن فهم هذا الكتاب - وبحكم تصريحه - يحتاج إلى بيان النبي وهديته كما يقول: «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم.»⁽¹⁾

تأمل في هذه الآية فانها لا تقول «لنقرأ» بل تقول بصراحة: «لتبين.»

وعلى هذا الاساس إذا كان كتاب الله كافياً لم نحتاج إلى توضيح النبي وبيانه احتياجاً شديداً.⁽²⁾

ولو كان حقاً أن الأمة الإسلامية لاتحتاج إلى النبي فلماذا كان حبر الأمة وعالمها الكبير ابن عباس يقول: يوم الخميس وما ادراك ما يوم الخميس ثم جعل تسيل دموعه حتى رؤيت على خده كأنها نظام اللؤلؤ وقال: قال رسول الله ايتوني بالكنف والدواة أو اللوح والدواة اكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً... فقالوا.(3) ...

فمع هذا الحزن الذي كان يبديه ابن عباس، مضافاً إلى الاصرار الذي أظهره رسول الله كيف يمكن القول بان القرآن يغني الأمة الإسلامية من هذه الوصية (أو الكتاب) الذي كان النبي يريد كتابته.

والآن إذا كان النبي لم يوفق لكتابة الكتاب واملائه فهل يمكن ان نحدس - في ضوء القرائن القطعية - ماذا كان ينوي النبي كتابته في هذه الرسالة؟

ماذا كان الهدف من الكتاب؟

إن الطريقة الجديدة والقويمة في تفسير القرآن الكريم التي اصبحت اليوم موضع عناية المحققين والعلماء في هذا العصر هو رفع إبهام الآية واجمالها في موضوع معين بواسطة آية أخرى تتحدث عن الموضوع ذاته ولكنها أوضح من الاولى

- [النحل: ٤٤ .

-2 ان بيان مدى حاجة القرآن إلى بيان النبي خارج عن نطاق هذا الكتاب، فاطلبه في محله.
-3مسند أحمد: ١ / ٣٥٥، صحيح البخاري: كتاب الجزية: ٤ / ٦٥ و ٦٦ .

(673)

دلالة ومفاداً، وبعبارة أخرى الاستعانة في تفسير آية بآية أخرى.

إن هذه الطريقة لاتختص بتفسير آيات القرآن بل تنسحب على الأحاديث والروايات الإسلامية أيضاً إذ يمكن رفع الاجمال عن حديث بحديث مشابه، لأن القادة الكبار يتحدثون في موضوع مهم وخطير بصورة مؤكدة ومكررة لاتتشابه ولاتتحد في دلالتها، فقد تكون دلالتها على الآية واضحة وقد يكون بيان المقصود فيها بالاشارة والكناية حسب مقتضيات.

قلنا ان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - طلب من اصحابه وهو في فراش المرض دواة وصحيفة يملئ عليهم شيئاً لا يضلون بعده أبداً ثم تسبب التنازع الذي حدث بين الحاضرين في ان ينصرف من كتابة ما اراد.

يمكن أن يسأل سائل: ماذا كان يريد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كتابته في ذلك الكتاب ؟

إن الإجابة على هذا السؤال واضحة لأنه مع أخذ الأصل الذي ذكرناه في مطلع البحث بنظر الاعتبار يجب القول بأن هدف النبي لم يكن إلا تعزيز الوصية ودعم خلافة الامام أمير المؤمنين عليّ - عليه السّلام - وإمرته والتأكيد على لزوم اتباع أهل بيته الذي صرح به النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - في الغدير وغيره.

و هذا المطلب يستفاد من حديث الثقلين المتفق عليه بين محدثي السنة والشيعية، لأن النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - قال في شأن الكتاب الذي نوى كتابته: انه يبتغي كتابة شيء لا يضلون بعده أبداً. وقد جاءت هذه العبارة بعينها في حديث الثقلين إذ يقول رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - معتبراً عدم الضلال بعده معلولاً لاتباع الكتاب والعترة إذ قال:

«إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيّتي.»⁽¹⁾

1- صحيح الترمذي: ٥ / ٣٢٨ ح ٣٨٧٤، جامع الاصول: ١ / ١٨٧، راجع المراجعات: المراجعة: ٨.

(674)

ألا يمكن بعد ملاحظة هذين الحديثين والتشابه الموجود بينهما الحدس - بصورة قطعية - بان ما كان يهدفه رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - من طلب الدواة والصحيفة هو مفاد كتابة حديث الثقلين، أو ما هو أعلى ممّا يفيد حديث الثقلين وهو تعزيز ودعم ولاية الامام عليّ - عليه السّلام - وخليفته مباشرة وبلا فصل وهو الذي عيّنه للإمامة والخلافة في الثامن عشر من شهر ذي الحجة عند مفترق طرق الحجاج المدنيين والعراقيين والمصريين والحجازيين وأعلن عن ذلك بصورة شفاهية.

هذا مضافاً إلى أن مخالفة من شكّل شورى الخلافة في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - ورشح رفيقه القديم للخلافة بصورة خاصة بعد رحيل رسول الله إلى ربّه، وحصل هو بدوره على أجرته عند موت الأول بصورة نقدية وعيّنه للخلافة خلافاً لجميع القواعد والاصول، خير شاهد على أن القرائن التي كانت في مجلس النبي وكلامه كانت تكشف عن أن النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - كان يريد أن يملي على كاتبه امراً يتعلق بخلافة المسلمين والإمامة والقيادة التي اثبتتها لعلي وأهل بيته الطاهرين في احاديثه وخطبه.

ولهذا خالف القوم الحضور هذا المطلب بشدة وحالوا دون الاتيان بالقلم والقرطاس بوقاحة، وخالفوا كتابة شيء، وإلا فلماذا أصرّوا على المخالفة... وارتكبوا ما ارتكبوا.

لماذا لم يصرّ النبي في كتابة الكتاب؟

كان في إمكان رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - رغم معاكسات جماعة من أصحابه أن يطلب كاتبه ويكتب الكتاب الذي كان يريد، فلماذا لم يتصرف هكذا، ولم يستغل مكانته القويّة بل امتنع عن ذلك؟

إن الإجابة على هذا السؤال واضحة: فلو أن النبي كان يصرّ على كتابة الكتاب لأصرّوا في الإساءة إلى النبي الذي قالوا عنه انه غلبه الوجع أو هجر،

(675)

ولعمد أنصارهم إلى اشاعة وبتّ هذا الأمر الرخيص، وصنعوا لاثباته الافاعيل فكانت تتسع رقعة الاساءة إلى رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - في هذه الحالة وتستمرّ، فتفقد الرسالة أثرها المنشود.

من هنا عندما قال البعض للنبي - ملافاة لما لحق به من الأذى - : ألا نأتيك بدواة وكتف يا رسول الله؟ فقال:

«أبعد الذي قلت؟ لا ولكنّي أوصيكم بأهل بيتي خيراً»⁽¹⁾»

ملافاة الأمر وتداركه:

إن مخالفة بعض الصحابة الصريحة وإن صرفت النبي عن الكتابة إلا أنه بلّغ مقصوده من طريق آخر، فهو - بشهادة التاريخ - بينما كان يعاني من المرض، والوجع الشديدين، خرج إلى المسجد وهو متوكئ على «عليّ بن أبي طالب» و «ميمونة» مولاته فجلس على المنبر ثم قال:

«يا أيّها الناسُ إني تاركٌ فيكم الثقلين.»

وسكت، فقام رجل فقال: يا رسول الله ما هذان الثقلان؟ فغضب حتى احمرّ وجهه ثم سكن، قال:

«ما ذكرتهما إلا وأنا أريد أن أخيركم بهما ولكنّ ربوتُ فلم استطع، سببُ طرفه بيدالله، وطرفُ بايديكم، تعملون فيه كذى، ألا وهو القرآن، والنقل الأصغر أهل بيتي.»

ثم قال:

«وأيّم الله إني لأقولُ لكم هذا ورجالٌ في اصلاّب أهل الشرك أرجى عندي من كثير منكم.»

ثم قال:

[1-بحار الانوار: ٢٢ / ٤٦٩، نقلًا عن الارشاد واعلام الورى.

(676)

«و الله لا يحبهم عبدٌ إلا أعطاه الله نوراً يومَ القيامة حتى يرد عليّ الحوض، ولا يبغضُهُم عبدٌ إلا احتجب الله عنه يوم القيامة.(1)»

هذا وقد روى ابن حجر العسقلاني تدارك مافات بصورة أخرى، ولا تنافي بين الصورتين، إذ يمكن وقوع كليهما.

انه يقول: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لاصحابه وقد امتلأت بهم الحجرة وهو في مرضه الذي قبض فيه:

«أيها الناس يوشك أن أقبض قبضاً سريعاً، فینطلق بي، وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم ألا آتي مخلفٌ فيكم كتاب الله ربي عزوجلّ وعترتي أهل بيتي.»

ثم أخذ بيد علي - عليه السلام - فقال:

«هذا عليٌّ مع القرآن والقرآن مع علي، خليفتان نصيران، لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض فاسألُهُما ماذا خلّفت فيهما.(2)»

فمع أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ذكر حديث الثقلين (3) قبل مرضه في مواضع متعددة وبألفاظ مختلفة، ولفت نظر الناس إلى أهمية هذين الثقلين، ولكنه لفت الأنظار مرة أخرى وهو في فراش المرض أمام جمع من اصحابه الذين حالوا دون كتابة ما اراد إلى عدم افتراق القرآن والعتره يمكن الحدس بأن الهدف من التكرار هو تدارك مافات من كتابة الكتاب الذي لم يُوفق لكتابته.

-[1]بحار الأنوار: ٢٢ / ٤٧٦ «نقلًا عن مجالس المفيد: ٧٩.»
-2[الصواعق المحرقة: الباب ٩ من الفصل الثاني ص ٥٧ وكشف الغمة: ص ٤٣.
-3[حديث الثقلين من الروايات المتفق عليها بين الشيعة والسنة وقد نقل عن الصحابة باكثر من ٦٠ طريقاً كما يقول ابن حجر العسقلاني في الصواعق ص ١٣٦، وقد خصص المرحوم مير حامد حسين الهندي قسماً من موسوعته «العبارات» بذكر اسناد حديث الثقلين ودلالته. وقد طبعت في سنة أجزاء مؤخرًا.

تقسيم الدنانير:

دأب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في مجال بيت المال أن يوزع امواله في أقرب فرصة سانحة بين الفقراء والمحتاجين.

وعندما كان في فراش المرض تذكر أن هناك دنانير عند إحدى زوجاته فطلبها فوراً، فاحضرتها عنده فاحذها - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بيده وقال:

«ماظنُّ محمّد بالله لولقي الله وهذه عنده؟ انفقها.»

ثم أمر علياً - عليه السلام - فتصدّق بها.(1)

غضب النبي من الدواء الذي سقي:

لما كانت أسماء بنت عميس وهي من قريبات «ميمونة» زوجة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وأُتِيَتْ اقامت أيام الهجرة زمناً في الحبشة تعلّمت من أهلها صنع عقار مركب من النباتات والاعشاب المختلفة، فلما اشتكى وأغمى عليه تصورت ان الذي دهاه هوداء: «ذات الجنب»، وكانوا في الحبشة يداورون هذا المرض بذلك العقار، فعمدت إلى معالجته بذلك الدواء، بصّب شيء منه في فم النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ولما أفاق وعرف بما صنعوا غضب وقال:

«ما كان الله ليسيّط عليّ ذات الجنب»⁽²⁾»

وداع النبي مع أصحابه:

خرج رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في أيام مرضه إلى مسجده مراراً يصلّي بالناس، ويذكرهم أموراً.

وذات يوم من أيام مرضه أخرج إلى مسجده معصوب الرأس متكئاً على

1- الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٣٨ و ٢٣٩.

2- الطبقات: ٢ / ٢٣٥.

(678)

«علي - عليه السّلام - بيمنى يديه وعلى الفضل باليد الأخرى فصعد المنبر فحمدالله واتنى عليه ثم قال:

«أما ايها الناس فان قد حان مني خُفوقٌ بين اظهركم فمن كانت له عندي عدة فليأتني أعطه اياها، ومن كان له عليّ دين فليخبرني

به.»

فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله ان لي عندك عدة، اني تزوجت فوعدتني ان تعطيني ثلاثة أواق.

فقال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - انحلها يا فضل ثم نزل وعاد إلى بيته.

فلما كان يوم الجمعة - ثلاثة ايام قيل وفاته - صعد المنبر فخطب وقال فيما قال:

«أيُّ رجل كانت له قبيل محمّد مظلمة إلأقام فالقصاص في دار الدنيا أحبّ إليّ من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة

والاشهاد.»

فقام إليه رجلٌ يقال له سواده بن قيس فقال: انك لما اقبلت من الطائف استقبلتك وانت على ناقتك العضباء وبيدك القضيب المشقوق

فرفعت القضيب وانت تريد الراحلة فاصاب بطني.

فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لبلال: قم إلى منزل فاطمة فأنطني بالقضيب المشوق.

ان طلب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - هذا بان يقتصر منه من له ذلك لم يكن مجرد مجاملة اخلاقية بل كان - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يريد ان يبينه الناس إلى أهمية مثل هذه الحقوق جداً⁽¹⁾ ولما أتى بالقضيب إلى رسول الله قال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :
- ابن الشيخ؟ قال سواده: هاانذا يارسول الله بابي انت وأمي، فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - :

1- هذا مضافاً إلى ضرب بطن سواده بالقضيب من قِبَل النبي لم يكن عمداً ولهذا لم يكن له الحق إلا في اخذ الدية دون القصاص، مع ذلك أراد النبي أن يبيي طلبه لما قال أريد ان اقتص.

(679)

«فاقتص مني حتى ترضى.»

فقال سواده: فاكشف لي عن بطنك.

ثم انه وسط دهشة الصحابة وحنينهم وغمهم وبكائهم تقدم سواده إلى النبي وقال: اتأذن لي ان اضع فمي على بطنك؟ فاذن له، فقال اعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله، وقَبِلَ بطن النبي وصدرة الشريف. فدعا له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال:

اللهم اعف عن سواده بن قيس كما عفا عن نبيك محمد⁽¹⁾.

1- مناقب آل أبي طالب: ١ / ٢٣٥.

(680)

٦٥

اللحظات الأخيرة

كان القلق والاضطراب يلفئ المدينة المنورة بأسرها فصحابة النبي يحيطون ببيت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بعيون باكية وقلوب حزينة ليطلعوا على صحته، وكانت تخرج من منزله بين الحين والآخر أخبار عن اشتداد مرضه، وتفاقم وجعه، لتقضي على كل أمل بتحسّن حالته، وتجعل الناس على يقين بانه لم يبق من حياة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلا سويغات قلائل، وانه سرعان ما تنطفئ الشعلة المقدسة، التي أنارت العالم بضياتها.

كان فريق من الصحابة يودون أن يزوروا نبيهم وقاندهم من قريب ولكن تدهور صحته ماكان ليسمح بذلك، فلم يكن من الممكن ان يتردد على غرفته إلا أهل بيته خاصة.

ولقد كانت ابنته الكريمة ووديعته الوحيدة فاطمة الزهراء - عليها السلام - جالسة عند فراش ابيها، تنظر إلى وجهه المشرق كانت ترى كيف ان عرق الموت يتحدر على جبينه وخده مثل حبات اللؤلؤ، فراحت تردد أبياتا من الشعر وقلبا يعترضه الحزن، ويملاً عيونها دموع الاسى والحزن ويكاد تخنقها الغصة:

وَ أبيضُ يُستسقى الغمُّمُ بوجهه * ثمالُ اليتامى عصمةٌ للارامل

وفي هذه اللحظات بالذات فتح رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عينيه وقال لابنته الزهراء بصوت خافت:

يا بنيّة هذا قول عمّك أبي طالب لاتقوليه ولكن قلولي

(681)

(وَ ما مُحَمَّدٌ إِلا رَسولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفأَنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلى أَعقابِكُمْ وَ مَنْ يَنقَلِبْ عَلى عَقبِهِ فلنْ يَصُرَ اللهُ شَيناً وَ سيجزي اللهُ الشَّاكِرِينَ.⁽¹⁾)

النبي يتحدث مع ابنته الزهراء:

لقد كشفت التجربة عن ان عواطف الشخصيات الكبرى تجاه ابنائهم تتضاءل اثر تراكم النشاطات وتزايد الاهتمامات والهموم، لأنّ الاهداف الكبرى، والاهتمامات العالمية تشغل بالهم وفكرهم إلى درجة لا تترك لهم مجالاً لمشاعرهم العاطفية بالظهور والتجلي، بيد أنّه يُستثنى الشخصيات الروحانية والمعنوية الكبرى من هذه القاعدة فهم مع ما يشغل بالهم من الاهداف الكبرى، والاهتمامات العالية، والشواغل اليومية الكثيرة يمتلكون روحاً كبرى ونفسية طيبة سامية فلا يمنعهم عملٌ عن آخر، ولا يشغلهم شغلٌ عن آخر، فلا مكان للضمور العاطفي عندهم، ولا مكان للجمود الاحساسى في حياتهم الاجتماعية والعائلية.

إن محبة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لابنته الوحيدة فاطمة كانت من ابرز التجليات العاطفية الانسانية في شخصية النبي الاكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ولهذا لم يُعهد أن يسافر رسول الله من دون أن يودع ابنته، كما لم يُعهد أن يرجع إلى المدينة من دون ان يزور ابنته قبل أي أحد، كما كان يحترمها عند زوجاته احتراماً لانقأ بها ويقول لاتباعه:

«فاطمةُ بَضعةٌ مِنّي فمن أَعْضَبها أَعْضَبني.»⁽²⁾

كما أن رؤية فاطمة كانت تذكره بأشد نساء العالمين طهراً ووفاءً، وعظماً ولطفاً، (خديجة) التي تحملت في سبيل أهداف زوجها المقدس متاعب كبيرة،

1- إمام عمران: ١٤٤.
2- صحيح البخاري: ٥ / ٢١.

(682)

وبذلت ثروتها كلها في سبيل تلك الأهداف باخلاص ورغبة.

كانت فاطمة الزهراء - عليها السلام - تلازم فراش والدها النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - طوال أيام مرضه، ولا تفارقه لحظة واحدة، وفجأة أشار النبي إلى ابنته يطلب منها ان تقرب رأسها إلى فمه ليحدثها، فانحنت فاطمة حتى صار رأسها قريباً من فمه الشريف ثم راح النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يحادثها بصوت ضئيل ولم يعرف من كان هناك ماذا قاله رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لابنته الطاهرة في تلك النجوى.

وانما شاهدوا الزهراء تبكي بشدة لما انتهى والدها من حديثه وسالت دموعها بغزارة، ولكنهم شاهدوا ان النبي اشار اليها مرة أخرى وحدثها بشيء فسرت فاطمة وتهللت اسارير وجهها، وتبسمت مستبشرة.

فأثارت هاتان الحالتان المتضادتان المتزامنتان الحضور وبعثتهم على التعجب والدهشة، فلما سألوها عن سر ذلك الحزن، وهذه الفرحة، وطلبوا منها ان تذكر لهم علة هاتين الحالتين المتضادتين قالت:

«ما كنت لأفشي سره.»

ثم بعد أن قضى رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كشفت الزهراء - عليها السلام - عن الحقيقة بناء على اصرار عائشة وقالت: اخبرني رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - انه قد حضر اجله وانه يُقبض في وجعه هذا، فبكيت، ثم اخبرني أني أول اهله لحوقاً به فضحك⁽¹⁾.

مسواك النبي قبيل وفاته:

كان رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يستاك كل ليلة قبل النوم كما كان يستاك بعد ان يستيقظ من نومه وكان مسواك النبي من شجرة الأراك التي تنفع

[1] الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٤٧، الكامل: ٢ / ٢١٩.

جداً في تقوية اللثة، وإزالة الاوساخ وبقايا الطعام عن الاسنان.

و ذات يوم دخل اخو عائشة عبد الرحمان على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ليعوده ويديه سواك اخضر فنظر النبي إليه - وهو في يده - نظراً عرف أنه يريد فقال عبد الرحمان: يا رسول الله تريد أن أعطيك هذا السواك؟ فقال نعم فقدمه إلى النبي فوراً

فاخذه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - واستاك به أحسن استياك، ونظف اسنانه به بدقة وعناية بالغة⁽¹⁾.

وصايا النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

قبيل رحيله:

كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خلال فترة مرضه ووجعه يولي إعطاء التعاليم والتذكير بما فيه هداية الناس اهتماماً بالغاً، فقد كان يوصي بالصلاة ورعاية الرقيق في الايام الاخيرة من حياته الشريفة ويقول:

«الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم، ألبسوا ظهورهم وأشبعوا بطونهم وألبسوا لهم القَوْل⁽²⁾»

وقد سأل كعب الاحبار عمر بن الخطاب بعد وفاة رسول الله وفي ايام خلافة الأخير ما كان آخر ماتكلم به رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقال عمر: سئل علياً فسأل علياً - عليه السلام - :

فقال امير المؤمنين - عليه السلام - :

«أسندته إلى صدري فوضع رأسه على منكبي فقال: الصلاة الصلاة.

فقال كعب: كذلك آخر عهد الأنبياء وبه امروا وعليه يبعثون⁽³⁾.

وقد فتح النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عينيه في آخر لحظة من حياته الشريفة وقال:

1- الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٣٤، السيرة النبوية: ٢ / ٦٥٤.

2- الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٥٤.

3- الطبقات الكبرى: ح ٢ ص ٢٦٢.

«أدعوالي أخي.»

فعرّف الجميع بأنه يريد علياً - عليه السلام - فدعوا له علياً فقال:

«أدُنْ مِنِّي.»

فدنا منه عليّ - عليه السّلام - فاستند إليه فلم يزل مستنداً إليه يكلمه.(1)

فلم يلبث أن بدت عليه - صلّى الله عليه وآله وسلم - علامات الاحتضار.

سأل رجلٌ ابن عباس: هل توفّي رسول الله في حجر أحد قال: توفي وهو لمستند إلى صدر عليّ.

فقال السائل: قلت: فإن عائشة قالت: توفّي رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - بين سحري ونحري.

فكذبها ابن عباس وقال: أتعقل؟ والله لتوفّي رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - وأنه لمستند إلى صدر عليّ وهو الذي غسله،

وأخي الفضل بن عباس.(2)

وقد صرح أمير المؤمنين عليّ - عليه السّلام - في إحدى خطبه حيث قال:

«وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي... وَلَقَدْ وُلِيتُ غَسَلَهُ وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي.(3)»

وينقل بعض المحدثين أن آخر جملة قالها رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - في آخر لحظة من حياته الشريفة هي جملة: «لا،

إلى الرفيق الأعلى»، وكأنّ ملك الموت خيره عند قبض روحه الشريفة في أن يصح من مرضه ويبقى أو يلبي دعوة ربّه، ويلتحق

بالرفيق الأعلى، فعبر بجملته هذه عن رغبته في اللحاق بربه، ليعيش مع الذين أشار إليهم قوله سبحانه:

«فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ

1- الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٦٣.

2- المصدر: ٢ / ٢٦٣.

3- نهج البلاغة: الخطبة ١٩٧.

(685)

وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا.(4)»

قال النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - هذا ولفظ أنفاسه الشريفة.(2)

يوم الوفاة:

في منتصف يوم الاثنين الثامن والعشرين من شهر صفر (3) طارت روح النبي الأكرم المقدّسة إلى بارئها، وإلى جنان الخلد فسجّئ

ببُرد يمانيّ، ووضع في حجرته بعض الوقت، وارتفعت صرخات العيال، وعلا بكاء الأقارب فعرف من كان في خارج المنزل أن

النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد قضى، فلم يلبث أن انتشر نبأ وفاته في كل أنحاء المدينة التي تحولت بسرعة إلى مناحة كبرى، ومآتم عظيم.

فصاح الخليفة الثاني خارج البيت ولاسباب خاصة أن النبي لم يمُتْ إنما عُرج بروحه كما عُرج بروح موسى، وأنه لايموت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - !وأصرَ على هذا الموقف وهَدَّدَ كلَّ من يخالف ذلك، وكاد أن يوافق عليه فريقٌ من الناس لولا أن أحدَ الصحابة تلا عليه قولل الله سبحانه:

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ.)

حتى فرغ من الآية، فسحب عمر موقفه، مستغرباً من وجود مثل هذه الآية قائلاً: هذا في كتاب الله؟(4)

ثم قام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عليه السَّلام - بتغسيل جسد النبي الطاهر وكفنه لأن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان قد قال: «يغسلني أقرب

1- النساء: ٦٩.

2- إلام الوري: ص ٨٣.

3- وهو ما اتفق عليه محدثو الشيعة ومؤرخوهم، ونقل في السيرة النبوية: ٢ / ٦٥٨ بصورة: قيل.

4- الطبقات الكبرى: ٢ / ٢٦٧.

الناس إلي» ولم يكن ذلك سوى علي - عليه السَّلام - .

ولما فرغ «علي» من تغسيل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كشف الازار عن وجهه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال والدموع تنهمر من عينيه الشريفتين:

«بأبي أنت وأمي يا رسول الله!!، لقد انقطع بموتك مالم ينقطع بموت من النبوة والانباء. ولولا أنك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشون وكان الداء مماطلاً، والكمد محالفاً وقلاً لك، ولكنّه مالايمك رده ولايستطاع دفعه! بأبي أنت وأمي أدكُرنا عند ربك، واجعلنا من بالك؟(1)»

ثم ان الامام أمير المؤمنين «علي بن أبي طالب» - عليه السَّلام - كان أول من صَلَّى على جثمان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثم صَلَّى عليه المسلمون جماعة جماعة، ثم تقرر دفعه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في حجرته المباركة.

فقام أبو عبيدة الجراح وزيد بن سهل بحفر قبر له - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وإعداده ثم دُفِنَ - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في تلك الحفرة على يد أمير المؤمنين علي - عليه السَّلَام - يساعده في ذلك الفضل والعباس.

وهكذا غربت شمس أعظم شخصية غيّرت مسار التاريخ البشري بتضحياته الكبرى وجهوده المضنية، واعظم رسول الهي فتح امام الإنسانية صفحات جديدة ومشرقة من الحضارة والمدنية.

ولكن ظهرت على الساحة برحيله مشكلات عديدة كان لها أثرٌ في استمرار رسالته، ومواصلة أهدافه التي من اهمها مسألة الخلافة وموضوع القيادة في المجتمع الاسلامي وقد بدت بعضُ بوادر الاختلاف في الاوساط الإسلامية حتى قبل رحيله.

غير أن هذا القسم وإن كان قسماً مهماً وخطيراً من تاريخ الإسلام، فهو

-[نهج البلاغة: الخطبة رقم ٢٣٥].

(687)

خارج عن اطار بحثنا هذا (وهو دراسة وتحليل الشخصية المحمدية وحياة النبي الرسالية والسياسية والعسكرية). من هنا فاننا نختم حديثنا هذا بالشكر لله تعالى على هذه النعمة الكبرى، والحمدلله رب العالمين.⁽¹⁾

قم المقدسة - الحوزة العلمية

جعفر السبجاني

شعبان المعظم ١٣٩٠ هـ

-[ثم تدوين هذه المحاضرات وتوثيقها وتحقيقها في شهر شعبان المعظم عام ١٤٠٩ هجرية في مدينة قم والحمد لله رب العالمين. جعفر الهادي

(688)

(689)

الفهارس

- 1- فهرس الآيات القرآنية
- 2- فهرس الاحاديث الشريفة
- 3- فهرس الأشعار
- 4- فهرس الأعلام
- 5- فهرس القبائل والامم
- 6- فهرس الكنى والألقاب
- 7- فهرس الوقائع والايام
- 8- فهرس الاماكن والبلدان
- 9- فهرس المذاهب والأديان ونظم الحكم
- 10- فهرس الموضوعات العلمية المبحوثة ضمناً
- 11- فهرس المصادر
- 12- فهرس المواضيع

(690)

(691)

(١)
فهرس الآيات القرآنية

البقرة - ٢

الآية رقمها الصفحة

فأينما تولوا فثم وجه الله ١١٥ ٢٠١

سيقول السفهاء ما ولأهم عن قبيلتهم ١٤٢ ٥١

وما جعلنا القبلة التي كنت عليها ١٤٣ ٤٩

وما كان الله ليضيع إيمانكم ١٤٣ ٥٠

قد نرى تقلب وجهك في السماء ١٤٤ ٤٨

ومن الناس من يشري نفسه ٢٠٧ ١١٣

يسألونك عن الشهر الحرام ٢١٧ ٤٠

يسألونك عن الخمر والميسر ٢١٩ ٢١٨

وإثمهما أكبر من نفعهما ٢١٩ ٢٢٠

آل عمران - ٣

قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون.. ١٢ ١٢٢

قد كان لكم آية في فتنتين التقتا.. ١٣ ٩٦

إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم.. ٥٩ ٦٠٤

فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم.. ٦١ ٦٠٤

فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم.. ٦١ ٤٠٥

قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء ٦٤ ٦٠١

وإذ غدوت من أهلك تبوّئ المؤمنين

مقاعد للقتال ١٢١ ١٥١

ولقد نصركم الله ببدر وانتم أذلة.. ١٢٣ - ١٢٧ ٩٠

وما محمد إلا رسول قد خلت من

قبله الرسل ١٤٤ ١٦٣،٦٨١،٦٨٥

إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ١٥٢ ١٦٣

وطائفة قد أهمتهم أنفسهم.. ١٥٤ ١٦٢

إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ١٥٥ ١٦٣

النساء-٤

ولا تقربوا الصلاة وانتم سكارى ٤٣ ٢١٩،٢٢١،٢٢٣،٢٢٥

ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب ٥١ ٢٤٩

إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات ٥٨ ٤٩٨

فأولئك مع الذين انعم الله عليهم ٦٩ ٦٨٤

المائدة-٥

أليوم اكملت لكم دينكم.. ٣-١ ٦٥٣

إذهب أنت وربك فقاتلا ٢٤ ٦٢

من أحيائها فكأنما أحييا الناس جميعاً ٣٢ ١٢٧

ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا

اليهود والنصارى ٥١-٥٣ ١٢٦

ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ٦٧ ٦٤٧

يأيتها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر.. ٩٠ ٢١٩

إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر ١١٠ ٣٨٠

الأنعام - ٦

ومامن دابة في الأرض ولا طائر يطير

بجناحيه.. ٣٨ ٦٧٧

الأعراف - ٧

قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها ٣٣ ٢٣٠

فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ٤٤ ٨٣

(693)

الأنفال - ٨

كما أخرجك ربك بالحق ٥ ٦٢

يجادلونك في الحق بعد ماتبين كأنما

يساقون.. ٦ ٦٢

إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ٩ ٩٦

فتبئوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين

كفروا ١٢ ٩٨

إذ يغشاكم النعاس أمنة منه.. ١١-١٢ ٩٦

ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ١٣ ٩٨

يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ٢٧ ٢٨٧

إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصتوا ٣٦ ١٣٦

إذ انتم بالعدوة الدنيا ٤٢-٤٣ ٩٥

ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ٤٢ ٩٧

وإذ يريكموهم إذ النقيتم في أعينكم قليلاً ٤٤ ٩٧

ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم ٤٧ ٩٨

وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ٤٨ ٩٨

يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى ٧٠ ٩٥

وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل ٧١ ٩٥

وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين ٨٧ ٦٨

التوبة - ٩

أجعلتم سقاية الحاج وعمارة

المسجد الحرام ١٩ ١١٣

والذين اتخذوا مسجداً ضراراً ١٠٧-١٠٨ ٥٨٠

لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ٢٥ ٥١٤

إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً ٣١ ٥٥٠

هو الذي أرسل رسوله بالهدى ٣٣ ٣٥٥

ومنهم من يقول إنن لي ولاتفتني ٤٩ ٥٥٥

(694)

ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ٦٥ ٥٧٤

وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم ٨١ - ٨٢ ٥٥٥

ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ٩٢ ٥٥٧

فتولوا واعينهم تفيض من الدمع ٩٢ ٥٥٦

وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا.. ١٠٢ ٢٨٧

حتى إذا ضاقت الأرض عليهم بما رحبت ١١٨ ٥٧٧

يوسف - ١٢

قالوا نالله لقد آثرك الله علينا ٩١ ٤٧٩

قال لا تثريب عليكم اليوم ٩٢ ٤٧٩ و٤٩٦

النحل - ١٦

وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ٤٤ ٦٧٢

ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه

سكراً ٦٧ ٢١٨

من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ٩٨ ٥٣١

وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ١٢٦ ١٨٣

الإسراء - ١٧

وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ... ٢٦ ٤٢٣

مريم - ١٩

يَرْتَبِي وَيُرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ٦ ٤٢٨

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ٧١ ٤٢٨

الحج - ٢٢

أَنْ لِلَّذِينَ يِقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ٣٩ ٥٦

النور - ٢٤

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْأُفْكَ عَصَبَةٌ مِنْكُمْ ١١ ٣١٦ و٣١٨

لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ ١٢ - ١٤ ٢١٩

وَأَنْكَحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ ٣٢ ١٠٠

(695)

وَلَا تَكْرَهُوا قِتْيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ٣٣ ٣١٣

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ٦٢ ٤٨ و٤١ و٥٤

النمل - ٢٧

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ١٦ ٤٢٨

القصص - ٢٨

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادِكَ ٨٥ ٤٩٥

العنكبوت - ٢٩

وإن جاهداك لتشرك بي ١٧ ٨

الروم - ٣٠

يخرج الحي من الميت ٣١ ١٤٨

الأحزاب - ٣٣

ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله.. ٩ - ٢٥ ٢٧٦

بيوتنا عورة... ١٣ ٢٨٧

وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب... ٢٦ - ٢٧ ٢٩٥

إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ٣٣ ٤٢٥ و٦٠٧

وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله... ٣٦ - ٣٧ ٢٣٢

وتخفي في نفسك ما الله مبديه ٣٧ ٢٤٣

فلما قضى زيد منها وطراً ٣٧ ٢٤٣

ما كان على النبي من حرج فيما فرض

الله له... ٣٨ - ٣٩ ٢٣٦ و٢٤٤

ما كان محمد اباً أحد من رجالكم ٤٠ ٢٣٦

سبأ - ٣٤

وما أرسلناك إلا كافة للناس ٢٨ ٣٥٥

يس - ٣٦

لينذر من كان حياً ويحق القول ٧٠ ٣٥٥

* * *

(696)

الفتح - ٤٨

إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ١ ٣٤٨

ليس على الأعمى حرج ١٧ ١٤٧

لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك ١٨ ٣٣٤

ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الاديبار ٢٢ ٣٤٧

لقد صدق الله رسوله الرؤيا ٢٧ ٤٣٧

الحجرات - ٤٩

ياأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي رسول الله ١ ٤٧٦

ياأيها الذين آمنوا إن جاكم فاسق بنياً ٦ ٣١٢

الحشر - ٥٩

هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ٢ ٢١٤

ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة ٥ ٢١٢

مأفأء الله على رسوله من أهل القرى ٧ ٢١٣

ألم ترَ إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم ١١ - ١٤ ٢١٢

الممتحنة - ٦٠

ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي ٦ - ٩ ٤٧٥

يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ ١٠ ٣٥١

أَنْ لَا يَشْرِكَنَّ بِاللَّهِ ١٢ ٥٠٧

القلم - ٦٨

وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٥٢ ٣٥٥

العاديات - ١٠٠

والعاديات ضبجاً * فالموريات قدحاً ١ - ٢ - ٤٥٩

النصر - ١١٠

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ... ١ - ٣ - ٥٤٥

(697)

(٢) فهرس الأحاديث الشريفة

نصّ الحديث القائل الصفحة

أبَا وَهَبٍ هَلْ لَكَ الْعَامُ تَخْرُجُ مَعَنَا (النبي) ٥٥٤

أَنْسَمُونَ قَاتِلَكُمْ ثُمَّ تَحْلِفُونَ عَلَيْهِ (النبي) ٤١٨

أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ مِنَ الرِّجَالِ عَلِيٌّ (النبي) ١٢٠

أَخْبَرُوا مَالِكًا أَنَّهُ إِنْ أَتَانِي مُسْلِمًا (النبي) ٥٣٢

أَخْرَجُوا مِنْ بِلَادِي فَقَدْ أَجَلْتَكُمْ عَشْرًا (النبي) ٢٠٩

أَخْرَجَهَا مِنَ الْعَسْكَرِ ثُمَّ صَحَّ وَارْمَهَا (النبي) ٣٩٥

أَدْعُو إِلَيَّ أَخِي (النبي) ٦٨٤

إِذْ فَنُوتُوا هَذِينَ الْمُتَحَابِّينَ فِي قَبْرِ وَاحِدٍ (النبي) ١٨٤

إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ كَفُّوا فِرْجَهُ (النبي) ١٠٣

إِذْ هَبْ يَا عَبَّاسُ إِلَى رَحْلِكَ (النبي) ٤٨٣

أَذْهَبَتْ مِنْكَ الرَّحْمَةُ (النبي) ٤٠٩

ارْجِعَا حَتَّى تَأْتِيَانِي غَدًا (النبي) ٣٦٨

إِرْجِعْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ (النبي) ١٨٧

أَرْسَلْتَهُ كِرَارًا غَيْرَ فِرَارٍ (النبي) ٤٥٧

إِرْكَبْ فَإِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ عِنْدَكَ رَاضِيَانِ (النبي) ٤٥٩

إِسْتَفْتِ يَا أُمَّ عِمْرَانَ (النبي) ١٧٧

إِسْتَوْصُوا بِالْأَسَارِيِّ خَيْرًا (النبي) ٨٧

(698)

أَسْنَدْتَهُ إِلَى صَدْرِي فَوَضَعُ رَأْسَهُ

عَلَى مَنْكَبِي (علي) ٦٨٣

السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ هَمْدَانَ (علي) ٦٢٧

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْقُبُورِ (علي) ٦٦٥

إِشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَيَّ مِنْ دَمِي وَجْهَ نَبِيِّهِ (علي) ١٧٩

أَكْرَمُوا أَوْلَادَكُمْ (النبي) ٥٩٦

الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانَكُمْ (النبي) ٦٨٣

الصلاة بأهل البيت (النبي) ١٠٩

اطلبوا العلم ولو بالصين (النبي) ١٣٢

اغزوا باسم الله وادعوهم إلى الاسلام (النبي) ٤٤٠

اغذُ على بركة الله (النبي) 664

الحمد لله الذي صدق وعده (النبي) ٤٩٥

الحمد لله الذي وفق رسول الله (النبي) ٥٣٩

الحمد لله ونستعينه ونؤمن به (النبي) ٦٤٧

ألا إن كل مال ومأثرة ودم في الجاهلية (النبي) ٥٠٣

ألا ترضون يامعشر الاوس (النبي) ٢٨٩

الله أعلى وأجل (النبي) ١٨٠

الله أكبر ابشروا يامعشر المسلمين (النبي) ٢٥٨

الله أكبر خربت خيبر (النبي) ٣٩٢

الله مولانا ولا مولى لكم (النبي) ١٨١

ألستم تشهدون أن لا اله إلا الله (النبي) ٦٤٨

ألم انهكم ان يخرج منكم أحد (النبي) ٥٦٤

اللهم انتني بأحب خلقك اليك (النبي) ١١٥

اللهم اجمع شملهما وألف بين قلوبهما (النبي) ١٠٨

اللهم ارحم الانصار وابناء الانصار (النبي) ٥٣٦

اللهم إن تهلك هذه العصابة (النبي) ٧٩

(699)

اللهم إنزل عليهم رجسك (النبي) ١٨٦

اللهم إنك اخذت مني عبيدة (النبي) ٢٦٤

اللهم إنك قد عرفت حالهم (النبي) ٣٦٥

اللهم اني أبرأ اليك ممّا صنع خالد (النبي) ٥٠٨

اللهم أني اسألك الأمن يوم الخوف (النبي) ١٨٦

اللهم أني اسألك كله (النبي) ١٨٥

اللهم اهد قبله وثبت لسانه (النبي) ٦٢٦

اللهم بارك لقوم جل أنيتهم الخزف (النبي) ١٠٦

اللهم خذ على قريش أبصارهم (النبي) ٤٧١

اللهم خذ العيون والاعبار عن قريش (النبي) ٤٧١

اللهم رب السماوات وما اظللن (النبي) ٣٩٠

اللهم هؤلاء أهل بيتي (النبي) ٤٠٥

اللهم هذه قريش قد أقبلت (النبي) ٧٢

اللهم وال من والاه (النبي) ٦٤٨

إيّ يافلان إيّ يافلان أنا رسول الله (النبي) ١٤٦

اليوم يوم الرحمة (النبي) ٤٩٧

أما أنت فقد عذرك الله (النبي) ١٤٧

أما أيها الناس فانه قد حان حقوق مني (النبي) ٦٧٨

أما بعد أيها الناس مامقالة بلغتني (النبي) ٦٦٣

أما والذي نفسي بيده لقد تدلى العذاب (النبي) ٦٠٧

أما مالي وبني عبد المطلب فهو لكم (النبي) ٥٣٠

أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم (النبي) ٥٣٥

أمك أمك اعصب جرحها (النبي) ١٧٧

أحب اهلي الي فاطمة (النبي) ١١٩

ان أحببت فاقيمي عندنا محببة (النبي) ٥٣١

(700)

أنا أحق بذلك منك (النبي) ١٣٠

أنا النبي لاأكذب... (النبي) ٥١٩

إننا لم نجئ لقتال أحد ولكننا

جننا معتمرين (النبي) ٣٢٩

أنا لم نرض (النبي) ٣٤٣

أنت بالخيار فيه اربعة عشر (النبي) ٥٠٦

أنت خليفتي في أهل بيتي (النبي) ٥٥٨

إنطلق فطف بالبيت (النبي) ٦٣٢

أنظروا إلى ما امرتكم به (النبي) ١٤٥

ان بالمدينة لاقواماً (النبي) ٥٧٥

إن حسن التبعل يعدل ذلك كله (النبي) ١٧٦

أن ربي قد قتل ربكما ليلة كذا وكذا (النبي) ٣٦٨

إن رجلاً قال هذا محمد يخبركم أنه نبي (النبي) ٥٦٥

إن رسول الله كان يغير الأسماء الفبيحة... (الصادق) ٥٤٤

إنكم ستلقون ربكم فيسألكم (النبي) ٦٣٥

إن الله إختار من أهل الارض رجلين (النبي) ١١٨

إن الله أمرني ان اعرض عنهم (النبي) ٥٧٤

إنما أنت فينا رجل فخذل عنا (النبي) ٢٧٣

إنه لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك (النبي) ٥٩١

إنها مشية يبغضها الله إلا... (النبي) ١٥٢

إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم (النبي) ٦٤٦

إنني أمرت ان استغفر لأهل البقيع (النبي) ٦٦٥

إنني تارك فيكم الثقلين. (النبي) ٦٤٨-٦٧٣

إنني رأيت العرب رمتكم (النبي) ٢٧١

أو ما بلغك ما قال صاحبكم (النبي) ٣٠٨

أوحى الله تعالى إلى رسول الله إن

أولئك العصاة (النبي) ٤٧٦

أتوني بقلم وقرطاس (النبي) ٦٦٨

أتوني بدواة وصحيفة (النبي) ٦٦٩

أي رجل الحصين بن سلام فيكم (النبي) ٢٩

أي عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر (النبي) ٥٢٦

أيكم يبرز إلى عمرو وأضمن له الجنة (النبي) ٢٦٣

أين علي؟ إيتوني بعلي (النبي) ٣٩٨

أيها الناس إسمعوا قولي (النبي) ٦٣٤

أيها الناس أما بعد فإن أصدق الحديث (النبي) ٥٦٠

أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان (النبي) ٦٠٠

أيها الناس إن كل ربا موضوع (النبي) ٦٣٦

أيها الناس سعرت النار واقبلت الفتن (النبي) ٦٦٨

أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم نخوة (النبي) ٥٠١

أيها الناس إن الله قد بعثني رحمة (النبي) ٣٥٦

أيها الناس إن هذا عدو الله وعدوكم (النبي) ٤٥٥

أيها الناس لاتشكوا علياً (النبي) ٦٣٣

أيها الناس والله مالي في فيئكم (النبي) ٥٣٣

أيها الناس يوشك أن أقبض (النبي) ٦٧٦

بئس ماجزيتها (النبي) ٣٠٢

بارك الله في ابنة رسول الله... (النبي) ١٠٨

بارك الله عليكم من أهل بيت (النبي) ١٧٨

برز الايمان كله إلى الشرك كله (النبي) ٢٦٤

بسم إله إبراهيم واسحاق ويعقوب (النبي) ٦٠١

بل نترفق به ونحسن صحبته (النبي) ٣١٠

بل هو الرأي أنظر لنا منزلاً بعيداً (النبي) ٣٩٣

(702)

تأخوا في الله (النبي) ١٩

تزوجوا فاني مكاتر بكم الامم (النبي) ١٠١

جهزوا جيش أسامة (النبي) ٦٦٢

خذها يا ابن ابي طلحة تالدة (النبي) ٤٩٩

خير رجالكم علي بن ابي طالب (النبي) ١١٥

خير نسايتكم فاطمة بنت محمد (النبي) ١١٥

رأيت الملائكة تغسل حنظلة (النبي) ١٤٩

دعه عنك فانه جاء تأثباً (النبي) ٥٤٠

دعوها فانها منتنة (النبي) ٣٠٥

رحم الله اباذر يمشي وحده (النبي) ٥٦٦

رحم الله امرئ أراهم اليوم من نفسه قوة (النبي) ٤٣٥

رحم الله سعداً نصرنا حياً... (النبي) ١٨٤

سلمان منا أهل البيت (النبي) ٢٥٣

ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة

التقلين (النبي) ٢٦٧

علي أحبهم إلى وأحبهم إلى الله (النبي) ١١٦

علي خير البشر فمن أبي فقد كفر (النبي) ١١٦

علي خير من اتركه بعدي (النبي) ١١٥

علي مني بمنزلة الرأس من بدني (النبي) ١١٦

علي مني بمنزلة من ربي (النبي) ١١٦

علي مني وأنا معه وهو ولي كل مؤمن (النبي) ١١٦

غيب عني وجهك فلا ارينك (النبي) ١٧٥

فاطمة بضعة مني فمن اغضبها فقد اغضبني (النبي) ٦٨٢

فاين البعيران اللذين غيبتهما بالعقيق (النبي) ٣١١

فان الله سيجعل لك مخرجاً (النبي) ٣٤٩

فاقتص مني حتى ترضى (النبي) ٦٧٩

فكيف يا عمر إذا تحدث الناس ان محمداً يقتل (النبي) ٣٠٧

فلذلك الجمل لايمضي (النبي) ١٨٩

فلم لاتحل وقد أمرت من لم يسق (النبي) ٦٣١

فو الذي بنفسي لمناديل الجنة أحسن (النبي) ٥٧١

قد اجرنا من أجرت وأمنا من أمنت (النبي) ٥٠٥

قد استعملتاك على هؤلاء نفر (النبي) ٣٠٨

قد علمتم موضعي من رسول الله (علي) ٢٢٥

قد فعلت فلا تعجلي بخروج (النبي) ٥٤٨

قوموا إلى سيدكم (النبي) ٢٩٠

قوموا عني لاينبغي عندي التنازع (النبي) ٦٦٨

كنا إذا أحمر البأس اتقينا برسول الله (علي) ١٦٨ و ٧٢

كذبتم، يمنعكم من الإسلام ثلاث (النبي) ٦٠٤

كذبوا، ولكنني خفتك لما تركت (النبي) ٥٥٩

كيف ترى يا عمر، اما والله لوقتلته (النبي) ٣١٠

لأمتل به فيمثل الله بي وان كنت نبياً (النبي) ٩٢

لاجد ما احملكم عليه (النبي) ٥٥٦

لاإنما رحمه (النبي) ٥٩٦

لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً (النبي) ٣٩٩

لاتخرجوا معي الا راغبين في الجهاد (النبي) ٣٨٨

لاتدعوني قريش اليوم إلى خطبة.. (النبي) ٣٢٨

لا تغفلوا آل جعفر (النبي) ٤٥١

لا تقتلوه فهذا الاعمى أعمى القلب.. (النبي) ١٤٦

لا تكلمن أحد من هولاء (النبي) ٥٧٧

لا حاجة لي بهما، اما ابن عمي (النبي) ٤٧٩

لا خير في دين لاصلاة فيه (النبي) ٥٨٦

(704)

لا سواء قتلتنا في الجنة وقتلكم في النار (النبي) ١٨١

لأعطين الراية غداً (النبي) ٣٩٧

لا عليكم ان لا تمنعوه لعل الله يرزقه

الشهادة (النبي) ١٤٧

لا تعيش إلا تعيش الآخرة (النبي) ٢٥٢

لكن حمزة لا يواكي له (النبي) ١٨٦

لكن ربي أمرني باعفاء لحيتي وقص شاربي (النبي) ٣٦٧

لكنني ما اكره والله ان اهريق دمك (علي) ٢٦٤

لانبرح حتى نناجر القوم (النبي) ٣٣٤

لاندخلها إلا كذلك (النبي) ٤٣٢

لا ولكن نهيت عن خمش وجوه (النبي) ٥٩٩

لايحتج محتج منك في مخالفته (النبي) ٥٣٨

لايذهب بها إلا رجل مني وانا منه (النبي) ١١٧

لحمك لحمي ودمك دمي والحق معك (النبي) ١١٧

لقد تيب على ابي لبابة (النبي) ٢٨٧

لو أمرت به ما استشرتكم فيه (النبي) ٥٦٩

لو كنت استقبلت من امري ما استديرت (النبي) ٦٣١

ما أنتم باسمع لما اقول منهم (النبي) ٨٣

ما أجد لك شيئاً أمثل من ان تقوم (النبي) ٤٦٨

ماذا تقولون وماذا تظنون (النبي) ٤٩٦

ماذكر لي رجل بفضل من العرب (النبي) ٥٤٤

ما ظن محمد بالله لو لقي الله هذه عنده (النبي) ٦٧٧

مالي أراك يا عمر محرماً (النبي) ٦٣٠

ما كان الله ليسلط علي ذات الجنب (النبي) ٦٧٧

مالهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار (النبي) ١٣

مامن نبي إلا وله نظير في أمته (النبي) ١١٧

- ماينبغي لنبي إذا لبس لامته أن (النبي) ١٤٥
- المؤمن لايلدغ من جحر مرتين (النبي) ١٩٤
- من أحب ان يلقى الله طاهراً مطهراً (النبي) ١٠١
- من ارادت ان تباع فلتدخل يدها (النبي) ٥٠٧
- من جاءهم منا فابعده الله (النبي) ٣٤٠
- من دخل دار ابي سفيان فهو آمن (النبي) ٤٨٤
- من دخل تحت لواء ابي رويحة فهو آمن (النبي) ٤٨٩
- من شاء منكم ان يأخذ بطن الوادي (النبي) ٥٧٣
- من لم يقل علي خير الناس فقد كفر (النبي) ١١٦
- من ياخذ هذا السيف بحقه (النبي) ١٥٣
- من محمد رسول الله إلى كسرى (النبي) ٣٦٥
- من محمد بن عبد الله إلى المقوقس (النبي) ٣٧٠
- من محمد رسول الله إلى الحارث بن ابي شمر (النبي) ٣٨٢
- من محمد رسول الله إلى هوزة بن علي (النبي) ٣٨٢
- من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب (النبي) ٦٥٧
- تشدتكم بالله هل فيكم احد قتل (علي) ١٥٦
- نصرت ياعمرو بن سالم (النبي) ٤٦٦
- هاك مفتاحك ياعثمان (النبي) ٤٩٨

هذا ما صالح عليه رسول الله (النبي) ٣٣٦

هذا ما كتب النبي محمد رسول الله لنجران (النبي) ٦٠٨

هل أخزاكم الله وانزل عليكم نعمته (النبي) ٢٨٣

همت اليهود... (النبي) ٢٠٨

هو لكم لا تأكل ثمن الموتى (النبي) ٢٦٧

(706)

وانك لهند بنت عتبة (النبي) ٥٠٨

وأيم الله اني لأقول لكم هذا (النبي) ٦٧٥

وردنا مع رسول الله خبير (علي) ٤٠٨

وعندي السيف الذي اعرضته (علي) ٧٧

وكان مني في ذلك ما على الله عز وجل ثوابه (علي) ١٧١

والله لا يحبهم عبد إلا أعطاه الله (النبي) ٦٧٦

والله وما اردت بهذه إلا الفتنة (علي) ٦٤٤

والله ما أنا امرت بذلك ولكن الله أمر بسد ابوابكم (النبي) ٢٠

والله ما يسرني يا علي أن لي (النبي) ٥١١

والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم (النبي) ٧٩

والذي نفس محمد بيده ان شملته (النبي) ٤١١

وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر (النبي) ٤٧٤

ومن اغلق بابيه فهو آمن (النبي) ٤٨٥

ومن يطبق ما تطيقن يام عمارة (النبي) ١٧٧

ويح ابن سمية...انما تقتلك الفئة الباغية (النبي) ١٣

ويحك إذا لم يكن العدل عندي (النبي) ٥٣٤

ويحك اسلم واشهد ان لاله إلا الله (النبي) ٤٨٢

ويحك يا ابا سفيان الم يأن لك (النبي) ٤٨٢

يا أهل القليب بنس عشيرة النبي (النبي) ٨٣

يا أنصار الله وانصار رسوله (النبي) ٥١٨

يا أيها الناس أوصيكم بما أوصاني الله (النبي) ١٥٢

يا أيها الناس إنني تارك فيكم الثقلين (النبي) ٦٧٥

يا علي إصعد على منكبي (النبي) ٤٩٤

يا علي أنك أبيت أن تمحو اسمي (النبي) ٣٣٨

يا علي لا تقاثلن أحداً حتى تدعوه إلى الاسلام (النبي) ٦٢٦

(707)

يا علي لولا أنني أشفق أن تقول طوائف (النبي) ٤٥٩

يا عمرو انك كنت تقول في الجاهلية (علي) ٢٦٥

يامن حضر أشهد هذا ان زيدا ابني (النبي) ٢٣١

يامعشر الأنصار مامقالة بلغتني عنكم (النبي) ٥٣٥

يامعشر المسلمين الله الله أبدوى الجاهلية (النبي) ٣١

يامعشر يهود احذروا من الله (النبي) ١٢٢

ياويح قريش لقد أكلتهم الحرب (النبي) ٣٢٧

يسرولا تعسر وبشر ولا تنفر (النبي) ٦٢٥

يفتح الله على يديه (النبي) ٤٠٣

(708)

(٣) فهرس الأشعار

أتبكي أن يضلّ لها بعير ٩١

إذ يهتدون بجعفر ولوأنه ٤٤٣

إذا استقبلت وجه أبي تراب ١١٢

إذا متّ فادفنيّ إلى جنب كرمة ٢١٨

أصبح وجه الزمان قد ضحكا ٤٢٤

أعلي تقتحم الفوارس هكذا ٢٧٠

اليوم يوم الملحمة ٤٩٦

إلى الله أشكو غربتي ثم كربتي ٢٠١

أمن أم أوفى دمنة تكلم ٥٣٩

أنا الذي سمّنتي أمي حيدرة ٤٠٠

أنا الذي عاهدني خليلي ١٥٤

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ٥٤١

بيضاء تسحب من قيام شعرها ١٠٥

حسدوا الفتى إذا لم ينالوا فضله ١١٣

خأوا بني الكفار عن سبيله ٤٣٣

سيرن بعون الله جاراتي ١٠٨

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا ٤٤٣

قد عملت خبير أني مرحب ٤٠٠

(709)

كأدت وبيت الله نار محمد ٥٥٦

لئن قعدنا والنبي يعمل ١٢

لاتعجلن فقد أتاك مجيب ٢٦٤

لايستوي من يعمر المساجد ١٣

لعمرك أني يوم أحمل راية ٤٨٠

لكني أسأل الرحمان مغفرة ٤٤١

لو أن عندي يا ابن حرب جعفرا ٤٤٢

لو كان قاتل عمرو غير قاتله ٢٧٠

ما أن رأيت ولا سمعت بمثله ٥٣٢

نحن بنات طارق ١٥٧

وابيض يُستسقى الغمام بوجهه ٦٨٠

وصعود غارب أحمد فضل له ٤٩٥

وعاش أبو ذرّ كما قلت وحده ٥٦٧

وما أنسَ لانس اللذين تقدما ٣٩٧

ولقد بجحت من النداء ٢٦٣

والله لولا الله ما اهتدينا ٣٧٧

ياحبذا الجنة واقترابها ٤٤٦

يارب اني ناشد محمداً ٤٦٥

ياطلح إن كنتم كما نقول ١٥٦

يناديهم رسول الله لما ٨٤

يناديهم يوم الغدير نبيهم ٦٥٤

(710)

(٤) فهرس الأعلام

- أ -

اربذ (العامري) ٦٢٣

أزهر ٣٤٨

أذرم ٥٦٩، ٥٧٠.

أرشه تونك (الدكتور) ٢١٦.

أبان بن سعيد بن العاص ٣٣٣.

إبراهيم بن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - 542، 596، 597، 598، 599.

إبراهيم الخليل (النبي) ٤٩، ٣١٥، ٣٢٢، ٣٢٥، ٥٦١، ٥٩٩، ٦٠٢، ٦٢٨، ٦٣٠.

ابن أبي أحمد ١٦٤.

ابن أبي الحديد ٩٤، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٠، ١٧٨، ١٩٤، ٢٦٥، ٣٩٧، ٤٢٣، ٤٢٦، ٤٨٧.

ابن أبي الحقيق ٢٩٧.

ابن أبي سبرة ١٦٢، ١٦٤.

ابن الأثير ٣٧، ٤٧، ١٣٥، ١٧٠، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٦٨، ٢٦٩، ٣٢١، ٣٦٠، ٣٩٣، ٤٠٤، ٤٤٢، ٥١١، ٦٠٥.

ابن اسحاق ٧، ١٣، ٣٤، ٣٦، ٧٠، ٢٦٨.

ابن أم مكتوم ١٢٨، ١٩٢، ٢١١، ٣٠٠.

ابن بابويه ١٠٧.

ابن تيمية (الحراني) ٢٦٨، ٢٦٩.

(711)

ابن جرير ٢٤٠.

ابن حجر العسقلاني ٣٢٢، ٣٦٧، ٦٥٢، ٦٧٦.

ابن حذيفة ٧٦.

ابن الجوزي ٢٠.

ابن خلكان ٦٥.

ابن روضة ٤١٥، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٣، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠.

ابن سعد (صاحب الطبقات) ٧١، ١٨٩، ٢٠٥، ٣٨٩، ٤٣٨، ٤٩٨.

ابن سلامة ٤٥٠، ٥٢٧، ٥٣٤، ٥٧٣، ٦٢٢.

ابن سهيل ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤.

ابن شماس ٢١٤.

ابن طلحة ١١٢.

ابن عباس ١٥٥، ٦٦٩، ٦٧١، ٦٧٢، ٦٨٤، ٦٨٦.

ابن عبدربه ١١٢.

ابن العرندس ٤٩٥.

ابن عقدة ٦٥٢.

ابن العوام ٤٩٣.

ابن كثير الشامي ١٦، ١٧، ٢٠، ٥١٢.

ابن قميئة اللبيني ١٦٦، ١٧٦.

ابن مزاحم ١٤.

ابن مسعود ٦١، ١١٦.

ابن مسلمة (محمد) ٤٣، ١٣٣، ١٦٤، ٢٠٩، ٣٩٢، ٤٠٢، ٤٠٤، ٤١٠، ٤٣٢، ٤٩٣، ٥٥٨.

ابن هشام ٧، ١٣، ١٩، ٣٤، ٤٥، ٤٧، ٥٨، ٦٠، ٨٣، ١٣٠، ١٦١، ١٦٢، ١٧٢، ١٩٨، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢١١، ٢٢٧.

٢٤٦، ٢٦٨، ٢٨٩، ٢٩٣، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٦، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٤٨، ٣٨٩، ٣٩٦.

400، 401، 404، 414، 444، 472، 473، 480، 504، 519، 523، 527، 618.

ابن واضح الاخباري ٣٦٦.

أبي بن خلف ١٦٥.

أحمد بن حنبل ١٥، ١٦، ١٧، ٨٤، ١٠٩، ١١٣، ٣٦٦، ٤٩٥، ٦٦٢، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧٢.

أحمد بن ابي خيثمة 4.٢٢

الاحنس بن شريق ٣٤٨.

اريد ٦٢٣، ٦٢٤.

أرمي بن الاصم ٣٨١.

اساف (صنم) ٤٩٣.

اسامة بن زيد ١١٥، ١٤٥، ٣١٩، ٤٩٤، ٦٤٣، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٦٧.

اسراقيل (الدكتور) ٢٤٩.

اسكندر المقدوني ٣٥٦.

إسماعيل (الني) ٦٠٢.

الاسود الثقفي ٥٨٧.

الاسود بن عبد الاسد المخزومي ٧٥، ٧٦.

الاسود بن كعب ٦٥٦، ٦٥٨، ٦٥٩.

الاسود بن المطلب ٩٠، ٩١.

أسيد بن حضير ١٢، ١٨٦، ٢٦٢، ٣٠٨، ٣٢١، ٥٢٠.

الأقرع بن حابس ٥٣٠.

أكيدر بن عبد الملك ٥٧٠، ٥٧١

أمية بن خلف ٣٧، ٥٧، ٥٨، ٨١، ٨٣، ٨٩.

أمية بن المغيرة ٤٧٨.

(713)

أنس بن مالك ١٠٩، ١١٥، ١١٨، ١٦١، ١٦٢.

انس بن النضر ١٦١، ١٦٢، ١٦٣.

أنو شيروان ٢٦٤، ٣٧٥.

-(ب)-

بازان ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩.

بجير بن زهير ٥٣٩، ٥٤٠.

بديل بن ورقاء ٣٢٨، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٨١، ٤٨٢.

بريدة ١١٥، ١١٦، ٣٠٤، ٦٦١.

البراء بن عازب ٦٢٦.

بشير بن البراء بن معرور ٤١٦.

بشير بن سفيان ٤٨٦.

بلال بن الحارث ٤٨٦.

بلال الحبشي ٨١، ١٠٤، ٤٠٩، ٤٣٤، ٤٩٣، ٤٩٧، ٦٧٨.

- (ت) -

ثودوز الكبير ٣٥٧ .

- (ث) -

ثابت بن أرقم ٤٤٧ .

ثابت بن قيس ٢١٤ ، ٢٩٤ .

ثمالة الثقفي ٥٣٢ .

- (ج) -

جابر بن عبد الله الانصاري ١٨٨ ، ٣٠٠ ، ٥٩٢ .

جبار (العامري) ٦٢٣ ، ٦٢٤ .

جبرائيل (المأك) ٢٠ ، ٥٢ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٨٣ ، ٤٥٥ ، ٤٧٢ ، ٥٩٢ ، ٥٩٧ ، ٦٤٧ ، ٦٦٥ .

جدّ بن قيس ٥٥٤ .

(714)

جذيمة بن عامر ٥٠٩ .

جعفر بن أبي طالب ١٠٨ ، ٢٢٢ ، ٢٩٨ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٦٤٢ ، ٦٦٠ .

جعفر الصادق (الامام) ١٢٦ ، ١٣٨ ، ٣٤٧ ، ٥٤٤ .

جميع بن عمير ١١٧ .

جندب بن زهير ١١٥ .

جهجاه بن مسعود ٣٠٥ .

- (ح) -

الحارث بن أبي شمر الغساني ٣٥٩، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٥٢٩.

الحارث بن أبي ضرار ٣٠٤.

الحارث بن الحارث ٥٣٣.

الحارث بن زمعة ٩٠، ٩١.

الحارث بن عمير الأزدي ٤٣٩.

الحارث بن الصمة ١٦٥، ٢٠٥.

الحارث بن طلال ٤٩٠.

الحارث بن هلال ٥٠٤، ٥٢٣.

الحارث (أخو مرحب) ٣٩٩.

حاطب بن بلتعة ٣٠٧، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٤٧٣، ٤٧٤.

الحافظ بن حنان ١١٢.

الحياب بن منذر ٦٩، ١٣٩.

الحجاج بن علاط السلمى ٤١٩، ٤٢٠.

الحجاج بن يوسف الثقفي ١٧.

حجر بن عدي ٥٦٧.

حرب بن أمية ٤٦٦.

حذيفة بن اليمان ٥٧٣.

(715)

حسان بن ثابت ١٠، ٨٣، ٨٤، ٢٠٢، ٢٥٩، ٤٤٣، ٥٧١، ٦٥٤.

الحسن بن إسماعيل ٦٠٣، ٦١٣.

الحسن بن علي (الامام) ١٠٣، ١٠٩، ١١٩، ٤٢٣، ٤٢٥، ٤٦٨، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦١٨.

الحسن بن علي العلوي ٦٢١.

الحسن بن موسى ١٥٥.

الحسمان الخزاعي ٨٨.

الحسين بن علي (الامام) ١٠٣، ١٠٩، ١١٩، ٢٢٩، ٤٢٣، ٤٢٥، ٤٦٨، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦١٨.

الحكيم بن حزام ٧٤، ٧٦، ٢٣١، ٤٨١، ٤٨٢، ٥٣٣.

الحكيم بن كيسان ٣٩.

الحلس بنعلقمة ٣٢٩، ٣٣٠.

حمزة بن عبد المطلب ٢٤، ٣٣، ٣٦، ٤٤، ٧٥، ٧٧، ٧٨، ١٠٨، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٧، ١٨٢، ١٨٦، ٢٦٤، ٤٤٢، ٤٩٠،

٥٠٨.

حنظلة بن ابي سفيان ٧٨، ١٤٨، ١٤٩.

حنظلة (غسيل الملائكة) ٥٧٨.

حويرث بن نقيذ ٤٩٠.

حيي بن اخطب ٢٧، ٢٠٩، ٢١١، ٢٤٨، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦١، ٢٨٣، ٢٩٤، ٢٩٦، ٣٩٤.

- (خ) -

خالد بن اسيد ٤٣٤.

خالد بن ثعلب ١٧١.

خالد بن رياح ١٦٤.

خالد بن سعيد ٥٨٤.

خالد بن الوليد ١٥٢، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٢، ٢١٢، ٢٢٧، ٢٦٢، ٣٤٦، ٤٣١،

(716)

439، 447، 448، 450، 486، 491، 494، 509، 510، 517، 571، 626، 660.

حبيب بن عدي ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٥.

خراش بن أمية ٣٣١.

خزيمة بن ثابت ١٤.

خرخسره ٣٦٦، ٣٦٨.

خسروپرويز ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٧٩، ٦٤٣.

خلاد بن عمرو بن الجموح ١٨٨.

خيثمة ٥٦، ١٤٢.

- (د) -

داود بن قابوس ٤٠٣.

دحية الكلبي ٢٥٦، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٢، ٣٨٢.

دعبل ٤٢٤.

دعثور ١٢٩.

درید بن الصمة ٥١٥.

- (د) -

ذو الخويرة التميمي ٥٣٤.

ذو الفقار ١٧٢، ٣٩٩.

ذو الكلاع الحميري ١٤، ١٥.

- (ر) -

رافع بن مكيب ٤٨٦.

ربيع بن ابي الحقيق ٤٠٢.

ربيعة بن الحارث (ابن) ٦٣٥.

ربيعة بن عبد شمس ٧٦.

رفيدة ٢٩٠.

(717)

- (ز) -

زاذان ٢٢٤.

الزبير بن باطا ٢٥٧، ٢٩٤، ٣٣٣.

الزبير بن العوام ٦٤، ١٥٧، ١٦٤، ١٨٣، ٤٧٣، ٤٨٦، ٤٩٣، ٦٥١.

زهير بن أبي سلمى ٥٣٩.

زهير بن أبي أمية ٦٠.

زهير بن صرد ٥٢٩.

زيد بن أرقم ١١٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٦٥١.

زيد بن حارثة ٣٧، ٩٠، ١٣١، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٩٤، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩،
٤٠٧، ٤٤١، ٤٤٤، ٤٤٧، ٤٥١، ٦٤٢، ٦٦٠، ٦٦١.

زيد بن الخيل ٥٤٤.

زيد بن دثنة ١٩٩، ٢٠٠.

زيد بن سهيل ٢٠٠.

- (س) -

السائب ٣٦.

سراقة بن جعشم ٥٨.

سعد بن أبي وقاص ٣٦، ٤٤، ٦٤، ٨٦، ٤٠٥، ٦٦٠.

سعد بن معاذ ٣٦، ٦١، ٦٣، ٧٠، ١٨٦، ٢١٣، ٢٥٨، ٢٧١، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٢٠، ٣٢١،
٣٢٢.

سعد بن عبادة ٣٦، ١٤٤، ٢١٣، ٢١٤، ٢٥٨، ٢٧١، ٣٢٠، ٣٢١، ٤٩٧، ٥٣٥.

سعيد بن خيثمة ٥٦، ١٤٣، ٥٦١.

سعيد بن زيد ٥٤.

سعيد بن الربيع ١٨٤، ١٨٥.

سفيان الثوري ٢٢٣، ٢٢٤.

سلام بن ابي الحقيق ٢٤٨، ٢٩٦، ٢٩٨.

سلام بن مشكم ١٢٨، ٢١١، ٤١٦.

سلمان الفارسي ١٠٨، ١١٥، ٢٥١، ٢٥٣، ٥٢٢، ٥٢٣.

سلمة بن عمرو بن الاكوع ٣٠١.

سليمان بن سحيم ٤٥.

سليط بن عمرو ٣٨٣.

سليط بن النعمان ١٣١.

سمرة ٦٤٧.

سنان ٣٠٥.

سواد بن غزية ٧٨، ٧٩.

سواده بن قيس ٦٧٨، ٦٧٩.

سواع (صنم) ٥٠٩.

سويد بن صخرة ٤٨٦.

سهيل بن حنيف ١٧٣، ٣١٣.

سهيل بن عمرو ٨٣، ٩١، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٤٠، ٣٤٨، ٤٣٤، ٤٩١.

سيد قطب ٢٢٥.

شاس بن قيس ٢٨٨، ٣٠.

شجاع بن وهب ٣٨١.

شرحبيل ٦٠٢.

شبية بن ربيعة ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٣، ٩٠، ١٧٤.

شبرويه ٣٦٤، ٣٦٨، ٣٦٩.

(719)

(ص)

صفوان بن أمية ٣٨، ١٣١، ١٣٦، ١٩٢، ١٩٩، ٢٢٩، ٣١٧، ٤٣٤، ٤٨٤، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٥٠٥، ٥١٦، ٥٣٣.

(ض)

الضحاك بن خليفة ٥٥٦.

ضرار بن الخطاب ٢٦٣.

ضمام بن عمرو الغفاري ٥٧.

(ط)

طالب ٦٨.

الطاهر ٥٩٧.

طلحة بن أبي طلحة ٥٣، ١٥٦، ١٦٤.

طلحة بن عبد الله ٥٤، ١٦١، ١٧٣، ٥٥٦.

طفيل بن عمرو الدوسي ٥٢٣.

الطيب ٥٩٧.

(٤)

العاص بن هشام ٥٧، ٨٧.

عاصم بن ثابت ١٧٣.

عامر بن الحضرمي ٧٤، ٧٥.

عامر بن الطفيل ٢٠٣، ٢٠٥.

عامر بن مالك بن جعفر ٢٠٤.

عباد بن بشير ٢٢٧، ٤٠٧، ٥٧٢.

عبادة بن الصامت ١٧، ١٢٦.

عباس بن عبد المطلب ٤٨، ٨٠، ٨٢، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ١٣٧، ١٣٨، ٣٠٧، ٤٣٦، ٤٧٧، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٥١٨، ٦٨٦.

(720)

عباس بن مرداس ٤٨٦، ٤٨٨.

عبد الجبار بن أحمد ٩٤.

عبد الحسين شرف الدين (السيد) ٦٣٢.

عبد الرحمن بن عوف ٨٠، ٨١، ٢١٨، ٢٢٣، ٤١٨، ٥٠٩، ٥٨٩، ٦٠٢، ٦٨٣.

عبد الله بن أبي سلول ١٢٦، ١٤١، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٥٠، ١٦٢، ١٦٣، ٢١١، ٢١٢، ٢٨٩، ٣٠٦، ٣٠٩.

٣١٠، ٣١١، ٣١٣، ٣١٧، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٧٠، ٤٧٨، ٤٩٠، ٥٦٢.

عبد الله بن ابي رافع ١٣٥، ٣٣٨.

عبد الله بن ام مكتوم ٥٥.

عبد الله بن بدر ٤٨٦.

عبد الله بن جحش ٣٨، ٣٩، ٤٤، ٧٤، ٤٥٣.

عبد الله بن جدعان ٢٢٢.

عبد الله بن حارثة ٦٤٢.

عبد الله بن حبيب ٢٢٣.

عبد الله بن حجل ١١٥.

عبد الله بن حرد الاسلمي ٥١٦.

عبد الله بن حذافة السهمي ٣٦٥.

عبد الله بن حزام ١٤٩.

عبد الله بن حسن ٤٢٧.

عبد الله بن حميد ١٦٥.

عبد الله بن حنظلة ١٤٩، ٤٨١.

عبد الله بن الخرزج ٣٠٩.

عبد الله بن خبير ١٥٠، ١٥١، ١٥٨، ١٥٩.

عبد الله بن رواحة ٧٦، ٩٠، ٤١٥، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٤٠، ٤٤٦، ٤٤٧.

عبد الله بن الزبيرى ٤٩٠.

عبد الله بن سلام ٢٨، ٢٩.

عبد الله بن سهيل ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩.

عبد الله بن شهاب ١٦٥.

عبد الله بن طارق ١٩٩.

عبد الله بن العباس ١١٥.

عبد الله بن عبد الرحمان الخثعمي ٤٨٩.

عبد الله بن عمر بن الخطاب ١٤٥، ٤١٩، ٤٨٦.

عبد الله بن عمرو ١٨٣، ١٨٨.

عبد الله بن عمرو بن حزام ١٧، ١٨٩.

عبد الله بن عمرو بن العاص ١٧.

عبد الله بن عمرو بن مخزوم ٥٠٩.

عبد الله بن قمنة الليثي ٢٢.

عبد الله بن كعب المازني ٨٥، ١٧٧.

عبد الله بن مسعود ٥٦٧.

عبد الله بن موسى ٤٢٤.

عبد الله بن هاشم ١١٥.

عبد العزيز ٤٢٧.

عبد المطلب ١٠٧، ١٨٢، ٢٠٦، ٢٣٢، ٢٦٤، ٣٠٨، ٣١٤، ٤٧٨، ٥٨٠، ٦١٢.

عبد ياليل ٥٨٣.

عبيد الله بن أبي رافع ٦.

عبيدة بن الحارث ٣٤، ٣٦، ٧٧.

عبيد الله بن بهلول ٦١٢.

عتاب بن أسيد ٥١٣، ٥٣٨، ٥٦٠.

عتبة بن أبي الوقاص ١٦٥.

عتبة بن ربيعة ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٨، ٨٢، ٨٣، ٥٠٨.

(722)

عثمان بن حنيف ٤٢٤.

عثمان بن أبي العاص ٥٨٦.

عثمان بن طلحة ٤٣٨، ٤٩٢، ٤٩٨.

عثمان بن عبد الله ٣٩.

عثمان بن عفان ١٢، ١٣، ٨٨، ١٦٥، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٥٠٥، ٦٠٢.

عثمان بن مطعون ٦٥١.

عدي بن حاتم ١١٥، ٣٥٩، ٥٤٧، ٥٤٩، ٥٥٠.

عروة بن الزبير بن العوام ٦، ١٣٥.

عروة بن مسعود الثقفي ٣٣٠، ٣٣١، ٣٧٤، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٧.

عطاء بن السائب ٢٢٣، ٢٢٤.

عقبة بن أبي معيط ٥٧، ٨١.

عقبة بن الحارث ٢٠١.

عقيل ٩٠، ١٠٨.

عكرمة بن أبي جهل ١٣٦، ١٥٢، ١٦٠، ١٨٠، ٢٦٢، ٤٨٤، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٥٠٥.

العلاء بن جارية ٥٣٣.

علي بن إبراهيم ١٣٧.

علي بن أبي طالب - عليه السّلام - 12، 14، 15، 17، 19، 37، 55، 65، 71، 73، 88، 103، 104، 105، 107، 109، 110،
111، 112، 113، 115، 117، 120، 133، 134، 141، 155، 156، 157، 164، 168، 169، 170، 171، 172، 179،
190، 215، 221، 222، 223، 224، 225، 229، 263، 264، 265، 266، 267، 268، 269، 270، 272، 282، 289،
319، 322، 333، 336، 337، 338، 342، 388، 397، 399، 400، 401، 403، 404، 405، 406، 422، 426، 427،
441، 428

(723)

442، 453، 455، 458، 459، 468، 469، 473، 474، 479، 494، 504، 510، 511، 518، 535، 545، 557، 558،
592، 593، 594، 595، 599، 602، 605، 607، 608، 609، 614، 615، 618، 619، 620، 622، 626، 627، 632،
633، 635، 644، 647، 651، 654، 662، 665، 668، 673، 674، 675، 678، 683، 684، 685، 686.

علي الاحمدي (الشيخ) ٣٥٣، ٣٨٥.

علي بن تقي ٤٢٦.

علي بن الحسين (الامام) ٤٢٣.

علي بن الفاروق ٤٢٧.

علي بن الهلالي ١١٨.

عمار بن ياسر ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ٢٠، ٣٧، ١٠٥، ٢٢٧، ٢٢٨، ٥٧٣.

عمارة ٣٥٠.

عمر بن الخطاب ٦٠، ٦١، ٧١، ٩١، ٩٢، ٩٤، ١١٩، ١٣٤، ١٣٥، ١٦١، ١٦٢، ١٧٥، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٦٩، ٣٠٧، ٣١٠،
٣٣٣، ٣٩٨، ٤١٩، ٤٢٦، ٤٥٦، ٤٧٤، ٤٨٢، ٤٨٣، ٦٣١، ٦٦٠، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٨٣، ٦٨٥.

عمر بن عبد العزيز ١٣٤، ٤٢٧، ٤٢٨.

عمرو بن أمية ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٩٨، ٣٧٥، ٣٨٤، ٤١٢.

عمرو بن الجموح ١٤٧، ١٤٩، ١٧٩، ١٨٣، ١٨٨، ١٨٩.

عمرو بن جحاش ٢٠٧.

عمرو بن حزم ١٥.

عمرو بن الحضرمي ٣٩، ٤٤، ٧٤.

عمرو بن الحمق ١١٥.

عمرو بن سالم ٤٦٥.

(724)

عمرو بن العاص ١٤، ١٥، ١٣٦، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٣٨، ٣٤٦، ٤٣١، ٤٣٨، ٤٤٣، ٤٥٦، ٥٠٩.

عمرو بن عبدود العامري ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٢.

عمرو بن عثمان ٤٢٧.

عمير الفارس ٧٤.

عمير الحمام ٧٩.

عمير بن وهب ٧٣، ١٦١، ٥٠٥.

عيسى بن مريم (النبي) ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٧٠، ٣٧١، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٨٤، ٥٥١.

العيص ٣٥٠.

عبيدة بن حصن الفزاري ٣٠١، ٥٣٠.

- غ -

غالب بن عبد الله ١٢٨.

غافل بن البكير ٥٤٤.

- ف -

الفاكه بن المغيرة ٥٠٩.

فرانسيز فريديناند (الارشيدوق) ١٢٤.

الفخر الرازي ٢٣٨، ٢٤١، ٦٠٥، ٦٠٩.

فرعون ٢٠٠، ٢٩٩، ٣٦٩، ٣٧٠.

فيروز ٣٦٦.

الفضل بن العباس ٢٤٠، ٥١٨، ٥٩٩، ٦٨٤، ٦٨٦.

فهم ٥٣٢.

- ق -

القصواء (الناقاة) ٤٩٢.

القاسم بن رسول الله ٥٩٧.

قيصر ٢٣١، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٥، ٢٦٩، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٧٦، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٧، ٤٤٤.

- ك -

كارليل (توماس) الانجليزي ٤٧٨.

كرزين جابر ٣٧.

كسرى ٣٣١، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٨٧.

كعب بن الاسد ٢٧، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٩١، ٤٦٧.

كعب بن الاشرف ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ٢٩٣، ٢٩٧، ٤٠٢.

كعب بن زهير ١٠، ٥٣٩، ٥٤٠.

كعب بن زيد ٢٠٣.

كعب بن مالك ١٧٨، ٤٤٢، ٥٧٦.

كنان بن الربيع ٤١٠.

- م -

المأمون ٤٢٤، ٤٢٧.

مالك بن أبي ٢١١.

مالك الاشر ١١٥، ٥٦٧.

مالك بن الدخشم ١٨٤.

مالك بن عوف ٣٥٩، ٣٦٤، ٣٧٥، ٥١٥، ٥٢٣، ٥٢٨، ٥٣٢.

مالك بن قيس ٥٦١.

مالك بن نويرة ٥١٢.

محمد بن اسحاق ٦، ١٧١.

محمد بن ابي بكر ١٥٥.

محمد بن أحمد المخزومي ٦٢١.

محمد بن بشارة ٢٢٢.

(726)

محمد بن جرير ١٣٠.

محمد بن عبد الله ٦٠٣، ٦١٢.

محمد بن عمر البغدادي ٦٥٢.

محمد بن سعيد ٧١، ٥٤٣.

محمد بن مسلمة ١٣٣.

محمد بن المطلب الشيباني ٦٠٣، ٦١٢.

محمد بن صدقة العنبري ٦١٢.

محمد بن علي الباقر (الامام) ٢٢٢.

محمد بن معد العلوي ١٦٤، ١٧٧.

محمد الثاني (السلطان) ٣٥٨.

محمد حسين هيكل ٦٧١.

محمد حميد الله (البروفيسور) ٣٥٣.

محمد عادل (الاستاذ) ١١٠.

محمد عثمان كريم ١١١، ١١٨.

محمد الفاتح ٣٥٨.

محمد اليمني (الامير) ٦٥٣.

محمد المهدي (العباسي) ٤٢٧.

محمود شلتوت (الشيخ) ٦٣٧.

محمود بن سلمة ٣٩٣، ٤١٠.

مجاة بن مرارة ٣٨٥.

مجدة بن عمرو ٣٤، ٤٤، ٦٦.

مخرمة بن نوفل ٦٨.

المخيريقي ٢٧، ٢٩.

مربع بن قيض ١٤٦.

مرحب ٤٠٠، ٤٠١.

مرارة بن الربيع ٥٧٦، ٥٧٧.

مرتد بن ابي مرتد ١١٤، ٢٠٥.

مرة بن مروان ٤٠٢.

مروان بن الحكم ٤٢٧.

المستعلی بن المستنصر ٦٥٠.

مسلمة بن اسلم ٢٦٠.

مسيلمۃ الكذاب ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٥٩.

مصعب بن عمير ٥٥، ١٥٥، ١٦٠.

مطعم بن جبیر ١٣٧.

مقداد بن عمرو ٦٠، ٦١، ٦٢، ٤٧٣، ٤٨٦.

معاذ بن جبل ٥١٣، ٥٣٩، ٦٢٥.

معاوية بن ابي سفيان ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ٢٠، ٥١، ٧٧، ٧٨، ٣٣٨، ٤٢٤، ٥٠٧، ٥٣٢، ٥٤١.

مقيس بن صباية الكندي ٤٩٠.

معبد بن أبي معبد الخزاعي ١٩٢، ١٩٣.

معبد بن خالد ٤٨٦.

معقل بن سنان ٤٨٦.

المغيرة بن شعبة ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٤، ٣٧٣، ٣٧٤، ٥٨٤، ٥٨٧.

المقوقس ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٦، ٥٤٢.

مكرز بن حفص ٣٢٩، ٤٣٢.

مناة (صنم) ٥٠٩.

منذر بن عمرو ٢٠٢.

منذر بن محمد ٢٠٥.

ميسرة ٢٢٤.

موسى (النبي) ٢٠، ٦٠، ٦٢، ٢٩٩، ٣٧١، ٣٧٨.

(728)

موسى الهادي بن المهدي ٤٢٧.

- ن -

نائلة (صنم) ٤٩٣.

ناپليون بوناپرت ٣٥٦.

النضر بن الحارث ٨١، ٨٧.

النعمان بن المقرن ٤٨٦.

النعمان بن المنذر ٥٢٩.

نعيم بن مسعود ٢٢٨، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٨٥، ٤٠٧، ٤٨٦.

نميلة بن عبد الله الليثي ٣٨٨.

نوفل بن عبد الله ٢٦٣، ٢٦٦.

- ه -

هارون ٤٢٧.

هاشم بن عتبة ١١٥.

هبار بن الاسود ٤٩٠.

هيل (صنم) ١٦٧، ١٨٠، ٤٩٣.

هرقل ١٥١.

هبيرة بن وهب ٢٦٣.

هلال بن أمية ٥٧٦، ٥٧٧.

هوذة بن علي ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥.

- و -

واقد بن عبد الله ٣٩.

وحشي بن حرب ١٣٧، ١٧٤، ١٧٥، ٤٩٠.

الوليد بن عتبة ٧٦، ٧٧.

الوليد بن عقبة بن ابي معيط ٣١٢.

ويليم مويير (السير) ٣٥٤.

(729)

ياسر ١٥.

يحيى بن عمارة ١٥٥.

يحيى بن معين ٢٢٤.

يزيد ١٧، ٤٢٧.

يزيد بن الخصيب ٤٨٦.

يوحنا بن رؤبة ٥٦٩.

يوشع بن نون ٤٢١.

النساء.:

آمنة بنت وهب ١٣٨.

أسماء بنت عميس ٤٥١، ٦٧٧.

جميلة (بنت عمر) ٥٤٤.

جويرية بنت الحارث بن ابي ضرار ٣١١.

حليمة السعدية ٥٢٩، ٥٣١.

خديجة بنت خويلد ٣، ٩٢، ٩٣، ١١٠، ٢٣١، ٢٣٦، ٣٥٦، ٥٩٧، ٦٨١.

رقية بنت رسول الله ١٠٣، ١١٠، ١١٨، ٥٩٧.

زينب بنت جحش ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٢.

زينب بنت رسول الله ٩٢، ٩٤، ١٠٤، ١٠٩، ١١٠، ١١٨، ٥٤٢، ٥٩٧.

سلمى ٥٤٢.

شيماء بنت الحارث ٥٣١.

صفية بنت حيي بن أخطب (زوجة النبي) ٣٩٤، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١٧.

صفية بنت عبد المطلب (عمة النبي) ١٨٣، ٢٥٩.

عائشة بنت ابي بكر ١١٢، ١١٥، ١١٧، ١٢٢، ٣١٥، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٢، ٦٠٧، ٦٨٢، ٦٨٣، ٦٨٤.

عاتكة ٤٨٨.

عاصية ٥٤٤.

فاطمة بنت أسد ٢٢٩.

فاطمة الزهراء بنت رسول الله ٩٤، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٧،
١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٩٠، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٧، ٤٥٧، ٤٦٨، ٤٩٧، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦١٨، ٦٧٨، ٦٨٠،
٦٨٢.

مارية القبطية (زوجة النبي) ٣١٥، ٣٢٢، ٥٤٢، ٥٩٧.

مريم بنت عمران ١٢٠، ٣٧٦، ٤٤٢.

ميمونة (زوجة النبي) ٤٣٦، ٤٣٧، ٦٧٥، ٦٧٧.

نسيبة المازنية ١٦٥، ١٧٦.

هند بنت عتبة ٦٣، ١٥٤، ١٧٤، ١٨١، ١٨٢، ١٨٥، ١٨٨، ٤٨٩، ٥٠٧، ٥٠٨.

(731)

(٥) فهرس القبائل والأمم

أذرح (قبيلة) ٥٦٩.

أسد (قبيلة) ١٩٦، ٤٧٢.

الأوس (قبيلة) ٩، ١٨، ٢١، ٢٢، ٢٤، ٢٦، ٢٧، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٤٢، ٥٥، ١٣٩، ١٤٦، ١٤٩، ١٥٤، ١٥٥، ٢٠٩، ٢١٤،
٢٢٨، ٢٥٨، ٢٨١، ٢٨٦، ٢٨٩، ٢٩٠.

أيلة (قبيلة) ٢٩٢، ٣٢٠، ٣٢١، ٥٦٩، ٥٧٨.

ثمالة (قبيلة) ٥٣٢.

بنو اسرائيل ٦٠، ٦٢، ٢٥٧، ٢٩٤.

بنو أسد ١٩٧، ٢٥٠.

بنو اشجع ٤٨٦، ٢٥٠.

بنو الأصفر ٥٥٥، ٣٦٢.

بنو أمية ٤٣٤، ٤٢٨، ٤٢٧.

بنو بكر ٤٦٦، ٤٦٥، ١٣٩، ١٣١، ٥٩.

بنو ثعلبة ٢٢٦، ٢٤.

بنو جذيمة ٥١٢، ٥١١، ٥١٠.

بنو جشم ٢٤، ٢٢.

بنو الحارث ٢٤، ٢٢.

بنو الحجاج ٦٥.

(732)

بنو حسن ٤٢٧.

بنو خزاعة ٤٨١، ٤٦٥، ٤٦٤، ٤٦٣، ٣٤١، ٣٣١، ١٩٣.

بنو الزهراء ٤٢٧.

بنو زهرة ٦٨.

بنو ساعدة ٦٧٤، ٥٦٣، ٢٤، ٢٢.

بنو سعد ٥٣٢، ٥٢٩.

بنو سلمة ٧٣.

بنو الشظبية ٢٤.

بنو سليم ١٢٨، ٢٥٠، ٢٥٤، ٣٠٣، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٨، ٤٧٢، ٤٨٥، ٥١٧.

بنو شيبان ٥١٤.

بنو ضمرة ٣٦، ٤١.

بنو عامر ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٧٠، ٣٤٩، ٦٢٣.

بنو العاص ٥٩.

بنو عبد الاشهل ١٨٦، ١٩٢.

بنو عبد الدار ١٥٣، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧.

بنو عبد المطلب ٤٩٩، ٦٤٦.

بنو عبد مناة ١٧٠.

بنو عدى ٣٣٣.

بنو عمرو بن عوف ٢٢.

بنو عوف ٢٢، ٢٤، ٨٠.

بنو غسان ٣٥٩، ٥٥٣.

بنو غطفان ١٢٩، ٢١١، ٢٢٦، ٢٥٠، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٨، ٣٠١، ٣٨٨، ٣٨٩، ٤٠٧، ٥٦٠.

بنو غفار ١٣٨، ٣٠١، ٣٩٤، ٤٧٢، ٤٧٦، ٤٨٦.

بنو فزارة ٢٥٠، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٧٠، ٢٧٢، ٣٨٩.

(733)

بنو قريظة ٢١، ٢٦، ٢٧، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٢، ٢٣٠، ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٨٢،

٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٠٤، ٣٢١.

بنو قينقاع ٢١، ٢٦، ٢٧، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ٢٠٩، ٢٤٨، ٢٨١، ٢٨٩، ٢٩٢، ٣٠٤، ٣٨٦.

بنو كنانة ٥٨، ١٣٧، ١٧٠، ٢٦٣، ٣٤١، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٨٦.

بنو كعب ٤٧٢.

بنو لحيان ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٤.

بنو ليث ٤٨٦.

بنو مالك ٣٢١.

بنو مدلج ٣٧، ٤١.

بنو المصطلق ٣٠٤، ٣٠٥، ٣١١، ٣١٢، ٣١٤.

بنو مرة ٢٥٠، ٢٥٤.

بنو النبيت ٢٢.

بنو النجار ٢٢، ٢٤، ٣٨٩.

بنو النضير ٢١، ٢٦، ٢٧، ١٢٨، ١٣٢، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٤، ٢١٥، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٨١، ٢٨٨، ٢٨٩،

٢٩٣، ٣٠٤، ٣٨٦، ٤١٠.

بنو مزينة ٤٨٦.

الخرزج (قبيلة) ٩، ١٨، ٢١، ٢٧، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٤٢، ٥٥، ١٣٩، ٢١٤، ٢٤٥، ٢٥٨، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٩، ٢٩٢، ٣٠٢، ٣٢١،

٣٨٧، ٣٨٩، ٤٩٧، ٥٧٨.

بنو وائل ٢٤٧.

تميم (قبيلة) ٤٧٢، ٥٦٠.

ثقيف (قبيلة) ١١، ٣٧٣، ٣٧٤، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٩، ٥٢١، ٥٢٤، ٥٢٥،



587. ،585 ،584 ،582 ،533 ،532 ،527 ،526

جذام (قبيلة) ٥٥٣.

جرباء (قبيلة) ٥٦٩ ، ٥٧٠.

جهينة (قبيلة) ٤٧٢.

خزاعة (قبيلة) ١٣٩ ، ٣٠٤ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧.

دوس (قبيلة) ٥٢٣.

ربيعة (كذاب) ٦٥٨.

سلمة (قبيلة) ٥٣٢.

سويلم (قبيلة) ٥٥٦.

طي (قبيلة) ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٧ ، ٥٦٠.

لحم (قبيلة) ٥٥٣.

فهم (قبيلة) ٥٣٢.

قريش (قبيلة) ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ،

٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ١٢١ ، ١٣١ ،

١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ،

١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٤ ، ١٨١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ،

٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٠٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ،

٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ،

٣٧١ ، ٣٧٤ ، ٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٤٠٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٨ ،

٤٥٣ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ،

(735)

485، 488، 489، 491، 495، 501، 514، 526، 542، 616، 629، 657.

قيس (قبيلة) ٤٧٢.

بنو هاشم ٦٨، ٨٠، ١٥٥، ٢٣٢، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٩٩، ٦٤٦.

هوازن (قبيلة) ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢٩، ٥٣١، ٥٣٢.

ولد إسماعيل ٢٥٧، ٣٢٥.

(736)

(٦) الكنى والألقاب

«الكنى»

الرجال

أبو الاسود الدولي ١١٢.

أبو أيوب الانصاري ١١٨، ٤١٧.

أبو البيات ٤٠٣.

أبو البحتري ٨٨، ١٥٥.

أبو البراء العامري ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥.

أبو بكر بن أبي قحافة ٦٠، ٦١، ٩٤، ١٠٤، ٣٣٠، ٣٩٦، ٣٩٨، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٥٥، ٤٥٦، ٥١١، ٥١٢، ٥٢٤، ٥٦٣، ٥٨٤،

٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٤، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٤، ٦٦٠.

أبو بكر الجوهري ٦٧٠.

أبو بكر بن حزم ١٣٤، ٥٥.

أبو بصير ٣٥٠، ٣٤٩، ٣٤٨.

أبو تراب ٤٠٥.

أبو جعفر البصري ٩٤.

أبو جعفر المنصور ٤٢٧.

أبو جنبل ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٨.

أبو جهل ٣٣، ٣٤، ٦٨، ٦٩، ٨٣، ٨٨، ١٣٦، ١٧٣، ١٧٤، ٢٦٣، ٤٨٤، ٥٤٤.

(737)

أبو جهم العبدي ١٦٢.

أبو حاتم ٢٢٤.

أبو حارثة ٦٠١، ٦٠٢، ٦١٠، ٦٨٠.

أبو الحسن ٩٤، ١٠٤، ٤٠٨.

أبو الخير الحاكمي ١١٤.

أبو الحقيق ٣٩٤.

أبو حمراء بن سفيان ١٧١.

أبو الخير ٢٦٥.

أبو دجانة الانصاري ١٥٣، ١٥٤، ١٥٧، ١٦٥، ١٧٣، ١٧٩، ٢١٣.

أبو ذر الغفاري ٤٨٦، ٥٦٥، ٥٦٧.

أبو رافع ٨٩، ٩٠، ١١٥، ١٣٥، ١٧٠، ٤٣٧.

أبو ريحة ٤٨٩.

أبو سعيد بن خيثمة ١٤٨.

أبو سعيد السجستاني ٦٥٢.

أبو سفيان بن الحارث ٤٧٨، ٥١٨.

أبو سفيان ١٥، ٣٦، ٣٧، ٥٣، ٥٧، ٦١، ٦٦، ٦٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٣،
١٥٧، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٧٤، ١٨٠، ١٨١، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٠، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٦٦، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٣٠٧، ٣٣٣،
٣٣٨، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٩، ٤٧٢، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧،
٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٧، ٤٩٨، ٥٠٨، ٥١٤، ٥١٧، ٥١٨، ٥٣٣، ٥٤٤، ٥٨٧، ٦٤٤.

أبو سلمة ٣٧، ١٩٧.

أبو الشعثاء بن سفيان ١٧١.

أبو طالب ٩٠، ٣٣٣، ٣٥٦، ٤٤٢، ٤٨٥، ٤٩٢، ٥٠٤.

(738)

أبو طلحة ١١٨.

أبو العاص ٨٢، ٩٣، ٩٤، ١٠٩، ١١٨، ٥٤٢.

أبو عامر ١٤٨، ١٥٤، ٢٥٠، ٥٧٨، ٥٧٩.

أبو العباس السفاح ٤٢٨.

أبو عبيدة الجراح ١٦٥، ١٦٩، ٦٨٦.

أبو العرفان الحبان ٦٥٣.

أبو عزيز ٨٧.

أبو عزة الجمحي ٨٢، ١٩٤.

أبو عمرة ١١٥.

أبو العلاء الهمداني ٦٥٢.

أبو الفضل ٤٨١، ٤٨٨، ٦١٢.

أبو لبابة ٥٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨.

أبو لهب ٥٧، ٨٩، ٤٧٨.

أبو المفضل ٦٢١.

أبو موسى الأشعري ٥٢١.

أبو نائلة ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥.

أبو واقد الليثي ٤٨٦.

أبو الوليد ٧٤، ٧٦.

النساء:

ابنة حاتم الطائي ٥٤٩.

أم أنس (بن مالك) ١١١.

أم أيمن ٤٢٥، ٤٢٦.

أم حبيبة ٤٦٧.

أم سلمة ١٠٨، ١١٧، ٢٨٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠.

أم سليم بن ملحان ٥٢٠.

أم عامر ١٧٣.

أم الفضل ٨٩، ٤٣٦.

أم كلثوم بنت رسول الله ٥٩٧.

أم كلثوم بنت عقبة ٣٥٠.

أم هاني ٥٠٤.

«الألقاب»

الألوسي ٢٣٨، ٢٤١، ٥٩٤.

ابن طاووس (السيد) ٦٠٣، ٦٠٦، ٦١١، ٦٢١.

الافندي صاحب كشف الظنون ٦.

الاميني ١١١، ١٢٠، ٦٤٨، ٦٥٣.

البحراني (المحدث) ٣٢٣.

البخاري ٣١٨، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢.

البخري ٨٠، ٨١.

البروجدي (السيد) ٢١٦.

الترمذي (الحافظ) ١١٢.

التلعكبري ٦٢١.

الثعالبي ٦٥٠.

الجزري الشافعي ٦٥٢.

الحلبي ٣٩٧، ٤٢٦، ٦٠٣.

الحموي (الياقوت) ٦٠١.

الحميدي ٢٢٤.

الخندي (الحافظ) ١٠٩.

الدولابي ١٠٧.

(740)

الدينارية (المرأة) ١٨٧.

الرضي (السيد) ٧٢.

الزمخشري ٦٠٥، ٦٠٧.

السيوطي ٦.

شرف الدين ٦٧١.

الطباطبائي (العلامة) ٢١٦، ٢٤٣، ٦٠٩.

الطبري ٥٢، ٦٠، ٦١، ٧١، ٢٣٩، ٣٣٧، ٤٠٤، ٦٥٢.

الطوسي (الشيخ) ٧، ١٣٧، ٦١١، ٦٢٠، ٦٢١.

كعب الاحبار ٦٨٣.

القندوزي ١٩.

العامري ٣٤٩.

العالمي (الجز) ١٣٨، ٥٢.

العراقي (الحافظ) ١١٢.

العقاد (عباس محمود) ١١٨.

المماقاني ٦٢١.

المجلسي (العلامة) ١٥٧، ١٤٨، ٧٣، ٥٤.

المسعودي ٦١٥.

المطهري (الاستاذ) ٧.

المفيد (الشيخ) ١٥٥، ٢١٤، ٢٩٠، ٤٠١، ٤٥٥.

المقريزي ٦٠، ١٣١، ١٦٧، ٢١٤، ٢١٥، ٢٥٤.

النجاشي ٢٣١، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٨٠، ٤١٢، ٤٤٢، ٦١٢.

النسائي ٦٥٣.

الهيثمي ١١٨.

(741)

الواقدي (صاحب السيرة المتوفى ١٥١ هـ) ٧، ٦١، ٦٣، ١٣٧، ١٣٨، ١٥١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٥، ٢٠٧، ٢٦٣، ٢٧٨، ٢٨٦،

٢٩١، ٣٧٤، ٤٣٨، ٥٦١.

الواقدي (صاحب الطبقات المتوفى ٢٣٠ هـ) ٧.

(742)

(٧)
فهرس الوقائع والايام

الاحزاب (معركة) ٢٣٠، ٢٣١، ٢٤٥، ٢٦١، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٩، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩٣، ٢٩٦، ٢٩٩، ٥٢٢.

بيعة العقبة ٤٥، ٥٩، ٥٠٦، ٥٠٧.

بنو المصطلق (غزوة) ٣١٥، ٣٢١.

تبوك (غزوة) ٤٠٤، ٤٤٥، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٨، ٥٦١، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٩، ٥٨٠،

٥٨١، ٥٨٢، ٦١٣.

حجة الوداع (البلاغ) ٦١٩، ٦٣٨، ٦٥٦.

حمراء الاسد ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥.

الخنق (معركة) ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦،

٢٩٠، ٢٩٣، ٢٩٥، ٣٠٤، ٣٨٧، ٥٢٢.

خبير ٣٥، ١٢١، ١٧٥، ٢١٣، ٢٤٧، ٢٧٠، ٢٨٣، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٤، ٣٩٦، ٤٠٠، ٤٠٢،

٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤.

ذات الرقاع (غزوة) ٢٢٦.

ذات السلاسل (سرية) ٤١٦، ٤٥٤.

صفيين (معركة) ١٤، ١٥، ٤٤٣.

قرقرة الكدر (غزوة) ١٢٨.

مؤتة (معركة) ٤٣٩، ٤٤٣، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٦٨.

(743)

(٨)

فهرس الأماكن والبلدان

آسيا الصغرى ٣٥٧، ٣٦٤.

أحد ٩٠، ١٣٢، ١٣٥، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٥، ١٥٨، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤،
١٦٥، ١٦٨، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٩، ١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٤، ١٩٦،
٢٠٣، ٢٠٦، ٢٢٨، ٢٥١، ٢٥٤، ٢٦١، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٤٥، ٤٥٣، ٤٩٣، ٥٠٨، ٥٧٨.

اديس أبابا ٣٧٥.

الاردن ٢٦٥.

الاسكندرية ٣٦٠.

أبني ٦٦١.

أوريا ٣٥٧.

أوطاس ٥٢١.

إيران ١٣٢، ٢١٦، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٨١، ٣٥٣، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٢.

بئر معونة ٢٠٣، ٢٠٤، ٥٦٣.

باريس ٣٥٢.

البحر الأحمر ٦٤، ٦٧، ٥٦٩، ٦١٥.

البحرين ٣٥٦، ٦٢٣.

(744)

بئر ٣٢، ٣٨، ٤٣، ٤٥، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧١، ٨٠، ٨٢، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٢، ٩٧،
١٢١، ١٢٨، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٩، ٢٠١، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٦٩، ٢٩٣، ٣٠٣، ٤٠٢، ٤٧٢، ٥٠٥، ٥٤٢...

بصرى ٣٥٩.

البصرة ٤١٤.

بغداد ١١٣، ١١٦، ١٦٤، ٤٢٧.

البقيع ١٣٤، ١٣٥.

بكين (عاصمة الصين) ٣.

بلجيكا ١١٨.

البلقاء ٥٥٣.

بيت الله الحرام ٤١، ٤٩، ٣٢٩، ٣٣٩، ٤٣٠، ٤٣٨، ٤٦٤، ٤٩٢، ٥٨٩، ٦٣١، ٦٣٣.

بيت المقدس ٤٢، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٣٤٧، ٣٥٤، ٣٦١، ٣٨١، ٥٨٢.

تبوك ٥٥٢، ٦٤٣، ٦٦٠.

تهامة ٥٠٩.

ثنية أذاخر ٤٩١.

ثنية المرة ١٧.

ثنية الوداع ٥١٣، ٤٤٠، ٥٥٤.

الجزيرة العربية ٤، ١٨، ٢١، ٤١، ٤٨، ٤٩، ١٢١، ٢١٧، ٢٢٦، ٢٥٠، ٣٢٤، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٥٣، ٣٥٦، ٣٦٠،

٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٤، ٣٨٧، ٣٨٨، ٤٣٤، ٤٦٣، ٤٧٨، ٤٩٣، ٥٠٣، ٥٢٣، ٥٢٧، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٥٢، ٥٥٩، ٥٦٨، ٥٧٨،

٥٨٢، ٥٨٩، ٥٩١، ٥٩٣، ٥٩٧، ٦٢٢، ٦٢٨، ٦٤٢، ٦٥٦.

الجحفة ٣٢٧، ٦١٧، ٦٤٧، ٦٥٦.

الجرف ٤٤٠، ٥٥٨، ٦٦٣، ٦٦٤.

الجرانة ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٢، ٥٣٦، ٥٣٧.

الجنند ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣.

الجلان ٣٨١.

الحبشة ١٣٧، ١٤٤، ١٥٦، ١٧٤، ٢٩٨، ٣٥٦، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٨، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٣، ٣٨٨، ٤١٢، ٤٤٢، ٦٧٧.

الحجاز ٤٢، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٦٩، ٤٣٨، ٤٤٢، ٥٠٥، ٥٢١، ٥٢٥، ٥٤٥، ٥٤٧، ٥٤٩، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٨،

٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٥، ٦٠١، ٦٠٢، ٦١٩، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٩، ٦٣٤، ٦٥١، ٦٥٦، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٧٤.

حجر ٥٥٢.

الحجر الأسود ٦٢٠.

الحديبية ١١٨، ٣٢٧، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٧٤، ٣٨٨، ٤٣٠، ٤٦٢، ٤٦٤، ٤٨٣، ٤٨٩.

حزرموت ٦٥٦.

حراء (غار) ٣.

حنين ٥١٦، ٥١٧، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٢.

الحيرة ٣٥٦.

خيبر ٣٥، ٣٩٣، ٤٠١.

دار الندوة ٣٤٥.

دمشق ١٥٥، ١٥٦، ٣٨١.

ذو الحليفة ٣٢٦، ٦٢٩.

ذو طوى ٤٩٠.

الرملة ٦٦١.

رابع ٦٤٦.

الرجيع ٣٨٩، ٣٩٣.

روضة الخاخ ٤٧٣.

زمزم (بئر) ٨٣، ٤٩٤.

سطح (قلعة) ٣٩٠.

سقيفة بني ساعدة ٦٧٤.

سورية ٥٦٩، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٥، ٦٦١.

الشام ١٤، ١٥، ١٦، ٣٧، ٤١، ٤٧، ٥٠، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٦٧، ٦٨، ١٢٠، ١٢٥، ١٣٦، ١٣٩، ١٦٢، ١٦٥، ١٧٥، ٢١٣، ٢٤٧،
٣٠٠، ٣٠١، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٥٠، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٨٦، ٤٢٣، ٤٣٣، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٦٤، ٤٧٥،
٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٦٦، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧٣، ٥٧٨، ٦١٥، ٦٤٣، ٦٥٦، ٦٦٠، ٦٦١.

الشق (حصن) ٣٩٠، ٤٠٧، ٤٠٨.

الصفا (جبل) ٤٣٤، ٤٣٥، ٦٣٠.

الصفراء ٨٧.

صفين ١٤، ٣٣٨.

الصين ١٢٦.

الطائف ٣٨، ٤١، ٤٤، ١٧٥، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٣٢، ٥٤٠، ٥٧٨، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٧، ٦٧٨.

طهران ٧.

طيسفون ٣٦٤.

الطهران ٤٣٢، ٤٨٠.

العراق ١٥، ١٢٥، ١٣٦، ٣٥٧، ٦١٦، ٦٧٤.

(747)

عرفات ٦٢٩، ٦٣٦.

عسفان ٣٠٠.

عسقلان ٦١٦.

العقبة ٥٧٣.

عكاظ (سوق) ٢٣١.

فدك ٩٤، ٤٢١، ٢٤٦، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨.

فرنسا ١٢٦.

فلسطين ٦٤٢، ٦٥٩.

القادسية ٥٥٠.

القاهرة ٢٤١.

قبا ٥٧٩، ٦١٦.

قسطنطينية ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٤، ٥٥٣.

قم ١٣١، ٢١٦.

القموص (حصن) ٣٩٠، ٣٩٤، ٤٠٩.

الكنيد ٤٢٦.

كربلاء ٤٢٣.

الكلبة المعظمة ٤٧، ٥٠، ٥١، ٥٣، ٢٠١، ٣٢٤، ٤٣٤، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٣٩، ٥٨٩، ٦٣٠.

الكوفة ٤٢٦.

لبنان ٧.

لندن ٧.

المدائن ٣٦٤.

المدينة ٥، ٦، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٨، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٣١، ٣٢، ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٤٢، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥١،
٥٢، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧١، ٧٧، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩١.

(748)

93، 121، 122، 126، 127، 128، 129، 131، 132، 133، 134، 135، 136، 139، 140، 141، 142، 144، 145،
146، 148، 150، 151، 154، 155، 156، 171، 174، 175، 176، 185، 186، 188، 189، 191، 192، 193، 196،
197، 199، 200، 201، 202، 203، 204، 205، 206، 207، 208، 211، 213، 227، 228، 246، 248، 250، 251،
254، 255، 256، 259، 260، 271، 272، 278، 279، 281، 282، 286، 288، 289، 292، 293، 296، 298، 300،
301، 302، 304، 306، 308، 313، 314، 315، 317، 318، 325، 327، 339، 344، 345، 348، 349، 350، 358،
372، 376، 379، 380، 381، 382، 383، 386، 387، 389، 410، 412، 418، 421، 424، 431، 435، 436، 438،
440، 446، 448، 450، 452، 453، 454، 455، 456، 458، 466، 467، 468، 473، 476، 477، 488، 492، 514،
522، 536، 537، 540، 542، 543، 545، 547، 549، 553، 554، 557، 558، 559، 560، 561، 562، 565، 568،
569، 572، 573، 575، 576، 578، 579، 581، 583، 584، 589، 592، 602، 605، 606، 610، 615، 616، 617،
619، 620، 623، 629، 643، 644، 646، 656، 660، 661، 664، 667، 674، 680، 681، 686.

المروة (جبل) ٤٣٤، ٤٣٥، ٦٣٠.

المسجد الاقصى ١١٣.

(750)

وادي الرمل ٤٥٥.

وادي ذفران ٥٧، ٥٨.

وادي القرى ٣٥، ١٢١، ١٣٩، ٣٨٦، ٤١٨، ٤٢١، ٤٣٩.

وادي اليابس ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧.

يثرب ٩، ١٧، ٢١، ٢٢، ٢٥، ٢٧، ٤٢، ٦٦، ٧٣، ١٢١، ١٤٠، ٢٠٩، ٢٥١، ٢٤٧، ٢٤٨.

اليرموك ٣٨١.

اليمامة ٣٥٦، ٣٨٤، ٦٢٣، ٦٥٧، ٦٥٨.

اليمن ١٧٥، ٣٣٥، ٣٥٧، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٨١، ٣٨٢، ٥٠٥، ٥٠٩، ٥٣٩، ٥٤٩، ٦٠١، ٦١٣، ٦١٩، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥.

٦٢٦، ٦٣٢، ٦٣٧، ٦٤٣، ٦٥٦، ٦٥٩.

(751)

(٩)

فهرس المذاهب والأديان ونظم الحكم

الامامية (الشيعة) ١٧٢، ٦١٢، ٦٦٠.

الروم (الامبراطورية الرومية) ٢١، ٩٣، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٩، ٣٧٣، ٣٧٦، ٣٧٩.

٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٧، ٤٣١، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٦٤، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٦٨، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٨١، ٥٨٢، ٦٠٢.

٦٣٢، ٦٤٢.

الساسانيون ٣٥٧، ٣٦٤.

السنة (أهل) ١٧٢، ٤٢٣، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٧.

الصابئون ٥٥٠.

العباسيون ٤٢٧، ٤٢٨، ٥٤١.

الغساسنة ٣٨٢، ٣٨٣.

الفاطميون ١١٨، ٣٣٨، ٤٢٧.

الفرس ٩٣، ٣٥٧، ٣٥٨، ٥٧٥، ٦٤٣.

القيصرية (الروم) ٦٤٣.

المستشرقون ٤٢، ٤٣، ٤٦، ١١٠، ١٤٧، ١٦٠، ٢٠٣، ٢٣٠، ٢٣٨، ٣٤١، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٩٦، ٤١١، ٤١٤، ٤٧٨،

٥٠٦، ٥٨٨، ٥٨٩.

النصارى (المسيحيون) ٤، ٢٨، ١٢٠، ٢٣٩، ٢٤٠، ٣٠٤، ٣٥٢، ٣٦٤، ٣٧١، ٣٨٠، ٤٠٥، ٤١٥، ٤٤٢، ٥٤٧، ٥٥٢، ٥٥٩،

٥٧١، ٥٧٨، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦١٠، ٦١٩، ٦٢٩، ٦٤٢، ٦٤٣.

(752)

اليهود ١٨، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٩، ٤٣، ٤٥، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٨٢، ٨٨، ١٢١، ١٢٢،

١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٢، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٥، ١٤٦، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ١١٢، ٢١٤، ٢١٥،

٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩،

٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٤، ٣٢١، ٣٧٧، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦،

٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠٢، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢١، ٤٢٩، ٤٣٨،

٤٤٢، ٥٢٣، ٥٥٦، ٥٧٨، ٦٦٠.

(753)

(١٠)

فهرس الموضوعات العلمية المبحوثة ضمناً

- 2- دور المساجد في الإسلام ٩
- 3- خطأ المستشرقين في تفسير المناورات العسكرية ٤٢
- 4- كرامة علمية لرسول الله في مسألة القبلة ٥١
- 5- أهمية الزواج في الإسلام ومشاكل الزواج المعاصرة وعلاجها ١٠٠
- 6- المستشرقون والاساءة إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في قصة زينب ٢٣٧
- 7- عالمية الرسالة المحمدية ٣٥٤
- 8- فدك وحكم الاراضي المفتوحة بلا قتال ٤٢٢
- 9- نوعية علم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالمغيبات ٥٦٤
- 10- مكافحة الإسلام للخرافة ٥٩٩
- 11- الخلافة من منظار السنة، والشيعة ٦٣٩
- 12- الارتباط بالارواح في ضوء مكالمة أهل البقيع ٦٦٥

(754)

(١١) فهرس المصادر

(أ)

- 1- الآثار الباقية للبيروني
- 2- الأبطال لتوماس كارلايل
- 3- أبو طالب مؤمن قريش للخنيزي
- 4- الإتحاف للشبراوي

- 5- الإحتجاج للطبرسي
- 6- إحياء العلوم للغزالي
- 7- أخبار إصفهان لأبي نعيم الإصفهاني
- 8- الإخبار الطول للدينوري
- 9- الإرشاد للمفيد
- 10- إرشاد الساري للقسطلاني
- 11- از پرويز تاجنكيز لتقي زاده
- 12- الاستغاثة لأبي القاسم الكوفي
- 13- الاستيعاب لابن عبد البر
- 14- أسد الغابة لابن الاثير الجزري
- 15- الاسفار الاربعة لصدر الدين الشيرازي
- 16- اسلام وجاهليت (بالفارسية) للنوري
- 17- الاشارات والتنبيهات لابن سينا
- 18- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر

19- أصلات روح (بالفارسية) لصاحب الدراسة

20- الاصنام للكلبي

21- اعلام النساء لكحالة

22- إعلام الورى بأعلام الورى للطبرسي

23- أعيان الشيعة للسيد محسن العاملي

24- الأغاني للراغب الاصفهاني

25- الاقبال لابن طاووس

26- الامالي للطوسي

27- الامالي للصدوق

28- الامامة والسياسة لابن قتيبة

29- إمتاع الاسماع للمقرئزي

30- الاحوال لابن سلام

31- الانجيل

32- أنيس الاعلام لفخر الإسلام

33- اوائل المقالات للمفيد

34- ايران در عهد ساسانيان (بالفارسية) ارتوكريستن سن

(ب)

35- بحار الانوار للمجلسي

36- البداية والنهاية لابن كثير

37- برهان رسالة (بالفارسية) صاحب الدراسة

38- بلوغ الادب في معرفة احوال العرب للألوسي

(ت)

39- التاج الجامع للأصول لناصر

40- تاريخ اجتماعي ايران (بالفارسية) لجماعة من المؤلفين

41- تاريخ الامم الملوك للطبري

(756)

42- تاريخ بغداد للبغدادي

43- تاريخ تمدن ايران در عهد ساسانيان (بالفارسية) لذبيح الله صفا

44- تاريخ الخلفاء للسيوطي

45- تاريخ الخميس للديار بكري

46- تاريخ سني ملوك الارض والانبياء لحمزة الاصفهاني

47- تاريخ العرب لفيلب

48- تاريخ علوم وادبيات در ايران (بالفارسية) لصفاء

49- تاريخ القرآن للزنجاني

50- تاريخ اليعقوبي لليعقوبي

51- تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام للمصدر

52- تحرير الاحكام للعلامة الحلي

53- التحرير للنووي

54- تحف العقول لابن شعبة الحراني

55- تحفة الاجلة في معرفة القبلة للكابلي

56- تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي

57- التراتيب الادارية للكتاني

58- الترغيب والترهيب للمنذري

59- تفسير أبو الفتوح الرازي

60- تفسير البرهان للبحراني

61- تفسير التبيان للطوسي

62- تفسير روح المعاني للألوسي

63- تفسير صحيح آيات مشكلة (بالفارسية) صاحب الدراسة

64- تفسير الدر المنثور للسيوطي

65- تفسير الطبري للطبري

66- تفسير مفاتيح الغيب للفخر الرازي

(757)

67- تفسير الكشاف للزمخشري

68- تفسير العياشي للعياشي

69- تفسير فرات الكوفي لفرات الكوفي

70- تفسير في ظلال القرآن لسيد قطب

71- تفسير القرطبي للقرطبي

72- تفسير القمي للقمي

73- تفسير مجمع البيان للطبرسي

74- تفسير المنار لعبدہ - رشيد رضا

75- تفسير الميزان للطباطبائي

76- تفسير نور الثقلين للحويزي

77- التقريب للحافظ العراقي

78- تقييد العلم للبغدادي

79- التنبيه والاشراف للمسعودي

80- تنقيح المقال للمامقاني

81- التوراة

82- تهذيب الأصول لصاحب الدراسة

83- تهذيب الاسماء واللغات للنووي

84- تهذيب التهذيب للعسقلاني

(ث)

85- ثمار القلوب للثعالبي

(ج)

86- جغرافياى كئشورهاى اسلامى (بالفارسىة) الفقيهى

87- جمهرة خطب العرب لصفوة

(758)

ح)

89- حجة الذهاب إلى ايمان ابي طالب لفخار بن معد

90- حلية الاولياء لابي نعيم الاصفهاني

91- حياة محمد لهيكل

خ)

الخرائج والجرائج للراوندي

92- الخصائص للنسائي

93- الخصال للصدوق

د)

94- دائرة المعارف وجدي

95- در مكتب وحى لصاحب الدراسة

96- الدرجات الرفيعة للسيد علي خان المدني

97- الذريعة إلى تصانيف الشيعة لأغا بزرك الطهراني

98- ديوان أبي طالب

ذ)

99- ذخائر العقبى للطبري

(ر)

100- رسالت بزرك (بالفارسية) لصاحب الدراسة

101- رجال الشيخ الطوسي

102- الروض الانف للسهيلي

103- روضة الكافي للكليبي

104- روضة المتقين للمجلسي

105- الرياض النضرة لمحبة الدين الطبري

(ز)

106- زاد المعاد لابن القيم

(759)

(س)

107- سفينة البحار للقمي

108- السقيفة (كتاب) لابي بكر الجوهري

109- سنن البيهقي للبيهقي

110- سيرة الملاني لعمر بن محمد

111- السيرة النبوية لابن هشام

112- السيرة النبوية لدحلان

113- السيرة الحلبية للحلي

(ش)

114- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد

(ص)

115- صحيح البخاري للبخاري

116- صحيح الترمذي للترمذي

117- صحيح مسلم لمسلم

118- الصحيفة السجادية للامام السجاد - عليه السّلام -

119- الصواعق المحرمة للهيثمي

(ط)

120- الطبقات الكبرى لابن سعد

121- عبقات الانوار لمير حامد

122- عدة الاصول للطوسي

123- العقد الفريد لابن عبد ربه

124- علل الشرائع للصدوق

125- عمدة الطالب لابن المهنا

126- عيون اخبار الرضا للصدوق

(760)

127- عيون الاثر لابن سيد الناس

128- عيون المجالس

(غ)

129- الغارات للتقفي

130- الغدير للاميني

(ف)

131- فتوح البلدان للبلاذري

132- فتوح الشام للواقدي

133- فرائد السمطين للجويني

134- الفصول المهمة لابن الصباغ

135- الفهرست للنجاشي

136- الفهرست لابن النديم

(ق)

137- القاموس المحيط للفيروز آبادي

138- قرب الاسناد للحميري

139- قرة العيون المبصرة للحنفي

(ك)

140- الكامل في التاريخ لابن الاثير

141- الكافي اصولاً وفروعاً للكلييني

142- كشف الظنون لخليفة

143- كشف الغمة للاربلي

144- كشف المراد للعلامة الحلي

145- كشف اليقين للعلامة الحلي

146- كفاية الطالب للكنجي

(761)

147- كنز الفوائد للكراكي

148- كنوز الحقائق للمناوي

149- كنوز الدقائق للمناوي

(ل)

150- اللئالي المصنوعة للسيوطي

151- لسان الميزان لابن حجر

152- اللوامع الالهية للفاضل المقداد

(م)

153- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي

154- المباهلة (كتاب) لابي المفضل الشيباني

155- المبدأ والمعاد للملا صدرا

156- المحجة البيضاء للفيض

157- مجالس ابن الشيخ للطوسي

158- المجالس للمفيد

159- المحاسن والمساوى للبيهقي

160- المحرر لمحمد بن حبيب

161- مروج الذهب للمسعودي

162- المراجعات لشرف الدين

163- المسند لابن حنبل

164- المستدرک على الصحيحين للحاكم النيسابوري

165- مصباح الظلام للدمياطي

166- مصباح المتهدد للطوسي

167- معالم العترة للجنابذي

168- معجم البلدان للحموي

169- المفصل في تاريخ العرب للدكتور جواد علي

(762)

170- مقتل الخوارزمي للخوارزمي

171- المغازي للواقدي

172- مفاهيم القرآن لصاحب الدراسة

173- مقاتل الطالبين لابي الفرج الاصفهاني

- 174- مقدمة ابن خلدون
- 175- مكاتيب الرسول للأحمدي
- 176- مكارم الاخلاق للطبرسي
- 177- الملل والنحل للشهرستاني
- 178- من لا يحضره الفقيه للصدوق
- 179- مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب
- 180- المناقب للخوارزمي
- 181- مناهل العرفان للزرقاني
- 182- المنتقى لابن تيمية
- 183- منهاج السنة لابن تيمية
- 184- المواهب اللدنية للقسطلاني
- 185- المواقف للابجي
- 186- الموسوعة العربية الميسرة لجماعة من المؤلفين
- 187- ميزان الاعتدال للذهبي
- ن(
- 188- ناسخ التواريخ لسبهر
- 189- نزهة المجالس للصفوري
- 190- النص والاجتهاد للسيد شرف الدين

191- النهاية لابن الاثير

192- نهج البلاغة للشريف الرضي

193- نور الابصار للشبلنجي

(763)

(و)

194- الوثائق السياسية للبروفيسور حميد الله

195- وسائل الشيعة للحر العاملي

196- وفاء الوفاء للسهمودي

197- وفيات الأعيان لابن خلكان

198- وقعة صفين لابن مزاحم

199- الولاية في طرق حديث الغدير للطبري

(هـ)

200- الهدى إلى دين المصطفى للبلاغي

(ي)

201- ينابيع المودة القندوزي